

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

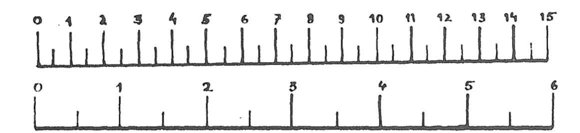
تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1937

Volume 1

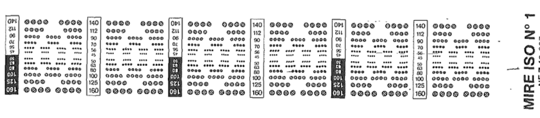

الروايات

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx9

A.C.R.P.P



graphicom 338 57 70

MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE



تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر ونصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الأول ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٥ — أول فبراير سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العــــدد

الرواية

إلى الذين ملكهم الجمال ولم يملكوا الأبانة عن آثاره ؛
إلى الذين تيمهم الحب ولم يحسنوا العزف على قيثاره ؛
إلى الذين شاقهم الأدب ولم يستطيعوا النفوذ إلى أسراره ؛
إلى الذين اعتقلهم الهم ولم يجدوا الفكاك من إساره ؛
إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذه المجلة . وما هى إلا نفحة من الشعور الانسانى الرهيف ، ولمعة من البيان الروحى المشرق ، ستتلاقى عندها الأذواق السليمة ، وتتعارف عليها المشاعر الكريمة ، وتتآلف بها عبقرية الشرق وعبقرية الغرب .

والله وحده هو العليم بما نكابد فى سبيلها وفى سبيل أختها من العناء والإيثار والجهد . وفى سبيل الأدب كل أذى يحتمل ؛ وفى حب العربية كل بذل يعوّض ؛ وفى خدمة الوطن كل صعب يهون .

أحمد حسن الزيات





للكاتب الفرنسى جى دموباسان

بقلم أحمد حسن الزيات

كان الأب مارنيان يحمل اسمه الحربى [1] عن جدارة . والأب مارنيان قسيس كبير [2] متعصب ضاوى الجسم ثائر النفس ، إلا أنه مستقيم خيّر . ثابت العقيدة لا يتذبذب ، صادق الايمان لا يشك ، وهو يعتقد مخلصاً أنه يعرف الله ويستبطن أسرار حكمته وأغراض مشيئته . كان إذا سار أحياناً بخطاه الواسعة فى ممشى مسكنه الريفى الصغير ونظر فى الشىء بعد الشىء ، قام فى ذهنه هذا السؤال : « لماذا خلق الله هذا ؟ » ثم يبحث عن الجواب ويلح فى البحث ، متخذاً بفكره لنفسه مكان الله حتى يجد ، وغالباً ما كان يجد . فليس هو الذى يغمغم فى سورة من التقى الخاشع بهذه الجملة : « مولاى ! لقد جلت مقاصدك عن عقول الناس ! » وإنما يقول : « أنا خادم الله فيجب أن أعرف علل تدبيره وحِكَم تصرفه ، إن لم يكن على وجه اليقين ، فعلى وجه الحدس والتخمين » . ففى رأيه أن كل شىء فى الطبيعة إنما خُلق على مقتضى نظام عجيب ومنطق مسلّم ، فـ(لماذا) و(لأن) يتعادلان دائماً فى ميزان عقله . فالفجر يبزغ ليستيقظ الناس فى مسرته وبهجته ؛ والنهار يَضْحى ليَيْنَع الثمر وينضج الحصيد ؛ والمطر يهمى لتحيا الأرض وترتوى الزروع ؛ والمساء يقبل ليأوى الناس إلى المضاجع ؛ والليل يحْلولك ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الكرى ؛ والفصول الأربعة إنما تنطبق كل الانطباق على حاجات الزراعة . وهيهات أن تداخل القسيس شبهة فى أن الطبيعة لا غرض لها ، وأن كل حى فيها إنما يخضع لضرورات الوقت والاقليم والمادة . ولكنه كان يكره المرأة ؛ يكرهها من وراء وعيه ، ويحتقرها بمحض غريزته . وكان كثيراً ما يردد قول المسيح : « أيتها المرأة ،

---

(١) كانوا فى الزمن الغابر يلقبون الجندى حين دخوله فى الخدمة بلقب . ومارنيان لقب هذا القس اسم مدينة إيطالية تقع فى الجنوب الشرقى من ميلانو . وقد انتصر فيها الفرنسيون على سويسرة سنة ١٥١٥ وعلى النمسا سنة ١٨٥٩ .

(٢) كبير (grand) لقب كان يعطى للأولين الممتازين فى طبقتهم من المعلمين والكهنة والسادة الخ .

هل بينك وبيني شركة ؟ » ثم يعقب على هذا بقوله :
« كأن الخالق نفسه ساخط على هذا المخلوق ! »

... هي في رأيه الطفلة التي غشيها الدنس اثنتي عشرة مرة كما زعم الشاعر ؛ وهي التي أغوت الانسان الأول ولا تزال تواصل عملها المهلك في بنيه ؛ وهي الكائن الضعيف الخطر الذي يكدر صفو العالم في علن وخفية . ولقد كان يبغض روحها الجذاب أكثر مما يبغض جسدها المهلك ؛ وكان كثيراً ما ينسم عليه حنان المرأة فيتغيظ من عاطفة الحب التي تعتلج دائماً في نفسها ، وإن كان هو في حصن منيع من تأثيرها . وهو يرى أن الله لم يخلق المرأة إلا فتنة للمرء ومحنة . فهو جدير بأن يتقيها كما يتقي الشرك ، فلا يدنو منها إلا على حذر . ولعلها أشبه ما تكون بالفخ حين تبسط ذراعيها وتفتح شفتيها للرجل . كان لا يتسع صدره إلا للراهبات ، لأنهن نذرن أنفسهن لله فاعتصمن برعايته . ومع ذلك كان يقسو عليهن لأنه لا ينفك يحس في صميم قلوبهن المغلولة الضارعة ذلك الحنان الأبدي الذي يدرك — وهو قسيس — أثره في نفسه . كان يحس ذلك الحنان في نظراتهن وهي أشد من نظرات الرهبان اخضلالا بالدمع وابتهالا بالورع ، ويحسه في تجليهن الروحي وقد اختلطت به عواطف جنسهن ، ويجده في نزعات حبهن إلى المسيح ؛ وذلك الحب يوغر صدره بالحنق لأنه يرى فيه حب المرأة وهوى الجسد . يحس ذلك الحنو الملعون في وداعتهن نفسها ، وفي رخامة أصواتهن لدى الحديث ، وفي أطرافهن الغضيضة عند النظر ، وفي دموعهن المستكينة حين يؤنبهن بقسوة على خطأ .

كان إذا ما خرج من ديرهن نفض مسوحه واندفع مهرولا كأنما يفر من خطر . وكأن له بنت أخ تعايش أمها في منزل صغير مجاور ، فكان يحرص كل الحرص على أن يجعل منها راهبة ، ولكنها كانت على ظرفها رعناء ساخرة . كانت تضحك منه إذا وعظ ؛ فاذا غضب عليها قبلته بقوة ، ثم ضمته إلى صدرها بشدة ، فيحاول هو مضطراً أن يتملص من هذا العناق الذي يبعث فيه مع ذلك نشوة السرور العذب بأيقاظه شعور الأبوة الراقد في قرارة كل نفس

كان يحدثها عن الله ويسايرها جنباً إلى جنب في مسالك الحقول فتجعل حديثه دبر أذنيها ، ثم ترسل نظرها في السماء والعشب والزهر وقد تراءت في عينيها سعادة الحياة وزهرة العيش ؛ فاذا رأت فراشة تطير عدت وراءها فقنصتها ثم صاحت : «انظر يا عماه ما أجملها ! إن نفسي تنازعني إلى تقبيلها ! »

هذه الحاجة إلى (التقبيل) البادية في لثمها هوام الطير وحب الشجر ، أزعجت القسيس وهاجت بلابل صدره ، لأنه رأى هنا كما رأى هناك هذا الحنو المتأصل الثابت الذي ينبت دائماً في قلب المرأة . وفي ذات يوم أقبلت امرأة سادن الكنيسة ، وهي مدبرة منزل القسيس ، تخبر الأب مارنيان في حيطة شديدة أن ابنة أخيه عاشقة . !

كان القس يحلق لحيته ففجئه روع الخبر فبهت ووجم ، وترك الصابون على وجهه وأقام ساعة لا يتحرك ولا يطرف . فلما ذهب عنه الدهش وثاب إليه الرشد صاح في وجه المرأة قائلاً : « هذا غير صحيح ! إنك تكذبين يا ميلاني ! »

ولكن المرأة القروية وضعت يدها على قلبها وقالت : «لعنني الله يا مولاي القس إذا قلت في ابنة أخيك الكذب . أقول لك إن لها عاشقاً تخرج إلى لقائه كل مساء بعد أن تنام عين أختك ؛ وإنهما

ليلتقيان على ضفة النهر ؛ وتستطيع أن تراها بعينيك إذا ما ذهبت هناك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

أمسك الرجل عن حلق ذقنه ، وأخذ يمشى و يفنف فى مشيه كدأبه فى ساعات التأمل الخطير . ولما استأنف حلق لحيته جرح نفسه ثلاث مرات فيما بين أنفه وأذنه ؛ وظل طول يومه صامتاً متلدداً وقد انتفخت أوداجه من الغيظ ، وانتسف لونه من الغضب . اجتمع فيه فزع القسيس أمام الحب القاهر ، إلى حنق الوالد ذى الخلق ، والوصى ذى الضمير تمكر به طفلة فتخدعه وتسرقه . أضف إلى هذين وجوم الأنانية الذى يعترى الأهل حينما تعلمهم الفتاة أنها اختارت زوجها دون رأيهم وعلى رغمهم

فرغ من عشائه ثم حاول أن يتلهى قليلاً بالقراءة فلم يستطع ، وأحس بالغيظ تزداد فورته فى صدره . فلما دقت الساعة عشراً تناول عصاه ، وهى هراوة ثقيلة من شجر البلوط يستخدمها دائماً فى جولاته الليلية كلما خرج إلى عيادة مريض . نظر وهو يبتسم إلى العصا الضخمة ، ثم أدارها فى كفه القوية القروية دورات رحوية مهددة ؛ ثم رفعها فجأة ، وهو يحرق الأرم ، وأهوى بها على كرسى فحطمت مسنده . ثم فتح الباب وأراد الخروج ، ولكنه وقف على عتبته مشدوهاً من ائتلاق ضوء القمر ، وهو ضوء لم يشهد مثله قبله أحد . وكان الله قد وهب الأب مارنيان فكراً وثاباً لا يهبه إلا لآباء الكنيسة ولأمراء القريض ، فوقف ذاهلاً متأثراً بجلال الليل الساجى وجمال القمر الشاحب !

كان كل شيء فى حديقته الصغيرة غريقاً فى الضوء اللطيف ، وكانت أشجارها المثمرة فى صفوفها المنظمة ترسم بالظلال على الممشى افنانها الرقيقة المخضارّة ، على حين كانت شجرة زهر العسل المتسلقة على جدار منزله تسطع بالنفحات اللذيذة الحلوة ، فتطيف فى المساء الفاتر الزاهر نوعاً من الأرواح المعطرة

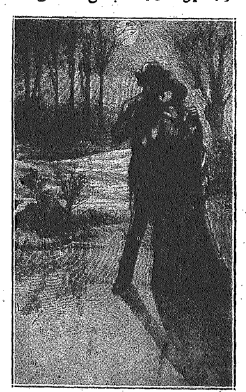
أخذ القسيس يتنفس ملء رئتيه ، ويعب النسيم كما يعب السكير الخمر ؛ ثم مشى وئيد الخطو ، مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، لا يكاد يجرى على باله ذكر ابنة أخيه . فلما صار بين الحقول وقف يتأمل السهل كله وقد غمره سحر الليل البهى وأغرقه ضياء القمر الملاطف

وكانت الضفادع فى كل لحظة ترسل فى الفضاء أناشيدها القصيرة الأيقاع المعدنية الصوت ، والبلابل البعيدة تضيف إلى ضوء القمر أغاريدها المتقطعة التى تهيج الأحلام وتحض على القبل . ثم عاد الأب يمشى وقد أحس فجأة بقلبه ينسرق وبقوته تخور دون أن يعلم لماذا ، وود لو يجلس حيث كان فيتأمل جلال الله ويتملى جمال صنعه !

وهناك على ضفة النهير قام صف عظيم من شجر الحور متعرج مع الساحل ينبعث من خلاله غماغم رقيقة من الأصوات المختلفة ، وفوق الشاطىء الوعر ومن حوله انعقد بخار أبيض قد اخترقته أشعة البدر فلمع وتفضض ، ثم غطى مجرى الماء بما يشبه القطن الرقيق الشف

وقف القسيس مرة أخرى وقد تخللت قلبه رقة نامية لا تقاوم ، ثم تخالجه شك مريب ، واستولى عليه قلق مبهم ، ثم نشأ فى خاطره سؤال من نوع ما كان يلقيه أحياناً على نفسه : « لماذا خلق الله هذا ؟ إذا كان الله قد جعل الليل لباساً ونعاساً فلا هو للشعور ولا للعمل ولا للذكر ، فلماذا جعله

أبهى من النهار ، وألطف من المساء ، وأعذب من الفجر ؟ » ولماذا يشف هـذا الكوكب البطيء الفرّار حجب الظلمات فيكون أقرب إلى الشـمر والسحر من الشمس ؟ وكأنه خُلق رصيناً كتوماً ليضيء للناس أشياء هى أدق على النهار وأخفى ؟ لماذا كان أبرع الطيور المغردة لا تسكن فى الليل كما تسكن الطيور الأخرى ، وإنما تسجع بأغاريدها وسط الظلام المضطرب ؟ لماذا ضرب هذا النقاب الشفاف على وجه العالم ؟ لمـاذا يأخذ القلب هذا الارتجاف ، ويملك النفس هذا الانفعال ، ويعترى الجسم هذا الهمود ؟ لماذا تظهر هذه المفاتن المغرية ما دام الناس ضاجعين فى أسرتهم لا يرونهـا ؟ لمن هـذا المشهد السحرى الجليل وهذا الفيض الشعرى الجميل الذى ينسكب من السماء على الأرض ؟



وحاول القسيس أن يجد لهذه الأسئلة أجوبة فلم يوفق ؛ ولـكنه أبصر هنالك على حواشى المرج المخضوضر ، وتحت قبة الشجر الخائض فى الضباب اللامع ، شخصين يمشيان جنباً إلى جنب . كان شخص الفتى أطول من شخص الفتاة ، وكان الحبيب قد طوق بيده جيد الحبيبة ، وهو من حين إلى حين يقبلها فوق الجبين . فبعث محضر العاشقين الحياة فجأة فى هذا المنظر الهامد ، فـكأنه لاشتماله عليهما وتعلقه بهما إطار صاغته يد الله خاصة لهذه الصورة

كان العاشقان كأنهما كائن واحد ؛ وهذا الـكائن الواحد هو الذى خلق الله له هذا الليل الساكن الساكت ، وقد أقبلا نحو القسيس كأنهما الجواب الحى أرسله الله إليه عن سؤاله

كان القسيس لا يبرح واقفاً وقد اشتد وجيب قلبه ، وزاد اضطراب شعوره ، ولم يبق لديه شك فى أنه يشهد حدثاً من أحـداث التوراة كغرام (روت) و (بوز) ، وأن ما يراه إنما هو قضاء لمشيئة الله أراد أن ينفذه فى هذا الزخرف الفخم الذى تحدثت عنه الـكتب المقدسة . ثم أخذت تدوى فى رأسه آيات (نشيد الأناشيد) بما فيها من صراخ الرغبة ونداء الجسد وحرقة الغزل . فلم يتمالك أن قال لنفسه : « لعـل الله قد خلق هذه الليالى ليجملها لغرام الناس غلالة من الجمال الأعلى ! » ثم نكص على عقبيه أمام هـذين العاشقين المتعانقين وكانا لا يزالان يمشيان !

تلك كانت ابنة أخيـه وذلك كان حبيبها . ولـكنه الآن قد سأل نفسه : ألم يكن على وشك أن يعصى الله ؟ أليس الله قد سمح بالحب ما دام قد أحاطه بمثل هذا السنا الباهر ؟ ثم ولى مدبراً وهو ولهان خزيان كأنما دخل معبداً لا يحق له أن يدخله !

احمد حسن الزيات

الذي يضحك أخيراً ، يضحك كثيراً

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لما جاءني رسول أختي برقعة منها يدعونا فيها — أمي وأنا — إلى قضاء العيد معها لأن زوجها سافر إلى الأسكندرية ، أدركت أن في الأمر شيئاً وأن خلافاً لا بد أن يكون قد شجر بينهما ؛ ولكن دقة إحساسها بالواجب حملتها على البقاء في بيتها بدلاً من أن تجيء هي إلينا . ولم تفت أمي دلالة هذه الدعوة فقد سألتني :

« أتظن أن شيئاً حدث ؟ »

فقلت : « لابد » ؛ فقالت : « أترى أن نسألها ؟ » فهززت رأسي ؛ فليس أكفل بفساد الأمر بين زوجين — في رأيي — من الدخول بينهما

وكان وجه أختي وحده كافياً للارتفاع بالظن إلى مرتبة اليقين . نعم كانت تبتسم ، ولكن ابتسامها كان متكلفاً ، وكلامها أكثر مما ألفنا منها ، وحركاتها أسرع ؛ وكان لونها ممتقعاً حتى لقد احتاجت إلى الأحمر لخديها وشفتيها . وكان الجو بارداً فاحتجنا إلى ما ندفأ به فجاءتنا بموقد صار الفحم فيه جمراً ، لأنها تكره مدفأة الكهرباء أو البترول لشدة تجفيف الكهرباء للجو ، والبترول له رائحة لا تطيقها

وسألتها وأنا أبتسم : « وأين اللعين زوجك ؟ »

وكان لا بد أن أسألها عنه وإلا كان اجتناب ذكره واشياً بالفطنة إلى ما عسى أن يكون قد وقع بينهما . وما دامت هي لم تقل شيئاً فقد يربكها أن تعلم أننا نعلم .



فقالت ببساطة :

« أوه ... أظنه ملنا ... سافر ليبحث مع شريكه أمر هذه الشركة الجديدة التي يريد أن يؤلفها .. إنك تعرفه .. لا يعترف بعيد ، ولا يطيق أن يقعد بلا عمل »

فسرني أنها تكذب لتستر حماقته ، وكنت أعرف أن هذه كذبة لأنه أخبرني بما تم فالأمر مفروغ منه ، ولا حاجة به إلى سفر جديد ، ولكنها لم تكن تدري أني أعرف هذا ، وإلا للجأت إلى كذبة أخرى

وقضينا النهار على خير ما نستطيع ، وإذا بنا بعد العصر نتلقى هذه البرقية :

« اصطدمت السيارة وتحطمت وإصابتي خفيفة ، فهل تستطيعين أن تحضري ؟ سيكرتن سيد بانتظارك بسيدي جابر » « خليل »

فذعرنا جميعاً فقد كان من الواضح أن الحادثة أكبر مما زعم . ولم تستطع أختي أن تضبط نفسها فبكت ؛ وهمت أمي أن تزجرها عن البكاء ، فقلت لها : دعيها فما خلق الدمع للناس عبثاً . فقامت ترتب لها أشياءها في الحقيبة ، وتضع معها ما قد يحتاج إليه زوجها مخافة أن تكون حقيبته قد فقدت في الحادثة ، أو تركت مع السيارة المحطمة

وقلت لأمي : « إذهبي معها وسألحق بكما غداً فإني مضطر إلى البقاء الليلة ، وأبرقوا إلي في الصباح بعد أن تروه ليطمئن قلبي » .

وودعتهما فى المحطة وعدت إلى البيت — بيت أختى — حزيناً كاسف البال موجع القلب ؛ وجلست فى البيت أفكر فى هذا الحظ السيء ، وأسخط على خليل ، وأقول لنفسى : هل كان لا بد أن يصنع هذا الأحمق ما صنع ، وأن يعلن إلى زوجته الجفوة ليلة العيد ؟ ويروح يكسر عظامه أيضاً ويرج زوجته هذه الرجة الشنيعة ؟ . ولكنه إلى فوق جزائه . . . مسكين ! . ومن يدرى ماذا جرى له ؟ ولعله الآن مشف على الهلاك ، وإنها لقسوة أن ألومه . ثم انه كان مثال الزوج الصالح ، ولم تكن سيرته معها قط إلا سيرة المحب الذى لا يعنيه من الدنيا سوى زوجته ، فماذا يا ترى جرى حتى كانت هذه الجفوة المشئومة . . ؟

وإنى لجالس أدخن سيجارة فى أثر أخرى وبى ما يعلم الله من الحزن ، وإذا بخليل داخل كالقنبلة ! فانتفضت واقفاً ، وحدقت فى وجهه مذهولاً وفمى مفتوح كالأبله . فلما رآنى كذلك وقف هو أيضاً وسألنى أول ما سأل : « أين فريدة ؟ »

فأحسست أنى سأسقط على الأرض فانحططت على أقرب كرسى ، ورفعت يدى إلى رأسى . فأقبل علىّ يهزنى بعنف ويقول بصوت عال جداً : « أين فريدة ؟ ... قل ... انطق ... ماذا جرى ؟ »

فحاولت أن أتكلم ، ولكن لسانى وقف فى حلقى فأشرت إلى البرقية المشؤومة وكانت مطوية على المنضدة ، فتناولها مستغرباً ، ولم يكد يقرأها حتى صرخ : « إيه ؟ »

فوجدت لسانى وقلت : « ماذا تظن ؟ ... من أرسل هذه البرقية ؟ »

قال : « لا أدرى ... ولكنها مصيبة ... ماذا نصنع الآن ؟ ... فكر ... فكر ... فقد ضاع عقلى ... فريدة ! من يدرى فى أيدى مَنْ من الأشرار ستقع الآن ؟ »

فقلت : « وأمى أيضاً معها ... رهينتان لا واحدة ياصاحبى »

فقال : « رهينتان ... هل تعنى أنك تعتقد .. »

قلت : « بالطبع ... أى معنى لهذه البرقية غير ذلك ؟ . إنها شرك ... وليس المهم الآن حل اللغز بل السفر وراءها لانقاذها ... لتمنعهما من الوقوع فى أيدى هؤلاء الأشرار كائنين من كانوا »

فقال : « صدقت ... قم بنا »

قلت : « سيارتك لا تصلح لهذا .. ألا تستطيع أن تجد لنا سيارة قوية ... تستعيرها من أى صديق ؟

وفى هذه اللحظة أقبل أخى فتنهدت واستبشرت ، فقد كانت له سيارة جديدة من طراز هدسون تستطيع أن تطير بنا ، فدفعته إلى الباب وسبقته إلى السلم وأنا أناديه وأدعوه أن يسرع ورائى

وكان أخى يكره السرعة فتوليت أنا القيادة وجلس هو وكلبه معه وراءنا ، وجلس خليل معى ، وكان لا بد من التمهل حتى نخرج من المدينة وإلا عطلنا الشرطى ، وكنت كالجالس على الجمر ولكن ما حيلتى ؟ ...

واجتزنا شبرا بعد أن ضاع ربع ساعة ثمين فسألت أخى : « هل الأنوار قوية ؟ » ولم تكن بى حاجة إلى السؤال ، فانى أنا السائق وأمامى مفتاح النور وفى وسعى أن أجرب ، ولكن السؤال جاء دليلاً على مبلغ اضطرابى ... ودليل آخر على هذا الاضطراب هو أننا لم نخبر أخى ما الحكاية فراح يكلم كلبه ويقول له :

« روكسى ... إنه يسأل عن الأنوار هل هى قوية ؟ كأنه لا يعلم ... لا بأس ... هل تظن أن من حقه أن ينتظر جواباً ؟ ... نعم ... الجواب تحصيل حاصل ... بالطبع ... الحق معك ... ثم إنه أرسل النور أمامه وهو يضىء إلى مسافة أميال ... أليس كذلك ... ؟ ولكن إلى أين بنا يا روكسى ؟ ... نعم ؟ ... أتقول إن هذه هى الطريقة الامريكية فى الاستيلاء على السيارات واغتصابها من أصحابها الشرعيين ؟ ... إنها كذلك على التحقيق ... وإنى أراك مصيباً دائماً فى ملاحظاتك يا روكسى .. أوه !! ... تسعون ؟ ... روكسى ... إنه يخطف بنا الأرض ... فهل تظن أنهما ارتكبا جناية ؟ . »

وهكذا وهكذا ...

ولم أكن أستطيع أن أقول له شيئاً لأن عينى على الطريق . وكان خليل يساعدنى فينظر إلى عداد السرعة ويخبرنى بالرقم الذى ترتقى اليه ، وينظر فى الساعة كذلك فيطمئننى أو يزعجنى ، وأخى ماض فى هذره حتى بلغنا بنها . ولم أدخلها بل آثرت أن آخذ طريق سيارات النقل لأنه أقصر وإن كان غير ممهد ، واجتناباً للبطء الذى نضطر اليه فى شوارع المدينة . وبعد أن اجتزنا (الكبرى) الجديد ثم جسر السكة الحديدية — أو الزلقان كما يسمونه — أطلقت للسيارة العنان ، فجعل خليل ينظر ويقول :

« مائة . . مائة وخمسة . . . وعشرة . . . وعشرون . . . وخمس وعشرون . . . إمض إمض . . . لا شىء . . هذه دجاجة . . . »

فقال أخى : « أظنها ذهبت إلى جنتها — جنة الدجاج — قبل الأوان . أتراه سباقاً يا روكسى ؟ »

وبلغت السرعة مائة وثلاثين كيلو ، فلولا أن السيارة كبيرة ومتينة وثابتة لا نقلبت بنا وقتلتنا . ولكن أخى خبير بالسيارات والذى لا يعرفه عنها لا يستحق أن يعرفه أحد . والحق أنها كانت سيارة أصيلة بل هى سيارة وكفى ، ولكن بالى لم يكن فى ذلك الوقت إلى شىء من هذا ، بل إلى ما بقى من الوقت حتى يصل القطار إلى طنطا أو دمنهور ، وإلى مبلغ الأمل فى إدراكه قبل أن يبلغ سيدى جابر

وتأدى إلىّ صوت أخى يقول : « هل تعلم يا روكسى أن اسماعيل مهمل (يعنينى) . . . أموافق أنت ؟ . هذا ما كنت أنتظر . . ولكنه ينقصك أن تعلم لماذا . . أتريد أن أسر إليك يا روكسى بالسبب . . إسمع إذن ولكن لا تخبره . . لقد أردت أن أستعير حقيبته الصغيرة . . أقول لك الحق يا روكسى . . بينى وبينك يا روكسى . . استعرتها فعلاً . . ولكنى وجدت أنه أهمل أن يضع فيها المفتاح ولهذا جئت إلى بيت الأخت لعلى أجده فآخذ المفتاح . . أعرف ما تريد أن تقول فأنك ذكى .. بالطبع لم يكن يُنتظر أن يعطينى المفتاح . . ولكنى كنت سآخذه على كل حال .. أوه ! بطريقة من الطرق . . من غير أن يشعر بالطبع . . »

وقد هممت مرات أن أصيح به ولكنى كبحت نفسى فليس هذا وقت الاختلاف على الحقائب ، ولكنه غاظنى مع ذلك أنه أخذها وهو يعلم أن فيها أشيائى ، فقد كنت أعددتها لرحلة قصيرة فلما جاء رسول أختى عدلت وكان ما كان . . ونويت أن أغتنم أول فرصة تسنح لاستردادها . . بطريقة من الطرق . . كما يقول . . والبادى أظلم

ولم أكن أطمع أن أدرك القطار فى طنطا فلم أستغرب أن أعرف أنه تركها قبل وصولنا بعشر

دقائق ؛ واحتجنا إلى البنزين فضيعنا دقائق أخرى ثم استأنفنا السير بأقصى سرعة لنعوض — سلفاً — التأخير الذى لا بد منه فى كفر الزيات . واعترانى ما يشبه الحمى فلم أعد أبالى كيف أقطع الطريق . وكنت ربما صادفت مركبة ، أو رجلاً على حمار أوجمل ، فأمرق ولا أعنّى نفسى باليمين والشمال . ولم يكن الطريق بعد كفر الزيات على خير ما يمكن أن يكون ، ولكنى لم أحفل ذلك ولم أترفق بالسيارة ؛ وكان أخى يرى هذه السرعة الجنونية — فقد بلغنا أربعين بعد المائة وأصررنا عليها — فيقول لكاتبه :

« أنظر يا روكسى . . إن الخبيث ينتقم منى — أعنى منا فانك شريكى فى كل شىء — لأنى استعرت حقيبته . . من أجلها يريد أن يفجعنى فى السيارة . . أى والله يا روكسى . . فتعال نبك على ما كلفتنا من مال يضيع الآن فى هذه السكة المنحوسة . . ثلثمائة وخمسون جنيهاً خرجت عنها من حر مالى . . وماذا يعنيه هو ؟ . يأخذها بلا استئذان ، وينحينى عن مجلسى فيها ، ويردنى إلى الوراء . . هل هذا يليق يا روكسى ؟ »

ولولا أن خليلاً صاح فى هذه اللحظة : « القطار ! القطار ! سنسبقه يا اسماعيل ! سنسبقه بالتأكيد ! الحمد لله ! » لمضى أخى فى هرائه . وكنا قد قاربنا دمنهور ، فلما بلغنا مدخلها عاد أخى إلى الثرثرة ، ولكنى لم أسمع شيئاً لأن أذنى كانت تطن . ودنونا من المحطة فوقفت وفتحت الباب وقلت لخليل : « إنزل . . بسرعة » فشرع يفتح الباب من ناحية وأخى يقول : « ألم أقل لك يا روكسى إنه سباق . . بين السيارة والقطار . ؟ »

ولم أسمع بعد ذلك شيئاً لأنى ذهبت أعدو إلى الرصيف الذى يقف عنده القطار

ولم نكد نفعل حتى دخل ، فركبت — بلا تذكرة — وماذا يهم ؟ وخليل ورائى ؛ ومشينا خلال المركبات حتى وجدنا أمى وأختى فانحططت بجانبهما بلا كلام

ولو كان فى رأسى ورأس خليل عقل لنزلنا بهما من القطار وعدنا بالسيارة على مهل ، ولكننا لم نفكر فى شىء حتى كان القطار فى طريقه إلى سيدى جابر ، فأدركنا أننا تعرضنا لغرامة فادحة لم يكن لها داع ، وكان فى الوسع اتقاؤها لو عنينا بأن نخبر المفتش أو أحداً من رجال القطار أننا راكبون من هنا فقط وسندفع الأجر فى القطار . على أن الثقة بأننا أنجينا الفريستين هونت علينا الخسارة

وقلت لأختى : « هذا زوجك ... البرقية مزيفة فما الرأى الآن ؟ . »

ولكنها لم تكن فى حال تسمح لها بابداء رأى . وأى رأى هناك يمكن أن يشير به أحد ؟ . لقد ضاعت الفرصة الذهبية فى دمنهور ، ولو كنا أخبرنا أخى على الأقل لاستطاع أن يبرق إلى بوليس سيدى جابر بالموضوع ، ولكان لاستمرار السفر فى هذه الحالة معنى ، أما الآن ...

على أنا قلنا إن الفرصة لم تضع وإن من الممكن إذا تركنا الاثنتين تسيران أمامنا وحدهما وعيوننا عليهما أن نرى الذى سيتقدم لهما نائباً عن خليل ، وقد نستطيع فى ذلك الوقت أن نحمل البوليس يقبض عليه ... على كل حال لم يبق إلا هذا ...

ولكننا لم نجد فى سيدى جابر غير الحمالين . ووقفنا بعيداً ووقفت الاثنتان تنتظران أن يتقدم اليهما أحد — رجل أو امرأة — حتى (البوفيه) لم يكن فيه أحد . فقلنا لعله ينتظر فى الشارع ،

فأومأنا اليهما أن يخرجا أمامنا ، فلم يكن حظنا خارج المحطة أحسن من داخلها . ولم تبق فائدة من التفرق فركبنا وهممنا بالمضى إلى الفندق ، ولكن خاطراً خطر لى فجأة فنزلت وذهبت إلى مكتب التلغراف وبعثت ببرقية منه

وفى اليوم التالى كنا فى مصر

ولكن هذا لم يكن كل شىء . وهنا يحسن أن أدع أخى يتكلم :

« لعله يعنيكما — يريد أختى وأمى — أن تعرفا كيف كانت عودتى البارحة بعد أن تركنى هذان المخلوقان . لا فائدة من قولى انتظرت ، فان هذا القول لا يدل على شىء ، فقد تركنى فجأة وذهب يعدو كأنى أجرب ، حتى محرك السيارة لم يعن بأن يقفه . ستقولون جميعاً إنه كان معذوراً ... فليكن فان الجدال عبث ، وستسمعون بأشياء أخرى أرجو أن يكون عذره فيها أوضح ... وكان معى روكسى كما لا أحتاج أن أقول ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يكن هذا الرفيق معى ؟ ... لعلى كنت أجن أو يحدث لى شىء من هذا القبيل ... ماعلينا . هل أقول إن الأمر طال على وأنا قاعد فى السيارة ؟ كلا ... وهل أقول إنى كنت ميتا من الجوع ؟ ... كلا أيضاً ... وأختصر حكاية مملة فأقول : إنى نزلت من السيارة وسرت فى الاتجاه الذى رأيتهما يقصدان اليه ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء ، فقد كان كلامهما دائراً كله على القطار ووجوب سبقه ، وإن كان فيما عدا ذلك لا معنى له عندى . ولم أجدها فى المحطة كما تعلمون لأنهما شاءا أن يركبا القطار من غير أن يبعثا لى بكلمة ؛ وقد سمعتهما يقولان إنهما أديا أجر الركوب مضاعفاً ، وهذا حسن وإن كان قليلاً ... ولكنه يبرد بعض الغلة . وقد وصفتهما لكل من فى المحطة فظن واحد أنهما هاربان من سجن ، واعتقد ثان أنهما مجنونان خطران ، واقتنعت أنا بأن لافائدة من البحث ، وأن أبى — رحمه الله — أخطأ حين رمانى بهذا المخلوق وزعمه أخا ، وأن أمى أخطأت أيضاً فى ربطنا بهذا المخلوق الثانى الذى أخفوا أمره عنى حتى خطف أختى فصار واجبى الآن بعد أن عرفته أن أخفيه أنا عن الناس . ما علينا ... فلندع هذا التاريخ القديم ... أظنكم ستضحكون حين أقول إنى احتجت أن آكل وأن أطعم روكسى ... وقد يسركم أن تعلموا أنى أحب أن أنسى فترة هذا الأكل ، وأن أمحوها من تاريخ حياتى الحافل بالتضحيات فى سبيل من لا يستحقون شيئاً ... ولكنى هكذا دائماً ... كريم مفضال وجزائى من الناس بل ممن يمرحون فى إيراد نعمتى الجحود والكفران ... ما علينا أيضاً ...

وقلت لروكسى : « تعال يا صاحبى فان هذا بلد لا يستحق أن يتشرف بوجودنا فيه ، فلنرجع إلى بيتنا فى مصر » وقد كنت أسلمت السيارة اليه وهى سليمة لا شىء بها ويشهد شريكه فى المؤامرة أنها أنقذتكما ، ولكنى حين أردت أن أدير محركها أبى أن يتحرك ... ولا أطيل . قضيت نصف ساعة فى هذا البرد حتى استطعت أن أقنعها بالحركة والعودة إلى دفء البيت

وكانت السيارة كأنما ركبها قبلى ألف عفريت ، ولكنى صبرت وقلت : عوضى على الله ! وهذا جزاء من يكون له أخ كهذا ونسيب كهذا .. وأظن أن الفجر بدأ يطلع حينما بلغنا شبرا فتشهدت وتمهلت فى السير ، وإذا بشرطى يستوقفنى فوقفت ، فدار حتى صار إلى جانبى وقال وهو ينقر على الزجاج :

« تفضل معى إلى الكركول »

فقلت : « الكركول ... ؟ »

قال : « نعم ، تفضل انزل »

فقلت : « ولكن لماذا ؟ . ماذا صنعت ؟ . إنى لم أكن مسرعاً ، بل كنت أسير بسرعة خمسة أمتار فى اليوم والليلة »

فقال بلهجة جافية : « انزل ولا تحوجنى أن أجرك بالقوة »

فقلت لنفسى إن المكابرة والجدال عبث ؛ ولا شك أنى سأجد رجلاً يفهم فى مركز البوليس وذهبت معه ، فقال : « اقعد هنا » فقعدت حيث أشار وهم بتركى فتعلقت به وقلت : « ألا تسمح من فضلك بأن تخبرنى لماذا جئت بى إلى هنا ؟ »

فنهرنى بعنف فهويت إلى الكرسى وروكسى بين يدى ...

ولم أر أحداً مستعجلاً سواى ... وأخيراً جاء شرطى آخر وجلس إلى مكتب وأخرج أوراقاً وبدأ يستعد للكتابة ، وسألنى عن اسمى وعنوانى وموطنى ، وعن السيارة ورقمها ؛ ثم سألنى بخبث : « ماذا معك فيها ؟ »

فابتسمت وقد خيل إلى أنه ظننى من مهربى المخدرات وقلت ببساطة : « ليس معى سوى روكسى »

فقال : « إيه ؟ » قلت : « يعنى الكلب اسمه روكسى » فقال متهكما : « ياحبيبى يا خوى ... كان عامل لى قمع ومعاك كلب !. تعملوها وتخيلوا والله »

فلم أدر ماذا أقول له . وأعفانى هو من الكلام فسألنى : « هل معك مفتاح السيارة ؟ »

فناولته المفتاح فنادى شرطياً وطلب منه أن يفتحها أمامى ، وأن يجىء بما يجده فيها فلم يجد إلا الحقيبة ... اضحكوا ... اضحكوا .. لابأس ... ستجىء ساعة أثأر فيها لنفسى ...

فلما جاءوه بالحقيبة ابتسم ابتسامة عريضة جداً وتنهد مرتاحاً وقال لى : « لا شىء ؟ . هه ؟ . طيب »

فابتسمت أنا أيضاً وقد صح عندى أنه يحسبنى من المهربين وأيقنت بقرب الفرج

وشرع يسألنى عن الحقيبة فقلت له : إنها لأخى ، وذكرت اسم الأخ المحترم فأدهشنى بأن سألنى هل أنا أعترف بأن الحقيبة لأسماعيل أفندى زفت وقطران ؟ . فقلت بالطبع أنا معترف . . إنه أخى

فقال : « أخوك ؟ . أواثق أنت أنه أخوك ؟ »

فضحكت وقلت : « بالطبع واثق . . ولكن ما هى الحكاية ؟ »

فقال : « أين المفتاح ؟ »

قلت : « معه . . لم آخذه منه » وهممت بأن أقص عليه القصة ، ولكنى رأيت أنها مما لا يصدق ، فأقصرت . فقال : هل تستطيع أن تثبت شخصيتك؟

فقلت : « بالطبع . . ماذا تظن . ؟ » ودفعت يدى فى جيبى لأخرج له أوراق السيارة ورخصة القيادة وغير ذلك مما عسى أن يكون فى جيبى ، فما راعنى إلا أن الجيب خال ليس فيه قصاصة واحدة . وأظن وجهى فضحنى على الرغم من محاولتى أن أتماسك وأتجلد ، فقد سألنى بعد ذلك مباشرة عن السيارة ولمن هى ، فأيقنت أنى وقمت وقلت له : « إسمع . . إنك تطيل بلا داع . . لا بد أن يكون قد حدث خطأ ، ومن سوء الحظ أنى نسيت الأوراق كلها فى البيت ، فاذا سمحت فأرسل معى شاويشاً أو عشرة إذا شئت إلى البيت لأجيئك بكل ما يزيل الشك ويريح ضميرك »

فلم يبال بهذا الاقتراح المعقول وقال : « هل

أنت مصر على دعواك أنك أخو إسماعيل ؟ . »

فقلت : « الحقيقة أنى مستعد للتبرؤ منه ، ولكن إلى أن أفعل لا يسعنى أن أنكر أنه أخى »

فقال : « إذا كنت أخاه فلماذا يبعث ببرقية كهذه ؟ »

وناولنيها فقرأت فيها الحكم على !

وللرجل العذر لأنه إذا كان اسماعيل هذا أخى فلماذا يطلب من البوليس أن يحجز السيارة رقم كذا وفيها حقيبة صفتها كيت وكيت ؟ ؟ . لا تعترض من فضلك . . لقد كانت عبارة البرقية يفهم منها أنك تريد حجز السيارة أيضاً . ولا أكتم أنى لم أجد جواباً لهذا السؤال وأنى استحييت أن أقول إنه مزاح بارد . .

وحرت ماذا أصنع ولم يفتح الله على بحيلة تخرجنى من هذا المأزق الثقيل ، وكان النهار قد طلع ؛ ولكنا ما زلنا فى البكور ولا يليق أن أزعج الناس فى مثل هذا الوقت ، فمدت إلى اقتراحى أن يبعث معى من يشاء إلى البيت فرفض ؛ فسألته عن المأمور من هو عسى أن يكون من معارفى ، فانتهرنى بغلاظة ، فتساهلت وسألته عن المعاون أوغيره فلم يزد على أن قال : « بلاش دوشة » فناشدته أن ينظر إلى ثيابى وأن يفكر هل هذه ثياب مجرم أو لص ؛ فقال وهو يضحك : « إن بين اللصوص من هم أشد أناقة منك » فوضعت أصبعى فى الشق وأسلمت أمرى إلى الله

وختم المحضر على هذا — أى على أنى لص ولا شك ، وأن البوليس حاذق فطن ولا شك . . ولست ألوم البوليس فقد كانت كل القرائن ضدى . وأشهد له أنه كان رقيقاً فقد سمح لى بأن أشترى — أعنى أن يبعث من يشترى لى — شيئاً لطعامى وطعام روكسى ؛ ولا أنكر أنى شربت قهوة أيضاً وإن كانت أشبه بغلى الفول السودانى ، أو بماء الوحل السخن . ولكن هذا لم يكن ذنب البوليس

وأخيراً فى الساعة الثامنة دخل ضابط علينا فنظرت إليه ببلادة فقد فترت ويئست ، ولم أعد أبالى ما يجرى لى ، ولكنى لم أكد أرى وجهه حتى انتفضت واقفاً وصحت به : « حمدى .. الحمد لله .. أين المحقق ؟ »

فاستغرب وسألنى عن الحكاية فقصصتها عليه فضحك ملء شدقيه ... مدهش أن يضحك الناس من هذه الفصول الباردة ... والباقى لا يحتاج إلى كلام ... جئت إلى هنا ونمت ساعة أو اثنتين على هذا الكرسى بثيابى ... ولكنه ينقصك يا حضرة الأخ أن تفسر للبوليس مزاحك ... فقد صار الأمر مزاحاً مع البوليس لا معى ... »

فلما استطعنا أن نتكلم ونغالب الضحك قلت : « هون عليك ... فانى أعرف ماذا أقول ... ولكنى أرجو أن يكون ما حدث درساً لك »

فقال وفى عينيه نظرة خبيثة : « وأنا أرجو أن يكون ما حدث لكم درساً كذلك »

فقال خليل : « ماذا تعنى ؟ »

فقال أخى : « أعنى أنكم لو لم تكونوا عمياً لعرفتم أن البرقية ليست لكم ... للجار ... رقم ٢٢٣ وقد تشابه الرقمان على الساعى — الاثنان والثلاثة — واتفق أن اسم الجار خليل أيضاً ، واتفق أنكم عمى لا تبصرون ، ولولا ذلك لقرأتم الرقم واسم التى أرسلت إليها البرقية ... هذا ما أعنى ... فقوموا كفروا عن سيئاتكم يا جهلة ودعونى أضحك فقد أخذ الله لى بثأرى سلفاً »

ابراهيم عبد القادر المازنى

لونان من الحب

للكاتب الإسباني بلاسكو إبانيز

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

هذه القصة آية من آيات الكاتب الاسباني إبانيز ، وهو واحد من أفذاذ الكتاب القلائل الذين يفخر بهم العصر الحاضر ، لترفعه عن التبذل الاباحي انقياداً لأذواق العامة ، ولعمق إحساسه بالحياة ، وصدق تحليله لألوان العواطف الانسانية مهما دقت فروقها وخفيت مساربها ، مع وضوح نظرته للأشياء ، ودقة الملاحظة ، والاحاطة بالموضوع من غير فضول ؛ وهذا كله مفرغ في قالب أنيق المعرض حي الأوصاف

وقراء الصحف لا شك ذاكرون أن إبانيز كان إلى جانب عبقريته القصصية كاتباً سياسيا ملتهب الحمية شديد التهييج . وقد كابد النفي والأشغال الشاقة والسجن مرات عدة في سبيل أفكاره ؛ ومع هذا فان بلدته ومسقط رأسه « بلنسية » ظلت على عهده وانتخبته للبرلمان ثماني مرات . وقد طاف العالم ثم استقر أخيرا في باريس حيث القطب الذي يلتف حوله كارهو الملكية ودعاة الجمهورية الاسبان

وقضى إبانيز في منفاه عام ١٩٢٨ أي قبيل إعلان الجمهورية الأسبانية . فلما أن قامت الجمهورية أعادوا رفاته على بارجة حربية الى أرض الوطن ، واحتفلوا بدفنها احتفالا وطنيا رائعا

— ١ —

ظل أهل باريس كلهم ، ممن يرتادون مشارب الشاي الراقصة ، أو المشارب غير الراقصة ، حيث يقنع المجتمعون فيها باغتياب الناس والخوض في شؤونهم ، كل هؤلاء ظلوا يسمرون أسبوعا كاملاً ويعيدون ويبدئون في موضوع زواج موريس دلفور ، وريث مصانع دلفور وشركائه (ويبلغ رأس مالها من الملايين مائتين وخمسين) بالحسناء أوديت مرساك إبنة أخي علم من أعلام النواب . ولئن خفت اليوم اسمه فانه كان قبل هذا مرشحاً مرتين لرياسة الجمهورية

وليس بالحدث النادر في الحياة الباريسية زواج ملك من ملوك الصناعة بأميرة من أميرات الجمهورية ، بل قلما يكون في هذا مؤونة حديث لمدى نصف ساعة ؛ إلا أن لهذين العروسين مكانة ممتازة !

أما هو فيتراءى كثيرا في أحلام النساء مثالاً فيه كل أشكال الأناقة وكل المعارف البشرية : كأس الشرف في أبهى مسابقات الخيل ، وكأس الشرف فيما لا يحصى عديده في مباريات السيف وصيد الحمام ، كأس الشرف في سباق السيارات الأعظم بين باريس ونابولي ، حتى لتظهر غرفة مكتبه يوماً بعد يوم بمظهر حجرة الأكل لكثرة مايشاهد الانسان فيها من أكواب الشرف مصفوفة على المناضد

ويلحق بهذه الانتصارات في فن الألعاب والرياضة نصيب من جاه رجل العلم ، لأنه في الآونة الحاضرة مهتم بالطيران ، فهو يحلق كل أسبوع أو ما يقرب من ذلك ؛ وهو يقطب حاجبيه وعلى وجهه سمات السابح في الأفكار وغوامض الأسرار إذا ما تكلم متكلم في مجلسه عن مسائل الآلات وما يتعلق بها

وأما هي ، فهي عند صواحبها «أوديت» ، أوديت فريدة زمانها ؛ وهي عند سائر الناس الآنسة مارساك ، إسم شهير بارز في كل ما ترويه الأخبار عن الاناقة ، في كل المنتديات الساهرة ، وفي كل صحف الأزياء

وكان مشاهير الخياطين من ذوى الفكر والابداع فى شارع « دى لا پيه » يعتمدون على الآنسة مرساك فى مستهل الحفلات الكبرى فى الحياة الباريسية فى رفع شأن ما تلبسه من مبتدعات قرائحهم الناشطة المتوقدة ، فان قوامها الذى لا يضارعه قوام ليدع الغوانى كاسفات من الغيرة متحسرات . هيفاء ، لا يزيد وزنها على الخمسين كيلو إلا قليلاً ؛ لها نحر بلغ غاية الحسن المنشود ترتسم فى إهابه الرفاف عظمتا الترقوة الدقيقتان وكأنهما قاعدة أنيقة لعمود رقبتها المجردة النحيلة ، ولوحتا كتفيها مفصلتان للعيان كأنهما جناحان ناجمان ، وساقاها طويلتان مستويتان لا تكاد تبين لهما ربلة ، وهى تعرضهما فى طمأنينة ومن دون أن تخشى الغواية والفتنة ، تحت حافة ثوبها الحريرى القصير . وخلاصة القول فى قوامها أن كساءه من اللحم روعى فى توزيعه التقتير ، بحيث لا يربو مقدار اللحم درهما عما يكفى لتلبيس المعروق وتلطيف الحاد من حنايا الأضالع والأوصال . فهو جسم يمكن نعته بأنه « هوائى » ، أو بعبارة أخرى هو حجة لملء الفراغ فى داخل الثياب اجتنابا لمشيها وحدها . وفى أعلى هذا الكيان الحى وجه جميل أطالته ذقن مدببة ، تفتر فيه حلقة صغيرة قرمزية هى فمها الدقيق البديع ؛ وتلمح لوزتان كبيرتان هما عيناها الدعجاوان ، وتتهدل لمتان على الأذنين كأنهما سالفتا محارب من محاربة الثيران الأسبان وقد صففت غدائرها مجتمعة فى شكل البرج القائم تشتبك فيه الخصل المصطنعة العارية بخصل الغانية . هى ربة الجمال العصرى كما قد يتصورها ويبدعها واضع رسوم الأزياء فى أحلامه العبقرية وخياله المبدع

وفى أوائل عام ١٩١٤ انبعثت لعبة جديدة وقامت قيامتها بين العلية الغطاريف من أهل باريس والعواصم الأوربية والأمريكية التى تأتم بباريس كأنها منها بمثابة ضواحيها وأعمالها ، فكان أهل الاناقة يهزون أردافهم ليرقصوا « التانجو » وفى طليعة هذه الخلائق الممعنة فى رقص التانجو يرقص موريس وأوديت

أما هو فقد اتصل سراً بأستاذ من أهالى الأرجنتين ، وآلى على نفسه ألا ترى عيناه النجلاوان أنوار المدينة إلا يوم يحذق هذا العلم الجديد مثلما حذق غيره من العلوم . وفى ذات ليلة من الليالى الزاهية قدم موريس ليجنى إعجاب القوم ، وهو تحت المصابيح الكهربائية فى فندق من فنادق الشانزيليزيه يحرك قدميه فى حذائهما اللماع العالى الكعب ، ويهز قوامه المهضوم المسبوك المحبوك فى سترته المحكمة ، وينفض رأسه الجميل ، وشعره الجعد مرسل إلى الوراء كتلة وضيئة كطلاء اللك لامعة

وأما هى فقد أثارت هذا الاعجاب نفسه فى بقعة أخرى من المرقص ؛ وكما يحس الكوكبان قرب كل من الآخر فيتأثران ويتجاذبان ، كذلك يهفو موريس وأوديت كل منهما نحو الآخر ، ويتهافت عليه ، يحدوهما باعث لا يقاوم من ائتلاف طبائعهما وتمازج نفسيهما فليس يفرق بينهما مفرق

وهما من ذلك الحين يرقصان أحدهما للآخر . وقد أصبحا لا يلقيان الانسجام المنشود بين ذراعى الغير . وكانا لا يخرجان بكلمة على الصمت الحافل بالأسرار أثناء الرقص المقدس ، بل قوة روحهما جماء منصرفة فى رصانة وتفكير إلى حركة أقدامهما وإلى تثنى أعطافهما فى اهتزازات موزونة متوافقة .

ولقد علما علم اليقين ان حرمة رقصهما أبد الدهر رهينة بأن يبقيا مدى الحياة شريكين

وهكذا نما الحب بينهما ؛ وهكذا تم قرانهما .

واستيقظت باريس بأسرها فى ذات صباح قبل موعد يقظتها المعهود بساعتين لتشهد حفلة القران . وكان يزين الحفلة تشريف عواهل الصناعة أجمعين ، وعدد لا حصر له من رجالات السياسة أصدقاء عم العروس . ولم تخامر أحداً أدنى ريبة فيما يجمع شمل العروسين من وشائج صبابة وغرام ، كأطيب وأوثق ماروته الأساطير بين الأنام

وقد سلك موريس مسلك العاشق الحق . فودع الوداع الذى ليس وزاءه عودة ترتجى سائرَ عشيقاته على اختلافهن ، وكلهن من كاهنات الفنون الرفيعة : التمثيل والغناء والرقص . لقد انتهى عهد الجهالات وحسبه منذ اليوم امرأته الصبية ودراساته الدامية الجدية

أما هى ، فما برحت تحب المغازلة كذى قبل ، جريا مع العادة ليس إلا ، ومن غير أن تسمح لأحد بالاجتراء المقتحم . وما ذلك إلا لمزيد حافز الاحساس بالخطر استمتاع زوجها بها

وقد جعلوا مقر هنائهم فى قصر دلفور ، وهو بناء فخم شيده أول ممول من أصحاب الملايين فى الأسرة على مقربة من حدائق مونسو ، فى وسط مساكن أقرانه الأغنياء المولين . وتطل واجهة القصر الخلفية على هذه الحدائق . وقد اعتكفت الأرملة دلفور فى الطابق الأعلى بما بقى لها من أثاث البذخ القديم ، وتخلت عن بقية الدار لابنها وزوجة ابنها ليتسنى للعروس أن تشبع بلا عائق أهواءها فى زينة البيت وزخرفه . فاذا هذا المنزل العامر بالأثاث الأرجوانى المذهب والمقاعد الفخمة من طراز نابليون الثالث ، تطغى عليه نزوات الخيال والمفارقات فى طراز من الأثاث خليط من البيزنطية والفارسية وهو بعد ربيب ميونيخ الألمانية

وكانت الأم دلفور متشحة دائماً بالسواد ، رصينة مفكرة كمن عرف قيمة هذى الحياة ، وهى تشهد — من غير أن تبدو عليها بادية — ما تأتيه هذه الفتاة الوافدة فى الزمن الأخير من ضروب الأهواء والبدوات المبتكرة : مهرجانات شرقية تقلب الدار الوادعة رأساً على عقب ؛ حفلات شاى راقصة ، والفتاة فى غلائل من الكتان الرقيق شفافة ، منطبقة عليها من الضيق كالغمد ، موشاة بأزهار كبيرة الحجم بارزة الطرز ، تأسر محاسن جسمها وهزالها

ولما كان الابن مشغوفاً بأوديت يعبدها ، فقد اجتهدت الأم أن تلتمس العذر لكل أهواء كنتها الصغيرة وطفرات مزاجها . هى فتاة مسكينة ! لقد نشأت من غير أم فعاشت طليقة كالغلام

— ٢ —

وقامت الحرب . وكان من بوادر آثارها أن بدت أمارات الرعب فى عينى الغانية سيدة قصر دلفور الجديدة ، فهى متسعة الحدقتين مرتاعة النظرة . أيمكن مثل هذا البلاء ! وفى الساعة التى يكون فيها المرء أشد ما يكون لهواً وانبساطاً

أما الحماة فقد لاح عليها أنها كبرت ، وأنها خرجت من انقباض حياتها وإعراضها عن العالم ، فاستقرت نظرتها — رصينة بطيئة على الأشخاص وعلى الأشياء ، كأنما هى تتعرفهن من جديد . وهى فى زمانها قد رأت الشىء الكثير ، وبادلت أول ما بادلت من كلمات الحب رجل الصناعة دلفور

فى عام ١٨٧٠ ، أثناء حصار باريس ، ثم شهدت وهى عروس صبية مأساة الحكم الثورى العاثر فى فترة عمره القصير

ودعى نجلها للسفر إلى الميدان فى حين بدأت امرأته تعجب فيه بالرجل الجديد فى حلة الضابط الرسمية المنسجمة عليه أجمل انسجام . والتى ضاعفت رشاقته الكاملة الرجولة . ولقد أحب أن يلتحق بالطيران ، إلا أن الطيران كان فى طور الطفولة فى أول نشوب الحرب ، فبقى فى المدفعية تبكيراً فى القيام بالخدمة

ورغبت أوديت أيضاً فى أن تؤدى منفعة لبلادها . وكانت صواحبها غاديات رائحات فى المستشفيات . فصحت عزيمتها بحافز من حوافز الأريحية على التطوع ممرضة ، لأنها كانت شديدة الاعجاب بالحلة البيضاء ، والبرنس الأزرق ، وعصابة الرأس الناصعة . فهذا الرداء البسيط الجديد يلائم جمالها كل الملاءمة . وكانت لفرط هيامها بالظهور فى هذا الزى الأخير من الثياب تغادر المرضى أحياناً كثيرة للطواف فى سيارتها متنزهة فى غاب بولونيا ، رافلة فى الغلالة البيضاء المزدانة بالصليب الأحمر على الأردان وعلى الصدر

أما الارملة دلفور فكانت تقضى أيامها ولياليها فى المستشفى من غير أن تخلع ثوبها الأسود السرمدى

وليست تخلو الحرب أيضاً من متعها ومباهجها : فثمة حفلات الشاى المقصورة عليهن معشر النساء دون غيرهن ، بمعزل من الرجال ومحضرهم المضايق ، إذ يرهقونهن بالمجاملات الفارغة . وهن جميعهن فى هذه الحفلات متشحات بالثياب البيض كأنهن الخادمات فى إدارات الحمامات ، ونظرات الحسد من كل صوب تنعقد حولهن ممن لا يرتدين هذا الزى .

وفى هذه الأثناء يتساءلن بحوك ملابس مسرودة من أشغال الأبرة للجنود ، وهن مزهوات بما يبدو عليهن من قلة حذق هذه الأشغال ، شأنهن فى ذلك شأن علية المقيلات شرعت خادمتهن فى تلقينهن شيئاً من أشغال المنزل

وتتردد بينهن الأحاديث كلها من هذا القبيل :

— إن زوجى يحارب فى الالزاس . والمسيو دلفور فى أى الميادين هو ؟

وكان مقر المسيو دلفور فى إحدى الجهات فى ناحية البلجيك ؛ وكانت امرأته تقص مغامراته وهى تدير حولها لحظ الخيلاء : لقد نوه به مرتين فى النشرة العسكرية ! لقد أنعم عليه بوسام ! لقد منح شارة !

ولكن كان عدد الأبطال كوابل المطر . فيحز فى نفس أوديت شيء من الامتعاض والغضاضة ، وهى تسمع النساء الأخريات يذكرن عن أزواجهن مثل ما تذكر

آه !. ألا يسمه التفوق ؟

وفى ذات يوم ربع قصر دلفور فى حدائق مونسو بنوبات فظيعة من الانفعالات العصبية والنحيب واصطفاق الأبواب وأزيز السيارات ووفود الأطباء . لقد جرح الملازم دلفور جروحا خطيرة من انفجار قنبلة ؛ وأرادت أوديت أن تسافر على الفور لتسهر إلى جانب سرير زوجها ، لكن هذا مستحيل ! فاسودت الدنيا فى ناظرها وودت لو تموت ، ذلك على حين بقيت الأم ناصبة القامة شاحبة ، ناضبة العينين ، تطرف بأجفانها وتمض شفتيها .

ولما عادت أوديت إلى الظهور فى المجتمعات الخاصة داخلها شيء من الرضى ، فلم يعد اليوم بين صواحبها من تجرأ على الافتياس بها . لقد جرح موريس ، وجرحه خطير ، والكل مشفقون على ما صار إليه هذا الزوج الفتان الذى ابتلته الحرب هذا البلاء الشديد .

وهون الاعجاب العام على أوديت جزعها فجملت تألف شيئاً فشيئاً فكرة هذه الجروح الغامضة . أية جروح هى يا ترى ؟ تخيلت زوجها أعرج يظلع ، فى إحدى يديه عصا ويده الأخرى تتوكأ على ذراعها . ما أملحهما زوجين ! إن المستقبل ما فتىء يدخر لهما ساعات هناء طويلة . ولسوف ترعاه وتحبوه السعادة بحنان الأم الرؤوم ومناغاة الحبيبة .

وفى أصيل ذات يوم فى شارع رويال ، وقع بصرها على ملازم من الرتبة الثانية ، وهو حدث يافع يكاد يكون غلاماً ، يسير إلى جنب خطيبته ، وأحد كمى سترته متهدل خاو . موريس هو الآخر فقد ذراعه ؛ هى موقنة بذلك ، وهذا هو السبب فى أن خطاباته المكتوبة على عجل ، الناطقة بسرور موجع ، هى دائماً املاء وليست بخط يده ، ولكن ماذا يهم ؟ ستكون هى سند زوجها ، وستنوب ذراعها عن ذراعه المفقودة ، فما يشوقها مثل رؤية طلعته ، والتطلع إلى خيالها فى صفاء عينيه ، والتملى بنظرته الحلوة المداعبة الساخرة فى لطف . آه ! ما أشد حبها إياه .

وكان صواحبها يتلقينها دائماً مرددات نفس السؤال : « كيف حال الجريح ؟ » ، وهى تجيب راسخة اليقين : « فى تحسن مطرد ، وهو قادم قريباً إلى باريس . »

ووردت الخطابات تلو الخطابات ، وكلها مكتوبة بغير خطه ، إلا أنها إملاؤه ، فقلقت الأم واستفهمت من أصدقاء العائلة الأقدمين ، وهم قوم من ذوى الرصانة فلا ريب يكتمون عنها بعض الخبر :

— إن جروحه بليغة ، ولكن لا خطر عليه . تشجعى ! المهم هو أن يعيش .

وفى ذات صباح هبت أوديت من فراشها ، وقد أيقظتها بغتة حركة اضطراب غير عادية فى القصر ؛ فأزاحت ستار إحدى النوافذ ، فوقع بصرها فى خارج الباب الحديدى على سيارة مقفلة عليها شارتا الصليب الأحمر ، ثم تبينت بصعوبة من خلال طنف الزجاج الممدود فوق الدرج الخارجى رهطاً من الناس صاعدين يحملون بين أيديهم شيئاً ملفوفاً يحتاطون له بألف احتياط ، وكأنه قطعة من الأثاث يخشى عليها التلف ، فقفز قلبها فى صدرها : موريس ! !

وأفرغت عليها بعض الثياب ، وانطلقت من غير أن تستكمل هندامها راكضة تنحدر فى السلم ، إلى بهو فى الطابق الأدنى ، وحاول الخدم مذعورين راجفين منعها .

اقتحمت القاعة ، وفى الحال عرفت الرأس الموجع المسنود إلى وسائد الديوان

هذا هو ، مشوها أفظع تشويه ، مخدد الوجنتين بأخاديد متراكبة متشابكة من الندوب الزرقاء الكابية ... ولكنه هو

لم تبق له غير عين واحدة . أما العين الأخرى فان موضعها تواريه عصابة سوداء بحجم محجرها الأجوف ؛ ثم سرحت أوديت طرفها فى صدره ، صدره المستور تحت قماش سترته الزرقاء ، سترة

الضابط القديمة . ولكن هنا تزلزلت المرأة وتخاذل جلدها كمن صدمته مفاجأة فظيعة — وما أشدها صدمة وأعنفها — فاذا بها قد صرخت ، أن جسمه الجريح ينتهى هنا ، بغير ذراعين وبغير ساقين . ما هو إلا جذع أبتر ، بقى بفضل معجزات الجراحة خرقة ممزقة فى نهايتها رأس حى

وتمتم الفم — الأسود من حريق الحمم — فى ضراعة وذلة :

— أوديت ، أوديت !

كأنما يلتمس الصفح عما هو رازح تحته من بلاء

ولكن كانت أوديت قد ولت مجفلة تدفع من طريقها الخدم المتجمعين أمام الباب ، وانطلقت على وجهها تركض فى أطباق المنزل العليا لا تعى ما تفعل ، مولولة كأشد ما ولولت امرأة فى مأساة إغريقية ، تصطدم بالأثاث والحيطان ، وتمزق شعرها المحلول ، وقد جن جنونها من دهشة وفزع واشمئزاز

وهذا المخلوق المشوه الممسوخ الخلقة زوجها ! وواجب عليها البقاء إلى جانبه طول حياتها !

ولم يزل يئن فى الطابق الأدنى ذلك الصوت الضارع الموجع مسترسلاً : أوديت ، أوديت !

واغرورقت بالدموع عينه الوحيدة . الكل يهربون ، حتى الخدم يتأملونه من بعيد ويحاول كل منهم الاختباء وراء زميله وهو متأهب على الهرب ، ومع ذلك يشرئب بعنقه وعلى وجهه سيماء مبهمة من تطلع الفضول وانقباض النفور

وكان القوم يتجنبون لمسه ، كأنهم منه بازاء كتلة غروية تعافها الأنفس ، بازاء أخطبوط من المائيات الرخوة بترت سواعده المتشعبة ، بازاء مادة نخامية لا قوام لها لفظتها الحرب . هذا صاحب الملايين الذى كان شديد الحب للحياة ، أيظل أبد الدهر على هامش الحياة ! لقد أحدثت بليته فراغا حوله ، حتى كلبه المحبوب يئن على قيد خطوات منه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، كأنما هو نهب دوافع تتداول عليه دراكا ، من ولاء لسيده وفزع منه

ولسوف يظل الحال مدى عمره على هذا المنوال . . . آه حبذا الموت ! الموت العاجل ! وعلى حين فجأة تنحى جمع الخدم . هذا شخص يغشى القاعة ؛ ولمح الجريح المشوه رأساً مجللاً بالمشيب يتقدم نحوه ، وأحس على وجنتيه المخدودتين بالجراح لمس فم يتمسح بهما ، ويلثم لثمات الواله المصابة المسدلة على مقلته الجوفاء ، وأحس رشاش دمع سخين يبلل جيده ، وذراعين تطوقان فى شغف وحركة عصبية بدنه الناقص التكوين كأنهما تملان طفلاً

وتصاعدت أنة :

— أماه !

— ولدى ! ولدى !

ترجمة : عبد الرحمن صدقى

خِصَام

للأستاذ محمود تيمور

— أأنتِ استدعيتني يا أماه ؟

— نعم يا «سلام» ؛ استدعيتك فهلا حزرتِ لماذا ؟

فابتسمت «سلام» ابتسامة استخفاف وقالت :

— مطلقاً

— ولكنني أؤكد لك أنك تعرفين ، ويسوؤني منك هذا التجاهل المصحوب بالازدراء . لو كنتُ مكانك لما وسعتني هذه الدنيا بأكملها ، ولكنت الآن على أحسن زينة وأزهى ملبس أستعد لمقابلة خطيبي الجميل

— خطيبي ؟ !

— لا تثيري غضبي يا «سلام» . اذهبي واخلعي ملابس الركوب . إنها ملابس زرية لا تليق لمثل هذه الظروف . اذهبي ورتبي شعرك وزيني نفسك

— ولكنني ذاهبة كما تعلمين لأقوم بنزهتي اليومية على ظهر فرسي «مبروكة»

— ألا يمكنك أن تتركي نزهتك يوماً واحداً ؛ يوم عودة خطيبك من أوربا بعد غيبة ستة أعوام !

فلمعت عينا «سلام» ببريق الغضب . وقالت وهي تضرب قدماها بعصاها الصغيرة :

— لقد كررت على مسمعك يا أمي أنني لا أعرف لي خطيباً

— تعالى . تعالى اجلسي بجانبي برهة . برهة وجيزة . تعالى يا حبيبتي

جلستْ «سلام» صامتة بجوار أمها ، وروح الثورة ما زالت متأججة في صدرها . فاحتضنتها أمها وقبّلتها . ثم قالت لها وهي تحاول الابتسام :

— أريد أن نتفاهم يا حبيبتي . هل التفاهم حرام ؟ أتشكين في حبي لك يا «سلام» ورغبتي في إسعادك ؟

— مطلقاً

— فاذا كنتُ قد اخترتُ «شوقي» زوجاً لك فلأنني وجدته أفضل شاب يليق بك . إنه شاب غني ، ذكي ، حائز لأرفع الشهادات . ألا تعلمين أن فتيات كثيرات يتقاتلن عليه ، وينتظرن عودته بفارغ صبر لينصبن له شباكهن ؟

— فليأ كلنه ... !

— لماذا نتركه لهنّ ؟ لماذا ؟ وهل نجد أحسن منه ؟

— ومن قال لك إنني أبحث عن زوج ؟

فنظرت إليها أمها نظرة جزع وألم ، وأخذت يدها وشدّتْ عليها في تأثر ، وقالت في صوت مخنوق :

— لِمَ هذا العناد يا «سلام» ؟ وإلى متى تحيين هذه الحياة المملة ؟ بعيدة عن المجتمعات ، بعيدة عن وسائل البهجة والمسرة . أتريدين تحطيم قلب أمك التي لم يبق لها في الدنيا سواكِ ؟ أليس

أملى الوحيد فى الحياة أن أراكِ مع زوجك وأطفالك سعيدة هانئة البال ؟ ... لماذا تريدين أن تحرمينى هذه الأمنية يا ابنتى ؟

ورفعتْ يد ابنتها إلى فمها وقبّلتها قبلة حنو ورجاء ، واستأنفتْ قولها :

— لقد تقدّم لك أناس كثيرون من أشرف رجال البلد وأرفعهم ، فرفضتهم جميعاً ؛ رفضتهم بلا سبب ، فلِمَ ذلك ؟ وأخيراً يعود « شوقى » — قريبك ، وهو من لحمك ومن دمك ، وقد نشأ وتربّى معك فى بيت واحد ، يعود بعد غيبة طويلة فيجد منك الرفض والاهمال !

وتأثرت « سلام » بمنظر أمها ، فاحتضنتها وقبّلتها ، وقالت لها فى رفق :

— ولكنك يا أمى تتكلمين عن أشياء سابقة لأوانها . فهل خطبنى « شوقى » رسمياً ؟

— رسمياً . . . كلا . ولكن الجميع يعلمون أنه خطيبك . وكلنا نتحدث بذلك منذ كان بيننا — قبل أن يسافر إلى أوربا

فتجهم وجه « ســــلام » بغتة ولم تجب . وخشيت أمها أن تسىء إليها من حيث لا تدرى . فلاطفتها وقالت :

— لا يَسُؤْكِ كلامى يا حبيبتى

وقامت «سلام» تريد الخروج ، فقالت لها أمها :

— لا تطيلى نزهتك يا حبيبتى . لا تنسى أنه سيحضر قبل الغـداء . . . عليك أن تساعدينى فى ترتيب المائدة . أما أنا فذاهبة إلى المطبخ لعمل الشركسية

***

وعاد « شوقى » إلى الدار بعـد غيبة طويلة قضاها فى ربوع أوربا يتعلم فى معاهدها ويستمتع فى مغانيها . عاد إلى دار الأسرة القديمة حيث قضى ريعان طفولته وشبابه . عاد إليها ليحيا حياة الاستقرار والعمل المنتج

نزل من السيارة ، ووقف أمام الباب يحدّق فيه ، ذلك الباب الضخم الهَرِم ذو النقوش الأثرية . لن ينسى مطلقاً يوم خرج منه منـذ ستة أعوام يطلب المجد وكأنه منتش بخمرة لذيذة تلهب دمه

. . . لم يحدث تغيّير يذكر . كل شىء على حاله . فالبواب كما هو مشرق بابتسامته يحييه فى لغته المعتادة ، والبستانى يهرع إليه ويقبّل يده ، ويقدّم له زهر العتر ، والحديقـة على حالها مهملة بأشجارها الكثيفة وطرقاتها غير المستوية . . . وأخيراً حجرته ، أجل حجرته كما كانت ، لم يتغير شىء فيها . كأنه تركها بالأمس . إن «تسفير» العجوز لم تهمل إعداد القلّة النظيفة المبخّرة ، والمنشفة المزهّرة ، و ... وطغت عليه ذكريات الماضى الجميل فنظر حوله فى غبطة وقال :

— كل شىء على حاله يا «تسفير» ؛ فما أسعدنى بكم ! وأخذ يتحدث معها : يسألها عن المنزل وأهله وما جرى فيه أثناء غيابه . سألها عن أشخاص كثيرين وأمور شتى . ولكنه نسى شخصاً لم يجر لسانه بذكره . فنظرت إليه « تسفير » نظرة استغراب وقالت :

— ولكنك لم تسألنى عنها ... ؟

— من تقصدين ؟

— هى يا سيدى . هى صديقتك الصغيرة

— ؟ !

— « سلام » يا سيدى

— أوه «سلام ! » كيف هي ؟ ألا تزال نحيلة ضئيلة كالسمكة المقدّدة !

— السمكة المقدّدة ! ... إنها ملء العين والخاطر . سمن على عسل يا سيدى !

— أنت تبالغين . ولكن خبريني : أما زالت ترتدى ميدعتها الزرقاء المبرقشة ببقع الحبر ؟

— ما هذا الكلام يا سيدى ؟ إنك تتحدث عن الصغيرة «سلام» التى لم تكن تبلغ الرابعة عشرة بعد . أما الآن فهى غيرها بالأمس . إنها ترتدى الفساتين على آخر زى ، وتزين نفسها كعروس ليلة دُخْلَتها ...

— وأين هى ؟

— خرجت راكبة فرسها لتتنزه نزهتها اليومية

— راكبة فرسها ؟ ! أمر مدهش للغاية !

— هنَاكْ يا سيدى ! ليس هذا كل شئ . إنها تعزف على البيانو كأمهر العازفات ، وتتكلم الفرنسية كالبلبل ، وتقرأ الجرائد ، وتفهم فى كل شئ

وسمع فى تلك الآونة صهيل فرس ووقع حوافرها على أرض الحديقة الصلبة . فهرعت « تسفير » إلى النافذة ثم صاحت مهللة :

— إنها هى !

وأطل « شوقى » من النافذة ، وما كادت عيناه تقعان على « سلام » حتى صاح مدهوشاً :

— أهذا ممكن !

ونزل « شوقى » ليستقبلها ، فرآها تترجل بالقرب من الباب ، فتقدم نحوها ومد يده وهو يقول :

— هالو « سلام » كيف حالك ؟

فأجابته فى لهجة عادية بلا حماسة :

— الحمد لله . وأنت ؟

ودُهش «شوقى» من لهجتها ، ولكن راعته نبرات صوتها . وأخذ يتأملها طويلاً ، فاذا هى فى قوام ممشوق وحركات رشيقة وشمائل حلوة ، فيها طراوة وجاذبية على الرغم مما يبدو عليها من إهمال .

وناولت « سلام » اللجام للسائس وأصدرت له أوامرها ، ثم سارت متجهة ناحية السلالم و « شوقى » سائر بجانبها صامتاً ، وقد أحسّ على الفور بشيء يحيره ويتعبه فيها . وأخيراً تكلم فقال :

— يخيّل إلى أن كل شئ على حاله فى هذا المنزل لم يتغير ، سوى أمر واحد هو ...

وظهرتْ الست « امتثال » والدة « سلام » وكانت على أحسن هيئة ، مرتدية فستاناً منقوشاً منشى كأنه الورق المقوى . وشعرها يلمع من تأثير المكواة الحامية . تقدمت نحو « شوقى » فى تهلل ، وبسطت ذراعيها ، وقالت فى صوت متهدج :

— أهلاً وسهلاً بابننا العزيز . أهلاً وسهلاً بابننا الحبيب . إن يوم عودتك ليوم عيد لنا عظيم !

وطوقته بذراعيها وقبلت رأسه . وسمعته يقول :

— إن سرورى برؤيتكم لا يقدر

ومسحت الست « امتثال » عينيها الدامعتين وقالت :

— لقد كنت أسأل عنك دائماً ولا يهدأ لى بال حتى أطمئن عليك

وتأملته طويلاً وقالت :

— ماشاء الله ! ماشاء الله ! ربنا يحفظ لك شبابك يا ابنى

ووقع بصرها على « سلام » فاكفهر وجهها ، وقالت لها فى لهجة ثائرة مكتومة :

— أبهذه الهيئة تقابلين زوارك ؟

ثم التفتت سريعاً إلى « شوقى » وقالت :

— لم تقصد « سلام » أن تظهر أمامك هكذا. لقد جمحت بها الفرس وضللتها فتأخرت فى العودة على غير رغبة منها ، فلم تستطع أن تغير ملابسها ...

فقالت « سلام » فى هدوء وهى تداعب عصاها :

— كلا ياأمى . لم تجمح بى الفرس ولم تضللنى .

فنظرت إليها أمها نظرة ملتهبة ولم تتكلم . وقال « شوقى » وهو يبتسم :

— إن ركوب الجياد رياضة جميلة . وانى أهواها

* * *

اختفت « سلام » بعد هذه المقابلة ، ولم تظهر إلا وقت الغداء . وكانت ترتدى فستاناً عادياً غاية فى السذاجة . ولم تعتن بزينتها . فثارت ثائرة أمها ، ولكنها لم تستطع أن تتكلم . والتفت « شوقى » نحو « سلام » وقال فى لهجة مخلصة :

— لقد أحسنت اختيار هذا الفستان يا « سلام » . إن لونه وتفصيله يشهدان بذوق سليم

فأجابته فى لهجة مؤدبة عليها مسحة الجفاء :

— أشكرك

وقالت « تسفير » العجوز :

— إنه من تفصيلها يا سيدى . ألا تعلم أن « سلام » خياطة ماهرة ؟

فقال :

— لقد كانت وهى صغيرة تجيد تفصيل البلاطى لقططها ، وطالما خاطت لى أزراراً ساقطة ورتقت فتوقاً فى ملابسى

ونظر إليها ، فابتسمت ابتسامة رسمية . وقالت تسفير :

— إنها كانت تفصل وتخيط جميع (مرايلها)

فقال شوقى :

— هذا صحيح . وعلى ذكر المرايل أذكر كيف أنى دلقت مرة الحبر على واحدة فأتلفتها تماماً . . .

ألا تذكرين ذلك يا « سلام » ؟

فقالت فى لهجتها الرسمية :

— لا أذكر

— كان ذلك قبل سفرى ببضعة أيام ، عندما جئت تطلبين مساعدتى فى حل بعض المسائل الحسابية ! فلم تجب . ثم حولت رأسها ناحية الباب وقالت للخادمة :

— متى تحضرين الأكل يا سيدة ؟

* * *

بدأ الأكل وانتهى ، و « سلام » لم تفتح فمها إلا لتجيب بنعم أو لا ، أو غير ذلك من الكلمات الرسمية ، وكان كل ذلك مصحوباً بابتسامة مغتصبة أو إشارة مقتضبة . وكانت أمها تغلى كالمرجل ، وطالما رمقتها بنظرة تأنيب حادة أو عتاب مر .

أما « تسفير » . فقد باءت بفشل مروع فى محاولتها إضحاك « سلام » أو تحريضها على الكلام . وقد أنقذ « شوقى » الموقف بحديثه المسلى عن سفره وحياته فى أوربا وما اعتزم أن يفعله الآن

وترك الجميع حجرة المائدة . وذهب « شوقى » إلى الشرفة ليدخن سيجارة ، وانتحى ناحية فى ركن بعيد ، وأخذ يفكر فيما مر عليه الساعة من

مشاهد ، وهو حائر لا يستطيع لها تفسيراً . وبينما كان على هذه الحال رأى « سلام » تدخل الشرفة . وما كادت عيناها تقعان عليه حتى توقفت عن السير وتأهبت للعودة وهى تقول :

— لا مؤاخذة !

وسار إليها « شوقى » وقادها إلى الطنف وقال لها فى عتاب :

— أيزعجك مرآى إلى هذا الحد ؟

— أنت بلا شك متعب وتطلب الخلوة لتستريح !

— الحمد لله . هذه أول جملة طويلة أسمعها منك منذ حضورى

— ماذا تعنى ؟

— أتذكرين كيف كانت « سلام » الصغيرة تملأ المنزل كله بكلامها وضجيجها ؟

فابتسمت فى إهمال وقالت :

— إن « سلام » الصغيرة قد ماتت !

— ولكنها تعود إلينا أبهى وأعظم مما كانت .

وأمسك يدها يداعبها فسحبتها منه وخرجت .

و « شوقى » ينظر إليها فى حيرة

***

ومضى أسبوعان « وسلام » لم تغير مسلكها نحو « شوقى » كما أنها لم تبدل شيئاً من حياتها التى اعتادت أن تحياها . فلم تكن تطيل وقوفها معه . بل تقتصر على السلام وتبادل الكلمات القليلة . وكان يحس بأنها تتجنب مرآه بقدر المستطاع ، مع محافظتها على الظاهر فى أدب ولياقة . ولم تستطع أمها بعتابها تارة وتوبيخها تارة أخرى أن تحملها على تغيير مسلكها . فتركتها وشأنها خشية أن تسوء العاقبة .

وعجب « شوقى » من أمر نفسه . إن اهتمامه بهذه الفتاة يزداد يوما بعد يوم . لقد عرف مواعيدها فهو يراقبها ويستمتع بمرآها وبحديثها القصير المبتور كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وهو بجوار الباب كلما خرجت للركوب وكلما عادت . وهو تحت نافذة حجرتها يصغى فى شوق وحنين لأنغام البيان التى تعزفها . وهو فى الحديقة وقت نزولها إليها عصراً لتجمع الزهور . يسير جيئة وذهابا فى الممشى الكبير وفى يده كتاب مطبق . ويبادلها التحية من بعيد أو من قريب . وكان أحب الأوقات إليه أن يذهب إلى مخبأ يطل على شرفة حجرتها حيث كانت تتمدد على مقعدها الطويل بعد خروجها من الحمام تجفف فى الشمس شعرها الأسود الطويل ، وقدماها العاريتان المشربتان بحمرة فاتنة تلمعان فى الضوء القوى . فكان يعجبه هذا المنظر الرائع ويشتهى أن يشبع عينيه منه طيلة العمر

وكانت «سلام» تعيش فى مملكة خاصة بها هى نفسها . لا أقارب ولا أصدقاء تزورهم أو يزورونها . أحب الأشياء إليها نزهة على ظهر فرسها فى الأماكن الطلقة الفسيحة غيطاناً كانت أو رمالاً ، أو كتاب تقضى الساعات تستمع إليه صامتة ، أو أمام «البيان» تفضى إليه ويفضى إليها بشكايات طوال . . .

هذا العالم الذى تعيش فيه « سلام » والذى يتراءى للناس ضيقاً مملولا أخذ يتكشف لشوقى عن دنيا واسعة تزخر بالكنوز ؛ ولكنها ظلت دنيا بعيدة المنال عنه

وكره « شوقى » هذا الغموض الغريب القائم بينه وبين « سلام » . فاستولت عليه فكرة جريئة اعتزم تنفيذها مهما يكلفه الأمر

نزل يوماً إلى الحديقة وكمن للفتاة . وبعد قليل

جلست وأخذت تقطف الزهور . وكان المكان خالياً يغمره الصمت . وخرج « شوقى » من مخبئه ، وانسل إليها من الخلف فأمسك رأسها وأداره ناحيته بسرعة ، وطبع على فمها قبلة عميقة حارة . ثم تركها . . .

فوقفت الفتاة برهة أمامه مصعوقة لا تتحرك ولا تتكلم . ثم احمرّ بغتة وجهها واحتقنت عيناها وقالت وهى ترتعش :

— أتجرؤ على ذلك ؟

وتهدّج صوتها وانحبس . ثم رآها ترفع يدها فى وجهه . ولكنها أنزلتها ، واستدارت بسرعة وجرت صوب المنزل . ووقف « شوقى » يراقبها حتى اختفت . لقـــد رأى عينيها تلمعان بوميض غريب لم يره من قبل . وجرى خلفها حتى وصل إلى حجرتها ، فوقف بجوار الباب يتسمّع . فوجدها قد ألقت بنفسها على السرير واندفعت تبكى فى شدّة وحرارة ؛ فصبر عليها حتى انتهت من البكاء ، ثم دخل الحجرة فى خطوات بطيئة ، فرآها جالسة على السرير تجفّف بقايا دموعها . وما إن وقع بصرها عليه حتى أشارت له إلى الباب وقالت فى حدّة :

— اخرج ! !

فتقدّم نحوها وقال فى هدوء :

— ألا أستطيع أن أعلم سبب هذا الخصام ؟

فصاحت :

— خصام ؟ ! أى خصام ؟ ! ...

— خصام أو جفاء . سمه كما تشائين

وجلس على مقعد بالقرب من السرير ، وقال فى حنو وإخلاص وهو يحدّق فيها تحديقاً عميقاً :

— ألم تدرك شيئاً من أمرى يا « سلام » ؟ ! ألم تكتشفى شيئاً مما يضطرم فى قلبى نحوك ؟ . فلم تجب . وكانت تنظر أمامها ولا تتحرك .

فقال :

— لماذا لا تجيبين ؟

وأراد أن ينال يدها ، فأبعدتها عنه وهى تقول فى اصرار :

— دعنى واخرج . قلت لك دعنى واخرج !

فصمت برهة وهو متعجب متحير ، ثم قال :

— ألى هذا الحد تكرهيننى يا سلام ؟

— أجل . أكرهك . أكرهك

— ولماذا تكرهيننى ؟ !

— لأنك أنانى ، بطال ، قلبك من حجر ... أتذكر ليلة سفرك ؟

— اذكرها كحلم بعيد

— أما أنا فأذكر حوادثها كأنها حدثت أمس . إن مشاهدها محفورة فى ذاكرتى

وصمتت برهة تستعيد ذكريات الماضى ، ثم قالت فى لهجة أقل حدة من ذى قبل :

— . . . كنتَ مشغولاً بترتيب أشيائك . تروح وتجيء وأنت تصفر مغتبطاً ، وكنتُ أتبعك صامتة وأنظر إليك فى تحسر . فالتفتّ نحوى بغتة وقلت فى حدة : « أجلسى هنا ولا تتبعينى » . فجلست وأنا لا أفهم سبب حدّتك ، وأحاسب نفسى فيما يكون قد بدر منها فكان سبباً فى غضبك ... كانت عيناى لا تفارقانك وأنت تروح وتجيء مشغولاً دائماً بأشيائك وحقائبك ، أسمع صفيرك ذا الروىّ الواحد وأنا صامتة . وطالت جلستى ، وأوشكت أن تقفل الحقائب ، فشعرتُ

بغتة بدافع قوى يدفعنى نحوك . فقفزت وتعلقت بك ، وقلت لك فى سذاجة بريئة : « لماذا لا تأخذنى معك ؟ »

فنظرت إلىّ فى سخرية وغيظ ، ثم دفعتنى بيدك ، وخرجت من الحجرة كالزوبعة . فى تلك اللحظة شعرت لأول مرة بأن غشاوة كانت تغشى عينى وأنها أخذت تنقشع . فخرجت أجرى إلى حجرة الفرش وجلست القرفصاء فى ركن من أركانها ، ولم يخفنى الظلام ؛ بل أنست به ، لأنى كنت فى حاجة إلى الوحدة والتفكير . وأخذت أعرض حياتى معك على ضوء جديد ، فوجدتها غريبة جداً . . . أجل كانت غريبة جداً ، كنت أعتقد أننى لا أستطيع أن أعيش بدونك . كنت أنزل إلى الحديقة وانتظر عودتك من المدرسة . أعد الدقائق واللحظات ، فما أكاد ألمحك حتى أهرع إليك مهللة باشّة فتستقبلنى فى جفاء ، وتلقى على تحيتك كما يلقى السيد تحيته على خادمه . ثم تعطينى محفظتك المكتظة بالكتب فأحملها لك راضية إلى حجرتك . . . وكنت أحب أن أحادثك لأسليك فتصدنى وتشعرنى بأن حديثى سخيف لا يليق أن يسمعه شخص مثلك . وإذا حدثتنى فحديثك دائماً عن شخصك وعن مشروعاتك وعن النجاح الذى ينتظرك . . . دائماً عن نفسك ، دائماً . . . وكنت أصغى إليك فى اهتمام وشغف ، ولا أمل حديثك . وأتصورك وقد غدوت عظيما من العظماء ، كقائد منتصر أو كملك كبير ، ينظر الناس إليك نظرة الخشوع والاكبار ، وأنظر إليك أنا نظرة العبادة . وكنت أنتظر منك — فى ذلك الوقت — بالرغم من ذلك ، شيئاً ، شيئاً واحداً . كلمة ، أو أشارة ، أو ابتسامة ، تحمل المعنى الذى أطمع فيه .. ولكن لم يلفظ لسانك بتلك الكلمة ، ولم تبد منك هذه الاشارة ... وفى يوم رحيلك ذهبت إلى البهو مبكرة واختبأت خلف إحدى الستائر . وانتظرت هناك طويلاً ، وأنا أرتجف وقلبى يدق بشدة ... ورأيتك أخيراً وحولك أهل المنزل تودعهم ويودعونك . وتذكر اسمهم اسماً اسماً ، ولم أسمعك تسأل عنى أو على الأقل تبعث إلى بتحيتك . وخرجت وأنت متهلل الوجه ، تصفر بذلك اللحن ذى الروى الواحد ؛ وخرج الجميع يتبعونك إلى الحديقة ، وأقفلوا الباب ، فلم يعد فى البهو سواى . فتركت مخبئى وهرولت إلى حجرة الفرش ، وحبست نفسى فيها طول اليوم ، أذرف الدمع صامتة . . . من ذلك اليوم كرهتك وكرهت « الرجل » فى شخصك . لقد كنت وقتئذ صغيرة جاهلة غبية ، يحق لك أن تقول ذلك . ولكن كان لى قلب ، وكانت لى أحلام ، فدست ذلك القلب ، وحطمت هذه الأحلام . أما أنت فقد تجمع فيك كل شىء : ذكاء ، وعقل ، وعزيمة . ولكن كان يعوزك شىء واحد وهو فى نظرى كل شىء ...

فتمتم شوق :

— . . . ولكن كان ذلك فيما مضى ، أما اليوم . . .

— لقد فات الأوان ، إن الهاوية التى بيننا سحيقة جداً ، ولا يمكن أن نتخطاها

وصمتت ، و « شوق » ينظر إليها ولا يتكلم ، وطال صمتها . وأخيراً قام « شوق » وتناول يدها فى سكون ، وطبع عليها قبلة عميقة ، ثم خرج بلا كلام ! !

* * *

ومضت الأيام ولاحظ الناس على « شوق » تغيراً كبيراً ! لقد قلَّ كلامه ، وغاضت ابتسامته ، وكثر تفكيره ، وآثر الوحدة فى حجرته أو فى ركن ناء مختف فى الحديقة ، يقضى وقته يفكر فى كآبة . وكان يتجنب جهد إمكانه مقابلة « سلام » ، فاذا اضطر إلى لقائها سلم عليها فى أدب ، ولم يطل وقفته . أما هى فقد عجبت وازدادت انطواء على نفسها . وكانت عيناها الواسعتان السوداوان قد أخذتا فى الذبول وانطبعت عليهما آثار البكاء ، تنطقان بحيرة وقلق ويأس دفين !

وفى ذات يوم من الأيام كان « شوق » فى حجرته يرتب أشياءه فى حقائبه ، تساعده « تسفير » العجوز . وكان يعمل صامتاً ، ولا يجيب على أسئلة « تسفير » إلا فى اقتضاب ، والمرأة حائرة حزينة ، وسمعها شوقى تقول :

— وإلى أين تسافر ياسيدى ؟

— خارج القطر

— أين ؟ ...

— لا أدرى !

— ولماذا عدت إلينا إذن ؟ !

— العلم عند الله

.... وفى الصباح المبكر تأهب المنزل لوداع « شوق » ، وخرج الفتى إلى البهو وهو يحمل معطفه على يده . كان يسير متمهلاً ، ويسلم على من حوله فى وداعة عليها مسحة الكآبة . وقبل أن يتخطى الباب وقف والتفت حوله يؤمل أن يرى شخصاً معيناً بين الحاضرين ، فلم يجده ، ووقع بصره فجأة على إحدى الستائر وكانت تهتز ، فأخذ يحدق فيها وقلبه يخفق أهو الهواء يحركها أم هوشىء آخر ... ؟ وطالت وقفته كما طال تحديقه فى الستارة ، وقد تتابع خفقان قلبه ... ولكن الستارة سكنت ولم تعد تتحرك ... فحوّل وجهه نحو الباب وهو يوسع الخطى !

محمود تيمور

اليَنُورا

للكاتب الأمريكي إدجار الن بو

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

لقد انحدرت من قوم أخص صفاتهم الخيال المشبوب والعاطفة الملتهبة، ولقد دعاني الناس بالمجنون! ولكن الناس لم يصلوا بعد إلى رأى فى الجنون. نعم إنهم لم يستطيعوا أن يقرروا ما إذا كان الجنون هو الذكاء فى نسقه الأعلى أم إنه ليس من الذكاء فى شىء. لم يستطيعوا أن يقطعوا برأى فى القضية الآتية :

أليست كثرة أفكارنا المتميزة بالسمو، بل وجميع مايتصف منها بالنضوج والعمق، إنما هى صادرة عن مرض فكرى أو حال غريبة من حالات العقل تسمو وتعظم على حساب غيرها من ملكات التفكير؟ وإن هؤلاء الذين يحلمون فى النهار لخليقون أن يصلوا إلى أشياء تغيب عمن لا يحلمون إلا فى الليل؛ ففى رؤاهم الشاحبة تتراءى لهم لُمَعٌ من الخلود، حتى إذا ما استيقظوا سرت فى أجسامهم النشوة أن كانوا على حافة السر الأكبر!

وعلى هذا أقول إنى مجنون! أو على الأقل أسلم أن هناك ناحيتين فى وجودى الفكرى تتميز إحداهما من الأخرى؛ فأولاهما ناحية البصيرة التى لا تقبل الجدل، وتتصل بذكريات العهد الأول من حياتى، وأخراهما ناحية الشك والغموض، وتتصل بالحاضر كما تتصل من الذكريات بما يكون العهد الثانى من وجودى.

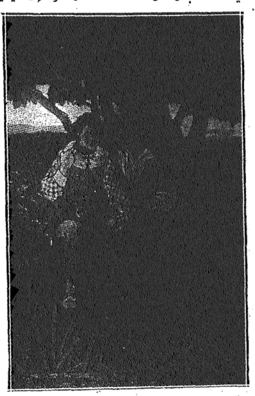
وعلى ذلك فاذا حدثتك عن شىء من عهدى الأول فصدقه؛ أما عن العهد الثانى فأنت مخير بين أن تقابل ما أحدثك به عنه بما يستحق من الثقة، أو أن ترفضه رفضاً تاماً!

كانت تلك التى أحببتها فى صدر شبابى والتى أتلو عليك من ذكريات غرامى بها ما أتلو فى هدوء ووضوح، الابنة الوحيدة لخالتى الوحيدة التى ودعت هذا العالم من زمن بعيد. وكانت ابنة خالتى هذه تدعى ألينورا؛ ولقد عشنا متلازمين فى واد كثرت ألوان زرعه، سميناه «وادى الألوان»، وما كانت تستطيع قدم غريبة أن تهتدى إلى مسالك هذا الوادى؛ ذلك لأنه كان يقع على ربوة عالية تحيط بها شعاب شاهقة كثيراً ما تحجب الشمس عن عدد من بقاعه. وفضلا عن ذلك لم يكن ممراً لأحد حتى تشق الأقدام طريقاً فيه؛ وكثيراً ما كنا نضطر ونحن عائدان إلى منزلنا أن نفسح طريقنا بأيدينا بين الأغصان المشتبكة فى كثير من المشقة، كما كنا نطأ بأقدامنا آلاف الزهرات فنقضى على الكثير من معالم الجمال فى هذا الوادى... هكذا عشنا وحيدين سعيدين لا نعرف شيئاً عن الحياة وراء وادينا الجميل، أنا وخالتى وألينورا

فى هذا الوادى الحبيب يجرى نهر ضيق عميق قد انحدر إليه من منبعه فوق هاتيك الجبال ؛ وكان لهذا النهر الجميل بريق غريب أشد لمعاناً من كل شىء إلا عينى ألينورا ! وكان كثير المنعطفات ، إلا أنه كان يجرى ساكناً وادعا ، يشعر المرء على ضفتيه بميل قوى إلى السكينة والهدوء ؛ ومن أجل ذلك سميناه « نهر السكون » . وكانت تمتد على ضفتى هذا النهر ، وعلى ضفاف الغدران التى تنساب إليه بسط وثيرة من العشب النضير ، سالت فى نواحيها الألوان التى تملأ الجو بعبيرها الفياح ، فمن زهرات صفراء فاقعة وساطعة ، إلى زهرات بيضاء يستوقف البصر بياضها ، إلى قرنفلات حمراء ملتهبة ، إلى ورود قرمزية رفافة ، إلى محاجر بنفسجية باسمة ، إلى غير هذه وتلك من مؤتلف الزهر وشتيته ، مما يزدان به الوادى ويبلغ به حداً بعيداً من الجمال العبقرى ، ذلك الجمال الذى كان يتحدث إلى قلبينا فى صوت جهورى عن الحب وعن عظمة الله الخالق البارئ المصور .

وكانت تتناثر فى أنحاء وادينا أشجار باسقات يجدها المرء هنا وهنالك فى بقاع من العشب الأخضر شبيهة بما يراه النائم من الجنات ، وكانت تجمع جذوعها بين سواد الأبنوس وبياض الفضة ، وكانت ناعمة ، ناعمة تفوق كل شىء فى نعومتها إلا خدى ألينورا . ولولا ما كانت تراه العين فى ذراها من الأوراق لأوحى إلى المرء خياله بأنها مجموعة من ثعابين سوريا الهائلة ، تؤدى فى تمايلها واجب الخضوع إلى القوة المسيطرة عليها وهى الشمس !

فى هذا الوادى الساحر كنت أتجول كل يوم أنا وألينورا ، ويدها فى يدى ، وقضينا على هذه الحال خمسة عشر ربيعاً قبل أن يعرف الحب طريقه إلى قلبينا ، إلى أن كنا ذات مساء جالسين تحت هاتيك الأشجار ، وهنالك تعانقنا ونظرنا إلى خيالينا



فى « نهر السكون » . ولم تنفرج شفتانا عن كلمة أثناء هذا العناق ، وظللنا صامتين بقية النهار إلا عبارات مضطربة حائرة عما كنا ننوى أن نفعله فى الغد . وكأننا أخرجنا من النهر قوة خفية أشعلت فى روحينا جذوة آبائنا الأولين ؛ فلقد أحسسنا أن حدة العاطفة التى امتاز بها جنسنا على مر القرون مشفوعة بما عرفوا به أيضاً من قوة الخيال قد دب دبيبها فى نفسينا ؛ وسرعان ما بث ذلك فى « وادى الألوان » روحاً جديدة .

رأينا يد التغيير تمتد إلى كل شىء هنالك . فقد انبثقت زهرات بيضاء ناصعة فى شكل النجوم على أغصان لم يكن يزينها زهر من قبل . وازدادت نضرة البسط الخضراء فى أعيننا ، وكانت إذا

انطفأت الزهرات البيض لا تلبث أن تحل محلهن عشرات من الزهرات الحمر المشتعلة ؛ وفضلاً عن ذلك فقد دبت الحياة فى مسالك الوادى ، فلقد رأينا الطاووس فى موشيته العبقرية يختال فى حاشية من الطيور الجميلة ما كانت تقع عليها الأعين من قبل . ورأينا ماء النهر يزخر بالسمك الفضى اللون ، وقد انبعث منه خرير حلو ما تزال تعلو نغماته حتى تنتهى إلى هدهدة جميلة ، أكثر قداسة من أنغام قيثارة « أولوس » ، وأحلى غناء من كل صوت إلا صوت أليونورا . وإذا رفعنا أبصارنا إلى السماء رأينا قوس الغمام الذى كنا نراه من قبل عظيم البعد ، قد اقترب منا حتى ارتكز من طرفه على قمم الشعاب المحيطة بنا فظللتنا ألوانه الجميلة وحولت ما كان يكتنف الجبال من كآبة قابضة إلى رواء بارع ، وصرنا حياله نشعر كما لو كان يحجزنا إلى الأبد فى بقعة من الجمال والعظمة

كان جمال أليونورا جمالا ملائكياً ؛ ولكنها كانت فتاة ساذجة بريئة ، فلم يتخذ ذلك الحب الذى أيقظ قلبها من الخديعة حجاباً يخفى قوته ويستر توقده . تبينت ذلك فى خلال حديثنا بين الأزهار فى « وادى الألوان » ، حينما كانت تشير إلى ما طرأ على الوادى من تغيير .

وأخيراً ، حدث أن أفضى بنا الحديث ذات يوم إلى الخاتمة المحزنة التى لا بد أن يصير إليها أهل الفناء . وكنا نحبس دموعنا أثناء ذلك الحديث ؛ ومنذ ذلك اليوم رأيتها تعاود الكلام فى هذا الموضوع ، وصارت تدخله فى جميع أحاديثنا ، على نحو ما تراه فى أغانى شاعر شيراز من تكرار الصور فى كل عبارة يكسبها شكلا أخاذاً من الايضاح والبيان .

لقد أحست أن أصبع المنون يمس قلبها ، وأنها كبعض الزهرات الغضة فى الوادى ما خلقت تامة الجمال إلا لتموت ؛ ولكن الرعب الذى يبعثه القبر كان يتراءى لها فى فكرة كشفت لى عنها ذات مساء وقت الطَّفل على ضفة « نهر السكون » . كان يزعجها أن تفكر أننى حينما أوارى جثمانها فى « وادى الألوان » لابد أن أنصرف عن هذا المكان الجميل ، ومن ثم فلا بد أن ينصرف حبى الذى أمنحها إياه الآن فى هيام وشدة إلى فتاة غيرها ممن يعشن خارج الوادى ، إلى فتاة عادية ممن يصادفهن المرء كل يوم فى هذه الدنيا .

هنالك ألقيت نفسى فى لهفة وسرعة على قدمى أليونورا وفهت أمامها بقسم أشهدت الله عليه أننى لن أتزوج بعدها أية فتاة من بنات الأرض ، وأننى لن أظهر ما عشت ما يشعر بتغافلى عن ذكراها العزيزة ، أو ذكرى حبها الصادق القوى الذى غمرت قلبى به وجعلتني أعرف فى ظله نعيم الحياة ؛ ثم اتجهت ببصرى ثانية إلى السماء وأشهدت على قولى الله المسيطر على ملكوت السموات والأرض . وإن اللعنة التى رضيت أن ينزلها على إن أنا حنثت فى يمينى ، وصورة العذاب التى قبلت أن يحل بى ، ليبعثان فى الأفئدة من الرعب والفزع ما لا أسمح معهما بتفصيل فى هذا المقام . ثم نظرت إلى عينى أليونورا اللامعتين ، فرأيت بريقهما يشتد مع كلماتى ، ثم رأيتها تتنفس الصعداء كما لو أنها ألقت عن صدرها عبئاً كاد يزهقها . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذتها رعدة شديدة وتساقلت دمعها السخين . ولكنها قبلت يمينى وصدقت دعواى . وليت شعرى ماهى ؟ ألم تكن طفلة غريرة ؟ يا لها من فتاة بريئة ! لقد

جعلتها عباراتى تنظر حتى إلى الموت نظرة هدوء ويسر . ولقد أفضت إلى بعد ذلك بأيام ، وهى تخطو إلى الموت خطوات هادئة ، أنها جزاء وفاقاً لما فعلت ولما أخذت على نفسى العهد الذى أثلج خاطرها وطمأن روحها ، ستُعنى بى فى السماء حينما تسلم الروح ، وإذا سمح لها فستظهر لى فى جلاء بين أطياف الليل . وإذا كان هذا فوق مقدور الأرواح فى جناتها فسوف تشعرنى بوجودها بمختلف الاشارات فأسمع تنهداتها فى رياح المساء ، أو أشعر بالهواء محملاً رائحة عبير الملائكة ونفحات الفردوس . . . وفى مثل هاتيك الأحاديث الحلوة تنفرج عنها شفتاها الجميلتان أسلمت روحها البريئة إلى بارئ الحياة

* * *

كان قوام حديثى حتى نهاية هذه المرحلة من تاريخ حياتى الاخلاص والصدق ، ولكنى حينما أجتاز ذلك السياج القائم فى طريقى ، ذلك السياج الذى كونه موت حبيبتى ؛ وحينما أخطو أول خطوة فى المرحلة الثانية أحس كأن ضباباً ينعقد أمام بصرى فيتركنى فى حيرة . لا أدرى إن كان ما أتلو بعد من حديث سيحمل على التعقل أم سيحمل على الجنون ! ولكن دعنى آت بالحديث على سرده

تعاقبت السنون وئيدة الخطى طويلة المهل ، وما زلت مقيما فى « وادى الألوان » ، ولكن يد التغيير قد تناولت للمرة الثانية كل شىء هنالك ؛ فلقد تناثرت تلك الزهرات الشبيهة بالنجوم ولم تعد تراها العين بعد ، ورغبت تلك البسط الخضراء عن لونها الساطع ، وانطفأت الزهرات الحمر واحدة بعد واحدة وحلت مكانها زهرات شبيهة بالعيون السود ، كانت تذوى فى بطء ، ولم يكن يعلق بها الندى ، واختفت الحياة من مسالك الوادى ، فلم نعد نرى الطاووس فى زاهى ألوانه ، اللهم إلا فى أويقات كانت تأخذه العين فيها كاسفاً حزيناً راحلا عن الوادى إلى قمم التلال تتبعه جماعات الطير اللواتى أتين معه قبل ذلك . واختفت من مجرى نهرنا تلك السمكات الذهبية الفضية التى كانت تزينه من قبل ، وأخذ يخفت ذلك الخرير الحلو الذى كانت تفوق غماغمه وهدهدة أغانيه من قبل قيثارة « أولوس » سحراً ، والذى كان صوته أكثر قداسة من كل صوت إلا صوت أليونورا ؛ أخذ يخفت ذلك الخرير حتى احتبس وعاد النهر إلى سالف سكونه ، وذاب قوس الغمام ، وتلاشت فى السموات ألوانه البهيجة التى طالما ظللتنا فى هذا الوادى

ولكن أليونورا صدقت وعدها ؛ فلطالما سمعت حفيف رهط الملائكة ؛ ولطالما استنشقت العبير المقدس فى أرجاء الوادى . وفى ساعات تأملاتى حينما كانت تتوالى نبضات قلبى ، كنت أتبين فى هسيس الرياح التى تمس جبينى تنهداتها التى وعدتنى ! كما كنت أتبين فى كثير من الأحيان غمغمة تتناوح بها ريح المساء . وحدث ذات مرة ... آه ولكنها مرة واحدة ! حدث أن أفقت من نومة عميقة كأنها الموت ، على ضغط شفتين علويتين كانتا تلاصقان شفتى !

ولكن الفراغ الذى أحسسته فى قلبى أبى أن يمتلئ حتى على هذه الصورة ؛ وتاقت نفسى إلى الحب الذى أفعم من قبل ذلك القلب حتى طفح به . وأخيراً أصبح الوادى مبعث ألم لفؤادى لما يثيره من ذكريات أليونورا ، فتركته إلى غير رجعة ، واتخذت طريقى إلى مضطرب من هذه الدنيا حيث

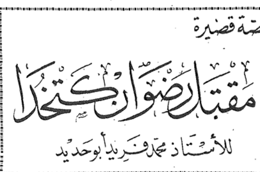
تزخر الحياة بالغرور والمتاعب والفوز ! !

* * *

ألفيت نفسي في مدينة غريبة ، كان كل شيء فيها جديراً بأن ينفي من الذاكرة أحلامي الجميلة التي ورثتها من « وادي الألوان » ؛ فلقد أذهلني وحير عقلي ما وقعت عليه عيناي من مظاهر العظمة والأبهة في ردهات البلاط ، وملأت نفسي قعقعة السلاح ، واستوقف بصري جمال النسوة ومفاتنهن ، ولكن روحي على الرغم من ذلك ظلت أمينة للعهد الذي قطعته والقسم الذي أديته ؛ وزيادة على ذلك كان شبح ألينورا وكل ما يشعرني بحضورها يملأ المكان حولي في سكون الليل ! ولكن ... على حين فجأة تلاشت كل هاتيك الرؤى وأظلمت الدنيا في عيني ، ووقفت مشدوها أمام الفكرة الذاعة التي ملكتني . أمام العزم المرعب الذي ملك قيادي ! ذلك أنه وفدت على الحاشية الملكية المرحة حيث كنت أعمل ، فتاة من بلاد نائية لم أعرفها ، فتاة استأثرت بلبي ، وأخذ سحرها بمجامع قلبي ، منذ اللحظة التي وقع فيها على شخصها بصري ؛ فتاة لم أتردد ، ولم أحس بمشقة عندما أحنيت رأسي لها في أشد ما يكون عليه العاشق من حماس ، بل وفي أحط ما يتطلبه الحب من عبودية ! وأين ما شعرت به من عواطف نحو فتاة الوادي الصغيرة من هذا الهوى المشبوب وهذا الهيام الجامح ، وهذا التحنث الذي ينبض به قلبي حينما أريق روحي عبرات سيالة ، وأنا ملق على قدمي « ارمنجارد » ؟ ومن هي « ارمنجارد » ؟ أليست ذلك المخلوق السماوي الذي يرق حتى عند الأثير ؟ آه ... يا حسنها ! يا حسن ذلك الملاك الرفاف « ارمنجاد » . ما أطهرك وما أعظم قداستك أيها الملاك ! إنها تملأ جوانب نفسي فلا أفكر في سواها . وحينما ألقي نظرة على عينيها النجلاوين ، وأرى مدى ما في معناها من عمق ، لا أفكر إلا فيهما . وفيها لقد تزوجت غير خائف مما استنزلته على نفسي من اللعنات ، ولم أشعر يوماً بشيء يزعجني لحنثي في يميني . وحدث مرة — ولكن مرة واحدة في سكون الليل ، أن تسربت إلى حجرتي خلال الستائر تلك التنهدات الناعمة التي هجرتني ، وحولت نفسها إلى صوت جميل مألوف قائلة :

« نم في سلام ! فان روح الحب تحكم وتسيطر ؛ وإذا كنت تحل في قلبك اليوم تلك التي تدعى ارمنجارد ، فلقد غفر لك ما كان منك تجاه قسمك أمام ألينورا ، وأصبحت بريئاً من الأثم لأسباب سوف يكشف لك عنها حينما ترقى إلى السماء » !

محمود الخفيف



قصة قصيرة

مقتل رضوان كتخدا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

يميل أهل هذه الأيام ولا سيما الشبان منهم إلى التكذيب ؛ فهم إذا سمعوا شيئاً ووجدوه غريباً عن تصورهم أسرعوا إلى الأجابة قائلين : « هـذا كذب » والتكذيب لا يكلف الانسان شيئاً أكثر من أن يهز رأسه ويقول فى تؤدة ووقار : « هذا غير معقول » وقد يقرن قوله هذا بابتسامة هادئة دليلاً على التسامح ، كأن العقل الانسانى قد عرف كل شيء ، فاذا كان شيء غير معقول ، كان غير مقبول . والحقيقة أن العقل الانسانى لم يدرك إلا أبسط ما فى الكون ، ولم يفهم إلا أقل ما فى الخليقة . فأسرار الكون لا تزال بعيدة المنال عنه مستعصية عليه ؛ وما أحراه أن يصدق وأن يتنازل قليلاً عن كبريائه وعناده !

فاذا قال قائل مثلاً إن العالم مملوء بالجان لوى أهل هذا الزمان أعناقهم ونظروا إلى القائل شزراً . وقالوا متهانفين : « جان ! يقول صاحبنا هذا إن العالم مملوء بالجان ! كأنه قد رأى الجان بعينيه ! »

ولو تأمل هؤلاء قليلاً لعلموا أنهم مخطئون ، فان العين لا تبصر إلا بعض الموجودات ، فاذا هى لم تبصر شيئاً فليس عدم إبصارها دليلاً على عدم وجوده . وكذلك إذا قال أحد : « إن العالم مملوء بالأرواح » فان من يسمعه من أهل هذا الزمان حرى بأن يجيبه فى سخرية وصلف قائلاً : « أرواح ! ولم تبق الأرواح فى أرضنا هـذه إذا كان فى العالم أرواح ؟ »

والحق أن محاولة إقناع أمثال هؤلاء من أعسر الأمور ، فان كل إنسان يستطيع أن يسأل أسئلة معجزة من هذا النوع فلا يجد أحد جواباً عنها

ومن المستحسن بعد ذلك أن أوجه حديثى منذ الآن إلى من يصدقونه ، فاننى رجل لا أطيق أن أكذب فيما شهدته بعينى ، ولا أحتمل أن يسخر أحد من القول الصادق

***

اعتدت أن أذهب إلى صديقى (على) فى منزل قديم من المنازل الأثرية الموقوفة قد استأجره ليجعله محترفا يذهب إليه بين حين وحين لكى يخلو إلى التصوير ، لأنه كان مصوراً ماهراً لمناظر الطبيعة . وكان ذلك المنزل على ما قال لى ذلك الصديق سكنا فى وقت من الأوقات للأمير رضوان بك الكبير أمير مصر وصاحب العمارات الأثرية ، وقطب دائرة الأدب والفن فى أواسط القرن الثامن عشر

وكان رضوان فى حياته الخاصة من أشد الامراء ميلاً إلى الترف واللهو ؛ وكانت له قصور عدة جعل واحداً منها لمجالس لهوه وطربه ، يجلس فى أبهائه الفخمة مع طائفة مختارة من الأدباء وأهل الفنون والموسيقيين ، فيقضى فيه ليالى كانت مضرب

الأمثال فى الروعة والأبهة ؛ ولكن مؤامرات منافسيه وحساده اتخذت فى قصوره سبلاً خفية انتهت بافساد بعض مماليكه عليه ، فخانه واحد منهم فى قصره وضربه بطلق نارى أصاب ساقه ، وكان سبباً فى موته بعد قليل . ويقال إنه قد ضرب تلك الضربة فى ذلك البيت الذى اتخذه صديقى لمحترفه ولوثت دماؤه أرضه فى أثناء هربه من المؤتمرين به

وكان صديقى يحيط ذلك المحترف بغريب الأثاث ، ولاسيما ما كان منه على نسق أثاث العصور الماضية ؛ فكانت فيه أنواع مختلفة الأشكال والأعمار ؛ فقطع قديمة من الخشب المخروط (المشبك) ، وقطع من النحاس المكفت ، وقطع من الأبنوس المطعم بالصدف والعاج ، كما كانت فيه كراسى قديمة من القش وأخرى من الخيزران ؛ وقد علق على الجدران قطعاً من تماثيل بعضها يمثل وجوها ، وبعضها يصور أجساماً ، وبعضها يمثل بعض الآثار الفنية من مخلفات اليونان والرومان ، ونصب بينها بعض لوحات من لوحاته تمثل الريف المصرى وحيوانه ، أو تمثل حدائق مصر ومناظر غيطانها ، وأدلى من السقف مصابيح من أنماط كانت مستعملة فى الأزمان الغابرة فى مختلف العصور . وكان أعجب ما علق على تلك الجدران بعض عظام للحيوان والانسان بينها جمجمتان صفراوان تنظران إلى الجالسين كأنما تقولان لهم : « لقد كنا كما تكونون »

وكنت أجد فى اختلافى إلى ذلك المحترف شيئاً كثيراً من السرور : سرور من نوع خاص ، ليس كالسرور المعتاد الذى يهز النفس ويبعثها إلى المرح والضحك ، بل سرور يملأ النفس بشعور قوى من الارتياح يشوبه كثير من الميل إلى الجد والاعتبار . ولعل هذا الشعور كان ناشئاً من جو المحترف ؛ فقد كان مكانه قديماً يشعر الداخل فيه أنه قد ولج بعض القرون الماضية . فاذا صعدت إلى سطحه رأيت حيالى الجبل الشرقى المشرف على القاهرة وعليه القلعة العتيقة قلعة صلاح الدين تطلع كأنها تحدث عما شهدته من جليل الحوادث وعجيبها . فاذا نظرت حولى رأيت مآذن المساجد تشرف على الحى كما كانت تشرف من قرون ، ورأيت البيوت القديمة المتهدمة ، وكأنها تقول : « رب يوم كنا فيه نعج بالحياة ونضطرب بالميول والعواطف ؛ فاذا نحن قد دكنا الزمان ، وعفى علينا البلى ، وأصبحت معالمنا أطلالاً وأكواماً ! » .

كان كل شىء حولى يحدث عن الماضى ، ولا يحيا فيه إلا ذكر الماضى . فكنت وأنا هناك أنسلخ من عصرى ومن الحياة الصاخبة حولى لأعيش حيناً مع أجيال الأجداد أجالسهم وأحادثهم وأناجيهم ، وكنت كلما التفت إلى الجدران ورأيت إحدى الجمجمتين المعلقتين عليها خيل إلى أنها قد اكتست فصارت على عهدها ، إذ كانت آدمية حية ؛ وتصورت حيناً أنها تبسم إلى وتناجينى بما كان من ملذاتها ومسراتها ، وحيناً أنها تقطب نحوى وتساورنى بما كان من آلامها وشقاوتها

وكنت إذا ذهبت إلى ذلك المكان لا أبقى فيه إلا ما دام النهار ؛ فاذا ما أقبل الليل أسرعت بالخروج منه قبل أن يخيم الظلام عليه ؛ فلقد كنت فى الحق أخشى أن يظلنى فيه الليل إذ كنت فى قرارة نفسى أفزع من جوه كما يفزع الانسان من الليل فى جوار القبور

وذهبت مرة فى يوم من أيام الشتاء على دعوة

من صديق ، وقضينا اليوم هناك حتى غروب الشمس . وكنت أشتغل فى أثناء ذلك بكتابة قصة من التاريخ ، وكان صديقى منهمكا فى رسم ثور مصرى قاعد إلى جنب مزود ، فلما أقبل الظلام تنبهت إلى نفسى ونبهت صديقى قائلاً له : « لقد آن أن نذهب » غير أنه تردد وقام إلى مصباح فأشعله وقال : « إننى أحب أن أبقى هنا إلى أن أنتهى من هذا الثور فقد طلبه منى أحد الأعيان ووعدت أن أرسله إليه فى الغد ، ولا أملك أن أتطلق من موعدى ؛ فاذا قضيت معى جزءاً من الليل حتى أتممته كنت شاكراً » . فلم أشأ أن أراجع صديقى فى رجائه ، وكنت كذلك أحس من نفسى ميلاً إلى الكتابة ، فرأيت فى البقاء هناك فرصة لأتمام ما بدأت كتابته ، فرضيت أن أبقى ، وأقبلت على ما كنت فيه ، وأقبل صديقى على إتمام صورة ثوره بحماسة وسرور . ثم تعبت من الكتابة بعد حين ؛ فاستلقيت فى مكانى ، فاذا بى وقد استولى النعاس على فنمت ؛ ولم أدر كم بقيت على حالى تلك إلى أن تنبهت على ضجة هائلة حولى فقمت مذعوراً ونظرت حولى فرأيت نوراً عجيباً ساطعاً من المصباح ورأيت المكان حولى على غير ما كنت أعهده ، فلقد كان مكسواً بانواع الفراش والأثاث ، وعليه أنواع شتى من الستور والطنافس ، وصفت حوله الوسائد والمسائد والزرابى ، وسمعت فى المكان لغطاً كثيراً ، كأن أشخاصاً يتخاصمون فيه ، وكنت من دهشى لا أستطيع أن أذكر أين كنت ، ولا من أنا ، ونسيت ذكر صديق ، ولم أملك نفسى مما دخلها من الروع . فجلست القرفصاء فى الركن الذى كنت فيه وتملكنى خشوع ، وعلتنى رهبة لم يكن لى معها مجال للتفكير ، وانجلت الضجة عن اثنين يتحادثان ، وقد أقبلا من وراء ستار من الديباج الأخضر رأيته إلى يسارى

ورأيت أحدهما شاباً صغير السن فى نحو العشرين ، جميل الصورة ، أبيض الوجه ، أصفر الشعر ، يلبس عمامة مطرزة بوشى مذهب ، وعليه لباس غريب لا عهد لنا به اليوم ، فهو سراويل فضفاضة من الحرير الأحمر فوقها حزام أصفر عسجدى ؛ وقد لبس فوق ذلك كساء من الحرير الأبيض ضيق الأكام عليه طراز من وشى مزركش بخيوط ذهبية . فكان فى مجموع هيئته صورة لما تنقله الينا أخبار التاريخ من صور مماليك الأمراء بمصر فيما مضى . وأما رفيقه فقد كان شيخاً يلبس ثوباً من الحرير المخطط الذى يلبسه اليوم أصحاب العمائم ، وقد شد على وسطه حزاما من الحرير اللون المنقوش ، وجعل على رأسه عمامة ساذجة بيضاء ؛ وكان يحمل فى يده حقيبة صغيرة وطستا من النحاس الاصفر مما كان مثله لا يزال مستعملاً عند الحلاقين منذ جيل . ولما اقترب الشخصان سمعت نجواهما

قال الشاب هامساً : سيحضر الأمير بعد قليل فاستعد

قال الشيخ : لقد دعانى الأمير على غير عادته

قال الشاب : هو مجلس حافل

فسأل الشيخ هامساً : بقصر الأزبكية ؟

فهز الشاب رأسه علامة الايجاب وقال : سيحضر اليه هناك ندماؤه جبريل واللقيمى وقاسم والادكاوى

فغمز الشيخ بعينه ، وتبسم قائلاً : ليلة أنس من لياليه !

فتبسم الشاب وقال : ليالى رضوان كتخدا المشهورة !

ثم اقترب منه وقال بحذر : والدواء ؟ هل أحضرته ؟

فسأل الشيخ باهتمام : هل يريده الليلة ؟

فهمس الشاب : ليلة أنس وفرح ؛ هل أحضرته معك ؟ الدواء ... ؟

فضحك الشيخ وأخرج من جيبه حُقا من الفضة ورفعه نحوه قائلاً : « ها هو ذا »

فتقدم الشاب نحوه وقد اتسعت عيناه وقال بشىء من اللهفة : « أرنى »

ثم مد يده اليه فأخذه بشىء يسير من القهر ثم فتحه وجعل يشمه

فاقترب الشيخ منه ، ومد اليه يده لاسترجاع الحُق قائلا : « حاذر ! »

قال الشاب : « لماذا أحاذر ؟ » ثم مد يده اليه يومىء كأنه يريد أن يذوق منه

فقال الشيخ : « لا تذقه ، لا أسمح لك ، هذا ليس لك ؛ هات الحق »

فتبسم الشاب وقال : « لماذا تخاف على منه ؟ أهو سم ؟ »

فأجاب الشيخ مقطباً : « قبحك الله ! وهل أحمل السم ؟ »

فأعاده الشاب اليه وقال : « لا بأس ؛ استعد الآن ، سيأتى الأمير بعد قليل »

فأخذ الشيخ الحق وذهب به نحو منضدة فوضعه فوقها ، ثم اتجه نحو منضدة أخرى وجعل يرص عليها آلاته . وفيما هو مشغول فى ذلك اقترب الشاب خلسة من الحق ، وأخرج من منطقته ورقة مطوية ، ثم فتح الحق بخفة عجيبة ، ورمى فيه مادة بيضاء مسحوقة سكبها من الورقة ؛ ثم أقفل الحق وبعد عنه وهو يغنى أغنية قصيرة ، وجعل يساعد الشيخ على إعداد الماء وترتيب الزجاجات والعلب

وقد عرانى وأنا أنظر إلى هذا شىء عظيم من الفزع ، ولكنى لم أجرؤ على التحرك من مكانى بل ضغطت نفسى فى ركنى ، وجعلت ألتصق بالوسائد التى بجوارى ، وأنكمش بينها خوف أن يقع نظر أحدهما على

وقد عجبت إذ لاحظت أنهما وإن اتجها نحوى أحياناً يتجاهلان وجودى ، فداخلنى من ذلك شىء من الاطمئنان وأفرخ روعى

وسمعت بعد حين حركة من تجاه الباب وصلصلة سلاح ، وأصواتاً مختلطة ، وصاح صائح فى الخارج يقول : « الأمير رضوان كتخدا دام عزه ! » ثم فتح الباب وأقبل منه شخص بدين فى ثياب زاهية تبرق بما فيها من الذهب ، وما يتخللها من الوشى ؛ وقد انعقدت على رأسه عمامة هى أشبه بالتاج بما عليها من الجوهر والوشى . ومنذ أقبل الرجل انحنى الشاب انحناءة عظيمة كما يركع الناس فى الصلاة ، وحيا الشيخ تحية بالغة ؛ فعلمت أن ذلك هو الأمير الكبير الذى كان الرجلان يذكرانه فى حديثهما . ولم يلتفت ذلك الرجل إلى أحد ، بل ذهب إلى كرسى عال من الأبنوس المطعم بالصدف والعاج وجلس عليه ، فامتلأ الكرسى به ، وترجرج من ثقله ؛ ثم جعل الشيخ يحلق له رأسه ، ويسوى له من لحيته وشاربه ويضمخهما بالعطور والأدهان ؛ ولما فرغ من ذلك التفت اليه الأمير وقال له هامساً : « هل أحضرت الدواء ؟ » .

فتبسم الشيخ وهز رأسه علامة الايجاب وقال : « مولاى ! ها هوذا »

واتجه نحو المنضدة التى كان عليها الحق فأحضره وقدمه إلى الأمير

فقال الأمير : « ومتى يؤخذ ؟ »

قال الشيخ : « قبل النوم بقليل ، بلحظات قصيرة ، فهو مؤكد وقوى »

فسأل الأمير : « أهو مجرب ؟ »

فقال الرجل : « مولاى ! عبدك ماهر فى صناعته »

فنظر إليه الأمير وقال : « أحب أن تذوقه أولاً »

فقال الشيخ فى صيحة مكتومة : « أذوقه ؟ »

قال الأمير : « نعم » ، ورفع حاجبيه متعجباً وهو ينظر إلى الشيخ المتردد . وقد رأيت الفتى عند ذلك يضطرب فى مكانه ثم تمالك نفسه وتكلف الهدوء ، والأمير مشغول عنه بالنظر إلى الشيخ

فقال الشيخ فى شىء من الارتباك : « ولكنى .. »

فقاطعه الأمير فى شىء من الغضب قائلا : « هل تخاف أن تذوقه ؟ »

فأسرع الشيخ معتذراً يقول : « مولاى ، لا أخاف شيئاً ولكنى رجل شيخ »

فقال الأمير مستمراً فى غضبه : « وما ذا ؟ »

قال الشيخ : « ليس هذا لمثلى ؛ فليذقه هذا الشاب وأنا ضامن سلامته بحياتى » .

فتردد الأمير لحظة ، ثم نظر نحو الفتى وناداه قائلا :

« تعال يا حسن . ذق من هذا »

فاضطرب الفتى وتردد لحظة ، ثم انفجر قائلا :

« مولاى ! »

فقال الأمير متعجباً : « ما ذا ؟ »

فزاد اضطراب الفتى وقال وهو يلهث لا يكاد يبين كلماته :

« لا . لا أذوقه . ليذقه هو . أظنه مسموماً . لماذا لا يذوقه هو ؟ إنه مسموم . »

فصاح الشيخ حانقاً : « مسموم ! يا لك من لئيم وقح ! »

فقال الفتى : « إذن ذقه » والتفت نحو الأمير قائلا : « لقد علمت أنه مسموم . قد دسه عدو الأمير عبد الرحمن كتخدا — واتفق مع هذا الوغد على قتلك »

فقام الأمير ثائراً عند ما سمع هذا وقال للرجل : « ذقه . أو ذق هذا » وجرد سيفه الذى كان مدلى إلى جانبه

فتقدم الشيخ جريئاً إلى الحق ، وتناوله وهو ينظر إلى الفتى المضطرب وقال له بحنق :

« مسموم ؟ أنت لئيم كاذب منافق . هل أسم سيدى ؟ » ثم أخذ منه بإصبعه قطعة فابتلعها ، ثم أخرى ، ثم ثالثة . وقال :

« لم أكن أخاف إلا فعل هذا الدواء فى وأنا رجل مسن . مسموم ؟ يا لك من منافق ! »

غير أن الدواء ما كاد يستقر فى جوف الرجل حتى وضع يده على بطنه ونظر إلى الأمير وقال :

« يا للعجب ! كأنى ابتلعت كل أمواسى ، كأن أحشائى تتقطع »

ثم زاد به الألم فجعل يعصر بطنه ويلوى وجهه وارتمى وهو يتوجع ويصرخ ويستجير

فنظر الأمير إليه دهشاً وبقى صامتاً وهو ناظر إليه لحظة طويلة ، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة وقال :

« كم أخذت أيها الخائن ثمناً لخيانتك ؟ أكنت تطمع أن تكون من الأمراء إذا أنت قتلتني ؟ أكنت تأمل أن يمتد بك العمر مائة عام بعد هذه الشيخوخة لتنعم بثمار خيانتك ؟ ذق إذن طعم السم الذي كنت قد أعددته لي »

ثم اقترب منه وركله برجله ركلة عنيفة قلبته على الأرض فبدا وجهه المحتقن المتقاص من الألم ، وكان منظراً بشعاً فظيعاً

وحاول الشيخ الكلام فلم يستطع إلا حروفاً مقطعة يقذفها بين الآهات والأنات ، فلم أستطع أن أجمع منها إلا قوله :

« إنني الآن على شفا القبر فلا أكذب ... خذ مني كلمة صدق أمام الله الذي سألقاه بعد قليل ... لم أدس لك السم بل قد دسه لك هذا المملوك الخائن الواقف وراءك ، فانه لم يقرب أحد من علبة الدواء إلا هو ، ولقد لمحته يقترب منه وأنا أجهز عدتي ، ولكن القضاء غلب على فلم أفطن إلى قصده ... فاحذر هذا الغادر والله على قولي شهيد »

وما أتم الرجل كلامه حتى انقلب على بطنه ثم فارقته الحياة

ونظر الأمير نحو المملوك فلم يجده ، إذ كان قد اختفى مسرعاً كالأرنب عند ما سمع كلام الشيخ

فالتفت نحو الباب وصفق صائحاً وهو غاضب ، غير أن الصدى وحده هو الذي أجاب تصفيقه وصياحه ، وتبع ذلك صمت مثل صمت الصحراء في الليلة الهادئة . ورأيت وجه الأمير قد اربدّ واتسعت حدقتاه وبدا عليه اضطراب عظيم ثم تمتم قائلاً :

« عجيب ! إنني أحس حولي بنذر الشر »

ثم خطا نحو الباب محترساً ولم يكد يبلغه حتى فتح فجأة ودوى في الحجرة انفجار عظيم ؛ وعلا دخان غطى المكان حيناً ، ثم سمعت خبطة قوية على الأرض فنظرت وإذا بالأمير صريع إلى جنب الشيخ المسكين ، وقد قبض بيده اليمنى على ساقه وهو يئن ، وسمعت أصواتاً مختلطة في الخارج تتباعد كأنها تهرب وهي تكتم الصيحات ، ثم رأيت الأمير يتحرك ثقيلا وهو قابض على ساقه ، وقام وهو يعرج فأخذ سيفه في يمينه واتكأ عليه كأنه عصا ، ثم سار في بطء شديد والدم ينزف من ساقه غزيراً ويلوث الأرض ، وخرج من باب صغير في خلف الحجرة وهو يئن ويتوجع ويقول في سيره :

« لأقطعنك أربا ... آه أيها الخائن ! آه إذا نجوت ... وهيهات لي النجاة ! »

ومضت مدة قصيرة بعد ذلك ، ثم سمعت أقداما من وراء الباب الكبير تسير كأنها في حذر وخوف ، ثم فتح الباب وظهر منه رأس الشاب ، وسمعت من خلفه صوتاً يسأله « هل مات ؟ »

فنظر الشاب حول الغرفة حيناً ثم صرخ فزعا :

« أين هو ؟ إنني لا أراه ، ويلنا ! لقد نجا ! هلموا لندركه قبل أن يفوتنا فيهلكنا » ، فاشتد اللغط وزادت الضجة واختلطت الأصوات ، ثم تباعدت الجلبة شيئاً فشيئاً حتى عاد السكون وخيم على المكان . وعراني في أثناء ذلك خوف لا أستطيع أن أصفه ، ولم أدر ماذا صنعت . ثم غبت عن الوعي فلم أفق إلا على صوت داو شديد يهز الفضاء ، فقمت ونظرت فيما حولي فرأيت نافذة الحجرة مفتوحة قد اقتحمها الهواء الشديد ، وسمعت المطر ينهمر كأنه أفواه الميازيب ، وكان البرق يلمع متعاقباً ، والرعد يقصف كأنما هو دوى المدافع في ميدان القتال

ورأيت صديقي داخلا إلى الحجرة عقب ذلك

وهو مسرع لهفان ينادى : « ماذا بك يا أخى ؟ لقد سمعتك تصيح صيحة منكرة ، أبك شر ؟ »

وكأننى كنت عند ذلك قد نسيت ذلك الصديق ، فما كدت أراه حتى قمت أنتفض من الخوف ، ولم أطمئن حتى اقتربت منه — ولما استطعت الكلام سألته : « ما معنى هذا ؟ »

فقال : « لقد انتهيت من صورتى متأخرا »

فقلت : « أية صورة ؟ »

فقال : « لا بأس عليك . تعال اجلس . لقد رأيتك نائماً فلم أحب أن أزعجك فذهبت للنوم فى الحجرة المجاورة ، وكان المطر لا يسمح لنا بالخروج على كل حال . ولكن لمَ أراك فى مثل هذا الاضطراب والانزعاج ؟ »

فنظرت إليه نظرة عتاب وقلت له :

لقد كانت ليلة لا أظن أننى سوف أرى مثلها فى سائر حياتى ، ثم جعلت أقص عليه ما رأيت وأنا ألهث من الاضطراب

ولكن ذلك الصديق كان من أولئك الشكاكين الجفاة الذين لا يرضون أن يصدقوا شيئاً ، فلما أتممت له قصتى تضاحك وقال :

« ليتك أخذتنى معك فى حلمك العجيب لأشاركك فى هذه التسلية البديعة »

وأما أنا فلم أجد ميلا إلى محاورته ، ولكنى كنت فيما بعد لا أزوره فى محترفه إلا فى ضحوة النهار الواضح

محمد فريد أبو حديد

مجهود ضائع

للكاتبة الإنجليزية مرجريت كنذى

بقلم الأديب احمد فتحى مرسى

أيقن (نك كايتور) فى ربيعه الثالث والعشرين أنه لن يوفق فى اختيار زوجة صالحة بعد أن رأى أصدقاءه يلقون بأنفسهم فى هوة لا سبيل إلى النهوض منها

قال مرة لصديقه كميرون فى ثورة من ثوراته على الزواج :

— إن ذلك الزواج المصرى لا يخرج عن كونه موتا محققا — إن الرجل العاقل لا يمكنه أن يقف مكتوف اليدين إزاء امرأة تملى عليه إرادتها . إن هؤلاء النساء المصريات مندفعات طائشات ... ولا أعلم لماذا يتهافت الرجال ويرتمون على أقدامهن أهلاء ضعفاء ؟.. فغمغم صديقه قائلا :

— سيأتى دورك يا صديق ، وسنرى أنك أول من يتهافت عليهن

— لن ترى ذلك فى حياتك يا كميرون

— هذا صحيح ولكن لا تنس يا صديق أنك رجل وهم رجال ؟ !

وأعقب ذلك برهة صامتة أطرق فيها (نك) برأسه مفكراً . إنه لا يعتقد أنه مثل هؤلاء الرجال ... إن كل أعماله وتصرفاته تدل على أنه يختلف عنهم جد الاختلاف . لقد كان ممتازا فى جميع مراحل عيشته وأدوار حياته . لقد كان أرزن منهم فى مدرسته ، وأذكى منهم فى جامعته ، وأعقل منهم فى ميدان حياته ، وأرغد منهم فى عيشته المنزلية . لقد كان يملك قصراً فى سانت مارى بضاحية شوبشير يعيش فيه مع أمه الشفيقة التى كان يعبدها من كل قلبه ، ويقدسها من أعماق نفسه ؛ ولقد كان موتها هو الصدمة الوحيدة التى تلقاها (نك) فى حياته . ثم قال أخيراً :

— إن زوجتى يجب أن تكون ملمة بكل شىء ، عالمة بواجباتها جد العلم ؛ يجب أن تكون مهذبة عاقلة ؛ يجب أن تكون سليمة الذوق حسنة الاختيار تخضع لأمرى ، وتنصاع لرغبتى ، ولا تدلى إلىّ برأيها إلا إذا سألتها ذلك . فقال صديقه (آلان) وكان جالساً بالقرب منه فى لهجته التهكمية :

— الأفضل أن تكون صماء خرساء .... ثم استطرد (نك) كأن لم يسمع تهكم صديقه :

— يجب أن تكون جميلة الوجه باسمة الثغر ، تبذل ما فى وسعها لأسعادى ؛ وبالطبع يجب أن تكون أيضاً متدينة متواضعة ... فصاح آلان :

— مسكينة هذه الفتاة ! مسكينة هذه الفتاة !

— لقد أفرطت فى الخمر أيها العجوز . لن تكون مسكينة قط ، بل ستكون أسعد فتاة على وجه البسيطة . . . فقال كاميرون :

— ليس هناك فتاة تجمع كل هذه الصفات يا (نك) ؛ وأؤكد لك أنك لن تجد بغيتك بين فتيات العالم ... اللهم إلا إذا أتيت بطفلة وربيتها كما تحب ...

— أصبت يا صديقى . . . هذا ما سأفعله !

— ماذا ! قالها كاميرون فى دهشة

— لقد فكرت فى ذلك ملياً ، وأخيراً قر عزمى على أن أبحث عن طفلة يتيمة أتوسم فيها الذكاء ، أرسلها إلى قصر سانت مارى لتنشأ فى

كنف عمتى (أليس) وتحت رعايتى النشأة التى أريدها . فقال آلان ضاحكا :

— إننى لم أسمع فى حياتى بمثل هذه الفكرة . أتعنى أنك ستسجنها فى قصرك فى سانت مارى ؟

— كلا ... كلا ليس هذا ما أعنى . لن تكون دائماً فى سانت مارى ؛ بل كثيراً ما سأرتاد وإياها مطالع الفن ودور الموسيقى حتى أهذب من طباعها وأرقق من ذوقها ، وأجعل منها تلك الفتاة التى تسعدنى فى حياتى . لن تتعلم شيئاً لا أرغب فيه ، ولن تحظى بمعرفة شىء لا أريده لها . فقاطعه آلان هازئاً

— كفى كفى يا صديق ... أرجو أن تسمح لنا بالانصراف

***

مضى نك يبحث عن ضالته غير عابئ بهزء أصدقائه وسخرية الناس منه . ولكن أنى له أن يجد طفلة يتيمة ؟ لقد كانت المربيات ينظرن إليه نظرة شك وارتياب رغم تهافتهن على من يتبنى هؤلاء الأطفال . ولقد نما مرة إلى سمعه أن هناك امرأة فى كدمنستر تأوى الأطفال اليتامى ، فأسرع إليها ظانا أنه سيعثر على ضالته المنشودة ، ولكن خاب ظنه فقد وجد أن أكبر الطفلات لا تتجاوز الخامسة من عمرها ؛ وهذا معناه أنه لن يتزوج حتى يبلغ الأربعين

واستأنف نك بحثه فلم يثبط الفشل المتواصل من عزمه ، ولم يكسر هزء الأصدقاء من رغبته .. فقصد ذات يوم إلى ملجأ للأيتام فى الضواحى بعد أن قدمه صديق له إلى مديرة الملجأ ، ودعته هذه بدورها لزيارته ؛ فلما وصل إلى الملجأ جلس ينتظرها فى الحديقة ... وكان المكان جميلاً ، والحديقة رائعة التنسيق على الرغم من بساطتها . فجلس نك يسبح فى أفكاره إلى أن استرعى نظره فجأة طفلة تبكى بالقرب منه

لقد كانت تبكى لأنها — كما قالت — فقدت شريطها الأزرق فى الحديقة . وقبل أن تنتهى من وصف الشريط والمكان الذى سقط فيه . . . قال نك لنفسه :

— لقد وجدتها . . . لقد ظفرت بها أخيراً

كانت جميلة الوجه ، ساحرة العينين ، لم يشوه رداء الملجأ الأصفر من جمالها الرائع . ولقد أصاب كايثور فى شعرها الأصفر ، وفى عينيها الزرقاوين غاية مناه ... ما اسمها يا ترى ؟... «سالى كريجان» إنه اسم ظريف ، وكم عمرها ؟ : ثلاث عشرة سنة . حسن ثم حسن ، أمامها الوقت الكافى لتتعلم ... وهل هى ذكية ؟ أراد أن يتأكد من ذلك فقال :

— أتتعلمين هنا ؟

— نعم ؛ « قالتها فى تنهد عميق »

— وما الذى درست اليوم ؟

— لقد نسيت

وهنا أطرق كايثور فى حزن ، ولكنه لم يكتف بهذا القدر من الأسئلة فقال :

— أتحفظين قواعد الرحمة السبع ؟

— نعم أحفظها ... ثم أخذت فى عدها على أصابعها فى تؤدة وتثبت مما أدخل فى روعه أنها على جانب غير قليل من الذكاء ... ولكن ماذا عن الموسيقى والغناء ؟ أتراها تجيد الغناء ؟

أخذت تغنى أمامه أغنية الصيف ، فبدا صوتها عذباً جميلاً ، وغناؤها موقعاً ملحناً كأنه غناء البلبل فى هدأة السحر

— هذا جميل !

وجلس كايثور معها على مقعد خشبى فى الحديقة ثم أخذ يحدثها عن الطبيعة ، ثم عن قصره فى

سانت مارى ، وعن جمال موقعه ، وعن ذلك النهر الذهبى الذى يجرى من خلفه ، وعن روعة ما يحيط به من الحدائق وما يتخللها من زهر رائع الأفواف وما يكتنفها من مناظر الطبيعة التى تسحر العيون وتبهر النفوس

وأخيراً بعد هذا التمهيد الطويل سألها فى هدوء عما إذا كانت ترغب فى الذهاب لتقيم معه فى سانت مارى . ولقد رأى نفسه متسرعاً فى توجيه هذا السؤال قبل أن يقابل مديرة الملجأ ولكنه كان مشوقاً إلى معرفة رأى فتاته الصغيرة . فسألته وقد بدت الدهشة فى عينيها :

— أتقيم وحيدين فى ذلك القصر الكبير ؟

— هناك أيضاً عمتى أليس ، وستحبك كثيراً

— إننى لا أحب العمات . لقد كانت لى عمة كثيراً ما كانت تضربنى على أذنى . وفى تلك اللحظة طرق سمعهما رنين الناقوس ، فقفزت الصغيرة فى خوف قائلة :

— لقد انتهى الدرس وستخرج المربيات فيجدننى هنا ويعاقبننى . . . إنه ليس مسموحا لنا بدخول الحديقة . . وأسرعت الى الباب الصغير الذى يصل الحديقة بملعب الأطفال ، ولكنه كان موصدا .. فصاحت فى خوف :

— ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل الآن ؟ لقد كان هذا الباب مفتوحا منذ هنيهة ! . . لماذا استبقيتنى بجانبك ؟

— لا تخافى ياعزيزتى ... لن أدعك تعاقبين . سأقول لهن إنى استبقيتك

— كلا كلا ... يجب أن تساعدنى على أن أتسلق الحائط الى الملعب ... هيا أسرع ! أسرع !

وأشارت الى حجر كبير مثبت فى جانب الحائط فصعد طائعا ، ولكنه أبصر فوق السور قطعا صغيرة من الزجاج مثبتة فى أعلى البناء ، فغمغم قائلا :

— أظن أنه ليس هناك من يستطيع أن يتسلق هذا السور وهذا الزجاج منثور عليه ، فعلت وجهها غمامة من الحزن ، وأخيرا قالت فى سرعة :

— إذن دعنا نذهب الى سانت مارى ... إننى لا أحتمل عقابهن !

— يجب أن نستأذن المديرة أولا يا عزيزتى

— إنها لن تدعنى أذهب معك قط قبل أن تكتب الى والدى ووالدتى

— الى من ؟ قالها فى دهشة

— الى والدى ووالدتى ... وهناك أسابيع طويلة قبل أن يصل الرد

— ماذا ؟ ماذا ؟ ألك والد ووالدة ؟ ... إذن لست يتيمة !

— كلا ... أ كنت تعتقد ذلك ؟

— بالطبع كنت أعتقد ذلك ! ... وماذا تفعلين فى ذلك الملجأ ؟

— هذا غريب ! أتدعو المدرسة ملجأ ؟

— لست إذن بفقيرة ؟ فرفعت وجهها فى كبرياء ثم قالت :

— فقيرة ! إننى خامسة أغنياء العالم — إن والدى تيودور كريجان المثرى الأمريكى المعروف ... قالت ذلك فى غضب مما جعله يغمغم معتذرا فى طريقه الى الباب ... حقاً لقد قرأ أن المثرى الأمريكى كريجان أرسل وحيدته الى إحدى مدارس انجلترا خوفا عليها من رجال العصابات فى أمريكا ... وهنا أدرك كايثور خطأه ، فقد دخل هذه المدرسة ظنا منه أنها الملجأ الذى يقصده

***

مضت بعد ذلك فترة من الزمن خلا فيها الى نفسه وانقطع عن العالم ، وجفا أصدقاءه فلا أوسعوه

من هزء وسخرية ؛ إلا أنه بعد ستة أشهر من ذلك جرت على ألسنة أصدقائه إشاعة مؤداها أن كايثور عثر على الفتاة التي يرجوها في مقاطعة بروڤنس ، وأحضرها معه الى انجلترا ... ثم تفرق أصدقاؤه بعد ذلك ، فسافر كميرون الى كينيا ورحل آلان الى استراليا ، ثم انقضت سبع سنوات قبل أن يسمع أحدهما شيئاً عن كايثور ؛ ولكن شاء القدر أن يجمعهما به بعد هذا العمر الطويل فعادا الى انجلترا سويا ، وما علم كايثور بذلك حتى كتب اليهما يسألهما زيارته في سانت ماري بعد هذا الغياب الطويل ، ليجددوا عهد الشباب الزاهر ، وليستعيدوا ذكريات الماضي السعيد ؛ فلبيا طلبه وهما أشد ما يكونان شوقا لرؤيته ، وتشوقا لمعرفة ما صنعه طوال هذه الفترة

تلقتهما عمته (أليس) على باب القصر في بشر وترحيب ، فلما دخلاه أخذا يجولان بعينيهما في نواحيه ، ويرسلان بصرهما في أرجائه وأبهائه ليريا ما عساه قد جد ... ولكن كل شيء كان على ما هو عليه من قبل ، حتى الزهور الصناعية الموضوعة على المائدة كانت هي بعينها التي اعتادت والدة كايثور أن تضعها قبل موتها

ولما جلسوا إلى المائدة أثار دهشتها أنها معدة لخمسة أشخاص ! لمن هذا المقعد الخامس يا ترى ؟ أهناك ضيف ثالث ؟ . . . ولماذا يتلفت كايثور حوله كأنما يتوقع حضور أحد ؟

وأخيراً بعد برهة من الحيرة والتساؤل وقع نظرهما عليها وهي تهبط الدرج ... لقد كانت طويلة كشجرة الحور ، سوداء كظلام الغابة ، ضيقة العينين يشع منهما بريق مخيف ، بارزة الخدين صغيرة الأسنان من غير تناسق ولا توافق ... وبالجملة لم تكن انجليزية الخلقة — من أين أتى بها يا ترى ؟ أهي أسبانية ؟ أم هي من الشرق ؟

تململ كاميرون في جلسته ، ومر آلان بيده على جبهته ، ثم وقفوا جميعاً عندما بلغت نهاية الدرج وأخذ كايثور يدها وعلى ثغره ابتسامة فخر ونصر وقدمها الى صديقيه باسم « استرا » ثم أخبرهما على المائدة أنها تنتمي إلى قبيلة نوريه وأن جدها وهبه إياها منذ سبع سنوات ؛ ثم قال :

— وبالطبع كانت لا تعرف إذ ذاك كلمة انجليزية ، وقد كان هذا جميلاً ، فقد أتاح لي فرصة تثقيفها بشكل ما أحب ، وأظن أنها تتكلمها الآن كاحدى بنات انجلترا

— بل أكثر من ذلك ... إنها تتكلم الآن أربع لغات أوربية ، فضلا عن أنها تعرف قليلا من اليونانيه ، وشيئاً من اللاتينية . ولقد أتحت لها فرصة الاطلاع على زبدة الأدب الأوربي ، وخلاصة الأدب الشرقي . وأعقب ذلك برهة من الصمت ثم قال :

— إن لها ذوقا حسناً في الاختيار ، وبالرغم من قرب عهدها بالموسيقى تجيد العزف على البيانو والقيثار وسنسمعها سوياً بعد الغداء ......

وانتقلوا بعد تناول الغداء إلى غرفة الموسيقى حيث أسمعتهم قطعة على القيثار ، ثم أخذت تغني لهم أغنية نورية ، فبدت في نبراتها مسحة من الخشونة ، ولاح في صوتها شيء من الجفاء ، وغلب على وجهها طابع الجمود الحسي ، ورانت على الغرفة هدأة عميقة ، والكل يصغون كأنهم تحت حلم مزعج لا سبيل إلى الخلاص منه . والحقيقة أنها كانت جلسة مملة للصديقين

ولما أقبل الليل وآوت أسترا إلى مخدعها خلا كايثور إلى صديقيه يستطلع رأيهما ... أما كاميرون فخاف أن يصدم صديقه وغمغم بكلمات التهنئة ، وأما آلان فقال :

— والله ما أدرى أى شىء فيها أثار إعجابك لجملك تعلمها اليونانية واللاتينية و .... ثم أردف متهكما كعادته :

— لعلها كانت جميلة عندما عثرت بها !

وبدا الغضب فى وجه كايثور ولكن آلان لم يعبأ به ومضى متابعاً كلامه :

— هل ... هل ستتزوجها ؟ ... وأعقب ذلك فترة من الصمت ثم أجاب كايثور فى تردد

— بالطبع هذه رغبتى منذ أتيت بها

— وهل هى تعلم ذلك ... أعنى هل فاتحتها فى هذا الشأن ؟

— لقد شبت وهى تعلم ذلك ولم يبق إلا أن نحدد الموعد

— ياللخجل !... وإذا كان كاميرون قد خشى أن يدلى برأيه فى أول الأمر فان صراحة آلان مع كايثور شجعته على ذلك فتدخل فى الحديث ، وظل النقاش قائماً بينهم إلى وقت متأخر من الليل

***

وفى صباح اليوم التالى كان الحزن بادياً على وجه كايثور . كان يشعر بأن آماله تحطمت وأن جهوده ذهبت أدراج الرياح ؛ ولم يمض طويل من الوقت حتى اصطدم بآلان للمرة الثانية ... فثار آلان قائلا :

— إنها جافة الطباع ... وأظن أن الأفضل أن تتركها تمضى لسبيلها . إن كل ما لقنته إياها لم يهذب من طباعها ... إنك تعتقد أنك تحبها ، ولكن لا أظنك تحبها إلا كما يحب الفنان ما أبدعت يداه

— إنك تهذى أيها الرجل ولا تفهم ما تتكلم عنه !

— بل أفهمه كل الفهم ... إنك لا تعرف إلى الآن ما هى حقيقة الحب

ولم يطق كايثور أكثر من ذلك ، فقطع النقاش واستدار مولياً وجهه شطر الباب ... لقد كان على وشك أن يعين موعد زواجه قبل أن يزوره صديقاه . حقاً إنه لم يحادث استرا فى هذا الشأن ، ولكنه يعلم جد العلم أنها تجاريه فى رغبته . أما عمته (أليس) فقد رأى منها أنها لا تنظر إلى هذا الزواج بعين الرضا وإن لم تصارحه بذلك . وأما أصدقاؤه فهاهم يعارضونه أشد المعارضة . ماذا يفعل يا ترى ؟ جلس يفكر ويفكر علة يستقر على رأى ، أو يثبت على عزم ، ولكن بدون جدوى ... وفجأة أفاق من تفكيره العميق فقد وقع نظره على فتاة فى الحديقة أثارت دهشته ... أبصرها خلال نافذة المكتبة وكانت عارية الرأس ، شقراء الشعر ، ذات ثوب أزرق قصير ، ورآها تجمع ثمار التوت من الحديقة آمنة مطمئنة كأن ليس للحديقة من يملكها .

قام مغضباً ونزل إلى الحديقة مسرعاً ثم صاح بها :

— ماذا تعملين يا هذه ؟

ولكنها بدل أن تجفل منه كما كان يتوقع استدارت إليه فى تؤدة وقالت :

— أهذا أنت يا ...... وخيل إليه أنه يعرف ذلك الوجه . وجعل يفكر أين رآه من قبل ... ولكنها قطعت عليه حبل تفكيره قائلة :

— إنك لم تحدثنى عن هذا التوت اللذيذ ، لقد حدثتنى فقط عن القصر والحديقة وعن النهر ، وأوكد لك أنك لو حدثتنى لادعيت أننى يتيمة وصحبتك إلى هنا

— أهذه ... أهذه أنت يا سالى ؟

— لا تقل إنك لا تعرفنى ، إن وجهك لم يتغير

— وأظن أن وجهك أيضاً لم يتغير كثيراً

— لقد كنت أفكر فى زيارتك طوال هذه السنين ، أفكنت تفكر فىّ ؟

وأعقب ذلك فترة من الصمت . . . والحقيقة أنها لم تخطر على باله ؛ ولكنه لم يشأ أن يقول لها ذلك . فقال :

— بالطبع يا سالى ... كنت أفكر أفيك ... ولكن ما الذى جعلك تتذكرين زياتى الآن ؟

— إننى لم أكن فى انجلترا بعد أن تركت المدرسة

— وأين كنت إذن ؟

— فى الخارج ... وقد راق لنا أن نقوم برحلة هذا الصيف فى ربوع انجلترا ... فلما بلغنا (لادلاو) مساء أمس وجدت قصر سانت مارى على الخريطة فقصدت توا إلى هنا

— راق لنا ! ... راق لمن ؟

— لوالدى ووالدتى . . . إننى لست يتيمة بعد ... أين النهر الذى حدثتنى عنه ؟

فقال مشيراً إلى ما وراء القصر ، فى هذه الجهة ... أترغبين فى رؤيته ؟

— أجل ... أعطنى قبعتك فان الشمس شديدة الحرارة

ففعل طائعاً ؛ وسارت معه فى صمت — وبرغم أنه لم يرها إلا مرة واحدة من قبل فقد كان يشعر نحوها شعوراً خفياً مخالفاً جد المخالفة لذلك الذى يشعر به نحو استرا ... ولم يساوره مثل هذا الشعور من قبل إلا عند ما كان جالساً بجانب سالى فى حديقة المدرسة ، قال :

— ولكن حدثينى كيف قضيت هذه السنين الطويلة ؟

فأخذت تسرد عليه ما زارته من البلدان ، وما طافت به من الممالك ، إلى أن قالت أخيراً — وماذا عنك ؟ ... ألم تتزوج بعد ؟

— كلا ... نعم نعم إننى ... فقاطعته

— يخيل إلىّ أنك غير متأكد من ذلك

— إن الأمر لم ينته بعد ... ولكنه فى حكم المنتهى

— ألم تخاطبها فى ذلك ؟

— كلا ... أعنى نعم لقد ... ولكنها قاطعته وهى تشير بيدها جهة اليمين :

— ما هذه البوابة الجميلة ... دعنا نمر منها

ولم يتكلم كايثور وهو يفتح لها البوابة ، ولكنها عادت تقول :

— يجب أن تحدثنى عنها — أهى يتيمة ...؟ يلوح لى أنك شديد العطف على اليتامى

وجعل كايثور يحدثها عن أسترا إلى أن قالت أخيراً :

— وهل هى موافقة على هذا الزواج ؟

— بالطبع إنها موافقة عليه

— إذن لماذا لم ينته الأمر بعد ؟

— إن أصدقائى يعارضون فى ذلك

— إذن هذا هو السبب . . . ثم قالت وهى تنظر فى ساعتها :

— أظن أنه آن لى أن أعود ... ودارا على عقبيهما وسارا تجاه الباب دون أن يلفظ أحدهما بكلمة واحدة ؛ وكانت سيارتها واقفة فى جانب الطريق ، وكان مظهرها يدل على أنها حقاً خامسة أغنياء العالم ، قالت :

— لماذا لا تأتى لزيارتنا فى لادلاو

وقبل أن يقدّر كايثور معنى ما نطق به قال :

— الأفضل ألاّ أفعل . ولكنها قالت فى سرعة :

— إننا فى فندق « الثلاث ريشات »

ثم انطلقت السيارة كالسهم المارق . وهنا فقط

أدرك كايثور أنه نسى قبعته

***

جلست السيدة كريجان فى فندق الثلاث ريشات تنتظر ابنتها فى شىء من القلق ، فقد كانت تخشى عليها من قيادة السيارة بنفسها . وأخيراً هتفت فى سرور :

— شكراً لله . . . فقد رأت سالى وهى مقبلة عليها من أعلى الدرج

— من أى مكان فى العالم أتيت بهذه القبعة يا سالى ؟

— إنها قبعته

— إذن لقد قابلته

— نعم لقد قابلته . وأخذت تقص على أمها كل شىء ، فقد كانت لا تخفى عنها خبرا ثم قالت أخيراً :

— إننى أشعر بميل غريب إليه . ولا أعلم لماذا يملك على مشاعرى

— ولكن ما الفائدة ما دام سيتزوج من هذه الفتاة التى تدعى ... ما اسمها ؟

— استرا ... ولكن لا يمكن أن أصدق ذلك ... لقد رأيتها فى الحديقة قبل أن أقابله تحادث رجلاً ذا قميص أزرق وتمده بالزواج وقد عرفتها بعد ذلك من وصف كايثور ، أما الرجل فلم أتبين وجهه

وفى صباح اليوم التالى ظهر كايثور فى فندق « الثلاث ريشات » ... لقد قال إنه جاء ليسترد قبعته . . وكان الحزن باديا على وجهه . ولما سألته سالى عن السبب لم يحاول أن يكتمه عنها ... والحقيقة أنه كان فى حاجة إلى قلب يعطف عليه ... وقد وجده فى سالى . قال لها فى حزن :

— لقد حطمت استرا اليوم كل ما بنيته من الآمال ... على رغم كل ما بذلته فى سبيل تثقيفها ، وبرغم كل ماضحيت به فى سبيل إسعادها ، تريد اليوم أن تتزوج من رجل آخر يدعى تويننج

وبدا فى نبراته شىء من الألم الدفين ، ولاح فى صوته ما يخالجه من الحزن واليأس ، وظهر فى عينيه ما تكتمهما من الدموع ... إنه ليبدو أليماً حقاً أن يقضى حياته فى تثقيف فتاة وتهذيبها وإعدادها لتكون زوجة لرجل آخر ... أخذت سالى تسرى عنه وتخفف من وطأة حزنه ، ومن حدة ثورته ، ثم اقترحت أن يخرجا فى نزهة قصيرة ولكن إلى أين ياترى ؟ ... قال كايثور :

— أشاهدت قلمة لدلاو الأثرية ؟

— أتعنى ذلك البناء القائم فى خارج المدينة ؟

حسن ... انتظرنى حتى أحضر قبعتى ... ...

وخرجت سالى ولكنها لم تسرع باحضار القبعة ؛ بل صعدت متباطئة وأخذت تقلم أظافرها فى تكاسل ، ثم أبدلت ثوبها ، وأكملت خطابا لها ، وجلست صامتة ، وقد بدا السرور فى عينيها ... وأخيراً أقبلت عليها أمها تقول :

— إن صديقك فى انتظارك أكثر من ساعة يا سالى ... إنك قاسية فى معاملته

— ولكننى سأتزوج به

— أحقاً ما تقولين ؟

ونظرت الأم إلى ابنتها فرأت الجواب فى عينيها ، فضمتها إلى صدرها وقبلتها قبلة حارة طويلة ... حقاً إن كايثور غير جدير بزواج خامسة أغنياء العالم ، ولكن أسرة كريجان كانت من الديموقراطية بحيث لم تكن تبحث عن الجاه والمال ، بل كانت تبحث عن سعادة بناتها

أحمد فهمى مرسى

جوليا
أو
هيلويز الجديدة
لجان جاك روسو
بقلم أحمد حسن الزيات

مقدمة المؤلف :

لا بد للمدن الكبيرة من مسارح ، وللشعوب الفاسدة من قصص . ولقد شاهدت أخلاق عصري ثم قدمت هذه الرسائل إلى النشر ؛ وليتني عشت في عصر تحملني آدابه على أن أقدمها إلى النار !

أنا — وإن كنت أحمل هنا لقب الناشر — قد عملت بيدي في هذا الكتاب فلا أضمر نفسي فيه . فهل صنعته كله ؟ وهل هذه الرسائل بأسرها من نسج الخيال ؟ ماذا يهمكم من هذا أيها الناس ؟ إنها عندكم ولا ريب حديث مفترى

كل امرئ حر الخلال يجب عليه أن يعترف بما ينشر من الكتب ؛ فأنا أضع اسمي على رأس هذا الكتاب لا لأسجل ملكيته ، ولكن لأتحمل تبعته . فاذا كان فيه شر فالي مرجعه وعلي إثمه ، وإن كان فيه خير فلا أبتغي من ورائه شرفاً ولا نباهة

إذا كان هذا الكتاب كتاب سوء فأنا مجبر على استلحاقه والاعتراف به . ذلك لأني لا أحب أن أظهر في عيون الناس خيرا مما أنا عليه في الواقع

أما حقيقة الوقائع التي تدور عليها حوادث القصة ، فأصرح بأني ذهبت مرارا إلى بلد العاشقين فلم يرد على سمعي ذكر للبارون ديتانج ولا لابنته ، ولا للسادة : دي ورب ، واللورد إدوار بومستون ، ودي ولمار . كذلك أنبه القارئ إلى أن وصف الأمكنة قد ناله التحريف البالغ في مواضع كثيرة ، إما لأن الكاتب يريد أن يخدع القارئ ، وإما لأن الواصف لا يعرف أكثر من ذلك

ذلك كل ما أريد أن أقوله ؛ ولكل امرئ أن يفهم الأمر على ما يشاء

لم يوضع هذا الكتاب ليسير في الناس لأنه لا يرضى إلا القليل منهم ؛ فالمتأدبون من أهل الذوق سينفرون من أسلوبه ؛ والمتزمتون من ذوي الوقار سيفزعون من موضوعه ؛ والذين لا يعتقدون بالفضيلة سيرون ما فيه من العواطف خارجا عن الطبيعة . سيسخط البر والفاجر والفيلسوف ، وسيؤذي شعور الفتاة اللعوب ، ويسوء كرامة المرأة الصالحة ! فليت شعري من يُرضي إذن ؟ لعله لا يرضي سواي ؛ ولكن المحقق أن السخط عليه لن يقف عند حدود الوسط

إذا أمضيت النية على قراءة هذه الرسائل فادرّع بالصبر على ما تجد فيها من أخطاء اللغة ، وشقشقة الأسلوب ، ووضع الفكرة المطروقة في العبارة المنمقة . قل لنفسك قبل أن تقرأ : إن الذين كتبوها لم يكونوا فرنسيين ولا عبقريين ولا أكاديميين ولا فلاسفة ؛ وإنما هم بين ريفي وأجنبي وأليف عزلة وحديث سن . وكلهم أشبه بالأطفال الذين تصور لهم مخيلاتهم الشاعرة أن من الفلسفة ما يهذون به من بريء الحديث

لِمَ أخشى أن أجهر بما في نفسي ؟ إن هذا

الكتاب على لهجته الفوطية أقرب إلى نفع النساء من كتب الفلاسفة . بل لعله يفيد أولئك اللاتى لا زلن يحتفظن بأثارة من حب الصلاح والنزاهة وهن يحيين حياتهن المضطربة الهوشة . أما أثره فى الفتيات فذلك أمر آخر ، إن الفتاة العفيفة لم تقرأ قصة قط ؛ ولقد وضعت لهذه القصة عنواناً ينبه القارىء وهو يفتحه إلى طبيعة الكتاب الذى يريد أن يقرأه . فالفتاة التى تجرؤ على أن تقرأ منه صفحة واحدة على الرغم من هذا العنوان هى فتاة خاسرة . وليس لها أن تعزو خسارتها إلى هذا الكتاب ، فان الداء قد خامرها من قبله . فمن بدأت منهن القراءة فلتتمها ؛ فليس بعد ذلك فى نفسها ما تخسره ، ولا فى هذا الكتاب ما تحذره

إن الزاهد المتحنث إذا قرأ الجزء الأول من هذا الكتاب فامتعض ثم رماه وانفجر بالحنق على ناشره ، لا أعيب إسرافه ولا أشكو ظلمه ؛ ولو كنت مكانه لما فعلت غير ذلك . ولكنه إذا قرأه كله ثم جرؤ بعد ذلك أن يعذلنى على نشره ، فليقل ذلك — إن شاء — لكل ذى سمع من الناس ما عداى ؛ فانى لا أستطيع أن أحمل نفسى على احترام مثل هذا الرجل

اذهبوا أيها الكرام الذين أحببت العيش فيهم وحمدت الخلاط بهم أنتم أيها الذين واسونى على سبائب اللئام وشتائم الفجرة ! اذهبوا بعيداً فابحثوا عن أمثالكم . فروا من المدن فلن تجدوهم فيها . اذهبوا إلى الخلوات المتواضعة فآنسوا زوجين مخلصين تتوثق بينهما وبينكم الألفة ، ورجلاً ساذجاً حساساً يجد فى طبعه الميل لما أنتم عليه ، ومنعزلاً عن الناس متبرما بالعالم يلومكم على أخطائكم وخطاياكم ثم يقول مع ذلك فى حنان وعطف : « هذه هى النفوس التى لا بد منها لنفسى ! »

الجزء الأول

الرسالة الأولى

الى جوليا

أشعر كل الشعور أن لا مناص يا آنستى من الهرب منك . ولقد كان من اللازم أن أنتظر أقل مما انتظرت ، أو بالحرى كان ينبغى ألا أراك قط . ولكن ما العمل اليوم وكيف الخلاص ؟ لقد وعدتنى الصداقة ؛ فانظرى إلى اضطرابى ، وفكرى فى حقيقة ما بى ، ثم أشيرى علىّ

تعلمين أنى لم أدخل بيتكم إلا عن دعوة من السيدة والدتك . علمتْ أنى ثقفت بعض مواهبى ثقافة محمودة ، فرأت من المفيد فى بلد يعوزه المعلمون أن تستخدم هذه المواهب فى تربية ابنتها التى تعبدها . وأنا بدورى قد زهانى أن أزين هذا الجمال الطبيعى البالغ ببعض الأزهار ، فجرؤت على أن أتعهد بهذه العناية الخطرة دون أن أتسلف النظر إلى ما فيها من الخطر ، أو على الأقل دون أن أقف من خطرها على حذر . لن أقول لك إنى بدأت أؤدى ثمن جرأتى ؛ فانى آمل ألا أذهل عن واجبى فأثقل عليك بحديث لا يليق بسمعك ولا يلتئم مع طبعك ، وأن أقصر عن الاحترام الذى يجب لخلقك وكمالك ، كثر مما يجب لمحتدك وجمالك . أنا إذا تألمت فعزائى على الأقل أنى أتألم وحدى . لا أريد سعادة تتكلفها سعادتك

على أننى مع ذلك أراك كل يوم ، وأشعر أنك من غير قصد ولا فكر تضاعفين آلاماً لا تستطيعين أن تشتكيها ، ولا ينبغى لك أن تعلميها

من الحق أنى أعلم الرأى الذى تمليه الفطنة فى مثل هذه الحال لا الأمل ؛ ولو استطعت أن أوفق

في هذه الفرصة بين الفطنة وبين الاعتبار المناسب لحات نفسي على اتخاذه ؛ ولكن كيف أجد الوجه الوجيه لأن أترك بيتاً ربّتُه هي نفسها التي فتحت لي فناءه ، وأغدقت على آلاءه ، ورأت فيَّ بعض الغَناء لأعز شيء عليها في العالم ؟ كيف أحرم ذلك الأم الحنون سرورها بأن تفجأ زوجها ذات يوم بتقدمك في الدروس ، وهي إنما أخفت عنه خبره لهذه الغاية ؟ أينبغي أن أفارقها على هذا الوجه المرذول دون أن أقول لها شيئاً ؟ أيجب أن أصرح لها بموضوع اعتزالي ؟ أليس في هذا التصريح نفسه إهانة لها من رجل لا يجيز له مقام أسرته ولا طبيعة ثروته أن يعقد أسباب رجائه بك ؟

أنا لا أرى يا آنستي غير وسيلة واحدة للخروج من المأزق الذي أنا فيه : تلك الوسيلة هي أن اليد التي ألقتني فيه تنتشلني منه . ليأتني من قبلك العذاب كما يأتيني الخطأ . فأشعري قلبك المرحمة لي واحظري عليَّ الوجود في محضرك . أطلعي أهلك على كتابي . أغلقي بابك من دوني . اطرديني على الوجه الذي تحبين ، فإني أحتمل كل شيء ولا أستطيع من تلقاء نفسي الفرار منك

أنت ، تطردينني ! أنا ، أهرب منك ! ولماذا ؟ أمن الاجرام أن يكون المرء حساساً بالفضل ، وأن يحب ما يجب على كل امرئ أن يحبه ؟ لا يا جوليا ! إن جاذبيتك بهرت عيني ، وما كانت لتزيغ قلبي لولا الجاذبية الأقوى التي تُخفيها وتذكيها ؛ تلك الجاذبية هي اجتماع الحساسة القوية بالعذوبة الصافية ؛ هي ذلك الرثاء الحنون لآلام الناس ؛ هي ذلك الذهن المستقيم وذلك الذوق السليم اللذان يستمدان نقاءهما من نقاء النفس ؛ هي على الجملة سحر العواطف ، وهو أقوى من سحر الشخص ، وذلك ما أعبده فيك

أنا أسلم بأن المرء يستطيع أن يتخيلك أروع جمالاً من جمالك ، ولكن من المحال أن يتخيلك أجدرَ بالحب وأخلق بالرجل الفاضل مما أنت عليه

أجرؤ أحياناً على أن أزعم وأُزْهى بأن الله جعل بين حسينا وذوقينا وعمرينا مطابقة خفية . فنحن ما نزال في زهرة الصبى ، فميول الطبيعة فينا لا تتغير ، وأهواؤنا لا يبعد أن تتفق

لقد رأينا قبل أن نكتسي الزي الوحيد المتيد للعالم أن لنا طريقة واحدة في الحس والنظر ، فلم لا أجرؤ على أن أتخيل أن ذلك الانسجام الذي أراه بين أحكامنا هو بين قلبينا كذلك ؟ إن من نظراتنا أحياناً ما يتلاقى ، وإن من زفراتنا ما يصَّعَّدُ في وقت واحد ، وإن من عبراتنا المواربة ...

آه يا جوليا ! لو أن هذا التوافق صادر عن بعيد .. لو أن الله سخر لنا .. جميع القوة البشرية ..

آه عفواً ! لقد ضللت فحسبت رغائبي آمالا . إن حرارة رغباتي أعارت موضوعها الامكان الذي يعوزه

إني أبصر في خيفة ورعب ما يتأهب له قلبي من العذاب والألم . لا أحاول أن أتملق ألمي ؛ ولو كان في وسعي أن أكرهه لكرهته . احكمي على عواطفي إن كانت نقية أو مشوبة بنوع العفو الذي طلبته منك . أغيضي إذا استطعت منبع السم الذي يحييني ويميتني ، فلا أبتغي غير أن أحيا أو أن أموت

أنا أضرع إلى قسوتك كما يضرع عاشق إلى رحمتك

أجل لقد وعدتُ . وأقسم لأبذلن الجهد الجهيد في استرجاع ما عزب من عقلي ، وترسيب هذا الرَّنق الوليد في قرارة نفسي . ولكن رحماك ! حوِّلي عني هذه العين الوديعة التي تشع عليَّ الموت . واستري عن عيني قسماتك وحركاتك وهيئتك وذراعيك ويديك وشعرك الأشقر . اخدعي غباوة

نظرا الى الرغيبة . احبسي ذلك الصوت الأخاذ بالقلب فلا يسمعه سامع حتى يتأثر . كوني مخلوقة أخرى ليستطيع قلبي أن يُفيء إلى نفسه

أأقولها لك من غير مواربة ؟ إنك في الألعاب التي يقتضيها فراغ الأمسية ، ترسلين نفسك أمام جميع الناس على ألفة شديدة الأثر على النفس ، فلا تكونين معي أشد احتشاماً واحتياطاً منك مع غيري . أقرب الأيام أمس ؛ كنت على وشك أن تمنعيني أن أقبلك عقاباً على مخالفة النظام في اللعب ، فقاومت مقاومة خفيفة ضعيفة ، ولكني لحسن الحظ تحاشيت أن أصر . ثم أدركت أن اضطرابي الذي كان يزيد ويزيد سيُشقي بي على الخسارة فأمسكت عن اللعب . آه لو كنت استطعت على الأقل أن أستمتع بهذه القبلة على هواي ! إذن لكانت آخر أنفاسي ولَمِتُّ وأنا أسعد الناس !

ناشدتك الله إلا ما تركت هذه الألعاب ، فقد تكون لها عواقب وخيمة . كلا يا جوليا ، كل إنسان له خطره : مِن الخطر الذي لا حيلة فيه إلى الخطر الذي لا وزن له . إني أضطرب كلما لمستْ يدي في اللعب يدك . ولا أدري كيف يتفق أن ألقاها دائماً ؛ فلم تكد تقع على يدي حتى تستقاني رعدة ويعتريني ذهول . إن اللعب يمسني بالحمى ، أو بالحرى يصيبني بالهذيان ؛ فأنا لا أبصر ولا أشعر ، وفي هذه اللحظة المخبولة لا أدري ماذا أقول ولا كيف أفعل ولا أين أختفي !

وفي ساعة القراءة أجد ضرراً آخر : إذا رأيتك لحظة من غير أمك أو ابنة عمك تنكَّرتِ معارف وجهك فجأة ؛ ثم اتخذت هيئة الجد واصطنعت لهجة الفتور حتى يسلبني احترامي إياك ، وخوفي من عدم رضاك ، حضور البديهة وقوة الحكم ، فأغمغم في اضطراب ومشقة ببعض الكلمات من درس لولا فطنتك وحكمتك لما استطعت أن تتبعيه .

كذلك هذا التفاوت الذي تتكلفينه في طبعك ومظهرك ينقلب مضرة عليَّ وعليك . إنك تؤذينني بهذا التقلب ، ثم لا أستطيع أن أتصور الباعث الذي يخرجك عما عهدت فيك من رصانة العقل . هل لي أن أسألك لماذا تكونين لعوباً مرحة في الجمع ، ووقورة محتشمة في الخلوة ؟ لقد كنت أرى أن الأمر يجب أن يسير على النقيض ، وأنك لابد تصورين قسمات وجهك على نسبة عدد الحضور ؛ ولكني أراك بدل أن تفعلي ذلك تعاملينني على حال مطردة من التردد والاضطراب ، فتصطنعين اللهجة المتكلفة بيني وبينك ، واللهجة المنبسطة بيننا وبين الناس . ساوي بيني وبين غيري في حديثك ووجهك ، فلعلي بذلك أكون أخف ألماً وأقل لوعة

إذا كانت الرحمة الطبيعية التي آثر الله بها النفوس النسيبة الحرة تمطف قلبك على شقاء هذا البائس الذي تظهرين له بعض التجلة ، فان بعض التغيير في معاملتك إياه يخفف من ثقل مصابه ، ويعينه على احتمال صمته وعذابه . وإذا كانت حصانة صدره وحرج أمره لا يبلغان موضع الرأفة من نفسك فتريدين أن تتوسلي بالحق إلى إهلاكه ، فانك تستطيعين أن تفعلي ولن تجديه إلا صابراً لا يشكو ، وساكتاً لا يئن ؛ انه يؤثر أن يهلكه أمرك ، على أن تهلكه فورة طائشة تجعله أثيما في نظرك . وآخر القول أن لك أن تحكمي في أمري وتتصرفي في مصيري ، ولي أن أقول إني واضح وجه العذر في أن أربِّبَ في نفسي هذا الأمل الجريء ؛ وإذا قرأت هذه الرسالة فقد فعلت كل ما أريد أن أطلبه منك ؛ على أنني لم أطلب شيئاً يجوز عليه الرفض حتى أخشاه

(يتبع) (الزيات)



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

« لماذا أدون حياتى فى يوميات ؟ ألأنها حياة هنيئة ؟ كلا ! إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، إنما يحياها . إنى أعيش مع الجريمة فى أصفاد واحدة . إنها رفيقى وزوجى أطالع وجهها فى كل يوم ، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد . هنا فى هذه اليوميات أملك الكلام عنها ، وعن نفسى ، وعن الكائنات جميعاً . أيتها الصفحات التى لن تنشر ! ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتى فى ساعات الضيق ! »

١١ أكتوبر سنة . .

آويت إلى فراشى البارحة مبكرا ؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق ، وهو مرض يزورنى الآن من حين إلى حين . فعصبت على رقبتى خرقة من الصوف ، وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ، ونصبتها حول سريرى كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر ، وأطفأت مصباح النفط وأغمضت عينى وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية فى هذا « المركز » بضع ساعات ، فلا تحدث جناية تستوجب قيامى ليلا وأنا على هذه الحال . فلم أكد أضع رأسى على المخدة حتى كنت حجرا ملقى ، إلى أن حركنى صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديدا ، وينادى خادمى صائحاً : « اصحَ يادسوقى ! » فعلمت أن جناية وقعت ، وأن الغرائز لم تنم لأنى أردت أنا أن أنام . فنهضت لوقتى وأشعلت المصباح ، ودخل علىّ خادمى يفرك عينيه بيد ويقدم إلىّ بالأخرى (اشارة تلفونية) ، فأدنيت الورقة من الضوء وقرأت : « الليلة ؛ الساعة ٨ مساء ، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على الجسر بالقرب من « داير » الناحية أطلق عليه عيار نارى من زراعة قصب ، والفاعل مجهول ، وبسؤال المصاب لم يعط منطقاً وحالته سيئة ، لزم الاخطار »

« العمدة »



فقلت فى نفسى : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة تستغرق منى على الأكثر ساعتين ؛ فالضارب مجهول ، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ، والشهود ولا ريب : الخفير النظامى الذى سمع صوت العيار فذهب إليه خائفاً متباطئاً فلم يجد بالطبع أحداً فى انتظاره غير الجثة الطريحة ، والعمدة الذى سيزعم لى حالفاً بالطلاق أن الجانى ليس من أهل الناحية ، ثم أهل المجنى عليه الذين سيكتمون عنى كل شىء

ليثأروا لأنفسهم بأيديهم . فسألت خادمى عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة : « وردت الساعة العاشرة ، وقائمون لضبط الواقعة » وقمت من فورى إلى ثيابى فارتديتها على عجل كما يصنع رجال المطافىء ، وأرسلت فى طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأوفدت من يوقظ مساعدى الجديد وهو شاب رقيق الحاشية حديث عهد بالعمل ، كان قد أوصانى أن أستصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران . ولم ألبث أن سمعت بيبابى بوق سيارة المركز « البوكس فورد » بها المأمور ومعاون الأدارة وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت كل شىء قد أعد ولا ينقصنا الا كاتب التحقيق ، فلم أعجب . لأنى ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ، فى أى بلد كان ، وفى أى مركز . والتفت إلى الخفير وقلت : « أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ » فسمعت فى الظلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض ، ولمحت يداً ترتفع بالتحية العسكرية فوق (اللبدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفماً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذنب القط : « لبس القميص قدامى يا سعادة البك ! » . ورأينا أن ننطلق بسياراتنا فنمر بمنزل الكاتب فنستصحبه . فركبت أنا ومساعدى والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا منزلاً قديماً فى طرف البلدة . فصاح الخفير وكان قد تعلق بسلم السيارة ليدلنا على الطريق : « إنزل يا سعيد افندى . » فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو فى جلباب النوم : « حادثة ؟ » فصاح الخفير : « حادثة ضرب نار » . وما أشعر عندئذ إلا بيد المأمور قد خرجت من نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير : « يا خفير يا ابن ... لبس القميص قدامك يا ابن ال ... » .

« وحياة رأس سعادة البك كان لابسه ... » . ولم أر ضرورة للتحقيق فى هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين : إما أن الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شىء غير مستغرب ، وإما أن سعيد افندى قد عاد فخلع قميصه ونام من جديد ، وهو شىء أيضاً غير مستغرب . وما دمت أنا وحدى المسئول رسمياً عن التأخير ، فلا نفع إذن من صياحى مع سعيد افندى غير تصديع رأسى ، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد والكلام للقضية الحقيقية التى من أجلها نتجشم ما نتجشم . ولم يلبث الفتور أن دب فى أعضائى ، فأسندت رأسى إلى ركن السيارة وقلت لمن معى : « محل الحادث على بعد ثلاثين كيلومترا ، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق » وأغمضت عينى ، وتحركت سيارتنا وخلفها « البوكس فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر . وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء فى جوف الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة فى الحال وصاح : يا حضرة المعاون ! نسينا الشيخ عصفور . ووقفت القافلة ؛ وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل « بوص » على حافة غيط !

. . . ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان . . .

فأسرع المعاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور . حادثة ! . » فظهر ذلك الرجل العجيب الذى يهيم على وجهه بالليل والنهار ، لا يعرف النوم ، يغنى عين الأغنية ، ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات ، يصغى إليها الناس ؛ ذلك الرجل الذى لا يفرحه شىء مثل خروجه إلى الحوادث مع النيابة والبوليس ؛ فهو يسمع عن بعد بوق « البوكس فورد » ويتبعه

أينما ذهب كالكلب الذى يتبع سيده إلى الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت نفسى : ألا يكون لهذا الرجل سر ؟ . ودنا الرجل من « البوكس » قائلاً فى شبه احتجاج :

— كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسماً :

— أبداً ! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الأشارة .

فقال الرجل :

— طيب . هات سيجارة

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له فى صوت خافض :

— اسكت ، يسمعك البك المأمور

فقال الشيخ عصفور :

— هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش ، لأنى أنا الليلة « باشخرمان »

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد إلى « رولز رويس » بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حمله فى يده كالصولجان . وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات ، إلا من نقيق الضفادع ، وهفيف الحشرات ، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس » . وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءتى التى اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة ، إغفاءة متقطعة لا تمنعنى أحياناً من سماع ما يدور حولى من الكلام . وكان مساعدى إلى يسارى متيقظاً يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شىء فيمنعه الخوف من إزعاجى . فالتفت إلى المأمور بجواره ؛ وسرعان ما اشتبكا فى حديث طويل لم أع منه شيئاً كثيراً ، فهو وحده الذى أنامنى النوم العميق طول الطريق ، وانتهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير ، ففتحت عينى فاذا نحن أمام ترعة . . . . . . وإذا « المعدية » فى انتظارنا لتنقلنا إلى الضفة الأخرى . فنزلنا جميعاً وامتلأ بنا القارب كأننا غرقى فى زورق النجاة ، أو « أزيار » من الفخار فى مركب بالصعيد . وسارت بنا « المعدية » حتى بلغت الشاطئ الآخر ونحن لا نسمع فى سكون الليل العميق غير سلاسلها تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . ولم تكد تطأ أقدامنا البر حتى سمعنا صهيل خيل ؛ وإذا أمامنا « الركايب » من خيول « نقطة البوليس » وحمير العمدة ، مهيأة لحملنا إلى مكان الحادث . وآه من الخيول ! لقد تقدم إلىّ أحد الجنود بجواد مطهم إجلالا لقدرى . ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره ، ولا يصبر على الهدوء حتى أعتلى ظهره ، فعلمت أنى لا محالة واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التى لا يحكمها غير فارس بارع ، لا راكب نائم . ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة ؛ غير أنى نظرت خلفى فاذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول ولم تبق الحمير إلا للأوباش ؛ فخجلت أن أنزل عن جوادى وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور ، وقد اعتلى حماراً أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل الجياد . أسلمت أمرى لله ، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب ، إلى أن ظفر النوم بجفونى فلم أشعر بشىء . وفجأة وجدت جسمى قد طار من فوق الجواد ووقع على عنقه ! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة شديدة خلعتنى من فوق ظهره خلعاً . فقلت : « ما حسبناه لقيناه ! » وصحت بالخفير الملحق بركابى : « الحصان يا خفير ! الحصان ! » . فوقف الركب واختل

النظام ؛ وأوسع الأمور رجاله شتما وصفعاً وأمراً ونهياً . وأعادونى إلى ظهر جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى : يظهر أن الحصان نام وهو ماش ، أو خاف من ثعلب فارٍّ فجمح . على كل حال أمسك اللجام يا خفير . فأمسك خفيران اللجام ومشيا بى رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسى هجوعها ، فلم أصح إلا فى مكان الواقعة . وأبصرت ضوء المصابيح والمشاعل فى أيدى الأهالى المجتمعين حول المصاب . . . فطار التعب من رأسى كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترب . وأسرعت فى النزول من فوق صهوة الجواد وشققت طريقا بين الناس الذين هتفوا فى صوت خافت : « النيابة حضرت » . ودنوت من ذلك الجسم الممدد على الأرض ، وحدقت فى ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم ، فعلمت أنه حقيقة لن يتكلم . وقد وجدت ملاحظ « النقطة » غارقاً لأذنيه فى تحرير « محضره » الذى سأضرب به عرض الحائط ؛ فالنيابة متى حضرت بحثت كل شىء من جديد . وباشرنا التحقيق مفتتحين بمحضر المعاينة ، فأمسك الكاتب ورقة وقلما ودنا منى فأمليت عليه الديباجة المعروفة : « نحن فلان وكيل النيابة ومعنا فلان كاتب التحقيق . الليلة الساعة كذا وردت إلينا الاشارة التليفونيـة رقم كذا ونصها كذا . وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا ، فبلغناها ساعة افتتاح هذا المحضر الخ الخ . » ذلك أنى أحب دائماً أن أعنى بتحرير « محضرى » وأن أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً . والمحضر هو كل شىء فى نظر أولى الأمر . وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة . أما ضبط الجانى فأمر لا يسأل عنه أحد . ويلى « الديباجة » وصف الأصابة والملابس والموضع الذى وجد فيه المجنى عليه فما قصرنا . وأمليت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى رأينا ثقبه المتسع فى كتف المصاب . وقد حدث فيما أرى من « حشار » بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم . وقد وصفنا الوجه خير وصف . وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم : تلك الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . ولم يفتنا ذكر وشم العصفور المرسوم فى أعلى صدغه ، ولا لون شاربه الضارب إلى الصفرة ، والثياب أحصيناها من « الدفية » والجلباب الغزلى وكيس النقود الذى لم يمس ، إلى السروال « البفتة » الأبيض ذى التكة الحمراء . نعم ، لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها ، فان ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كابرا عن كابر ! وأذكر أنى تركت ذات مرة جريحاً يعالج سكرات الموت ، وجعلت أصف سرواله وتكته و « بلغته » و « لبدته » ، فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدى عليه ، فاذا بالمصاب قد توفى . ولم ننس وصف المكان ، وهو طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين . ولا عجب ، فان لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم « القتل بالعيار » ، ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجاز والقوالح » ، ومع اخضرار القطن يكثر « التقليع والأتلاف » . وانتهينا من الجريح المحتضر ، ولم يعد يهمنا أمره بعد أن ملأنا « محضرنا » بأوصافه ؛ فتركناه فى دمه تحت رعاية ضابط « النقطة » حتى يأتى لحمله إلى المستشفى رجال الأسعاف . وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث كانت فى انتظارنا القهوة . وآه من قهوة « العمد ! » إنى أسميها دائما « الكلوروفرم » ؛ فما من مرة

إلا أحدثت عندى عكس المقصود من شربها ! ولست أدرى العلة ؛ غير أنى سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصيح فى تابعه أمامنا : « هات يا ولد قهوة بن » ، ولم أفهم وقتذاك معنى لأضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ! أترى النص على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل التشريف والتكريم ؟ لست أعلم . إنما الذى علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل فى تركيب الجملة ، لم يدخل فى تركيب القهوة . وجلسنا فى « المنظرة » على فرش من قطيفة ذهب وبرها ولونها ؛ ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى وطنين قد جمع حوله هوام الليل ؛ وصحت : أطلب الشهود . فصاح المأمور لصياحى : « اجمع الشهود يا حضرة المعاون » . وارتمى على مقعد رحب فى ركن الحجرة ارتماءة أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس وغطيط . وجلس مساعدى على مقربة منى يرمق ما يجرى بعيون فاترة تنم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق . وجاءونى بالخفير النظامى الذى سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظنى فى شىء إلا فى قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد فى « الأشارة » عيار واحد ، والأصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدو فى القرية سوى عيار واحد . ما حظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدرى . وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين : عيار واحد يا سعادة البك

— سمعت يا خفير ...

— عيارين يا سعادة البك

— متأكد ؟

— عيارين يا سعادة البك

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب المتهم ، فهو حقه الطبيعى ؛ وما أطمع قط أن يَصْدُقنى متهم . ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يلقى على وجه الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى ... ؟

ومضى التحقيق فى شعاب مظلمة لا أمل معها فى الوصول إلى شىء . فما من أحد يعرف الجانى ؛ وما من أحد يتهم أحداً ؛ وما من أهل للمضروب فى هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام ، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلا صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا فى موقف السؤال . وما من أحد يدلى بتعليل معقول أو غير معقول لهذا الحادث . وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة . أهبط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار ؟ لا أحد يدرى . لقد وجدت ما حسبت . إنى منذ قرأت « الأشارة » أدركت أن القضية ميتة . وهل أستطيع أنا « بتحقيقى » أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل علىّ الشهود بالصدق ، وتعاوننى الأهالى بالرغبة والاخلاص ، فأى « محضر » فى الوجود يوصلنى إلى التشرف مرة بمعرفة جان من الجناة ؟ وجاءت نوبة العمدة فى الشهادة ، وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التى لا تقدم ولا تؤخر ... وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطى على التحقيق . فالتفتُّ فاذا المأمور قد « كوع » على « الكنبة » ؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة منى ، فاستأذننى واتجه إلى

المأمور وأيقظه فى لطف :

— تفضل يا بك على السرير فى القاعة

وقاده فى أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية .

ثم عاد أمامى يدلى بما عنده من أقوال رسمية « تجارية » قد دمغت بطابع الوظيفة ؛ ألفاظها وعباراتها تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر . وهى على كل حال لا تنفع ولا تضر ، وتلقى على نار الحادث برداً وسلاماً .

ولم يكد حضرة العمدة يوقع بامضائه الذى يضاهى نبش الدجاج تحت أقواله ، ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصابعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغى ويزبد :

— سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة أنت ... ؟

فعلمت ما حدث بالتمام . وضحكت فى نفسى . وتظاهرت بالانهماك فى عملى فلم أرفع وجهى عن الأوراق . وجلس المأمور فى مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة . ولم يلبث أن صاح فى العمدة :

— هات قهوة والسلام . اعملها موزونة وحياة عينيك

ثم وجه الىّ الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :

— القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ، ومدى نجاحها النجاح الذى يؤهلها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة . فأجبته فى صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه وكأنى أخاطب نفسى :

— القضية على السرير !

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السر وصاح :

— يا شيخ عصفور :

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسى من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول : « لبيك »

— رأيك يا شيخ عصفور ؟

فلم أطق صبرا . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين فى قضايا الجنايات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقترب منى وقال :

— الشيخ عصفور كله بركة . مرة دلنا على بندقية متهم مدفونة فى قاع الترعة !

— يا حضرة المأمور بدلا من سؤال الشيخ عصفور والشيخ طرطور كلف خاطرك وانتقل مع المعاون والعساكر وفتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالى

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون !

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولى ، وقدم إلى رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :

— أجرينا التفتيش يا أفندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولنى إياه ، فجريت ببصرى على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة : « ... ولم نعثر على شىء من الأسلحة أو الممنوعات . . »

فأشرت فى ذيل الورقة : « يرفق بالمحضر » ، ووضعت رأسى فى كفى أفكر فيما ينبغى عمله فى هذه القضية ، وفيمن ينبغى سؤالهم حتى نكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل . ذلك أنى ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوماً لى وقد تناول محضرا فى عشر صفحات :

« مخالفة ؟ جنحة ؟ » فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهشاً : « قضية قتل تحقق فى عشر صفحات فقط ؟ قتل ! قتل رجل ! قتل نفس آدمية فى عشر صفحات ؟ ! » فلما قلت له : « وإذا ضبطنا الجانى بهذه الصفحات القليلة » لم يعبأ بقولى ومضى يزن المحضر فى ميزان كفه الدقيق : « من يصدق أن هذا محضر قتل رجل ؟ ! » فقلت له على الفور : « إن شاء الله فى المرة القادمة نراعى الوزن ! »

مرّ بخاطرى كل هذا وأنا مطرق صامت ... وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع فى القاعة منشداً :

« فتش عن النسوان ،
تعرف سبب الاحزان ،
ورمش عين الحبيبة ،
يفرش على فدان . . . »

لم أغضب على الشيخ الذى امتهن حرمة التحقيق بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنى تفكرت قليلا فى مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعنى . . . . كل ما يجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إنى لم أر قضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش وحيدا بعد أن ماتت زوجته ، ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء لا ينبغى أن تحسب فى النساء . لا ريب أن هذا العصفور لا يعقل ما يقول . هذا الشيخ الأخضر من فصيلة الببغاء لا شك ، يردد الألفاظ والأغانى دون أن يعنى بها شيئاً من الأشياء . لكن مهلا ! إن للمجنى عليه طفلا . فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأنه ؟ « تعال يا عمدة ... » وألقيت على العمدة هذا السؤال :

فأجاب فى براءة الطفل وسذاجة الأبله :

— الولد فى حضن البنت !

— أى بنت ؟

— البنت ، أخت المرحومة امرأته

— بنت كبيرة ؟

— « عيِّلة »

فنظرت إلى المعاون وأمرته أن يحضر هذه البنت فى الحال . ولم يمض قليل حتى بدت غادة فى السادسة عشرة من عمرها ، لم تر عينى منذ وجودى فى الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قداً ؛ وقفت بعتبة الباب فى لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت فى موضع الوجه بالعاج . وقال لها العمدة مشجعاً :

— ادخلى يا « عروسة »

فتقدمت فى حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين يدى مَنْ من الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة إلىّ فوقفت فى وجهى ورفعت إلىّ رمشين ... ولأول مرة يرتج علىّ فى « التحقيق » فلم أدر كيف أسألها . . . ولم يرها الكاتب ، فقد كان موقفها خلف ظهره . فلما لحظ صمتى ظن بى تعباً ، فغمس القلم فى الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها :

— اسمك يا بنت ...؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق . ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينيه الواسعتين ؛ ونقلت بصرى إلى المأمور فاذا به الساعة فى غير حاجة إلى قهوة ولا إلى بن ؛ وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطئ قدمى فأقعى كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فاغرا فاه . حقاً إن للجمال

لهيبة ... ورأيت أن أملك سريعاً ناصية نفسى قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عينى حتى لا أنظر إليها :

— اسمك ؟

— ريم

لفظته فى صوت ... هز نفسى كما تهز الوتر أنامل رقيقة ، فما شككت فى أن صوتى سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالا آخر ، فتريثت ؛ وبدت لى دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لى أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال . فاستجمعت ما بقى عندى من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة ، وقلت لها تكلمى فى كل هذا ... ولبثت أنظر ، فعلمت منها العجب العجاب ! إنها حتى الآن لا تعلم ما جرى للمجنى عليه ! فقد أيقظوها من النوم الساعة وجاءوا بها أمامى دون أن يذكروا لها شيئاً ؛ ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنست منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الأحساس ...

سألتها : ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى ؛ آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكن زوج أختها وهو فى مقام وليها تردد فى القبول كما تردد دائما فى قبول الأيدى الكثيرة التى ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدى المؤمنين بالدعاء ! . . . . « أو تحقدين عليه من أجل هذا ؟ » . فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها فى نبرة حارة ؛ حرارة خاصة أدركتها كذلك باحساسى . « وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » . نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين فى لقاء برىء . وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً ، ولكنها تكره مخالفة وليها . وذلك الولى ما غايته من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غلو منه فى الحرص على هنائها ؟ أهو لا يجد الزوج الكفء ؟ إنها لا تعلم حقيقة سره . وإنها لتريد أن تعلم . وإن هذا ما يحيرها أحياناً ، وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . ؟ ... لا شىء . لا تستطيع التعبير ... إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس

وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض فى أعماق النفس ... وهذه الفتاة فيما يخيل إلىّ ذات نفس كدغل « البوص والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص فى ظلام القاع كلما تمايل القصب ...

على أى حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور « المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية ، وهممت أن أطلب فنجاناً آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحلا التحقيق . وإذا المعاون يسأل ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب :

— أحضر الأسعاف ونقل المضروب ؟

— من زمان !

فأدركت الصبية كل شىء ، فانطلقت من فمها صيحة كتمتها فى الحال خجلا منا ؛ غير أنى ما شككت فى أن لها دويا وانفجارا داخل نفسها . وأردت أن أمضى فى عملى فما وجدت أمامى غير فتاة تجيبنى بكلام أبتر لا شبع فيه ولا غنى . ورأيت أن أرجئ التحقيق فقلت :

— استريحى ياريم ...

ونظرت إلى المأمور :

— الأحسن أن نكمل التحقيق الصبح

فأشار إلى النافذة ، فاذا النهار يدخل منها متلصصا ، وقد خدعنى عنه المصباح المضىء .

فاستويت على قدمى إذ ذكرت للفور أن جلسة الجنح اليوم ، وقد فاتنى أن أدبر الأمر من الليل حتى يخلفنى فيها نائب من الزملاء ؛ فلا مفر لى إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة فى الميعاد .

— يا حضرة المعاون : هات البنت فى « البوكس » ! ...

وأقفلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة فى دار النيابة . وقمنا إلى « الركايب » فامتطيناها عائدين .. والشيخ عصفور خلفنا يصيح ويلوح بعوده الأخضر فى حركات الثائر المهتاج :

— هى بعينها !

والمأمور يجيبه :

— اعقل ... !

— هى بعينها ، برمشها .. عرفتها ، برمشها .

— اعقل يا شيخ عصفور ، وافطن لنفسك ، تقع من فوق الجحش !

ودب التعب فى أعضائى فانحنيت على ظهر الحصان ، ولكن نسيم الصباح الرطب كان يضرب وجهى ضربات خفيفة كأنها لطمات مروحة فى يد ماجنة ظريفة ، فلم أفقد نشاطى وطفقت أفكر ، وإذا غناء العصفور يرتفع بغتة شديدا كأنه شىء قد انخلع مع قلبه :

— ورمش عينها يفرش ..

ولم أسمع البقية ، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألفينا الشيخ عصفور بأطماره على الأرض قد فرش ... فوقفنا . وأسرع اليه الخفراء فحملوه إلى حماره ، فاستوى عليه وهو ينفض عن جسمه التراب صائحاً مستأنفاً :

— ... على فدان ..

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافياً .

ثم سمعت المأمور ينتهر المعتوه قائلا له : « افطن لنفسك . صاحبتك غرقت فى الرياح من سنتين ... »

ولم يكن فى عقلى وقتئذ غير صورة الفتاة فى إطارها الأسود وسرها الذى لم أنفذ إليه بعد . إن سرها هو سر القضية . وإنى لتدفعنى إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل . إنى أيضاً أريد أن أعلم .

وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً متسعاً عميقاً زاخراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل فى عرض الذراع . وأراد الخفير أن يدفع فى عجز حصانى ليجتاز بى المصرف على هذه الخشبة التى فى ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

— أنت مجنون يا خفير ... أمرّ من هنا أنا والحصان ؟

فبدت على وجه الرجل دهشة :

— سبق لك يا سعادة (البك) المرور من هنا بالليل أنت والحصان

فنظرت إلى الخشبة فى شبه رعب :

— أنا ؟ عديت بالليل المصرف من هنا على هذه الخشبة ؟ وكنت وقتها فوق الحصان ؟ مستحيل !

— الطريق واسع يا بك والحصان عاقل ...

ولم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك . فاذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً فى نظر هذا الرجل فهو من غير شك سيجتاز الصراط فى الآخرة راكباً جملا . أما عقل الحصان فان ضمنه هو ، وهو ليس راكبه ، فما يحملنى أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة ؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ماشياً على قدمى فوق الخشبة ، معتمداً على عصاى ...

(يتبع) توفيق الحكيم

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

تمهيد

فى مثل هذه السنة منذ قرن كامل كتب الفريد دى موسيه الأديب الخالد كتابه (اعتراف فتى العصر) ليصف الأدواء التى استحكمت بأبناء جيله بعد أن اجتاحت أوروبا بأسرها أعاصير الحروب ، ووقفت على أطلال عالم منـدثر شبيبة تعثرت آمالها وتزعزع إيمانها

ولقد رغب الى الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة التى تنير آفاق الشرق العربى بالحكمة ، وصاحب الرواية التى يختار لها من الأدب العالمى أصفاه مورداً لتثقيف العواطف الحائرة فى النشء الجديد ، أن أترجم هذه التحفة الأدبية الخالدة ؛ فنزلت عند رأيه لأنه صادف هوى فى نفسى ، إذ أننى أرى مايراه الأستاذ الكبير من أن اعتراف فتى العصر هو خير ما يهدى للشبيبة العربيــة الواقفة على أطلال حضارتها القديمة متطلعة الى مستقبل مجهول ، حائرة بين تذكاراتها وآمالها .

عن الاسكندرية فليكس فارس

الجزء الأول

الفصل الأول

لا يدون تاريخ حياته من لم يبتل الحياة ، فما أكتبه ليس تاريخاً لحياتى

* * *



منيت فى شرخ الصبا بعلة نفسية تروعت لها ثلاثة أعوام ، وهأنذا أسرد ما تحملته منها

ولو أننى كنت المصاب وحدى بهذه العلة لاخترت كتمانها ، ولكن الكثيرين يشكون الداء الذى أشكو . فالى هؤلاء أوجه رسالتى ؛ وسواء استوقفهم بيانى أو مروا به غافلين ، فان هذا البيان سينهش ما أطبقت النوائب عليــه منى كما ينهش الثعلب رجله ليتركها للفخ وينجو بنفسه

الفصل الثانى

فى إبان الحروب الامبراطورية ، بينما كان الآباء والاخوة فى بلاد الألمان ، قذفت الأمهات المضطربات هذا الوجود بسلالة شاحبة عنيفة مستعرة الأحشاء ، تلك سلالة تمخضت الحياة بها بين معركتين ، وربيت فى المدارس على دوى الطبول ، فكان إذ ذاك ألوف من الأولاد يحدج بعضهم البعض الآخر

شزراً وهم يمرّنون على القوة عضلاتهم الضعيفة . وكان الآباء الملطخون بالدماء يلوحون للأبناء من حين الى حين فيرفعونهم لحظة الى صدورهم المحلاة بالذهب ثم يتركونهم الى الأرض ، ويعودون الى صهوات الجياد

ولم يكن فى فرنسا غير رجل واحد يتمتع بالحياة ، أما الباقون فكانوا يجتهدون أن يملأوا صدورهم من الهواء الذى كان ينشقه ذلك الرجل ثم يزفر به إلى الناس ؛ وكانت البلاد تقدم له كل سنة ثلثمائة ألف من شبانها جزيةً فرضت للقيصر ليتمكن وهو يجرها كالسائمة وراءه من بلوغ الأمجاد التى يطمح إليها ، بل ذلك هو الركب الذى كان يحتاج إليه ليجتاز الدنيا متجهاً إلى الوادى الحقير حيث ترامى على جزيرة قفراء تحت أغصان الصفصاف الباكى

وما مرت فى التاريخ ليالٍ ساهدة كالليالى التى مرت فى عهد هذا الرجل ، وما شوهد فى أى زمنٍ من الأزمان مثل هذا المدد الغفير من الأمهات ينتحبن متفجعات باكيات على الأسوار والحصون ؛ وما أصغى الناس برهبةٍ إلى من يتحدثون عن الموت إصغاءهم فى تلك الأزمان ، ومع ذلك لم يشهد التاريخ مثل ما تجلى فى ذلك العهد من سرور ومن قوة حياة ، وما أوقدت موسيقى الحروب من حماس فى كل القلوب ؛ وما لمعت فى فرنسا شموسٌ كتلك الشموس التى جففت على الأرض أنهاراً من الدماء ؛ وكان الناس يصفونها بشموس اوسترلتز ويعتقدون أن الله انما يشرقها لخدمة ذلك الرجل ؛ غير أنه هو كان يطلقها من أفواه مدافعه المرعدة فلا تنعقد من نيرانها الغيوم إلا فى اليوم التالى لمعاركه .

وكان أبناء ذلك العصر ينشقون الحياة تحت تلك السماء الصافية الأديم حيث لمعت الأمجاد وتموجت الأنوار منعكسة على الفولاذ ، وماجهلت تلك الشبيبة أنها معدة للمجازر ، ولكنها كانت تعتقد أن (مورات) أرفع من أن يناله الموت ، وكانت رأت أن الامبراطور يمر بين كرّات المدافع ويقطع أحد المعابر هازئاً بنفثات البنادق فداخلها الشك فى انسانيته وحسبته من أبناء الخلود

وما كان ملك الموت ليلقى الذعر فى روع هذه الشبيبة وهو متشح برداء البهاء والجلال تتصاعد منه أبخرة النجيع كأنه بشير الأمل لا نذير الفناء وكأنه ، وقد حصد بمنجله حقولاً من السنابل الخضراء ، استمد منها الفتوّة فلاح غضَّ الاهاب ناضر الشباب

لقد أصبحت الشيخوخة وهما من الأوهام ، واستحالت المهود كما استحالت النعوش أيضاً دروعا نخلت فرنسا ممن يدب على أرضها من العاجزين فلم يبق على تلك الأرض إلا إنصاف آلهة أو أشلاء أموات

وقف يوما هذا الامبراطور الذى حسبه الناس خالداً على أكمةٍ أشرف منها على سبعة شعوب تتناحر ، وما كان يدرى أيمتد حكمه إلى آخر العالم أم يقف عند نصف العالم ، فمرّ به عزرائيل وبلمسةٍ من طرف جناحه دفع به إلى عباب الأوقيانوس الفسيح

وبلغ دوىّ سقوطه آذان الدول المنطرحة على أسرّة الاحتضار فجلست تقاوم أوجاعها ومدّ الملوك راحاتهم المتقلصة فاقتسموا أوروبا ، واتخذوا من وشاح القيصر مرقّعات يستترون بها

يواصل المسافر السيرَ بالسُرى ويقتحم الحرّ والقرّ ووجهته مقرّ عياله دون أن يشعر بثقل السهد أو يبالى بما يحدق به من أخطار إلى أن يستقرّ بين أهله ويجلس أمام الموقد ؛ حينئذ يحلّ عليه التعب فلا يجد فى عضلاته من القوة ما يستعين به على الزحف إلى مرقده ؛ وما كانت فرنسا حينذاك إلا مثل هذا المسافر حين مات قيصرها فترملت ، شعرت فجأة بما أثخنها من جراح ، فسقطت لا تعى واستغرقت فى نومها حتى حسبها ملوكها الشيوخ ميتة فطرحوا عليها الأكفان البيضاء

ورجع الجيش القديم فلولاً أرهقها العياء وعلا الشيب مفارقها ، فمادت الأنوار تشع حزينــة فى باحات القصور المقفرة

حينئذ أقبل رجال الامبراطورية الذين جابوا الأقطار وملأوها دماً على نسائهم الشاحبات ، وقبلوهن متحدثين عن الغرام القديم ، وتحولوا إلى مياه الغدران ينظرون فيها الى وجوههم وقد خدّدها الهرم فتذكروا أبناءهم وهم يقتربون الى الحين الذى يذكر الانسان فيه من يغمض له أجفانه

وخرج الأبناء من المدارس ، وإذ لم يجدوا لا سيوفا ولا دروعا ولا فرسانا ، أجالوا الطرف مفتشين عن آبائهم ، فقيل لهم إنّ الحرب قد انقضى عهدها ، لأن القيصر قد مات ، وأن صورتىّ ولنكتن وبلوخر معلقتان على جدران السفارات ، وقد كُتب تحت كلٍّ منهما : (مُخلِّص العالم)

فى ذلك الحين ربضت على أطلال العالم القديم شبيبة تتنازعها الهموم

وكان كل هؤلاء الشبان نقطا من الدماء المحرقة التى غمرت وجه الأرض . ولدوا فى أحضان الحروب للحروب ، وراودت أحلامهم طوال خمس عشرة سنة ثلوج موسكو وشمس الأهرام . وما كانوا خرجوا من مدائنهم ، ولكن قيل لهم إنّ أبواب كلٍ من هذه المدائن تقود الى عاصمة من عواصم أوربا . لقد كان العالم بأسره ماثلاً فى خيال تلك الشبيبة ، ولكنها كانت تجيل أبصارها على الأرض والسماء والطرق فتراها كلها مقفرة خالية ، ولا تسمع إلا رنين أجراس الكنائس تقرع الهواء من بعيد

واجتازت الحقول أشباحٌ ناحلة تتخطر على مهل ساحبة أردانها السود

وطرقت الأشباح أبوابا أخرى لتبرز للسكان أوراقاً أخلقها الزمان ، وتأمرهم باخلاء منازلهم . وانفرجت الحدود المقفلة عن رهط المهاجرين الذين هرعوا الى فرنسا ولم تزل على وجوههم آثار ما نزل بهم من الخوف منذ عشرين سنة . وساد الصخب وعلا الضجيج ، فدهش العالم لميتة واحدة تستجلب مثل هذا العدد الغفير من الغربان

وجلس ملك فرنسا على عرشه وهو يقلّب نظره فى رياش قصره خشية أن يكون قد تبقى عليها أثر من شارات الأمجاد البائدة ، فتألب حوله رهط المالئين يمدّ بعضهم يد الاستجداء فينفحهم بالمال ويقدّم البعض الآخر له صليبا فينحنى مقبلا هذا الصليب ..

وناجاه البعض بالمديح والاطراء فأشار الى مثل هؤلاء بالذهاب الى القاعة الكبرى حيث تتكفل الأصداء بأذاعة مجد الملك المظيم ... وزحف آخرون عند أقدام العرش عارضين ما أخلق الزمان من أرديتهم وقد نزعوا عنها شارات العهد البائد ،

فكان الملك يأمر لهؤلاء الخونة بالخلع السنية ...

وكانت الشبيبة تشهد هـذه المهازل متوقعة ظهور خيال القيصر على شواطىء (كان) ليرسل عاصفته الـكاسحة على هذه الحشرات

تعثرت الآمال وطال السكون ، فلم تلُحْ فى الآفاق غير الزنابق الصفراء شارة الملـكية المتحكمة

وسأل الفتيان عن الأمجاد فقيل لهم : اعتنقوا الـكهنوت

وسألوا عن الأمانى فقيل لهم : اعتنقوا الـكهنوت

وسألوا عن الحب والقوة والحياة فقيل لهم : صيروا كهنة

واعتلى المنبر فى ذلك الزمن رجل يحمل عقـد اتفاق بين الملك والشعب ، فقال : جميلة هى العظمة والمطامع والحروب ! ولـكن هنالك ما هو أجمل منها جميعاً : هنالك الحرية

فرفع الفتيان رؤوسهم وتذكروا أجدادهم الذين تكلموا هم أيضاً عن الحرية ، وعادت إلى مخيلتهم تلك الدمى الرخامية التى كانوا يرونها فى زوايا بيوت آبائهم ، وقد تدلت شعورها ونقشت على قواعدها تواريخ رومانية

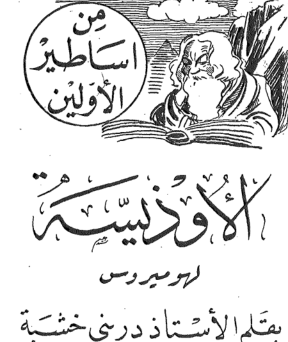
وتذكروا أيضاً أنهم شاهدوا أجدادهم فى ليلة سَمَرٍ يهزّون رءوسهم ويذكرون معارك تفجرت فيها الدماء بمـا يفيض عن النهر الذى أساله الامبراطور . لذلك دوت كلمة الحرية فى آذان هؤلاء الفتيان بصوت نبضت له قلوبهم كأنهم يصغون فى آن واحد إلى صوتين : أحدهما صوت الذكرى البعيدة المروّعة ، وثانيهما صوت الأمل المنشود يتراجع من مستقبل أبعد من المـاضى

هزت كلمـة الحرية هؤلاء الفتيان بنشوتها السحرية ، ولـكنهم شاهدوا وهم عائدون إلى مساكنهم ثلاث جثث لثلاثة شبان تجرأوا على التلفظ بكلمة الحرية ؛ فرّت على الشـفاه ابتسامة ملؤها الأسى

وارتقى المنابر بعد ذلك خطباء آخرون فتكلموا عن مساوىء الحروب وأخطار الانتقاض ، وأفاضوا بذكر المطامع وتكاليفها قائلين إن الحروب مذابح والمعارك مجازر . وتكلموا تكراراً وتكلموا طويلاً حتى تعرّت النفوس من أمانيها كما تتعرى أشجار الخريف من أوراقها ، فكان السامعون يمدّون أيديهم إلى جباههم يتلمّسونها كما يتلمّس المحموم موضع شعوره وهو يفيق من غيبوبته

وقال البعض لقد سقط الامبراطور لأنه أرهق الشعب ، وقال آخرون — إن الشعب أراد الملـكية بل الحرية ، بل سيادة العقل ، بل سيادة الدين ، بل الدستور الانكليزى ، بل الحـكم المطلق . فارتفع بين هؤلاء المفترضين صوت قائلاً — لا ، لم يرد الشعب شيئاً ، إنّ ما أراده الشعب هو أن يرتاح

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة



مقدمة :

هذه هى القصيدة الثانية الخالدة ، والملحمة المعجزة الكبرى ، للشاعر اليونانى الأعمى هوميروس ، نقدمها لقراء الرواية ، كما قدمنا أختها (الألياذة) لقراء الرسالة من قبل . وستكون ترجمتنا للأوديسية كترجمتنا للألياذة أى ترجمة تلخيص ؛ فقد وردت فى ثنايا القصيدة نتف أسطورية لاصبر لجمهرة القراء على الالمام بها . ومن أجل ذلك آثرنا إظهار الصور الهوميرية الرائعة التى اشتملت عليها الملحمة دون الحواشى المربكة التى تتلف روعة هذه الصور

هذا ، والأوديسية مرتبطة بالالياذة ارتباطاً هيناً بحيث لايحول بين من لم يقرأ الالياذة وبين هذه الترجمة ، وسنجتهد فى شرح النقط (القليلة) التى تقتضى العود إلى الالياذة

* * *

تصدير

لم تكن حرب طروادة معركة بين طائفتين من الناس فحسب ، بل كانت كذلك حرباً عواناً بين طائفتين من الآلهة : احداهما — وفى مقدمتها مينرڤا (باللاأثينا) — تؤيد اليونانيين ؛ والأخرى — وفى مقدمتها أبوللو ونبتيون (پوسيدون) — تؤيد الطرواديين . وقد تناولت الالياذة ذاك الصراع الطويل الهائل الذى نشب بين الطائفتين تحت أسوار طروادة ، والذى انتهى باندحار الطرواديين ، وغلبة اليونانيين ، وحرق طروادة وتخريبها . أما الأوديسية فتقتصر على عُقبى واحدة من عقبيات تلك الحرب ، ألا وهى عودة البطل العظيم (أودسيوس)[1] إلى مملكته إيثاكا بعد مجازفات جمة وعقبات كثيرة اقتحمها جميعاً بعد طول الجلد والصبر الجميل ، واحتمال أذى (نبتيون) رب البحار وألد أعداء أوديسيوس .
ولقد ظلت ملحمتا هوميروس (الالياذة والاوديسية) المعين الذى لا ينضب لجميع شعراء اليونان ؛ فكلهم اتخذوا منها موضوعات دراماتهم ، وكلهم كانوا ينظرون إليها كَمَثَلهم الأعلى الذى لا مثل لهم فوقه .

(١) Odysseus أو أوليسيز Ulysses كما سميناه فى الالياذة

ولقد خصصنا لقراء الرسالة درامات إسخيلوس وإحدى درامات سوفوكليس ، ورأينا كيف كان هوميروس رائدهما جميعاً كما كان رائد أقرانهم من قبل ومن بعد : پندار وهسيود ويوربيدز ....

— ١ —

أنشد يا هوميروس !

وظل فى فم الأبد قيثارته المرنّة ، ونايه المطرب ، وعوده الآنّ ، ونغمته الحلوة الحنون ! !

أنشدْ يا شاعر العُصُر الخالى

وحُل فى الأسماع موسيقى مدوّية ، وفى العيون دموعاً جارية ، وفى القلوب رحمة ومحبة ؛ وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطاناً ، وحكمة وبياناً ، وسرًّا وصولجاناً

تغنَّ يا شاعر أولمب ! !

ولْترسلْ من جنتك نغمة تنتظم الأفلاك ، ورنة تجلجل فى الأفق ، وآهة تزلزل قلوب الجبارين !

***

سقطت إليوم [1] ونزح المغير بخيله ورجْله . فتماليْ يا عرائس الفنون فافتقدى أوديسيوس فى ذلك البحر اللجىّ يذرعه ؛ موجة تلبسه وموجة تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه ، ولا شاطئاً فيقصد إليه ... يخبط فى اليمّ على غير هدى ، ويرسل عينيه فى الماء والسماء على غير بصيرة ... زرقة متصلة فى العُلْو والسفل ، وتيه لا نهائى يخبط فى أحشائه أسطول السادة المنتصرين ...

والأقدار وحدها تعلم لم ضل أوديسيوس بجنوده فى ذلك العباب ، وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشحط الدار ، إلا هو والإثم ، ممزقين فى دار الغربة كل ممزق ، يتجشمون المصائب والأهوال ، ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخلصون من بحر إلى بحر ، ومن رَوْع إلى روْع . فاذا أرسوا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفزعهم فيها غير الذى رجوا ...

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس ... إلا نپتيون الجبار ، رب البحار ، الذى يضمر للبطل فى أعماقه كل كراهة وكل بغضاء ، وآلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء ...

وحدث أن كان نپتيون فى حرب مع الأثيوبيين فانتهزها الآلهة فرصة سانحة ، وعقدوا مجلس الأولمب فى ذروة جبل إيدا ، وتفضل الآله الأكبر ، زيوس [1] ، فافتتح الجلسة بكلمة خاصة توجع فيها لما يلقاه بنو الانسان من صروف الحدثان ، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون المسكين وما لقيه على يدىْ زوجه وعشيقها الأثيم إيجستوس [2] من غدر وغيلة ، ثم أنحى باللائمة على هؤلاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من خير وضير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند أنفسهم ... ولكن لا يفهمون !

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فأيدت ما قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس ... « ذلك التعس المسكين الذى تخبّطه وصحبه البحر ، وقُضى عليه — دون أقرانه جميعاً — أن يشقى هذا الشقاء الطويل ، عند عروس الماء الفاتنة كالپسو

(١) Ilium هى طروادة

(١) Zeus أو Jove أو Jupiter

(٢) عرضنا كل ذلك فى الرسالة فى المجلد الثانى من السنة الرابعة

فى جزيرة أوجيجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد . ما ذنبه ؟ ما جريرته ؟ لماذا يُنفى هذا العبد الصالح فى أقصى الأرض يا أبى ؟ إنه خير عبادك أجمعين . أذكر كم ضحى الأضحيات باسمك ، وقدم القرابين من أجلك ، وحارب أعداءك ، وجاهد شانئيك ! لقد نمى إلىّ أن كاليپسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا . . . ياللهول ! كيف يا أبتاه ! وهذه الزوجة التاعسة بنلوپ ؟ ! بنلوپ المحزونة المرزّأة ! بنلوپ التى صبرت وصابرت طوال هذه السنين على ما كربها الدهر به من بعد زوجها ؛ بنلوپ التى حافظت على طهرها وإخلاصها ؛ أتظل هكذا سجينة فى قصرها المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً بعشاقها المجانين من أمراء الأقاليم ؟ ! أبى ! يا سيد الأولمب ! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس ، وترده إلى وطنه ليذود هذه الكلاب التى ولغت فى حوضه وكادت تخوض فى عرضه ؟ تُداركه يا أبى ؛ تداركه بعطفة واحدة منك ، وإنك على إنقاذه لقوى مكين »

واستجاب لها سيد الأولمب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا ؛ لكنه ذكرها رب البحار نپتيون ، وذكرها بما بينه وبين البطل من تراث وثارات ، « سببها هذه الفعلة الجنونية التى فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلوپس[1]، أبناء نپتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التى كان ينعم بوساطتها بزينة الحياة ... إطمئنى يا بُنَية وقرى عيناً ... إننا نحن الأعلون ، وسيرى نپتيون أنه لن يغاب الآلهة مجتمعة أبداً ... »

وشاعت الغبطة فى أعطاف مينرڤا ، وتضرعت إلى مولاها أن ينفذ ولده هرمز إلى جزيرة أوجيجيا ، فيأمر عروس الماء كاليپسو أن تمد مركباً عظيما لأوديسيوس ورفاقه ليعودوا عليه إلى أوطانهم ؛ ثم ذكرت أنها ستمضى من فورها إلى إيثاكا حيث العشاق المآفين يحاصرون قصر بنلوپ ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ، تلماك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكنا لصغر سنه ... « إنى سألهب إحساسه ، وأفتح عينيه على ما ينبغى ... سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده ، فانه لم يعد طفلاً بعد ... »

وانطلقت مينرڤا فربطت نعليها السحريتين على قدميها الجميلتين ، وحملت رمحها العظيم الذى تقطر المنايا من سنانه ، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير ، وأطلقت ساقيها للريح ، حيث كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس ، فهبطت من السماء الى الأرض ؛ وفى لمحة انقلبت فاتخذت شكل الآدميين ، وتخايلت فى جثمان الأمير منتس[1] وطيلسانه ، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع العشاق المجانين من من أجل ولمة ، وتلفتت يمنة ويسرة ، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تلماك ، وقد تعقدت فوق جبينه هموم ... وهموم ، وتغضنت ملء أساريره آلام ... وآلام

وما هو إلا أن لمحها تلماك حتى أخذه من هيبتها شىء عظيم ... فهب للقائها مسرعاً ، ثم مد لها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هى ، وقال :

---

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب العاشر من الأوديسيه

(١) يروى أن منتس كان بحاراً غنياً وكان يحمل هوميروس فى رحلاته الواسعة من غير أجر ، ولذلك كافأه هوميروس فخلد اسمه بذكره هكذا فى الأوديسيه

« مرحباً مرحباً بالغريب المكرم ! هلم فشارك فى ذلك القِرى ، ولنتحدث بعدها فيما أقدمك إلينا . مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ! ... » وإدلف نحو الصالة المزخرفة وتبعتة مينرڤا ، وفى عناها رمحها الجبار الذى يقدح من سنانه الشرر ؛ حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذى أسندت إليه مئات الرماح ، والذى كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه ، تناول تلماك الرمح وأسنده بعد جهد ، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح العشاق الفاسقين . وتقدم نحو أريكة وثيرة منعزلة ، وسأل منيرڤا فاستوت عليها ، وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد ... وأقبلت جارية فينانة رائعة تحمل طستاً وإبريقاً من الذهب ، فصبت الماء على يدى الضيف ويدى تلماك ؛ ثم مضت فأحضرت مائدة نسقت عليها الورود والرياحين ، ونشط النادل(١) يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى ، فيأتى بها ملأى ويمضى بهـا فارغة ... والندمان(٢) فيما بين ذلك يجذب الزق(٣) إليـه ويسقى ... ثم يسقى ... وشرع العشاق المجرمون بدورهم يلتهمون ما لذ لهم وطاب من آكال وشراب ... حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى

وانتهز تلماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فساءل الضيف قائلاً :

« يا أعز الأصدقاء ! أرأيت إلى أولئك الفساق ، لو أن رب البيت هنا أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فسقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع إلى الهرب ، منهم إلى ذاك الطرب ؛ ولكن ... أواه ! ... أين هو ! أين أوديسوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويئسنا من عوده إلى دياره . ولكن حدثنى بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدمت ؟ ومَن رجال البحر الذين ألقوا مراسيهم عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد ؟ أم كنت فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبى وأحبائه ؟ »

وقالت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهدأ بالك يابنى ، فانى مجيبك على كل ماسألت . إنك ترى الآن منتس أمير (جزيرة الطافيين) البحارين ، وسليل انخيالوس الكبير . ولقد أبحرنا من جزيرتنا ميممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ، وسفائننا ملقية مراسيها بالقرب من غابات (نيوس) . ولقد كنا وما نزال من أحب ضيفان أبيك وأودهم إلى فؤاده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وبيبته من لأواء إستوحينا آلهتنا فخبرتنا أنه لابد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لابد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار ... ولكن خبرنى بأربابك ، أفى الحق أنك لأنت ابن أوديسيوس العظيم ؟ إن ملامحك تشبه ملامحه ، وإنك لقريب الشبه منه جداً ، وإن هـذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من عينى أوديسيوس ، يا للآلهة ! كم سمرت إلى أبيك قبل أن يشد رحاله إلى طروادة ! فهل يقدر لى أن أسمر إليه مرة أخرى ؟ إننى من من وقتها إلى اليوم لم أره ، وهو كذلك لم يرنى ... ما أشوقنى اليه ! ما أشوقنى إليه !... »

وشاع بارق من الأمل فى نفس تلماك فقال :

« ويحك أيها الصديق ! إننى أنا ابن أوديسيوس ما فى

(١) النادل خادم المائدة
(٢) الندمان ساقى الشراب
(٣) الزق قربة الخمر

ذلك ريب ، والعالم كله شهيد بذلك »

ثم اختلطت الزرقة بالخضرة في عيني ربة الحكمة وقالت : « على رسلك يا تليماخوس ! إذن فما هذه الولائم وتلك السُّمط ؟ وهذا الزحام من أين أقبل ؟ إني لأقلب ناظري في القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب يستأهل أن يُحتفى به أو يقام له وزن ! »

ويبتئس تليماك ويجيب : « أيها العزيز ... لقد هاجرت الفضيلة من هنا في أثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! وكان هو ، تداركته السماء ! يلقنها هؤلاء بنظرة واحدة تكفي لتزول منها الجبال ... وا أبتاه ! لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للنوى ! إننا لا ندري اليوم أين مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد خر تحت أسوار إليوم لاجتمع الاغريق من كل حدب هنا ... هنا ... في حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من أجله ، وليقيموا له نصباً عالياً رفيع الذرى شاهق الأرواق ، وليكتبوا اسمه الكريم في صحائف صدورهم بمداد أبدي من التبجيل ... ولكن ! ... وا أسفاه ! ... لقد انتصر انتصار الأبطال ، ثم مضى على وجهه وراء البحار وفي فِجاج الثبج ، وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه ، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين ! ... تباركت يا آلهة الأولمب ! ماذا عندك من الأقضية المخبوءة لي ؟ الذئاب ! إي يا آلهة هذه الذئاب ! وحوش البرية التي اجتمعت من كل فج ... من الجزائر المتناثرة في البحر ، ومن المدائن المترامية في البر ... من ساموس ودلشيوم وزاكنتوس ومن كل إقليم وكل مصر ... كلهم يرابطون حول هذا القصر ولا يستحيون ... الفُسّاق ! الأوشاب العرابيد ! يطلبون يد الزوجة الوفية ... الأم المكلومة ... بنالوب ! بنلوب الباكية المحزونة المصدعة ! كنز أوديسيوس الذي لا يفنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها ولأواءها ... فلا تستطيع أن تردهم لعجزها ، ولا تستطيع أن تجيبهم وهي لا تدري من أمر زوجها ... وهم طوال هذه السنين يريغون نعماء أبي ، فكهين في أشربات وآكال ، حتى أقفر الزرع وجف الضرع ، وما أحسبهم مبقين على شيء ... حتى علي ! ! »

(يتبع) دريني خشبة



من أفق إلى أفق
مغالبة جبل إفرست !

إذا قدر للانسان أن يصل إلى قمة إفرست ، فأنه بذلك يضيف نصراً عظيما إلى سالف انتصاراته على الطبيعة . وليت شعرى ماعسى أن تجيء به الأيام فى أمر تلك المحاولة الهائلة ؟! على أن الانسان الآن من تلك القمة الشاهقة على قاب قوسين ! أجل ليس ثمة الآن من مسافة بين البقعة التى وصل إليها الانسان أخيراً وبين تلك القمة التى تعتبر أعلى مكان فى كوكبنا هذا ، إلا بقدر ما تسميه جولة يسيرة . ومن هاتيك البقعة تبدأ المحاولة الكبرى أو يبدأ الامتحان العظيم ، فأن تلك الجولة اليسيرة طالما قهرت الانسان وردته ، وظلت قمة إفرست على قربها من الانسان قرباً يتحداه ويضايقه ، لم تطأها إلى اليوم قدم بشرية !

ومن الصعب أن نتبين مدى قرب الانسان من النجاح فى تلك المحاولة ، ولكن فلأحاول أن أصور الموضوع لذهنك بعض التصوير

هأنذا رجل يبلغ طولى ستة أقدام ، فهل فى وسعك أن تتخيل نموذجاً صغيراً لهذا الجبل فى نفس الطول ؟ إذا استطعت أن تمثل فى خاطرك هذا الجبل الصغير فاعلم أن الانسان فى عدة محاولات سلفت قد استطاع أن يصل منه إلى بقعة هى فى مستوى عينى ، وليس بين تلك البقعة وبين القمة إلا مقدار ما بين عينى وقمة رأسى . أما ارتفاع الجبل الحقيقى فيبلغ تسعة وعشرين ألف قدم ، وما بقى منه يتحدى مغالبيه يبلغ الألف فحسب ، بل إنه فى الواقع دون الألف بقليل

وسيأتى عاجلاً أو آجلاً اليوم الذى يرقى فيه الانسان قمة ذلك الهرم الساخر من قدرته . وليس ما يتساءل عنه الآن هو إمكان صعوده ، وإنما سؤاله هو : « متى يكون ذلك الصعود ؟ »

ويرجع تسمية أعلى جبال العالم باسمه هذا ، إلى « سير چورچ إفرست » ، الرجل الذى حدد موضعه وقاس ارتفاعه ، وهو على بعد منه ؛ وما كان يمكن قبل أن يدنو منه أحد ، فلقد ظل الكثيرون من بواسل المتسلقين زماناً يرجون الوصول الى قاعدته ليروا ماذا يستطيعون فعله حيال هذا الجبل الشاهق . ولن يتيسر الوصول الى تلك القاعدة الا عن طريقين ، أحدهما يخترق قرية « نيبال » والآخر يخترق قرية « تبت » ؛ ولكن حكام كلا القريتين كانوا يأبون أن يسمحوا لأحد بالوصول الى الجبل . ذلك أنه عندهم بمثابة « أولمبوس » عند الأغريق ، أعنى أنه مقر آلهتهم ، ومن أجل هذا ظلوا زمناً مصممين على منع الدنو منه

ولقد قام « سير جورج افرست » بتحديد ارتفاعه عام ١٨٤١ . وبعد ذلك بثمانى سنوات سوياً برهنت حكومة تبت على مقدار ما تكنه من شعور المودة نحو بريطانيا ، بأن سمحت بما كانت تأباه من قبل

على أن أولى الحملات التى أرسلت على هذا الجبل لم تقع إلا عام ١٩٢١ ، وكانت وجهتها فى الحقيقة معرفة ما إذا كان من الممكن تسلقه (ومن البديهى أنهم لو وجدوا ذلك يسيراً فما كان هناك من الأوامر ما يحول بينهم وبين السير إلى القمة ، ولكن الغرض الأساسى للحملة كان معرفة مدى ما يمكن الوصول اليه

ويقع جبل أفرست على بعد ثمانين ميلاً من « دراچيلنج » أقرب مكان اليه فى الهند . ولقد أظهرت المناظير المقربة أن من الممكن تسلقه . على أنه حتى ذلك اليوم لم يتعد أى رجل من البيض فى قربه من الجبل أكثر من أربعين ميلاً . ومن المسلم أن ما يقف عليه المرء من المعلومات عند سفحه أضعاف ما يستطيع الوصول اليه على ذلك البعد ؛ ولكن البعثة على الرغم من ذلك وصلت إلى نتيجتين كلتاهما على جانب عظيم من الأهمية : أولاهما أنه إذا كان من الممكن تسلق الجبل فلن يكون ذلك إلا من جهة واحدة ؛ والثانية أن كل محاولة لا بد أن يتقرر نجاحها فى الفترة ما بين أول مايو ومنتصف يونيو . وعلة ذلك أنه لا يستطيع أى إنسان الصعود على جوانب ذلك الجبل فى معظم شهور السنة نظراً للأحوال المناخية القاسية ؛ حتى إذا كان مايو تحسنت تلك الأحوال بعض الشىء ، ولكن ذلك التحسن لا يدوم طويلاً ، فنى منتصف يونيو يبدأ تهطال الأمطار الموسمية على الهند ، ولن يقف أمر تلك الأمطار عند ما يصحبها من رداءة الجو ، بل إن الثلج فى ذلك الوقت يأخذ فى الزحف من مكامنه وذلك هو الموت

ولكن مع أن التسلق لا يبدأ فعلاً الا فى أول مايو ، فأن ما يسبق ذلك من أهبة يبدأ قبل عدة شهور . فلابد أن يبحث عن قائد ؛ ثم لابد أن يتخير ذلك القائد من الرجال من يصحبه ؛ وهو فى ذلك لا يبحث عن مهرة المتسلقين فحسب ، بل تراه يبحث عمن تقاربت قوى احتمالهم حتى يواصلوا السير جماعة ، فان الصعود الى مثل ما ينتوون ارتقاءه من المرتفعات يفقد المرء اتزانه ، ويشيع الهياج والاضطراب فى أعصابه

ولن يقتصر الأمر على ذلك ، بل لا بد من اعداد أطنان من المؤن وشتى الأدوات وإرسالها جيماً الى الهند ، ثم يلتقى الرجال ومعهم متاعهم عند « دراچيلنج » ؛ وهناك يستأجر الحمالون من الوطنيين وما تطلبه الحملة من حيوانات ؛ ومن ثم تسير القافلة الطويلة قاصدة الجبل مخترقة السهول الرملية تارة ، ومتسلقة الشعاب المعترضة تارة أخرى !

وعند ما تبلغ القافلة الى قاعدة أفرست تجد نفسها على بعد هائل من مستوى سطح البحر ،



ينشأ المعسكر الأول — أو معسكر القاعدة كما

يسمونه — على مدى خمسمائة وستة عشر ألف قدم من سطح البحر

ومن تلك القاعدة الأساسية تأخذ القافلة فى الصعود ، وتراها تقيم المعسكرات على مسافات كلما قطعت مرحلة فى طريقها الرهيب ، ويكون السير بطيئاً متدرجا فى الخفة حتى يتعود الرجال مقابلة تلك الرياح العنيفة . وفى آخر مايو ينشأ المعسكر الرابع عند ما يسمى بالعقدة الشمالية وهى إحدى الشعاب التى تربط افرست بغيره من سلاسل الجبال ؛ ويكون ذلك المعسكر على ارتفاع ثلاثة وعشرين ألف قدم

وإذا تم بناء المعسكرات وضع فيها من المؤن ما يرجع اليه عند الحاجة ، كما انه يترك فيها بعض الرجال ، حتى يكون هناك من الحمالين من يقوم على طول المسافة متنقلين أحياناً من معسكر الى آخر ، ومعنى ذلك أن يكون هناك طريق معبد آمن يربط تلك المعسكرات بعضها ببعض ؛ ويقوم البيض بتمهيد هذا الطريق وشق ممرات ومسالك فى الثلج عند المنحدرات الوعرة ، والاستعانة بالحبال عند الحاجة

ويكون كلا المعسكرين الخامس والسادس مركزاً للهجوم . وإقامة هذين المعسكرين من أصعب وأشق الأعمال ، فان جانب الجبل فى تلك المنطقة أشبه بسقف المنزل ، ولذلك يندر أن تجد مكاناً لأقامة خيمة واحدة . ناهيك عما يكتنف المكان من ريح عاصفة عاتية تلذع الأجسام لذعا أليما ، فضلاً عن ذلك الزمهرير الذى يصل درجة من الشدة بحيث لو أجلت يدك برهة فى عمل من الأعمال وهى عارية من القفاز لا بد أن يقف الدم فى عروقها متجمدا ؛ وإذا زلت قدمك قيد شبر فهنالك الموت ينتظرك فى قرار سحيق ! ومع كل هاتيك الأهوال كثيرا ما يتضارب الحمالون من أجل ذلك الامتياز : امتياز حمل الأثقال بين المعسكرات . ولا غرابة بعد ذلك أن يسميهم المتسلقون من البيض « بالنمور »

ولكل قائد حملة خطته فى تعبئتها والسير بها . وهأنذا أعرض عليك فكرة عامة مما يغلب حدوثه فى تلك الخطط . يتقدم رجلان من البيض ومعهم ما يطلبون من الحمالين حتى يصير الجميع على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم ، وهنالك يبنون المعسكر الخامس ويحطون عنده رحالهم ، ليريحوا أجسامهم المكدودة فترة مما نالها من نصب . وفى اليوم التالى يستأنفون تصعيدهم حتى يبلغوا علو سبعة وعشرين ألف قدم أو نحو ذلك ، وهنالك يبنون المعسكر السادس ، فيأوى اليه الأبيضان ويرسلان الحمالين ثانية الى المعسكر الرابع ، وبذلك يبقى الخامس خالياً ، فيسير اليه اثنان آخران من البيض ويستقران فيه حيث يجدان الكثير من المؤونة ووسائل الراحه

وفى صباح اليوم الثالث يخرج الرجلان الأولان من المعسكر السادس ميممين القمة ، فاذا لحقهم الفشل عادوا إلى المعسكر الخامس ، وبذلك يبقى السادس خالياً فيسير إليه صاحبا المعسكر الخامس ، ويبيتان فيه ليلتهما . حتى إذا تنفس الصبح ، إن كان ثمة من أصباح ، يمما شطر القمة فى دورهما وفى أثناء ذلك يكون الاثنان الأولان فى طريقهما إلى المعسكرات السفلى ليرسلا غيرهما من البيض كى

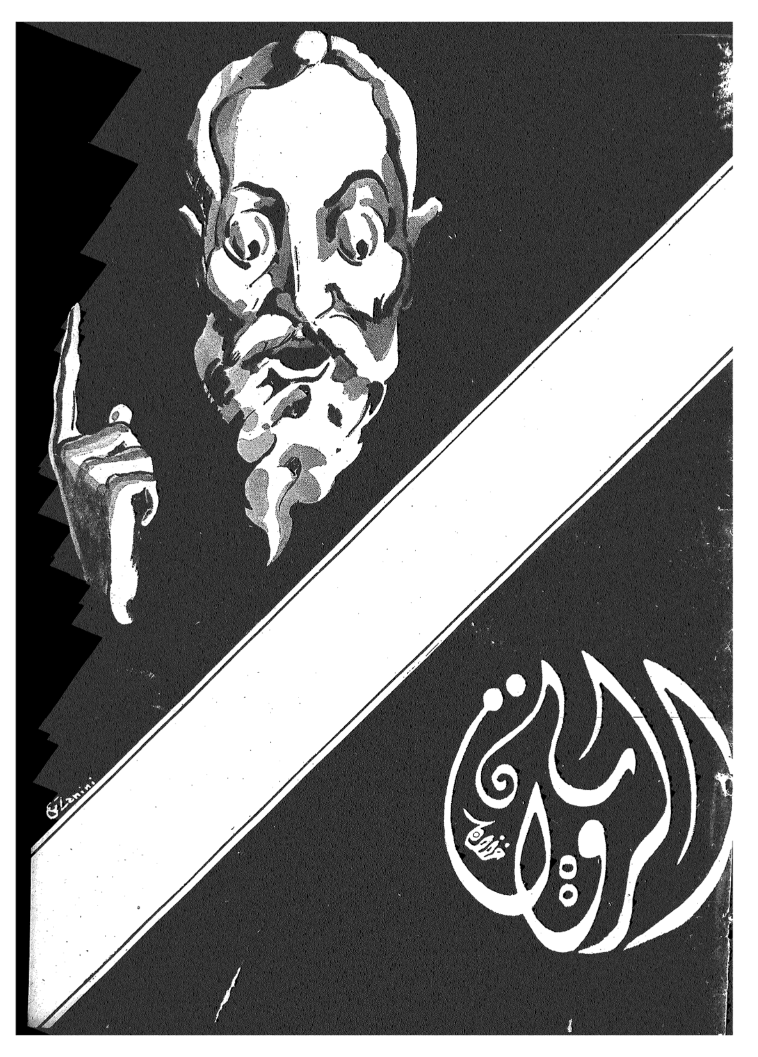
يستقرا مكانهما فى المعسكر الخامس على استعداد للزحف

بهذه الطريقة يتوفر المتسلقون الجدد على التوالى . وإذا كان للاثنين الأولين شرف البدء فى تلك المحاولة المظيمة ، فكثيراً ما يصيب من يليهما حظاً أوفر من النجاح ، وذلك لزيادة اعتيادهم تلك الظروف الجوية المرعبة

وصلت أولى الحملات التى أعدت للهجوم على القمة إلى قاعدة افرست فى أول مايو عام ١٩٢٢ وهى السنة التالية للسنة التى وصلت فيها بعثة الكشف والدراسة . ولكن الثلج قصم أعوادهم وأوهن عزمهم وقضى على مجهوداتهم بالفشل . سار هؤلاء الأبطال أول الأمر حتى استطاعوا أن يبنوا المعسكر الخامس على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم ، ومن تلك البقعة استطاع بعضهم أن يرقوا إلى سبعة وعشرين ألفا ، ولكن العواصف الثلجية المروعة كانت لا تفتأ تهدد الخيام بل لم يقتصر خطر الثلج على خيامهم فوصل إليهم فى جوالق نومهم ! إلا أنهم على الرغم من ذلك عقدوا النية على مواصلة الزحف ، وتغلب عزمهم المصمم فترة على أهوال الثلج ، وما زالوا يكافحون منتصرين حتى اليوم السابع من شهر يونيو ، وهنا أنتابتهم كارثة جعلت مواصلة الزحف فى عداد المستحيل ، فلقد جرف هيار ثلجى سبعة من الحمالين وهوى بهم إلى الموت معجلين ! وربما كان البيض يرغبون أن يضحوا بحياتهم بعد ذلك ، ولكنهم لم يجدوا لأنفسهم الحق فى أن يسألوا بقية البواسل من الحمالين أن يتبعوهم ؛ وهؤلاء ان يكون لهم نصيب من الفخر إذا قدر للحملة النجاح

وفى عام ١٩٢٤ وصلت حملة أخرى إلى قاعدة ذلك الجبل ، ولكن الثلج مالبث أن رمى رجالها بقذائفه واستمر يمطر وابلاً عنيفاً من لدنه ، فبدل أن يصلوا إلى المعسكر الثالث فى يومين أو ثلاثة ، وصلوا إليه فى أسبوعين ! وكانت درجة الجو يومئذ ثلاثا وخمسين تحت درجة التجمد ! ومن أجل ذلك اضطر الحمالون وهم على ماهم عليه من بسالة أن يستقروا فى أماكنهم متلاصقين لايكادون يستطيعون حراكا ، حتى تحسن الجو نوعاً فوصل الجميع إلى العقدة الشمالية ؛ ولكن الثلج لج فى عناده ورماهم بأكثر مما رماهم به من قبل ، وراح عدد من الحمالين ضحية بطشه وجبروته ، ونال البيض كثير من النصب والأعياء من جراء محاولاتهم إنقاذ هؤلاء البائسين ، ولذلك اضطروا إلى أن يرجعوا من حيث أتوا ليستعيدوا قوتهم ويجددوا عدتهم عند سفح الجبل !

وأخيراً بعد عدة محاولات استطاعت تلك الحملة أن تقيم خيمة لمسكرها على ارتفاع ثمانمائة وستة وعشرين ألف قدم ، وهو أعلى معسكر أقيم حتى ذلك اليوم . ونام فى ذلك المعسكر رجلان من البيض هما « نورتون » و« سمرفيل » ، وفى صبيحة اليوم الرابع من يونيو توجها نحو القمة فوصلا إلى علو ثمانية وعشرين ألف قدم ، ولكن « سمرفيل » توقف وتقطعت به الأسباب إذ كان يشكو مرضاً فى حلقه ؛ وعول زميله الباسل على الزحف وحده فوصل إلى علو ثمانية وعشرين ألفاً ومائة وستة وعشرين قدماً ، ولكنه ما لبث أن أرغم على الرجوع . وفى تلك الليلة أفقده الثلج بصره !



وفى تلك الأثناء كان « مالورى » أحد المتسلقين فى طريقة على جانب الجبل يريد القمة ، وكان ثالوزى ، هذا أحد أعضاء البعثة التى قامت بأعمال الكشف عام ١٩٢١ ، ولقد اشترك أيضاً فى محاولة الوصول إلى القمة عام ١٩٢٢ ، فكانت إذاً تلك المحاولة التى نحن بصددها ثالث محاولاته . ولقد زاده اليأس قوة ومضاء ، فعول على السير فأما الى قمة الجبل وإما الى هاوية الموت ! ولقد وصل وصديقه « ارفين » الى المعسكر السادس وأقاما هناك ليلة ؛ وفى الصباح التالى سارا نحو القمة ويعلم الله وحده ماذا كان أمرهما إذ لم تقع عليهما عين بعد ! وكانت تلك المأساة المخيفة خاتمة الحملة الثانيـة ، وبعدها انقطعت المحاولات تسع سنين

ولا بد أن تكون حكومة « تيبت » قد رأت من تلك المآسى أن الآلهة فى تلك القمة المستعصية إنما كانوا يتنزلون القصاص العادل بمن كانوا يحاولون الدنو من عرشهم ، وعلى ذلك رفضت تلك الحكومة السماح مدة بمحاولة جديدة ، حتى عادت فى النهاية فسمحت بهـا فى خريف عام ١٩٣٢ . وسرعان ما بدئت أعمال التعبئة والاستعداد ، وفى السابع عشر من إبريل عام ١٩٣٣ ، أقيم معسكر القاعدة من جديد

وفى هذه المرة لم تواجه الحملة الثلج فحسب بل واجهت المرض أيضاً ، فلقد فل المرض من عزائم القائمين بها ، وكان العدد الأقل من هؤلاء الرجال من يصلح حقاً لذلك العمل الهائل . وأول نتيجة لذلك أنهم لم ينشئوا المعسكر الرابع الا بعد شهر ، أى فى اليوم الخامس عشر من مايو ، ثم أرغمتهم عاصفة شـديدة على الاحتماء بخيمهم حتى اليوم العشرين من ذلك الشهر ، وفى تلك المدة نفد جميع ما كان بالمعسكر من مؤن ، وعلى ذلك فبدلا من أن تواتيهم القدرة على الصعود عقب هدوء العاصفة ، نرى أول عمل يقومون به هو تموين المعسكر من جـديد ، وزادهم نكداً ما علموه على لسان من أرسلوا الى المعسكرات السـفلى من مرض أحد المهرة المتسلقين

ولسنا فى حاجة بعـد ذلك أن نأتى على كل ما حدث من المحاولات للوصول الى القمة ، وحسـبك أن تعلم أن « جوجلز » أصيب بتجمد عينيه ، كما ترا كم الثلج على أهداب الرجال فجمدها ؛ على أنهم اسـتطاعوا رغم الصعوبات الهائلة أن يقيموا المعسكرين : الخامس والسادس ، ولـكن لم يتسن لأحد أن يصل الى أبعد مما وصل اليـه « نورتون » عام ١٩٢٤ ؛ وما لبثت الأمطار الموسمية أن أرسلت سـيولها ، وأخذ الثلج ينهار كتلاً هائلة ، فاضطرت حملة عام ١٩٣٣ أن ترجع مهزومة كسابقاتها

والآن بعد ثلاثة أعوام تصرح « تيبت » ، بالزحف من جديد ، وهنالك فى المعسكرات السفلى يقيم مستر « رتلدج » ورجاله يستمعون الى ما يحمله اليهم جهاز اللاسلكى من الهنـد من أنباء الجو وحالاته ويتطلعون الى القمة فى لهفة مقدرين ومؤملين ...

فياليت شـعرى ماذا تخبؤه لهم الآلهة هذه المرة ؟

عن الانجليزية « عائد »

(طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثانى ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

الحلية
La parure
للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

كانت من أولئك الفتيات الأنيقات الرشيقات اللاتى يحسبن ولادتهن فى أسرة من أسر الموظفين خطأ من أخطاء القدر . لم يكن لديها صداق يحقق الزواج السعيد ، ولا رجاء يضمن العيش الرغيد ، ولا وسيلة تكشفها للناس فتُعرف وتُفهم وتُحب ، وتتزوج من رجل غنى سرى أمثل ؛ فتركت قيادها للحظ فزوجها بموظف صغير من موظفى وزارة المعارف العمومية

كانت بسيطة الهندام لأنها لم تجد زينتها ، وكانت معذبة النفس لأنها لم تمايش طبقتها ؛ والنساء ليس لهن طبقة ولا جنس ، وإنما يقوم لهن الجمال والظرف والفتنة مقام الأصل والأسرة ، فلا ترى فيهن من تفاوت ولا تمايز إلا بالرقة الفطرية ، والأناقة الغريزية ، والذهن المتصرف المرن ، فهى التى تجعل من سواسية بنات الشعب سيدات وعقائل

كان الألم يلح عليها عنيفاً كلما شعرت بأنها خلقت للنعيم والترف ، وهى إنما تعيش فى هذا المسكن الحقير بين هذه الجدران العاطلة ، والمقاعد الحائلة ، والقماش الزرى .

كانت هذه الأشياء التى لا تفطن إليها امرأة أخرى فى طبقتها ترمض نفسها بالألم ، وتوقد صدرها بالغضب . وكان منظر الخادمة الصغيرة البريتونية التى تقوم على تدبير بيتها المتواضع ، توقظ فى قلبها الحسرات اللاذعة والأحلام الحائرة . كانت تحلم بالأواوين الصامتة تدبجها الطنافس الشرقية ، وتضيئها المصابيح البرنزية ، وبالخادمين الفارهين فى السراويل القصيرة ، يرقد كلاهما فى المقعد الوسيع .

وكانت تحلم بالبهو الفخم يغشيه الديباج القديم ، وبالأثاث الدقيق يجمله الرياش الكريم ، وبالصالون الأنيق المطر يجمل لأحاديث المصر مع أخص الأصدقاء وأنبه الكبراء والأدباء ، ممن يشتهي النساء استقبالهم

ولما جلست إلى العشاء على المائدة المستديرة والخوان المردّد أمام زوجها ، وقد رفع غطاء الحساء وقال في وجه منبسط ولهجة راضية : « الله ! ما أطيب هذا اللحم ! إني لم أر أشهى منه ولا ألذ ، كانت هي تفكر في الأعشية الناعمة الحاممة ، وفي الأدوات الفضية اللامعة ، وفي نسائج الوشي تزين الجدر بصور الأعلام البارزة في التاريخ ، والأطيار الغريبة في غابة من غاب عبقر ! . كانت تفكر في الألوان الشهية تقدم في الصحاف العجيبة ، وفي الملاطفات الغزلة الهامسة تسمع في بسمة كبسمة أبي الهول ، وهي تأكل لحم السمك المورّد ، أو الدراج المسمن

لم تكن تملك زينة ولا حلية ولا شيئاً مما تتبرج به المرأة ، وهي لا تحب إلا ذلك ، ولا تظن نفسها خلقت لغير ذلك . وطالما ودت أن تكون موضع الاعجاب والغبطة ، ومنتجع العيون والأفئدة . وقد كان لها صديقة غنية من رفيقات الدراسة فكانت تكره أن تزورها ، لأن الألم الممض كان يرافقها وهي عائدة . وربما ظلت الأيام الطوال تسفح الدموع الغزار إجابة لدواعي الأسف واليأس والحزن

* * *

ففي ذات مساء عاد زوجها وعلى وجهه سمة الجلال ، وفي يده غلاف عريض ، فقال :

خذي ! هاك شيئاً لك . ثم فض الغلاف بقوة وأخرج منه بطاقة مطبوعة كتب فيها :

« وزير المعارف العمومية وعقيلته يرجوان السيد (لوازيل) وعقيلته أن يشرفاها بحضور الحفلة الساهرة التي ستقام في ديوان الوزارة يوم الاثنين ١٨ يناير » . ولكنها بدل أن تنبسط وتغتبط وتدهش كما كان يرجو زوجها رمت الدعوة على المائدة في غضب وسخط وهي تقول :

— ماذا تريد أن أصنع بهذه ؟

— ولكني ظننت ياعزيزتي أنك تسرين بهذا . إنك لا تخرجين أبداً ؛ وهذه فرصة جميلة ، حقا جميلة ! ولقد احتملت في سبيل الحصول على هذه البطاقة مالا تتصورين من الجهد والمشقة . كل الناس يرغبون فيها كل الرغبة ، ويسعون لها كل السعي . وهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر . سترين هناك العالم الرسمي كله

فنظرت اليه نظرة الغضب ثم انفجرت قائلة :

ماذا تريد أن أضع على جسمي في هذه الحفلة ؟

لم يكن الزوج قد فكر في هذا ، ولكنه أجاب في خفوت وغمغمة :

عندك الثوب الذي تذهبين به إلى المسرح . إنه على ما أرى ملائم كل الملاءمة ...

ثم أخذه الدهش والتوى عليه الكلام حين رأى زوجه تبكي ، وأبصر دمعتين غليظتين تنحدران من زاويتي عينيها إلى زاويتي فمها ؛ وقال في تمتمة :

ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فتحاملت على نفسها بالجهد العنيف وأجابته بصوت هادئ وهي تمسح الدمع على خديها :

لا شيء ، غير أني لا أملك ما أتزين به ، ولذلك لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة ؛ فأعط هذه البطاقة زميلا من زملائك تكون امرأته أحسن مني جهازا وأتم أهبة . فابتأس الزوج وقال : لننظر في الأمر يا ماتيلد ! كم تكلفنا الزينة البسيطة الملائمة التي تغنيك في مثل هذه المناسبة ؟ ففكرت بضع ثوان تحرر الحساب وتتحرى المبلغ الذي إذا طلبته لا يثير دهش الموظف الصغير ، ولا يوجب رفض الزوج المقتصد ، ثم أجابت جواب المتردد :

لا أعرف ذلك على وجه الدقة ، وأظن أربعمائة

فرنك تبلغ بي الى هذه الغاية !

اصفر وجهه قليلاً ، لأنه كان قد ادخر هذا المبلغ بتمامه ليشتري به بندقية يصطاد بها في الصيف مع بعض الأصدقاء في سهل (ننتير) ، ومع ذلك قال لامرأته :

ليكن ! سأعطيك أربعمائة فرنك ؛ فاجتهدي أن يكون لك منها ثوب جميل

* * *

دنا يوم الحفل وزينة السيدة لوازيل قد هيئت ؛ ولكنها لا تزال كما يظهر حزينة مهمومة قلقة . فقال لها زوجها ذات ليلة :

ماذا تجدين ؟ إنك منذ ثلاثة أيام في حال غريبة . . .

فأجابته : إني ليحزنني ألا تكون لي حلية . فلا أملك مما يتحلى به النساء شيئاً من معدن أو حجر ؛ وسأكون أحقر من في الحفل زيّاً وهيئة ، وأرى من الخير ألا أذهب إلى هذه الأمسية . فعقب على قولها بقوله :

تتحلين بالزهور الطبيعية . ذلك أجمل شيء وأظرفه في هذا الفصل . وبعشرة فرنكات تبتاعين وردتين أو ثلاثاً من أندر أنواع الورد . فلم ينشد هذا الكلام على كبدها القريحة وقالت : كلا ، فان أشد الأشياء هواناً وضراعة أن تظهر في محضر الأغنياء ، بمظهر الفقراء . ولكن زوجها صاح بها قائلا : ما أشد غباءك ! اذهبي إلى صديقتك السيدة فورستيه فاستعيري منها بعض الحلي ، فان بينكما من قديم الصداقة ووثيق العلاقة ما يتسع لمثل ذلك

فصاحت صيحة الفرح وقالت : هذا صحيح !

ومن العجب أنه لم يجر على بالي

وفي صبيحة الغد ذهبت الى صديقتها فقصت عليها ما همها وغمها ، فلم تكد تسمع شكواها حتى أسرعت الى خزانتها فأخرجت منها صندوقاً عريضاً وفتحته ، ثم قدمته الى السيدة لوازيل وهي تقول : اختاري يا عزيزتي

فوقع بصرها أول ما وقع على الأساور ، ثم على عقد من اللؤلؤ ، ثم على صليب بندقي من الذهب قد رصعته بالحجارة يد صَنَاع . فجربت على نفسها الحلي في المرآة ، ثم أخذتها حيرة فلم تقطع العزم على ما تأخذ وما تدع ، فقالت لصديقتها : ألم يعد لديك شيء آخر ؟

فأجابتها : بلى ! ابحثي . فاني لا أعرف ماذا يعجبك

وعلى حين بغتة وجدت في علبة من الديباج

الأسود قلادة فاخرة من الماس ، نخفق قلبها خفوق الرغبة الملحة ؛ ثم تناولتها بيد مضطربة وتقلدتها على ثوبها المجهز فاذا هى على ما صورت فى الخيال ، وما قدرت فى الأمل . فسألت صديقتها فى تردد وقلق : أتستطيعين أن تعيريني هذه القلادة ؟ لا شيء إلا هذه القلادة ! فأجابتها صديقتها : نعم ولاشك . فأهوت على نحرها تقبله فى حمية وطرب ثم ولت مسرعة بهذا الكنز

* * *

أقيمت الحفلة الساهرة ونجحت السيدة لوازيل فكانت أبدع من حضرها من النساء رشاقة ولباقة وبهجة . تدفقت فى السرور متأنقة متألقة فاسترعت الأنظار وتصبت القلوب ، فتسابق الرجال وبخاصة موظفو مجلس الوزراء الى السؤال عنها والتعرف إليها والرقص معها . حتى الوزير نفسه فقد ألقى إليها باله

كانت ترقص فى نشوة من الغبطة وفورة من اللذة ، وقد امحى من ذهنها كل شيء فلم تعد تفكر إلا فى انتصار جمالها ، وفى مجد انتصارها ، وفى ظل رقيق من ظلال السعادة بسطته عليها التحيات التى قدمت إليها ، والاعجاب الذى انثال عليها ، والرغبات التى تيقظت فيها ، والفوز الكامل الذى يبهج بسحره فؤاد المرأة

تركت الحفل زهاء الساعة الرابعة من الصباح ، وكان زوجها منذ منتصف الليل قد غلبه النوم فأخذ مرقده فى بهو صغير خلا من الناس هو وثلاثة من المدعوين كان نساؤهم لايزلن يقصفن فى نشاط ومرح . فلما همت هى وهو بالانصراف ألقى على كتفيها الثياب التى أحضرها للخروج ، وهى ثياب متواضعة مبتذلة تتنافر بحقارتها مع أناقة ما تلبس من زينة المرقص . وقد شعرت هى بذلك فأرادت أن تتسلل حتى لا يلمحها النساء الأخر وهن يرتدين معاطف الفراء الفاخر . غير أن زوجها اعتاقها قائلاً : انتظرى ؛ فقد يصيبك البرد . وسأطلب عربة . ولكنها تصامت عن كلامه وانحدرت مسرعة على السلم . فلما صارا فى الشارع لم يجدا مركبة فمشيا ، وكلما أبصرا على البعد حوذياً صاحا به فلا يقف

أخذا سبيلهما إلى (السين) هابطين قانطين يقرقفان من البرد ، فوجدا بعد لأى على رصيفه مركبة عتيقة من تلك المراكب التى تسير وهى نائمة ، ثم لا ترى فى باريس إلا تحت الليل كأنما تخزى أن تظهر مهانتها فى وضح النهار . ركباها الى دارهما فى شارع (الشهداء) ودخلاها حزينين : أماهى فلأنها تتحسر على انقضاء ما كانت فيه ؛ وأما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون فى الوزارة الساعة العاشرة

نضت عن كتفيها ، أمام المرآة ، الثياب التى تدثرت بها حتى تنظر إلى نفسها وهى فى مجدها مرة أخيرة . ولم تكد تجيل اللحظ فى جيدها حتى صاحت صيحة منكرة ! إنها لم تجد على نحرها تلك القلادة ! ! فأقبل عليها زوجها فى نصف ثيابه يسألها ماذا أصابها ، فالتفتت اليه هالعة تقول : أنا . . . أنا . . . لا أجد قلادة السيدة فورستييه ! فانتفض قائما بصيح وقد هفا قلبه من الجزع

— ماذا ؟ كيف ؟ لا يمكن أن يكون هذا !

وطفقا يبحثان فى ثنايا الثوب ، وفى طوايا المعطف ، وفى جيوب هذا وذاك ، وفى كل مكان هنا وهناك ، فلم يجداها . فقال الزوج للزوجة : أأنت على يقين من أن القلادة كانت فى عنقك ساعة تركت المرقص ؟ فأجابته : نعم ، ولقد لمستها بيدى وأنا فى دهليز الوزارة . فقال لها : ولكنك لو كنت فقدتها ونحن فى الشارع لكنا سمعنا وقعها حين سقطت ؛ فلا بد أن تكون فى المركبة . فقالت له : نعم . هذا جائز . فهل تذكر رقم المركبة ؟ فأجابها : كلا وأنت ؟ ألم تلحظيها ؟ فقالت : كلا .

فرنا إليها ورنت إليه وكلاهما لا يملك فؤاده من

الجزع . وأخيراً مضى لوازيل فلبس ثيابه وقال : سأرجع فى الطريق التى قطعناها على الأقدام فلعلى أجدها . ثم خرج وترك امرأته فى ثياب السهرة ، وقد تطرحت من الخور على أحد المقاعد ، لاتشتهى النوم ، ولا تطلب الدفء ، ولا تملك الفكر . ثم عاد فى الساعة السابعة من غير أن يجد شيئاً . وما لبث أن ارتد إلى دائرة الشرطة يسجل المفقود ، ثم إلى إدارات الصحف يعلن المكافأة ، ثم إلى شركة العربات الصغيرة ينشد المركبة ، ثم إلى كل مكان يهديه إليه بصيص من الأمل

وكانت هى تنتظر طول النهار على حالها الأليمة من الذهول والوله . وفى المساء عاد لوازيل ساهم الوجه كاسف البال لأنه لم يكتشف شيئاً . ولما أعياه الأمر قال لزوجته : لا بد أن تكتبى إلى صديقتك تخبرينها أن مشبك القلادة انكسر وأنك بسبيل أن تصلحيه . ذلك يعطينا المهلة لنتخذ تدبيراً آخر . فكتبت ما أملاه عليها

* * *

وفى آخر الأسبوع وقفت آمالها على شفا اليأس ، فأعلن لوازيل أن لا بد من وسيلة لنشترى قلادة بدل القلادة

وفى صباح الغد أخذا علبة الحلية وذهبا بها الى الجوهرى الذى كتب اسمه عليها فسألاه عنها . فقال بعد أن رجع إلى سجلاته : لست أنا يا سيدتى الذى صنع القلادة ، وإنما صنعت هذه العلبة فقط . فذهبا يضطربان فى سوق الجواهر ينتقلان من صائغ إلى صائغ فيسألان ويبحثان حتى وجدا آخر الأمر فى دكان من دكاكين (الباليه رويال) قلادة من الماس تشبه فى نظرهما القلادة المفقودة كل الشبه . . كان ثمنها أربعين ألف فرنك ولكن الجوهرى رضى أن ينزل عنها بستة وثلاثين ألفاً . فرجوا منه ألا يبيعها من أحد قبل ثلاثة أيام ؛ وشرطا عليه أن يعود هو فيشتريها منهما بأربعة وثلاثين ألف فرنك إذا هما وجدا القلادة الأولى قبل آخر فبراير

كان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك تركها له أبوه ، فلامناص من أن يقترض الباقى . اقترض ألفاً من هذا وخمسمائة من ذاك ، وخمس ليرات من هنا وثلاثاً من هناك ، كتب على نفسه الصكوك المحرجة ، وأخذ على ذمته العهود المخربة ، وتردد على كل مراب ، واختلف إلى كل مقرض

عرّض آخرة عمره للخطر ، وغامر بامضائه وهو لا يضمن الوفاء بما أذم ؛ وفى حال يرجف لها القلب فرقاً مما يتجرعه من هموم المستقبل ، وما يتوقعه من بؤس العيش ، وما يخشاه من حرمان الجسم ولوعة القلب ، ذهب يشترى القلادة الجديدة ويضع على منضدة الجوهرى ستة وثلاثين ألف فرنك !

ولما أخذت السيدة فورستييه الحلية من السيدة لوازيل قالت لها فى هيئة غاضبة ولهجة عاتبة : لقد كان ينبغى أن تردها قبل ذلك ، فقد كنت فى حاجة إليها

ثم رفعت العلبة من دون أن تفتحها ، فكفت بذلك صديقتها ما كانت تخشاه . فلقد كانت تقول لنفسها : ماذا عسى أن تظن السيدة فورستييه إذا لحظت أن القلادة غير القلادة ؟ ألا تحسبنى لصة ؟

* * *

ذاقت السيدة لوازيل عيش الموزين المرير الخشن ، وحملت نصيبها من ذلك دفعة واحدة فى بسالة وقوة كان لا بد من قضاء هذا الدين الفادح وستقضيه . استغنت عن الخادم ، وانتقلت من المنزل ، واستأجرت غرفة على أحد السطوح ، وزاولت الأعمال الغليظة فى البيت ، وباشرت الأمور البغيضة فى المطبخ ، فغسلت الأطباق ، وأتلفت أظافرها الوردية فى صدأ القدور ودسم الأوانى ، (وصبنت) القذر من الأبيضة والأقمصة والخرق ونشرتها على الحبل ؛ ثم هبطت الشارع فى كل صباح لتصعد بالماء وتقف

عند كل طبقة تتنفس الصعداء من التعب ، ولبست لباس السوقة واختلفت إلى الفاكهاني والبدال والقصاب وعلى زراعها السلة فتساوم وتقاوم وتدفع الغبن عن كل بارة من نقودها القليلة . فاذا تصرم الشهر وجب عليها أن توفى صكا ، وتجدد صكا ، وتطلب مهلة

وكان الزوج يشتغل فى المساء بتبييض الحساب لتاجر ، وفى الليل بنسخ صورا من بعض الأصول كل صفحة بربع فرنك

ودأب الزوجان على هذه الحال عشر سنين ؛ وفى نهاية هذه المدة كان قد أديا الدين كله بسعره الفاحش وربحه المركب

وكانت السيدة لوازيل قد أخلقت جدتها وبدت فى رأسها رواعى المشيب . وكان من طول قيامها بشئون المنزل الفقير أن أصبحت قوية غليظة جافية . تكاد لا تراها إلا شعثاء الشعر ، حمراء اليد ، مقلوبة الثوب ، ترفع صوتها فى الكلام ، وتغسل أرض الغرف بالماء الغمر ؛ ولكنك تراها فى بعض أوقاتها تجلس إلى النافذة حين يجلس زوجها الى المكتب ، فتفكر فى تلك الأمسية الذاهبة ، فى تلك الحفلة الساهرة التى كانت هى فيها مهوى القلوب ومراد الأعين . ما الذى كان يحدث لو أن هذه الحلية لم تفقد ؟ من يدرى ؟ من يدرى ؟ إن الحياة غريبة الأطوار سريعة التقلب ! وإن موتك أو حياتك قد يكونان رهناً بأحقر الأشياء !

* * *

وفى ذات أحد من الآحاد بينما كانت ماتيلدا ترفه عن نفسها عناء الأسبوع فى رياض الشانزليزيه وقع بصرها فجأة على السيدة فورستييه ومعها طفل تنزهه وتروّضه . وكانت لا تزال رفافة البشرة رائقة الحسن فتانة الملامح ، فاعتراها لدى مرآها اضطراب وقلق . أتذهب إليها فتكلمها ؟ نعم ! ولم لا ؟ لقد أدت الآن كل ما عليها ، فلم لا تفضى بكل شىء إليها ؟

دنت السيدة لوازيل من صديقتها القديمة وقالت لها : عمى صباحا يا چان !

ولكن صديقتها أنكرتها ، وأدهشها أن تسمع امرأة من عرض الطريق تحييها بهذه الألفة ، وتناديها من غير كلفة ، فقالت مغمغمة :

ولكن... سيدتى... لابد أن يكون هذا الأمر قد اشتبه عليك . فقالت لها : كلا ! أنا ماتيلد لوازيل

فصاحت السيدة صيحة الدهش وقالت : أوه ! صديقتى المسكينة ما تليد ! لشد ما تغيرت بعدى !

فقالت : نعم ! لقد كابدت برحاء الهموم ، وعانيت بأساء العيش منذ غبت عنك ، وذلك كله بسببك

— بسببى ؟ وكيف ذلك ؟

— إنك تذكرين ولا شك تلك القلادة الماسية التى أعرتنى إياها يوم حفلة الوزارة

— نعم ، وبعد ؟

— إننى أضعتها

— وكيف أضعتها وقد رددتها إلىّ ؟

— لقد رددت إليك قلادة أخرى تشبهها كل الشبه . وهاهى تلك عشرة أعوام قضيناها فى أداء ثمنها . وليس ذلك باليسير علينا كما تعلمين ، فاليد خالية والمورد ناضب والجهد قليل . وقد انتهى الأمر والحمد لله ، وأصبحت على هذه الشدة راضية مغتبطة . فقالت السيدة فورستييه فى تؤدة وبطء :

— أتقولين إنك اشتريت قلادة من الماس بدل قلادتى ؟

— نعم ، ألم تلاحظى ذلك ؟ هه ؟ إنها لا تختلف عنها فى شىء وكانت شفتاها قد افترتا عن ابتسامة تنم على الكبر والسذاجة . ولكن السيدة فورستييه أخذت يديها فى يديها وقالت لها فى لهجة الاشفاق والعجب :

— مسكينة يا صديقتى ماتيلدا ! إن قلادتى كانت كاذبة ! وما كان ثمنها يزيد على خمسمائة فرنك !..

الزيات

ليتني ما ولدته

للكاتب الايطالي لويجي بيراندللو

بقلم الدكتور حسن صادق

— هل (ننفاروزا) هنا ؟

— نعم . اطرق الباب بقوة

طرقت (ماراجرازيا) الباب فلم يجبها أحد ، فجلست القرفصاء على الدرجات المؤدية إلى عتبة الباب

كانت هذه المرأة المرزأة تقضى أكثر وقتها فى ذلك المكان ، نائمة تارة ، وباكية فى السكون الشامل تارة أخرى . وكان السابلة يمرون بها من حين إلى آخر ، فيلقون فى حجرها قطعة زهيدة من المال أو كسرة من الخبز ، فيقطعون عليها نومها الهادىء أو بكاءها الأليم . وفى تلك الحال تقبل المال أو الخبز وترسم على صدرها إشارة الصليب ثم تعود ثانية إلى النوم أو إلى البكاء والأنين

عليها أسمال بالية تهتكت من كل جانب ، أفسدها العرق وأقذار الطرق وذهب بلونها الزمن . وكانت تغدو فى هذه الثياب المتداعية وتروح ، لا تعرف الخلاص منها بوجه ولا حيلة . وكان وجهها الشاحب المعروق قد انتشرت على صفحته التجاعيد حتى أصبح لا يُرى منه غيرها ، وجفونها الحمر قد شرقت من طول البكاء ، ولكن عينيها احتفظتا بالصفاء المستبهم الذى يمثل الطفولة العارية من الذاكرة ولا يتلاءم مع هذه التجاعيد وتلك الجفون الحمر . وكان الذباب الذى يهيم فى الفضاء من حولها يستطيب عينيها فلا تشعر به ولا تطارده ، لأنها تمسة غارقة فى همومها طيلة الوقت . ولم يبق فى رأسها إلا القليل من الشعر المشعث قد انفرق من الوسط فرقين ، وتدلى من الجانبين على أذنيها الممزقتين من أسفل ، نتيجة حمل قرط ثقيل فى أيام شبابها

وكانت جاراتها يجلسن دائماً على الأبواب ولا يعرنها اهتماماً ، ويقضين الوقت كله فى أمأ كنهن يرتقن الملابس أو يهيئن البقول للطبخ أو يطرزن ، ولا يكففن عن الكلام وهن منهمكات فى أعمالهن أمام بيوتهن المنخفضة التى لا ينفذ إليها النور ولا الهواء إلا من خلال الأبواب . وكانت هذه البيوت الوبيئة تستخدم أيضاً حظائر للحيوان ، وأرضها مصنوعة من الأحجار الناتئة كأرض الطريق . وإذا ولج إنسان داراً من هذه الدور ، رأى فى أحد الأركان حماراً أو بغلاً يتوجع من جرح أو مرض ، وفى ركن آخر فراشاً حقيراً تتراكم من حوله أنواع مختلفة من الخضر وغلة الحقول ، كل نوع على شكل ناووس يستخدم مقعداً للزائرين ، ثم كرسيين أو ثلاثة من القش ، ثم آلات الزراعة مبعثرة على الأرض ، وعلى الجدر التى اسودت من كثرة الدخان الذى يتصاعد إليها بعض صور زهيدة الثمن لا تمت إلى الفن بأية صلة . ويرى السائر فى طريق القرية التى يختلط فيها الدخان الكثيف بالرائحة البغيضة المتصاعدة من حظائر الحيوان ، أطفالاً يلعبون قد سفعت جلودهم أشعة الشمس ، بعضهم عارى الجسد كما ولدته أمه ، والبعض الآخر متستر بقميص واحد كثير الفتوق

***

فى ذلك اليوم الذى طرقت المرأة المسكينة فيه باب ننفاروزا كان الناس يتكلمون عن فئة جديدة من المهاجرين الذين ينتوون الرحيل إلى أمريكا فى اليوم التالى :

— سيرحل (ساروسكوما) ويترك من خلفه إمرأة وثلاثة أطفال

— وسيصحبه (فيتوسكورديا) ويهجر أولاده الخمسة الصغار وامرأته وهى حامل

— يقال إن (كارمن رونسا) سيأخذ معه ولده ، وهو فى الثانية عشرة من عمره وقد بدأ يكسب قوته من عرق جبينه ... أيتها العذراء المقدسة ! أليس من المفروض عليه أن يترك هذا الولد لامرأته ؟ كيف تصنع هذه التعسة الآن ؟ !

— لم أسمع ليلة أمس غير البكاء والعويل فى بيت (مينونزيا) ، وابنه الذى عاد من المعسكر منذ قليل يرغب فى السفر أيضاً !

سمعت ماراجرازيا العجوز تلك الأقوال صامتة ، وأدخلت طرف شالها فى فمها لتحبس فى صدرها الزفرات . ولكن حزنها استبد بدخيلتها فسال من عينيها دموعا سخينة

مضى أربعة عشر عاماً على سفر ولديها إلى أمريكا . ولقد وعداها العودة إليها بعد أربعة أعوام أو خمسة ، ولكنهما أصابا هناك الغنى والثروة وعلى الأخص أكبرهما سنا ، ونسيا أمهما العجوز

وفى كل مرة ترحل فيها فئة من أهل (فارنيا) إلى أمريكا ، كانت تقصد ماراجرازيا إلى ننفاروزا وتستكتبها خطاباً ثم تسلمه إلى أحد المهاجرين وتضرع إليه أن يحمله إلى أحد ولديها

وفى كل مرة ، أثناء عهد طويل ، كانت تتبع هؤلاء المهاجرين فى الطريق ، وهم يحملون غرارات وأمتعة ، حتى يبلغوا محطة المدينة المجاورة ، يشيعهم الأبناء والأمهات والأخوة والأخوات بالعويل والنشيج . وكانت المرأة المسكينة تحدق ببصرها فى عيون الشبان من المهاجرين ، وكل منهم يتصنع البشر والابتهاج ليخفى انفعاله الشديد ويشجع أقرباءه الذين يصحبونه

وفى كثير من الأحيان كان يدور بين ماراجرازيا والشبان المهاجرين حوار قصير :

— أيتها العجوز المجنونة ، لماذا تحدقين فى هكذا ؟ أتريدين أن تقتلى عينى ؟!

— كلا يا بنى ، إنى أحسدك عليهما لأنهما ستريان ولدى الغائبين ! وأستحلفك بالله أن تصف لهما حالى الأليمة ، وأن تقول لهما إذا تأخرا أكثر من ذلك فأنهما لن يجدانى على قيد الحياة !

***

بينما كان النساء يتحدثن فى شأن الذين سيرحلون إلى أمريكا فى اليوم التالى ، تكلم فجأة رجل شيخ كث اللحية أغبر الشعر أشمطه ، كان إلى تلك اللحظة يصغى إلى الحديث ولا ينطق بكلمة ، وكان مستلقياً على ظهره معرضاً صدره لأشعة الشمس مبتهجاً بتدخين غليونه ، قال هذا الشيخ وقد رفع رأسه المسند الى حجر وبصق :

— لو كنت ملكا لحظرت على أى خطاب يرد من أمريكا دخول قرية (فارنيا)

فصرخت إحدى النساء وقالت : ما هذا يا جاكو سبينا ؟ وكيف تعيش الأمهات والزوجات البائسات إذا انقطع عنهن المال والأبناء ؟

فقال الشيخ مغمغما وقد بصق ثانية : « آه ! نعم ! أمن أجل المال الذى يرسلونه ؟ إن الأمهات مرغمات على العمل فى البيوت خادمات ، والزوجات

على الذهاب يعرضهن إلى بورصة الشقاء ! ولكن لماذا لا يروون فى رسائلهم شيئاً عن الشر الذى يجدونه هناك ؟ ! لماذا لا يكتبون إلا عن وجه الأشياء الحسن فيجيب صغار الأحلام على ذلك بالرحيل ؟! لم يعد فى القرية أيد قوية لفلح الأرض وزرعها ! أقفرت القرية إلا من الشيوخ والنساء والأطفال الصغار . والرجال برغم هذه الحالة يواصلون الهجرة ويقبلون عليها إقبالاً مروعا ! »

وفى هذه اللحظة فتحت ننفاروزا بابها ، وكانت سمراء اللون كحيلة الطرف ساحرة اللحظ أرجوانية الشفتين بضة الجسم رشيقة القوام ، يبدو على هيئتها الفرح والعزة ، وكان على صدرها الجميل شال من القطن أحمر اللون به نقوش على شكل أقمار صفراء ، وفى أذنيها قرط من الذهب كبير الحجم ، وقد جمعت شعرها فى مؤخرة الرأس وجملته على شكل كرة كبيرة ، وحفظته من التشعث بدبوس من الفضة .

آمت هذه المرأة بعد عامين من الزواج ثم تزوجت من رجل آخر هجرها منذ خمسة أعوام وسافر إلى أمريكا ، وكان يزورها أحد أغنياء البلد من حين إلى آخر خلسة فى ظلام الليل ، ويدخل بيتها من الباب الصغير حتى لا يشعر به أحد ، وكان جاراتها الشريفات اللاتى يخشين الله يرمقنها بعين الحقد ويحسدنها فى قلوبهن ؛ وسبب حقدهن عليها يرجع إلى اعتقادهن أنها كتبت إلى بعض المهاجرين فى أمريكا رسائل بغير إمضاء لتفسد عندهم سمعة نسائهم انتقاما لنفسها من مهاجرة زوجها الثانى

دنت ننفاروزا من الشيخ وقالت : « من هذا المخلوق الذى يهذى ؟ آه هذا أنت يا جاكو ؟! صدقنى إذا قلت لك إن أحب الأشياء إلينا أن نظل فى القرية بلا رجال ، وستتدرب النساء على العمل فى الحقول فاطمئن بالاً »

فأجاب الشيخ بصوته الخشن : « النساء لا يحسن إلا شيئاً واحداً فقط ! » ثم بصق

فسألته بصوت مرتفع : «أى شىء يا جاكو »

— يحسن البكاء وشيئاً آخر

— إذن يحسن شيئين ! ولكن لننظر إلى أنا . إنى لا أبكى

— إيه ! أعرف ذلك جيداً ! إنك لم تبكى حتى عند موت زوجك الأول !

— إذا فرضنا وكنت أنا التى سبقته إلى العالم الآخر ، أكان يحجم عن الزواج ثانية ؟ إذن ... أنظر إلى هذه المرأة التى تبكى نيابة عن الناس جميعاً ! إنها ماراجرازيا

— لدى هذه العجوز ماء كثير وهى تصبه من عينيها !

ضحك السامعون من سخرية جاكو ثم قالت ماراجرازيا وهى تهز رأسها : « لقد فقدت ولدين جميلين فكيف لا أبكيهما ؟! »

فقالت ننفاروزا : نعم فقدت ولدين جميلين يستحقان البكاء ... إنى أوافقك على ذلك . ولكنهما فى نعيم هناك ويتركانك هنا تموتين بكاء وجوعا »

— أنا الأم وليس فى استطاعتهما أن يدركا مبلغ ألمى !

— إذن لماذا تذرفين كل هذه الدموع وتحملين على نفسك هذا الألم الشديد ؟ يقول الناس إنهما فزعا إلى الرحيل فرارا من قسوتك وسوء معاملتك

فصرخت ماراجرازيا وضربت صدرها بيدها وقالت : « أنا ؟ من الذى قال ذلك ؟ »

— بعض الناس

— يا للخزى ! أنا ؟ أبنائى ؟ أنا التى ...

فقاطعتها إحدى النساء بقولها : « ما هذا الانفعال ؟ دعيها تقول ! ألا ترين أنها تمزح ؟ »

وضحكت ننفاروزا طويلا ثم أرادت أن تكفر عن مزاحها الأليم فقالت لماراجرازيا بصوت رقيق : « تكلمى يا جدة واطلبى منى كل ما تريدين »

مدت مارا جرازيا يدها المرتعشة إلى وسطها وأخرجت من حزامها ورقة وغلافا وقدمتهما إلى ننفاروزا فى ضراعة وقالت :

— أتتفضلين على بالكتابة مرة أخرى ؟

— ثانى خطاب أكتبه !

— نعم إذا شئت وتكرمت

عبست ننفاروزا وضاقت بهذا الطالب ، ولكنها أدركت أنها لن تجد السبيل إلى الخلاص من إلحاح العجوز ، فدعتها إلى بيتها ، ولم يكن هذا البيت يماثل البيوت الحقيرة التى تجاوره ؛ وكانت غرفته كبيرة مظلمة قليلاً حين يكون الباب مغلقاً ، ولا ينفذ إليها النور إلا خلال كوة ذات قضبان حديدية فى أعلى الباب ، وأرضها مصنوعة من الآجر وفيها سرير من حديد وصوان للملابس ومنضدة صغيرة سطحها من الرخام الأبيض . وهذا كل ما استطاعت ننفاروزا الحصول عليه من ربحها كمائكة فى الريف

تناولت القلم ووضعت الورقة على الرخام واستعدت للكتابة وهى واقفة وقالت :

— تكلمى وأسرعى

— أكتبى : ولدى العزيزين ، لم تعد عيناى تقويان على البكاء ... كتبت ننفاروزا ما أملت عليها وهى تتنهد تنهدة التعب والملل ، وواصلت العجوز الاملاء :

— لأنهما تتحرقان شوقاً إلى رؤيتكما مرة أخرى على الأقل ... فتمجلتها ننفاروزا وهى تقول : « استمرى ، استمرى ... إنك كتبت لهما هذه الكلمات ثلاثين مرة على الأقل ! »

— أكتبى على كل حال . إنها الحقيقة ياعزيزتى ، وأنت ترين جيداً مبلغ ألمى . . . أكتبى : ولدى العزيزين ...

— أمن جديد ؟

— كلا ... سأملى شيئاً آخر ... لقد فكرت فى ذلك الليل كله . إسمى : ولدى العزيزين ، أمكما المسكينة تمدكما وتقسم لكما ... أكتبى ما أملى ... تمدكما وتقسم لكما أمام الله أنكما إذا رجعتما إلى (فارنيا) فانها تهب لكما بيتها وهى على قيد الحياة

وهنا انفجرت ننفاروزا ضاحكة وقالت : « بيتك الحالى ؟ وماذا يصنعان به وهما الآن فى خفض من العيش ؟ ماذا يصنعان بجدره الأربعة المصنوعة من القش والطين ؟ »

— أكتبى على كل حال : أربعة أحجار فى الوطن خير من مملكة فى ناحية أخرى ... أكتبى

— كتبت ما أمليت . هل تريدين إضافة شىء آخر إلى الخطاب ؟

— نعم ! أمكما المسكينة أدركها الشقاء وهى تقضقض من قسوة البرد ، وتروم شراء ثوب ولا تستطيع ، فجودا عليها بخمس ليرات على الأقل ...

فقالت ننفاروزا : وهى تجفف المداد وتضع الورقة فى الغلاف : « قول جميل . لقد كتبت كل شىء »

— هل وضحت جيداً هذه الجملة : جودا عليها بخمس ليرات ؟

— وضحت كل شىء

— حقاً ؟

— أوه ! قلت نعم !

— يا ابنتى إظهرى قليلاً من الصبر مع عجوز مسكينة ! ماذا تنتظرين منْ بلهاء مثلى ؟ ! فليكافئك الله والعذراء !

تناولت الخطاب ووضعته فى حزامها ، وأرادت أن تأتمن عليه ابن مينونزيا ليحمله إلى ولديها ، فغادرت بيت ننفاروزا وأخذت سمتها إلى بيته

* * *

أسدل الليل سدوله ودخلت النساء بيوتهن ، وأغلقت جميع الأبواب إلا قليلاً ، وأقفرت الأزقة الضيقة من السابلة ولم يبق فيها غير رجل واحد يحمل سلماً على كتفه ، يسير خلال القرية يشعل مصابيحها القليلة المبعثرة ذات الضوء الضعيف المهتز ، الذى يجعل سكون الأزقة الشامل حزيناً رهيباً ثقيلاً على النفس

وكانت ماراجرازيا أثناء سيرها تضغط باحدى يديها على الخطاب الموضوع فى حزامها ، كأنما هى تريد أن تنقل إلى قطعة الورق جزءاً من حرارة الأمومة ، وتحك بيدها كتفها تارة ورأسها تارة أخرى . وكانت كلما كتبت خطاباً غمرها الأمل الكبير واعتقدت أن سيؤثر فى ولديها ، ويأتى بهما إليها

ولكنها فى هذه المرة لم تكن راضية ولا مطمئنة إلى الخطاب ، لأنها رأت ننفاروزا تكتبه فى عجلة شديدة ، واعتقدت أنها لم تكتب الجملة الخاصة بالخمس قرات التى تطلبها لشراء ثوب يقيها لير الشتاء

وأثناء مرورها بالأبواب المغلقة ، بلغ سمعها صرخات الأمهات اللاتى يبكين رحيل أولادهن المقبل ، فقالت وهى تضغط على الخطاب بقوة :

« أيها الأبناء ، كيف تطاوعكم قلوبكم على الرحيل ؟ إنكم تعدون بالرجوع ولا تبرون بوعدكم ... آه ! أيتها الأمهات البائسات إيا كن والثقة بعودهم ! إن أولادكن كولدى ، لن يعودوا أبداً »

وإنها لكذلك إذ سمعت فجأة وقع قدمين يرن فى الزقاق ، فوقفت تحت أحد المصابيح وتساءلت من عساه يكون هذا الشخص ؟ ولما دنا منها عرفت أنه طبيب القرية الجديد الذى يقال إنه سينقل قريباً ، لا لأنه يهمل فى أداء واجبه ، ولكن لأن أغنياء البلد يبغضونه على النقيض من الفقراء . وكان هذا الطبيب فى زهرة شبابه ، ولكنه كان شيخاً بتجربته وعلمه ؛ وحين كان يتكلم فى جمع من الناس كانوا يصغون إليه مشدوهين مأخوذين ببلاغته وتدفقه ؛ ولم يكن له أم تحزن عليه إذا رحل إلى أمريكا كما كان يشاع عنه

وقبل أن يبلغ مكان ماراجرازيا بيضع خطوات قالت ضارعة : « سيدى الطبيب ! أتسمح بأن تؤدى إلى معروفا كبيراً ؟ » فانزعج الطبيب من الصوت الباغت ، ثم وقف تحت المصباح وقال بصوت مرتفع : « من المتكلم ؟ آه ! هذا أنت ... »

وذكر فى الحال أنه رأى هذه الخرق البالية عدة مرات على أبواب البيوت ؛ ولما هدأ ما ألم به من الفزع ، قالت له :

— أتتفضل علىّ بقراءة هذا الخطاب الذى سأرسله إلى ولدىّ ؟

— سأحاول ذلك إذا استطعت فى هذا الضوء الضعيف

ثم لبس منظاره وأخرجت ماراجرازيا الخطاب من حزامها وناولته إياه ، وانتظرت أن يعيد على سمعها الجمل التى أملتها على ننفاروزا

ولكن الطبيب لم يقرأ ، إما لأنه لم ير جيداً وإما لأنه عجز عن قراءة الخط . ثم شرع يدنى الورقة من عينيه ثم يبعدها قليلاً ليستثمر جيداً نور المصباح ، وبعد وقت قصير طال على المرأة المسكينة سألها : « ماهذا ؟ » فسألته ماراجرازيا بدورها فى خجل وتواضع : « ألاتستطيع قراءته ؟ » فضحك الطبيب وقال : « ليس فى الورقة كلمة واحدة مكتوبة ، ولكن فيها أربع خطوط فى تعاريج صبيانية ! انظرى ؟ »

فصاحت العجوز مبهوتة : « كيف ؟ »

— انظرى وأنعمى النظر . لم يكتب فيها كلمة

— أجائز هذا ؟ وكيف وقع ، مع أنى أمليته على ننفاروزا كلمة كلمة ، ورأيتها تكتب !

فهز الطبيب كتفيه وقال : « لقد تظاهرت بأنها تكتب »

جمدت ماراجرازيا فى مكانها ثم ضربت صدرها بيدها وقالت فى ألم شديد : « آه ! الخائنة ! لماذا تخدعنى وتسخر من عواطفى ؟ الآن عرفت لماذا لا يجيب ولداى على رسائلى ! إنها لم تكتب قط ما كنت أمليه عليها ... عرفت السبب ! إذن ولداى لا يعرفان شدة عذابى ! لا يعرفان أنى أموت من أجلهما ! رب كيف يجرؤ انسان على خيانة أم عجوز مسكينة مثلى ؟ يا للعار ! »

نال ألم المرأة من نفس الطبيب منالاً كبيراً ، واجتهد فى أن يهدئ قليلاً من غضبها ويأسها ، وسألها عن ننفاروزا أين تقيم ليوجه إليها فى اليوم التالى ماتستحق من اللوم . ولكن المرأة كانت لاهية عنه بالتفكير فى التماس المعاذير لولديها البعيدين عنها ، وشعرت فى تلك اللحظة بوخز الضمير الأليم لأنها اتهمتهما أعواماً طوالاً بغير حق ، واعتقدت أنهما لو كانا تسلما خطاباً واحداً من خطاباتها الكثيرة لعادا اليها طائرين على أجنحة الشوق والحنان

ولكى يطيب الطبيب خاطرها وعدها بأن يكتب بيده خطاباً مطولاً لولديها فى صباح اليوم التالى ، ثم قال : « خلى عنك اليأس واذهبى الآن الى النوم والراحة ، وغداً صباحاً أنتظرك فى بيتى لتحقيق رغبتك » ثم تركها وسار فى طريقه

كيف تنام هذه الأم المعذبة أو تحن الى الراحة ؟ عاد الطبيب بعد ساعتين من تلك الجهة نفسها فوجد ماراجرازيا فى مكانها الذى تركها فيه جالسة القرفصاء تحت ضوء المصباح وهى تبكى وتتململ . فأخذ عليها عملها الجنونى وأرغمها على النهوض ، وطلب إليها أن تذهب الى بيتها فى الحال . ثم سألها :

— أين تقيمين ؟

— آه ! يا سيدى الطبيب ، عندى كوخ فى الجهة المنخفضة من القرية . لقد رجوت من هذه المرأة المخادعة أن تكتب إلى ولدى أنى أنزل لهما عنه أثناء حياتى إذا قبلا العودة الى وطنهما ، فضحكت ملء شدقيها وقالت : ما ذا يصنعان بأربعة جدر مصنوعة من القش والطين ؟ ... ولكنى ...

— حسن ، حسن . اذهبى ونامى ، وفى الغد لن نغفل الكلام عن الكوخ فى الخطاب . تعالى سأصحبك

بارك الله فيك يا سيدى الطبيب . ولكن ماذا تقول ؟ ستصحبنى ؟ اذن سر أمامى لأنى عجوز ولا أستطيع السير إلا ببطء شديد

فلم يسع الطبيب إلا أن يتمنى لها ليلاً سعيداً ويتركها ؛ فتبعته فى خطى ضعيفة متثاقلة . ولما بلغت الباب الذى رأته يدخل منه ، وقفت وغطت رأسها وصدرها بشالها ثم جلست على السلم المؤدى

الى عتبة الباب فى انتظار طلوع النهار

وعند بزوغ الفجر ، استيقظ الطبيب كعادته للقيام بزيارة المرضى . ولما فتح الباب سقطت ماراجرازيا الى الخلف عند قدميه لأنها كانت مستغرقة فى النوم وقد أسندت ظهرها الى الباب

عجب أشد العجب وقال : « أوه ! لقد أسأت الى نفسك جد الاساءة » فأجابت وهى تحاول النهوض : « سامحنى يا سيدى »

— هل قضيت الليل فى مكانك هذا ؟

— نعم ياسيدى . اطمئن بالاً فقد ألفت ذلك . كيف أستطيع أن أواسى نفسى وأنسى خيانة هذه المرأة الخبيثة ؟! سأقتلها ياسيدى . كان فى استطاعتها أن ترفض الكتابة فى صراحة وأن تقول إن طلبى يبعث فى نفسها الضيق والملل فأذهب الى شخص آخر ... أذهب الى رجل طيب القلب مثلك ...

— نعم . انتظرينى هنا قليلا . سأزور المرأة التى خدعتك ثم أعود لكتابة الخطاب

وسار متجها نحو الطريق الذى عينته له العجوز فى المساء السابق ، وشاءت له المصادفة أن يقابل ننفاروزا خارجة من بيتها فى تلك الساعة دون أن يعرفها ، ويسألها عن عنوانها . فأجابت وهى تضحك وقد احمر وجهها : « إنى أنا ننفاروزا ياسيدى الطبيب » ثم دعته الى دخول البيت

إنها رأت هذا الطبيب الشاب الجميل يجتاز الزقاق الذى تقيم فيه كثيراً من المرات ، ولكنها لم تتعرف إليه لأنها كانت فى أكمل صحة ولم تجرؤ على إدعاء المرض ؛ فلما رأته يسأل عنها من تلقاء نفسه ليتحدث إليها ، ظهر على وجهها أمارات السرور المشوب بالدهشة الشديدة . ولما رأته مضطربا عابسا وعرفت الغرض من هذه الزيارة ، انحنت عليه قليلا فى خلاعة ساحرة دون أن تعلم السبب الحقيقى للألم الذى عنده . ولما استقر به المقام ، طفق يتحدث وهى تصغى إليه ، ثم قالت فى لهجة الجزع ، وقد أغمضت عينيها الكحيلتين الخلابتين « عفواً ياسيدى الطبيب . أتزعج نفسك إلى هذا الحد من ، أجل هذه العجوز المجنونة ؟ الناس جميعاً هنا يعرفونها ولا يقلق أحد منهم نفسه من جرائها . سل من تشاء . سيقول لك جميع الناس إنها مجنونة ، مجنونة حقاً منذ أن رحل ولداها إلى أمريكا ، وقد مضى على ذلك أربعة عشر عاما . إنها لا تريد أن تصدق أنهما نسياها كما هو الواقع والحقيقة . وهى مصرة على الكتابة اليهما دائماً ؛ تريد أن ترسل إليهما فى كل يوم خطابا ، ولكى أدخل على نفسها الابتهاج ، كنت أتظاهر بكتابة ما تريد ، وكان المهاجرون إلى أمريكا يظهرون لها أنهم سيحملون رسائلها إلى ولديها ، فتظل المرأة غارقة فى غرورها . وإذا كنا نجاريها ونجيبها دائماً إلى ما تطلب ، فأن حياتنا تصبح نكدة صعبة الاحتمال . أنظر إلى يا عزيزى ، إنى أنا أيضاً قد هجرنى زوجى . وهل تعرف الفحة التى كشف بها عن خبث طويته ؟ إنه أرسل إلى صورته مع خليلة أمريكية ، وأستطيع أن أطلعك عليها فترى رأسه إلى جانب رأسها ، ويده فى يدها هكذا ... أتسمح ؟ هات يدك .... هكذا ، وهما يبتسمان استخفافا بالذين يطلعون على صورتهما ! وأقسم لك أنى ضحكت كثيراً حين تسلمت الصورة . آه ! يا سيدى الطبيب ، إن الانسان يبكى الذين يرحلون ولا يرثى لحال الذين يبقون ! لقد بكيت أيضاً ؛ وهذا أمر طبيعى فى الأيام الأولى ، ولكنى ثبت من بعدها إلى عقلى ... والآن أعيش فى أحسن حال .

وكلما وجدت فرصة للهو ، لهوت . ينبغى أخذ الحياة كما هى ... »

خفض الطبيب بصره اضطرابا من العطف الذى أظهرته المرأة الجميلة نحوه ثم قال :

— ربما عالكين ما يقوم بحاجتك ، ولكن هذه العجوز البائسة ...

— من ؟ هى ؟ عندها مايجعلها تعيش كأميرة عظيمة ولكنها لا تريد

فسألها الطبيب وهو يحدق فيها « كيف ذلك ؟ » ولما رأت ننفاروزا منظر وجهه المشدوه عادت الى الضحك بقوة كاشفة عن ثناياها الخلابة ثم قالت :

— نعم إنها لا تريد يا سيدى . لها ابن آخر ، وهو أصغر أبنائها ، يود لو تقيم معه

— ابن آخر ؟ هى ؟

— نعم يا سيدى اسمه روكو . ولكنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً

— ولماذا ؟

— لأنها مجنونة كما قلت لك . إنها تبكى فراق الاثنين الآخرين ليلاً ونهاراً ، ولا تقبل من ابنها روكو أى شىء برغم توسلاته

زوى الطبيب ما بين عينيه حتى لا تبدو عليه أمارات الدهشة مرة أخرى ، وحتى يخفى اضطرابه الشديد ثم قال :

— ربما لا يحسن هذا الابن معاملتها

— لا أعتقد ذلك . إنه قبيح الخلقة عبوس الوجه دائما ، ولكنه كريم النفس سرى الخلق . وهو مجد لا يعرف غير عمله وزوجه وأولاده . إذا أردت أن تراه ، فسر فى هذا الطريق المستقيم أمامك ، تجد على اليمين بعد مسير ربع فرسخ على الأكثر (بيت العمود) كما يسميه الناس . إنه يقيم فى هذا البيت ، وله مهنة جميلة تدر عليه خيرا كثيرا . إذهب اليه وسترى أنى على حق فيما قلت لك

نهض الطبيب وهو أشد ما يكون شوقا الى رؤية هذا الابن ، ثم قال : « إنى ذاهب اليه »

فوضعت ننفاروزا يدها على شعرها ، ورنت الى الطبيب بلحظها الساحر وقالت : « أتمنى لك استراضة طيبة ، وأقدم اليك وافر احترامى »

***

سار الطبيب فى طريق ضيقة كثيرة الأحجار تقوم على جانبيها بعض الدور والأكواخ الحقيرة ، حتى خرج من القرية وأخذ طريقا آخر وسط الحقول ، وهو يلقى بنظراته يمنة ويسرة ، ويرى الأرض الجافة التى تنتظر المطر حتى تثمر ، وراعه أثناء مسيره روح الحزن الذى يخيم على الأرض وقد رحل عنها أكثر سكان القرية ورجالها

آه ! ها هو ذا بيت العمود . وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجاور عمود معبد رومانى قديم لم يبق منه إلا ركن واحد . ولما دنا الطبيب من البيت وقف أمام السور وصاح « هو هو ! » حتى يأتيه من يجنبه خطر الكلاب . فأجابه صبى فى العاشرة من عمره عارى القدمين يضرب لون عينيه الى الخضرة ، وعلى رأسه قبعة من القماش قد ذهبت بلونها أشعة الشمس . سأله الطبيب :

— أهنا كلب يخشى منه ؟

— نعم . ولكنه هادىء لا يؤذى أحداً

— هل أنت ابن روكو ؟

— نعم يا سيدى

— وأين والدك ؟

— فى الحقل

وكانت أم الصبى جالسة على مقعد حجرى أمام البيت تمشط شعر ابنتها الكبرى وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت جالسة على مقعد حجرى آخر وظهرها إلى أمها ، وفى حجرها طفل رضيع . وكان أمامها طفل آخر يلعب فى الأرض وسط الدجاج والديكة . فقال الطبيب المرأة « أريد أن أتحدث إلى روكو . إنى طبيب القرية الجديد »

لم تحر المرأة جواباً لأنها اضطربت ولم تفهم السبب الذى من أجله يريد الطبيب أن يتحدث إلى زوجها . ثم أصلحت قميصها الخشن ونهضت لتقدم إلى الطبيب مقعداً ؛ ولكنه رفض الجلوس وانحنى على الطفل الذى يلعب فى الأرض ، مداعباً ، وجرى الصبى الكبير إلى الحقل لينادى أباه

وبعد لحظات سمع وقع أقدام ثقيلة ، ولمح من بين أشجار التين الكثيفة روكو يسير نحو البيت مقوس الظهر والساقين ، ويده فى وسطه كعادة الفلاحين فى تلك الجهة . وكان زرى الهيئة دميم الخلقة واسع الفم غليظ الشفتين مصفر الوجه مشوه الوجنتين ، وكانت عيناه غائرتين ينبعث منهما بريق لا تطمئن إليه النفس

رفع هذا الرجل يده إلى رأسه ورفع قبعته إلى الخلف علامة التحية وقال للطبيب :

— أقبل يديك يا سيدى . ما الذى أستطيع أداءه ؟

— جئت لأخاطبك فى شأن أمك

فاضطرب روكو وسأله فى لهفة :

— أليست فى صحة تامة ؟

— اطمئن من هذه الناحية . ولكن الشيخوخة أدركتها كما تعلم وتفتقر إلى العناية ...

وكلما أسهب الطبيب فى الكلام ازداد اضطراب روكو ثم قال :

— سيدى الطبيب ، إنى خاضع لك فى كل ماتحكم به . ولكن إذا كنت قدحضرت خصيصاً لتخاطبنى فى شأن أمى ، فانى أستأذنك فى الانصراف الى عملى

— انتظر ، إنى أعرف أنك رجل مجد ، وقيل لى إنك على النقيض من ...

— ادخل البيت يا سيدى الطبيب ؛ إنه بيت فقراء ولكنك طبيب ، وقد رأيت كثيراً من أمثاله . أريد أن أريك الفراش المعد دائماً لهذه العجوز الطيبة القلب ! إنها أمى ولا أستطيع أن أطلق عليها اسماً آخر ، ها هى ذى امرأتى وها هم أولاء أولادى ، إنهم يقرون أنى كنت آمرهم دائماً بخدمتها واحترامها ، كما يخدمون ويحترمون العذراء المقدسة . الأم مقدسة أيضاً ياسيدى الطبيب ! لم أهملها يا سيدى ولكنها تغمرنى بالخزى أمام الناس وتجعلهم يظنون بى ... من يدرى ؟ ربيت ياسيدى عند أقرباء أبى ونشأت بينهم ، وما كان ينبغى لى أن أحترمها كأم لأنها كانت تعاملنى بقسوة وخشونة ، ولكنى مع ذلك أحترمها دائماً وأشفق عليها . ولما رحل ولداها الى أمريكا ، رجوت منها أن تقيم معى وأن تكون سيدة البيت ، ولكنها رفضت رجائى وفضلت الاستجداء فى الطرق وإغراقى فى العار ! وأقسم لك أنى إذا رأيت أحد ولديها قد عاد الى فارنيا فانى سأقتله انتقاماً لنفسى من هذا العار ومن الآلام التى تحملتها طيلة أربعة عشر عاماً ! سأقتله

ياسيدى ، وإنى أجهرلك بذلك أمام زوجى وأولادى .

وهنا مسح روكو فمه بذراعه وهو يرتعد وقد صعد الدم الى عينيه الغائرتين ، وكان الطبيب يصغى إليه ويحدق ببصره فيه ، ثم قال له :

— ولكن لماذا ترفض أمك الاقامة معك ؟ لأنك تكره أخويك من غير شك

— أكرههما ؟ نعم أكرههما الآن فقط من أجل الآلام التى نسجا بردوها لأمهما ولى أنا أيضاً ، ولكن لما كانا فى القرية ، كنت أحبهما وأحترمهما كشقيقين أكبر منى سناً . أما هما فعلى العكس من ذلك كان يجرى فى عروقهما دم قابيل ! إسمع يا سيدى . كانا لا يعملان شيئاً ، وكنت أنا أعمل للجميع ؛ وكانا يترددان على بيتى ويقولان إن الخبز يعوزهما وأن أمهما نامت طاوية ، فأعطيهما ما عندى من الطعام ، وقد ارتطما فى حمأة الدعارة فتزوجا من امرأتين لهما سيرة قذرة ، ولكنى مع ذلك كنت أعطيهما ما يريدان . ولما سافرا إلى أمريكا ودعتهما وتمنيت لهما الخير كله . سل امرأتى تنبئك يا سيدى

فقال الطبيب بصوت خافت حتى لكأنه يخاطب نفسه :

— ولكن لماذا إذن ... ؟

— لماذا ؟ لأن أمى تقول إنى لست ولدها

— كيف هذا ؟

— سيدى الطبيب ، سلها تشرح لك ، أما أنا فليس عندى من الوقت ما يكفى ، والرجل فى انتظارى للعمل

قال هذا وابتعد مقوس الظهر والساقين ويده فى وسطه كما جاء ؛ وشيعه الطبيب بنظره لحظة ، ثم التفت إلى المرأة وأولادها وقال : « فلتكن مشيئة الله ! »

* * *

عاد الطبيب إلى بيته وهو يفكر فى تفسير هذه الحال الغريبة التى آلمت قلبه ؛ وكانت مارا جرازيا جالسة على عتبة الباب ، فدعاها إلى الدخول وقال لها بصوت فيه رنة الخشونة : « لقد تحدثت إلى ابنك فى بيت العمود . لماذا أخفيت عنى أن لك ولداً آخر ؟ »

فنظرت اليه المرأة دهشة ، وعبثت يدها المرتعشة بشعرها قليلاً ، ثم قالت :

— آه ! يا سيدى الطبيب ! العرق البارد يتصبب من جبينى كلما خاطبنى أحد فى شأن هذا الابن . أشفق على ، ولا تذكره أمامى بعد ذلك !

— لماذا ؟ ما الذى تأخذينه عليه ؟ تكلمى

— فى الحق يا سيدى أنه لم يسىء إلى ... كان يجرى خلفى فى احترام ... ولكن ... انظر كيف أرتعد حين أتكلم عنه ؟ آه ! استمع ، ياسيدى الطبيب ، إنه ليس ابنى

فلما سمع ذلك فقد كل صبر وصاح قائلا : « كيف ؟ ماذا تقولين ؟ أنت بلهاء أو مجنونة ! ألست أنت التى حملته وولدته ؟ »

نكست العجوز رأسها وقالت :

— نعم يا سيدى ، ولكنى بريئة من البله والجنون ... لن أتألم من بعد ذلك إن شاء الله ... وقعت أشياء ياسيدى لاتعرفها لأنك صغير السن ، ولكن أنا غارقة فى الألم من عهد بعيد إلى اليوم ... وقد رأيت فى ذلك العهد أشياء لا تستطيع أن تتصورها

— تكلمي ، ماذا رأيت ؟

— أشياء هائلة مخيفة ، لم تكن أنت في ذلك المهد قد ولدت ... رأيت هذه الأشياء بهاتين العينين اللتين لم تنيا عن البكاء طوال أعوام كثيرة . هل سمعت إلى أحد يتكلم عن رجل يدعى كانا باردو ؟

— غاريبالدى ؟

— نعم ، هـذا هو الاسم الصحيح . وهو الرجل الذى قدم هـذه البلاد وأثار المدن والريف على قوانين الانسان وقوانين الله ! أسمعت إلى أحد يتكلم عنه !

— نعم . نعم تكلمي . ما شأن غاريبالدى فى هذا الموضوع ؟

— أعلم أن هذا الرجل أصدر أوامره عنـد قدومه بفتح أبواب السجون جميعاً ، فخرج منها أسوأ اللصوص وأفظع القتلة وأخطر المجرمين ، وكان من بينهم رجل ، هو أكثرهم فظـاعة ، يدعى (كولا كاميزى) كان رئيس عصبة تقتل الناس كأنهم ذباب . وتجد فى سفك الدماء أكبر لذة . وكان هذا الرئيس يقتل ويقول : إنى أجرب الذخيرة أو أجرب مرمى البندقية . أقام فى الريف على مقربة منا وكان يقتـل الرجال الذين يرفضون الانضمام الى عصبته أو يأبون الخضوع لأمره ... كنت متزوجة فى ذلك الوقت ، وقد مضى على زواجى بضعة أعوام وكان عندى ولداى اللذان يقيمان الآن فى أمريكا . وكان زوجى المسكين يعمل فى أرض (بوزيتو) فمر به كولا كاميزى وأخذه قسراً ؛ وبعد يومين عاد الى زوجى شاحب الوجه كالموتى حتى كدت أنكره ... لم يستطع الكلام وكانت عيناه ممتلئتين بكل ماشاهد ، وكان المسكين يخفى يديه اشمئزازاً من كل ما أرغم على فعله ... آه ! يا سيدى الطبيب ، لقد جمد دمى فى عروق حين رأيته على هذه الصورة ، صرخت قائلة عند رؤيته رحمه الله « نينو ، ما ذا فعلت ؟ » ولـكنه عجز عن الـكلام وجلس أمام الموقد صامتا وهو يخفى يديه تحت ثيابه وينظر إلى الأرض بعينى أبله أو مجنون . وبعد وقت طويل قال : « الموت أفضل ! » : ظل مختبئاً ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع . كنا فقراء يا سيدى ولا بد من العمل ... خرج ليعمل ، ولم يعد فى المساء . انتظرت طويلاً ثم أدركت كل شيء ، وقلت لنفسى مع ذلك لأدفع عنى الخوف « من يدرى ؟ لعلهم لم يقتلوه . ربمـا أخذوه فقط كأول مرة ! » علمت بعد مضى ستة أيام أن كولا كاميزى يقيم مع عصبته فى (مونتلوزا) . ذهبت إلى تلك الناحية كالمجنونة فى يوم شديد الرياح إلى درجة عجيبة ، هل رأيت الهواء يا سيدى ؟ فى ذلك اليوم كان الانسان يستطيع أن يراه ، فيجعله يعتقد أن أرواح الذين قتلوا تصرخ طالبـة من الله والناس الانتقام ! أسلمت نفسى الى هذه الرياح ، وكبـدى قريحة وقلبى ممزق معذب ، فحملتنى . استغرقت على الأكثر ساعة فى الوصول الى الـكهف . كان به فناء كبير محاط بالأسوار ينفذ اليه الانسان من باب صغير يصعب العثور عليه . تناولت حجراً لأطرق به الباب ... لم يفتح أحد فعاودت الـكرة بشدة ، ففتح الباب ورأيت ... آه ياللهول ما رأيت !

توقفت ماراجرازيا عن الـكلام وقد استولى عليها الرعب الشديد ، وتقلصت أصابعها وخذلها الصوت فعجزت عن متابعة الـكلام . وبعد لحظات قالت :

— فى اليد ... فى اليد ... هؤلاء القتلة ...

توقفت ثانية وحركت يديها كمن يدفع عن نفسه شيئا . فقال الطبيب :

— حسن . وبعد ؟

— كانوا يلعبون فى الفناء بكرات... هى رؤوس رجال ... ملوثة بالطين ... كانوا يمسكونها من الشعر ... وكان رأس زوجى فى يد كولا كاميزى نفسه ... عرضها السفاح لنظرى فصرخت صرخة حسبتها مزقت صدرى . صرخة جعلت السفاكين يضطربون ويرتعدون ... ضغط كولاميزى على عنق ليرغمنى على الصمت ، ولكن أحد رجاله انقض عليه فجأة ، ثم تشجع أربعة أو خمسة من زملائه وألقوا بأنفسهم على رئيسهم ... لقد تنبهوا من غفلتهم ووضعوا حدا لطغيان هذا الشيطان . وكم كان فرحى عظيما حين كنت أرى هذا الكلب يختنق أمام عينى بأيدى رجاله

سكتت العجوز وهى تلهث من شدة الهياج ، وحدق فيها الطبيب وبدت على وجهه أمارات الشفقة والرعب والسخط ، ثم تغلب على ما فى نفسه وفكر طويلاً فلم يستطع أن يستخلص مما سمع أية صلة بين قصة المرأة وابنها روكو ، فسألها الوضوح فقالت :

— انتظر حتى أستريح قليلاً ... الرجل الأول الذى انقض على رئيس العصبة ودافع عنى كان يدعى ماركو

فصاح الطبيب قائلاً : « آه ! أذن روكو ... »

— ولده ... فكر قليلاً يا سيدى الطبيب . هل كنت أستطيع أن أكون امرأة هذا الرجل بعد الذى رأيت ؟ ! راودنى عن نفسى وأراد اغتصابى ... احتجزنى عنده ثلاثة أشهر مقيدة مكممة الفم لأنى كنت أصرخ وأعضه . وفى نهاية الأشهر الثلاثة ، استطاعت العدالة أن تقبض عليه وترسله إلى السجن ، فمات فيه ... ولكنى كنت حاملاً ... آه ! يا سيدى ، أقسم لك أنى كنت أشعر بأحشائى تتمزق ، وبأنى أحمل فى بطنى غولاً ... واعتقدت أنى لن أستطيع رؤيته أو حمله بين ذراعى . وكلما كنت أفكر فى أنى سأرضعه ، كنت أصرخ كامرأة أصابها الجنون . كان أحب إلى أن أموت أثناء الوضع ، أمى رحم الله روحها ، ساعدتنى وجنبتنى رؤيته ، واستودعته عقب وضعه مباشرة ، أقرباء أبيه ، فقاموا بتربيته . والآن ، أعرفت يا سيدى لماذا أقول إنه ليس ابنى ؟ آه ! ليتنى ما ولدته ! ليتنى مت قبل أن أحمله !

ظل الطبيب لحظات غارقا فى خواطره ثم قال :

— ولكن ولدك نفسه لم يسىء إليك

— هذا حق يا سيدى ، وإنى لم أنطق بكلمة واحدة تسىء اليه ، ولكن ماذا أصنع ؟ لا أستطيع رؤيته ، حتى من بعيد ! إنه صورة أبيه تماما ؛ وجهه وهيئته وصوته . إنى حين ألمحه أرتعد ويغمر العرق البارد جبينى ! انه ليس منى ... كيف أصنع !

سكتت ومسحت عينيها بظهر يدها اليمنى ، ثم خشيت أن يغادر المهاجرون القرية دون أن يتسلموا منها خطابا لولدها . فاستجمعت شجاعتها وقالت للطبيب السابح فى أفكاره :

— أحسن الى يا سيدى كما وعدتنى

فتنبه الطبيب وقال : « انى على أتم استعداد »

فدنت العجوز من المنضدة وشرعت تملى على الطبيب بصوت تخنقه العبرات :

— ولدى العزيز ...

ترجمة حسن صادق

لو تكاشف الناس

TROP SAVOIR

لفرنسيس دوير

بقلم الدكتور محمد الرافعي

كان چان كرمهوت الهولندي مولعاً بجمع الأنواع النادرة من «سامٌ أبرص[1] » وكثيراً ما كان يتحدث عن طباع هذه الحشرات وعاداتها حديث العالم المحيط غير جاهل شيئاً عن الألف والسبعمائة نوع المعروفة منها

وكنت لا أعرف عن سام أبرص غير أنه دُوَيبة يتقصَّف ذنبها إذا أخذها الانسانَ منه ؛ بَيْد أن كرمهوت قرر لى أن هذا الذنب إن هو إلا وسيلة من وسائل الدفاع عن الحشرة ؛ فاذا ما طارد الأبرص ثعبان أو عدو آخر يريد التهامه أمكنه من ذنبه ثم تركه يتلهى به وانخلع منه وأسرع فاحتجر بين الشقوق لا يغادرها حتى ينشأ له ذيل آخر يحمل منه سلاحه الطبيعي

***

نزلت ضيفاً على چان كرمهوت فى مثواه بمدينة باسوروين على ستين ميلاً من (سويسراباجا) بجزيرة جاوة . وكان المكان هادئاً جميلاً يبتعث الخيال الشاعر ويطل منه الناظر على القردة فى أشجارها تتقاذف وتتواثب ، وعلى غمام طائر من أسراب الفراش كأنه سحابة ذهبية تحجب الشمس مرة وتنفرج لها مرة

وكنت أكثر الوقت فى شرفة المنزل لا أتحول عنها إلا لضرورة ، إذ كان كرمهوت قد جمع فى داره قرابة خمسمائة حشرة مكفوفة فى أوعيتها ، فكان لحفيف أجسامها الصدفية على الرمال فى هذه الأوعية كالضرب على أعصابي دَراكاً لا ينقطع

وفى هذه الشرفة قص على كرمهوت قصة سامٌ أبرصَ نادر عثر عليه هو وصديقه ريشارد مرل وسماه باسمه

***

كان ريشارد هذا انجليزياً فارغ القامة وثيق التركيب أحمر الوجه عريض الجبهة بارد الطبع . تزوج وهو فى السادسة والأربعين امرأة تصغره باثنتين وعشرين سنة ؛ ناضرةً بضة كالزهرة ، لها عينان زرقاوان تدلان على دلالة . . . وتنبعث منهما جاذبية قوية لا تدفع ، وكأنما تقول لمن ينظر إليها من الرجال : « إن زوجى غائب غيبة طويلة للصيد وقد تركنى وحدى فى هذا الشباب وهذا الجمال ؛ أفيرضيك أن أكون وحدى . . . ؟ »

ولنعد إلى قصة الأبرص . قال محدثى : إن مرل رآه فأهوى إليه وانتزعه من بين الحشائش ، وما كاد يجمع يده عليه حتى صرخ : لقد لدغنى فى أصبعى

قال فنظرت فاذا إصبعه دامية يغور فيها الجرح ، غير أنه لم يكن خطراً لأن سم هذه الدُّوَيبة لا يقتل الانسان . فضمدت له جرحه ثم جلسنا نتأمل صيدنا . ولأول نظرة تبين لنا أن هذا الأبرص مما لا يعثر عليه إلا فى الندرة

***

كان ذلك فى الساعة الثانية بعد الظهر فلم تنقض ساعة بعدها حتى أنكرت وجه مرل ، فقد

(١) هو الذى يسميه العامة (البرص) وسام أبرص كلمة واحدة مبنية على فتح الجزأين كخمسة عشر ولكننا اقتصرنا على أحد جزأيها للتخفيف

انكفأ لونه وتغير وأصبح كالشمع ، فأسرعت أجس نبضه فاذا هو يضرب ثلاثين ومائة كالذى أوهنه المرض ؛ بيد أن الذى أدهشنى أنه لم يهن ولم يضعف ولم يتغير بل زاد قوة ونشاطاً ، وأحس نشوة كأنه شارب ثمل . ثم رأيته وقد انطلق لسانه كالذى أخذت فيه الخمر مأخذها فحسبته يهذى .

وقال فيما قال :

أتعرف يا كرمهوت أنه قد كُشف عن بصرى الآن ، فأنا أطالع أفكارك وأفكار هؤلاء الحمالين الثلاثة الذين معنا ؟

فقلت وقد أيقنت أن به مسَّ الحمّى :

لا ريب فى ذلك إن كان مكراً مما تمكر ، أو مزحاً مما تمزح

قال : ليس بى مكر ولا دُعابة ، ولكنه ما أقول لك ؛ أفأخبرك عما فى نفسك الآن ؟

فابتسمت سخرية به ، وقلت له : إن كان هذا من لدغة الأبرص ؛ فقد وقعت لنا عجيبة العجائب ، ولكن ما الذى يكشف لك منى ؟

فأغمض عينيه كالذى يجمع فكره ثم قال :

إنك تفكر الساعة يا كرمهوت فى تلك الخادم التى رأيناها بالحانة فى سنغافورة

فذهلت مما أسمع إذ لم يَعْدُ ما فى نفسى ، وخجلت مما اطَّلع عليه من شأنى . وكانت أشعة الشمس الفضية وهى تتناثر من غصون الشجر قد نبهت فى مخيلتى أشعة مثلها من حسن تلك الحسناء . ولكنى على ذلك رأيت أن أتثبت فقلت لمرل : أحسبك مجنوناً فما فكرت فيها قط

ولكنه نظر إلى خجلى نظرة كانت رداً . فسألته بعد هنيهة وقد أغفى قليلاً : كيف أنت الآن وتلك الحالة ؟ قال : كما هى

قلت : فيحسن بك أن تطالع أفكار هؤلاء الحمالين فقد رأيتهم يتناجون فيما بينهم وأحسب لهم شأناً . فحدق النظر فى الحمالين ثم شخص بصره لا يطْرف ، وقال بصوت برد له الدم فى عروقى : إنهم يأتمرون بنا ليقتلونا

فتناهضت فزعاً فأمسك بى وقال : لا ينبغى أن يعرفوا أننا اطلعنا على سرهم . قلت أواثق أنت مما تقول ؟

قال : كوثوقى من تفكيرك فى تلك الحسناء

* * *

ثم استفاق مرل من تلك الغشية فتلون وجهه ورجع النبض إلى حالته الطبيعية وزال ما اعتراه من لدغة الأبرص فتنهد تنهداً طويلاً ثم قال : عجيب أن يفكر هؤلاء الشياطين فى قتلنا . فأجبته وأنا أتكلف الضحك : عجيب حقاً ولكن ترى كيف يقتالوننا ؟

قال : لا أدرى فقد انجابت عنى تلك الغشية ؛ ولقد كنت أرى كل شىء واضحاً بيننا ؛ وكانت عينى فى طويتك فعلمت علمك حتى ما وسوست به من أنك عند رجوعك الى سنغافورة ....

قلت : حسبك فلقد كان ذلك ولكن الذى بنا الآن هو أن نعرف ما ذا يريد بنا الحمالون ؟

* * *

جلسنا أمام الأبرص وهو يرمقنا بعينيه وأفضنا فى أمر تلك الخارقة العجيبة وتعليلها فانتهينا الى أنها كغيرها من ممكنات العلم ، وهى ليست أعجب من تلك المادة التى جربها علماء أمريكا فى المجرمين فأخذتهم عن وعيهم حتى أقروا وهم لا يشعرون ،

وسكت ظاهر الرجل منهم وتكلم باطنه . إن هذه المادة تبطل عمل الكتمان كالخمر ....

ولما كانت حواس الانسان تسجل الأشياء عادة من تلقاء نفسها بارادته وبغير ارادته ، فى وعى وبغير وعى ، فان سم هذا الأبرص يهيج ولا شك قوة التسجيل هذه الى وقت محدود ، وينشط العقل الباطن فيصفو المخ وينكشف له كل ما سجلته الحواس . فلا جرم كانت حواس مرل قد سجلت أشياء كثيرة فيما يختص بهؤلاء الحمالين ، ولكن طمس عليها انشغال مخه بأشياء أخرى

ثم قلت : أما أنا فأعتقد أن هذا السم يهيج القوى الباطنة فيكشف للانسان ما تسجله طبيعته الحيوانية ، فهو يجعل الروح الغريزية فوق العقل . وعلى كل حال فلسنا الآن فى السم والسام ولكن فى التنبه للحمالين هذه الليلة

* * *

كانت الليلة مُلْتَحِجَّةً بظلامها سواد على سواد ؛ وكانت السماء ضريرة النجم ، والغابة ساكنة كأنها تتوقع أمراً فهى تحبس أنفاسها ، والحيوان كله صامت كأنما يتربص كلٌّ لكلٍّ .

فجعلنا نتناوب الليل ، أحرس وقتاً ويحرس مرل وقتاً فلما كنت فى نوبتى شعرت بدخول الحمالين .. لم أسمع لهم حساً فان جريان الدم فى أذنى ربما عاقهما عن ارهاف السمع . ولكن دلنى عليهم اقشعرار بدنى ونفور الشعيرات الدقيقة الحس ؛ فمددت يدى وأيقظت مرل

وكان أحد الحمالين فى زحفه على الأرض قد مسَّ رماد النار وهى كابية تحته ، فانبعثت منه آهة لم يتمكن من ردها . وفى هذه اللحظة هجم علينا ثلاثة الحمالين هجوم رجل واحد ، فتلقيناهم بالرصاص فقتلنا منهم اثنين وفر الثالث

وفى صبيحة تلك الليلة حملنا القليل من حشراتنا والضرورى من المتاع والزاد ويممنا شطر النهر . وقال مرل وهو يحمل ذلك الأبرص العجيب : هل تعتقد يا كرمهوت أن فى الامكان قراءة أفكار أى الناس ممن نعرف ومن لا نعرف ؟

قلت : كلا بل الذين تعرفهم دون غيرهم فسكت ونكس بصره كالمفكر ومشينا حتى إذا توقدت الشمس فى الظهيرة ولفح الهواء جلسنا لطعامنا وتروحنا ساعة ، ثم حزمنا أمتعتنا ، وبينما كنت أتفقدها سمعت مرل يصرخ وهو قابض على الأبرص بيديه ؛ فقلت ويحك ماذا تصنع ! قال : ليست هذه غلطتى ولكن الحيوان قد ندَّ فأمسكته

ونظرت فرأيته قد انكفأ لونه ثم اعتراه ما اعتراه من قبل ثم شع فى عينيه ذلك البريق الغريب ، قلت : هل لدغك مرة أخرى ؟ فأومأ أن نعم ؛ فانتزعت الأبرص وألقيته فى صندوقه

ولم أكن فطنت لما أراد مرل من سؤاله فارتعدت من هول الحقيقة التى ظهرت لى ؛ فهو قد استلدغ الأبرص هذه المرة ليطلع من بعيد على أفكار شخص يعرفه حق المعرفة ، ولكنه لم يفكر فيه بالأمس ... وكنا على عشرين ميلاً من النهر ولم نجد ظهراً ولا إنساناً يحمل عنا فاذا هو صانع إذا اطلع على ريبة .. فى تلك الأفكار المخبوءة وراء العينين الجميلتين ... عينى زوجته التى تركها مبذولة الخدر فى سنغافوره ... ؟

ولم ألبث إلا يسيراً حتى رأيته قد وثب قائماً وهو يرجف ويضطرب ، ومر يعدو نحو النهر

فناديته : أمتعتك يا مرل ؟ فاستدار ينظر إلىّ بعينىّ مجنون فى وجه قاتل ، وصاح بى : ماذا تريد ؟

قلت : خذ عنى أمتعتك أو احمل على الأقل هذه الحشرات

قال : ليأخذك الشيطان أنت وحشراتك . ثم طار على وجهه فى الغابة ، فأسرعت أحمل ما خفّ ومعى الأبرص ، وجعلت أعدو خلفه وهو منطلق يصيح ويلعن جميع النساء من ذوات العيون الزرق ...

* * *

الحرّ شديد كاللظى ، والأبخرة الخانقة تتنفس من جوف الغابة ، والنبات المتعلق يلتف بساقىّ ، فيجاذبنى وأجاذبه ، ودود العلق يتزاحف على جسمى ويندس بين ثيابى ، والذباب يتناولنى بلسعه ، والعرق يتحدّر من جبينى فيكاد يُغشى على بصرى وأنا فى ذلك أعدو أشدّ العدو لألحق بالرجل . فبعد لأْىٍ أدركت أثره وسمعت حسيسه فجعلت أصيح به أن يقف أو يتمهل وهو لا يلتفت إلىّ ولا يسمع إلا صوت دمه يريد أن يغسل شرفه بالدم ، فقد اطلع على أفكار زوجته التى تركها وحدها ! واستمر هذا منى ومنه إلى الليل فكدت أجن مثله ...

* * *

أقبلتْ علىّ الأمانى والأحلام ، فتوهمتُنى أصبحت من أهل الثراء ، ثم من ذوى الملايين إذ أبيع « لدغات الكشف » بالثمن الغالى لكل زوج غيور ... ورأيتنى فى قصرى الجميل أملك ما أملك وأنفق ما أنفق وأنال ما أنال وسوف وسوف ... حقاً لقد كنت مجنوناً مثل صاحبى فان الحرارة والأبخرة ودود العلق والذباب قد ملأت رأسى ضباباً ...

وأظلم الليل وبلغنا النهر ، وكنت أخشى أن يقذف مرل نفسه فيه ليعبره سباحة إلى بنجارون وفى النهر التماسيح ... غير أنه ثبت على الشاطىء فأدركته فاذا هو ممزق الثياب أشعث أغبر منتفخ الوجه مخدّش الأديم كأنه وحش فى إنسان .

فأعطيته ما يتبلّغ به وسقيته جرعة من الكحول ، وسألته أن ينام ، ولكن أبى له النوم وقد رأى ما رأى من أمر زوجته ... وخشيت إن أنا نمت أو غفلت أن يسلبنى الأبرص وفيه ثروتى وأحلامى وشهرتى التى تملأ الدنيا . فحطمتُ أعصابى فى مدافعة النوم وبت هالكا تعباً وسهراً وخشية ، وعلينا الظلام بهمومه ، وحولنا الأفاعى بسمومها . . وأطرق مرل لا يتكلم إذ كان فى نفسه كلام آخر

ووردت علىّ الأحلام بعد الأحلام ، فاذا أنا قد نمت آخر الليل وصرعتنى الحمى

ولما سطع الفجر أبصرنا زورقا فلوّح لهم مرل ، فلما دنا منا صرخ فى النوتية أن يحملوه ، فراعهم منظره المخيف وحسبوه قاتلا قد جنى الجناية ويريد الفرار فترددوا هنيهة ، ثم قبلوا بعد أن شرط لهم حكمهم فى الأجر

ومسح الصبح على وجهى بنسيمه البارد فرد إلىّ عقلى فتناسيت أحلامى وجعلت أتلطف بمرل وأديره عن خواطره ؛ وأوهمته أن سم الأبرص قد هاج فيه مثل الحمّى بهذيانها وليس له أن يقطع باليقين فى مثل هذه الحالة . ولكنه كان فى أشد اليقين كأنما رأى رأى العين

ولما بلغنا فُرضة النهر كانت الباخرة الهولندية المسافرة إلى سنغافوره قد تحركت ، فصرخ مرل بصوت كالرعد يأمر ربانها أن يقف كأن له عليه حق الأمر ، فأدار الربان ظهره ولم يعبأ به ، فلم تكن إلا طرفة العين حتى نضا ما بقى عليه من الثياب ثم

رمى بنفسه فى الماء وجعل يسبح إلى الباخرة والتماسيح تتجه إليه وتدنو منه ، وقد ضجّ الناس وصاحوا وأجلبوا ، وكنت أتوقع بين الثانية والثانية أن يكون قد غاص به تمساح ، ولكن يظهر أن وجهه الوحشيّ وجسمه الضخم المخدش قد جعلا منه حيواناً يخيف التماسيح ... فكانت تحوم حوله ولا تناله . ورقّ له الربان ، فأمر بالقاء الحبال فاجتذبه البحارة ، فلما صار على الباخرة هتف بى أن ادفع ما شرطنا لأصحاب الزورق ولك وحدك هذه الحشرة الملعونة ...

***

وسكت محدثى ، فقد رأينا على بعض الأشجار القريبة من المنزل قرداً أذقن يضرب أنثاه ومن حولها اصطفت جماعة القردة كالنظارة وقد خلّوا بين الزوجين ، وكان القرد الهرم يضربها ضرباً مبرحا على رأسها وهى تصرخ وتتلوى من الألم ؛ فلما طال ذلك وثب قردٌ فتى فدخل بينهما يريد حماية الأنثى فانقض عليه الآخر وأقبل يطارده من شجرة ألى شجرة حتى غابا جميعاً عن الأبصار

ثم تابع كرمهوت حديثه فقال : لم أر مرسل بعد ذلك اليوم غير أنى لقيت ربان الباخرة الهولندية بعد أوبته فسألته عن خبره فقال :

أئنك لأنت الذى بعث إلى بهذا المجنون القاتل ؟ فقلت : المجنون القاتل . . . ! قال : نعم لقد كان مجنوناً وأوشك أن يصير قاتلاً ، فانه ما وطئت قدماه الأرض حتى هرول فى لباسه البحرى القديم الذى أعرناه إياه فاستقلّ عربة الى داره فلم يجد بها زوجته ، فاستدلّ الجيران فانبأه أحدهم أنه واجدها إذا شاء فى منزل عيّنه ، وهو من تلك المنازل التى تتخذ للفجور . فجن جنونه وطار الى ذلك المأوى ، وتعلق بفروع النبات المتسلقة على جدرانه حتى بلغ الى النافذة ، فأطل منها ، وكان قد استعار مسدساً من أحد أصدقائه فى الطريق فصوّبه وأطلقه ثلاثا ثم هبط الى الأرض واختفى

وجاء الشرطة فاقتحموا المكان ، فاذا بزوجة مرسل مضرجة بدمائها وفى كتفها رصاصتان ، وقد اختبأ تحت السرير شاب أسمر اللون مرت الرصاصة الثالثة على صدره فخدشته ولم تؤذه . فنقلوا المرأة الجريح الى المستشفى وأطلقوا صاحبها

***

وسكت محدثى مرة أخرى لينظر الى القرد الأذقن ، وكان قد رجع من مطاردة غريمه وأخذ يهمهم لأنثاه بصوت يأمر وينهى ، وهى فى ذلك تطأطىء رأسها مذعنة . . فقطعت عليه وقلت له :

وماذا فعلت بالأرص بعد ذلك ؟

فطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقال :

مكثت فى بنجرمازان ثلاثة أشهر جمعت فيها أنواعا أخرى من الحشرات ، ثم أخذنى الحنين الى وطنى امستردام وإلى أطعمتها الشهية والجعة اللذيذة التى عُرفت بها . فجمعت أمتعتى ووضعت الأرص فى صندوق اتخذته له وكنت قد كتبت عنه وعن خواصه فى المجلات العلمية الأوربية ، ونشرت له صورا عدة ، فاشتغل العلماء بالحديث عنه فى برلين ولندن وڤينا وغيرها وباتوا يرتقبون أوبتى

وَرَسَت الباخرة الى مرسيليا ، فتحاشيت طوال الرحلة الاختلاط بالمسافرين ، إذ سئمت معاشرة الناس ؛ بيد أن رجلاً من الظرفاء كان قد عاش طويلا فى أنقرة مع امرأته الفرنسية جعل يتسبب لمعرفتى حتى اتصلت الأسباب بينى وبينه ،

فتجاذبنا الحديث وكان رجلاً واسع العلم فذاكرني وذاكرته ، وقد أولع بأبحاثى وقرأ مقالاتى الأخيرة وكان يعرف شيئا كثيرا عن الثعابين ، ودرس العنكبوت دراسة خاصة

وأفضى بنا الحديث يوما الى ذلك الأبرص وخواصه العجيبة ، فقصصت عليه قصة مرل فقال لولا أنك ممن يعتقد قوله لعددتها من الأكاذيب . ثم جعل يعنى به أكثر منى ، فكان يمضى الساعات الطوال فى الاشراف عليه وتأمله ومراقبة حركاته

* * *

وصرنا على مسافة يوم من مدينة عدن ، فاشتدت فى الليل وطأة الحر ، فتركت حجرتى وصعدت الى ظهر الباخرة واستلقيت تحت النجوم ونمت ملء عينىّ ، فأنى لأغطّ فى نومى إذ نبهنى طلق نارى أعقبه صياح ، وصرخ أحد البحارة : أن قد وقع رجل فى الماء . فاتأدت الباخرة وأنزلوا قاربا من قوارب النجاة الى البحر ، ولكنهم لم يعثروا على جثة صديقى . . . نعم صديقى فقد انتحر غرقا بعد أن قتل أحد المسافرين الذين ركبوا من سنغافورة ، إذ رآه خارجا من مقصورة زوجته فرماه بالرصاص

لم يطب لى البقاء على ظهر الباخرة فانحدرت الى مقصورتى وما كدت أفتح بابها حتى رأيت منظراً جمدتُ له فى موضعى ، فقد كان صندوق الأبرص مفتوحا ملقى على السرير ، ورأيته وهو يدب على اللحاف . . . فأدركت حينئذ من الذى أخرجه من صندوقه . . . وأغلقت الباب وخففتُ لمقابلة الربان فأصبته فى حجرة القتيل ومعه الطبيب يفحصان أوراقه . وما كدت أنظر حتى شُدهت ، إذ لمحت بين الأوراق صورة جميلة لزوجة مرل ! فالتفت نحوى الربان وقال : هل تعرف هذا الرجل ؟

قلت : كلا . بل أعرف هذه السيدة

ثم قصصت عليه كل ما وقع . وكان الرجل الذى قُتل فى الباخرة هو ذاته ذلك الذى أفسد زوجة مرل . وقد عثرنا بين أوراقه على رسائل منها تدعوه فيها أن يلحق بها فى انجلترا . فمثّل الدور نفسه فى الباخرة مع زوجة صديقى الآخر . . . وكان الأبرص هو الذى كشفه أيضا هذه المرة

ولما علموا علم هذا الحيوان العجيب نزلوا معى الى مقصورتى . وحرك الطبيب شفتيه بكلمات لم أفهمها ، وفجأة انتزع مروحة من سعف النخل كانت على الحائط ومدها نحو السرير فاقتنص الحيوان فيها وقذف به من الكوة الى البحر

وجرى كل ذلك فى مثل طرفة العين ، فلم أملك غير الصيحة وانتفضتُ من الغضب ورميت بنفسى على الطبيب أريد خنقه ، فحال بينى وبينه الربان ، وجعلت أرعد من الغيظ ، والربان يتلطف بى ويهدّىء منى ، ويزعم أن الطبيب ما أهلك الأبرص ولكن أهلك الشر

وانقطعت فى مقصورتى ، وقد خابت جميع آمالى ، فلا مال ولا شهرة ولا علم ولا كرامة ، ولن أجد بعد اليوم حيوانا من هذا النوع النادر كلا ، لن أجد . . .

* * *

اتكأ كرمهوت برأسه على كرسيه ثم أغمض عينيه بعد أن انتهى من القصة واسترسل فى خياله

أما أنا فجعلت أفكر فيما صنع الطبيب . . . لقد حرم العلماءَ شيئا من الزيادة فى العلم ، ولكنها بعينها زيادة فى الشر . . . !

أما والله لو تكاشفَ الناس بالحقائق لقتلتهم الحقائق .

محمد الرافعى

الهارب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

— ١ —

دخل «سعيد الميداني» على مدير دار الكتب — حين أذن له — وهو يحي وينشر الجريدة التي كانت مطوية تحت إبطه وقال وهو يقدمها له :

« هل قرأت هذا يا بك ؟ . . إن الحملة واضحة التلفيق ، ولهذا جئت وفي مرجوي أن أظفر منك ببيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب ولم يكتم ضجره وهو يقول : « تفضل . تفضل . إن كل ما يعني رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون — كل ما يطلبون — فيها وأن يهتدوا اليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت ؛ ومتى كان هذا حاصلاً فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول غيرها ؛ وهذا حسبي وحسبك بيانا . فاذا قنعت به فذاك ، وإلا فأمري إلى الله فما أستطيع أن أضيع وقتي في الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم وضع بين صفحتين فيه قلماً أحمر غليظاً ، وكان ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به ؛ بل لقد خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر ، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية ومن أنشطهم وأشدهم إقبالاً على التحصيل والاطلاع ونزوعا إلى الاستقلال والعمل الحر ، وخال فيه صاحب جريدة «الأحوال» الخير من لحاته ، وآنس الرشد من أعماله ، فألحقه بمساعديه الكثيرين ، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصي الحقائق

ورأى المدير أن سعيداً ينظر إلى الكتاب الذي بين يديه فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال : « على فكرة ... هل عندكم في « الأحوال » ملفات خاصة بتراجم المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمراً فقال : « متى أسست جريدة الأحوال .؟ »

فقال سعيد « بعد الحرب العظمى ... سنة ١٩١٩ — أو ١٩٢٠ »

فقال المدير : « إذن لا فائدة ... »

فقال سعيد « هل تسمح لي أن أسأل ما هي الحكاية لعلي أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة أنها مسألة غريبة ... كنت أمس أقرأ كتابا لعبد القادر التميمي وهو كاتب مصري وشاعر أيضاً وإن كان شعره قد ضاع باهماله أو على الأصح لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأي الناس فيه ، وقد كان مشهوراً منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ، ولا يدري أحد أهو حي فيرجى أم ميت فيبكى .... وقد رجعت اليوم إلى المستدرك (وأشار بيده إلى الكتاب الذي بين يديه) وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الأعلام للزركلي ، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر ذلك وليس فيها تاريخ لوفاته ؛ والمفهوم من هذا بداهة أنه كان حياً حينما صدر الجزء الرابع من

أعلامه — أعنى المستدرك — ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته إذا كان قد مات ولكنه كان حينئذ خليقاً أن يذكر تاريخاً تقريبياً لوفاته على عادته . لهذا أرجح أن الرجل كان حياً وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل ... فهل هو لا يزال حياً ؟ أم تراه مات ؟ وأين ؟ هـذه هى المسألة ... ولست أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى ولكن أدر المسألة فى خاطرك عسى أن تهتدى إلى شىء فتخبرنى ... إذا سمحت ولك الشكر »

ونهض واقفاً إيذاناً بانتهاء المقابلة . ولكن سعيداً كان مطرقا وكان يفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير يقف فعاد ذاك إلى مقعده على مهل ، وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئاً يستحق أن يصغى اليه . وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف :

« عبد القادر التميمى ؟ أى نعم ! أذكر هذا الاسم ... وإن كنت لم أقرأ له شيئاً ... قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ... وسمعت من أستاذنا فى الجامعة أن الناس فى عصره كانوا فى حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لا يعرف له جداً من هزل ... وكان يتهكم بكل شىء ... كل شىء حتى نفسه ... وكان أسلوبه جديداً فى بابه فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه ولكنهم أخفقوا فأقصروا ... »

وهنا تململ المدير فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل وإنما كانت حاجته إلى من يدله عليه وعلى مكان قبره

ومضى سعيد فى كلامه غير عابىء بضجر المدير فقال : « نعم ... وأذكر أن أستاذنا قال : إنه رحل عن مصر وخلف أسرته بها وترك لها كل ما جمع من مال ، وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك ولكن من المحقق أنه لم يمت وإن كانت أخباره قد انقطعت ... نعم أذكر هذا ... »

فقال المدير : « أواثق أنت من ذلك ؟ »

قال سعيد : « كل الثقة ... ولكن أين هو ؟ لا يدرى أحد »

قال المدير : ولكنه — إذا كان لا يزال حياً — لا بد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين ... انتظر ... ولد ... ولد ... نعم ... سنة ١٨٥٠ فهو الآن فى السادسة والثمانين من عمره ... هل تظن ؟. ولكن ... السادسة والثمانين ؟ ... يالله !... أنظن ؟... إنى لا أكاد أصدق ... لقد كان معروفا عنه أنه مسرف فى إنفاق حياته ... لا يبالى أعاش أم مات ... فكيف يمكن ...؟ »

فقال سعيد : « مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرون »

فقال المدير وهو شارد : ربما ... ربما ... ولكن ٨٦ سنة ؟... هذا عمر !... هذا ... »

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير وقال : « سأعنى بالبحث . وإذا وقفت إلى شىء فسأخبرك »

فناوله المدير يده وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦ سنة ؟ أما لو كان حياً ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

— ٢ —

مضى شهران على هـذا الحديث لم يسمع فى خلالهما كلمة من سعيد ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصى — عبثا — فأقصر يائساً وصرف

نفسه آسفاً عن عبد القادر التميمى . وكان جميل بك — أو إذا شئت اسمه كاملا جميل بك أحمد القناوى — مخلصا عطوفا رقيق القلب وقد شق عليه جداً أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحواً من أربعين سنة فتنساه الدنيا التى كان يسرها ويملؤها حبوراً وجذلا ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف ... أهو حى أم تراه مات ... وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة انسانيـة لأنه لم يكن يشك فى أن اختفاء هـذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكليتين ... وهو مع ذلك الذى يرفه بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويغذيها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والنور كما تفعل الشمس . ولم يسعه إلا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لا يكاد يختفى فيه شىء فى هذا العصر ؛ ورجح عنده لهذا أن الرجل لا بد أن يكون قد لقى حتفه فى أول مراحل هجرته — إذا صح أن تسمى هجرة — ولا يبعـد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته ، وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن حيثما اتفق بالاسم الجـديد الذى تنكر به .. وهز جميل بك كتفه ومط شفتيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « إيه ! لا حول ولا قوة إلا بالله »

وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتلفون يدق الى جانبه فتناول السماعة متثاقلاً وقال : « نعم » ولـكنه ما عتم أن اعتدل فى جلسته وصاح : « إيه ؟ . ماذا تقول ؟ »

ولـكن الذى خاطبـه اكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعة وقام يتمشى بسرعة ويشـعل سيجارة ويضعها فى الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع فى الطبق أربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعاً . وإنه ليهم باشعال الخامسة وإذا بالخادم — فقد كان فى بيته — ينبئه أن « سعيد أفندى الميدانى » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « أدخله..أدخله » ويسبقه هو إلى الباب

ويدخل سعيد أفندى ويده فى يد جميل بك وهو يقول : « نعم وجدته ... فى غرفة فى ربع قديم فى أعتق أحياء هذه المدينة ... أو هو من أعتقها ... »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد أفندى : « أوه ... هذه حكاية طويلة ... وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم أنى وجدته ... ويمكننى أن أقول لك إنى استعنت بابنـه وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة ولـكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة ... هل تعلم أن ابنـه أحيل على المعاش منذ سنتين وأن له حفيدة تزوجت وولدت بنتاً . . ؟ »

فيقول جميل بك : « ليس عجيباً أن يعتقـد ابنه أن أباه مات وشبع موتاً ... ولـكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك إن هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « إنما أعنى كيف حاله ؟ »

فيقول سـعيد : « حاله ... وما ذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعدته شيخوخته العالية عن العمل ؟ . فقر وضعف وعمش ... حال لا يعلم بها إلا الله »

« ولـكن كيف يعيش . . ؟ »

« كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون حقيقته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى ... أليس اسماً غريباً ؟. إن اختياره له يشى بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال . . . لقد أدهشنى منه أنه لا يزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه فى الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة ... ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه »

فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف ... ولكنه أبى أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يحمل نفسه حملة عليه وخشى أن يأنف ابنه من الانتساب إليه إذا وقف على حاله الزرية »

« وهل قابل ابنه ؟ »

« بالطبع ... وقال له حين رآه ... من يصدق أنك ابنى ! إنى أبدو أصغر منك على كل حال . عكنك دائماً أن تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة ، فما أشك فى أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى . وأحسب أن بعثى الآن قد خيب أملك فى ... كذلك قال لابنه ... مدهش أن ذهنه لا يزال حافظاً لقوته ... قال لابنه فى جملة ما قال إنى لما كبرت كنت أقول لو عاش أبى لما عاشرته لأنى أستنكف أن أكون فرعاً وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه ... ولكن ذهنه يشرد أحياناً فيخلط فلا تفهم كلامه لأنه يكر راجعاً فى كلامه إلى ذكرياته الطويلة فى حياته الحافلة من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة فتحس أنك تهت وضللت طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذياناً بل كر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار ... ولما قلت له إنك تبحث عنه ضحك وقال : هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف ... وقال عن كتبه لما عرض ذكرها أن خيرها ما لم يكتبه ... ولا تزال أسنانه باقية . وقد قال لى إن متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب فى بقائه حياً الى الآن ... ولما قلت له إن من واجبه أن يملى مذكراته على بعضهم صاح بى : « أعوذ بالله يا شيخ ! حرام عليك .. اتق الله فى يا بنى »

فسأل جميل بك : « وما ذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

« أوه كل شىء ... قال لى إنه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب . وأن كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما يثقل على نفسه جداً أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره ، فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط بالزوار ، ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفيهم من الاخوان ويأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد — لسبب خارج عن ارادته بل ضد ارادته — انه يعيش كما يعيش الناس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ؛ وقد كبر فى ظنه أنه سيظل حياته هكذا ؛ ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقييد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا — يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحرية ؛ فكره هذه الحرية الظاهرية ومل السخط على نفسه

فود لو أنه مقيد حقيقة بارادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحى باللائمة على هذه الارادة الخارجيـة ويجعلها غرضاً لذمه وطعنه . ولهـذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبيه للملاحة وركب على بواخرها البحار وأقام في الموانئ منـدوباً لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلاً تجارياً يجوب المـدن ويذرع الأرض داعياً مرغباً ، ثم انقلب مدرساً للغة العربية فى بلاد الأفغان حتى أقعـدته الشيخوخة ولم تقعده فى الحقيقة ، ولـكن الناس كانوا يرون أن سنه علت فهم يزهدون فيـه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سناً ؛ وكان قدجمع مالاً فى رحلاته الـكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد ، الى مصر فدخلها ومعـه نحو تسمين جنيهاً قال لى وهو يضحك انه حدث نفســه أنه ينبغى أن يموت بعد أن تنفد فما له رزق سواها ، ولـكنه كان يخرج ويتردد على المـكاتب التجارية فأنس به أصحابها وأدركوا أنه عالم وأن فى وسعهم أن يستغلوه فكان يضبط لهم الـكتب القديمة التى يعيـدون طبعها ؛ وساعده ذلك على اطالة عمره ، فقد أغناه ذلك عن الانفاق من رأس ماله أو ما بقى منـه ، ومعنى ذلك عنـده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرته أو قلته يكون ما بقى له فى الدنيا من السنين .. فهل رأيت أعجب من هذا؟ »

فأطرق جميـل بك شيئاً فشيئاً ثم رفع رأسه وقال : « لاشك أن الأمر عجيب ، ولـكن ألم يأخذه ابنه بعد أن اهتدى اليه ؟ ... »

فقال سعيد : « أوه .. إن الرجل شاذ كما تعرف ، وقد أبى كل الأباء أن يذهب إلى بيت ابنه لأن هذا خليق أن يحدث فى رأيه اضطرابا لا داعى له فى حياة ابنه . . وقد أطال النظر إلى البـذلة الأنيقة التى يلبسها ابنه ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيط الذى يرتديه هو ، وأشار بيده المعروقة إلى الثوبين وقال : « لا لا لا لا . . دعنى لشأنى فانه غير شأنك » ولم يزد بعد ذلك على الابتسام كلما ألح عليه ابنه فى القيام معه . . .

فقال جميل بك : « والآن ألا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذى كشفنا عنه ؟ ... إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقعوا على حجر قديم أفلا ينبغى أن ننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حياً وإن كان محسوباً فى أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سعيد : « بالطبع نستطيع . . يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً فى أكبر الفنادق ندعو إليه رجال الأدب والعلم والفنون والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقـدم إليهم صاحبنا ... غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بانجاح الحفلة . . »

فهز جميل بك رأسه وقال : « لاشك .. ولـكن صاحبنا لا يبالى هـذا . . ولا فائدة له منه على كل حال . . وأنا أخشى إذا دعونا إلى الاكتتاب أن لا نفوز بشىء يستحق الذكر فنكون قد أهنـا الرجل بلا داع . . ثم من يدرى ؟ فقد يأبى هـذا وذاك . . »

فقال سعيد وهو ينهض : « أقول لك . . دع هذا لى . . والله الموفق »

— ٣ —

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمى يبرح بيته ، وكان يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينه عنها . ولم

يكن يرى شيئاً فى الحقيقة إلا أشكال المبانى القريبة وذلك لضعف بصره ، ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئاً ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر وإنما كان يحدق كالذاهل ، وكانت أسارير وجهه المتجعد تنبسط أو تعمق الأخاديد التى حفرها الزمن فيخيل إلى الناظر إليه أن هـذا وقع ما يشاهده ، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك ونقيضه فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدير عينه فى قلبه أى فى ماضيه فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة فى دار من دور السينما . وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحياناً مرتين — فى اليوم ويصغى إليه أكثر الوقت وهو يهضب ويسح بذكرياته التى لا آخر لها . وقال له مرة :

« ما رأيك يا أستاذ ؟ . إن خبر عودتك قد شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك »

فقال بإيجاز : « فليتلهفوا »

فقال سعيد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا إليك فى النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل إلى صدهم »

فتجهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن يمنعوا ... إن المكان لا يليق . . ما العمل ؟ . أشر ... »

قال : « اسمع منى وأطعنى ... خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة »

قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك ؟ . هـذا مستحيل »

قال : « كلا ... الضرورة تفتق الحيلة ... وقد رأى المحبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضاً ... فنفرغ من الأمر كله فى ساعة »

قال : « ساعة ؟ . يا حفيظ ... »

قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم وكل ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك ... فكر ... »

قال : « صدقت ... ولكن ... حفلة ؟ ... حفلة ؟ ... إن هذا صعب ... »

قال : « لماذا ؟ . أين الصعوبة ؟ . ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم ننصرف جميعاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال : « ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى ... إنى أستطيع أن أعيش ... دعنى أنظر ... »

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب ، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفاً على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك فقد كان ابنه — على بك — فقـد صار بيكا — عبد القادر التميمى — فى حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه ، فانه — أى على بك — رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع أيضاً ، وليس يليق أن يكون أبوه — أى أبو على بك — هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى ربع عتيق — أو جديد إذا أمكن أن يكون هناك ربع جديد — وقد استطاع أن يرجىء لقاء بنيه ونسيبه لهـذا الأب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب ، فقد زعم لهم أن العثور عليه

أو الاهتداء إليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها اتقاء أزعاجه إلى حين ، ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ولا سبيل إلى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع ، فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة ثم يظهر بعد أربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على إخفاء مسكن الرجل ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك ، ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معذورة اذا هي استرابت فى الأمر كله . أضف الى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق ؛ وقد كانت فكرة الحفلة هى التى أعانت جميل بك على اقناع الصحف بالصبر والانتظار وجعلت الموضوع شيقاً وخليقاً أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الأمر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ... ؟ لهذا لجأ الى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولا دون الفضيحة التى يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها . فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ظهر يوم الحفلة بعد أن يلبسوه بذلة الى بيت ابنه ومن هنالك يذهبون به الى الحفلة فى المساء

— ٤ —

وجاء يوم الاحتفال فذهب اليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه إياها فأبى واستكبر وغضب أيضاً ، وقال إنه ليست به حاجة الى ثياب ولا الى أحد من الناس ، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان ، وإنه ماعيب ثيابه على كل حال ؟ . أليس قد قابل بها الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وإيران ؟ فاذا كانت لا تكفى هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه ، فانه يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ماجاء به من الثياب على مشجب ويقول لهم إن هذا مايطلبون وهو كل مايستحقون أن يروا

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها بل فاه بما هو أعنف ، وكان صوته متهدجا ، وكلامه متقطعاً ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب ، وأسنانه تصطك ، فلم يجد سعيد بداً من السكوت والكف عن الألحاح عليه بعد أن وضحت له قلة جدواه ، وسأل الله فى سره الستر والسلامة فى هذه الليلة

وخرجا من الغرفة — سعيد فى ثيابه الأفرنجية التى يلبسها الأفندية من أمثاله ، والأستاذ التميمى فى جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل ، فكأنه « مركوب أبى القاسم » وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لفة كانت فى الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء فى مركبة وتركها تنتظر فى الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة — هذا ينط على السلم ، وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك عدة مرات ، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التى دخل فيها هذه الحارة ، ويفرقع بصوته ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون الى رأس أمرهم ، حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون ويُضوّضُون ، والسائق يلوّح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج الى الطريق العام

ولا نطيل . ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها ، وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل ، وأشدهم قلقا واضطرابا ، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عليه سعيد أفندى أن يُفلج فراح يحاور الأستاذ التميمى ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله ، ولكن الرجل كان جبلا لا يتزعزع، ولما قال : « أنا كما أنا . . فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلا به وإلا فانى أرجع الى غرفتى ، فما طلبت أن أجىء ولا أردت أن يعزف ابنى أو سواه أنى على قيد الحياة

« امسك سعيد أفندى وأقصر » وكانت الحفلة فى فندق من أكبر فنادق المدينة وفى أوسع قاعاتها ، وقد دعى اليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعد . وجاء غير المدعوين — أو المشتركين — كثيرون وقفوا بحيث يرون الداخلين ؛ واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذى بعث بعد أربعين سنة ، والذى دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره فى القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية

ثم أقبل أحد الشبان يعدو وقال : « جاء الأستاذ » فساد السكون وانقطع حتى الهمس ، وتعلقت الأنفاس ، واشرأبت الأعناق ، واتجهت العيون الى الباب لرؤية هذا الذى كأنما قام من القبر . ودخل الأستاذ فى الثياب التى أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندى ، وأقبل ابنه وراءهم ، ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات ، وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذى الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللامعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه فآلى ليرجعن الى غرفته . وعرض جميل بك المدعوين على الأستاذ بأسمائهم فصافحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه ، وإن كانوا جميعا قد ترفقوا به ، وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأديرت ألوان الطعام فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه ما اسمه وكيف يصنع ، ولا يتناول إلا بقدر . وكان المدعوون فى أول الأمر يحدجونه بعيونهم ويُتبِرُونه النظر ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا الى الطعام والحديث . ولكل شىء آخر . — انتهى الأكل ، وبدأت الخطب والقصائد ، والأستاذ مطرق كأنه يصغى ، وكان يهز رأسه من حين الى حين كمن سره شىء — أو ما يسمع

وانتهى هذا أيضا على طوله ، فهمس جميل بك فى أذن الأستاذ : « ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم ؟ »

فقال الأستاذ مستغربا : « أنا ؟ ... أقول كلمة ؟ أرد على ماذا ؟ ... إنى ... الحقيقة أنى لم أكن مصغياً . . لم يكن بالى اليهم »

فذعر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — ، وقال : « ولكن يا أستاذ لابد من كلمة . لانستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغياً الى كلامهم ... أرجو ياأستاذ ... كلمة شكر قصيرة ... القليل منك كثير »

فهز الأستاذ كتفه وقال « إن هذا غريب !! لقد كنت أفكر فى ... ليلة قضيتها فى كهف ...

فقال جميل بك مقاطعا : « فيما بعـد ... بعد الحفلة نسمع ما كنت تفكر فيه ... لا بد أنه كان شيئاً غريبا ... ولكن الآن ... أرجو يا أستاذ »

فالتفت اليـه وقال : « ما ذا قلت أنهم كانوا يقولون ؟ إنى لم أكن مصغياً »

فقال جميـل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك المـديدة ويصفون ما فيها ... كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف... نهايته ... لابد من الرد فاصنع معروفا »

وكان سعيد — حلال المعضلات — قد أدرك وهو فى مكانه أن فى الأمر شيئاً ، فخف إلى جميل فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ وهمس فى أذنه : « إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا مخدوعون وأنك لست الأستاذ التميمى وإنما أنت رجل غيره ينتحل اسمه فقم قل كلمة وإلا . . »

ولم يتمها ، فقد نهض الأسـتاذ معبسا ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب وشفته تختلج وكفاه لا تثبتان على المائدة التى وقف معتمداً عليها ، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح فى أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها إلى السكون ويحاول أن يضبط أعصابه ، ويفىء بها إلى الاتزان ، ثم فتح فمه وقال بصوت خافت :

« أيها السادة » وسكت شيئاً وثبت حملاقه ، فكأنه تمثال نصب فى مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف ، ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم فى صراحة سرت فريقاً وساءت آخرين إنه وجد بالتجربة الطويلة أن من العسير أن يهرب المرء فى هذه الدنيا من الناس — ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص — المخلصين والمتكلفين والذين يظلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك . . . كلا لا سبيل إلى الهرب . . . وطالب الفرار لابد له من الجرى الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعو إليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه ، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب فى هذا الزمان الذى امتد به العمر إليـه ... وكيف يهرب الانسان ؟ . إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيـه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل ... ومن أى مكان يهرب ؟ إن الهرب الصحيح مستحيل ... وقد يستطيع المرء أن يعيش فى الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة . . والهرب من الزمان أصعب . . . نعم يتوهم المرء أنه يعيش لا فى الحاضر بل فى المستقبل والمستقبل ، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون ، ويذهب يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغى أن تكون « إنى أؤكد لكم أنى أعرف هـــذا ، فقد فعلته — أعنى توهمته — وعشت فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بمـا سيكون » وقال لهم : إن هذا كله عبث فى عبث ، وأكد لهم أنه لا مسوغ على الاطلاق لأن يفترض الانسان أن للجنس الانسانى مستقبلاً — هذا أولاً — وثانياً أن ما نسعى له ونلح فى طلبه أو نتمنيـه قد يكون مستحيل التحقيق . وهب تحقيقه ميسوراً فقد يتبين أنه ليس

مما يسيغه أو يرتاح إليه أو يرضى به الجنس الانسانى . وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟ ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التى لا تزول ولا تتغير ممكنة ألا يستفظعها الانسان ويفرق من تحقيقها ؟ على أن التفكير فى المستقبل والسعى له لايمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده ... وهنالك مهرب آخر ، إذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال ، ولكن اللجوء إلى الخيال لا ينفى الحقائق المحيطة بالانسان ... وانتهى الى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون فى الحياة ، وهذا لا يعد مهرباً لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بادراكه . إنه استطاع الهرب ، ولو كان هذا مهرباً حقيقياً للجأ إليه . وابتسم وقال إنه يرجو ألا يلجئوه الى هذا الذى ليس مهرباً ...

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقى من التكريم من أجلها ، فقال : انه واثق أن أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه ولم يكونوا يعلمون أن له كتباً ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده . وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ، ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره إلا بالمجاملة ، وهى شىء حسن فى ذاته ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته ؛ وهو ليس من هذا الزمن فيحسن أن يرتد ويتراجع الى ما أخرجوه منه ، لأنه ليس إلا قطعة متخلفة من زمن سابق ، ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ...

وظل يهضب على هذا النحو الذى لم يكن منتظراً ولا كان فى حساب أحد ؛ وطال الأمر فمل الناس ، وأحس هو الهمس فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه ، أو أن يبغّضها اليهم ليتركوه بعد ذلك فى سلام ... ولم يطق البعض المقام ، أو طوله ، فتسلل خارجا وتبعه غيره وغيره ، حتى لم يبق إلا دون النصف .

ولكل شىء آخر ... عاد الأستاذ الى غرفته لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه ، فقد أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة

وفى الصباح جمع ثيابه وأشياءه وانتقل الى ربع آخر

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التى ظلت أياماً تدعو لها وتروج وفى صدر أكثرها خطبته التى عنى سعيد بتدوينها ؛ فلم يجد الأستاذ وأعياه أن يعرف أين ذهب ، فأسرع الى ابنه على بك يخبره ويسأله ما العمل ؟ فقال على بك وهو يرسل الدخان فى الهواء : « أظن أن الواجب أن نحترم إرادته ونعفيه من الأثقال عليه »

ابراهيم عبد القادر المازنى

قلب رجل

من القصص الإيطالي

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

سمع جوجليلمو رنين الجرس مؤذناً بدخول شخص ، كما سمع حديثاً فى البهو ، ولكنه لم يتحرك . ومن عسى أن يكون ذلك الشخص ؟ أهو صبى الصيدلى ؟ أهو الخباز ؟ أم هى الخادمة ...؟ إنه ليعرف تفاصيل حياته البسيطة المملولة معرفة خبرة ووثوق وهو فى حجرته العالية ، حجرة دراسته يسمع من الأصوات كل يوم مايستدل به على ما يجرى حوله من شؤون الحياة ؛ ولقد ألف تلك الأصوات الرتيبة ألفة تامة ، حتى إن ما حدث فى ذلك اليوم من أمور جديدة قد اتخذ فى ذهنه صورة ما ألف من قبل كأنه رآه بالأمس ، ولذلك لم يثر فى نفسه اهتماماً خاصاً . فهنالك الصيدلى مثلاً ، وهو رجل حديث مقدمه ولله الحمد فلا يدرى من الأمر شيئاً ، ولن يستطيع أن يحجز الأمور عن وجهتها . وراح صاحبنا يحدث نفسه : « ستأتى هنا بعد برهة السنيورا أكاردى ثم يأتى الطبيب ؛ وبعد ذلك يتزايد غمز الجرس فترة ، ثم فى ساعة أو ساعتين ينتهى كل شىء كأن لم يكن هناك شىء »

ولكى يهدهد لهفته ، فتح كتاباً وحول إليه بصره ، منصرفاً عن النظر إلى حديقته الصغيرة التى جدد الربيع خضرتها يومئذ ؛ وكانت حجرة دراسته كحياته محدودة متواضعة ، ولقد اتجه فكره وهو يقرأ إلى تلك الحياة

تزوج فى الخامسة والعشرين وهو الآن فى الثلاثين ... خمسة أعوام من الوجود الذى لا يميزه شىء ، خمسة أعوام لا هى إلى السعادة ولا هى إلى الشقاء ؛ لقد نجحت أمه فيما ذهبت إليه ، ولقد قعد هو لما جبل عليه من الكسل عن مقاومة أغراضها ، كما خذلت عزيمته فلم يستطع أن يتولى بنفسه شؤون نفسه ! وكان قليل الثقة بكفايته أو بمقدرته على تنفيذ شىء ، وراحت الأم تنصح له حينما رأته مقبلاً على مواجهة الحياة ؛ وكثيراً ما ابتدرته بقولها : اتخذ يابنى من (إيرن) زوجاً لك . إنها الزوجة التى خلقت لك ، بل إنها المرأة الوحيدة التى تستطيع أن تجعلها شريكة حياتك . نعم إنها ليست فارهة الجمال ولكنها جادة مجدة.... كذلك ليست بالثرية وإن لم تكن فقيرة ، وأظنك لا يمكن أن ترمى فى زواجك إلى المال . إنها ستحفظ لك بيتاً طيباً وتعنى بتربية أطفالك ؛ وماعسى أن تطلب فوق ذلك ؟ إن مما لا يحمد لك أن تشايع خيالك وأحلامك إلى ذلك الشىء الذى تسميه .... »

على أنه فى الواقع لم يشايع أحلاماً أو يساير خيالاً قط . وقد تزوج من إيرن ليرضى بذلك أمه . ثم أخذ يوطن نفسه على أن يألف هذا الضرب من السعادة التى أشارت إليها

ولكنها كانت سعادة فاترة مصفارّة كادية ؛ على أن أمه كانت تعلم حق العلم ماذا تعنى بقولها حينما أشارت الى الخيال والأحلام ، فكان حلم جوجليلمو هو ابنة عمته آن ، وقد تزوجت تلك العمة من رجل غنى من رجال الأعمال . وكان جو جليلمو يتردد على منزل عمته وهو غلام ، ولكنه حينما طر شاربه حالت بينه وبين ذهابه إلى حيث كانت تقيم آن

وساوس عمته ، وما كان بين المنزلين من فرق كبير في الثراء . نعم كان حلم جوجليلمو هو تلك الفتاة الجميلة الطويلة المشوقة القد التي ينبعث العطر دائما من ثيابها ، ذلك الحلم الذي جاهدت أمه في تبديده ... « وماذا كانت تنتظر آن من رجل مثله ؟ تتزوج منه !! يا إله الناس إنها تنظر الى ماهو أبعد من ذلك ... تحبه ؟ ألم يتبين أنها كانت أبداً تمتع نفسها دون أن تميره التفاتة أو تتجه لحظة بفكرها إليه ؟ »

وكانت تلك الكلمات كفيلة بالقضاء على حلمه الجميل . وهكذا تزوج من إيرين ؛ والآن بعد سنين من السعادة الهزيلة الفاترة ترى إيرين موشكة أن تنجب غلاما . ولم يقابل جوجليلمو ذلك أول الأمر بكثير من الحماس إذ رأى الزمن يأتي له بشخص آخر يحول بينه وبين الأحلام ، ولكنه أحس بقلبه يمتلىء بالغبطة كلما تصرمت الشهور . ولد ؟ وما الولد ! أليس هو الشيء الوحيد الذي يعلل وجودنا ؟ ثم إنه يرى فيه خير منحة بعد ما لاقاه في ماضي أيامه من أشجان وآلام ، وأحسن عوض عما فقد من الحب والسعادة

نهض من مكانه هذه المرة وترك حجرته وألقى نفسه في الممر ؛ وهناك سطعت في أنفه رائحة العقاقير المنبعثة من حجرة زوجته ؛ ولو أنه أنصت لسمع أنينها ، ولكن صوتاً قوياً هادئاً قطع عليه تيار فكره فجأة ... « هأنذا أتيت ، هأنذا » وكان ذلك هو الطبيب رفيق صباه الذي كثيراً ما تردد على منزله . كان بديناً مرحا مشبع الوجه من الحمرة . ولعل وظيفته هذه التي كانت تنحصر في إمداد الوجود بأنفس جديدة هي التي زادته حيوية ونشاطا

أتيت سريعاً على قدر ما استطعت ... ماحالها ؟ بخير ... هون عليك لا تضطرب ، لو كنت مكانك لخرجت من المنزل برهة أوجلست هادئا في حجرتي . سأعود إليك بعد ساعة أو ساعتين وأطلعك على جلية الأمر »

وابتسم الطبيب ثم دخل حجرة المريضة ورجع صاحبه الى حجرته . وقد فكر بعد برهة في الخروج من المنزل ، ولكن دافعا خفيا لم يتبينه ، دافعا مكونا من الخوف من جهة ، ومن توقع ما يسر من جهة أخرى ، أقعده عن الخروج ؛ فلبث في مكانه مفكرا ، ولكن أفكاره القديمة لم تلبث أن عاودته ؛ وكان عجبا أن تعاوده في الساعة التي يرى فيها وجوده يتصل بالمستقبل في حياة وليده المنتظر ، فتقذف به في أعماق الماضي خطوة بعد خطوة

وما كان الماضي غير آن ... آن دائما ... آن واسمها وذاتها وكل ما يمت بصلة اليها

لقد رآها مرات بعد زواجه ، ووجد أنها لم تتزوج حتى ذلك الوقت احتفاظاً بحريتها ، كما اعتاد أن يسمعها تقول ذلك ضاحكة . وهي الآن في السابعة والعشرين لا تزال كما عهدها من قبل مرحة مرهفة . وكانت تزور بيته بين حين وآخر حيث اتصلت أسباب المودة بينها وبين إيرين ؛ على أنها لم تكن تكثر من الحديث معه وكان قصارى ما تبديه نحوه من الملاطفة ابتسامة أواثنتين ، ثم تمد يدها اليه فتصافحه مصافحة الأصدقاء وتنطلق في سبيلها

وكان يعتقد جوجليلمو أن أمه أخطأت التقدير ،

اذ لم تكن آن كما اتضح له فى شىء مما تصورته من الزهو والكبرياء . ولكنها فى الحق لم تكن امرأة عاطفة

هل زاد عدد الناس فى الردهة ؟ لقد سمع جوجليلمو صوت شخص يكلم الخادمة فى همس . ولقد جمله هذا الصوت ينتفض فى مكانه ، ثم فتح باب حجرته وظهرت له رأس لطيف

« انها أنا يا جوجليلمو ، أتأذن لى بالدخول ؟

ونظر جوجليلمو الى القمطر فى اختلاجة غريبة لم يستطع اخفاءها ، وكأنما كان يحب أن يغيب أفكاره فى ذلك القمطر ، فلقد كانت اختلاجة عينه كاختلاجة من يُرى متلبسا بجريمة ! ولكن آن تقدمت نحوه فى هدوء وهَوْن

« لقد جئت لأسأل ما حال ايرين الآن »

وبدا على جوجليلمو أنه شارد اللب الى حد أنها نظرت اليه نظرة عطف قائلة :

«جوجليلمو أيها المسكين ماأراك الاحائرا... !»

ورد صاحبها مغمغما : « لا . فالطبيب عندها »

ولم تلبث أن التمعت فى رأسه فجأة أفكاره حول هذه الآنسة التى يراها الآن تظهر اهتمامها بأمر يمت بصلة الى الحب والحياة ، فزادته تلك الأفكار ارتباكا واختلس نظرة الى جسم آن البض الجميل ، ذلك الجسم الذى رآه قد هيئ أحسن تهيئة لحمل الأجنة

« إجلسى لدى برهة يا آن ... فانى أحمد لك مجيئك الساعة ! »

وسمعت لصوته نبرات غريبة ، وتغير تغيرا عجيبا كما تتغير الموسيقى بتغيير اللحن . ونظرت اليه آن فى دهش وظلت صامتة برهة ثم سألته :

« أأنت فى حاجة الى شىء ؟ هل أستطيع أن أجعل من وجودى فائدة لك ؟ »

وجاء دوره الآن ليجيب ، فان دائرة صمتهما قد اتسعت حتى تركتهما حائرين ؛ وخيل الى كليهما كأنه يستمع الى صوت الآخر ، وكأنما عادت اليهما ذكرى عبارات قيلت من قبل ولكنها نسيت الآن أو امتلأ بها الفكر ، ولكن لم يتحرك قط بها اللسان

وأخيراً قطع جوجليلمو هذا السكون فجأة بسؤال غريب ، ظهر أكثر غرابة لصدوره من شخص خجول مثله ؛ ولقد كان وقعه على آن كقبلة لم يحسن أداءها !

« أنت جميلة كاملة يا آن ... لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟ »

ولقد التهب خداها من الخجل ، بل لقد ظهر وجهها كله والجزء العارى من عنقها تحت الفراء مشبوب الحمرة ، ولكنها حاولت أن تبتسم لتخفى تلك السحابة التى أظلمت فى عينيها

« فيم تفكر الآن يا جوجليلمو ؟ لقد بقيت عذراء لأنه ... لأنى لم أجد أحداً يخطبنى ... »

وضحك جوجليلمو بدوره ضحكة من قلبه . لم تجدى أحدا ؟ ياعجبا ! إن وراءها من عشاق الشباب ما يفوق عددهم عدد من يتوددون الى جميع فتيات المدينة مجتمعات

« من أنبأك هذا ؟ »

« أنبأتنى به أمى »

« إن أمك لم تدر من أمر هذه المسألة شيئا ... ولكن إذا فلنقل إنى أقسمت قسما » وأخذت

آن تضحك ثانية ولـكنه كان ضحكا تخالطه الحيرة « قنيا ؟ ولـكننا حينما كنا صغيرين نلعب معاً كنت دائما ترين أن الشخص الآخر ... »

« ولـكن المرء يقسم بعد ذلك »

« ومتى كان قسمك ؟ »

« لا أذكر ذلك تماما ... وإنما أظنه منـذ خمسة أعوام أو ستة ... »

« حينما تزوجت أنا ... أتعنين ذلك ؟ »

وهنـا صمتت الفتاة ، وبدت عليها أمارات الارتباك وعضت على شفتيها ، إذ تبينت أن ما فاهت به هو الغباء بعينه

آه . نعم . أذكر أنك كنت مريضة تلك السنة ... ولم يكن يعلم أحد ما حقيقة الأمر . . . أذكر ذلك — كنت وإيرين فى سويسرا . . . وسمعت بذلك بعد حين ... « فهل » وتساءل باسماً « فهل كان عزمك وقسمك يومئذ ؟ »

« إلى اللقـاء يا جوجليلمو ... إنى ذاهبـة وسأجىء ثانية ... أرجو أن تدعونى « بالتليفون » وتخبرنى ما يكون من أمر ايرين »

« نعم سأخبرك . ألا تصافحيننى ؟ »

« ها هى ذى يدى إذاً »

مدت اليـه يدها فهزها مطيلا ذلك على غير إرادته . ما ذاك ؟ لم كانت يدها هكذا ترتعد ؟ ولما شد عليهـا بعد ذلك أكثر خيل إليـه وقد خالجه شعور مباغت كما لو أنها أسلمت نفسها اليـه منهزمة ...

ألفى نفسه وحيداً ، ولـكن العجب والرعب استوليا عليه مما جرؤ على قوله أوالتفكير فيه ، وخيل اليه كأنه يرى الواقع شاخصاً أمامه يسأله : « ألا تفهم » ؟

لا . إنه لم يفهم . لقد أسلم قياده بالأمس ورضى أن يقوده ضلال أمه . وهكـذا ألفى نفسه على شفا منحـدر لم يجد بداً من النزول الى قراره . والآن يرى المـاضى فى ضوئه الحقيقى . ويرى الآن أنه حينما كان يكثر من الذهاب ليرى آن كان وجهها يتهلل بشراً وفرحاً ، وأنه حينما كان يغيب عنها كانت ترى مكتئبة لذلك . وأعقب ذلك مرضها ؛ ثم توالت السنون التى أغفل فيها أمرها ، فلم تر بداً من أن ترفض فى عناد أن تتزوج من غيره . . . . ولـكن لم ظلت ساكتة لا تخبره عن شىء ؟ أكان فى ذلك جرح لـكبريائها ؛ أم هل كانت تخشى المذلة لا . إنها لم تفكر فى شىء من هذا ..

والآن ؟ هـذا البوح المباغت ... واحمرار وجهها من الخجل ... ويدها المرتعدة ... ألا إنها لا تزال تحبـه ... وحدثته نفسه قائلة « لا ليس هذا ممكناً » ولـكن قلبه كان ينبض بين جنبيه بما يؤكد الغريزة . كانـ ذلك كذلك ؛ كان ذلك كذلك ...

وبينا هو كذلك إذ دوت فى أرجاء المنزل صرخة ألم قطعت عليه تيار أفكاره وأعادته ثانية الى حقائق الحياة ، الى الواقع الذى لا يشوبه خيال ؛ فى تلك اللحظة أوشك أن يولد له غلام ، وهو قطعة منه تمتد بها حياته فى سجل الوجود وتتصل بالمستقبل ، فعجب كيف يحزن على ما فاته من سـعادة الحب بينما هو مقبل على رؤية ابن له . وأى سرور أعظم من أن يرى المرء فلذة من كبـده بين يديه ؟ ولـكن آن ... آن

الجيلة الساحرة ؟ إن طيفها يملأ ناظريه ، وسحرها يشيع في نفسه . يا له من موقف ! إنه يرى نفسه بين سعادتين : سعادة أفلتت منه وصارت من تراث الماضي وذكرياته ، وسعادة توشك أن تحيط به ، فيمتلئ قلبه بهجة . ولكن ... ولكن ألا يمكن أن يكون منهما مزيج فتكمل احداهما الأخرى ؟

نادى الطبيب جوجليلمو ووقف أمامه مصفاراً مضطربا ، وقفز جوجليلمو متسائلاً في لهفة !

« ماذا حدث ؟ هل في الأمر شيء ! أجبني ! »

« نعم ، يؤلمني أن أجيبك أن الخطر محدق بها فلقد طرأت مضاعفات من حيث لا أدري ، ولكن لا يزال هناك أمل ، أمل يتلخص فيما تستطيع الجراحة أن تفعل . لقد رأيت الواجب يقضي على أن أخبرك ... »

تحير جوجليلمو وفكر في زوجه ، تلك المرأة المسكينة التي تجود بحياتها في عذاب وألم ، وأردف الطبيب قائلا :

« هل لك أن تجيبني عما أسألك عنه ؟ إن ضميرك هو الذي يريك الآن ماذا يجب أن تفعل إذا كان لا يمكنني إلا إنقاذ أحدهما : الأم أو الوليد . فمن تختار ؟ »

«ماذا؟» «ماذا تقول ؟» هكذاراح جوجليلمو يتساءل صارخا وعلى وجهه صفرة كصفرة الموت

فقال الطبيب : « تلك هي الحقيقة ، فلايستطيع العلم أن ينجي الاثنين معاً ؛ فاما الأم وإما الوليد . فكر برهة ثم أخبرني ... »

« نظر جوجليلمو نظرة فرأى حياته الجديدة جلية أمامه ، تلك الحياة التي ساقها اليه القدر : ولد هو أمله في الحياة وغايته من الوجود ، ثم آن وهي سعادة قلبه من الحب . سيتغير كل شيء وسيتجدد كل شيء . نعم سيحل محل تلك السعادة الهزيلة الفاترة سعادة رائعة ناضرة ، سعادة تحقق كل ما تصبو نفسه إليه . إذا ماتت إيرين فسيتخذ آن زوجا له . ليس أمامه إلا أن يختار الآن . ومن ذا يلومه ؟ أليس يسير وفق قوانين الحياة ، وما تقتضيه غريزة النوع الانساني ؟

وصاح جوجليلمو متأوهاً : « يا إله السماء ! »

وحدثه قلبه ملحاً : « انك لا تحب زوجك . وإذا بقيت فسوف تمضي السنون وأنت تعيش مع امرأة لا ترى للحياة معنى إلى جانبها . فكر مرة ثانية كيف فقدت المرأة الأخرى ... وكيف كان ذلك نتيجة جهلك وضعفك ... هيا .... هيا كلمتان ... انطق ... أترى الأمر هكذا صعباً ؟ انطق أيها الأحمق الغبي وقل : « نج الوليد »

ولكنه رفع رأسه ، وعلى وجهه صفرة مخيفة ووجه الخطاب إلى الطبيب قائلا في ثبات :

« نج الأم »

الخفيف

لينورا

قصة مروعة من أساطير القصص الشعرى

للكاتب الألمانى برجر

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

هذا ضرب من القصص الشعرى ، تدار موضوعاته على الأسطورة العجيبة أو الواقعة الرائعة ، ويجرى نظمه على نسق من التقطيع والترديد ، فيزيدان المعانى والصور قوة على قوة من التعميق والتوكيد

والشعراء الالمان فى هذا المجال لا يسبقهم سابق ، ولا يلحق بهم لاحق . فلهم فيه وحدهم قصب السبق وفضل التبريز

وهذه القطعة من أروع الأمثلة فى هذا الباب ، ولا يدانيها غير أمثالها فى شعر جوتة وشيلر ، ولها شهرة كبرى فى الأدب العالمى ، وقد ترجمت إلى كل اللغات عدة مرات ، وأوحت إلى أعلام الرسامين بدائع اللوحات ، ولكبار الموسيقيين أقوى الألحان

في مطلع الفجر هبت « لينورا » آبقة من أحلام مزعجة ، وهى تسائل نفسها : « ولهلم ، يا زوجى ! أترى صرعك الردى ونفذ فيك سهم القضاء ، أومال بك الهوى فخنت ميثاقى وأخفرت عهدى ؟ أترى تطول غيبتك إلى أبعد من هذا ! »

فانه فى ليلة العرس نفسها ارتحل الزوج فى ركاب الملك فردريك إلى ميدان القتال عند مدينة براغ ، ولم يطالعها بخبر عن صحته من ذلك الحين

ولكن الخصمين الملك والأمبراطورة تولاهما الكلال من هذه المعارك الدامية ، وسكنت ثائرتهما رويداً ، وفى آخر الأمر عقدا الصلح . وارتد كلا الجيشين عائدين إلى الأوطان بين نفخ الأبواق ورنات الصنوج ، متوجين بالأكاليل من أوراق الشجر الناضرة

وماجت الطرقات والجسور من كل حدب بأفواج لا ينقطع فيضها من الشباب والشيب يهرعون إلى لقياهم ، وكم هتف أبناء وزوجات عند رؤية عائلهم : أن الحمد لله . وترامت كل خطيبة بين ذراعى خطيبها تغمغم : مرحباً بك ! إلا « لينورا »

— وا أسفاه ! فقد انتظرت طويلاً فى غير طائل قبلة اللقاء . فجعلت تجوس الصفوف طرداً وعكساً فى كل ناحية ، وتسائل العائدين ، فما نقع أحد غلتها بنبأ عن زوجها المحبوب . . . وهاهم أولاء قد انصرفوا . فارتمت على الأرض تمزق شعرها وتتمرغ مشدوهة هاذية

فبادرت أمها إليها : « لك الله ! ماذا دهاك يا بنيتى المسكينة ؟ » وضمتها إلى صدرها

— آه يا أماه ، يا أماه ، لقد مات ! مات ! عفاءً على الدنيا وعلى كل شىء . لا رحمة عند الله . يا للويل ! يا ويلتاه !

— كان الله فى عونك وعفا عنك ! يا بنيتى ، إضرعى إلى رب السموات . الخير فيما يفعله . ولن يمنع عنا غوثه

— آه يا أماه ، يا أماه ! إنك واهمة . إن الله تخلى عنى . وهل أغنى ما أسلفت من صلوات ! فماذا هى مغنية اليوم عنى ؟

— اللهم رحماك ! من يعرف الله معرفة اليقين يوقن أنه لا يتخلى عن عباده . وإن سر القربان المقدس ماسح عنك أوجاعك كلها باذنه

— آه يا أماه ! أنى لقربان أن يرد الحياة إلى الموتى . . ؟

— مهلاً يا بنيتي . فما يدريك ؟ لعله خان ودك وعقد أواصر الألفة بفتاة غيرك فانسيه ، وأعرضي عن ذكره . هلمي ! لن يحسن الله عقباه . وسيكون مثواه جهنم وبئس المصير

— آه ، يا أماه ، يا أماه ، من مات فقد مات . ومن فقدناه فقد فقدناه أبد الدهر . فلم يبق لي غير الردى مورداً . ليتني لم أولد ولم أك شيئاً ! يا شعلة حياتي انطفئي ، انطفئي في ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

— اللهم رحماك ! لا تحاسب ابنتي على ما فرط منها . إنها لا تعي ما تقول . فلا تحصه عليها ذنوباً وآثاماً . وأنت يابنيتي ، تناسي هموم الأرض واذكري الله ونعيم السماء . فما يزال زوج في السموات

— آه يا أماه ، ما النعيم ؟ يا أماه ، ما الجحيم ؟ النعيم حيثما كان ولهلم ، والجحيم حيث لا يكون . انطفئي يا شعلة حياتي في ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسني !

وهكذا كانت سورة اليأس الجامح تمزق قلبها وتفرى روحها . فهي تقدح في العناية الآلهية وتنعى عليها . وما زال هذا حالها ، تدق صدرها تفجعاً وارتياعاً ، وتقلب كفيها توجعاً والتياعاً ، إلى أن جنحت الشمس للمغيب ، ودلفت النجوم الزواهر في قبة الفلك

ولكن ... أي حس هذا في جنح الليل خارج المنزل ؟ طَقْ ! طق ! طق ! لكأنه وقع سنابك جواد ... ثم كأن فارساً يترجل عنه فتسمع صلصلة سلاحه ... وهو ذا يصعد درج السلم ... صه ، صه ... الجرس يرن رنيناً رفيقاً ... ثم صوت رفيق يقول من خلل الباب :

— هيا ! هيا ! إفتحي ياصبيتي الحسناء ! أساهرة أنت أم نائمة ؟ ومستغرقة في فرحة أم شرقة بالدموع ؟

— ماذا ! ولهلم ! أهو أنت ؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ! لقد كنتُ ساهرة أبكي ... وا أسفاه ! شد ما تألمت ... ومن أين أنت آت راكباً جوادك ؟

— نحن لا نمتطي الجواد إلا في منتصف الليل . وإني قادم من أقاصي بوهيميا . وهذا علة وصولي إليك متأخراً لأمضي بك معي

— ولكن ، يا ولهلم ! ألا تدخل هنا أولاً ، فأنني أسمع الريح تصفر في الغابة ...

— دعي الريح تصفر في الغابة ياصبيتي الحسناء . فماذا يعنينا من صفير الريح . إن جوادي يفحص الأرض بحوافره ، والمهماز يرن في شاكلتيه ؛ وليس في الامكان بقائي هنا . هيا البسي نعلك يا لينورا ، وتعالي اركبي رديفتي على صهوة الجواد ، فأن أمامنا مائة فرسخ نقطعها قبل أن نبلغ إلى مقرنا

— وا أسفاه ! كيف تريد أن نقطع الليلة مائة فرسخ لنبلغ إلى مقرنا ؟ إسمع ، هذه دقات الناقوس تؤذن أيضاً بانتصاف الليل

— واهاً ! واهاً ! القمر مشرقٌ وضاح ... وما أسرعنا في السرى نحن الأشباح . وإني أراهن أن سأصل بك الليلة

— خبرني إذاً أين مقرك ، وكيف فراش عرسك ؟

— بعيد . جد بعيد من هنا ... ساكن ، رطب ، ضيق ، يتكون من ستة ألواح كبار واثنين أصغر حجماً

— وهل فيه متسع لي ؟

— لنا معاً ؛ فتعالي يا لينورا . إركبي رديفتي على صهوة الجواد ؛ فان وليمة العرس مهيأة ، والمدعوون في انتظارنا

فلبست الصبية نعلها ، وبادرت بالخروج ، وقفزت على رداف الجواد ، ولفت ذراعين لها في بياض السوسن حول الفارس الذي تحبه ؛ وانطلق

الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً . ودوى وقع سنابكه . وكان الجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ! وما أشد قعقعة الجسور تحتهما !

— أخائفة أنت يا حبيبتى ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ، كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— لا ... ولكن مالك وللموتى ؟ دعهم فى سلام ... ترى ما هذه الضوضاء وهذه الأناشيد ؟ والى أين تتجه تلك الأسراب من الغربان ، صه! ... هاتيك دقات ناقوس ، وهذه أناشيد جنازة

— إنه ميت عندنا يراد دفنه

واقتربت الجنازة وتعالت الأناشيد مرددة الأصداء كالنقيق الأجشّ فى جنبات المغايض والمستنقعات

— عليكم بعد منتصف الليل أن تدفنوا الجثة مشيعة بالنواح والأناشيد المعولة . أما انا فذاهب بزوجتى ، وإنى أدعوكم جميعاً الى وليمة العرس . تعال أيها المرتل ، أنت وفرقتك . تقدموا واصدحوا بترنيمة الزفاف . وأنت أيها الكاهن لتبارك زواجنا

عندئذ انقطع النواح والأناشيد ... واختفى النعش ، وسار مشيعو الجنازة وراء العروسين تلبية للدعوة ... مرحى ! مرحى ! إنهم ليلاحقون الجواد عن كثب . وانطلق الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً ، ودوى وقع سنابكه ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ، وما أسرع تطاير القرى والدساكر والمدن !

— أخائفة أنت يا حبيبتى ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— أواه ، مالك وللموتى ؟ دعهم فى سلام

— أنظرى ! أنظرى ! أترين الى جانب هاتيك المشانق أشباحاً تتحرك وهى فى رقة الهواء بفضضها نور القمر ويبديها للعيان ؟ انها ترقص حول عجلة التعذيب . إيه أيها الأنجاس المناكيد ! تعالوا اتبعونى ولترقصوا فى حفلة عرسى ... إننا ذاهبون إلى وليمة العرس الزاهرة

فاندفع الرهط كله وراءهم ، ولتدافعه مثل خشخشة الريح فى الورق الجاف ، وانطلق الجواد ينهب الأرض نهباً ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير كل شىء ، كل ما يجلوه ضوء القمر من حولهم ! ... ما أسرع انسياب السماء والنجوم من فوق رؤوسهم !

— أخائفة أنت يا حبيبتى ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح ...

— آه يا ربى ! مالك والموتى ، دعهم فى سلام

— تجلد يا جوادى الأسحم ! كأنى بالديك يصيح مؤذناً بوشك انبلاج النور ، وعما قليل تكون الساعة الرملية قد أفرغت ما فيها ... انى لأحس نسمات الصباح ... الوحَى الوحَى ياجوادى ! ... لقد أشرفنا ، لقد أشرفنا على غاية رحلتنا ... سينكشف لك فراش عرسنا ... ما أسرع الأشباح ... لقد وصلنا

واندفع — مطلقاً العنان لجواده — الى باب حديدى كبير ، وقرعه بعذبة سوطه قرعة خفيفة فانفضّت المزاليج وانفتح الباب على مصراعيه يصرّ صريراً . وانطلق الجواد كالشهاب حاملاً



يوميات نائب فى الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

[تابع ما نشر فى العدد الماضى]

١٢ أكتوبر ...

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سياراتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالى ببابها مكدسين كالذباب . وكان مساعدى قد خر إلى جوارى صريع السكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب الى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأترفقن به فى أول عهـده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف ،



وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله ، وحييت المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ؛ ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذى يعود إلى القاهرة . ومهما زادت

صاحبه بين قبور متكاثرة تتبدى تحت ضوء القمر فى كل ناحية

هنا ، يا للهول ! وقعت فى التو واللحظة آيةٌ مرعبة : تساقطت عباءة الفارس إرباً إرباً كالعهن المحروق . ولم تبق من هامته إلا جمجمة معروقة ؛ وحال جسمه هيكلا عظمياً محتقباً ساعةً رملية ومعتقلاً منجلا

وشبّ الجواد الأسحم حنقاً ونفث شرراً . وعلى حين بغتة ساخ وغاب فى أعماق الأرض ؛

وتصوّبت من أجزاء الفضاء صيحاتٌ وصيحات ؛ وتصعّدت من القبور تحت أطباق الثرى أنات وأنات

فخفق قلب لينورا خفقةً انتقلت بها من الحياة إلى الموت

فتحلّقت الأرواح تحت ضوء القمر حولها ، ورقصوا وهم ينشدون : « الصبر ! الصبر ! مهما هاض الألم قلبك وصدع كبدك ، فلا تعيبى فى حق رب السموات أبداً . ها أنت ذى قد أسلمت جسمك عفا الله عن نفسك »

عبد الرحمن صدقى

القضايا وبلغ عددها فان هـذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجـل ذو وسواس ، وهو بعـد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطىء فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ؛ ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هـذا الريف ؛ وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقنى جلسته مر العذاب ، فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى علىّ أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكا طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلـهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصـد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدرى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع

* * *

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فاذا أمامنا سبعون مخالفـة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : إن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفـة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالمـا تبرم هـذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدرى العـلة . فكنت أقول فى نفسى : « إرفع أسـعارك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان افندى المحضر رجل مسن أبيض الشـعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاظم فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر النـاهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولـكن فى مد وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت ياشعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله أكل عيش »

« ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق ؛ فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للماثل بين يديه :

—أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة

— يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه ، ولا مؤاخذة ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة طهور الولد

— غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى

بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقد ملأوا المقاعد و « الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات... فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهمونى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة .! وحملق فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفطن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلا نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد ، فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ! تحكم على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة

— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جوابا . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلىّ وقال :

— النيابة ..

— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون !. فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :

— غرامة عشرين !. غيره

فنادى المحضر اسم امرأة ، فحضرت مومس ريفية قد زججت حاجبيها بعود ثقاب ، وطلت وجنتيها بذلك الأحمر الفاقع الذى تطلى به صناديق الدخان ، « السمسون ».وصورت بالوشم صورة قلب يخترقه سهم على ذراعها العارية ، ووضعت فى معصمها أساور و«غوايش» من المعدن ومن الزجاج الملون . فنظر إليها القاضى وقال :

— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك

فوضعت يدها فى خصرها وصاحت :

— هو يا روحى مَن وقف قدام باب بيته كفر ؟ !

— وقوفك فيه اغراء للجمهور

— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضى عمرنا ما وقعت عيننا على جمهور ، ولا مر من قدام منزلنا « ادلعدى » جمهور

— غرامة عشرين ... غيره

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما ان مثل حتى ابتدره القاضى :

— انت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع :

— عشنـا وشفنا الـكلاب تتسجل « زى الأطيان » وتبق لها حيثية !

— غرامة عشرين ... غيره

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هـذا النحو ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليـه أن يؤمن بحقيقة ما ارتكب . إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها ، لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ! ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنح » ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت ابراهيم الجرف . فظهرت فلاحة عجوز تدب فى القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . فوجهها الى القاضى فوقفت تنظر اليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت الى الوقوف بين يدى المحضر الهرم . وسألها القاضى ووجهه فى الورق :

— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد

قالتها وكأنها توجه الخطاب الى المحضر فغمزها قزمان أفندى ووجهها الى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى :

— صنعتك ؟

— صنفتى حرمة

— انت متهمة انك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة

فتركت المنصة ووجهت الـكلام الى المحضر

— وحياة هيبتك وشيبتك إنى ماعبت أبداً . أنا حلفت ووقع منى يمين أن البنيـة ما يقل مهرها عن العشرين بنتو ...

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر اليها صائحاً :

— تعالى كلمينى هنا ، أنا القاضى ، العضة حصلت منك ؟ قولى نعم أو لا ، كلمة واحدة

— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لـكن كله إلا العض

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر الجنى عليه وقد لف بنصره فى رباط صحى ، فسأله القاضى عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

— أنا يا حضرة القاضى لا لى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة ومافيها إنى كنت واسطة خير وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيـه القاضى وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلاً : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى « ست أبوها » خطبها فلاح يدعى « السيد حريشـة » وعرض مهرا قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبـل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد الى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صـغير يطلق عليه اسم « الزنجر » فذهب من تلقاء نفسه الى أهل العروس وأبلغهم كذبا أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع الى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد

الطعام يهيأ ويقدم الى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة ، يا شماتة الأعادى ! والنبي ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام الى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده الى الأوزة وجعل ينهش منها نهشا دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ؛ فصرخ صرخة داوية . وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعا وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين ... » والتفت الىّ قائلا : « يا حضرة وكيل النيابة . أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ ؟ » فجعلت أتذكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من أولها »

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنفى وتثاءبت وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى ، ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصيح بى : « النيابة ! طلبات النيابة . » ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير ظلب النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فاذا الاصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامية » الوسطى للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى الى العجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالعضة فى نظرها هى ما زالت العضة ، فما الذى حولها من جنحة الى جناية ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين

ونوديت القضية التالية فاذا هى شجار بالهراوات وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتدا صارخا فى وجوههم : « جمل » ؟ بنى تخرج بنتى على جمل ! أبداً . لابد من « الكومبيل »

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدال الى رفع العصى وإسالة بعض قطرات من الدماء لامناص منها فى مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين فى الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التى تمر بالطرق الزراعية . وحكم القاضى فى هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرح » و « الدخلة »

على خير ! ... غيره !

فنادى المحضر بصوته الممتلىء « قضايا المحابيس » وذكر اسماً من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفنـدى ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم » « فقلت فى نفسى » تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ماشاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عينى منذ الآن فرأسى أحوج ما يكون الى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت «وابور غاز» ...

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لـكن لا سرقت ولا نهبت ...

فالتفت القاضى الى المحضر قائلا : « هات الشاهد » فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفيّة » ، فحلف اليمين وقال انه أشعـل «وابور الغاز» ليهيىء الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال ريفى صغير يبيع السكر والبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحيانا بعض الناس كأنهم فى شـبه مقهى ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخـل يحضر الابريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر . وفجأة نظر الىّ وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فما تمالـكت أن صحت فى ضيق : « سبحان الله ! ! أنا سمعت الشاهد حلف » فقال لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقنى فهمست : « تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى الى بقيـة الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز » بناره ؟ !

فأسكته القاضى بأشارة من يده قائلا :

— تســـألنى أنا ؟ ! أنا عمرى ما اشتغلت «حرامى!» . ونظر الى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق به وابور .. والقضية ملفقة من ألفها الى يائها ... » وأراد المحامى ان ينطلق فى هذا الـكلام وأن يصول ويجول . ولـكن القاضى قاطعه :

— حلمك يا استاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام باب الدكان ! فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى

فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا لى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنمـا يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا يعى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس

(يتبع) توفيق الحكيم

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

[تابع ما نشر فى العدد الماضى]

وكانت عوامل ثلاثة تتنازع عواطف الشبيبة حينذاك : ماض منقض لم يزل يرتجف ظله على الأطلال حيث ثوت قوات الأثرة وعصور العنف ، ومستقبل منفرج الأفق بعيد المجال لا يلوح منه غير أوائل ذرات النور ، ومدى بين هذين الحدين أشبه بالمحيط الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد : مدى مضطرب كالبحر الزاخر تتلاعب به العواصف فيهدد بالغرق كل ما يحمل ولا يلوح عليه إلا بعض البواخر الجريئة تجتازه صاخبة من حين الى حين

فى مثل هذه المفاوز كان على أبناء العصر أن يهتدوا ؛ وتلك هى المشاهد التى كانت تنتصب أمام فتيان ملء إهابهم العزم والقوة ، وهم أبناء الامبراطورية وأحفاد الثورة . أما الماضى فما كانوا ليرتضوا به ، وما يتحكم الانسان فى عقيدته ، ولكنهم عشقوا المستقبل عشقاً شبيهاً بشغف بيكماليون عاهل صور القديمة بشبح فاتنة من عالم الجن ، فكان المستقبل فى بصيرتهم كدمية من رخام هاموا بها فباتوا يتوقعون تورد عروقها بدم الحياة . وهكذا لم يكن لهؤلاء الفتيان إلا زمانهم تسوده روح العصر ، ملاك غسق لا ينفصل عن النهار ولا يتصل



بالليل ، وقد شهدوا هذا الملاك مقتعداً كومة من العظام متلفعاً برداء أنانيته ، وأعضاؤه ترتجف من لفحات الصقيع

فشعروا بغصة الموت عند ما لاح لهم هذا الشبح نصفه مومياء ونصفه جنين ، فاقتربوا منه والروع يملأ قلوبهم كما يقترب السائح من مومياء ابنة أحد أشراف سارفاندان فى ستراسبورغ حيث تعرض محنطة بحلى خطبتها . وما يتمالك من يشاهد هيكل هذه الطفلة من الارتعاش وقد تحلت يدها المتقعة بخاتم العرس وانتثر رماد رأسها على أزاهر الليمون البيضاء

وكان نابليون بمروره على العالم قد زعزع كل ما فيه ، كالعاصفة تجتاح الغابات فتهز باسقات أدواحها وتغادرها واجمة فى صمت رهيب . وكان الملوك قد شعروا بتيجانهم تميد فمدوا اليها أيديهم فلم تعثر إلا على شعورهم وقد وقفها الذعر على رؤوسهم

وكان بابا رومة قد قطع ثلاثمائة فرسخ ليبارك الامبراطور ويضع التــاج على مفرقه ، فلم يتورع هذا الامبراطور من اختطاف التاج من يده

وهكذا كان كل شيء قد ارتعش في غابة أوربا القديمة المروعة ، وعقب السكون هذه العاصفة الهوجاء

يقال : إذا ما صادف السائر كلباً هائجاً فتابع السير برباطة جأش وبخطوات متزنة دون تردد ، لا يلبث الــكلب أن ينبح بهدير مختنق ثم ينصرف ؛ ولــكن إذا بدرت من عابر الطريق بادرة تدل على خوفه فأخل بانتظام خطواته مسرعاً بخطوة واحدة فان الــكلب يتأثره مستأسداً ، وإذا ما نشب فيــه أنيابه فانه لا يقف حتى يفترسه

لقد رأت أوروبا أكثر من ملك ظهرت منه بادرة الخوف في تاريخها أمام شــعبه فذهب فريسة لهذا الشعب ، ولــكن مثل هذه الــكارثة لم تــكن تقع على الملوك جملة في آن واحد ، لذلك سقط الملوك على التتالي ولم تسقط الجلالة الملــكية . ولــكن أمام نابوليون ارتعشت الجلالة الملــكية نفسها ، فبدرت منها البادرة التي تؤدي الى الهلاك . وما ارتعشت جلالة الملك وحدها حينذاك بل ارتعش معها الدين والشرف وكل سلطة إلــهية وبشرية

ولما مات نابليون استعادت السلطات الآلــهية والبشرية روعها ، ولــكنها لم تجد في الشعب من يعتقد بها بعد

إن في معرفة ما يمكن أن يقع لخطراً ، لأن الفكر يتجاوز الأمكان بافتراضاته ؛ وليس القول بامكان وقوع أمر كالقول إنه وقع فعلا ، وما التأكد إلا أول عضة للــكلب المستأسد

لم يكن نابوليون الماثل إلا آخر شرارة من نار الاستبداد ، فقد أعدم الملوك لينسج على منوالهم ففعل بهم ما فعله فولتير بالــكتب المقدسة

وسمعت الدنيا بعد ذلك ضجة هائلة ، هي صوت صخرة القديسة هيلانة تســقط على العالم القديم .

ولاحت نجمة التفكير في السماء بأشعتها الباردة كوشاح آلهة الليل فغمرت بها الدنيا كأنها الــكفن المروع

وكانت أوربا قد رأت من قبل عدداً وفيراً ممن يمقتون الأشراف ويتهددون الــكهنة ويتآمرون على الملوك ، ولــكنها ما عرفت ابتسامة الاحتقار قبل أن مر الامبراطور وتوارى عن العيان ، فــكان إذا اخترق الجمع شريف أو كاهن أو عاهل يهز الفلاحون رؤوسهم متذكرين ما شهدوا من معارك ويقولون : لقد نظرناهم في غير هذا الزمن وفي غير هذا المــكان وقد كانت وجوههم على غير ما نراه اليوم

وإذا ما ذكر أحد العروش والهيا كل كانوا يقولون : إنهــا عوارض من خشب سمرناها نحن ثم اقتلعناها

وحينما كان الخطباء يقولون : لقد رجعت عن غوايتك أيها الشعب ، فدعوت إليــك ملوكك وكهنتك ، كان الشعب يجيب قائلاً : « نحن لم ندعهم ، وما دعاهم إلا هؤلاء المتشدقون »

وإذا قيل للشعب : (عد إلى الطاعة والسكون ، افلح الأرض واخضع) كان الشعب ينتفض وتتحرك السيوف في أغمادها وقد علاها الصدأ في زوايا الأكواخ

ولــكن الخطباء كانوا يضيفون إلى كل هــذا قولهم : (عد إلى السكون أيها الشعب فقد أضناك الجهاد بلا جدوى ، ولا تطلب الاعتداء وليس من يعتدي عليك)

فــكان الشعب يرتضي بهذا القول ؛ أما الشبيبة فما كانت لترضى به

لاريب في أن الانسان تتنازعه قوتان مجهولتان

تصليان داخله حرباً عواناً إلى آخر حياته ، فاحداهما تبحث وتسبر المستقبل بسكون متحسبة تستنبط أحكامها من العبر ، والأخرى تتحفز للوثوب إلى المستقبل منجذبة إلى ما لا تعلم ؛ وعندما تسود الانسان عاطفته يتبعها العقل منذراً باكياً ؛ وإذ يقف الانسان مجيباً لدعوة العقل ، تهتف الأهواء قائلة : (وأنا هل يجب أن أموت) ؟.

وابتداء الأسى يختمر في القلوب الفتية ، إذ حكم ملوك الأرض على الشبان بالراحة والسكون وقذفوهم بأشد الأمراض أوجاعاً : بالبطالة والضجر ، فأحسوا باضمحلال الأمواج التي كانوا أعدوا لمصارعتها سواعدهم القوية . وسادت المسكنة على هؤلاء المصارعين الذين كانوا مرخوا أعضاءهم عبثاً بالزيوت . فاندفع الأغنياء منهم إلى ميادين الفحشاء ، والمتوسطو الحال وخضعوا للقضاء وتحولوا الى الكهنوت والجندية ، أما الفقراء فلم يجدوا سوى الحماس البارد فارتموا فيه بالأقوال الجوفاء كما يرتمي الجاذف بنفسه في البحر الذي لا ساحل له : بحر الابتلاء بالجدل بعيداً عن العمل .

وبما أن الضعف البشري يقود الناس الى الاجتماع والتعاون ، لم يلبث هؤلاء الشبان أن اجتمعوا فوجدت السياسة مرعاها الخصب بينهم . وهكذا كانت الشبيبة تخرج من مصارعة حراس المجلس التشريعي لتتجه الى المسارح حيث تشاهد (تالما) لابساً قبعة تشبه قبعة الأمبراطور ، أو تسير الى المدافن لتحتفل بمأتم نائب من الأحرار ، لتعود أخيراً الى مساكنها كل مساء شاعرة بفراغ حياتها وعبث محاولاتها

وما كانت حياة المجتمع الداخلية بأقل بؤساً من الحياة الخارجية ، فساد الناس الأسى والجمود ، وتسلط الرياء على العادات ، وأصبح الدين مشوباً بالأفكار الانكليزية فاكتسح الحزن كل ما كان من دلائل المرح القديم

ولعل العناية كانت تمهد بذلك طرقها الجديدة فظهر الملاك المبشر بالمجتمع المنتظر ملقياً في قلوب النساء بذور الحرية التي ستطالب المرأة بها في آتي الزمان

وانشق الرجال عن النساء في المجتمعات الباريسية : فلبست النساء البياض كالعرائس ، واتشح الرجال بالسواد كالأيتام ؛ وتبادل الفتيان لفتات العداء . وما هذا الثوب الأسود الذي يلبسه رجال عصرنا إلا دليل انقلاب مريع ، لأنهم ما لبسوه قبل أن تساقطت شارات الشرف فتمزقت الأزياء القديمة وتناثرت أزهار الأثواب المزركشة على الحضيض ؛ فكأن الانسان بعد أن تحكم بعقله وهدم ما كان يغتربه من الآمال ، وقف متشحاً بالسواد ليتلقى كلمات التعزية على المفقود . وسادت عادات طلاب العلم وأرباب الفن تطورات نشأت من التطور العام ، بعد أن كانت تلك العادات مجلى الحرية الحقيقية ، ومسرات الشباب النقية . انفصل الرجال عن النساء فاصلت بينهما الاحتقار نصلاً لا شفاء لجراحه . فقد الرجل حب المرأة فاندفع إلى الكؤوس ليستعيض ما فقد ، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين والمجد فرأوا كل ذلك أوهاماً تلاشت مع الزمان القديم

وغصت المواخير بالرجال ، فأصبحت الفتاة مهملة بعد أن كانت تغذى الشبيبة بحبها الطاهر السامي ، وعند ما احتاجت إلى غذاء ورداء باعت نفسها . فيا للشقاء ويا للعار ! . . لقد أهمل الشاب الفتاة ، وكان في وسعه أن يستنير وإياها بأشعة شمس الله وأن يقاسمها لقمته مأدومة بعرق جبينه ، ولكنه تركها وسار إلى مزابل الانسانية ليجد هنالك تلك

الفتاة نفسها مثقلة بالهموم شاحبة مضعضعة يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها الابتذال

فى ذلك الزمان ظهر شاعران هما أعظم عباقرة العصر بعد نابليون فخصصا حياتهما لجمع ما تبدد فى الأرض من مبادىء الشقاء والآلام ، فكتب جوته عميد الأدب الجديد (آلام فرتر) واصفاً الوله الذى يقود الى الانتحار ؛ ثم عاد فرسم فى (فوست) أعظم صورة تمثل الشرّ والشقاء . واجتاحت كتاباته فرنسا كلها وهو جالس فى بيته تحوطه السعادة وتخدمه الثروة ، فكان يرسل الينا رشاش قلمه الأسود وعلى شفتيه ابتسامة الأب لبنيه . . .

وجاء بيرون من جهته يرفع صوت الحروب والفجائع ، كأنه لم يجد من حل لسر الوجود غير كلمة العدم المروع

عفوا أيها الشاعران العظيمان ! أنتما الآن ذرات رماد يفترش القبور ، أنتما فى عداد أنصاف الآلهة أيها الشاعران ؛ وما أنا إلا فتى يضنيه العذاب ، ولكننى وأنا أسطر هذه الكلمات لا أمتلك نفسى من إرسال اللعنة عليكما

لماذا لم تتغنيا بعطر الأزهار ، وأناشيد الطبيعة ، وبالأمل والحب ، وبالكروم ، وشعاع الشمس ، وبأنوار الشفق وروعة الجمال ؟ لقد عرفتما كنه الحياة ، ورأيتما الدنيا تتداعى فبكيتما على الأطلال ، وأرسلتما أنين البائسين . لقد ذقتما خيانة الخليلات ، وجفاء الأصدقاء ، واحتقار أبناء الوطن ، فدارت بكما أشباح الموت وشعرتما بعفاء القلب . لقد كان كل منكما جباراً من جبابرة الأحزان . ولكن قل أنت يا جوته ! أما سمعت أذناك صوتاً واحدا يؤاسى الحزين فى هدير الأحراج المقدسة فى بلادك ؟ أفما تمكنت وأنت منْ يعرف أن الشعر صنو الفلسفة من العثور على زهرة السلوان فى هذه الطبيعة الواسعة ؟ ألم تلهمك الروح وأنت المتصوّف المعتقد بوحدة الوجود ما يمينك على سكب قليل من العسل فى تلك الكؤوس الرائعة التى نحتّها للأجيال ، وقد كانت ابتسامة واحدة منك كافية لاستهواء النحل فتنزل بجنيها على شفتيك

وأنت يابيرون ! ألم تكن عائشا تحت سماء إيطاليا الجميلة ؟ ألم تكن تناجى أمواج الادرياتيك والى جنبك المرأة التى أحببت ؟

أنا الذى أوجه اليك هذه الكلمات الآن ، وما أنا إلا فتىً ضعيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكليزية والألمانية على رؤوسنا حتى سادنا الاشمئزاز برهة ثم عقبه الاختلاج المريع . لا شىء يحوّل أملاح المواطف الى بارود منفجر كالتلاعب فى مواطن الشك بالمبادىء العامة . وكان جوته برأسه الجبار قد اعتصر كلّ ما فى الثمرة المحرّمة من خلاصة ، فخيل للناس أن من لم يقرأ جوته لا يعرف من الحياة أشياء . ويلٌ لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكارهم علامسة أفكار جوته ، فتناثرت ذرات تائهة فى مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود إلا آمالٌ عاثرات تدور بها الأحزان ، فكأن الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخلت طور الاحتضار ، فانحنى عليها المفكّرون يجسون مواضع انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندى الذى أجاب من سأله : بمَ تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى . فنجيب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشىء

وانشطر المجتمع الى فئتين : فئة النفوس المضطربة المتوجعة التائقة الى المثل العليا ، فكان أبناؤها يحنون الرأس ويبكون متلفعين بأحلامهم المؤلمة كأنهم مقصبة تمايل على مستنقع من الشقاء . أما الفئة الثانية فكانت مؤلفة من رجال المادة والشهوات يقفون بلا مبالاة على ركام الملاذ ولا هم لهم غير إحصاء الأموال التي حشدتها أطماعهم . وما كان يتصاعد من هذا المجتمع المؤلف من الفريقين سوى زفرة وضحكة : تلك ترسلها الروح ، وهذه يقذفها الجسد . وكانت الروح تقول في زفرتها :

— إن الدين يتداعى ، وهذه سحب السماء أصبحت غيوماً تتساقط أمطاراً . لقد فقدنا الأمل وحرمنا حتى قطعة من الخشب الأسود نرفعها صليباً لتمد أيدى الضراعة نحوها . لقد تلفعت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطالع الفجر ، فكأن الشفق يقبض عليها ليصدها عن الارتفاع ، وكأنها شمس الشفاء ألقت الثورة عليها براقع الدماء

لقد فنى الحب واضمحلت الأمجاد ، فما أحلك الظلام في هذا الليل المترامى بأطرافه على الأرض ! ولسوف ندرك الموت قبل أن يتدارك نورُ الصباح

أما الأجساد فكانت تقول في ضحكتها : — لقد وجد الانسان للتمتع بحواسه ولديه من القطع الصفراء والبيضاء ما يقيس به حق تمتعه بالتكريم . وما الحياة إلا الطعام والشراب والرقاد ؛ أما العلاقات الاجتماعية ، فمنها المودة القائمة على استقراض المال ؛ وقد تجد صديقاً تدفع العواطف به الى هذه التضحية . ومنها صلات القربى وهى نافعة للحصول على الميراث . ومنها الحب ، وما الحب إلا رياضة بدنية . وليست اللذة العقلية إلا نوعاً من الغرور والكبرياء . وهكذا كان اليأس يتمشى بخطواته الواسعة ذارعاً أرض أوروبا كأنه الطاعون ينتشر من نهر الكانج في آفاق آسيا . وكان شاتوبريان قد قبض على صولجان إمارة الشعر ، فلفّ اليأسَ برداء أسفاره ورفعه كالصنم على هيكل تتعالى حوله عبقات البخور فانحنت شبيبة فرنسا على قواها المكبونة يائسة تكرع كأس الآلام حتى الثمالة ، وملأت الأقطار نفثات الأقلام المضللة بأدب لا لون له ، فكأنه رشاش من دمٍ آسن يرسل لتغذية مسوخ الحياة

ومَنْ له أن يصف ما كانت عليه المدارس في ذلك الزمان؟ لقد كان الشك يسود الرجال ؛ أما الشبيبة فقد كانت اجتازت مرحلة الشك واستقرت على الجحود . وكان الشعراء يتغنّون بالخيبة وعثرات الآمال . وكان الشبان يتركون مقاعد المدارس ويواجهون الحياة بحياة تطفح بالبطر وعلى لسانهم لعنة الكفر . وكان الطبع الفرنسى المائل إلى المرح ينيل الأدمغة مناعة تحتمل الأفكار الانكليزية والألمانية ؛ غير أن القلوب لم تكن منيعة لتحتمل النضال في الأوجاع فذبلت وانحنت على ذاتها كأنها أزاهر مقصوفة

وهكذا اتجه مبدأ الموت إلى الاحشاء منسرباً اليها بهدوء من الأدمغة ، فأنكرنا الخير بعد أن كنا نؤمن بالشر ، وبلغ اليأس مرحلته الأخيرة فاستقر على الشعور الميت . وجلس ابناء الخامسة عشرة تحت ظلال الأشجار المزهرة يتجاذبون من الأحاديث ما يهزّ أشجار فرسايل الهرمة

طوبى لمن لم تدركهم هذه الأزمنة فنزلوا الى الهاوية وهم يتطلعون الى السماء ! إن من حالات الحياة ما يصدّع القلوب بالشقاء فلا تجد هذه القلوب ما يفرّج كربها إلاّ ارسال اللعنات والتجديف

وقف ملحد أمام السماء وقبض على ساعته متحدياً صاعقة الموت ، وقد منح ربّه مهلة ربع ساعة ، وبات ينتظر . إنها لفترةٌ ملؤها أشد غضب وأفظع

لذة ، إنها لقحة بدايتها تناهى اليأس تحتك بقوات السماء . وهل كان ذلك الرجل إلاّ مخلوقاً شقياً يتململ تحت الأرجل التي تركله ؟ وهل كان صوته إلاّ نداءً هائلاً تدفع به المحن والآلام ؟ من يدرى ؟ لعل هذا التحدى الموجه إلى السماء كان فى عين من ينفذ الى خفايا القلوب نوعاً من الصلاة ...

وما كانت الشبيبة إلا كهذا الجاحد تفتح لقواها المكبوته منافذ الفرج باليأس . إن من لا يجد أمامه ما يشغل به قواه ليتخذ تسلية له من التجديف فيتهكم على الدين والمجد والحب وعلى كل ما فى العالم ، تلك الوسيلة هى السبيل الذى يتبعه الانسان ليخادع نفسه فيتهكم عليها وهو يجدّف على كل شىء

يلذ للمرء أن يضع نفسه فى مصاف الأشقياء حين يحكمه الضجر فيندفع الى الفحشاء لأنها أول ما تخطر على بال العاطلين ، وهى الآلة التى تتلمسها الأعصاب الهائجة لتشد بها على نفسها تسكيناً لاختلاجها

وكان الأغنياء يقولون : لا حقيقة إلا بالثروة وأما ما سواها فأحلام . فلنتمتع بالثروة ولنمت

وكان متوسطو الحال يقولون : لا حقيقة إلا بالسلوان ، وأما ما بقى فأحلام . فلنسل ولنمت . أما الفقراء فكانوا يقولون : لا حقيقة إلا فى العذاب ، وأما ما سواه فأحلام ، فلنجدف ولنمت

إنه لوصف مريع قد يحسبه البعض مبالغة ، وما أنا إذ أورده مندفع بالعداء للانسانية ، فهو وصف للواقع ، وهذا هو البرهان

كل من طالع التاريخ وسبر غور الأسباب التى أدت إلى سقوط أمبراطورية روما ، لا بد له أن يرى ما انبعث عن المسيحيين من قوات دمرتها تدميراً . فان العظمة التى تجلت فى هؤلاء المؤمنين أيام جهادهم ومحنتهم كانت قد استحالت الى ضربات قاضيات عند ما صارت القوة الى أيديهم

قال مونتسكيو : « لا يسعنى وأنا أفتكر بحالة الشعب وهو رازح تحت استبداد الكهنوت اليونانى إلا أن يخطر ببالى أولئك العبدان الذين أتى هيرودوت على ذكرهم ، وهم من كانوا يمخضون اللبن لاستخراج زبدته ، وكان أسيادهم يقتلعون أعينهم كيلا يتلهوا بالمشاهد عن متابعة العمل دون انقطاع . وهكذا كان الكهنة فى روما يمنعون النور عن كل مبصر ، فلم يكن يقرر القيام بحرب أو عقد هدنة أو قرض أو الاتيان بأى عمل دون أن تنظر الرهبنة فيه أولاً ، إن القلم ليكل دون وصف الأضرار التى نتجت عن هذه الأعمال »

على أن مونتسكيو كان بوسعه أن يتم كلامه قائلاً :

(إذا كانت المسيحية قد هدمت العروش ، فانها أحيت الشعوب . إذا كانت قد فتحت للبربر أبواب القسطنطينية ، فانها قد فتحت أيضاً أبواب الأكواخ باسم المسيح . وما كان بالأمر الضرورى أن تحتفظ روما بمجدها المتداعى وهى المومياء المحنطة بعطر نيرون والمكفنة بوشاح تيباريوس وقد رعى أحشائها دود الفساد

إنما عمل المسيحية ، أيها السياسيون ، كان يتجه « إلى إدخال السلام على قلوب الفقراء البائسين ، وإلى إخراج الأمل من أحشاء المومياء الفاسدة قوة حية تعضد كل مظلوم ، وذلك ما قامت به المسيحية على أنقاض روما ، ولكن ماذا فعل خلفاء هادى روما بعد مرور السنين ؟ إنهم لبثوا ينظرون إلى الفقير يرهقه الغنى ، وإلى القوى يستبد بالضعيف ، ويسمعونه يقول : (إن الأقوياء سيسحقوننى على الأرض ، غير أننى سأقف فى وجوههم عند ما سيحاولون دخول السماء فاشكوهم إلى الله)

هكذا صبر هؤلاء المؤمنون فيما مضى ، ولكن أعداء المسيح وقفوا وصاحوا بالفقير قائلين : إنك صابر تتوقع ظهور العدل ، والعدل لا وجود له . إنك تنتظر البعث لتتخلص من الظلم في الخلود وليس من خلود . أنت تدخر دموع أطفالك ونواح امرأتك لتحملها إلى أقدام عرش الله بعد موتك ، وما بعد الموت من حياة ، فان الله غير موجود)

وعند ما سمع الفقير هذا جفف أجفانه وقال لامرأته أن تكف عن النواح ، ونادى بأولاده ليقف معهم على الخرق الباليه كالثور الهائج ، وصرخ في وجه الغنى قائلا :

(ما أنت إلا رجل أيها الظالم .)

ثم التفت إلى الكاهن ، وقال له : « لقد كذبت أيها المعزّى »

وهذا ما كان يقصده أعداء المسيح ، ولعلهم حسبوا أنهم يسعدون الفقير بارساله على سبيل المطالبة بالحرية

ولكن إذا فهم هذا البائس أن الأغنياء يسلبونه حقه وأن الكهنة يتاجرون بجهله ، إذا ما عرف أن للناس حقاً واحداً في الحياة وأن الفقر هو الكفر بعينه ، فان إيمانه لينحصر حينئذ بقوة ساعده فيهتف قائلاً : لأصلينّ الأغنياء حرباً عواناً . إن اللذات للجميع على السواء ، إن الأرض لي أنا أيضاً ما دامت السماء خاوية خالية

أيها المفكرون الذين تقودون الفقير الى هذا الموقف ، أية كلة تدخرونها لشقائه إذا هو اقتحم المعترك فسقط مغلوباً على أمره ؟

لقد يكون حبكم للانسانية المعذبة قد أهاب بكم الى المناداة بهذه المبادىء ، ولقد يجيء بكم يوم يبارككم الناس فيه ، أما اليوم فلا يسعنا أن نرسل البركة إليكم

لقد كان الغنى يقول للفقير فيما مضى : لى الأرض ، فيجيبه الفقير : أما أنا فلى السماء . فبأية كلة سيجيب الفقير الغنى الآن ؟

ان علل هذا العصر كلها قد نشأت عن سببين ، فأن الشعب الذى مر على ثورتى سنة ١٧٩٣ و١٨١٤ قد خرج منهما بجرحين . كل ما كان قد زال ، وكل ما سيكون ليس كائناً بعد . هذان هما السببان ، فمن العبث أن نفتش عن ثالث لهما

ما حالنا الا حال رجل تداعى مسكنه الى الحضيض وقد بعثر أنقاضه ليقوم ببناء جديد . شمر الرجل عن ساعد الجد وبدأ العمل وهو منتظر ورود الحجارة البيضاء الجديدة لرفع البناء ، ولكن قيل له ان الحجارة البيضاء الجديدة بعيدة المنال ، فعليه أن يصلح الحجارة السوداء القديمة . وسطا الذهول على هذا العامل الذى لا يريد أن يرفع بيته بمواد أخلقها الدهر وموهتها الأيام بالسواد ، ولكن ما العمل والمحجر عميق ولا أدوات لديه لاستخراج الحجارة منه

وقف المتفرجون حوله وقالوا له : استخرج الحجارة من حين الى حين واشتغل على مهل

وتكاثرت النصائح تبذل لهذا الرجل وهو واقف تحت سماء الله . لقد تهدم بيته القديم ولا بيت جديد له ، فهو عرضة للحر والقر ، لا يعلم أين يعمل وأين يرتاح وأين يأكل وأين ينام وأين يحيا وأين يموت ، وهو متعب مضطرب ، وأطفاله يبكون فى امرتهم فى العراء

ومَنْ أشبه بهذا الرجل منا ؟

أى بنى القرون المقبلة ! إنكم ستنحنون فى زمانكم على المحاريث تمزق أحشاء الأرض فتبتسم

من أساطير الأولين

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

[تابع ما نشر فى العدد الماضى]

وانثال الحنـان فى فم مينرڤا ، إذ هى تجيب الفتى المحزون :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحيـــه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له



لسهاماً مسومة مسمومة سقاها أبى بعد إذ رفض أن يسمّها إيلوس بن مرمريس (١) ... وهو لو صوبها إلى أولئك المفاليك لأبادهم ... يا رحمتا له ! إن أحداً غير — الآلهة — لا يعلم إن كان ما يزال حياً يرزق أو هو قد ابتلعه اليمّ أو عاجلته المنون ... تلبابك ! يا ابن أعز الناس علىّ ! إصغ لى وع الذى أقول : إنك لست طفلاً بعـد !. فلم لا تشمر عن

(١) أورد هنا هوميروس أسـطورة لاداعى لذكرها

لكم بمروجها ونباتها أماً بارةً بالعاملين تغنى لهم وهى تجر برود الأنوار فى الصباح . فى تلك الأزمنة سـيكلل العرق جبينكم بالفرح والحبور ، وإذ تسرحون أنظاركم على الآفاق الواسعة ، فانكم لن تجـدوا فى حقول الانسانية إلا السنابل تتماوج متساوية قد رصّعتها الأزهار

فى ذلك الحين ، عند ماترفعون رؤوسكم لتؤدوا الشكر لله، أيها الأحرار، لأنه أوجدكم فى عصر الحصاد. افتكروا فينا نحن الراحلين وتذكروا أن ماتتمتعون به من عناء وسلام قد كلفنا كثيراً من الشقاء

ترحّموا علينا أكثر ممـا تترحمون على سائر من تقدموكم فى مراحل الأجيال ، لأننا تحملنا أوجاع أجدادكم دون أن نتمتع بما كان لهم من عزاء ...

فليكس فارس

ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه ما دام أوديسيوس لم يؤب ؟ لمَ يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تلماك ! نبىء القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلاً فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعد ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولاً إلى (پيلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى إسپارطة حيث صاحب هذه الداهية منالايوس[1] ... أقلع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر ... ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرىء المقدام أورست الذى قتل قاتلى أبيه[2] ، وفيهم أمه ... بوركت يا أورست !! بوركت يا أورست ! هلم يا تلماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد فى العالمين أثره ! ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجالى وسفنى . لقد بعدت طويلاً عنهم ... وكلى يقين يا بنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتتكل ! » —

وحين انتهت مينرڤا من هذا الحديث ، حدجها تلماك وقال : « أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فىّ ضميراً أنت أحييته . فألف شكران لك ... أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن مينرڤا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً « فاذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منتس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً قشعماً يضرب الهواء بجناحيه ثم يعلو ويعلو . . . فيكون فى السماء ويغيب عن ناظريه ! !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى السماء

وانطلق تلماك حيث جلس الفسّاق يستمعون إلى أغانى فيميوس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكى ... وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير ذكريات شجوها وشجنها ... وتثور النخوة فى قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماه ؟

(١) زوج هيلين أخت پنلوب والتى كانت سبب حرب طروادة
(٢) أجا ممنون

وماوقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغنى ؟ دعيه يتغنى ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية القضاء وهُزُوَ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإنى لصاحبها بعده ... فادخلى وليدخل معك قيانك ولتقمن جميعاً بشؤون المنزل ، ولتَخلِنَّ إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عـدا ذلك للرجال ... لى ... لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! »

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تلماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفسّاق ! ياعشاق أمى ! خذوا فى لهوكم ، وتمتعوا قليلاً أو كثيراً ، فاذا كان الغد فاجتمعوا فى الساحة الكبرى ، فان لى كلاماً معكم ... سأطلب اليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ؛ أتسمعون ! لقد طالما أتلفتم لنا زادا وعتاداً ... ألا فلتلتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وولائمكم فى غير هذا المكان ؛ فان أبيتم فانى مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتص منكم السماء بما جرحتم ... »

وما كاد يفرغ من قالته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تلماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ... يا لشؤم اليوم الذى تتوجك السماء ملكا فيه على إيثاكا ... عرش آبائك وأجدادك ! »

ويجيب تلماك : « ليس أحب إلى من الملك حين تخلعه علىَّ السماء ... غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا غرو ... فان هذا من حق ! »

وأجابه يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تلماخوس ... أما ملك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ؟ هل من قِبل أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَينا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكنا لمحناه من بعد ، عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تلماخوس وفيم قدم ؟ ... »

وأصلح تلماك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريماخوس ! إن يقينى أن أبى قد انتهى ... ولن تغرينى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بها المنجمون ... أما هـذا الضيف ... ف ... هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير البحارين وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

قالها تلماخوس وهو أعرف النـاس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تلماك إلى مخدعه بالطابق العلوى . حيث كانت مرضعه يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسُّرج . يا لها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه ... لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! ... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تلماك ليلةً نابغيةً ممتلئةً بالهواجس والأفكار

تلماك يجادل العشاق

ويبحر باحثاً عن أبيه

خلاصة ما تقدم

« بعد سقوط طروادة عاد كل أبطال الأغريق الى أوطانهم ما عدا البطل العظيم أوديسيوس الذى ضل طريقه فى البحر ولبث سنين طويلة يخبط فى اليم على غير هدى وكانت زوجته پنلوپ أخت هيلين من أجمل الغادات اليونانيات فطمع أمراء البلاد المتاخمة فى التزوج منها ، ولكنها رفضتهم جميعاً ثم لجأت الى الحيلة معهم حينما لجأوا هم الى الغطرسة وأقبلوا بقضهم وقضيضهم ، فعسكروا فى حدائق قصر أوديسيوس وردهاته ليضطروها أن تختار منهم زوجاً لها . ذلك أنها اصطنعت لنفسها منسجاً وراحت تعمل عليه ووعدتهم أنها حين تفرغ من نسيجها فانها ستختار منهم بعلا لها . ولكن هذه الحال لم ترض مينرڤا ربة الحكمة ونصيرة أوديسيوس . فسألت أباها كبير الآلهة أن يساعد هذا البطل وأن يتأذن فيأمر بعودته الى وطنه . وكان أوديسيوس فى هذه الآونة عند عروس الماء كاليبسو التى أغرمت به وافتتنت بقوته فأبقته لديها وراحت تراوده عن نفسه ؛ فأرسل كبير الآلهة ولده هرمز الى هذه العروس بأمرها باعداد سفينة يبحر البطل عليها الى بلاده — أما مينرڤا فانها ذهبت بنفسها الى تلماك ابن أوديسيوس — فى صورة أمير من أمراء البحر يدعى منتس ، وهناك أكلت مع الفتى ثم حرضته على طرد العشاق المجرمين من قصر أبيه ، وبعد أن فرغت من حديثها معه حولت نفسها الى نسر عظيم وضربت الهواء بجناحيها وغابت فى السماء ، فتأكد الفتى أن الذى كان يكلمه ليس أمير البحر منتس ، ولكنه إله عظيم أقبل ليمد له يد المساعدة فى البحث عن أبيه — وقد خاطب تلماك العشاق فطلب إليهم أن يجتمعوا فى الغد فى الردهة الكبرى ليطلب منهم أن يغادروا القصر وأن يذهبوا الى جده فيخطبوا إليه ابنه پنلوپ إن أرادوا ، ثم ذهب ليستريح فى مخدعه الى الصباح »

موّهت أورورا [1] ، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح



مينرڤا

من شأنه ، وتقلد سيفه [1] ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه فى هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الاشرار عشاق بنلوب ؛ وتلبث قليلا وفى القلب لظى ، وفى النفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا يَنْسِلون الى الردهة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفى يمينه رمح ظامئ الى تلك الدماء النجسة التى تتدفق فى عروق الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان يتهديان وفى عينى كل منهما جمرتان . وكانت مينرڤا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترقرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذف منه

(١) ربة الفجر فى الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أپوللو وهادية عربته — الشمس — عندما تبزغ من أبواب المشرق

(١) فى الأصل (صفيحته) وهى السيف العريض القصير Fauchion

الرعب في قلوب أعدائه ، حتى لبهرهم أن يروا في تلماك ذاك الضرغامة المختال

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتمل في رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيچيبتوس بعينه . . . إيچبتوس المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس في أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك في حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر . . . ولكنه . . وا أسفاه ! . . لم يعد إلى أوطانه في العائدين ، بل صحب أوديسيوس في رحلته المشئومة وراء البحار حيث أكله السيكلوپ الوحش فيمن أكل [1] . وقف إيجبتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من عشاق پنلوپ ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا ندعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع . فمن الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بعودٍ أحمد ؟ لينهض باركته السماء فيحدثنا عما دعانا اليه »

وتناول تلماك صولجانه من قواصه ، وتقدم حتى كان في وسط القوم ، وجهر فقال :

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا ... تلماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل ... لقد دعوتكم لأشكوَ إليكم بثى وحزنى . . . لا لأزف إليكم بشريات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصايره ! لاريوس ! لقد فقدت والدى ، ووالد الأيثاكيين جميعا ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء العشاق [1] الذين يطمعون في الزواج من أمى ، غير متقين في عرضى إلا ، ولا راعين لأبى ذمة ، يُذَبّحون النَّعم [2] ، ويريفون [3] الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ، ولا يبالون أن يَهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملأى ، ويبيت غيرهم على الطَّوى ... ! لقد استباحوا هنا كل شيء ، ما دام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل إيديهم ، ولا ضائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى ، ويذهبوا من فورهم إلى جدى فيخطبوا اليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا ، فهو بها أولى وبشأنها أحق ... إنكم ضعفاء أيها الايثاكيون الأوفياء ... ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم . . . فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى ... والآن ، أوجه إليهم قولى . . ، ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها العشاق ... اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلةُ وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يُعيّركم به جيرانكم ! واخشوْا قارعة تحل عليكم من أربابكم ... واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلقفتكم الصواعق ... يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأولمپ ! بربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقضى البقية الباقية من أيامى في شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟

(١) سيأتى ذكر ذلك في الكتاب التاسع

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصراً على العشاق فقط ، بل ضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك

(٢) الماشية

(٣) يدسمون

فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تذهبون بثروتى أباديد ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل ؟ ! إذهبوا ! إذهبوا ، ودعوا تليماخوس البائس تحز فى نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره بلواه ! ! »

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكى ، وكأنما انهمرت دموعه فى نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة . حتى نهض أنتنيوس آخر الأمر فقال :

« لله بيانك يا تليماخوس ! لقد كنت مصقعاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا كل اللوم ، حين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعة ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحيى فى نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخلب ، وتتراءى كالسراب المضل ! لقد تخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهى تغرربنا ، وتقول : « أيها الاغريق : لقد قضى أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبا ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ، أفليس أخلق بى وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب ، لتكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة فى فم الاغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته » . ولقد أجبنا سؤلها وتلبثنا طويلاً ، نرجو لو تفرغ من نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثا فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هى الحقيقة يا قوم ! وَالآن ! فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هى لها بعلا ... أما إذا عكفت على ختلها بنا ، فلتثق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تيرو ، أو أكيس من ألكمينا ، أو أبرع من ميسينية[1] ... حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك ياتليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو ... فلينم فزع هذه الدار ، ولينضب معين خيرها . »

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال :

« أنتينوس ! ماذا أصابك ؟! كيف تسألنى أن أقهر أمى التى غذتنى ونشأتنى على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذى لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة على إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينس[2] كى تنتقم لهامنى ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً !؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبداً ... بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؛ فاما أجابت طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين ... اذهبوا .... فأولموا ولائمكم فى غير هذا القصر ، وأريفوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون !! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فانى سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لى منكم ، فهى محيطة بكم ! ... »

(يتبع) دريني خشبة

(١) من ربات الفنون



جولات فى الشرق الأقصى

فتاة اليابان

بقلم

ترجمة الأديب أحمد فتحى مرسى

إن كلمة « الطاعة » التى لها حظ كبير من حياة الرجل اليابانى ، هى كل حياة الفتاة اليابانية ؛ فالفتاة اليابانية تتلقن واجباتها فى سن مبكرة من الطفولة . وفى اليابان كتاب عتيق تستظهره اليابانيات ، ولا يخلو منه منزل ما ، اسمه « الدراسة العالية للمرأة » ، ويشمل مجموعة من التقاليد والواجبات ، والمثل العليا للأخلاق . وقوام هذا الكتاب « الطاعة » ؛ فنراه يقول إن على الفتاة اليابانية ثلاثة واجبات فى الطاعة : ففى مرحلتها الأولى وهى فتاة يجب أن تمتثل لأوامر والدها ، وفى مرحلتها الثانية وهى متزوجة يجب أن تنصاع لرغبة زوجها ، وفى الثالثة وهى أرملة يجب أن تخضع لأرادة ابنها الأكبر

تجتاز الفتاة اليابانية مرحلة الطفولة فى سرور ومرح ، بين رعاية والديها ، وعناية أهلها . وهى دائماً هادئة الطبع ، رزينة النفس ، حتى فى لعبها ؛ فاذا غضبت لا تعول ولا تبكى ، وإذا فرحت لا تضج ولا تصيح ، فهى تنشأ وتترعرع وعلى ثغرها ابتسامة هادئة تقابل بها كل إنسان

والفتاة اليابانية فى المدرسة تدرس الأخلاق قبل أن تدرس العلم ؛ فاذا دخلت المدرسة نراها تنحنى لأستاذها حتى تكاد تلمس الأرض بأنفها ، — وهذه أقصى درجة للتبجيل والاكبار فى اليابان — فيرد الأستاذ التحية بأحسن منها ، ثم تجلس الطفلات فى مقاعدهن ، ويفتحن الكتب ، ويبدأن الدرس



درس فى الكتابة

والكتب فى اليابان غريبة فى كل شىء ، فلن تثير دهشتك فى غرابة حروفها فحسب ، بل إنك إذا أردت أن تعثر على أول صفحة فى الكتاب وجدتها الأخيرة فيه ؛ وإذا رغبت فى قراءته فانك تقرأه من آخره إلى أوله ، لا من أوله إلى آخره ؛ وإذا حدثتك نفسك بتتبع كلمات سطر من السطور ، فانك تراها تبدأ فى أعلى الصفحة وتنتهى فى أسفلها ، أى أن الكتابة فى اليابان لا تبدأ من اليمين أو الشمال كما فى سائر اللغات ، بل تبدأ من أعلى إلى أسفل

وتدرس الطفلة اليابانية فى المدرسة ما تدرسه الطفلة الغربية من المواد المختلفة ، فضلاً عن أنها

تدرس التقاليد والأخلاق وحسن معاملة الغير دراسة دقيقة واسعة ، فأهل اليابان لا يرون أن الأخلاق والمعاملة والتقاليد تعتمد على الذوق والشعور ، بل يرون أنه لا بد للطفل من دروس طويلة فى الأخلاق والتقاليد ، حتى لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن أصولها

فكم مرة يجب أن ينحنى ؟ ... وكيف يحيى الغرباء ومواطنيه على اختلاف طبقاتهم سواء أكانوا من علية القوم أم من الطبقات المتوسطة ، أو من الطبقات الدنيا ... فكل طبقة من هؤلاء لها طابعها الخاص ، ولها تحيتها الخاصة ، ولها تقاليدها الخاصة . ويقال إن من السهل معرفة الطبقة التى تنتمى إليها الفتاة اليابانية من الطريقة التى تقدم بها الشاى إلى الضيف



تقديم الشاى إلى الضيف

وفن تنسيق الزهور فى اليابان من الدراسة المنزلية التى تتلقاها الفتاة عن أمها وتقضى فيها معظم أوقات فراغها ، فتهذب ذوقها ، وتربى فيها روح التنسيق ، وحسن الاختيار ، وجمال الترتيب مما لا تستغنى عنه المرأة فى حياتها المنزلية ...

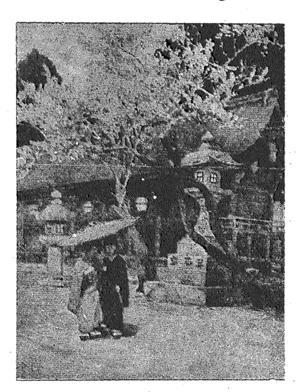
وقد جرت العادة فى اليابان أن يقص شعر الطفلة بعد ولادتها بقليل ، حتى إذا بلغت الثالثة من عمرها نما الشعر فى غزارة حتى تنوس ذوائبه على أكتافها . وترتدى الطفلة اليابانية فى صغرها ملابس الطفولة ، وهى ملابس ضيقة مختلفة الألوان ، حتى إذا بلغت السابعة من عمرها عوملت معاملة المرأة الكاملة ، فتلبس الملابس الحريرية الواسعة ، وتختار الألوان الزاهية ، وترتدى الثياب الفضفاضة الموشاة بخيوط من الذهب ، أو رسوم من الزهر ، تجمع بين تناسق الألوان وإتقان النسج

وليست هذه المرحلة من عمر الفتاة اليابانية هى مرحلة التبرج والتزين فحسب ، بل لها أيضاً أن تتزاور وصديقاتها ، وتقضى معهن أوقات الصفو واللهو ، وتذهب بصحبتهن إلى الهياكل والمعابد ، حتى إذا تزوجت نبذت كل ذلك ظهريا ، وهجرت هذه الحياة اللاهية المرحة

فواجبات الزوجة اليابانية ، وتفانيها فى خدمة زوجها وأطفالها تشغلها عما عداها من ضروب التسلية واللهو ؛ ولا تتحرر الزوجة من هذه القيود إلا عندما يشب ابنها ويتزوج ، حينئذ تلقى على زوجته تبعات المنزل ، وتطرح عن ظهرها ذلك العبء الذى حملته زمناً طويلاً ، وهذا هو الفجر الثانى فى حياة المرأة اليابانية ، فنراها تعاود حياتها الأولى ، وتستعيد ذكريات الشباب المرح ، فتزور الهياكل ، وتظهر فى الحفلات ، وترتاد الملاهى

والفتاة اليابانية تتزوج فى سن مبكرة ، فلا تبلغ

العشرين من عمرها — دون زواج — إلا الفتاة العاثرة الحظ ، وعندئذ تنقطع عن كل شيء آخر إلى خدمة زوجها ، وتتجه بكليتها إلى حياة الجد والنشاط ، فتنبذ الثياب الزاهية الملونة ، وتعاف اللابس الفضفاضة المزينة ، وترتدي ثوباً أبيض شفافاً تتجلى فيه كل معاني البساطة



البيت الياباني

ويتم الزواج في اليابان ، دون جلبة ولا ضجة ، كغيرها من الأمم ، فليست هناك هذه الأفراح العامة ، ولا تلك التقاليد الدينية ، وكل ما هنالك أن الزوج وعروسه يشتركان في شرب ثلاث كؤوس من الشراب الوطني الياباني المصنوع من الرز (الساكى) Saké فينال كل منهما رشفة من كل كأس ، ويعتبر اشتراكهما في شرب هذه الكؤوس بمثابة بدء اقتسامها حياتهما المقبلة

وهنا يجب على العروس أن تودع أيامها السعيدة وثيابها الجميلة وتستقبل حياة شاقة جديدة لا عهد لها بها من قبل ... وإذا كان الزوج يعيش مع والديه فان من الشرف للعروس أن تلبي طلباتهما ، وتنصاع لرغبتهما ، وتنزل على ارادتهما ، وهما بدورهما يعطفان عليها كل العطف ، فلسنا نلمس في اليابان أثراً لذلك التنافر الذي يحدث عادة في سائر الممالك بين الأم وكنتها ، فان الأم اليابانية التي جبلت على الطاعة ، وانطبعت على الحنان وصفاء القلب لا ترى في زوجة ابنها سوى ابنة ثانية لها قضى الله أن تستريح على يديها من عناء الأعمال ؛ فهي تنظر اليها دائماً نظرة الأم الشفيقة لابنتها البرة

وقد بلغ من وفاء الزوجة اليابانية لزوجها أنها عادة تشوه وجهها ، وتسود أسنانها ، حتى لا تلفت نظر غيره . وعلى رغم أن هذه العادة انقرضت في اليابان ولا سيما بين الطبقات العليا التي تأثرت كثيراً بالجانب الغربي ، إلا أن المتجول في ربوع اليابان كثيراً ما يرى هؤلاء النساء ذوات الأسنان السوداء في كثير من جهاتها .

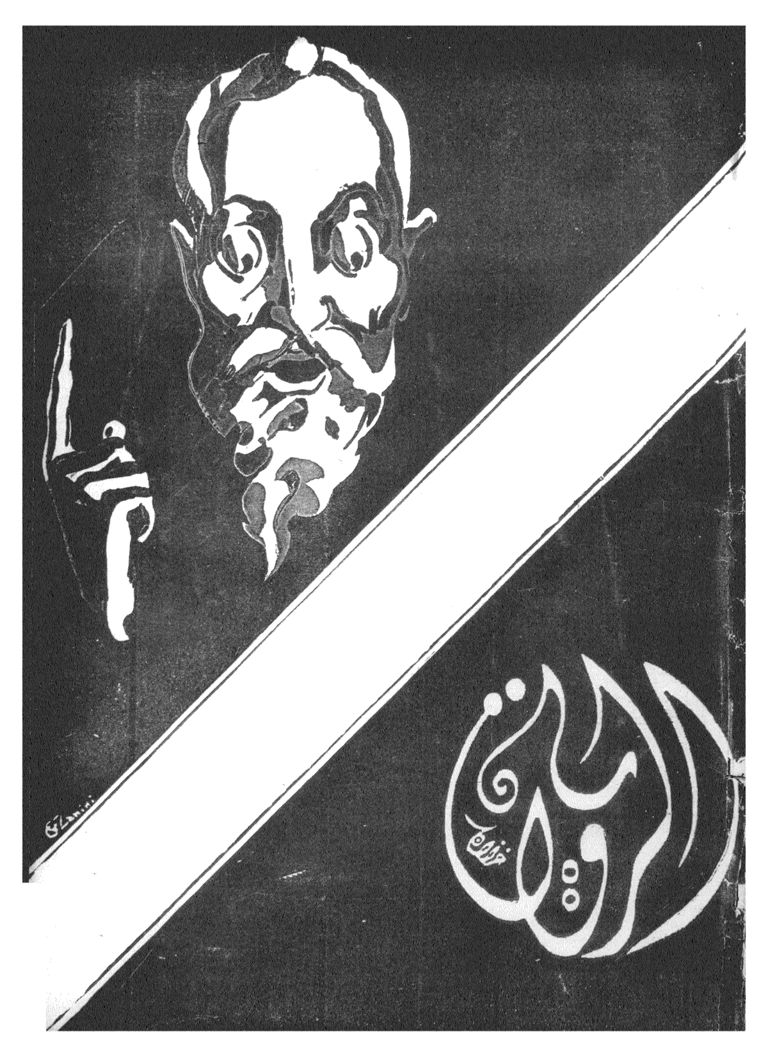
وإذا فقدت اليابانية زوجها فانها تظهر عليه حزنها العميق وأساها البالغ ، فنراها تحلق رأسها ، وترتدي الداكن من الثياب ، وتبدو في منظر كئيب حزين . والمثل الياباني يشبه لنا الأرملة اليابانية بالغراب ، والزوجة اليابانية بالحمامة ، والفتاة اليابانية بطير من طيور الجنة ؟

(عن الانجليزية) أحمد فهمي مرسي

اعتذار

حال ضيق الوقت وعوادي الأشغال عن نشر شيء من (هيلويز الجديدة) في هذا العدد ، فأرجأناه الى العدد المقبل فنرجو من قرائنا المعذرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسي رقم ٩ بالقاهرة





الليل تصوير توچتي

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

الرواية

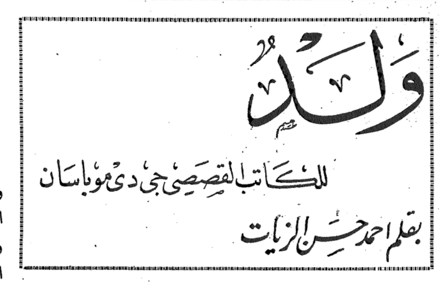
مجلة اسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد الثالث ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ — ١ مارس سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد



كان الصديقان الحميمان يتنزهان فى الروضة الفينانة المزهرة والربيع البهيج الطلق يزخر فى جنباتها بالحيـاة . كان أحدهما عضواً فى مجلس الشيوخ ، وكان الآخر عضواً فى الأكاديميـة الفرنسية ، وكان كلاهما وقور النفس رزين الطبع يصـدر عنهما الرأى أو الحكم مدعماً بالدليـل مؤيداً بالحجة ، ولـكن فى شموخ وأبهة ، شأن رجال الوجاهة والشهرة . تحدثا أولاً فى السياسة ، فتبادلا القول فى بعض الأسماء ، لا فى بعض الآراء ؛ وحديث الشخصيات فى موضوع السياسة يتغلب دائماً على حديث العقل ؛ ثم أثارا بعض الذكريات وصمت كل منهما ، وظلا يسيران جنباً إلى جنب وقد استرخت مفاصلهما على فتور الهواء

وكان فى الروضة المعطار حوض من القرنفل الأصفر ينفح بالعبير اللطيف الأرِج ، وكومة من الزهر النضير تفض على النسيم نوافح المسك ، وشجرة من شجر الأبنوس مكسوة بالمناقيد الصفر تذر ذرورها فى الهواء ، وهو أشبه شىء بدخان من النضار أو بمساحيق العطار ! تفوح منه رائحـة العسل ويحمل بذور الشجرة العطرة إلى أطباق الفضاء


موباسان

وقف عضو الشيوخ ورشف رشفة من هـذا الغمام اللاقح الطـافى ، وأخـذ يدمن النظر فى الشجرة العاشـقة وهى تتألق تألق الشمس وترسل بذورها فى الجو ، ثم قال : « حينما يفكر المرء فى أن هذه الذرات التى يدركها الشم ولا يدركها البصر ، ستخلق بعض الموجودات على عشرات الفراسخ من هذا المـكان ، وسترعش ألياف الشجرات الأنثى وتُميرُ ماءها فتنتج كائنات ذات جذور تنشأ من بذرة كما نشأنا ، ويدركها الفناء كما يدركنا ، ويخلفها على الأرض خلف منها كما يخلفنا ! ... ثم جمد الشيخ أمام الشجرة المشرقة وأرجها الشذىُّ المحيى ينبث منها كلما اهتز النسيم ، وعاد يقول : « آه يا صديقى ! لو طُـلب إليك أن تحسب حساب أطفالك لا ارتبكت ! دونك مثلاً هذه الشجرة : إنها تنسل بسهولة ، ثم تتخلى عن نسلها من غير ندم ، ثم لا تشغل بالها به بعد ذلك »

فقال عضو الأكاديمية : « إنا نصنع نسلنا مثل ما تصنع هذه الشجرة نسلها يا صديقى » فقال عضو الشيوخ : « نعم لا أنـكر أننا نتخلى عنه فى بعض الأحوال ولـكننا نعرفه ، وفى ذلك سموُّ نوعنا على غيره » . فهز الآخر رأسه وقال :

ليس هذا الذى عنيت يا صديقى . إنك لا تجد فى الناس رجلاً ليس له أولاد مجهولون ممن يسمونهم

أبناء المعارضة[1] ، ولدتهم من غير حساب ، كما تنتج هذه الشجرة من غير وعى

لو رحنا نعد النساء اللاتى وصلنا الأسباب بهن لشق على الحاسب أن يحصى الأبناء ، كما يشق على هذه الشجرة أن تحصى الخلفة »

إذا تذكر المرء من خالط من النساء فى المقابلات العارضة والساعات الذاهبة أمكنه أن يعد منهن مائتين أو ثلاثمائة ، ولا تستطيع أن تزعم يا صديقى أن هذا العدد يخلو من واحدة على الأقل قد اشتملت على ولد ، ولا تستطيع أن تنفى أن لك على بلاط السكك أو فى أعماق السجون ابناً شريداً يسرق ويقتل الأخيار من أمثالنا ، أو بنتاً تزاول البغاء فى أحد المواخير ، أو تعالج الطبخ فى أحد البيوت إذا كان الحظ قد أسعفها ففصلها عن أمها

ولا يغرب عن بالك فضلاً عن ذلك أن كل امرأة ممن نسميهن (عموميات) لها ولد أو ولدان لا يعرف لهما أب ، ينتزعهما من حضنها من شاء بعشرة فرنكات أو عشرين . كل مهنة يقدر فيها أربابها الأرباح والخسائر ، وهؤلاء الأطفال هم « خسائر » هذه المهنة

من هم الوالدون ؟ أنت — أنا — نحن جميعاً — نحن معشر الذين يدعونهم المهذبين . هؤلاء الأطفال هم نتائج مآدبنا البهيجة ، وأماسينا اللاهية ، وساعاتنا الغافلة ، التى ينتشى فيها الجسد فيدفعنا إلى المغامرة

إن لصوص النهار ورواد الليل وأخدان الجريمة هم أطفالنا ، ومن الخير لنا أن نكون آباءهم ، فأن هؤلاء الأوباش المجرمين يلدون أيضاً ! !

إن لى من هذا الأمر نصيباً عجيباً سأقصه عليك فى حادثة شنيعة لا تزال تحز فى نفسى وتثقل على ضميرى إنها تبكيت لا يفتر ، وندم لا ينقطع ، وارتياب لا ينجلى

وقع فى نفسى وأنا فى الخامسة والعشرين من عمرى أن أقطع المراحل مشياً الى « بريتانيا » مع صديق من أصدقائى هو مستشار الدولة اليوم . فبعد خمس عشرة يوماً أو عشرين من السير العنيف قطعنا فيها (الكوت دنور) وقسما من (فينستير) بلغنا (دوَرنينيز) ومن هناك وصلنا الى رأس (راز) الوحش عن خليج (تريباسيه) وقضينا الليل فى قرية من قراها ينتهى اسمها على ما أذكر بأُوف . ولما تنفس الصبح وجدت صديقى قد تحلل به السفر فلزم السرير . وأقول السرير بحكم العادة ، أما الواقع فان فراشنا لم يكن إلا حزمتين من القش

على أن إقامة المريض فى هذا المكان مستحيلة ، فأكرهت صديقى على أن ينهض ، ثم استأنفنا السير حتى دخلنا (أوديرن) فى الساعة الرابعة أو الخامسة من المساء . وفى الغد ظهرت عليه دلائل الصحة فسرنا ، حتى إذا ملكنا الطريق اعتراه مرض ثقيل فلم نبلغ (بون لابيه) إلا بشق الأنفس . وفى هذه البلدة وجدنا فندقاً على الأقل فنام صديقى ، وعاده الطبيب فقرر أن ما به حمى شديدة ، ولكنه لم يتبين طبيعتها بعد

هل تعرف (بون لابيه) ؟ كلا . إنها أعرق البلاد أصلاً فى بريتانيا ، تجمّع فيها ما تميز به هذا القطر من عادات وأخلاق وأساطير . ولا تزال إلى اليوم كما هى لم تتطور ولم تتغير ؛ وأقول (إلى

(١) أولاد السفاح

اليوم) لأنى لا أبرح وا أسفاه أزورها فى كل سنة : حصن قديم تخوض أبراجه المنيفة فى غدير كثيب واسع يحوّم عليه أسراب من الطيور المتوحشة ، ونهر صغير يخرج من هناك فتصعد المراكب الساحلية



فيه الى المدينة ، وشوارع ضيقة ، ومنازل عتيقة ، ورجال يلبسون القبعة الكبيرة والسترة المطرزة وأربعة أصدرة بعضها فوق بعض . وبنات وافيات الجسم ، وسيمات الوجه ، بضّات البشرة ، يتدرعن بصدار من الجوخ ، ويتقنعن بقناع غريب ينسج من خيوط الذهب أو الفضة

كانت خادمة الفندق الذى حللناه واحدة منهن لا يزيد عمرها على ثمانية عشر ربيعاً . لها عينان زرقاوان يخترق زرقتهما الشاحبة نقطتان صغيرتان سوداوان ، وأسنان قصيرة نضيدة مشدودة كأنما خلقت لطحن الحجر ؛ وكانت لا تعرف اللغة الفرنسية ، ولا تتكلم إلا اللهجة البريتونية ، وتلك حال الكثرة الغالبة فى هذا الاقليم

لم يرفضّ الألم عن صديقى ، ولم تبد عليه أعراض مرض معين ، ومع ذلك منعه الطبيب أن يسافر وأمره بالراحة التامة . فقضيت النهار بجانبه ،

وكانت الخادمة لا تنفك تدخل علينا ومعها الطعام أو الدواء ، فأعابثها قليلاً فتأنس وتلهو ، ولكننا ما كنا نتحدث بالطبع مادمت لا أعرف لغتها ولا تعرف لغتى

وفى ذات ليلة تأخرت طويلاً عند المريض ، فلما انصرفت إلى غرفتى واجهت الفتاة وهى ذاهبة إلى غرفتها أمام بابى المفتوح ؛ فدفعنى عبث الدعابة من غير تدبير ولا تفكير أن لففت قوامها بذراعى ، ثم جذبتها وهى فى دهشة المفاجأة إلى غرفتى ثم أغلقتها ؛ فشخصت ببصرها إلى فزعة مرتاعة مستطارة ، ولم تجرؤ على أن تصيح خشية أن يفتضح الأمر فيطردها سيدها ثم ينفيها أبوها

فعلت ذلك أول الأمر مزاحاً ودعابة كما قلت ، ولكنى لم أكد أراها فى غرفتى حتى ملكتنى رغبة قوية فى استبقائها ؛ ثم كان بينى وبينها صراعٌ



طويل صامت ؛ صراع الجسم للجسم على نحو ما يفعل المصارعون من أهل الرياضة ؛ فالأذرع مبسوطة مقبوضة ملتوية ، والنفس مطرود مبهور لاهث ، والجلد محمر يتصبب منه العرق . أوه ! كانت تدافع مستبسلة ، وتقارع مستقتلة ، وكنا نصطدم مرة بعد مرة بكرسي أو حاجز أو منضدة ، فنسكن برهة ونحن مشتبكان مخافة أن توقظ هذه الجلبة بعض الناس ، ثم نعود إلى الصراع هجوماً مني ودفاعاً منها . وأخيراً خذلتها قواها فسقطت منسرقة خائرة

لم تكد تنهض حتى فزعت إلى الباب ففتحت رتاجه وولت مدبرة . لم ألقها في الأيام التالية إلا نادراً ؛ فكانت تتحاشى أن أدنو منها . ثم تماثل العليل وأبل فأخذنا نتأهب لاستئناف السفر . وفي ليلة الرحيل رأيتها بعد موهن من الليل تدخل غرفتي حافية في قميص النوم فألقت نفسها بين ذراعي وحضنتني بقوة وشغف ، ثم باتت تقبلني وتلاطفني باكية معولة حتى الصباح ، فلم تدع شيئاً مما تنطوي عليه العاشقة البكماء من إشارات الحنان ودلالات اليأس إلا بذلته

مرت ثمانية أيام على هذا الحادث المألوف في مثل هذه الحال فنسيته ؛ وانقضت ثلاثون سنة لم يخطر فيها ببالي ، ولم أعد في خلالها إلى « لون لا بيه »

وفي سنة ١٨٧٦ رجعت إليها عرضاً واتفاقاً ، فقد كنت أجول في بريتانيا ذلك العام أجمع الوثائق وأتصور المشاهد لكتاب أؤلفه

كل شيء في هذا البلد على ما عهدته ؛ فالحصن لا يزال على المدخل مخوضاً بجدرانه المغبرة في الغدير ، والفندق باق كما كان إلا أنه رمم واستحدث . فلما دخلته استقبلني فتاتان من أهل هذا الاقليم في الثامنة عشرة عليهما نضرة الجمال وغضاضة الصبي ، وقد لبستا لبسة هذا الاقليم : صدار ضيق من الجوخ على الصدر ، وقناع من نسيج الفضة على الرأس ، وصفحة عريضة مرصعة على كل صدغ

كانت الساعة السادسة من المساء توشك أن تحين ، فجلست إلى المائدة أتعشى وصاحب الفندق نفسه هو الذي تقدم إلى خدمتي ، فأجرى القدر المحتوم على لساني هذا السؤال :

— أتعرف المالكين القدماء لهذا الفندق ؟ لقد قضيت فيه اثني عشر يوماً منذ ثلاثين سنة ، فأنا أحدثك عن شيء بعيد . فأجاب الرجل قائلا :

— لقد كانوا أهلي ياسيدي

فقصصت عليه كيف عاقني مرض صديق عن السفر وعقلني هذه المدة ... فلم يدعني الرجل أتم الحديث وقال :

— أوه ! إني أذكر ذلك جيداً . لقد كنت يومئذ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري . لقد كنت تنام في الغرفة القصوى وصاحبك ينام في الغرفة التي اتخذتها لنفسي على الشارع »

وفي هذه اللحظة لاقبلها جرى على خاطري ذكرى الخادمة الصغيرة فسألته :

أتذكر تلك الخادمة الرشيقة التي كانت يومئذ عند أبيك ؛ وقد كان لها ، إذا لم تخني الذاكرة ، عينان جميلتان وأسنان نضيدة عذبة ؟ فقال :

« نعم ياسيدي ، لقد ماتت بحمى النفاس بعد ذلك بزمن » ثم أشار بيده نحو الفناء ، وكان فيه رجل ضئيل أعرج يعمل في روث الاصطبل ، وقال : (هذا ولدها)

فغلبني الضحك وقلت :

« إنه دميم وليس فيه شبه من أمه ؛ فلابد أن يكون لأبيه » فقال الفندق : ذلك ممكن ، ولكن أحداً من أهل البلد لا يعرف من أبوه . وقد ماتت هي من دون أن تقول شيئاً عنه . ولقد كانت دهشة الناس شديدة حين علموا أنها حامل ، ولم يثقوا بصدق الخبر

عرتني هزة كريهة ونال قلبي مس أليم كأن غمامة من الهم الثقيل تتكاثف وتقترب . ثم رجعت بصري في الرجل وهو بالفناء وقد حمل إلى الخيول دلوين من ماء النهر فكان يمشي متحاملا على نفسه وقد بدت عليه دلائل الجهد من العرج . كان خلق الثوب ، قذر الجسم ، زري الهيئة ، طويل الشعر أشعثه ، قد تدلت على وجنتيه خصل مصفرة منه كأنها الحبال

عاد الفندق إلى حديثه يقول : « إنه يا سيدي قليل الغناء ضئيل القيمة ، وقد آويناه إلى بيتنا شفقة ورحمة . ولعله كان يوجه الوجهة الحسنى لو رُبي كما يُربى الناس . ولكن ماذا يصنع يا سيدي ؟ ليس له أب ولا أم ولا مال . لقد أدركتْ والديّ الرحمة على الطفل ، ولكنه ليس طفلهما ، وأنت تعلم ماذا أعني »

لم أعقب على كلامه بشيء ، وقضيت الليلة في غرفتي القديمة ساهداً أفكر في خادم الاصطبل الفظيع ، وأردد في نفسي هذا السؤال : « أما لو كان هذا ابني ؟ ! .. أليس من الممكن أن أكون أنا الذي قتلت تلك الفتاة وولدت هذا المخلوق ؟ »

قررت في نفسي أن أكلم هذا الرجل وأن أسأله عن تاريخ مولده بالدقة ؛ فان فرق شهرين يخرجني من هذا الشك

وفي غدوة اليوم التالي بعثت في طلبه فوجدته لا يعرف من الفرنسية شيئاً ، وقد بدا عليه مع ذلك أنه لا يفقه قولاً . فطلبت إلى إحدى الخادمات أن تسأله عن سنه فما أحار جواباً ، ووقف أمامي وقفة الأبله يدير قبعته بأصابعه الكريهة المعقدة ، وهو يضحك ضحكة الغباء والبلادة فيبدو على مزاوي شفتيه وعينيه شيء من ضحك أمه

على أن صاحب الفندق علم ما أسأل عنه فذهب يبحث عن شهادة ميلاد المسكين فعلمت منها أنه أبصر الدنيا لثمانية شهور وستة وعشرين يوماً من تاريخ مروري بهذا البلد . فاني أذكر يقيناً أني بلغت (لوريان) في ١٥ أغسطس ؛ وقد ذكر في شهادة الميلاد أن « الأب مجهول » والأم تسمى (جان كرادك)

حينئذ أخذ قلبي يشتد وجيبه ويسرع نبضه ، وشعرت أن لساني ينعقد ، وأن صوتي يختنق ، وتفرست في هذا الغليظ الجافي وقد بدا شعره الكثيف الأصفر أقذر شكلا من المزبلة ؛ وضايقته نظراتي فكف عن الضحك وأدار وجهه ثم انصرف

كنت كل يوم أنقل خطاى الوانية على طول النهر الصغير ، والفكر الممض في هذا الموضوع لا يبرح خاطري . ولكن ماذا يغني التفكير ؟ ليس هناك ما يجلو الشك ويكشف الحقيقة . وكنت أقضي الساعات بعد الساعات أوازن في موضوع أبوتي من الأسباب الموجبة والسالبة ، والوجوه الموافقة والمخالفة . ثم أستغرق في فروض مشكلة معضلة تعود بي على استمرار إلى موقفي الأول من الارتياب الشنيع ، ثم إلى ما هو أشنع من ذلك وهو الاعتقاد بأن هذا الرجل ابني

لم أستطع الغداء ، فأويت إلى غرفتي وأخذت أراود النعاس طويلاً ، حتى أخذني نوم مضطرب تزعجه الأحلام المفزعة والرؤى المخيفة . رأيت فيما يرى النائم أن هذا الوبش القذر كان يسخر مني فيدعوني : (بابا) ، ثم تحول إلى كلب عقور وهجم على ساقي بنابه فلم أنج منه إلا بجهد . فاقتفى أثري ، وكان يتكلم ويسب بدل أن ينبح ؛ ثم مثل بين يدي زملائي أعضاء الأكاديمية وهم مجتمعون ليفصلوا في أمر أبوتي له ، وقد صاح أحدهم بهم : « هذا أمر لا شبهة فيه . أنظروا كيف يشبهه ! » ، وفي الحق أني لاحظت في هذا المسيخ مشابه مني . ثم استيقظت وهذه الفكرة عالقة بذهني ، فقامت بنفسي رغبة ملحة في أن ألقى الرجل لأرى هل فيه ملامح مشتركة بينه وبيني

لحقت به وهو ذاهب إلى الكنيسة ، فقد كان ذلك يوم أحد ، فنفحته مائة صلدي وجعلت أجسه بعيني وأتفرسه في اضطراب وقلق ؛ فأخذ يضحك ضحكة قبيحة ، ثم ضاق ذرعه من طول ما صوبت النظر فيه وصعدته ، فانطلق مسرعاً بعد أن دمدم بكلمة لا يكاد يظهر لها جرْس عبر بها عن شكره ولا شك

قضيت النهار كما قضيت الليل في هم وقلق ؛ فلما اقترب المساء دعوت صاحب الفندق وقلت له في حيطة ولباقة ولطف : إني أهتم بهذا المخلوق البائس الذي أغفله كل إنسان ، وأعوزه كل شيء ، وأريد أن أفيده فائدة . ولكن الرجل أجابني بلهجة المعترض المخالف قائلا :

« أوه ! لا تفكر في ذلك ياسيدي . إنه أقل من لا شيء ، ولا يصلح لشيء ؛ وإنك لا تجني مما تصنعه معه إلا الامتعاض والكراهة . أنا أستخدمه في كنس الأصطبل وهذا كل ما يستطيع عمله ، وجزاؤه على ذلك أن أطعمه ، أما النوم فهو ينام مع الخيول ، وليس يلزمه بعد ذلك شيء . فاذا كان لديك سروال قديم فاخلعه عليه ، وستجده بعد ثمانية أيام خرقاً وهلاهيل » فلم ألح فيما اقترحت مبالغة في الحيطة والحذر

عاد الصعلوك المسكين في المساء يتخلج في مشيته من السكر ويعربد ، فقد شرب حتى طفح ؛ ثم كاد أن يشعل النار في البيت ، وقتل حصانا بضربة فأس ، وفي النهاية نام في الوحل تحت

المطر الهاطل بفضل إحسانى وكرمى !

وفى الصباح جاء الفندق يرجو منى ألا أعطيه نقودا بعد ، فان الشراب يهيج فيه الشر ويذهب به كل مذهب . ولو وجد فى جيبه صلديين لما أنفقهما إلا فى الخمر . ثم قال الرجل : « إن إعطاءه النقود معناه القضاء عليه » ؛ ولم يحصل فى يديه شئ منها قط إلا بضعة سنتيمات يرميها إليه بعض المسافرين فلا يعرف لها وجهة ولا غاية إلا الحانة !

قضيت فى غرفتى ساعات وفى يدى كتاب مفتوح أتظاهر بالقراءة فيه ، ولكننى كنت أديم النظر فى هذا الخشن الغليظ ابنى ! إبنى ! وأبذل الجهد فى أن أكتشف فى ملامحه وجوارحه بعض المشابه منى ، فكان من طول البحث وكثرة التقصى أن وجدت فيه وفى خطوطا متشابهة على الجبهة وفى أصل الأنف ؛ فاقتنعت بأن هناك مشابهة يخفيها اختلاف اللباس وذوائب الرجل

لم أستطع أن أبقى طويلا مخافة أن ترجمنى الظنون وتطير من حولى الشُّبه ، فرحلت والقلب مصدوع والفكر شارد ، بعد أن تركت فى يد صاحب الفندق بعض المال ينفقه على خادمه البائس ليرفه عن نفسه ، ويخفف عنه عذاب مرضه وبؤسه

ومنذ ست سنين أعيش مع هذه الفكرة معذب النفس ، مفدوح الضمير ، لا أستقر على شك ، ولا أطمئن إلى يقين

وفى كل سنة تقودنى إلى (بون لابيه) قوة قاهرة

وفى كل سنة أحكم على نفسى بهذا العذاب الأليم فأرى هذا الشقى يرتطم فى ردغة الاصطبل ، وأتخيل أن فيه مشابه منى ، وأحاول عبثاً تغيير حاله وإصلاح أمره

وفى كل سنة أرجع إلى هنا وأنا أشد مما كنت ارتياباً وعذابا وحيرة !

حاولت أن أثقفه فكان مظلم البصيرة لا يفقه ولا يدرك !

ثم حاولت أن أنفِّس عنه بعض كُرَب العيش فكان سخيف العقل ينفق كل ما يُعطاه فى الخمر ، حتى إذا صفرت راحته باع فى سبيلها ثوبه

ثم حاولت ببذل المال أن أرقق عليه قلب سيده ليؤويه إلى ظله ، ويرضخ له من فضله ، حتى داخل الفندقى العجب فقال يحجُّنى بالرأى المعقول والمنطق المفحم : « كل ما تقدمه إليه يا سيدى لا يعود عليه إلا بالأذى والخسر . يجب أن يعتقل اعتقال الأسير ، لأنه متى ظفر ببعض الوقت أو

ببعض المال انقلب شريراً لا يقام لسبيله . وإذا شئت عمل الخير فلن تعدم الوسيلة إليه . اذهب إلى ملجأ اللقطاء فاختر من بينهم طفلاً يساوى تعبك ويكافئ إحسانك »

ماذا تقول فى هذا ؟ إذا تركت هذا الرجل يصل بظنونه إلى الشبهة التى تلوع قلبى وتكدر حياتى انقلب خبيثاً ولا شك يستغلنى بالتهديد ، ويعرضنى للخطر ، ويلقينىَ إلى التهلكة . سيصيح بى : (بابا) فى اليقظة ، كما صاح بى الآخر : (بابا) فى الحلم

ثم قلت فى نفسى : لقد قتلت الأم وأضعت هذا المخلوق الهزيل الضارع ؛ تلك الدودة التى نشأت فى الاصطبل ودرجت فى الوحل ؛ ذلك الرجل الذى لو ربى تربية غيره ، لكان اليوم رجلاً مثل غيره

إنك لا تستطيع يا صديقى أن تتصور الشعور الغريب المبهم الملحّ الذى يستولى علىّ وأنا أمام هذا الرجل أفكر فى أنه نسل منى ، وأنه وإياى مرتبطان بالوشائج الخاصة التى تربط الولد بأبيه ، وأنه بفضل قانون الوراثة الغريب هو (أنا) بدمه وبلحمه ويألف شيء آخر ، وأنه يشاركنى فى كل خصيصة من خصائصى حتى فى جراثيم الأدواء ومناشئ الأهواء ومنازع الخلق

أنا أظمأ دائماً إلى رؤيته ، ورؤيته تمزق أحشائى وتزيد همى ! فأنا أرعاه بنظرى من النافذة ساعات وساعات وهو يعمل فى أرواث البهائم فأردد فى نفسى هذا الهتاف : « هذا ولدى ! » ، ثم أشعر فى بعض الأحوال برغبة شديدة فى أن أعانقه ، ولكن يدى لم تمس يده القذرة الكريهة قط

* * *

ثم سكت رجل الأدب وعضو الأكاديمية ، وتكلم رجل السياسة وعضو الشيوخ قال :
« نعم ! يجب علينا حقاً أن نُعنى أكثر مما عنينا بالأطفال الذين لا آباء لهم »

* * *

وهبّت نفحة من الريح على شجرة الأبنوس الوريفة الصفراء فحركت عناقيدها ، ثم غلّفت الكهلين الصديقين بغمامة من ذَرورها العطرى الدقيق فاستنشقاه ملء رئتيهما أنفاساً طويلة

ثم ختم عضو الشيوخ المحترم الحديث بقوله :
« ما أجمل أن يكون الانسان فى سن الخامسة والعشرين وإن ولد أولاداً كهذا ! ! »

الزيات

قصة مصرية

نفيسة

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

نشأت فى بيت لم أكن أجد فيه من يكلمنى لا لقلة فى أهله ، ولا لبكم يعقد ألسنتهم ، بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عنى . فهـــذه جدتى — لأبى — كانت لا تفارق السجادة — أو الفروة على الأصح — وفى يدها السبحة التى لا أذكر أن الخيط الذى ينظم حباتها انقطع ، وشفتاها لا تكفان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبى . وما أكثر — وأطول — ما كنت أقعد أمامها محدقاً فى هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهار . وكانت ربما التفتت الى فتبتسم وتدنينى منها وتمسح لى رأسى ثم تبسط يديها بالدعاء إلى الله بصوت يبريه الضعف وتبحه الحسرة ويهدجه الألم والأسف لما صرنا إليه بعد وفاة أبى . ثم تربت على كتفى وتميل على وجهى الصغير بفمها الأدرد وتقبلنى فتخرج شفتاها صوتاً كهذا : «مق» . وتلك أمى لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض ، ومن حمام تسقيه وتطعمه ودجاجات لا تنفك تجس حوصلاتها ، أو تصبعها لترى فيها أم ليس فيها بيض ، أو تنتف ريشها . وكثيراً ما كنت أقف أنظر إليها وهى تتناول فراخ الحمام وتزقها أى تمج فى مناقيرها الماء والحب . ولا آخر لعمل السيدة فى البيت . ولم يكن لنا فى ذلك الوقت خادمة ؛ وكانت أمى تنهض بالأعباء كلها اقتصاداً فى النفقة ؛ فكانت هى تطبخ الطعام ، وتكنس الغرف ، وترتب الأثاث ، وتخيط لنا الثياب ، وتصنع كل شىء إلا أن تخرج لتشترى الأشياء التى نحتاج إليها لطعامنا ؛ فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون فى أجنحة أخرى من هذا البيت الكبير يقوم لنا بذلك . وكانت عمة أبى معنا ، ولكنها كانت عجوزاً ناهزت المائة ، وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ، ورأسها مستند إلى وسادة ، ولسانها لا يمل الدوران ؛ وكان كلامها هذياناً فكنت أضحك منها أحياناً ؛ ثم أمل ذلك فأتركها لهذرها الذى لا ينقطع

وكنت إذا شعرت بالشوق إلى مكالمة أحد أنحدر إلى فناء البيت ؛ وكانت فيه غرف كثيرة يقيم فيها أتباع الشيخ قريبنا ويحيون الليل بقراءة الأوراد . وكانت هناك أيضاً ميضأة ومصلى فكنت إذا رأيت الشيخ مقبلاً أندس بين المصلين وأروح أقف وأركع وأسجد كما أراهم يفعلون . ولكن هؤلاء كانوا يروننى صبياً صـــغيراً فينظرون إلى ويبتسمون — لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة — ولكن لا يكلموننى . غير أنه كان هناك فى أكبر غرفة فى الفناء رجل ليس من الأتباع ، ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركهم فيما يصنعون . ولا أدرى إلى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة ؛ فما كان يعطى الشيخ شيئاً ، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعضه . وكان هـذا الرجل يصنع أزرار

الطرابيش ؛ فكان يطيب لى أن أجلس إليه ألاحظه وأحادثه ، أو أستمع إلى حديثه وقصصه ؛ وكان يحادثنى كأنى رجل كبير لا طفل صغير ، وكان يبرم خيوط الحرير المصبوغة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معاً ثم يثنيها ويربطها ، ثم يدقها على قالب من القوالب التى تتخذ لكى الطرابيش . وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها ، وإنى لأجدها الآن فى أنفى وأنا أكتب ذلك . وقد علمنى صناعته فكان يدع لى الخيوط فأفتلها وأرتبها وأعقد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالمدق على القالب . ثم يعود إلى فينظر فيما صنعت ويصلح لى أخطائى أو يثنى على حذقى . وكان يكل إلىّ ذلك كلما قام لأعداد طعامه أو خرج لشرائه . وفى وسعى أن أقول بلا مبالغة أنى قلما تعشيت إلا معه ؛ فكنت أصعد فأجىء بطعامى وأضيفه إلى ما عنده ، فنأكل معاً . ولكنى لم أكن أصنع هذا إلا إذا كان عندنا طعام يليق أن يقدم إلى غريب ؛ أما إذا كان فولاً أوعدساً أو ما هو من هذا القبيل فقد كنت أخرج فأشترى زيتونات وشيئاً من الجبن « والحلاوة الطحينية » وأعود بها إليه فيؤنبنى على فعلتى وينهانى عن العود إلى ذلك ، فأصارحه بأن طعامنا الليلة فول أو عدس وأنى لا أحبه ، فكان يحدث أن يقول لى إنه يحب هذا الطعام ويرجو منى أن أصعد وأجيئه بشىء منه فأستغرب ولكنى أطيع . فلا عجب إذا كنت قد أحببته وألفته . ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل فى التاسعة من عمره . وقد ألفنى كما ألفته وتعلق بى كما تعلقت به ، فكان ينادينى إذا أبطأت عليه فأستبطىء النزول على الدرج وأركب الدرابزين لأن التزحلق عليه أسرع

وكانت له بنت أخت تزوره من حين إلى حين . رأيتها أول مرة فى ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد ، وكنت ألعب فى الحارة ، فلما أخذ المطر ينهمر فجأة ذهبت أعدو إلى البيت . ولمحت وأنا أجرى ضوءاً فى غرفة صديقى فاشتهيت أن أخبره أن السماء تمطر وأن الريح تعصف . ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة فما رأيت المصباح المألوف وإنما رأيت ناراً موقدة ؛ وكانت ألسنة اللهيب عالية فرأيت أول ما رأيت كفاً بدت لى كأنها — ولسان النار من ورائها — مرجان شفاف . وطالعنى محيا فتاة صغيرة على هذا الضوء المضطرب فرأيت شعراً أسود يتوهج هنا وههنا ، وضفيرتين فى طرفيهما خيوط من الصوف نسج عليها الشعر استراحتا على جانبى الصدر ، وأنفا فى عرنينه نتوء قليل وفى مارنه لين وفى أرنبته انثناء الى فوق ، وعينين ضيقتين طويلتين مائلتين بعض الميل ؛ وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين وفى نظرتهما من وراء الأهداب الوطفاء معانى الرضى التام والسكون العميق والاغتباط الذى لا سبيل إلى العبارة عنه . وكانت هذه المعانى على الفم أيضاً ، وكانت الشفتان رقيقتين وفى العليا منهما نثلة بينة وهنة دقيقة نابتة فى وسطها ، وكانت عليهما ابتسامة أبلغ فى العبارة عن السرور من الضحك الجاجل ، وكان خط الشفتين موازياً لميل العينين ؛ وقد خيل إلى وأنا أنظر إلى هذه الابتسامة المرتسمة على الشفتين المتلامستين كأنما هى معلقة على ما تفضن على جانبى الفم ؛ وكانت صحيفة الوجه عريضة عند الوجنتين ولكنها تنتهى بذقن دقيق . وفى الديباجة حسن وفى الخدين

رى وأسالة وبضاضة ، أما العنق فطويل مستدير ، وأما الذراعان — وكانا ممتدين على الركبتين — فمستدقان

وقفت أحدق فى هـذا الوجه الذى أضاءته لى النار المضطربة الخفاقة اللمعان ؛ وخيل إلى وأنا أنظر أنى لم أر قط أجمل ولا أبرع من هذا الحسن . وراعنى على الخصوص ما على الوجه من آيات السرور الباطن ، فألفيتنى أتساءل : ما ذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تدفأ . . ومن أين جاءت يا ترى هذه السعادة التى تومض بها عيناها وتشى بها هاتان الشفتان الصامتتان . . . وأحسست أن أنفاسى أسرعت وأن الدموع تجول فى عينى ، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى — بل ملأ قلبى الخوف كأنما أنا أشهد الحياة نفسها لا إنساناً فانياً مثلى . وارتفع لسان النار فجأة وخفق ضوءها على محياها المبتسم ، فخيل إلى أن الدم يجرى كالجنون تحت جلدها الرقيق . وكانت هى ساكنة لا تتحرك ولا تزايلها ابتسامتها الهادئة المرتسمة على عينيها الضيقتين المائلتين وفمها المطبق الشفتين . نعم . كانت الحياة نفسها تنظر إلى من عينيها . . وبعينيها

رأيتها بعـد ذلك مرة أو مرتين فى نحو عام . وعلمت من صديقى — خالهـا — أنها يتيمة وأنها تقيم مع عمها وتزور خالهـا أحياناً — وأكثر ما تكون الزيارة فى الصباح حين أكون أنا فى المدرسة ، ولـكنها لا تبقى معه إلا ساعة أو بعض ساعة . وقد حاولت أن أكلمها ولـكنى كنت أستحى أن أطيل الوقوف معها أو الجلوس إليها ، وكانت هى تحدق فى وجهى ولا تطرف حين تكلمنى ولا أذكر ماذا كانت تقول ، وإنمـا أذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادى الوثاقة كما ينبغى أن تكون الحياة

وكنت أسألها أحياناً وأنا لا أجد كلاماً أقوله لها غير ذلك : « هل تلعبين الحبل ؟ » . . ولا أصغى الى جوابها بل أروح أفـكر فى جمالها وأعجب له . وأسأل نفسى مستغرباً : « ما ذا وراء هذه العين يا ترى ؟ . لماذا أراها سعيدة دائماً بلا سبب أعرفه ؟ » وأشتهى أن أسألها عن ذلك ، ولـكنى آنس من نفسى جبناً فأسكت

ومضت الأيام وتعاقبت السـنون وكبرت وعرفت الأدب والقراءة ، فصار كل ما أقرأه عن الحب فى شعر الشعراء وفى وصف الروائيين يدور حول ذكرياتى القليلة منها ، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميل وسعادتها الهادئة . وكان زملائى فى المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون ، وكنت أنا أسمع وأسكت وأتعزى بأن هـــذا الذى يلهجون به ليس من الحب فى قليل أو كثير ، وأقول لنفسى إنى أعرف ما لا يعرفون — وأعرف ما أعرف بالتجربة . ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامى ممـا يسمونه المغامرات ولـكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى . بل كانت على النقيض سبباً فى السخط على نفسى واحتقارها فآليت لأنصرفن عن هـذا العبث . وأقبلت على الدرس والتحصيل ، واشتغلت بالشؤون العامة فصرت أحضر جمعيات الخطابة . بل ألفت مع إخوان لى جمعية للخطابة ؛ وعنيت بقراءة الصحف فكنت على صغرى أقرأ كل يوم ثلاث جرائد سياسية ، وكنا جميعاً من أنصار مصطفى كامل وعشاقه فى ذلك الزمان

ثم جاءت الحرب العظمى فشغلنا بأنبائها ، وبالاختلاف على نتائجها المحتملة وبالخوف على أنفسنا من الجواسيس والاعتقالات التى كنا لا نأمنها ، ولا نستطيع أن نعرف الطريق الى اتقائها ، ولكن يوما من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه . وكان لى صديق داره قريبة من دارى ولم يكن معه أحد فى بيته ، وكان السهر محرما بعد الساعة التاسعة ، فكنت أقضى عنده السهرة فى الأغلب ولاسيما فى الصيف فأرانى يوما مسدسا ورصاصات ، فجعلنا نتدرب على اطلاقها ونرمى بها باب الحمام ، ولم نكن نخشى أن يسمعنا أحد لأن البيت كان بعيدا عن العمار . ثم افترقنا . واتفق أن زارنى بعد ذلك ونسى عندى مسدسه ولا أدرى كيف كان يجترىء على حمله معه . فوضعت المسدس فى درج المكتب ونسيته فيه وتكدست فوقه الأوراق على الأيام . فحدث يوما أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية ، وأخبرنى أن بيتى سيفتش الليلة ، فشكرته ولم أعر الأمر اكتراثا لأنه ليس فى بيتى ما أخشى على نفسى منه . فلما كان العشاء جاء ضابط انجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود ، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا ، ورأى الانجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها ، فأقبل عليها يتأملها ، فألفاها كلها كتب أدب ، فجعل يقلبها وينظر إلى ، ثم سألنى عن عملى فقلت «مدرس» فاطمأن واعتقد مما رأى أنى رجل مأمون الجانب وأرسل المصريين يفتشون بقية البيت ووقف هو معى فى غرفة المكتب ، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الأوراق المنتشرة بغير احتفال ، ثم فتح درجا وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى — ولم تكن للأدراج مفاتيح

— فجمد الدم فى عروق ، فقد تذكرت المسدس فجأة ، ولم أستطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذنى ، وكان الاعدام عقوبة من يحمل سلاحا كهذا بلا ترخيص — أو هكذا أعلنوا — ولكن الله سلم فرد الرجل الدرج ، وكان زملاؤه قد عادوا فحيا وانصرف وهو يبتسم ، ولعله كان يعتقد أن تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة

وما كادوا يذهبون حتى أسرعت الى المسدس فقذفت به فى بستان مجاور لبيتنا وتشهدت . ولم أطق البقاء فى البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب فخرجت أتمشى على غير هدى ، وإذا بى فى بعض الطريق — طريق حدائق القبة — ألتقى بفتاتى القديمة ... عرفتها على الرغم من طول الزمن ... وعرفتنى هى كذلك ولم تنكرنى ، فصحت بها كالأبله « تفيدة . . . أنت . . . »

فابتسمت لى ابتسامتها القديمة الهادئة ولم ترد ، فقلت لها « من أين والى أين » قالت «الى البيت» فمشيت معها اليه . وكان شقة فى عمارة عند « المحمدى » فدعتنى ، الى الدخول فلم أتردد ، فانا صديقان قديمان . ولم أر فى بيتها غيرها فلم استغرب فانها يتيمة ، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الأثاث الحسن وإن كان قليلاً وعلى قدر الحاجة . واتفقت معها على يوم نخرج فيه للتنزه فى القناطر أو حديقة الحيوانات فهزت رأسها أن نعم فتركتها ولم أسألها عن حالها وكيف تعيش

والتقينا فى الموعد المضروب . وكان النساء يتقنعن فى ذلك الوقت ولا يخرجن إلا فى الندرة القليلة بوجوههن سافرة ، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان ومضينا الى حديقة الحيوانات ،

وجلسنا على دكة منعزلة ، وقضينا أكثر الوقت صامتين ، ثم فتحت فى لحدثتها عن الزمن الماضى وحتى الصبيانى لها وكيف طال عمر الحب وامتد الى الحاضر فلم تزد على أن تبسمت — كعادتها — وقالت « لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بى »

فأحسست أن لوحا كبيرا من الثلج يوضع على قلبى . . الناس يجنون بها . . . الناس . . . إذن هناك مجنون . . أو مجانين بها غيرى . . . ودار رأسى وذهبت أسائل نفسى عنها كيف تعيش . . ولم يخطر هذا من قبل ولكنه خطر الآن . . نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس . . . وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم . . . لابد أنهم كثير . . فمن أين يجيئون : . إنى أنا صديق صباها فلا عجب إذا كنت أعرفها … ولكن غيرى . . . غيرى . . .

وقطع على هذه الخواطر المزعجة سودانى فى ثياب الرد نجوت . وكان كهلا ولكنه يمشى معتدل القامة كالرمح فدنا منها وحياها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض ، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة ؛ ولم يطل الوقوف فمضى عنا وقد عرفت منها أنه ضابط فى الجيش وأنه الآن فيما يسمى الاستيداع وإن بيته فى العباسية — قرب « الحمدى » فلم أقل شيئاً ولكنى قلقت — أو على الأصح زدت قلقاً وصرت أناجى نفسى بأن لعل هذه طريقة حياتها . . .

وتعددت المقابلات بيننا والخروج إلى الحدائق العامة وكنت أعود بها إلى بيتها فى الليل فتدعونى إلى مقام قليل فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة ؛ فرأيت منها شيئاً فشيئاً وعلى الأيام ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى أحببتها فى صغرى وإنها لا أكثر ولا أقل من امرأة كغيرها من النساء . ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شىء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة ، ولكن الذى أدريه أنى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وأنى جعلت أحاول أن أقنع نفسى بأنها كما كنت أتصورها — على الأقل فى حقيقتها الكامنة ، ولكن حبى القديم لها تغير فلم يعد فيه تعلق بخيال بل صار حباً لامرأة معينة .

وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب فان الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ، ولأن فيها من بواعث الأغراء ما يكفى لأثارة الرغبة فيها والتعلق بها ، ولكن هذا شىء لم أكن قد تعلمته فى تلك الأيام فرزقنى الله فى شخص « تفيدة » معلماً لا يفتر ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الأفلاطونيات السخيفة . وكان أول ما تعلمته — أو من أول ذاك — أن من الممكن أن يحب الرجل حباً عميقاً طاغياً امرأة لا يحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على إكبار أو مودة أو صداقة ، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه .. إمرأة لا يرى فيها إلا أنثى منحطة . . بل امرأة يشعر بالشقاء وهو إلى جانبها وبالملل والضجر من قربها وحديثها .. نعم تعلمت ذلك . . وكان هذا لما تعلمته شيئاً فشيئاً يبدو لى مدهشاً ويخيل إلى أن الحال فيه مقلوب والآية معكوسة ، ولكنى الآن أضحك من نفسى وأسائلها : ولم لا يعشق الرجل بالله امرأة كهذه ؟.. وأين ترانى كنت أعيش يومئذ فلم أر أن كثيرين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية . . .

نساء هن فى الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطاط ... ونساء يحببن رجالاً ساقطين منحطين لا يساوى الواحد منهم ملء أذنه نخالة ... ولكنى كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن الحب شيء سام جداً وأنه سماوى لا ينبغى أن يخالطه إلا الاعجاب والعبادة

وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة تزيدنى إيقاناً بأنها عاجزة عن السمو بنفسها الى المرتبة التى وضعتها فيها فى حداثتى ، وكان يزعجنى وينغص عيشى ويسود الدنيا فى عينى هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التى احتفظت لها بها فى نفسى . . . وتغير حبى لها كما قات واشتهيتها وصبوت إليها ولكن هذا التحول لم يعفنى من التنغيص والعذاب . وقد كنت أخجل مما صرت أحسه لها وأعنف نفسى على ذلك وأزجرها عنه . وكانت هى ترى ضبطى لنفسى ورياضتها لها على العفة وتملق بخيالاتى وسخافاتى وأوهامى فتمتعض وتظهر لى التأفف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى ولها العذر فقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها واتركها على الأرض واذهب أحلق فى أجواء لا تستطيع أن تذهب ورائى فيها . وكنت أنشدها ما أقوله فيها من الشعر فيسرها أنها وجدت شاعراً يحبها كل هذا الحب ويتغنى باسمها وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجده لها ، ولعلها كانت ترى فى هذا إعلاناً . . . ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره ؛ وكثيراً ما كانت تمط شفتيها ساخرة . وربما قالت لى : « ألا تستطيع أن تقول كلاماً حسناً ؟ » فأهز رأسى وأقول لنفسى إنى وقعت وقعة سوداء وأنى يجب أن أصدغها وأنها لا تصلح لى ولا أصلح لها لأنها لا تفهمنى ولا أنا أيضاً مع الأسف أستطيع أن أفهم هذه الطبيعة المادية التى يكون فيها الجمال ستاراً لكل ما هو منحط ...

وكانت تدعونى كل ليلة الى دخول بيتها حين نعود إليه ، وكنت ألبى فى بعض الأحيان فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح فلا تلبث أن تتثاءب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى الى الباب فيسوءنى ذلك ولكنى أراجع نفسى وأقول أنه ليس بيننا كلفة فاننا صديقان قديمان . فقالت لى ليلة وقد دنونا من البيت : « لا تغضب إذا لم أدعك الى الدخول » فسألتها بوقاحة : « هل هناك غيرى ؟ » فلم يسؤها ذلك ولم يظهر عليها الامتعاض منه ، وقالت بابتسامتها الهادئة : « يخيل الى أنك لا تحب الوجود معى فى البيت ... شاعر ... تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم . . . أليس كذلك ؟ » فضحكت وإن كنت لم يفتنى ما فى كلامها من التهكم والزراية وحدثت نفسى أن هذه دعوة صريحة لا يليق أن أغضى عنها مخافة أن يودى الاغضاء الى القطيعة والجفوة .. وكانت هذه مغالطة منى لنفسى فقد كنت أنا أريد ذلك ولكنى كنت أصرف عنه نفسى وأفطمها بجهد فقلت : لها : « بل سأدخل الليلة — إذا سمحت بالطبع — وسترين أنى أحب بيتك كما أحبك . . وإنى آنس بك فيه أنسى بك فى الرياض وفى الزورق السابح على وجه الماء ... »

قالت : « صحيح ... »

وأحسست من نبرة صوتها أنها ارتاحت الى كلامى وأنها استغربته فى الوقت نفسه .

ودخلنا وأغلقت البـاب وراءها كعادتها فلم أمهلها بل طوقتها بذراعى فى الدهليز وقبلتها .. على خدها فأدارت وجهها ومنحتنى فمها . .

وكنت أسخط على نفسى بعد كل ليلة وأرميها — نفسى — بالانحطاط ، ولـكنى ألفت ذلك فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتأفف منه ويود لو كف عنـه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها . وبقينا هكذا زمناً غير قصير وعرفت أن لها أصدقاء غير قليلين فقد كنا نلقاهم فى الطريق فيومئون اليها بالسلام فتبتسم لهم ولـكنهم كانوا لا يدنون منها ولا يكلمونها كما فعل الضابط السودانى فى حديقة الحيوان . ولم أكن أعبأ بذلك فقـد كنت أرى أنى منفرد بها وإن كنت لا أعلم ماذا تصنع فى غيابى ، فما كان يسعنى أن أظل معها كل ساعة . وكنت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحـاجتى إليهما لا لأنى واجد ما يدعو الى الثقة والاطمئنان . والمرء فى تجربته للحياة يضطر الى خداع نفسه ومغالطتها فى الحقـائق — أو ما يعتقد أنه الحقيقة ليستريح قليلاً . ويتصور كيف تكون حياة من لا يزال فاتحاً عينه متربصاً مترصداً ليحيط بالعيوب والمخازى ، ومن لا ينفك يستمع الى ما يهمس به فى أذنه سوء الظن الطبيعى .. وكثيراً ما يكون المرء على حق فى سوء ظنه . ولـكن المرء يعرف بالتجربة أن وساوس الظنون تنفى كل راحة وتحيل الحياة جحيما . ويضنيه التعب فيطلب الراحة ويعرف من تجربته للناس أن الناس سواسية فينتهى بأن يقول لنفسه إنه ليس موكلا باصلاح الـكون وأن الأولى به أن يريح نفسه ويعفيها من العناء الباطل . وماذا كان يعنينى من أمرها فى غيابى وأنا قد أيقنت من زمن طويل قبل هذا أنها غير تلك التى كنت أحلم بها وأنها ليست إلا امرأة عادية جداً لا أكثر ولا أقل ... وهبنى اطلعت على ما كانت تخفى عنى فهل يزيدنى هذا علماً بها ومعرفة لحقيقتها ؟ كلا ..

ولم يكن هذا المنطق يقنعنى أو يريحنى ولـكنه كان المنطق الذى اضطررت إليه وسـكنت على رغمى . على أن الأمر لم يطل فقد جاء يوم اعتذرت لى فيه بأنها مسافرة فاستغربت ، فما أعرف لها من تسافر إليه ، ولـكنى سكت ولم أقل شيئاً . ورأيتها بعد أيام فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تـكون كما أشتهى لها ، فقالت بضجر متكلف لم يخف على : « أوه أبداً . كانت رحلة مملـة ... إنك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون . ليس فى حياتهم أى تسلية »

ومضت أيام فعادت تعتذر من التخلف عن لقائى لأنها مدعوة فى بيت صاحبة لها ، فلم أجادل وتركتها . وتكرر بعد ذلك الاعتذار وتوالى انقطاعها عنى ، وكنت أحياناً أقسم أن أهملها وأبقى أياماً لا أسأل عنها لأعرف أعادت أم هى لا تزال مع هؤلاء الذين ظهروا فجأة فى حياتها ولم أسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور . وأحياناً كنت أضعف فأذهب إلى بيتها فتفتح لى وتلقانى كأنها كانت معى قبل ساعة ولا تسألنى لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت . لا .. لا شىء من هذا على الاطلاق فأشعر بالغصة ولـكنى أكتم الألم ..

وقلت لها مرة وقد همت بالاعتذار من الاضطرار إلى إرجاء لقائى : « لماذا تكذبين على ؟ » فلم أر أن حدتى أو ألفاظى الوقحة اغضبتها ،

وكأنى كنت أحييها وأثنى عليها فقالت : « إنك ظريف » ظريف ... أهذا ما تجيب به حين أتهمها بالكذب وأرمى باللفظ الجارح فى وجهها ..

وكنا قد دخلنا فى الشتاء وكنت أعرف أنها لا تحب أن تكون فى غير بيتها بعد العشاء على الأكثر ، فذهبت إلى قهوة قريبة من مدخل الحارة وقعدت عليها من الظهر لأرى ما يكون . وانحدرت الشمس وأنا لا أرى شيئاً ؛ نعم رأيت ناساً كثيرين راكبين أو ماشين وباعة متجولين ومركبات الخ الخ ولكنى لم أرها تدخل أو تخرج . وكانت نفسى لا تفتأ تنازعنى أن أنهض منصرفا وكنت أحدثها بأن من السخافة والحماقة أن أتعب نفسى بهذه الجلسة المضنية لأعرف ما أعرف . وهل فى الأمر سر . . . . أليست قد ملتنى ونبت بى وجفتنى واعتاضت منى سواى كائنا من كان هذا السوى .. وما حاجتى إلى علم ما أعلم ... ولماذا أحقر نفسى وأمرغ وجهى فى التراب وأضعه عند قدمى امرأة سوء كهذه .. وأهم بالنهوض ولكنى أحس كأنى قد سمرت إلى الكرسى أو لصقت به ، ويتجسد وهمى حتى لأتلفت كأنما أريد أن أرى المسامير أو الغراء أو غير ذلك مما ربطنى بالكرسى وألزمنيه فأنا لا أقدر أن أنهض عنه ، ويضحكنى أمرى أحياناً ثم تغلبنى الكآبة والحزن — على نفسى وعليها — ثم أرانى غضبت وثرت وهاجت نقمتى على هذه المستهترة التى لا تبالى ولا تدرك ثم أراجع نفسى فأسألها : « ماذا تريدين منها أن تبالى ؟ أمن العدل أن أطالبها — أو أتوقع منها — أن تحفل ما لا تدرك ... » واستسخف من نفسى أن أروح أنتظر من هذه العامية — على الرغم من أنها تعلمت شيئاً — أن ترتفع بنفسها إلى حيث ارتفعت أنا ، ثم ارجع فأقول : إن المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة وإن كان التعليم يهذب ، وأن هناك أميات كثيرات هن جميعاً أرفع منها وأسمى وأشرف وأعظم فطنة واحد ذكاء ، وأن العبرة بالطباع والمعول على الفطرة . .

وانقضى النهار فى هذه الهواجس أو الخواطر وأقبل الليل ومعه البرد فاحتجت أن أقوم وأن أتمشى لأشعر بالدفء فرحت أتمشى فى الحارة وعينى على بيتها وأنا فى حماية الظلام فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على أطراف أصابعى فاذا هو بابها وإذا الخارج منه هو الضابط السودانى وكاد يختفى فى الظلام ، ولكن الباب فتح مرة أخرى وخرج منه صوت كهذا « هسسسسس » فوقف الرجل وتلفت ثم كر راجعاً ووقف أمام الباب ، وكنت على مسافة مترين منه فأدرت ظهرى إليه ولويت عنقى لأكون أقدر على السماع فسمعتها تقول له :

« الساعة الثالثة تماماً . فانى أخشى أن يجىء ذلك الثقيل للسؤال عنى .. »

فمشيت ولم أقف لأسمع رده

ابراهيم عبد القادر المازنى



عن الفرنسية
بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

كان ذلك فى أوان الصيد فى قصر باثيل ، والخريف مطير حزين ، والأوراق المنتثرة ذابلة محمرة لايسمع لها تقصف تحت الأقدام ، بل تمطن فى السكك بدارج العجلات تحت شآبيب الديم الهطالة

وكانت الغابة وهى جرداء إلا قليلا تشبه الحمام من الرطوبة . فاذا أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالى يصفقه وابل المطر شملتك رائحة نخمة وهبوه ماء من العشب المخضل والأرض المبتلة

والصيادون حناة الظهور يدبون تحت هذا الفيض الهتون ، والكلاب محزونة ذيلها مرسل ، وشعرها ملتصق بآطالها ، والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة لاصقة مشربة بالبلل ، وهم كل مساء يؤوبون من الصيد أنضاءَ جسمٍ وعقل أجمعين

وفى البهو الكبير بعد العشاء يجتمعون إلى لعبة الورق متقارعين ، من غير انبساط ولا لذة . والريح فى الخارج هبات مدوّية تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة ، وتبتدر دوّارات الهواء فوق الأبراج فاذا هى من دوران كالخذروف المدوّم

فأرادوا أن يسمروا بالحكايات كما تُروَى فى الكتب ، ولكنهم لم يفتح على واحد منهم بابتداع حكاية مسلية .

ومضى الصيادون يقصون ما وقع لهم أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للأرانب ، وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالاً كخيال شهرزاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة . وكادوا يكفون عن الأحاديث .



وكانت إحدى الغانيات تعبث خالية البال بيد عمتها العجوز ، وهى عانس لم تتزوج ، فلحظت خاتماً صغيراً من شعرات شقراء كثيراً ما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه

فسألتها وهى تديره فى أصبعها بلطف : « ألا قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لكأنه شعر غلام يافع . . . » . فاحمارّ وجه العانس ثم اصفارّ ، وأجابت بصوت متهدج : « إن الأمر محزن جداً ، محزن جداً ، حتى لست أحب الكلام عنه . وكل ما فى حياتى من الشقاء فهذا مصدره . لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئذ ، وما زالت تلوعنى الذكرى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى

فتلهفوا إلى سماع الخبر ، وأبت العمة ذلك عليهم ، فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الأمر :
« كثيراً ما سمعتمونى أتحدث عن أسرة سانثيز ، وقد انقرضت اليوم جميعاً ، ولقد عرفت الثلاثة الرجال الأخر من هذا البيت ، والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه ثمرات الأخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلى . لقد يبدو لكم الخبر غريباً ، أليس كذلك ؟

آه . لقد كانوا معشراً عجيباً من المجانين ، إن شئتم هذه التسمية ، ولكن مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعاً — أباً عن جد — أصحاب عواطف عارمة جامحة ، تدفعهم من كيانهم كله دوافع قوية إلى أبعد السبحات وإلى التفانى وفرط التحمس ، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم ؛ وهذا منهم بمقام فرط التدين فى بعض النفوس . وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين رواد المجالس أزيار النساء . وكان يتردد فى أوساطهم وبين ذوى رحمهم قولهم : « عاشق عشق بنى سانثيز » ، وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم . فكلهم شعره ذو خصل منسدلة على الجبين ولحيته جعدة وعيناه واسعتان ينفذ شعاعهما فى نفسك فيبلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً

وكان جد الغلام — الذى رأيتم فى أصبى تذكاره الوحيد — له مغامرات عدة ومبارزات وسبى واستباحة للحريم . وقد هام بعدها وهو فى نحو الخامسة والستين بابنة مؤاجر ضياعه . وإنى لأذكرها . وكانت شقراء شاحبة اللون ، حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدة وفى صوتها لين وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية فى الحلاوة كأنها نظرة العذراء فى صور الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده ، وسرعان ما أصبح متيما بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان فى القصر تجدان الأمر طبيعياً لطول ما قر الحب فى تقاليد الأسرة . فالموضوع ما دام محوره العشق فليس فيه ما تنكرانه وتتعجبان منه . وإذا دار الحديث أمامهما عن هوى قامت الموانع دون قضاء لباناته ، أو عاشقين فسد ما بينهما أو وقائع الانتقام من الخيانة أو نقض العهد ، قالتا معاً فى لهجة شجية : « له الله ! أو (لها الله !) لشد ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر هذا المبلغ » ثم لم تزيدا على ذلك . وإنهما لترقان لمآسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابها ولو أجرموا

إلا أنه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب فى عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جرادبل فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانثيز هادئاً كأن لم يحدث شىء . وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقا بمرقد الكلاب وهى حوله

وقد مات ابنه مثل هذه الميتة فى فندق بباريس فى أثناء رحلته سنة ١٨٤١ ، على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك بعده ولدا فى الثانية عشرة وأرملة هى أخت أمى . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا فى بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعا —

ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانثيز مدهشا باكر النضوج قبل الأوان . وإنه ليخيل الى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس جائشة قد اجتمعت فيه ونزلت به ، بهذا العقب الأخير . وكان على الدوام حالماً يتمشى وحيداً ساعات كاملة فى ممشى رحيب بين أشجار الدردار ممتد من القصر الى الغابة . وكنت أرقب من نافذتى هذا الصبى الرقيق الوجدان وهو يسير وقور الخطى ويداه خلف ظهره مطرقا الى الأرض ، وأحيانا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان فى سنه



وكثيراً ما كان يدعونى للخروج بعد العشاء فى الليالى المقمرة قائلاً : « هلمى يا ابنة الخالة نحلم . . » فنمضى سويا الى الروض . وكان يتوقف فجأة فى الفضوات بين تفاريج الشجر حيث تطفو تلك الهبوة البيضاء مثل نديف القطن يبطن بها القمر فجوات الغاب . ويقول لى وهو يشد على يدى : « انظرى الى هذا ، انظرى الى هذا ! ولكنك لا تفهميننى ؛ إنى لأحس ذلك . لو إنك تفهميننى لكنا سعداء . لابد من الحب لمن شاء المعرفة » . وكنت أضحك وأقبله ، أقبل هذا الصبى الذى يحبنى مستهلكا فى حبى . وكان أيضا بعد العشاء كثيرا ما يجلس على ركبتى أمى قائلاً لها : « إيه يا خالة ، قصى علينا شيئا من قصص الحب » فتحكى له أمى على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية ، والناس يرددون منها الألوف بعد الألوف من صحيحة ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فقد كانوا يستجيشون لها ثم تملكهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعها ؛ وكان فى بعض الأحيان يدق بيديه مردداً : « وأنا أيضاً ، وانى لأعلم بالحب منهم جميعاً » . ثم جعل يتحبب إلىّ متغزلاً فى استحياء وحنان عميق كانا مثارا للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان فى كل صباح يقطف لى جنى الزهر ، وفى كل مساء قبل صعودى الى مقصورتى يلثم يدى هامساً : « أنا أهواك ! »

لقد أذنبت ، وركبنى أعظم الذنب . ومازلت على هذا نادمة باكية لا يرقأ لى دمع . وإنى لفى التكفير عن هذا طيلة حياتى ، وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة ، أجل أنا له ، الأرملة . كنت ألهو بهذا الحب الصبيانى بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت المرأة الخلوب ذات الدل ، وكأنى إلى جنب رجل ألاعبه وأخاتله . لقد فتنت هذا الغلام ودلهته بحبى . وكان الأمر عندى لعباً ومعابثة، وعند أمى وأمه تسلية وترويحا . . لقد كانت سنه اثنتى عشرة سنة ، فتأملوا ! من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الذرّى ! فكنت أقبله ما شاء ، بل كنت أكتب رسائل العشق له وأقرئها أمى وأمه قبله ؛ وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد احتفظت بها . وكان معتقداً أن صلتنا الغرامية سراً مكتوماً ، وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلاً والأمر فى عرفه الجد كل الجد . وقد غاب عنا أنه من بنى سانتيز

ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام . وفى ذات مساء ونحن فى الروضة خرّ جاثياً عند قدمىّ والثم حاشية ثوبى فى اندفاع المهتاج مردداً : «أنا أهواك ، أهواك ، أناميت فى هواك . وإذا خنتنى فى يوم من الأيام ، أسامعة أنت — إذا هجرتنى إلى سواى فأنى صانع مثلما صنع أبى . . .» وأردف فى صوت عميق يقشعر له البدن : « أنت عليمة بما صنع ! »

ولما وجمت ولم أحر جوابا نهض وشبّ على أطراف قدميه ليبلغ إلى أذنى — وكنت أفرع منه

طولا -- ودعانى باسمى ، اسمى الأول ، « جنفييف ! » بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتنى منها قشعريرة سرت من فرعى إلى أخمص قدمى

فغمغمت: « لنرجع ، لنرجع إلى الدار » . فلم ينبس بكلمة وسار فى إثرى ، فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفنى : « أتعرفين ، إذا هجرتنى فأنى قاتل نفسى »

فعلمت هذه المرة أننى تماديت حيث لا يجب التمادى وتكلفت معه التحفظ . ولما أن كتب ذات يوم يعتب علىّ أجبته : « أنت اليوم أكبر من عبث المزاح وأصغر من جد الحب . وإنى فى الانتظار » . وحسبتنى بهذا قد أبرأت ذمتى

وفى الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية . فلما عاد فى الصيف التالى كنت مخطوبة . فأدرك الأمر فى الحال ، والتزم مدى ثمانية أيام هيئة المفكر الغارق فى التفكير . فأهمنى ذلك وساورنى منه قلق شديد

وفى صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومى فوقعت عيناى على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتها وفتحتها وقرأت فيها : « لقد هجرتنى ، وأنت تعلمين ما قلته لك . لقد قضيت فىّ بالموت . وإنى لأحب ألا يعثر بى أحد غيرك ، فتعالى إلى الروض فى نفس الموضع الذى قلت لك فيه أنى أهواك وتطلعى فى الفضاء »

فكدت أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابى وهرولت على عجل أجرى وأجرى وأكاد أتساقط إعياء إلى المكان المعين . وإذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الأرض فى الوحل ، فقد كانت الليلة مطيرة . ورفعت طرفى فأبصرت شيئاً معلقاً يترجح بين الورق ، وكان يوم ريح ، ريح شديدة

ولا أدرى بعد ذلك ما صنعت . لقد صرخت أول الأمر ولا ريب ، ولعلنى سقطت بعدها مغشياً علىّ ، ثم عدوت هائمة على وجهى إلى القصر . وثبت إلى الرشد فى فراشى وأمى إلى جانبى



تخيل إلى أنى رأيت ما رأيت كله فى هذيان حلم فظيع . فغمغمت : « وهو ، هو ، جونتران ؟ » . فلم يجبنى أحد . إنها الحقيقة

ولم أجرؤ على طلب رؤيته . وطلبت إليهم خصلة طويلة من شعره الأشقر . وهذى ... هذى ... هى ...

ومدت العانس يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء وأخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيها الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطوبة دون إبداء السبب .. وبقيت ... بقيت طوال العمر ... أرملة ... أرملة هذا الصبى ابن الثلاثة عشر ربيعاً » . ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلاً بدموع الذكرى

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد ، مال صياد غليظ الجسم قد أفسدت عليه الحكاية صفوه إلى أذن جاره هامساً : ألا ترى رقة الوجدان إلى هذا الحد بلاء وشرّ بلاء !

عبد الرحمن صدقى

اليأس في الحب

للكاتب الفرنسي بلزاك

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

عندما اعتزم الملك هنرى الثامن تزيين قلعة « امبواز » ، جاب إلى تلك القلعة عدداً من مهرة الصناع ، فمن مشاهير النحاتين إلى أساطين النقش والزخرفة إلى غير هؤلاء وهؤلاء من أعاظم البنائين ورجال العمارة ؛ ولقد زين هؤلاء ردهات القلعة بآيات فنونهم ، بيد أن الاهمال قد شوه ما أبدعت أيديهم من زمان بعيد .

وكان ذلك العمل يومئذ حديث الحاشية وشغلها إذ كان الملك كما هو معروف ، يهتم بأن يرى بنفسه مبلغ ما تجود به قرائح هؤلاء الرجال .

وكان بين هؤلاء الفنانين شاب إيطالى يدعى أنجلو كابارا ؛ وهو رجل مشهور المقام ، وثيق الكفاءة ، حتى لقد كان على الرغم من حداثة سنه يبذ أقرانه جميعاً في النحت والحفر . ولقد دهش الناس يومئذ أن رأوا رجلاً مثله في ربيع حياته الباكر ، يصل إلى مثل ما وصل إليه من نبوغ . حقا كان ذلك عجبا ، إذ لم يكن يبدو على محيا ذلك اليافع إلا اليسير من تلك الشعرات التى تشير في الرجال إلى اكتمال رجولتهم واستوائهم .

ملك هذا الفتى الايطالى قلوب الأوانس وشغفهن حبا ، إذ كن يرينه جميلاً ساحراً كالحلم كما كن يرمقنه حزيناً كاسفاً كالطائر الجميل ثوى في عشه يندب موت إلفه .

وكان أنجلو فقير الحال ؛ ولقد ذاق هذا النحات الفذ آلام الفاقة ، وخبر شقاء العيش ، وأدرك مبلغ ما يضعه الفقر في طريق الحياة من صعاب وعوائق ؛ عاش عيشة ضنكا ، يقنع باليسير من الطعام ، ويخجل من إعوازه وإملاقه ، ولا يستغل مواهبه إلا في أشد حالات اليأس ؛ وكم كان يود أن تتاح له الحياة الهادئة الساكنة التى يعدها أحسن حياة لهؤلاء الذين تمتلئ رؤوسهم .

أتى ذلك الايطالى الحيي ذات يوم إلى الحاشية في أحسن حلله ؛ ولقد عقد حياء الشباب لسانه كما حال سوء طالعه دون أن يسأل الملك أجر عمله . ولما رأى الملك من هندامه ما رأى ظنه رافهاً ناعماً لا يعوزه شئ . ولقد اعتاد رجال الحاشية كما اعتادت الأوانس أن يظهروا إعجابهم بسحر بنانه ، كما كانوا يعجبون بشخصه . ولكنه مع ذلك كان لا يصل إلى يده شئ من المال .

وكان الجميع ، وعلى الأخص النساء ، يرونه غنيا بما وهبته الطبيعة من سمات الجمال . من أجل ذلك حسبوه بشبابه وشعره الطويل الفاحم وعينيه اللامعتين من ذوى الثراء ؛ ولم يخطر لهم الكسب في بال ، بينما هم يفكرون في تلك الأشياء وفيما وراءها . ولقد كانوا في زعمهم محقين ، إذ طالما أتاحت مثل هاتيك الصفات للكثيرين من سفلة الحاشية أن

ينعموا بالضياع الواسعة والمال والجاه .

وكان أنجلو على الرغم من مظهره الذى أفاضه عليه شبابه ، لا يتجاوز العشرين من سنى حياته ، ولم يك على حداثته غرا ؛ وكان كبير الرؤاء ، يتلىء رأسه بالشعر ، وفضلاً عن ذلك كان من ذوى الخيال البالغ السمو . ومع أنه كان قليل الثقة بنفسه شأنه فى ذلك شأن غيره من مساكين الناس وتعسائهم ، كان يدهش لنجاح الأغفال الجهلاء . ولقد كان يتوهم أنه قد ركب فى فطرته بعض الخطأ ، فهو ناقص إما فى جسمه أو فى عقله . على أنه أمر تلك الأفكار فى نفسه ؛ كلا ! بل لقد كان يشكو حاله فى ضوء النجوم إلى الأطياف الحائمة وإلى بارئ السموات ، وإلى الشيطان ، وإلى كل ما يحيط به !

كان فى مثل تلك اللحظات يرمض الألم نفسه أن حباه القدر مثل ذلك القلب المتوقد الذى ما كان يشك أن النساء يتقينه كما يتقين قطعة الحديد المحماة ! ولكنه كان يقول فى نفسه إن هذا القلب هو الذى يعرف الحب حقا ، فاذا ما أحب غادة فأى حب ذلك الذى كان يفيضه قلبه ! وأى إعزاز ذلك الذى كان يحيطها به طول حياته ! وأى إخلاص ذلك الذى كان يربط شخصه بشخصها ! أجل ! لو أتيح له الحب ، فانه يخدم حبيبة نفسه بكل ما يملك من عاطفة ، ويكون أبداً رهن إشارتها ، يبتكر من دواعى السرور وأساليب التسلية ما يدفع به ما عساه أن ينعقد الهم حولها من سحب خفيفة ، أيام يغشى السماء سواد الغمام .

كان يمثل له خياله أحياناً فتاة يجعلها مهوى فؤاده ، فيروح يلقى فى الخيال نفسه على قدميها ، ثم يضمها إليه ويطبع على وجنتيها من القبلات ما شاء له الهوى ويطوى بساعده خصرها ؛ وفى عمله هذا من الحقيقة بقدر ما فى خيال السجين وهو يتمطى بجسده على العشب الأخضر الذى يتراءى لعينه خلال قضبان سجنه ! وفى لحظة عناقه يطالب إليها الصفح والمغفرة ، ثم يذهله عن نفسه حدة شعوره ، فيمعن فى عناق خليلته حتى ليوشك أن يقطع عليها أنفاسها ، وينقلب على الرغم من تحشمه ووقاره جريئاً لهجاً ؛ فيعض بأسنانه طرف فراشه فى حدة وانفعال باحثاً عن فتاته الخيالية ؛ وهكذا يرى نفسه شجاعا فى عزلته ، بينما تراه يستولى عليه الخجل فى غده إذا مر فى طريقه باحدى الفتيات !

على أن تلك الأحلام الجميلة : أحلام الحب كثيراً ما كانت تحفزه إلى العمل فيقبل على منحته فيصور به وجوهاً جميلة ، ويبرز صدوراً ناهدة ، عليها من فاكهة الحب ما يتحلب لمرآها ريق الناظرين ، هذا فضلاً عما كان يلده خياله من فنون الجمال وصوره . وكان النسوة يدلين بآرائهن عن تلك الآثار وهن مأخوذات بجمال مبدعها كابارا الفتى . وكان كابارا يحدجهن من أعلى إلى أسفل ، وهو يقسم جهد أيمانه لئن مدت إحداهن إليه أصابعها مرة ليقبلها ، ليصلن منها إلى ما تشتهى نفسه

وجاءته ذات يوم إحدى أولئك النسوة المدلات بسمو درجتهن ؛ جاءت بمفردها تسأل الشاب الايطالى ماذا يخجله ، وتستفهمه ألا تستطيع واحدة من نساء البلاط أن تجعل منه حديث مجالس ورجل « صالونات » ، ثم دعته فى رقة وظرف الى أن يزورها فى بهوها تلك الليلة .

ورش أنجلو على جسده ما وسعه من العطور واشترى قبعة من القطيفة يطرزها شريط مزدوج من الحرير ، كما استعار من صديق له عباءة واسعة الردنين ، وحلة تزينها الخيوط ، وسروالاً من الحرير ، واتخذ سبيله إلى منزل مضيفته ؛ وصعد السلم بقدمين

خفيفتين يلمع الأمل فى مقلتيه ، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل حيال قلبه ، وقد كان يثب فى صدره ويخفق فى عنف وسرعة ! كذلك كان يتساقط العرق على ظهره

كانت السيدة وافرة الحظ من الجمال ، وكان كابارا لاريب يفطن إلى ذلك ، فهو فى فنه ملم بتكوين الذراعين ، خبير بما يحد الجسد ويبرز جماله ، عليم بما يحيط بالأنثى من سر يذيع فى جسدها السحر ، إلى غير ذلك من خفايا الجمال وخبيئاته . ولقد رأى صاحبته ترضى بتكوينها أدق قواعد الفن ؛ وفضلاً عن فتنة ملامحها ورشاقة قوامها ، كان لها صوت تضطرب له النفس من أعماقها ، صوت يضرم جذوة القلب ، والعقل وجميع الحواس . وجملة القول لقد كانت تلك الغادة تبعث بجمالها فى خيال المرء من أطياف الحب الساحرة مالا تفكر هى فيه ؛ وتلك هى خاصة أولئك النسوة اللعينات !

وجدها النحات جالسة على مقعدها إلى جانب الموقد ، وسرعان ما بدأت الحديث فى يسر ، ولو أن صاحبها لم يجد لديه جوابا غير لا أو نعم . خذلته حنجرته فلم تقو على لفظ ، وخانه عقله فلم يجد بفكرة ؛ وظل يمتع نفسه بأطالة النظر إلى تلك الحسناء والاصغاء إلى صوتها ، تلك السعادة التى ما كان يحجم عن شرائها بضرب رأسه إلى جانب الموقد ! وكانت صاحبته تلعب أمام عينيه كالفراشة الجميلة فى ضوء الشمس . وعند منتصف الليل غادر النحات الصغير المنزل تشع بالسعادة نفسه ؛ ذلك أنه فى أعجابه الصامت قد ألفى نفسه وعشيقته يسلكان فى هون طريق الحب الزاهر

وفكر وهو سائر فى طريقه ، فراح يقول لنفسه : إذا سمحت سيدة نبيلة له أن يجلس إلى جانبها هكذا أربع ساعات من الليل ، فما يظن هناك أية صعوبة فى أن تسمح له بذلك بقية الليل ، ولما استخلص من تلك المقدمات بعض النتائج البهيجة السارة عقد النية على أن يطلب إليها كامرأة ساذجة ما يشتهيه من حظوة ، ثم صمم أن يقتل أى شخص يعترض طريقه ؛ يقتل الزوج أو المرأة ، أو يقتل نفسه ، فذلك خير عنده من أن يسمح لأحد من أن يفوت عليه ساعة استمتاعه التى يتوخاها . حقاً لقد ذهب الحب بعقله ، وصار من جنونه أنه يعتقد أن الحياة رهان صغير فى ميدان الحب ، ما دام أن يوما واحداً من أيامه يعدل ألف حياة !

أخذ الايطالى الصغير منحته وراح يسوى تماثيله ، ولكنه كان يفكر فيما كان من أمر تلك الليلة ، ولذلك فكم شوه من أنوف كان يفكر فى سواها ؛ ولما فطن إلى ذلك نفض من العمل يده ، ورش العطور على ملابسه وانطلق إلى خليلته يستمع ~~إلى أحاديثها العذبة ، وهو يؤمل أن يحول كلماتها~~ إلى حقائق . ولكنه حينما وجد نفسه بين يدى ملكته سيطر عليه جلالها النسوى ؛ وأحس كابارا المسكين وهو ذلك الأسد فى الشارع أنه من النعاج وهو يحدج فريسته

ولكنه على الرغم من ذلك حينما ألحت عليه الرغبة لم يحجم عن تطويقها بذراعه ، ثم استجمع قوته واغتصب منها قبلة . وكان ذلك الاغتصاب مدعاة سرور لنفسه ، فعادة النساء أن يعدن فيتمسكن بحق المنع والذود عن أنفسهن إذا جدن بقبلة ، ولكنهن إذا أرغمن على منحها أو إذا سلبنها لا يسعهن إلا التسليم بعدها بألف من مثلها ؛ وذلك يفسر لنا السبب فى أن الكثيرات منهن يأبينها إلا اغتصابا ! ولقد استطاع ذلك الايطالى أن ينال من تلك القبلات عدداً ، وخيل إليه أن الأمور سائرة كما يحب ، لولا أن صرخت تلك السيدة التى كانت من قبل ضنينة قائلة : « زوجى .... » . ولم يك ثمة غير الرحيل فقد عاد

ساعتئذ ذلك السيد من لعبة التنس ؛ وخرج النحات تشيعه غادته بنظرة حارة ، إذ بوغتت ساعة نشوتها !

وظل نصيب الفتى الايطالى من عشيقته على هـذا النحو لا يتغير زهاء شهر ؛ لا يكاد يصل إلى حافة ما يريد حتى يحضر الزوج . وكان حضوره أبدا فى تلك اللحظة التى تقع بين التمنع وبين الملاطفة التى تعقبه ، ويريد بها النساء أن يلطفن من وقع إبائهن ، وهن بذلك إنما يجددن الحب ويزدنه قوة على قوة !

وأخيراً نفد صبر ذلك الفتى ، فأراد ذات ليلة أن يختصر الطريق إلى غايته ، فتخطى إليها ضروب المغازلة فى جرأة وسرعة ليتم له الظفر قبل مباغتته ، ولـكن غادته وقد قرأت فى عينيـه ما انتوى تنكرت له بعض التنكر والتوت عليـه بعض الالتواء ! أخذت أول الأمر تتظاهر بالغيرة لتمهد السبيل للطعن فى الحب وإعلان سخطها عليه ؛ ثم عادت فأطفأت قليلا من غضب صاحبها بندى قبلة ؛ واستأثرت بعد ذلك بالـكلام ، وراحت تؤنب عشيقها وتعلن إليه أنها تحب ممن تهواه أن يكون خيراً وأن يظـل مطيعاً لمشيئتها ، وإلا فان تضع بين يديه حياتها وروحها . كما راحت تفهمه أن رغبته فى نيل وطره تدل على أنه ينظر إلى الحب نظرة وضـيعة فـما أيسرها قربانا . ولذلك ترى نفسها أكثر شجاعة منه ، لأنها وقد أحبته أكثر مما يحبها قد ضحت أكثر ممـا يضحى . وكانت تجيب على اعتراضاته بقولها : « الزم الصمت أيها السيد » ؛ تلقيها فى لهجة الملكة ومظهرها . وفى بعض الأحيان كانت تقابل تقريع كابارا ولومه بنظرة غاضبة ، إلى أن صارحته قائلة : « إن لم ترض نفسك على أن تـكون كما أحب ، فلن أهبك حبى بعد اليوم »

ورأى الايطالى أن حبها لم يكن حباً نبيـلا ؛ وإنما كان حباً لا يستمتع به العاشق ، كمال البخيل لا يستمتع به وإن فاضت به خزائنه ؛ ورأى تلك السيدة تلهو بأن تدعه حول السياج يثب ويقفز هنا وهنالك ويعتبر نفسه مالك كل شىء ، إلا أن يقرب من حديقة الحب

بلغ من حنق كابارا مما صار إليه أمره أن أصبح وحشيا لا يحجم عن قتل أى إنسان ؛ ولذلك جمع بعض من يثق بهم من رفاقه ، ووكل إليهم مهاجمة الزوج وهو فى طريقه إلى منزله ، بعد أن يفرغ من لعب التنس مع الملك . وانطلق إلى غادته فى تلك الساعة التى يحلو فيها لقاء العاشقين وتطيب المغازلة والمداعبة . ولقد كان حظه من ذلك وافراً تلك الليلة ، لم يدع وسيلة من وسائل اللهو والمزاح إلا أداها فى حماسة وأناقة . أجل ، لم يحرم سوى تلك المتعة التى يتحاشى الـكتاب عادة ذكرها ، لـما يرونه من شناعة أمرها . واتجه الحلو إلى خليلاته على حين غفلة قائلا لها :

— « يا غادتى الفاتنة ، أتحبيننى أكثر مما تحبين أى شىء ؟ »

ولـما كانت الـكلمات لا تـكلفها شيئاً أجابت قائلة : « نعم » فقال :

— « هذا حسن ، إذن فلتكونى لى فعلا كما أنت لى قولاً » فقالت له :

— « ولـكن زوجى عائد بعد برهة » فقال :

— « أذلك هو السبب الوحيد ؟ » فقالت :

— « نعم » فقال لها :

— « قد وضعت فى الطريق بعض أصدقائى ، وسيعترضونه ولا يطلقونه حتى أغادر المنزل وأرفع شعلة فى هذه النافذة ؛ فاذا رفع إلى الملك شكواه فسيدافعون عن ذنبهم بأنهم حسبوا أنفسهم عازحون صديقاً من طبقتهم »

— « آه يا عزيزى ! دعنى أتأكد من أن كل إنسان هنا نائم فى مضجعه »

ثم نهضت فأسرعت إلى النافذة ورفعت بيدها الشملة ! ولكن كابارا لم يكد يراها تفعل ذلك حتى وثب فأطفأها ، واستل سيفه ، وواجه تلك المرأة التي تبين في عينيها روح الازدراء وخبث النية وقال :

— لست أريد قتلك أيتها السيدة ، ولكني أريد أن أشوه جمال هذا الوجه ، بحيث لا تستطيعين بعد ذلك أن تلعبي بأفئدة هؤلاء الفتيان الذين تضيعين حياتهم . لقد عملت على خديعتي بأساليب مخجلة ، وتبين لي أنك امرأة لا تعرف معنى الاحترام . يجب أن تتعلمي أن القبلة لا تنقع غلة عاشق ، وأن الفم الذي ذاق طعم القبلة لا ينفك يطالب ما بعدها . لقد كنت سبباً في شقائي ، وستظل حياتي أبدا بعد اليوم تعسة مظلمة ، والآن أريد أن أجعلك تتذكرين إلى الأبد موتي ، ذلك الموت الذي هيأت أنت أسبابه . سوف لا تقفين بعد ذلك أمام المرآة إلا ترين وجهي إلى جانب وجهك »

رفع بالسيف يده ليقطع به صفحة خدها النضر ، ذلك الخد الذي مازال يحمل آثار قبلاته ، فصاحت به المرأة قائلة : « تباً لك من شقي ! » فقال لها :

— « كفي عن الكلام ... لقد أخبرتني أنك تحبينني أكثر مما تحبين أي شيء ، والآن تجيئين بحديث آخر . . . ظللت ترفعينني كل ليلة درجة نحو السماء ، حتى رأيتك تلقينني بضربة واحدة في الجحيم ، وتظنين أن ثيابك تحول بينك وبين نقمة عاشق غاضب ... كلا ! »

وأجابت الغادة وقد استولى عليها الدهش لمرآى ذلك العاشق الذي يلتهب غضباً قائلة :

« آه ! أنجلو ! حبيب قلبي ! إني لك . »

ولكنه تراجع إلى الوراء ثلاث خطوات ، وأجابها بقوله : « أيتها المرأة ... أنت يا امرأة البلاط ، يا صاحبة القلب الشقي ... إنك إذن تحبين وجهك أكثر مما تحبين عشيقك »

عندئذ شاعت في وجهها الصفرة ، ورفعت ذلك الوجه ، وفطنت في تلك اللحظة إلى أن مكرها قد أفسد عليها حبها . أما أنجلو فقد خمش خدها بسيفه وفر هارباً من المدينة كلها . ودخل الزوج فألفى امرأته وقد نال خدها الأيسر ما ناله ، ولكنها لم تنبس بكلمة على الرغم مما كانت تعاني من ألم . لقد أحبت كابارا أكثر مما تحب الحياة نفسها ؛ ولكن الزوج أصر على أن يعرف من فعل هذا بامرأته . واتجه نظره إلى كابارا ، وقد حامت الشبهة حوله ، فرفع أمره إلى الملك ، وأمر الملك فجيء بذلك الايطالي وسيق إلى الاعدام في « بلوا »

وفي غداة اليوم الذي عين لتنفيذ الحكم تقدمت سيدة نبيلة ، وقد حفزتها رغبة شديدة إلى محاولة انقاذ ذلك الشجاع الذي رأت فيه عاشقاً كأفضل وأكمل ما يكون العاشق . توسلت تلك السيدة إلى الملك أن يهبه لها ، فقبل توسلها في غير عناء . ولكن كابارا أعلن أنه لن يعرف امرأة ، ولن يدين لامرأة غير تلك السيدة التي تيمته . ولذلك رأى أن يلتحق بالكنيسة ، ومن ثم أصبح كاردينالا وعالما من كبار العلماء . واعتاد أن يقول في شيخوخته إنه عاش ما عاش من سني حياته على ذكرى تلك اللذات التي ذاقها في ساعات نزواته ، إذ كان يلقى على يدي غادته أحسن ضروب المعاملة وأسوأها معاً . على أن هناك من يقولون إنه لم يلتحق بالكنيسة وأنه نجح بعد ذلك في تهيئة حياة هادئة مرضية مع تلك التي ملكت قلبه . ولكني لا أصدق هذا القول ، لأن كابارا كان رجل عاطفة يعرف حق المعرفة قوانين الحب المقدسة

الخفيف

من الأدب الإيطالي

عدو...

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

كان جالساً فى حجرة المطالعة التى نضد بجوار النافذة شارد اللب ، مشتت الخاطر ، يحدق فى الفضاء المتراى أمامه لا يُثبت شيئا ولا يحققه ، وقد اضطربت فى رأسه خواطر .. خواطر سوداء يريد أن يطردها بما ينفثه من دخان سجائره . كان كذلك حين نادته زوجته من خلف الباب « بيترو بيترو ؛ أأستطيع الدخول ؟ » ثم .. ثم دفعت الباب فى رفق وهى تقول : « أرجو أن تميرنى سمعك قليلا ، سأقص عليك خبرا هاما » وتقدمت فى هدوء وهى تلوّح بمنديلها تطرد به سحب الدخان المتكاثفة هنا وهناك : لقد أفرطت فى التدخين يا بيترو ، وهو يهدّ من كيانك . لماذا تجلس صامتاً فى الظلام ؟ وكان ثوبها الحريرى الجميل يحف حفيفاً خفيفا ، وقرطها الماسى يشع نورا ؛ وكانت هى تبدو أنيقة جذّابة لأن هذا اليوم هو يوم الاستقبال ...

وزفر الزوج زفرة عميقة ثم نظر الى زوجته وهو يبسم فى تهكم ويقول : «لماذا رتبت شعرك بمثل ما أرى وقد جاوزت سن الفتاة ؟ » فاضطربت شفتاها وقالت : « إن شعرى لا يلبث أن يشمط ، ولكن لابد للمرء أن يبدو أنيقاً حين ينتظر قدوم الزائر » ، وفى لهجة السخرية قال : « حقاً . إن هذا اليوم عظيم . إن النواقيس لا تنفك ترنّ رنينها العذب ... »

واقتربت الزوجة رويداً رويداً من زوجها وقالت وهى تبسم فى رقة وقد طرحت وراءها كل تهكماته : « أتعرف سالفيتى ... سالفيتى القانونى الشاب ؟ إن أمه كانت هنا اليوم ؛ أفهمت ما أعنى ... ؟ »

فقاطعها الزوج فى جفاء وقال : « لا ، أنا لا أعرفه »

« إنك تذكره تماما ! القانونى الشاب ! إنه يبدو أنيقا رقيقاً ! »

« أنا لا أذكره »

وفى الحق لقد كان بيترو يعرف الشاب ، ولكن أى قوة على الأرض تستطيع أن تنتزع من بين شفتى هذا العنيد اعترافا ؟

فقالت الزوجة فى رقة : « لا بأس فأنا موقنة بأنك ستذكره حين تراه . لقد أسهبت أمه فى وصف ابنتنا إيلينا بصفات الجمال والكمال والرقة والأنوثة و... ثم راحت تطلبها زوجا لابنها الشاب فى رجاء واستعطاف فوافقت ؛ وسيزورك زوجها بعد ... »

« وافقت ؟ أحقاً ما تقولين ؟ »

وصاحت المرأة : « بيترو ! أى زواج خير من هذا الزواج ؟ وايلينا تهوى الفتى ! ... »

وانتفض الرجل كمن مسه طائف من الشيطان يرعد ويزأر هائجا مضطربا « وكيف ؟ كيف استطاعت الفتاة أن تغرم بهذا الشاب ؟ أين تلاقيا ؟ أريد أن أعرف ... وأنت ... أنت التى لا تعرفين معنى الأمومة ، كيف تركت لها العنان لتندفع فى طريقها طائشة ؟ هيه ! نعم ! لقد سمحت لابنتك أن تحب رجلا لا أعرفه ! لعلهما تراسلا أيضا ! ولعلك كنت واسطة بينهما ! لقد تمت القصة وعلى عينى ستار كثيف أسود !

واضطربت المرأة ، وخارت قوتها ، وطارعنها ثباتها ؛ فغطت وجهها بيديها تخفي بعض خجلها ، وتستر ضعفها النسوى المنسكب من عينيها ، ثم راحت تنتزع الكلمات من بين شفتيها انتزاعاً : « لا لا يابيترو ، لقد ظننت أني أحمل إليك بشرى ، لماذا أنت كذلك ؟ لماذا ؟ ماذا اقترفنا ، وأى غرابة فى ذلك ؟ شابان راق كل منهما فى نظر صاحبه فتعلق أحدهما الآخر وأحبه ، وبادله الآخر حباً بحب وغراماً بغرام ؛ أليس هـذا ما كان بيننا يابيترو ؟ أنت ظالم ... »

وكان الرجل ظالماً ، وبدا فى جلسته مهموماً مضطربا ، وقد تدلى رأسه كأن فيـه ثقل جبل ، وكانت أفكاره تضطرم اضطراماً ، وأحس كأنما يعانى ألماً ممضاً ، وحين كبح جماح غضبه ارتد هـذا فى جسمه فتوراً واستخذاء ، واستيقظ ضميره يخزه وخزات شـديدة تؤلمه ، كما آلمته أعصابه المضطربة من قبل . نعم لقد أحب سليليا وهام بها ، فسعى إليهاوقد اختارها لنفسه ، ثم ... ثم فاز بهـا بعد طويل عناء . إنها قصـة غرام قديم ... قديم منذ نيف وعشرين سـنة ؛ ولـكن الحقيقة لا تهرم ، وعلى رغم أن العقد الثالث من عمر سليليا قد انفرط منـذ زمان إلا أنها لا تزال جذابة جميلة . أما هو ... وهو يحبو للخمسين يبدو للعين كمن جاوز السبعين ؛ أما قلبه فمـا برح شاباً يؤمن بالحب ، ويحبوه بما فى رأسه ويده معاً ، لذلك ... لذلك كان الرجل ظالماً

وحين تراءى له فى خياله كل ذلك تقارظته الهموم فصاح: «سليليا، أعصابى!...دعى هذا الأمر الآن...»

وكفكفت المرأة عبرات الخيبة فى صمت ، ثم انطلقت إلى ابنتها حزينة كئيبة تحدثها الحديث كله ، وتقف فى طريقها إلى أبيها الثائر خشية أن يقع فى أمر . وساد صمت رهيب حين علم الجمع أن أعصاب الأب تضطرب ، فأمسك فرنسسكو عن العزف على البيان ، وتركت لوشيانا لعبتها ، وصمت بيبينو الصغير عن استذكار دروسه ، حتى الخادم المسكينة ، خففت من وطئها وهى تمد المائدة لئلا تزعج سيدها ...

وعلى المائدة جلس الجميع فى سكون ، وبدت إيلينا قلقة جزعة ، وقد سيطر عليهـا اليأس ، واضطربت الشوكة فى يدها فسقطت ، وفى سذاجة الطفل التقطها بيبينو وهو يبسم ، ثم انفجر ضاحكا ؛ وضحكت لوشـيانا ، ثم فرنسسكو ، حتى الأم الحزينة افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة . وغاظ الزوج ما رأى ، فأراد أن يخمد هـذه الزوبعة فى خشـونة وغلظة ، فنظر إلى زوجته ومن عينيه يتطاير شواظ يتقد وقال : « أعدى ملابسى ، سأسافر غـداً إلى قريتنا ... قريتنا فالكونيتـوا » ، وذعرت الزوجة وتردد نظرها حائراً بين الزوج الحنق وبين الفتاة وهى تتلقى الصفعة القوية . وأدرك الجميع ما أراد الأب ، فاطرقوا فى حزن إلا بيبينو الصغير ، فقد لمعت عيناه بالفرح ... فرح التلميذ الصـغير ينتظر الأجازة ... فأشار اليه الأب : « أمسرور أنت لأنى ذاهب ... ؟ » فارتمد الطفل وقال : « لا ، لا يا أبى ، حقاً لا ! »

وانطلق الأب والزوجة تقول له فى صوت ضعيف : « أتعود قريباً ؟ لا بد أن تفكر فى هذا الأمر » فقال : « أى أمر ؟ » قالت : « زواج إيلينا ! إن ذهابك معناه الرفض والتحدى معاً . إن سعادة ابنتك فوق كل عمل فى فالكونيتو » ولـكنه كان فى ثورته يبدو عنيداً فقال : « لا جرم أن المرأة حين تفكر فى الحب تراه فوق كل عمل وان كان عظيما ! »

لم يكن العمل هو الذى دفع الزوج الى القرية ولم تكن الرغبة ، وإنما كانت النفس الشريرة التى

فيه هى التى أرادته على أن يسىء الى أهله ...

وصاحت الزوجة : « بيترو ، لا تذهب ... » غير أن الرجل اندفع لا يلوى على شىء حتى إذا كان لدى الباب التفت الى ورائه فرأى . . . رأى أبناءه فى إطراق حزين ، وصمت مؤلم ، وما همّ أحد ليودعه ، فقال له ضميره : « أرأيت ... أرأيت أسرتك المحبوبة كيف تتركهم عبيداً أذلاء ؟ »

وعند انبثاق الفجر كان الزوج فى طريقه الى القرية

* * *

جلس بيترو وحيداً إزاء المدفأة فى بيت قديم له بالقرية ، وخياله عند الجماعة الذين خلفهم هناك فى المدينة ؛ وبدت نفسه رفيقاً له يحدثه : « كأنى أسمع الزوجة تقول لابنتها : أمغتبطة أنت يا إيلينا ؟ فتنطوى الابنة على هم ، ونفسها تضطرم أسى ولوعة . وكأنى بالأولاد من حولها يمرحون ويقولون : ما أجمل المكان حين يرتفع عنه هو ... هذا الكابوس هذا الكابوس هو أنت ... أنت الذى لا يحبك أحد ، ولا يسر لمرآك طفل ... أنت الشبح المخيف ... انهم يكرهونك ويمقتونك ... عجيب هذا ؟ كيف مرت الأيام وأنت تورث الفكرة فى أذهانهم عن جهل منك وغفلة ؟

لقد كان وحيداً ، ولكنه كان هادئاً يستطيع أن يشعر نفسه الأخطاء التى ارتكبها ؛ ويستطيع أن يرى بعينى عقله ثمار القسوة والغلظة وهى مرة كريهة . واستيقظ ضميره مرة أخرى يؤنبه بكلمات لاذعة قاسية ، وحكم هو على نفسه حين نشر على عينيه تاريخ أعوام مضت . لقد كان الى عهد قريب هادئ الطبع ، حلو الشمائل ، رقيق العاطفة ، طيب القلب ؛ وحين أحس مصباح الحياة ينطفئ أمام عينيه لمس هو الظلام فى كل شىء ، وراحت أعصابه تضطرب فما يقوى على ضبطها . ما ذا جنت زوجته وهى رقيقة عذبة الحديث عطوفة رحيمة طيبة ؟ وما ذا جنى هؤلاء الأطفال الأبرياء ليرى هو الهفوة الهينة منهم كبيرة لا يكفر عنها إلا العقاب الشديد ؟ ثم ما ذا فى هذه الأعصاب الفانية المضطربة ؟ لقد كانت رسول الشؤم والظلام فى هذه الدار وأهلها آمنون »

هذه هى النهاية ... !

وطلعت أيام الشباب فى خياله تذكره قصة الماضى .. فرأى أسرته جميعاً تنهد فرقاً من ذكر أعصاب الأب المضطربة ، تلك الأعصاب الظالمة التى وقفت سداً منيعاً فى سبيل زواج كبرى بناته ، والتى أرغمت الصغرى على أن تتخذ خماراً وقد سيطر عليه الشك ؛ ثم هى أخرجت أكبر أبنائه من الدار لا يملك صلدياً يسد به الرمق ، وبيترو .. بيترو نفسه قاسى ويلات ما منّته به هذه الأعصاب الظالمة . لقد كانوا يكرهون الأب ويمقتونه ، لما يرون فيه من الظلم والأنانية ، وكان بيترو نفسه يقول : « آه ، لو أن لى ولدا فقسوت عليه بمثل هذا لخنقتُ نفسى بيدىّ هاتين ... » أما الآن ... أما الآن فقد تراءى له ما يضطرب فى خواطر أبنائه هو جميعاً ، وأحس بما يضمرون له من المقت والكراهية ...

ليته يستطيع أن يطرح عن نفسه ذلك كله ليرجع إليهم وادعاً هادئاً رقيقاً .... وشغلته الفكرة وتصرمت أيام .

* * *

ووافته الزوجة وهى تقول : « ما كنت لأجرؤ على المجىء ، ولكن ... أنت مريض ... أنت مريض حقاً » ثم راحت تبكى فى صمت

وكان هذا الصراع النفسانى قد أنهك الرجل

فهو ذابل ذاو شاحب اللون ، مضطرب لا يكاد يستقر ، غير أنه قال فى لطف : « علام تبكين ؟ هل الأسرة بخير ؟ » قالت : « وأنت . أنت .. يجب أن تعود إلينا » قال : « نعم يجب أن أعود .. أعود إكراماً لأبلينا ، يجب ... ولكننى أجد الراحة واللذة هنا ، وعندى هنا مايشغلنى . يجب ... لأن إيلينا .. سأكتب إليها . »

وكتب :

ابنتى العزيزة ؛ أنا أوافق على زواجك من السنيور سالفيتى ، لك تمنياتى الطيبة وحبى الطاهر « أبوك »

وناول الزوجة الورقة وهو يقول : « أفى هذا ما يكفى ..؟ »

قالت « كفى .. ولكن بيترو ، ماذا وراء الباقى ؟. الجهاز . الناس . الزفاف .. لا عكن أن نرفض ! »

وتغاضى الرجل عن حديثها حيناً ثم نظر إليها وهو يقول : « إن القطار يتحرك فى الساعة الثالثة تماماً»

« وأنت ...؟ »

« سأرافقك إلى المحطة »

وانطلقا جنباً إلى جنب وذراعاً فى ذراع ، والزوجة تقول : «تعال معى يابيترو ، تعال إلى دارنا تعال ! لا تبذر فينا غراس الشقاء بفراقك .! »

فقال الرجل فى هدوء : « سأظل هنا ما بقى لى من العمر لأنكم تشقون بى ، سأعيش هنا .. »

— « وحيداً ! »

— «نعم ، هنا ، انى أريدكم هانئين سعداء»

— « وكيف ... كيف نكون سعداء وأنت هنا ونحن هناك : يتامى وأرملة ؟ »

ثم راحت تندب حظها الأسود العاثر .

قال الرجل « ان كل من فى الحياة يحمل قسطه من المتاعب والأحزان ، وفى كل دار عدوها ؛ فالفاقة والرذيلة والسقوط كل أولئك أعداء ؛ أما دارنا ففيها عدو من نوع آخر هو .. هو انا .. هـذا ما أعرفه وأوقن به ، وليس لى من العزم ما أستطيع أن أخرج عن طبعى هـذا ... عن قسوتى وغلظتى ، ولا أريد أن أبذر فى أبنائى غراس العداوة والبغضاء لى ، لهذا ... لهذا فأنا لا أستطيع أن أرجع إلى دارى ... لن أرجع ... لن أرجع حتى أبرأ »

وبدا لعينى المرأة مراد زوجها ، ووضح لها ما يريد ؛ فقالت فى عطف وشفقة : « سأبعث إليك بفرنسسكو أو سالفيتى فهو فصيح اللسان قوى الحجة ... »

وراحت تودعه فى حرارة وشوق وقد أشرق فى نفسها تاريخ السعادة الأولى حين شبّا حبيبين ، وهى تقول : وسأرسل فرنسسكو يا بيترو ، فهو رحيم ، وهو يحبك ؛ يحبك على رغم كل شىء لأنك أبوه ؛ ثم صعدت إلى القطار

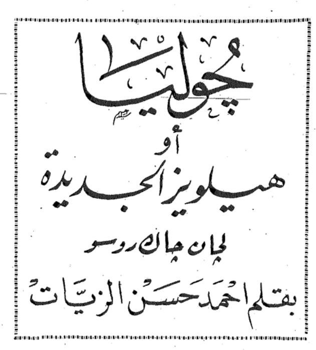
ورجع الزوج يتثاقل كأنما يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً ، وتراءى له ابنه الأكبر فى الخيال يستعطفه ويرجوه ويجثو عند قدميه يبكى ويبكى ... فيصنى هو ، فيلين ، فيلبى ... ثم يرجع ويرجع معه العدو الذى فيه ، فتضطرب الدار ويفزع الأبناء .

أين الخلاص ؟ وبدا له الخلاص وهو يسير على حافة هوة عميقة ، فى خطوة ... خطوة واحدة يتقدمها فى ثبات وعزم ، فأغمض عينيه وسار ...

***

وخرج فرنسسكو ليعود بأبيه فما عاد إلا بقصاصة ورق تحمل إليه النبأ المفزع ... موت أبيه

كامل محمود حبيب





الرسالة الثانية

الى جوليا

ما كان أشد حمقى ونزقى فى رسالتى الأولى يا آنستى ! لقد كنت أرجو أن أنفّس بها عن صدرى المكظوم وقلبى المهموم ، فاذا بى أعرِّض نفسى من جرائها لسخطك ! وأشق الأمور كلها علىّ أن أفعل ما يغضبك أو ما لا يعجبك . إن سكوتك وفتورك وانقباضك هى الدلائل المنذرة بالمصيبة ؛ وإذا كنت قد أجبت بعض رجائى ، فذلك لأنه أبلغ فى عقابى وجزائى . فأنك « حين جملك الحب واعية يقظة ، سترت شعرك الأشقر وحبست فيك نظراتك المذبة »[1]

لقد كففت أمام الناس عن تبسطك البرىء الذى حملنى الجنون على الشكوى منه ، ولكنك ازددت قسوة على فيما بينى وبينك ، فتمادت شدتك اللبقة فى إقبالك وصدودك

(١) من شعر متياست

ليتك تعلمين عما يشعرنى هذا الفتور من لوعة القلب ؛ إذن لعرفت أننى جوزيت شر الجزاء وعوقبت أشد العقوبة . آه ! لو أن لى رجعة إلى الماضى فأحولَ بينك وبين تلك الرسالة المشئومة ! فأننى لو لم أكتب الأولى لما كتبت الثانية ؛ ولو لم أضطر إلى كتابة هذه الرسالة لكنت بنجوة من مظنة الاساءة إليك مرة أخرى . إنى أريد أن أصلح خطأى لا أن أضاعفه . أينبغى أن أقول إن نفسى أركبتنى الغرور وموّهت علىّ الباطل حتى أسرّى من غضبك ؟ أينبغى أن أحتج لنفسى بأن ما أحمل لك فى قلبى هو شىء غير الحب ؟ أنا ؟ أجترىء هذه الجرأة ، وأفترى هذه الفرية ؟! وهل الكذب الفاجر خليق بالقلب الذى تملكينه وتمرينه ؟ لتكن عاقبة جرأتى أن أكون بائساً اذا لم يكن من ذلك بد ، ذلك أولى من أن أكون بسببها كاذباً أو جباناً ، فأن الجناية التى اجترحها قلبى ، لا ينبغى أن يجحدها قلمى

أنا أشعر سلفاً بفداحة غضبك ، ولكنى

أنتظر أن يكون مآله الى الرضى والمساحة اذا لم يكن شيء آخر ؛ فان النار التي ترمض جوانحي وتذويني خليقة بأن تعاقب لا أن تحتقر

حنانك يا آنستي ورحماك ! لا تكليني الى نفسي . تفضلي فصرفي قدري ووجهي أمرى على الأقل . أعلني مشيئتك واقضي قضاءك فلن تجديني مهما قسا الحكم واشتط غير طائع ولا صابر . أتفرضين الصمت الأبدي على ؟ سأحمل نفسي على مكروهه وأروضها على لزومه . أتقصينني عن حضرتك ؟ سأقسم بالله جهد اليمين لا أريك وجهي بعد اليوم . أتأمرينني أن أموت ؟ لعل ذلك أيسر الأمور على . ليس هناك ما يعييني الخضوع له والرضا به إلا شيء واحد : هو ألا أحبك . على أنني لو استطعت أن أنفذ مثل هذا الحكم لما أبيت

أراود نفسي في النهار مائة مرة على أن أخر على قدميك فأغسلهما بعبراتي ، وأطلب منهما مماتي أو حياتي ، فيهزم الخوف قلبي ، فترتجف يداي وتصطك ركبتاي ولا أجرؤ على أن أجثو ؛ ثم يموت على شفتي الكلام ، ولا أجد في نفسي ما يؤمنها من خوفها أن تغضبك

هل تعلمين فيما خلق الله حالاً أهول من حالي وأفظع ! إن قلبي ليشعر كل الشعور أنه آثم ؛ ولكنه لا يدري كيف يقلع عن غيه ويرعوى عن أثمه .

ان الجريمة والندم قد اصطلحا على أن يهزاه هزات لا نشوز فيها ولا شذوذ . واني من غير علم بمصيري لأضطرب في حيرة قاتلة بين طمع الرحمة وخوف العقوبة

ولكن لا ! انني لا أطمع في شيء ، وليس من حقي أن أطمع في شيء . ان اليد التي أرجوها منك هي أن تعجلي بعذابي . أرضيني بانتقام عادل ؛ وحسبي بؤساً أن أسألك اياه بنفسي . فاذا لم تكوني قاسية القلب خلقة فغيري هذه الهيئة الفاترة المتبرمة التي تدفعني الى القنوط . ان الذي يرسل مجرماً الى الموت لا يزوده بالغضب

الرسالة الثالثة

الى جوليا

لا يضق صدرك ولا يهن صبرك يا آنستي ، فهذه الرسالة آخر ما يزعجك مني

ما كان أبعدني ، حين تولد حبك في قلبي ، أن أتقصى بالنظر كل الآلام التي تهيأت لنفسي ! لم أحس أول الأمر الا بألم الحب اليائس الذي يستطيع العقل أن يقهره مع طول الزمن ؛ ثم ذقت ألماً آخر أعظم من ذلك جره على أنني أغضبتك ؛ وهأنذا الآن أستشعر ألماً أشد على نفسي من كل ألم لأنني أثرت عليك همومك الخاصة

آه يا جوليا ! اني أرى والأسى يفت كبدي أن شكواي تكدر صفوك . انك تلزمين الصمت القاهر البالغ ، ولكن كل شيء يعلن إلى قلبي اليقظ اضطرابك الدخيل

أصبحت عيناك ساهمتين حالمتين ناكستين يفر منهما بعض النظرات الحائرة إلى ، وانكفأ لونك البهي النضر فبدا على خديك شحوب غريب ، وفارقتك البهجة المرحة وتضيفتك الهموم القاتلة ، فلم يبق مما يحفظ على طبعك الطلاقة إلا عذوبة في نفسك لا تنضب

إنك كما أرى مهمومة لحساسة أو زراية أو رثاء لآلامي . وإني لأخاف أن أكون ساعدت القدر في آلامك ؛ وهذا الخوف يؤلمني ألماً لا يعدله ذلك السرور الذي يبعثه في نفسي ما يصاحب ذلك

الخوف من أمل ، لأنى إما أن أكون قد أخطأت ، وإما أن تكون سعادتك أعز على من سعادتى

على أننى حين ثبت إلى نفسى ، تبين لى أنى جرت فى الحكم على قلبى ، وعلمت بعد أن قضى الأمر أن الذى حسبته هذياناً يزول ، إنما هو كلمة القدر فى مصيرى وحياتى

ان اشتداد حزنك هو الذى أشعرنى باشتداد حبى . لا ، أبداً ؛ إن وميض عينيك وإشراق لونك وبراعة ذهنك وكل ما كان لبهجتك الماضية من جمال وسحر ، كل أولئك لا يستطيع أن يحدث مثل ذلك الأثر الذى يحدثه فى نفسى ضعفك . لا يخامرْك الشك فى ذلك يا جوليا ! فانك لو استطعت أن ترى الضرم الذى أورثتْهُ فى نفسى أيام الضنى الثمانية لسالت شؤونك أسى مما جررته على من الأذى والألم . لقد أصبح ذلك الألم عياء لا يرجى برؤه ؛ وإنى لأشعر أن هذه النار التى تصليني وتذويني لن يخبو أُوارها إلا فى القبر . لا بأس . إن من عجز عن أن يجعل نفسه سعيدة ، لا يعجز عن أن يجعلها على الأقل خليقة بالسعادة . وسأعلم كيف أحملك على أن تحترمى رجلا لم تتفضلى عليه بجواب . أنا حديث السن ، وفى مقدورى أن أنال يوماً ما ذلك الخطر الذى لست كفؤاً له اليوم . وفى خلال ذلك يجب أن أرد عليك السكينة التى فقدتها أنا الى الأبد . إن من العدل أن أكابد وحدى عقوبة الجريمة التى اقترفتها أنا وحدى

وداعاً يا جوليا . عودى الى هدوئك وغبطتك ، وابسطى ما تغضّن من جبهتك ، فلن ترى وجهى بعد اليوم . ولكن ثقى ان الحب القوى النقى الذى يضرّم أنفاسى لا تخمد وقدته ما حييت ؛ وأن القلب الذى يغمره مثل هذا الحب لن يذل ولن يهون ؛ وسيقسم منذ اليوم شعائره بين حبك وبين الفضيلة ؛ ومحال أن يدنس الهيكل الذى تُعبد فيه جوليا بنار أخرى

البطاقة الأولى من جوليا

لا ترجح الرأى الذى يجعل ابتعادك ضرورة ؛ إن القلب الورع يستطيع أن يكبح هواه أو يسكت ؛ ولعله ينقلب مخشياً مهيباً . ولكن أنت . . . أنت تستطيع أن تبقى

الجواب

لقد سكت طويلا حتى حمانى فتورك على الكلام . إذا استطاع المرء كبح هواه ابتغاء الفضيلة ، فلن يستطيع مطلقاً أن يتحمل احتقار من يحب . لا بد من السفر

البطاقة الثانية من جوليا

لا يا سيدى . إن رجلاً كالذى تظاهرت بأن تكونه فأحس ما أحسست ، وجرؤ على أن يقول لى ما قلت ، لا يسافر بعد ذلك . إنه سيعمل أكثر مما عمل

الجواب

أنا لم أتظاهر إلا بهوى معتدل فى قلب يائس . غداً ستكونين راضية ، ومهما قلت فى ذلك فلا أقل من أن أسافر

البطاقة الثالثة من جوليا

يا لَلأبله ! إذا كانت حياتى عزيزة عليك ! فاخش أن تعتدى على حياتك . أنا الآن مأسورة محصورة فلا أستطيع أن أكلمك ولا أن أكتب اليك حتى الغد ؛ فانتظر

(يتبع) الزيات

المستر بكوك ورفاقه

للقصصي الانجليزي شارلز ديكنز

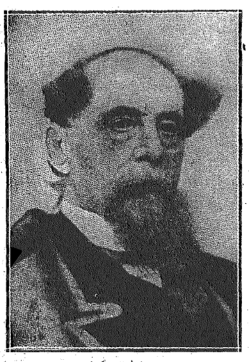
تمهيد :

كانت هذه القصة الفكهة الممتعة أقوى وأسرع خطى شارلز دكنز إلى الشهرة والمجد ، ويعدها كثير من النقاد أحسن قصصه وأشدها اتصالا بفنه وعبقريته ، ذلك لأن روحه الفكهة ومقدرته الفائقة على الوصف ، ونشاط ذهنه ، تبرز كلها بأجلى وضوح فيها . وليست هـذه قصة بالمعنى الحقيقي ، وإنما هي تصوير بعض الشخصيات عن طريق الحكاية والحوار ومايتصل بتلك الشخصيات من معاني الحياة ومشاهدها . خلق القصصي العبقري أولا شـخصية مستر بكوك وجعله رئيساً لشعبة تنتمي إلى ناد ، عملها التجوال لجمع ما عساه أن يصادفهم من معلومات ، ومن ثم بدأت سلسلة أسفارهم وحادثاتهم . وهذه القصة من القصص العالمية التي لا تقل روعة عن قصة (دون كيشوت) لسرفانتس (المترجم)

الفصل الأول

رحلة اليوم الأول ومخاطرة الليلة الاولى وما كان من أمرهما

لم تـكد تشرق الشمس وترسل أشعتها صبيحة اليوم الثالث عشر من شهر مايو عام سبع وعشرين وثمانمائة وألف ، حتى نهض مستر (بكوك) من أحلامه كأنه شمس أخرى ، وفتح نافذة غرفته وأطل منها على الوجود من تحته ، وكان يقع شارع (جنيول) تحت عينه ، وكان يمتد شارع (جنيول) عن يمينه إلى نهاية ما يصل إليه البصر ، وكان يمتد أيضاً عن يساره إلى مسافة بعيدة



شارلز دكنز

وحدث المستر (بكوك) نفسه قائلاً : « هكذا شأن تلك النظرات الضيقة ، نظرات هؤلاء الفلاسـفة الذين يقتصرون مما يعرض لهم من الأشياء على مظاهرها ، ولايبحثون عما يوجد وراء تلك المظاهر من حقائق الحياة . فهأنذا لا أقنع أبداً بالنظر إلى ذلك الشارع دون أن أبذل أي جهد في تقصي ما يحيط بجوانبه من بلدان »

وفرغ مستر بكوك من تأملاته الجميـلة ليضع نفسه في ملابسه ، وليضع ما خلعه من ملابسه في حقيبته . وإنك قلما تجـد عظماء الرجال يظهرون كبير اهتمام أثناء ارتدائهم ملابسهم وتأهبهم

للخروج ؛ ومن أجل ذلك فسرعان ما فرغ مستر بكويك من حلق ذقنه وارتداء ملابسه واحتساء قهوته ، وخرج بعد هنيهة وحقيبته في يده ، ومنظاره (تلسكوب) في جيب معطفه ، ودفتره في جيب صداره ، فكان على تمام الأهبة لأن يتلقى أى حادث يراه مستر بكويك جديراً بأن يدون ، وما هى إلا ساعة حتى كان مستر بكويك فى ساحة سان مارتن

وصاح مستر بكويك قائلاً : « عربة »

وتقدم اليه رجل مجيباً إياه : « أنا آتيك بما طلبت أيها السيد » ، وكان هـذا الرجل غريب الشكل حقاً ، كان صنفاً عجيباً من أصناف الآدميين يرتدى معطفاً من الخيش عليه ميدعة من هـذا القماش ويحيط بعنقه شريط من النحاس يحمل رقمه ، كما لو كان قطعـة من الآثار النادرة رقمت لتوضع فى ثبتها . وكان هذا الرجل سقاء الخيل فى تلك الساحة فنادى قائلاً : « هيـا ... العربة الأولى ... » واتجه الى مستر بكويك مخاطباً إياه : لك ما طلبت أيها السيد . وما كادت تتقدم العربة الأولى من ذلك الخان حيث دخن مستر بكويك غليونه الأول ، حتى قذف بنفسه وحقيبته فى جوفها ، وأمر الحوذى أن يذهب به الى « جولدن كرش » وأدار الحوذى رأسه الى صاحبه السقاء قائلا فى تجهم خفى : « ان ذلك لايساوى أكثر من شلن يا توم »

وسأل المستر بكويك الحوذى ماسحاً أنفه بتلك القطعة من النقود التى أعدها ليدفعها أجر ركوبه : « كم عمر هذا الحصان يا صاحبى ؟ »

وأجاب الحوذى وهو ينظر الى مستر بكويك نظرة الدهش والحيرة : «عمره اثنتان وأربعون سنة»

وأسرع مستر بكوك الى دفتره متمتماً : «ماذا» ؟ « ماذا تقول » ؟ وأنقص الرجل عدد السنين الذى فاه به أولاً ، ووجه مستر بكويك نظراته إلى الرجل ووجهه شديد التجهم ، وظلت ملامحه وهو يكتب على ما هى عليه من صرامة ، ولذلك أثبت فى دفتره تلك الحقيقة غير منقوصة

وأردف مستر بكويك متسائلاً كى يصل إلى غيرها من الحقائق والمعلومات « وما مقدار الوقت الذى يقتضيه فى العمل فى كل مرة تأتون به اليه ؟»

فأجاب الرجل : « من أسبوعين الى ثلاثة »

وصاح مستر بكويك فى دهش : « أسابيع ! »

وسرعان ما برز دفتره ثانية من صدره

واستطرد الرجل فى فتور : « انا نرسله الى منزل فى حى بنتنول » فى غير فترة العمل ، ولـكننا قلمـا نرسله الى مكان راحته بسبب ضعفه

وصاح مستر بكويك وقد ذهبت الحيرة بعقله كل مذهب : « بسبب ضعفه ! »

واستمر الحوذى يقول : « انه دائماً يسقط على الأرض كلما حل من العربة ، ولـكننا اذا شـددناه الى العربة نحكم ربطه ونقصر الحبال والسيور فلا يستطيع بذلك أن يسقط ، ولقد اتخذنا العجلات من حجم كبير ، ولذلك فهى تدفعه اذا ما تحرك ولا تدع له مجالاً للتوانى ، واذاً فلا بد له أن يتابع سيره ، اذ لا حيلة له فى ذلك »

وأثبت مستر بكويك عبارة الرجل بحذافيرها فى دفتره ، ليقدمها الى النادى شاهداً فذاً على القسوة فى دنيا الخيل . وما كاد ينتهى من كتابة ملاحظته حتى وصلت العربة الى « جولد كرش » ، فوثب الحوذى الى الأرض ونزل مستر بكويك ، والتف حول العربة كل من مستر توبمان ومستر سندجراس ومستر ونـكل وأخـذوا يحبون رئيسهم الألمى وكانوا ينتظرون مقدمه فى شوق

وخاطب مستر بكوك الحوذى قائلا : « هذا أجرك » ومد اليه يده بذلك « الشلن » الذى أعده

ولشد ما تعجب هذا الرجل المثقف العالم ، اذ رأى مثل ذلك الشخص الذى لا حساب له يلقى بقطعة النقود على أفريز الشارع ، ويطلب اليه ، الى مستر بكويك ! أن « يسمح له بشرف منازلته »

وبادره مستر سندجراس بقوله : « إنك ياهذا لمجنون »

وأردف مستر ونكل قائلا : « أو سكران »

وأيدهما مستر توبمان بقوله : « أوالأمرين معا »

وراح الرجل يصيح : « هيا ... هيا ... أنا لكم جميعاً ... سترون ... هيا »

ورأى ذلك جماعة من الحوذية فصاح أحدهم : « هذا منظر ممتع » وتجمعوا حول الحوذى وخصومه

وتقدم أحد الناس فسأل «فيم هذه الضجة»؟

وأجاب الحوذى «ضجة ! مشاجرة ! ... ماحاجته الى رقمى ؟ »

وأجاب مستر بكويك وقد أخذته الحيرة : « لم أك قط فى حاجة الى رقمك ! »

وتساءل الحوذى : « إذن لماذا أخذته ؟ »

وأجاب مستر بكويك مغضباً : « لم آخذه ... لم يحصل »

واستأنف الحوذى كلامه ، متجهاً الى الجمهور موجهاً اليه الخطاب «هل يصدق أحد ؟ هل يصدق أحد ؟ ... مخبر يركب معى عربتى فلا يقتصر على أخذ رقمى فحسب ، بل يثبت كل لفظ فهت به ! اذ ذاك لاح بصيص من النور لمستر بكويك ... أنه دفتره الذى ...

وسأل أحد الحوذية : « هل فعل ذلك ؟ »

وأجاب الحوذى قائلا « نعم فعل ذلك ، وبعد أن يستثيرنى لمهاجمته يأتى هنا بثلاثة من رجاله يستشهدهم على ! ولكنى سأهاجمه مهما يكن من الأمر ... ولو كان من ورائها ستة أشهر . هيا »

واندفع الحوذى فلطم المستر بكوك لطمة أطارت منظاره عن عينيه ، وواصل الهجوم بلكمة استقرت على أنف مستر بكوك ، وأردفها بأخرى وقعت على صدره ، ثم بثالثة نزلت على عين مستر سندجراس ، ورابعة من باب التنويع حلت ببطن مستر توبمان ، وانطلق الرجل يعدو راقصاً نحو الشارع ، ثم عاد مسرعا إلى الأفريز ، وانتهى بأن أوقع الرعب فى قلب مستر ونكل فقطع عليه تنفسه وأفرغ جسمه مما نشقه من هواء ؛ كل ذلك فى ست ثوان فحسب !

وصاح مستر سند جراس ... « أين رجل الشرطة ؟ »

ورد بائع فطائر قائلاً : « ضموهم تحت المضخة »

ولهث مستر بكويك بقوله : « سوف تجازون أشد الجزاء »

وتصايح الناس بقولهم ... « مخبرون ... مخبرون »

واستأنف الحوذى تهديده صائحاً ... « هيا ... هيا ... » ، ولم ينقطع لحظة منذ أن بدأ المعركة من توعده وتوثبه

ولقد كان موقف الناس من تلك المشاجرة حتى ذلك الوقت موقفاً سلبياً ، فلم يكونوا سوى متفرجين ، ولكن ما كاد يذيع فيهم أن مستر بكوك ورفاقه مخبرون ، حتى أخذوا يحبذون فى حماس ونشاط تنفيذ ذلك الاقتراح الذى تزايدت حرارته حتى التهب ، ألا وهو اقتراح بائع الفطائر الساخنة ، وأرانى فى غنية عن أن أبين ما كان يرتكبه هؤلاء القوم من تعد على أشخاص تلك الجماعة ، لولا أن أوقف الشجار تدخل شخص جديد ، راح يتساءل : « ما هذا ؟ ماذا يطربكم ؟ »

وكان القادم شابا طويل القامة نحيف الجسم

يرتدى حلة خضراء ، ظهر فجأة فى تلك الساحة

ورد عليه الجمع قائلين : « هؤلاء مخبرون »

وأرعد مستر بكوك قائلا « لسنا كما يدعون » ، وكان لقوله هذا نغمة مؤثرة حتى لتتخذ سبيلها إلى أى قلب لا يلين لعاطفة

أما هـذا القادم فقد شق بمرفقيه طريقاً له فى هذا الجمع ، وراح يتساءل موجهاً قوله إلى مستر بكوك : « لستم كما يقولون إذا ؟ » « لستم كما يقولون ؟ » وأوضح له ذلك الرجل المثقف حقيقة الأمر ، فتقدم وجذب مستر بكوك فى شبه قهر ليخرجه من زحمة الناس ، وانتهر الحوذى وصرفه عنه ، وسار إلى خان هناك يتبعه مستر بكوك ورفاقه ، وجلسوا يشربون ويطعمون

وبينما كان رفاق مستر بكوك يقدمون لذلك الشخص شكرانهم ، أخذ رئيسهم يلقى نظرات فاحصة على هندام الرجل ومظهره

كان طوله وسطا ولكن نحول جسمه وطول ساقيه جعلاه يبدو أطول مما كان ؛ وكانت حلته الخضراء ملبساً أنيقاً شائعاً فى أيام سالفة ، بيد أنها كانت كما يظهر فى جلاء تزين رجلاً أقصر قامة منه ، فأن ردنيها الحائلى اللون الملطخين لا يكادان يصلا الى رسغيه ، وقد أحكمت الأزرار سدها حتى العنق مما جعلها توشك أن تنقد من خاف ؛ ولم تك تتبين العين حول عنقه قميصاً ، إذ لم يك ثمة شىء سوى قطعة رثة من القماش تحلى جيده ، وكانت تتناثر هنا وهناك فى سرواله الأسود الضيق رقع واضحة تنهض دليلاً على قدم عهده . ولقد ربط هذا السروال ربطاً محكما فى نهاية ساقيه فوق حذائه البالى ليخفى جوربا أبيض قذراً ، تراءى للأعين على الرغم من ذلك ، وكان شعره الأسود ينساب فى خصل تتدلى على جانبى قبعته القديمة المتغضنة ، وكان وجهه ممروقاً هزيلاً ، ولكن حالا غريبة لا توصف من الرضاء وعدم المبالاة وضبط النفس كانت تغلب على صفات ذلك الرجل

ذلك هو الشخص الذى راح يحملق فيه مستر بكوك خلال منظاره وكان قد استعاده لحسن حظه ، ولما أن فرغ رفاقه من تحياتهم ، أخذ هو بدوره يقدم اليه أحر شكره على ما كان من مساعدته ؛ ورد ذلك الشخص فى عبارات متقطعة : « دعك من هذا — كفى — لا تزد . . إنه ولد شقى ذلك الحوذى . . كان يحسن توجيه لكماته ... ولكننى لو كنت ...

وقطع عليه عباراته سائق العربة المسافرة إلى « ورشستر » إذ أعلن اليهم أن عربته على أهبة الرحيل ، ونهض ذلك الشخص واقفا واستأذن الجماعة قائلاً : « تلك عربتى ... احتجزت فيها مكانا أترك لكم دفع ثمن الشراب والماء ... أرانى فى حاجة الى صرف .. فضة رديئة ... » ثم حياهم بهز رأسه تحية من يعرفهم حق المعرفة . واتفق أن كان مستر بكوك ورفاقه قد اعتزموا أن يجعلوا « ورشستر » محط رحالهم الأول فى سفرهم هذا ، فأخبروا الرجل بذلك ، ثم وافقوا على أن يتخذوا مقاعدهم فى مؤخر العربة حيث يستطيعون أن يجلسوا معاً جميعاً

وساروا الى العربة وأخذ الرجل بيد مستر بكوك فى غير مبالاة قائلاً : « هيا ... هيا ... اصعد » وقد أراد بذلك أن يقلل من أهمية هذا الرئيس ، وينال من وقاره وتحشمه بطريقة ملموسة . وسأل السائق الرجل : « هل من متاع أيها السيد ؟ »

— من ؟ أنا ؟ ليس سوى هذه الحزمة الملفوفة فى الورق البنى ، فقد أرسلت بطريق الماء متاعى الثقيل — صناديق كبيرة ثقيلة ... كالمنازل فى حجمها ... ثقيلة ، ثقيلة جداً !

وكان الرجل يدس تلك الحزمة في جيبه وهو يجيب السائق ، وأكبر الظن أنها كانت تحتوى على قميص ومنديل

واستأنف الرجل عباراته حين اقتربت العربة من قوس أقيم على الطريق كان فى تلك الأيام بمثابة مدخل لساحة العربات قائلاً : — « الرؤوس ، الرؤوس ، خذوا حذركم هذا مكان مخيف ، عمل خطر ... ذات يوم ... خمسة أطفال ... أم ... سيدة طويلة القامة تأكل قطعة من الخبز ... نسيت القوس ... احتكاك صدمة .. ينظر الأطفال وراءهم ... رأس الأم قد طارت ... قطعة الخبز فى يدها ... لم يعد هناك فم يلتقمها ... رأس أسرة طارت ... مؤلم مؤلم ... أتراك تنظر الى « هويت هول » أيها السيد ؟ إيه أيها السيد ؟ أتراك تنظر اليه ؟ إيه ! أتراك . . . ؟

وأجاب مستر بكوك : « كلا إنما أفكر فى ذلك التقلب الذى يلازم أحوال الناس » .

— « آه ... أفهم ما تريد ، أأنت فيلسوف أيها السيد ؟ »

— « أنا رجل أدرس وألاحظ الطبيعة البشرية عن كثب يا سيدى »

— « وأنا مثلك ، وإنك ترى معظم الناس كذلك ، حين لا يكون لديهم عمل ، وحيث لا ينتظرون كبير مغنم . أأنت شاعر أيها السيد ؟ »

— « لا وإنما تجد صديقى مستر سند جراسى قد امتاز بحماسة شاعرة »

— « وأنا مثله ... ملحمة طويلة ... عشرة آلاف سطر . . . ثورة يوليو . . . نظمت فى المكان نفسه ... مارس إله الحرب نهارا ... أبولو إله الغناء ليلا ... أعزف أنشودة الميدان وأغنى على القيثارة »

وتساءل مستر سند جراسى : — أشهدت ذلك المنظر الفخم أيها السيد ؟

— « نعم ... رأيته رأى العين ... أطلقت رصاصة ... ثم أطلقت فكرة ... اندفعت الى حانة خمر ... أثبتها ... عدت ثانية ... أزيز ... عزيف ... فكرة أخرى ... حانة الخمر ثانية ... قلم وحبر ... عدت ثانية ... طعن ... ضرب ... ساعة مشهورة يا سيدى » ثم اتجه الرجل بغتة الى مستر دنكل سائلاً أياه : « أأنت رجل صيد وطرد أيها السيد ؟ »

— « بعض هذا أيها السيد »

— « أن هذا الطرد أمر جميل ... هل لديك كلاب أيها السيد ؟ »

— « لا ... ليس لدى منها شىء بعد »

— « آه ينبغى أن يكون لديك عدد من كلاب الصيد ... حيوانات ظريفة ... مخلوقات عاقلة ... ذات يوم كلبى ... اسمه بونتو ... غريزة مدهشة . خرجت للصيد يوماً ... خطوت لأجتاز سياجاً . أطلقت من فمى صفيراً ... الكلب لا يتحرك ... صفير ثانية ... بونتو لا يقدم ... واقف لا يتحرك هتفت به بونتو ! بونتو ! ... لا يريد أن يتحرك . واقف فى مكانه ينظر إلى لوحة .... رفعت بصرى فرأيت عبارة مخطوطة « لدى حراس الصيد أوامر أن يطلقوا النار على أى كلب يجتاز السياج » ، لم يشأ أن يجتازه ... كلب مدهش .... كلب ثمين حقاً كلبى هذا ... » ، وتكلم مستر بكوك قائلاً : « هذا شاهد عجيب ، هل تأذن لى أن أسجل هنا مذكرة عنه ؟ »

— « أسمح ولا ريب ... لا ريب أيها السيد .. مائة قصة عن هذا الحيوان إذا شئت »

(يتبع) (عائد)

الصينى

قصة واقعية نالت الجائزة فى مسابقة القصص الواقعية فى مجلة (تروستورى) الانجليزية

بقلم احمد فتحى مرسى

كان والداى يعارضان أشد المعارضة فى إتمام دراستى وإكمال ثقافتى فى الجامعة ، فمنذ ما أعربت لهما عن رغبتى فى الالتحاق بتلك الكلية القريبة من المنزل ، وقفا أمامى حجر عثرة فى سبيل تحقيق هذه الأمنية !

ولقد كان منظر الفتيان والفتيات وهم فى طريقهم إلى الجامعة يبعث فى نفسى الحسد ، ويؤجج بين جوانحى نيران الغيرة . وطالما قالت لى والدتى وأنا جالسة إلى النافذة :

— إنى لا أحتمل أن أراك تذهبين إلى مثل هذا المكان يا روز ، فكم هو حافل بالغرباء ، وكم هو غاص بمن لا أخلاق لهم !

وكان والدى لا يقل عن والدتى اصرارا ، على الرغم من أنه كان يحرص على ألا يغضب وحيدته ، ولكن الالحاح كان من طباعى ، فلم أزل بهما حتى جعلتهما ينزلان على رغبتى ، وينصاعان لأرادتى

التحقت بالجامعة ، وسرعان ما توثقت عرى الصداقة بينى وبين زميلة مرحة ، من الأراضى الوسطى تدعى رث ليرى ، وكانت تدرس بكلية العلوم بالجامعة

وقد قدمتنى إلى صديق لها يدرس فى كلية الهندسة ، يدعى جون بارت ، وقد صادف هوى فى نفسى فتملقته ، إلا أن هذه الصلة لم تدم طويلا ، فقد قدمنى بدوره إلى صديق آخر كان له أبعد الأثر فى حياتى ، إذ قلب نظامها رأساً على عقب ،

فطالما كان يحدثنى جون عن صديق له اسمه هارى لى ، كثيراً ما كان يصفه بالذكاء وينعته بالجد فيقول :

— أنفذ قريحة عرفتها ياروز ... حتى ليخيل إلى أنها تكبره بسنين عدة

وأصدقك القول أنى لم أحاول التعرف إلى ذلك الصديق الجديد ، فقد كان فى جون كل ما آمله من حياتى ، وكل ما أتمناه من عيشى ... وأخيرا شاء القدر أن يجمعنى بهارى ... وكان ذلك فى الربيع الباكر ، وكنت قد صحبت رث ليرى إلى قاعة المحاضرات ، وكانت قد غصت بالمدعوين ، فلم يبق لنا مكان ما . وفجأة أخذت عيناى جون بارت ، وهو ينحنى لنا نصف انحناء ويدعونا للجلوس فى المقعدين اللذين أخلاهما هو وزميله قائلا :

— سأستند إلى الحائط مع هارى قليلا

ومضت برهة قبل أن أجول بعينى لأرى هارى ، ولكن وقع نظرى عليه أخيرا ، وكانت نظراته كلها مصوبة إلى ؛ وقد سرت فى جسدى رعدة خفيفة ، عندما سرحت الطرف فى وجهه قليلا فاذا به صينى الخلقة ...

وكان هارى أقصر قامة من جون ، ولكنه

كان مفتول العضل ، قوى الساعدين ، وكان مستنداً الى الحائط ، وهو ينظر الى كأنما يريد أن يلتهمني بنظراته ، فعرانى الخجل وأدرت وجهى الى الجهة الأخرى ، ولكنى وجدت فى نفسى شعوراً غريباً يدعونى الى التحديق فى وجهه ثانية ، وكان كلما يلتقى النظران أحس بشعور من الرهبة يسيطر على نفسى ويملك على مشاعرى

وعندما انفرط عقد الحفل ، كنت أود أن أهرب من ذلك الاحساس المتسلط على قلبى ، ولكن جون ورفيقه كانا فى انتظارنا فلم أتمكن من الافلات . وكانت رث قد عرفت هارى من قبل فلم يبد عليها أى اهتمام ، أما أنا فقد صحبته الى المنزل

وقد حدثنى هارى فى الطريق عن المحاضرة ، وكان طريف القول ، جذاب الحديث ، دامغ الحجة ، يجمع الى ذلك بساطة فى التعبير ، وهدوءا فى النفس ؛ وهنا فقط أدركت صحة قول جون بارت « ان قريحته تكبره بسنين عدة »

ولما بلغنا المنزل دعانى الى نزهة خلوية بين الرياض ظهر اليوم التالى ترويحاً للنفس من عناء الأعمال ، واستجماما للفكر من النصب والملال ، فقبلت دعوته وانصرفت شاكرة

وعندما قابلنى هارى ظهر اليوم التالى حمل الى باقة من الزهر ، يفوح منها شذا العطر ، ويبدو عليها جمال التنسيق ؛ ثم قدمها الى قائلا :

— إنك زهرة ناضرة كهذه الزهور يا روز

ومنذ تلك النزهة أصبحت أرى شخصية هارى تتسلط على نفسى كل التسلط ؛ وكنت أعزو ذلك فى أول الأمر الى اختلاف جنسينا ، وتباين مشربينا ، وتباعد وطنينا ، على الرغم من أنه كان لايخلو من سمات الجمال . فما كان أجمل وجهه الهادئ وأروع ابتسامته الساحرة !

وتوثقت الصلة وكثر التلاقى ؛ على أن ذلك لم يكن يشغله قط عن استيعاب دروسه ، ومراجعة بحوثه ، فكثيرا ما كان يحدثنى عن آماله الواسعة وآرابه البعيدة ... كان يأمل أن يكون استاذا فى جامعة بكين فى القريب العاجل

وكثر خروجنا الى الرياض الناضرة ، وارتيادنا المروج الزاهرة ، بين حديثه العذب وسمره الممتع ... ولقد حدثنى مرة عن شجرة تفاح كثيرا ما اتخذ مجلسه تحت أفيائها المديدة ، وفى ظلالها الظليلة ، فسرنا اليها والقمر يرسل أشعته الفضية الى السهل فتفضض أرجاءه وتشيب نواصيه ... وان أنس لا أنس تلك الجلسة الهادئة تحت أفنان شجرة التفاح وبين أغصانها المتهدلة ... جاس كل منا يتأمل الآخر فى ضوء القمر المرسل ، وأخيرا افتر ثغره عن ابتسامة هادئة ثم قال :

— إنك مثل زهرة التفاح ياروز ، جمالا وروعة وسحرا

ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تقفو أثر الشهور ، وكل منا لا يزيد إلا تعلقا بالآخر ، وتشوقا للقياه ، إلى أن كانت ليلة مقمرة من ليالى الصيف ، خرجنا فيها معاً نتمشى فى ذلك الطريق الضيق خلف بناء الجامعة ، وإذا بهارى يضع يديه على كتفى فجأة قائلاً :

— روز .... إن حياتنا الآن تبدو كما لو كنا فى زورق ، وسط بحر رهوٍ تهدهدنا أمواجه فى لين ، وبين زيح رخاء تدفعنا خفقاتها فى رفق ؛ أفترى يسير بنا الزورق إلى النهاية .... أم ينقلب الحال ،

فيضطرب البحر الهادىء وتثور الريح الساكنة ، فتنتهى الرحلة النهائية ؛ وتنقطع السفرة السعيدة ، وأدركت فى الحال ما يرمى إليه فقلت :

— ستسير إلى النهاية يا هارى ... إننى لا أعبأ باللجة وإن أزبدت ، ولا أحفل بالريح وإن عصفت ، ولا أخشى شيئاً ما دمت فى جوارك

— روز ! إننى أحبك ... وسأحبك دائماً وإن فرقت بيننا يد الدهر ، وفصمت عرانا مشيئة القدر ... إن هذا يعز على نفسى ولكنى يجب أن أذهب . إن الحوائل دون الزواج عديدة ياروز ، ولكن حبى لك لن يفنى ما تعاقب الجديدان ...

ولكن ذهابه كان فيه تحطيم قلبى ، وعدم الزواج كان فيه تحطيم أمالى ، فأبيت عليه ذلك ، وأخيراً قر عزمنا على الزواج مهما كلفتنا المجازفة

ولم يمض شهر على ذلك حتى كنا زوجين هانئين يضمنا منزل صغير على مقربة من الجامعة ، أفردنا فيه أنفسنا عن العالم ، وأخلدنا إلى عيشة الأمن والسكينة

وربما كان زواجى صاعقة انقضت على والدى ، فدارت بعقليهما ، خاصة وقد علما أنه شرقى المولد ، صينى الأصل . وقد بلغت الصدمة من والدى مبلغاً أطار صوابها ، فانتقل بها والدى إلى مقاطعة ديفونشير وطننا الأول لتتناسى الحادث ، وتنفض عن ذكرياته المؤلمة

وقد ولد لنا طفلنا الأول فى شهر ابريل ، وكان السقام قد بلغ بى مبلغاً كنت أخال معه أنى أتأرجح بين الحياة والموت ؛ وكانت تعنى بأمرى مع هارى ممرضة تسهر على ، وترعى مضجعى

وفى اليوم الرابع بدأت أستروح نسمات الحياة وأردد أنفاس العافية ، فزال عنى السقام وثاب إلى الرشد ، فرحت أجول ببصرى فى أرجاء الغرفة . فاذا كل شىء على حاله وإذا بهارى واقف بجانب السرير ينظر إلى فى عطف ... وسمعت صوت الطبيب يقول :



— لقد زال عنها كل شىء الآن .

فبان السرور فى هارى وصاح :

— لعلك تشعرين الآن ببعض التحسن ياروز . أترغبين فى رؤية طفلنا العزيز ؟ إنه فى خير صحة وأتم عافية ... ثم ذهب وعاد بعد برهة يحمل الصغير فى لفافته ، ووضعه بين ذراعى لحظة ، ثم رفعه قليلاً لأتبين وجهه فجمد الدم فى عروق ... ليس هذا طفلى قط ... ما هذه الخلقة الغريبة ... وما هاتان العينان الضيقتان ... وما هذا الأنف الأقنى ...

وما هذا الشعر الملتوى ؟ كلا كلا ... إن فى الأمر لخطأ ما... ليس هذا الدميم طفلى... ثم صحت فى رعب:

— خذه عنى بعيداً أيها الرجل ! هذا فظيع . ليس هذا ولدى ... خذه عنى بعيداً ! فبان الألم فى وجه هارى ورفع الطفل عنى فى رفق

إننى لم أحلم يوماً أن يكون طفلنا كهذا الطفل الدميم ... وثقل علىّ الداء من أثر الصدمة ، وعرتنى رجفة سريعة من أعلى رأسى إلى أخمص قدمىّ ، فأسرعت إلى الممرضة ، وأخذت تسرى عنى وتخفف من لوعتى ... أما هارى فكان جامداً كالتمثال ، وبين يديه الطفل ؛ وكان وجهه شاحباً ، وعيناه غائرتين حزينتين ... فى لحظة واحدة تغير الحال وتبدل الأمر ، وأصبح ذلك الرجل وولده بغيضين إلىّ كل البغض ، حتى إننى لم أطق النظر إليهما ، فصحت :

— اذهب عنى بعيداً أيها الرجل ... إننى أمقتك من كل قلبى ... اذهب عنى بعيداً إننى لا أطيق أن أراك حيالى ، لا أنت — ولا طفلك الدميم ...

وأخذتنى ثورة من الغضب ، فأسرعت الممرضة إليه قائلة :

— الأفضل أن تذهب الآن يا مستر لى ، إنها لا تعى ما تقول الآن

ولكنى كنت أعى ما أقوله تماماً ، ولقد رأيت هارى ينكص على عقبيه تجاه الباب ، ثم أخذنى الاغماء وعاودتنى الغشية ... ومضى على ذلك أيام وأنا لا أكاد أعى ما يدور حولى ، وما يجرى بجانبى . وكل ما أذكر الآن أننى كنت أردد دائماً :

— أريد أمى ... أريد أمى ... فأسمع جواب هارى كأنه صادر من غور بعيد :

— سمعاً يا عزيزتى ، سأرسل فى طلبها اليوم

وبعد أيام حضر والداى من (ديفون شير) ، ومضت أسابيع قبل أن أجد فى نفسى القدرة على السفر ... وأخيراً ثابت إلىّ بعض عافيتى فأخذنا أهبتنا ، وأعددنا عدتنا ، وجعلنا الشمال وجهتنا

ونزلت بأرض الميلاد ، مجرى الصبا وملعبه ، فجددت أيام الطفولة المرحة ، وليالى الشباب السعيدة ، وحرصت على ألا تعود بى الذكريات إلى الخلف ، أو يأخذنى الحنين إلى السالف

ومضى على ذلك عامان ، وأنا سعيدة هانئة العيش ، إلى أن كان يوم وقعت فى يدىّ مجلة الجامعة ، ولا أعلم من أرسلها إلىّ ، ولكنى أرجّح أن تكون صديقتى « رث ليرى » ... فجلست أتصفحها إلى أن وقع نظرى فجأة على هذه الجملة التى غيضت الدم من وجهى :

« تأسف الجامعة كل الأسف لوفاة الأستاذ هارى لى ، الأستاذ بجامعة بكين بالصين ، وخريج الجامعة بعد حياة قصيرة قضاها فى خدمة العلم »

فعلت وجهى غمامة من الحزن ، وتساءلت الدموع على خدىّ ... وأصدقك القول أن موت هارى لى لم يكن شيئاً بجانب شىء آخر ... ذلك هو الطفل ... ماذا جد من أمره ؟ ... وما مصيره اليوم ؟ الموت دون شك

* * *

وأقبل الربيع ، فصحبت والدى فى رحلة إلى جزائر الماديرا ، وهناك التقيت بجيرالد كبلاو ، وهو شاب انجليزى يكبرنى ببضع سنوات ، ويشتغل

فى تجارة الآلات ، فراعه جمالى ، وعلقته حبالى ، ورأيت منه ما رأى منى ، فأنست إليه ، وألفت صحبته ... ولم يمض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى كنا زوجين . وكان والدى قد أسر إليه بزواجى السابق وأخبره أن الرجل قد مات ، ولكنه لم ينبس أمامه ببنت شفة عن أصله ولا عن موطنه

ومضى علينا زمن رفت فيه علينا ظلال الأمن ورفرفت فوقنا أجنحة السعادة ، إلى أن رزقنا الله طفلة أسميناها آن روز ، تجمع إلى رائع قسماتها ، وجميل ملامحها ، صهبة شعرى ، وصفاء عينى أبيها

وكان اتساع أعمال جيرالد يتطلب منه طول التجوال ، ودوام الترحال ، ولم أتمكن من استصحابه فى أسفاره ، حالما كانت آن صغيرة ؛ فلما شبت وترعرعت ، كنت أتركها تحت عين المربية ، حتى نعود من سفراتنا

ولما بلغت آن السابعة من عمرها ، أدركت والدى المنية ، ولم تلبث والدتى أن لحقت به بعد بضع سنوات

***

ومضت الأيام إثر الأيام ، والسنين تلو السنين إلى أن كان يوم من أيام الصيف ، أخبرنى فيه جيرالد أن أعماله تضطره إلى السفر إلى شنغهاى لأنجاز بعض مهام الشركة فى الصين ، وزاد على ذلك أن مدير الشركة رجا منه أن تزامل كريمته مارى وحيدتنا آن فى رحلتها

وبعد أيام كنا فى طريقنا . وكانت مارى تكبر آن بعدة سنين ، ولكنهما تآلفا تآلف الأخوات وتعلقت كل منهما صاحبتها

وبلغنا شنغهاى فقابلنا « ولارد كاين » وهو صديق قديم لجيرالد ، وكانت معه زوجته وأخوها السيد جورج بايلى ، فدعونا للاقامة معهم فى منزلهم الريفى فى الضواحى ريثما ينجز جيرالد أعماله ويعود إلينا فى نهاية الأسبوع . فلبينا الدعوة وكان المنزل صغيراً جميلاً ، تحيط به الحدائق من كل صوب ، وتلتف به مروج السهول ، ويجرى من تحته نهر رائق الماء عذب المورد

وعلى الرغم من كل ذلك فانى كنت أوثر سكنى المدينة ؛ ففيها تأنس نفسى ، ويسكن قلبى ، وابتعد عن تلك المشاهد المؤثرة ... فلطالما كنت أرقب الصينيين صاعدين إلى ذروة التل ، أو هابطين إلى قرارة السهل ، وقد أضناهم الجوع ولفوا بطونهم من الطوى . وكان يقول لى خادمنا يونج :

— إنهم جياع ياسيدتى ... يبحثون عما يتبلغون به ...

وخرجنا ذات يوم لزيارة ذلك المعبد العتيق القائم على ضفة النهر فقال يونج ... إنه غاص بالكهوف والمخابئ ... التى سيلجأ إليها هؤلاء الجياع عندما يقومون بثورتهم ليتحرزوا بها من أعدائهم

وقد قابلنا أحد هؤلاء الجياع عند ضفة النهر فسألنا عما إذا كنا إنجليزاً ، وأخذت آن تضحك منه وتتحدث معه برهة ثم سألته عن اسمه فقال : واه بو

***

وفى صباح اليوم التالى بينما كنت فى حديقة المنزل ، وقع نظرى فجأة على واه بو وزميل له يحدقان فى وجهى بفضول عجيب فلما ؛ رآنى واه بو

ابتسم وأشار إلى زميله قائلا :

— صديقى لى هانج ياسيدتى

وكانت عينا لى هنج الضيقتان مصوبتين إلىّ كأنهما قطعتان سوداوان من الزجاج ... وهنا أحسست بالوحشة ... وبدأت تتمثل أمامى مخاوف الصين ، وهممت بالنكوص على عقبى إلى المنزل ، فقد كانت عينا لى هنج كأبرتين استقرتا فى فؤادى . سرعان ماتحول هو وصديقه ومضيا لسبيلهما فعدت إلى المنزل أجر ساقىّ جرا

وقد رأيته مرة أخرى مع جورج بابلى فقال لى باسماً :

— يقال إن لى هانج هذا نصف انجليزى

— نصف انجليزى ؟

— أجل ... فقد كان والده أستاذاً فى جامعة بكين ... ومات وهو طفل ... فنشأ بائساً طريداً ... وأحسست فى هذه اللحظة أن الأرض تدور من حولى ، وأن رأسى يثقل علىّ رويداً رويدا ؛ فاستأذنت وقصدت غرفتى فلم أنم تلك الليلة ، ولم يطرق الكرى جفنى ، فتنازعتنى الهموم ، وتخالجتنى الوساوس ... ما أشقانى ... لقد جنيت عليه ... يا إلهى أهذا جزاء ما قدمت يداى ؟ ... أترى سقتنى إلى هنا ليقتانى مبرح الألم ولأنال صارم الجزاء ؟

وخرجت إلى ضفة النهر ، حين تنفس الصبح أنشد النسيان على ضفافه النضيرة . ولشد ما كانت دهشتى عندما وجدت نفسى أمام لى هانج وجهاً لوجه ... ولقد أرعبنى منظره ، وأخافتنى عيناه فهتفت فى صوت مخنوق :

— إذهب ... إذهب عنى بعيداً ... فقال فى هدوء :

— إننى لست كلباً ياسيدتى فأطرد كما تطرد الكلاب ...

فقلت وأنا أغالب الدمع :

— إذن ، إذن ما الذى تريد منى ؟ . . .

فقال فى سكون :

— لا شىء ياسيدتى . . . إلا أن أخبرك أننى أحتقر كل الانجليز ، ولوددت والله لوكانت رقابهم طوع يمينى . . . إذن لما أبقيت عليهم

ثم استدار على عقبيه دون أن ينبس ببنت شفة ، ومضى لسبيله على ضفة النهر وأنا جامدة فى مكانى أتابعه بنظرى وهو يبتعد عنى رويداً .. رويدا

وإذا بنظرى يقع فجأة على ستة رجال يمثلون أمامه فى هيبة وجلال لم أثبت معرفة أحداً منهم سوى راه بو . وقد رأيت (لى) يتحدث معهم لحظة ثم يومىء لهم بطرف البنان إلى آن ومارى وكانتا تتضاحكان على ضفة النهر ، وقد جلس يونج على كثب منهما ، وأسرع الرجال تلبية لأوامر زعيمهم فأحاطوا بالفتاتين ... وانتبه يونج فأسرع إليهما فلطمه أحد الرجال ... وسمعت فى هذه اللحظة صوت لى هانج قائلاً :

— هيا ... هيا اسرعوا بهما

وألجم الخوف لسانى ، وأسقط فى يدى ، وحاولت الصياح ، فلم أسمع صيحتى ، وأخيراً أسرعت إلى هنج متوسلة :

— لى هانج ... لاتفعل ذلك ... رفقاً بى ... لا تفعل ذلك ياهانج . فتوقف عن السير لحظة ثم نظر إلىّ وكانت عيناه كعيون الموتى شاخصة لا تتحرك ، جامدة لا تطرف . . . ثم قال :

— غداً سيعود زوجك من شنغهاى . . . خذى منه الفدية ... وسأرسل لكما راه بو غداً

ووصلت السيدة كلين على صوت صراخ الفتيات وعويلهن ... فأسرعت إليهما ، ولكن الرجال وقفوا فى سبيلها فصاحت فيهم :

— سيكون الموت جزاءكم على هذا أيها المجرمون

وكانت آن تناديني وهى تصرخ باكية بين حين وآخر ... فطار صوابي وألقيت بنفسى على هانج فدفعنى بيده قائلاً :

— تنحى عنى أيتها المرأة ... جهزى المال غداً فتعاد إليك الفتاتان

— هانج .. ! أصغ إلىّ ... لحظة واحدة يا هانج ... فدفعنى ثانية ؛ ولكنى تشبثت به قائلة :

— هانج ! لا يمكن أن تفعل ذلك ... إنى أمك يا هانج ... إنها أختك هذه التى بين يدى الرجال ... هانج ...

وأخذنى الذهول ... ودارت بى الأرض الفضاء . ثم سقطت مغشياً علىّ

***

عند ما أفقت من الاغماء كنت راقدة على السرير وبجانبى السيدة كلين التى كانت لى نعم الأخت البارة ، فأخذت تسرى عنى ، وتطمأننى على الفتاتين ، ثم قالت إن أخاها خرج للبحث عنهما

وفى ظهر اليوم التالى وصل جيرالد والسيد كلين ... وكان يونج قد طلع عليهما بجلية الخبر ، فتطير جيرالد وجزع كلين ، ورفضا الانتظار ريثما يصل رسول هانج ، فخرجنا جميعاً ووجهتنا . ذلك المعبد الذى اتخذه هؤلاء الأشرار حصناً يتحصنون به ، وملجأ يتحرزون فيه من غارة المغير وهجوم العادى ... وبلغنا المعبد . وما إن توغلنا فى مماشيه المظلمة وفى مسالكه الداجية ، حتى أحاط بنا فجأة ستة رجال ، ولكنى دفعتهم فى شدة وشققت طريقى الى لى هانج سائلة :



أين هما يا هانج ... أين الفتاتان ؟

وفى تلك اللحظة برز «واهبو» بين صخور المعبد وهو يحجز بذراعيه الفتاتين فأسرع إليه أحد الرجال ليعينه على إعادتهما إلى مخبأهما ، فتملك جيرالد الغضب وطار لبه ، وفقد صوابه ، فقبض على مسدسه وصوبه إلى ذلك الرجل ، ثم أطلق عليه النار ، فأرداه قتيلاً يتضرج بدمائه

ثم حمى وطيس المعركة بين جيرالد وكاين وبين الصينيين ، وظل القتال سجالاً إلى أن تغلب العدد على القوة ، فاستسلم جيرالد ، ولطف من كبريائه ، وخفف من غلوائه ، ووقف مغيظاً محنقاً ... وهو ينظر إليهم شزراً ... والتقت عيناى بعينى هانج وكانتا تشمان ببريق الحزن والعطف ثم قلت :

— أتوسل اليك يا هانج لا تمسهما بسوء

وهنا لم يطق جيرالد أن يرانى أتوسل الى ذلك الرجل فقال :

— أتتوسلين إلى ذلك المجرم ياروز ؟ ثم اندفع إلى هانج فى غضب ولطمه لطمة قوية . فابتسم هانج ولم يتململ فى جلسته ، ولم تنفرج شفتاه عن كلمة ما ، بل ظل جامداً هادئاً ... وشهد الرجال ما حل بزعيمهم ، فملأهم الغضب ، وأخذتهم الحمية ، فصوب أحدهم مسدسه الى جيرالد ، وهم باطلاق النار ، ولكن هانج كان أسرع منه ، فألقى بنفسه فى طريق الطلق ، واعترضه بصدره قبل أن يصل إلى جيرالد ، فنفذت الرصاصة فى أضلعه ، واستقرت فى قلبه

وسقط لى هانج فالتف حوله الرجال ، ونظرت اليه فاذا الألم يملأ عينيه وهو يحدق فى وجهى فى صمت ... ثم غمغم إلى رجاله ببضع كلمات لا تخلو من لهجة الآمر ، فانطلق منهم اثنان ، ثم عادا بعد برهة قصيرة ومعهما الفتاتان ... واندفعت الى آن تطوقنى بذراعيها ... ووقع بصرى من فوق كتفها لجأة على هانج وهو يحاول أن يدير رأسه فى ألم لينظر الى ... وكأن الألم قد أذبل جفنيه ، وأطفأ بريق عينيه ، وغمر وجهه فبدأ ساهماً حزيناً

وإلى هذه اللحظة لم يكن يعلم جيرالد شيئاً عن حقيقة هذا الشاب الكريم الذى يلفظ أنفاسه تحت أقدامه بعد أن لقى حتفه فى سبيل انقاذ حياته على الرغم من أنه أساء اليه

ونسيت هذه اللحظة كل شىء فى العالم ، إلا هاتين العينين الوادعتين اللتين تنظران إلىّ فى حزن ، والا ذلك الوجه الشاحب الذى أذبله الموت وملأه الأسى ، فركعت بجانبه ورفعت رأسه على ذراعى فابتسم هامساً فى كلمات متقطعة :

— عفواً يا سيدتى ... لقد ... كان عملاً جنونياً ... إننى ... لم أسىء ... إليهما ... ولكن حقاً ما كان أقسانى أن أفرق بين الأم وفلذة كبدها ... عفواً يا سيدتى إننى لست ... جديراً ... أن تمسينى ... بيدك ... الكريمة ...

وشعرت فى هذه اللحظة أن قلبى يكاد يقطعه الأسى ، ويفريه الحزن ، فرفعت رأسى إلى جيرالد ، فجثا بجانبى ، وكان شاحب الوجه غائر العينين ، فقلت له :

— جيرالد ... لقد أنقذ هذا الفتى حياتك ... أفلا تشيعه بكلمة شكر تخفف عن نفسه ألم الجرح ووطأة الموت ...

ثم اندفعت أقول فى حزن :

— جيرالد ... لن أكتمك شيئاً ... إنه ابنى ياجيرالد ... ابن (هارى لى) ، فارتفع حاجبا جيرالد من الدهشة ، واتسعت حدقتاه ...

حقاً لقد كان من القسوة أن أجابهه بهذه الحقيقة المؤلمة فى ذلك الظرف العصيب ... وقال فى تردد :

— أكان ... أكان هارى لى صينيا ؟

— أجل ... وكان رجلاً كريماً

وفى تلك اللحظة رأيت شفتى هانج الذابلتين تهمسان فى ألم :

— كم أنت .. كريمة .. ياسيدتى .. إن والدى

يرقد فى بكين . . وأود أن . . أرقد فى جواره . . فقلت له :

— سيكون لك ذلك يا هانج

ونسى جيرالد كل شيء إلا أنه فى حضرة شاب يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه ، بعد أن نجاه من الهلاك ؛ فانحنى عليه فى رفق ، وأخذ يمسح عنه العرق المتصبب من جبهته

وخفضت بصرى فاذا عينا هانج الحزينتان لا تحولان عن وجهى ، وكأنها سهام مسددة إلى صميم فؤادى ... يا إلهى لماذا أتيت من أقصى العالم إلى هنا ؟ . . . ألتشهد الأم الجاحدة مصرع ابنها الطريد ! . . . أم ليلفظ الابن أنفاسه الأخيرة بين ذراعى أمه ... هاتان الذراعان الجاحدتان اللتان نبذتاه طفلاً ، ونحتاه وليداً

ومررت بيدى على جبهته الباردة ... فابتسم قائلاً فى صوت خافت :

— سيدتى الكريمة ...

ثم أطبق شفتيه الذابلتين ، وأغمض عينيه الصافيتين ، ومال برأسه الشاحب الى الخلف

وقام جيرالد فرفعه من بين ذراعى ، فقلت له وأنا أغالب الدمع :

— يجب أن يرقد ذلك الفتى بجانب أبيه يا جيرالد

— سأعمل على ذلك يا روز

وعدنا إلى المنزل ، وأنا ذاهلة تماماً عما حولى ، لاأعى شيئاً ، ولاأدرك قولاً ، وبعد أيام أعددنا عدتنا وأخذنا أهبتنا ، وعدنا إلى شنغهاى ، ثم قصدنا لترا الى الباخرة ، فلما وطأتها أقدامنا نظر الى جيرالد قائلاً :

— روز ... قبل أن نغادر الصين .. يجب أن تعلمى أننى قمت بما ترغبين . . . انه يرقد الآن بجوار والده

— شكراً لك ياجيرالد

* * *

وعدنا الى الوطن العزيز ، ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تترسم خطى الشهور ، الى أن كان يوم أدهشتنى فيه آن بقولها :

والدتى ... ان شبح لى هانج لا يزال ماثلاً فى خاطرى .... لقد سمعت والدى يقول : (يجب أن ننساه) . ولكن لماذا ننساه ؟ أليس هو الذى أنقذ حياته ؟ لقد كان نبيلا حقاً ياوالدتى . فعند ما أخذونا اليه أكرم وفادتنا ، وكثيراً ما كان يجلس الى قائلا :

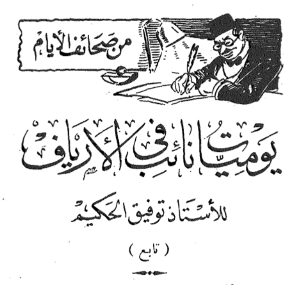
أختى الصغيرة .. كم أنت جميلة كزهرة التفاح !

ولما جن الليل تنحى لنا عن مرقده وافترش هو الأرض . . كم أنا حزينة عليه ياوالدتى ! . . وكم أحاول نسيانه فلا يسعدنى القلب !

فنظرت اليها فى عطف ... ثم قلت لها وأنا أغالب الدمع :

— حقاً ياآن ... لقد كان شاباً نبيلاً !!

أحمد فتحى مرسى



يوميات نائب فى الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطم الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضى حتى وجدت فى وجهى أحد العساكر يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلىّ للتوقيع . فوضعت إمضائى دون وعى على هذه الأوراق التى ليس لها آخر . وإمضائى الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمى . فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطاً أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما إن فرغت من ذلك وقد تصبب منى العرق حتى سمعت من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام :

— التحقيق منتظر فوق فى قضية ضرب النار !

ولكن للقوة الآدمية حدوداً . ولم أتبلغ بلقمة ولم أطرح جسمى على فراش منذ . . منذ أمس الأول . فما تمالكت أن قلت :

— ضرب نار فى عينك ؟ لو كنا عسكرا فى الخنادق ، أو فى حرب الدردنيل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ما ذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت فى طريق ، وصعدت إلى مكتبى



فى الطابق الثانى فألفيت ببابه الفتاة « ريم » منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛ ولست أدرى ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشنى قليلاً مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت حجرتى فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين فى نشاط المستيقظ من نوم صريح ، فعلمت أنهم آتون الساعة من منازلهم ، وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت فى هذه القضية ، فذلك خير من لعب «الطاولة» فى النادى أو مص القصب أمام الأجزاخانة . أما أنا فانسان لا يصلح الآن لشىء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات . فأعلنت الحاضرين برغبتى فى تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريتها . وليس من الرأى أن تعود لتأتى مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يعنيهم أمر القضية من الأهالى والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق ،

وهى لا تعرف أحداً فى هذا المركز ولا أهل لها به .
هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام فى بيتى للصبح . فالتفتنا إليه جميعاً فى شبه ذعر ؛ ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدرى كيف دب فينا نحن الحاضرين نفس الشعور فى نفس الوقت . حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خلفى ودلف إلى الحجرة ، ظهر فى عينيه القلق . وكان الموقف دقيقاً . إن أى اعتراض منا معناه الريبة فى سلوك حضرة المأمور ؛ ومن جهة أخرى إذا سلمناه هذا الحمل الوديع فأن الله وحده هو المنجى . فهذا المأمور قد شاعت له شائعة أنه استملح ذات يوم فلاحة دخلت عليه بشكوى ، وأراد أن يختلى بها ، فأمر عسكره وخفراءه أن يدخلوا سجن المركز ويحلقوا ذقون المساجين . فلما دخلوا أغلق عليهم الباب من الخارج وحبسهم ساعة انفرد خلالها بالمرأة . تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : إذا ساءت الأمور وتحرجت فأى عبء يوقر ضميرى أنا وكيل النيابة الذى دفع بيده هذه التفاحة اليانعة إلى هذه الأنياب التى يسيل منها اللعاب ؟ ! العجيب أن الحاضرين كلهم قد أطرقوا ووجموا كمن قد أيقن وقدر أنها أكلت ومضغت وانتهى الأمر ! وأراد المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال :

أنا غرضى أنها تكون فى محل أمين بين زوجتى وأولادى

ولم أجد بداً من الاذعان . وتركت المكان وانصرفت إلى منزلى . وتناولت شيئاً من الطعام على عجل . ثم أويت إلى فراشى واستغرقت فى نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل . قمت عطشان فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة . وتذكرت الفتاة وتخيلتها فى بيت صاحبنا فنفر من رأسى النوم . وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعى المأمور . ولكن الحوادث كالقطط إذا ناديتها رفضت المجىء وإذا طردتها جاءت تتمسح بالأقدام . ولم أجد ما أصنع . وخالجتنى ريب وشكوك . وطال الليل فى نظرى وسمج وتمنيت طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكرى بتدوين يومياتى فجمد القلم فى يدى . ووقع بصرى على أكوام من قضايا الجنح والمخالفات والعوارض من « إيراد » اليومين السابقين أرسلها إلىّ كاتب الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات . فلم آنس عندى ميلاً إلى العمل . فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل فى هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء ...

فجأة خطر لى أن أرتدى ثيابى وأن أنزل إلى الطريق وأرود حول منزل المأمور . ما هذا الجنون؟ أنا أفعل ذلك؟ وإذا (ضبطنى) خفير الدرك ؟ إنه قد يعرف شخصى فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتى به ...

على أن الله لطف بى آخر الأمر فأرسل إلىّ إشارة تليفونية ، طالعتها فى الحال فاذا هى واقعة تافهة مما لا نقوم لمثلها بالليل :

« ... بمرور قطار البضاعة نمرة ٢٠٩ خط الدلتا الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادى على الشريط . والحادثة بفعل فاعل مجهول ... الخ الخ » . وقد أشر المأمور فى ذيل الاشارة بانتداب حضرة معاون الادارة للانتقال وإخطار البك وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لى أن أقوم . ولكن كيف أضيع

هـذه الفرصة التى هبطت من السماء ؟ ليس أحب إلىّ الليلة من أن أقلق راحتى وراحة حضرة المأمور . وارتديت فى الحال ثيابى وأمرت باحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه من بوسع بابه طرقا ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل من نافذته صائحاً :

— مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسى من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . ما دامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جناية . لاحظ أنها جناية تعطيل قطار، أخطر جناية فى الدنيا . لابد من حضورك يا حضرة المأمور

— أنا ... أنا انتدبت معاون الادارة

— لابد من حضورك شخصياً

— الليلة .. مستحيل .. أنا الليلة .. تعبان ..

— كلنا فى التعب سواء ؛ لـكن الواجب يحتم علينا . . !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً فى ضيق وامتعاض ، ورأى عزيمتى واستماتتى ، وخشى أن يعارضنى فى أمر متعلق بالعمل ، فأذعن وطلب إلىّ الانتظار هنيهة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبى فى السيارة وهو ينفخ من الغيظ . وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصـفور . إذ على الرغم من صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فـكر المأمور مشـغولا هذه المرة ، فلم يفطن لغياب الشـيخ ، فلقد مضى فى إطراقه برهة ثم قال :

— أى نعم ! الواجب يحتم علينا . . لـكن يعنى . . مسمار ! ؟ فأغمضت عينى حتى لا ينتظر منى جوابا ، فاستطرد :

— الله يمسيه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل فى قضية القتل شاهدين لاغير ويقفل محضره ويميل علىّ : « هو القتيل أبونا والا أخونا ؟ قم نبل ريقنا بكاس » !

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا الـكيلو ١٧ ، ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة المسمار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب ، فتناولت المسمار بين أصابعى وجعلت أفحصه ، والمأمور خلفى يقول باسماً :

— « كان العطشجى فين ، لمـا الوابور وقع انكسر ! » ، فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التى كانت شائعة منذ ثلاثين عاماً يوم كانت شـفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصـل كسر ولا وقوع يا فندم ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت فى الحال . . .

ومضى يسرد آراءه قائلاً إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلهم من أصلاب تلك القرية التى « عزمت » القطار فى أول ظهوره وقدمت اليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالى قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هـذا المسمار على الخط الحديدى ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنمـا هو انتقام من الشركة ، فالأهالى فى هـذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على الحمير والجمال وبيعه للمقاولين ، فجاءت شركة سكة حديد الدلتا الانجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك حتى هـذا الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء كان هـذا هو السبب أو ذاك فأن الفاعل هنا أيضاً غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد انتهينا من الأمر بأن

وضعنا المسمار داخل « حرز » وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرفقناه بالأوراق ... إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذي هو كل بضاعتنا ، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرآى المأمور فتح المحضر فى « دوار » العمدة ، فسألت عن المسافة بيننا وبينه ، فرد نائبه قائلاً :

— « فركة كعب » ياحضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تتخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر فى زاوية الناحية ، وتركت المأمور « يسبخ » لنائب العمدة على « فركة » الكعب ، وانهمكت فى فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختم محضرى ، واذا بى أرى حركة نصب مائدة واعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر فى الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة فى ناحية :

— اسمع ياعمده ! البك الوكيل لايحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولاحاجة أبدا ، ولكن لابأس من كم زغلولة مدفونة فى الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشلتت ؛ وان كان عليه كم كتكوت محمر مافى ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شيء مفيد للصحة . ولا بأس من كم بيضة مقلية فى القشدة ، كفاية ، إياك ياعمدة تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته ضعيفة . إن كان عندك عسل نحل بشمعه فلابأس . قرصين جبنه ضانى لا مانع ، طبق كعك وغريبة .. الغرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد العارفين !

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهى ولم أدر ما أصنع . ورأيت الخير فى أن أسرع بالانصراف . فطويت أوراقى على عجل . ولكن عين المأمور لحظتنى وأدرك غرضى . فجاءنى مسرعاً يسألنى :

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التى لم يوضع عليها شيء بعد ثم نظر إلىّ :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم

— ولا شاهد واحد فاضل . . ؟

— ولا ربع شاهد

فتركنى وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب أحد الأهالى من « حِرامه » ودفعه أمامى دفعاً وأشار إليه وقال :

— شاهد مهم قوى ، عنده أقوال

فأبديت ارتيابى فى قيمة كلام هذا الرجل ورغبتى فى الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن المأمور ألح فى الرجاء أن أصغى إلى هذا الشاهد فأن لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورق من جديد وما كدت أبدأ فى إلقاء السؤال ، حتى برز العمدة وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة . وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى الفطور . فاعتذرت بضعف صحتى وامساكى عن الأكل عادة فى الصباح . فانطلق من فم العمدة قسم غليظ . وتواطأ فى الحال مع المأمور على حملى من مكانى حملاً . وإذا بى أجد نفسى فى صدر المائدة . فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور يأكلون وينهشون ويزدردون وقد انشغلوا بأنفسهم فلم يفطنوا حتى إلى قلة أكلى ؛ وقمت من بينهم متسللاً بعد قليل وجلست فى مكانى الأول أنتظر تارة وأتصفح محضرى تارة إلى أن فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على مافوق الخوان وقاموا يمسحون أيديهم فى غطاء المائدة الذى لم ير وجه الصابون منذ عامين ، وأقبل علىّ المأمور يتجشأ ويقول :

— أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى

فأشرت إلى الشاهد الذى كان جاءنى به وقد نسيه فيما يظهر :

— لما نسأل الشاهد المهم !

فأجاب المأمور من فوره :

— لا مهم ولا حاجة

وتركنى واتجه إلى الفلاح وقال له :

— أنت يا ولد عندك معلومات ؟

فأجاب الفلاح :

— « لَع »

أى لا ، فالتفت إلىّ المأمور قائلا :

— جحش الله فى برسيمه ! لا عنده معلومات ولا يحزنون . قم بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا !

ونهضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس . ولم نكد نبلغ دار المركز حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل أشارة من المستشفى الأميرى أن المصاب « قمر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته الآن ويمكن استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شىء ، خشية أن يعود المصاب إلى الأغماء أو سوء الحال فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشى » فقيل لنا إنه فى قاعة العمليات ، فسرنا فى الردهة الموصلة إليها ، فقابلتنا تلك الأسرة الصغيرة والمحفات التى تجرى على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الحمالين فى المحطات الكبرى ، ورأينا تلك المباخر وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار ، والممرضون فى هرج ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التى تحمل أجساماً فى طريق الفناء ، يدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفت قليلاً وقد شرد خاطرى ، وخامرنى إحساس من يقف فى المحطة بين القُطُر . نعم ، أو لست الساعة فى تلك المحطة التى يسافر منها المريض إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت العسكرى المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات فى ثيابهن السود و « طرحهن » الزرق وأصواتهن التى يقطعها عويل القلق . فعلمت أنه سيلقى إليهن بجثة بعد قليل . فانهم فى كل يوم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو الناب الأزرق فى لون « النيلة » والمخلب المعفر بالطين والتراب

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلواً فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف ، فنظرت فى ذلك ، فقال لى الرجل إن هـذا خرج من بطن امرأة هى الساعة فوق المشرحة تحت البنج ، فجمدت فى موقفى . وبادر المأمور وطلب باسمى مقابلة الحكيمباشى فى الحال . فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات ، فتجلدت ودخلت وخلفى من كان معى ، فقابلنى الحكيمباشى بابتسامة وهو مازال منحنيا فى معطفه الأبيض على شىء فوق المشرحة وقد شمر عن ذراعيه وفى يده أداة كأنها « الكماشة » وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان فى ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت الى الذى بين يديه فاذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقا طويلا من الصدر حتى أسفل البطن ، وإذا « الكماشة » فى يده تجمع الجلد الذى انشق وتخيطه بشىء كأنه المسامير الصغيرة ، والطبيب يفعل ذلك فى سرعة غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحا ضاحكا كأنه « حاو » يفاخر بخفة يده ومهارة صنعته . ونظرت

فى وجه البنت الشاحب وهى كاليتة ، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير فى صف طويل كأنها جلدة حـذاء فى يد الاسكافى ؛ فشعرت بدوار فى رأسى وخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهى فترك المريضة وحدق فى وجهى قلقاً . فأسرعت وخرجت من القاعة وأنا أقول له فى صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى :

— منتظرك يا دكتور بعد العملية

وسألنى المأمور عما بى فلم أستطع التعليل . إنى قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامى وبطوناً تبقر فلم أتأثر . ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أترانى شديد التأثر لمرآى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم انها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة العمليات فبلغت خياشيمى إذ دنوت من جسم الفتاة ؟

وأعادنى الهواء الطلق خارج القاعة الى نشاطى وجلسنا ننتظر فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب قهوة طلبها لنا « الباشتمرجى » . الى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحبا الى « عنبر » المصاب

وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذ لم تكف «العنابر» لأيواء هذا القدو من التعساء . ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب « الزعابيط » الزرقاء يتناولون فى نهم حساءهم فى أوان صغيرة من « الألومنيوم » ، وينظرون الينا ومعنا الحكيمباشى كما ينظر القردة فى حديقة الحيوانات الى الحراس مع كبار الزائرين

ووصلنا الى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً لا يتحرك . ونزع الحكيمباشى من رأس السرير تلك الرقعة التى يدون فيها تطورات مرضه وقرأ علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت :

— المرض ، يمكننا استجوابه حالاً ؟

فأجاب الطبيب فى صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلى

ثم دنا من المصاب وناداه فى هدوء ففتح قليلاً عينين ذهب بريقهما وكأنهما لا يريان شيئا ولا يثبتان على شىء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . فاعدت عليه السؤال ففتح شفتيه ولم يقل شيئاً . فألححت عليه فبذل جهدا ظاهرا وقال كلمة واحدة :

— ريم !

فدهشت قليلاً . والتفت يمنة ويسره فوجدت المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأنى فى الاهتمام بالأمر والعجب له . فنظرت فى وجه المصاب وقلت :

— وضح غرضك يا قمر !

فلم يجب

— قصدك أن ريم هى نفسها ...

فلم يبد حراكا ...

— يا قمر ، يا علوان . تكلم . لا بد أن تتكلم . كلمة واحدة . الضارب ؟ من الضارب ؟

ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه عرقا . فجذبنى الحكيمباشى من يدى بعيدا وقال :

— كفاية !

فنظرت الى المأمور يائساً :

— كفاية ؟!

وهل ظفرنا نحن بشىء ؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح منه الآن . إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد ، ليته لم يلفظها ...

(يتبع) توفيق الحكيم

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)



الفصل الثالث

سأقص الحوادث التى أصبت فيها أولا بداء العصر :

بعد أن مرت المساخر فى ليلة راقصة ، جلست إلى مائدة مع أصحابى ، وقد ارتدوا أفخر ملابسهم ، والقاعة تغص بالشبيبة الغضة تشع مرحا وجمالاً ، وعلى جانبينا موائد عديدة تحمل أفخر الطعام والشراب ، تغمرها الأنوار وتكللها الأزهار ، والموسيقى تملأ القاعة بصخب الأنغام ؛ وكانت على المقعد المقابل لمقعدى الخليلة الرائعة الجمال التى أقمتها معبوداً لقلبى

وكنت وقتئذ فى التاسع عشر من ربيع الحياة ، وما كنت عرفت شقاء ولا ابتليت بداء ، وكنت أنوفاً لا أعرف المصانعة وفؤادى طافح بالآمال

وفعلت الخمرة فعلها فى عروق ، فبدأ كل ما حولى كأنه موسوم بطابع المرأة التى أحب . فى مثل هذه النشوة تلوح الدنيا للعاشق جوهرة تتألق باسم المحبوب من كل جهاتها ، فيكاد الثمل يقبل كل من يبتسم له ، إذ يشعر بأنه أخ لكل مخلوق فى الوجود

وكانت خليلتى قد ضربت لى موعداً للاجتماع بها بعد انقضاء السمر ، فكنت أرفع الكأس إلى شفتى ولحاظى تغور فى أحداقها

وأدرت ظهرى للمائدة لأتناول طبقاً فسقطت الشوكة عنها ، وحين انحنيت لأرفعها عن الأرض مزيحاً الغطاء المتدلى ، رأيت قدم خليلتى مشتبكة بقدم الشاب القاعد بقربها ، وكانت الساق على الساق تشد إحداهما الأخرى

جلست بكل هدوء ، وطلبت شوكة غير التى سقطت وعدت إلى تناول طعامى ، وكانت خليلتى والشاب محتفظين بالسكون التام ، فلا ينظر أحدهما إلى الآخر ولا يتحادثان ؛ بل كان الشاب متكئاً على المائدة ، وقد أدار وجهه إلى جارة له كانت تريه

عقدها وأساورها ؛ وكانت خليلاتى جامدة ، وقد شخص بصرها وتراخت على مقعدها ، وما انقطعت لحظة عن مراقبتها إلى نهاية الطعام ، فلم تبدر منها بادرة تنم عن حالها

وعند ما قدم الخادم الحلوى ، زحلقت المنشفة وانحنيت لأخذها عن الأرض فرأيت الساقين وهما لم تزالا يتشادان مترابطتين ، وكنت وعدت خليلاتى أن أرافقها بعد الطعام إلى منزلها ، وما كان ما يحول دون ذلك ، وهى أرملة وليس لها إلا صهر طاعن فى السن يرافقها أحياناً إلى المجتمعات ؛ وبوصولنا إلى الدهليز أمام المخرج وقفت وقالت : (هيا بنا يا أوكتاف) ، فقهقهت ضاحكا ، وخرجت دون أن أفوه بكلمة

اندفعت إلى الشارع ؛ وبعـد أن مشيت خطوات جلست على قارعة الطريق واجماً كأننى أصبت بالعته من خيانة هذه المرأة التى لم تثر غيرتى يوماً ولا نبهت شكوكى ، وما كان الذى رأيت ليترك فىّ أقل ريب ، فأصبحت لذلك كمن فوجئ بضربة فأس على أم رأسه . ومرت الساعات وأنا جالس على الحجر تمر بذهنى أمور لم أكن لأذكر منها شيئا فيما بعد . غير أننى رأيت شهابا ينزلق فى السماء فرفعت قبعتى مسلماً عليه ، والشعراء يرون فى كل شهاب هاو عالماً يندثر

ورجعت بكل سكون إلى منزلى ، وأنا لا أعى وبدأت أخلع أثوابى ، ثم انطرحت على سريرى ، وما ألقيت رأسى على الوسادة حتى استولت علىّ فكرة الانتقام ، فانتفضت وجلست ، وقد توترت عضلاتى فأصبحت كقطعة من خشب .. فقفزت إلى الأرض ومددت ذراعى وبدأت أصرخ ، وما كانت أصابع رجلى تلمس الأرض لشـدة تشنج أعصابى . ومرت علىّ ساعة وأنا على هذه الحالة من الهياج والجنون ، وكانت هذه أول نوبة غضب شعرت بها فى حياتى

وكان الرجل الذى باغته مع خليلاتى من أعز الأصـدقاء علىّ ، فذهبت إليه فى اليوم التالى وقد استصحبت شاباً يمتهن المحاماة اسمه (ديجنه) ؛ فأخذ خصمى لنفسه شاهداً آخر وتوجهنا جميعاً ومعنا الأسلحة النارية إلى غابة فنسين ؛ وكنت أثناء الطريق أتحاشى توجيه الخطاب إلى خصمى أو الاقتراب منه ، كيلا أندفع إلى شتمه أو ضربه إذ لم يكن من موجب لهذا الاعتداء ما دام القانون يجيز لنا الاشتباك بمعركة منظمة ؛ ولـكننى ما كنت أمتلك نظراتى من التوجه إليه ، وكان هذا الشاب من أصدقاء الصبى ، وقد تبادلنا الولاء طوال السنين ، وما كان يجهل علاقتى بخليلاتى ، وقد كان صرح لى مراراً بأنه شديد الاحترام لمثل هذه العلاقات ، وأنه لا يقدم على مزاحمة صديق له حتى ولو برح العشق به . وكانت ثقتى شديدة بهذا الصديق ، وقد لا أكون صافحت يداً بمثل الولاء الذى كنت أضمره له . وحدقت ملياً فى الرجل الذى سمعته يتكلم عن الصداقة كأنه أحد الأبطال الأقدمين ، ثم رأيته بعد ذلك يتمتع بخليلاتى ؛ فاذا هو فى عينى أول مسخ أصادفه فى حياتى ؛ فكنت أثبت النظر فيه لأرى كيف تكون المسوخ ، وكان يخيل إلى أننى لم أر قط هذا الرجل الذى عرفته وهو فى العاشرة من عمره ، فمرت بنا الأيام من ذلك العهد توثق روابط الولاء بيننا ، وإننى لأورد هنا تشبيهاً ينطبق على حالتى :

-إن في رواية إسبانية معروفة مشهد شخص من حجر يرسله العدل الإلهي ليتناول طعام العشاء مع رجل عاهر ، فيتجلد هذا الرجل كيلا يلمح جليسه اضطرابه ، ولكن الجليس يتقدم لمصافحته ، وعندما يقبض على يده يشعر الرجل بصقيع الموت ويرتمش حتى يفقد شعوره

ولقد كنت طول حياتي كلما تكشف لي صديق أو خليلة عن غدر وخديعة أشعر بما لا أجد له شبيهاً سوى مصافحة يد التمثال ، فكأنني كنت أقبض حقيقة على يد من رخام تشعرني بصقيع الحقيقة المروعة

تلك هي مصافحة اليد الباردة . ولكم طرقت بابي واأسفاه — ولكم نزل الرجل الحجري في ضيافتي فتناولنا العشاء معاً !

وتمت المعدات فوقفت من خصمي موقفه مني وتقدم كل منا ببطء نحو الآخر ؛ وأطلق هو النار أولاً فأصابني في ساعدي الأيمن ، فتناولت السلاح بيدي اليسرى ، ولكن خانتني القوى فجثيت راكعاً على ركبة واحدة . وعندئذ رأيت خصمي يتقدم إلى بسرعة وقد امتقع لونه وبدت عليه دلائل الاضطراب الشديد ، وتراكض الشاهدان فأبعدها هو وقبض على يدي الجريحة وقد صرف بأسنانه واختنق صوته فرأيت الألم يرتسم على وجهه بأشد مما كنت أشعر به

فصحت به : إذهب عني ، إذهب إليها وامسح يدك بغطاء فراشها . وبقينا كأن على صدر كل منا حجرا

ونقلت إلى عربة حيث عاينني طبيب فوجد أن الجرح غير خطر لأن الرصاصة كانت استقرت بعيداً عن العظم ؛ غير أنني كنت أتململ إلى درجة جعلت كل محاولة لتضميد الجرح مستحيلة . وعند ما تحركت العربة للمسير رأيت يد خصمي قابضة على عارضة الباب وهي ترتجف ؛ وكنت أشعر أنه مخلص في ندمه ، ولكنني لم أكن بحالة تمكنني من التغلب على ثورة أعصابي لمنحه الغفران

ولما وصلت إلى مسكني كان قد نزف من دمي ما يكفي لتهدئة فوران الغضب ، وكان أشد علي من آلام جرحي . استلقيت على فراشي مرتاحاً وتناولت من الماء كأساً لم أشعر بلذة مثل لذته في أية كأس شربتها في حياتي

وبعد برهة شعرت بنار الحمى فتساقطت دموعي وتسلط الأسى علي ، لا لتحول خليلتي عني بل لأقدامها على خداعي . وهل يسهل علي أن أدرك السبب الذي يحفز امرأة لا يقيدها واجب ولا غاية بادية إلى مخادعة رجل وهي تحب سواه

وكنت أعلن استغرابي هذا لديجنه عشر مرات في اليوم فأقول له :

— لو أنني كنت زوجاً لهذه المرأة ، أو لو كنت أبذل المال لها لكنت أفهم سبب خيانتها . فما الذي كان يصدها يا ترى عن إعلان انتهاء حبها لي ؟ وما الذي دعاها إلى خيانتي ؟

وما كنت أتصور وقوع الكذب في الغرام . كنت لم أزل في شرخ الشباب في ذلك الزمن ؛ غير أنني أعترف بقصوري حتى الآن عن إدراك هذا السر . ولقد كنت كلما أحببت امرأة أعلن لها حبي ، وكلما شعرت بزوال الحب أعلنه أيضاً ، إذ كنت أعتقد أن مثل هذه الأمور لا سيطرة لارادتنا عليها ، وأن لا جريمة إلا في الكذب

أما ديجنه فما كان يجيب على كل هـذا إلا بقوله : إنهـا لشقية . فعدنى ألا تنظر إلى وجهها فيما بعد

وكنت أقسم له باتباع نصيحته . وقد أشار على فضلاً عن عدم مقابلتها ألا أكتب اليها حتى ولو بقصد توبيخها ، وألا أجاوبهـا إذا هى كتبت إلى . وما ترددت فى وعده بما أراد وأنا مندهش بل متألم لعزة نفسى لافتراضه إمكان مخالفتى لهذه الخطة الرشيدة

ولـكننى ما تمكنت من النهوض من فراشى ومبارحـة غرفتى حتى هرعت إلى منزل خليلتى فرأيتها وحدها على مقعد فى غرفتها وقد ظهر التعب على ملامحها والاهمال فى ترتيب أثوابها . فاندفعت أشبعها لوماً وتقريعاً ، وقد بلغ منى اليأس أقصاه . فـكنت أصرخ بملء صـوتى ودموعى تتساقط بغزارة ، وخنقنى الزفير فانطرحت على السرير وأنا أقول : لقـد كنت تعلمين أن خيانتك تقضى على أيتها الخائنة الشقية ؛ فهل لذت لك هذه الجناية ؟ وما هو ذنبى إليك يا ترى ؟

أما هى فانطرحت على تعانقنى قائلة : لقـد اندفعت بالرغم منى لأن ذلك الشاب كان قد أسكرنى على المـائدة ؛ ولـكننى لم أستسلم إليـه ، بل كل ما وقع هو أننى تراخيت فى ساعة ضلال . ولقـد أكون أخطأت ولـكننى لم أرتـكب جرماً . إننى أقدر الضرر الفادح الذى أنزلتـه بك ، ولـكننى أطمع فى عفوك ، فأذا أنت منعته عنى قتلتنى

وما ادخرت شيئاً من دموع التوبة الصادقة ولا من فصاحة الألم توصلاً لتعزينى ، وارتمت على ركبتيها فى وسط القاعة وقد امتقع لونها وتفتق ثوبها وتهدل شعرها ، فرأيت فيها من الجمال ما لم أره من قبل ، فارتعشت كرهاً واشمئزازاً بينما كانت الشهوة تثور فى دمى

خرجت من لدنها وقد تحطمت قواى وصممت على ألا أقابلها أبداً ، ولـكننى رجعت إليهـا قبل مضى ربع ساعة وأنا مندفع بقوة خفى كنهها على ، وقد تسلطت على شهوة التمتع بهذه المرأة مرة أخيرة لأشرب على جسدها الرائع الجمال كل ما ذرفت من مرير الدموع ولأنتحر بعد ذلك

كنت أكرهها وأعبدها ؛ كنت أشعر أن غرامها يوردنى الهلاك ، وأشعر أيضاً أننى لا أقوى على الحياة بدونها . صعدت إلى غرفتها بسرعة السهم المنطلق دون أن التفت إلى الخدم فى طريق ، ودفعت باب غرفتها فجأة فرأيتها جالسة إلى المرآة وقد تحلت بجميع جواهرها ، وكانت وصيفتها واقفة وراءها تمشط شعرها ، فخيل الى أننى أشهد حلماً ، إذ امتنع على أن أتصور أن المرأة التى أراها أمامى هى المرأة نفسها التى كانت منـذ هنيهة ساقطة على الأرض تحت وقر آلامها

تحجرت كالتمثال مكانى ، وعنـد ما سمعت انفتاح الباب التفتت وقالت قبل أن ترانى : أهذا أنت ؟ ؟

وكانت تنتظر خصمى ليذهب بها إلى مرقص . وإذ عرفتنى قطبت حاجبيها وتبرمت . وتراجعت قاصداً الانسحاب ، ولـكننى رأيت رقبتها الناعمة وقد عقص عليها شـعرها وربط عليه مشط من الماس ، والتفت فوقه خصلتان ركزتا بسنبلتين من الفضة ، ولاح كتفاها وعنقها بأنصع بياض ؛ فـكأن شـعرها المعقوص مرتفعاً لبدة أسد تهزأ

بالمشهد الذليل الذي وقفت عنده منذ هنيهة .

وجمت لحظة ثم تقدمت فجأة إلى هذه المرأة وأنزلت بقبضتي ضربة قاسية على رقبتها فلم تصرخ بل سقطت إلى الأمام مرتمية على يديها . وعندئذ أسرعت بالانصراف

وما إن وصلت إلى منزلي حتى عاودتني الحمى بشدة ، فلزمت الفراش وقد نكأ جرحي فآلمني كثيراً .

وجاء ديجنه لعيادتي فأطلعته على ما جرى ؛ وبعد أن أصغى إلى بكل هدوء أخذ يتمشى في الغرفة كمن عزم على أمر يتردد في تنفيذه . وأخيراً وقف أمامي وأطلق ضحكة عالية وقال :

— أهذه المرأة أولى خليلاتك ؟

فقلت : — لا بل هي الأخيرة

وعند منتصف الليل بينما كنت مستغرقاً في نومي المضطرب خيل إلى أنني أسمع تنهداً عميقاً ، وإذ فتحت عيني رأيت خليلتي واقفة قرب سريري وقد شبكت يديها على صدرها كأنها شبح من العالم الثاني ، فما ملكت روعي فصرخت حاسباً أن ما أراه خيال جسمه دماغي المحموم ، فنهضت مذعوراً وهربت إلى زاوية الغرفة ولكنها تبعتني وقالت . : أنا هي . وضمتني إليها فصحت بها : — ماذا تطلبين ؟ دعيني وشأني وإلا قتلتك

فقالت : — لك أن تقتلني فاني خنتك وكذبت عليك ، وما أنا إلا شقية حقيرة ، ولكنني لا أطيق الحياة بدونك

ونظرت إليها فاذا هي مجسم الجمال ، وقد ارتمشت أعضاؤها واشتعلت عيناها بنيران الشهوة ؛ وكان عنقها عارياً وشفتاها تحترقان ، فطوقتها بذراعي وقلت لها :

— ليكن ما تريدين ، ولكنني أقسم بالله الذي يرانا ، وبروح أبي أنني سأقتلك وأنتحر بعدك

وأخذت خنجراً كان على رف الموقد ودسسته تحت الوسادة فابتسمت وقبلتني قائلة : — ما لك ولهذه الحماقة يا أوكتاف ؟ تعال إلى ! إنك ترهق نفسك وأنت محموم ، أعطني هذا الخنجر

ولما رأيت أنها تحاول أخذه قلت لها :

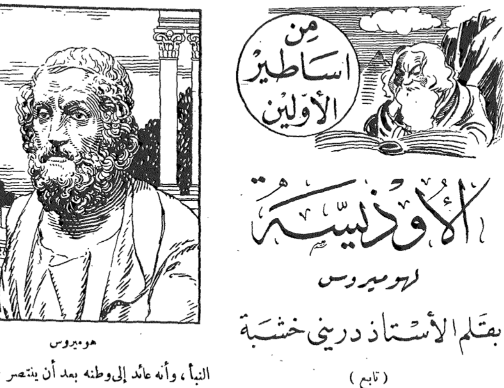
— إصغي إلى . إنني لا أعرف من أنت ولا أية مهزلة تمثلين ؛ أما أنا فليس من الهازل ما أفعل . لقد بلغ حبي اياك أقصى حد يصل إليه حب إنسان على الأرض فكان ذلك لشقائي وموتي ، فاعلمي أنني لم أزل أتفانى في هواك . تقولين إنك تحبينني أيضاً فأنا أطاوعك في رغبتك ، وأقسم بأقدس ما في الكون بأنني إذا ما اندمجت بك هذا المساء فلن يلمسك أحد سواي غداً . سأتمتع بك أمام الله إذا مارضيت ، ولكنني سأقتلك قبل انفلاق الصباح

وارتميت على الأرض مرتعشاً ، فرأيتها تلقي معطفها على كتفيها بسرعة وتولي الأدبار

وعند ما أخبرت (ديجنه) بهذه الحادثة قال لي : ولماذا رددتها ؟ إنها لجميلة حقاً . فهل بلغ كرهك لها إلى هذا الحد ؟

فأجبته : أمازح أنت ؟ وهل لهذه المرأة أن تكون خليلتي بعد الآن ؟ وهل تعتقد أن بامكاني أن أشترك فيها مع سواي ؟ أفلا تذكر أنها أقرت بتمتع غيري بها ؟ فهل بعد ذلك تريد أن أنسى وأستبقي حبي لها وأتمتع بها أيضاً ؟

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)



هوميروس

وما كاد يفرغ تلماك من مقالتــه حتى أرسل سيد الأولمب نسرين عظيمين طفقا يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلا يُدَوِّمان فوق الملأ ، ويقدحان الشرر من أعينهما ... نذيرَىْ ردى ، وصيحة منون . ثم انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد

وشده القوم ، وريعت أفئدة المشاق ، وأخذوا يتخافتون ... ثم نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق نبوءته ، فقال :

« أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر العشاق المعاميد ما يخبئُ لهم الغيب من شر أوشك أن ينقذف على رؤوسهم ! إن أوديسيوس حى يرزق ، وإنه عائد يوماً إلى وطنه ، بل إنه يجد السير إلى هنا ! وإنه ليحمل الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مواطنيه ! أنا هاليتير ، قدّيسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ ، وأنه عائد إلى وطنه بعد أن ينتصر على أعدائه ، ويذيقهم ضعف ما صنعوا ، ولن يجديهم أن يتوبوا أو يندموا .. ليأتينكم نبؤه بعد حين ! »

وسخر القوم واستهزأوا به ، وقام يوريماك يرجمه بهذه الكلمات :

« انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى فتنبأ لهم عما ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنون غصن أوديسيوس الفينان . فليته قصف غصنك كذلك ! طير ؟! ها ! إن الطير طالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى منحة من ابن مولاك تلماك .. ولكن اصغ إلى ! لتكن لك منحة منا إن تنبأت له عما يكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه ! أسمعت ؟ لقد نصحنا له أن يرسل أمه إلى بيت أبيها ليختار لها الكفء الذى ترضى ، فلم ينتصح . وأنا أرسلها كلمة صريحة فى غير مين أننا لن نبرح عاكفين على ما نحن فيه من هذا الخير (حتى

تخضع پنلوپ) فنمضى مأجورين . . وثق ، أيها الشيخ المهيب الخرف أن نبوءاتك لن تفزعنا ، بل هى تضاعف سخطنا عليك ، وبغضاءنا لك .... ألا ما أطيب الاقامة هنا ؟ ! لتزدد پنلوپ عناداً ، فانا لا نزداد إلا جلاداً .. »

ونهض تلماك فقال :

« على رسلك يايوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها العشاق جميعاً ... لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبداً لن أضرع إليكم مرة أخرى ... الآلهة بينى وبينكم ، والأغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ؛ غير أن لى طلبة إليكم حبذاً لو أنلتمونى إياها . . . فهل تسمحون لى بمركب وعشرين بحاراً فأقلع من فورى هـذا الى پيلوس ثم الى أسپرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبى ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولمب الذى بيده ملكوت كل شىء ... إنى إذا علمت أن أبى ما يزال حياً فقد أوفق فى العثور عليه ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فانى عائد إلى إيثاكا فمقيم له نصباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لى مطلق الحرية فى منح أحدكم يد أمى فتكون زوجه المخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبى كل المراسيم الجنائزية ، لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها فى ظلال هيدز (١) »

وكان فى المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبل ، وتتقد فى رأسه جمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تلماك ، فاذا هو الشيخ منطور ، الذى كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما ... قال منطور :

« إسمعوا إلى يا أهل إيثاكا ! ما لكم اليوم قد نسيتم آلاء ملككم أوديسيوس عليكم ، وهو الذى كان يرعاكم كالأب ، ويغدق عليكم من فيضه العميم ؟ مالكم قد تقاعستم دون هؤلاء العشاق الذين يذهبون بخير مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قلٌ وأنتم كُثر ، آمنين مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد ... ؟ »

وهاجت كلمة الرجل كوامن العشاق فهب أحدهم وهو ليوكريتوس ، يقول :

« زويدك يا منطور ! أيها الثرثارة العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير الشعب على العشاق وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يا منطور ؟ إذن فأبشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع معهم شيئاً إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ؛ إنه إذا فعل فسيذوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات هاليتير ، وپنلوپ نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوس ؛ ؛ ولكن اسمع أيها الشيخ ، إنه لن يضيرنا أن يذهب تلماخوس فيذرع البحر باحثاً عن والده ، وله أن يتخير من السفن ما يشاء ... »

وتفرق القوم ، وأهرع العشاق إلى خيامهم ، وانقلب تلماك إلى سيف البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجى مينرفا :

« أيتها الربة المباركة ! يا إلهة الحكمة مينرفا ! يا من كنت أمس ضيفة مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلى لك ، أنا تلماخوس التعس ، وأبتهل أن تباركينى وتسددى خطواتى ، وتكونى رائدى الأمين فى عباب هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلباً على هؤلاء الفُسّاق العرابيد ،

(١) إسم الدار الآخرة فى الميثولوچيا

وأن تشرق فى ظلمات رحلتى البعيدة ، وأن تحلى أمناً وسلاماً على . . . يا مينرڤا ، يا مينرڤا ، آمين يا ربة العدالة ... »



واستجابت مينرڤا ، وأقبلت فى صورة الأمين منطور حتى كانت قبالة تلماك ، ثم شرعت تكلمه كلمات هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى من نسمات الورد ، وأعذب من قطرات الندى :

« السلام عليك يا تلماخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن أوديسيوس وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدو فيك بدوات من حَوْله وطَوْله وقوة بأسه ، وحين تُقلع على بركة السماء وفى عناية الآلهة ورعاية سيد الأولمب ؟ ؛ فى رحلة لن تكون عبثاً ... أنت ابن أبيك يا تلماك ... أتى بك من بنلوب ... وآية ذلك هـذه الروح القلقة التى تشيع فيك من أجله ، وهذا الجبروت الذى هو نفحة منه ، وذاك الصوت الجبار الذى يتلجلج فى فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذى هو قبس من ذهنه العظيم ... بشراك ياتلماك ! لا يحزنك خبال أعدائك فقد أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فَيَحْطِمهم ... أنا ... أنا هذا الشيخ المُهدّم ، صديق أبيك وأمينه منطور ، سأكون معك ، وسأخدمك ، وأسهر عليك ، وأفديك .. لكن لتمض الآن فلتعد للرحلة ما هو حَسْبها من زاد وعتاد ، ونخبة أولى بأس من رجالك الأقوياء ، وسأنتقى أنا نفسى أشدهم مراساً وأصدقهم عزيمة . . . إمض على بركة الآلهة . . . إمض ... لا وقت لدينا فنضيّعه ... هلم ... »

وسكتت مينرڤا ... ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال فى نفس تلماك ، فذهب وقلبه يخفق بألف أمنية ... الى القصر ... حيث رأى العشاق يُذبّحون ويعدون نار الشواء ، وحيث قفز أنتينوس للقائه ساخراً مستهزئاً :

تلماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداءنا واطرحت بغضاءك هنيهة ! هلم ! تحسّ من هذه الخمر قرقفاً أيها الصديق . لايشغلك أمر الرحلة .. فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدراً من الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة .. وستبحر قريباً فتذرع البحار وراء أبيك . هلم ... هلم ... »

ولكن تلماك عبس عبوسة قاتمة وقال :

« أنتينوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومى السفلة غداءهم ، ولا لى قلب فأشرب النخْبَ من يدك ! لابورك لكم هذا الذبح الذى لا يحل لكم ، والذى استبحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو .. أجل ! لأستعجلن لكم الخراب ولأسعين فى حتفكم ، ولأذهبن إلى بيلوس فانتصر إذ عزنى النصر فى إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفائنى وعتادى تنكرونها على ! »

وكان اللئيم قد أمسك بيمين تلماك كالمصافح المستهزئ ، ولكن تلماك جذبها ساخطاً ، وترك الكلاب تغمزه وتلمزه ، وتستهزئ بهذا العون

الذي يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التي يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطه ... « ومن يدرى ؟ فقد يهتدى إلى إيفير المثمرة ، فيجد في أعشابها بقلةً يدس لنا منها في كؤوسنا فتريحه منا ...» ...

« ... بل من يدرى ؟ فلقد يبتلعه اليم كما ابتلع أوديسيوس من قبل ، وتكون هنالك الطامة ! إذا إذن نقتسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نمهر أحدنا الذي تختاره بنلوب بملاً لها ، غادة هيلاس بهذا القصر المنيف ! ... »

تركهم تلماك ، ومضى قدُماً الى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التي لا تقدر ، من عُدة للحرب وذهب مدَّخر ، وخمر معتقةٍ ورَوْح أذْفر ، وخز وديباجٍ ودُرٍّ وجوهر ، ومغافر أُعدت لليوم المنتظر ... يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذاك النفر ...

ووجد عندها حارستها يوريكليا فصاح بها :

« ربيبة ! يوريكليا ! هيا ! صبى من خمرك فى زقاق ! من مدامتك التي ادخرتها لأبي ... لا ... لا ... ليس من صفوتها يا ربيبة ، إحتفظى بصفوتها له ، املئى اثنى عشر دِنًّا ، وهيئى عشرين جِوَالقاً من دقيق ، هيا ... أعدّيها كلَّها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملكة ... لا يعلمن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس وأسبرطة ... حتى ولا أمى ! سأرحل ثمة ... سأتسمَّع أخبار أبى ... »

وصمت تلماك هنيهة ... واستعبرت ربيبته يوريكليا ، وأرسلت هذه الكلمات على أجنحة من الحنان ، وفى شقائق من الرحمة :

« رويدك يابنى ! أى سفر وأى نوى ! ؟ لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه كل شىء ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لانعرفه ! أتسافر يا تلماك ليأتمر بك هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يغتالك ، ثم يستصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يا بنى ! لتبق معنا نحن الذين أحببناك واصطفيناك ! فيم تذرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح ، ولا ثقة لك فى شىء ؟ »

وأجاب تلماك فى رفق :

« رويدك أنت يا ربيبة ! إنى لم أعتزم شيئا من تلقاء نفسى . . . إنها السماء هى التى توحى إلى ! ولكنى أستحلفك بكل أربابك ألا تقصى شيئا مما اعتزمته على أمى إلا بعد احد عشر يوماً أو إثنى عشر يوماً . . . فانها لو علمت بسفرى لأظلمت فى عينيها مباهج الحياة وذهبت نفسها علىَّ حسرات »

وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانثنت تهىء دنان الخمر وأحمال الدقيق

أما منيرفا ! أما ربة العدالة والحكمة الخالدة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فقد يممت شطر البحر وقصدت الى المرفأ ، حيث لقيت نوءمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المنشئات ، فأعدّ لها واحدةً من خيارها . وما كادت ذُكاء تدخل فى خِدْر الأفق ، وما كاد الشفق يبكى فيصبغ بدموعه جبين السماء حتى كان الملاحون قد هيَّأوا القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاذيفهم وأحضروا عُددهم ، وتزودوا من السلاح ؛ وكانت مينرفا نفسها تستحثهم ، فسرعان أن تهادت السفينة فى جَوْبها ، ورقصت نشوى فوق هامات الثبج

وذهبت مينرفا ، فى صورة منطور وفى طيلسانة فأشرفت على عصبة العشاق ؛ وتمتمت بكلمات

فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النُّعاس بِملْء جفونهم ، وكانت الكؤوس ما تزال تقهقه فى أيديهم ، فسقطت عن غير عَمْد لتسقى الأرض من تحتهم شرابا !

وطفقوا تحت طائف الكرى ، ينسلون الى خيامهم . . .

وأدلفت مينرڤا نحو القصر ، لتاتى تلماك :

« تلماك ! هلم ! البدار ! أنت هنا وكل رفاقك فى الفلك المشحون ينتظرونك ! هلم ! يجب ألا نضيع وقتنا سُدى »

ونهض تلماك ! وسارت مينرڤا ، وسار هو فى أثرها حتى كانا عند سِيف البحر ، وحتى أشرفا على السفينة .

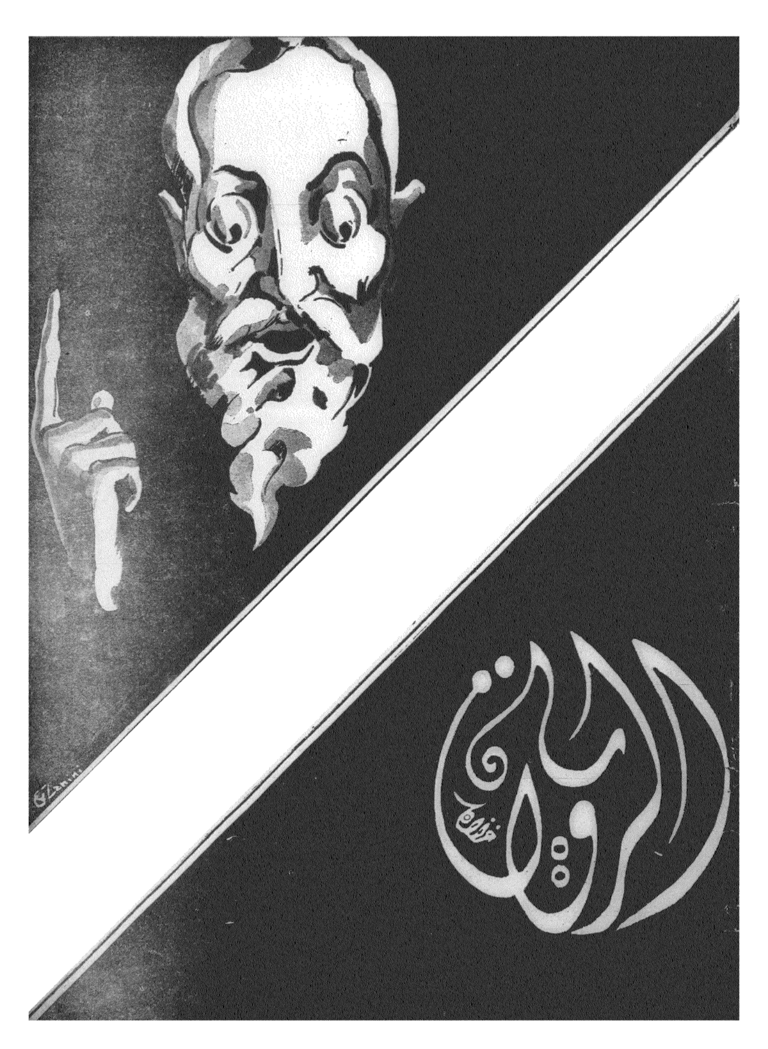
« مرحبا يا رفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدنان وتلك الأحمال الى السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمى ! فقط ربيبتى »

وامتثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت مينرڤا فركبت السفينة ومن ورائها ابن أوديسيوس وجلست هى عند الدفة ، ونشط البحارة فهيأوا المركب ، وحدجت المغرب ربة العداله بعينيها الزبرجديتين فهبت النسمات رُخاءً ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تلماك واقفاً يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت حيزوم السفينة واصطخب ، وصب القوم دنانا من الخمر تقدمة للآلهة وقرباناً ، وتحية لمينرڤا لا تبيد !

واحلولك الليل وتَدجّى غيهبه ؛ ثم انجاب ظلامه عن فجر مبين !

(يتبع) دريني خشبه

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر


الرواية



التصوير و الشعر

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الرابع ٢ محرم سنة ١٣٥٦ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فى الربيع

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

حينما تقبل أوائل الأيام الجميلة فتستيقظ الأرض ، وتخضوضر الحقول ، وينبعث النسيم الفاتر العاطر فينفح الجسوم ويملأ الصدور حتى كأنما يخلص إلى الأفئدة ، تخالج أنفسَنا رغبات غير واضحة لسعادة غير محدودة ، فنتوق إلى الجريان ، ونصبو إلى الجولان ، ونسمو إلى المغامرة ، ونهفو إلى ارتشاف الربيع

وكان الشتاء فى عامنا المنصرم قارساً شديد الزمهرير ، فكانت الحاجة إلى التطلق والانبساط فى شهر مايو أشبه بالنشوة التى تغمر وبالحميا التى تفيض

ففى ذات صباح من أصباح الربيع تيقظت فاذا بى ألمح من النافذة بساط السماء الأزرق ممدوداً على سطوح المنازل المجاورة ، وقد اشتعلت الشمس فى سرته وحواشيه ؛ وكانت العصافير الناشبة فى الشبابيك تغرد وتسرف فى التغريد ، والخادمات فى جميع طبقات البيت يغنين ويبالغن فى الترديد ، وضجة الحبور والمرح تصعد من الشارع إلىّ ، فخرجت والفكر جذلان مشرق أهيم فى المدينة

لا أعرف لى وجها ولا غاية ؛ وكانت بسمات السرور تتألق فى وجوه المارين ، ونسمات السعادة تهتز فى أجواء الربيع . وكأنما هبت على المدينة نفحة سارية من الحب ، فالفتيات اللاتى يمشين فى زينة الصباح وفى عيونهن حنان مكتوم ، وفى مشيتهن رشاقة رخوة ، كن يبعثن فى قلبى اضطرابا ومشغلة

بلغت ضفة (السين) ولا أعرف كيف ولا أدرى لماذا ؛ فلما رأيت البواخر تجرى نحو (سيرينس) نازعتنى نفسى إلى أن أجوس خلال الغاب فركبت إحداها

وكان ظهر الباخرة (موش) مغطى بالمسافرين فما تجد موضعاً لقدم ، لأن أشعة الربيع الأولى لاتدع إنساناً قابعاً فى مسكنه ؛ وكان كل راكب عليها قد استخفه النشاط فهو يذهب ويجىء ويضطرم فى نفسه ويتحدث إلى جاره . وكان جوارى لفتاة صغيرة لا شك أنها عاملة . هى باريسية الأناقة بارعة الظرف ، لها رأس لطيف التكوين أشقر اللون ، قد استوى شعره حلقاً على الصدغين ، ثم تحدد وتجمد فصار كأنه ضوء متموج ؛ ثم انحدر إلى الأذن ، وسال على العنق ، ثم انتهى فى أسفل الجيد إلى زغب دقيق رقيق أصهب تكاد لا تراه ، ولكنك تحس فى نفسك رغبة ملحة فى أن ترسل عليه غمراً من القبل



التفتت الفتاة إلى إجابة لألحاح نظرى ؛ ثم كسرت طرفها فجأة ، ولاح على وجهها قطوب خفيف أشبه بالابتسام البادىء ، أخفى زاوية فمها بعض الخفاء ، ولكنه أظهر ثانية ذلك الزغب الناعم الشاحب الذى ذهبته الشمس قليلاً

كان النهر الهادىء ينفرج ما بين ضفتيه ، والجو الضاحك تنتشر فيه سكينة الدفء ، والفضاء المشرق تزخر به غمغمة الحياة .

فرفعت جارتى بصرها ثانية إلى ، وفى هذه المرة كما بدا لى من مراقبتها كانت بسمتها صريحة قاطعة . وكانت فى هذا الوضع رائعة فاتنة حتى كشفت فى نظرها المختلس الهارب ألف شىء كانت مجهولة : كشفت فيه أغواراً لم تدرك . فيها كل ما نرغب من الحنان ، وكل ما نطلب من الشعر ، وكل ما نبغى من السعادة ؛ فتملكتنى رغبة جنونية فى أن أفتح ذراعى فأحملها إلى مكان آخر ثم أهمس فى أذنها بشعر الهوى وموسيقى الغزل

ملت عليها وهممت أن أفتح فمي لأتكلم وإذا بيد تلمس كتفي ، فالتفت مبغوتاً فرأيت رجلاً عادي الهيئة متوسط العمر ينظر إلى في حزن ويقول في جد : « أريد أن أكلمك في أمر » فبدت على وجهي جهومة لم تخف عليه لأنه قال : « إن الأمر جد »

فنهضت من مجلسي وتبعته حتى انتبذ بي مكاناً في الطرف الآخر من السفينة ثم أنشأ يقول : « حينما يدنو الشتاء يا سيدي بقره ومطره وثلجه يقول لك طبيبك كل يوم : « لا تهمل تدفئة قدميك ، واحذر البرد والزكام وذات الرئة وذات الجنب » فتحسب ألف حساب وتتخذ ألف حيطة : تكتسي القميص الصوف ، وترتدي المعطف الثقيل ، وتنتعل الحذاء الغليظ ، ثم لا يمنعك ذلك من أن تقضي شهرين في السرير . ولكن حينما يعود الربيع بنضرة عوده ، وبهجة وروده ، ونسيمه الفاتر الذي يرخي المفاصل ، ونفسه العاطر الذي يبلبل الصدر ، لا تجد من يقول لك : « حذار من الحب يا سيدي ! إنه يتعقبك في كل مكان ، ويترصدك في كل كمين . كل حيله منصوبة ، وكل أسلحته مشحوذة ، وكل غدراته مُهيأة ! حذار من الحب ! حذار من الحب ! إنه أشد خطراً من الزكام وذات الرئة وذات الجنب . إنه لا يشفق ولا يرحم ، ومن طبعه أن يحمل ضحاياه على أن يأتوا من السخف والحمق ما لا علاج له ولا حيلة فيه » أجل يا سيدي ! إن من رأيي أن تكتب الحكومة في كل عام بالخط الغليظ على الجدران هذا الاعلان : « عاد الربيع ، فاحذروا أيها الفرنسيون من الحب » كما يكتبون على أبواب المنازل المدهونة : « احذروا من الدهان ! » وما دامت الحكومة لم تفعل فاني أقوم مقامها في ذلك وأقول لك : « احذر من الحب ، فأنه يهم أن ينشب فيك مخالبه ؛ ومن واجبي أن أنبهك إليه كما ينبه الروسيون المار إذا قرص أنفه البرد فيبس »

لبثت دهشاً مبهوتاً أمام هذا الرجل الغريب ، ثم اتخذت هيئة الوقار ، وتكلفت لهجة الجد ، وقلت له : أراك تدخل ياسيدي فيما لا يعنيك » فتحرك حركة عنيفة ثم قال : « أوه ! سيدي ! سيدي ! إذا رأيت إنساناً يشرف على الغرق فهل يجوز أن أدعه يغرق ؟ إستمع قصتي فستعرف بعدها لماذا جرؤت على أن أكلمك على هذا الوجه :

« كان ذلك في مثل هذا الفصل من العام الماضي ، ويجب أن تعلم يا سيدي أولاً أني موظف بوزارة البحرية ، ورؤساؤنا العسكريون يتخذون من شاراتهم وشرائطهم حجة على أن يعاملونا معاملة مهينة ! آه لو كان كل الرؤساء ملكيين ! ما علينا ! فلمحت من شباك مكتبي طرفاً أزرق صغيراً من حاشية الأفق يطير فيه السنونو ، فقام بنفسي أن أرقص في وسط دفاتري وأضابيري . واشتدت رغبتي في الحرية حتى ذهبت على الكره مني إلى قردي أو رئيسي ، وهو رجل ضئيل الجسم نزق الطبع لا يتسابر عن وجهه الغضب لحظة ، فلقت له : إني مريض ، فصاح في وجهي وقال : أنا لا أصدق ذلك ، إذهب عني . أتظن أن العمل يمشي على أمثالك من الموظفين ؟ » لم أذهب إلى المكتب كما أراد ، وإنما ذهبت إلى السين كما أردت ؛ وكان جو ذلك اليوم كجو هذا اليوم ، فركبت الباخرة (موش) لأجول جولة في ضاحية (سان كلو) . آه يا سيدي ما كان أحق رئيسي أن يحول بيني وبين الخروج ! لقد خيل إلى أن مشاعري وجسمي مدتها حرارة الشمس ، فأنا أحب كل شيء : أحب الباخرة والنهر والشجر والمنازل والجيران وكل ما في الطبيعة من صامت وناطق . لقد كنت أتوق إلى أن أعانق أي

شيء كائناً ما كان . ذلك هو الحب الذي كان يدبر حيله وينصب شراكه

وفي (التروكاديرو) على حين بغتة صعدت إلى الباخرة فتاة في يدها صرة وجلست أمامي . لقد كانت فتانة المحاسن يا سيدي ، ومن العجيب أن النساء يظهرن في أيام الربيع أحسن وأجمل ، إذ تبدو عليهن الجهارة والفتنة وشيء خاص لا أدريه كأنه شرب النبيذ بعد أكل الجبن

نظرت إليها ونظرت إلي ؛ وكان ذلك حيناً بعد حين كما فعلت صاحبتك . وأخيراً خيل إلى من طول ما أدمنا النظر أننا تعارفنا ، وأن ذلك التعارف يجيز لي أن أناقلها الحديث ، فكلمتها ، فأجابت على كلامي ؛ وكانت لطيفة الروح ، طلية الحديث ، فأطربتني يا سيدي وأسكرتني

وفي (سان كاو) نزلتْ ونزلتُ ، وكان الذي معها عملاً مطلوباً لبعض الناس فذهبت تسلمه . فلما رجعت كانت الباخرة قد رجعت . فاخذت أمشي بجانبها وعذوبة الهواء تنتزع مني ومنها زفرات تتصعد ، فقلت لها : إن الجو في الغابات يكون أروع وأمتع . فقالت . أي نعم ، فقلت لها : أتحبين أن نجول هناك جولة ؟ فنقدتني خلسة بنظرها السريع كأنما كانت تقدر في رأيها كم أساوي ، ثم نزلت على اقتراحي بعد تردد قليل

ها نحن ذان نسير جنباً إلى جنب وسط الأدواح والشجر ، ولا يزال تحت الأوراق بعض الجليد ، والعشب الطويل الكثيف ذو الخضرة اللامعة يغرق في ضوء الشمس ، ويَشرق علايين من الحشرات تنحاب وتتعاشق أيضاً . وكانت الطيور تسجع في كل مكان ؛ فأخذت صاحبتي تركض وتثب نشوى من صفاء الهواء ووضاءة الربيع ؛ وجعلت أنا كذلك أتبعها فأعدو كما تعدو ، وأطفر كما تطفر .

والمرء يا سيدي يعود بهيماً خالصاً في بعض أحيانه . ثم غنت وهي ثائرة المشاعر مستطارة اللب ألف أغنية : منها الرفيع ومنها الوضيع ؛ وفي هذه اللحظة كانت هذه الأغاني وتلك في مسمعي سواء في براعة الشعر وسمو اللحن . فانفعلت أشد الانفعال وكدت أبكي من فرط التأثر

أدركها التعب بعد قليل فقعدت على منحدر معشوشب ، وقعدت أنا بجانبها وتناولت يديها الصغيرتين ، فحرك شفقتي عليها ما وجدت على أناملها من آثار وخز الابرة ، فقلت : هذه هي العلامات المقدسة للعمل . فقالت : آه يا سيدي ! أتدري ماذا تدل عليه العلامات المقدسة للعمل ؟ إنها تدل على المصنع الصاخب بلغو الزميلات ، والسمع الملوث بأخش الهمسات ، والذهن المدنس بأقذر الحكايات ، والعفاف المثلوم ، والعرض المكلوم ، وفضول الأحاديث السخيفة ، وغثاثة الأفكار الضعيفة ، وشقاوة الحياة اليومية ، وعلى كل ما نتخلق به المرأة العامية العاملة من ضيق الفكر ، وهجر الحديث ، ووقاحة التبذل

ثم حدق كل منا في عين صاحبه طويلاً . آه ! ما أقوى عين المرأة ! ولشد ما تفتن وتغزو وتملك وتسيطر ! ما أعمق هذه العين وأملأها بالوعود والأحلام والأسرار ! لقد قالوا : إن العين مرآة القلب . وما أبعد هذا القول عن الصدق يا سيدي ! فان المرء لو اطلع من العين على دخيلة النفس لأبصر رشده وأقلع عن هواه ؛ فلا تصدق !

ثار ثائري وجن جنوني ، فهممت أن أضمها الى صدري فقالت : دع عنك هذا ولتسقط المخالب ! حينئذ جثوت على قدميها ، وفتحت قلبي بين يديها ، ثم أخذت أريق على ركبتيها كل ما كان يكظمني من الحنان وبكريني من الحب .. فدهشت لاضطرابي

وانقلابي ونظرت إلى عن عُرض وكأنما تقول في نفسها: « آه ! هكذا ينبغي أن يكون العبث بك والهيمنة عليك يا صاحبي ، وستري ! » والرجال في الحب يا سيدي صرحاء سذج ، والنساء فيه تاجرات حواذق

لقد كنت وقتئذ أستطيع الاستيلاء عليها مافي ذلك شك . ولقد أدركت هذا الخطأ بعد . ولكنني ما كنت أريد الجسد ولا أنشد اللذة . إنما كنت ابغي حنان المرأة المخلصة ، وجمال المثل الأعلى

فلما فرغت من بث نجواي وإعلان هواي نهضنا فعدنا إلى سان كاو ولم أفارقها إلا في باريس. وكانت لدى عودتنا كاسفة البال ساهمة الوجه فسألتها عن سبب ذلك فقالت : هذا نهار من النهُر التي لا تشرق في حياة المرء إلا قليلا » نخفق قلبي حتى كاد ينشق صدري من شدة خفوقه

لقيتها في الأحد التالي ، وفي الأحد الذي بعده ، وفي سائر أيام الآحاد . فذهبت بها إلى بوجيفال ، وسان جرمان ، وميزون لافاييت ، وبواسي . وغشينا كل مكان من أمكنة العاصمة يرتاده الحب ويتردد فيه الغزل . وكانت الماكرة لا تألو جهداً في إذكاء هواي واضرام شوقي ، حتى فقدت صوابي فلم تمض ثلاثة أشهر حتى تزوجتها

وهل يفعل غير ذلك ياسيدي موظف يعيش وحده من غير أسرة ولا مرشد ؟ لقد حدثته نفسه أن الحياة مع الزوجة ستكون سعيدة رغيدة . ولكن اسمع ما ذا حدث :

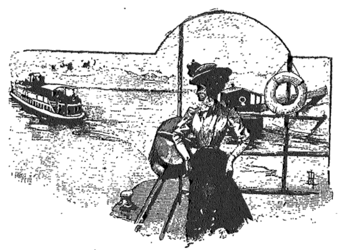
« وحدثها لا تفتر طول النهار عن السباب والشتم . ثم هي لاتفهم قولا ولاتعرف علماً . ثرثرة فياضة تصم الآذان ، وغناء متصل يصدع الرأس . تشاجر الفحام واللحام ، وتقص على البوابة دخائل البيت ، وتفشي إلى خادمة الجيران أسرار الفراش ، وتفدح زوجها بالمطالب الباهظة ، وتدفع في صدره بالحكايات السخيفة ، والاعتقادات الباطلة ، والآراء الفائلة ، والأحكام المسرفة ، حتى أكاد أبكي ياسيدي من القنوط والخيبة كلما تحدثت أليها »

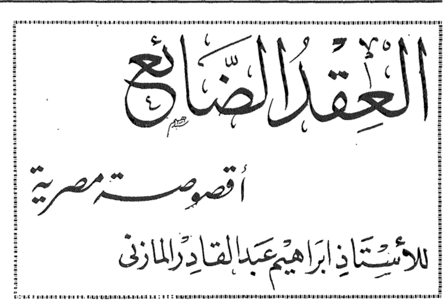
ثم غلب الرجل الانفعال والوجد فصمت ؛ وأدركني على هذا المسكين الساذج رقة ، فأردت أن أجيب عن كلامه بشيء ، ولكن الباخرة كانت قد وقفت على مرفأ في سان كاو

نهضت الفتاة التي غزت فؤادي ومرت بجانبي وهي خارجة ، فألقت علي نظرة عن عرض ، وبسمة عن دلال ، ثم نزلت ؛ فهممت أن أثب وراءها ، ولكن جاري أمسك بكمي ، فحاولت أن أتخلص منه بحركة عنيفة فتشبث بطرف سترتي وجذبني إلى الوراء وهو يقول بصوت لفت إلينا الراكبين : لن تذهب ! لن تذهب !

فتضاحك من حولنا الناس ولبثت في مكاني جامداً محنق الصدر ، لا أجرؤ على شيء أمام الهزء والفضيحة ، حتى عادت الباخرة ؛ وبقيت الفتاة على الرصيف تشيعني بالنظر الحزين الخائب وصاحبي إلى جانبي يفرك يديه ويهمس في أذني قائلا :

« تالله ، لقد أسديت إليك يداً لا ينقضي شكرها أبد الدهر ! » الزيات





رجعنا من السويس على عجل — أختى وزوجها وأنا — وكنا نقضى فيها أياماً فتلقينا نبأ من خادمتنا القديمة الأمينة « فرحة » بأن ابن عمدة قريتنا قادم وسينزل علينا ضيفاً إجابة لدعوة قديمة نسيناها ، فأسرعنا فأقبلنا على الحقائب نحشوها حشواً بلا عناية بترتيب لنكون فى البيت قبل أن يصل .

ومضى ابن عمى — زوج أختى — فجاء بالسيارة . وكنت قد هضت ساق قبل ذلك بيوم فلم يبق مفر من أن يسوق هو السيارة وإن كان لا يحسن ذلك ولم يتلق فيه إلا بضعة دروس قليلة . وكان الأحجى أن نستأجر رجلا لهذا ولكنا كنا نحرص على ألا يكون معنا غريب يأخذ بوجوده الطريق على حريتنا فى الكلام والضحك واللهو . وقد عزيت نفسى بأن طريق السويس سهل والحركة فيه قليلة فلا داعى للخوف . وفى وسعه أن يخطىء كما يشاء فلن يضيره أو يضيرنا ذلك وإن كان يخشى أن يعطلنا ويضيع وقتنا .

وجلست الى جانبه وجلست أختى على المقعد الخلفى وطمأنتها بأنى وأنا معه سأكون السائق الحقيقى وأنه لن يفعل إلا ما آمره . ولكنا لسوء الحظ ألفينا الطريق غاصاً بالسيارات فتعجبنا أولاً ثم تذكرنا أن هذا يوم الأحد فلا عجب إذا كان الكثيرون قد أقبلوا على السويس ليقضوا اليوم فيه .

وقطعنا بضع عشرات من الكيلومترات فى سلام وفى ضحك أيضاً ، ثم بلغنا أول مرتقى فى طريقنا فأشرت على ابن عمى بأن يضع ناقل السرعة فى المحل الثانى ففعل فوقفت السيارة فى منتصف الانحدار . وكنا لا نزال مكاننا حين وقف المحرك للمرة العاشرة . فاقترحت عليه أن يكف عن العمل وأن يضطجع ويشعل سيجاره . ولكنه هز رأسه وقال : « هل أرجع بها القهقرى ثم أبدأ من جديد ؟ »

فقلت له : « كلا ... إنى أفضل لسخافتى أن أواجه الموت » .

وقالت أختى : « هل نستطيع أن ندفعها بأيدينا حتى نبلغ ذروة هذا المرتفع ... » .

قلت : « كلا ... إن زنتها لا تقل عن طنين »

وقال ابن عمى : « لن أسألك عن السبب فى وقوفها كلما حاولت أن أحملها عن السير فانى أعرف جوابك ، ولكنى أؤكد لك أنى أضع ناقل السرعة فى مكانه بأقصى ما يسع إنساناً من الترفق والبطء ... وإذا كنت تريد أن تعرف رأيى فهو أن السيارة قد أصابها تلف » .

قلت : « سيصيبها التلف على التحقيق إذا ظللت تحاول أن تدير المحرك ثم توقفه ... فستنفد

الـكهرباء وتحتاج كلما أردت إدارة المحرك أن تنزل وتدير المحرك بالمنفيللا ... وقد ينفعك هـذا فيغريك بالتفـكير قليلاً » .

فصاح بي : « تظن أني لم أفـكر ... أتتوهم أني لا أفـكر الآن ... إن رأسي يكاد ينفجر من فرط التفـكير ... » .

فضحكت أختي فصاح بها : « نعم اضحكي ... أنظري إلى الجانب المضحك ... ولم لا ... قد يطير عقلي ، ولـكن هل يجوز أن عنعنك هـــذا من الضحك ؟ » .

وداس برجله الزرير يريد أن يدير المحرك ... ووقفت السيارة مرات أخرى لا أذكر عددها ، فاضطجع وأغمض عينيهوراح يقول : « لا فائدة ... قضى الأمر ... وأنا واثق أنه كتب علينا أن نبقى هنا إلى الأبد ... ومن يدري ... ربما كان في الطريق مارد في يده سيف مسلول ... والسيارة تراه وإن كنا نحن لا نبصره ... من العبث أن يقاوم المرء القضاء والقدر ... كلا ... لا تتكلموا فاني أوثر أن أقضي نحبي في سلام وبغير ضجة ... »

وفي هذه اللحظة وقفت إلى جانبنا سيارة ونزل منها رجل لم نكد نبصره حتى أيقنا أنه انجليزي ، وحقق هو ظننا فقال لنا بلغته : « هل أستطيع أن أساعدكم » .

فشرحت له الأمر وعرفته خطبنا فابتسم وهم بكلام ، ولـكن ابن عمي قال له : « امض عنا ... اذهب ... وحدك ... إن أمامنا مارد وقد حذر السيارة من المضي ، ففهمت عنه ... كان صريحاً جداً فيما قاله لها ... إذهب وأرجو لك السلامة »

فابتسم الرجل ودعاه الى النزول واتخـذ مكانه وصعد بنا الى رأس التل ، ولم يكتف بذلك بل ظل معنا — على مسافة منا ... وراءنا — حتى فرغنا من المرتفعات وصار الطريق بعد ذلك سهلاً منبسطا فشـكرناه ؛ ولـكن أي شكر عكن أن يفي بحسن صنيعه ومروءته .

* * *

وجاء الصيف ، وكان مساء ، ثم كان صباح .

ولم يكن النهار قد ارتفع ولا كانت الشمس قد علت لما دخلت علي «فرحة» توقظني قبل موعدي المألوف بساعتين وتخبرني أن أختي تصبح علي وتدعوني إليها في غرفتها . وقد عجبت وحق لي أن أعجب فما أعرف موجباً لأزعاجي في مثل هذه الساعة المبكرة – السابعة من فضلك—ومع أختي زوجها فما حاجتها الي ... وقد حاولت أن أهمل هذه الدعوة ولـكن «فرحة» أبت أن تمضي عني وتدعني أستأنف النوم فتمطيت وفركت عيني وتثاءبت وقلت لها : « ماذا هناك يا فرحة ؟ ... »

فقالت بلهجتها الهادئة المطمئنة وصوتها المتزن النبرات الذي لا أذكر أنه ارتفع عن هذه الطبقة مرة واحدة في عشرين عاماً قضتها معنا منذ كانت طفلة : « أظن أن الأمر يستدعي وجودك » .

وفرحة عاقلة ذكية وحريصة دقيقة العبارة ، وقد رباها أبي مع أختي وعني بتعليمها أيضاً وجعل لها حصة في الوقف الذي وقفه قبيل وفاته ، وكانت هذه مفاجأة سارة لنا فقد أحببنا فرحة حب الأخت وكانت هي – وما زالت – ربة البيت . ولسنا نعاملها معاملة الخدم وإنما نعدها واحدة منا : لها علينا مثل الذي لنا عليها . وحسبك منها أنها ما أخذت في حياتها معنا أجراً على خدمة ، وأنها بعد وفاة أبينا لم تحاسبنا قط على ريع حصتها وإن كنا نودعه البنك باسمها ، فاذا أرادت ثوباً أو خاتماً أو غير ذلك طلبت ذلك منا كما عكن أن تطلبه أختي مني أو من زوجها . فاذا كانت تقول الآن إن

الأمر يستدعى وجودى فقد صار القيام لابد منه .

ودخلت على أختى وورائى فرحة ، فألفيتها مستلقية على السرير فى منامة قرمزية مزركشة ، ومعتمدة بكوعها على وسادة وثيرة مربعة محشوة بريش النعام ، وخدها على راحتها ، ويسراها على فخذها ، وبين أصبعيها سيجارة ، وكان منظرها فاتناً فانها جميلة ممشوقة ؛ وكانت هذه الرقدة تبرز خطوط جسمها الرشيق وبراعة الانحناءات فيه . وكان زوجها قاعداً على حشية فوق السجادة فنظرت منها إليه وقلت : « لا عجب أن تدللها ... لست بانسان إذا لم تفعل ... »

فابتسمت مسرورة ، وأدنتنى منها وقبلتنى . وقالت : « اجلس هنا ... الى جانبى على السرير ... وأنت يا فرحة ... قصى عليهم الحكاية .. » .

فأراحت فرحة أناملها على شباك السرير ، وأشارت بيدها الأخرى الى منضدة صغيرة قريبة وقالت : « قبل أن أترك الغرفة وضعت بيدى عقدها (وأشارت الى أختى) على هذه المنضدة ، وفى الصباح دخلت عليها فلم أجده . وسألتها عنه فقالت إنه فى مكانه ، فذهبت الى البك (تعنى زوجها فان فرحة مؤدبة) وسألته فجعل يضحك ويتحسس عنقه ويقول إنه ليس هنا .. هذه هى الحكاية »

فقلت متمما لها كلامها : « فجئتم بشرلوك هولمز ليحل اللغز ويهتدى إلى المسروق ويضع يده على اللص .. أشكر لكم هذه الثقة العظيمة »

فقالت أختى وهى تضحك : « العفو .. الواقع أن كل ما أذكره هو أنى قمت بالليل وغبت عن الغرفة دقائق وصرت فى عودتى بغرفة هذا الزوج الصالح ، ولكن شخيره كان عالياً فهربت »

فنهض ابن عمى محتجاً وقال وهو يتمشى : « شخيرى .. هل تريدين أن تقولى إنك أفردت لى غرفة من أجل شخيرى .. شخيرى .. ليتك ترين نفسك فى المرآة وأنت نائمة .. إذن لرأيت كيف ترمين اللحاف وتضربين برجلك هنا وبيدك هناك .. كالأطفال بلا أدنى فرق .. لقد تزوجت طفلة حين تزوجتك ... تقول شخيرى .. مثل هذا الطعن القبيح على سيدها وتاج رأسها هل يليق يا فرحة ؟ »

فابتسمت فرحة ولم تقل شيئاً وماذا عساها تقول وشخيره يزعج الجيران حتى لقد جلا السكان عن هذا الحى وخربت بيوت أصحاب العمائر فيه

وقرت ضجة الضحك أخيراً — ولكل شىء آخر — فقلت : « ماذا كان شرلوك هولمز خليقاً أن يصنع فى مثل هذه الحالة .. »

فصاح بى ابن عمى : « دع الفلسفة من فضلك .. الأمر واضح .. البيت موصد من كل ناحية والمنافذ كلها مسدودة فالذى أخذ العقد لم يجئ من الخارج وإنما هو ولا شك واحد ممن فى البيت ... »

فصحنا جميعاً — ما عدا فرحة فأنها مؤدبة — « برافو .. برافو .. »

فلم يعبأ بنا ومضى يقول : « الجديد علينا هو ابن العمدة فهو السارق »

فلم نطق هذا وصحنا به جميعاً — حتى فرحة وإن كانت مؤدبة —

فلم ينهزم وقال وهو يعود إلى الجلوس على الحشية : « لا بأس .. ولا داعى للصياح .. المسألة بسيطة .. إذا لم يكن هو اللص فمن عسى أن يكون غيره ...؟ »

فقلت : « أنت مثلاً .. لم لا .. »

فقهقه ؛ فقلت : « ألا يمكن أن تكون قد أخذته لتضعه فى مكان أمين ثم نسيته كعادتك ؟ . إنك هكذا وأنت تعرف ما يكلفنا نسيانك .. قم انظر أين وضعت العقد .. واذكر الاسفنجة ..

قبل أن تمترض وتحتج . . قم من فضلك »

وقالت أختي وهي تعتدل في مجلسها : « ياسليم .. إني لم أخطىء حين أزعجتك . . كلا . . وأنا الآن واثقة أن ابن العم قد نسي أين وضعه . . »

فصاح بها محتجاً : « ولكنني ياستي لم أدخل غرفتك . . ودعتك — أعني قبلتك ولا مؤاخذه ياسي سليم فان هذه عادة الأزواج — ثم لم أعد .. فكيف يمكن أن أكون قد أخذته ؟ »

فقالت وهي تقف : « تذكر ... حاول أن تتذكر ... »

وزدت أنا على قولها : « جرب مرة واحدة أن تكلف هذا الرأس عملاً ... لا تخف أن تتعب ... »

فمضى عنا إلى الباب وهو يقول : « إني ذاهب إلى الحمام ... »

***

وهنا ينبغي أن أقول إن العقد الذي غاب مما ورثناه عن أمي وهو من اللؤلؤ النفيس ، وكانت حباته نحو مائتين وأكثرها من الكبار في حجم الفولة ، وقد رأينا أن نجعل منه عقدين : واحداً صغيراً أعطيناه لفرحة ، وبقي الآخر لأختي ، فقد كانت إذا لبسته تلفه صفوفاً على نحرها الجميل فآثرت التخفيف . على أن الأمر لا محل فيه للتخمين فقد قالت فرحة إنها وضعته على المنضدة وفرحة صادقة ، ثم إن ذاكرتها لا تخونها أو تعابثها كما تعابث ابن عمي — أحمد — ذاكرته . ولم يكن أسخف من قوله — وإن كان يمزح على عادته — إن ابن العمدة — حسن — هو الوحيد الذي تتجه إليه التهمة فان حسناً هذا من سراة الناس وهو فوق ذلك من أقرباء أحمد الأدنين ، وقد ذكرت ذلك لأريك إلى أي حد يذهب أحمد في مزاحه

ولا أحتاج أن أقول إننا استقبلنا يومنا مكتئبين مهمومين محزونين ؛ فأن للعقد قيمته الذاتية والمعنوية ، وقد كنا نتكلف المرح ونبدي صفحة البشر ونتلقى الأمر بما يشبه الاستخفاف ، لأننا اعتدنا أن نواجه الأمور على هذا النحو ، وربانا أبوانا على الجلد وضبط الاحساس . أما أحمد فكان بطبيعته هزالاً يركب الحياة بالدعابة والبشاشة والعبث ، وقد أحببناه وأحببناه وآنس بنا وآنسنا به ، فعاش معنا وآثر بيتنا على بيت أبويه وانتهى الأمر بما كان لابد أن ينتهي به — أي أن يتزوج أختي — ولست أعرف أسرة أخرى تعيش هذه العيشة السعيدة الرغيدة ، وحسبك أن المال موفور وأن الطباع رضية والأمزجة متطابقة

***

ومن عادة أحمد أن يغني وهو في الحمام . ولست أعني أنه يغني الأصوات الشائعة ، وإنما أعني أنه وهو في الحمام يصف كل ما يعمل ويرفع الصوت بالغناء بهذا الوصف ، فاذا كنت على مقربة من الحمام لم يسعك إلا أن تسمعه يقول — أو يغني على الأصح — « أين الاسفنجة ياسيدي ... لابد أن تكون هذه الزوجة المهملة قد ضيعتها ... ومن يدري ياحبيبي ... فلعلها خبأتها عمداً ... آه يا روحي ... وأين الكبريت ... أظنني نسيته ... هذا خازوق ياحبيبي ... وكيف أسخن الماء الآن ... يالعنة الله انزلي رأس الذي اخترع التدفئة بالغاز ... آه ياعيني ... والله وحسة ... نجد الكبريت فلا نجد القرش الذي نضعه في الثقب لينطلق الغاز ... ويسخن الماء فلا نجد الاسفنجة ... واجد كل ذلك وأنام في الحوض ويبدأ الشعور بالراحة وإذا بالغاز قد فرغ ... وأخذ الماء يبرد ... ويجب أن أخرج من الحوض لأضع قرشاً آخر في الثقب ...

وأبحث عن الكبريت ... والكبريت مبلول ... معلوم يا سيدى ... أو الكبريت فرغ ... طبيعى أصيح ... ومن يسمع ... ألبس البرنس وأخرج لأجىء بكبريت ... خازوق آخر يا حبيبى ... لقد نسيت الغــــاز مفتوحاً ... فالحمام كله غاز ... وســتختنق يا ولد إذا لم تفتح النافذة ... إفتح يا سيدى وابرد ... وحوح يا حبيبى من البرد ... الذى سمى هذا حماماً كان ولاشك ابن حرام ... »

وهكذا إلى غير نهاية ... ومن تحصيل الحاصل أن أقول إننا اعتدنا أن نقف قرب الحمام كلما دخل فيه أحمد لنعرف ما يجرى له فيه فنقع على الأرض من كثرة الضحك . ولا بد أن يحدث له شىء لا يحدث لسواه لأنه كما أسلفت سريع النسيان : ينسى أين وضع الأسفنجة ، وأنه رمى الكبريت فى الحوض ، وينسى أنه نسى أن يجىء معه بقروش ليضعها فى الثقب فأنه يبقى فى الحوض ساعة أو ساعتين وهكذا . ولولا أنه نساء لما بثثناه عامدين لنضحك ولكنه أغنانا عن ذلك

وكان حسن قد استيقظ ونهض ليلحق بنا ويجلس معنا فألفانا عند الحمام واقفين وإن كانت القاعد فى الدهليز فحيا بيده فأشرنا إليه أن اسكت . ورآنا نبتسم وأحس من هيئتنا أننا نتسمع فمشى على أطراف أصابعه ووقف معنا يصغى أيضاً وكان أحمد يقول :

« قالوا العقد ضاع ... قال ضاع ... كلام فارغ يا حبيبى ... والله ما أخذه إلا هـذا الحرامى الذى نزل فى ضيافتنا ... بالطبع سرقه ... فى عمر أمه ما رأت مثله ... الأقارب عقارب يا سيدى ... ضاع العقد يا ستى ... أنا المسكين يا حبيبتى ... هات لى عقد غيره يا سيدى ... طبعاً يا ماما .. من يدرى ... لعل العقد لم يضع ... أيوه يا سيدى ... لم يضع ... الأرجح ... والمعقول أن يكون فى الدولاب ... أخفته الزوجة الصالحة لأشترى لها عقداً سواه ... النسوان ملاعين يا روحى ... قالوا العقد ضاع ... ضاع فين بالله يا أهل القونطة ... لا يا ستى العقد فى الدولاب ... والفرض مرض . . »

وكان يبدىء ويعيد فى هذه المعانى ؛ فأما حسن فلم يفهم وكان ينظر منى إلى أختى ، وكان يرانا نضحك فيتكلف الضحك مثلنا ، وأما أختى فضحكت أولاً ثم لما سمعته يتهمها بأنها خبأت العقد لتطالبه بحلية تجهمت فشددت على ذراعها فنظرت إلى مبتسمة وهزت رأسها وعاد إلى وجهها الاشراق ، ولكنها لم يسعها إلا أن تقول لنا ونحن نمضى عن الحمام قبل أن يخرج هو علينا « شف ... ينسى أين وضع العقد ثم يدعى أنى خبأته .. طيب .. »

وقال حسن : « ألا تقولون ما هى الحكاية »

فضحكت وقالت : « الحكاية باختصار أن أختى لا تجد عقدها . . . وأحمد يتهمك بسرقة العقد . . لقد سمعته بأذنك . . والآن أفهمت ؟ »

وكانت هـذه صدمة فان معرفة حسن بأحمد يسيرة ، وإن كان من أقاربه الأدنين ، ولكنه احتمل هذه الصدمة ، وأسرعنا نحن فعرفناه بأساليب قريبه فضحك معنا ، ولكنه مع ذلك صار يطرق من حين الى حين كأنما يحدث نفسه بشىء

وخرج أحمد أخيرا ، ودخل علينا وفى يده صحيفة يتأملها وينظر الى الصور التى فيها فما كانت له عناية بقراءة الصحف ، وجلس الى المائدة وأدار عينه فيما عليها ثم سأل : « ماذا أعددت لنا يا امرأة ؟ »

فاغتنمت أختى هـذه الفرصة وصاحت به : « ألا تنتظر حتى يستمد الباقون للأكل . . ماهذه الشراهة . . . ثم كيف تزعم أنى أخفيت العقد لتشترى لى سواه ؟ »

فقال ببطء : « الجواب على السؤال الأول

بالنفى بين النفى البات ... أما الشطر الثانى من السؤال فأوان الرد عليه يكون بعد الأكل ، فانه يحتاج الى عقل ، والعقل يذهب به الجوع »

فصاحت به : « ولكن كيف تجرؤ ؟ ... »

فقال بهدوء : « من الغريب أنى جئت هنا لآكل لا لأتكلم . . نعم الأكل أولا يا امرأة »

فقالت : « هل عنيت بالبحث فى ثيابك ؟ . . بالطبع لم تعن . . »

فالتفت الى حسن وقال : « شف يا حسن .. شف . . . احذر يا بنى أن تتزوج . . لا عذر لك وقد رأيت بعينيك ما تصنع الزوجات ببعولتهن »

فقال حسن : « أظن أنى سأتزوج . . وعلى فكرة كيف تسمح لنفسك أن تتهمنى بالسرقة ؟ »

فرفع أحمد يديه الى السماء ثم التفت الى حسن وقال : « وأنت أيضاً . . لم يبق لى عيش فى هذا البيت . . فلأرحل »

ونهض وقال : « يا امرأة إنى فى المكتب »

***

لم ندع مكانا فى البيت إلا بحثنا فيه ، ولا ثوبا فى خزانة أحمد إلا نفضناه وقلبنا جيوبه — حتى السجاجيد رفعناها ونظرنا تحتها . . حتى الستائر نحيناها وأجلنا عيوننا فيما وراءها وفيها أيضا مخافة أن يكون حبل العقد قد علق بشىء منها . فلم نجد لا عقدا ولا حبة من عقد فيئسنا وحل الاكتئاب محل البشر ، فقد كنا الى ما قبل ذلك نعتقد أن العقد موجود فى مكان ما ولكن أعيننا لا تراه . وقد أعدنا البحث مرة وأخرى لظننا أو توهمنا أننا نخطئناه بعيوننا ونحن نديرها كما هى العادة فى حالة الاضطراب . ولم يكن أحمد يعفينا من مزاحه فى خلال هذا البحث المتعب ، فلما كففنا قال وهو يضطجع ويشعل سيجارته : « لا فائدة .. لقد كنت أعلم من أول الأمر أن لا فائدة . . قلت لكم مائة مرة إن هذه الزوجة تعرف أين يوجد العقد ... نعم هى خبأته »

فصاحت به : « ألا يمكن أن تسكت . . »

فقال : « أسكت ! وكيف تحملينا كل هذه المشاق من أجل خرزات ؟ . . » .

ولم يتمها فقد هجنا به احتجاجا على وصف حبات اللؤلؤ بأنها خرزات

ولما قرت الضجة قالت أختى : « اسمعوا . . إنى لم أعد أطيق البقاء هذا النهار فى البيت فلنذهب الى أى مكان آخر ولنتغد هناك . . »

وكان هذا اقتراحاً حسناً ، فان بقاءنا فى البيت كان خليقا بأن يغرينا باستئناف البحث مرة أخرى فنشقى على غير جدوى . فمن الخير أن نخرج وأن نقضى النهار فى مكان آخر ثم نعود . . ومن يدرى فقد نجد العقد تحت عيوننا حين نعود كما يحدث كثيرا . وما زلت أذكر كيف كنت مرة أبحث عن قلمى وكانت أختى معى ، فلما تعبنا جلسنا على الكراسى وهممت بأن أخرج سيجارة ، وإذا بالقلم بين أصابعى ... ومن الغريب أن أختى لم تره فى يدى كما لم أره . . . وقد ذكرت أختى بهذه الحكاية أو الحادثة وفى مرجوى أن أبعث فى نفسها الأمل فلا تقضى النهار يائسة مكتئبة فى سرها وإن كانت تتشجع وتتجلد ولا تبدى جزعا

وقمت الى حمامى على حين راح غيرى يلبس الثياب استعدادا للخروج . وكان طبيعيا أن يفرغوا من شأنهم قبلى ، وأن يستبطئونى فانى فى حركة دائمة فى الحمام وهم لا يصنعون شيئا بعد أن لبسوا الثياب ووقفوا ينتظرون ، وليس أشد على المضطرب القلق من الانتظار . فأقبلوا على باب الحمام يدقون عليه بأيديهم وينقرون بأصابعهم ويدعوننى أن أسرع ،

وكان أحمد يتخذ من باب الحمام طبلة

وأخيراً خرجت فما يمكن أن تكون لمستحم راحة أو لذة وعلى بابه من يصيحون به ويسمعونه ما يكره ، فلحقوا بي في غرفتي ، ولكني أخرجتهم منها بجهد ، فاني مستعد أن أحتمل كل شيء إلا أن يحيط بي هؤلاء الصائحون الصاخبون وأنا ألبس ؛ على أني أسرعت وعجلت لأتقي شر هجومهم على كرة أخرى ، وكانت ساق لا تزال أحسها ثقيلة مما أصابها في السويس وهاضها وإن كانت لاتؤلمني ، فلما صرت اليهم في الردهة وقفت هنيهة أدعكها لألينها فسألتني أختي : « ألا تزال تؤلمك ؟ »

فقلت : « كلا ، لا ألم ولكني أحسها ثقيلة »

فقال ابن عمي : « كلك ثقيل يا أخي .. تعال »

فقلت : « ولكني حقيقة أشعر أنها أثقل مما كانت أمس »

فقالت أختي : « طبيعي هذا من الجهد الذي تكلفته اليوم في البحث »

فاقتنعت ونزلنا الى الباب ، وكان ابن عمي قد جاء بالسيارة قبل ذلك وتركها أمام الباب ، فجلست أختي ومعها حسن على المقعد الخلفي ، واتخذ أحمد مكان القيادة ، وقلت له وأنا أفتح الباب الآخر لأجلس الى جانبه : « لعل درس الأمس نفعك ، فلا تكرر أخطاءك المعتادة »

فزام أولا ثم قال : «ولكن إذا كنتم تريدون أن أشرفكم بتولي القيادة العامة ، أفلا يحسن أن أعرف الى أين يراد مني أن أحملكم ؟ »

فقالت أختي : « أوه . . . الى أي مكان . . الى القناطر الخيرية إذا شئت ... أو الى حديقة الأورمان ... أو ... أي مكان تحب »

قال حسن : « الى القناطر إذن ... اركب ياهذا أم تريد أن أنزل وأحملك ؟ »

وكان الركوب يحوجني أن أحمل ساقي بيدي لأن ثنيها كان يؤلمني في موضع الركبة ، فجلست على المقعد ووجهي الى الباب وملت على ساقي وهي ممدودة لأحملها وأدور بها وأدخلها في السيارة ثم ارتددت ضاحكا ، فسألتني أختي عن الخبر فقال لها زوجها : « دعيه .. إنه يحلم .. لايزال نائما .. لاشك أن الحلم لذيذ ... ألا ترين ... أعني ألا تسمعين ... »

فسحت أولا الدموع التي ترقرقت في عيني من فرط الضحك ، ثم مسحت بطني التي صارت توجعني ... ثم تنهدت وقلت : « آخ . . . مسألة ظريفة جدا . . . »

فقالت أختي : « ولكن ما هي الحكاية ... أتظن أن من اللائق أن نقف ساعة أمام الباب ؟ »

قلت : « أظن أن الواجب أن ندخل .. نعود الى البيت دقائق قبل أن نخرج الى رحلتنا . . »

فنهضت أختي عن مقعدها قليلاً وزحفت الى الأمام مقدار شبر ، ووضعت كفها البضة على كتفي وقالت : « لا تعذبني ... انطق »

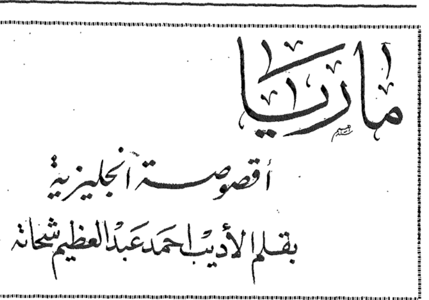
قلت : « لا حاجة بي الى الكلام ... خذي »

وانحنيت فأخرجت العقد المفقود من طية البنطلون عند حرفه ورفعته الى عينها وقلت :

« لقد كنت أظن أن ساقي اليوم أسوأ مما كانت أمس لأني أحسها أثقل . . . فالآن عرفت السبب ولكني لا أعرف كيف سقط العقد في طية البنطلون . . »

ولا أزال الى الآن أجهل كيف أمكن أن يحدث هذا ، وإنما الذي أعرفه أن أختي فرحت وأن ابن عمي حاول أن يركبني بعبثه المألوف ، فوضعت كفها على فمه فقبل أصابعها ثم عضها فصرخت فقال : « هذا جزاء من يدافع عن السراق واللصوص والخونة »

ابراهيم عبد القادر المازني



... لو أنك ترفقت قليلاً فى سيرك ، ولم تك مسرع الخطو وأنت تطوى حافة الميناء منذ عشرة أحوال قضت للحظت زورقاً فضى اللون جذابا يحتمله النهر — فى فخمة الليل — فوق صدره الثائر المرتجف ، وقد توارى من صفع الرياح القاسية فى ناحية قاصية خلف سد منيع قائم بين الأمواج ...

فاذا ما الفجر انبثق وجرى نسيمه الوانى الرقيق ، انفلت الزورق من قيده ودلف إلى عرض النهر هادئاً وادعاً ينساب كالثعبان ... يغمره سحر الفجر وجلاله ويلفه صمت رهيب متصل ... وفى سويعات الظهيرة ، وقد احمرت عين السماء وعم الضجيج ودبت الحركة ... هنالك يتراءى من وراء الأفق البعيد شراعه الناصع الرقيق مقبلاً يتهادى فى فتور وعناء ، وقد أنقض ظهر الزورق الرشيق أكوام السمك القائمة ذات البريق ...

وتوقف الربان فوق رأس الزورق بين الأمواج الوادعة ذات صباح منصوب الصدر مرفوع الهامة يرنو إلى السماء ويجيل عينيه فى أنحائها برهة موجزة لا ينشب بعدها أن يتحول عنها قائلاً لرفيقه المطرق الكئيب :

— ألا ترى يا صديقى الغيوم فوقنا تتلبد ؟ . . ثم السماء هى الأخرى توشك أن تثلجنا ... أليس الرأى عندك أن نؤوب ؟ . .

وظل الربان فى موقفه يتطلع إلى زميله وهو مطرق ذاهل حتى رفع رأسه من بين كفيه فى تؤدة وعناء ، وطفق يرق ببصره الزائغ إلى السماء رويداً رويدا ، ثم ما لبث أن استرده وقد انتشر على شفتيه بسمة طفيفة ساخرة وهو يلقى جوابه الوجيز :

— لا . لا إخالها تفعل ...

ثم عمد إلى راحتيه فأسلم إليهما رأسه المكدود وعاد السكون الحاد فالتأم فوق رأسيهما من جديد . .

لم يكن تونى ملاحاً خبيراً ، وكنت أحنو عليه حنو الاخوة لأن أمى — أعزها الله وأكرم مثواها — حملته إلى مقرنا ووضعته بيننا رضيعاً يتيما فارقه أبواه وخلفاه وحيداً ، فدب معنا وجرى مجرانا حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجل فتش عن ذويه فما وجد لهم أثراً ولا لنفسه موئلاً غير موئلنا ، فارتضى عشرتنا واطمأن إلى جوارنا ... وكنت فى هذه الاثناء يافعاً حلو القسمات أملس الشعر فاحمه ، رحيب ما بين المنكبين مستوى العود فارعه ، وكان تونى على نقيضى ضاويا نحيلاً مكفأ اللون لا يفيق قط من أحزانه ، صموتا أبداً من غير سبب أو علة ظاهرة ... يكند بدنه ويغلو — متلذذاً مرتاحا — فى تعنيته وتجشيمه صنوف التعذيب والارهاق ...

وكنت لا أملك وإياه من متاع الدنيا شيئاً غير هـذا الزورق الذى يسى كل يوم مع الشمس ، وحانوت ضئيل حرج نبيع به السمك الذى نصيد .. وكنّ لم يعدُ يوما غرفتين باردتين عاريتين تقومان خلف الحانوت بقليل . .

وأحسست يوماً أن صدرى يضيق وأن قلبى ينقبض ، فمشيت إلى الفضاء الوسيع الذى يحاصر مسكننا ألتمس الراحة والهدوء ، غير أنى ما كدت أنقل فيه بعض الخطى حتى أظلم السكون فى عينى وأحسست أن الأرض تميد تحت قدمى . . وبدرت منى حينئذ صرخة دوى بهـا الفضاء . . وألقيت ببصرى إلى الأرض فى لهفة وسرعة ، فاذا الدم يتصبب من قدمى حاراً غزيراً .

لقد قيل لى يومئذ إن مسماراً حاداً منتصباً ، هو الذى وطئته قدمك شبهُ العارية ، فـكان هذا الدم القانى الذى روعك ... ولـكننى فى الواقع لم آبه لشىء مما وقع إلا عند ما أبصرت القيح يوماً يطوق فوهة الجرح من كل جانب ... عنـدئذ تسرب إلىّ الخوف ، ولم أجد إذ ذاك بداً من أن أهرع إلى المستشفى ... وهناك فى طريقى بدا لى طيف صـديق وحيداً صامتاً ينهض بأعباء عملينا الناصـبة المضنية والعرق يتفصد من بدنه الناحل الهزيل ... لقد أخذتنى الشفقة به فانحنيت عليـه أوصيه أن يترفق بنفسه وأن يشرك معه من يقوم مقامى حتى تحين أوبتى . .

وانصرفت أسابيع قلائل أنفقتها جميعاً تحت سقف المستشـفى حتى اندملت قدمى وقاربتُ الشفاء ، عندئذ رأيت أن أفارق محبسى فشخصت إلى مقرنا من غير أن أعلم صديقى ... وأدركت بابنا الصـغير فألقيت يدى على مقبضه ، ولـكننى دفعت دفعاً هيناً رفيقاً حتى لا يسمعنى صديقى ... كنت أبغى أن أفجأه إلا أننى ما كدت أخطو أول خطوة حتى وقع بصرى على فتاة رقيقة فاتنـة ما كادت تلمحنى فى مكانى حتى بادرت إلىّ قائلة فى لطف ودعة : هأنذِى ياسيدى . . أأستطيع أن أقضى لك حاجة ؟

عرانى وجوم شديد وتولتنى وقتئذ الحيرة ، فعمدت إلى لسانى استحثه واستنهض همته فخذلنى الثرثار ولم ينبس بغير هـذه الـكلمات القليلة ألتى بها من مكمنه ، ثم عاوده جموده وتصلبه : نعم . . خدمات كثيرة يا آنسة ... وما كدت أفرغ من إلقائها حتى رنّ بغتة من وراء الحجرات صوت رخيم بدد السكون المخيم وملأ أذنىّ كما ملأ جو الغرفة .. وتبينت هذا الصوت جيداً فاذا به ! . . يا عجبا ! . إنه صوت تونى ! تونى يغنى ... تونى الـكئيب المنقبض ... تلك لعمرى إحدى المعجزات . .

وهفت نفسى إلى رؤية هـذا المنظر العجيب ودرت على عقبى أحاول العدو إليـه قبل أن يرتد إليه حزنه ، إلا أننى والحق أقول ألفيت نفسى عاجزا وأطرافى جامدة لا تقبل الحركة ، وأحسست رغبة وجنوحاً قوياً للبقاء ، فلبثت فى مكانى أجيل عينى فى قوامها الساحر المشوق .. فى خديها الناعمين .. فى فمها القرمزى الدقيق . . فى ساقيها الممتلئتين . . فى . . .

— سيدى ما حاجتك ؟ .

ووجدت لسانى فقلت : ولـكن خبرينى أيتها الآنسة الصغيرة ماذا تفعلين هنا ؟.

فأجابتنى وقد غطى الدهش صفحة وجهها الجميل :

— إننى أبيعك . . . أنت أو غيرك من هذا السمك ... أنا ماريا ، أما أنت فأجهلك ويخيفنى منك صمتك ونظراتك ..

— ولكن هبينى كتمتك حقيقة أمرى

فهزت كتفيها الصغيرين ومدت شفتها الدقيقة قائلة :

— وماذا يضيرنى يا سيدى ؟ بل ليتك تفعل

قالت ذلك واتخذت سبيلها إلى بعض الآنيـة تتناولهـا واحدة فواحدة وتنفض الغبار عنها ثم تردها إلى مواضعها ، ووقفت أنا أرقبها عن كثب . كانت رائعة ساحرة .. وجسدها ناضجاً مغرياً يشف عنه ثوبها الحريرى المحبوك . . . وسنحت فى رأسى فكرة ! . لابد أن تكون هذه غانية أتى بها صديق لتاهو معه . وكان السكون حولنا مرفرفاً والأبواب كلها مؤصدة . بعثت أطرافى واشتدت ضربات قلبى والتهبت رأسى ثم شبت النار فى كيانى وما أسرع شبوبها فى كيان الملاح !

دنوت منها وجسمى يضطرب اضطرابا شديداً فارتدت إلى الوراء مذعورة ، وكادت توليني ظهرها فاحتوتها ذراعاى الممدودتان وتلقاها صدرى الملتهب ... وعالجت الفرار ولكنى استبقيتها ؛ ولم أشعر إذ ذاك بذراعى وهى تنساب منى وتطوق جسمها اللين الدافىء وتضمه إلى وهى تدفعنى عنها دهشة خائفة : سيدى ما هذا ؟ .. قف .. تمهل .. إننى لست عرضة للبيع سيدى .. — ولكننى لم أسمع لقولها بل حدقت فى عينيها الصافيتين الخائفتين وشعرها المبعثر على محياها الوضىء ... لقد طار عنى صوابى وتلاشى الكون من أمام عينى فأهويت بفمى على ثغرها — كالمجنون — أغمره بالقبل وانشق أنفاسها الدفيئة العِذاب ...

واضطرب جسمانا الملتصقان وانتهت مذعوراً عند ما اخترق أذنى صوت من أقصى الغرفة ... لم أك أقدر أن ثالثاً معنا يشهد كل ما جرى منا .. كان جامداً كالتماثيل يتصبب منه الغم والألم ، ولم أدر لم كان يصوب إلينا هذا النظر المروع المخيف . وأخذ يتقدم نحوى متكلفاً السرور وهتف فى صوت متهدج تلوح فيه رنة الأسى العميق :

— هأنت ذا أخيراً ياجيم ! كيف أجدك الآن ؟ كيف حال قدمك ؟ ولكنك لم تنبئنى بموعد قدومك إنه جيم يا ماريا صديقى وشريكى

وأمسك عن الكلام هنيهة وطفق يمسح جبينه بيده ويقبض على فكيه ، ثم عاد ينظر إلى مستأنفاً قوله : (صديقى .. أريدك وحيداً .. فى مكان خلى . أريد أن ألقى إليك سراً)

وأمسك بذراعى وكان طبيعياً ألا أحجم أو امتنع عليه ، فاستسلمت له وانحدرنا إلى الطريق ومضينا فيها جنباً إلى جنب صامتين واجمين لا أحدثه ولا يحدثنى ...

وقف تونى عن السير فجأة ، فالتفت إليه فابتدرنى ضارعاً مستعطفاً :

— ألست تعلم يا صديقى أننى قضيت العمر حزيناً كاسف البال موجع القلب : حتى قيض الله لى ماريا ؟ كم أحبها ياصديقى ! ... لقد بعثت فى الحياة .. بددت عنى الهموم . تصور أننى أصبحت كلفاً بالفناء ! دعها لى يربك ولا تصرفها عنى .... إنك جميل ؛ وإن شئت سعى إليك كل النساء ؛ أما أنا فخلق سيىء ووجهى دميم ، لاأفوز إلا بسخرهن

لقد مست كلماته منى موضع الألم فأقبلت عليه

أحاول الترفيه عنه :

— كم أنت طيب القلب يا تونى !.. إن ماريا هذه ليست لى ولا لك ... سلنى عن هذا الضرب من بنات حواء ... إنها امرأة الجميع . .

ما كدت أتم كلمتى هذه حتى فوجئت بلكمة قوية قاسية أطارت صوابى وطوحت رأسى إلى الوراء ، وكدت أسقط على أثرها لولا أن تماسكت قليلا وفتحت عينى دهشاً متعجباً فألفيت صديقى يرغى ويزبد ويتأهب للكمى ثانية ، فأسرعت إلى وجهى أغطى صفحته بقبضتى وما خطر لى حينئذ أن ألطمه لعلمى أن لكمة من يدى قد تؤدى به إلى التهلكة ، فصحت به وأنا أتراجع إلى الوراء أن كف يا تونى ولا تكن غبياً ، ولكن قبضته خلصت إلىّ واستقرت فى بطنى ..

لقد صورت لى شدة الألم أن جسمى قد ارتفع عن وجه الأرض فهجمت عليه من غير وعى وضربته ضربة دار على أثرها ثم هوى بجسمه الضئيل تحت قدمى

وتهافت الناس مسرعين من كل حدب وانحنيت بقامتى المديدة على صديقى الممدد الصريع واحتملته بين ذراعى كالطفل ومضيت به إلى صيدلية قريبة ... وسألنى الصيدلانى وهو يهرول مسرعاً من وراء قواريره وزجاجاته : « ماذا حدث .. ماذا جرى له ؟ » ولكننى لم أستطع جوابه فقد كان حلقى جافاً وكنت فى شغل عنه أصلى من أجل صديقى وأضرع إلى الله أن يفتح تونى عينيه وأن أرى الحياة تسرى فى كيانه ... وحقق الله رجائى عندما قرب الصيدلانى يده حامله إلى أنف صديقى زجاجة صغيرة فاهتز رأسه ثم فتح عينيه الوادعتين برفق فقلت له :

— عفواً يا تونى ! إننى ما قصدت إلى إيذائك قط ولكن ...

— ولكن هيا بنا ولننس ما قد سلف

لكننى كنت على يقين من أن تونى لن يغيب عنه مما مضى شىء ... وانطلقنا عائدين وسبقنى هو إلى الدخول فتلفتت إليه ماريا ثم أنشأت تضحك ملء شدقيها وتقول : «تونى ... إنك تبدو مضحكا للغاية » ونظرت إليه فاذا لونه يزداد انتقاعا !.. هى إذن لا تضمر له الحب ... فلو كانت تفعل ماسخرت منه ولا اتخذت شفتيه الغليظتين الداميتين هزؤا ! .

كانت لطمة أخرى عنيفة تلقاها البائس ومضى على وجهه حتى داراه باب المخدع ، وأقمت أنا فى مكانى وقد رأيت رأياً خلته كفيلا بأن يرد إلينا هناءنا المفقود . لم أكن متماسكا بل أحسست كأن ماء بارداً يجرى فى عروقى عندما ناديتها فدنت منى تسألنى فى صوت لين رقيق عما أطلب ؟ بيد أننى أخذت أقص عليها كل ما دار بينى وبين صديقى وهى تنصت لى والابتسامة على ثغرها تتسع شيئاً فشيئا ، حتى إذا ما فرغت من حديثى أطلقت ضحكة خافتة :

— إننى لست فتاته ولا فتاة غيره يا سيدى . وهب اننى سأعشق يوما فثق أن من أعشقه سيكون رجلاً قوياً لا شبحاً هزيلاً . وكان طبيعياً أن يخلص إلى الزهو فأعجب بقوتى وبنيانى ولكننى تأهبت لأنبئها بما انعقدت عليه نيتى

ماريا ... لقد ارفض عنى الألم وأصبحت على النهوض بعمل قادراً ، فخير لنا ولك أن تطرق عملاً غير هذا !

كان لكلماتى عليها وقع شديد فلبثت على أثرها مبهوتة شاخصة ، ثم اندفعت نحوى

وأمسكت بذراعي قائلة :

— جم ... أيطاوعك فؤادك أن تحرم فتاة مثلى رزقها ! ؟ . لقد قضيت وقتاً طويلاً مشردة ساغبة حتى وفقت إليه ... بربك لا تذرنى أرحل

وشرعت تبكى وتنتحب ؛ ولم أك فى حياتى قد شهدت امرأة بين يدى تبكى فلا عجب إن بدا منى الضعف والخور حيال دمعها المدرار ...

مضت الأيام مضيا بطيئاً ثقيلاً ، ومضى كل منا يعمل عمله فى صمت وهدوء ، وأخـذ تونى منذ ذلك اليوم يتجنب لقاء ماريا ، وأخذت أغشى معها قاعات اللهو كلما هوى قرص الشمس وأظلنا الدجى .

وانبثق نور الفجر ذات يوم فولينا وجهينا شطر الميناء . . ووقفت فوق صدر الزورق منفرج الساقين منقبض الصدر يتملـكنى شعور مبهم ثقيل ، وتحدثنى نفسى بشر مستطير ... كان الضباب أمام أبصارنا منعقداً كثيفاً ، والزورق من تحت أقدامنا قلقاً مضطرباً يتقاذفه الموج الثائر المصطخب ، والريح تملأ الفضاء زئيراً مخيفاً مزعجاً ، وطفت ببصرى أبحث عن تونى فألفيته فى قاع الزورق يحدجنى بنظرات مفزعة ويمرر يده برفق فوق خنجره ، فاشتد رعبى وانفجرت صارخاً بين هدير الأمواج وزئير الريح :

تونى . لا بد لنا من العودة ... هيا اطو الشباك .

وامتثل تونى على الفور وطفق يجذبها فى تؤدة ويكدسها تحت قدميه وهو ثابت هادئ وجعلت أرقب فراغه بلهفة وشوق حتى أسرع بتوجيه الزورق صوب الجنوب ، ولـكنه ما كاد يأتى على آخر الشباك حتى أحسست أن قلبى قد فارق موضعه وانقضضت عليه أحاول القبض على ذراعيه :

— تونى لا تفعل ... رد الشباك ثانية ولا ترفعها . أنظر إن بها (القاتمة) ! إنها فأل سيء ، سيهلك ولا ريب أحدنا يا صديق .

لـكنه وكأنه لم يفقه قولى ظل يضم الشبكة اليه والسمكة الرهيبة تدنو منا شيئاً فشيئاً .

— تونى ... لا تكن نزقا ... ستجر علينا الـكوارث ... ستسوق إلينا الويلات .

أصم تونى أذنيه وتركنى فى مكانى ، وانطلق مسرعاً نحو كومة الحراب فاستل منها واحدة وعاد فصوبها الى السمكة الهائلة ، فلما أصابتها شدها بحبل غليظ الى الزورق وتركها تتخبط وتتملص وتضرب الماء تريد النجاة ...

وقصدت السكان مستسلماً ونظرى لا يفارق تونى وهو يلوح بخطاف غليظ فى يده حتى بلغ مربط السمكة فأخذ يربطها به ... وارتفعت أمامنا فى هذه اللحظة جبال من الموج هائلة فانصرفت عينى الى الزورق وعندما تلفت الى الوراء جمد الدم فى عروق !!!

كان تونى على قيد أقدام منى بشع الهيئة مخيف المنظر يقهقه والخطاف فى يده يضطرب :

— تونى ماذا جرى لك ؟... وصحت مرتاعاً : تونى هل جننت ؟

فأجابنى فى صوت مختنق مرتعش كحشرجة الموتى :

— أجل ... أجل ... منذ شهور ثلاثة والنار تأكل منى ... وأنت قرير العين بماريا .

كان صوته يقرع أذنى كالطبول فخليت السكان ورحت أتراجع وهو يلحق بى حتى ارتطمت

قدمى بحافة الزورق .

— تونى ... كيف أقسم لك أنى ما كنت أشعر بأنك تتعذب .

وجف حلقى وأخذ العرق يتصبب من جبينى برغم برد الشتاء : — أتريد قتلى ؟ ...

— ليتنى أقوى ... سأموت معك ... سيطوينا اليم ... سنصعد الى أمنا فى السماء .

وحانت منى التفاتة الى النهر فصرخت فيه مذعوراً :

— تونى ... انتبه ... حاذر .

ولكن كان الحبل قد التف حول ساقه فانتزعه (الوحش القاتم) وحمله معه الى اليم وهو ينظر الىّ مستغيثاً تمتد منه اليدان ...

«وارحمتاه له ! » قلتها وهو يغيب بين الأمواج .

«دعه يهلك ... لن يلومك أحد ... لقد أراد لك الموت ... فليلق جزاءه» .

وسكنت الريح قليلا فشعرت أن هاتفاً يهتف باسمى بصوت كأنما ينحدر من علياء السماء ... لقد خيل إلى أن أمى تطل من بين السحب وتصيح به : ولدى ... ولدى ... أنقذ أخاك .

وابتدرت المياه مسرعاً ومضيت أشقها بذراعىّ وهى تنهش جسمى نهشاً حتى رأيت صديقى بين معترك الأمواج يتخبط ويتشبث فاندفعت نحوه صائحاً : « تونى ... تونى ... لا ترحل ... إننى آت»

وطفقت أسبح وأرد الموج عنى وألطمه بكلتا يدى ولكن ... دون جدوى ! كان تونى قد ذهب ...

كانت ماريا واقفة لدى الباب عند ما طرقته بقدمى ، فلما أبصرتنى وحيداً مشعث الرأس مسهباً سألتنى وقد انتقع لونها : أين تونى ؟

— لقد التهمه اليم ...

وارتميت على مقعد قريب ثم انفجرت باكياً ...

وإنى لكذلك إذ شعرت بيد تربت على كتفى ، فرفعت وجهى فاذا بها قائمة فوق رأسى يفتر ثغرها عن ابتسامة بغيضة ... لقد بدا لى وجهها حينذاك بشعاً منكراً .

وثار فى صدرى الغيظ والمقت الشديد فصحت بها :

— هيا اخرجى من بيتى ... لا أطيق أن أراك بعد الآن ... إننى أكرهك .

— رجمْ ! ! .

— هيا قبل أن أحطم رأسك بهذا المقعد ...

وعدت أدراجى الى الطريق وجعلت أهيم على وجهى ذاهلاً مشرد العقل والساعات تتدفق على فلم أفق حتى كان الليل قد ولى مدبراً وصدر النهار يعلو رويداً رويداً ...

يوم جديد ! ... وأمسكت بين أهداب عينى دمعة مترقرقة ... أين أنت يا تونى ؟ ... فى غور الماء وحيداً ممدداً بين الصخور يخيم عليه الهدوء والصمت كعادته ... أحمد عبد العظيم شحاته

المرأة الشاعرة
Imaginative Woman

للقصصى الانجليزى توماس هاردى

بقلم الأديب نظمى خليل

انتهى « وليم مارشمل » من البحث عن مسكنه الصيفى فى إقليم « سولنتس » فى جنوب «ويسكس » ثم عاد إلى الفندق حيث كانت زوجه وأطفاله فى انتظاره بعد أن قضوا سحابة اليوم فى اللهو واللعب . وكانت الأم منصرفة إلى قراءة الشعر كعادتها ، فلم تكد تراه حتى ألقت بالكتاب جانبا وأفاقت من ذلك الحلم الجميل الذى كانت غارقة فيه وقالت : إنى أود أن تكون قد وفقت هذه المرة إلى منزل ملائم فقد ضقت ذرعا من طول مكثنا فى هذا الفندق . فأجابها زوجها : إن المدينة مزدحمة والغرف ضيقة وأخشى ألا نجد فيها ما نريد . هل لك أن تصحبينى إلى ذلك المنزل الذى رأيته اليوم ؟ ثم خرجا معا تاركين أطفالهما الثلاثة فى رعاية المربية

لقد كان هذان الزوجان مختلفين فى المزاج والمشرب ، فقد قضى الزوج حياته فى صناعة الأسلحة ونشأ فى جو صناعى بحت ، بعيداً عن جو العاطفة والخيال الذى عاشت فيه زوجه الشاعرة ، فلم يكن غريباً من امرأة رقيقة خيالية مثل « إلا » أن ترتاح إلى أعمال رجل مثل « مارشمل » . إنها ليست عدوة للشعر فحسب ، بل وللحياة أيضاً . فكانت إذا ما خلت إلى نفسها تفكر فى ذلك الزوج وفى ثروته الطائلة ، وفى قيمة هذه الثروة لها . وكانت فى كل مرة تعود بعد ذلك التفكير الطويل بالألم والاشفاق على هذا الزوج الذى لم يعرف قط ذلك الجو الشعرى الجميل ، جو العواطف والخيال الذى كانت تطلق فيه مشاعرها المكبوته وأحلامها المذبة تحلق فى ساعات خلوتها وهدوئها

سار الزوجان حتى أتيا منزلاً صغيراً يشرف على البحر ، وقد أحيط بحديقة شجراء فينانة ؛ فاستقبلتهما صاحبة المنزل وأخذت تحدثهما عن ظروفها السيئة وعن موت زوجها المفاجئ ، وعن وسائل الراحة التى تمدها لكل من يقيم فى منزلها . فأعجبت مسز مارشمل بالمنزل ، ولكنها أرادت استئجار كل الغرف ، فخاب أمل المرأة فى كسب هؤلاء الضيوف ، إذ كان هناك غرفتان يشغلهما شاب رقيق الجانب طيب القلب كريم الخلق لا تود أن يتركها ، ولكنها تمتمت قائلة : لا بأس ! ربما يخلى لكما هاتين الغرفتين بضعة أسابيع . وقبل أن يفرغ الضيفان من تناول الشاى أخبرتهما السيدة أن صاحبها الشاب قد رضى أن يخلى لها الغرفتين مدة ثلاثة أسابيع . فقال السيد مارشمل :

« إنه شاب كريم حقاً ، ولكننا لا نريد أن نزعجه فى مسكنه »

فأجابته صاحبة المنزل قائلة : لا إزعاج ولا إقلاق فهو شاب غريب الأطوار تراه دائماً حالماً مطرقاً حزيناً يحب الوحدة ويتعشق الهدوء ، وهو يحرص على البقاء هنا فى فصل الربيع الباسم حيث لا أنيس له إلا البحر ؛ أما الآن فأنه ذاهب إلى إحدى الجزر القريبة كما يفعل كل عام تبديلاً للهواء . وفى اليوم التالى كانت أسرة السيد مارشمل تقيم فى ذلك المنزل الجديد . ثم مضى الرجل إلى البحر يرتاض على شاطئه الجميل ، وانصرف الأطفال إلى اللعب فى الخلاء ، وبقيت « إلا » وحيدة تلهو بما عسى أن تجده من كتب وآثار فى غرفة ذلك الشاب . فقد رأت رفوفاً من الكتب الغريبة النادرة قد تكدس بعضها فوق بعض فى نظام خاص يدل على أن صاحبها لم يفكر قط فى أن يداً غريبة ستمتد إليها . فقالت :

سأتخذ هذه الغرفة لنفسى إذ يظهر لى أن صاحبها مغرم باقتناء الكتب . هل يمكننى أن أقرأ بعضاً منها يا مسز هوبر ؟

— نعم ، إنه أديب ناشىء وشاعر واعد ، له دخل يسير يكفيه تكاليف الحياة ، ولكنه لا يشق له طريقاً فى المجتمع

— أهو شاعر حقاً ؟ لم أعرف هذا قبل الآن . ثم تناولت كتاباً فرأت اسمه فى الصفحة الأولى فصاحت متعجبة : « يا للمصادفة ! إنى أعرف اسمه حق المعرفة : « روبرت ترو » كذلك أعرف أشعاره . أهذه هى غرفته ؟ وهل هو حقاً الذى أخرجناه منها ؟

ثم أخذت تفكر فى ذلك الاتفاق الغريب . لقد كان والدها أحد رجال الأدب البارزين فنظمت فى الأيام الأخيرة بعض القصائد أودعتها عواطفها الحزينة وأسفها على تلك الحياة الأولى ، حياة الحلم والزهر ؛ حياة المرح والشباب التى ضاعت جميعها فى ذلك الجو المكتئب المكفهر الذى أصبحت تشعر فيه أنها آلة للنسل وأداة للتسلية

وتشاء الظروف أن يقترن اسم هذه السيدة باسم هذا الشاعر الشاب فى إحدى المجلات الكبرى عقب فاجعة مؤلمة اهتزت لها عواطفها الشاعرة فأوحت إليهما فى وقت واحد بقصيدتين متحدتين فى الروح والعاطفة كأنهما فاضتا من نبع واحد ، حتى أن مدير المجلة قد نشرهما فى صفحة واحدة متعجباً لذلك الاتفاق الغريب

ومنذ ذلك الوقت أخذت « إلا » أو « جون إيفى » كما كانت تسمى نفسها تهتم بكل ما ينشر فى الصحف بامضاء روبرت ترو . لقد اتخذت ذلك الاسم لترضى رغبة كامنة فى نفسها ، وحتى لا يرتاب الناس فى صدق إيحاءاتها إذا علموا أن هذه العواطف الجياشة والمشاعر القوية تفيض من قلب امرأة عادية هى زوج لأحد تجار الأسلحة وأم لثلاثة أطفال .

أما أشعار روبرت ترو فلم تكن تحمل طابع الشعر الحديث ، بل كانت فرجة لقلب مكلوم بائس قد ضاق بالحياة أو ضاقت هى به فلم يعد يميز فيها بين أخس الطبائع البشرية وبين أرقاها . فكانت تلك السيدة إذا ما قرأت أشعاره تشعر بخيبة أليمة تحز فى نفسها لأنها لا تستطيع أن تحلق فى ذلك الجو السامى الذى يضرب فيه بجناحيه القويين .

ثم مضت بضعة أشهر نشر خلالها روبرت أول دواوينه الشعرية فكان باكورة طيبة استقبلها الشعب بشىء من التقدير مكنه من أن يكسب نفقات الطبع ، فأغرى هذا النجاح المتواضع جون إيفى على أن تجمع مقطوعاتها الشعرية المتناثرة فى كتاب واحد مؤملة فى أن تصادف بعض ما ظفر

به روبرت من الاقبال والتشجيع ، ولـكنها عادت بصفقة المغبون ، فلم يتصد أحد لـكتابها بالنقد أو التقريظ ، بل لم يفكر أحد أن يعلق عليه أو أن يشير إليه ولو فى إحدى الصحف اليومية .

ولـكنها لم تفكر كثيراً فيما أصابها ، فسرعان ما حطت بها أفـكارها من عالم الشعر والأدب الى عالم الحياة والمنزل ، فقد أحست بجنين يضطرب فى أحشائها فانصرفت عن الأدب وتأهبت لاستقبال ذلك الضيف الجديد .

جالت هـذه الأفـكار فى خاطر تلك المرأة التى وجدت نفسها أخيراً وعلى غير انتظار فى غرفة ذلك الشاب الذى ارتبطت به برباط روحى وثيق ، فنهضت عن كرسيها وأخذت تجول فى أنحاء الغرفة تتفرس فى كل ما تراه ، ثم دعت مسز هوبر تستفسر منها عن ذلك الشاعر الشاب فقالت :

— وهل يقيم هنا منذ زمن طويل ؟

— نعم . منذ عامين تقريباً وهو يحتفظ بهاتين الغرفتين حتى فى أيام سفره ، فان جو هذا المـكان يلائم صدره . وهو يقضى وقته فى القراءة والـكتابة لا يقابل أحداً ؛ وهو مع ذلك طيب القلب حـلو الحديث يتمنى كل من يعرفه أن يصادقه . إنك لا تصادفين أمثال هذا الشاب كل يوم

— فى طيبة القلب ورقة المشاعر ! !

— نعم . حتى أننى كثيراً ما أغريه على الخروج من عزلتـه ، فيقوم برحلات قصيرة إلى باريس أو النرويج ، ثم يعود يشـكرنى لأنه ذاق طعم السعادة بسببى

— إنه رقيق الاحساس لا شك

— أجل وإن بدا فى بعض الأحيان غريباً ، فقد حدث مرة بعد أن انتهى من نظم إحدى قصائده فى الهزيع الأخير من الليل أن ظل بقية الليلة يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ، فأطار النوم من عينى ولـكنى مع ذلك لم أضق به ولم أغضبه

كان هذا فاتحة الحديث عن ذلك الأديب الواعد الذى أخذ يصعد مدارج الشهرة فى وثبات واسعة موفقة .

وفى ذات يوم جاءتها صاحبة المنزل تلفت نظرها الى شىء لم تنتبه إليـه وهو آثار للـكتابة بالقلم الرصاص قد نقشت على ورق الحائط خلف الستائر بالقرب من مكان الرأس ، فلم تستطع مسز مارشمل أن تحبس شعور الدهشة والرغبة ، فاندفعت الى الغرفة ، وانحنت برأسها الجميل حتى كادت تلمس الجدار . ثم أخذت مسز هوبر تشرح لها فى أسلوب المرأة المتمكنة من علمها الواقفة على جميع ما يحيط بها فقالت :

إن هـذه الـكلمات هى خواطره الأولى التى تهفو بعقله وهو نائم فى فراشه ينقشها هنا خوفا من أن ينساها . لقد رأيت كثيراً من هذه الآثار منشورة بعد ذلك فى الصحف ولـكن هذه الأشعار لم تنشر بعد

فاحمر وجهها دون أن تدرك السبب وشعرت برغبة قوية خفية فى أن تخلو الى نفسها . ولم تـكد المرأة تنصرف الى قضاء حاجة لهـا حتى أسرعت مسز مارشمل الى غرفة الشاعر وأخذت تتلو هـذه الأشعار فى صوت موسيقى جميل حتى سـكرت أذناها وشالت بها أفـكارها الى السموات العلى

كانت الطبيعة فى ذلك اليوم غاضبة ثائرة ، فلم يرد مستر مارشمل أن تصاحبه الى البحر الهائج المزبد . أما هى فقد أخذت تضيق بتلك الحياة الرتيبة الثابتة ، وتنفر من ذلك الجو المألوف الثقيل ، إذ لم يعـد

ركوب البحر ولا السير مع الشاطىء متأبطة ذراع زوجها شيئاً بجانب تلك اللذة القوية التى أخذت تشعر بها كلما أوت الى غرفة ذلك الشاعر المجهول.

لقد قرأت أشعاره كلها فاستظهرتها ، ثم حاولت أن تعارضها ولكنها عادت ودموع الفشل تترقرق فى عينيها . وهكذا عاشت تلك المرأة المسكينة مغمورة بتلك المشاعر المعذبة التى أوحت بها اليها غرفة ذلك الشاب الذى لم تره قط

لم يعد قلب تلك المرأة يغنى على أوتار الحب الأول ، ولم يعد زوجها ينظر اليها أكثر من رفيق أو صديق ، ولكن قلبها كان لا يزال عامرا بالحب ، جياشاً بالعواطف التى تتطلب غـذاء وإلا ذبلت وماتت . وأخيرا وجـدت ذلك الغذاء فى ذلك الاتفاق الذى لم تكن تحلم به

عثر الأطفال يوما على بعض ملابس ذلك الشاعر فأسرعت مسز هوبر ووضعتها فى الصندوق كما كانت . أما الأم فقـد شعرت بشىء غريب كتمته فى نفسها حتى تحين الفرصة ، وسرعان ما حانت ، فقد خرجت مسز هوبر إلى قضاء بعض حاجاتها ، وخرج الأطفال يلعبون كعادتهم كل يوم ، فأسرعت الأم الى الصندوق وأخرجت منه حلة جميلة فارتدتها ، ووضعت قبعته العالية فوق رأسها . ثم أخذت تخطر فى مشيتها تسأل نفسها : ألا توحى لى هذه الملابس بما أوحت اليه من روائع الفن ؟ لقد طالما خفق قلبه تحت هذه السترة ، وطالما تفتح ذهنه الجبار عن روائع الشعر وفوقه هذه القبعة ؛ ثم ما لبثت أن شعرت بضعفها بجانبه فعادت والدموع تكاد تطفر من عينيها ، ولكنها لم تكد تصل الى الصندوق حتى رأت زوجها أمامها فصاح : ما هذا الجنون ؟

فاحمر وجهها خجلا وأسرعت الى خلعها ، ثم قالت لقد رأيتها مصادفة هنا فارتديتها لأسرى عن نفسى ألم الوحدة . ماذا أعمل مادمت بعيداً عنى دائما ؟ بعيداً دائما ؟ حسن ! . . .

فلما جاء الليل ذهبت الى مسز هوبر تغذى شعورها بالحديث عن ذلك الشاعر البعيد . فقالت صاحبة المنزل : إنك تلذين كثيرا لسماع قصته . لقد أرسل إلىّ خطابا اليوم يخبرنى أنه سيأتى غدا لحاجته الى بعض الكتب

— هل يمكننى أن أبقى هنا عند مجيئه ؟

— نعم يمكنك أن تقابليه إذا أردت ذلك

فشعرت بارتياح خفى عند سماعها هذا الكلام ومضت الى فراشها تفكر فى هذا اللقاء المرقوب

وفى صباح اليوم التالى قال لها زوجها : لقد كنت أفكر يا (إلا) فيما حدثتنى عنه من أنى أتركك وحيدة دون أنيس . قد تكونين على حق فى هذا ، ولكن الجو اليوم صحو ، والبحر رهو ، والنسيم رخو ، فهل لك أن تصحبينى الى نزهة قصيرة ؟ ولأول مرة شعرت (إلاّ) بعدم رغبتها فى تلبية هذا الطلب ، ولكنها لم تعلن رفضها . ثم اقتربت ساعة الخروج فأخذت تستعد لها ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن المضى فى اللبس ، فان الرغبة فى لقاء ذلك الشاعر المجهول كانت قد جرفت بعيداً سائر الرغبات الأخرى ، فقالت فى نفسها : (إنى لا أستطيع الخروج الآن) وأخبرت زوجها بذلك ، فمضى وحده

كان المنزل هادئاً فى ذلك اليوم ، فقد خرج الأطفال الى الخلاء يلعبون ويمرحون ولم تعد تسمع إلا صوت أمواج البحر تداعب الشاطىء فرحة بذلك اليوم المشمس الجميل . لقد سمعت الباب يقرع ولكنها لم تر أحدا ، فلما نفد صبرها نادت مسز

هوبر وسألتها عن الطارق ، فأجابتها : إنه أحد الأشخاص يسأل عن سكن . لقد نسيت أن أخبرك أن روبرت قد اعتذر عن المجيء اليوم لعدم حاجته القوية الى المكتب . فران الحزن على قلب (إلاّ) وبقيت وقتاً طويلا نهباً لشتى الانفعالات حتى أنها لم تستطع أن تقرأ أغنيته الحزينة : (الأرواح المديدة) إذ كان الحزن قد جفف ينابيع فرحها

— مسز هوبر . هل لديك صورة لـ . . . ذلك الشاب الذى يقطن هنا ؟

وكان الخجل قد عقد لسانها عن ذكر اسمه

— لماذا ؟ نعم . فى داخل ذلك الأطار الجميل المعلق فى غرفتك

— ليس هنا إلا صورة للدوق والدوقة

— نعم . إنها فى داخل ذلك الاطار نفسه . لقد اشتريته خصيصاً لصورته ولكنه جاءنى قبل السفر وقال : « إخفى صورتى عن أعين هؤلاء الغرباء الذين سيقيمون هنا فانى لا أود أن يتطلعوا إلى صورتى » ولذلك أخفيت صورته مؤقتاً تحت صورة الدوق . يمكنك أن تريها إذا أردت فانه لا يغضب ؛ فلو أنه عرف أن الشخص الذى سيقيم فى غرفته امرأة جميلة جذابة مثلك لكان حريا ألا يفكر فى إخفاء صورته

— وهل هو رشيق ؟

— إنه رشيق فى نظرى وإن لم يبد كذلك فى نظر بعض الناس . ولكنى أعتقد أنه شخص قوى يأسر كل من يراه ، ففى عينيه بريق الذكاء ، وفى بدنه روح العبقرى الثائر

— كم يبلغ من العمر ؟

— إنه يكبرك بسبع سنوات . أى أنه حوالى الثانية والثلاثين

والحقيقة أن (إلا) كانت فوق الثلاثين وإن لم تظهر كذلك . لقد كانت قادمة على تلك المرحلة التى تعتقد فيها المرأة أن الحب الأخير أقوى من الحب الأول . وفى تلك اللحظة جاءها نبأ من زوجها يخبرها أنه سيقضى ليلته فى نزهة بحرية مع بعض أصدقائه . فقامت إلى المائدة وتناولت العشاء مع أطفالها ثم أمضوا جميعاً وقتاً على الشاطىء وهى لا تفكر إلا فى تلك الصورة المختبئة وكأنها تتوقع أمراً مخيفاً

ثم عادت إلى المنزل ذاهلة عن نفسها ولكنها لم تجرؤ على إخراج الصورة حتى نام الأطفال وشعرت بالوحدة والهدوء . ولكنها بالرغم من ذلك لم تستطع أن تدنو من الصورة حتى ترضى تلك الرغبة الدفينة فى نفسها ، فارتدت أفخر ثيابها وقامت إلى الأطار وأخرجت منه الصورة ووضعتها أمامها على المكتب . لقد كانت صورة قوية رائعة ، وكان الشاعر لابساً قبعة عالية تلقى ظلالاً رقيقة على جبينه . أما العينان اللتان وصفتهما صاحبة المنزل فقد كانتا تشعان ألماً وبؤساً

نظرت إلى الصورة طويلاً ثم تمتمت فى صوت هادىء رقيق : « وهل أنت الذى كشف نوره القوى نورى هذه المدة الطويلة ؟ » ثم غابت فى تفكير عميق حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، ولمست شفتاها الصورة ، ثم مالبثت أن ضحكت ضحكة عصبية ومسحت الدموع من مآقيها ، وأخذت تفكر فى نفسها كيف أن امرأة هى زوج لرجل وأم لأطفال ثلاثة تسمح لنفسها أن تنظر إلى شخص غريب فى مثل هذه الحالة المريبة ؟

لا . إنه لم يكن غريباً . لقد عرفت أفكاره وعواطفه كما عرفت أفكارها وعواطفها ، فقد كانت نفس العواطف والأفكار التى كان يضطرب بها قلبها

والتى تفقدتها فى زوجها فلم تجدها . « إنه أقرب الناس إلى نفسى وإن لم تقع عليه عينى » . ثم ألقت بالكتاب والصورة على منضدة صغيرة بجانب السرير وأخذت تستعيد بعض أشعاره الوجدانية ثم ما لبثت أن أمسكت الصورة فى يدها وأخذت تنظر فيها وهى نائمة ، ثم التفتت إلى الأشعار المكتوبة بالقلم الرصاص على الحائط . لقد كانت جملا وسطوراً كأنها مذكرات « شبلى » . ثم شعرت أن أنفاسه الحارة القوية تصافح خديها وكأنها منبعثة من تلك الجدران التى طالما أحاطت برأسه كما تحيط برأسها الآن

لا بد أن يكون قد وضع يده هكذا وهو ممسك بالقلم . نعم . إن الكتابة مائلة مما يدل على أن الكاتب قد مد ذراعه هكذا . « إن الصور أكثر حقيقة من الانسان فهى غذاء الأبدية » هذه هى الأفكار التى خطرت فى ذهنه فى سكون الليل العميق عندما انطلقت روحه فى سماء الفكر لا تخشى نقداً ولا تهاب إنساناً ؛ ولا شك أن هذه الكلمات قد كتبها فى عجلة على ضوء القمر الخافت أو نور المصباح الخابى أو بصيص الفجر الأدكن . ثم تدلى شعرها حيث كان يضع ذراعه وهو يستجل تلك الأفكار الشاردة

لقد كانت نائمة على شفتى الشاعر محاولة أن تتقمص روحه وتشم أنفاسه خلال ذرات الأثير

وبينما هى غارقة فى بحار هذه التأملات المذبة اللذيذة إذ سمعت وقع أقدام على السلم فلم تكد تصحو من أحلامها حتى رأت زوجها أمامها يقول : معذرة ، هل بك صداع ؟ أخشى أن أكون قد أزعجتك

فأخفت الصورة فى حركة غريزية سريعة وقالت : مابى من صداع . كيف جئت الآن ؟

فقال : خفت أن أتأخر الى الغد الذى أعددت له برنامجا آخر . لقد تعبت اليوم ولكنى مضطر أن استيقظ الساعة السادسة . سوف لا أوقظك . فرفعت اليه عينيها بينما كانت يدها تمعن فى إخفاء الصورة تحت الوسادة . فانحنى عليها وقال : أحقاً انت مريضة ؟

— كلا . ولكنى كاسفة البال فقط

— لا بأس

ثم انحنى عليها ثانية وطبع فوق جبينها قبلة

وفى الساعة السادسة استيقظ مارشمل وهو يتثاءب ويتمتم بهذه الكلمات : لست أدرى أى شىء كان يحتى هذه الليلة

فرفعت (إلا) عينيها فرأت صورة روبرت فى يده

— حسن . لقد قضى على

— أمستيقظة أنت أم نائمة ؟

— ماذا تعنى ؟

— أرى صورة هنا

— أظنها لأحد أصدقاء صاحبة المنزل

— إنى أعجب كيف جاءت هنا

— لقد رأيتها أمس فربما وقعت من يدى هنا

— إنه صديقك إذن

— إنه رجل ذكى وشاعر واعد وهو الذى يقطن هاتين الغرفتين ولكنى لم أره

— كيف عرفت هذا ما دمت لم تريه ؟

— مسز هوبر أخبرتنى ذلك عندما أعطتنى هذه الصورة

— حسن . يجب أن أتركك الآن . إنى لا أستطيع أن أصحبك معى . راقبى الأطفال جيداً حتى لا يبعدوا كثيراً عن المنزل

وما كاد مستر مارشمل يترك المنزل حتى أسرعت زوجته إلى مسز هوبر تسألها عن موعد حضور

روبرت . فعلمت منها أنه سيأتى فى نهاية الأسبوع ثم عاد مارشمل قبل الغروب وأخذ يقرأ الرسائل التى جاءته أخيراً ، وفجأة قرر الرحيل بعد ثلاثة أيام

— ألا يمكننا أن نبقى هنا أسبوعا آخر ؟ إنى أحب هذا المكان

— ولكنى لا أجد فيه ما يغرى بالبقاء

— إذن أبقى أنا والأطفال

وما الفائدة ؟ إنى مضطر إلى العودة ثانية لأصحبكم إلى المنزل . وعلى كل فلديك ثلاثة أيام أخرى

ولكن « إلا » رأت أنهـا مقضى عليها إذا لم تر روبرت ، فبذلت آخر جهدها فعلمت أن الشاعر يقيم فى إحدى الجزر القريبة منها فذهبت إليها ولكنها لم تستطع أن تهتدى إليه ، فعادت كاسفة البال مهمومة النفس وقد أصبحت الدنيا فى نظرها أضيق من كفة الحابل

ولكن السرور ما لبث أن انبعث فى قلبها فأثار جوانبه القاتمة . فقد عاد زوجها وغير رأيه وسمح لها بالبقاء حتى نهاية الأسبوع

ولكن الأسبوع قد مضى وروبرت لم يأت .

وفى صبيحة يوم السبت ، كانت مسز مارشمل وأولادها فى طريقهم إلى المحطة . لقد كان الطريق مقفراً ثقيلاً والجو خانقاً مكتئباً يبعث الضيق والضجر ولكنها بقيت بالرغم من ذلك تنظر إلى البحر وإلى الجزر المتناثرة فيه حتى غابت جميعها عن عينيها ، فأخذ قلبها المثقل المهموم يتلهف إلى حيث يقيم الحبيب . عادت إلى منزل زوجها الريفى الجميل جسما بدون قلب كأنها قبر متحرك . وأخيراً كتبت إلى روبرت تبثه إعجابها وتسأله رأيه فى بعض مقطوعاتها الشعرية التى أرسلتها إليه ، ثم انتظرت الرد ، فسرعان ماجاءها بما كانت تخشاه ، إذ جاءها خطاب مقتضب يذكر فيه أنه وإن لم يقرأ هذا الاسم «جون إيفى» من قبل فسيمنى بكل ما تنشره بعد ذلك . وبالرغم من هذا فقد رأت « إلا » فى هذا الخطاب القصير معنى آخر ، فقد كتب إليها روبرت بنفسه وفى تلك الغرفة التى كانت تجلس فيها

ثم أخذت ترسل إليه من حين إلى آخر بأجود ماتسمح به قريحتها الفياضة لتسأله رأيه فيه ، ولكنها لم تتلق منه رأياً ، فعزت هذا الى أن روبرت يكتب اليها ظاناً أنها أحد منافسيه من جنسه

لقد كان روبرت صديقاً حميا لصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الكبرى ، وكان ذلك الناشر صديقاً مخلصاً لزوجها فكتبت إليه تدعوه لزيارتها وأن يصحب معه صديقه روبرت

كان الشتاء قد انتهى وانقطع المطر ، وأخذت الأزهار تتفتح ، والطيور تشدو فوق الأشجار ، واتشحت الأرض برداء الربيع

وفى اليوم الموعود فى الساعة الخامسة سمعت قرعاً بالباب فهرولت إليه ولكن هالها أن وجدت صاحب المجلة واقفاً وحده فسألته :

— أين روبرت ؟

فأجابها : إنى آسف كثيراً لعدم مجىء روبرت . إنه غريب الأطوار كما تعرفين . لقد وعدنى أنه سيحضر ثم عاد فاعتذر

— وعلى ذلك فهو لا يأتى اليوم

— نعم وقد أوصانى أن أعتذر إليك

— متى تركته ؟

— الآن على باب منزلك

— ماذا ؟ وهل مر بمنزلى ؟ !

لقد تحدثنا معاً بالباب ثم انصرف وهو فى حالة نفسية غريبة . فقد أخرجه عن نفسه مقال نشرته

إحدى صحف المساء ، نال فيه كاتبه منه كثيراً ، وبما قرأته

— لا . إنه ليس جديراً بالتفكير فيه . فهو كغيره من مئات المقالات التى ينشرها أصحاب العقول القديمة الضيقة . إن موطن الضعف فى روبرت أنه يهتم كثيرا بما يكتب عنه . . . ولكن كان واجبا عليه أن يعرف أن هناك من يعطف عليه ويعجب به

— نعم . نعم . لقد وصلته عدة رسائل من إيفى

— أيحب إيفى ؟ هل قال هذا ؟

— إنى لا أعتقد أنه أعجب به يوما

— ولا بشعره ؟

— لا ! .

وأخيرا أيقنت تلك المرأة المسكينة أن شعرها لم يستطع أن يرضى معبودها العظيم فذهبت إلى حيث ينام أطفالها وهجمت عليهم تشبعهم لثما وضما

أما الناشر فقد أدرك أنها لم ترد بدعوته إلا لقاء صاحبه ، فانصرف . وفى اليوم التالى نشرت إحدى صحف الصباح الخبر الآتى :

انتحار شاعر

انتحر مستر روبرت ترو الذى عرفه الجمهور منذ سنوات شاعرا مطبوعاً ، وأديبا موهوبا فى منزله فى سولنتس بطلق نارى . إن الجمهور ليس فى حاجة الى تذكيره بديوانه الشعرى « أغانى المرأة المجهولة » الذى نشره فى العام الفائت ، والذى أثار ضجة كبيرة فى الأوساط الأدبية

انتحر عقب قراءته مقالاً عنيفا تناوله فيه كاتبه بالنقد والتجريح ، ثم نشر هذا الخطاب الذى كان قد أعده لأحد أصدقائه وهو :

« عزيزى : قبل أن يصلك خطابى هذا أكون قد وضعت نهاية لتلك الضجة التى ثارت حولى . لن أثقل عليك بسرد الأسباب التى حملتنى على هذا ، ولكنى أؤكد لك أنها وجيهة مقنعة . ربما لو كانت لى أم أو أخت أو صديقة لما فكرت فى أن أقطع مجرى حياتى هكذا . لقد طالما حلمت بتلك المخلوقة المنشودة التى استوحيتها ديوانى الأخير ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ؛ وأرى لزاماً على أن أذكر ذلك حتى لا أحرج أية امرأة قد يظن أنها السبب فى هذه المأساة »

* * *

قرأت (إلا) هذا الخطاب وهى فى ذهول عن نفسها ثم أسرعت إلى فراشها وانكفأت على وجهها تبكى وتنتحب ثم أخذت تتمتم : « أواه لو عرفنى قبل ذلك ، أو لو قابلته مرة واحدة ! لو أمررت يدى على جبينه الساخن ثم قبلته ، إذن لكنت أذيقه طعم الحب وأشعره بالحياة ، ولكنت أريه استعدادى للتضحية من أجله ، ولكن القدر لم يهيىء لى هذا ولم يتح لى أن أنعم فى جنته

ثم قامت لساعتها وكتبت إلى صاحبة المنزل تطلب خصلة من شعر رأسه ، وسرعان ما جاءها الرد يحمل خصلة الشعر ومكان المقبرة

وفى أحد الأيام لاحظ زوجها أنها تخفى شيئاً فى صدرها فصاح : ما هذا . أخصلة شعر ؟

فتمتمت قائلة : لقد مات

— من ؟

— لا أذكر اسمه

— حسن . ثم مضى الى عمله حيث اتفق أن قرأ خبر انتحار ذلك الشاعر . وسرعان ما تذكر

حديث زوجه عنه والصورة وخصلة الشعر أيضاً .
وفى أحد الأيام هبت (إلا) مضطربة مهمومة فكتبت ورقة صغيرة الى زوجها تخبره أنها ذاهبة الى مكان بعيد قد يستغرق منها يوماً ، ثم انطلقت كالريح الى المقبرة . فلما جاء زوجها همست فى أذنه الخادمة أن سيدتها لم تكن فى حالة هادئة فى الأيام الأخيرة ، وأنها تخشى أن تكون قد انتحرت ، ولكن الزوج كان عارفا بمكانها ، فأسرع تواً إلى المقبرة وهناك فى غسق الليل أخذ يتلمس طريقه عله يرى شبح زوجه ، وأخيراً لمح بصيصاً من النور يشع من بعيد ، فسار اليه وسط أكوام من الصخور والرجام فرأى زوجه حانية فوق القبر فقال :

ماهذا ؟ أتتركين أطفالك وتأتين هذا الطايش ؟ إنى لا أغار من هذا التعس فقد أنهى الموت ما بينى وبينه . ثم أمسك بذراعها وخرج بها من المقبرة حيث أخذ أول قطار دون أن تنطق الزوجة ببنت شفة

مضت على هذه الحادثة بضعة شهور ولم يجرؤ أحد أن يكلم الآخر

أما إلا فقد كانت علتها تزداد سوءا بعد سوء حتى جاء يوم المخاض فقالت :

— إنى لا أعتقد أنى سأنجو هذه المرة

— فقال زوجها : أوه . ما هذا العبث ، لماذا لا تكون هذه المرة كسابقاتها ؟ فقالت :

— إنى أشعر أنى سأموت ، وسأترك فراغا فى قلوب أبنائى . فقال :

— وأنا ؟ فقالت :

— إنك ستجد من يخلفنى . فقال :

— ألا تزالين تفكرين فى صديقك الشاعر ؟

فلم تجبه

ولم يمض على هذا الحديث ستة أسابيع حتى كانت (إلا) ملقاة فى فراشها لا تستطيع حراكا .
وقد ذبل جسمها وجفت ينابيع الحياة فيها . وفى الساعة الأخيرة قالت : « وليم . إنى أريد أن أعترف لك بكل شىء . إنك تعرف تاريخ زيارتنا لسولنتس ، لا أستطيع أن أخبرك كيف نسيتك ، ولكنى كنت فى حالة سيئة ، لقد ظننتك دونى كفاءة وعقلاً بينما كان فوق قوة وذكاء . فأردت أن أبحث عن شخص يفهمنى ...

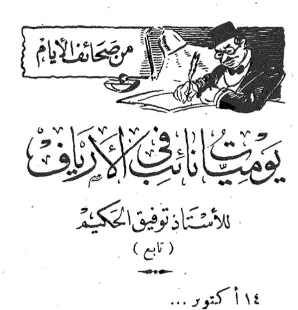
ولكنها لم تستطع أن تزيد حرفاً على هذا فانتفضت انتفاضة سريعة كانت القاضية

لم يكن الزوج كغيره من الأزواج سريع الغيرة كثير الشك فلم يحاول قط أن يدفعها إلى الاعتراف بعلاقتها برجل مات

وفى نهاية العام الثانى بعد هذه الحادثة بينما كان مستر مارشمل يبحث عن أوراق زوجه ليحرقها قبل أن يقترن بزوجه الثانية رأى خصلة الشعر ، وصورة الشاعر ، وخطاب صاحبة المنزل ، وقد كتب عليه التاريخ بخط زوجته . فنهض مسرعاً وأحضر ابنه الصغير الذى كان السبب فى وفاة أمه ووضعه على ركبتيه ، وأمسك بخصلة الشعر وأخذ يقارنها بشعر الطفل ، ثم وضع الصورة على المنضدة وأخذ يفحصها ويقارن بينها وبين قسمات وجه الطفل ، وكأن الطبيعة الماكرة قد شاءت أن تجعل الشبه قوياً . فصاح :

تعساً لى . لقد خانتنى فى هذا الطفل . دعنى أرى التاريخ : الأسبوع الأول من أغسطس ... الثالث من مايو ... نعم ... نعم ... وأخيراً صاح : اذهب أيها الحيوان إنك لا تنتسب إلىّ !

نظمى خليل



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٤ أكتوبر ...

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكتبي بدار النيابة . وعلم المساعد بعودتى فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتى . ولكنه عاتب على إغفالى إياه فى واقعة الليل . فتنبهت إلى أنى حقيقة نسيته كل النسيان . إن اهتمامى باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهانى ولا شك عن كل شىء آخر . ومع ذلك فهى حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن حضرة المأمور . ولم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة . آه لهؤلاء العمد ! لشد ما أرثى لحالهم ! وظهر « فراش » المحكمة الحاج خميس . فطلبت إليه كوبا من الشاى الخفيف . والتفت إلى مساعدى فأقبل على يحدثنى كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأنى به جوعان كلام . إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتى عنه . لقد سئم الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله . اللهم إلا دكان ذلك البدال الرومى « طناش » ، وضعت أمامه مائدتان من الخشب وكرسيان من القش . وقد أطلق عليه الأهالى اسم « الخمارة » . وحتى هذا الرومى قد ارتدى جلبابا كجلباب الفلاحين فلم يعد شىء ينم على



أنه « افرنجى » غير لون العينين والشعر . أين يتنزه ؟ وأين ينفق وقته ؟ هذا الشاب الذى جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهى والضجيج ؟ إنه الآن لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم . وغير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة يأوى إليها الفلاحون . إنها فى لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماد وفضلات البهائم ، وفى تكدسها وتجمعها « كفوراً » و « عزباً » مبعثرة على بسيط المزارع ، لكأنها هى نفسها قطعان من الماشية مرسلة فى الغيطان . هذه القطعان من البيوت التى تعيش فى بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هى كل ماتقع العين عليه فى هذه البقاع . ويزيد فى كربه هذا السكون الذى يهبط على البلدة منذ الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير ونحيب السواقى والشواديف والكباسات ، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها فى جوف الليل الخفراء الخصوصيون

او النظاميون أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم . إن مساعدى يريد دواء لهـذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المموج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ؟ وفكر صاحبي فى الاختلاف إلى النادى . إنه لا يعلم شيئاً عن نادى هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة فى منزل عتيق يصعد إليها بسلم من خشب . وهى تضاء بمصباح غازى أى « كلوب » وهذا « الكلوب » هو وحده الشيء الجدير بالاحترام فى الحجرة . أما أهل النادى فهم بالطبع رجال الادارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الاجزاخانة . ولا يشغل هؤلاء فى ذلك المكان غير لعب الورق و « الطاولة » واغتياب الناس . فهل يليق بمثل النائب العام فى هذا المركز أن يندس فى هـذه الزمرة ! لقد قلت لمساعدى أنى « شخصياً » أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هـذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذى دعانى فيه رجال الادارة إلى حفلة عشاء فى ذلك النادى مع القاضى المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار فذهبت . وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام . وقد ملأوا كأسى وكأس القاضى . ولم يفطن القاضى لنفسه فشرب وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك . وعندئذ مال علىّ المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى فى أذنى ضاحكا : « البك القاضى فقد وقاره ! » فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك . فانسللت منصرفا إلى بيتى فى هدوء دون أن يشعر بى هؤلاء المتخبطون فى كؤوسهم . منـذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدماً فى هذا النادى . واقتنع مساعدى بكلامى . وأردت أن أزيده بياناً ليزداد حرصاً ، ولكن الحاج خميس دخل حاملاً كوباً لم يكد يقع نظرى عليه حتى صحت :

— ما تسقينى أحسن حبر « كوبيه » وتخلص !

— صل على النبي يا سيدنا البك ! أنا بقى لى عشرين سـنة فراش محكمة . وورد علىّ أصناف الأهالى والموظفين . تصدق بالله ! ما ينفع فى المحاكم إلا شاى مُرّ طعم « الفورنيه » !

فترددت قليلا ثم لم أجد مناصاً وقلت :

— شاى المحاكم وشغل المحاكم كله مُرّ والسـلام ، هات . ! . ووضع الرجل الكوب الزجاجى أمامى وانصرف . وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى بروحه الذى لا أستخف له ظلا وقال :

— عندنا من نوع التلبس أربع قضايا .

— هات !

فذهب وأرسل إلىّ العسكرى القادم « بالمحاضر » والمقبوض عليهم . وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعى أمامنا المتهمين . وجعلت من نصيبى ثلاث قضايا . واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظرة سريعة وأعطيته مساعدى وأنا أقول له : « سرقة كوز ذرة . لن نعثر لك على أسهل من مثل هـذه السرقة . سل هذا المخلوق فستجده معترفا فى أمان الله ! » . وبدأ الاضطراب قليلا على الساعد : فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً . وتناول من يدى المحضر . وجعل يقرؤه كلمة كلمة . ويعيد قراءة هذه « القسائم » التى لم تزد على الخمس . وفرغت أنا من أمر نصيبى البالغ أضعاف ما عنـده وهو ما زال منهمكا فى إعداد ملخصات وافيـة ، وملخصات الملخصات ، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل

ستلقى فى صدر سارق « كوز الذرة » . فكتمت ضحكى . أنا أيضاً فى مستهل حياتى القضائية كنت أفعل فعله . ولقد قسا علىّ القدر أشد مما قسا على هذا الشاب فنكبنى بقضية تزوير معقدة كانت هى أول عهدى بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابى وقتئذ وقد مثل أمامى المتهم المزور بطول باعه وذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة . فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسى ، ولم أدر ما أقول . وانتظر الرجل واقفاً فى هدوء أن أفتح فمى أو يفتح الله علىّ بسؤال ، وتصبب منى شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن منى حالاً وأربط جأشاً وأقوى امتلاكا لأمره . وخيل إلىّ أنه يسخر منى فى دخيلة نفسه . وكان كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مران طويل صادف فى حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالى . عرف ما بى فأسرع يعاوننى ويلقننى ما ينبغى أن أبدأ به من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون أن أظهر له حاجتى الى تدخله . وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوى الحق المغموط والفضل المجهول كثيرون ؛ وقد سمعت أحدهم يقول لى مشيراً إلى بعض من كبار رجال القضاء : « علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا قضاة ومستشارين ، والواحد منا واقف فى مطرحه لا يكبر ولا يصغر « زى جحش السبخ » ! تذكرت كل هـذا وأنا أنظر الى وجه مساعدى . ورأيت أن أتعهد خُطاه الأولى بنفسى ، فطلبت إليه أن ينحى جانبا هذه الملخصات ، وأن يضغط بأصبعه على الجرس . ففعل وظهر الحاجب بالباب ؛ فأمرته باحضار المتهم الأول ، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع مسن ؛ وقلت للمساعد أن يوجه إليه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف ، فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر الى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى .

فنظر المساعد الىّ وقال فى لهجة الانتصار :

« اعترف المتهم بالسرقة » !

فقال الرجل فى بساطة :

— ومن قال إنى ناكر ؛ أنا صحيح من جوعى نزلت فى غيط من الغيطان سحبت لى كوز ...

ووقف القلم فى يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك . والتفت إلى يستنجدنى ، فنظرت الى الرجل سائلاً :

— سين ، يا رجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، ياحضرة البك هات لى الشغل وعيب علىّ إن كنت أتأخر . لكن الفقير منا يوم يلقى ، وعشرة ما يلقى غير الجوع

— أنت فى نظر القانون متهم بالسرقة

— القانون يا جناب البك على عيننا ورأسنا . لكن يعنى القانون عنده نظر ويعرف أنى لحم ودم ومطلوب لى أكل

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله

— تدفع كفالة ؟

— كنت أكلت بها

— إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالى يفرج عنك فورا

— خمسين قرشا ! وحياة راسك أنا ما وقعت عينى على صنف النقدية من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله ، ما أعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من وسطه والا سدّوه

فنظرت الى مساعدى وأمليت عليه نص القرار

— « يحبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له فيش وتشبيه » . اسحبه يا عسكرى !

فقبل الرجل كفه وجهاً وظهراً حامداً ربه :

— وماله . الحبس كويس . نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة . السلام عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع فى معصميه القيد . واطمأن مساعدى واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت القضية التالية . فظهر العسكرى ومعه آخر وفتحا باب مكتبى على مصراعيه ، وجذبا الى داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة وولداً قد شدوا فى حبال من الليف ، إذ لم يجدوا فى المركز لكل هذا العدد قيودا حديدية . فما تمالكت أن صحت لمنظرهم :

— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل الحبال يا عسكرى !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل :

— فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها الممنوعات . وباق غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجانة !

فأدرت بصرى فى هؤلاء الآدميين . واستمدت فى مخيلتى ما قرأته الساعة عن تهمتهم فى الأوراق التى أمامى وقلت :

— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسات يا فندم

نعم . إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياساً ضخمة مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وسترة وسراويل ، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر فى القاهرة من المتاجر الشهيرة ، وكانت تجتاز ليلاً بكل هذا جسر الترعة المحاذية لدائر الناحية ، فسقط منها فى الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبث الكيس فى أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة ، فهرعت تلك البلدة العارية الى ذلك الكنز الذى لا يشابه كل الكنوز . وتسابقت الأيدى الى الكيس الراقد فى الطين تجذب من بطنه ما تصل اليه ، فان كان سروالا من الصوف لبس فى الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان معطفا من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه) . وإن كان حذاء لامعا وضع فى الأقدام بغير جوارب . ومضت البلدة تجرى فى الطرقات فرحة مهللة : « الكساوى فى البحر ، الكساوى فى البحر ... » ، الى أن رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...

ورأيت أن أسألهم أول الأمر جملة ، على أظفر منهم باعتراف ييسر علىّ مهمتى . فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقتم الملابس ؟

فأجابنى من بينهم صوت عميق رزين :

— أبدا والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر رمى علينا الكيس ، وكل واحد منّا طال نصيبه

فقلت للرجل من فورى :

— نصيبه ؟ ! هو الكيس ملك البحر والا له أصحاب خواجات ؟

فأجاب الرجل فى صوته العميق الهادىء :

— راح من بالنا أن له أصحاب ياحضرة البك

ربنا يعلى مراتبك ؟ إرأف بحال الفلاحين المساكين!

— المسألة مسألة قانون . والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً مملوكا للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل معاملة السارق . فهمتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك . لكن ... بقى ... الكساوى كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان ...

— أنت يا رجل فاكر الدنيا فوضى ، وإلا فيه قانون وحكومة ! ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقى هى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ؟ ! لا كستنا ولا تركتنا نتكسى !

— أنا مضطر أن أحبسكم

— يا جناب البك . أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوى منا ، والعيال الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا . يبقى الحبس له لزوم ؟ !

— أفرج عنكم بضمان مالى

— مالى ؟ ! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !

— تفضلوا من غير مطرود ! دماغى وجعنى والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا ممقيد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة فى أيديكم . المسألة عندى قبل كل شىء مسألة قانون . « يحبس المتهمون كلهم احتياطيا أربعة أيام ويجدد لهم ويعمل لهم فيش وتشبيه » اسحبهم يا عسكرى !

فخرجوا جميعاً فى صف طويل وفى ذيلهم رجل يقول هامساً :

— يحبسونا لأن ربنا كسانا !

وهدأ المكان . ولكن رائحة كريهة انتشرت فى الحجرة . فناديت الحاجب وأمرته بفتح النوافذ. ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة . وحانت منى التفاتة إلى مساعدى فوجدته مطرقاً مفكراً . فداخلنى حب استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن . أتراه قد تأثر لشىء . أترى دقة الحس ورقة الشعور التى جاء بهما كما جئنا كلنا فى مبدأ عملنا الحكومى بالريف ما زالت حية أم أنهما فى طريق الموت ... ولكن طرقة عصا شديدة ضربت الباب عرفت فيها ضربة المأمور . ودخل صاحبنا يلهث ويصيح :

— البنت ريم ...

— مالها ؟ !

قلتها رغماً عنى فى لهفة . فاستراح المأمور على كرسى وأنا أنتظر الكلام من فمه بصبر نافد . غير أنه نظر إلى الحاجب بالباب :

— إسقنى وحياة عينيك !

وأخرج منديله الحرير الصناعى من كمه ومسح وجهه ورأسه وأنا على أحر من الجمر . وأخيراً التفت إلى وقال :

— اختفت !

فنظرت إليه مليا :

— تتكلم جد !

— هربت مع الشيخ كاب !

— الشيخ عصفور ؟ !

— نهاره اسود !

— والعمل ؟

— أمرت فرقة الهجانة أن تقوم فى الحال فتقتفى الأثر فى جميع الطرق الزراعية ...

وجلسنا فى صمت . وقد شرد فكر كل منا ...

توفيق الحكيم

من القصص الحديث

رجل بلا روح

للكاتب الانجليزي كانتين رينولد

بقلم الأديب احمد فتحي مرسي

كانت سونيا الحسناء، وبيتر ستونهلم، وذلك الذي يدعونه نيكولي، تتشبح أمامي من لحظة للحظة، وتتمثل في خاطري من حين لآخر وكنت إخال أني أسمعهم يتناقلون الحديث، ويتساجلون القول، وأنا جالس أرهف الأذن لحديث ألفون جنتنر الذي كان يروي قصتهم على كثب مني

ولقد عدت إلى منزلي ظهر ذلك اليوم الذي نال فيه بيتر ستونهلم جائزة نوبل للسلم، وتناقلت اسمه الأفواه، ولهجت بذكره الألسن، وكان الرأي السائد في العالم أنه منجي الانسانيـة، ومنقذ العالم من ويلات الحروب

ومنذ شهور قلائل أعلن ستونهلم على ملأ من العالم أنه وفق إلى اكتشاف علمي جليل، يحمي العالم من الغاز السام على اختلاف أنواعه، وتعدد حالاته؛ ولم يخص بهذا الاكتشاف الجليل دولة من العالم تتدرع به ضد غيرها، وتتحرز به من أعدائها، بل وهبـه للعالم أجمع. وقد أذيع اكتشافه في الآفاق على موجات الأثير من مراكز الاذاعة في لندن بخمسة عشر لسانا. وكان الحديث الدائر على الأفواه أن ستونهلم أكبر محب للانسانية وأعظم معضد للسلام على الرغم من مهاجمة صحف النازي له في ألمانيا، فقد كانت ترى أنه كان من الواجب أن يذكر فضل وطنه عليه، ويخصه بهذا الاكتشاف الجليل.

ولقد دعاني ستونهلم ظهر ذلك اليوم في جملة من الأصدقاء والعلماء فلبيت دعوته وأسرعت إليه



وكان بيتر ستونهلم مديد القامة، أشيب الرأس — على الرغم من أنه لم يوغل بعد في الشيخوخة — أزرق العينين، صافي المقلتين، يبدو فيهما أثر الحزن والتفكير العميق... قال أحد المدعوين:

— إنه يبدو عجيباً حقاً أن ستونهلم الذي افتن في اختراع المهلكات، وتمادى في ابتداع عُدَدَ الموت إبان الحرب، هو عينه ستونهلم الذي ينال اليوم جائزة نوبل كأول خادم للسلام العام. فاطرق ستونهلم لحظة ثم قال:

— هـذا عجيب حقاً... ولكن لا تنس

ياصديقي أن « الديناميت » و « البارود » وغيرهما من المفرقعات كانت من إنتاج قريحة الفريد نوبل نفســه الذى يتقدم اليوم بجائزته إلى محبي السلام العام ... فقال آخر

— وعلى ذكر هذا أقول : لماذا اختار الدكتور ستونهلم لفظ « ســونيافين » اسما لاكتشافه على ما فيــه من غرابة ؟.. فمر ستونهلم بيده على جبهته ثم قال :

— حقاً إنه اسم غريب ولـكنه بقية ذكرى فى نفسى ، وحلم سعيد كان مصيره الزوال ، كباقى الأحلام ... !

— حلم ! هذا عجيب ! أيعنى الدكتور أن هذا الاسم أضغاث أحلام فى ليلة ما ؟

— ليلة ما ! كلا يا صديقى فقد استغرق حلمى عامين ... والآن يا صاحبى دع هذا جانباً فانه يثير فى نفسى ذكريات أليمة

وانتقل الحديث من هذا الاسم الغريب ، ومن ذلك الحلم الذى استغرق عامين إلى نواح متعددة ، وشجون مختلفة ، حتى انفرط عقد الحفل ومضى كل لسبيله

عدت إلى منزلى ، فوجدت البارون الفون جنتنر فى انتظارى ، ولما علم أننى كنت فى ضيافة بيتر ســتونهلم ... سألنى :

— وكيف كان يبدو ستونهلم ؟

فضحكت وقلت :

— على خير حال ياصــديقى ... اللهم إلا عند ماسأله أحــدهم عن سبب اختياره لفظ سونيافين اسما لاكتشافه الجديد ... فقال فى دهشة وعجب :

— يا إلــهى ! أسألوه عن ذلك ؟... كان ينبغى ألا يخوضوا به إلى تلك الذكرى المؤلمة ... إننى على الرغم من كونى أقرب أصــدقائه لا أجرؤ أن أجرى أمامه مثل هذا الحديث

— حقاً إنك أقرب أصدقائه ... وأظنك تعلم عن هذا الرجل ما خفى عنا ؛ فما الذى دعاه بعد أن أورد جيوش العالم موارد التهلـكة ، بما ابتدعه من مهلـكات ، أن يجعلها عليهم اليوم برداً وسلاماً ؟ وما الذى حداه إلى اختيار هذا الاسم العجيب الذى حير الأذهان ؟

— حسن يا صديقى ... سأخبرك بذلك ، وإنها لقصة عجيبة أنت أول من يحظى باستماعها ... أجل سأحدثك الآن عن ستونهلم ، وعن سونيا ، وعن ذلك الرجــل الخالى من الروح الذى يدعونه نيكولى .

فقلت فى دهشة :

— الخالى من الروح ؟ ولـكن لـكل الرجال أرواح يا فون جنتنر

— مهلاً مهلاً ... لا تتسرع يا صديقى

واعتدل البارون فى جلسته ، ثم أخذ يسرد علىّ قصته فقال :

عرفت الدكتور بيتر ستونهلم لأول مرة خلال الحرب الأخيرة ، وكان كوكباً زاهراً فى عالم الاختراع ؛ وقد بدأ حياته بالاشــتغال بالنظريات الرياضية ، ثم تعلق علم الطبيعة ، وشغف بالـكيمياء فـكانت خفاياها وأسرارها كـكتاب مفتوح يتملى منه آراءه ، ويستوحى أفكاره ، وبمرور الزمن وتعاقب الأيام تمكنت بيننا أواصر الصداقة ، وتوثقت عرى المحبة ، وكثيراً ما كان يحدثنى عن مطامعه وآرائه وعن بحوثه الطويلة فى الجهــد والطاقة ، وكثيراً ما ردد على مسمعى قوله :

— إن حرب المستقبل لن تـكون قط حربا بين جيوش ، بل ستـكون الآلات عدتها ، والعلم عدتها . . فأجيب مداعبا

— لن أجاريك فى رأيك هذا ، حتى تخترع

لنا إنسانا يستطيع أن يفكر

— هذا ما أرجو تحقيقه يا فون جنتنر

— وماذا عساك تصنع بهذا الانسان إذا وفقك الله إلى أبراز ما فى مخيلتك ؟

— الحرب يا عزيزى دون شك . . . إن العالم ما زال يعتمد على الانسان فى الحرب على الرغم مما يفقده من الجيوش ، وبرغم ما فى الانسان من غرائز الخوف والهرب . . . إنى آخذ أهبتى للحرب المقبلة وسأملأ بهذا الانسان وأمثاله ساحات الوغى ، وسأزودهم بأشعة الموت عوضاً عن القنابل والبنادق . فقلت ضاحكا :

— إنك سفاك دماء يا بيتر .. أتبغى أن تكتسح العالم وتسحق جيوشه بما تسميه علما واختراعا ؟

— إنى أرى أن العالم لم يتقدم قيد شعرة ، ما دام الانسان يلعب دورا هاما فى الحروب . . . وسأعمل من الآن على تحقيق مأربى فى ضوء تلك النتيجة التى وصل اليها اينشتين سنة ١٨٠٥ « إن المادة يمكن تحويلها الى طاقة ، وإن الطاقة يمكن تحويلها الى مادة » ، وأغلب الظن أن الشمس هى مصدر الطاقة والحركة ، ومبعث النشاط الانسانى ؛ وليس هذا عجيبا فالهنود يعبدونها من قديم . . . ، وربما أدركوا أنها سر تلك الحياة . ومحور تفكيرى الآن الذى أدور حوله هو أن الشمس مبعث الحركة ، وأن أشعتها هى مصدر النشاط الانسانى

وربما انتهت الحرب قبل أن يوفق بيتر فى إبراز فكرته الى العالم ولكنه كان دائب البحث ، دائم العمل ، يصل ليله بنهاره فى دراسة أشعة الشمس . وليس بعسير أن يأتى العالم بأشعة الشمس لفحصها فى معمله ، فقد تمكن نيوتن من اكتشاف جهازه « البكتروسكوب » الذى يمكن الانسان من دراسة الأشعة وفحصها فحصاً دقيقاً كما يفحص الطبيب مكروب الداء تحت منظاره

وسافر ستونهلم فجأة الى باريس لمواصلة دراسته مع العالم الفرنسى « جورج رابيه ليمتر » ثم عاد بعد سنتين وملء برديه الزهو بشيئين أولهما : الانسان الذى اخترعه ، وثانيهما : زوجته الحسناء الروسية سونيا ، قال :

— وستعجب بها يا فون جنتنر . . لقد قابلتها فى باريس ... إنها إحدى نبيلات الروسيا اللواتى هاجرن إبان الثورة ، وضحك ثم قال :

— ولذلك ستراها الليلة ناقمة على الثورة والفلاحين . . . وسترى أيضاً آلتى التى ستعجب بها كثيرا

وأصدقك القول أنى رأيت تلك الليلة ما عجبت منه كل العجب : رأيت ذلك الانسان الذى تحركه الأشعة بدل الكهرباء ، ورأيت سونيا ستونهلم وكانت سمراء الوجه رشيقة القوام ، تجمع الى جمال وجهها رقة فى الحديث ، وظرفاً فى القول

وقد طرقنا فى الحديث شعابا شتى وشجونا عديدة إلى أنْ مال بنا الى الكلام عن الروسيا وثورتها فالتمعت عينا سونيا وقالت دون ريث ولا روية

— هؤلاء الفلاحون . . لعنة الله عليهم ... لقد هدموا فى أمسية ثائرة من الصروح المشيدة والبروج المردة ما بناه أسلافنا فى دهور طويلة .. لقد قتلوا أبى .. وما نجوت من براثنهم إلا بشق النفس ... ويمكنك أن تفهم الآن لماذا لا يأخذنى العُجْب والزهو بأنى روسية .. ولماذا ترانى دائما ناقمة ساخطة على هؤلاء الفلاحين ... لقد كانت لنا أراض واسعة ، وسهول مديدة ، وكنا نملك الألوف المؤلفة من هؤلاء الفلاحين ، فصفرت راحتنا ، وخلا وطابنا

وقد استرعى خاطرى قولها : « كنا نملك

الفلاحين » إذن فسونيا من هذا النوع الذي علك الرجال ؛ ولا شك أنها تحس الآن من أعماقها أنها تملك بيتر ستونهلم ، فلن يصبح بيتر ستونهلم من الآن مِلْكا للعلم كما كان من قبل

وحادت سونيا بمجرى الحديث عن الروسيا فقالت :

— لقد حدثنى بيتر عنك كثيراً ياڤون جنتز ، وأخبرنى أنك قلت له إنك لن توافقه فى آرائه حتى يخترع إنسانا يفكر .

— هذا حق ... إن كان بيتر قد صنع مثل هذا الانسان فستصبح الدنيا تحت قدميه ... فضحك بيتر قائلاً :

— إننا لم ننته بعد ياڤون جنتز ... ولكن انهض بنا لنرى ما تم .

وكان المعمل فى الجناح الخلفى من المنزل ، فسرنا بصحبة بيتر فى ممر ضيق ، يبعث الرهبة فى النفس ، ويرسل القلق إلى القلب ، حتى بلغنا باباً أثقلته الحدائد ، وناء بما حمله من الرُتُج . . فقلت ضاحكا :

— ما هذا ؟ ... أتخشى أن يسلبك اللصوص صاحبك يا بيتر

كلا ياصديق ... بل أخشى أن عِلَّ ضيافتنا فيهجرنا .

* * *

وعالج بيتر الباب حتى فتحه فولجنا الغرفة ، وكان الظلام يجلل أركانها ، ويغشى جنباتها ، فضغط بيتر أحد الأزرار الكهربائية ، فغمر الغرفة نور زاهٍ ساطع يعشى العيون ، ويبهر الأبصار ، ولكنه لم يُثرْ من عجبى ، قدر ما أثار ذلك الجالس على المقعد فى وسط الغرفة . وما إن لمحه ناظرى ، حتى هب واقفاً فى رَيث وتؤدة ، كما يقوم الانسان العادى ، ثم أحنى هامته الحديدية معلناً تحيته فى اتداع وخشوع ، ثم امتدت يد بيتر إلى زر آخر ففاض فى الغرفة نور أزرق قاتم يقبض النفس فهاضت قوى ذلك الواقف أمامنا ، واسترخت مفاصله ، وجلس فى مقعده كما يجلس ابن السبعين وهو ينوء تحت أعباء السنين .



ومضيت أتفرس وجه ذلك الانسان ، وأنا مشتت النفس مشرد اللب إلى أن جذبنى بيتر من يدى قائلاً :

— أرأيت كيف يحسن إنسانى تكاليف الحياة ونظم المجتمع ... إنه يتحرك بالأشعة كما رأيت ، وهذه الأشعة هى المؤثر الخارجى الذى يدفعه إلى التفكير كما تدفع الانسان مؤثراته الخارجية من جوع وخوف وفرح وغيرها . . ولقد أسميته « نيكولى » ولما رأيت فيه بعض مشابه من الفلاحين الروس ابتعت له هذه الملابس الروسية ... إنه الآن يفكر بعقل الفلاح الروسى ، على الرغم من أن تفكيره لم يزل فى مرحلة البداءة » ، وأطرق بيتر قليلاً ثم استطرد فى شرحه :

— ولقد زوَّدته بمركز عصبى يقابل المخ فى

الانسان العادى ، فان مخ الانسان يقوم فى الجسم بمثابة مركز رئيسى تعاونه أعصاب مصدرة وأعصاب موردة ، فمثلاً إذا قربت يدك من مدفأة ساخنة حملت الأعصاب الموردة إلى المخ : أن ارفع يدك ، فيصدر المخ أمره عن طريق الأعصاب المصدرة إلى اليد برفعها ، فترفع يدك دون أن تحس بهذه الدورة العصبية .

فالشعاع الأبيض الساطع يؤثر فى مركز نيكولى العصبى فيجعله يقوم ويحيى ، والشعاع الأزرق يؤثر فيه تأثيراً مخالفاً فيجعله ينحنى ويجلس... وكما أن هناك مواد تجذب الحديد ، فهناك أيضاً مواد تؤثر فى الأشعة وتجذبها ، ومنها صنعت مركز نيكولى العصبى . واستطرد بيتر قائلاً :

— وسيكون نيكولى وأمثاله من الملايين عمدة الحرب المقبلة ، فلن يقف فى طريقهم إنسان ، ولن يفت فى عضدهم قتال ، أو يفل من غربهم سيف .

— وتسابقت إلى خاطرى صور عدة ، وتزاحمت فى مخيلتى مشاهد كثيرة عن ذلك الرجل وأمثاله ، وهم يدخلون إلى المدن ، وقد سقطت تحت ربقتهم ، ووقعت فى قبضتهم ، فأخذوا يحطمون ما صادف طريقهم من عوائق ، ويصرعون ما اعترض سبيلهم من جيوش ... فقلت :

— هذا حسن ، ولكن ماذا جنت عليك تلك الأرواح البريئة التى تزهقها بما كشفه علمك ، وأنتجته قريحتك ... فرفع بيتر كتفيه قائلا :

— وما قيمة الأرواح يا صديقى إذا هى وقفت فى سبيل العلم ؟

* * *

ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تترسم خطى الشهور ، إلى أن كان يوم قابلنى فيه بيتر مشرق الوجه ، منبسط الأسارير ، ودعانى لمشاهدة ما جد من أمر نيكولى ، وكانت تملأ عينيه المخيلة والعجب ، ويتملكه زهو الأبوة المنجبة بالولد الذكى النجيب .

وكانت شمس الطفل لا تزال تلقى على الكون وميضاً من شعاعها عند ما ولجنا غرفة نيكولى ففتح بيتر النافذة قائلا :

— لو اعتمدنا فقط على أشعة الشمس لنبعث الحياة فى أوصال « نيكولى » لرأيناه يموت فى الليل ويبعث فى النهار ، ولكنى رأيت استدامة لنشاطه ، وبقياً على حياته ، أن ألجأ إلى توليد أشعة الشمس فى المعمل ... ولكن انظر ...» وأشار الى نيكولى

وكانت أشعة الشفق الحمراء قد بدأت تغمر الغرفة ، وتفيض فى أرجائها ، فرأينا نيكولى يقوم فى تؤدة حتى يستقيم ، ثم يرفع ذراعه اليمنى حتى توازى كتفه ، ثم يستدير على عقبيه حتى يواجه الشمس الغاربة . فقال بيتر هامساً :

— « أرأيت...» ، ثم استطرد قائلا... « الآن عند ما تهبط الشمس الغاربة عن الأفق ... وتغيب على مدى ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . وينقطع شعاعها عن نيكولى تهمد حياته وتخمد حركته .

وكان الليل قد أخذ ينشر سجوفه الفاحمة ويرخى مسوحه المظلمة على الكون ، فأنزل نيكولى ذراعه ، وعاد الى مقعده ، ثم جلس فى صمت وحزن ... فقال بيتر :

— إننى لم أحاول بعد تعليل هذه الظاهرة العجيبة ... لماذا يرفع « نيكولى » ذراعه ويواجه الشمس الغاربة فى خشوع وخضوع...» فالتمعت عينا سونيا . ثم قالت فى صوت مضطرب :

— هذه عادة الفلاحين فى روسيا ، فعند ما ترسل الشمس الغاربة نظرتها الأخيرة الى الكون ، يولون وجوههم شطرها رافعين الأذرعة ،

مبتهلين الى الله ... ونيكولى فلاح روسى ؛ فلا غرو أن يقفو أثر قومه ...

وكان وجهها شاحباً ، وعيناها ذابلتين يبدو فيهما ما يسيطر على نفسها من الرهبة ، وما يرمض قلبها من الألم » ورأى بيتر ذلك فقال مرفهاً عنها :

— سَرِّى عنك يا عزيزتى ... إنك لست روسية بعد ... وأما هذا الانسان فما هو إلا آلة صماء خرساء ... فقالت متوسلة :

— ألا تنضو عنه هذه الثياب يا بيتر ... إنه يبدو فيها كالفلاحين الذين كنا نملكهم يوماً ما .

فضحك بيتر ولكنه لم يخلع عنه الثياب .

وأظن أن تلك الأمسيّة كانت بدء كراهية سونيا لنيكولى وسخطها عليه ... لقد كانت تعتقد أنها تملك بيتر وحدها دون شريك ، ولكنها اليوم ترى لها شريكا أشدّ ، وخصما ألدّ ، يفرقُ بينهما ، ويحول دونهما .

***

ومضت بضعة أسابيع لم أر فى خلالها بيتر الى أن قصدت ذات يوم لزيارته ، فوجدت سونيا وحيدة فى المنزل ، وكانت تبدو كالزهرة الذابلة ، فلا نضرة فى القسمات ، ولا وضاءة فى الوجه ، ولا بريق فى العينين ، وجلسنا نتحدث عن العلم وعن بيتر الى أن قلت :

— وماذا جد من أمر نيكولى ؟ أتراه فى طريق التقدم ؟

— نيكولى ؟ . . . لا تجر أمامى ذكر ذلك الاسم ... لقد أصبحت أبغضه من كل قلبى ... ألا تعلم أن بيتر يقضى معه آناء الليل وأطراف النهار دون أن يخرج من غرفته و ... فقاطعتها قائلا :

— ولكنه قريباً مايتمه وينال به المجد والشهرة .

وقالت مرددة :

— المجد والشهرة ؟ ... تلك أحلام يا صديقى ... لن ينال المجد والشهرة سوى نيكولى ... أما نحن فسنصبح فى زوايا النسيان بعد أن أنفقنا فى خلقه ميعة صبانا ، وأخلقنا جِدّة شبابنا ، حتى أصبحنا نخطو إلى الهزال والسقام ، كما يخطو إلى الكمال والتمام »

وأطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها كمن خطر له خاطر ثم قالت فى سرعة :

— فون جنتنر ... إن نيكولى أسير فى غرفته ، وأرى أنه لا بد محطم ذلك الباب ومحطمنا أيضاً إذا تقدم به العلم قليلاً :

— ولكن كيف يحطم سادته وأولياء نعمته ؟

— كما حطم الفلاحون الروس سادتهم وأولياء نعمتهم



وهنا أدركت أن سونيا ورثت عن أسلافها من النبلاء ذلك الكره المتأصل فى نفوسهم للفلاحين ، وأنه قد دخل فى روعها أن نيكولى فلاح روسى ... فنهضت قائلاً :

— ســونيا ... هيا بنا إلى غرفة نيكولى ... سأريكِ أنه ليس إلا آلة بسيطة يمكن الطفـل أن يحركها ... هيا ...

— اقنعنى بذلك يا ڤون جنتنر . . . اجعلنى أعتقد ذلك ... اجعلنى أعتقد أن نيكولى ليس إنساناً

وأخذت بيدها الى المعمل ، وكان نيكولى جالساً كعادته فى ملابسه الروسية ، وكان يبدو عليه أنه أقرب الى الانسانيـة من ذى قبل ، ونظرت فاذا سونيا ترمقه من خوف . فقلت لها وأنا أشير إليه :

— بضع مئات من الأرطال الحديدية ! هـذا كل ما فى الآلة

— هـذا كل ما فى الآلة ! كلا يا ســيدى . . .

وأسرعت إلى النافذة ففتحتها ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب ففاضت فى الغرفة أشعة الشفق فقام نيكولى كعادته ، مولياً وجهه شطر النافذة رافعاً ذراعه اليمنى ... فقلت

— هذا عمل آلىّ محض . . ! ثم استطردت ضاحكاً :

— سونيا أتخشين رجلاً خالياً من الروح ... خالياً من الشعور

وارتفع فى تلك اللحظة صوت من أقصى الغرفة متزن الجرْس متسق النبرات ، وقد عرفت فيـه صوت بيتر يقول :

— ومن هو ذلك الرجل الخالى من الروح ؟

فأسرعت إليه قائلاً :

— بيتر ... إن سونيا لا يمكنها أن تصبر أكثر من ذلك ... إنها تعتقد أن نيكولى يقف حجر عثرة بينكما ، أخبرها أنه ليس إلا لُعبة يتسلى بها عقلك ، وآلة تتلهى بهـا يداك ... فمر بيتر بيده على جبهته ثم تقدم لسونيا قائلاً :

— سونيا ... إننى لست لأحـد سواك ، وما صنعت تلك الآلة الا لأخلد اسمك بجوار اسمى ، والا لأجعلك مزهوة بأعمالى ؛ وإن لفظة منك لتجعلنى أحطمه تحطيما »

وأشرق وجه سونيا ، وبان الرضا فى عينيها ، وبدت كمن ألقى عن نفسه عبئاً ثقيلاً آده وبهره . . . وتحولت فجأة إلى نيكولى حتى لمست صدره ، وكان لا يزال رافعاً ذراعه ، فصاحت به :

— ما الذى يجعلنى أخافك أيها الانسان الآلى ؟ إنك فلاح ونحن النبلاء لا نخشى الفلاحين . إنك خادم لنا ولُعبة فى كفنا .... إننى لا أخافك ولا أرهبك فأنت عاجز عن أن تمسَّنى بسوء ...

وفى طرفة عين ، ودون إنذار أو تحذير سقطت تلك الذراع الحديدية الثقيلة على رأس سونيا ، كما يسقط الحجر على بيضة الطائر فيهشمها تهشيما

* * *

ووقف كل منا فى مكانه مشدوهاً من هول الحادث ، ومضت برهة قبل أن نجمع أشتات عقلينا وعلق بصرى نيكولى ، فرأيته يجلس فى هدأة وسكينة ... وصمد فى رأسى ذلك السؤال فجأة . « لماذا أسقط نيكولى ذراعه فى تلك اللحظة ؟ » وفجأة تذكرت أن الشمس قد هبطت عن الأفق ، وغابت على مدى ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، وأن الظلام عاد يُرخى سدوله وينشر مطارفه السود على الآفاق

ونظرت الى بيتر وكان وجهه الشاحب كوجوه الموتى ، جامداً لا يتحرك ، شاخصاً لا يطرف . واستدار على عقبيه فجأة دون أن ينبس ببنت شفة ، وخرج من الغرفة ثم عاد بعد قليل وبين يديه قضيب ثقيل انهال به على نيكولى فحطم رأسه ، وهشم أوصاله حتى ملأت أرض الغرفة .

وكانت سونيا تسبح فى بركة من الدماء ، فتقدمت الى جثتها ونقلتها الى غرفة أخرى ثم عدت الى بيتر وكان مستغرقاً فى ذهوله ، وما رآنى حتى قال دون أن يعى ما يقول :

-- ڤون جنتنر ... أ كان نيكولى آلة حقاً ... أم كان إنساناً يعقل ما يفعل ؟ أترانى خلقت فلاحا روسياً يحقد على النبلاء وتفيض نفسه بالانتقام ؟

— هذا توهم يا صديقى ... إنك لم تبتدع إلا آلة كان موت سونيا خطأ منها .

فنظر إلى بوجهه الساهم الحزين ثم قال :

— ڤون جنتنر ... إنى لم أقدر قبل الآن تلك الصلة الروحية التى تربط الناس ببعضهم ... وأظنك تعلم مبلغ حبى لسونيا ، والآن وقد قضت نحبها فانى أحس أنى قضيت معها نحبى ...

لقد أزهقت آلاتى إبان الحرب من الأرواح البريئة ما يعجز عن حصره البيان ... وكل روح من تلك الأرواح ... لا بد أن كان هناك من يألم لها ألمى الآن على سونيا

وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً فى حزن :

— لقد كان العلم فى يدى أداة لأهلاك العالم وتدمير الأرض ، فلم لا أجعله أداة لأسعاد العالم وخدمة الانسان ؟

— يمكنك أن تعمل على ذلك يا بيتر ... ولقد وهبك الله قريحة هى خير من يخدم العالم إن شاءت ، فأجاب فى ألم :

— حقاً ... حقاً ... سأعمل على ذلك يا ڤون جنتنر ، سأصلح ما قدمت يداى ، سآسو جراح العالم ، وأدرأ عنه ويل الحرب ...

* * *

واستقام الفون جنتنر واقفاً ، وسار إلى الشرفة فى خطوات متزنة ، وكانت الشمس قد هبطت عن الأفق ، وغابت على مدى ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وبدأ الليل ينشر ذوائبه الفاحمة ويرخى نقابه الأسود على الأفق ، فاستدار الفون جنتنر إلىّ قائلاً :

— لقد كنت تريد أن تعرف لماذا يؤثر ستونهلم الآن خدمة السلام العام . . ولماذا اختار اسم سونيافين اسما لغازه الجديد ...

— « حسن ... لقد أخبرتك »

أحمد فتحى مرسى

المستر بكوك ورفاقه

للقصصى الانجليزى شارلز ديكنز

(تابع ما نشر فى العدد الماضى)

واتجه الرجل على حين غفلة إلى مستر توعمان قائلا : « فتاة جميلة أيها السيد » ، وكان مستر توعمان يصوب نظراته فى مظهر لا يتفق ومبادئ تلك الجماعة ، جماعة بكوك ، إلى غادة فى الطريق .

وأجاب توعمان بقوله : « جداً »

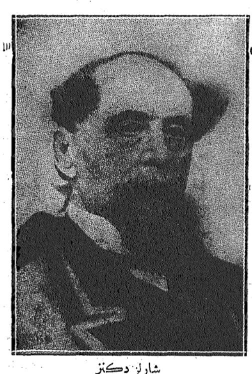
— ليست فتياتنا من الجمال كفتيات أسبانيا مخلوقات نبيلة .. شعر أشقر ... عيون دعج ... قدود رشيقة ... مخلوقات حلوة ... جميلة

وتساءل مستر توعمان : « هل زرت أسبانيا أيها السيد ؟ »

وأجابه ذلك الشخص قائلا : « قضيت هنالك عصوراً »

فسأله مستر توعمان : « هل ثمة من انتصارات أيها السيد » ؟

— انتصارات ! آلاف ... دون بولارد فزجيبيج .... جراندى .... بنته الوحيدة ... دونا كرستينا ... مخلوقة جميلة ... تحبنى حب الجنون ... أب حقود . ابنة عزيزة النفس ورجل انجليزى وجيه ... دونا كرستينا فى يأس ... سم . مضخة صغيرة للمعدة فى حقيبتى ... عملية ناجحة ... بولارو العجوز فى سرور غالب ... يوافق على زواجنا ... أيد مشتبكة وفيض من الدمع ... قصة مؤثرة ... جداً »



شارلز دكنز

وكانت صفات تلك الفتاة ومفاتنها قد تركت أثراً عميقاً فى نفس مستر توعمان فسأل الرجل : « هل السيدة فى انجلترا الآن أيها السيد » ؟

— « لقد ماتت أيها السيد ... ماتت »

وعندئذ وضع الرجل على عينه خرقة صغيرة قذرة كانت بقايا منديل قديم وأتم كلامه قائلا : « لم تشعر بتهدم هيكلها ... وذهبت فريسة »

وسأل سندجراس ذو النفس الشاعرة : « وماذا كان من أمر والدها ؟ »

— « حزن وشقاء ... اختفى فجأة ... حديث

المدينة كلها ... بحث فى كل جهة ... لا طائل ... يقف انفجار المـاء بغتة من النافورة فى الساحة الـكبرى ... أسابيع تتصرم .... الماء لا ينبعث عمال لتطهيرها ... نزح المـاء الراكد ... وجه حمارى رأسه إلى أسـفل فى فوهة النافورة ... أخرجوه ... تلعب المياه متدفقة من النافورة كما لم يكن هناك شىء »

ولقد بلغ التأثر بمستر سند جراس مبلغاً عظيما فقال : « هل تسمح لى أيها السيد أن أثبت فى دفترى تلك المأساة الصغيرة ؟ »

— « اسمح لك لا ريب أيها السيد ... خمسون غيرها إن شئت أن تسمع ... حياة غريبة . تاريخ عجيب ليس تاريخاً فذاً ... ولـكنه وحيد فى بابه »

وظل الرجل يقص من تاريخه عليهم وهو يتناول بين الفينة والفينة كأساً من الخمر ، حتى بلغت العربة قنطرة روشستر ، عنـدئذ كانت صفحات كل من مستر بكوك ومستر سند جراس قد امتلأت بما اختاره من مخاطراته

ولاحت لأعين السفر قلعة قديمة ، فصاح مستر سند جراس بكل ما وسعه من حماسة شعرية اتصف بها « يالها من أطلال فاخرة ! »

ورفع مستر بكوك منظاره المقرب إلى عينيه فانطلق لسانه قائلا : « ما أعظمها موضع دراسة لمن يعنى بالآثار ! »

وقال الرجـل : « آه ... مكان جميل ... قلعة فاخرة ... حوائط عابسة ... أقواس متداعية ... برج ... متهدم وهناك كنيسة قديمة أيضاً ... برت سلمها أقدام الحجيج ... » وهكذا ظل الرجـل يهذى بمثل تلك العبارات حتى بلغت العربة فندق « بول » فنزلوا ؛ وهناك سأل مستر ونكل ذلك الرجل هل يبقى فى الفندق ؟ وأجاب الرجل بأنه لا يعتزم البقاء . ثم اتجه مستر ونـكل إلى مستر بكوك وتمتم ببعض كلمات ، ثم سرت همسة من فم مستر بكوك إلى اذن مستر سندجراس ، ثم من مستر سندجراس إلى مستر توبمان ، وأخيراً اهتزت الرؤوس كلها بإيماءة موافقة ، فخاطب مستر بكوك ذلك الغريب بقوله :

« لقد أوليتنا اليوم صنيعاً جميلا أيها السيد ، فهل تسمح لنا أن نتقدم بدليل بسيط على ما نكنه لك من شكران ؟ إنا نرجو منك أن تشرف مائدتنا اليوم »

« مع فائق السرور ... ولتكن دجاجة ومرق ومايقدم معها ... على أنى لا أقترح ... ومتى يكون ذلك ... ؟

وأجاب مستر بكوك : نحن الآن قبيل الساعة الثالثة ، فهل يلائمك أن يكون الأكل عنـد الخامسة ؟ .

... يلائمنى ذلك تماماً ... عند تمام الخامسة ... وإذن فلتمنوا بأنفسكم حتى ذلك الوقت ... وانطلق الرجل بعد أن رفع قبعته قليلاً عن رأسه وأعادها فى فتور ؛ وكانت تبرز إلى النصـف من جيب سراويله تلك الحزمة الملفوفة بالورق البنى اللون ، وكان سريع الخطو خفيف المشية ، ورأوه ينعطف فى الشارع المجاور

واتجه مستر بكوك الى رفاقه قائلا : « يظهر فى جلاء أنه رجل كثير الأسفار والتجوال فى الممالك ، وأنه دقيق الملاحظة وثيق الخبرة بطبائع الناس والأشياء

وأجاب مستر سندجراس : « كم يشوقنى أن أرى ملحمته ! »

وقال مستر ونـكل : « وأنا كم أود لو أنى رأيت ذلك الـكلب »

ولم يقل مستر توعمان شيئاً ، ولـكنه كان يفكر فى دونا كرستينا وفى النافورة ، ومن ثم فقد امتلأت عيناه بالدموع

وبعد أن احتجز هؤلاء غرفة جلوس لهم ، وخبروا غرف نومهم ، وأمروا باعداد ما رغبوا من طعام ، خرجوا من الفندق يلقون نظرة على المدينة وما يجاورها

وإنا لا نجد فيما أثبت مستر بكوك فى دفتره عن المدينة وما حولها ، ما يشعر بأن ما تركه منظرها من أثر فى نفســه يختلف فى شىء عما كتبه غيره ممن زاروا تلك الجهــة ، ومن السهل أن نوجز وصفه فيما يلى :

« يتبين لى أن أهم ما تنتجه هذه المدينة وجاراتها ، هو الجند والبحارة واليهود والطباشير والجبرى والضباط وعمال الموانى ، وأن ما يعرض عادة للبيع فى شوارعها العامة لا يعدو الواردات البحرية والتفاح والسمك الطرى والجنـدلى . وتقع الأعين فى تلك الشوارع على مظهر بهيج حى ، يكون مبعثه فى الغالب مرح الجنـد وزياطهم إذ يتجمعون . ولعمرى أن مما يبهـج نفس كل امرىء سخى اليد يحب معاشرة الأصدقاء ، أن يرى هؤلاء الرجال الغطاريف يموج بعضهم فى بعض ، بفعل ذلك الفيض الحماسى ، ترسله حمية الأجسام والأرواح ؛ ويتجلى ذلك على الأخص ، إذا ذكرنا ، أن السير فى إثر هؤلاء ومشاركتهم فى مزاحهم ، يهىء متعة رخيصة بريئة للعامة ، فليس هناك من مظاهر الانبساط ما يفوق انبساط نفوسهم ورقتها . حدث قبل مجيئى بيوم أن أهين أحدهم إهانة بالغة فى حانة عامة ، فلقد أبت ساقية الخمر أن تعطيه من خمرها زيادة على ما أخذ ؛ فـكان جوابه على ذلك أن استل خنجره ، وجرح الفتاة فى كتفها ، وهو ما فعل ذلك إلا على سبيل المداعبة فحسب . ومع ذلك فقد كان هذا الفتى الظريف أول من حضر إلى الحانة فى الصباح التالى ، حيث أعرب عن استعداده لتناسي الحادث كأن لم يكن هناك شىء »

واستمر مستر بكوك يصـف المدينة قائلاً : ويخيل إلى أن التبغ يستهلك فى هذه المدينة بكثرة هائلة ، وأن تلك الرائحة التى تملأ شوارعها ليستسيغها ويستمرئها أولئك الذين اشتد ولوعهم بالتدخين . ولقد يأخذ السائح الغرير على المدينة وضواحيها ما يراه من قذارتهـا ، تلك القذارة التى تعد أظهر صفاتها ؛ بيد أن هؤلاء الذين يرون فى تلك القـذارة علامة الحركة ودليل النجاح التجارى ، يرتاحون ، لا ريب ، إلى ذلك المظهر »

وحضر ذلك الغريب عند الساعة الخامسة وهو الموعد الذى حددوه . وما هى إلا برهة حتى أحضر الطعام . ولم تك مع الرجل تلك الحزمة الملفوفة فى الورق البنى ، ولـكنه لم يغير شيئاً من هندامه ، بيد أنه عاد أكثر ثرثرة ، إن كان هذا ممكناً

فلما رفع الغـلام غطاء أحد الأطباق تساءل الرجل : « ما هذا ؟ »

وأجابه الغلام : « هذا سمك طرى يا سيدى »

— « سمك طرى . آه ... سمك عظيم ... يرد كله من لندن ... أصحاب عربات الرحيل يأتون بولائم سياسـية ... عربات نقل ملأى بالسمك الطرى ... عدد من السلات ... قوم ماكرون . كأس من الخمر يا سيدى »

وأجاب مستر بكوك قائلاً : « بكل سرور »

وشرب الرجـل من تلك الخمر أولاً مع مستر بكوك ، ثم مع مستر سند جراس ، ثم مع مستر

توعان ، ثم مع مستر دنكل ، وأخيراً مع الرفاق مجتمعين ، كل ذلك فى مثل ما يتكلم من سرعة ! »

وراح يسأل خادم الفندق قائلا : « جلبة شديدة على السلم ياغلام ... مقاعد صاعدة الى أعلى ، نجارون يهبطون الى أسفل ... مصابيح ... كؤوس ... قيثارات ... فيم كل هذا ... ؟ »

— « للرقص يا سيدى »

— « اجتماع ؟ »

— « كلا ياسيدى ، ليس هو اجتماعا ياسيدى ، هو حفل من أجل عمل من أعمال البر يا سيدى »

وسأل مستر توعان ذلك الغريب فى شوق : « أيوجد كثير من الغانيات فى هذه المدينة ؟ هل لك علم بذلك أيها السيد ؟ »

— شىء فاخر ... مركز رئيسى . كنت أيها السيد ... كل امرئ يعرف كنت .. تفاح .. برقوق ... خمر ... نساء ... كأس من الخمر يا سيدى . »

وأجابه مستر توعان بقوله : « مع عظيم السرور يا سيدى » ثم ملأ الرجل كأسه وأفرغها

ثم استأنف مستر توعان حديث الرقص قائلا : « كم أتمنى لو أتيح لى الذهاب الى ذلك المكان ! كم أتمنى ! »

وتدخل الغلام بقوله : « تباع التذاكر فى الحانة أيها السيد ، وثمن الواحدة نصف جنيه »

وأعرب مستر توعان ثانية عن رغبته الشديدة فى مشاهدة ذلك الحفل ، ولكنه لما لم يجد أى رد فى عينى مستر سندجراس ، ولا فى حملقة مستر بكوك الفارغة ، أكب فى لذة عظيمة على الشراب والحلوى وقد وضعا إذ ذاك على المائدة . وانسحب الغلام تاركا الجماعة يستمتعون براحة تينك الساعتين اللتين تعقبان الغداء

وقال الرجل الغريب : « عفوا ومعذرة أيها السيد ... بقيت زجاجة ... أدرها ... وجهة الشمس ... أديروا الكؤوس واشربوها حتى الثمالة » ثم أفرغ كأسه وكان قد ملأها منذ دقيقتين ، وعاد فملأه فى هيئة من اعتاد ذلك الفعل

وأديرت كؤوس الراح وطابت مقادير جديدة ، وأخذ الغريب يتحدث وجماعة بكوك ينصتون . وكانت الرغبة فى رؤية الحفلة تلح على مستر توعان بين لحظة وأخرى ؛ وأشرب وجه مستر بكوك بتلك الصبغة ، وشاعت فيه تلك الحرارة التى يبعثها الاحساس العميق بالأخاء ومحبة الرفاق ، وأخذ النعاس كلا من مستر دنكل ومستر سندجراس فناما ملء جفونهما

وقال الغريب : « بدأ الحفل فى الطابق العلوى . اسمع أصوات الجمع ... تختبر القيثارات ... ثم العود ... لقد بدأوا ... » ولقد دلت الأصوات المختلفة التى وصلت الى أسفل البناء أن هؤلاء الراقصين قد بدأوا الشوط الأول

وعاد مستر توعان يقول : « كم أتمنى أن أشهد الحفل ! »

وعاد الغريب قائلا : « وأنا أيضاً كم أتمنى ذلك . لعن الله ذلك المتاع الثقيل . . . كتلة ضخمة . . . ليس لدى من الملابس ما أرتديه لأذهب الى اللهو .. موقف نكد . . . أليس كذلك ؟ »

وكان الاحسان والخير العام فى مقدمة المظاهر الرئيسية فى مبدأ جماعة بكوك ؛ ولم يكن ثمة فيهم من هو أشد ظهوراً فى إخلاصه لهذا المبدأ من مستر

ترامى توبمان . وإنك لتجد فيما أثبت فى سجل الجماعة من مواقف ذلك الرجل الفـذ ما لا يسهل تصديقه ؛ وفى تلك المواقف ترى هذا الرجل يغدق مبراته على بقية الأعضاء ويعد إليهم يد المساعدة

وقال مستر توبمان لذلك الغريب : « إنه لما يسـرني أن أعطيك من ملابسي ما بفي بغرضك ، ولـكنك تبدو نحيفاً على حين أنى ... »

— « إنك بدن ... باخوس إلـه الخمر الشاب ازداد بدانة ... قطع أردانه ... ترجـل من فوق برميل ... يرتدى سترة ضيقة من الصوف تلتصق بجسمه ... ها ... ها ... أدر كؤوس الراح »

وليت شعرى هل امتعض مستر توبمان بعض الامتعاض لتلك اللهجة التى طلب بها إليـه ذلك الرجل أن يدير الخمر التى ما لبث أن عبها ، أم أنه وقد رأى عضواً من أعضاء جمـاعة بكوك يُشبَّـه بباخوس المترجل ، قد أحس فى ذلك تشهيراً به وتعريضاً شنيعاً ؟ ذلك أمر لم يتبين بعـد . ناول الغريب الخمر وتكلف السعال مرتين ، ووجه إلى الرجل نظرات صارمة حادة استمرت عدة ثوان ، ولـكنه لما رأى من ثبات ذلك الرجل وهدوئه ما رأى على الرغم من تلك النظرات لم ير بداً من أن يستردها شيئاً فشيئاً وأن يعود به إلى حديث الرقص فقال :

«أردت ياسيدى أن أقول إنه إذا كانت ملابسى لا تلائمك لشـدة وسعتها ، فان ملابس صديقى مستر ونكل ربمـا كانت مناسبة » .

وقاس الرجل بعينه ملابس مستر ونكل وانبسطت أسارير وجهه وهو يقول : « إنها عين ما أريد »

وتلفت مستر توبمـان حوله ، فرأى أن الخمر التى ساقت صديقيه مستر سنددجراس ومستر ونكل إلى النعاس ، قد أخذت تدب الى حواس مستر بكوك . وكان هـــذا السيد ، قد تقلب فى تلك الدرجات التى تسبق عادة الخمود الذى يتلو الأكل وما يلحق به . أخذ يهبط من قمة الانتشاء الى أعماق البؤس ، ويصعد من أعماق البؤس الى قمة الانتشاء ، فـكان بذلك كمصباح الغاز فى الشارع . لم تكد تهب الريح على فوهته حتى كان كالمصباح ، انبعث منه أول الأمر وهج شديد اللمعان ، ثم ما لبث أن خفت حتى لتحسبه قد انطفأ ، وما هى إلا برهة حتى انبثق نوره ثانية ليلتمع لحظة ثم عاد فارتعش ذلك النور واضطرب حتى انطفأ فى النهاية . ومال رأسه فاستند الى صدره . ولم يك ثمة شىء ممـا تستدل به الآذان على وجود ذلك الرجل العظيم ، سوى ذلك الشخير المتتابع ، تقطعه بين آونة وأخرى حشرجة طفيفة .

وكانت قد اشتدت فى تلك الآونة رغبـة مستر توبمان فى أن يشهد بهو الرقص ويرى لأول مرة مقدار ما يتركه جمـال غادات كنت من أثر فى نفسه . كذلك اشتدت رغبته فى أن يصطحب معه ذلك الغريب ، فهو لم يسبق له علم بتلك الجهات ولا بسا كنيها . على حين يخيل إليه أن ذلك الغريب يعرفها كأنه عاش فيها منذ نعومة أظفاره .

وكان مستر ونكل يغط فى نومه ، وكان صديقه مستر توبمان يعرف معرفة خبرة ووثوق مما شاهده من أمر صاحبه فى مثل تلك الأحوال أنه إذا استيقظ من نوم كهذا ، فما يكون ذلك حتى فى الأحوال العادية إلا لـكى يلقى بنفسه على سريره . وصاح ذلك الغريب الذى لم يعرف التعب برفيقـه قائلا : « إملأ كأسك وأدر الخمر » .

وفعل مستر توبمان ما طلب إليه . وكانت تلك

الـكأس الأخيرة كأنها حافز جمله يعقد النية على تنفيذ ما اعتزم . ثم اتجه الى صاحبه قائلا : —

« تقع الحجرة التى سينام فيها مستر ونـكل داخل حجرتى ، وأنا لا أستطيع إذا أيقظته الآن أن أفهمه ماذا أريد منه ؛ ولـكنى أعرف أن عنده حلة كاملة فى حقيبته ، فاذا فرضنا أنك ارتديتها وذهبت بها الى البهو ، ثم خلعتها بعد عودتنا ، فانى أستطيع أن أضعها فى مكانها دون أن أزعجه الآن أو أقلقه »

« فكرة صائبة ... حيـلة فائقة ... موقف نكد لعين ... أربع عشرة حلة فى ذلك المتاع الثقيل وأرانى مضطراً أن ألبس ثياب رجل آخر ! .. فكرة حسنة جداً ، تلك الفكرة ... جداً »

وقال مستر توبمان : « يجب أن نشترى تذاكرنا »

— « أمر لا يحتاج أن نقسم الجنيه قسمين ... دعنا نقترع من يدفع للاثنين ... ألق الجنيه على المائدة ... لفه كما تلف المغزل بأصابعك ... أنا أقول إنك ستجد الوجه الذى رسمت عليه المرأة ... المرأة ... المرأة ... المرأة الساحرة »

وألقى الجنيه على المائدة وظهر منه الوجه الذى طبع عليه الفارس وقد سماه الرجل بالمرأة من باب التظارف

ودق مستر توبمان الجرس واشترى التذاكر وطلب إلى الغـلام مصباحا أو شمعاً يذهب به إلى الحجرة ؛ وبعد ربع ساعة كان ذلك الغريب يخطر فى حلة مستر ونـكل

وبينما كان الرجـل ينظر إلى ثيابه فى المرآة قال مستر توبمان : « إنها حلة جديدة ، وهى أول حلة صنعت تحمل زرار نادينا » . ثم وجه نظر الرجل إلى ذلك الزرار الـكبير المذهب الذى طبعت فى وسطه صورة وجه مستر بكوك ثم كل من تينك الحرفين (P. C.) على الجانبين [1] . وتساءل ذلك الغريب « P. C. ؟ ماذا ... منظر غريب ... صورة ذلك الرئيس و P. C. ماذا تمنون بذينك الحرفين ؟ أتريدون بهما « Pebuliar Coat » [2] ؟ وراح مستر توبمان يشرح للرجل فى امتعاض شديد وفى زهو وترفع ذلك اللغز الخفى

وأخذ ذلك الغريب يقول وهو يدور على عقبيه ليرى نفسه فى المرآة : « تبدو قصيرة عند الوسط ... أشبه بسترة رجل البريد العام ... حلل غريبة تلك الحلل ... صنعت بلا قياس ... تجىء معكوسة ... وتلك من غفلات القدر التى لا تفهم ... كل من طالت جسومهم تكون حللهم قصيرة ، وكل من قصرت أجسامهم تكون حللهم طويلة »

وفى أثناء تلك الثرثرة ، أصلح الرجـل وضع ملابسه ، أو على الأصح ملابس مستر ونكل ، وسار فى صحبته مستر توبمان ، فصعدا السلم إلى بهو الرقص

وسألهما الرجل الواقف بالباب « ما اسماكما أيها السيدان ؟ » . وهم مستر توبمان أن يتقدم ليسمع الرجل القابه فحال صاحبه بينه وبين ما أراد

« لا تذكر أسماء قط ... » ثم همس فى أذن مستر توبمان بقوله : « لا قيمة للأسماء ... غير المعروفة ... أسماء حسنة جداً فى ذاتها ولـكنها ليست عظيمة ... أسماء لها قيمتها فى جمع صغير ، ولـكن لا يقام لهـا وزن فى حفل عام ... قل : رجلان من لندن ... غريبان من ذوى المـكانة ... أى شىء » .

وفتح الباب على مصراعيه وتقدم مستر ترامى توبمان وذلك الغريب فدخلا بهو الرقص

(يتبع) عائد

(١) هما فى الانجليزية الحرفان الأولان من تلك العبارة نادى بكوك (Pickuick Club) (٢) حلة خاصة

سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي موريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

الأشخاص

١ — باريس إيجلانو : شاعر فتى إيطالى
٢ — مارسيللوس : شقيقه
٣ — أرجانتى : مدير المسرح
٤ — الأمير
٥ — صديق الشاعر
٦ — الحاسد
٧ — الدوق لوجانو
٨ — فتى عاشق مصرى
٩ — أبو الهول
١٠ — إيزابيلا موتى : ممثلة إيطالية
١١ — فتاة مصرية
١٢ — سانتيا : أخت الشاعر
١٣ — فتاة عاشقة مصرية
١٤ — الحسناء المتفرجة
١٥ — الـكانتيللى

(تجرى حوادث المسرحية فى إيطاليا ثم تنتقل إلى مصر الحالية)

الفصل الأول

الجو : أمسية تمثيل فى روما فى المسرح الـكبير الحالى وقد ظهر قسم من البهو تشرف فيه المقاعد الأمامية واللوج المواجه للفصل ، الستار لا يزال مرخى ، هذا مساء يتكرر فيـه تمثيل مسرحية « أبى الهول » للشاعر الايطالى « باريس إيجلانو » وخلال ذلك يكون المتفرجون بين قاعد وقائم ومتكلم وقد غرق القوم فى ثورة حادة من الجدال ، والنساء قائمات يتحدثن ، وهنالك متفرجة حسناء تتحدث مع الأمير »

منظر وحيد

المتفرجة الحسناء ، الأمير ، المتفرجون والمتفرجات ، وفى المقدمة زوج قنصل الانجليز ، وصديق الشاعر ثم مارسيللوس ثم أرجانتى فالمدير فالشاعر

المتفرجة الحسناء — كان ينبغى أن يُبـدأ الساعة الثامنة ؟

الأمير — لنتحدث يا عزيزتى متأملين الأنوار الساطعة

المتفرجة — (شاكة) أيبلغ من العبقرية هذا الحد ؟

الأمير — هكذا يقال

المتفرجة — (المتفرجة تهجىء دون انتباه عنوان القطعة الجديدة على الورقة)

أبو الهول : كيف كانت مسرحيته الأخيرة ؟

الأمير — أجريئة ؟

المتفرجة — فوق ما يتصور

الأمير — أبلغت جرأة لا يستطاع إخمادها . فـكرى فى أن ليس فيها مكان ناء ، على أننا هنا جالسون فى مكان ملائم كل الملاءمة

المتفرجة — وماذا يقولون عن القطعة بالاجمال ؟

الأمير — لا أدرى (بصوت منخفض) يتكلمون عنها كثيراً بالسوء ! ينبغى أن يتحدث عن ضعف القطع قبل تمثيلها خشية أن يكون بعدها ...

متفرجة أخرى — أنظروا الدوقة ، كانت

بالأمس بردائها الأزرق ، وفى هذا المساء برداء حالك اللون ، لونه الغريب يزرى بالسواد ، وانظروا قرينة القنصل (تظهر يتبعها شخصان)

مدعو — أهى جميلة ؟

الأمير — كزنبقة تهوى عليها أنظار الرجال ، تستوى وتتكىء على أصابعها ذات الخواتم البراقة

متفرجة — (بسخرية) كل هذا — دائماً — من أجل باريس إيجلانو !

حسود — يا لحظه !

الأمير — وهل أنت آسف على ذلك ؟

الحسود — إننى أنتظر . يجب أن ينتهى ذلك يوماً : الكل ينتهى من نساء ، من مجد ، إيزابيلا موتى ، إن فى حوزته كل شىء

الأمير — ولكن ليس لك إلا أن تمهل عمله ، فابلغ القلوب فهزها . إن هذا ليس بعسير

الحسود — أنظر ! لا مقعد فارغ ! إنه ترك المدينة تأتى إليه سعياً ، والناس كلهم منتشرون إزاء الستار

الأمير — ولكنى لا أراك فى المقـــدمة ، وأجدك مولياً ظهرك للستار

الحسود — ذلك خير !

الأمير — ماذا تنتظر أيها الصل الرقيق الملمس !

الحسود — أرجو أن أرى رواية أخ من إخواننا يصفر لها الناس صفير استهجان !

امرأة — ما هذا التخلف !

أخرى — يجب أن تكون « إيزابيلا موتى » سبب هذا التخلف ؛ ومهما يتكرر دائماً هـذا التخلف

أخرى — وبأى دور تقوم ؟

الأمير — (بهزء) بدور أبى الهول ، لاريب !

أخرى — إنها لغريبة الأطوار

المتفرجة الحسناء — إنها تنزه قرداً !

الأمير — كأنما تريد أن تظهر بخبث كيف تقبض دوماً على القرد الذى يُدعى رجلا

المتفرجة — إن لها حفلات راقصة أشد هياجا من مواطن الفحش والعربدة

أخرى — على أنها تؤثر على كل شىء قبس أنوار الشموع

الكانتيللى — وهل أنت على ثقة بأنه عشيقها ؟

متفرج — من ؟

الكانتيللى — وهل عندك شك فى ذلك ؟ هو باريس إيجلانو . وهذا سبب الفتهما الآخـذة فى النمو

أخرى — إنها لا تمثـل إلا الأدوار التى تخرج منه

أخرى — وطالما اعترفت بذلك من قبـل

متفرجة — ولكنها يا رفيقتى كانت تخاطبه فى فينيس فى شهر يونيو الأخير — بلهجة المفرد أمام أصحاب الزوارق

أخرى — لو شئت لأصبحت شهيرة الاسم غدا

أخرى — إن لهـا كلاباً سلوقية ، وتخرج شبه عارية

الأمير — ليس هذا بالرائع كشىء غريب ، فاصفحوا عنها عاجلاً لجمالها ، واصفحوا عنها سريعا لظرفها الذى يتلألأ حولها حيث خطرت ، فى ذلك النهار ، فى القصر . . .

المتفرجة — فى « السوفونيسبا » . .

الأمير — نزلت شاحبة الوجه بعشية تغبطها عليها « بياتريس » وتحسدها « لورا » نظرنا اليها

بعين تلونت ، ونظر بعضنا بعضاً ، وقد غشيت وجوهنا كذلك صفرة . كم كانت جميلة ! خيل الينا أن وجهها الذى غاض منه الدم رخام شفاف فهمس أحدنا : إنها « ديانا » . وقال الآخر : « إنها آريانا » وهكذا كانت تمشى الأسماء حولها وتتعالى وتنخفض كأ كليل متوهج ، وللجمال أسماء متعددة ، أما هو فواحد !

الكانتيللى — (متكئة على مقعدها تقرأ العنوان بدون اكتراث على صفحة البرنامج) أبو الهول ؟ إنى أحب هذا العنوان ؛ إنه يمثل لى النواويس القديمة ، السماء الزرقاء ، الصحراء . . هل تعرف مصر ؟ (يضيع صوتها فى الضوضاء)

الأمير — (وقد لمح متفرجا جديداً) وهذا صديق حميم للشاعر . . .

المتفرجة — هذا الأشقر !

الأمير — إنه سيحدثنا منه عن السوء الذى نريده

المتفرجة — صديقه ؟

الأمير — حقاً ؛ إليكم هذا القانون : إذا كان لنا من يبغضنا فهم أخلاؤنا . لنناده . . .

صديق الشاعر — (عائداً) أأنت ؟

الأمير — (يقدمه للحسناء) صديق للشاعر

الصديق — سترون أن المشهد الأول هو خير المشاهد

الأمير — أحقاً ؟

الصديق — (متنهداً) والثانى

الأمير — تنهدتك فيها تيه ، وهل أنت واثق بالفوز مع ذلك ؟

الصديق — أريد أن أؤمن به ولكن (بتنهدة ثانية)

الأمير — وهذه فيها قلق . . .

الصديق — إنه كثير الايمان بنفسه وذلك ما يبعث على القلق . . ثم ما ذا تقولون ؟ إنها ليست من المرح على شىء . آه لو يهجر هذه الأنواع موجهاً عبقريته إلى مواضيع أكثر وجاهة . لو فعل ذلك لضمن له الفوز دون شك . قلت له ذلك مراراً ، وأعدت عليه القول تكراراً فلم يذعن ! على أن عندى مواضيع المسرح كثيرة . وما عليه إلا أن يكتب ويتوجه الى الناس بما يفهمونه : فمن حب متواضع ، ومن مفاجآت ، ومن لحظات روحية ، أو من ضحك يؤول القليل منه إلى بكاء ؛ وأخيراً النموذج الذى ينطوى على كل شىء مما يعاد تمثيله مئات المرات . ولكنه يأبى الاذعان لرأيى ، والشعب مهما ارتقى لا يزال مفتقراً إلى أن نسليه ؛ أما أن نقص عليه تاريخه فهذا كثير ! أما مسرحياته فلا بطل لها سواه ، وفى هذه المرة أيضاً . . .

فتى — (يدنو منه)

هل تعرف القطعة ؟ وما مآخذك عليها ؟

الصديق — كاتبها

امرأة — (بسخرية) حقاً ؟

الصديق — لقد أراد — وأضحكنى منه ذلك — أن يعالج أكبر مسألة فى الوجود ، وهى مسألة الموت . والمسرح ينفر من مثل هذا . ولقد يهين شعباً من يريد أن يحمله على التفكير . المسرح يفتقر إلى عمل ، وخصومة وسارقتين . ولا يستطيع أحد أن يؤلف قطعة بقلبه وحده

امرأة — من يدرى ؟

الصديق — العمل المسرحى هو الشرط الأول : أتثقون بى ؟ إنه ناقضنى : وبدلاً من أن يعمد إلى رواية جديدة لبث يعطينا ما يرضى عنه مقياسه الخاص جاعلاً من المسرح مكان اعتراف ، معتقداً

أنه يجب قبل كل شيء أن يحيا في مسرحياته . إنه انخدع وسيرى سأم الشعب منه . وإني لعلى يقين من أن هذا ليس بنتاج مسرحي !

(مارسيللوس ايجلانو يدنو رويداً رويداً وقد شعرانهم يتكلمون عن أخيه ، وفجأة قابل هذا الصديق)

مارسيللوس : هذا أنت لا تنطق بلهجة واحدة

الصديق : ليكن ؛ إن له لبراعة ، ولكن بامكانه أن يكون أكثر فوزاً

مارسيللوس — (بعجلة) الفوز ! هذه هي كلمة طرحتها ، إنه ليحصل عليه لأنه لم يتحرعنه كثيراً ، على أنني ما كنت لأحقر الفوز من أجل إرضاء رغبة ، لأن — هنالك — فوزاً وفوزاً ؛ ولقد نظرت آثارا كثيرة قوبلت بصفير الاستهزاء ، أو بتصفيق الاعجاب ، ولكن أحداً لم يخدع في قيمتها ...

الصديق — ولكن ...

مارسيللوس — لنقف عند هذه الكلمة ، كلمة الفوز ، فكلما كانت الكبرياء مصونة كان الفوز أكبر ، فالشاعر ، بالرغم عن نفسه يستحي من الضحكة الرنانة الناشئة عن حركة رائعة منه ، فهو إذا لم ينغمس إلا في نفسه ولم يتخذ للتحليق إلا أجنحته ، ولم يفكر في الناظرين إليه من أبناء الأرض ، إذا لم يفكر إلا في تحليقه وحالة نفسه التي يعبر عنها ، وإذا لم يعد يرى — بعد انتهائه من الصعود — إلا القحم ، فان كبرياءه — اذ ذاك — كبرياءه المشرقة تستطيع أن تنتخب حظها وأن تتكلم بلهجة عالية قائلة : ليقبل إليّ المجد فانا لا أرحل نحوه ...

الصديق — أجل ! إنني أعلم ...

مارسيللوس — صه ! أيها المفسر المرائي ! إنك لا تفكر إلا في المال من حيث لا يفكر إلا في الفن .

الحسود — (مخاطباً المتفرجات اللاتي يسألن عنه) شقيق المؤلف .

مارسيللوس — ولا ينظر إلا إلى الجمال العميق البعيد الغور . المجد عند كم مجد مديح الناس واعجابهم ودعواتهم وأوسمتهم ، ولكن المجد — عند قلبه الذي يجهل دموعكم — هو ملكة مختالة تخطر حافية . إن ما يريده ليس بذلك الفوز الزائل الذي يهتز له ضحكا جُلاس المواقع الأولى ، ولكن ما يريده هو الشعور القوي المنيف بخفقات القلوب تجيب خفقات قلبه بسمو ورفعة ، وهو إنما يعبر عن النفس الانسانية إذ يعبر عن نفسه ، ويرى أن تحقيق الظفر للقطعة يوجب عليه أن يحررها بقلبه ، كل ما يبتكرونه يبتكره ذوق متصنع متكلف على أن أكبر أثر هو تضحية كبيرة !

(ينسحب)

الصديق — (هازاً كتفيه) إنه وهم باطل ينتهي بالحرق ! سنرى . لنتحدث عنه بعد ثمانية أيام .

الحسود — إن مارسيللوس أخوه

آخر — ولهذا يتجشم مئونة الذود عنه كراهب فتىً يتأثر حين يُشتم ربه

الأمير — إن له صيحات حسنة

متفرجة — وله عينان جميلتان ؛ وقد زاد عنه بشدة

الصديق — بمثل هذه الحماقات يحشو المعجبون به أذنيه

الفن ! الجمال ! كل هذا لا يساوي قطعة قد أحسن حبكها تمثل عاماً

(ثلاث ضربات)

الحسناء — آه ! ثلاث ضربات ... لنفزع إلى مقاعدنا !

(يشق الستار لمدير المسرح)

الجماعة — أخطاب ؟ ما هذا ؟ المدير ذاته ؟ ولكنهم ضربوا ثلاثا . ليتكلم ! ولننتظر !

المدير — معذرة يا سادتى وسيداتى ، لا أستطيع التكلم إذا قاطعتمونى

الجماعة — كفى ...

المدير — إن مأساة الشاعر الكبير لن نقدر على تمثيلها هذا المساء

الجماعة — ماذا تقول ؟

المدير — إسمعونى قليلاً واعتصموا بصبركم !

الجماعة — نريد « سر أبى الهول » مهما ذهب الأمر

المدير — إسمعونى ، إسمعونى بلطف ! لن نقدر على تمثيلها لأن صاحبها حال دون ذلك

الجماعة — المؤلف ... لا يمكن ذلك

المدير — المؤلف نفسه نقح فيها

الجماعة — المؤلف ... المؤلف ... كفى ... أيها الكذاب ! أيها اللص ! أيها الأثيم !

المدير — إسمعونى قليلاً ؛ وأنا وافقت على إرجاء تمثيلها لبوادر القلق التى رأيتها تغشى وجهه ، وإنكم لتشفقون عليه كما اشفقت أنا . إنه المؤلف ؛ وإنه أيضاً الصديق الذى أحبه

الجماعة — آه

المدير — إن روايته الأولى مُثلت هنا على هذا المسرح ، وقد كانت حائزة لأعجاب القوم ، ولم يزل فى أثناء الستار وأطوائه تصفيق نخار . ألسنا مدينين له بكثير من الساعات الطويلة ؟ فلنسمح له بها عن هذا التردد ، إن حبك أيتها المدينة وهتافك وإعجابك وقلبك الرحب جعله صعباً مع نفسه إلى مثل هذا الحد ، ألا تجدون فى إحجامه عن تقديم القطعة ؛ ألا تحسون فى شكه وقلقه كل هذا الثمن الذى يمنحه لكم أيها السامعون ! يجدر بنا أن نؤمن به فى اللحظة التى يشك فيها من نفسه . وهذا حقه

الجماعة — كان ينبغى عليه أن يعلمنا من قبل ... ليأت إذاً ... ليطلع علينا !

(يظهر باريس إيحلانو خلف المدير ... صفير وصراخ ...)

باريس — (بصوت شديد وعلى وجهه صفرة)

هأنذا يا شعب روما ! يا نقاده ويا كتابه ، يا رساميه وفنانيه ورجاله ! ويا أصدقائى المبعثرين فى هذا الخضم الواسع ، هأنذا إذا شئتم أن تصفروا لى ...

الجماعة — ما هذه المجازفة ؟

باريس — يجب أن آتى ، لا يفر أحد من هذا المكان غيرى ! أنا ألفت الرواية وأنا حلت دون تمثيلها ، وإذا أردتم عرفان السبب فاصغوا إلىّ !

الجماعة — كفى ... لماذا ؟

باريس — جئت بنفسى معترفاً ! اسمع لى أيها الشعب الذى أحبه ! ألم أقاسمكم بالقدر الكافى أعشار فؤادى لقاء ترحيب — منكم بى — أقل هزءاً وسخرية .

الجماعة — ذروه يتكلم !

باريس — ألم أحبكم — بدون انقطاع — عهوداً ووفيتها ، ووعوداً وأنجزتها ؟ ألم أطالب إليكم الكبرياء التى تتمسكون بها ؟ اسمعوا إلى : إن الرواية روايتى ، قد أودعتها كل همسات حياتى ، وفصلت لها جناحين من تنهداتى

الجماعة — حسن !

باريس — قضيت ثلاثة أعوام منكباً خلالها على نظمها ، وقد صبغت أوراقها بدم غير منظور ، ثم كانت إعادة تلاوتها على أوراق تجمدت ، ثم جاء عهد تزيينها ، ثم تتالت لحظات الشك والريبة . وقد وجدت كل مساء خلال استسلامي لأحلامي أن هذا الأثر القلق الذي كنت أعبده أخذ يتلاشى ، وكلما وافت المأساة وقتها المحتوم أصبح حلها الذي انتهت به قاسياً عندي ، وأصبحت أشعر في ساعة يأسي العنيد أن عرضها عليكم وتقديمها اليكم ضرب من المحال .

الجماعة — إنه لمعتوه .

باريس — لا ، لست بمجنون ولا بي عته ، اصغوا إليّ . أؤكد لكم أنكم موافقون على رأيي ، وتدركون كيف التهمني « أبوالهول » . إني أنزلت في هذه القطعة الغريبة قلبي ، قلبي كله ، معتقداً بأن الشاعر الذي لا يضع قلبه في عمله يأتي عمله ناقصاً . ما كنت لأشك في هذا من قبل ، ولكني فهمت بعد لأي أي حد بلغ إغراقي ! ورأيت أن ستاراً خفياً يجب أن يحيط بالمشهد حينما ينطوي على حياة إنسانية

الجماعة — الرواية : الرواية

باريس — (بذهول) إنها لن تمثل !

(الهياج يزداد) إنني أبصرتها — كما تراءى لي — تنهض من تحت قدميّ ، ورأيتها تولد وتحيا بوجهها الحقيق . وأدركت أن تقديمها اليكم يُعَد جريمة . وقد فهمت المثلة التي تقوم بها ذلك : وغلب ترددي العنيف على نفسها . افهمني أنت أيها الشعب وأسكت قليلاً حب الاطلاع في نفسك عارفاً بأني كنت داعياً تلك القيثارة التي كانت ترجع أنشودتك القاتمة ، وكنت الصدفة الواحدة التي تتهامس فيها أمواجك

(بصمت دقيقة بادياً عليه التأثر مودعاً شعبه)

إنني راحل ! وهذا وداعي أردده في هذا المساء : فلا روما ولا سماؤها يستطيعان أن يلحاني . وداعاً أيتها الأصداء المتجاوبة من هذا الناووس الشهير ! أريد أن أرى « أبا الهول الحقيقي » في مصر حقيقة . لن تسمع — أيها الشعب — بعد اليوم اسمي ولا أناتي .

أقول وداعاً . . .

الجماعة — كفى ... الرواية نريد أن نراها ... هات أبا الهول .

باريس — ليس من حق انسان أن يحطم بالقهر نفساً ! لا لا : لن تروا منها شيئاً برغم الحاكم ! إنني صمت — أقول — صمت إلا أني أريد ذلك ، وازدريت الكتابة وتنحيت عنها لأستطيع الخوض في لجج الحياة ، وجئت لكي أحطم قيثارتي أمامكم ! إنني لن أكتب شيئاً بعد اليوم !

الجماعة — القطعة ... ولتذهب أنى ذهبت... نريد أن نراها .

باريس — (قاذفاً بإضبارة من الورق) إليكم القطعة ...

الجماعة — آه

باريس — هذه هي روايتكم التي أضعتها بكبريائي وكآبتي ، وهذه هي النسخة الوحيدة الباقية في الوجود . أنظروها وتروحوا من بعيد ريح أبياتها التي لن تعرفوها . وداعاً ! ياقفص الف من الأشبال من غير حديد ولا شباك ... إذا أردتم قلبي فدونكم قطعاً منه وفلذاً ممزقة ...

(يمزق الأوراق ويقذف بها وجوه السامعين)

(يهبط الستار)

(الفصل الثاني في العدد القادم) خليل هنداوي

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه
بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

إذا كان هذا هو الحب عندك ، فأننى أشفق عليك .

فقال (ديجنه) إنه ما أحب إلا نساء المواخير فهو لا يدقق فى مثل هـذه الأمور . وأضاف إلى ذلك قوله : إنك لم تزل فتياً ، يا أوكتاف ، وتريد الحصول على أشياء كثيرة تنطبق على ما تتوهم ، ولكن هذه الأشياء لا وجود لها ، فانك تعتقد بالحب ، بل بنوع غريب من الحب ؛ ولعل لك ما يجعلك قادراً على الشعور به ، غير أننى لا أعناه لك . إنك ستتمتع بخليلات غير هـذه الخليلة يا صديقى ، فتأسف لما فمات الليلة الماضية ، إذ لا ريب فى أن هذه المرأة كانت تحبك عند ما جاءت إليك ، وقد لا تحبك فى هـذه الساعة ، ولعلها الآن بين ذراعى رجل آخر ؛ غير أنها فى تلك الليلة وفى هذه الغرفة كانت مولهة بك ، فماذا كان يهمك من الدنيا ؟ لقد أفقدت نفسك ليلة من ليالى العمر ولسوف يشجيك ذكرها لأنها مضت ولن تعود

إن المرأة تغتفر كل اساءة ، ولكنها لا تنسى ذنب من تهرع إليه فيردها ، ولو أن الغرام لم يذهب



بها كل مذهب ، لما جاءت إليك مقتحمة صدودك وهى تعلم أنها مجرمة وقد اعترفت بجرمها .

لا ريب فى أنك ستأسف على هذه الليلة لأنك لن تقع بعد على مثلها .

وكان ديجنه يقول هـذا بكل ما فيه من قوة العقيدة وبرود الاختبار ، فكنت وأنا استمع إليه أحس بارتعاش فى جميع أعضائى وبحافز يهيب بى إلى الذهاب لمقابلة عشيقتى أو الكتابة لاستقدامها إلىّ ، ولكننى لم أكن قادراً على النهوض من فراشى ، فوفرت على نفسى التعرض لمشاهدتها تنتظر خصمى ، أو لأرى بابها موصداً عليه وعليها ، ولكننى كنت قادراً على توجيه رسالة إليها ، فكنت أفكر بالرغم منى فيما سأخاطبها به

وما بارحنى ديجنه حتى شعرت باضطراب شديد دفعنى إلى التفكير فى وضع حد لهذه الحالة مهما كلفنى

الأمر ، وبعد نزاع عنيف تغلب الاشمئزاز فيه على الحب ، كتبت إلى عشيقتى أننى لن أراها بعد ، وطلبت منها ألا تحضر إلىّ إذا كانت تتحاشى أن أوصد بابى فى وجهها

قرعت الجرس وسلمت الكتاب إلى خادمى لايصاله بلا إبطاء إلى البريد ، ولكنه ما كاد يغلق الباب حتى ناديته فلم يسمع صوتى ، وما تجاسرت أن أدعوه ثانية ، فسترت وجهى بيدى واستسلمت لليأس العميق

الفصل الرابع

وعند بزوغ الشمس فى اليوم التالى ، كان أول ما خطر لى مناجاة نفسى بما يمكن لى أن أفعله بعد الآن

لم يكن لى مهنة ، وما كنت أتعاطى عملاً ، لأننى كنت درست الطب والحقوق وبقيت متردداً بين احتراف إحدى هاتين المهنتين ، ثم اشتغلت ستة أشهر فى إحدى الحرف غير أننى لم أوفق إلى العمل بدقة ، فتداركت أمرى بالاستعفاء قبل أن أطرد . وكنت درست كثيراً ، غير أن علومى كانت سطحية ؛ وكنت أنسى العلم بالسهولة التى أتلقنه بها

وكان استقلالى أعز شىء على بعد الحب ، وقد تعشقت حريتى منذ نعومة أظفارى

وكان والدى يخاطبنى يوماً بشأن مستقبلى عارضاً على مسالك عديدة للعمل فاتكأت على عارضة النافذة وحدقت فى شجرة من الحور ممشوقة تمايل فى الحديقة مع الهواء وأخذت أفكر فى اختيار مسلك لى ، وإذ لم يقف ذوق عند واحد منها ، أطلقت لخيالتى العنان ، فشعرت فجأة كأن الأرض تميد بى ، وكأننى لمست القوة الخفية الصماء التى تدفع بهذه الكرة فى الأجواء ، فخيل إلى أنها ترتفع نحو السماء وانا عليها كواقف على مركب يمخر العباب ، وتراءت لى شجرة الحور كسارية لهذا المركب ، فتراجعت عن مستندى ومددت ذراعى هاتفا : أية أهمية لمسافر لا يمضى إلا حينا من الزمن على هذا المركب ؟ فما هو الانسان ؟ ما هى هذه النقطة السوداء على ظهر هذه العائمة التائهة فى الأثير ؟ أفليس حسبى فى الحياة أن أكون إنسانا ؟ لا ، إننى أريد أن أصبح رجلاً له صفته الخاصة وطابعه الخاص

ذلك ما تمنيته أمام الطبيعة ، فكان رجائى الأول وأنا ابن أربعة عشر ربيعاً ، ومنذ ذلك الزمن لم أقم بأى عمل إلاّ إطاعة لأمر أبى ، ولكننى ما تمكنت يوماً من التغلب على طبيعتى المتمردة .

لم تكن حريتى إذن بنت كسلى ، بل كانت بنت عزمى وإرادتى ؛ وكنت أحب جميع ما خلق الله ولا أحب ما صنع الناس إلاّ يسيراً ؛ وما كنت عرفت من الحياة سوى الحب ومن العالم غير معشوقتى ، فاكتفيت بما عرفت

خرجت من المدرسة ، فمشت واعتقدت بملء الاخلاص أن هذا الحب سيسود حياتى بأسرها ، وهذا الاعتقاد أزال كل ما سواه من تفكيرى

وكنت أعيش منعزلاً فاقضى أيامى لدى عشيقتى ، وكان ألذ شىء عندى أن أذهب بها إلى الحقول أيام الصيف فأتوسد المروج الناضرة إلى جنبها ، إذ كنت أجد فى مشاهد الطبيعة الرائعة أشد مجدد

للقوى ، وفى أيام الشتاء كنت أذهب بها من مرقص إلى آخر . وهكذا كانت تمر أيام حياتى متتابعة دون أن أقوم بأى عمل

كانت جميع أفكارى متجهة إلى المشيقة التى خدعتنى ، لذلك رأيتنى عندما انهتك خداعها كأننى أحيا ولا فكر لى

لا أجد ما أصور به حالتى النفسية سوى تشبيهها بحالة مساكن هذه الأيام حيث تجد الرياش مؤلفاً من طراز جميع البلدان وجميع الأزمان ، فنحن فى عصر لا طراز له لأننا لم نضع طابع زماننا لا على مساكننا ولا على حدائقنا ولا على أى شىء لنا . فانك لتصادف فى الشوارع رجالاً أطلقوا لحاهم على طراز عصر هنرى الثالث كما ترى رجالاً حلقوا الذقون وآخرين أرخوا شعورهم على زى أيام رفائيل وسواهم أرخوها على طراز زمن المسيح

وهكذا يخيل إليك أن مساكن الأغنياء معارض فنون ، إذ تجد فيها الطراز القديم وطراز عصر النهضة وعصر لويس الثالث عشر . فلدينا من كل عصر أشياء ولا شىء لدينا من عصرنا ؛ وما شوهدت مثل هذه الحال فى أى زمن من قبل فنحن نذهب مذهب المتخيرين فنأخذ من كل ما نجد : هذا لجماله ، وهذا لموافقته ، للراحة وآخر لقدمه ، وآخر لما فيه من القبح .. وهكذا نعيش على أنقاض كأن العالم قد اقترب من الزوال

على مثل هذا كان تفكيرى . كنت طالعت كثيراً وتعلمت الرسم وحفظت أشياء تراكمت فى دماغى بلا ترتيب فكان رأسى كالاسفنجة متضخما على فراغه

وعشقت جميع الشعراء واحدا بعد واحد ؛ غير أن إغراقى فى تأثرى كان يحول كل إعجابى إلى آخر شاعر عرفته ويدفعنى إلى كره سائر الشعراء .

وثابرت على هذا المنهج حتى أنشأت من نفسى مستودعا للماديات ؛ وكنت اغترفت من كل حديث مجهول حتى بشمت فاذا أنا طلل بال عليه شىء لم يزل فى مهيع الصبا ، هو أمل هذا القلب فى طفولته .

ذلك هو أملى الذى سلم من كل وصمة ومن كل فساد وسكب الحب فيه كل قوى الحياة ، فاذا الخيانة تصيبه بالجرح القاتل ، ومكر العشيقة يرميه بأحد سهم وهو يطير فى أرفع أجوائه

وكنت أشعر أن فى نفسى شيئا يتشنج فى استرخائه كأنه طير جريح يحتضر . إن المجتمع الذى ينزل الدواهى بافراده لشبيه بالأفعى الهندية التى تستقر فى الأعشاب الشافية للسماتها ، فأنك كثيراً ما تجد قرب الأدواء التى تسببها أنجع علاج لها ، فالرجل الذى يتبع نظاما ينطبق على حالة المجتمع فى حياته فيعين وقتا لأعماله ووقتاً لزياراته وميعاداً لممارسة الحب .. لا يتعرض لأى خطر إذا هو فقد من يهوى لأنه أخذ فى أعماله وتفكيره نظاماً وترتيباً كصفوف الجنود المهيأة للكفاح ، فاذا سقط جندى منها انكمش الصف وقام آخر مكانه فلا يشعر أحد بفراغ ذلك المكان

أما أنا ، فما كان لى ما ألجأ إليه منذ أصبحت وحدى ، فكنت أقف أمام الطبيعة وهى أمى التى أحب فأراها تتسع حولى وتزداد فراغا ، ولو أمكننى أن أنسى عشيقتى كل النسيان لكنت نجوت

كثير من الناس يجدون الشفاء على أهون سبيل لأنهم يصمدون للخيانة متغلبين على الحب الجريح ولكن أنى لابن التاسعة عشرة أن يقتبس هذه

الطريقة فى حبه وهو يجهل كل شىء ويشتهى كل شىء وهو الشاعر بنمو جراثيم الشهوات كلها فى نفسه . هل لمثل هـذا الفتى أن تساوره الشكوك ، وهو كيفما التفت يميناً أو شمالاً أو علق نظره على الآفاق يسمع هاتفاً يدعوه إلى الشهوة والأحلام ؛ وما من حقيقة يمكنها أن تتسلط على القلب فى فتوته . كل شىء ينبت الأزهار للشباب حتى العقد المتصلبة فى أغصان السنديانة الهرمة . ولو كان للفتى ألف ذراع لمد بها إلى الفضاء حتى إذا التفت على عشيقة أصبح هذا الفضاء فى نظره مليئاً عامراً

وما كنت أحسب أن فى العالم من عمل سوى الحب ، وعندما كان أحد الناس يخاطبنى عن غير الحب ؛ كنت أدير ظهرى والتزم السكوت

وكان ولعى بمحبوبتى ولها وحشياً ألقى على حياتى طابع الرهبنة والنسك

ولأوردن حادثة واحدة تثبت ما صورت من حالتى :

كانت محبوبتى أعطتنى ذخيرة ضمنهـا رسمها المصغر ، وكنت أحمل هذه الذخيرة على خفق قلبى أسوة بكثير من الرجال ولكننى وجدت يوماً عند أحد الباعة سلسلة حديدية علقت فى طرفها دائرة على ظهرها نتوءات شائكة فابتعتها وربطت الذخيرة عليها وحملتها مديراً النتوءات لجهة صدرى فكانت تغرز فى جلدى فأشعر من ألمها بلذة غريبة ، وكثيراً ما كنت أضغط عليها بكفى مستزيداً لذتى وآلامى . . .

وما كنت لأجهـل ما فى عملى من جنون ، ولكن هل من جنون لا يقدم الحب عليه ؟ وعندما عرفت بخيانة حبيبتى ، خلعت هـذه الذخيرة عنى ويعلم الله ما كان عذابى عندما تحررت من قساوتها

فكنت أزفر قائلاً : — إن أثرك سيمحى ، أيها الجرح الدامى الحبيب فأى بلسم سأسكب عليك

وما كان تزايد كرهى لهذه المرأة ليزيل تذكارها من كيانى فكأنه بقى يتمشى مع دمى فى عروقى

كنت ألعنها ثم أحلم بها . ومن له أن يقاوم الأحلام وأن يحكم عقله فى تذكارات قوامها لحم ودم ؟

عندما قتل مكبيث دوكانان هتف قائلاً : إن مياه المحيط لن تغسل يدى ؛ وأنا أيضاً كنت أرى أن مياه البحار كلها لن تغسل جراحى

وصارحت ديجنه بحالتى فقلت له : دعنى وشأنى ، إننى عندما أستسلم للكرى أرى رأسها ملقى على وسادتى

ما كنت أحيا إلا من أجل هذه المرأة ، فما كنت أرتاب بها حتى ولو ارتبت بنفسى . فاذا ما لعنتها فكأننى أجحد كل شىء ، وإذا ما فقدتها فكأننى أرى الوجود بأسره مندثراً خالياً

وقبعت فى منزلى منقطعاً عن الناس ، إذ كنت أحسب العالم ينص بالمسوخ والحيوانات المفترسة ؛ وكنت أقول لكل من يحاول تسليتى : إن ما تقوله حق ، ولكن كن واثقاً من أننى لن أتبع نصحك

وكنت أستند إلى النافذة وأقول لنفسى : سوف تأتى ، لا ريب فى أنها قادمة إلى ، لقد دارت بمنعطف الشارع . إنى أحس باقترابها منى . إنها لا تستطيع أن تحيا بدونى كما لا أستطيع أنا أن أحيا بدونها . ماذا عسانى قائلاً لها وبأى وجه استقبلها ؟

وبينما أكون مستغرقاً فى هـذه النجوى كان خداعها يفاجىء تذكارى فأهتف قائلاً : لا ، لا أريد أن تجىء ، لا أريد أن تقترب منى ، فاننى أقتلها

وما كنت سمعت عنها شيئاً بعد أن أرسلت لها كتابي الأخير فكنت أتساءل : ما تفعل الآن ، أتراها مشغولة بعشق سواى ، فما على إذن إلا أن أعشق سواها

ولكنني كنت أسمع صوتاً يهتف بي من الأبعاد قائلاً : ألك أن تحب سواى أنت ؟ لعلك جننت ! . أذلك ممكن لشخصين سادهما الحب فتعانقا واتحدا ؟ أنت لم تعد أنت بعد وأنا لم أعد أنا

وكان ديجنه يقول لى : متى تسلو هذه المرأة أيها الجبان ؟ أفترى فى فقدك أياها خسارة لا تعوض ؟ وهل كان عشقها لك اللذة الوحيدة فى الدنيا ؟ اتخذ لك عشيقة أخرى،ولينته الأمر

فكنت أقول له : لا ، ليس فقدى لها بالخسارة العظمى ، أما فعلت ما وجب على فعله ؟ أما طردتها من هنا ؟ فهل لك ما تقوله بعد ؟ أما الباقى فلا شأن لأحد فيه سواى . أليس للثيران إذا جرحت فى الصراع أن تذهب بالنصل المغمد فى كتفها إلى زاوية لتموت ؟

قل لى بربك ، إلى أين أذهب ، ومن هن هؤلاء النسوة اللواتى تسوقهن الصدف إليك . أنت تشير إلى السماء الصافية والأشجار الباسقة والمساكن العالية ، وإلى رجال يعربدون ويسكرون ويغنون ، وإلى نساء راقصات وخيول تتراكض فى السباق ؛ وما كل ما تشير إليه هو الحياة ، بل هو صخب الحياة ، إذهب عنى ودعنى وشأنى

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

فى بيلوس ...

تليماك يسائل نسطور عن أبيه

خلاصة ما تقدم

« انتهت حرب طروادة وعاد القادة الاغريق جميعاً إلى اليونان ما عدا أوديسيوس فانه لم يعد ، وكانت حرب شعواء بينه وبين إله البحار پوسيدون الذى أضل طريقه فى البحر لخصومة قديمة بينهما . وكانت الربة مينرڤا من أنصار أوديسيوس ، فذهبت إلى إيثاكا ، مدينة أوديسيوس ، لتحض ابنه تليماك على البحث عن أبيه ولتحرضه على طرد عشاق أمه پنلوپ من قصره . ذلك أن طول غياب أوديسيوس أطمع هؤلاء فى جمال الملكة فأرادها كل منهم زوجة له ، ولكنها احتالت عليهم حتى استطاعت أن تجمعهم فى قصرها لتضرب بعضهم ببعض ريثما يعود زوجها ويخلصها منهم . ولقيت مينرڤا الفتى تليماك وأحضرت له سفينة مجهزة بكل ما تحتاج اليه رحلة طويلة محفوفة بالأخطار ثم أقلعت هى معه فى صورة أحد أمراء البحر (منتور) إلى پلوس ليسائل أميرها نسطور عن أبيه الذى كان يزامله فى حرب طروادة


هوميروس

برزت ذُكاء من لجة المشرق فصبغت آرادها[1] الذهبية جبين الأفق النحاسى ، وسلبت الأضواء الجميلة لتهدِىَ إلى السبيل السوى ، وألقت السفينة مراسيها تلقاء پيلوس ، مدينة نليوس[2] ؛ حيث وجدوا القوم على الشاطىء يقربون القرابين باسم پوسيدون ، ذى الشعر اللازوردى ، وقد جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة شيخ عتيد . وذبحت كل فئة قرابينها : تسعة عجول سمان ذوات خوار ، فأكلوا الحوايا[3] ، وضحوا بالسواعد والأفخاذ ؛ ثم أقبل تليماك وبين يديه مينرڤا تتهادى وتقول :

« تليماخوس ! تشجع يا بنى ، ولا تجعل للاستحياء سبيلا إلى نفسك ، وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد ، نسطور ، فقد تكون لديه أخبار

(١) أشعة الشمس

(٢) نليوس هو ابن پوسيدون (نپتيون) إله البحار والد أعداء أوديسيوس

(٣) الأمعاء وما إليها

عن أبيك ، وقد يجلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك من أمره خافية ، فقد تقدمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس . »

ويقول تلماك :

« أواه يا منتور ! ما أحسبنى أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من قلة الشأن ورقة الحال أنا الفتى الحدث . أنى لى بلقاء الشيخ ذى التجاريب ؟ »

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين :

« لا عليك يا بنى ! إن هى إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل ! ! العالم كله يعرف أنك نشأت فى ظروف قاهرة ما كان لك بها يدان ! »

ودلفت مينرفا ، ودلف فى إثرها تلماك ، حتى كانا فى وسط القوم ، وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ، وهب الجميع للقائهما . وتقدم ابن نسطور الأكبر ، بيزستراتوس ، فصافحهما هاشاً ، وتلقاهما باشاً ، وأجلسهما فوق الفراء المبثوث إلى جنب أبيه ، وأخيه الأصغر تراسيميديس ، وقدم لكل مضغة من حوية ، ثم كأساً ذهبية من خمر معتقة ، تذوقها قبل أن يحيى بها ، ثم قال مخاطباً مينرفا :

« مرحباً بك أيها الضيف المكرم ! لقد شرفت فى عيد نبتيون ، فحبذا لو أفرغت باسمه ما فى هذه الكأس من خمر صلاةً له وزكاة ! وحبذا لو أشركت فى التقدمة زميلك ، فما أحسبه إلا محباً للآلهة ، خابتاً لها »

وتبسمت مينرفا ، وتناولت الكأس فى وقار وأرسلت هذه الصلاة باسم رب البحار :

« نبتيون العظيم تقدس اسمك ، وأحاط باليابسة ملكوتك .. يا منقذ الضالين ومغيث المتضرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك ، ونجهم من دأمائك ببركة أسمائك ، مولاى وتقبل من نسطور ومن ذريته ، وتقبل من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يا مولاى فسدد خطى تلماخوس وخطاى إلى ما أقلمنا فوق هذا المركب الشاحب من أجله .. آمين آمين !!! »

وتناول تلماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتمتم بصلاة قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين شاكرين ، إلا منيرفا وصاحبها ، وإلا نسطور وولديه .... ثم قال نسطور :

« أما وقد فرغنا من غدائنا فماذا أيها الوافدون من أنتم ، ومن أين حملكم هذا البحر ؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشطئان ذعراً وفزعاً ؟ »

واستجمع تلماك شجاعته ، ونفخت فيه مينرفا من روحها ، وتكلم فقال :

« على هينتك يا ابن نليوس العظيم ، يا فخر هيلاس ؛ إنى أنا ابن صديقك وصفيك أوديسيوس سعيت إليك من أقصى الأرض أسائلك عن أبى ! أبى ! صفيك وخليلك الذى صال معك تحت أسوار إليوم وجال ، ثم لا أحد يعرف من أنبائه اليوم شيئاً ! لقد انتهت إلينا أخبار الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه .... أين رقد ؟ وأنى ثوى ؟ وأيان قرت رفاته إن كان قد شالت نعامته ، أو مضى على وجهه فى الأرض إن كان ما يزال حياً .. إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا من أخباره على أثر . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك ... هناك ... فى أعمق مملكة نبتيون ، مع الجميلة أمفتريت[1] . لذلك سعيت إليك يا فخر

(١) ملكة البحار وزوجة نبتيون

هيلاس كيا تحدثنى عن أبى ، وكيا تذكر لى بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد شهدته ، أو تقص على ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التى تجوب هذه البحار . قل . تحدث يا نسطور ، ولا تخف عنى شيئاً ... قل .. إنى أستحلفك بكل ما كان يفتـديكم به فى ساحة إليوم أن تقص على أنباءه . لقد كان يحبك ويجلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك »

وكأنما رأى نسطور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيهـا الصديق الشاب ! ما أروع ما هِجْتَ ذكريات المـاضى المفعم بالأشجان ! ذكريات الذّادة السادة والمغاوير الصناديد ، الذين سـقطوا تحت أسوار إليوم المتيدة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم ، وسطروا آية المجد بُمهجِهم ! إيه أخيلوس يا سليل الآلهة ؛ وبتروكلوس يامعجز الانداد والأقران ؛ وأجاكس ! ! أجاكس الذى كان أمّةً وحده ! لقد رقدوا جميعاً تحت قلاع بريام الجبـار الشـيخ ! ورقد معهم ولدى ! آه ياولدى ! أواه ياقطعة قلبى وفلذة كبدى وثمرة حياتى وسُؤْدَدى ! يا أشجع الشجعان يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة ؟ ! يا رعاك الله أيهـا الشاب المحزون ! أنى لى أن أقص عليك أحداث سـنين تسع كانت هموماً متصلة وأحزاناً فاجعة وآلاماً تتسَعّر فى جميع القلوب ! ؟ أى لسان ذرب يقص فلا يعل ، وأى مقـول رطب يحكى وما يعى ؟ ألاَ لو أنك أقمت تسمع الأعوام الطوال فما أحسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تجد فيهـا شجاعة الألوف لولا خدعة أوديسيوس وحيلته ، وطول أناته وهمته ! ولـكن حدثنى بربك أيها الشاب : أأنت حقاً لولد أوديسيوس ؟ أجل ! إنك بملامحك وقسماتك غصْـن دوحته ، وإنك بكلماتك العذاب عُسْلوج أرومته ! أوْه ، أوديسيوس ! يا رفيق الشباب وحبيب القلب ! لشد ما تمتلج فى النفس تلك الخاتمة الهائلة التى قضاهـا على الأرجيف[1] سيد الأولمب ، غِبّ انتصارهم ، وقُبَيْـل أوبتهم ! لقد حنقت مينرفا على ولَدَىْ أتريوس إذ تنازعا فقال قائل منهما نضحى لربة الحكمة عند سيف البحر تلقاء اليوم ، ولـكن الآخر أبى وأبحر على أن يقدم لها القرابين فى آرجوس ! يا للتعيسَـيْن ! أجا ممنون البائس ومنالايوس المسكين ! إنهما لم يصليا لمينرفا لحاق بهما غضبهـا ، وعبثا حاولا بعد ذلك أن يترضياها ! إختلف الاخوان ونام الجند حتى مطلع الفجر ، ثم أقلع نصف الأسـطول فى موج ثائر مصطخب من غضب الآلهة ، بقيادة أجاممنون ، وما هى إلا سويعات حتى هدأ اليم ونام الموج ؛ وبلغنا تنـدوس فذبحنا الأضحيات باسم الآلهة ، وسـبحنا لرب البحار نبتيون فتطامن العباب ؛ ولـكنا ما كنا ندرى ما تنسجه يد (جوف)[2] حولنا بل لم يكن يخامرنا أقل شك فى وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع فى الرأى : هل يقلعون من تندوس ، أو يتلبثون بهـا حتى تنجلى العاصفة التى شرعت تهب فى عنفوان وشدة ؟ وهنا ، آثر مـلاحو أبيك أن يعودوا أدراجهم بسفائنهم إلى طروادة ، وذلك مجاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأى ، بل فررت من العاصفة بسفائنى إلى جزيرة لسبوس ،

(١) جنود آرجوس لإحدى مقاطعات اليونان

(٢) زيوس أو جوبيتر كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة

ولحق بنا ديوميد ثم منالايوس فى إثره ؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقةً من الآلهة ، نقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا ، فلم نر بُداً من المجازفة ، وإلا تكسرت جوارينا على الصـــخور وفوق الأواذى ، ... يا للهول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جيريستوس ! حمداً لك يا نبيتون وثناء عليك ؛ وقل أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيذ ! ولقد فاز ديوميد فوصل بجنوده سالماً إلى آرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيــل ، بقيادة شبله المظيم نيوبتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس ... ... كذلك وصل أجاممنون وليته لم يصل ! لا ريب أنك سمعت عما حاق به ! لقد قتله المجرم إيجستوس[1] ، ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن أجاممنون حتى ثأر لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده ! يا للفخار أيهـا الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك فى سجل الخالدين ! ... »

وشاع العُجْب فى نفس تلماك ، فقال :

« ويك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلاً بحق السماء ، وستتغنى الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخالف عن السلف . كم ذا وددت لو مكّنت لى الآلهة فى أعناق هذه العصبة الفاجرة من المشاق الآثمين الذين يدلون عَـلَىَّ بعددهم وعُددهم ، والذين يقذفون فى وجهى بالاهانة تلى الأهانة . . . وا أسفاه ! ليت شعرى لم لا تؤيد الآلهة حتى على باطلهم ؟ لقد نفد اصطبارى وكانت حيلتى ... فماذا أعمل ؟ »

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت منى غافلاً ... ويحك تلماخوس ! لقد تناقل الناس ما كان من حماقة هذه الطغمة التى تستبيح عرض أوديسيوس ، وتستنزف ثروته ... ولـكن ، من يدرى ؟ هل أمنوا أن يعود يوماً فيستأصل شأفتهم ، ويديل منهم ، وتكون له الـكرة عليهم ؟ لقد كان أبوك المظيم حبيب مينرڤا وصفيها ، وهى لابد آخذة بناصرك كما أخذت بناصره من قبل ، وهى لا بد مدركتك وشـيكا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء أبيك ، وبين هذه الزيجة المجرمة . »

ويجيب تلماك :

« ألا من يدرى ؟ إنه لا أمل لى فى ذلك قط ! آه أيتها الأحاسيس الغريبـة التى تجيش فى قلبى ! الآلهة فقط هى القادرة على تحقيقك بمعجزة ! »

وهنا ، حدجته مينرڤا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :

« تلماخوس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟! ما أيسر على الآلهة أن تقول للمستحيل كن فيكون ! أنا نفسى كم تجشمت أهوالاً فى أسفارى ثم عدت بعناية أربابى سالمـا إلى أرض الوطن ! بل كم من أناس ظنوا أنهم نجوا من الموت فى يم غشيهم بموج كالظلل ، فلما وصلوا إلى البر حاقت بهم مناياهم كما حاقت به منيته أجاممنون ، حين خر صريعاً بيـد إيجستوس الأثيم ؛ والملكة[1] الغادرة الفـاجرة الزنيم ! حقاً ، إن الآلهة لا تملك أن تحول بين المرء وبين المنون ما دام قد جاء أجله ، مهما يكن حبيبها وأعز عبادها عليها . »

(١) شرحنا ذلك فى درامات إسخيلوس فى الرسالة

(١) كليتمنسترا

وعبس تلماك عبوسة خفيفة ، وقال :

« مهما يكن الأمر فلندع هذا الآن يا منتور ! إننى لا أمل لى مطلقاً فى عودة أبى ، ولكنها أقضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار ، وأن أعود فأسائل فخر اليونان نسطور ، اللبيب الأريب الذى حكم كما هو مأثور أجيالاً ثلاثه ، والذى يتألق فى عينيه سناء الآلهة . . . أعود فأسائله كيف قتل أجاممنون ؟ وكيف تهيأ لايجستوس أن يقتله ، وهو من هو أعلا منه نسباً وأعز حسباً وأشرف قدراً ، وأين كان منالايوس الملك شقيق أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد بعد إلى أرض الوطن ؟ أم كان ما يزال يطوى الآفاق فشجع ذلك إيجستوس ونفخ فى قلبه ؟ »

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فانى قاصٌّ عليك نبأ مالم يأتك به علم ... تالله لو لم يُقتل إيجستوس قبل عودة منالايوس ، ما أُقيم على رفاته جدث ، وما بكت عليه عين ، ولألقى بدنه النجس لكلاب البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتفتذى به ، جزاء فعلته الشنعاء ، وجرمه الذميم وخطيئته التى لا تغتفر . إصْغ إلى . . . لقد أناب منالايوس عنه حارساً أميناً يسهر على أمور المملكة ويكون فى خدمة الملكه . . . ذاك هو أتريدس الحيم ، الذى تغفله إيجستوس ، واتصل بمولاته سراً وهو لا يدرى ، واستطاع أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة التى انتهت بنفى الحارس الأمين ثم قتله فى برية موحشة غالبته فيها السباع الضارية والأوابد[1] الكاسرة ، حتى إذا خلا لهما الجو أسلست له الملكة القياد فحكم وساد وطغى واستبد وسُلط على العباد أعواماً سبْعاً طوالاً ... كل هذا والسماء ساهرة لا تغفل ، فقد عاد أورست ابن الملك الغائب ، وابن الملكة الفاجرة ، فأنقذ عرض أبيه وقتل الوحش اللئيم الذى دنَّس شرف المملكة ، ولطخ بالوحل هذا المجد الأثيل ، ثم قتل أمه . . . أجل ، قتل أمه وجمع حوله الأرجيف البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للآلهة التى أنقذتهم من ذاك الشر ... وبينا هم فى أفراحهم وانشراحهم إذا بالملك العظيم يصل بأساطيله بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر .. فلقد أبحرنا (أنا ومنالايوس) من طروادة معاً ، وما كدنا نبلغ صنيوم[1] ، أول مرافئ أثينا ، حتى وقع مالم يكن لنا بحسبان ... ذلك أن رب الشمس أبوللو غال بسهامه التى لا تطيش ربان الأسطول العظيم ، فرونتيس ، فاضطر الملك أن يلقى مراسيه حتى يصلى على صديقه ويقيم الشعائر على جثمانه ؛ ثم أقلع ، وما كاد ، حتى اضطرب البحر ، وفغرت اللجج أفواهها ، وتدافع الموج حول الأسطول كالجبال ، وعتم الجو ، وغامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب الأسطول وتفرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها شرّق وبعضها غرّب وبعضها يمم شطر سيدون عند كريت ، وبعضها اتجه برغمه نحو شطئان مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخمس فقط ... وصلت بعد طول الجهد الى هنا ... »

« بنى ... أيها الصديق الشاب ... أخلق بك أن تذهب من فورك الى منالايوس فتسائله عن أبيك ، فلقد لقى الأهوال فى البحر ، ولا ريب أنه سمع بكثير مما جرى فيه من مختلف الأمم فى رحلته

(١) الوحوش

(١) sunium

المشئومة ... هلم ... إنطلق إليه ... وإن لم تسعفك سفينتك فإنى ممدك بكل ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وها هم رجالى معك أينما توجهت ، بل ها هم أبنائى ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى منالايوس ، فإن عنده الخبر اليقين »

وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشر ظلامه فوق الطبيعة المنهوكة الخامدة فنهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرڤا الخالدة ، وهى ما تزال فى صورة منتور أمير البحر وطيلسانه ، فقالت : « مرحى يا فخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ؛ هلم ، البدار البدار ، قطعوا ألسن القرابين[1] وأريقوا الخمر باسم الآلهة ، وباسم نبتيون قبل كل شىء ... »

وانتشر الولدان بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد إذ أدوا التحية الخمرية المقدسة لأربابهم ، ثم تفرقوا شيعاً ، ونهض تلماك وصاحبه لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :

« حاشا يا رفاق ! أنتما ضيفى ، فكيف تبيتان فى سفينتكما تحت طل الليل وهذا بيتى فيه كِنٌّ لكما وفراش وثير ، وفيه والحمد للآلهة ، خير كثير ، وهؤلاء أبنائى سمّار كما وهم ثمة طوع لكما »

وشكرت مينرڤا للملك عطفه ثم قالت : « بوركت أيها الملك ، ليبق تلماك هنا ، ولأمض أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبى ، ولأطمئن بحارتى ، فكلهم أتراب تلماك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً ، وليس يجمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافنات جيادك ليلحق بنا ثمة ، يصحبه أحد أبنائك ، ما دمت قد عرفت فيه ابناً لأعز أحبائك وأوفى أصدقائك »

ثم حدثت المعجزة . . . فإنه ما كادت مينرڤا تتم كلامها ، حتى انتفضت انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منتور أمير البحر إلى نسر عظيم مهوب اللفتات ، ما عتم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى حلق فى السماء ، وغاب فى لا نهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم .

وتناول نسطور العظيم يد تلماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :

« أيها الصديق ؛ لشد ما عظمت منزلتك ، وسما مكانك . حتى لتكون فى رعاية الآلهة وعناية السماء ! هذه دون أى ريب ابنة سيد الأولمب — الكريمة مينرڤا — التى ما وقرت أحداً من أبناء هيلاس كما وقرت أباك

« ولكن أنتِ ! أنتِ يا مليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفى بنا جميعاً ! أمنحينى بركاتك ... أنا وأبنائى وشعبى ... اكتبى أسماءهم فى الخالدين ، وسنصلى لك ونذبح باسمك بقرة ؛ لا ذلول تسير الأرض ولا تسق الحرث ؛ مُسَلَّمة لا شية فيها ؛ منضورة بالورد ، محلاة القرنين بالذهب »

وقبلت مينرڤا صلاته ، ولبت دعاءه ، ونهض وفى إثره أبناؤه وأحفاده ، وفتحت أبواب القصر وتقدمت ندمانة الشراب فقدمت إليه كأساً من خمر لها نسب من عهد آدم فأفرغها فى الأرض تحية لمينرڤا ، واقتدى به ملؤه فأفرغوا كؤوسهم ، ثم مضوا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك مع تلماك إلى

(١) كان من التقاليد الشائعة أيام هومير أن تقطع ألسن القرابين وتحرق باسم الآلهة لينصرف الجمع

مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزستراتوس فقام معه ، ثم ذهب حيث وجد الملكة فى انتظاره

ونشرت أورورا [١] غلالتها الذهبية فى مشرق الأفق ، فاستوى نسطور على عرشه المرمرى المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه نليوس يجلس كآله للنظر فى صوالح العباد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم تلماك الذى جلس إلى جنب أبيهم وتحدث إليهم نسطور فقال :

« هلموا يا بَنِىّ ، لنذبح القربان المقدس باسم مينرڤا الكريمة التى باركت حفلنا أمس ؛ لينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً [٢] سميناً ، وليذهب آخر فيدعو رجال تلماخوس — إلا اثنين — من السفينة ؛ وليمض ثالث فليأت بالصناع الفنان (ايرسيوس) ليجلل قرنى القربان بالذهب وليبق الآخرون هنا ، ثم لتحضر كل حاشيتنا من النساء ليكسبن الوليمة بهجة ورواء »

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء ، ثم قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم ... وافت مينرڤا ... مينرڤا نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها ... ، وبدأ الفنان عمله ، فأخذ يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة فى القرنين الصغيرين . وتقدم أريتوس بن نسطور وفى إحدى يديه باقة كبيرة من الزهر وفى الأخرى سلة من أنخر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثانى تراسيميد وفى يده شاطور كبير ليذبح الثور ووقف قبالته برسيوس يتلقى الدم فى وعاء كبير . ونهض نسطور الأب فسبح وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتمتم باسم مينرڤا ، وقذف فى اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان ، وبقدر قليل من الماء المقدس . وإذ انتهى الجميع من صلاتهم شمر تراسيميد عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونه ، وكانت يوريديس الجميلة المفتان تمنى أشد عناية بالفخذين ، فسترتهما بثوب غال من الديباج ، وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة والعطور والأرواح . . وهكذا أخذ الجميع فى شغلهم ، وشرعوا يلقون فى الجمر بالحوايا ، وشرعت پوليكاست تنثر البهار والتوابل . . . وتهادى تلماخوس بعد هذا فاستوى إلى جنب الملك ، وانتصب الولدان والندامى يصبون الخمر ، وبدأ الكل يأكلون هنيئاً ويشربون مريئاً

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فهيئت الصافنات الجياد لرحيل تلماخوس وأحضر القواص عربة كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج الرحلة من زاد وعتاد

وأخذ تلماك مكانه من العربة الأولى ، واستوى إلى جانبه پيزستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تلماك وودع ، وشكر وأثنى ، وجذب عنان الخيل فانطلقت تنهب الرحب ، وتبتعد عن پيلوس وتطوى الزمان

وبلغوا ، مع مغرب الشمس ، فيريه ، حيث تلقاهم رب البيت بالبشر والترحاب ، وباتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة . فواصلوا رحلتهم إلى أسپرطة

(يتبع) دريني خشبة

(١) ربة الفجر وحادية عربة أپوللو حين يركب الشمس عند الشروق

(٢) كان على نسطور أن يذبح بقرة مسلمة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر





النعـــاس ـــ للمصور الانكليزى ر . ستفنس

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ
تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد الخامس ١٩ محرم سنة ١٣٥٦ — ١ ابريل سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العدد

الرواية

رغب إلينا كثير من أصدقاء الرواية أنهم يفضلون أن تقتصر على نشر الأقاصيص القصيرة ، فان تسلسل القصص الطويلة يخمد نشاط القارئ ويزهق جاذبية الحديث . وفي هـذه الرغبة المتشبثة لا شك سداد ووجاهة . غير أن الفن القصصي كله أوجله في هذه المطولات الرائعة ، فاذا أغفلناها لهذه الأسباب قطعنا عن الأدب العربي الرافد الأغزر ، وخرجنا بالرواية عن الغرض الأجل . لذلك سنحاول التوفيق بين رغبة القارئ وغرض الرواية بأن نقطع هذه السلاسل فلا نبقى منها إلا الاعترافات والمذكرات ، لأن موضوعاتها تكاد أن تستقل ، وإلا الأوذيسة ، فان أناشيدها توشك أن تنتهي ؛ ثم ننشر من حين إلى حين قصة من بدائع القصص الطويلة كاملة في عدد واحد . وبذلك تساهم الرواية مساهمة صحيحة في تغذية القارئ العربي والأدب العربي بما راع وخلد من الفن القصصي الصحيح



عرفت الفتى (رنيه دي برنيڤال) شابا عظيم البسطة لطيف العشرة، تغشى وجهه سحابة رقيقة من الحزن تكاد لا تنقشع؛ وهو شديد التشاؤم، صريح التشكك، لاذع النقد، بارع السخرية من نفاق الناس ولؤم العالم؛ يقول وكثيراً مايقول: «إن الناس ليس فيهم صالح؛ وإذا كان فيهم عفة فهي بالأضافة إلى ما فيهم من الدعارة»

كان له أخوان من آل (كورسيل) لا يجمعه وإياها ظل، فكنت أظنه من رجل آخر غير أبيهما، نظراً لاختلاف اسمه عن اسميهما؛ وقد اضطربت الألسنة في مناسبات كثيرة بأن حادثاً غريباً وقع في هذه الأسرة، ولكنها لم تفصل الخبر ولم تقص الحادث. وحبب إليّ هذا الشاب كرم شمائله فتوثقت بيننا أسباب الألفة، واتصلت زيارات المودة

في ذات مساء سألته عرضاً وأنا أتعشى على مائدته أنا وهو من غير ثالث: «أولدت على فراش أمك الأول أم على فراشها الثاني؟» فانتسف وجهه قليلاً ثم تضرج، وبقي لحظة لا يتكلم وقد بدت على محياه ربكة ظاهرة؛ ثم ابتسم ابتسامته الساهمة العذبة وقال: «إذا كنت ياصديقي تنبسط لحديثي وتنشط لسماعه، فسأقص عليك من نبأ مولدي ومحتدي ما تستغربه. وعهدي بك رجلاً ذكياً فلا أخشى أن يؤذي صداقتك هذا الحديث؛ وإذا تأثرت به وتألمت منه فلن أحرص بعد اليوم على أن يكون لي منك صديق

إن أمي — عقيلة كورسيل — كانت امرأة حديثة السن حيية الطبع خافضة الجناح، خطب زوجها منها المال، وتزوج منها الثروة؛ فكانت حياتها معه حياة الشهيد المعذب. هذه الفتاة الودود الخرود الرقيقة عاملها ذلك الفلاح الجلف الذي كان يجب أن يكون أبي، معاملة جافية قاسية من غير هوادة ولا رحمة

لم يكد ينقضي شهر واحد على زواجهما حتى كان يعايش خادمة من الخدم؛ وكان يتخذ فضلاً عن تلك نساء مستأجري مزرعته وبناتهم حظايا وخلائل؛ ولم يمنعه ذلك من أن يكون له من زوجته ولدان، وقد كان الناس يعدوننا — وأنا فيهم — ثلاثة

كانت أمي تعتصم بالسكوت وتلوذ بالصبر وتعيش في هذا البيت الصاخب اللاعب كما تعيش الفيران الصغيرة التي تسرق الخطى وراء الأثاث، وتختلس الأنظار بين الفرش

كانت تنظر إلى القوم وهي مزوية مخفية راجفة بعين ثاقبة قلقة كأنها عين الفزع، فلا تستقر في

محجرها ولا تطمئن . على أنها كانت رائعة الحسن ، بارعة الطّرف ، شقراء الشعر ، في شقرتها لون من الشهبة ، ومعنى من الحياء ، كأنما لوّحت شعرها مخاوفها المستمرة

وكان من بين الأصدقاء المختلفين إلى قصر السيد كورسيل ضابط قديم من ضباط الفرسان أرمل مرهوب الجانب ، رقيق القلب ، حاد الطبع ، إذا أزمع أمراً لم يثنه عنه شيء ؛ ذلك هو السيد برنيفال الذي أحمل اسمه . كان رجلاً مديد القامة ، مجدول الخَلق ، خفيف البدن ، أسود السبلتين ، غليظ الشارب ، يشبهني كثيراً وأشبهه . يقرأ كما يقرأ الأدباء ، ولا يفكر كما يفكر أهل طبقته . كانت جدته العليا صديقة لجان جاك روسو ، فكأنما ورث عنه شيئاً من طريق هذه العلاقة . حفظ كتابيه (العقد الاجتماعي) و (هيلويز الجديدة) عن ظهر قلب ، ودرس سائر كتبه الفلسفية التي مهدت عن بُعد لهذا الانقلاب الذي حدث لعاداتنا الباطلة وآرائنا الفائلة وآدابنا السخيفة

أحب أمي وأحبته كما يظهر ، وظلت هذه العلاقة سراً مكتوماً لا يطير في جنباتها ظن ، ولا تحوم حولها شبهة . ورأت هذه المرأة المسكينة الحزينة نفسها مفروكة متروكة ، فتعلقت بأسباب هذا الرجل تملق اليائس ، واتخذت في معاملتها طريقته في التفكير ، ونظريته في العاطفة الحرة ، وجرأته في الحب المستقل ؛ ولكنها كانت من الحياء والخفر بحيث لا تجرؤ على أن ترفع صوتها بالكلام ، فظلت هذه الأهواء والآراء في قلبها المغلق مكظومة مركومة مركزة

وكان أخواى كأبيهما قاسيين عليها ، لا يلاطفانها ولا يحفلانها ؛ وقد تعودا أن يرياها في البيت من سقط المتاع ، وأن يعاملاها معاملة الخدم

وقد كنت أنا الوحيد من بين أبنائها الذي بادلها حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص

ثم توفيت وأنا في الثامنة عشرة من عمري . ولابد أن أقول لك لتستطيع فهم ما يلي من الحديث : إن زوجها كان ممهوراً بحكم شرعي يجعل لها الحق في استقلالها بادارة أموالها ، فكان لها بفضل حيلة القانون وذكاء المسجل ، أن توصي بما تشاء لمن تشاء

أبلغنا بعد وفاتها أنها تركت عند هذا المسجل وصية ، ثم دعينا الى محضر فضها وقراءتها

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث أمس : كان منظراً عظيماً أليماً ، مبكياً مضحكا ، مفاجئاً مدهشاً ، أحدثه تمرد بعد الموت ، واحتجاج من جوف القبر ، وصوت الحرية اليائس ينبعث رهيباً من خلال الناووس المقفل ، يحمل شكوى هذه الفقيدة الشهيدة التي أشقتها أخلاق الناس وسحقتها تقاليد المجتمع

كان الرجل الذي يظن نفسه أبي دمويا لحيما كأنه جزار ؛ وكان أخواى فتيين قويين أحدهما في الثانية والعشرين والآخر يصغره بسنتين ؛ وكان ثلاثتهم ينتظرون مطمئنين على المقاعد . أما السيد بورنيفال ، وقد دعي أيضاً إلى شهود هذه الجلسة ، فقد دخل وأخذ مكانه خلفي ؛ وكان في ردنجوته الضيقة شاحب اللون كاسف البال يعضض شاربه الذي أخذ يشتهب ؛ فلا جرم أنه كان يتوقع ما سيحدث

أغلق المسجل الباب بالقفل والرتاج وشرع يفض أمامنا الغلاف المختوم بالشمع الأحمر وهو يجهل ما يحتويه ، ثم أخذ يقرأ :

* * *

أمسك صديقي عن الكلام فجأة ؛ ثم قام إلى درج في مكتبه فأخرج منه قرطاساً قديماً فنشره ثم قبله طويلا ودفعه إلى وهو يقول : « هذه هي وصية أمي المحبوبة فاقرأ » فقرأتها فاذا فيها :

« أنا — آن كاترين جنفييف ماتيلد دى كروا كسيلوس ، الزوجة الشرعية لجان ليوبولد يوسف جونتران دى كورسيل — أعلن وأنا صحيحة الجسم سليمة العقل إرادتي الأخيرة

« استغفر الله أولاً ، وولدى العزيز رنيه ثانياً ، من العمل الذى أريد أن آتيه . وفى اعتقادى أن ولدى من كبر النفس وسمو العاطفة بحيث يفهم حقيقة أمرى ، ويقبل واضح عذرى . لقد قضيت حياتى بائسة معذبة . كان زواجى مسألة حسابية مالية ، فلا غرو أن تكون حياتى الزوجية سلسلة من الأنكار والاحتقار والضيم . يعنف على زوجى من غير رحمة ، ويختانني من غير هدنة ؛ فأنا أغتفر ما فرط منه إلى ، ولكنني لا أعترف بأن له ديناً على

« وولداى الكبيران لم يحباني ولم يدللاني قط . كانا قليلا ما يعاملانني معاملة الولد للأم

لقد كنت لهما ما ينبغى أن أكون فى حياتى ، فلست مدينة لهما بشىء بعد مماتى

« إن علائق الدم لا تتوثق بغير المودة الدائمة الملازمة فى كل يوم ، وأما الولد العقوق فهو أبعد من الغريب . وهو مجرم لأن الولد لا ينبغى له أن يستخف بأمه

« لقد كنت أمام الناس أضطرب خجلا وأتفزع وجلا من قوانينهم الباغية وعاداتهم الجافية وأحكامهم المعيبة ، ولكنني أمام الله لا أخشى شيئاً ولا أرهب أحدا ؛ فأنا بعد أن مت أطرح عن نفسى هذا الخجل المنافق وأجرؤ على أن أصحر بفكرى وأجهر بسرى

« إذن أوصى بمالى الذى جعل لى القانون حق التصرف به لعاشق المحبوب (بيير جرميه سيمون دى بورنيفال) ليؤول من بعده إلى ولدى وولده رنيه

وإنى بين يدى الله رب العالمين وأحكم الحاكمين أعلن أنى كنت ألعن السماء وأرجم الأرض لو لم يتح لى هذا الحبيب الصادق المخلص ، فأذوق من شفتيه الود المصفّق والحب الموثّق والحنان العطوف ؛ وأفهم بين ذراعيه أن الله خلق الناس ليجتمعوا على الحب ، ويأتلفوا على الصفاء ، ويتعاونوا على الشدة ، وينضح بعضهم حسرات بعض بالعزاء والدمع

« إن ولدى الكبيرين أبوهما السيد دى كورسيل ، وأما ولدى رنيه فأبوه السيد دى بورنيفال ، وإنى أسأل الله رب البشر ومصرف القدر أن يضع الوالد والولد فوق ظنون الناس وأوهام المجتمع ، وأن يؤلف قلبيهما على الحب مدى الحياة ، وأن يعطفهما على وأنا فى القبر »

(ماتيلد دى كروا كسيلوس)

فلما فرغ المسجل من قراءة الوصية نهض السيد دى كورسيل وصاح : « هذه ولا ريب وصية امرأة مجنونة ! » فتقدم السيد دى بورنيفال وقال بصوت قوى حاسم :

« أنا — سيمون دى بورنيفال — أعلن أن هذه الوصية ليس فيها إلا الحق المبين والصدق المحض ، وأنا مستعد أن أثبت ما فيها بما تحت يدى من الرسائل »

حينئذ مشى السيد دى كورسبل الزوج إلى السيد دى بورنيڤال الحبيب ، فما شككت فى أنهما سيتقاتلان . وقف أحدهما للآخر ؛ هـذا ربيل وذلك هزيل ، وكلاهما وافى الشطاط يتهور بالكلام ويتسمر بالغضب . قال زوج أمى لحبيبها وهو يتزغم ويزمجر :

« يا لك من شقى شرير ! »

فرد عليه الآخر بلهجته وغلظته : « سنتلاقى فى غير هذا المكان ياسيدى . ولقد كنت أود قبل اليوم أن ألطمك وأتحداك ، لولا أننى آثرت سلام هذه المرأة التى أشقيتها بخياناتك ، وعذبتها بقساوتك »

ثم التفت إلى وقال : « إنك ولدى ، فهل تريد أن تتبعنى ؟ إننى لا أملك الحق الذى يساعدنى على أخذك ، ولكننى أملكه إذا شئت فجئت معى »

فصافحته من غير أن أجيب ؛ ثم خرجنا معاً وأنا أسوأ حالاً من المجنون

وبعد يومين قتل أبى زوج أمى فى مبارزة ؛ فلزم أخواى الصمت اتقاء لعار الفضيحة وسوء السمعة ؛ ونزلت لهما عن نصف ما تركته أمى فقبلاه . وتسميت باسم أبى الحقيقى ، ورميت للقانون ذلك الاسم الذى نحلنى إياه وليس لى به صلة . ومنذ خمس سنين توفى السيد دى بورنيفال فحزنت عليه حزناً شديداً حتى لم أملك العزاء عن فقده إلى اليوم

* * *

قال ذلك صديقى الشاب ثم نهض فخطا إلى حتى وقف بين يدى وقال : « هيه ! أليس من رأيك أن وصية أمى هى أجمل وأنبل ما تستطيع امرأة أن تعمله ؟ » فبسطت إليه يدىَّ الاثنتين وأجبته :

« بلى يا صديقى ! ذلك شىء لا ريب فيه »

الزيات

عدد الرسالة الممتاز

سيصدر يوم الاثنين المقبل عدد الرسالة الهجرى الممتاز فى ثمانين صفحة مدبجاً بأقلام أقطاب البيان وأعلام الفكر فى مصر وسائر الأقطار العربية ، وإليك بعض أسمائهم مرتبة على حروف الهجاء :

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور
الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
« ابراهيم مصطفى
الدكتور أبو العلا عفيفى
الأستاذ أحمد أمين
« أمين الخولى
« توفيق الحكيم
الدكتور حسن ابراهيم حسن
« شخت
الأستاذ عباس محمود العقاد
« عبد الرحمن صدقى
« عبد القادر المغربى
« عبد الحميد العبادى
الدكتور عبد الوهاب عزام
الأستاذ على الطنطاوى
« فخرى أبو السعود
« قدرى حافظ طوقان
« محمد أحمد الغمراوى
« محمد سعيد العريان
« محمد عبد الله عنان
الدكتور محمد عوض محمد
الأستاذ محمد فريد أبو حديد
« محمود غنيم



الدكان

للأستاذ عبد القادر المازني

وقفت « جليلة » حائرة لا تدرى ماذا تصنع ، فقد انفرزت إحدى العجلتين الخلفيتين فى الرمل وأبت أن تخرج منه وعجز المحرك عن جذبها ، بل كانت العجلة تزداد غوصاً كلما حاولت نزعها ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ولم يبد أحد فى الأفق ، وكان « الكشك » الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب « الكازوزة » يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين ، فليتها ما جاوزته إلى هذا المكان القفر . . . ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب ، والأرض بعد « الكشك » غير ممهدة ، ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص ، وقد طوفت من قبل فى أرجاء هذا الفضاء الرحيب فهى تعرف صلابة الأرض ولا تخشى رخاوتها . غير أن الحظ خانها فى هذه المرة فما كادت تقف بالسيارة وتنأى عنها قليلاً ثم ترجع حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها فى الرمال الخائنة ، وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد « الكشك » ؛ فهل تترك السيارة وتعود أدراجها إلى الكشك تلتمس من صاحبه المعونة وتسأله أن يدعو إلى نجدتها بعض خفرائه ؟ ؟ لم يبق من هذا مفر على ما يظهر وإلا صار خطبها أدهى بعد الغروب . وصح عزمها على ذلك فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها وإذا بصوت يقول لها :

« اسمحى لى . . »

فالتفتت مذعورة فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ، ولا رأته وإن كانت قد دارت بعينيها فى المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع إلى « الكشك » . ولم يسألها الرجل شيئاً ولم ينظر إليها بل انطرح على الرمل بثيابه الأنيقة بعد أن ألقى طربوشه فى السيارة وراح يجرف الرمل بيديه من خلف العجلة وقدامها . ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطرقاً ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شىء ، ثم انحنى وتناول حجراً كبيراً ولوحاً من « الصاج » وعاد بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح امامها وتحتها ليكون دورانها عليه لا على الرمل ، ثم نهض مرة أخرى وقال : « أظن هذا يكفى . . فلنجرب على كل حال »

فقالت : « أشكرك . . لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم تنجدنى ؟ »

فأشار بيده وقال : « أجّلى الشكر حتى أستحقه . . إن العجلة المسكينة لا تزال غائصة فلننقذها أولاً ».

ومضى إلى آخر السيارة وقال : « أديرى

المحرك وسيرى بها وسأدفعها أنا من الخلف »

فقفلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار ونزلت منها متهللة الوجه فصاح بها : « لماذا وقفت ؟ . هل حدث شيء ؟ »

قالت : « لا ... إنما جئت لأشكرك ... »

ففرك يديه ومد عيناه إليها وقال : « آه صحيح . صار الشكر الآن واجباً . أليس كذلك ؟ . »

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكراً وأنه كان ينتظر منها أن تمضي عنه بلا كلام

وقالت وهي تبتسم له — في عينيه — : « ألا تريد أن أشكرك ؟ »

فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه : « كلا ... إنه دين قديم أؤديه ... بعضه على الأقل »

ففاضت الابتسامة وقالت مستغربة : « دين ؟ . لي أنا ؟ . ولكني لا أذكر ... أني أعرفك ... لا مؤاخذة ! »

قال : « صدقيني حين أقول لك إنه يسرني أن أراك ناسية ... إنها ذكرى خليقة ألا تثير في نفسك إلا الامتعاض والنفور بل المقت ... فالحمد لله »

فدنت منه مقدار خطوة وقالت : « ولكن أرجو أن تريحني ... هل تعرفني ؟ »

قال : « أعرفك ... أظن ذلك ... وإن كنت لا أكتمك أني نسيت اسمك ... انتظري (ورفع كفه الكبيرة الغليظة الى جبينه) اسمك ياستي ... غريب ! ! تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم ... أوه جدا ... جميلا ... وجدته ! وجدته ! . جليلة ... أليس كذلك ؟ »

فصاحت : « نعم . نعم . ولكني آسفة لأني لا أذكرك أبداً ... لا صورتك ولا اسمك »

فقال بابتسام : « إنهما جديران منك بالنسيان »

فألحت عليه أن يذكر اسمه فقال : « هذا لغز سأترك لك حله وأنت عائدة »

فابتسمت وقالت : « ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لي حادثة ؟ »

فقال : « صحيح . صحيح . إذن لم يبق مفر من التضحية ... سأخسر ما صرت جديراً به من الشكر وأسترد سخطك القديم »

فسألته وهي تضحك : « هل كنت فظيعاً إلى هذا الحد ؟ »

فقال : « ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمي . . مراد الباروني »

فأطرقت وقالت على مهل : « مراد . . . الباروني ؟ (وهزت رأسها) كلا . . إن ذاكرتي لا يختلج فيها شيء . . آسفة »

فقال وهو يضحك بدوره : « أما أنا فان ذكراك يقشعر لها بدني فما أستطيع أن أنسى أنك صببت على ملء قربتين من الماء في الشتاء . . سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه . . أهذه ذكرى تنسى ؟ . . ألست معذوراً إذا ظللت متذكراً . . ؟ »

فدنت منه وقالت بصوت خافت كالهمس : « مراد ؟ . . صحيح ! ! »

فقال : « وكنت ظالمة لي . . »

فقالت : « كلا ... لقد تذكرت الآن ... فقد وضعت لي دودة ميتة في قفاي ... الحق أنك كنت فظيعاً »

فأشار بيده إشارة المستنكر : « لا لا لا لا ... هذا كان سوء تفاهم . . أعنى أنى كنت فرغت من اللعب بالدودة وظننت أنك قد يسرك أن تأخذيها لتلهى بها ، ولكنى أخطأت فوضعتها لك فى قفاك بدلاً من يدك ... بل كان الخطأ منك لا منى ، فقد جعلت تجرين خائفة وأنا أجرى وراءك فلم يسعنى إلا أن أتركها لك فى حيث تيسر لى ذلك فالذنب لك يا جليلة »

فقالت جليلة وهى تضحك : « أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوت كلما رأيتنى ؟ وكيف كنت تجرى ورائى وتدبدب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعباً ؟ »

فقال : « نعم أذكر ذلك ... أذكر كل شىء ... إنه كل ما بقى لى منك ... لقد كنت أصيح وأدبدب لأخفى عنك حبى لك »

فقالت : « غريب ... أكنت تحبنى ؟ ... لقد كان نجاحك تاماً إذن فى إخفاء هذا الحب »

ونظرت إلى وجهه الذى لوحته الشمس ، وشعره الذى ظهر فيه الشيب هنا وههنا وأخذت الصورة القديمة تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئاً فشيئاً ثم قالت : « لقد كبرت جداً ... طولاً وعرضاً ... وتغيرت أيضاً ... من الذى يراك الآن فيذكر بك ذلك الطفل الشقى الذى كان يسود عيشى ويرعبنى كلما ظهر لى فجأة من وراء شجرة ... أو من تحت الأرض فيما كان يخيل إلى ؟ ... ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين ؟ »

فقال : « أوه ماذا يصنع الناس بنفوسهم ؟ يكبرون ويقعون على عمل يشتغلون به . . أنا أيضاً وجدت لى عملاً . . فى تجارة رابحة والحمد لله . . . وأنت ؟ . »

قالت : « أوه . . كبرت مثلك ... »

فقاطعها وقال : « كلا . . إنك لم تتغيرى ... لو كان هنا دود لما خطر لى وأنا أنظر إليك إلا أننا ما زلنا طفلين ولهممت بأن أضع لك واحدة فى قفاك »

فضحكت وقالت : « لقد صرت مهذباً جداً ... لم يبق شىء من ذلك الطفل اللعين ... غريب ... أعنى أن نلتقى هنا هكذا بعد كل هذه السنين ... ماذا كنت تصنع ؟ . أعنى هنا » .

قال : « أتمشى ... للرياضة »

فتنهدت وقالت : « إذن لا أقل من أن أحملك معى فى السيارة »

وقال وهو يركب معها مسروراً : « ما قولك ؟. نحتفل بهذا اللقاء الذى لم يكن لى ولا لك فى حساب بالعشاء نتناوله فى محل الحاتى . . هه ؟ »

فابتسمت لنفسها فى مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذى عبث به النسيم ثم التفتت إليه وهزت رأسها أن نعم ؛ ثم انطلقت تخطف بسيارتها الأرض

***

ولم يكن فى جليلة خفة أو طيش ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة ورثت عن أبيها شدة القلب واستقلال الطبع ، وعن أمها سرعة الاجابة إلى دواعى الخير . وقد مات أبوها قبل سنوات فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته ، فألقت لها حبلها على غاربها وهى تحسب أنها لا تعد وما كان يصنع أبوها .

على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شراً وإنما أكدت استقلالها وأورثتها تمرداً صريحاً على كل قيد من القيود التي يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثة . وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحياناً فتقول لهم : إني لا أفعل سوءا ولا أسيء أدبي ولا أتوقع على أحد ولا قيمة لخروجي وحدي أو مرافقة أصحابي وصواحبي إلى السينما أو غيرها لأني أستطيع بسهولة وبلا عناء أن أحافظ على نفسي . فكانت أمها تسكت ولا تقول شيئاً لعلمها أن الكلام لا خير فيه

ولم تكن جليلة بارعة الحسن ولكن صوتها كانت له حلاوة التغريد ، وكانت نظرتها الحالمة تفعل فعلين يبدوان متناقضين — تنعش القلب وتفتر الجسم ، فاذا أدامت إليك كرة الطرف — على عادتها إذا سرها منك عمل أو قول — شاع الرضى فى نفسك وفاضت بالسرور ودار رأسك وأحسست بالخدر فى أعضائك . وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، وإلى الامتلاء منها إلى النحافة والهزال ، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشى فى الهواء الطلق وفطام النفس عن الآكال الدسمة الثقيلة أن تصبح كأمها أكداساً من اللحم تلح على روحها ؛ وكانت سمراء ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة فيها ولا نمش . وكان شعرها جعدا وأثيثاً وحفاً ، وكانت تفرقه وترسله إلى الوراء وتعقصه وتأبى أن تقصه . وكانت أنيقة بلا تكلف ، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطرة الى حسن التدبير والاقتصاد فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها فتجيء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثدياها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين ، وتكاد من فرط البراعة فى انسجام الثوب على الصدر ترى الحلمتين ترفعان الثوب ، وتبصر استدارة السرة وحسن اللحوق فيما حولها . وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة العضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها . وجمال الساق فى المرأة بشير بحسن القوام . وكانت تكره الأحذية العالية الكعوب نفوراً من بروز الفخذين . على أن هذا كله ما أكثر من يشاركنها فيه . ولو اقتصر الأمر على التكوين المادى لما كانت لها مزية تنفرد بها ، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الاغراء فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب

* * *

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذى قدمه إليه الخادم : « معذرة فانى أتضور جوعا ... لم آكل فى نهارى شيئاً ... ماذا تريدين ؟ . كباب ؟ . لحم رأس ؟ . حمام ؟ . إنى أرى الحاتى عنده كل ما يؤكل ... لا الكباب وحده ... ما قولك ؟ »

فآثرت الكباب وقالت : « إن هذا فنه الذى يمتاز به فيحسن أن أقتصر عليه »

وكانا جالسين فى آخر القاعة ووجهها هى الى الباب ووجهه الى الناس . وشغلا برهة بالأكل وذكريات الطفولة فقال لها وهو يضطجع : « أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلقى النخلة . . . (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى ... فهل أنت ما زلت كذلك . ؟ »

فوضعت الشوكة على الطبق ونظرت اليه وسألته : « ماذا تعنى ؟ »

قال بابتسام : « أعنى أن وراءك ... بعد مائدتين

اثنتين ... رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك . . .
لا يخالجنى شك فى أنك تحسين وقع نظرته على جسمك ... انها نظرة جامية ... كاوية ... انتظرى قليلاً وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة فأديرى وجهك حين يقبل وانظرى ... »

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار ، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير . ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول : « لقد تغيرت جداً ... من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس ؟ أتعرف من هذا يا مراد الذى يكوينى بنظراته ؟ ... إنه خطيبى زكى ... أفهمت الآن . ؟ »

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات : « خطيبك .. زكى ... هذه أخبار ... أظن أن من واجبى أن أقدم لك التهنئات » .

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره فقالت : « لا داعى للعجب ... ثم إن الزواج مسألة عادية جداً على كل حال ... أو كما يمكن أن تقول أنت ... هو شر يصيب كل إنسان ... عاجلاً أو آجلاً ... متى يصيبك يا مراد ؟ ... » .

فقال : « أنا ؟ ... لا أدرى ... صاحبك ... أعنى خطيبك لا يزال محملقاً فى ظهرك ... فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبى إليه وتقولى له بكل هدوء إن لك حقاً فى أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع فى طفولته دودة فى ظهرك ، وصببت عليه عشرين قربة من الماء فى الشتاء ؟ ؟ »

فقالت ببساطة : « إنى أحب زكى ... وأنت لا تعرفه ... بالطبع ليس فى كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه ، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق ؛ كل ما يعرفه أنه خطيبى . وأنى — كما قال لى مراراً — طائشة ... مندفعة ... »

فقال مراد : « اشربى القهوة ... لا تفسدى على نفسك الليلة ... ستشرحين له كل شىء ... فيعود حملاً وديعاً ويعتذر اليك من هذه النظرات الحامية ... »

فشربت القهوة ولكنها كانت ساهمة ، فقد كانت تحب « زكى » هذا وكانت تكره الاضطرار الى الشرح وتستثقل أن تحتاج حتى الى ما يشبه الاعتذار .

وقال مراد : « لقد قام الرجلان ... خطيبك وصاحبه ... » .

فقالت : « يحسن أن نقوم إذن ... فسيودع صاحبه ولا شك ويقف فى انتظارى ... أشكرك يا مراد ... نبهتنى الى أنه خرج ... فلألحق به » .

وخرجا . وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه وعرف منها عنوانها وألح عليها أن تتصل به إذا جد أمر من جراء لقائهما الليلة .

***

وقالت جليلة لزكى : « معى سيارتى فلا حاجة الى تاكس » .

فدخل فيها واضطجع ثم قال : « من هذا الرجل الذى كان معك ؟ » .

فقصت عليه ما وقع لها عند المطار ؛ فقاطعها وقال : كيف تكلمين رجلا غريباً ؟ . . . إن هذا كثير ... » .

قالت : « ولـكنه ليس غريباً ... لقـد نشأنا معاً ... فى حى واحد ... » .

فنفخ وقال : « ولـكنك لم تكونى تعرفين أنه هو صديق طفولتك ... » .

فقالت بلهجة المستغرب : « هل كنت تريد أن أتقبل معونته ولا أشكره على الأقل ؟ ... » .

فترك هذا وقال : « ولمـاذا تخرجين الى هذا المـكان وحدك ؟ »

قالت : لأنك مشغول عنى بأعمالك الـكثيرة التى لا تدع وقتاً لمرافقتى ... ومع ذلك أى بأس هناك ؟ » .

قال : « بأس ... بأس ... هذا الذى حدث لك من غوص المجلة أليس بأساً ؟ » .

قالت : « لا تكن متعنتاً ... إن السيارات يمكن أن يحصل لها أى شىء فى أى مكان فى الدنيا » .

فترك هـذا أيضاً وقال : « ولـكن تأتين معه الى الحاتى ... ماذا يقول الناس ؟ » .

فقالت : « إذا كان الحاتى مكاناً لا يليق أن يدخله الشريف ... » .

فقاطعها بسرعة وقال : « لست أقول هذا ... الأمر على العكس ... » .

قالت : « إذن انتهينا ... » .

فسكت فما رأى حجة له تنهض . وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكان عظيم الطموح واسع الأمل فى المنازل الملحوظة فلم يسره أن الفتاة التى سيتزوجها تقرع حجته بأقوى منها ، وأحس أن فى هذا تنقصاً له وغضاً من مقامه وسقوطا لهيبته ولـكن الـكلام خانه فآثر السكوت على مضض .

وكان زكى — أو إذا أردت اسمه كله زكى الدين حمـد — من أصل تركى أو شركسى — سيان — وكان يطمع أن يبلغ عاله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالـكفاية الشخصية ، وكان أمله الذى لا ينفك يحـلم به فى اليقظة والمنـام أن يصبح يوماً من أعضاء البرلمان ، ومن أجل هـذا كان يتقرب الى الزعماء السياسيين بوسائل شتى ، وكان يعنيه جداً أن يحسن رأيهم فيه وظنهم به ، وكان يحرص على المركز المأمول ويحيط نفسه سلفاً بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار وينظر الى الأمر كله كأنه واقع ، وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك ، بل أن يبالغوا ويروحوا يمدون بصرهم الى المستقبل وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيراً أو رئيس وزارة .

وقال لجليلة وهو يودعها على باب بيتها : « أرجو يا جليلة ألا تعرضينى لـكلام الناس ، واذكرى أن لى مركزاً يجب أن أحافظ عليه » .

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه وأحست أن سهماً وقع فى قلبها . وكانت حساسة وذكية . ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى ، ولم تكن هى تحتاج منه الى مال فان مالهـا كثير . وكانت تدرك أن ما يسميه « مركزه » جانب ضعف فيه ولـكنها تغض عن ذلك لحبها له ؛ غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها بأنها تسىء الى هـذا المركز — وإن كان موهوماً — فضلا عمـا تنطوى عليه عبارته من التعريض بها بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تخف عنه شيئاً . وماذا تخفى وليس فى الأمر ما يستدعى الـكتمان ؟

وقالت له وهى تهم بالدخول : « ليلتك سعيدة »

فسألها : « متى نلتقى غداً ... »

فأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها وألقت إليـه

ابتسامة ساخرة وقالت : « غداً ؟ لا ... إنى على موعد مع مراد ... » .

ودخلت . وتركته واقفاً وفمه مفتوح .

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه ؛ وإنما قالت ما قالت مدفوعة اليه بضجرها وألمها .

* * *

ولم تحاول أن تلتقى بمراد فى اليوم التالى فقد كانت تدرك أن هذا لا يكون منها إلا خرقاً وحماقة.

فلزمت بيتها الى المساء ثم خرجت فى سيارتها على عادتها وجالت بها جولة قصيرة ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها ، وكان الألم لا يزال يحز فى نفسها فساء نومها واضطرب . وذهب يوم وجاء يوم ولكنها أحست ثقلا فى جسمها وفتوراً فبقيت فى فراشها وأوصت أمها أن تمنع أن يزعجها أحد — حتى ولا زكى — فشعرت الأم أن فى الأمر شيئا ، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول . وجاء زكى يسأل عن خطيبته فعرفت الأم أنه لم يلقها منذ يومين ، فأظهرت تعجبها وزلت فقالت إنها كانت تحسب أنها لا تخرج إلا للقائه ، وزل زكى أيضاً فقال لها إن جليلة خفيفة وإن خفتها تسىء الى مركزه ، وإنه كلمها فى ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه ، فهو يرجوها أن تكبحها قليلاً فما يليق أن تترك هكذا حبلها على غاربها . وعرفت جليلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها فدهشت له ولكنها لم تغضب ولم تثر بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها فى مكان القلب قطعة من الثلج .

وجاء العصر فركبت سيارتها وخرجت بها الى مصر الجديدة . وكان كل همها أن تكون هى وحدها وأن تدور دورة فى الهواء الطلق وتمشى قليلاً عسى أن ينفعها ذلك فيعفيها من الشعور بالانقباض والفتور . وإنها لفى بعض الطريق إذا بها ترى مراداً يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعداً ، فوقفت وأشارت إليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان . فجاءها يعدو فسألته : الى أين ؟ ... »

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق اليها تحية بل ركب وهو يقول : « أرانا نلتقى فى هذه الأيام ؟ حسن هذا ... أليس كذلك ؟ » .

فأعداها ما فى وجهه من البشر وقالت ضاحكة : « غريب هذا ... تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة وفى أربعة أيام نلتقى مرتين » ،

فقال : « لا تغالطى يا فتاتى ... ليست هذه مصادفة » .

فنظرت اليه مستغربة وسألته : « ليست مصادفة . . ؟ »

فقال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التى لا تفارقه « كلا ... ليست مصادفة ... إنها إرادتى سلطتها عليك فجذبتك الى حيث أنا ... نعم »

فعاد إليها إشراق وجهها واطمأنت وقالت : « أوه ... آه ... إرادتك ؟ . طبعاً »

فقال : « لا تمزحى ... إنى أتكلم جاداً »

فرمت اليه نظرة سريعة فألفته لا يزال يبتسم فحولت وجهها الى الطريق وقالت : « هذا بديع .. تكلم ... إن أذنى لك »

قال : « نعم ... إرادتى ... لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الارادة فهل تستغربين أنها بلغت من القوة هذا الشأو ! . بالطبع لا ... وأنت أول

من ينبغى أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى ... من حواريى . . . هه . . . وسأفتتح بك العهد الجديد ... »

وبلغا آخر الطريق الى المطار من ورائه فجلسا على سلم السيارة وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن فى صمت ، فلما طال ذلك التفتت اليه وقالت : « إنك لا تسألنى ما ذا حدث »

فلم يحول وجهه إليها وأدرك من كلامها أن شيئاً لا بد أن يكون قد حدث ، ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال فاكتفى بأن يقول : « إن أذنى لك ... أعرناك السمع »

فقالت : « إنك قليل الفضول »

قال : « لأنى مشغول عنه بما فى نفسى . . . الدكان غاصة ... لا تحتمل زيادة »

قالت : « لغة التاجر ... اسمع ... غضب زكى ... أوه ... غضب جداً ... لم يقل شيئاً كثيراً ... كل ما قاله أنى خفيفة طياشة وأنى أسيء بسلوكى الى مركزه »

فانتفض مراد واقفاً وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة ثم التفت اليها وقال بلهجة صارمة :

« من يكون زكى هذا ... »

وكبح نفسه عن الاسترسال ورد لسانه بجهد ، وضبط أعصابه وعاد الى مكانه من السلم والتفت اليها وقال وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى : « معذرة ليس لى حق ... قولى إنك صفحت عنى »

فسرها منه أنه غضب لها وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها فقالت له برقة « أشكرك ... إننا صديقان قديمان ... »

فقال لها وهو ينهض مرة أخرى : « قومى نتمشى ... ودعى السيارة فلن يخطفها أحد »

وقطعا مسافة وهما صامتان ثم وقف والتفت اليها وقال : « اسمعى يا جليلة . . . إنى أعتمد على ما تخولنى صداقتى القديمة من الحق فى الصراحة؛ عشرون قربة من الماء تجعل لى هذا الحق ... أريد أن أقول إنى تحاشيت فى مقابلتنا الأولى أن أكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة . . لأنك قلت عرضاً إنك مخطوبة . . . ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل »

فقاطعته ضاحكة : « اذكر أنه خطيبى ... لا يزال خطيبى ... وأنى قلت لك إنى أحبه »

فقال : « لم يعد هذا يعنينى ... لست أحاول أن أصرفك عنه ... كلا ... ولكنه لم يبق لى بد من أن أقول لك إنى أحبك ، وأنى أحببتك مذ كنت طفلة وكنت أعابثك وأكايدك وأصرخ فى وجهك ... وكان هذا مظهر حبى الصبيانى . . . أما الآن فان مظهره أنى مستعد أن أذهب الى خطيبك هذا وأخنقه بيدى هاتين . . »

فقالت ضاحكة : « لقد توهمت لحظة أنك صرت أرق »

فقال : « كلا . . أنا كما كنت . . واسمعى ولا تقاطعى وإلا بحثت عن دودة ووضعتها لك فى قفاك ... إذا حدث يوماً أن صار الدكان للايجار فأخبرينى ... »

فقالت : « لغة التاجر أيضاً . . . ولكنى سأستعيرها منك ... ثق أنك مفضل عندى على كل مستأجر لهذا الدكان إذا خلا يوماً من الأيام. لم يكن يخطر لى أن هذا ما تنطوى عليه لى ... ومن

التى تتصور أن وضع الديدان فى قفاها يكون علامة حب ؟ ولكنك كنت دائماً غريباً . . . على كل حال ... المسألة المهمة أن الدكان مزحوم ... ليس خالياً ... خرجت أستبضع فامتلأ ... صحيح أنه امتلأ بأشياء لاقيمة لها ... ولكنى لم أكن أعرف أن ما غص به عديم القيمة ... المهم أنه ممتلىء ... وأظنك تدرك أنه مادام مملوءاً فلا مكان هناك لجديد ... يجب الصبر حتى أخليه مما فيه ... هذا يحتاج الى وقت ... ومن يدرى ؟ ربما كان الاخلاء أصعب من الملء ... ولكنك تفهم وتعذر . . .

فقال ببساطة وهدوء : « لابأس .. لا بأس .. إن دكانى أيضاً مزحوم ... ولكنه مزحوم بالنفيس الغالى ... ولست أريد أن أخليه ... لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت ... وهيهات أن أريد أو أستطيع ... إنه مكتظ منذ خمس عشرة سنة . وسيظل مكتظا طول العمر ... وقد عرفت أن مفتاحه معك ... فى يدك ... فادخلى حينما تشائين وعسى أن تشائى ... عدينى أن تحتلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك ... وفى أثناء ذلك نبق كما كنا دائما ... صديقين حميمين »

* * *

ولم يسع جليلة إلا أن تفكر فى أمر الرجلين : مراد الرجل الذى تعرفه منذ الطفولة والذى كان يسود عيشها بعبثه لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها ، وقد ظل بعد ذلك يحبها ، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقة حاله بالقياس اليها ، وقد صار تاجراً ، ولكنه لم يثر لأنه لا يربح إلا الكفاية ، ومن هنا إحجامه الى الآن عن خطوبتها كما حدثها ؛ وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به

فتاة مثلها فكتم حبه وطواه فى صدره ، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس المخامر ؛ وهو ظريف كيس لبق دائم البشر واسع الادراك رحيب الأفق حلو الفكاهة . وزكى الفنى الذى لا يزال مهموماً بمركزه المتخيل ، والذى لا يتقى فى سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ، ويتهمها بالخفة والطيش فى سلوكها ، وبأن سيرتها توشك أن تسىء الى مركزه الموهوم هذا . وقد أحبته ... هذا صحيح . ولكن عينها فتحت فهى تراه الآن على حقيقته ، وليس يسعها إلا أن تفكر فى حياتها معه كيف تكون إذا كان كل ما يباليه فى الدنيا هو هذا المركز . . ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته ... فما العمل الآن ؟

وسألت نفسها ... أى الرجلين أحب اليها ؟ وحيرها الجواب ... فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب ؟ . إن يكن هذا فهو هادىء جدا ... أما زكى فان الدكان كما قالت لمراد مزحومة ... صحيح أنها مزحومة بما لا قيمة له — كما ظهر الآن — ولكنها مزحومة ... فهل تخلو يوماً ؟ . هذه هى المسألة ... وإلى أن تخلو لا سبيل الى شىء ...

ولو أن زكى ذهب إليها فى ذلك الوقت ولاطفها وتألفها وضاحكها ومازحها واعتذر إليها ، ولو كانت هى فى رأيه المخطئة ، لعادت المياه إلى مجاريها كما يقولون ولارتفعت قيمة ما فى الدكان وارتدت إليه نفاسته ، ولكنه أراد أن يلقنها درساً فأعرض أياماً وجفاها وانقطع عن زيارتها ، ولم يكفه ذلك بل أرسل إليها خادمة تبلغها تحياته وتسألها باسمه عن صحتها ، وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها إن سيدها يكثر فى هذه الأيام من زيارة بيت خالته

— وكانت لهــا بنت فى مثل سن جليلة — ليثير غيرتها وإشــفاقها من أن يطير العصفور من يدها فأفلح ولــكن فى استثارة نقمتها عليه ، فقالت لنفسها إن رجلاً يهينها ويعرض بها ويرميها بان سلوكها من شأنه أن يسيء إلى سمعتها وأن يضر بمركزه ، ثم لا يجمل هذا بينه وبينها بل يفضى به إلى أمها ، ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ، ثم يترقى فى تعمد الاساءة إليها فيرسل إليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها إلى سواها — مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينبت ما بينهما ..

* * *

على أنها لم تتعجل وإن كان عزمها قد صح على الفراق فقد كانت شــديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وإرادتها الحرة ، فلم تر ما يدعو إلى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة واســتوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت إلى هذا العزم وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع ، فقد كانت واثقة أنه ما من شيء يستطيع أن يحولهــا عنه . وصار مجيها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به . ولم تــكن تلقى فى تلك الأيام مرادا لأنها أرادت أن تختبر نفسها وحسها لتعرف ما تنطوى عليه له ، فأدهشها أنها تحس وحشة وأنها تشتهى أن تكون معه وأن تستعيد ما تشعر به فى مجلسه من ســكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهادىء . وزاد شوقها إليه أنها كتمت الأمر كله عن أمها فلم يكن هناك من تبثه ما فى نفسها ، ولو كان مراد إلى جانبها لكان خليقاً أن يفهم ويعذر ويعطف وأن يسرى عنها بفكاهته التى لا تخونه ، وأن يعديها بقوته التى تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع فى أمله الذى عاش به سنين وسنين .. وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها فما لقيته إلا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة . فهل هذا هو الحب الذى يقال عنــه إنه يكون من أول نظرة ؟ .. أم تراها كانت تحبه مذ عرفته وهى لا تدرى ، وكان حبها له راقدا كامناً ينتظر فرصة للظهور ؛ لا شك أنها كانت تحبه . كذلك قالت لنفسها وهى راقدة على سريرها بعد الغداء . نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب ، وكان يختبىء لهــا وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه . وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الأعياء .. فيحملها ولكنه لا يرحمها ولا يترفق بها بل يروح يقرصها ويعضها فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالى . . . ولم تستطع أن تنتقم منه إلا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته فجعل ينتفض من البرد ، ولــكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها ولم ينطق بكلمة تشى بالألم أو النقمة أو الغضب ، بل احتمل ذلك . ولما رق له قلبها وأقبلت عليه بالاعتذار إليه وطلب الصفح منه لم ينس دعابته وعبثه ، ونبحها كما يفعل الــكلب « وَوْ .. وَوْ » ففزعت فمــا كانت تتوقع شيئاً من ذلك ، ومضت عنــه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبى فى الحارة ؛ وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابىء بالماء والبرد ، فيالله ما أقواه .. ومع ذلك كانت لا تلعب إلا معه ، وإذا أقبل عليها غــيره من الصبية نفرت ... نعم لا شك أنها كانت تؤثره ... ولمــاذا لا تقول إنها كانت تحبــه ؟ صحيح أنها لم تكن تعرف ما الحب ولــكنها تعرف الآن فقد صارت خبيرة مجربة فلماذا لا تسمى الشيء باسمه الصحيح ؟

وارتدت من الماضى إلى الحاضر وذكرت كيف غاصت عجلتها فى الرمل ووقفت حائرة وإذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها — كما كان يفعل وهو صبى — وينطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال ولا يبالى ما يصيب ثيابه ، ويجرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة ؟ يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه إلى .. ثم يعرفنى فيتلطف فى تذكيرى بنفسه . ويتظاهر بنسيان اسمى وهو منقوش محفور فى قلبه .. وتنازعه نفسه أن يفضى إلى بحبه فيشير إليه من بعيد فى معرض الكلام على ذكريات الحداثة . ويعرف أنى مخطوبة فيفقد كل أمل ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويعفى فى مؤانستى بحديثه كأنما لم ينهد كيانه ولم يتقوض بنيانه . وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زكى .؟ لقد كانت وثبته تلك حسبى دليلا على عمق ما يجن لى من الحب . ومع ذلك أبت له الكياسة والأدب إلا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكى مخافة أن أكره ذلك منه ..

وظلت تناجى نفسها على هذا النحو ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر فقامت ولبست ثياب الخروج واستقلت سيارتها الصغيرة إلى دكان مراد فأقبل عليها يرحب بها فقالت له :

« أنت أولى من الغريب »

فابتسم وقال : « آه .. أهو ذاك ؟ »

قالت : « نعم . أريد شيئاً من الحرير .. قطعاً كثيرة . ألوانها شتى . الوقت ضيق . »

فقال : « الوقت ! لست فاهما شيئاً . »

قالت : « ألا تعرف أن العروس تحتاج إلى ثياب كثيرة ؟ »

فامتقع لونه ولكنه تجلد وقال : « متى إن شاء الله ؟ لست أطمع أن أدعى ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها . وحدى »

فسألته بخبث : « وحدك ؟ »

فقال : « نعم . لن يكون معى سوى خواطرى »

وأدار وجهه إلى الباب ليخنق زفرة يعلو بها صدره ثم التفت إليها وقال : « متى يكون هذا ؟ »

فرفعت إليه وجهاً مشرقاً ونظرت اليه نظرتها الحالمة وقالت : « متى تريد أن يكون ؟ »

فقطب وقال : « إيه .؟ »

فأعادت سؤالها : « متى تريد أن يكون ؟ »

فحدق فى وجهها — فى عينيها — ثم صاح وقد فطن إلى ما تعنى وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسى غير عابىء بالعمال والزبائن وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها إلى الكرسى وصاح بأحد رجاله :

« إذهب . إذهب . حالا . حالاً »

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ، ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب فصاح به :

« هات المأذون .. ألا تعرف المأذون يا أبله ؟ . إذهب . . حالاً . . »

فوقفت جليلة وأقبلت عليه تسأله : « ماذا تعنى ؟ . . ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فقال : « ماذا أعنى ؟ . . يا له من سؤال ! . . نعقد العقد ! . هنا . . حالاً . . فى الدكان . . هذا ما أعنى .. رجالى وزبائنى شهودى .. شهود سعادتى لقد كان التجار فى الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويزينون لهم البضاعة . . وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الاعلانات فى الصحف محل هؤلاء

المنادين ولكني اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس .. كل الناس أن يدخلوا لا ليشتروا بل ليشاركوني في سعادتي .. لماذا لم يجيء المأذون .. إذهب أنت وراءه واستعجله »

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضاً — أفرحها أن عقله استطير من فرط الجذل ، وأخجلها أن كل هؤلاء الناس من العمال والزبائن يرونها ، وأن عيونهم جميعاً عليها ، وأنهم يفحصونها ليعرفوا سر هذا السحر الذي ذهب بلب الرجل الذي ألفوا منه الرزانة والسكينة والظرف والعقل .. ولم تكن تقدر أن يفعل ذلك وأرادت أن تستمهله فأبى ، فاقترحت أن يذهبا بالمأذون إلى البيت فأبى أيضاً ، وقال إن ناساً في هذا الزمان يتزوجون في الطيارة ، فماذا يمنع أن نتزوج في الدكان ، فقالت إنه فرق ساعة ، والمسافة إلى البيت لا تستغرق زمناً ، فأبى أيضاً ، وقال إنه يخاف عليها أن تطير وتتسرب في الهواء ... كلا ... لا بد أن يكون العقد هنا

وراقها هذا الجنون وأرهف خيالها فرضيت وتزوجا في دكان

وقالت له وهما خارجان : « نسيت أن أقول لك إني وجدت أن الدكان لم يكن خالياً قط ... كان ما فيه مخزوناً من أيام الصبى ، فلما أدرت عيني فيه عرفت ولهذا جئت »

فقبلها على باب الدكان

ولم يستح الرجل !

ابراهيم عبد القادر المازني

غرام الشعراء

أقصوصة فرنسية

كانت فتاة أسعدها الحظ وأسعدها الجمال ، ولدت من أبوين أحدهما الثروة وثانيهما الجمال ، فكأن الله أوجدها فتنة للعالمين ، تلعب بألباب الشعراء تارة ، وتارة تلعب بقلوب الطامعين

وكان اسمها مشتقاً من مصدر النصر فدعاها الناس بالأميرة لأنها حكمت إلهين إله الجمال وإله المال

انتصبت للناس صنما يعبده العاقل والجاهل ، رجل العواطف ورجل الأطماع ، فترنحت أعطافها من سكرة الدلال ، وأصبحت تطالع الملأ من عل فتستصغر كل العاشقين

إن رجلاً يسعده الحظ بامتلاك قلب الأميرة ليتسنم فيه عرشين ويمتلك به سعادتين

مرت السنون والأميرة تحسب الدمع خلقةً فى مآقى الناظرين إليها ؛ ولولا قوة فى الكون تسخر المال والجمال لكان قد قضى على الأميرة أن تغادر الدنيا بوحدانية جمالها لا تشرك به أحداً من الناس ، وما تلك القوة إلا الحافز الطبيعى لا يتمرد عليه إلا المتظاهرون بتذليله وهم فى ادعائهم كاذبون

وكان فى المدينة شاب ولد كما ولدت الأميرة من مصدرى المال والجمال ، غير أن إله الشعر كان قد نفخ فى روح الجنين خلسة فجاء الطفل يحمل إلى الدنيا جذوة الالهام

تصبت الشاعرَ محاسن الأميرة فأحبها بروح شاعريته القدسية ؛ ورأت الأميرة فيه ما بهر غرورها فاستسلمت لغرامه ، وتراجع سائر العشاق بذلة الانكسار أمام الشاعر الثرىّ الجميل ، وكان اسمه سعيداً[1] وله صديق اسمه جميل فكتب سعيد إلى جميل يقول :

« لقد رضيت بى زوجاً ، فما أسعدنى بهواها ! وإننى لأشك أحياناً فى سعادتى فأحسبنى واهماً . وهل لمثل هذه الآلهة أن تحب رجلاً يموت ؟

ولكننى أعود إلى رشدى فأسأل نفسى عما دفعها إلى التسليم بقبولى زوجا لها إذا كانت لا تحبنى

لا أرانى مضطراً إلى أن أقول لك ، وأنت الصديق الوفى العارف بما فى سريرتى ، إنه لا مطمع لى فى الحياة الا امتلاك قلب امرأة بكل ما فى كلمة الامتلاك من معنى السيادة المطلقة ، تتربع فى قلب لا وهن فيه ولا شرك ولا ضلال . أريد روحاً أبادلها روحى وحياة واحدة فى جسدين . ذلك حلم الخلود أطمح إلى تحقيقه على هذه الأرض الفانية . إن الله لم يخلق الجمال عبثاً ، فانه وضع فى إهاب الأميرة المثير للنيران قلباً يحترق هو نفسه بها . إننى أشكر الله لأنه أنالنى ما اشتهيت »

وورد الجواب بهذه الكلمة :

« احذر ، فانك شاعر »

وكانت حفلة زفاف جللتها روعة الجمال ولمعت فيها بروق المال

اهتزت المدينة لهتاف الفرح ، وسار العروسان تحف بهما الأمجاد وبواكبهما العز على طريق السعادة والهناء

(١) ترجمت الأسماء بما يقابلها فى العربية

تحت أغصان الربيع أمام الطبيعة الموشاة بحللها السندسية كان سعيد يناجي عروسه بروح شاعر ، وإذ قال لها : ألا تسمعين حفيف أجنحة السعادة حولنا ، تنهدت تنهدا عميقا حسبه الشاعر صدى لنبرات إلهامه

وقضى العروسان شهر العسل في قصر من قصور الريف ؛ وما مرت أيام بعده حتى أخذت الأميرة تشعر بالضجر في هـذه الحياة الهادئة . فأصبحت تتعب من السير في ظلال الأشـجار ، وتحاذر الجلوس على المروج المزهرة خشية أن تنالها رطوبة من الأرض أو لفحة من الهواء

وكان أمير الشعر يدعو أميرة الجمال لترافقه إلى ممشى القصر القديم حيث يعرض جمالها الرائع على البدر المتطلع من بين الأزاهر الراقصة على أغصانها ، ولـكن الأميرة كانت تعلن أنها تخاف لفتات البدر وهو العاشـق الأبدي يلفح الجباه بنظراته فيورثها الصداع

وعجزت حيلة سعيد عن إبداع ما يعيد الابتسام للجمال العابس ، فقرر العودة إلى المدينة

وقال الشاعر في نفسه : لقد يكون قصر الريف قد أثر برياشه البسيط على روح إلـهتي فلأفودنها إلى قصر أجدادي حيث الزخارف الرائعة والرياش الفخم ، ولا فرق إذا سكن ملاك الجمال كوخاً في الحقول أو قصراً في المدينة ؛ ولن يتمكن صخب المجتمع من إقلاق راحتنا وهي تجد في الدنيا ، وأنا أجد فيها الحياة

وتفقدت الأميرة غرف القصر وقاعاته وعلى شفتيها ابتسامة الرضى ، فهتف الشاعر لهـا وناجى آلهة إلهامه قائلاً : لقد فهمت أميرتي ما يدور في خلدي ، وعرفت ما أحب وما أكره ، فأميرتي تمثال أحلامي

* * *

ما أتعس قلب الشـاعر ! بل ما أبعد هيام الشعراء عن أهواء الناس ! إن في بعض النفوس المشتعلة بلهب الأبد غراماً يستنزل العاطفة من عالم التجرد ، وما وجدت هـذه النفوس في الأرض إلا لتشقى ، لأنها تطلب كوثر السماء من كؤوس التراب : تريد حياة من الموت ، وتجرداً من المركّب المنحّل .

وكان الشاعر يجثو أمام أميرته مداعباً أوتار قيثارته فيستنطقها أجمل الأنغام ، ولـكن الأميرة كانت ترفع يدها إلى جبينها وتشكو الصـداع ؛ كان يأخذ الشاعر أروع القصائد ويتلوها على مسامع أميرته فلا تلبث أن تحول الحديث إلى بحث أنواع الطعام وما يصعب هضمه منها

كان يبـدأ حديثه معها قائلاً : أفلا ترين ياحياة الفؤاد أن ... فتقاطعه شاكية حرارة الجو وطفق اليأس يراود تجلد الشاعر

وتقدمت الأميرة يوماً إلى عابدها قائلة : ياسيدي العزيز

فانتفض الشاعر وقال في نفسه : لقد جاءت تبادلني حباً بحب ، وقلباً بقلب

فقال : ليس جمال الحياة في ...

فقاطعته وقالت : في الأعياد والمراقص واستقبال الأصدقاء . أما حان الزمن للقيام بما يوجبه مقامنا الاجتماعي ؟ إنك سـتدعو قريباً أهل المدينة لوليمة كبرى يعقبها الرقص إلى الصباح ، أليس هـذا ما تريد يا سيدي ؟

وسقطت صاعقة السادة على رأس ابن الشعر فانحنى منكسراً وفى عينيه دموع وفى قلبه نار

وكتب سعيد إلى جميل يقول :

« ليس بين الناس من يفوق شقاؤه شقائى ، إن أميرتى لا تفهمنى

لقد لاحت على وجهها ليلة الرقص بوادر انبساط وسعادة ما رأيت عليه مثلها ليلة زفافنا . عرفت طبيعة هذه الأميرة ، فهى عاشقة صلف وغرور ، فيها كبرياء وليس فيها عظمة ، فى صدرها أطماع وليس فيه قلب

تقدمت إليها وهى سكرى بانتصار جمالها فقلت لها همساً : أنت ياسيدتى زهرة بلا عطر . أنت امرأة بلا قلب ، وقلب بلا غرام

فلم تفارق الابتسامة شفيتها ، فكأننى لم أقل لها ماقلت . ثم تنازلت وحدقت فىّ قائلة : صدقت ، أيها السيد ، أنا الزهرة التى تسلب الطبيعة روعة جمالها ، وتنشق من النشر أريجه دون أن تجود بعطرها على أحد ...

ومرت أمامى ورأسها يشمخ كبرياءً وتوارت بين الراقصين كأنها القمر الضاحك بين النجوم ، ولكننى أذكر انها زودتنى بنظرة حسيرة لم أتمكن من إدراك مغزاها

اذرف منى دمعة على نفسى ، فأنا أتعس الناس »

وورد جواب الصديق هكذا :

« تذكر ما قلت لك ، فقد تأيد حكمى »

ووقفت أمام قصر الشاعر عربة تجللها رهبة الموت

نزل السائق عن مقعده وضرب باب القصر ، وكانت الشمس تودع الأرض وقد شحب وجهها المحترق . خرج الخدم وتقدموا إلى العربة فوجدوا فيها مولاهم مضرجاً بدمه ، وفى صدره خنجر وبين أصابعه ورقة خط عليها : « ليرحمنى الله ، فما هى الجانية على »

وانطرحت الأميرة على جثة زوجها وقد ريعت لهذا المشهد الهائل ؛ وعند ما ألصقت شفتيها بجبينه البارد كانت تناجى نفسها قائلة :

للزهرة أن تنوّر فى الروض مكتومةَ الأريج ، فانها إن لم تحى الصدور لا توقف نبضان القلوب ؛ أما المرأة الجامدة المغرورة التى حرمت نفحة الحب فهى بلية على نفسها وخطر على الناس . لعن الله يوماً جئت فيه الحياة بما لا يجدى ، وأنا محرومة من روح الحياة . إذا ما تلاشى الحب فى قلب المرأة فانه ليستحيل إلى سُمٍّ زعاف يسرى فى عروق كل من يمد لها يداً . وبل لعاشق الزهرة البشرية التى لا عطر فيها

ومر جميل على قبر سعيد ليبكيه فرأى قرب اللحد زهرة نبتت بين حجرين حمراء ناضرة تتمايل مع النسيم . جثا الصديق الوفى وصلى فارتفع عبير الاخلاص من روحه ، وبقيت الزهرة كاتمة أريجها وهى شامخة برأسها تباهى بجمالها

وجالت بين أجفان الصديق الوفى دمعة محرقة فقال :

لعلّ المرأة التى لا تحب قد استحالت إلى زهرة لا تجود بالعبير على قبر الشاعر ، ليكون هذا القبر كمن ثوى فيه مكللاً بحب الجمال محروماً من جمال الحب

ف . ف



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٥ اكتوبر . . .

لم يمكث المأمور عندي طويلاً ، فقد ذهب سريعاً ، وانقطعت عني أخباره ؛ وطلبته كثيراً بالتليفون في المركز فلم يدر أحد أين مقره . كل ما عرفوه عنه أنه خرج في « البوكس فورد » مع المعاون ولم يعد ، وانتظرته طول نهاري لأعرف منه . . ؟؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعيل صبري ، فمشيت بنفسي إلى المركز فلم أفز بطائل ؛ وقال لي قائل : لعله عرج على النادي فهذا ميعاد جلوسه فيه . فما ترددت ، وتوجهت إلى النادي فاستقبلني أعضاؤه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إليّ الـكرسي » السليم » الوحيد في تلك الحجرة زيادة في الاحتفال بي . فسألت عن المأمور فقالوا إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادي حتى هذه الساعة . فلما علموا مني أنه خرج من الصباح مع المعاون في « البوكس » ولم يعد صاحوا جميعاً ، من فم واحد :

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

— ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم في مبدإ أمري ، ولكن



التفاتة حانت مني إلى المائدة والورق المطروح عليها في انتظار اللاعبين . ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لي من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط في هذا النادي ، وأنه اعتاد في أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والمعاش حتى لا يموتوا جوعاً إلى أن يقبضوا ، فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك . وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعزون أنفسهم بقولهم : « سواء أكانت النقود في جيبنا أم في جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة . . » شيء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « للملاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفراً من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم . . وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع المعاون ، إلى

أقرب بلدة يلعب «دورن» ويرجع ، وتارة يستقبلون في ناديهم « منتخباً » قادماً من بلاد أخرى . هنا في مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور أعني مرتبات المركز . . .

على أني لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولي لهم إن المأمور قد ذهب في غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدباً واحتشاماً ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلاً أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم في نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضي انقطع عن النادي من زمن . . . بسبب سوء التفاهم ! . . . فنظرت إلى المتكلم وقد بدا في عيني المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال :

— أي نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور

وأمعن في الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف بين الستات مع بعض . الست حرم القاضي واقعة مع الست حرم المأمور

فأطرقت صامتا ، وظن الحاضرون أن بي رغبة إلى الاصغاء .. فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا في بعض « ردح » من النوع « النظيف » ، امرأة المأمور إغاظة في صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية بالتاج « والضبورة » وغطت رأسها من غير مؤاخذة « بالطرحة أم ترتر » وقالت لها بالصوت العالي : « أنتم حواليكم إلا قلة القيمة ! لا يمشي وراكم إلا حاجب « ربابيكيا » نص عمر مكسر صابغ شعره . لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام » . قامت امرأة القاضي ونزلت فلبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبي المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليّه سفيهة ! أنتم صحيح مالكم إمارة إلا على خفيرين مغفلين ، لكن مَن في البلد كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول : حكمت المحكمة غيرنا ؟. »

ولقد أحسست شيئاً من الحرج في استماعي إلى هذا الكلام ، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة في هدوء ونهضت في الحال مسلماً مودعاً وانصرفت

سرت في الطريق إلى منزلي أفكر . ولقد تمهلت في خطاي ، إذ لم أجد في نفسي رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفي في تراب ملفاتها . وإن رأسي بعد لمشغول بغياب المأمور ، أتراه قد وجدها ؟.. أين ذهب بها إذن ؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له ؟ العجيب في الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون ! الحقيقة أننا لم نفطن اليه . لقد استطاع أن يختطفها من يد المأمور في خفة ومهارة . نعم ، من يد حضرة المأمور لا من يدي أنا . ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية . فهو من غير شك لم يكرهها ولم يحملها قوة واقتدارا . ما سر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل ؟ أتراه قد أغراها بالهرب ؟ ولكن ما الذي يدعوها إلى الهرب ؟ أهي مجرمة ؟ أهذا الجمال الرائع يجرم ! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال ! إن من العسير على نفسي أن أتصور

الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحق شيء واحد . ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن في أذني : « ريم » ! ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتها قلبي خلعاً في تلك الليلة . وما أشك في أن المأمور وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات قد تأثر مثلما تأثرت . فان كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع في مرابط البقر لا أن توضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وألهتني هذه الخواطر وحملتني قدماي من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالي والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكني لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشاً . فلقد لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالساً إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها الى الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحزناً . فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنها اتخذت من الشيخ الأخضر دليلا وصاحباً ومعيناً ، وكان ينبغي لذكائنا أن يتجه في بحثه الى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إني عفردي ؛ ولا سلطة لي بغير رجال الحفظ ألقي اليهم بالأمر . لا بد إذن من الذهاب من فوري الى دار المركز لأبعث أحد العساكر يأتي بهما . وأسرعت في السير قبل أن يعلما برؤيتي لهما فيهربا خوفاً مني . وابتعدت عن المكان وأنا أقول في نفسي : « لا شك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية .

أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينيه البراقتين في بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضي هذا الشيخ الينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدري أهو حقاً أبله أم خلف هذا الوجه الساذج ... ؟ ؟ وكنت قد بلغت المركز . ورأيت ببابه « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألفيته ملقى على « الكنبة » وقد خلع طربوشه وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكد يراني حتى صاح :

— المسألة وحياتك فيها شغل سحر ! لا بد أن الشيخ الكاب سحر البنت . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا في دايرة المركز غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كفر ولا دوار ولا ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعي ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك في البحر كنا وجدناهم . لكن المصيبة أنهم ...

فما تمالكت أن قاطعته :

— المصيبة أنهم على بعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور ! !

فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلي فاغراً فاه :

— إيه ؟

فقلت في شيء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه ! ! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميري . ؟ !

— قم يا شيخ قل لواحد عسكري يروح يناديهم من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتي ، فقد نهض المأمور فرحا

قبل أن يسمع منى . وصاح بصوت جلجل فى صحن المركز :

— يا شاويش عبد النبى !

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق فى قميص وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك !

— قم حالاً مع نفرين للمستشفى الأميرى ومعكم قيد حديد ...

فتردد الرجل وقال مقاطعاً :

— « أودة التبن » مفتوحة يا سعادة البك والأنفار جارين العليق والفرش للخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر ! إن شا الله عن الخيل ما باتوا فى ليلتهم . قلت لك قم فى الحال

— حاضر يا أفندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكتبى بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بى مع المقبوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق فى دار المركز وهى ليست دارى . فرب المركز هو المأمور . ولا أرضى لنفسى أن أكون فى كنفه أثناء عملى . خصوصاً فى هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عجل وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت فى حجرتى جالساً إلى مكتبى أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظراً قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء

وسمعت نقراً على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألنى للفور عن المطلوبين فأجبت أنى لم أر أحداً بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل من يأتى بهما . وجعل ينظر هو أيضاً الى الباب ويفتل شاربيه . وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامى . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع فى الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجاويش يحمل له عوده الطويل . فوقع فى نفسى قلق . وشعرت بوقع مثله فى نفس المأمور . فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً :

— والبنت . ! ؟

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يافندم

— وحده . ؟ ! !

قالها المأمور كما قلتها أنا فى نفس الوقت ، وقد اختلط فى نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فنهض وصرخ فى وجه الشيخ عصفور قائلا :

— البنت . ؟ !

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب فى هدوء رصين :

— بنت مين ؟

فنظر اليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— إنت يا رجل شارب حشيش . ! ؟ شغل الحشيش أنا أفهمه طيب ! !

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ أن يدنو منى فدنا فسألته فى رفق :

— ريم كانت معك ؟

فأجابنى الرجل من غير تردد :

— أبداً

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتنى عند مرورى بباب المستشفى ، وفهم بذكائه ما سيكون فأخفى الفتاة فى الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن عينى هى التى خانتنى فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالى السابح فى جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها

وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات المنتظرات بالباب . كل هذا جائز ، ولكن أين ذهبت ريم ؟ ولماذا أتهم بصرى ولا أتهم هذا الشيخ المخاتل ؟ ومن هو أولاً هذا الرجل ؟ وصحت فيه من فورى قائلاً :

— تعال يا رجل انت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلىّ الرجل نظرة من لم يفهم السؤال .

فألقيت عليه العبارة من جديد فى شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحَب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟

— عصفور .

وأشار إلى يديه وفيها القيود وصاح :

— أطلقونى ! مَن حب النبى يطلقنى ...

فأمرت العسكر بفك القيد من يديه ، وسألته فى صرامة :

— صنعتك ؟

فتردد الشيخ قليلاً وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع برأسه إلى الوراء ، وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شيء لا وجود له فى عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صـــياد
وصـيد السمك غيِّه
نزلت بحر السمك
أصـــطاد لى بنَيه
وعجبنى شكل السمك
فى البحر حواليـــه
واحده بياض شفتشى
والتانية بلطيه . . . »

فقاطعه المأمور صائحاً :

— مفهوم ، مفهوم ! واللى غرقت فى الرياح من سنتين كانت البياض والاّ البلطية . ؟ ؟

فلم يجبه الشيخ ولم يلتفت اليه ومضى يغنى :

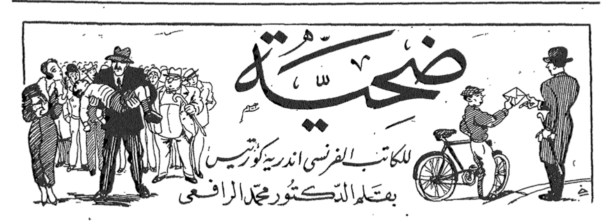
« واحده بياض شفتشى
والثانيـــة بُلطيــــه
والثالثـة من بدعها
سحرت مرا كبيَّه »

وتنهد فى العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى ارتجفت له قليلاً ، ونظرت من طرف خفى إلى المأمور فرأيته قد اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية ؟ ! !

فأطرق الرجل وصمت صمتاً عميقاً . ولست أدرى أهو أيضاً خيال منى أو حقيقة ما اعترانى من شعور بأن هـذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى ... »

(يتبع) توفيق الحكيم



غابت الشمس وأظلم الليل ولف الطريق فى سواده ؛ فانكشف على طرف الأفق نور يزهر فى العتمة وهو يتحرك فيعلو وينخفض كالنذير ليلفت إليه أنظار السابلة . فما إن اقترب منه الأستاذ لاماس حتى أوقف سيارته ثم مد عينيه فى ضوء مصباحها الوهاج فاذا سواد عريض من قطعان الغنم تتابعت فى سيرها مقبلة كالموج يدفع بعضه بعضاً ، وسطع له الضوء على مثل البحر من الصوف ، وملأت مسامعه الضجة من ثغائها ورنين جلاجلها النحاسية وقمقمة أظلافها على أرض الطريق ... ثم أخذ الرعاة يزجرونها وينعقون بها يستحثونها للسير حتى حاذت السيارة فتبعثرت حولها وجعلت تحتك بها فملأت الجو من ريح أصوافها الكريهة ونشرت عليه سحابة من غبارها الخانق ...

وعندئذ انحدر جان مارى من حجر أمه ودنا من نافذة السيارة ففتحها ، وأخذ يلغو ويهلل ويهتف :

— الخراف ... الخراف ... إنها ولاشك مقبلة من جبال الألب ، جبال الثلوج والذئاب ... أترينها بالغة حظيرتها الليلة يا أماه ؟

فصاح به لاماس وله زئير :

— هلا عقلت أيها الأحمق الصغير ... فما لك ولهذا ؟

وأطل الغلام من النافذة مرة أخرى فأبصر حملا صغيراً قد أذهله منظر السيارة فثبت فى موقفه حائراً دهشاً ... وأعجب الطفل بمنظره فصاح :

— ألا ترين هذا الحمل الوديع يا أمى ؟ ألا يمكننا أخذه معنا ؟

فضمته أمه الى صدرها وجعلت تقبله وتحنو عليه ؛ وانفجر الأستاذ لاماس من الغيظ فأعمل محرك السيارة واندفع بها فجأة ، فلم تكد تنبعث حتى وثب له أحد الرعاة وأكرهه على الوقوف ؛ ثم صرخ فيه مزمجراً مهدداً وأراه على ضوء مصباحه جثة الحمل ، وقد فرسته السيارة ودقت أضلاعه ، وكان الدم ينهمر من فمه الصغير ...

وارتاع جان مارى وفزع لهذا المنظر المرعب وجعل يصيح وقد لاذ بأمه . وأخفى رأسه فى صدرها :

— يا للشقى ... يا للشقى ! لقد قتل الحمل ... لقد قتل الحمل !

فأخذت أمه تسكن روعه على حين ارتفع صوت لاماس وقد اشتد الجدال بينه وبين الراعى فى ثمن الفريسة المسكينة .. وبعد حجاج ولجاج أخرج الرجل ورقة مالية ورمى بها فى غضب الى صاحب القطيع ، ثم رمى الطفل وأمه بنظرة المتسخط ، وانطلق بالسيارة لا يلوى ...

وكان الراعي قد أمام ذلك الحمل القتيل على يديه كالطفل الصغير فانثنى عنقه وتدلّى رأسه في مسكنة وذبول ... وانطبع هذا المنظر المخيف الهائل في خيال الأم وزاده هولاً نظرها الى طفلها ، فجعلت تضمه إليها وتهدهده وهو يَنشِجُ في بكائه ؛ وضاق الأستاذ لاماس فصرخ :

— أما آن لك أن تسكت أيها اللعين !

فكانت الصرخة كالضرب ...

وسكت الطفل وأخذ يفكر ... إنه لا يحب هذا الرجل العاتي وهو غريب عنه ، ولم يكن ليقول له « يا أبي » لولا ضراعة أمه إليه ... كلا إنه لا يحبه ولقد أصبح يمقته أشد المقت ويعده قاتلا ككل قاتل ... ألم تكن في قلبه رحمة ؟ ألم يكن يستطيع الانتظار حتى تجوز الغنم ؟ ولم هذا الغضب ، ولم هذه القسوة ، ولم هذا النظر الشَّزْر ؟ ألا صبراً صبراً ... فهو لم يبلغ السابعة بعد ... ولكنه سوف يشب شبابه ، وسوف ينتقم ما ينتقم لذلك الحمل ثم ... وأخذت الأفكار تموج في رأسه وتضطرب وخيل إليه أنه هو تلك الفريسة ، وأن السيارة مندفعة إليه تحطم أضلاعه وتدقه بعضه في بعض ، فصاح من رعبه :

— يا للوحش ... يا للوحش !

وانحنت عليه أمه متفزّعة وسألته عما به ، فأجابها لعله كان يحلم ...

وانطلقت السيارة تحت الليل البارد حتى إذا بلغت نهر الرون عبرته وانحدرت الى نهاية الرصفة ، وهناك منزل لاماس ، فقال هذا الأخير لامرأته :

— اصعدى أنت فأعدى العشاء وسأدخل السيارة في حظيرتها

وصعدت المرأة في السلم ثم ذكرت أنها تركت معها خريطة الطريق فأمرت ابنها أن يردها الى السيارة ؛ فلما نزل الطفل ، وقع في أذنيه صوت صديقه ماليسيه ، وهو طفل أبله ، وكان يحادث لاماس فيسأله هذا الأخير :

— ماذا قالت لك ؟ تكلم وأوضح

فأجاب ماليسيه وهو يقطع ألفاظه :

— لقد أمرتني « ميون » أن أنتظر هناك لأبلغك أنه لم يأت اليوم أحد

— إذن قل لها إني سأراها غداً في الساعة الخامسة

فانتظر چان ماري حتى خرج الغلام ثم دخل فصاح به لاماس :

— ويحك ! ما الذي جاء بك ؟

فكان جوابه أن رمى بالخريطة في السيارة ، وانسل راجعاً ولم يتكلم

* * *

جلس الأستاذ لاماس يأكل طعامه ، وكان موزع الفكر ، وحمل يرامق زوجته بنظرات كنظرات الأعداء ، وهي غافلة عنه إذ كانت كعادتها منذ شهرين ، تهيم في عالم الخيال تتهنأ بسعادتها ؛ وكان چان ماري يراقبه فيلاحظ منه تلك النظرات التي تهدد سعادة أمه ، فيرتاع لها ويود لو صرخ في وجهه : « أيها القاتل ... أيها القاتل »

وكان من عادة لاماس وهو مدرس علم التاريخ في الليسيه بمدينة أورانج ، أن يذهب الى تلك المدينة لألقاء دروسه بعد الظهر من أيام الاثنين والاربعاء والجمعة . أما يوم الثلاثاء فيقضيه هناك في إعطاء الدروس الخاصة . فما الذي عاقه عن السفر اليوم مع أنه يوم الثلاثاء ؟ لقد كاشف زوجته بنيته أن يخرج وإياها الى متنزّه فلم تستجب له وذهبت

على خلاف عادتها الى المدرسة ، فصحبت ابنها عند خروجه وجعلت ذلك عذرا تمتـذر به ، فغضب الرجل وقال : إن هذا عذر سخيف ... لـكن لماذا قال ذلك ؟ آه ... إن چان مارى قد بدأ يفهم . . فبالقرب من المدرسـة يقع منزل والدته الاول ... منزلها الذى ولدت فيه وورثته عن أهلها وعاشت فيه مع أبيه قبل أن يُقتل فى حادثة الطيارة .... إنه يذكر هذا المنزل ... لقد كانوا ينزلون منه فى طبقته العليا ، وأبت أمه أن تؤجره بعد وفاة أبيه ، وراغمت فى ذلك زوجها الجـديد لاماس ؛ فجاء هذا بالعجوز الدميمة « ميون » وهى ظِئْرُه ، فأسكنها فى الطبقة الأرضية نكاية بامرأته ...

نعم إن چان مارى بدأ يفهم ... فليس من ريب أن أمه انما تعمدت اليوم أن تمر بذلك المنزل لحاجة قلبها الى الذكرى ... ولـكن لماذا يغضب لاماس ؟ أليس هذا من حقها ؟ ولماذا رامقها بتلك النظرات المـدوّة ؛ إنه يكايدها منذ شهرين ... فلا جرم أصبحت تندم على زواجها منه وإن كانت فى حاجة الى هذا الزواج لرقة حالها ... ولـكن چان مارى لن يكاشفها بما يعلم اشفاقا عليها... انه رجل ، وإن من واجبه أن يحميها من ذلك الشقى السفاح ... الذى قتل الحَمَل ...

وجمع تحت المائدة قبضتيه الصغيرتين يهدد بهما الرجل ويتوعده ... !

* * *

أرقدت الأم ابنها فى سريره ، وطبعت قبلتها على جبينه فأمسك بها وقال :

— إنى أخاف عليك يا أماه ... أفلا تبقين معى يا طفلتى الصغيرة ؟

نخفّضتْ من جأشه وخرجت من الغرفة بعد أن أوصته بالنوم . ولـكن أنّى له أن يهجع وأمه ستقضى الليل بجانب ذلك الرجل ذى العينين المدوّتين ؟

وثب من سريره وفتح الباب ، ثم صعد السلم يسرق خطاه حذرا أن يسمع خفق قدميه ، ومضى يقـترب من حجرتهما ، وكان الضوء يتخايل من أسفل الباب

وأنصت فلم يسمع حساً ، فرابه هذا السكون ... إنه خائف ، ولقد ارتجف ... يا الـهى ! أما من كلمة فى فمه أو فى فمها ؟ كلمة واحدة يسمعها فيسكن إليها

وشق سمعه صوت أمه وهى تقول فى حدة :

— ألم يأن لك أن تخبرنى ماذا بك ياڤـكتوريان ؟

فأجابها لاماس إنه ليس به شىء ، ثم أطفأ النور

وعند ذلك اطمأن جان مارى على أمه فارتد إلى غرفته ؛ بيد أن الأرق استولى عليه فلم يجد النوم إليه سبيلا ؛ فأخذ يفكر فى صديقه ما ليسيه وفيما أرسلته به المرضع العجوز ... ولمـاذا انتظر فى (الجاراج) ولم يلق الرجل فى المنزل ؟.

ثم أشفقت ملائـكة النوم على هذا العقل الصغير من الحمى التى انتابته ، فتنفست على وجهه ، فأخذ الـكرى بأجفانه ونام ... وارتفع فى الخارج هدير مياه النهر وهى تتلاطم على ضفته الصخرية ، ورفرفت فى الفضاء روح الحمل المقتول ...

* * *

وفى الغداة ذهب جان إلى المدرسة فجلس غائب الفكر مهموماً ، تلقى أمامه الدروس فلا يصغى إليها ولا يفقه منها شيئاً ... ولما انتهت الدراسة أوفض إلى الميدان الذى تعود أن يقابل فيه صديقه ماليسيه فالتمسه حتى وجده ثم ألطفه بشىء خصه به ، وجعل يتسقطه ليـكشفه عن سره حتى أفضى به اليه ثم تواطآ معاً على الـكتمان

وأسرع جان بعد ذلك إلى المنزل فـكان فيه

لوقته المعلوم ؛ ثم جاءت أمه فى عقبه وكانت قد خرجت تبتاع شيئاً من الفاكهة ، فوضعت ما تحمل وأخذت تداعب ابنها وهو ينظر إليها فى إعجاب .. لقد كانت جميلة فى تلك الساعة فضرجت وجنتاها وشع السرور من عينيها ، وتهدلت خصل من شعرها الأسود الفاحم على جبينها المشرق الوضىء

وأرادت أن تسوى شعرها فتناولت مثبنتها[1] وفتحتها لتخرج منها المشط ولكنها ندت من يدها وانقلب ما فيها ، فلاحظ جان بين أشيائها مفتاحا وخطابا غفلا من العنوان ، قد علق به الغبار كأنما التقط من الأرض ... فأهوى ليأخذه ولكن أمه أسرعت فاختطفته وغيبته فى حقيبتها وقد زاد احمرار وجهها

وفى تلك اللحظة انشق باب الغرفة وخرج منه لاماس متشعثاً مبتذ لا تمجه العين ، فقال لزوجته فى لهجة المرتاب :

— هل خرجت اليوم يا أنى ؟

وأجابته :

— كانت الخادمة مشغولة باعداد الطعام فخرجت اشترى الفاكهة .... إنى ذاهبة لأغير ملابسى فراجعة بعد هنيهة

وأخذت ترتقى السلم وقد حملق لاماس فى الموضع الذى سقطت فيه المثبنة ...

* * *

كان ماليسيه فى العاشرة من عمره ، وهو يتيم قد كفلته خالته ، فكان الجيران يمنونه فى أعمالهم بشىء من الطعام أو قليل من المال

ولما كانت المرضع « ميمون » مقعدة لا تقوى على الحراك فقد استأجرته هى أيضا فى حاجاتها . وبهذا كان دائم التردد على منزلها . وكان الجميع يتهزأون به ويسخرون منه إلا صديقه جان مارى فبينهما الطفولة والصداقة

والتقى هذان الطفلان كما اتعدا فى الصباح ثم سارا الى دار ماليسيه وتربصا حتى دقت الساعة الخامسة فاسرعا الى موعد الأستاذ لاماس فى منزل ظئره المجوز ، وانسلا اليه من باب خلفى عهد بمفتاحه الى ماليسيه لأطعام الدواجن ، ورأيا وسمعا . . . .

* * *

جلسوا للعشاء ، وكان جان مارى مرتبكا يود لو أسرعوا فى الطعام مخافة أن يدرك لاماس شيئاً من أمره ، أو يستريب به ، أو يسأله سؤالاً ينكشف فيه ... غير أن الأستاذ كان لاهيا بشأنه وبالأفكار التى تذهب وتجىء فى رأسه . أما والدته فكانت كعادتها شاردة الفكر تلتقى فى الخيال برجل قد عرف جان اسمه منذ ساعتين فقط ...

وفرغوا من الطعام وأوى جان الى فراشه ولم يحاول فى هذه المرة استبقاء أمه الى جانبه ، فالخطر لا يزال بعيداً ولا يزال فى الوقت سعة ؛ ثم هو فى حاجة الى أن يتدبر ما رآه وما سمعه فى منزل الظئر المجوز ...

كان يكمن فى الغرفة المجاورة ، وجعل يوصوص من ثقب فى الباب ، فرأى لاماس يدخل فيجلس بجانب المجوز ؛ وحدثته فيما حدثته به انها تسمع فى كل ثلاثاء دبيب خطوات فى الطبقة العليا ، وأنه قد تبين لها انها خطوات رجل وامرأة ... أما أمس فلم تسمع شيئاً وقد أبلغته ذلك فى لسان ماليسيه

فأومأ لاماس برأسه وجعل يحدق فى نيران الموقد كما كان يحملق فى الموضع الذى سقطت فيه المثبنة ، وكما كان يرامق زوجته بالأمس ...

(١) المثبنة حقيبة يد المرأة

إنها والله نظرات يغلى بها الدم فى عروق چان ماري المسكين فيفزع فى فراشه كلما تمثلها ...

وترى من هو كساڤييه دوبيناس الذى جاء اسمه فى حديثهما ؟ كساڤييه ... ! كساڤييه ؟ آه ! لقد تذكره الآن ... فهو شاب مهندس جميل المنظر حسن الشكل ، يعمل فى مناجم الفحم بالمدينة ؛ وقد عرفته أمه فى السنة الماضية على شاطىء البحر ، وكانت تتستر اذا خرجت معه وتحاذر أن يراها زوجها فلم يرها . أما « ميون » فعجوز مقعدة لا تبرح مكانها ، فكيف سقط لها هذا الخبر ، ومن أين لها أن كساڤييه هو الرجل الذى يجتمع بأمه فى الطبقة العليا كل ثلاثاء ! لعلهم يظنون ظناً فقط ...

ولكن لاماس كان يقول للعجوز ويكرر هذا القول :

— إنى واثق من أنه هو بعينه . انه هو بعينه الرجل

وكذلك مر فى الحديث نبأ خروج أمه فى الأيام الأخيرة كل صباح وتلقيها الرسائل تُدَسّ لها تحت الباب ... ثم قال لاماس

— سوف أتخذ مفتاحاً آخر لهذا الباب ، وسوف أنصبُّ عليهما انصبابا فى الثلاثاء القادم وسترين كيف يكون الانتقام ...

الانتقام ... يا إلهى ! إن حياة أمه كالمعلقة فى خيط دقيق ... ماهذه الحمى ؟ إنه يهذى ... هاهوذا لاماس ينصب عليه انصبابا ليأخذه فيقتله ...

ثم أخذ يصيح فى فراشه ففزعت أمه وأسرعت إليه ، ولكنه استمسك ولم يفض إليها بشىء إذ لا يجب فى رأيه أن تعرف هذه العزيزة ما يتهددها خشية أن يفضحها اضطرابها ... وهو وحده سوف يحميها ويمنعها

جعلت الأيام تمر ووجهه يزداد فى كل يوم شحوباً ، وتغضن جبينه من القطوب والفكر ، ولم تلحظ أمه هذا التغير الذى طرأ عليه فقد شغلتها عنه سعادتها وأحلامها ، وكانت تخرج كل صباح ... إنها هى لاتعلم ولا تحذر ، ولكن چان ماري موجود يتأهب ليوم الثلاثاء ...

* * *

وجاء اليوم الموعود فكان ما ليسيه صديق جان متكئاً الى دراجته على مقربة من مناجم الفحم ، ولبث يترقب خروج دوبيناس حتى رآه مقبلاً فأسرع اليه وقال له فى كلامه المتقطع :

— أمرتنى عقيلة الأستاذ لاماس أن أحمل اليك رسالتها فهى تريد ألا تلقاها اليوم وأن تبقى هنا

عجب دوبيناس وحار فى هذه الرسالة وفى الغرض منها . ألم تجد غير هذا الأبله فتأتمنه على السر ؟ وما بالها لم تكتب اليه بذلك ، وقد فعلت هذا من قبل ، يوم الثلاثاء الماضى ؟

ومنعته بلاهة الغلام أن يستقصى منه ، فألقى اليه بقطعة من النقد واكتفى بسؤاله : أهى مريضة ؟

فهز الغلام رأسه بعلامة النفى ، أومأ بها وهو يمتطى الدراجة ثم اندفع يدرج فى الطريق وقد اطمأنت نفسه إذ وفق فيما عهد اليه

والتقى عند الظهر بجان ماري فأخبره بما صنع ؛ وتهلل چان وسره نفاذ تدبيره المحكم ... ثم وعد الغلام أن يجزيه عشرة فرنكات إن هو كتم السر

وتقشعت سحابة وجهه فتلونت وجنتاه ولمعت عيناه ، ورنت فى صوته نغمات القلب المطمئن الواثق ... إنه سيذهب الآن فيتحدث الى أمه ويكاشفها

ها هى ذى خارجة من غرفتها وقد تهيأت

للموعد وأبدعت زينتها ... ما أجملها ... ويا لها من مسكينة ! فهو سيحرمها مقابلة صديقها اليوم ... ولكن أليس هذا الحرمان عطاءً ؟ يوم واحد ثم تقابله بعد ذلك كل يوم ... إنه سيكاشفها غداً ويفضي اليها بكل ما عانى فى سبيلها ، وستمده بطلها العظيم وتعجب به وتقبله كثيراً ... يا لها من سعادة ! إنه سعيد ، إنه سعيد ...

* * *

جلسا يأكلان فقال چان لأمه وقد حوّل نظره عنها :

— لقيت اليوم صديقى ماليسيه فى رجوعى من المدرسة وكنت قد أعرته دراجتى فأخبرنى أنه صادف أثناء نزهته هذا السيد الذى تعرفينه ... أتذكرين ؟ هذا الذى قابلناه على شاطىء البحر ...؟

فاختنق صوت الأم وغمغمت :

— وماذا قال له ؟

قال له : « إنى على جناح السفر الى بلدة سالون فبلّغ ذلك لعقيلة لاماس »

ولم تشأ الأم أن تفيض أو تكثر من الأسئلة ، فان كل سؤال يحرك ظناً وكل ظن يبعث ريبة ، فسكتت ورفعت يدها من الطعام ، وانقلبت سحنتها فأصبحت كالنجم الساطع تغشّاه السحاب

ثم قطع چان مارى هذا السكوت فقال لأمه :

— هل لك فى زيارة عمتى الآنسة ريزون اليوم ؟ لقد تصرّمت الأيام ولم تذهبى اليها ...

وسرت الأم لهذه الفكرة التى خطرت كالوحى ، فهى لم تذهب منذ زمن طويل لزيارة تلك العانس ... وسيهون ذلك عليها ملل الانتظار الى الغد ؛ وفى الغد تقابل صديقها فى المناجم

* * *

واستلّ چان مارى المفتاح من موضعه فدسه فى جيبه وانطلق معلناً أنه ذاهب الى المدرسة ؛ غير أنه ما كاد يبتعد عن الدار حتى تحول الى مكان الموعد فى منزل أمه فصعد الى الطبقة العليا وأغلق عليه الباب ...

لقد كان هذا المنزل موحشاً كالقبر ، فهو مغلق النوافذ يملأه الظلام وقد ركد فيه الهواء وتلخّن إذ مازجته رائحة الغبار المتراكم وقد تندّى بالرطوبة !

ارتعب الطفل وانخلع قلبه وأخذ يرتجف ... ولكن أيخاف وقد أشرف على نهاية تدبيره المحكم ؟ كلا ... إن ما يخشاه على نفسه لا يعد شيئاً فى جنب ما يخشاه على أمه .

ودخل إلى البهو فجلس فى ركن منه وأخذ يتلهى بالتفكير فى العجوز ميون تحت السقف الذي هو عليه ... كيف هى الآن ؟ إنها تمد عنقها الهزيل وترفع وجهها الدميم إلى السقف ، وترهف أذنيها لاستراق السمع ... ! ولكنه سوف يجعل من هذه الداهية ومن رضيعها لاماس أضحوكة أو أضحوكتين ...

وكان ينظر فى ساعته بين الوقت والوقت على ضوء شعاع ضئيل ينفذ من صدع فى نافذة ، فلما حانت الساعة الثالثة ، وهى ساعة الموعد بين أمه وصاحبها ، نهض واقفاً وأنشأ يسير فى الغرفة ذهاباً وجيئة وهو يشد وطأته كالرجل ، ثم جعل يحرك الأثاث ويرجه رجا ليبلغ الصوت إلى مسمعى العجوز ... ! لا شك أنها مستطارة من الفرح ، مطمئنة إلى ما تقوله للأستاذ لاماس إذ تقول له « إنهما هنا » ؛ ولاشك أنه سيثب فى السلم كالمجنون ويفتح الباب بالمفتاح الذى اصطنعه ، ثم يقتحم البهو كالوحش الضارى ، وعند ذلك ... ؟ عند ذلك

يضمق إذ يرى چان مارى ! فيبتسم له هذا باشًّا في وجهه وينبئه فى سذاجة الطفولة أنه اعتاد المجىء إلى هذه الدار فى هذه الطبقة فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ليلعب فى منزل أبيه . . . وبعد ذلك ... ؟ وبعد ذلك لا يرتاب لاماس إذا أخبرته العجوز أنها تسمع خطوات فى الطبقة العليا ...

إن چان مارى لم يتمد السابعة من عمره ، ولكنه يمتقد فى نفسه القوة والحكمة والدهاء ...

وفَتَّق له دهاؤه أن يتكلم بصوت مرتفع إذ ربما كانت العجوز تسممهما يتكلمان أحياناً ... وطفق يمشى ويتكلم حتى نال منه التعب فاستلق على مقمد وسكت ... أما يسكتان هما أيضاً بعد الفراغ من حديثهما ... ؟

وكان المقمد الذى يجلس عليه فى ركن مظلم بحيث لا يراه لاماس عند دخوله ، فسيضطر مكرهاً إلى فتح النافذة لأطلاق الضوء ، وعند ذلك ... ؟ ولكن أوه . . . إنه يسمع دبيب خطوات على السلم ... ! ها هى ذى تتوقف ! لا شك أن لاماس يتسمع خلف الباب . . . . ألا إنه قد جاء وقت العمل ... وعليه الآن أن يتكلم ويرفع صوته ... ولكن ما لصوته يتحشرج ! إن هو إلا صوت خافت ينبمث من ركن الغرفة المظلم كالهمس ...

وفُتح الباب واستمر الهمس ... فأدرك لاماس « أنهما فى لذتهما ولم ينتبها إليه » وابتهج ابتهاج الوحش بالقنيصة يراها غافلة عنه وهو يدب إليها ؛ وأخذته نشوة الانتقام ، فأفرغ رصاص مسدسه على مصدر الصوت ...

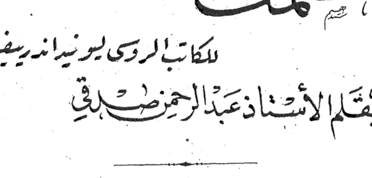
***

وَقفت الأم أمام المرآة تُحكم وضع قبعتها قبل الذهاب إلى الآنسة ريزون ، فقد أعجبها رأى چان مارى وستذهب لزيارتها ... أما غدا فان لم تتلق رسالة من دوبيناس فأنها سوف ... ولكن ما هذا الصوت ؟ ما هذه الجلبة ؟ ما هذا الصياح ؟

أزاحت الستارة عن نافذتها ... فما هذا ؟ رجل مخفور مقبوض عليه ، حوله نساء يبكين ويتصايحن ويلمنه بكل لعنة ويرمينه بكل مسبَّة ! ولكن هذا زوجها ! وما هذا الذى خلفه ؟ يا إلهى ... يا إلهى ...

واندفعت تهبط السلم فى غيبوبة فرأت بالباب رجلاً من أهل المدينة يحمل على يديه جثة هامدة يسيل منها الدم ؛ وقد انثنى عنقها وتدلى رأسها فى مسكنة وذبول ... فصرخت ووقعت مغشيًّا عليها ، وتمثل لها الراعى وقد رفع الحمل المقتول على يديه وهو يلعن صاحب السيارة والسيارة تبتعد ...

محمد الرافعى



الصمت

للكاتب الروسى ليونيد اندرييف

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

القصة الروسية من أحق القصص بالعناية ، وذلك للطابع الذى انفردت به ، وللانسانية العالية التى تشتمل عليها ، ولأنها طبيعية صادقة ، ولتأثيرها العميق واستثارتها للعواطف ، وأخيراً لما فيها من الدلالة على نفسية الشعب الروسى

وصاحبنا ليونيد اندرييف من أقرب القصاصين الروس الكبار عهداً إلينا . وهو ينظر إلى الأشياء على نحو خاص به ، ويصورها بلمسات قوية من ريشته المتفحلة تظهر النور والظل بأكبر أحجامهما وأبلغ تباينهما

وفى كل قصة من قصصه فكرة مجردة يحوك حولها الأشخاص والحوادث ، وهو مع هوله يحفظ التوازن ويشعرك بأنه ليس فى الدنيا شر بحت ولا خير محض

وأندرييف كمعظم معاصريه من القصاصين والكتاب نشأ من طبقة الشعب وعرف الضنك والجوع وابتلى بالكآبة والأسى . وقد تخرج فى القانون واشتغل أول أمره بالرسم ثم بالصحافة ، ولكنه لم يكد ينشر على الناس قصة « الصمت » حتى كانت له منها نباهة الذكر والشهرة الذائعة . وهى مثال رائع على طريقته فى كتابة القصة

— ١ —

فى ليلة من ليالى أيار مقمرة إضحيانة ، والبلابل فى القمراء تلملع شادية مشجية ، أقبلت أولجا ستبانوفنا على زوجها الأب إجناتى وهو جالس الى مكتبه . وكانت أسارير وجهها ناطقة بأمض الحزن وأوجعه ، والسراج فى يدها مهتز مرتجف . فلما دانته لمست براحتها منكبه وقالت مختنقة الصوت مجهشة :

— أبتاه ، لنصعد الى ابنتنا ڤيروتشكا !

فتجهم الأب إجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدساته دون أن يلتفت إليها . وظل شاخصا ببصره فى الفضاء طويلاً حتى أسقط فى يدها ، فقلبت كفها الأخرى تقليب المهموم الجزع ، وتهالكت على أريكة خفيفة هناك وقالت :

— ما أقسا كما كليكما !

قالت ذلك بصوت وئيد مع التشديد أبلغ التشديد على « كليكما » .

وقد تقلص وجهها المنتفخ المتحنن بأمارات من الألم والعنت ، وكأنما أرادت أن تفصح بسيماها وأمارات محياها عن مبلغ ما تعانى من قسوة القوم : زوجها وابنتها

وأرسل الأب إجناتى ضحكة ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته ودسها فى علبتها وأطال التفكير مكتئبا وقد استرسلت على صدره أجمل استرسال لحية جثلة وخطها المشيب ، وكانت تعلو وتهبط فى هوادة مع أنفاسه المتلجلجة العميقة

وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت

متوجس متزلف : « وإنما رجائى اليك يا أبتاه ألا تعنفها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى اليها خشبي ضيق ؛ فكأن ينيخ ويصر تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة ، وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحنى حتى لا تصطدم هامته بسقف السلم ، وكانت زوجته تتقدمه فى ثوبها الأبيض فلمس ردنها وجهه فانقبضت أساريره وعبس متململاً متبرماً . وولج الغرفة وهو على تمام اليقين بأنهما فى حديثهما مع ڤيرا ابنتهما لن يخرجا بطائل

وقالت ڤيرا : « يا لله ! هذان أنتما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عارية وبقيت ذراعها الأخرى على اللحاف الصيفى الأبيض بحيث يتعذر التمييز بينهما لفرط بياض ذراعها وشفوف لونها وبرودة مجسها

فابتدرتها الأم بندائها : « ڤيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من جفاء صوته وخشونته :

— ڤيرا ! خبرينا ماذا بك ؟

فظلت ڤيروتشكا صامتة

وعاود الأب إجناتى خطابه : « ڤيرا ! أترين أمك وأنا غير أهل لمناجاتنا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك ؟ ألسنا نحبك ؟ وهل لك من هم أقرب إليك وأمس بك منا ؟ بثى إلينا شجوك وصدقينى أنا الشيخ المجرب أنك واجدة بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن . انظرى إلى أمك العجوز وكيف عذابها . . . ڤيروتشكا . . . ! وأنا — وهنا تهدج صوته كأنما انشعب شىء فيه شطرين — وأنا ، أيهون علىّ ، تحسبينه يهون ؟ كأنى لست أبصرك نهب لوعة ! . . ولكن ما هى ؟ وأنا ، أبوك ، على جهل بها ، أيصح هذا ؟

ولكن ڤيروتشكا ما برحت صامتة . وحيالها الأب إجناتى يوالى مسح لحيته فى تحفظ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف أصابعه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى فى حديثه يقول :

— خالفت مشيئتى وذهبت الى بتروغراد — فهل لمتنك على مخالفتك ؟ أكنت يوماً عليك بالمال ضنيناً ؟ أتقولين انى لم أك براً بك حدباً عليك ؟ إذن ، لم لا تتكلمين ؟ انظرى ، أى خير أصبت من بتروغراد !

وانقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل كالعيان لخاطره بناءٌ من الجرانيت هائل رهيب ، حافل بأخطار راصدة كامنة ، مكتظ بخلق غريبة أطوارهم ، جاسية مشاعرهم . وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كان تلفها وضياعها ، فجاشت فى نفس الأب إجناتى نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمة على ابنته ، وهى ما فتئت صامتة ، صامتة فى تشبث وعناد

أما فيروتشكا فأجابته بجفاء وهى مطبقة جفنيها :

— لا دخل ألبتة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا شىء بى ، والأولى أن تذهبا للنوم ، فالساعة متأخرة .

فأنت الأم : فيروتشكا ! إطمئنى إلىّ بسريرتك يا بنيتى !

فقاطعتها فيروتشكا نافدة الصبر : كفى يا أمى !

وجلس الأب إجناتى على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال متهكما : « حسن والله ! ليس فى الأمر شىء بعد هذا كله ؟

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ؛ وقد أقامت صعدتها واستوفزت فى فراشها :

— أبت ! أنت تعلم حبى لك ولأمى ، ولكنى إنما أشعر بخمود شديد ، وسيزول هذا كله . .

والحق أنه أولى لكما الذهاب للنوم ، وإنى لراغبة فيه أيضاً . غداً أو فى حين آخر ، سيكون لنا متسع للحديث

فهب الأب إجناتى دفعة حتى ارتج مقعده وصدم الحائط وراءه ، وأخذ بذراع زوجته قائلاً : « لنذهب »

فأنت هذه : « فيروتشكا . . . ! »

فصاح بها الأب إجناتى : قلت لك فلنذهب . وإذا كانت قد نسيت الله ، فهل ننساه مثلها ! ولماذا !

واجتذبها للخروج فى شىء من العنوة والقسر . وكانت وهما يهبطان السلم تجر أقدامها جراً يزداد تثاقلاً وتراخيا . وغمغمت فى همسة مغضبة : أف منك ! أنت أيها القس الذى جعلتها كذلك ، وعنك دون سواك أخذت هذا الطبع . وإنك لمسئول عنه . آه يا ربى ، ما أتعسنى !

وجمات تولول وا كفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعد تتبين مواقع خطاها ، بل كانت تاركة قدمها تهبط الدرج كأنما تتساقط إلى هاوية ترغب فى التردى فيها

ومن ذلك الحين صحت عزيمة الأب إجناتى ألا يكلم ابنته . وكأنما لم تفطن الابنة الى هذا التغير منه ، وظلت كعهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد الى الخروج . وكانت كثيرا ما تمسح بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكربها ، فباتت وهى بالأمس المولعة بالمزاح والضحك أبعد أهل الأرض عنهما ، فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل

قلنا إن ڤيروتشكا تخرج أحيانا للتمشى والتنزه فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفة الذكر أن خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشاء القدر ألا يراها أبواها من بعد حية بينهما رائحة أو غادية ، فانها فى ذلك المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين

* * *

وقام الأب إجناتى نفسه بدفنها ، ولم تشهد زوجته حفلة الصلاة عليها فى الكنيسة ، لأن نعى ڤيروتشكا كان صدمة لها أصابتها بالفالج . ففقدت كل حراك لقدميها وذراعيها ولسانها . فبقيت طريحة فى غرفة محجوبة الضوء ، وعلى مقربة منها تدق الأجراس فى القباب معولة نادبة ، وإنها لتسمع موكب الجناز خارجا من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم أمام المنزل ؛ ولقد همت لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وأرادت أن تقول : « الوداع ياڤيروتشكا » ولكن لسانها انصب فى فمها هامداً مورّما ثقيلاً . وهكذا كانت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائى هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وشهد صلاة الجناز فى الكنيسة جمع حافل من معارف الأب إجناتى والغرباء عنه . وكلهم مترحم على ڤيروتشكا متوجع لمصرعها ، وهم فى نفس الوقت يتتبعون حركات الأب إجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على حزن عميق وجوى لاعج . إذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهية وعجرفة ، ولشدته وصرامته مع التائبين المنيبين على يديه ، فضلا عن أنه حسود جشع لا تفوته فرصة يتقاضى فيها هذا أو ذاك من أهل دائرته أكثر من حقه . فالكل هنا يودون التشفى برؤيته متألما كسيرا ، ويودون أن يروا إقراره على نفسه بأن مصرع الفتاة ركبه منه إثم مضاعف ، باعتباره أبا فظا غليظ الطبع ، وبصفته قساً ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . ولذلك أمعنوا فى ملاحظته والتطلع اليه ،

ولـكنه وقد آنس أن أنظارهم الى كاهله المريض الضليع يلتمسون انحناءه تحت وقر الفادحة — لم يأل جهدا فى نصب قامته وإقامة صعدته . فكان فى تلك الساعة أقل تفكيرا فى الابنة الفقيدة منه فى صيانة كرامته

فألمع كرزنوف : « قس صمدت على الغمز قناته وصلب على العجم عوده » وكرزنوف هذا نجار يدين القس بثمن بعض الأطر . ولقد شفع ملاحظته بنفضة بالرأس الى جهته

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الأب إجناتى إلى المدفن ، وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلاً ، ولعل هذا راجع إلى أن ارتفاع الباب دون قامته . ولما كان قادماً من وضح النور لم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها ، فلما أن تبينه وجدها هادئة ، وأنه لا دمع فى عينيها ؛ وليس بهما نقمة ولا حزن . فهما خرساوان صامتتان صمت ألم وعناد ، وكذلك جسمها البدين المتراخى المرتكن إلى حاجز الفراش

فسألها : والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟

ولـكن شفتيها خرساوان وعينيها صامتتان . فوضع الأب إجناتى راحته على جبينها ؛ فاذا هو خصر رطب ، ولم يبد من أولجا ستبانفنا أدنى دلالة على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحتيه عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان اليه دون أن يطرف لهما هدب ، وتكاد تكون الحدقة منهما كلها فاحمة بسبب تمدد انسانيهما ، ولم يكن فيهما حزن ولا نقمة

فغمغم الأب إجناتى ، وقد بردت أطرافه وارتعدت فرائصه : «حسن ، أنا ذاهب الى غرفتى»

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شىء كمهده نظيف مرتب والمقاعد الكبيرة مسربلة فى أغطيتها البيضاء كأنها الموتى فى أكفانها . وفى إحدى النوافذ قفص معلق ولـكنه خاو وبابه مفتوح .

وحين ذاك نادى الأب إجناتى : « نستاسيا ! » فبدا له أن صوته أجشّ ، وأحس أنه يسىء صنعا بعيد جنازة ابنته أن يرفع الصوت الى هذا الحد فى تلك الحجرات الهادئة ، فعاود النداء بصوت أكثر تلطفا وخفوتاً : « نستاسيا ! أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخ وارم ولونه قانٍ كالجزر

وأجابت بجفاء : — لا أدرى . لقد طار

فقطّب الأب إجناتى حاجبيه مغضباً ، وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ »

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها . وقالت :

— إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة ، فكيف لى بحبسه ؟

وخيل الى الأب إجناتى نفسه أن الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد الذى كان دأبه التغريد شامخاً برأسه قد كان حقيقة روح فيروتشكا ، وأنه لو لم يطر الكنارى لما صح القول بموت فيروتشكا ، فاشتدت على الطاهية نقمته وصرخ بها :

— اغربى عن وجهى !

ولما لم تبادر توا الى الباب زاد قائلاً : «مجنونة !»

— ٢ —

ومنذ يوم الجنازة والصمت مخيم على البيت . وليس المراد بالصمت هنا السكون ، فان السكون إنما هو عدم الجلبة . وأما هنا فالصمت معناه أن الذين التزموا الصمت لا جرم فى مقدورهم الكلام إذا شاءوا . وهذا ما يقع فى نفس الأب إجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتها

الشاخصة ثقيلة حتى لكأنما استحال هواء الغرفة رصاصاً يرهق رأسه وينقض ظهره . وهذا ما يقع في نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذي انطبع عليه صوتها ، وحين يتأمل كتبها وصورتها — وهي صورة مرسومة بالألوان جاءت بها معها من يتروغراد . ولقد نحا في نظره الى صورتها نحواً خاصاً .

فهو يتطلع أول الأمر الى جيدها حيث مسقط الضوء في الصورة فيخيل إليه أن عليه خدشاً كالذي كان على جيد فيروتشكا الميتة ، وإنه لفي حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وفي كل مرة يعمل الفكر للاهتداء الى سببه وعلته . فلو أن القطار هو الذي صدمها في هذا الموضع لهشم رأسها بأكمله ، ورأس فيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم داس عليها بقدمه وهم يحملون الجثة الى المنزل ، أم أنه أثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولكن إطالة التفكير في تفصيل مصرعها كان يشق على الأب إجناتي ويروّعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها في الصورة ، وهما سوداوان نجلاوان أهدابهما الوطفاء تلقى تحتهما ظلاً وريفاً فيزداد بياض المقلتين نصوعاً وتبدو عيناها كأنما يحوطهما إطاران كالأطر السود المجللة بالحداد . وقد جعل لهما الرسام المجهول — وهو لا شك من الفنانين الموهوبين — معنىً غريباً يخيل الى الرائي أن بين هاتين العينين وبين ما تقعان عليه غشاء رقيقاً شفيفاً فهي تذكرنا بغطاء معزف البيانو اللامع السواد تعلوه من غبار الصيف غشاوة خفيفة لا تكاد تبين ، وهي على خفائها تكمد من لألاء الخشب المجلو . وكان الأب اجناتي حيثما وضع الصورة تتابعه عيناها غير ناطقتين بل هما أبداً صامتتان . وبان الصمت في المنزل حتى ليخيل أن في الامكان سماعه . واستمرت الحال على هذا المنوال فوقر في نفس الأب اجناتي أنه يسمع الصمت .

وكان الأب اجناتي في كل صباح بعد القربان المقدس يقصد الى قاعة الجلوس فيأخذ بصره في لمحة واحدة قفص الكناري الخاوي وسائر الأثاث في ترتيبه المعهود . فيجلس في أحد المقاعد الكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان أمراً عجباً . فالقفص صامت في وداعة ولطف . والأسى والدموع والضحك الظاعن الفقيد جميعاً يأنسها الرجل في هذا الصمت . وكان صمت الزوجة مع قيام الجدران دونه لا يزال عنيداً ثقيلا عليه كالرصاص — ومرعباً ، مرعباً حتى ليأخذه برد المقرور في أشد الأيام حمارة قيظ . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالموت . ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه ، وكأنما يتهافت على التحول الى نطق ، لولا أن شيئاً له قوة الآلة وجمودها يمسكه عن الحراك ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد يهتز ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون فتحفز الأب اجناتي الرغبة تشوبها الرهبة على تسقط بادرة هذا الصوت فيشد بكفيه على جانبي المقعد ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغ الصوت اليه ، ولكن الصوت ينقطع وينطوي في غمرة الصمت

وهنا يهتف الأب اجناتي وقد ركبه الغضب : « عبث باطل وأضغاث أحلام » . ويهبّ من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة في ضحّ الشمس . والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممردة . وفي الناحية الأخرى

سور حجرى ممدود لا نوافذ له لأحد مخازن البضاعة . وكانت فى الركن مركبة واقفة كأنها نُصُبٌ من الطين قائم ، وكان غير مفهوم سبب وقوفها هناك دواماً مع أن الساعات الطويلة تنقضى ولا يظهر عابر واحد فى هذه الطريق .

كان على الأب اجناتى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع مرءوسيه من رجال الدين ، ومع السكان فى دائرته الكنسية أثناء قيامه بفرائضه ، وأحيانا مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثور ومستحب . ولكنه حين يؤوب وتحتويه غرفته كان يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . وذلك لأنه ما كان ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل وأهمها والتى تهيج كل ليلة بلابله وتلامح خاطره : فيم ميتة ڤيروتشكا ؟؟

وقد أبى الأب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بامكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحيى لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش فيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن « تكلمى ! » . فاذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقيـة المشهد على خلاف ما وقع . ولقد حفظت عيناه المغمضتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان فى جلاء ڤيروتشكا تستوفز فى فراشها وتقول مبتسمة ...

ولكن ماذا قالت ؟

إن تلك الكلمة التى لم تلفظها ، والتى بها جلاء المعضلة كلها ، تلك الكلمة تتخيل له قريبة ، جد دانية . فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه ، إذن — إذن لسمعها على أنها كانت فى الوقت نفسه نازحة نائية بلا حد ولا أمل .

وإذ ذاك ينهب الأب اجناتى من فراشه ، ويبسط يديه مضمومتين مما فى توسل وضراعة مناديا : « ڤيروتشكا ! » .

ولا من مجيب الا الصمت .

وفى ذات مساء قصد الأب إجناتى إلى غرفة أولجا استبانفنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع وجلس عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظريها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

— أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن ڤيروتشكا . أتسمعين ؟

ولكن ناظريها صامتان . فرفع الأب إجناتى عقيرته ، واشتد — مثل شدته مع المعترفين — فى خطابها :

— أعرف أنك تعدينني المتسبب فى مصرع ڤيروتشكا . ولكن ، مهلاً ! أكنت أقل منك حباً لها ؟ إنك لغريبة الرأى — لقد كنت متشدداً ، فهل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عما لى عليها وأنا أبوها من حق الاعتبار ، فطأطأت صاغراً حين ارتحلت — غير حافلة باستنزال لعنتى — إلى هناك ، وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعى إليها باكية تناشدينها البقاء ، حتى أمرتك أن تكفى ؟ أمسئول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟

وألقى الأب إجناتى لمحة على ناظرى زوجته الشاخصين ثم أشاح مستأنفاً :

— ماذا كنت صانعاً معها وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت آمرها ؟ لقد أمرتها . أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان على أن أخر على قدمى الصبية الخرعوب راكعاً وأنتحب كالمرأة العجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها

ما أصابها ، لست أدري . يا لها ابنة عاقة لاقلب لها !

ودق الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه

— لقد تجرّدتْ من الحب — هو ذاك . وأنا على علم بما كانت تصغى به : مستبد غشوم . وأنت كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت ، و ... تذللت ؟

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة

— تحبك ! بلى والله ، وترويحاً عنك لقد اختارت هذه الميتة ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القَضَض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الأقذار — كالكلب جدلتــه رفسة بالنعل على خطمه

وغمغم الأب إجناتى بصوت هامس أبح :

— ما أشــد خزيى ! إنه ليتولانى الخزى إذا خرجت الى الطريق ! ليتولانى إذا خرجت من المحراب ، يتولانى أمام الله ! يالك ابنة قاسية خسيسة ! إنك لتستحقين اللعنة فى قبرك

وألقى الأب إجناتى على زوجته نظرة ثانية ، فاذا هى مغشى عليها ، ولم تفق من غشيتها إلا بعد ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صامتتين ليس فيهما ما يدل على أنها فقهت مقال الأب إجناتى لها أو لم تفقه منه شيئاً

وفى تلك الليلة ، وكانت من ليالى تموز مقمرة ساجية دافئة يخيم السكون عليها ، قام الأب إجناتى يدب على أطراف قدميــه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضتها ، وصعد السلم إلى غرفة فيروتشكا . وكانت نافذتها من عهد وفاة ابنته لم تفتح فكان فى جوها حرارة وجفــاف تشوبهما رائحة احتراق خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال النهار لوقدة الشمس . وكان إحساس الوحشة والأقواء مخيما على الغرفة التى طالت غيبة الانسان عنها ، وقد انبعثت من الألواح المكتسية بها الجدران ومن الأثاث وسائر ما بالغرفة ريح كريح العطن والانحلال

وكانت القمراء تتخلل زجاج النافذة وتنبسط على أرض الغرفة كشريط وضاء ، وكانت المناضد بطلائها الأبيض الناصع تعكسها فينير أركان الغرفة منها نور كليل شمشمانى . ويبدو الفراش الأبيض النظيف وعليه وسادتان كبرى وصغرى كأنه شبح من عالم الأطياف . وفتح الأب إجناتى النــافذة فاندفع الى داخل الغرفة تيار من الهواء النقى ، يستروح السائف فى أردانه تراب النهر المجاور وعبق الزيزفونة المزهرة ، ويحمل الى المتسمع المصغى نشيداً خفيضاً لعله لقوم فى قارب على النهر يجدفون ، وفى تجذيفهم ينشدون

وخطا الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتاً ، ودنا من الفراش الخاوى وخرّ مكباً على وجهه فوق الوسائد يضمها — حيث لا محالة كانت تضع فيروتشكا وجهها

وظل على هذه الحال طويلا . وتمالى النشيد فى الخارج ، ثم أخذ ينخفض حتى لم يعد مسموعا ، والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشــعره المرسل مشعث مهدل على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر فى مسراه ، فأظلمت الغرفة واحلولكت ، ورفع الأب إجناتى رأســه ونادى بصوت أفرغ فيه كل حبه الذى أطال كبته وكظمه بلابث ولا تصريح . وكان وهو ينادى ينصت لما يقول ، وكأن المنصت ليس هو وإنمــا هى ڤيرا

— ڤيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟ يا بنيّتى ! مهجتى ! دمى ! حياتى !

هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلته القوى

وانتفض منكباه وسرت الرجفة فى جثمانه

الضليع من فرعه إلى أخمصه . ثم همس متهدجا فى لين وترفق كأنما يناغى طفلة :

— أبوك الشيخ المسكين يسائلك . نعم يا ڤيرا إنه يستعطفك ، إنه ليبكى ، ولم يكن من شأنه البكاء قط ، إن ألمك يابنيتى ولوعتك ، يحزان فى نفسى كما لو كانا بى . بل أشد وأنكى

وهز الأب إجناتى رأسه :

— أشد وأنكى ، ياڤيرا . وما الموت عندى ، أنا الشيخ ؟ ولكن أنت . .

آه لو علمت ما كان من رقتك ، ولطافة بنيتك ومبلغ إشفاقك وتهيبك !

أتذكرين إذ وخزت أصبعك ونضح منها الدم فطفقت تصرخين . نعم يا بنيتى !

وكنت تحبيننى حقاً ، وتشغفين بى حبا ، أعلم ذلك . وكنت فى كل صباح تقبلين يدى . تكلمى عن هذا الذى يحزنك — فأنى بهاتين اليدين خانق حزنك . إنهما ما برحتا قويتين ، هاتين اليدين ، يا ڤيرا

واهتزت خصائل شعره

— تكلمى !

وشخص بعينيه إلى الحائط ، وبسط يديه ، وصاح :

— تكلمى !

ولكن الغرفة صامتة . ثم طرقتها على بعد سحيق أصداء مديدة ومقتضبة من صفير قاطرة عابرة

فأدار الأب إجناتى عينين اتسع حملاقهما كأن قد تمثل له شبح الجثة مبتورة الاشلاء . ثم نهض من ركوعه على مهل متساندا ، ورفع إلى رأسه بحركة الذهول يداً مشنجة منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع . ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفى خروجه همس فى حدة :

— تكلمى !

فكان جوابه الصمت

فى اليوم التالى تناول الأب إجناتى غداءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمته إلى المدفن لأول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نأمة ، حتى لكأن النهار القائظ فى هدوئه ليلة مشمسة . على أن الأب إجناتى كدأبه نصب قامته مجاهداً ، وأدار بصره من جانب لآخر بجفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كعهده بنفسه . ولم يفطن إلى التخاذل الطارىء الفظيع يفت فى ساقيه وإلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيباً كأنما أصابها صقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة مستقيمة آخذة فى ارتفاع لطيف المرتقى ، وفى نهايتها باب المدفن من خشب الزيزفون يظلله سقف أبيض ملتمع ، فكأنه فم مفغور الشدقين على الدوام محاولك وعلى حافته أنياب قواطع لوامع

وكان قبر ڤيرا موغلاً فى جوف المدفن بعد نهاية الممرات المفروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يجوس طويلا فى مسالك ضيقة على محاذاة الكثبان المتمرجة الناتئة بين حشائش مهملة مهجورة من الجميع منسية . وكان يلتقى هنا وهناك بنصب متداعية ، لونها حائل مخضر من القدم ، وحواجز منهارة متهدمة ، وصفائح من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تبهظ صدر الثرى كأن بها عليه حقداً كحقد الشيخ بائسا متجهما

وعلى مقربة من إحدى هذه الصفائح ، كان قبر ڤيرا . وكان المدر المعشوشب عليه مصفراً ذابلا على حداثة عهده فى حين كل ما حوله يانع ناضر . وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وخميلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظلال تبسط أفنانها المتأودة بأوراقها المخشوشنة الوبراء على القبر

فجلس الأب إجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو يتنهد بين الفينة والأخرى . وجعل يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء الصافيه ، وكان قرص الشمس المتقد معلقاً فى مكانه جامداً بغير حراك . وعندها فقط أحست فى نفسه عمق ذلك السكون الذى لا سكون مثله يخيم على مدفن ، والريح هامدة لا تهفو لها نسمة تعبث بالأوراق الجافة الميتة . وقام فى خاطر الأب اجناتى مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ولكنه الصمت ، وفاض الصمت وطم حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسورها متثاقلاً وغمر المدينة . وأما آخره فهنالك فى هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين فى تعنت وعناد على الصمت

هز الأب اجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة فيهما . وسرح نظره على قبر فيرا . وطال تأمله لميدان الحشائش القصيرة المصوحة وقد صار انتزاعها من منابتها فى بعض الرياض الفيحاء الضاحية فلم يتهيأ لها تأصل ولا ترعرع فى هذه التربة الجديدة . ولقد عز على الأب اجناتى إقناع نفسه بأن هنا تحت هذه الحشائش على بعد بضعة أشبار منه ترقد فيرا ، وبدا له أن تدانى الشقة الى هذا الحد أمر غير معقول ، وإنه ليخامر نفسه منه حيرة وتوجس غريب . اذ كيف أن هذه التى تعود التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الأبدية السحيقة طى الأبد تكون هنا قريبة ! وكيف يعقل مع هذا أنها تلاشت من الوجود ولن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ، بالكلمة التى يكاد يحسها على شفتيه ، أو أنه لو أومأ باشارته ، لأقبلت عليه من القبر ، ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلة كعهده بها ، ثم إنها لا تقوم وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحس بهم وترتاع من رهبة صمتهم وبرده ، كل هؤلاء أيضاً يقومون

وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء العريضة الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه المشمثة ، وهمس منادياً :

— ڤيرا !

وأخذه القلق أن يكون بمسمع منه غريب . فاعتلى الضريح وتطلع من فوق الصلبان . فلم يكن على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

— ڤيرا !

وكان صوته صوت الأب إجناتى المعهود من قديم جافاً آمراً ، وكان عجيباً أن نداءً بهذه القوة يبقى بغير جواب !

— ڤيرا !

ومضى الصوت ينادى عالياً ملحاً ، ولما أن سكت لحظة ، خُيل اليه أن جواباً غامضاً دوّى من تحت أطباق الثرى . فتلفت الأب إجناتى حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسل لمته عن أذنيه وألصقهما على المدر الخشوشن الشائك فوق القبر ، ونادى :

— ڤيرا ! تكلمى !

فأحس الأب إجناتى فى فزع ان شيئاً له برودة القبر قد نفذ الى أذنه وجمد له عقله ، وأن ڤيرا تكلمت — ولكن كلامها هو ذلك الصمت الطويل نفسه ، وظل يزداد الصمت روعة وهولاً . ولما أن رفع الأب إجناتى رأسه من الأرض مجاهداً ، ووجهه شاحب كوجه الميت ، خيل اليه أن الهواء يهتز وينبض بصمت مرنان ، كأن ريحاً صرصراً ثارت على ذاك العيلم المخوف ، وأن الصمت ليزهق أنفاسه ويخنقه ، ولا تزال موجاته الثلجية متقلبة فى رأسه جيئة وذهاباً فيقف لها شعره

أشمث مستطاراً ، ولا تزال منكسرة على صــدره فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلب ألحاظاً عصبية خاطفة من ناحية أخرى ، ثم قام متحاملاً فى اتئاد وبطء ، وعانى أشد الجهد وأنـكاه ليرفع قامتـه ويرد الى بدنه المرتجف مشية الـكبرياء المعهودة ، وقد أفلح بعد لأى ، وأخذ ينفض التراب عن ركبتيه متمهلاً مترويا ، ولبس القبعة ، ورسم اشارة الصليب ثلاثا على القبر ، ثم دلف بخطوات متساوية ثابتة ، غير أن طرق المدفن ومعالمه اختلطت عليه فضل السبيل

فوقف عنـد مفترق المسالك جامدا فى مكانه يضحك :

— ضللتُ السبيل !

وطالت وقفته برهة ثم عرّج من غير تفـكير الى اليسار . وذلك أنه ما كان ليطيق الوقوف هنا جامدا ينتظر . وتبعه الصمت على الأثر . وهذا هو الصمت يخرج من اللحود المشوشبة ، وتتنفس عنه الصلبان الداكنة المتجهمة ، ويتصاعد نفحات دقيقة خانقة من مسام الأرض المتشعبة جثثا ورماما والأب إجناتى يضاعف خطاه مسرعاً ، وقد سدر بصره وذهل عن نفسه ، فهو يطوف بالمسالك بعينها المرة بعد الأخرى ، واثبا فوق القبور ، متعـثراً بالحواجز ، يهوى بكفه على الأكاليل من الصفيح شائكة فيتمزق قماشها الرقيق الناعم فى يديه . ولقد ذهل عن كل تفكير الا فكرة واحدة وهى الخروج من هذا المـكان . فاندفع من ناحية الى أخرى ، وأخيراً انطلق يعدو فى سكون ، شبحا مديد القامة لا تكاد تتعرفه فى برنسه الخافق وراءه ، وشعره المتهدل المرسل فى الهواء

وان رؤية ميت قائم من القبر لأخف هولاً من ملاقاة هذا الرجل طالعاً عليك بمنظره الأشعث الآبد ، راكضا ، واثبا ، ملوحا بذراعيه — حين تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها ، وتسمع حشرجة أنفاسه تتدافع بصوت أجش من فمه المفغور

وانتهى الأب اجناتى وهو فى أقصى سرعته الى الرحبـة الصغيرة التى تقوم فى آخرها كنيسة المدفن متطامنة مجصصة . وكان على مقعد طويل عند مدخلها شيخ مهوم يلوح كالحاج من بعيد ، وإلى مقربة منه امرأتان عجوزان من المتسولات فى شجار وصيال تتشاحنان وتتباهلان

ولما بلغ الأب اجناتى منزله ، كان الليل قد دجا والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استبانفنا ، فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة المتربة وترامى على أقدام زوجته راكعا وانتحب :

— أيتها الأم — أولجا — رحماك رق لحالى أ كاد أفقد صوابى

وصدم بحافة المـائدة رأسه وانتحب نحيباً صاخبا وجيما ، شأن الـكظيم ينتحب لأول مرة ؛ ثم رفع رأسه على يقين من أنه بعد قليل تظهر المعجزة فتتكلم زوجته وترق لحاله

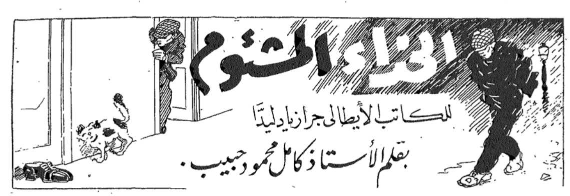
— يا زوجتى العزيزة

وتهافت بكل جسمـه الضخم ضارعا اليها مستعطفا اياها . فالتقى بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين . ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة . ربما تكون زوجته قد صفحت عنه ورقت لحاله ، ولـكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة . انهما على حالها خرساوان صامتتان

* * *

والبيت كله فى وحشة صامت

عبد الرحمن صدقى



ضاقت سبل الحياة بالفتى إيليا كراى فهو لا يجد عملاً ، وهو لا يدرى كيف يزجى هذا الفراغ العريض الذى وقع فيه على حين فجأة ، إلا أن يقضى شطراً من نهاره فى حجرة الانتظار بالمحكمة ، واضعاً كراسة على ركبته يثبت فيها ما توافيه به قريحته من أشعار يناجى بها زوجته الحبيبة . لقد كان الضجيج يعلو بازائه والجوع تتقاطر من هنا ومن هناك : فقيرات النساء يتخاصمن على دريهمات ضئيلة كأنما يتنازعن أقطار الأرض جميعاً ؛ وقائلو الزور يسيرون فى هدوء وأناة يبتغون شيئاً ؛ وصغار المحامين يندفعون هنا وهنا يفتشون عن صيد جديد ؛ هذا وإيليا جالس فى هدوئه ، فى زاوية الحجرة ، يكتب إلى زوجته بعض الشعر وكأنه لا يحس مما حوله شيئاً :

« أنا أستطيع أن أرى الحياة بعينى عقلى ، فكل ما يدور فى العالم مقدر قبل أن يكون . أنا شاعر وفيلسوف ، فليس شىء فى الحياة يثير فىَّ الدهشة لأننى أعلم أن الأيام تعلو بالمرء مرة وتسفل به أخرى . لا تقنطى — يا عزيزتى — فلربما تذكرنا عمى أغسطينو ... أغسطينو الذى طرد زوجته وحرمها ماله ؛ لعله يذكرنا يوماً فنذهب إلى شاطىء البحر معاً ، نشهد القوارب تضطرب بين الأمواج الهائجة ، ونحن نسير ذراعاً فى ذراع كأننا عروسان فى شهر العسل . على أننا — الآن — سعيدان ، فالحب والاطمئنان يغمران قلبينا وحياتنا . وأنتِ يا سيدار ؛ أنتِ فينوس هرموزا ؛ أنتِ ثرائى وأنتِ ملكتى ... »

* * *

وفى صباح يوم من أيام الشتاء ، أحس إيليا وهو فى مكانه من حجرة الانتظار ، حيث يجلس دائماً ؛ أحس أن يداً قوية تجذبه فى عنف ، وسمع صوتاً خشناً يناديه : « أسرع ! لقد كنت فى (تيرّانوفا) وعمك هناك يعالج مرضاً مخطراً ... » هذا صوت سائق ينبهه إلى أمر ، ولكنه ما كان ليسلبه بعض هدوئه . لقد أرسل أنة خفيفة خافتة ، ثم قال يحدث نفسه : « سأنشر هذا الخبر المحزن على عينى زوجتى »

لم تضطرب الزوجة لما سمعت ، ولم تحزن ، ولم تفزع من مكانها وهى جالسة أمام باب الدار تلتمس الدفء من أشعة الشمس ، وقد ارتدت خير ملابسها ، وانتعلت ، ورتبت شعرها فى دقة وأناقة ؛ غير أن ملابسها وحذاءها وقد عبثت بها يد البلى ، ووجهها وقد شحب وتغضن وذوى جماله ، وعيناها وهما تضطربان وقد خبا ضوءهما وانطفأ بريقهما ؛ كانت كلها ترسم سطوراً واضحة فى تاريخ فاقتهما وعوزهما

ومن أقصى المكان ارتفعت ضجة تشبه ما يسمعه إيليا دائماً فى المحكمة : فهؤلاء أصحاب الدار يتنازعون فيما بينهم أمراً ؛ وهذا الندىُّ — وهو جزء من الدار — قد ضم جماعة يلعبون الورق ويمزحون فى ضجة وصخب ؛ والزوجة لا يعنيها

ملحوظة : كتبت هذه القصة بقلم الكاتبة الايطالية جرازيا دليدا ، وقد أخطأ الخطاط فجعلها الكاتب

ما يدور حولها . أما هو — هو إيليا — الزوج العاشق فقد وقف بازاء زوجته يداعب شعرها فى رفق وتحبب ويقول : « أفتعلمين ما أنا صانع ؟ سأذهب ...! » قالت الزوجة : « إلى أين ...؟ » قال : « إلى أين ؟ لعلك لم تعى شيئاً مما قلتُ ! إلى عمى أغسطينو طبعاً ! ما أجمل ما أرى فى هذا اليوم ... ! » قالها وقد كتم فى نفسه أموراً استشعرتها الزوجة المسكينة فراحت تحدق فى حذائه الممزق مِزَقا أعيت على الاسكاف ، ثم قالت : « وأين لك بالمال تستعين به على السفر ؟ » قال الزوج فى ثبات : « إن معى ما يكفينى ، لا يشغلك هذا . إن كل ما فى السكون يلد الحياة والجمال لو أن فى النفس الهدوء والدعة . إن ما يهم المرء حقاً هو أن يحب الناس ويحسن معاملتهم . لقد شغلنى هذا كل ساعات الصباح .... أفتريدين أن تقرأى ؟ » ثم قطع قصاصة من دفتره وألقى بها فى حجرها وهو يبسم ... ثم انطلق وما خلّف من شىء سوى هذه القصاصة ...

انطلق ماشياً لأنه لا يملك سوى ثلاث ليرات ؛ وكانت فلسفته قد أوحت إليه ألا يتخبط بين هذا وهذا ، يقترض ، فيضيع وقته فيما لا غناء فيه ... هذا نوع من الرياضة تعوده منذ زمان ؛ وما كان لشىء ما أن ينزع عنه رزانته أو يحول بينه وبين أن يصل إلى عمه أغسطينو ، وهو رجل سيار . لقد سار فى نشاط وخواطره معلقة بحذائه دون قدميه ، فهو يشفق عليه ويشفق ..

***

بلغ إيليا (أوروسى) — وهى قرية فى طريقه — ولم يحدث ما يعكر صفوه ؛ فالطريق ممهد لاحب ، والطبيعة جميلة تحنو عليه لتنسيه بعض متاعبه . لقد كانت رحلة ممتعة ، فى ناحية من الأرض سحرية ، فالشمس تتألق كأنها ماسة كبيرة ، وترسل أشعتها الذهبية فى رفق على صخور الجبل ، والحشائش تضطرب تحت نسمات البحر الرقيقة . وحين اندفع هو فى طريقه تراءت له الزهور الرفافة — زهور الربيع الجميلة — تنفث من عطرها الشذىّ فى روحه النشاط ، وتذكى فى أعصابه القوة ؛ ثم . . . ثم انحدرت الشمس الى مغربها ، فاستحالت حرارتها المنعشة الى برد قارس تحمله نسمات الليل ؛ وأحس الرجل أن قدميه تتنديان ، وأن حذاءه قد انفرج عنهما من هنا ومن هنا ؛ فاضطرب وخانته رزانته الفلسفية حين بدا لعينيه أنه لا يستطيع أن يصلح حذاءه أو أن يجد غيره ؛ وأنه لا يقوى على أن يحمل همّ الطريق وهمّ الحذاء الممزق معاً . وتمثل له ما يلاقيه من مهانة واحتقار حين يبدو فى دار عمه رثّ الملابس ، زرىّ الهيئة ، ممزق الحذاء ، وهو لا يريد أن يكون هو ألم نفسه وعار زوجته حين يلج دار عمه فى مثل حذائه . لا بد أن يجد حذاء ؛ ولكن كيف ؟ إنه هو لا يدرى ... وبعد فترة كان يسير فى شوارع القرية المهجورة المظلمة النديّة وقد سيطرت عليه فكرة الحذاء الآخر . وفى ناحية من ساحة فندق هناك صغير يشع نوراً ذهبياً قوياً جذب إيليا اليه . . . جذبه لينام ليلته فى حجرة قذرة ، حيث ينام عاملان فقيران ؛ وقد كان غطيط أحدهما يستلب إيليا من أفكاره ومن نومه معا . استلقى الرجل على فراشه وما فى رأسه غير صورة نعل جديد تتراءى له أينما هفا خياله : فى الشارع ، فى الحقل ، فى زاوية الحجرة ، فى صندوق فى الزاوية الأخرى ، ثم هناك عند الباب وكانت تحور أحيانا الى أخرى بالية تنم عن الفقر والفاقة ...

وظلّ إيليا تفزعه الريح العاصفة ، والغطيط المدوّى فى أرجاء الحجرة ؛ والساعات تمر . وتماق

بصره بنجم يتألق في السماء كأنه يسبح بين أمواج البحر المضطربة ؛ وخياله عند زوجته وهو جالس اليها ينشر على عينيها بعض أشعاره الرقيقة الطلية ، وعند الحياة الناعمة التى يحياها الى جانبها لو ظفر بما يملك عمه ...

وانتفض الرجل من فراشه بعد لأي وهو يضطرب ، وانحنى على حذاء العامل يريد أن يسابه فوجده ثقيلا واسعا فتركه الى حذاء الرجل الآخر ؛ غير أنه لم يجد شيئا ، وطن فى مسمعيه صوت أقدام تدب خارج الحجرة فاضطرب ووقف فى مكانه وقد سيطر عليه الحزن والفزع ؛ وبدت له خسته لحزن ... حزن حزن القلب يستشعر الخطر المحدق ؛ وحين انمحى الصوت دلف هو إلى الخارج ليرى ... ليرى الردهة خالية الا من بصيص من نور ، وإلا من قطة تحك جسمها فى الجدار ، والا من حذاء بازاء القطة ، بدا فى عينى الرجل جميلاً ... فانطلق إليه يخبئه فى ثنايا معطفه ، ثم اندفع الى الشارع فى هدأة الليل وسكونه . لقد غادر الفندق لم يشعر به أحد ، ثم أسرع ... وتراءى له وهو يسير على شاطىء البحر كأن كواكب السماء تتساقط رويداً رويداً لتغتمر فى هذه اللجة ، فقال : « يا عجبا ! أكل شيء فى الطبيعة والانسان يريد أن يهد ... ؟ » وظل يحدث نفسه هذا الحديث وهو يخب فى الظلام بين الصخور المظلمة والبحر الداكن

ومضت نصف ساعة جلس بعدها ليلبس الحذاء المسروق . لقد بدا عليه السرور والفرح — بادىء الأمر — غير أنه ما لبث أن استشعر الحسرة تفجؤه وتكاد تعصف به ، فراح يحدث نفسه : « ماذا يكون لو أنهم تبعونى ؟ سيقتلوننى لاشك . ماذا تقول زوجتى إذن ؟ ستقول : ماذا صنعت يا إيليا ؟ أفتسرق حذاء ؟ أى فرق بينك وبين من يسرق مليون ليرة ، أيها السارق ؟

واضطربت الفكرة فى رأسه : « مليون ليرة ! أين هى ؟ أين أجدها ؟ لو وجدتها لاختطفتها لأنى ولا أتباطأ ... ! » ثم تمطى وهو يبسم لهذه الخاطرة ، ومد رجليه وحرك أصابعه فى الحذاء الجديد . يا عجباً ! لقد رانت على نفسه سحابة سوداء من الكآبة مرة أخرى ، وشعر بقدميه تتقدان ، وبأصابعه تختلج كأنها تنفر من هذا الحذاء المسروق ! لقد سار فى طريقه متكاسلاً ، ومتأبطاً حذاءه ليستطيع أن يلبسه إذا تبعه أحد ؛ ثم اضطرب وتوزعته الأفكار السود ؛ فهو يلتفت الى وراء بين الفينة والفينة ليرى من عساه يتبعه ...

وانبثق الفجر كأنه شيطان مارد يحدجه بعينين فيهما البغض والازدراء ؛ يطل عليه وقد قنعته سحابة دكناء من الضباب ليبعث فى نفسه الفزع والرعب ، ولينذره بالفضيحة والويل ؛ وهؤلاء الناس — عما قريب — ينسلون الى القرية ، مارين به ، وحين يسمعون قصة الحذاء المسروق يقول قائلهم : « نعم ، لقد رأينا رجلا هناك يسير مضطرباً ، وقد تأبط حزمة يخبئها تحت معطفه ... » .

ورأى — وهو يسير — فلاحاً يسير الهوينى ، فى طريقه الى القرية ، فخيل اليه أنه يحدق فيه ، ويلتفت اليه بين الحين والحين وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم

ثم ... ثم انحسر الظلام عن نهار حزين كالح ؛ وقد نشرت السحب ذوائب طويلة سوداء تصل بين الجبل الشاهق والبحر المضطرب ؛ والغربان تمر به وهى تنعق نعيقها المشئوم ؛ وقد انطوى الجمال الذى أحسه بالأمس فى هذه الناحية ؛ وبدت له الحياة عابسة تبعث فى النفس الألم والضيق ، ودوت فى فى أذنيه أصوات تفزعه من مكانه لأنه رأى فيهما

أصوات الذين من خلفه يقصون أثره ويسخرون منه ؛ فاستبدل حذاءه القديم الممزق بالحذاء الذي سرقه ، وألقى به في ناحية ثم انطلق ...

لقد ألقى بعض همه حين ألقى الحذاء المسروق ، ولكنه ما يزال في اضطرابه ، وخياله ما يفتأ يصور له أشياء ! فهذان العاملان اللذان قضى معهما ليلته ، على أثره يطلبانه بعد أن وجدا الحذاء الملقى ... سيُلبِّبانه ثم يدفعان به إلى المحكمة ، وهناك ... وهناك ... ؛ وتراءى له جماعة يعذبونه ويعذبونه حتى يعترف ...

ماذا تقول زوجته حين يترامى إليها الخبر ؟ وتأججت الفكرة برأسه يؤرثها الاجهاد والبرد والجوع ، فانطرح تتنازعه الخواطر المظلمة كما تتناوح الرياح الشديدة العاصفة سحابة في كبد السماء ؛ ورجع إلى نفسه يلومها على أن طوحت به الأيام في هذه المتاهة ، يضرب في الأرض ، ويفقد الراحة والطمأنينة في وقت معاً ؛ ثم هو لا يطلب إلا سراباً أو أملاً كالسراب ، ومن يدرى ؟ لعله لا يستطيع أن يأتي بالحجة القاطعة يثبت بها أن أغسطينو هو عمه ... وبرغم هذا فهو قد ألصق بنفسه عاراً لا يغسل .

***

نكص الرجل على عقبيه ممتلخ العقل ، مأخوذ اللب ، يحدق في الحذاء الملقى في ذهول وبلاهة ، أفيواريه التراب ؟ إنه إن فعل فما غيّر من الحقيقة التي في رأسه ! أن هذا الحذاء مسروق ، وأنه هو السارق ....

وتردد إيليا حيناً ، ثم هوى إلى الحذاء يخفيه تحت طيات معطفه ، وارتد إلى القرية لا يستطيع أن يهبطها إلا أن يسدل الليل أستاره ، لقد غبر يوماً كاملاً لا يطعم شيئاً ، فأحس بأعصابه تتراخى ومشى الهوينى يترنح كأنه عود ذاوٍ تعصف به الرياح الهوج ، وولج الفندق ثانية وكأنه في حلم ، وعلى شفتيه كلمة الاعتراف ؛ غير أنه وجد المكان هادئاً كأن شيئاً ذا بال لم يكن ، ومر فما تعلق به بصر ، ولم يحم حوله شبهة ؛ فتناول طعامه ، ووضع الحذاء مكانه الأول ، ثم ألقى بنفسه في لجة من النوم العميق الهادىء ، فما استيقظ إلا عند ظهر اليوم التالي . وحين هم من مرقده اشترى رغيفاً بما بقي معه من مال ثم سار ...

وبدا الجو في ناظرى إيليا — مرة أخرى — جميلاً ، والوادى كأنه يبسم في رقة وظرف ، والنبات الأخضر تنبعث منه القوة والنشوة ، وهو يندفع في سيره بفور نشاطاً وحياة على رغم هذا الحذاء الممزق الذي تعوج فيه قدماه ، وهو — هو هذا الحذاء — كان يوقظ الرحمة والشفقة في قلوب الذين يرونه فيمنحونه بعض الخبز واللبن يتبلغ بهما

وبلغ دار عمه وقد أجهده السير وأضناه التعب ، ولكن الأمل كان يشرق في عينيه فيدفعه الى الأمام ... لقد مات عمه منذ ساعات قليلة ، وراحت الخادم تنظر اليه في دهشة وهي تعجب : « أأنت ابن أخيه حقاً ؟ لماذا لم تسرع الى هنا ؟ » ولكنه وقف صامتاً ، فاندفعت هي تقول : « لقد أرسل اليك منذ ثلاثة أيام وأنتظر ... انتظر طويلا وهو يذكرك ، ثم بدا له أنك نسيته ففقد الأمل . وحين أحس بالموت يكاد يقصم عوده أوصى بكل ما يملك الى اليتامى من أبناء البحارة » ...

فارتد إيليا الى داره يحمل الى زوجته الحبيبة الى نفسه خيبة الرجاء وضيعة الأمل وهو لا يستطيع أن يقول شيئاً ...

كامل محمود حبيب

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

الفصل الخامس

وعندما رأى ديجنه أن لا دواء ليأسى وأننى أرد كل نصح وأقبع فى دارى أدرك خطورة الموقف فجاءنى فى إحدى الليالى ودلائل الاهتمام بادية على وجهه فذكر عشيقتى بلهجة المزدرى ، وأسرف فى التقريع بوجهه إلى كل امرأة مجاريا حوافز عقيدته ؛ وكنت منطرحا على فراشى فجلست وأسندت رأسى إلى كفى وأصغيت بكل انتباه لأقواله

وكانت ليلة ، بدأت تهب فيها الرياح فتسمعك أنين المدنفين ، وكان المطر يضرب برشاشه زجاج النوافذ ثم ينقطع فجأة فتحسب الطبيعة قد فقدت الحياة فى فترات السكون

فى مثل هذه الساعات يحكم الألم جميع الكائنات فتهتز الأشجار كأنها تتلوى فى أوجاعها وتحنى رؤوسها حزينة عاجزة وتهرع أطيار الحقول إلى صغيرات الأشجار متزاحمة على الملجأ الأمين وتقفر الشوارع من كل عابر

وكنت لا أزال أتألم من جرحى

لقد كان لى بالأمس حبيبة وكان لى صديق ، فخانتنى الحبيبة وصرعنى الصديق فألقانى على فراش الأوجاع ، فأصبحت وفى رأسى من الاضطراب ما لا أهتدى معه إلى حقيقة حالى ، فكنت أحسب أن ما مر بى لم يكن سوى حلم مروّع وأننى سأجد سعادتى المفقودة إذا مافتحت عينى لأنوار الصباح ، ثم أعود فأرى حياتى بأسرها حلماً طائشاً ساخراً يتكشف لى بغتة عما استتر فيه من خداع وأكاذيب

وكان ديجنه جالساً على مقربة منى وقد أنارت أشعة المصباح وجهه فلاحت أمارات الجد عليه بالرغم من استمراره على الابتسام كعادته

وما كان ديجنه بالرغم من صلابته وجموده إلا الرجل المخلص المعطوف ؛ غير أن الاختبار كان قد نال منه وأسقطت الحادثات طرته ، وما جهل هذا الصديق الحياة فانه خبرها وأسالت كثيراً من دموعه ؛ غير أنه ادرع الصبر فاستحجرت آلامه وبات يتوقع الموت

وقال ديجنه :

— إننى وقد نفذت ما انطوت عليه سريرتك أراك تعتقد بالحب كما تصوره القصصيون والشعراء فأنت إذن تصدق ما يقال لا ما يقع فى هذه الحياة . لقد ضللت السبيل السوى فى تفكيرك ، فان أمعنت فى السير وقفت بوجهك المصائب والويلات

وهل يصور الشعراء الحب إلا كما يجسم النحاتون الجمال ، وكما يبدع الموسيقيون الأنغام ؟

إن أرباب الفنون وقد دقت أعصابهم ووهبوا

الحس المرهف يختارون أنقى عناصر الحياة وأبدع رسوم المادة وأروع ما فى الطبيعة من نبرات

قيل إنه كان فى أثينا عدد كبير من الغانيات الفاتنات فعمد براكستيل إلى تصويرهن الواحدة بعد الأخرى ، ثم استعرض مجموعته مستبعداً عيوبها ومستنبطاً منها مثالاً كاملاً جامعاً للمحاسن على أنواعها هو رسم الزهرة آلهة الجمال

وعلى هذه الوتيرة جرى أول إنسان أوجد آلة الموسيقى مقرراً قواعدها وأحوالها ، فانه ما وضع الأنغام إلا بعد أن تنصت طويلاً إلى تغريد البلابل وحفيف الغصون

وهكذا أوجد الشعراء أيضاً الأسماء السرية التى مرت على شفاه البشر من جيل إلى جيل ، كدفنيس وكلوبه وهيرو وليااندر وبيرام وتيسبه

تلك أسماء لم يبدعها الشعراء إلا بعد أن ابتلوا الحياة وعرفوا من المحبة سريعها وبطيئها فى الزوال ، وبعد أن شهدوا إلى أية درجة من الهوس يبلغ الهيام أحياناً منقياً الطبيعة البشرية من أدرانها

فاذا أنت فتشت فى الواقع عن مثل هذا الحب المطلق الثابت فكأنك تفتش فى ميادين الجماهير عن نساء يضارعن الزهرة فى روعة جمالها ، أوكأنك تكلف بلبلاً إنشاد أجمل مقطوعات بيتهوفن إيقاعاً

ليس الكمال من هذا الوجود ؛ وكفى الذكاء البشرى أنه فاز بتصوره ؛ فاذا ما طمع فى الحصول عليه رمت به شهوته إلى الخبل والجنون

افتح نافذة غرفتك ، يا أوكتاف ، وتطلع ! أفما تشرف منها على مدى لانهاية له فتشعر أن لا حد لهذه الآفاق ؟ ولكن هل لك بالرغم من تصديق عقلك لشعورك أن تتصور ماهية اللانهاية ؟ أيمكنك أن تدرك ما لا يحد وأنت ولدت فى الأمس وغداً ستموت ؟

لقد جن الكثيرون فى كل أنحاء العالم أمام هذا المدى الفسيح ، وما نشأت الأديان إلا من الاستغراق فى التفكير فى أسراره . ما قطع كاتون عنقه ، وما استسلم المسيحيون للأسود والبروتستانت للكاثوليك إلا لأدراك المطلق المتعالى عن كل حصر وتحديد

إن جميع شعوب الأرض يبسطون الأكف نحو هذا المدى الفسيح قاصدين الارتماء إليه . وفاقد الرشد يطمح إلى امتلاك السماء ، أما العاقل فيكتفى بالاعجاب والخشوع ويرتمى جاثياً على ركبتيه كابحاً جماح شوقه

إذا كان فسيح المدى يعجز إدراكنا فكيف نتوسل به إلى نيل الكمال وقد حتم علينا ألا نتجه إليه فى أى شىء وألا نتطلبه من أى شىء ، لا فى المحبة ولا فى الجمال ولا فى السعادة ولا فى الفضيلة ، ولكننا مع ذلك ملزمون أن نتوق إليه لنبلغ فى المحبة والجمال والسعادة ما يمكن لنا أن نناله

افترض ، يا أوكتاف ، أن فى غرفتك لوحة من ريشة رفائيل ، لوحة تحسبها سالمة من كل عيب ، فاقتربت منها يوماً مدققاً فيها فوجدت فى رسم أحد أشخاصها خطأ فاضحاً كعضو مكسور أو عضلة نافرة من مركزها الطبيعى — كما يقال عن إحدى العضلات فى ساعد مصارع — فانك تشعر بالكدر ولا ريب ، ولكنك لا ترمى بلوحتك إلى لهيب الموقد من أجل هذا العيب بل تكتفى بأن

تقول — إنها غير كاملة وإن في أقسامها الأخرى ما يثير الاعجاب

إن في العالم نساء تردهن طبيعتهن وما في عواطفهن من الاخلاص عن اتخاذ عشيقين في زمن واحد . ولقد خيل اليك أن عشيقتك من هذه الفئة ، ولقد كان خيراً لك لو أنها منها . ولكنك تحققت خيانتها فهل في ذلك مايدعوك إلى احتقارها والاساءة إليها وإلى الاعتقاد بأنها تستحق حقدك ونقمتك ؟

افترض يا أوكتاف أن عشيقتك لم تخدعك وأنها لاتزال تحبك دون سواك ، أفلا ترى حتى في هذه الحالة أن حبها بعيد جد البعد عن الكمال وهو حب بشرى حقير يتحكم فيه خبث هذا العالم وأضاليله ؟ أفتنكر أن هذه المرأة قد استسلمت قبل ما نلتها أنت إلى رجل ورجال وأن غيرك سينالها بعدك أيضاً ؟

ارجع إلى رشدك ! إن ما يدفعك إلى اليأس الآن إنما هو اعتقادك بكمال كنت حليت به من تحب فاذا هي ساقطة لا حلية لها

ولكنك إذا ما رأيت اعتقادك على حقيقته واتضح لك أنه توهم واغترار بشرى تدرك أن لا فرق بين السقوط دركة وبين التدهور دركتين على شفير العيوب البشرية

إنك لن تستطيع أن تنكر أن حبيبتك قد نالها غيرك قبلك وسينالها غيرك بعدك أيضاً . ولكنك ستقول لي إنك لا تهتم لهذا ما دام حبها . أما أنا فأقول لك إذا كان سواك قد تمتع بها فما يهمك أن يكون وقع ذلك في الأمس أو منذ سنتين ؛ وبما أن سواك سيتمتع بها بعدك ، فما يهمك وقوع ذلك في هذا المساء أو بعد سنتين . إذا كانت هذه المرأة لن تحبك إلا إلى حين فما يهمك أن قصر حبها على ليلة أو طال إلى سنتين

ألست رجلا يا أوكتاف ! أفما ترى الأوراق تتساقط عن أغصانها والشمس تشرق فتغرب ؟ أفما تسمع نبضات ساعة الزمان في كل خفقة من خفقات فؤادك ؟ فأى فرق لدينا إذاً بين غرام سنة وغرام ساعة من الزمان ؟ أفليس مجنوناً من يتطلع من نافذة تقدرها الكف ليرى المدى الذى لا نهاية له

أنت تلقب المرأة التى تحبك عامين دون أن تخونك بالمرأة الشريفة ، ولعل لديك مقياساً خاصاً تعرف منه ما تقتضيه قبلات الرجال من الزمن لتجف على شفاه النساء

إنك لتجد فرقاً كبيراً بين المرأة التى تستسلم للحصول على المال وبين من تستسلم طلباً للذة ، تجد مثل هذا الفرق أيضاً بين من تبذل نفسها إجابة لداعى الكبرياء ومن تبذلها في سبيل إخلاصها ؛ إن بين من تشترى من النساء من تقدر لها ثمناً يزيد على ثمن سواها ، وبين اللواتى تطلب فيهن تمتع حواسك من تنال ثقتك دون سواها ، وبين من يدفعك الغرور إلى نيلهن من تباهى بالظفر بها بأكثر مما تباهى بامتلاك أخرى سواها ، وبين من تخلص لهن أنت من تهبها ثلث قلبك في حين أنك لا تهب الأخرى سوى ربعه ، وتهب غيرها نصف هذا القلب ، وذلك تبعاً لما تقدره لأحداهن من التهذيب والعادات وما تراه لها من كرامة الأصل وروعة الجمال واعتدال المزاج ، وتبعاً للظروف الطارئة أيضاً ولما يقوله

الناس وبحسب تأثير الساعة ، وما تناولت من مشروب مع عشائك

إن النساء يستسلمن إليك أيها الصديق لا لسبب الا لأنك فى شرخ الشباب المتقد ، ولأن استدارة وجهك لا عيب فيها ، ولأن شعرك مسرح باعتناء ، ولكنك لاتصافك بهذه الصفات لا تعرف من هى المرأة

إن أول ما ترمى الطبيعة إليه إنما هو استبقاء النوع ، لأن الحياة أينما تجلت من قمم الراسيات الى قعر البحار تفزع من الموت وتنفر من الفناء ، وما فرض الله هذا الناموس إلا استبقاء لخليقته فوضع اللذة العظمى فى الاتصال الجنسى بين الأحياء

إن النخيل يرتعش غراماً عندما يرسل الى أنثاه ذرات الحياة تحملها جارفات الرياح . واذا قاومت الوعل أنثاه فانه لا ينى ينطحها حتى يبقرها . والحمامة تنتفض تحت جناحى زوجها كأرق المشبقات احساساً

وهكذا الرجل ، عندما يضم رفيقته بين ذراعيه أمام عظمة هذا الوجود يشعر بالشرارة الالهية التى خلق منها تهب مشتعلة فى صميم فؤاده

أيها الصديق ، إذا ما ضممت إلى صدرك امرأة ملؤها الصحة والجمال وشعرت بسكرة الغرام تفجر الدمع من مآقيك وبالخلود فى صميم فؤادك يدفع إلى شفتيك بالقسم تزفره زفراً بثبات حبك إلى الأبد ، فلا تكبح جماح نفسك حتى ولو كانت المرأة التى تضم بين ذراعيك من بنات المواخير . ولكن حذار ! ألا تميز بين الخمرة التى تكرعها والثمل الذى يسود مشاعرك منها ؟ ولا تحسبن الكأس هى الكوثر الذى تشربه . وهكذا لن تتفجع اذا ما رأيت هذه الكأس محطمة أمامك فى إحدى الليالى ، وما المرأة الا وعاء من صنعة الخزاف سريع سقوطه وسريع تحطمه

وجه شكرك لله لأنه سمح لك بأن تلمح السماء ، فلا يخدعنك فى جوانحك خفقان تحسبه خفوق جناح ، فان الأطيار نفسها لا يمكنها أن تخترق السحاب وفى الأعالى طبقات لا هواء فيها . أفما رأيت القنبرة ترتفع محلقة إلى مسارح الضباب وهى تغرد لترتمى بعد تحليقها ميتة إلى أخاديد الحقول

اكرع من الحب ما يكرعه الشارب المعتدل ، وإياك أن تصبح سكيراً

إذا كانت عشيقتك أمينة مخلصة ، فأحببها من أجل أمانتها وإخلاصها ؛ وإذا لم تكن فيها هذه الصفات وكانت فتية وجميلة ، فاحببها من أجل فتوتها وجمالها ؛ وإذا لم يكن لها من مزية سوى الملاحة وخفة الروح ، فاحببها من أجل ذلك أيضاً ؛ وإذا لم يكن لها شىء من جميع هذه الصفات ولها تعلقها بك فلا تمنع حبك عنها ، فما يجد الرجل فى كل مساء امرأة تتعشقه

وإذا ما عرفت أن لك مزاحماً فى حب من تهوى فلا تشد ناصيتك ولا تعلن أنك ستنتحر . إن غرورك يخدعك فيخيل إليك أن حبيبتك تخونك بالتصاقها بسواك ، غير أنك إذا عكست نظريتك المكذوبة فقلت فى نفسك إن حبيبتك تخون مزاحمك بالتصاقها بك ، فأنك لترى النصر فى جنبك لا فى جنبه :

إياك أن ترسم لنفسك خطة تلتزم سلوكها ،

فلا تقل إنك تريد حباً مطلقاً لا شرك فيه لأنك إذا ما قلت بهذا المبدأ ستضطر ، وأنت إنسان متقلب بالطبع ، أن تستدرك خطأك فتضيف إلى قولك كلمة (على قدر المستطاع)

كن راضياً بالزمان كما يجيء ، وبالهواء كما يهب ، وبالمرأة على ما هي عليه

إن المرأة الأسبانية وهي من الطراز الأول في النسوية ، تحب بلا شرك ، فقلبها مخلص مضطرم ولكنها تخفي خنجراً تحت أثوابها فوق هذا القلب . والايطالية تتقد شهوة ولكنها تفتش عن عريض المنكبين وتقدر قدر عشيقها كما يأخذ الخياط قياس زبائنه . والانكليزية متحمسة تستسلم للكآبة ولكنها باردة متعجرفة . والألمانية رقيقة الشعور ولكنها باهتة جامدة . أما الفرنساوية فانها ظريفة رشيقة ولكنها أكذب من الشيطان

لا تلق على المرأة تبعة ما هي عليه ، لأننا نحن أوجدناها في حالتها بتشويهنا في كل سانحة ما أوجدته الطبيعة فيها . وما الطبيعة بغافلة في عملها فانها تمد العذراء للعشق حتى إذا خرج الولد من أحشائها تساقط شعرها وهبط نهدها واحتفظ جسمها بآثار جراحه ، فالمرأة لم تخلق إلا لتكون أماً ، ولقد يبتعد الرجل عنها بعد أن تكون أدت مهمتها فيستنفره الجمال المفقود ولكن طفله يتعلق بأذياله ويشده إلى مسكنه باكياً . هذي هي الأسرة وذلك هو الناموس الطبيعي وما يهتدي إلى السبيل السوي من يحول عنه

إن فضيلة أهل القرى قائمة على أن المرأة في مجتمعهم إنما هي آلة للتوليد وللارضاع ، كما أنهم هم أنفسهم آلات حرث وزرع . فليس هنالك شعور مستعارة ولا أصباغ ولا أدهان ؛ غير أن العشق عندهم سليم من الجرب فلا يخيل لهم أنهم في اقترانهم يكتشفون عالماً جديداً . وإذا كانت نساؤهم محرومات من الحس المرهف في الشهوة فانهن سليمات من العلل ؛ وإذا ما خشنت ملامس أيديهن فان خشونتها لم تتطرق إلى قلوبهن

لقد ذهبت الحضارة مذاهب لا تأتلف والنظم الطبيعية ، فان العذراء الكاعب سجينة وراء الأقفال وهي المخلوقة للشمس والهواء الطلق ، ومن حقها أن تشهد مصارعة الشباب كما كانت تشهدها بنات لاسيدعونيا لترجع حرة وتحب مختارة ، ولكن سجنها لا يحول دون تطرق العشق إليها ، فانها تجد الفساد في وقوفها أمام مرآتها فيدب إليها النحول من جمودها ويذوي في سكون الليالي جمالها المختنق متشوقا إلى الهواء إلى أن يأتي يوم تسحب فيه من سجنها فجأة وهي لا تعرف شيئاً ولا تحب شيئاً وتشتهي كل شيء . وتتولى إحدى العجائز تعليمها بالقاء كلمة سفيهة في أذنها ، ثم تؤخذ بعد هذا الدرس لتلقى على فراش رجل مجهول يغتصبها اغتصاباً

ذلك هو الزواج أو بالأحرى ذلك هو منشأ الأسرة المتمدينة ...

وتمر الشهور فاذا بالفتاة تقذف إلى الوجود بطفلها ، وإذا بشعرها يتساقط وبصدرها يتدلى فوق جسم شوهته التجاعيد

لقد فقدت هذه المسكينة جمال العاشقات قبل أن تعشق ، فهي لا تعرف لماذا حبلت ولماذا أصبحت أماً . . . .

يقدم الطفل لهذه المرأة ويقال لها : أنت الآن أم ، فتجيب قائلة : لست أماً . إذهبوا بهذا الطفل إلى مرضع فما فى ثدبي لبن له

وهل يدر اللبن صدر مثل هذا الصدر المقتصب ؟

ويؤيد الزوج هذا الرأى معلناً أن تعلق الطفل بأمه ينفره منها

تجلس هذه المرأة على سرير مخاضها الدامى فيوشى بالأطالس وتبذل العناية لشفائها من داء أمومتها ، وما يمر الشهر حتى تراها تجوب المسارح وتنتقل من مرقص الى مرقص ، ويرسل الطفل الى مرضع فى إحدى القرى ، أما الزوج فيدلج الى المواخير تحت جنح الظلام

ويدور بالمرأة عشرات الشبان يتدفق بيانهم بكلمات الحب والاخلاص والوله والعناق الدائم فتسمع من أفواههم كل ما كان يدور فى خلدها فلا تلبث أن تختار أحدهم لتضمه الى صدرها . ويندفع هذا المختار الى تدنيسها ثم يتحول عنها ليداعب الحظ فى مؤسسات القراطيس المالية

قضى الأمر فليس لهذه المرأة أن تعود أدراجها ، تستخرط فى البكاء ليلة ثم ترى أحداقها حمراء مما ذرفت من دموع ، فتتخذ عشيقاً آخر تسلو به همها فيسلمها الثانى الى ثالث الى أن تبلغ الثلاثين أو تتجاوزها ، فيدب الفساد قاضياً فيها حتى على الاشمئزاز ، وتصادف فى ليلة من ليالى جوحها يافعاً يتدفق الجمال من محياه وتتدلى طرته السوداء على إشراق جبينه ، ترسل عيناه شرارات الحياة وتخفق فى فؤاده الأمانى العذاب ، فترى فيه خيال شبابها وتتذكر ما تحملت من شقاء ، فتسارع الى تلقين هذا الفتى ما تلقنته هى من الحياة ، فتقضى عليه بألا يحب طوال عمره

هذه هى المرأة كما أردناها ، وما عشيقاتنا إلا من هذا الطراز . ولكننا نمضى معهن أطيب الأوقات . فاذا كنت ذا حزم ولك ثقة برجولتك ، فاتبع ما أشير به عليك . استسلم بلا وجل لتيار الحياة . تمتع ببنات الحانات والمواخير وبسيدات البيوت والقصور . كن ثابتاً ومتقلباً . كن حزيناً ومرحاً فى وقت واحد ، ولا تبال أخدعتك المرأة أم حفظت عهدك ، ما دمت واثقاً من أنها أولتك حبها

إذا كنت رجلاً عادياً لا مزية لك ، فكن محترساً فى اختيارك . وعلى كل لا تضع نصب عينيك أية صفة من الصفات التى تتمنى وجودها فى عشيقاتك

أما إذا كنت ضعيفاً وفى فطرتك صفات المسود لا مزايا السيد ؛ واذا كنت تشعر أن فى جذورك اندفاعاً الى التغلغل حيث تمتد بحفنة من تراب ، فالأجدر بك أن تتخذ عدتك للمقاومة لأنك اذا ما استسلمت لضعفك ، فلا تتوقع نمو فروعك حيث علقت أصولك ، لأنك ستجف كالنبتة العليلة لا تورق أغصانها ولا تنور أزهارها ، فينسرب نسغ حياتك الى الجذوع الغريبة وتبقى أوراقك كأوراق الصفصاف باهتة متراخية صفراء . وعندئذ لن تجد ما يرويك غير دموعك وما يغذيك سوى قطع قلبك

أما اذا كنت متحمساً تؤمن بالأحلام وتطمح الى تحقيقها فاننى أقول لك بكل صراحة : ان الحب وهم لا حقيقة له

وما أنا بمنكر عليك صحة مذهبك فى الحب لأنه عبارة عن أن يهب الانسان جسده وروحه معاً ، بل هو اندغام شخصين فى ذات واحدة تتمشى تحت الشمس وتجول فى الحقول المزهرة تلتف بأربعة معاصم وتفكر برأسين وتشعر بقلبين

ما الحب الا ايمان وعقيدة بوجود السعادة على هذه الأرض

ما الحب الا المثلث المتألق بالنور على قبة هيكل الوجود ، فاذا أنت أحببت مشيت حراً تحت قبة هذا المعبد والى جنبك المرأة التى لا يفوتها ادراك سر خشوعك عند وقوفك لفكرة تخطر لك أو عند زهرة تلمحها فتتوجه بنظرة استغراق الى هذا المثلث السماوى

إن خير ما فى الوجود هو أن يتمتع الانسان ببذل ما أعطى له من قوة ، لذلك كانت العبقرية أروع ما يستهوى النفوس ، ولكن اذا ما ضاعف الانسان هذه القوة بضمه فكراً الى فكره وعاطفة الى عاطفته فانه ليبلغ السعادة العظمى وفيها يتناهى ما وهب الله للناس فى هذه الحياة ، لذلك كانت المحبة أفضل من العبقرية

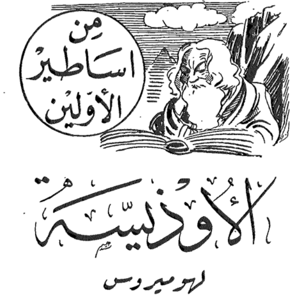
تلك هى المحبة فقل لى الآن اذا كانت هذه العاطفة العليا هى ما نسميه محبة فى قلوب نسائنا

وكيف يكون حبهن حباً وما المحبة فى نظرهن إلا الخروج مقنعات من بيوتهن وتوجيه الرسائل السرية والسير بذعر على رؤوس الأقدام وإنشاء الدسائس وبذل التهكم ورشق اللحاظ الفواتر وارسال تنهدات العذارى وارتداء الأثواب النفيسة وخلع هذه الأثواب أخيراً وراء الأقفال لاذلال مزاحم وخيانة زوج والنكاية بمشيق

أجل ما المحبة فى نظر نسائنا إلا التلهى بالأكاذيب كما يتلهى الأطفال بلعبة الكمين . تلك هى فحشاء القلب وهى أقبح من الدعارة الرومانية ، وذلك هو المسخ المولود سفاحاً من الفضيلة والرذيلة ، تلك هى مهزلة الحياة التى تمثل بالهمس والغمز حيث يتجلى كل شىء صغيراً لا شكل له فى رشاقته فكأنه تمثال صينى لخلقة من عجائب المخلوقات ؛ تلك هى الجنة تتحكم فى الجمال والقبح وفى كل ما هو سماوى وجهنمى فى الأرض ؛ تلك هى الأظلال التى لا حقيقة لها ، بل هى رمة المظام تتداعى من كل هيكل أقامه الله فى الحياة

هذا ما قاله ديجنه فتعالت أمامى نبراته اللاذعة تحت جنح الظلام

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

فى أسپرطة

العشاق يتآمرون

خلاصة ما تقدم

« سقطت طروادة وعاد كل المحاربين من اليونان إلا أوديسيوس فطمع أمراء الأقاليم المجاورة فى زوجته الجميلة بنلوب وحاصروا بيتها ، وأحزن ذلك إلهة الحكمة مينرڤا — أو باللا أثينا — فحرضت ابنه تلياك على أن يقف فى وجه العشاق ، وأن يبحر إلى بيلوس ليسأل أميرها نسطور عن أبيه وأبحرت هى معه فى صورة أمير البحر منتور وهو لا يدرى أنه هى ... وأكرم نسطور وفادة تلياك وقص عليه ما كان بعد سقوط طروادة وأرسله معززاً مكرماً إلى أسپرطة بعد أن أيقن أن منتور أمير البحر الذى يصحب تلياك إن هو إلا مينرڤا . وقد ذهب تلياك مع أكبر أبناء نسطور إلى أسپرطة ليسأل ملكها منالايوس — زوج هيلين التى كانت سبباً فى حرب طروادة — عن أبيه »

وصل الركب إلى أسپرطة بعد أن غوّر فى وهادها وأنجد ، وانطلق تلياك وصاحبه من فورهما إلى باب منالايوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ؛ ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه وندماؤه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويطربون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسپرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنة ألكتور العظيم ، ثم بابنته المفتان اللعوب الطروب التى رزقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة ڤينوس


هوميروس

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما ... « إن لهما لمهابة وإن عليهما لرواءً ، فهل

يأذن لهما مولاى أم يأمر فنردهما من حيث أقبلا ؟ »

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب اليهما ، يسير بين أيديهما إليه ... « ... إذ كيف نرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء »

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب الى الوافدين الكريمين فحيّا وسلم ، وحل اللُّجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُّرُج الوهاجة ... ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما الى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكة ثم ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما الى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فصبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من أفخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرها حتى يفرغا من طعامهما فيخبرانه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تلماك صاحبه فقال :

« بيزستراتوس يا صديق ! ما أجمل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحفل الباهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والكهرمان وذروع النحاس ! أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شعاف جبل إيدا ! ! أية ثروة وأى كنز ؟ ! »

وسمعه منالايوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن أحداً منا — نحن بنى الموتى — الى سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج ... من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا وإرمبى ... ومن صيدا ولوبيه ... ورؤوس الشاء والوعل هذه ... الوعل الوحشى السائم ... والشاء التى تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأ كم آباؤكم بذكر منالايوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور ... ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذى جمات عاليه سافله بما فيه من أذخار وقُنى ، وددت لو كان فى قصرى شىء منها ، وود الأغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح نفسى ! يا رحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! ! اشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولا سيما صفيى وخليلى وأعز أودائى علىّ ... أوديسيوس ! ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى يا صديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجك اللتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تلماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، الى حومة الوغى وحلبة الحمام ... » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هـذا الهتاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شئونه فى طرف ثوبه ... بين دهشة منالايوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يدا أدرستا وعناية أكليپ ، ثم أحضرت الطرف والهدايا والحلى ... فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج پوليب أمير طيبة ، عروس المدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدَر من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الابريز ... يقدمها كلها ملك أسپرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء . . . ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس... الصغير تلياخوس ... الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة . »

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألاما أشبه الساقين والساعدين وتفتر العينين واسترسال اللمتين (١) بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم »

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ! ولكنه خجول حيى ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فانى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تلياخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيان قد ذهب . . . وهاك ابنه المكاوب يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه . »

وشُده البطل — ذو الشعر الكهرمانى — فقال :

« يا للآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ؟ أنت ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، وما يزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسمى للقائى لشدت لك مدينة فى آرجوس تتيه على المدائن وتزهى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر منيف طالما كنت أخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ومن بعد .. ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع ... آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء ... فحرمتك كل شىء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن ! »

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تلياخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبجس الدمع من عينى پزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها ، ثم قال : « حسبك أيها

(٢) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن

الملك ! لقد تذاكرنا ، أنا وصاحبي ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أمى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألاتذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أودودا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى !... »

وتعطف الملك فطيّب ابن نسطور بكلمات عاليات ، وأمر الندمان فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا فى آكالهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذْهِب للأحزان فى كأس تلماك ، وكأس صاحبه ، لايعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجيبة أهدتها الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية پولندامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين !

وتكلمت هيلين ، فذكرت ماكان من أوديسيوس يوم التقى الجمان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة المتيدة ، وكيف قابلها فى حجرة پاريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره وخيمه ، وأنها برّت فلم تنبىء أحداً بوجوده .. ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع پاريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن ڤينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به پاريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة[1]) . «واخجلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لاناقة لى فيها ولا جمل ... »

وأعذرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جأشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان الهُولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم أو بعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد ، وكنت أنا — سقى الله الشباب — واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقْبَلْتِ فى عصبة ذوى أيد من مذاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلت أنتِ تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لِتَرىْ هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبؤون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفتِ باسمى ؛ وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خدع فنبس ببنت شفة ... واحَرَبا !!! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودْتِ ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه !!! ولم يُعْفه حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم النكرون »

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف

(١) الألياذة — قضى پاريس بالتفاحة لڤينوس وحرم منها منيرڤا وحيرا وذلك سبب عدائهما للطرواديين

(١) اسم يونان القديمة

تلماخوس واستأذن الملك فى الانصراف ليأخذ كل نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأهرعن الى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن اللاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بيزاستراتوس وتلماخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما ... فى ... ... سمور وفى قاقم وفى سنجاب

وتهاويل غير ذاك من الر

قم ومن سندس ومن زرياب(١)

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر ، واستسلما لأطيب الرقاد

***

وذرّ قرْن أورورا ، ربة الفجر ، فى المشرق الوردى ، فهب الملك وأصلح شأنه ، ورف بازّه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى الى مجلسه حيث لقى تلماك فى انتظاره ، فحيّا وجلس وبدأ حديثه فقال :

« أى بنى ! تلماخوس ! أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك الى هنا ؟ الى رحاب ليسديمون(٢) فى فلوات البر وسروات البحر ؟ ألأمر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ »

وأجاب تلماك : « مولاى الملك ! منالايوس العظيم ! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى وأقبلت أحدث عن أعدائه الذين آووا الى بيته فما يريمون يستنزفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء . . . من أجل زوجه ! ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل شىء ... كل نعمه وكل شائه ، ولم يعفّوا آخر الأمر عن عرضه . انى أستجيرك يا مولاى وأضرع اليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم ؟ أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز أودّائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك أستحلفك أن تصدقنى ... ماذا تعرف من أخباره ، وما ذا عسيت سمعت من أنبائه ؟ »

وتنفّس الملك تنفّسة عميقة وقال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس فى عرضه ؟ ! ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة التى أجاءها المخاض فولدت فى عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها(١) ! حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أبوللو(٢) ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بفيلوميليد المـِتى من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم ... فطب نفساً يا بنى ؛ إنى منبيك بما علمته عن أبيك من (بروتيوس) راعى الأعماق ، وكاهن الأغوار

ضلت بنا الفلك عما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطئان مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان فى مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التى تجرى من تحتها الأنهار ،

(١) الشعر لابن الرومى لم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر .

(٢) من اسماء اسبرطه

(١) جمع غفر وهو ولد الوعل

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين فى حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء

ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ؛ حتى نفد الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث ، كنت أجلس وحدى فى منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحون يرتادون الماء بشصوصهم[1] عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاء لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق پروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقانى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضيا ، ولا تلتمس مخرجاً ، ولو هلك كل أصحابك ! »

ولم أبال أنى شدهت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها برضاى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولكن خبّرى بحقك إذ الآلهة تعلم كل شىء — مَن مِنْ أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد الى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك فأصدقك ! إنك الآن مقيم بشطئان مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، پروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فاذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه . وتشد وثاقه ، فانه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً الى بلادك . بل ربما — إذا طلبت اليه ذلك — وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الآله البحرى الكريم ؛ ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت لها أنه ربما ولى دبرة إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جون قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . . « فاذا كانت هذه الساعة فانى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشىء أبدا ؛ إنه سيكون تارة شيلارابيا ، وتارة سيكون ناراً ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم . . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تفتلوه فتهلكوا . . . فانه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك أسلس قياده ، وهدأ وتطامن . . فاذا فعل ذلك سألكم عن حاجتكم ، فدعوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فانه مجيبكم عما تسألون . »

(يتبع) دريني خشبة

(١) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك (السنارة)

سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول
للشاعر الفرنسي موريس رستان
بقلم الأستاذ خليل هنداوي

الفصل الثاني

«قصر باريس إيجلانو فى الجيزة على ضفاف النيل ، القصر خال من كل شىء ، لا مكتبة ولا كتاب ، هنالك أزهار فى آنيتها ، تمثال صغير فى إحـدى الزوايا ، وفى الأعماق شرفة تطل على الصحراء كأنما تطل على بستان من الرمال الذهبية المتوهجة . والزمن شفق !»

المشهد الأول

باريس (على مقعد ممدود) وسانتيا شقيقته إزاءه

سانتيا — الجو جميل والفصل بهى . . .

باريس — المحى هذه اللمعات البيض البعيدة

سانتيا — هذه ممفيس كما تعلم وينابيعها التى تجرى كأنها تجرى من الأحلام

(يرى قرويات حاملات جرارهن)

باريس — روما ! إن تماثيلك لا تبلغ مثل هذه الروعة ! أراهن — وهن يمشين — كأن الحياة تـكاد تدب فيهن . سانتيا ! ليس الجمال فى أطواء الـكتب . لا تمثل الـكتب شيئاً ؛ إنها ليست إلا لحداً !

سانتيا — أو بعض شىء ندى يرشف !

باريس — (يرى النسوة كأنما يؤلفن صفاً من الجمال لا ينفصل عن العيون) أليس هذا جميلاً حقاً ؟

بلى ! ليس الجمال فى المكاتب ، إنما الجمال فى ظل القدم ، فى الظل اليونانى ، وفى الأمم التى يكمن إيقاعها وأوزانها تحت الأرض ، حيث تؤلف كل اثنتى عشرة خطوة فى الليل بيتاً من الشعر

سانتيا — إننا غادرنا من أجلك الحدائق المؤرجة بالياسمين كالأزهار الندية ، وقد هجرت الـكتابة يا باريس ! فلماذا لم تعد تـكتب شيئاً ؟

(يشير باريس بيده)

لا حق لك فى الصمت ! إننى أسمع مكتئبة إلهاماتك ، التى تتحرى عن كلماتك . أنت لا تستطيع أن تبقى هذا العندليب صامتاً . ألا تود أن تـكتب شيئاً ؟

باريس — أبداً !

سانتيا — وهذه الأبيات ، وهـذه الأغانى الحادة المشوشة التى تتنهد فى نفسك ؟

باريس — سأصرفها عنى ! بل سأطردها كأنهـا أفاق متشرد ! على أنى فى بعض خطراتى لا أكتمك أننى أسمعها صارخة شاكية راجية أن تبقى وأن تحيا . يرجونى تنهـدى قائلاً : ضمنى فى كتابك ؛ وألمى الفتى يهتف بى : «خلدنى» ؛ وخفوق قلبى يصيح : « دعنى أبقى » . مع أن كآبات مساء شاكية ، لأنها أضاعت أجنحتها ، تود أن تبقى خالدة

سانتيا — إنها الجريمة ! . . .

باريس — ذلك حسن ! على أنى فى الحقيقـة أعبد وأقدر هذه الآثار الرائعة المعجبة التى لم أقم بها

سانتيا — أتبكى ؟

باريس — ماذا تريدين منى ؟ بلى ؟ . . . إننى أذرف الدمع تهتاناً بلا انقطاع ! لقد كنت قبلاً أعبر فى قصائدى الأولى عن فتونى ، ولقد كان صرافى الرنان فى الليل مشرقاً ، أما اليوم — يا سانتيا التعسة — ماعسانى أصنع فى شعرى ؟ وأغانىّ المدهشة قد فقدت رقتها وأصبح أجملها ما طفح بالدموع

سانتيا — إذا شدا العندليب ففى شدوه رنة البكاء

باريس — فى الآلام الكبيرة لا يستطاع الغناء !

سانتيا — ألا تجد نفسك — خلال سكينتها — آسفة على سماء إيطاليا وعلى ذلك المساء العاثى الذى نثرت فيه روايتك على الشعب الهائج

باريس — لا آسف على شىء

سانتيا — ولا على القطعة الممزقة : ذلك الأثر الذى لم يعد يجدى شيئاً . قطعه الممزقة صفعت المدينة جماء ، ولم يبق منه إلا نسخة واحدة . إنى فكرت فيه وفكرت فى تلك المزق المتناثرة فى الليل . هذا فؤادك يا باريس ! فؤادك الكئيب الزاهق مزقته فى كل ورقة تطير ! ألا تأسف على ذلك اليوم المقطوب ؟

باريس — لا ! وصنعت فى ذلك اليوم ما أصنعه دائماً ، لأنى ما كتبت لحظة إلا طارحاً فؤادى على الناس . إننى غير آسف على شىء

سانتيا — ولكن ألا تأسف على صوت إزابيلا ؟ ألا تأسف على ذلك الكيان الملتهب الذى بنظرة واحدة منه عرف أن يصنعك ! إنها يا باريس كانت إلهة فنك ؛ فهل تستطيع أن تفر من صوتها ومن نظرتها كل دهرك ؟ وهل نسيت أنك أصبحت تصنع أجمل أشعارك لتشدو بها ؟

باريس — تلك كانت القيثارة التى يفتش عنها فؤادى ، واليوم أصبحت غير محتاج إليها . لقد كسرت قيثارتى وأصبحت لا آسف على شىء ! أقول لك : ما يهمنى كل ذلك ؟ وهل الشجرة التى عانقت يونيو تفكر فى ما تناثر من أوراقها فى الخريف ؟ إننى أحب هذه العزلة التى أحيا فيها الآن !

قد بلغنا الجيزة ليلاً كغرباء راحلين ؛ أنت ومارسيللوس وأنا ، لم نجد من ينقل متاعنا إلا هذا الفتى المصرى ؛ وكانت لكل هذه العيون الممدودة هيئة عينيك . لا صحف ولا جلبة ، ولا فتيان ولا مصورون ! كل هؤلاء لم يشقوا سبيلاً إلى الصحراء ولم يجدوا منفذاً إليها ؛ فهذه النخلة المهملة لا تعرف أشعارى ، وأبو الهول الجبار يسخر — فى أعماق الليالى المصرية — من هؤلاء المفسرين أحاجى الحياة ، الجاهلين أحجيته العجيبة ولغزه الغريب ، وإنى لأرانى مفتوناً بهذه الظلمات الجديدة ، وبهذه الغبطة التى لا تجعل منى رجلاً مشهوراً . . .

ما عسانى أقول ؟ إن اسمى — هنا — شىء مجهول ، ولا شىء من كل الجلبة التى قامت حوله بلغ هذا المكان . كذلك الزهو الانسانى يتلاشى ويشعر بصغاره وحقارته على أقدام الأهرام . لا أحد يعلم اسمى ، ولا أحد يعى كلمة من كل ما صنعته

(يفتح الباب وتدخل فتاة مصرية وتمثل أمامهما كأنها رمز خفى من رموز المدينة)

الفتاة — الشاعر إيجلانو !

المشهد الثانى

الفتاة — (بتردد) :

الشاعر إيجلانو

سانتيا — ولكن . . .

الفتاة — هذا هو يا سيدتى

باريس — إنك واهمة

الفتاة — ولكنى جزت المدينة بحجابى الملتهب لأحظى برؤيته ، والبيت الصغير الذى تحرسه نخلة

سوداء اجتذبني كأنه معبد في الطبيعة ، لأن لنا قلوباً إن لم يكن لنا وجوه

باريس — خطأ !

الفتاة — نحن اللواتي نظل وراء أقنعة الكآبة حتى في النهار يأتي إلينا « الغرب » مع نسائم البحر

باريس — ولكنه لا يحيا هنا

الفتاة — تخطر صورته بين جوانحي دائماً ، صورته المحبوبة ، صورة هذا الذي يُبكى عليه أشد بكاء . بلي ! أهواه ؛ وكل قصيدة من قصائده الملتهبة تقدر أن تعبر عن نفسي بلهجة أوضح من لهجتي . إني أنطق مع أبياته ، وأحس مع ذكرياته ، وأتألم لهتافه ، وأحب مع تنهداته

باريس — ولكنه مات

الفتاة — (بلهفة) مات ! يا إلهي ! ليس ذلك ممكنا

باريس — مات ؛ ولي الفخر بمعرفته ؛ لقد كان لي صديقاً

الفتاة — مات . . .

باريس — أنت تبكين . . .

الفتاة — أحس أن الوجود كله أمسى محدوداً

باريس — (مختطفاً الصورة من بين يديها) وهذه الصورة . . .

الفتاة — أصونها وأقدسها منذ عامين

باريس — أنظرى ما أنا صانع بها (يمزقها) والآن فابكي أيضاً !

الفتاة — إلهي . . .

باريس — ابكي الآن على شيء ؛ ابكي على صورة . . .

الفتاة — (مصعدة بصرها قليلا في وجه باريس) هذا هو أنت ؛ فهمت الآن ، لا أحد يقدر على أن يأتي بهذا التجديف الشيطاني ... أنت إيجلانو لأنك مزقتها ، أنت باريس إيجلانو الذي أعبده

باريس — احملي قلبك فاني أحطمه

الفتاة — ولكني رأيتك

باريس — شاعر كبير بالقرب منك ؛ هذا هو أنا ! فلتوقن نفسك الطامحة ؛ هذا ما كنت تتمنينه

الفتاة — إذا كانت نفسك تريد في كل آن الهزء والسخرية ، فلا تفسد تلك الصورة التي أحفظها لك ، فكل ما أنا مدينة لك به من بهاء نور ، وقمم عالية ، وكل ما أودعته في صدري من أحلام ، ومثل أعلى ، وعظمة وجلال

باريس — أكاذيب وأضاليل !

الفتاة — المثل الأعلى !

باريس — إن هو الا قناع عتيق مزوق !

الفتاة — لقد كان غذاؤك لي خيراً من الشهد والخبز

باريس — أسكتي ! لقد كنت كاذباً

الفتاة — واسكت أنت ، وليكن الآن ما كان بجنوح ذوقك إلى الأسرار ، فأنت رفعت قلوبنا بأنينك وبكائك

باريس — إنه لحد فارغ ؛ بل ليته كان لحداً ! إنه ليس بلحد ، وهل العندليب الذي يبث شجواه على الأغصان ينادى موسيقياً لينقل دموعه ، وذلك الشقاء الأليم — بعد أن يبلغ القمة — ألا يسكت إلى الأبد ؟ لا ؛ اننا لم نقل شيئاً عن حظنا المشئوم ، ومن هذه المائدة الدامية لم يبق لك إلا البقايا

الفتاة — انني سأقنع بهذا اللحد الفارغ ... ولكن ماذا ! ان باريس إيجلانو حي يرزق ؛ فما يهمني الليل والسكون الكدرى ؟ انه حي ؛ انه في صدر الحياة ، لن تكون الأرض خالية فارغة

(وتخرج وهو ينكب على الطاولة كأنه مجذوب بفكر سرى ، يفتح درجاً وينظر في صورة ثم يضعها أمامه ، ويكتب ... وتخرج سانتيا)

المشهد الثالث

پاريس — (منفرداً)

لا لا ... لا أستطيع

(قوة غريبة تدفعه الى الكتابة)

هذه هى المرة الأولى من بعد فصول فارغة وشهور خالية . لماذا ، لماذا ، لماذا يا إلهى ؟ هذا الموكب القديم ؟ الكلمات ؟ وأية كلمات تجديني نفعاً ؟

نفيتك عنى عشرين مرة أيتها النسمة الهابة من عالم الآلهة ، لا أريد هبتك علىّ ، ولا أريد أن اميل إليكِ . فى هذا المكان المنعزل لا أحد يشير إلى أنك تنزلين على الأرض

لا كتاب عندى ! لا شىء . . . الهواء . . . الفضاء . . . الريح ! ومارسيللوس وحده يتلو « ڤرجيل » حالماً . ولا يدل هذا البيت على أنه بيت شاعر ، وإنما يدل على واحة نفس قلقة ، التهمها قلقها

بلى ! هذا هو العنوان الوحيد الذى خلد لها فى الوجود ، وهذه صناعتى الوحيدة ، إننى قلق . . . فلماذا لا تزالين تعودين نفسى وتهيجينني أيتها الآلهة التى أكره زيارتها فى كل أصباحى ؟ ولماذا توسوسين للنفس بأبيات جديدة ؟ لا أود أن أكتب شيئاً ؛ أفهمت ؟ إن فكرتى الحميمة تذهب إلى أبعد من عالم الكلمات ، وأنا غادرت كل عالم التعبير والألفاظ

(يكتب باملاء غير منظور)

« يا أبا الهول الأعظم ، يا وثن العدم !

الذى تدعونى إليك بعيداً عن العالم !

الصحراء هى أوقيانوسك ، والكواكب هى أحداقك !

تبدو لى كأنك علامة ساطعة !

خلال أعماق الأعصار والأعمار

أنت الذى شهدت صرعة الآلهة وشهدت مع الغيوم

هذه غيوم !

الأبدية هى البساط الذى تسحب عليه مخالبك ،

وغذاؤك — حين تطلب الغذاء — أحلامنا »

(يتم الكتابة ، فيدخل مارسيللوس شاحب الوجه ، يدنو من پاريس وپاريس ما زال يكتب كالمجذوب بهذا الوحى . ينظره مارسيللوس وفجأة يطرح پاريس ما كتبه على الأرض حين يرى مارسيللوس)

المشهد الرابع

پاريس — مارسيللوس !

مارسيللوس — ماذا توارى عنى ؟

پاريس — لا شىء

مارسيللوس — أشعراً ؟

پاريس — (ناظراً فى مكان بعيد حيث يبدو أبوالهول كغارق فى الضباب المذهب)

ذاك من أجله ، لا من أجل هذا العالم القائم . اليكها ! ها هى ذى مطروحة على الأرض !

مارسيللوس — أتمنعها عن أخيك أيضاً ؟

پاريس — وما عسى يجدى ذلك ؟ إنك تدرى الشحوب الذى تقنع به وجهانا !

مارسيللوس — ولكن ...

پاريس — (يتناول منه كتاباً) :

ڤرجيل ، دائماً !

مارسيللوس — أتلوه باستمرار ، إننى أعود دائماً إلى طريق النور حيث فتح « ڤرجيل » أجفانى . يخيل إلىّ أنه ينادى : « أنت مارسيللوس » والشفق المذهب مغمور بالسلام الهادئ ، يطفو عليه صفاء وخشوع ، أعود دائماً إلى بيته العظيم القائل « ستغدو مثل مارسيللوس » فهل يا تُرى أحول يوماً ذلك الجوال الذى اختلسه الزمان من

مشمله ؟ وهل أموت قبل أن أستنفد فكرتى ؟ قبل أن أضوى من الحياة وقبل أن أجد « ڤرجيلاً » يحيلنى فى النهاية خالداً ؟

پاريس — ولماذا تتكلم عن الموت ؟

مارسيللوس — أتعلم لماذا أحلم به ؟

إنى إذا احتضرت قبلك على هذه الرمال المحرقة ، وإذا قدر لى أن أكون السابق وأنت اللاحق ، وإذا قدر أن يكون للأصغر أمر إرشادك إلى الطريق فى هذه الظلمات حيث ينهزم آخر فشل ، إذا قدر لك يا أخى البكر أن تقتفى أنت قبس مشعلى لتنزل فى مثواك ، فأقسم لى بأنك تتناول القيثار المهمل المحطم قطعاً على الشاطئ بقلب شجاع . أقسم لى بأنك تجعلنى خالداً فى شعرك . إن جزع الموت يخف على وقعه إذا جئتنى خلاله وإذا قدمت واضعاً على لحدى إكليلاً من الغار ... أقسم !

پاريس — (بابتسامة)

إنى مقسم لك ... ولكن لماذا يساورك هذا الشك فى نصيبنا ؟ إننا سنموت معاً فى يوم لا يزال بعيداً ، نموت كهلين هادئين عارفين سره الأكبر

مارسيللوس — (متنهداً)

إننى فى ريب من ذلك ؛ إننى لا أجد طريقاً أمام قدمى الفتيتين ... ويخيل إلى أن كل شىء منته أو محدود ، ولكن هذا ليس له جمال غريب ؟ جماله بألا نرى على هذه الأرض الصفراء التى طرحتنا عليها القدر ، لا نرى من كل شىء إلا شبحاً وممبراً ، لا نكتهل ولا نتألم ولا نحب . نرى كل شىء بعيداً دون أن نألفه أو نأنس به . غير متروحين الا وردة الغد !

أخى ! ليس هذا القدر بقبيح ، أقسم لك على ذلك

يقول البيت الناقص : « ستغدو أنت كمارسيللوس » وإن حظه كله يتمثل فى ذلك الغد

(يبتعد قليلا وپاريس يهز كتفيه باسما ثم يعود مارسيللوس على أثره)

مارسيللوس — نسيت أن أنبئك شيئاً عظيما . على قيد خطوتين منى فى الطريق أتعلم أنى لمحت « إزابيلا موتى » ؟

پاريس — (بدهشة)

إزابيلا موتى . . .

مارسيللوس — هى ذاتها

پاريس — إآهى !

مارسيللوس — لم تكن وحيدة ، كان يتبعها أرجانتى وجدتها هيلين

پاريس — إن هذا لجنون : لا أستطيع أن أراها ... لا ! لا أستطيع ... إن الشاعر قد انتحر فى نفسى ، وإنى أطرد كل مايحدثنى الماضى عنه بلسان عذب

إزابيلا . . . إنه اسم غدا بعيداً عنى ... إنها هى التى فررت منها فرارى من القدر

(يقرع باب الحديقة)

مارسيللوس — آه هم أنفسهم

پاريس — لالا ؛ لماذا ضعفت ؟ إن قاتى يذود عنى إزاء الفن الى الأبد ... لتدخل ...

(مارسيللوس ينطلق ليفتح الباب ويقف لحظة جامداً)

نعم ! لتدخل ! لقد كنت أخاف قبلاً ، والآن يتراءى لى كل شىء إزاء أبى الهول بخاراً متلاشياً . إذهب الى لقائها ، ولتأت ولتعلم أن كل شىء — حيث يقيم أبو الهول — سحاب عابر ! إنها أصبحت — عندى — لا شىء

إزابيلا — (صائحة)

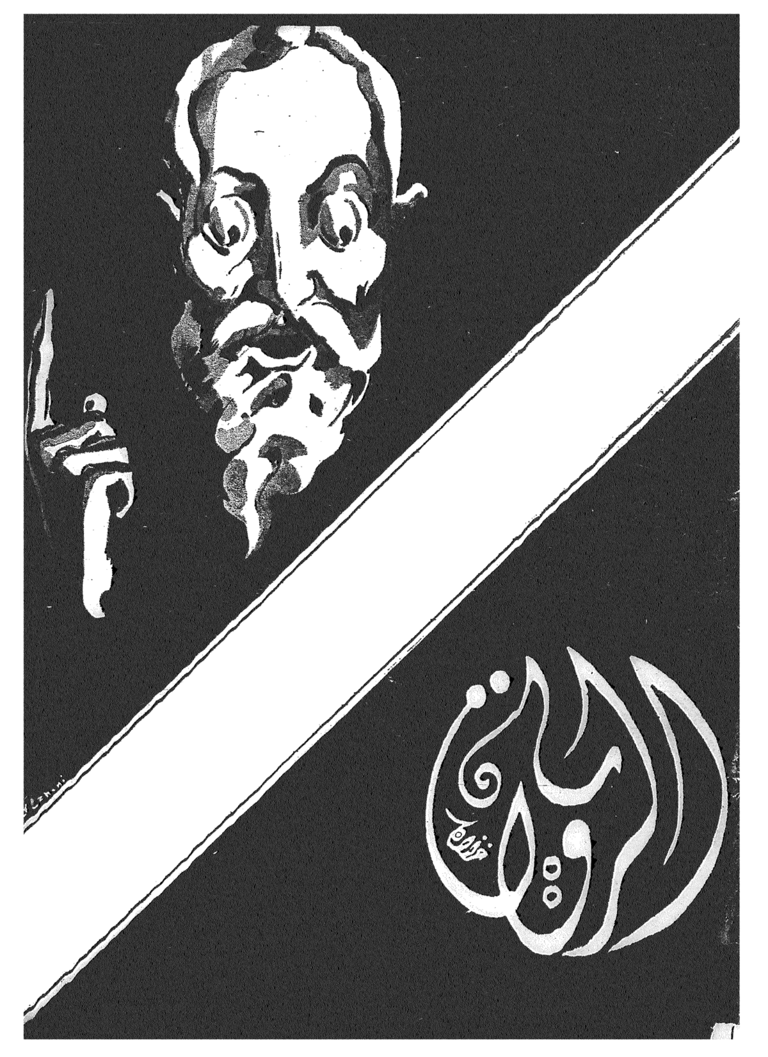
پاريس !

(تمتد يداها ثم تسقطان على فراغ)

هذا الذى كان يكتب لى قبلاً

(يتبع) خليل هنداوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر


الرواية


السعادة

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد السادس — ٤ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٥ ابريل سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى



فهرس العدد

المحامي

للكاتب القصصي جي دي موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

لم يكن جان مارين يقدر فى حلمه ولا فى وهمه أنه سيكون يوماً على هذه الثروة وفى هـذه المنزلة وهو ابن محضر من محضرى الأقاليم . أرسله أبوه إلى الحى اللاتينى يدرس الحقوق كما يدرسها كثير مثله ، فكان حِلْساً من أحلاس مشارب البـيرة يغشاها واحدا بعـد واحد ، حتى اتصلت أسبابه بطائفة من الطلبة الرغائين الذين يستفرغون أحاديث السياسة وهم يتماطون أكواب البيرة . واشتد إعجابه بتخليطهم وولوعه بخـلاطهم ، فطلبهم فى كل مجلس ، وتبعهم إلى كل قهوة ، حتى كان يؤدى عنهم ثمن ما يشربون إذا كان فى كيسه فضل . ثم عالج المحاماة فلم يفز فى قضـية من القضايا التى دافع عنها

وفى ذات صباح قرأ فى إحدى الصحف أن رفيقاً من رفاق الحى اللاتينى انتخب عضوا فى مجلس النواب ، فأصبح له الظلَّ اللازمَ والـكاتبَ الأمين ، يؤدى كل سخرة ، ويلبى كل طلب ، ويبتذل نفسه للنائب فى كل ما جل وقل من غير كلفة ولا حرج

ثم انفق فى إحدى المغامرات البرلمـانية أن صار هـذا النائب وزيرا ، فلم تمض ستة أشهر على ذلك حتى عين جان مارين مستشارا فى مجلس الدولة

* * *

أصابَ الرجل أول ما أصابه فـكةٌ من الصلف والـكبر طاش بها لبه وغاب فيها صوابه ، فكان يجوب الشوارع ولذته أن يظهر للناس ، كأنهم يستطيعون أن يعرفوا المنصب الذى صار إليه ، بمجرد أن تقع أبصارهم عليه . وكان يتصيد المناسبات ويترصد الفرص ليقول لصاحب الحانوت وبائع الصحف وسائق المركبة : أنا — ومنصبى مستشار فى مجلس الدولة — . . .

ثم شعر بعد ذلك بالحاجة الملحة إلى أن يحمي غيره ، كأنما اقتضاه ذلك الشعورَ كرامةُ المنصب ، وضرورة المهنـة ، وواجب القادر الـكريم . فقدم سنده وعونه إلى كل امرئٍ فى كل أمر ، وبسط عنانه فى ذلك حتى عفا على حاجة المحتاج وسؤال السائل . كان إذا لمح فى الشارع وجهاً يعرفه دلف إليه فى لهفة وهشاشة ؛ ثم تناول يديه وسأله عن صحته وحاله ،

موباسان

وقال له قبل أن يسمع الجواب عن سؤاله :

تعرف أنى مستشار الدولة ، وستجدنى إن شاء الله عند حاجتك ؛ فعول على ما شئت فى غير ضيق ولا تحرج ؛ والمرء فى مثل منصبى طويل الباع عريض المقدرة

ثم يميل بكل من يقابله هذه المقابلة ، ويسائله هذه المساءلة ، إلى القهوة القريبة ، فيطلب قلما ودواة وورقاً من أوراق الرسائل « ورقة واحدة ، يا غلام ، فانى أريد أن أكتب كتاب توصية »

كان يكتب فى اليوم الواحد من عشرة كتب إلى خمسين كتاباً فى التوصية ، فلم يدع قهوة فى العاصمة إلا كتب فيها ، ولا موظفاً فى الحكومة إلا كتب إليه ، وكان بذلك رخى الصدر موفور السعادة

* * *

ففى صباح يوم من الأيام كان فى طريقه إلى مجلس الدولة فأمطرت السماء ، فراودته نفسه أن يركب مركبة ولكنه لم يفعل ، وآثر أن يبلغ مكتبه على قدميه . ولكن الغيث انسكب مدراراً فشرقت به الطرق وغرقت فيه الأفاريز ، فاضطر السيد مارين أن يلوذ منه بأحد الأبواب ؛ وكان قد لجأ إليه قبله قسيس شاع المشيب فى رأسه ولحيته . والسيد مارين كان يكره رجال الاكليروس ، فلما صار مستشاراً أصبح يحبهم ، لأن أحد الكرادلة جاء فى أدب واحترام فاستفتاه فى مسألة عويصة

كان المطر لا يزال ينهمر غزيراً ، فدفع بالرجلين إلى مأوى البواب يتقيان به البلل ، وكان فى طبع السيد مارين حافز يشبه الحكة يغريه دائما بالكلام ليرفع من شأنه ويدل على نفسه ، فقال :

— هذا يوم فظيع يا سيدى القس

فانحنى القسيس الشيخ وقال :

— نعم يا سيدى ، وهو أفظع على من يقدم إلى باريس يقضى فيها بضعة أيام

— آه ! أنت من الأقاليم ؟

— نعم يا سيدى وما أنا فى باريس غير عابر ...

— لاجرم أن هذا الوابل الهتون يثقل على نفس العابر الذى يريد أن يقضى فى العاصمة بضعة أيام ؛ أما نحن معشر الموظفين الذين لا يبرحونها طول العام فلا نكاد نعبأ به ولا نفكر فيه

لم يجب القسيس وإنما أخذ ينظر إلى الشارع وقد خف هطول المطر ، ثم شرع فجأة يشمر مسوحه عن ساقيه يريد أن يعبر الطريق كما يفعل النساء حين يردن عبور الجدول . فلما رآه السيد مارين يريد الانطلاق صاح به :

ستبل نفسك يا سيدى القس ، فتمهل قليلا فقد أوشكت السماء أن تقلع

فوقف الشيخ المتردد وهو يقول :

— أنا يا سيدى على حد عجلة ؛ وإن عندى موعداً لا سبيل عنه ولا وقت له

فتبين فى وجه السيد مارين الكدر ، وقال للقسيس : إنك ستعبر الطريق لا محالة . ولكن ، هل أستطيع أن أسألك إلى أى الأحياء تريد أن تذهب ؟ فتردد الخورى ثم قال :

— إنى ذاهب إلى جهة (الباليه رويال)

— إذن أستطيع ، إذا سمحت يا سيدى ، أن أقيك البلل بمطريتى ، فانى ذاهب إلى مجلس الدولة وأنا مستشار فيه

فرفع الشيخ القسيس إليه أنفه وجلى فيه بصره ، ثم قال : قبلت يا سيدى ، وأشكرك جزيل الشكر

حينئذ أخذ بذراعه ومشى يجره ويسدده ويرشده وينصحه :

« خذ حذرك يا سيدى القس من هذا المسيل .

اتق على الأخص عجلات المركبات ؛ إنها ترشك أحياناً من قدمك إلى رأسك . اجعل بالك لمطريات المارين فلا شيء أخطر على العين من أطراف حديدها ؛ والنساء على الخصوص أشق على السائرين فى ذلك ، فانهن لا يحفلن بشيء ولا يلتفتن إلى أحد ، وقد يغرسن فى حر وجهك أطراف مظلاتهن أو مطرياتهن . وهن يمشين لا يبالين كأنهن يملكن المدينة ، فهن يحكمن على الافريز وفى الشارع . وفى رأيى أن تربيتهن مهملة أو مغفلة .

ثم جعل المستشار الناصح يضحك والخورى الشيخ صامت لا يجيب ؛ انما كان يسير محنى القامة يتحسس فى عناية وحذر موضع خطوه حتى لا يلوث نعله ولا ثوبه

استأنف السيد مارين الحديث قال :

إنك قدمت إلى باريس لتلهو فيها قليلا ولا شك . فقال له القسيس فى سذاجة :

كلا ، إنما قدمت فى عمل

— آه ! وهل هو عمل مهم ؟ وهل لى أن أسألك عن موضوعه ؟ إذا رأيت أنى أنفعك بنافعة فانى طوع أمرك

بدا على الخورى الارتباك ونم حاله عن القلق فقال مغمغما :

أوه ؟ إنها مسألة صغيرة شخصية ؛ هى مشكلة تافهة مع . . . مع مطرانى ، إنها لا تعنيك . . . مسألة داخلية من . . . من . . . نوع إكليروسى

فبادره السيد مارين بقوله : ولكن مجلس الدولة هو الذى يقضى فى مثل هذه الأمور . فاعتمد على فى شأنك . فقال القسيس :

نعم يا سيدى وأنا ذاهب إلى هذا المجلس . إنك طيب القلب جم المروءة . إن مسألتى بين أيدى السادة لوربير ، وسافون ، وبتيبا

فقال السيد مارين فى اهتمام ولهفة :

— ولكنهم يا سيدى القس من صفوة أصدقائى ومن خيرة زملائى . وكلهم ظريف الطبع عذب الخلق . فاعمل على من أمرك ما تحب . وسأكتب إلى ثلاثتهم كتب التوصية بك لا آلوهم فيها تأكيداً ولا شفاعة . فأقبل القسيس يشكر ويعتذر ويتضرع والسيد مارين يقول له فى غبطة وزهو :

إن من حقك أن تفخر بمثل هذا الحظ الناهض يا سيدى القس ؛ وسترى أن قضيتك بفضلى ستسير من غير حائل ولا شاغل

فلما بلغا دار المجلس صعد السيد مارين إلى مكتبه وقدم إليه كرسيا أمام المدفأة وجلس هو على مكتبه وطفق يكتب :

« زميلى العزيز ! ... اسمح لى أن أوصيك خيراً برجل فاضل من رجال الدين ومن أوفرهم كرامة وأكثرهم جدارة هو القسيس .. » ثم قطع الكتابة وسأل :

— اسمك من فضلك ؟

— القسيس سانتور

فعاد السيد مارين يكتب :

« القسيس سانتور ، وهو فى حاجة إلى جميل عطفك ونبيل عونك فى مسألة صغيرة سيحدثك عنها : أنا سعيد بهذه الفرصة التى سمحت لى يا زميلى العزيز أن . . .

ثم ختم الكتاب بالتحية المعروفة ...

ولما حرر ثلاثة الكتب وطواها ألقاها إلى صنيعته ومحميه فأخذها ومضى وهو يلهج بالثناء ويلهث بالشكر

* * *

أتم السيد مارين عمله ، ثم انقلب إلى بيته ، فقضى نهاره رخى البال ، ونام ليله قرير الجفن ، ثم استيقظ صباحه منشرح الصدر ، فدعا بصحف

الصباح فكان أول ما وقع فى يده صحيفة انقلابية (راديكالية) وكان أول ما قرأ فيها هذا الخبر :

« اكليروسنا وموظفونا »

لا تكاد سيئات الاكليروس تنفد على الاحصاء : هذا قسيس يدعى سانتور قد ثبت عليه بالدليل القاطع أنه ائتمر بالحكومة القائمة ، وأنه اقترف طائفة من المنكرات نصون القلم عن ذكرها ؛ وقد اتهم فضلاً عن ذلك بأنه يسوعى قديم تقمص ثوب قسيس ناشئ . ثم عزله مطرانه لأسباب يؤكد الراوون أنها مخزية . وقد استدعى إلى باريس ليحاسَب على هذا السلوك ، فاهتدى إلى مدافع وارى الزناد حديد الفؤاد فى مستشار يدعى مارين لم يتحرج فى أن يوصى بهذا الشرير الفاسق جميع الموظفين الجمهوريين من زملائه . نسجل هذا الخبر المريب ، ليرى معالى الوزير رأيه فى موقف هذا المستشار الغريب . . . »

لم يكد السيد مارين يأتى على آخر هذا الخبر الصاعق حتى وثب فارتدى ثيابه وذهب يعدو مهطعاً إلى زميله (بتيبا) . فلما رآه الزميل صاح به :

— ويحك ! أبلغ بك الجنون أن توصى بهذا المؤتمِر المجوز ؟

فأجابه مارين وهو من الجزع لا يملك قلبه ولا يجد لسانه :

— حاشا ! حاشا ! رويدك ! لقد خُدعت ! تظاهر هذا الخبيث بالورع والنبل حتى خدعنى .. خدعنى بنذالة ؛ فأرجو أن تحكم عليه بصرامة . لاتأخذك به رأفة . . . أما أنا فسأكتب . قل لى إلى من ينبغى أن أكتب لأسأله أن يحكم عليه ؟ أنا ذاهب إلى النائب العمومى . . . ثم إلى رئيس الأساقفة .. نعم إلى رئيس الأساقفة . . .

ثم جلس فجأة إلى مكتب السيد (بتيبا) وأخذ يكتب :

مولاى . أتشرف بأن أرفع إلى عظمتكم أنى وقعت ضحية لدسائس وأكاذيب نسجها قسيس يدعى سنتور ثم فاجأ بها سلامة نيتى . ومازال يدور من وراء خديعتى حتى حملنى على أن أكتب ....

ولما أمضى الكتاب وغلفه التفت إلى زميله وقال له :

أرأيت ياعزيزى ؟ عساك أن تتخذ مما حدث لى درساً وعبرة . إياك أن تكتب كتاب توصية بأحد ! أسمعت ؟ (الزيات)

هتاف الهاوية

أقصوصة فرنسية

كانت الجيوش الانكليزية معسكرة على قمة جبل الكوبا متحصنة فى مركز منيع ، لا تحسب للحملة الفرنسية حساباً ، وكانت هذه الحملة تدور بقاعدة الجبل ولا يعلم قوادها كيف يتدبرون الأمر ، حتى رأى القائد الأكبر (ناى) أن يجمع الجيوش وينظمها ليقذف بها الجبل المنيع . ودوت الوديان بصوت النفير المعلن الهجوم ، فاندفعت الكتائب تتسلق الصخور كأنها محمولة على أجنحة ترفعها رفعاً فى الهواء

وما مضت ساعة حتى كانت عساكر ناى وعددها أربعة آلاف مقاتل تحدق بالانكليز على قمة الجبل ، فذعر الجيش المرابط لهذا الهجوم المفاجىء فأصلوا الهاجمين من مدافعهم ناراً حامية ردتهم لأول وهلة على أعقابهم ، فلم يعد يرى على تلك المرتفعات المعانقة الغيوم إلا أشلاء تتطاير فى الجو ، ولم يعد يسمع إلا الأنين يخفته إرعاد البارود يعقد بدخانه الكثيف قبابا تعمى العيون . وكان كلما أبادت المدافع صفاً من صفوف الفرنسيين يتقدم غيره من ورائه ليتقبل الموت . ونفدت الذخيرة ، فصمتت المدافع ، وبدأ الدخان ينقشع عن الموقع ، فخشى الانكليز ارتداد الأعداء عليهم فعادوا أدراجهم مدبرين

وارتفع صوت المارشال ناى هاتفاً بجنوده :

— هيا إلى الأمام !

فتراكضت الكتائب لاحقة بالأعداء معملة فيهم السيف حتى بلغوا منحدر الجبل للجهة الثانية ، فارتجفت الأرض تحت أقدام المتراجعين والهاجمين واهتزت الصخور وفتحت الهاوية فاها ، فتساقطت الجنود فيها فى أقل من لحظة ، وتراجع من بقى إلى الوراء وهم يسمعون صراخ رفاقهم يصعد من الهوة بأنين يفتت الأكباد . وساد السكوت بعد برهة ، فرجعت الوديان صدى عويل الشجعان ، وقد تواروا عن الأبصار فى ظلام هاوية لا قرار لها

ومرت الساعات وقد عاد كل من الفريقين إلى معسكره واهى القوى ، وقد خارت العزائم أمام هذه الكارثة ، وتضعضع الرأى فى إنقاذ ضحايا الهاوية

وعند الساعة التاسعة قبل الظهر دخل معسكر الفرنسيين رسول من قبل (ولنجتون) وطلب المثول أمام المارشال ناى ، وكان هذا منفرداً فى مضربه غارقا فى لجج التفكير يتقطع قلبه حزنا . فتقدم الرسول ووقف بين يديه وقدم إليه رسالة من مولاه ، فأخذها من يده وتلاها كأنه مستفيق من حلم عميق ثم نادى أحد القواد وقال له :

— أعد فرقتك لتسير معى الى الجبل

وما مضت دقائق معدودة حتى كانت الفرقة تتسلق الجبل بقيادة المارشال . فلما وصلوا إلى القمة رأوا ولنكتون فى انتظارهم وحوله قواد جيشه ، وكلهم واجمون . فقال ولنكتون لناى :

— إنك مهتم ولا ريب بأمر الشجعان الذين ابتلعتهم هاوية الكوبا هذا الصباح . وأنت تعلم أن العداء يقف عند الكوارث ؛ فلنتعاون لعل بين رجالك ورجالى أحياء يمكن إنقاذهم من هذه الميتة الشنعاء

وتقدم ناى إلى ولنجتون وصافحه قائلاً :

— كان علينا أن نفكر فى هذا الأمر دون تأخير ، ولكن الاضطراب جمد دمى ، وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أشعر بها برعشة الخوف

وتقدم الجمع إلى فوهة الهاوية ، وكانت الشمس المحرقة تعكس أشعتها على الصخور البيضاء ، والهواء

البارد يتصاعد من القاع السحيق . وأحنى القائدان الكبيران رأسيهما ، فملا وجههما الاصفرار ، إذ وقفت أنظارهما فى القعر البعيد الغور على لبد الظلام

وقال المارشال : يجب أن ندلى أحد الجنود ليرى ماحل برفاقه . والتفت إلى أحد القواد قائلاً : أحضر الحبال وائتنى برجل

وخرج من الصفوف جنـدى فرنسى طويل القامة ، وهو يبتسم مفتخراً بالتضحية فى سبيل إخوانه ، فخلع سترته ، وربط وسطه بطرف الحبل الطويل ؛ وبعد أن رفع يده بالسلام أمام المارشال وضع رجليه على فوهة الهاوية ، وبدأ الجنود يُرخون الحبل ، وعندئذ تقدم أحد الجنود الانكليز طالباً النزول إلى الهاوية أيضاً ، فقال ناى لولنكتون : لا يرسل فى مثل هـذه المهمة عدوان ، فقد يشتبكان فى المنحدر بعراك يحول دون بلوغنا النتيجة التى نتوقعها

فأطرق ولنكتون وتراجع الجندى الانكليزى إلى صفه . وكان الجنود يصلون الحبل بحبل آخر ، وبثالث ورابع ، حتى شعروا بوقوف الجذب من الأعماق . فنادوا جميعهم بصوت واحد :

— ماذا ترى ؟

فأجابهم صوت الهاوية كأنه صـدى بعيد : لا أرى شيئاً ، أرخوا الحبال أيضاً

واستمر الجند على إرسال الحبال وقد خفت قوة الجذب ، فاستدل القواد أن الشجاع يسير على مهل بين الصخور متلمساً سبيله على مفاوز لم تطأها أرجل بشر

وما مضت دقائق حتى أصبحت الحبال تلوح فى الفضاء كأنها لا تحمل شيئاً ، فوجم ولنكتون وقال : أحضروا القس الذى وجدناه هذا الصباح على سفح الجبل فلعله يعرف منفذاً لأخراج رجالنا منه

ومثل القس أمام القائدين فقال له ولنكتون : أنت من أبناء هذه البلاد ، فهلا تعرف منفذاً بين هذه الوهاد العميقة نخلص منه رجالنا ؟

وتقدم القس الى فوهة الهاوية ، ثم تراجع وقد كلل جبينه العرق وامتقع لونه ، فقال أحد القواد : لقـد زلزلت الأرض فجأة تحت أقدام الجنود فتدحرجوا فى هذه الهاوية

وقال ناى : لقد سقط أربعمائة من شجعانى فى هذه الحفرة

وقال ولنكتون : وألف من شجعانى ابتلعتهم هذه الحفرة أيضاً

وعلق الجمع الانظار على شفتى القس منتظرين ارشـاده ، فاذا هو يسقط جاثياً وتنهمر من عينيه الدموع وهو يتمتم بصلوات الأموات

وكان الجنود أرخوا من الحبال اربعمائة متر ولم يبق لديهم منها سوى عشرة أمتار ، فاذا بصوت ضعيف كأنه الهمس خارج من القاع يقول : أرخوا الحبال أيضاً

وأرخيت الأمتار الباقية وربط الحبـل فى نتوء من الصخر ، فخرج من الهاوية صوت يقول : لا يمكننى أن أتقدم بعد ، إننى أسمع صراخاً

وعصفت الريح فى القـاع فانقطع الصوت متلاشياً فى الهدير

وتقدم المـارشال ناى إلى الشفير ونادى بأعلى صوته : أيها الشجاع ! ماذا تسمع ؟

وساد السكوت ، والرعب يملأ النفوس ، ورفع الـكاهن يده وبارك ، فانكشفت الرؤوس بخشوع وجثا الجنود مصلين وهم ينتظرون الصوت الأخير

وكان الشجاع المدلى بطرف الحبال لم يعد يقوى على رفع صوته لشدة البرد فى القاع العميق ، فدفع حشرجة أخيرة أوصلت هذه الـكلمات إلى الشفير :

« أسمعهم ينادون : فليحى الأمبراطور . . . »

(ف . ف)



« كن ملاكا ... »

« بغير جناحين ؟ »

« وافتح البوابة »

« آه ... أفتح البوابة لتخرج السيارة »

« كيف عرفت ؟ »

« بذكائى ... ألم أقل لك إنى ذكى ؟ »

فرمت إلى نظرة من عين ساجيــة ثم قالت بابتسام تعالج أن تمنع أن ينقلب قهقهة عالية :

« كن ملاكا ... »

فوقع فى روعى من ابتسامتها أن فى الأمر ما لا يدخل فى طوق الملائـكة ، فزمت ولم أقل شيئاً ، وغالبت هى الضحك ثم قالت :

« وكن اليوم عمى »

« عم ... عم ... عمك ... يا خبر ...! »

قالت : « اسمع ... إن لى صديقة تريد أن تخرج للقاء خطيبها ، ولـكن أباها لا يدعها تخرج وحدها ، وقد اتفقت معها على أن أمر بها لنذهب إلى السينما ... فهل فهمت لماذا أريد منك أن تكون اليوم عمى ؟ »

فقلت وأنا أتوجع : « فهمت أنى سأذهب إلى سينما لم تـكن لى على بال ، وأنى سأمثل دوراً لا أرتاح ... من هذه الفتاة ؟ »

قالت — كأن هذا جواب السؤال — « جميلة جداً ولـكن احذر أن تغازلها »

فسألتها : « هل سأكون عمها هى أيضاً ؟ »

فضحكت وقالت : « ستكون عمنا اليوم ... واحذر أن تغلط »

« ولـكن سأغلط على التحقيق . إن العمومة حادث جديد فى حياتى ، فاذا اخطأت فى تمثيل الدور فلا عجب .... لم أتدرب عليـه قط .... هل قلت خطيبها ... أم حبيبها ؟ »

فقالت : « يا سلام ... وما الفرق ... ؟ شىء غريب »

قلت : « صحيح لا فرق ... ولـكن عمك ؟ كيف يمكن ألا أغلط ... ثم إنها مهمة صعبة .... لا أشعر أنى سأرتاح إليها »

فقالت بدلال سلبنى كل قدرة على المقاومة : « كن ظريفاً ... كالعادة »

فضحكت مسروراً وقلت : هل يسمح لى أن أكون عماً ظريفاً .؟ »

قالت : « لا مانع . ولـكن احذر أن تغازلها »

قلت : « لقد شوقتنى إليها ... أغريتنى بها . فهل هى حقيقة ظريفة ؟... أعنى تستحق أن أرضى من أجلها وفى سبيلها أن أكون عما .؟ »

قالت : « جدا ... موت ... »

قلت : « ياحفيظ يارب ... والآن يابنت الأخ

العزيز — وإن كنت لا أعرف لك أخاً ولا أختاً — تفضلي وتخلي عن القيادة ... »

قالت : « لماذا ؟ ... إني أحب أن أقود السيارة ... هل أخطأت ؟ ... »

فتركت سؤالها بلا جواب ، وقلت بلهجة الأعمام : اسمعي الكلام يا بنت ... »

فضحكت ومالت بالسيارة الى الرصيف وتخلت لي عن مقعد السائق

وبلغنا البيت — لا أدري كيف ولا من أين فقد أطارت صوابي كثرة التعاريج وضيق الحارات ، ولكن البيت كان في فضاء رحيب وإن كان غير نظيف . ونزلت هي وبقيت أنا في السيارة . ومضت دقائق وأنا أفكر في عمها وفي الفتاة التي ستقول لي « يا عمي » ، وفي كيف أطيق الصبر على هذه العمومة ، وإذا بفتى يقول لي : « اتفضل يا عمي » فصحت به — فقد فاجأني — « إيه ؟ .. » وكان مؤدباً مهذباً ووسيماً قسيماً فحدثت نفسي أن الفتاة التي ستدعوني عمها لا بد أن تكون جميلة — إذا اطرد القياس ، وتنهدت لأني سأكون عمها أيضاً ... وللعمومة قيودها ، ولا بد من الاحتشام ... فلا حول ولا قوة إلا بالله !

وقال الفتى : « تفضل حتى تلبس أختي »

فشكرته وأغلقت أبواب السيارة فقد كان الأطفال كثيرين في الحارة ، والأطفال ملاعين يعبثون بكل شيء كما كنت أفعل لما كنت طفلا ، ومشيت وراءه الى بيت حديث البناء ، فاستقبلني وراء الباب رجل وقور ظننته أول الأمر من السكان ، ولكنه مد يده الي وقال — كما قال الفتى — « تفضل » ، فقلت لنفسي : « إن تمثيل دور العم ينبغي أن يبدأ هنا ... حالا ... فان هذا الرجل الطيب لا بد أن يكون هو الأب السني الذي مد الله في عمره الى زمن غير زمنه ... » وقلت له : أرجو ألا تكون درجات السلم كثيرة ... فان السلالم تتعبني ... جداً ... »

فطمأنني الرجل وأكد لي أن الدرجات ثلاث فقط — ودار وعدها — وأشار الى حجرة ، وأومأ الى أن أدخل ، فاذا فيها فتاتان — التي جملتني عمها والأخرى التي سأكون عمها — أعني التي تريد أن تخرج لتلقى حبيبها أو خطيبها ... سيان كما قالت صاحبتي ... وحدقت في وجهها وأنا أسلم عليها وأطلت النظر اليها وأبقيت يدها في يدي ، وأنا أسألها عن صحتها ، وأثني على بيتها وأذم لها الطريق اليه

وكانت كفها رخصة ووجهها حلواً سمحاً وعيناها واسعتين ولونها صافياً وقدها رشيقاً

وجلست وجلس الرجل إلى جانبي يحييني ويرحب « بالعم » ، وجاءت خادمة « بالماشوراء » فاعتذرت وقلت إن معدتي لا تهضمها وإني أظن أني شخت ، فقال الرجل : « العفو » وقالت صاحبتي : « صحيح .. معدته ضعيفة .. والطبيب ينهاه دائماً عن أكل شيء بين الوجبتين » ، وجاءت القهوة وناولوني فنجانة ، فصببت القهوة من الفنجانة في الطبق ، كما رأيت بعض الشيوخ يفعلون ، وكان هذا أبرع ما وفقت إليه في أدائي لدور العم .

وكانت صاحبتي تغالب الضحك بجهد ، ثم تنظر إلى وتمض شفتيها محذرة من الغلط ، ثم سألني الرجل عن السينما التي اخترتها ، فقلت له : « ياسيدي لقد ألحت هذه البنت الملعونة (والعمومة تسمح بهذه اللعنات) أن آخذها إلى السينما مع صديقة لها فاعترضت لأني لا أكتمك أني لا أطمئن إلى الصداقة بين البنات ، ولكني أحمد الله .. حمدته وشكرته لما رأيتك .. شعرت بالاطمئنان فما يمكن أن تكون بنتك إلا فتاة مهذبة .. (وهنا شكرني

واستغفر الله كما لا أحتاج أن أقول) فرأيت أن أختار شريطاً غير غرامى . . آثرت شريطاً من الأشرطة البوليسية . . وهى كلام فارغ ، ولكنها خير وأسلم عاقبة من الأشرطه الغرامية ، وأظن أنك توافقنى . . أليس كذلك ؟ »

فوافق وشكر وأكد لى أنه تشرف بمعرفتى ، ولا أكتم القارىء أنى خجلت منه فى هذه اللحظة وأن نفسى حدثتنى أن أصارحه بالحقيقة من أولها إلى آخرها ، ولم يصدنى عن ذلك إلا التحرج من الزج بنفسى فى مأزق آخر لا يسهل الخروج منه ، وإذا صارحته بأنى لست عماً ولا قريباً فماذا يكون موقفى .. بل ماذا يكون موقف صاحبتى التى جاءت بى إلى هنا وادعت أنى عمها . . ثم إنى أريد أن أرى هذا الحبيب أو الخطيب — سيان — الذى تريد أن تلقاه وتحتال هى وصاحبتها على هذا النحو المحرج — لى — لتلقاه ؛ وقد أستطيع أن أصنع خيراً إذا رأيته فان لى لفراسة .

وأخيراً نهضنا ، وركب معنا الفتى — أعنى أخاها — فاحتفظت أمامه بمقتضيات العمومة على فرط ثقلها حتى تركنا حيث يريد ، وكانت الفتاتان على المقعد الخلفى ، فلما نزل الفتى وأمنت أن يسمعنى قلت لهما وأنا أمضى بالسيارة على غير هدى : « هل أتقنت دور العم ؟ » ، فضحكت الفتاتان ، فخيل إلى لحظة أن الفتاة التى جئنا بها تعرف أنى لست عماً ولا ابن عم ولكن صاحبتى قالت شيئاً فهمت منه أنها تريد أن أمضى فى تمثيل الدور فسخطت وقلت : « والآن إلى أين بنا » ، فقالت الفتاة الجديدة : « إلى ... من فضلك ... أعنى إذا سمحت » ، وقالت الأخرى — صاحبتى — « بالطبع . . . إن عمى سبور . . . » ، وضحكتا من هذا العم « الاسبور » ، ومن حقهما أن يضحكا . .

ودرنا نبحث عن بيت الخطيب — أو هكذا ظننت ، ولكن الحقيقة أننا مررنا به ، وأن الفتاة رأته فى الشرفة غير أنها خجلت أن تدعو عمها إلى الوقوف وتنزل ، وأحسست أن جو السيارة لا يخلو من ركود ، فوقفت فى بعض الطريق واتجهت إلى الفتاة وسألتها : « هل عرفت البيت ؟ . وهل رأيت فيه صاحبك ؟ » فهزت رأسها أن نعم واضطرم وجهها — حياء على ما أظن — وتولت صاحبتى الكلام والايضاح ، فقلت لها : « حسن . ابقيا أنتما هنا وسأنزل إليه »

ولما وقعت عينى عليه وهو واقف فى الشرفة ومعه أختاه أشرت إليه أن ينزل فلم يفهم ، فصحت به : « تعال ... أيوه انت ... »

وسلم مرتبكا وقال : « أفندم »

فقلت بعنف : « لا أفندم ولا يحزنون ... كيف تكلف الفتاة أن تقطع إليك الكرة الأرضية ولا تجشم نفسك عناء السعى اليها ؟ . . . . . ثم إن أباها لا يمكن أن يقبل »

فقاطعنى وقال بلهفة : « هل يعرف ! . . »

قلت : « اسمع ... هذه العلاقة يجب أن تكون رسمية علنية وإلا فالواجب أن تنقطع ... الآن »

وقال بصوت خافت : « بالطبع »

فالتفت اليه وقلت بصرامة : « بالطبع ما ذا ؟ . . . تقطع ؟ . . . أو تستمر على وجه القبول ؟ »

قال : « تستمر بالطبع ... إنى أريد أن أتزوجها »

فوقفت وسألته : « وماذا عندك ؟ . إن الزواج ليس من وسائله هذه المقابلات السرية التى لا يعلم بها والدها ... والآن تعال وأطعنى ... »

ومضيت به الى السيارة وكان يمشى مطأطىء

الرأس . وأحسب أنى نغصت عليه هذا اللقاء ، ولكنى لم أكن أستطيع غير ذلك فقد كانت صورة الأب الوقور الطيب الذى لا تخالجه ريبة ماثلة أمام عينى ، وقد ترك لى ابنته مطمئناً الى ومعتمداً بعد الله على . ولو كنت لم أدخل بيته ولم أر وجهه ولم يأتمنى على فتاته لما أحسست أن على تبعة . وشق على أن يكلفها هذا الفتى أن تذهب اليه فى آخر الدنيا ، وهو قاعد فى بيته لا يتحرك ولا يسعى ، ولا يبالى ما تتحمل الفتاة فى سبيله من عناء وما تغريها به الرغبة فى لقائه من احتيال وكذب وخداع . فنويت أن أحسم الأمر

وهم بالركوب فجذبته من كتفه ، ونأيت به قليلاً وسألته : « الى أين أولاً ؟ ... قل لى ماذا تنوى أن تصنع ؟ إنى لا أريد أن أضايقك ولكن هذه الفتاة الساذجة فى ذمتى فهل تستطيع أن تكون رجلا ؟ »

فاتقد وجهه وتلعثم ثم استطاع بجهد أن يقول لى إنه رجل شريف وإنه لا يبغى بها سوءا وسألنى وقد وجد لسانه : « هل حضرتك ... »

فقاطعته قائلا : « لا يعنيك من أنا ... تعال ... يكفيك أنى قد وثقت بك ... تعال »

فسره هذا . وهل هو إلا طفل ؟ . . وإنى لأكون حماراً غبيا بليداً إذا لم أستطع أن أستولى على زمامه ... والتفت إلى صاحبتى ونحن راجعون بالسيارة وقلت : « وأنت أيضاً ستطيعين عمك » فالت على وقالت : « إيه ؟ » قلت : « لا شىء ... لقد شئت أن أكون لك اليوم عماً . فاستنكرت أن أكونه فى أول الأمر ولكن الدور حلا لى ... أعجبنى . . . فأنا الآن عم حقيق . . . سأظل عماً ظريفاً ... ولكنى عم على كل حال فلا تنسى هذا »

فسألتنى بصوت خفيض : « ماذا جرى ؟ طمئنى ... »

قلت : « لا شىء ... اطمئنى ... ولكن أطيعينى بلا سؤال أو تردد »

وأنا رجل لا أحب التلكؤ ولا أطيق البلادة . ولا صبر لى على التلوى واللف والدوران . وإيمانى عظيم بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين . والذى يصنعه غيرى فى يوم أصنعه أنا فى لحظة لأن أعصابى لا تحتمل البطء . لذلك مضيت إلى بيت الرجل وكانت كل من الفتاتين تسألنى : « إلى أين من هنا ؟ » وكانتا أول الأمر تتعجبان وتضحكان ثم وجمتا لما دنوت من البيت وانتفى كل شك فى أنى أقصد إليه

وقلت للشاب وأنا أنزل وأجره : « تعال أعرفك بأبيها ، فما أستطيع أن أستصحبك معها بغير ذلك ... أعنى بغير اذنه ... أتفهم ؟ »

وكانت لهجتى صارمة أو قل انها كانت حازمة وان خلت من العنف ، فسار معى . وجاء الرجل مستغرباً عودتنا قبل موعد انتهاء السينما فقلت له بلا تمهيد : « هذا الشاب يريد أن يكون نسيبك ... يحب بنتك هذه ... وأنا أعلم أن هذه مفاجأة ... ولكنى لا أدعوك الى تزويجه الآن ... إنما رأيت من واجبى أن أخبرك ... وسيعطيك اسمه وعنوانه ويحدثك عن نفسه وأهله وأصله وفصله فيما بعد ... فاذا وافقت ورأيته أهلا لذاك فهنيئاً لك وله وللبنت والافارمه ... وقد أخبرتك بهذا ... فاجأتك به لأنى لا أستطيع أن أدعه يصحبنا الى السينما بغير علمك وإذنك ... فهل تسمح له بذلك ؟ »

وتشهدت لما سمعت الرجل — هذا الرجل الوقور الطيب — ياذن لى فى ذلك ويشكرنى أيضاً ... تالله ما أطيبه ! ...

وعدنا الى السيارة فركبناها فى صمت فقد بهت الشاب واستعصى عليه الكلام . وله العذر .

ودخلنا السينما فجلست بين الفتاتين وجلس الشاب على يمين صاحبته التي جعلتها خطيبته برضاه أو على الرغم منه ، لا أدرى ، فعلم ذلك عند الله ؛ وكانت الفتاتان لا تعرفان شيئاً مما حدث لأنهما لم يدخلا البيت معنا ولم نقل لهما شيئاً في السيارة فملت على صاحبتي وقلت لها : « الآن تستطيعين أن تهنئي ... ما اسمها ؟ . . لقد صارت خطيبته حقاً وصدقاً ... لا كذباً يا ملعونة ... »

فراحت تثرثر وتسألني : « ايه ... ماذا تقول ... ماذا حدث ... كيف كان هذا ... ماذا صنعت حين دخلت البيت ... ؟ »

فوضعت كفي على فمها . وكيف بالله كنت أستطيع أن أصد هذا الطوفان من الأسئلة بغير ذلك ؟ وقد وقف الطوفان ، ولكن اللعينة عضتني فكدت أصرخ لولا أننا في سينما . وتصبرت وتجلدت واتجهت الى الشاب وقلت له وأنا أمد كفي المعضوضة : « بسها ... إذا كنت مسرورا » فباسها — بطنا وظهرا — مرة وثانية وثالثة . فاستحييت وانتزعتها منه ، وحولت وجهي الى صاحبتي وذهبت أحدثها بما كان ، وإني لكذلك وإذا بالفتاة الأخرى تجذبني اليها وتدير وجهي الى وجهها وتطوقني بذراعيها وتقبل خدي ... أي والله ولا تستحي ... فدهشت ونظرت اليها ... ثم حولت وجهي عنها . فقد كانت الدموع على خديها

وأعترف أني لم أر شيئا من الشريط ... نعم نظرت ولكني لم أفهم ... لم يكن بالي الى ما أرى وكنت أفكر في هذه الفتاة وفي مصيرها مع فتاها لو لم يلهمني الله أن أكون مجنوناً وأن أصنع ما صنعت وهل يفعل هذا سوى مجنون ؟

ولكنه جنون أثمر خيرا

وقالت الخطيبة ونحن خارجون : « عمي ... لا تتركنا »

فتغابيت وقلت : « هل سأظل عما لك أيضاً الى الأبد ... »

فجذبت ذراعي وقالت بلهجة المستعطف : « لا تتركنا ... فاهم »

قلت : « سمعت . وفهمت . وأطعت . »

قالت صاحبتي : « أما إنك لعم ... »

فلم أقل شيئا وفتحت أبواب السيارة وأشرت اليهم بكلتا يدي وقلت : « بيتك . بيتك . بيتك » كما يقال للدجاج

وتعشينا جميعا في بيت الرجل الطيب . ولكني قبل أن أتناول شيئا من طعامه قلت له :

« سأقول لك شيئا . لست عما لهذه الفتاة . هي صديقة وجارة . أعرف أهلها جميعا من زمان طويل . وقد ألفت أن تدعوني عمها . حكم العادة فقط . وأنا أكره هذه العمومة ، ولذلك أخلعها أمامك ، وأرجو أن تعينني على التخلص منها . فما قولك ... ؟ »

وكانت يداي على ركبتي في انتظار حكمه ، فأحسست راحتين عليهما فالتفت فاذا الفتاتان تنظران إلي بابتسامة الرضى والسرور ، فرددت عيني الى الرجل استعجله الحكم فقال : « تفضل ياسيدي تفضل »

فتشهدت ورفعت يدي الى المائدة لآكل وإذا بالخطيبة تنهض وتميل على عنقي وتقبلني

كلا ... إنها فتاة لا تستحي ... أبدا ... أبدا

ابراهيم عبد القادر المازني



كان ذلك فى بكرة الصباح

و « فلاديمير كلادينوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالغلمان مظهراً ، له وجه مليح وشعر وخف أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة ؛ وكان واقفاً فى مرج معشوشب كساه متساقط الجليد ، وهو شاخص الى ضابط آخر ، وذلك الآخر رجل أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجهاً له على مسافة ثلاثين قدماً وهو يرفع على مهل يده حاملة فى قبضتها مسدساً يسدده الى فلاديمير

وكان فلاديمير واضعاً ذراعيه متشابكين على صدره ، حاملاً كذلك فى إحدى كفيه مسدساً ، وهو ينتظر — انتظار من لا يبالى — طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح وإن غشيته مسحة من شحوب تتوقد الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه الخطر ، وما يبدو على غريمه من تصميم مبرم لا رحمة فيه ، وشدة الانتباه من جانب الشهود الواقفين صفاً واحداً بلا حس ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جملتها لحظة بالغة الهول ، غامضة الكنه ، رهيبة الوقع . إنها مسألة شرف يجب هنا القضاء فيها .

وكان الجميع شاعرين بجلالها . وعلى قدر بعدهم عن إدراك ما هم صانعون كانت اللحظة تزداد رهبة على رهبة

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة . وأرخى ڤلاديمير ذراعيه ، وثنى ركبتيه ، وخر فى مكانه . وهو على الثلج لقىً ، وقد نفذت الرصاصة فى رأسه ، منطرح ، وذراعاه متباعدتان ، وشعره ووجهه ومتوسد الثلج تحت رأسه ، كلها مضرجة بالدم . وهرول إليه الشهود فاحتملوه . وفحصه الطبيب فقرر وفاته . وانحلت مشكلة الشرف وانفض أمرها . ولم يبق إلا إبلاغ الخبر الى الفرقة التى يتبعها الضابط ، وإبلاغ النعى بقدر ما يمكن من التلطف والتحرز الى الأم التى أصبحت من بعده وحيدة فى الدنيا . فان الفتى القتيل وحيدها . وهى لم تخطر قبل المبارزة فى بال أحد . أما الآن فالكل يفكرون ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ويدركون أنه لا بد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد قبل إلقائه والتدرج فى مساقه . وفى النهاية وقع الاختيار على « إيفان جوليوبنكو » بوصف أنه أصلحهم جميعاً

لتبليغ الخبر للأم وتهوين الخطب جهد المستطاع

* * *

كانت « بلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من نومها . وكانت تجهز لنفسها شاى الصباح ، حين دخل الى غرفتها « إيفان جوليو بنكو » مكتئباً مرتبكا

وهبت السيدة العجوز لملاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت فى الأوان والشاى مجهز يا إيفان ! »

ثم أردفت : « إنك قادم لا محالة لترى ڤلاديمير ! »

فغمغم « جوليو بنكو » مجفلاً : « لا ... إنما كنت ماراً ... »

— أنت لا بد عاذره ، إنه لا يزال نائماً لقد قضى سحابة الليلة الماضية يذرع غرفته جيئة وذهابا . وقد أوصيت الخادمة ألا توقظه ، فان اليوم عطلة بمناسبة العيد . ولكن لعلك آت فى مهمة مستعجلة ؟

— كلا ، وإنما عرجت عليكم فى مرورى لحظة ...

— إن شئت رؤيته أمرت بايقاظه

— كلا ، كلا لا تكلفى نفسك

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت معتقدة أنه قادم ليرى ابنها فى أمر من الأمور . فخرجت وهى تتمتم بينها وبين نفسها

وجعل « جوليو بنكو » يذهب ويجىء مضطرباً ، ويقلب كفيه ، وهو لا يدرى كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقد أزفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع فهو يلعن الحظ الذى ورّطه شر مورّط فى الأمر كله

واستهلت « بيلاجيا بتروفنا » وهى تدخل الغرفة مخاطبة زائرها سليمة السريرة طيبة النحيزة :

— وبعد ! فكيف لامرئ أن يثق فيكم أيها الشبان ؟ هأنذا أحاذر أن أحدث أدنى حس للأقداح وأطباقها ، واستسمحك فى عدم إيقاظ إبنى ، فاذا هو قد مضى منذ برهة طويلة ولم يخلف أثراً ! ولكن ، لم لا تجلس وتشرب قدحاً من الشاى ؟ لقد أهملتنا اشر الاهمال فى هذه الأيام الأخيرة

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، وزادت بصوت خافت :

— كانت الأخبار كثيرة عندنا فى تلك الآونة ، وما أحسب أن فلاديمير استطاع كتمانها . ولا بد أنه أفضى بها اليك كافة بحذافيرها ليومنا هـذا . إن ابنى فلاديمير مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدى الظنون مع ما بها من إثم ! إذا كان فلاديمير إبنى يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه أنه يفكر فى « لينوتشكا » صباً بها ، مشوقا اليها . وإن من مألوف عادته وديدنه إذا ذرع الغرفة الليل طوله أن يمضى لا محالة فى الغداة . آه يا إيفان لا أتمنى شيئاً على الله إلا أن يرزقنى من لدنه هذه الفرحة يقر بها عينى فى هرمى . وما ذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هــذا ؟ وليس لى غيرها أمنية وبشرى ؛ وإنه ليخيل الىّ أن ليس ثمة سؤال أرتجيه بعد إذ يتزوج فلاديمير ولينوتشكا . إن فى ذلك لغبطة لى وأيما غبطة ، وسعادة ما بعدها سعادة . ومالى سوى فلاديمير من حاجة . وليس شىء أحب الىّ من هناءته

وكان من شدة تأثر السيدة العجوز أن جعلت تكفكف الدمع قد اغرورقت به عيناها

واسترسلت تتحدث إليه : « أو تذكر ؟

لم تكن الأمور فى البداية جارية على أحسن حال ، سواء فيما بينهما أو فيما يتعلق بالمال . فأنتم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى الزواج من غير مال مرصود . حسن ، لقد تم الآن إعداد كل شىء : حصلت على الخمسة الآلاف روبية اللازمة لفلاديمير . وفى الامكان ذهابهما الى المحراب لعقد الزواج غداة غد . أجل ، وقد كتبت لى ليونتشكا خطاباً ما ألطفه . إن قلبي جذلان مبتهج

وأخرجت « بيلاجيا بتروفنا » — وهى مسترسلة فى كلامها — خطاباً من جيبها ، وأظهرته لجوليو بنكو ثم أعادته : « انها لفتاة محببة ! وناهيك من طيبة نفسها ! »

وجلس إيفان جوليو بنكو ينصت إلى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد أراد أن يقطع عليها هذا الفيض من الأحاديث ، ويقول لها إن كل شىء قد انتهى ، وأن فلاديمير ابنها مات وأصبح فى خبر كان ، وأنه بعد ساعة واحدة لن يبقى لها شىء من هذه الآمال الزاهية . ولكنه أنصت إليها والتزم الصمت ، ونظر الى وجهها الطيب اللطيف فأخذ منه الاشفاق عليها وإذا حركة تشنج تأخذ بكظمه

وأخيراً سألته السيدة العجوز : « ولكن ، مالى أراك اليوم متجهما ؟ ما بالك ، إن وجهك يبدو مكفهرا كامداً كالليل ! »

وود إيفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك الخبر ! » ولكنه لم يبلغها شيئاً ، واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه وجعل يفتل شاربيه

ولم تلحظ بيلاجيا بتروفنا شيئاً ، واستطردت وهى فى أفكارها مستغرقة :

« إن لك عندى تحية ، لقد كتبت ليونتشكا فيما كتبته لى توصينى بأن أبلغ تحياتها إلى إيفان ، وأن أرجوه المجىء مع فلاديمير لزيارتها ؛ فأنت ترى بنفسك يا إيفان مودتها لك ! لا وايم الله ، يظهر أننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى . لابد من إطلاعك على الخطاب ، ولتنظرن أنت لنفسك مبلغ ما فيه من محبة وعذوبة

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها وسحبت منها طرساً رقيق الورق مقرمط الكتابة ، ونشرته أمام إيفان جوليوبنك وقد زاد وجهه اكفهرارا ، وحاول إيفان أن يدفع عنه القرطاس الممدود ، ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرؤه :

(عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الأوان الذى أخاطبك فيه بغير هذا فأدعوك بيا أمى العزيزة المحببة ! إننى أرقب ذلك اليوم متلهفة ، وإن أملى لعظيم بقرب حلوله حتى لست أحب دعوتك من الآن باسم غير يا أمى —)

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التلاوة ، ونظرت إلى جوليو بنكا بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا إيفان ! » . ولكنها رأت جوليو بنكو يعضض شاربيه بناجذيه ، وأن عينيه هو أيضاً مغرورقتان . فقامت وأقبلت عليه ، ووضعت يدها الزممة على شعره ، وقبلته فى هينة فوق جبينه ، هامسة من شدة التأثر : « شكرا يا إيفان ! لقد كنت دائما أعتقد أنك وفلاديمير أقرب الى الأخوين الشقيقين منكما الى مجرد صديقين . لا تؤاخذانى . إننى سعيدة أيما سعادة . والحمد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بإيفان جوليو بنكو اضطرابه وارتباكه ، ولم يسعه إلا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبيلاً . وكان مختنقاً بالعبرات فلم يستطع أن يلفظ حرفاً . ولكن هذه الفورة من الحب الأموى أشعرته بالتبكيت الشديد ، حتى لقد آثر أن لو كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة في دماغه ، فذاك أهون عليه من سماع عبارات الحمد له وامتداح صداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة وهي بعد هنيهة قصيرة سيتضح لها حقيقة الواقع وجلية الأمر . وماذا ترتأى فيه وقتئذ ؟ ألم يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكنا جامداً حين كان المسدس مسدداً الى فلاديمير ؟ أليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين ، وهو الذى حشا المسدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه وهو يعى ما يصنع ؛ وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الآن صامتاً ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه

إنه جزع خائف . يحتقر فى هذه اللحظة نفسه دون أن يستطيع مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة . وإن إحساساً غريباً بالتناقض يحرج صدره ويزهق روحه ، فهو فى كرب واختناق . والوقت يمر سراعا ؛ إنه يعلم بمروره ، وكلما زاد به علما وهت عزيمته ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة أخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدم للخبر ويهيؤها لسماعه ؟ لقد حار إيفان جوليا بنكو فى أمره وأسقط فى يده

لقد انفسح له الوقت هنا ليلعن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر ما يسمونه مسائل الشرف على اختلاف ألوانها . وأخيراً هب من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . وأقبل ، فتناول — معجلا ومن غير كلام — يد بيلاجيا بتروفنا وانحنى يلثمها ، فأخفى بذلك وجهه عنها ، وإذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لا يلوى على شىء ، وتناول عند الباب معطفه الكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت فى نفسها : « لا شك أنه أيضاً عاشق ، مسكين ، كان الله فى عونه . إيه ! إنها لوعة الصبا تلوعهم — ومن بعدها سعادة »

ثم سرعان ما نسيته ، وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز فى أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !

عبد الرحمن صدقى

استدراك

جاء فى (مذكرات نائب فى الأرياف) المنشورة فى هذا العدد أن مدة المعارضة أربعة أيام والصواب ثلاثة



من القاتل

لأندريه وارنود

بقلم الدكتور محمد الرافعى

أصبح الناس فى قرية بوڤلييه الصغيرة وعليهم الضباب ومعه الريح الباردة تسفع الوجوه ، وبين الضباب والريح يطير الخبر المزعج : أن قتل مسيو ڤينيه برصاصة وقعت فى عنقه !

وعثروا على جثته فى أرباض القرية ، بين أسوار الحدائق على مقربة من النهر . وكانت العاصفة والمطر وظلام الليل ستر على القتل والقاتل ، فلم ير أحد ولم يسمع

ومسيو ڤينيه هذا عملاق معصوب الخلقْ ، مفتول العضل، غليظ الألواح ، طويل عريض قد ناهز الأربعين ؛ يعيش فى سعة من غلة أرضه ويلهو أكثر وقته بالصيد ، وفى سائر الوقت يختلف إلى الأندية والحانات

ويعرفه أهل قريته فاجراً صاحب نساء وغزل ، فحديثه وحديثهن على كل شفة ؛ ولم يلفه الليل إلا على امرأة يخادنها أو يحتظيها ؛ وهن اليه أشد ميلاً ، فله المال وفيه القوة ، وإلى ذلك ظرف وجمال وصبابة ورقة حديث

فمن الذى قتل مسو ڤينيه ؟

لعلها واحدة من صواحبه غارت عليه أو نقمت منه أو نكثت عهدها ؛ أو لا فعشيق واحدة منهن أراد أن يزيحه من طريقه ..

عرفت كل هـذه التفاصيل من الخادم وأنا أتناول فطورى ، إذ كنت فى فندق المحطة وقد بتُّ فيه متخلفاً أنتظر القطار المحلى الذى يبرح فى الصباح قرية بوڤلييه

ودخل أحد الشرطة إلى الفندق فجعل يتحرى أسماء المسافرين الذين وصلوا بالأمس؛ ثم تقدم إلى فى شأنى وشأن أوراق ؛ ثم سألنى كيف قضيت الوقت منذ طرأت على هذه الناحية ؛ وبعد أن تثبت من قولى حيانى ومضى لسبيله .

فقلت للخادم :

— ما أحسبه يشق عليه أن يضع يده على القاتل والبلدة من صغرها تكاد تسلمه لمن يبحث عنه . .

قال : لا يكون هذا رأيك يا سيدى ، فالقرية يمر بها غرباء كثيرون .. وهب القاتل من أهلها فلا ريب أنه قد تدبر واحتاط وفكر وقدر ، وما يكون مثل هذا المجرم الذى يقتل هذا العملاق

إلا عارماً شديد البأس يرهبه الناس فلن يظهر اسمه على لسان أحد . وأىّ الناس يريد لنفسه القتل؟

وخرجت أمرّ فى الجموع المضطربة أذهب هنا وهناك إلى أن يحين الوقت ، ثم توجهت إلى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص جمعنى به القطار أمس وقضينا معاً شطراً من الليل . وكان هو أيضاً قد طرأ على البلدة وتخلف ينتظر القطار المحلى ، فتواعدنا أن نلتقى فى المحطة

***

وكان صاحبى هذا رجلاً قد علاه المشيب فابيض شعره الخشن ، وسطع بياضه على وجه قد لوحته الشمس فاسمر واحمر . وكان قصير القامة صلب العضل ، قويا مجتمعاً ، عصبى المزاج يطير من عينيه مثل الشرر إذا حدّق إليك ..

ولم يكن حديثنا فى القطار إلا تحية وردّها ؛ وقد تخلف مثلى فى بوڤيابيه ، فما إن وطئت قدماه أرض الرصيف حتى أسرع إلى عربة الأمتعة ومعه الحمالون ينزلون متاعه وأثقاله وهو شىء كثير عجيب مختلف ، يجمع أنواعاً عدة من فسائل شجر الورد إلى صناديق ضخمة تضم ألواحا من المرمر المصقول أُجيدَ نحتها فى باريس

ودنوت من الرجل ، وكان القطار يهم أن يتحرك ولما يفرغ الحمالون من عملهم ، فألقيت حقيبتى وعملت معهم فى إنزال ما بقى ، فشكرنى ودعانى للعشاء معه

وتلاقينا فى مطعم اشتهر باجادة أطعمته فما يفوت الغريب أن يختلف إليه . وجلسنا لطعامنا وبدأ يحدثنى حديثه ، فكانت قصة من أعجب القصص ..

***

تزوج شمبزاك هذا وهو فى الأربعين من عمره بفتاة تقارب العشرين . وكان مهندساً فى شركة كبيرة فأوفدته إلى بلدة بكسيول القريبة من هنا فى عمل من أعمالها يستغرق سنين عدداً . فلما جاء إلى هذه البلدة أخذ بجمال طبيعتها وسحر مناظرها فابتاع منزلاً ريفياً سكن فيه مع زوجته الجميلة ، تحوطهما سعادة الحب ؛ أو لعله كان يتوهم ذلك ..

وتصرمت الشهور وتبعتها السنون وهو ناعم بحياته الجديدة ، مسحور بالجمالين فى الطبيعة وفى زوجته « مشلين » . وكان واثقاً من حبها مطمئناً الى وفائها ، حتى ألقى اليه ذات يوم كتاب غفل من التوقيع ينبهه فيه كاتبه الى أن يفتح عينه على زوجته ... فسخر من الكاتب وكتابه ، وانطلق الى داره ومايشك أنه سيطالع امرأته ببث يضحكها ويضحكه

وخطر له وهو يفتح باب الحديقة أن يحكم الدعابة فيجعلها رواية ذات فصلين ؛ فاذا انفجر من الغيظ فى الفصل الأول وهو يعتقد الريبة ، انفجر من الضحك فى الفصل الثانى وهو يطمئن الى الحب ... فلبس وجه الغيظ والحنق ودخل على زوجته دخول الموتور فى عرضه وكرامته وقال لها :

— أما الآن فقد برح الخفاء وانكشف المستور وتحقق الظن ونطقت الريبة ... تباً لك من خائنة غادرة تبتذل عرضها وتخون زوجها . هلمى فاسألى الله أن يرحمك إن كان يرحم الفاجرة ؛ فانى قاتلك لامحالة

***

وتابع الرجل حديثه لى فقال :

لم أكن — علم الله — أريد غير المزح والدعابة وما كان يخطر لى قط أن يحدث ما حدث ... فما سمعت المرأة ماسمعت ورأت ما رأت ، حتى انقلبت عيناها وزاغ بصرها وانكفأ لونها وتهارب دمها ، وارتعدت واضطربت ومادت ووقعت باكية على قدمىّ ... !

فوقفت مشدوهاً لا أكاد أصدق ما رأيت لولا أنى أرى ... ؛ ثم أعمانى الحب وأشفقت عليها وظننت ما بها مما يحدثه الرعب ، وقلت : لعلها حسبتنى قد جننت ... فضممتها الى صدرى وقبلتها وجعلت أهدئ روعها وأعتذر إليها حتى سكن ما بها

ولما طابت نفسها انفجرت ضاحكا وقلت لها : هذا هو الفصل الثانى من الرواية الهزلية ... ثم حدثتها بالخبر وأقرأتها الكتاب ، فطوقتنى بذراعيها وتعلقت بى وقالت وهى تقبلنى :

— ما كان أبعدك من الرحمة ! لقد حسبتك جننت ... ، فلأن أظن بك الجنون أقرب من أن أظن أنك ترتاب فى

* * *

ومرت الأيام وكنت أشهد حبها يتضاعف كما تكفّر التائبة عن خطيئة تريد أن تمحوها من ذاكرة محبها ... وحملت ذلك الكتاب على محمله من حسن الظن ، فقلت : لعله من ماجنٍ يعبث بى ، أوعدو يكيد لى ، أو عامل طردته فيريد أن ينتقم منى بتخريب سعادتى ... غير أنى لم أطمئن الى ذلك وساورتنى الظنون الأخرى ، ولم أر من الحكمة أن تعلم زوجتى بما تخالجنى من الشك ؛ فجعلت أتجسس عليها وأستقصى أخبار من تتصل بهم ؛ حتى كان يوم تلقيت فيه رسالة أخرى لا توقيع عليها ، وهذا نصها :

« إن زوجتك على موعد من كبير المهندسين ، وأنت تعرف أنه السيد « ڤارنك » ، وستوافيه اليوم فى الساعة الثالثة على قمة فيزون بفندق الخنزير البرى حيث يلتقى العشاق ... »

فما قرأت هذه الرسالة حتى دارت بى الأرض وغلى دمى وجن جنونى فهممت أن أذهب الى دار المهندس فأبطش به . ولكنى تماسكت وجعلت أتدبر : إن قمة فيزون بعيدة لا يمكن بلوغها إلا بالسيارة ؛ فإن كان الخبر صحيحاً فعادة زوجتى كلما أرادت السيارة أن تسألنى هل أنا فى حاجة إليها ؟ إذن فلأنتظر

وجلست معها للغداء وكأن لم يكن بى شىء ؛ وأشرفنا على الفراغ من الأكل ولم تسألنى فهدأت وكدت أطير فرحاً ، وجعلت فى نفسى ألعن النميمة وأهلها ، وأنا فى ذلك إذ قالت مشاين فى تردد :

— أتحتاج الى السيارة اليوم يا عزيزى ؟ فانى أريدها لنزهة قصيرة فى الجبل

وكان كلامها كالصاعقة انقضت على ، فاحتبس لسانى ورأيتنى أختنق ؛ غير أنى تماسكت مرة أخرى لأنتهى الى النهاية . فقلت لها وأنا أنتزع الكلام انتزاعا :

— ألا ترين أن الجو اليوم ليس جو النزهة فى الجبل ؟

فعبست وقالت بجفاء :

— ولكنى أريد التنزه اليوم

وكنت مستطيعا أن أمنعها إذا زعمت لها أنى فى حاجة الى السيارة ، أو قلت إنها معطلة ، أو اعتللت بعلة ما . . . ولكن قلبى كاد يتمزق بالشك ، وأردت اليقين واليقينُ فى خروجها ، فتركتها لشأنها وقلت خذيها فلست فى حاجة اليها

وأسرعتُ الى محل العمل فسألت عن ڤارنك فقيل لى إنه قد خرج فى سيارة ولن يعود بعد ظهر اليوم ... فطار لبى وتحققت من مصيبتى ، ولم أملك الصبر حتى ألتمس سيارة تحملنى وتقذف بى على الخائن والخائنة ، فعمدت الى « موتوسكل » كان لأحد العمال فطرت به

فلما وافيت الفندق رميته ومضيت حذراً ألوذ بكل ما يواربنى . وكنت الى تلك اللحظة أراجع

نفسي وأزعم أن زوجتي قد ذهبت الى جهة أخرى وأني لن أجد أحدا ، وسأجلس فى الفندق لكأس أو كأسين ثم أعود الى دارى مطمئنا فأجاس عند قدمى زوجتى وأعتذر اليها كما اعتذرت فى المرة الأولى...

وما بلغت هذه الخاطرة من تفكيرى حتى كنت بحذاء الفندق وكأنه يقول لى أنظر أنظر ...

أبصرت زوجتى ، وقد جلست الى ڤارنك وأمامها الشراب ... فانقضضت عليها كالموت . أما هى فوقعت مغشياً عليها ، وأما هو فانتهض وقد اكفهر وجهه وتلعثم لسانه وأخذ يتمتم ، يحاول أن يتكلم ... فلم أمهله ولم أسمع له ، بل صفعته على وجهه ثم انطلقت أعدو كالمجنون وظرت بالموتوسكل

***

كان ذلك قبل الحرب العظمى ، وكانت العادات يومئذ غير العادات ، والشرف غير الشرف ، فما وصلت البلدة حتى التمست زميلين لى فطلبت اليهما أن يكونا شاهدى فى مبارزة ڤارنك . وأجمعت على قتله إذ كان حذقى فى الضرب بالسيف لا يقل عن مهارتى فى الرمى بالرصاص

ثم أقمت فى محل عملى وأبيت أن أرى زوجتى أو ترانى . فكتبت إلىّ تضرع أن آذن لها فتطالعنى بالخبر على جليته فان الأمر غير ما ظننت ، وإنما هو شأن آخر ستثبته بالبرهان القاطع ، و... وهنا مزقت الرسالة ولم أستوف قراءتها ، وأبيت عليها ما سألت

ووقعت المبارزة وتضاربنا بالسيف ؛ فما كانت إلا هنيهة ثم أغمدت سيفى فى صدر الخائن فسقط ميتا ولم ينطق بكلمة ولا حرف

وعدت ساعتى الى باريس فكتبت الى الشركة ألتمس عملا آخر . وجاءنى الرد أن لا عمل إلا فى ناحية بعيدة من بلاد أفريقيا ... وفى هذه الناحية قد هلك كل من أرسلتهم الشركة اليها ، فهى تظن أن تبعث بى الى الموت

وما عَلِمت الشركة أن الموت هو الذى أريد . فقبلت العمل وسافرت دون أن أرجع الى بكسيول لأرى زوجتى ، إذ لم يكن أبغض إلىّ من أن أراها

ووهبتها المنزل ونزلت لها عن حصة من مرتبى تدفعها الشركة اليها ؛ غير أنى أشترط ألا تعلم ولا يعلم أحد بالمكان الذى سافرت اليه ، وأن يغيَّر اسمى فى دفاتر الشركة حتى لا تعلم ولا يعلم أحد . وتركت بلادى كأنى مودع العالم ، فلا همّ لى إلا أن أموت فى أفريقيا فينساني الجميع ...

***

ونشبت الحرب غير أنى لم أغامر فيها لشدة احتياجهم إلىّ ، فلقد كان الزنوج يهاجموننا كل يوم ، ولولا مدافعنا الرشاشة لهلكنا جميعا

وجعل الزمن يمر وكأنه لا يمر علىّ ، إذ لم يكن لى شيء جديد . ولم أعد الى بلادى وآثرت أن أهلك كما يهلك الانسان فى الصحراء . وانقطعت عن العالم وانقطعت أخبار العالم عنى ، فلم أكتب لأحد ولم يكتب الىّ أحد ؛ واستحجر قلبى من هول المصائب ، ورأيتني كالوحش الذى لا يفهم الموت حين نمت الىّ الشركة ذات يوم زوجتى الخائنة...

وكان صباح وكان مساء ، وتقلب الظلام والنور ، حتى مررت يوماً بحصن تنزل فيه سرية من الجند يقودها ضابط عاش فى باريس قبل الحرب ؛ فجلسنا نتحدث ونستعيد العالم ، وما كان أشد دهشتى حين علمت منه أنه كان عاملاً فى إدارة الشركة ... !

وترامى بنا الحديث عن رجل ، رجل من الرؤساء ، فقال لى :

— هل عرفت ڤارنك ؟

فحدقت فيه أحسبه يهزأ بي . . . ولكني تذكرت أني قد غيرت اسمي فمن البعيد أن يعرف من أنا ؛ وكأنما أراد أن يذكرني ، فقال :

— ألا تذكر ڤارنك الذي قتله زميل له في المبارزة ؟

قلت — فما قصة هذه المبارزة ؟

قال — لقد ذهب ڤارنك ضحية خطأ شنيع .

— أي خطأ ويحك ؟ ألم يكن خليلاً لزوجة قاتله ؟

-- كلا كلا ... لم يكن في قدرته أن يكونه ... ولقد اطلعت على الملف الخاص به عند ما كنت أعمل في إدارة الشركة ؛ فهذا البائس أطهر من الطفل الرضيع إذ خذلتـه الطبيعة فلا يصلح لامرأة ... لا تلك ولا غيرها ولكني ...

إني أعرف ما تريد أن تقول ... نعم إن الرجل فاجأه مع زوجته على حال ظنها مريبة ، غير أنهما لم يكونا في مجلس غرام ، بل اجتمعا لشأن آخر . . . فقد كانت هذه الزوجة تضرعت إلى ڤارنك وألحت عليـه أن يسعى في الانعام على زوجها بنوط الشرف ، وسعى ڤارنك وكتب إلى الشركة أيضاً ، وقد رأيت كتابه بعيني رأسي ، وكان طلبه قريباً من الاجابة ، وبشروه بذلك ، وذهبت الزوجة إليه تتلقى البشرى ، ولكن الزوج الأبله تحرّش به ولم يسمع منه ، ثم قتله ولم يسمع من زوجته ، ثم رحل إلى حيث لا يعلم أحد أين رحل ...

* * *

قال محدثي :

هذا ما قصه الضابط ... وكدت والله أموت حسرة وندما ، وكدت أجن من هول ما صنعت ، وتمزق قلبي أشد وأوجع مما قاسيت من قبل ، فلم أطق العيش وحاولت الانتحار فحيل بيني وبينه ، ثم اختلت أعصابي وأصبحت خطراً على أتباعي ، ولست أدري ماذا كان يحدث لو لم ترحمني الطبيعة هناك فتضربني بالحمى التي أرجعتني إلى هنا ... ! ولم تقتلني الحمى فقد كانت لي قوة أقوى منها ، وهي رغبتي في التكفير عن الذنب

وبحثت فعلمت أن ڤارنك ربيباً هو ابن أخته ، وقد ذَلَّ بعد عز ، وافتقر بعد غنى ، فنزلت له عن أكثر ما جمعت من المال

أما زوجتي المسكينة فلم تترك أحداً تربطه بها آصرة ، فجعلت همي أن أعيش ما بقي من العمر في ذكراها ، أتعذب بها كما عذبتها . . . فاستعفيت من العمل وجئت أريد بكسيول التي دُفنت فيها ، ومعي ما رأيت من غراس الورد على أنواعه ، ومن هذه الأحجار الغالية ، وهي من نحت مثّال عظيم في باريس ، وهو آت بنفسه على أثري ليقيم البناء على القبر ، فيجعله أثراً خالداً مذكوراً من آثار الفن ، وإلى جانبها سأقضي بقية مدتي ، وإلى جانبها سأدفن

* * *

وحان المطعم أن يغلق أبوابه ، فخرجنا وكان المطر ينهمر ، وجعلنا نلتمس الطريق حتى بلغنا المحطة وبها مقهى يظل مفتوحاً إلى الصباح ، وأبى صديقي إلا أن يدخل إليه ، فهو على سنه ما زال يظمأ إلى الخمر ؛ ولم يكن احتجز لنفسه غرفة يأوي إليها في الفندق ، وتركته يتمايل سكراً وانطلقت وحدي .

* * *

قلت في أول القصة إني توجهت الى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص ، فهو صاحبي شمزاك ، وقد التمسته فلم أجده ، وانتظرته فلم يجيء ، إلى أن تحرك القطار فوثبت إليه

وبلغنا بكسيول وفيها ينزلون ما جاء به صديق عن غراس الورد وأحجار القبر ، وأنزلها القطار ومضى بي

وقضيت عملي ورجعت بعد أيام ، فاضطررت إلى التخلف مرة أخرى في بوڤلييه ، فنزلت حيث كنت نازلاً وسألت الخادم :

— هل عثروا على القاتل ؟

فقال : انهم قبضوا على فتاة ولكنهم لم يقبضوا على دليل يثبت جنايتها . وأن هذه الفتاة أقرت أن القاتل رجل غريب كان معها هو والقتيل ، ووصفته بأوصافه ، فبحث الشرطة في جميع الفنادق واتصلوا بكل من نزلوا بها تلك الليلة فلم يهتدوا إليه ولا إلى من يعرفه . ولعله لم يقض ليلته في الفندق . . . ولكن ما الذي يدعو هذا الغريب لقتل ڤينيه ؟ لا أظنها إلا حيلة تريد الفتاة أن تخدع بها الشرطة . . . وأي ذلك كان فأمامك الجريدة المحلية وقد اقتصت الخبر من أوله إلى آخره

وتناولت الجريدة وقرأت ما شهدت به الفتاة فاذا هي تقول إنها كانت صدرا من الليل مع ڤينيه تعاقره الخمر حتى ثملا . فلما انتصف الليل وأغلقت الحانة ذهبا الى مقهى المحطة ؛ ودخل الى المكان رجل علاه المشيب ، أسمر الوجه مشرب بحمرة ، قوي الجسم ، قصير القامة ؛ وكان يترنح من شدة السكر . فتجاذب هو وڤينيه الحديث وخاضا فيه ، وزعم أنه قادم من باريس ووجهته الى بكسيول

وأخذ ڤينيه كعادته يُشَقِّق الحديث بأخبار النساء من حظاياه وعشيقاته ، وقال ان اسم بكسيول يذكره بأيام الطلب إذ كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان يومئذ قد اتخذ أول خليلاته وهي زوجة مهندس تدعى مشلين . . . وازدهى بأنها كانت تهيم به هيام الجنون فتأتي في سيارتها الصغيرة بين الوقت والوقت للخلوة به في فندق من الفنادق ثم تدفع للفندق ما كان يجب أن يدفعه هو . . . !

وجعل ڤينيه يلعن زوج هذه المرأة فقد كان أبله مغفلا ؛ إتهم رئيسه بزوجته فدعاه للمبارزة وقتله ثم نأى فلا يعلم أحد أين هو . وقد ترك لزوجته منزلاً وحصة كبيرة من مرتبه ، فكان ڤينيه هو الذي يستمتع بالمال والدار والزوجة ، ساخرا هو وعشيقته من المغفل . . . الى أن هلكت المرأة

وهنا سكت ڤينيه عن الكلام وكان السكر قد نال منه ، فغمغم الرجل الشيخ بكلمات لم تفقهها الفتاة ؛ بيد أنها رأت وجهه كوجه النمر من الحنق والغيظ

وبعد ذلك أخذ ڤينيه يغني ويعربد فأخرجهم صاحب المقهى . وسأل الشيخ صديقه أن يصحبه في نزهة ، وأبت الفتاة وألحت على ڤينيه أن يعود الى مثواه ، فأغضبه الحاحها فلطمها لطمة ألقتها إلى الأرض . وما كادت تنهض حتى أبصرتهما يبتعدان إلى ناحية النهر . . .

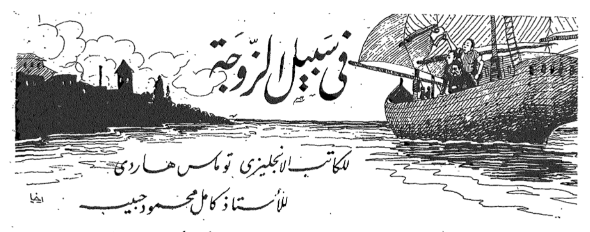
***

فالقيت الصحيفة من يدي وقد عرفت من القاتل . . . وتحزنت على صديقي التعس صاحب غراس الورد وأحجار المرمر المصقول . . . فلا بد أن يكون قد أزهق نفسه وانتهى القاتل والقتيل . . .

وقبل أن أغادر قرية بوڤلييه تحدثت الى محطة بكسيول فعلمت أنه لم يأت إليهم أحد يسأل عن المرمر وغراس الورد ، وقد ذوى الغراس فانقلب حطباً . . .

وأنت يا قبر زوجة شمزاك . . . ؟ ؟

محمد الرافعي



— ١ —

فى أمسيّة يوم من أيام الآحاد ، وقد ابتدأ الظلام ينشر سجوفه على مدينة هاڤنبول ، كان فناء كنيسة سان چيمس يتلألأ ، وتسطع فيه أضواء الشموع ؛ والقَسّ فى محرابه يحذّر الناس ويعظهم ... ثم وقف — وقد انتهت الصلاة — فى خشوع وذلة ، وراح الجمع ينسلّون رويداً رويداً .

كان المكان هادئاً صامتاً لا يرتفع فيه إلا هدير الأمواج الصاخبة تصفع الشاطىء فى شدة حيناً وفى لين ، وإلا صوت أقدام رجل ينطلق إلى باب الكنيسة يريد أن يفتحه لينصرف المصلون ؛ وحين شارف الرجل على الباب ارتفع المزلاج من الخارج ودلف رجل فى لباس البحّار ... ثم انطلق على مهل حتى وقف بازاء المحراب ، والقَسّ يحدجه بنظرات فيها الغضب والحنق على فضوله ؛ غير أن البحار قال فى هدوء : « لا تؤاخذنى بما فعلتُ يا سيدى ، فلقد جئتُ لأحمد الله على أن أنقذنى من الغرق حين تحطم مركبى ؛ هذا واجب أريد أن أؤديه إن وجدتُ منك الرضا » ، وصمت الراهب حيناً ثم قال : « لا مانع ؛ وكان يجدر بك أن تجىء فى بدء الصلاة ، والآن سنصلى معاً صلاة النجاة من الغرق » ، وانطلق القس يتلو الصلاة والبحار يرددها بعده كلمة كلمة ، وقد ركع وضم يديه إلى صدره فى خضوع ، والجمع من حوله خشّع ينظرون .

وحين تمت الصلاة انصرف الناس وقد عرفوا فى الشابِ البحارِ شادراك چوليف الذى رحل عن وطنه الأول هاڤنبول ... رحل عنه إلى نيوفوند لاند ، حين مات أبواه .

وانطلق البحار يحدث هذا وذاك ، ويقص عليهم قصة حياته منذ ركب البحر ...

وعلى قيد خطوات منه فتاتان : أما إحداهما فضئيلة ضامرة رقيقة ، وأما الثانية فطويلة فارعة ؛ جذبه إليهما بعض ما بدا عليهما من رقة وخفة ونشاط ، فقال لمحدّثه : « من الفتاتان ؟ » قال له صاحبه : « أما القصيرة فهى إميلى هاننج ، وأما الطويلة فهى جُوَانّا فليپارد » ، قال : « نعم لقد ذكرتهما ... » ثم أسرع ؛ وحين حاذاهما قال : « إميلى ، ألا تذكرين ... ؟ » قالت الفتاة : « هذا ما أظنه يا مستر چوليف ! » وحدّقت فيه الثانية ، فقال : « لا أستطيع أن أذكر الآنسة جوانا غير أنى أعرف عنها الكثير »

وساروا جميعاً والبحار يحدثهما حديث ماضيه ، وهما تنصتان فى شغف ولذة ، وبلغوا — بعد حين — دار إميلى ، فتركتهما هذه ليسيرا جنباً

إلى جنب حتى دار جوانا ... وحين رأى شادراك نفسه وحيداً ارتد الى دار إميلي ... إنها تعيش مع أبيها ، وهي تدير دكانا صغيراً للكتب ، تسد بما تربحه منه ثغرة لا يسدها راتب أبيها الضئيل ... ودلف إلى الدار ليجد الأب وابنته يشربان الشاى ، فتناول قدحاً آخر ؛ وأخذ يحدثهما حديث البحر ومفاجآته ، والفتاة تحس أن هذا الشاب يجذبها إليه رويداً رويداً ؛ ومضى أسبوع توثقت فيه بينهما عرى الصداقة

وتلألأ القمر — ذات ليلة — ليبعث فى نفس البحّار الشاب النشوة والطرب ؛ فانطلق يستمتع بالهدوء والبحر والقمر ، ويستروح نسمات الحياة النائمة ... ورأى فتاة تسير على بعد ظنها إميلي فانطلق فى إثرها ، وحين صار بحذائها وجدها جوانا فحياها وسار الى جانبها ، وهي تدفعه عنها برفق خشية غضب إميلي ، غير أنه أصم أذنيه عن كلماتها وراح يحدثها . . .

ماذا قال لها وماذا قالت ؟ ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ لم يبح شادراك بشىء من ذلك ، ولكنه أصبح يهفو نحوها ويهمل أميلي قليلا قليلا . وطارت إشاعة تحمل فى ثناياها عزم البحار الشاب على الزواج من جوانا دون إميلي . وددت الاشاعة لتبعث فى نفس الأولى الأمل الحلو ، وفى قلب الثانية اليأس والخيبة ... وبدا لجوانا أن تنطلق الى صاحبتها تكذب الخبر وتقول لها إنها ستدفع الشاب عنها فى رفق ولين . . .

لم يكن شادراك هو كل أمل جوانا ، فهي لا تستشعر حبه فى قلبها ، وهي لا ترى فيه رجلها لأنه فقير ، ثم هي جذابة جميلة ناعمة ، تأسر القلوب وتسيطر على الأفئدة ؛ غير أنها أعجبت بلباقة البحار وظرفه ، وكانت ولوعاً بالزواج . . .

واختلجت هذه الأفكار فى رأسها فكتبت الى صاحبها تقطع ما اتصل بينهما ، وانطلقت الى صاحبتها تريد أن ترى أثر الخبر فى نفسها ، وفى يدها كتابها الى شادراك لتقرأه على صديقتها قبل أن ترسله .

دخلت جوانا فلم تجد إميلي فى الدكان فجلست تنتظر ... ونظرت فاذا شاب يحدق فى بعض الكتب من خلال الزجاج ... إنه هو ، هو شادراك جاء ليجلس الى إميلي ، وهو الآن يجيل بصره فيما حوله علّه يجدها وحدها ؛ وأنفت جوانا من أن تجلس الى صاحبها تحت سمع إميلي وبصرها فانفلتت تتوارى خلف سجف لترى وتسمع ، ولتستطيع أن تنسل من الباب الخلفى متى أرادت ... وبدا لعينيها ما ارتسم على وجه شادراك من سمات الألم والحزن حين دخل فلم يجد إميلي ؛ وهمّ أن يخرج غير أن شبح إميلي كان قد بدا له فتريث . وحين رأته هي فزعت كأنها تريد أن تنكص على عقبيها ، فقال شادراك : «لا ... لا ترجعى ، ما الذى يفزعك يا إميلي ؟ » قالت : «لا شيء ياربان جوليف ، لا شيء سوى أنك فجأتني فاضطربت» وكان صوتها يضطرب كأنه يحدّث عن بعض ما فى قلبها من يأس وألم . ورأى الشاب ذلك فقال وهو يبسم : «لقد عرّجت عليك فى طريقى ... » قالت وهي تقفز ليكون النضد بينهما « لعلك تريد بعض الورق ! » قال : « لا ، لا ، يا إميلي ؛ لماذا تقفزين هناك ؟ لماذا تبتعدين عني ؟ أفأصبحت تبغضينني ؟ قالت وما زال الاضطراب فى ألفاظها : «لا ، أنا لا أكرهك ، وكيف أفعل ؟ » قال : « تعالى إذن هنا نتحدث كصديقين » . . . وجلست إليه وعلى فمها ابتسامة رقيقة ، وانطلق هو يحدثها : « ها أنت ذى ياعزيزتى ... » فقاطعته : « لا تقل هذا ، أيها الربان ؛ إن هذه كلمات يجب

أن تـكون لشخص واحد ليس غير » . قال : « لقد أدركت ما تعنين ؛ وإنى أقسم أنه ما جال فى خاطرى يوماً أنك تفكرين فىّ . أنا أشعر بميل إلى جوانا ، وأعلم أنها لا تحمل لى فى قلبها شيئاً من الحب ، وما كان بيننا سوى الصداقة ؛ وأنت تعلمين أن البحار حين يهبط أرضاً يكون أعمى كالخفاش ، فهو يريد امرأة تسلس له وتنقاد ثم لا يعنيه ماوراء ذلك . ولقد أحببتك وسكنت إليك — بادىء الأمر — ولـكنك انزويت عنى فأحسست كأنك تدفعينني عن نفسك فى رفق ، فانطلقت إلى جوانا ... »
قالت وهى ترتجف : « كفى ، كفى ؛ فأنت ستتزوج من جوانا فى الشهر القادم ، وإنه من العار ... »
قال وقد أمسك بذراعها يضمها إليه : « إميلى ... عزيزتى إميلى ... إنه هو أنت ... أنت وحدك التى أحب ، وأنت التى سأتزوجها . إن أمل جوانا أن تتزوج من رجل غيرى غنى . إنها لا تصلح لى ... » ، وكانت جوانا من خلف الستر تختلج وتضطرب وقد فجأها حديث شادراك فأزعجها وآلمها ، فانطلقت وفى قلبها الحقد والـكراهية لصاحبتها إميلى ... انطلقت إلى دارها تمزق الخطاب الذى كتبته إليه وفى رأسها خاطرة تضطرم : لقد عزمت على ألا تدع البحار الشاب يفلت فيكون هو سعادة إميلى وشقاءها فى وقت معاً ...

وطربت إميلى لحديث الشاب فقامت تودعه وفى عينيها عبرات الشكر والسرور

وسيطرت الفكرة على شادراك فـكتب إلى جوانا يكشف لها عن بعض ما ظنه قد خفى عليها ، وطلب اليها أن تـكتب له ، ثم انتظر ... انتظر طويلاً فلم يظفر منها بكلمة ، وأمضه الانتظار ، فانطلق اليها ... وقالت له أمها : « إنها مريضة لا تستطيع أن تجلس اليك . ولقد أحست هى فى خطابك صفعة قوية قاسية هدّمت كيانها »

وأفاضت الأم فيما قالت ، وكان البحار الشاب رقيق القلب ، سليم الطوية ، فصدق حديث الأم المفترى ، وألقى بين يديها قياده وهو يقول : « ويلى ! لقد قسوت حقاً ؛ والآن فلها هى الخيار »

وفى الصباح التالى جاءه خطاب من جوانا تطلب اليه أن يوافيها الى الملتقى ... وقالت له وهما يسيران ذراعاً فى ذراع : « الآن رجعت المياه إلى مجاريها ، وكان خطابك غلطة من غلطات الشباب أليس كذلك ؟ » قال وهو يبسم : « بلى ...! »

وتصرمت أيام ... طلعا بعدها على العالم عروسين ...

— ٢ —

وكرهت الزوجة أن ترى زوجها يركب البحر فيخلّفها نصف زوجة ، ويتركها وحيدة وقد ماتت أمها ، ثم هى لا تأمن غدر الأمواج ، فراحت تحبب اليـه البقاء الى جانبها ليقوما معاً بعمل فيه الأمن والربح

واطمأن الزوج لحديث زوجته ، فأنشأ دكاناً للبدالة ، وبذل قصارى جهده ليفوز من دكانه بمغنم ؛ غير أن جهله بفنون التجارة كان عقبة كأداء . ودار الفلك دورات ، وهو هو ، حيث كان منذ سنوات ، لم يُفد شيئاً سوى ولدين أشرقا فى دجى حياته ، وأحبتهما الأم حباً أنساها ما كانت تحبو به زوجها من الحب ، وشبّ الطفلان على شاطىء البحر فيهما الفراهة والقوة والنشاط ، لـكنها لا تستطيع أن تنشئهما كما صور لها خيالها ، وبدت لها الحقيقة مرة لذاعة

* * *

وكانت إميلى قد تزوجت من تاجر غنى ، وراح يتودد إليها حتى رضيته زوجا ، وتفتحت زهرة هذا الزواج عن طفلين مسحا عن قلبها ما كان من حب لشادراك ومن كراهية لجوانا ، واستقرت إميلى فى دار زوجها الفسيحة الجميلة ، وهذه الدار تجاه دكان شادراك !

لشد ما آلم جوانا أن ترى المرأة التى غلبتها على أمرها حينا من الدهر فى قصرها المشيد ، ترفل فى حريرها وسندسها بين أطفال كالأقمار ، وأن تراها تطل من نافذتها بين الحين والحين كأنها تستمتع بما ترى فى دكانهـا من معانى الضعة والفقر ! ولشدّ ما حزّ فى قلبها أن تستشعر الخيبة بعد أن أحرزت النصر ؛ وأن ترى حياتها تتفتح عن فاقة وعوز ! أفكان هذا هو كل ما أفادت جوانا حين ظفرت بفتاها شادراك ؟

***

وجلست جوانا إلى زوجها تحدثه وقد خلا المكان إلا منهما ، وبصرها معلق بعربة أحد الأغنياء الكثيرين الذين يزورون إميلى بين الفينة والفينة ؛ تحدثه تقول : « ما كان لرجل أن يبرز فى عمل لا يجيده ولا يتقنه ، وأنت لا تحسن فناً من فنون التجارة » قال الزوج : « إن الثراء لا يعنينى كثيراً ، وحسبى أن أعيش إلى جانبك سعيدا .. » قالت : « أفلا ترى ما بلغت إميلى من الثراء والدعة ؟ إن ابنيها يتعلمان فى الكلية ، أما ابناك فلا يستطيعان ... » واستيقظ الهوى فى قلب البحار حين ذكرت إميلى فقال : « إنه أنت .... أنت التى رفعت إميلى إلى ما ترين حين جذبتنى إليك ، فارتدت هى فى يأسها تجيب التاجر إلى ما طلب . » وثار الحقد والغضب فى صدر الزوجة فقالت فى غيظ وحدة : « دع الماضى ، وانظر كيف تجد السعادة لابنيك ! » قال : « لقد كنت أستطيع لو أننى انطلقت إلى عملى .. عملى الذى أجيده ... إلى البحر ... »

وتحركت أطماع الزوجة فى صدرها فقالت : « أفترى النجاح هناك ؟ » قال : « نعم » قالت : « أفتريد أن تذهب ؟ » قال : « ما أريده للذة فى نفسى فأنا أجد اللذة هنا إلى جانبك وإلى جانب أولادى غير أنك تريدين الثراء ، وهذا طريقه . » قالت : « ومتى تعود ؟ » قال : « من يدرى .؟ »

وفى الصباح لبس شادراك ملابس البحار وانطلق إلى البحر ... إلى نيو فوندلاند ...

***

وترعرع الطفلان ، وانطلقا إلى الميناء يعملان بأجر زهيد ، وأمهما جالسة إلى نفسها تحدثها : « لاضير ، فهما يكسبان ما نسد به عوزنا ، سيكونان فى السابعة عشرة والثامنة عشرة حين يرجع أبوهما يحمل إليهما المال ، وبه يبلغان ما بلغ أبناء إميلى من الرفاهية والعلم ... »

وانقضت الأيام ، وحانت عودة شادراك ولكنه لم يأت ... غير أن ذلك لم يزعج الزوجة ولم يقلقها فهى تعلم أن المركب شراعى وأنه لا ضير إن لم يصل فى ميعاده ... وانطوت أيام ...

وعاد الرجل وعلى وجهه سمات الفرح باللقيا بعد الفراق الطويل ، وعلامات الفوز بما يرضى به زوجته ؛ وراح يضم زوجته فى شغف وحب وهو يقول : « لقد أفدتُ كثيرا يا جوانا » ثم أفرغ فى حجرها كيسا كبيراً قد ملىء ذهباً . وبدت الدهشة على وجه الزوجة — بادىء ذى بدء — ثم امحت قليلاً قليلاً ، ليحل محلها الجشع الذى فى صدرها فقالت : « أهذا كل ما أفدت ؟ » واستشعر الرجل الخيبة فقال : « ماذا ، ما ذا يا عزيزتى ؟ إنه

لثراء ... !» قالت وكأنها تؤنبه : « هذا ثراء لمن يعيش في البحر ؛ أما هنا ... »

وأمسكا عن الحديث حين دخل الولدان ...

وفي يوم الأحد التالي انطلق شادراك الى الكنيسة ليؤدي صلاة النجاة

وبدا للرجل أن زوجته لا تقنع ، فراح يحدثها ليستشف من حديثها بعض ما يكنه قلبها ، فقالت وهي تشير الى دار إميلي « إنهم يملكون الآلاف وما عندنا سوى بضع مئات ؛ لقد اشتروا عربة وحصانين . ما زلنا فقراء يا شادراك ... »

وقضى الزوج عاماً لا يرى زوجته إلا حزينة كئيبة ، فأمضه ذلك وآلمه وعزم على أن يغامر في البحر مرة ثانية مع ولديه . وانطلق الى زوجته يكشف عن عزمه فاضطربت وفزعت ، وقالت : « لا ، لا ، ياشادراك . لا أستطيع ذلك ، ولا أريد أن أقذف بهما في يد الأمواج . . . » قال الزوج « وأنا لا أستطيع السفر بدونهما »

وباتت المرأة ليلتها تقلب الفكرة في رأسها ، وعلى خطوات منها إميلي تسعر الحقد والغيظ في قلبها فلا تستطيع صبراً على ما هي فيه من فاقة وفقر ؛ غير أنها لا تقوى على أن تعيش وحيدة ، ولكن .. ولكن أحلامها في الغنى والسعادة ...

وصبحت زوجها تقول له : « أنستفيد كثيرا لو أنهما ذهبا برفقتك ؟ » قال : « أضعافاً مضاعفة ، فهما خير لي من رجال كثير ، وأنا ألمح فيهما الذكاء والفطنة والجلد والجد » قالت : « وهل في ركوب البحر من خطر ؟ قال : « نعم »

ومرت أيام وأيام ، والأم لا تستطيع أن تقر على رأي ... ثم وافقت ...

— ٣ —

وخيل للرجل أن موقف الوداع يعصف بقلب الأم ويبذر في الصبيين غراس التخاذل والضعف ، فانسل برفقة ولديه في الصباح الباكر ونسمات الربيع تمر هينة ندية . وأحست الأم ، بعد حين . فاندفعت على آثارهم لترى ما سطره الرجل على الجدار ، ينبئها بسفرهم خلسة لئلا تحزنها ساعة الفراق وتؤلمها ، لترى كل ولد وقد ترك أثراً تحت أثر أبيه يقول : « وداعاً يا أماه ! » وانطلقت الأم لتدرك السفر ، غير أن سفينتهم « جوانا » كانت هناك عند الأفق تمخر العباب ... وتفجرت العبرات من محجريها ــ وقد تصدع قلبها ــ تمسح السرور والبهجة عن أيامها . وارتدت ... ارتدت لترى مثلها الأعلى في المرأة التي دفعت زوجها وابنيها الى اليم ... إميلي ...

وانقضت أشهر الصيف الأولى ، وجوانا لا تبرح دكانها وما فيه إلا الرفوف ، وإلا النضد ، وإلا بقية من البضاعة ؛ وجاءت أيام الشتاء تريد أن تمحو ما سطرت أيدي زوجها وولديها ؛ وشق على الزوجة أن ترى هذا الأثر الغالي يمحى ، وهي ترى من خلاله بسمات سيدها وولديها ، فغطته بألواح من الخشب ...

ورأت إميلي ما يضطرب في خيال صديقتها جوانا فانطلقت ترفه عنها وتشتري منها بعض أشياء هي في غنى عنها وعن بعض ما فيها من قذارة ورداءة ؛ وجوانا لا تطمئن إليها ولا تهدأ لأنها ترى في ذلك معنى الشماتة والتشفي ؛ وتأرث الحقد في صدرها حين رأت ابني إميلي وقد عادا ليقضيا أيام عيد الميلاد بين أبيهما وأمهما ، يبدو عليهما أثر النعمة والعلم معاً ...

ومضى عام ... وابتدأ القلق يستولى عليها ... وجلست إميلي إليها تحدثها فقالت لها جوانا : « أنت تسيرين في طريق النجاح دائماً ، أما أنا

فأهبط فى منحدر الاخفاق دائماً » قالت إميلى « لماذا ، لماذا ؟ سيرجعون جميعاً وفى أيديهم الثروة والمال ... » قالت « أفيرجعون ؟ أفيرجعون حقاً ؟ إن الشك قد هيمن علىّ . إن مركباً واحداً قد أقلهم جميعاً ، والأشهر تمضى وأنا لا أعرف ما يصنعون ! لا شىء ينزع عنى الهم سوى عودتهم »

قالت إميلى : « أنت مخطئة يا جوانا ، لماذا دفعت بهم الى البحر ؟ » فالتفتت جوانا مهتاجة تقول : « نعم ، انه أنا التى فعلت ، وانه أنت التى أغريتنى بذاك ؛ فما كنت لأستطيع أن أراك غنية ترفلين فى حلاك وحللك ونحن نتخبط فى شدائد الفقر والحاجة . هذا ما فى قلبى ، ولا يمنينى بعدها أن تكرهينى » قالت إميلى فى هدوء : « لا يا جوانا ، أنا لن أبغضك أبداً »

وكانت إميلى صادقة فيما قالت ...

ودار الفلك دورته يذيق المرأة وبال أمرها ، لتكفر عن سيئات اقترفتها حين طاوعت أطماعها ، واليأس يتدفق فى قلبها ينزع عنها الصبر والايمان

وذكرت أمنية زوجها حين قال : « ... وحين نعود غانمين سالمين نذهب الى الكنيسة لنؤدى صلاة الحمد كما فعلت أول مرة ... » فكانت تذهب هى صباح مساء لتركع هناك حيث ركع زوجها منذ سنوات وسنوات وهى تضرع الى الله ...

وطال بها الانتظار ، وهى لا تجد من يقص عليها قصة زوجها وابنيها ، فتوزعتها الهموم والأحزان ، وارتاحت لوحدتها وخلوتها ؛ وإميلى من ورائها تدفع عنها الخواطر السود ؛ غير أن جوانا قالت لها فى غضب وحسرة : « أنا أكرهك ! أنا لا أستطيع أن أراك ! » قالت إميلى : « لماذا ؟ فأنا أريد لك السلوة والاطمئنان ! » قالت : « أنت سيدة غنية تنعمين بالمال والزوج والبنين ، فماذا تبتغين من امرأة مثلى تهدمها الأيام ؟ » قالت إميلى فى رقة : « أطلب إليك أن تعيشى معى ... معى فى منزلى فأخرجك عن خلوتك ووحدتك وكآبتك »

قالت : « لا ، لا . سأظل هنا ! إنك تريدين أن تنتقمى ... تنتقمين منى لأننى حلت بينك وبين شادراك ؛ إنك تريدين حبسى فى دارك لتبذرى فى نفوسهم اليأس حين يعودون فلا يجدوننى »

وأمسكت إميلى عن الاجابة لأنها تعلم — كما يعلم من فى هافنبول — أن شادراك وولديه قد ابتلعتهم الأمواج منذ حين ...

ومرت الأيام ... وعجزت جوانا عن أن تدفع أجر الدكان والمنزل حين نضب معينها ؟ فهى قد عافت العمل منذ زمان ، وزوجها قد أخذ كل ما أفاد ليثمره ويكثره ، وتضاءل الأمل فى عينيها رويداً رويداً ، فأجابت إميلى إلى ما طلبت . . .

وامتدت يد الأيام إلى المرأة تحمل إليها المشيب الباكر ، وترسم على وجهها غضون الأسى والألم ، وتحنى ظهرها ، غير أن الأمل ...

واستولت على المرأة نزعة جنون تفزعها عن مرقدها بين الفينة والفينة لتنظر خلال النافذة علها تجد أحباءها

***

وهبت ريح الشتاء الباردة تصفر صفيراً مزعجاً ، والظلام الحالك ينشر ذوائبه على المدينة ، والمرأة جالسة فى حجرتها ترهف السمع ... ترهف السمع بعد ست سنوات خلون منذ أن أقلع المركب « جوانا » ... وخيل إليها أنها تسمع صوت شادراك وولديه ، فاندفعت تدق باب الدكان دقاً عنيفاً ... وأطل شاب من النافذة ليقول لها : « ياسيدتى ، إن أحداً لم يأت ! »

كامل محمود حبيب

من صحائف الأيام

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٦ أكتوبر . . .

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع فى أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة . . . ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات وسهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد ، ودلهم على مخابىء الأسلحة ، واقتفى معهم آثار المجرمين . إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » . تركناه ينصرف فى سلام . وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعه إلى الباب بصفعة على قفاه شفى بها غليله ، وانصرف بعد ذلك كل منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت الى نفسى ، وأخرجت كراسة يومياتى التى فيها هذا الكلام الذى لا أجد من أفضى به اليه فى هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من تلقاء نفسه



كالطائر المرح ، وأحياناً يحرن ويثب على قدميه ويأبى أن يتقدم كأن فى طريقه أفعى رافعة الرأس . وهو الساعة يهتز فى يدى ويرقص ولا يطيعنى كأن شيئاً يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام . فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فاذا فأر أسود على رأسها واقفاً يقرض الخشب بأسنانه ؛ فجعلت أنظر إليه علهيذهب ، فلم يذهب ؛ ومضت ساعة وهو فى مكانه وأنا فى مكانى ، كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لى لا يحفل بوجودى ، ولكنى أنا أحفل بوجوده . فزيارته فى هذه الساعة شغلتنى عن نفسى . وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجعلت أفكر فى هذا المخلوق الذى لا يفكر فىّ ، وهنا كل الفرق بينى وبينه ؛ وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابى إلى سريرى وسدلت « الناموسية » علىّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمى العارية . ولم

أجد فائدة من « المصايد » فانها تكلفني عناء في إعدادها وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة . إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا . وفوق ذلك فلكم قنصنا من الفيران ، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجيء وتروح ؛ ولنحملها هذا الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا والله الحمد ليس لي حوائج يخشى عليها غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد الى بلد . فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة ؟ ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل ، فان في اليوم التالي جلسة القاضي السريع ، وقد كلفت مساعدي بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كي أمرنه على نظام الجلسات وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدي في غرفة المداولة متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو في انتظار القاضي . ولم يلبث القاضي أن جاء في القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب ، وهما يشتدان في الخطى والقاضي يخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحي من قشرة بيت اللوح ! واصنح للبيض يا شعبان افندي ؛ والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة في السلالي « كويس » وانتظرني بها على المحطة في قطر ١١ كالمعتاد . اطلع انت السوق والأفندي المحضر يقوم بدلك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعاً ، ودخل علينا القاضي وسلم في عجلة قائلاً :

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا افندي يا محضر ! حضر الجلسة . . . الجلسة .

وألقى بمعطفه التيل الأبيض السفري على كرسي ، وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه في الحال . وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضي وهو واقف في جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن في أعقابه ، وصاح المحضر :

— محكمة ! !

ونظر القاضي في « الرول » وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينق دودة القطن . . غيابي خمسون قرشاً . تهامي السيد عنيبه . . . لم يقدم ابنه للتطعيم . . غيابي خمسون ... محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة . . غيابي خمسون والمصادرة . غيابي خمسون . . غيابي خمسون ...

وانطلق القاضي في الأحكام كالسهم لا يوقفه شيء ، والمحضر ينادي مرة واحدة حتى يلاحق القاضي ؛ فمن لم يسمع النداء عد غائباً وحكم عليه غيابياً . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجري ابتدره القاضي :

— أنت يا رجل تركت غنمك ترعى في زراعة جارك ؟

— أصل الحكاية يا سعادة البك ...

— ما عندناش وقت لسماع حكايات . . . حضوري خمسون . غيره . عبد الرحمن ابراهيم أبو أحمد . الخ الخ ...

وانتهت المخالفات في مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين

وهي تحتاج إلى شيء من الأناة ؛ فأخرج القاضي ساعته ووضعها أمامه ، وصاح في المحضر :

— بسرعة ؛ القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضي في الرول وعرف التهمة والتفت الى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

— ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة ... قل من عندك !

— ياسعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمة !

— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟

— لأ

فصاح القاضي في المحضر :

— أنكر التهمة . هات الشاهد

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر في « ملسها » الأسود الطويل ، فلم ينتظر القاضي حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :

— ضربك ؟

— أصله يا سيدي القاضي ربنا يخليك ...

— مفيش أصله . ضرب والا لأ ؟ هي كلمة لا غير

— ضرب

— كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود ... كلامك يا متهم

فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضي مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص الى أن فرغ . فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر الى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه

— شهر مع الشغل . غيره ...

— يا سعادة القاضي أنا عندي شهّاد . لا ضربت ولا بطحت . الحكم ظلم . ظلم يا ناس

— إخرس ! اسحبه يا عسكري !

فسحبه العسكري بعيدا . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضي :

— بددت القمح المحجوز عليه ؟

— القمح قمحي يا سعادة القاضي وأكلته أنا والعيال

— معترف . حضوري ، حبس شهر مع الشغل

— شهر ! يامسلمين ! القمح قمحي . زراعتي .. مالي ...

فسحبه العسكري . وهو ينظر بعينين زائغتين الى الحاضرين كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذي سمع حقيق . إن أذنه لاشك قد خانته ، وإن اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة ، ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه ؛ فمن ذا الذي يعده سارقا ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذي يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمرة غرسه . إن هذه الجرائم التي اخترعها القانون اختراعا ليحمي بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست في نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة والسرقة جريمة . لأن في ذلك اعتداء

ظاهراً على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية . ولكن التبديد ... كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها . وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضي قد وزن « الدوسيه » في يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ، ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ، ولم يخب ظني ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدي إليّ مرتبكا . فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض في التأجيل

فأخفى القاضي امتعاضه وقال في شبه همس :

— ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضي ذكر أن هذه القضية انما هي قضية « معارضة » في حكم غيابي سبق فيها . وينبغي أن تقدم المعارضة في خلال أربعة أيام . فقرأ في الحال التواريخ وصاح من فوره في المتهم متنفساً الصعداء :

— القضية مرفوضة شكلا يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد

فلم يفهم الفلاح ذو « العبري » هذا الكلام . وقال :

— والعمل إيه يا حضرة القاضي ؟

— العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . إحجزه يا عسكري !

— الحبس بالزوريا حضرة القاضي ؟ أنا مظلوم . لا قاضي سمع كلامي ولا حاكم طلب سؤالي لحد الساعة !

— إخرس ! معارضة يا رجل بعد الميعاد ؟

— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد أربعة أيام

— أنا يا سيدي القاضي غلبان لا أعرف أقرأ ولا أكتب . ومن يفهمني القانون ويقربني المواعيد ؟

— يظهر اني طولت بالي عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . إحجزه يا عسكري !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذي لم يفهم ؟ !

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذي يفترض فيه العلم بقانون « نابليون » ! !

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضي ناهضاً وعاد الى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فان قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضي تعود الركوب في آخر لحظة ، فهو في إسراعه لم يفقد ثباته الداخلي ولا اطمئنانه ؛ وتناول معطفه الأبيض ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف الى المحطة في شبه ركض . وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه عسكري يسحب مسجوناً والكاتب يصيح :

— القاضي مشي ؟ عندنا معارضة في أمر حبس معروضة على حضرة القاضي

فقلت له في الحال :

— الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب

فصاح الكاتب فى العسكرى :

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطا فى السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . وهذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فان المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى فى « بوفيه » المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم

فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه ، بينما يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :

— اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبى أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية تشرح وجهة نظرها فى الاتهام . ولقد كان أعد لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ، فاذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار فى بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها فى طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذى سهر لياليه ليحشو به هذه الأوراق

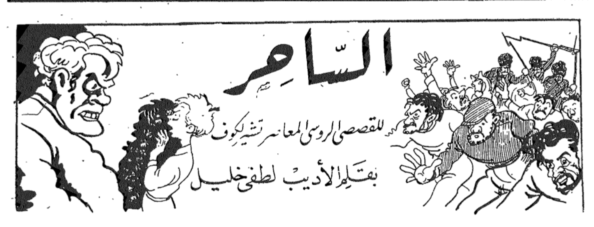
وخلوت أخيراً فى مكتبى . ودخل على رئيس القلم الجنائى ببريد النيابة . وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح . وما كدنا نفض غلافا أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجرة وصوتا مدويا عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأل عن خبره ، فقيل لى : إن المركز أرسله اليوم مقبوضا عليه بعد أن حرر له محضر تشرد . فأدركت أن المأمور ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذى خطف البنت . وأن حقده عليه ما زال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الادارة ليوقع به . إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ . والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التى بين أيدينا . ولكن المجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التى مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة . إن هذه الوسيلة لم تعجبنى كثيراً ، ولم ترض ضميرى القضائى ؛ فان نصوص القانون لا ينبغى أن تكون أسلحة فى أيدينا نضرب بها من نريد ضربه فى الوقت الذى نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر فى طريق آخر لا يستطيع منه الافلات . هذا أسلوب الادارة الذى لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء ؛ وعزمت فى نفسى أن أفرج عن الرجل ، ولكنى أرجأت النظر فى أمره حتى أفرغ من « توريد البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى مظروفا

أصفر ضخماً علمت أن فيه « قضايا جنايات » مرسلة إلينا من الرياسة لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنايات المنعقدة هذا الشهر فى عاصمة المديرية التى نعمل فى دائرتها . فألقيت نظرة على هـذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل هذا ؟ لا شىء ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات . فان من العسير على ذاكرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام قضاة ثلاثة عابسين ، ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع ، بل على مدى اتقان الحركات والاشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الالقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح إلا لملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة ، لا أن يشاهدنى الناس ممثلاً بارعاً قد سلطت على وجهه الأضواء . إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب لبى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء . لذلك ما ترددت وأمرت باحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى تلك السن التى يبهر فيها الانسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب على أن أوجهه اليه . وإنى فوق ذلك أتيح له فرصة الاقامة أياماً فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هـذه الحجج ورأيتها كافية لاقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك مظروفا آخر صغيراً قرأت عليه بالحبر الأحمر كلمة «سرى» فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فاذا هو بلاغ من مجهول أرسل الى النائب العمومى رأساً فى القاهرة ، فأحاله على لأجراء اللازم فيه . فنشرته فى يدى وقرأته بامعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى على العجب ، وأطرقت لحظة أفكر ؛ ثم أعدت النظر فيه وتمهلت فى قراءة سطوره هذه :

« سعادة النائب العمومى بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود « بالاسبتاليـة الميرى » كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتستر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة . واسألوا زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذى خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كافتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة ، وتضربون على أيدى الأشرار . « وتوضعون » العدل فى مجراه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) صدق الله العظيم » « فاعل خير »

(يتبع) توفيق الحكيم



كانت المدينة فى هياج وذعر؛ وكان الاضراب سائداً فى المعامل والمصانع قد اندلع كالنار تسعفها الريح حتى عم سائر الأنحاء ، وفرق الفرسان من الشرط تخترق الشوارع — كأنهم رجال المطافىء الذين اعتادوا أن يأتوا مسرعين ، ولكن بعد فوات الفرصة — بوجوه ساهمة مهمومة ينقلون الخطى على قرع الطبول كأنهم رجل واحد والألق يسطع من حراب بنادقهم وهم يلوحون بها فى الفضاء ، ثم ينفلت بينهم أحد القوزاق فى جلده العارى إلا من الشعر كأنه أبله مجنون فيهوى الناس بعضهم على بعض متدافعين إلى مختلف الجهات مخافة أن يطأهم بقدميه

بقيت المدينة على تلك الحال من الصخب والاضطراب ، فواجهات الحوانيت تلتق بأضوائها المختلفة ، وجموع الناس تتزاحم على الأرصفة فى خوف وقلق ، والعربات تتسارع فى الشوارع فى صراع وعنف . وبات الناس يتوجسون خيفة من كل شىء ؛ فان صفر شرطى فى صفارته أو انفلت أحد القوزاق فى الشارع ، أو نزت برأس عربيد نزوة الشجار والعبث ، استولى على قلوبهم الخوف والهلع . فيندفع بعضهم إلى مكان الحادث ويولى البعض الآخر الأدبار طالباً الأمان فى مجازات الحوانيت ، ولكن الأمان من أى شىء ولم يقف أحد على السبب ؟

لقد كانت جموع العمال تروح وتغدو على الأرصفة ، وئيدة الخطى ساهمة الوجوه تتكلم فى همسات خفية مع من يقابلها من الرفاق ؛ ثم تحدق بعين المقت والحفيظة إلى ذلك الشعب المترف وهو يخطر فى لباس فاخر ويشيح بعيداً عن ذوى الخلقان الممزقة والوجوه الشاحبة المريضة والأيدى الغليظة القذرة التى تشوه جمال الشوارع النضرة التى كانت تفيض بهجة وسحراً فى ذلك اليوم الخريفى الجميل الذى كانت فيه أوراق الأشجار المغروسة على أحياد الطرق الفسيحة تلتق أشعة ذهبية — كأنها تستقبل قبلة الفراق من الشمس الغاربة — على تلك العربات ذات الطلاء الوهاج ، بينما مراكب الترام بأجراسها المجلجلة ، والسيارات بأبواقها الصارخة ، والدراجات الغادية الرائحة تغمر المسالك والدروب

كانت تلك الكتل البشرية تلوح كأنها حجيج غير منتظر قد جاء من عالم آخر يخطو بين أناس مترفين ، فتجنبوا ملامسته أو الاقتراب منه خيفة أن تمسهم منه لوثة أو ينالهم من أطرافه وضر . ثم مالبثت تلك الجموع أن تفرقت أباديد كأنها

سرب من الكلاب الضالة عنـد ما هاجمتها فرق القوزاق الراكضة فسرى الخوف إلى جميع القلوب

— أمي : هل هؤلاء الناس عمال ؟

— نعم . نعم ... امض فى طريقك ولا تتلفت حولك

— ولكن لماذا يهرولون هكذا ؟

— خوفاً من الشرط . امض ولا تتكلم

— لماذا لا يتركهم يمشون على مهل مثلنا ؟

— إنه لا يسمح لهم بذلك

— لماذا ؟

— أوه ! أرجو ألا تثقل على . أعطني يدك وسر فى طريقك وإلا ... فالسوط ... فأمسك « سرج » بيد أمه وأخذ يجر رجليـه خلفها وقد امتلأ قلبها رعباً من تلك الجموع المتدفقة حتى سرى إلى الطفل الصغير الذى كان يحدق فيما حوله وهو ذاهل مأخوذ

— وهل هم أشرار يا أمي ؟

— من ؟ من ؟

— العمال ؟

— لا أدرى . فمنهم الطيب ومنهم الخبيث . إنهم لا يريدون أن يعملوا

— أهم كسالى يا أمي ؟

— نعم . نعم . ولكن هيا . وإلا كنت مثلهم

— أهم أنجاس يا أمي ؟

— وفى تلك اللحظة كان الفرسان القوزاق قد ركضوا بخيولهم ، وصفر رئيسهم صفيراً عالياً ولوح بسوطه فى الفضاء فدوى كالطلق النارى ارتجفت له قلب الأم ، فأسرعت الى إحدى العربات الواقفة ودفعت فيها ابنها الصغير ثم ألقت بنفسها فيها دون أن تساوم صاحبها على الأجر بل دفعته من الخلف وصاحت فى صوت مختنق خائف :

— اسرع !

— ولكن الى أين سيدتى ؟

— هناك . الى الأمام . ياله من ضيق ! أدرسريعاً

— لا تخافى سيدتى . إنهم لن يقتربوا منا .

— وما كادت العربة تنعطف الى الشارع الآخر حتى عاد الهدوء الى قلب الأم ، فعادت الى حديثها الأول :

— تذكر أنى سوف لا أدفع لك أكثر من عشرين كوبكا .

— إن هذا قليل يا سيدتى .

— إذن ننزل . قف . سنأخذ الترام .

— أنصح لك أن تبقى حيث أنت يا سيدتى فان الترام سيقف بعد قليل .

— من قال هذا ؟

— إن العمال سيضربون اليوم . أعلم هذا من قبل .

وعندئذ كانت جماهير العمال قد اقتربت منهم فدفعت الأم السائق دفعة قوية فمضى فى طريقه ، بينما الابن ينظر إليهم فى خوف واضـطراب فيلوذ بأمه شيئاً فشيئاً .

— إنى لا أفهم لماذا يهتمون بهم كل هذا الاهتمام ، فان كانوا لا يريدون أن يعملوا فليدعوهم يقطعون الشوارع جيئة وذهوباً ؛ فسرعان مايمضهم الجوع ويرجعون عن عزمهم .

فأجابها السائق : إنك على حق فى هذا ياسيدتى ، فان الجوع بغيض ثقيل . ثم أدار وجهه عنها وأخذ يعبث بشعرات ذقنـه ولكنه ما لبث أن التفت إليها ثانية وقال : « يمكنك أن تروضى حيواناً بالتجويع ويمكنك أن تعملى هـذا مع أى إنسان آخر ولكن الاساءة للرجل الفقير خطيئة لا تغتفر

والآن من يكسونا أيتها السيدة إذا ما بلى معطفك الثمين وتآكلت شملتي البسيطة ؟

— لا تهتم يا رجل مادام معك المال الكافى . فان لم يشتغل عمالنا اشترينا ما يلزمنا من الخارج .

— ولكن ماذا تعملين لو وقفت قطارات السكة الحديدية ؟

— هذا لغو . إن القطارات لن تقف أبداً . من يسمح بهذا ؟

— من يدرى ؟ إنهم يشيعون أنها ستقف حالا .

فأنصت « سرج » الى الحديث الذى دار بين السائق وأمه وحار فى أمر أولئك الناس الذين يطعمونه ويكسونه وفى الوقت نفسه يهربون من رجال الشرطة . لقد اشترت له أمه معطفاً جديداً للشتاء فلفه فى أوراق ووضعه على ركبتيه يخفق له قلبه فرحاً كلما خطر له أن ما من إنسان يستطيع أن ينتزعه منه

— وهل صنعوا معطفى الجديد هذا يا أمى ؟

فأجابه السائق : لقد صنعوا كل شىء أيها السيد الصغير ، ما من شىء إلا وكان من فضل أيديهم .

فغضبت الأم من هذا الكلام وشدت ابنها من كمه وقالت له : اسكت . لا ينبغى لك التحدث معه . أما السائق فقد مضى يتفلسف فى نفس الطريقة حتى ضاقت به الأم وصاحت فى وجهه غاضبة : « وأنت أيها الرجل يجب أن تزج فى السجن »

فسكت الرجل عن الكلام وألهب جواده بالسوط فأخذ يطوى الطرقات حتى وصل الى المنزل .

وهكذا رجع سرج والشكوك تملأ رأسه فى حقيقة أولئك الناس الذين يدعون « العمال » فلم يكد يستقر فى منزله حتى نادى أخته « سونيا » وهمس فى أذنها :

— لقد رأينا اليوم بعض العمال ، لقد رأيناهم حقاً !

— ماذا يشبهون ؟

— إنهم ... حسن ... إنهم يشبهون الفلاحين

ومنذ ذلك اليوم لم يعد سرج يتحدث كلما نزل الى حديقة المنزل يلعب مع أخته إلا عن أولئك الناس الذين عطلوا المصانع وأضربوا عن العمل ، ولكنهما لم يصلا الى رأى يرتاحان إليه : أهم أشرار أم أخيار ؟ أما فى المنزل فقد كانوا أشرارا وأما فى الحديقة فقد كانوا أخيارا

وأخيراً ذهب سرج إلى البواب وسأله :

— ولكن هل يستطيعون أن يوقفوا مصنعاً .

— من السهل جداً يا سيدى الصغير .

— كيف يتسنى لهم هذا ؟

— بأن يدعوا البخار يخرج أو يتركوا المصنع قاعاً صفصفاً

— وبدونهم لا يشتغل المصنع ؟

— كيف يشتغل من دونهم ؟

— وبدونهم لن أحصل على معطف جديد ؟

— لن تحصل

— وسترتى الصغيرة ؟

— كذلك سترتك الصغيرة و « بنطلونك » وقميصك ، فستضطر أن تسير كما ولدتك أمك .

— عاريا ؟ !... أوه ! يا لك من أبله ! إن أمى تحضر لى كل هذه من الخارج .

— عليك أن تنتظر إذن حتى تصنع ، ولكن ماذا تعمل لو حدث اضراب عام فى السكة الحديدية ؟

— أيمكن أن تقف السكة الحديدية عن العمل ؟

— هناك إشاعة بأن القطارات ستقف .

— وماذا يكون مصير والدى ؟ كيف يعود إلينا ؟

— أوه ! ربما يمتطى عصا .

— اسكت عن هذا الهراء . سأبلغ هذا إلى أمى التى سوف تجزيك عليه .

ثم غاب فى تفكير عميق ، وأخيراً جذب كم معطفه الجديد ، وقال :

— وهل حاك العمال هذا أيضاً ؟

— نعم . لقد صنعوا كل شىء . إن أمك لم تعمل أكثر من أن أوجدتك فى هذا العالم .

***

لم يمض على هذا يومان حتى كان الترام قد وقف عن السير ، واحتجبت الصحف عن الظهور ، وأغلقت الحمامات أبوابها وانطفأت المصابيح فى الشوارع وتعطلت القطارات عن السير ، وعم الهلع سائر المحطات حتى أخذ الناس يتوقعون شللاً عاماً فى حركة المواصلات بين ساعة وأخرى

كان مقدراً أن يصل والد « سرج » فى ذلك اليوم ، ولكنه لم يأت فقلقت الأم وأشاحت بوجهها عن كل من بالمنزل ، ولم يسمح « لسرج » أن ينزل إلى ردهة الدار ، فكان يقضى الساعات الطوال فى إحدى النوافذ يأكل قلبه شوق مُلح ليقف على ما كان يجرى فى الشوارع

— وهل سيأتى أبى حالاً إلى المنزل يا أمى ؟

— إنه لا يستطيع ذلك ، ثم أخذت تلعن الاضراب والعمال والوالد أيضاً

— أحقاً يا أماه أنهم يستطيعون ؟

— يستطيعون ماذا ؟

— أن يمنعوا السفر بالسكة الحديدية

— يظهر أنهم يستطيعون ، لا تثقل على . ثم ترقرق الدمع فى جفنيها وهاجت نفسها حنقاً وغضباً ، أما سرج فقد أدار رأسه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى المارة فى شىء من الاهتمام والخوف ، ثم همس قائلاً :

لو استطعت لقتلتهم جميعاً ! !

ولم يأت المساء حتى كانت الشوارع قد أقفرت من المارة فأغلقت الحوانيت وأقفلت النوافذ بالمصاريع الخشبية ، وأخذ رجال الشرط والقوازق يطوفون فى الطرقات لا يقفون إلا فى الأمكنة التى أوقدوا فيها النيران ، فلم يستطع الابن أن ينام بل كان يقفز من فراشه فى موهن الليل ويتسلل حافياً إلى النافذة ليرى ما كان يجرى فى الشارع

كانت ألسنة النيران تندلع فى الفضاء وأشباح مهولة من الناس تتحرك حول النيران الحمراء كأنها وحوش ضارية تدور حول فريستها ... فيحس الابن برعدة تتمشى فى جسمه فينكمش راجعاً إلى فراشه وقد توهمهم وحوشاً جائعة سوف تنقض عليه وتشويه فى تلك النيران المستعرة ثم تلتهمه التهاما ، فينزوى فى فراشه الناعم الدفىء وهو يصيح : أمى ! أمى ! إنى خائف مقرور .

— لماذا لم تنم ؟ ولماذا قمت من فراشك الآن ؟

— إن النار فى استعار دائم يا أمى وهؤلاء الناس لا يزالون أمام نافذتنا

— نم ولا تخش شيئاً . آه لو يأتى والدك ؟

— أمى !

— ماذا بنى العزيز ؟

— أريد أن آتى إليك . إنى خائف

— مم ، بنى المحبوب ؟

— الساحر ! !

— أى ساحر ؟

— أشكال مختلفة

— إذن فلتأت إلى

فقفز سرج من فراشه فرحاً وجرى إلى سرير أمه وقبض على يدها وقد اختبأ تحت الغطاء

ثم همس قائلاً : « إنهم يستطيعون أن يعملوا كل شىء »

وسرعان ما غابت الأم فى النوم من جديد تاركة ابنها يطل برأسه من تحت الغطاء وينظر إلى الحائط فيرى الأطياف الحمراء التى تعكسها نيران الشارع المستعرة فيستولى عليه الخوف ثانية فيلتف بالغطاء فوق وجهه ويعود يفكر فى أولئك السحرة الأخيار والأشرار وفى أولئك الناس المدعوين عمالاً : أهم أخيار أم أشرار ؟

وفى الصباح جلس إلى المائدة ليتناول طعام الافطار ولكنه لم يجد الكعك الساخن الذى اعتاد أن يراه كل يوم بل وجد خبزاً ناشفاً بارداً لا يغرى على الأكل . فصاح : هات لى بعض الكعك ، لماذا تقدمين لى هذا الخبز القذر ؟ ثم أخرجه الغضب عن نفسه فألقى بسلة الخبز بعيداً دفعاً لتلك الاهانة التى لحقته من والدته :

— أشكر الله يا « سيد » سرج على هذا الخبز الآن

— ماذا ؟ عليك ببعض الكعك . أمى ! لماذا لم تأت لى بالكعك اليوم ؟

— ولكن أين لنا به الآن يا عزيزى سرج وقد أغلقت كل المخابز

— لماذا ؟

— لأن جميع العمال مضربون

— العمال أيضاً ! ثم حك وراء أذنه بيده وقال :

— وماذا نفعل بدون الكعك ؟

— سنفكر فى حيلة

— ولكن ألا يستطيع المحافظ أن يجبرهم على خبز الكعك ؟

— لا يا عزيزى سرج ، إنهم لا يخافونه

— ألا يخافون المحافظ ؟ !

— إنهم لا يخشون إنساناً قط

— إذن فهم ذوو بأس شديد ؟

— بيدهم كل شىء . فلتأكل هذا الخبز اليابس الآن فسوف لا تجده قريباً

— إنى لا أستطيع أن آكل الخبز الأسمر

— نعم ، ولكنك ستفرح به غداً

— لماذا ؟

إلتاث الأمر على سرج فلم يعد يدرك أى نوع من الناس هؤلاء الذين لا يخافون المحافظ ولا يخشون إنساناً قط ولكنهم مع ذلك يفرون من وجوه القوزاق ورجال الشرط . ما العمل ؟ أيوقفون المصانع ويعطلون الترام والقطارات والصحف . ويسلبوننا الكعك ثم الخبز الأسمر ثم لا تفعل شيئاً لهم . ثم أخذ يستعيد فى ذهنه صور الساحرات والسحرة الذين قرأ عنهم فى القصص الخرافية العديدة وتذكر قلانسهم المسحورة التى تخفيهم عن أعين الناس فلا يمكنهم أن يقبضوا عليهم فاذا أمرهم المحافظ أن يعملوا لبسوا تلك القلانس المسحورة وغابوا عن العيون ! !

ثم سرى القلق من الشوارع إلى البيوت وشاع الخوف فى قلوب كانت من قبل آمنة مطمئنة فانقلب نظام الأسر واضطر أصحابها إلى تغيير عاداتهم والحد من مطامعهم واختفت مباهج الحياة من

المدينة كلها وفقد الناس هناءة العيش . وأخيراً تسلل الخوف إلى تلك القصور المنيفة حيث كان يقيم سرج وأمثاله فأغلقت الأبواب وأحكمت الأقفال ووقف البوابون أمامها يتبادلون الحديث مع الحراس والعسس وهم ينفخون فى صفافيرهم . وفجأة انقطعت الكهرباء عن منزل سرج فنادى أمه قائلاً : « فى الكهرباء خلل يا أمى »

— أضىء حجرة الاستقبال

— وهذه أيضاً

ثم جاء الخادم وأخبر سيدته أن هناك اضرابا عاما فعلينا بالشموع

وعلى هذا شمل الظلام المنزل كله لا يظهر فيه إلا أضواء الشموع الباهتة المضطربة التى كانت تنعكس على المقاعد و (البيان) فتلوح فى أغطيتها وستائرها كأنها جثث فى أكفانها قد غابت فى تفكير عميق . وبينما هم كذلك إذ جاءتهم الأنباء المزعجة يحملها الخدم الذين كانوا يتحدثون فى غرفتهم الخاصة

« إنهم يشيعون أن المياه ستنقطع ، وقد سمعنا الآن أن حفلات الجنائز ستقف ، ولن يكون لحم فى السوق غدا ، ولو استمر الحال على هذا أسبوعا واحدا فان قحطا هائلا سوف يجتاح المدينة »

استمع « سرج » الى تلك الأخبار المزعجة وهو ذاهل مشدوه ، فقد ظهر له أن العامل هو الممثل الأول لهذا الدور وسرعان ما انبثق فى ذهنه أن العامل ما هو إلا ساحر ، ساحر ذو قوة غريبة يمكنه أن يأتى كل شىء . فلو أراد لاستأنفت القطارات سيرها ورجع أبى الى المنزل وعادت الكهرباء تضىء كما كانت ، فيعود للغرف بهاؤها ورواؤها . ولو شاء لكان لدينا الآن كعك كثير ساخن ، وإن لم يشأ فلن يجرى الماء فى الأنابيب ولن يكون هناك شاى أو حمام . إنه لا يخاف إنسانا ولا يخشى سلطانا . يا له من ساحر ! !

لقد كان الصبى واثقاً من هذا فلم يمض أسبوعان حتى حدثت العجائب فى يوم واحد . فقد استأنف الترام سيره وفاضت الشوارع بالأنوار الكهربائية الخاطفة وعادت الصحف الى الظهور ورجع الوالد الى بيته فركب معه إحدى العربات اخترقت بهما الشارع العام فرأى السحرة قد تجمعوا كتلا زاخرة مبتهجة يحملون الأعلام الخفاقة وينشدون الأناشيد المذبة دون أن يتصدى لهم شرطى أو يروعهم قوزاق

فتاق الطفل الخروج الى الشارع ليراهم بنفسه فقال :

— أمى ! لقد عاد السحرة يخطرون فى الشوارع دعينى أخرج لأراهم

— إنك لا تستطيع

— إنهم ليسوا أنجاساً بل أطهار الآن . أليس كذلك يا أمى ؟

ثم مضت عدة شهور كان فيها كل شىء حسنا فعاد للبيت مرحه القديم وجنته المفقودة . ثم تصادف يوما أن ذهب الوالدان الى إحدى الملاعب وخرجت المربية لقضاء حاجة لها ، وانصرفت الأخت الى عرائسها ولعبها بينما الجدة كانت لاتزال طريحة الفراش . فأحس الطفل بشىء من الضيق إذ لم يكن هناك ما يلهيه أو يسرى عنه فأخذ ينتقل من غرفة الى أخرى فى تراخ وكسل

— جدتى ما ذا أعمل ؟ ؟

— فلتدلك ساقى ، فان الألم عاودنى فيها

— إنى لا أحب هذا . فهو عمل تافه ثقيل .
ثم تركها وانصرف الى أخته ولكنه لم يكد يرى عرائسها حتى تناول واحدة منها وكسر ذراعها وولى هاربا الى المطبخ ليرى الطاهية الجديدة ، ولكن الخادمة لم تسمح له بالدخول فقال لها :

— ولكن ماذا أعمل إذا كنت وحيدا ؟
— ليس فى المطبخ ما تلهو به
— ولكن من ذا الذى يتكلم هناك ؟
— إنه زوج الطاهية
— إنه مُسَلٍّ
— لماذا ؟ إنه رجل عادى . عامل
— أزوج الطاهية عامل ؟ !
— نعم
— ساحر ! يجب أن أدخل اليه
— لا . انى أشكوك الى المربية وأخبر أمك بذلك إن فعلت هذا
— إذن فأنت كاذبة . سأخبر أمى أنك أكلت القشدة

إنك كاذب فى هذا فقد التقطت ذبابة فقط

ثم تشاجرا معاً ، ولكن الطفل لم يجرؤ مع ذلك على دخول المطبخ فبقى واقفاً ببابه مترددا فى الأمر حتى جاءت الخادمة وفتحت الباب فأسرع يختلس النظر اليه فاستطاع أن يسمع صوت الساحر ولكنه لم ير الرجل نفسه ؛ ثم استبد به الشوق الملح والرغبة القوية ، فعزم أخيراً على الدخول . ولم يكد يرى الخادمة تبعد قليلاً حتى صاح : « أشكرك اللهم » ثم اقترب من الباب وأخذ يفتحه شيئاً فشيئاً بيد المكنسة حتى انفتح على مصراعيه ولكنه لم يستطع أن ينظر إلى المطبخ دفعة واحدة ، فوقف قليلا مطرق الرأس حبيس النفس حتى استجمع من شجاعته

وفتح عينيه فرأى رجلا قد ارتدى ثوبا بالياً وجلس على مائدة صغيرة يلتهم طعاماً ساخناً يتصاعد منه البخار وهو يتلفت حوله فى خوف وحذر ، وقد أمسك الطبق بيده كأنه يخشى أن ينتزعه منه غيره . فاشرأبّ الطفل بعنقه ثم تلفت حوله وقال : « ولكن أين الساحر ؟ » لم يكن هناك غير الخادمة وهذا الرجل ؟

أيحتمل أن يكون هذا الرجل هو الساحر الذى يخافه ؟

ثم قويت رغبته فى رؤية ذلك الساحر ، فاندفع إلى المطبخ ، فقفز الرجل واقفاً وقد سقطت الملعقة من يده ، فقالت الخادمة :

لا شىء ، إمض فى أكلك . فلن يذيع السيد الصغير شيئاً

فأجاب سرج . أى شىء ؟

— لا تخبر أباك أو أمك بأمر هذا الرجل الذى يتناول الحساء . إنها فضلة من طعام قديم !

— حسن

إنه جائع فيجب أن ترحمه أيها السيد الصغير

— من ؟
— إيه : هذا الرجل زوجى
— زوجك ؟

فألقى عليه الطفل نظرة شزراء وهو واقف فى قوام يخيل ! يرتجف خوفا وفرقا ، ولكنه ظنه ساحراً حقيقياً قد لبس هذه الصورة الزرية الكئيبة ثم قال كذلك أنت . إنك ساحر ... إنى أعرفك

— من ؟
— أنت ! أنت !
— إنى عامل ياسيدى الصغير ولكنى لا أجد عملا
— ولكنك ساحر ... إنى أعرفك . تستطيع

أن تعمل كل شيء .. لقد أتيت كل تلك الأضرار ، ولكن حذار أن تعود إليها ثانية . إن ضوء الشمعة باهت كئيب ولا أحب إلا الكمك مع الشاى

— إنى لم أعمل شيئاً يا سيدى الصغير وسأترك هذا المكان حالاً

— ولكنك غير مخيف كما كنت أظن . لقد حسبتك هائل الجسم مارد القامة عابس الوجه . قل لى : ألم تسحر نفسك ؟

— أتسخر منى لأنى لا أجد فتات الخبز . حرام يا سيدى حرام

— ولكنى كنت أظنك أعظم من هذا وأنك مرح طروب فرأيتك ترتعد فرقا وأنت تتناول طعامك . إنى لا أخافك بعد ذلك

ثم انسل الطفل إلى الممر العام ووقف قليلا ، وهو متأهب للجرى إذا هم الساحر بمطاردته ، ولكن لم يحدث شيء من هذا بل كان هناك رجل واقف بجانب أحد الجدران يشهق شهيقاً عالياً ثم يجفف عينيه بطرف كمه . فصاح

ساحر ويبكى !! إنه الجزاء العادل !!

— لماذا لم تدع أبى يعود إلينا ؟ لماذا قطعت عنا الكهرباء ؟

— لماذا حرمتنا من الكمك الساخن ؟

— فلتنل الآن جزاء ما قدمت يداك

ثم صرخ صرخة عالية دوّت فى جميع أنحاء المنزل

مرحى . مرحى ..

ثم أسرع إلى مربيته فى نشوة المنتصر الفائز وهو يقول :

لست أخافه بعد اليوم !!

نظمى خليل

صيد السمك

للكاتبة الانجليزية سر سفيلد

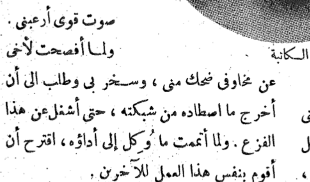
بقلم الأديب حسن حبشي

في صباح باكر من أيام يناير ١٩٣٠ غادرت أنا وأخي وخمسة أصدقاء لنا مدينة سنجاو، ووجهتنا متشيجان لصيد السمك. وقد يلوح للمرء أن من الغريب أن يذهب أحد في شهر يناير للصيد في جو كجو متشيجان هذا، ولكن ينبغي أن أذكر أن كثيرين يكسبون قوت عامهم خلال هذا الشهر.

كان الأفق منيراً، والسبيل واضحة، ومع أن الأرض كانت مغطاة بالجليد؛ إلا أن الحرارة كانت فوق الصفر ببضع درجات، والجو دافئا، وتدثرنا بالملابس الغليظة، واستصحبنا معنا صناديق الذخيرة، وقد وضعنا القهوة الساخنة في «الترموس»

وإذ وصلنا خليج سجناو وهو البقعة التي اخترناها للصيد وجدنا الجليد يتوغل قرابة ميل في اتجاه البحيرة، فتركنا عربتنا على الشاطىء، وحملنا منها بعض الذخيرة، جاعلين وجهتنا حافة الجليد؛ ومضى الرجال يطرحون شباكهم على بعد مائة قدم؛ أما أنا فقد تدثرت بالحرام، وجلست على قطعة من الثلج، وأخذت في مطالعة كتاب كنت قد أخذته معي

وأقبل الرجال ظهراً، وقد أصابوا صيداً كبيراً وكان كل منهم قد اشتد به الجوع، وإذ كنت المرأة الوحيدة بينهم، فقد قمت بإعداد الطعام وتهيئته، ثم جلسنا حوله نلتهمه، متجاذبين فيما بيننا أطراف الحديث، أما أنا فقد جلست أنصت اليهم، إذ كانوا يتكلمون عن تجاربهم في الصيد ومهارتهم فيه، مما لا يدع مجالاً لامرأة. ثم عادوا إلى الصيد؛ وإذا بالشمس تختفي؛ ثم اربد الأفق وتجهمت السماء، وتراكمت السحب، وهبت ريح عاصف، وأخذت قطع الثلج يصطدم بعضها ببعض في صوت قوي أرعبني. ولما أفصحت لأخي



الكاتبة

عن مخاوفي ضحك مني، وسخر بي وطلب الي أن أخرج ما اصطاده من شبكته، حتى أشغل عن هذا الفزع. ولما أتممت ما وُكل إلي أداؤه، اقترح أن أقوم بنفس هذا العمل للآخرين.

كان أربعة رجال منهم قد جلسوا على يسار أخي

(توم) متحدثين ؛ ولما أتممت عملى مضيت ناحية الصياد الأخير ويدعى ويلاند ، وكان صديقا قديما لى فجلست بجواره ، وأخذنا نتحدث فيما بيننا ، ثم أقبل « توم » واشترك فى الحديث ؛ وأخذ الجليد يصطدم بعضه ببعض ؛ وبالرغم من ضحك رفاقى كنت خائفة ، إذ لاحظت أن الريح أخذت تشتد عن ذى قبل ، وتعوى هدارة صاخبة ؛ وفى الحال أخذت كتل من الثلج هائلة الحجم تندفع بشدة وتهوى الى البحيرة ، فاقترحت على توم أنه ربما كان الأجدى علينا أن نغادر هذه البقعة ، ولأول مرة فى حياته خضع لطلبى ، وأخذنا نعمل جميعا معا فى نقل ذخيرتنا .

وانحنيت لالتقاط بضع سمكات حينما سمعت صوت اصطدام هائل ، فانتصبت ، فاذا بى أرى لشدة هلعى واضطرابى شريطاً أسود من الماء قد فصلنا نحن الثلاثة عن الأربعة الآخرين ، فصرخت بأعلى صوتى ، واذ ذاك أبصرت قطعة الثلج التى نحن وقوف عليها ، قد أخذت تتحرك ناحية البحيرة ، فقفز توم وويلاند فى مكانهما ، واندفع الأربعة الآخرون يجرون هنا وهناك وينصحوننا بما لا طائل تحته ... كان طول كتلتنا الثلجية مائة قدم ، وعرضها سبعين تقريباً ؛ فجرى توم الى حافتها ، وحاول أن يلقى بأحد أطراف شبكة صيده للآخرين ولكن لم تساعده قواه وعاكسته الريح ، وازدادت مساحة الانفصال بيننا وبينهم ! فرمى بالشبكة ثانية ففشل أيضا ، اذ وقع فى الماء ، وأحاطنى (ويلاند) بذراعه ، وقد اصفر وجهه وجذبنى الى وسط الكتلة الثلجية ، فقد كان ذلك كما يظهر آمن مكان ، إذ كانت الحواف تتهشم قطعا قطعا ؛ وأخذت الريح تشتد عنفا ، وتدفعنا سريعا الى ناحية البحيرة ، وكان الهلع قد اشتد بى فى هذه اللحظة ، ولكن زميلىّ أقبلا علىّ يشجعاننى ، فأخذا يشيران الى الشاطىء حيث كان رفيقان من رفاقنا يدفعان العربة ، ولكن الجو أخذ يربد عن ذى قبل ، وعم الظلام حتى لم نستطع أن نتبين أحداً ، وأقبل الليل ورأيت أن حجم كتلتنا الثلجية قد تضاءل الى نصف حجمها الأول ، وابتلت ملابسنا بما كانت تسفينا به الريح من ماء ؛ ولم ألبث أن شعرت بالبرد القارس فأجلسنى توم وويلاند بينهما ، ودثرانى بفطائين مما أحضرته ؛ أما رفاقنا الآخرون فقد اختفوا تماما ، ولم يدع الرجلان وسيلة من وسائل التسلية إلا حاولاها معى ، وأقبلا يطمئنان خاطرى بأن لا بد من مجىء قارب نجاة بعد قليل . وأخذ الثلج يتحرك بشدة فزاد ذلك فى رعبنا ، واشتد البرد ؛ ولم تلح أى بادرة من بوادر النجاة . ثم أشعل توم عود ثقاب ونظر فى ساعته ، فاذا نحن فى منتصف الليل ، فكان لنا فى هذا الموقف ثمانى ساعات . وحاول (ويلاند) إلباسى معطفه الجلدى ، فأبيت ذلك ؛ ومن ثم سار وسط الحلوكة محاولاً معرفة ما بلغته الكتلة من مساحة ، ولم أستطع أن أرى أكثر من ستة أقدام أمامى ؛ غير أنى لاحظت أنه سرعان ما رجع إلينا ، فسألته عما صارت إليه الكتلة وما بقى من الثلج ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فتخاذل جسدى كأنما خدّر ، وشعرت كأنى فى غيبوبة .

وعلى حين فجأة صرخ توم واختطفنى ثم دفعنى عن نفسه إلى الجانب العكسى ؛ فدُرْتُ عدة مرات حول نفسى قبل أن أتمكن من الوقوف ، ثم انثنيت زاحفة إليه ألهث ، وقد أبصرته منبطحا على الثلج ، وأمامه الماء ، ولم أعرف إذ ذاك ما كان

يفعله توم ؛ ولما اقتربت من الحافة أكثر ولمسته قال : « هاتى يدك يا بنتى ! »

فمددت إليه ذراعى ... وإذ ذاك عرفت ما كان يعمل

لقد كان يحاول إنقاذ ويلاند ؛ ذلك أن قطعاً من الثلج قد انفصلت وانزلقت فى الماء وعليها (ويلاند) ؛ فجذبنى أخى ، ولما عرف أنى أصبحت بمأمن من الغرق مدّ يده لجذب زميلنا ، وحاولت أنا الأخرى انقاذه ، ولكن لم أتبين يده أو جسمه لشدة الظلام المتراكم بعضه فوق بعض ، واستطعت أخيراً أن أمسّ أصبعه ؛ ولقد كان صراعا عنيفا لا أستطيع وصفه .

ونجحنا أخيرا فى جذبه ، وأحسست كأن ذراعىّ سينفصلان عن جسدى ، وأخذ الثلج يتراجع الى الوراء ، ورقد ويلاند أمامنا كأنه الجثة الهامدة ؛ وظل ثلاثتنا بضع دقائق واجمين صامتين من شدة الفزع والرعب ؛ ثم احتملناه الى الكتلة الجليدية ودثرناه بالأغطية ، ولما لم يُجْدِ فيه هذا العلاج ، أخذ توم فى تحريك ذراعيه بقوة ، يدفعهما الى الأمام والخلف ليسرى الدم فى عروقه . وإذ ركعت بجانبه تبينت أن الماء قد أحاط بنا احاطة السوار بالمعصم ، ولم يبْق منَ الكتلة الثلجية الطافية سوى مساحة لا تتجاوز عشرين قدما ، فافزعنى هذا ، والتفت الى (ويلاند) وقد غشى عليه ، وصرخ أخى فجأة وقد قفز قفزة عالية فالتفت فاذا نور ينبثق من مشعل سفينة وهو يتلألأ وسط هذا الديجور القاتم وأخذنا ننظر إلى هذا الضوء فى لهفة وشوق وهو آخذ فى الاقتراب منا لحظة بعد أخرى ، ومر أمامنا ست مرات ، وبعد لحظات قلائل أنزل زورق النجاة وسار تجاهنا ، وقفز منه رجلان نحونا ، ودثرانى بالأغطية ، وحملانى الى الزروق ثم عادا بويلاند وتوم وسار بنا الزروق الى الباخرة ، فأبصرت جزيرتنا الصغيرة وقد خلع عليها الضوء لونا شفقيا بهيجا ؛ ولم أشعر بلذة ما فى حياتى كلذتى وأنا أرشف القهوة الساخنة التى ناولنا إياها الضابط فى حجرته بالسفينة ؛ وشربت ثلاثة أكواب منها ، فأحسست بالقوة تسرى فى جسدى ، ثم شعرت برغبة شديدة فى النوم ، ولما استيقظت بعد أربع عشرة ساعة أبصرت نفسى على سرير فى إحدى المستشفيات .

أما ويلاند فقد استعاد صحته برغم ما حاق به من أهوال بعد يومين . أما أخى فقد كان أسرع منه

ومنذ تلك المخاطرة ، قصرت صيدى للسمك على المياه الضحلة خلال شهرى مايو ويونيو م؟

حسن حبشى

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل السادس

وفى اليوم التالى ذهبت قبل العشاء الى غابة بولونيا وكانت السماء متلبدة بالغيوم : ولما وصلت الى باب مالو ألقيت عنان فرسى على عنقه ، وذهبت تائها بين الأشجار مستغرقاً أستعيد أقوال ديجنه فى ذهنى ، وما توغلت فى أحد المنعطفات حتى لاحت لى عربة تستقلها إحدى صديقات خليلاتى ، فمدت إلىّ يدها لتصافحنى ثم دعتنى الى تناول العشاء معها إذا لم يكن من مانع لدى

وكانت هذه المرأة — وتدعى مدام ليفاسور — قصيرة بدينة شقراء ، وكنت أنفر منها دون ما سبب ، ولكننى لم أملك نفسى من قبول دعوتها ، لأننى كنت أتوقع حديثاً معها عن عشيقتى ، وأمرت رفيق السائق بقيادة فرسى فذهب به ، وجلست أنا قربها وعدنا الى باريس .

وبدأ المطر يتساقط ، فأنزلنا الغطاء وأصبحنا فى عزلة ، وقد ساد علينا السكوت ، وكنت أنظر اليها فأشعر بحزن عميق ، لأنها لم تكن صديقة عشيقتى فحسب ، بل كانت أيضاً مستودع أسرارها ، وكثيراً ما كانت تمضى معنا ساعات السمر فأستثقلها وأتمنى أن تخلى لنا المكان . ولعل نفورى منها تولد من صبرى على فضولها . وما كان تساهلها معى ومع عشيقتى ، بل وما كان وقوفها مراراً موقف المدافع عنى تجاهها ، ليمحو سيئة هذا الفضول ، فكنت أراها قبيحة ثقيلة . ولكننى أنعمت النظر فيها هذه المرة فلاحت لى وعليها مسحة من الجمال ، فكنت أحدق فى يديها وأثوابها فأشعر بأنها تحرك سا كنا من فؤادى ، وكانت هى تحدق فىّ فلا يخفى عليها أمرى وما يفعل التذكار بعواطفى ؛ وقطعنا مسافة الطريق وأنا أنظر اليها وهى تبتسم لى . ولما بلغنا المدينة قالت : — وأخيراً . فقلت : — أخبريها إذا شئت ، وانهمر الدمع من عينى

وبعد أن تناولنا العشاء جلسنا أمام الوقد ، فقالت : أقُضى الأمر وانقطع كل رجاء ؟ فقلت : وا أسفاه ! إن الأمر المقضى إنما هو فجيعتى ، وستودى هذه الفجيعة بى . ولا أطيل بوصف حالى : لقد امتنع على أن أحبها وأن أحب سواها وأن أعيش بلا حب

واستلقت على مقعدها متراخية وقد لاحت على وجهها علائم الأشفاق ، واستغرقت لحظة كأنها تناجى نفسها وتنصت من قلبها الى أصداء بعيدة ، ثم مدت الىّ يدها فاقتربت منها فقالت : — وأنا أيضاً قد أصابنى ما أصابك ، وتهدّج صوتها فقطعت حديثها

إن للمحبة أخوات عديدات أجملهن الشفقة . صافحت هذه المرأة وتدانينا حتى كاد أحدنا

يلتصق بالآخر ، فبدأت تتكلم مثنية على عشيقتى تنتحل لها الأعذار وتوجه إلىّ كلمات الاشفاق ، وازداد حزنى فلم أجد ما أجيبها به ، وذهب بها الحديث الى التكلم عن نفسها ، فأسرّت إلى أن رجلا أحبها ثم تركها منذ أمد غير بعيد بعد أن ضحت فى سبيله صيتها والكثير من ثروتها ، وأن زوجها وهو رجل حقود كان يتهددها . وكانت تذرف الدموع وهى تسرد حكايتها حتى نسيت همى بهمها ؛ ثم استطردت فقالت إنها تزوجت مرغمة فقام النضال طويلاً بين عقلها وعواطفها ، وهى الآن لا تأسف على شىء أسفها لبقائها محرومة من الحب . ولاح لى أنها كانت تلوم نفسها لأنها لم تعمل على الاحتفاظ بقلب عشيقها ، إذ عاملته بشىء من الاستخفاف

وعادت فاستسلمت للصمت بعد أن فرّجت عن قلبها فقلت لها :

— ما هى بالصدف العمياء تلك القوة التى قادتنى الى غابة بولونيا هذا الصباح . إن الآلام البشرية أخوات تائهات ؛ ولعل هنالك ملاكا كريماً يضم هذه الراحات المرتجفة المبسوطة نحو الله تتوسل الى رحمته . لا تندمى على ما بحت لى من سرك ، فما للانسان أن يندم على دمعة ذرفها أمام أى مخلوق كان . وما سرك الذى أودعتنيه إلا دمعة سقطت من عينيك فاستقرت فى فؤادى ، فاسمحى لى أن أرجع إليك أحيانا لنتشا كى ونتألم معاً

وشعرت بعطف شديد يجذبنى الى هذه المرأة وأنا أتكلم حتى رأيتنى مكباً على وجهها أقبلها ، وما خطر لى أنها ستستاء منى ؛ أما هى فبقيت بلا حراك كأنها لم تنتبه الى ما أفعل

وكان يسود سكوت عميق حول البيت التى تقطنه هذه السيدة ، إذ كان يسكن أحد أقسامه مريض ، ففرش التبن على الطريق المجاورة منعاً لفرقعة العربات ، وكنت أنا مطوقاً هذه المرأة بذراعى وقد أذهلتنى عاطفة اقتسام الأشجان ، وطالت محادثتنا فكنا نتشا كى فأشعر أن بين آلامى وآلامها شيئاً من اللذة ، وأسمع صوتاً مواسياً كأنه نشيد سماوى يتعالى من اثنين متوجعين . وكان دمعانا يتمازجان وأنا مكب عليها فما كنت أرى غير وجهها ، ولكنى عند ما تراجعت عنها رأيت أنها كانت فى هذه الأثناء رفعت إحدى رجليها وأسندتها على رف الموقد فانسحب رداؤها حتى بدت ساقها عارية

ولما رأت اضطرابى لهذا المشهد لم تغير وضعها فأدرت ظهرى ليتسنى لها ستر ما انكشف منها فتجاهلت الأمر . فوقفت الى الموقد أتفرس فيها واجماً ؛ وإذ اتضح لى أنها مدركة ما تفعل أدركت بدورى أن هذه المرأة قد شاءت أن تلعب دورها لأغوائى ، فما كانت دموعها وما نقلته عن آلامها إلا اختلاقات تستكمل بها فنها

أخذت قبعتى وتوجهت الى الباب ، فأرخت رداءها على مهل ، فلم أنبس بكلمة بل أومأت مسلماً وخرجت

الفصل السابع

وعند ما رجعت إلى مسكنى وجدت وسط غرفتى صندوقاً كبيراً . وكانت إحدى عماتى انتقلت إلى ربها ولم تكن حصتى من ميراثها

ذات شأن ؛ فوجدت فى الصندوق أدوات وأشياء مختلفة بينها عدد من الكتب القديمة علاها الغبار . وكنت إذ ذاك أتململ ضجراً ، فرأيت أن أتصفح بعض هذه الكتب ، وأكثرها روايات نشرت فى عهد لويس الخامس عشر . ولعل عمتى وهى من الصالحات العابدات كانت ورثتها من أقارب لها فاحتفظت بها دون أن تطالعها ، لأن هذه الكتب كانت عبارة عن مجموعة دروس فى الغواية والفحشاء

أعهد بنفسى ميلا لا قبل لى برده إلى تحليل جميع ما يقع لى من حوادث سواء أكانت هامة أم تافهة فأطمح دائماً إلى وجود ارتباط بينها فأجىء بتسلسل لها وأنظمها فى سلك واحد كعقد لا بد من ضم شتات حباته . ولعلنى ذهبت مع الوهم إذ أعتقد بوجود علاقة بين حالتى ووصول هذه الكتب ، فاندفعت إلى مطالعتها مبتسما وفؤادى ينفطر حزناً . وكنت أناجى هذه الصفحات قائلاً : إنك دون سواك تعلنين حقيقة الحياة وتجسرين على القول بأن لا حقيقة إلا بالتمتع باللذات والمراوغة والفساد . كونى لى نعم الصديق وانفثى على جراح نفسى سمومك الكاوية فأتعلم منك أن أؤمن بما تعلنين

وهكذا بدأت باقتحام المسالك المظلمة مهملاً مطالعة دواوين أحب الشعراء إلى ، فملأ الغبار كل كتاب كنت أجالسه من قبل كأستاذ اتلقن الحقيقة عنه . وكثيراً ما أخذتنى سورة الغضب فدست على هذه الكتب بقدمى كأننى أنتقم من مؤلفيها فأقول لهم :

— أيها التائهون فى الأحلام ، إنكم لا تعلمون الناس غير الألم . إذا كنتم عرفتم الحقيقة فما أنتم إلا منمقو عبارات مخادعون . وإذا كنتم جهلتموها فما أنتم إلا بلهاء ... وفى الحالين أنتم كاذبون لأنكم أوجدتم من قلب الانسان أساطير ضلال وأوهام . مهلاً ! ! إننى سأدفع بكل ما كتبتم إلى ألسنة اللهيب

وما كنت أجد من منجد لى فى ثورتى غير دموعى فأتيقن وأنا أسكبها أن الحقيقة التى لا حقيقة سواها انما هى الأوجاع والآلام . فأهتف قائلاً : أجيبينى أيتها العبقريات المنقسمة على الخير والشر لأعرف إلى أية ناحية أتجه . أقيمى بينك حكما يفصل فى خلافك فأهتدى من حكمه إلى المنهج السوى

وتناولت توراة قديمة كانت على الخوان ففتحتها قائلا : أجبنى أنت أيها الكتاب المقدس وامددنى بأحكامك ، فوقع نظرى على الاصحاح التاسع من سفر الجامعة فاذا فيه :

« لأن هذا كله جعلته فى قلبى وامتحنت هذا كله . إن الصديقين والحكماء وأعمالهم فى يد الله . الانسان لا يعلم حباً ولا بغضاً . الكل أمامهم . الكل على ما للكل ، حادثة واحدة للصديق وللشرير ، للصالح وللطاهر وللنجس ، للذابح وللذى لا يذبح ، كالصالح الخاطىء ؛ الحالف كالذى يخاف الحلف ، هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس . إن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بنى البشر ملآن من الشر ، والحماقة فى قلبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون إلى الأموات »

ما يقول الفلكيون عندما يتنبأون عن مرور مذنب فى ساعة معينة ، وهو الكوكب التائه فى الأفلاك ؟ ما يقول علماء الطبيعة عندما يرون حيوانات سابحة فى قطرة ماء ؟ أيعتقدون بأنهم هم مخترعو ما يتجلى لهم وأن مرصدهم ومجهودهم يضمنان للكون نواميسه ؟

ما قال فى نفسه يا ترى من وضع أول شرعة للناس عنـد ما فتش عن حجر يضعه أساساً لبناء المجتمع فهتف به هاتف من أعماق أحشائه يقول له : إن الحق للقوة . أمَن أوجد العدل هو هذا المشترع يا ترى ؟ وهل اخترع العار أول رجل اقتطف الثمر من أرض جاره وأخفاه تحت ردائه متلفتاً يميناً وشمالاً وقد دب الرعب فى قلبـه ؟ وما قولك فى صاحب الحقل الذى سُرقت أثمـاره فحرم نتاج جهوده ؟ يلتقى السارق فلا يرفع عليه يداً بل يشمله بعفوه ويقول له : إليك بما تريد من أثمار حقلى ، فيرد الشرّ بالخير ثم يرفع رأسـه الى السماء شاعراً بارتجاف فى قلبه وبدموع فى عينيه وبخشوع يطوى ركبتيه . أترى هذا الرجل أول من اخترع فضيلة المعروف ؟

يا لله ! لقد سمعت أذناى امرأة تكلمنى بالحب ثم تخوننى ، وسمعت أيضاً رجلاً يكلمنى عن الصداقة وهو يشير إلى بالانغماس فى حمأة الدنس ، ورأت عيناى امرأة تستخرط فى البـكاء ثم تطمع فى مؤاساتى بمضلات ساقها ، وهذه التوراة التى تحمل اسم الله تردّ على سؤالى قائلة : — (من يدرى ؟ وأية أهمية لـكل هذه الأمور ؟)

وسارعت الى غرفتى المفتوحة أنظر الى الفضاء الفسيح الباهت فى وجومه صارخا : — أصحيح أن العدم وراءك ؟ أجب أيها الفضاء ، أفليس فيك شىء سوى الأوهام تدفع بها الى صدرى وقد مددت اليك ذراعىّ ؟

وكان الصمت العميق يسـود جميع ما تطلّ نافذتى عليه

ومرّ طيرٌ بجناحيه السوداوين ذاهباً فى الهواء يصَراخ يشبه الأنين فاتبعته بعينى وهو يمرق كالسهم إلى الأفق البعيد ، ثم مرت فتاة صغيرة فى الشارع وهى تغنى

الفصل الثامن

ومع هذا فقـد أبت نفسى أن تستسلم لحياة اللهو والاستهتار إذ كنت أتمثلها حالـكة مفجعة ، فقررت أن أحاول اجتنابها ، وهكذا اقتحمت كثيراً من الآلام ، وساورتنى مرهقات الأحلام . ولو لم يكن غير حرارة الشباب ما يحول دون شفائى لـكفتنى أوجاعاً وجهاداً . فقد كنت أنى توجهت وبلا عمل شغلت نفسى لا أفـكر إلا فى النساء . وإذا نظرت إلى إحداهن شـعرت بهزة أنتفض لها انتفاضاً . ولـكم أفقت من نومى وجسدى يتصبب عرقاً ، فأتراءى على جدران غرفتى بشهيق مختنق يطلب الهواء !

لقد كان من خير ما أسعدت به وقلما يسعد الشبان بمثـله ، أننى أسلمت عفتى للحب ؛ غير أن هذا الحظ قضى على بأن أشرك طوال حياتى كل شهواتى بعاطفة الغرام . وذلك ما كان يدفع بى إلى الهلاك ، فـكنت وقد تسلط على التفكير المستمر بالمرأة لا أملك خيالى من الجموح ليلاً ونهاراً فى مآزق الحب الضلول وفى مهاوى خيانة النساء

امتنع علىّ أن أتصور إمكان الوصال بلا حب ، فـكنت لا أنقطع عن التفـكير فى المرأة قاطع الرجاء من وجود الحب الصحيح ، فذهبت الآلام فى نفسى مذهباً أورثنى شيئاً من الخبل ، فـكنت أشتهى تارة أن أعذب جسـدى أسوة بالرهبان لأميت شهواتى ، وتارة أريد أن أندفع إلى الشارع

أو الحقول أو أى مكان آخر لأنطرح على قدمى أول امرأة أصادفها مقسما لها أننى أحبها حباً أبدياً

والله يعلم كم حاولت أن أسلو لأنال الشفاء ، فكان أول ما لجأت إليه انعزالى عن العالم جرياً مع نفورى من مجتمع رأيت جميع الناس فيه يشبهون عشيقتى رزيلة وختلا . فرجعت إلى ما كنت أهملت من دروسى فتوغلت فى مجاهل التاريخ واستغرقت مع الشعراء الأقدمين كما عدت أيضاً إلى درس التشريح

وكان يقطن الدور الرابع من مسكنى شيخ ألمانى واسع الاطلاع ؛ فألجأته بالرغم من محبته للوحدة إلى تدريسى اللغة الألمانية ، فبدأ عمله بكل جد وإخلاص ، ولكنه مالبث أن اصطدم بفكرى المشتت ، فكان وأنا أجلس اليه تحت نور مصباحه الضئيل ، يضع كفيه على كتابه ويشخص بى متجلداً مندهشاً ، وأنا سابح فى أحلامى لا أشعر لا بصبره ولا باشفاقه على حالى . وأخيراً قال له : أنت أطيب الناس قلباً ، ولكننى أرى العبث فيما تحاول . دعنى لما قدر لى ، فما أستطيع أنا ولا تستطيع أنت تبديل هذا المقدور

وما أدرى أأدرك الرجل ما أعنى أم فاته ما ألمح عنه ؛ غير أنه صافحنى بحرارة ، ولم يعد يذكر لى اللغة الألمانية ودرسها

وبدأت أشعر أن العزلة لن تسوقنى إلى الشفاء بل إلى الهلاك ؛ فتحولت عنها إلى طريق أخرى وهجرت المدينة إلى الحقول شاغلاً نفسى بالصيد متوغلاً فى الغابات أقطعها خبباً على ظهر جوادى ، ومارست المبارزة بالسيف مجهداً نفسى حتى الاعياء ، فما كنت أعود المساء إلى مسكنى إلا لأنطرح على فراشى وروائح البارود والاصطبل تنبعث من أثوابى ، فأستر وجهى بلحافى هاتفاً : إليك عنى ، أيها الشبح ... أفما أستريح منك ليلة على الأقل ؟

وما كانت جميع هذه المحاولات لتجدينى نفعاً لأن العزلة أسلمتنى إلى الطبيعة فقذفتنى الطبيعة إلى الحب

وعند ما كنت أرتاد قاعات التشريح ، كنت أرى نفسى محاطاً بالجثث فأمسح يدى بمئزرى الدامى فيعلو وجهى الاصفرار ، وأشعر بأننى أختنق من الروائح الكريهة المنبعثة من الأشلاء الفاسدة ، فكنت أعرض عن النظر إليها لأتمثل أمامى الحقول الخضراء تموج سنابلها ، والمروج يفوح عبيرها فى سكون الغسق ؛ فأقول فى نفسى : لن أجد فى العلم سلوتى ، فاننى باستغراقى فى هذه الطبيعة التى لا حياة فيها سأموت كمن أنقذ من لجة البحر فلف بجلد حيوان سلخ حديثاً لاستعادة الحرارة المفقودة . لقد قضى على بألا أشفى ، فحسبى أن أموت هنالك فى الحقول تحت أشعة الكوكب المنير

وكنت أنطلق على صهوة جوادى قاصداً متنزهات سفر وشافيل ، فأترجل هنالك لأنطرح على مرج نضير ، أو لأتوه فى واد مقفر ، فما كنت أسمع من الأدواح والمروج إلا صوتاً واحداً يقول لى : ماذا أتيت تطلب هنا . . . إنا نرتدى الحلل الخضراء ، وما الخضرة إلا رمز الآمال

فكنت عندئذ أفزع إلى المدينة لأتوه فى أزقتها المظلمة فأتطلع إلى بصيص الأنوار من نوافذ المساكن المقفلة على أسرار الأسر وخفاياها ، ثم أسرح الطرف على المركبات تلوح وتختفى ، وعلى المارة تزدحم وتتبدد ، فأرانى بين كل هذا وحيداً شريداً . أشهد الدخان

يتصاعد حزيناً من السطوح وأشعر بالآلام تجول فى هذه الأزقة الملتوية حيث يتراكض الناس وقد كللهم عرق الجهود ويتلامس الألوف دون أن يعرف أحدهم الآخر . فما السبيل العام إلا مزالج تتعارف فيه الأجسام وتتناكر عليه الأرواح ، هنالك لا تمد للغريب يد إلا يد بنات المواخير

إن ما تهتف به المدن إنما هو قولها : — هيا إلى الفساد . . هيا إلى الفواحش ، فما يسكن الآلام سواها

ذلك ما تقوله المدن وما يقرأه المارة مكتوباً بالفحم على جدرانها ، وبالأوحال على أرصفتها ، وبالدم المتجمد فى عروق الأوجه الشاحبة

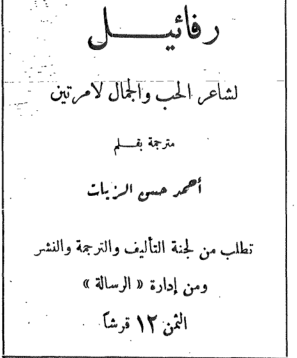
وكنت أجلس أحياناً على مقعد منفرد فى قاعات المراقص فأنظر إلى النساء يتمايلن بأثوابهن الحمراء والزرقاء والبيضاء وقد عرين المعاصم وضفرن الشعور كأنهن الحور يسكرهن النور فى أجواء التناسق والجمال ، فكنت أقول فى نفسى : — ما أروع هذه الزهرات تقتطف وتستنشق ! وما ستكون كلمة هذه الأقحوانات الأخيرة إذا ماتثرت وريقاتها واحدة واحدة لتستنطقها سرها . انها لتقول لك — قليلا ثم قليلا ، ثم لا أحبك حتى ولو قليلا

تلك هى حقيقة العالم ، تلك هى نهاية ابتساماتك ، أيتها الأزهار

على هذا الشفير المروع تتمايلن بأوشحتكن المزينة بالأزهار ، أيتها الراقصات وعلى هذه الحقيقة الشنعاء تمايلن كالهاعلى رؤوس أرجلكن الصغيرات

وكان ديجنه لا يفتأ يقول لى : — والله ما رأيت سواك من ينظر بجد إلى كل هذه الأمور . إنك ترفع عقيرتك شاكيا لفراغ الحق من شرابه ، وإذا فرغ الحق ففى الأقبية من الشراب دنان ، وإذا فرغت الدنان فالروابى مكسوة بالكروم تمتص لتملأها . اتخذ لك من الكلام المعسول صنارة وتقدم إلى نهر السلوان متصيداً فيه امرأة جميلة تلهو بها حتى إذا أفلتت من يدك لا يفوتك إصطياد سواها .
تمتع بالحب الذى تتوق إليه بكل جوارحك ، ولا تضيع أيام شبابك ، ولو كنت أنا مكانك لكنت اختطفت ملكة بدلاً من التلهى بدرس التشريح .
هذه النصائح التى كنت أسمعها فى كل حين ، وعند ما كان يحين زمن الرقاد كنت أتلفع بردائى وقلبى يكاد يتفجر ألماً ؛ فأهرع إلى سريرى لأجثو أمامه باكياً مصلياً ضارباً على هذا القلب كما كان غاليله يضرب الأرض قائلاً : ومع هذا فانها تتحرك . . .

(يتبع) فليكس فارس





الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

ثم غابت عروس البحر فى طيات الثبج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى قمرتى فى السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً . . . وبزغت أورورا تموه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السيف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ثم انثنيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى ومعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة جلود من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطىء . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التى أروحت حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ، ملأ خياشيمنا وأنقذنا من صلول[1] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب البحر حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز پروتيوس وطفق يعد قطعانه ، مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن أثارة من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه ، وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لا يستطيع إفلاتاً . . . يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فاذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فاذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : « عَمْرَك الله يا ابن أتريوس أى إلـه جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يا رب هذا البحر ، إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى آلـه عادل حبسنا فيها ، ولأى شىء ؟ ! » . وقال پروتيوس : « ويك يا منالاوس ! لم لم تصل لسيد الأولمب ثم تضحِّ للآلهة يوم غادرت (طروادة) ؟ لقد غضب الجميع عليك فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب اليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خابتاً متضدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات فتعود الى أوطانك ! » وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الاله القدوس . . .

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا الى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه »

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ اذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين الى أوطانهم ، وأن قليلاً منهم من مات ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، وما يزال واحد يذرع رحب هذا البحر ، ضالاً على غير هدى ! . . . لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وبما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الثلاث شعب ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة جيريه ... مسكين أجاكس لقد غص بالأجاج ، وشرق بقطرات فمات !.. أما أخوك[1] فقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطىء (ماليا) ... أرض ذيستيس وإيجستوس .. ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً . ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطىء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلاً من أفسق رجاله حيث اغتالوه كما يذبح العجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم .. »

وما يكاد يصعقنى هـذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى ، وانطرحت أتقلب فى الرمال من الغم ، وأذرف الدمع من الحرقة على أخى . ولكنه خاطبنى قائلاً : « إنهض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات حين بكاء .. هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه . »

وكأنما سرى عنى بما قال بعد ، فنهضت وساءلته بعدأن شكرته على ما أنبأنى : « .. إذن من هـذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالاً فى رحابه ؟ »

فقال : « ذاك ابن ليرليس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس المـاء كاليبسو . . . لقـد حل عليها ضيفاً برغمه ، فلقد تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو ما يزال عندها لا يجد مركباً يحمله الى وطنـه . . . أما أنت . . . أيها الملك منالايوس ، فطوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل الى دار الخلد ونعيم لا يفنى . . . ودار الفردوس نزلاً . . . حيث لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل تبتى ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم . . . مقام كريم وجنة نعيم ، وغادتك الحُسَّان هيلين ، يا ذرية زيوس العظيم ! »

ثم غاص فى اليم ، وعدت ورجالى الى الفلك ، وفى القلب لوعة ، وبالنفس أسى . وتبلغ كل بالقمات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطولنا فى ظلام الشاطىء .

* * *

وانبلجت أورورا فنضرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنـداة فأهرعنا

---

[1] أجا ممنون الذى نجا من الغرق ثم ما كاد يبلغ قصره حتى قتلته زوجته وعشيقها إيجستوس

جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة وصلينا لهـا خاشعين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاءً فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا والحلى التى تليق بك ، ولتمد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً »

وشكر تلماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما برر عنـــده أن يستأذن فى الأوبة ... فأعذره ملك أسـبرطة ، وأهدى إليه كأس فيدعوس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الـكأس الخالدة التى صنعها الآلـه فلـكان بيـديه لينفح بها ملك سيدونيا

وهيأ الندل مقصفاً فاخراً به جزور وخمر ، وأقبلت أزواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورووا

***

هذا ما كان من أمر تلماك ومنالايوس

أما ما كان من أمر العشاق آنئذ ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون فى بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان . إذ أقبل الفتى نومون بن فرنيوس وقد تغضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيتَ إذا أعطيت سفينتى للفتى تلماك فانى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراساً لى اثنتى عشرة ما تزال ترضع أفـلاءها [1] متى يرجع من پليوس يا أنتينوس ؟ »

ورُوِّع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تلماك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يا نومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهل أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟ »

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها باذنى . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معـه أمير البحر منتور . ألا كم كان يبدو منتور بهيا وقوراً رائعاً ! تالله لقد خلته — بل أكبر ظنى أنه — أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلـها وقد رأيته بعينىّ هاتين صباح أمس وهو قد أبحر الى بيلوس قبيل ذلك ، فأنىّ عاد ؟

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه الى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان العشاق قد فرغوا مما أخـذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شـطرهم أنتينوس ،

(١) الفلو ولد الفرس لم يبلغ عاما

وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه ، فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تليماك في عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حسباناً ! ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأفجأه بين أواذيّ ساموس ونُتُوء إيتاكا التاعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى الى حتفه بظلفه »

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك الى الملكة الباكية المفئودة ... پنلوب — وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تليماك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه . ثم ذهب لطيّته ، وجلسَت الملكة المرزَّأة لدى الوصيد تبكى وتنتحب ، ومن حولها الغيد الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يُعولن ويكفكفن ...

قالت الملكة : « ويح لى أيها العذارى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته علىّ السماء ! لقد فقدت زوجى ، أسد هيلاس الكريم أوديسيوس الأمير الحُلاحل رجل الفضائل والمروءات ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى . . . دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمنا لذلك روحى ! ولكن ... هيا ... لتمض دليون — خادمتى الوفية ذات التجاريب — إلى ليرتيس — فلتحدثه عما تآمر الذئاب . وىْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! ؟ »

ونهضت يوريكليا مرضع تليماك ، تنثر دموعها وتقول :

« وا أسفاه علىّ أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ولك أن تقتُلِى ... أو تبقى علىّ ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ علىّ موثقاً ألا أبوح بسره حتى تمضى اثنا عشر يوماً بتمامها ... حتى أنت يا مولاتى ! لقد أمرنى ألا أعلمك بشىء اهدئى يا مولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى الى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولنصلّ جميعاً لربة العدالة مينرڤا — پاللا الطيبة — أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر وليعد الى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدير شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت پنلوب فصعدت الى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرڤا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمعى يا ابنة سيد الأولمپ ! يا مينرڤا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس فى هذا القصر وما ضحى نضرع اليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير وأن ترسلى عبوسة من شواظ غضبك على أعدائه ... أولئك الأضياف الظالمين ... آمين »

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرڤا صلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق الثاثت فى أذنيه صلاة پنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها

فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، وعبر بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنةٍ وفتكٍ إعداداً كافياً فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها حمال الزاد والذخيرة ... وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها ... ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنلوب فى فراش حشوه فكر وهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، وما دبر له الكلاب وما كادوا ، مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر صائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مينرڤا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها ذلك الطائف الحزن ، فتزيت بزى الأميرة المفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام :

« أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يا بنلوب العزيزة ؟ ليفرخ روعك ، وليصف بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهى تكلؤه وترعاه وتحفظه ، فقرى عينا واسلى وانعمى ! »

وتقول بنلوب إذ هى تحلم :

« من ؟ إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد ندر أن كنت تلمين بهذا القصر ؟ ألتواسيني وتسليني ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى ، وتكسرت النصال على النصال . . . لقد فقدت زوجى . . . أسد هيلاس وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أنا ذى انتفض فرقاً على ولدى ... ولدى الطرى الفينان ، الذى لا قدرة له ولا احتمال ... فى هذا البحر اللجى ... لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى ! وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غيلته قبل أن يرتد إلى وطنه ! »

وتجيبها مينرڤا : « لا عليك يا ملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويوقيه ... راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً ... مينرڤا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك ، أقبلت بأمرها أواسيك ! »

وهلعت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لربة وقد كلمتك الأرباب ... ألا قصى على إذن ما كان من أمر رجلى ؛ أما يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشبح العابس فقال : « لا ! ليس الآن ! لن أذكر لك إذا كان رجلك ما يزال حياً أو إنه قد قضى ، مالنا ولذلك ؟ »

ثم رفت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام .

ونهضت الأم وقد سرى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم الذى كان يثقل على قلبها

* * *

وأقلع العشاق بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بمقتل تلماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا . . . فأرسوا ثمة يتربصون –

(يتبع) دريني خشبه

سر أبى الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول للشاعر الفرنسى موريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

المشهد الخامس من الفصل الثانى

إيزابيلا ، باريس ، أرجانتى ، مارسيللوس

(تدنو إيزابيلا من باريس ، تراه وتقول بصوت متقطع غريب اللهجة)

إيزابيلا — « يا حبيبتى ! ها قد هبط الليل على روما

ورداء أزرق الحواشي قد انبسط على الأعالى

لا أرى إلا السماء ، ولا ألمح أحداً

ولا أفكر إلا فيك ، لأننى لا أهوى سواكِ

كنت — يا حبيبتى — هذا المساء شعلة الروح المتأججة فى المسرح

ألا عطفاً لألحانك التى جعلت شعباً كاملا يفهمنى

ولكنى لا أهوى منك شهرتك ، ولا مجدك ولا فنكِ ...

وإنما أهواك أنت يا إيزابيلا !

أنت حبى الأكبر وكل وجودى يهتز لك ...

كل كيانى هنالك ...

هذه الليلة ذاتها ، كنت أود أن أقول لك قبل متوع النهار

النهار يفصل قليلا بين المحبين العاشقين

ولكنى ، يا إيزابيلا ، لن أغادرك أبداً

(تقف قليلا ، ويكون هنالك سكون يفصل بين النفسين ، وكأن باريس يفكر ويذكر وينفسر الماضى)

وداعاً يا إيزابيلا !

إن ريح مصر تصفر ،

شكراً لأنى أدركت حلمى الذى يرتعش

سأرحل ! وحين أرحل وانتهى إلى أطراف الوجود يستحيل بيننا اللقاء يا إيزابيلا »

باريس — (متأثراً) ما هذا أيتها السيدة ؟

إيزابيلا — (بغرابة وبرود)

وها هما كتابان منك ، أحدهما فى بدء حبنا والآخر فى منتهاه فليس معنى المرأة — يا باريس — إلا أن تتذكر حين يتناسى الرجل

باريس — (تحيط به الذكريات)

إيزابيلا — إلهى — المسرح — أوروبا ... !

ها أنت تنظرين ، إننى أحيا وحدى ، وفى بعض أحيانى أخوض الصحراء راكباً ، أو أطوف فى النيل على زورق

(ينظر إليها طويلا)

وأجمل من هذا ألا أفوه بكلمة ...

إيزابيلا — وأنت فى شعرك عدو الصمت

باريس — من أين جئتِ ؟

إيزابيلا — جئت من فرنسا حيث مثلت مسرحية « فيدر »

باريس — أتمثلين دائماً ؟

إزابيلا — المسرح هو كل شيء ، فاذا هجرته أموت سأماً ، إنني فقيرة الى أن أطرح هـذه الأضواء العميقة كحصن بيني وبين الناس

أرجانتى — انتصاراتها الأخيرة سودت وجوه الأولين . آه لو تراها فى مسرحية « الفينيقيين » أو فى « تاجر البندقية » !

إزابيلا — نسيت « هيلين » حيث كنت أتناول بأناملى أجمل أكاليل الغار ، حقاً لقد مثلتها أكثر من المرات السابقة

باريس — عن أية هيلين تتكلمين ؟

ازابيلا — عن « هيلينك »

باريس — أعن « هيلينى » ؟ بلى ذكرت : فهل اسمى فى الفضاء ينادى اسمها ؟ هيلين . وبأى حق جرىء يسمح لى بأن أفتح جفنيها . هيلين ؛ اننى أكذب ككل انسان ، هذا ضلال ، اننى لم أذرف دمعة على قبرها

ازابيلا — البكاء باطل حين تبتكر العبقرية .

باريس — الأثر الخالد هو دمعة حية .

ازابيلا — إن حاضرك ليغار من انتصاراتك المولية ؛ يلزمنا الآن قطعة جديدة منك ، وروما لا تزال تريد أن يخفق فؤادها لانتصاراتك .

أرجانتى — كذلك .

باريس — هات إنائى يا مارسيللوس !

مارسيللوس — (يتناول مارسيللوس إناء ويعطيه ازابيلا) .

وهذا ما سلم من النار ؛ ولهذا ترين هذا الاناء مصبوباً على هيئة قلب .

ازابيلا — (تأخذ الكأس بيديها ، وترفعه حتى شفتيها بخشوع اليأس والحب)

الاناء التى كانت تحمله « أرملة پومپى » لم يتبلل بكل هـذه العبرات الالهية ، وإذا كان حقاً أن — هنالك — كل آثارك الآتية ، فلتبك عيناى دون وخز فى هذا الهواء ، ولتفعم — إلى الأبد — بدموعها القلقة هـذا الأناء حيث يتهدم فيه حظ شاعر .

ارجانتى — وواجبك نحو عالم غيور ، فأنت لم تعد لفنك ، وإنما لنا ! قلب الشاعر العظيم هو يقظتنا وهو — حين يصمت — يقهرنا .

باريس — فكروا فيما يروقكم !

ازابيلا — لا حق له فى ذلك ، لقد احتملنا منه تلك الحركة حين قذف بقطعة على الملأ . . . ومن ذلك الحين ولى هارباً ، ولكننا نريد أن نفكر فى عودته إلينا

باريس — لم يعد الفن من الكبر ما يتسع لأسرارى .

ازابيلا — ألا تعرض بعد اليوم عبقريتك على الناس ؟

باريس — (يضرب على صدره) يكفينى فى الليل أن أعلم أنه — هنالك — يزجر !

ازابيلا — وإذا لم يعد يزجر ؟ هل تعلم ماذا يقولون ؟

باريس — (بسخرية) أننى هرم بلا شك ، وعمرى ثلاثون .

ازابيلا — ويقولون : إنك فى جذوة اللهب أصبحت شعلة خامدة ، وإنك بت تخشى الجمهور ، وإن القطعة التى صفعت بها الشعب لم تتم فى الحقيقة ، ولكنك أردت إخفاء نزعها بما عملت ، هل أنت تارك سوقا لمثل هذه الشائعات ؟

باريس — ما يهمنى ذلك ؟

ازابيلا — أو تارك اسمك يغيب فى الليل !
وكوكبك ينطفىء فى اللحظة التى أخـذ يلمع فيها ،
إن الخطأ الوحيد الذى يُرتكب حيال المجد
والحب هو الاعتزال ؛ إنهم — ولا ريب — قد
تكلموا كثيراً عنك فى الشهور الأخيرة وعن
مسرحيتك « أبى الهول » ، ولـكن الصمت اليوم
يخيم على الجميع ، وهذا « سير ماران » مفعم غبطة
وهناء لتفوقه عليك ، وحين تبتعد العبقرية يحل
الاكتساب محلها .

باريس ! ليس هـذا بحق ولا يمكن أن يكون
حقاً ، إن هـذه الجبهة التى يكللها النور الذهبى ؛
والتى يتوجها الغار ، هذه الجبهة ، لا ترضى بأن
يسلبهـا تاجها رجل أقل شأناً ، لا يجدر بك أن
تقنع بهذا النسيان المهين ! وحين لا يناضل الانسان
فمعنى ذلك أن أراه انتهى ؛ فهل تتركهم يفكرون
بأنك هذا الانسان ؟ وهل تترك الشعب العاجل
يتخذ شاعراً غيرك ؟

باريس — إذا كان هذا هو المجد ؛ وإذا كنت
تقولين حقاً فالأجدر أن يراه من بعيد لا من قريب ؛
إذا كان هذا هو المجد — يا أوروبا ! — فانى أوثر
هذا الليل الأزرق فى أفريقيا حيث اقتفيت أثر أخى ،
وهذه المشاهد التى لا تنتهى ، وهذا الهواء المترنح
بشذاك العظيم .

أنظرى ! يا للرقة ! فضاء خالٍ من هتاف
الاستحسان ، ووجوه المصورين ، وفى المساء حيث
يرقد أبو الهول ؛ رجلاه فى التراب وجبينه فى السماء ،
هل لحته يتشعشع تحت لألاء القمر .

أجل ! لقد جئت يقودك الجزع ، عارفة فى
الحقيقة من أنا ؛ جئت تتكلمين لى عن أدوار
وعن استحسان ، وهنا ، هنا فى هذا البلد ، وإزاء
هذه الطبيعة دون أن تجرئى على النظر إلى وجهه .

ازابيلا — باريس !

باريس — انظريه ؛ أريد أن تتعرفى إليه .
أيتها السيدة إنه أبو الهول ، ويا أيهـا السيد
— مدير مسرح أوروبا — ارفع قبعتك جلالاً ،
هذا هو الأوحد الـكبير الذى يلتحف كل الأبدية ،
يحيط به حشم غير منظورين هم القرون الانسانية
يجثون أمامه ، قبعته الحجرية مبللة بالندى ، هى قبعة
قيصر أو قبعة الأهرام ؛ والآن أفيكم جرأة على
تحديثى عن العبقرية وعن الندى وعن المشاهد ؟
ألا فاخشوا أبا الهول أن يهز الأرض ضاحكا فى حالة
من حالات هذيانه !

ازابيلا — إنك لتسخر باطلاً ! هل بإمكانك
أن تصرف الناس عن لومهم لك بأنك انتهيت !
يا باريس ! ماذا يهمنا أبو الهول ؟ هذا المارد المملاق
الذى يقف على هذه المدينة المائتة ؟ والذى نريده
بقلب غيور هو أبو الهول الآخر ؛ أبو الهول الذى
كان لا يحيا إلا بك ، لأن مدينته كاملة تقول بأنه
غير موجود ؛ ولأن هذه الضوضاء الباطلة لبثت فى
جميع روما ، فأثبت لها بأنها مخطئة ! وهى تظن
أنها لم تكن إلا طليعة مهملة فأثبت لها بأنها مخطئة !

اسمع لى يا باريس وأنصت لى ! إن المدينة ذات
التلال السبعة تود أيضاً — فى عصرها المنحط —
أن تحمل أثرك كياقوتة ثمينة ...

باريس — (هازاً كتفيه)
أنكرت « أبا الهول » ماذا كنت تفكرين فيه ؟

ازابيلا — ولـكن ...

باريس — أجل ! ماذا كنت تفكرين فيه !

ازابيلا — (مغضية الطرف)
كان أجل آثارك

باريس — وماذا يهمك بعد هذا ذلك الصياح وتلك الأعمال ؟ يكفيك أن أثراً جميلاً خُلق . . .

ايزابيلا — ألا شيء بعده ؟

باريس — لا شيء

ايزابيلا — (بصوت منخفض) (إلى ارجانتى ومارسيللوس)

دعانا الآن وحدنا ! ينبغى ذلك ، إن كليوباطرة أضاعت ممالكها ، أما أنا فأريد أن أنقذ ممالك . . .

(ينسحب ارجانتى وملرسيللوس ، وتنفرد ايزابيلا بباريس ، وكان الليل يهبط رويداً رويداً)

المشهد السادس

باريس — أقول لك معاوداً مؤكداً بألا شيء أقوله لك .

ايزابيلا — (تدنو منه برقة وهوى)

ولكنه يجب ذلك ؛ كيف تأبانى حين أكلمك باسم قبلاتنا ؟ « لا المجد ولا الفن » كتابك الأول فى قلبى وفى ذاكرتى ، ووجودى كله كان يهتز لهذا القسم الغيور ! لماذا لم تأت بى معك إلى هنا ؟ إننى لأسمح عن تقلباتك وعن عتوك ، ولا أسمح عن غيابك ، وتريدنى ألا أتألم منك حين أسمع وقع قدميك .

باريس — قد كان يجب علىّ ؛ إذ كان يصعد إلىّ — من أعماق نفسه — نداء أكبر من الذى أحبه .

ايزابيلا — أى نداء ؛ بقرب أى نداء يتلاشى هذا النداء ؟

باريس — أصبح الحب أصغر من أن يحيط بأسرارى .

ايزابيلا — صه ! لا شيء أكبر من الحب ؛ عند ما يذكر على اللسان يظهر شحوب الموت على وجوه الرجال ، وإذا كان الشعر يثير السكون فذا لأن الشعر هو حب أيضاً .

باريس — لنجتنب الكلام عن الحب .

ايزابيلا — هذه المدينة التى تقدسك ، المدينة التى ما زلت أراها بعد رحيلى عنها ، أما تنبأت أنت عما يحتمل قلبى ؟ قبلاتى كانت أتم آثارك ، وعبثاً تمعن فى الفرار منها لاجئاً إلى هذه الأهرام ، إن هذه العصافير المبللة تعود إليك ؛ تعال فان ظل الشمس بدأ يحيا ، تعال نحيا ، تعال نتألم ، تعال نبدع ، تعال إلى الحب .

باريس — لا أريد ... لا لا ...

ايزابيلا — إن هنالك أشياء تخفق فى صدرى ، أنصت لى فأننى أمثل كل بطلاتك ، كل من تود ومن تريد ، إن دم « ايزولت » هو هنا يجرى فى ذراعىّ ، وهيلين أعارتنى صوتها الرنان ، وعندى عينا « بيرينس » لأعبدك .

تعال ، تعال ! إنى كصحيفة من رخام مهجور فقيرة إلى من يترك قلبى يخفق من أجله ، فقيرة إلى أن أحس فى حلقى الجامد أشعارك المظيمة المتوقدة تنبثق كالجزر فى اليم .

فكر ، لم يعد بى حياة ، اسمع لى ! أعد علىّ قلبى الخفاق ؛ وصوتى المنطلق ؛ انى أحتضر وشحوبى هو الدليل ؛ أعد لى قبلاتك ورواياتك .

باريس — (واضعاً يديه على جبينه) إننى جاهل الـهى ! هذا الصوت

ايزابيلا — هذه عبقريتك تتكلم فى أعماق نفسى .

باريس — ما تذوقت أبداً هاتين الشفتين الهائجتين .

ايزابيلا -- هذا هو دمى الذى يتحرك فى الليل لمصيرى .

باريس — لا ! دعينى .

ايزابيلا — (تضمه اليها) اسمع !

باريس — ايزابيلا !

ايزابيلا — لقد ملكتك ! إنى لأتمثل تلك الليلة من الصيف الأخير ، هل تذكر ؟ اذكر أيامنا الملتهبة إلى إيطاليا ، وقبلاتنا فى الشرفة الزاهية ، وذلك الكهل الذى كان يبتسم ، اذكر ذلك الكهل ! آه لقد كان فى عيوننا قبس من الشمس ، وكانت الأمسيات لطيفة ملأئة لهوانا ؛ ولكن مصر هذه تشبه شيخوخة العالم ، لماذا تنفر من بين ذراعى ؟ هنا أريد أن ألثمك ، هنا عن كثب من هذه الرمال القاتمة .

(فتحت النافذة ، وبدت ممنفيس ، النجوم ... الطبيعة . أبو الهول)

باريس — ايزابيلا !

ايزابيلا — الى أبى الهول الأعظم الذى ذرف عمره الى ألوف الأعوام ، وبلغ من الكبر ما يبلغ حظنا من القصر ، اليه ؛ الى أبى الهول تعال !

(قادته إلى النافذة المفتوحة وهناك فى الليل بدأت تهمس له)

ان النهار الأزرق جلبابه ينتهى الآن . والليل طفق يرصع عنقه بالكواكب ، والقطعان تؤوب الى حظائرها ، وهذا النخيل يشمخ ويتطاول كأنما يريد حمل السماء على أوراقه الخضراء ؛ وهذا صوت قيثار بعيد يصل كرجفة بيضاء . وهنالك على قيد خطوات ، فى الجيزة المتبخترة زهواً — نسوة ملتهبات متلويات الخصور يرقصن ويرددن بألحانهن الجديدة أهازيج الشمس والنيل ...

ماذا ؟ قلت : الشيخوخة ؟ ويقول : — هذا البلد ، بلد الشمس والرمال والشقاء ! هذا البلد — وهو فى حالة يأسه — يريد أن يحيط حبنا الجديد بوسائل زينته القديمة

لا تتمام عن هذه الليلة الجذابة الفتانة ، أنصت الى أصوات هؤلاء النسوة ينشدن بعيداً

تقول أغانيهن : الحب !

وتردد الصحراء : الحب !

ويرجع الليل العميق ، والبحر : الحب !

ويقول أبو الهول الجاثم على هاوية الرمال ، المسترسل للحلم استرسالاً أبديا : الحب ! نعم ! كل شىء يمضى ، وكل شىء كضباب زاحف على القمم . ولذلك ينبغى أن نحب بدون انتهاء ! فلنحب ...

إننا سنتلاشى فى الليل الذى يقترب منا كهذه القطعان التى نمد أجراسها ، لنحب إذاً ! لنحب حباً لا يفنى ولا يبيد ، وكل من لا يحب يقضى حياته سُدًى . وليشهد على حبنا هذا العملاق الراسى ذو الجناحين ، وليشهد على حبنا الفنى هيكله الأبدى .

باريس — (مرتعداً مضطرباً متأثراً) .

وأنا سالخ نفسى عن هذه الصحراء العميقة إذا انتزعتنى أيتها الالآهة البشرية ، إذا ... ولكن ما دام الأمل يلمع فى ناظرك الأزرق فأنا أقبل تجديد الصراع والمسرح ، وإذا ما نفيت ذلك عن نفسى فأى أثر أمنحهم الآن ؟

ايزابيلا — (برقة وفتنة) .

الآن !

باريس — أى شىء أستطيع أن أهب لهذه

الأفئدة التي تعبدني ، آثاري المحرقة تسكن هـذا الاناء ، وكل غباري الناري يرقد في هـذا الرخام الرمادي ، أما أبو الهول » ...

ايزابيلا — بأبي الهول ؟

باريس — الوحيد من آثاري ؛ الوحيد الذي خلد ، هو ذلك الذي طرحته أرضاً وأنا كالوحش وتقبله الشعب جميعاً بوجهه . بلى ! لقد مزقت كل شيء من هذه الصحف المسودة ، ولم يبق لي قصاصة منها .

ايزابيلا — (مادة إليه يدها بالأثر) .

هذا هو !

باريس — إلـهي !

ايزابيلا — نعم ؛ لقد قابلت هذه البقايا المبعثرة الحقيرة ، وأعدت الأثر كله ، فاستنقذت الأثر النفيس من النسيان ، وهكذا أيقظت أبياته ووقفت على أشعاره ، وهـذا بعض واجب المرأة أن تعيد نظام ما يبعثره الانسان ، أو تجد ما يبيده .

(ترفع الأثر الذي أنقذته)

ها هو الأثر المنقذ !

باريس — أهو ؟

ايزابيلا — هو الأثر الوحيد الذي ستستطيع بواسطته أن تجابه نقادك ! أترى أيها التاعس الذي دمعت عيناه كيف تأسف كفك على تمزيقه . والآن فلنرحل وليسبقنا ارجانتي !

تعال نتروح النسيم ، تعال ونذوق في السكينة الصخب الذي كانت تفطمك عنه روما ، عد لتعود شهيراً في بلد السرو ، ودع عنك هذا التخيل الهرم وهذه الطرق الطافحة غباراً ، وهذا النهر ، وهـذه الصحراء ، وأبا الهول الغريب !

(يهمان بأن ينطلقا متعانقين ، وفجأة ينفصل عنها باريس)

باريس — أصغي ، أصغي ، أصغي . هل تسمعين هذا الأنين ؟

ايزابيلا — لا أسمع غير هـــذا الريح التي لا يختلف ، يرافقها هدير النهر الـكبير .

باريس — آه يا إلـهي ، ما العمل ؟

ايزابيلا — لذة الليل تفتح لنا جوها ، وصدى قبلة واحدة قد يهيجها .

باريس — لا ! إنني أسمع نداء .

ايزابيلا — إنك لا تسمع إلا ندائي .

باريس — إنكِ — في الحقيقة — لست مهيأة لسماعه ، ولـكن أنا الذي أحيا وسط هـذه الرمال الذهبية ، ذا أذن مرهفة وقد سمعت كل شيء سمعته كصرخة سفينة ضالة ؛ تجوز الزمان والحدود والفضاء ... قبلتك ليست بشيء ؛ قبلتك تتلاشى حين أسمع — غامراً الصحراء متموجاً فوقنا — هذا النداء الذي ينازع كل شيء من أجلي .

ايزابيلا — كيف تسمعه ضد من يعبدك ؟ هل هنالك صيحة يستطاع سماعها بين قلبين متحابين يخفقان ؟

باريس — مهما تدانى قلبان فالقضاء يمشي بينهما ، بلى ، بلى ؛ المحى بعيداً ندك الخالد على الدهر هذا هو العملاق الذي يناديني . إنك تحدثيني عن القبل ! فـكري أيتها الابنة البعيدة عن الخاطر ، فـكري في كل ما تقوله إلـهة النيل . إنه يناديني إزاء النهر الذي لا يبيد . أهو إنسان أم وليد ؟ أم امرأة ؟

إنه أبو الهول : وهو الذي يعلم السر ، ويعلم لماذا خلقنا ولماذا نحيا . وحين نفكر في أنه يعلم كل ذلك أرانا نرتعش ! . . . إننا — بابتعادنا عنـه —

لن نحيا متجاورين معاً ...

ايزابيلا — صه !

باريس — لقد فررت من الأمل واللذة والطموح ، وأصبحت لا أهيم إلا بالانحناء عليه ، لاهدف لى سواه ! وحياتى تمضى خالية من الحب والأصدقاء ، والآلهة فارغة منك ، ومن الكتب لأن « آباء الهول » فى أجواز الصحراء يفارون من القليل — من الانسانية — التى تجرى فى نفوسنا كنت أخال أنه هدأ وسكن ، ولكنه قد أحس خطواتك المبطنة بالحب ، على هذه الطريق ، لقد شعر — ولا ريب — بخطر يداهم . فهو يناديني بلهجة أكثر عنفاً : « تعال » .

صوت أبى الهول من بعيد — تعال !

باريس — اسمعى صراخ هذه الشفة الهامدة ، هاهو يوقظ «مارسيللوس» المتلظى فى حُمّاه . لاشىء يقف دونه — قلت لك — لا شىء !

(يدخل مارسيللوس شاحب الوجه)

المشهد السابع

باريس ، مارسيللوس ، ايزابيلا

باريس — أسمعته أنت أيضاً ؟ لقد كنتُ هنالك بجانب ايزابيلا .

مارسيللوس — نعم ! وليس أجمل منه هذه المرة .

باريس — لقد كان صراخا رقيقاً مرناناً .

مارسيللوس — وواضحاً !

باريس — كان كآله خالد .

ايزابيلا — لم يكن ذاك إلا حفيف الريح بين الأوراق .

مارسيللوس — لا ، لا ؛ لم يكن ذاك بحفيف هواء ؛ كان أشد من ذلك .

باريس — هل أنت معتقد به ؟

مارسيللوس — كان يقول : « تعال » وقد سمعته جلياً ؛ اسمع أنت ، يجب علينا أن نوافيه ونسعى إليه ، لأنه سيكلمنا هذا المساء ... وذا شىء حقيق .

باريس — شكراً يا مارسيللوس ! إن نظرتك تزيدنى يقيناً ، إذ لم أكن واحداً فى استماعه ، ولكنه ...

مارسيللوس — يدعونا فى جوف الليل الخائف وكفه الضخمة الرمادية تقتحم السكون . إنه ينتظرنا يا أخى . إنه يحمل القمر على جبينه .

ايزابيلا — هل أنتما مجنونان حتى يختطفكما منا ؟ إن هو إلا تمثال بارد طوى ألوف السنين .

باريس — انه سيروى لنا لماذا نحيا على الأرض .

ايزابيلا — انكما ستصدمان الجبين بيكمه وخرسه .

مارسيللوس — إنه يفسر لنا العناية التى لم يشهدها أحد منا .

ايزابيلا — باطلاً يشير الانسان على تمثاله .

مارسيللوس — إنه سيبين لنا ما خبأته لنا الأقدار ، وبه نعلم لماذا خرج (لازار) من لحده شاحب اللون كأنه خارج من سرير .

باريس — وجهلنا يمزقنا ويحطمنا .

مارسيللوس — وعن أسرار الموت يحدثنا .

ايزابيلا — كفى ... كفى !

مارسيللوس — كلمات الغد الجديدة ؛ أريد أن أفهم كل هذا ، وان كان حتفى بذلك .

ايزابيلا — أيها الولد ! ان قلبك الغر لا يدرى


٧

ما يقول فى المسائل الكبرى ليس لها جواب ، وكلما زاد التنقيب فى السعى وراء حكم هوائى زادنا ذلك أننا لا ندرى شيئاً .

مارسيللوس — ولكنى سوف أنتزع من هذا المارد جواباً كاملاً .

ازابيلا — وان يك لغزاً فانه من حجر .

باريس — لا لا : فلقد رأيت جفونه ترتمش

ازابيلا — ذلك قلبك الذى يدق بالقرب منه .

مارسيللوس — وسمعك فى أعماق نفسى كلامه .

ازابيلا — ذلك فؤادك الذى زاد وجيبه ألا ينبغى الذهاب نحوه ؛ حقاً ان هذا الليل لرائع والفراغ المظلم يملأ الوادى . ولكن هنالك الحب ؛ هنالك النور ، والورود التى يداعبها الريح .

كنت تحبها قبلاً ...

باريس — أحببناها يوم كانت أفئدتنا هادئة . دعينا نمر !

ازابيلا — سيبزغ الفجر .

باريس — دعينا .

ازابيلا — هنالك حلاوة الوجود ولو لم يفسر معناه ؟ والصيف ؟ أليس هنالك الصيف الذى يسطع على الأكوان ؟

هنا لذة غدائر النساء الشقراء أيها الفتيان ! هنا لذة بأيدينا ! فلا تعدوا وراء أبى الهول فانه يقتلكما .

باريس — (آخذاً بيد مارسيللوس)

وأنت لم ترتجف فى حين مثل هذا الارتجاف ...

مارسيللوس — انى أفكر فى « سانتيا » التى ترقد هنالك . سرعان ما يخمد اللهب غالباً اذا ترك .

باريس — هلم لنعلم هذه الشعلة لماذا تلتهب ، ثم بعد يوم تخمد ؟ تعال ! فما أقصر هذا الغياب بالنسبة للغياب الثانى . انه سيقول لنا كل شىء . تعال !

ازابيلا — قفا ! فالدار بيضاء محفوفة بغراس الآس ، والريح تعول فى الليالى الأكثر ازعاجاً ، هنا خصائل النساء التى تلوح سوداء ؛ هنا الفن والحب والطرق المعجبة . . .

صوت أبى الهول — تعالوا . . .

باريس — اسمعيه يجيبنا

(فجأة تعصف الزوبعة ، والبروق تلمع خلل السماء وعلى ضوئها يلوح أبو الهول)

أبو الهول — تعالوا . . .

ازابيلا — (متعلقة بهما)

لا !

مارسيللوس — ان نداءه العالى يشق حنادس الظلام ، اننا نتبعه حتى أطراف العالم

أبو الهول — تعالوا . . .

باريس — لا نتردد ! لنمش من غير ارتعاش ولا وجل !

ازابيلا — ابقيا !

أبو الهول — تعالوا . . .

ازابيلا — ابقيا . . .

أبو الهول — تعالوا . . .

ازابيلا — ابقيا . . .

أبو الهول — تعالوا . . .

(يبدو من الشرفة أبو الهول يلمع عليه القمر ، ازابيلا تمشى ، ومارسيللوس وباريس ينسلان فى الليل بينما كان صوت أبى الهول يتردد)

(يتبع) خليل هنداوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد السابع — ٢٠ صفر سنة ١٣٥٦ — ١ مايو سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى



فهرس العدد

صفحة



— ١ —

كان أهل القرية يسمونه (البحبوح) لأنه كان غيثاً من الكرم يصيب الأيادي المنكودة، ونسيما من المرح ينعش الأجسام المجهودة، وشعاعاً من البهجة يغمر النفوس المظلمة. كان ابتسامه الدائم يفيض على وجهه البرنزي إشراقا من الروح العذب يجعله أقرب إلى البياض المشبوب؛ وكانت نكتته على طرف لسانه يرسلها في المناسبة الجميلة فتفجُر الضحك من الصدور الكظيمة، حتى وصفوه بأنه يضحك حجارة القبر!

كان جميل الهندام؛ يلبس الجلباب الأنيق المحكم على صِدار من الشاهي أو الجوخ قد زرّ لِفْقيه صفٌّ منضود من الأزرار الحريرية؛ ويضع على رأسه طاقية من القماش الأبيض المخرم قد أمالها قليلاً إلى الجهة اليمنى من رأسه؛ ويجعل في يديه المطرزتين بالوشم الأزرق خاتماً أو خاتمين من الفضة البيضاء والعقيق الأحمر؛ أما قدماه فكانتا حافيتين في الغيط، ناعلتين في القرية؛ وهو على أية حال كان مثال الظرف للشباب، ونموذج الفتوة في البلد

كان المهدي (وهذا هو اسمه) سمهري القوام، مجدول العضل، جريء الصدر، شهم الفؤاد، لا يتخلف عن الصف الأول في كل ما يصيب القرية من أعراس ومآتم ومعارك؛ فكان رابع ثلاثة من أقرانه اشتركوا في زعامة القوة، وانفرد كل منهم بموهبة من المواهب النادرة تجعله رجلَ وحدِه. فالمهدي يجيد الزمر في الأرغول، وأحمد يتقن غناء المواويل الحمر، وحسن يحذق النقر على (الدربكة)، وعلى يدير حفلات الأنس وغزوات الليل. وتقسموا على هذه المزايا، هوى الشبان وإعجاب الصبايا؛ فكان لكل منهم حزب من الجنسين يتعصب له ويهتف به وينقاد إليه، في غير وقاحة تُسقط حياء الفتيات، ولا خصومة تكدر صفاء الفتية

كانوا يدخنون الحشيش، لا لأنه حكم من أحكام (الكيف) ومرض من أمراض العادة، ولكن لأنه كان في زمنهم من صبوات الشباب ونزوات الفتوة. وكانوا هم وأتباعهم يسرقون القطن ليلاً من حقوله، لا لأن السرقة فيهم أثر من لؤم الفطرة، بل لأن قوى الشباب الجياشة كانت تحتدم في رءوسهم وتضطرم في نفوسهم فلا يجدون لها متنفساً ولا مفيضاً إلا هذه الغزوات الليلية يتحدّون فيها يقظة الحراس وسطوة الحكومة

كانت المزرعة البعيدة من مزارع (الأمير) تمسي وهي بيضاء تتألق باللوز المتفتح كما تتألق السماء الصافية بالكواكب الزهر، ثم تصبح وهي سوداء كأنها الأرض بعد الجراد أو الدار بعد الحريق؛ فيرغي (التفتيش) ويزبد، ويبرق (المركز)

ويرعد ، ودار المهدى تغنى وترقص وقد أولمت (للجدعان) الذين قضوا ليلهم فى العمل الجرىء وليمة سخية لا يقدم فيها غير الحلاوة الطحينية على (الصوانى) وفى (الأماجر) ؛ ثم يخرجون بعد المأدبة الى ضفاف الترعة الجارية فينامون على بساط النجيل ، تحت الصفصاف الظليل ، يغمهم عبير الفليّة والسِّمد ، وينفحهم نسيم اكتوبر المنعش وقد خلص من حرور الصيف الى فتور الخريف . ثم يستيقظون على أنغام الناى الحنون يرسلها المهدى فى الفضاء الصافى فتمتزج بأغانى القرويات الجميلات وهن يقطفن فى أحجارهن لوزات القطن العزيز

كان الناى أو الأرغول للمهدى كاللسان للشاعر أو الحنجرة للبلبل ، ينفخ فيه روحه ، ويصور به عواطفه ، ويرسل منه رسائله ، ويفعل به ما يفعله كوبيدون بسهمه . فهو فى النهار الروح الطروب الهائم فى هبات النسيم ، يرفه عن اللاغبين فى استراحة الطنبور ، أو ظهيرة المحراث ، أو وحشة الساقية ؛ وفى الليل رسول الطرب المتبوع فى حفلات الأعراس ، يجتمع هو ورفاقه الثلاثة فى دار العريس فيجتمع عليهم نساء البلد ورجالها وأطفالها يتمتعون بنغمات المهدى ، ورقصات على ، ونقرات حسن ، ومواويل أحمد

وكان الفتيات الناهدات يتكدسن فى دهليز الدار يتوسمن الوجوه الراغبة أو الخاطبة بعيونهن المسلية الحالمة . وكنا نندسُّ بينهن ونحن صغار فنسمع من بين شفاههن اللُّمس ذلك الاعجاب المتردد الهامس بأولئك الذين يدخلون السرور فى كل قلب ، ويبعثون الاعجاب فى كل نفس ، ويقذفون الرعب فى كل مكان خارج القرية . وكان المهدى على الأخص غرض الأنظار المسددة ، وموضوع الأحاديث المرددة ، وبغية كل فتاة منهن أن يكون خاطبها الموعود ورجلها المنتظر

لم يكن المهدى قارئاً ولا كاتباً ، ولكنه كان خيراً من القارئ والكاتب . كان يحسب قطنه قبل أن يضربه الوزان ، ويكعب أرضه قبل أن يقيسها المساح ؛ وكان يحل الأحاجى ويقسم الميراث ويعلم من الشؤون العامة ما لا يعلمه الشيخ عبد الجبار معلم القرية . جمع فى بيته مكتبة صغيرة من سيرة أبى زيد الهلالى وقصة عنترة بن شداد وكتاب فى المواويل وآخر فى الأحاجى والنكت ؛ ثم كان يلتمس المتقدمين من صبيان الكتّاب ، أو المبصرين من فقهاء البلد ، فيقرأون له ولرفاقه فى هذه الكتب حتى حفظ الأشعار والأخبار عن ظهر قلب . وأذكر — وما أجمل ما أذكر — أنى كنت أحب قرائه الى نفسه . ولولاه لما امتلأ ذهنى الصغير بمعانى الشعر وأساطير العرب وأناشيد البطولة

— ٢ —

نزحت الى القاهرة فى طلب العلم ؛ ثم كنت فى الصيف أعود الى القرية فأنسجم فى حياتها ، وأختلط ببنيها وبناتها ، فأغسل دمى بهوائها الطهر ، وأجلو شعورى بجوها المستنير ، وأهدهد أحلام مستقبلى فى مهد الطفولة

فى ذات صيف لاحظت أن بالمهدى مسحةً من هزال لا يعللها مرض ؛ ورأيت أنه قليل الدعابة كثير الوجوم ، يطرق أطراق المهموم ويذهل ذهول الشاعر . وأعجبُ أمره أنه آثر الأرغول على الناى ، ومال عن سير الحرب الى أقاصيص الحب ، وهجر مجالس الفتوة ، وحافظ على الصلوات الخمس فى أوقاتها وراء الإمام . فسألته ذات يوم وقد

جاءني بعد انصراف الناس يسألني عن الكتاب الذي يجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغني :

— مالك يا مهدي تغيرت بعض التغير ؟ أبك علة ؟ ألك حاجة ؟ فأجابني وقد استراح إلى موضوع الحديث كأنما أصاب به نفساً من كربه :

— علتي (ريّا) ، وحاجتي هي !

— ريا ؟ أتحبها ؟

— أموت فيها !

— ولم لا تخطبها إلى أهلها ؟

— يقول أبوها إنني أسرق غيطان الناس وأتعاطى الحرام ولا أصلي

— وماذا ترى أن تفعل ؟

— لا شيء . سيتركها خاطبوها إليّ ، وسيغير أبوها بالطبع رأيه فيّ

* * *

أنا أعرف ريّا ! وهل في قريتي الصغيرة من أجهله حتى أجهل ريا ؟ كانت وحيدة أبيها الحاج حسين ، فطبعها على الدلال ، ونشّأها على الدعة ، ووسع لها في الثياب والزينة ، وأعفاها من أكثر عمل الغيط والبيت ، فشبت على أخلاق المترفين خفيفة الزاد عزوفة النفس مرهفة الحس واهنة الأعصاب رقيقة البدن ؛ ولكنها كانت على الغاية من ملاحة الشكل وصفاء البشرة وعذوبة الروح وسحر [illegible] . وأبلغ آيات الجمال فيها عينان ساجيتان وأهداب وُطف ينبعث منها في القلوب ما لا تستطيع اللغة أن تسميه ولا العلم أن يصفه . فاذا خرجتْ ساعة الأصيل في أترابها الجيلات يحملن الجرار إلى النهر أو من النهر ، ميّزتَها في مقدمة السرب بقدها المشوق اللدن ، ومشيتها المختالة الموزونة ، وخلخالها الفضي اللامع من خلال ذيلها الهفهاف ، وجرتها المائلة في أناقة إلى يمين رأسها كأنها طاقية المهدي ، فلا يسعك إلا أن تصدق ما يقولون من أن أباها يضن بها على الفلاح الذي يبتذل جمالها في إدارة الطنبور وخدمة الماشية

* * *

— وكيف تلقاها يا مهدي ورأيُ أبيها فيك هذا الرأي ؟

— ألقاها كل يوم وهي تسقي الجاموسة من الترعة ؛ تتركها تبترد في الماء ثم تجلس إليّ تحت شجرة التوت فنتساقط أعذب الأحاديث من غرام وشكوى ؛ وأصاحبها وهي ذاهبة على حمارها الأبيض القصير ، تحمل الغداء إلى أبيها في غيطه البعيد ، حتى إذا قاربناه جلست على حوض الساقية أتعقبها بنظري حتى ترجع فأعود معها إلى القرية ؛ وفي بعض الأيام يذهب أبوها إلى السوق فأقضي معها ومع أمها ذلك اليوم السعيد ، لا يكل النظر المثبَت في النظر ، ولا يفتر الحديث المتصل بالحديث ، ولا نشعر بالمكان الذي يحصر ، ولا بالزمان الذي يمر ، ولا بالموعد الذي يقترب

وربما ظلت النهار كله مع أبيها في المزرعة تضع بذور القطن في الأرض ، أو تنثر حب الذرة وراء المحراث ، أو تنقي غلت الرز في وسط الماء ، فلا أستطيع أن أراها ؛ فأحاول أن أخفف بُرَحاء الشوق عن قلبي العميد بالنظر إلى حمارها وهو يتمرّغ في الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على عتبة الباب ، أو إلى عِجْلتها وهي تمشي متئدة أمام أمها إلى الترعة

أرجو ألا تضحك ! إن حبْ ريا قد صور لي الأشخاص والأشياء على غير الصورة التي تراها ؛ فأنا حقيقة أرى حمارها أجمل الحمير ، وكلبها أظرف الكلاب ، وجاموستها ألطف الجاموس ! إن في

كل أولئك شيئاً منها لا أعرفه . ولو كنت تعلمت لعرفت . !

لقد أحببت غير ريا ؛ ولكنه كان حبا غير هذا الحب . كان حباً لم يتعد السطح ولم ينفذ إلى ما وراء الاحساس فلم يغير فيّ عادة ولا صفة . أما حبها فقد خلقني خلقة أخرى ، حتى لألمس المهدى القديم في إهابي فلا أجده : أصبحت لا أميل إلى غزو الليل ، ولا أرغب في لهو النهار ، ولا أفكر في غير الخير . وفي بعض الساعات والخلوات أشعر أن في رأسي عالماً عجيب الألوان غريب الصور تموج فيه الزهور وتطوف به العرائس ، فأستغرق فيه استغراق الطفل في « صندوق الدنيا » ، وأحس سيلاً من المعاني ينهمر على لساني فأحاول الكلام فلا يعبر ، وأجرب الغناء فلا يجدي ، وأجد الأشعار التي حفظتها من عنترة وأبي زيد لا تصور ما في خيالي ولا تنقل ما في خاطري . ولذلك جئت أسألك عن الكتاب الذي أجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغني فإنها أقرب إلى ما أريد

***

لا تظن يا سيدي أني أزور لك كلام المهدى على عادة الكتاب ليطّرد الحديث على أسلوب واحد . الحق أن المهدى كان بذكائه وعقله كاتباً لا ينقصه إلا القلم ، وبخياله وحسه شاعراً لا يعوزه إلا القيثار . هذه هي معانيه لم أنقص منها ولم أزد عليها . ولو كنت أذكر اليوم ألفاظه لما ترددت في تسجيلها

انصرف المهدى عني وغاب فلم أعد ألقاه عندي ولا أراه عند غيري . فسألت عنه ذات يوم رفيقه أحمد صاحب الصوت الأبيض والموال الأحمر ، فقال وهو يبتسم في خبث ويشير في يأس :

— أوه ! إنه لا يكاد يفارق ريا ولا أهل ريا : يعمل مع أبيها في الغيط ، ويكاد يعمل مع أمها في المنزل ؛ وهو الذي يسقي الجاموسة ويعلف الحمار ويرعى شؤون الأسرة

— إذن قبل أبوها أن يزوجها منه ؟

— نعم ، قبل بعد أن تحقق أنه ترك الحرام وعزف عن اللهو وعكف على العبادة وأخذ عهداً على السيد القصبي . وهم الآن يرصدون الأهبة لحفلة العقد ، ويعدون العدة لزفة الزواج

— ٣ —

بيع القطن ومسحت على الجيوب الفارغة يد قارون ؛ ومست الشبانَ الأعزاب مواسُّ الهوى فذهب كل منهم يسمي لأهله البنت التي ضفر لها (الضفائر) واشترى لها (الفوايش) وأهدى إليها (الحلاوة) ؛ وأخذ الشيخ عبد الوهاب مأذون القرية يتنقل من دار إلى دار وتحت إبطه دفتره المريض وفي حزامه دواته النحاس ، يعقد العقد ويأخذ المنديل ويشرب السكر ويسمع طلقة البندقية التي تعلن عقد الزواج للفتيات المنتظرات حين يقول للعريس : « بارك الله لك فيها » ؛ وأقبل الزمار الصيِّت (أبو سعد) بطبوله ومزاميره ومهرجيه ، فلبث في القرية الساكنة أسبوعين جعلها فيهما صورة صغيرة من (مولد السيد) ؛ وتساءل الوافدون على الأفراح : أين المهدى ؟ لم يظهر في زفة من الزفات ، ولم يسهر في سامر من السوامر ! وكان العرف الجاري أنه هو الذي يقاول (الطبل) ، ويهندم العريس ، وينظم الزفة ، ويقترح الأدوار على (أبو سعد) ، ويرسم لموكب الزفاف الزائط مكان الوقوف وزمان الحركة . ولقد تحدثت المصاطب منذ شهرين أن زفاف ريا إلى المهدى سيكون افتتاح الموسم ، وأن شعراء (الربابة) ، ومنشدي المواويل ،

ولاعبي البرجاس ، وضاربي (الحطب) سيتقاطرون على البلد يؤدون إلى المهدي بعض ما أولاهم في سالف العهد من أياد وصنائع

— هل عندك يا علي خبر عن المهدي ؟ هل هو مريض ؟

— هو في أمان الله ، ولكن ريا مريضة

— منذ كم ؟

— منذ شهر

— وماذا تشكو ؟

— يقولون إنها (ممذورة) ، فهي لا تتكلم ، ولا تتبسم ، ولا تشتهي الطعام ، ولا تذوق الكرى . وقد عدتها بالأمس فوجدتها مسبوتة على الحصير ، زائغة البصر ، ساهمة الوجه ، ترفع يداً وتضع أخرى ، ثم تبكي من غير سبب ، وتنتفض من غير حمى ، ويدركها الذهول حيناً فتغمض عينيها ولا تتحرك . وكانت أمها على رأسها تروّح عليها ، والمهدي بجانبها يذب عنها ، وأبوها أمام الحجرة يدخن في تفكير وحزن ، فسألت أمها :

— كيف حال ريا اليوم ؟

— كما ترى . ولقد ذهبت اليوم ومعي منديلها إلى الشيخ فرج ؛ فقاس الأثر وفتح الكتاب ، ثم قال إنها ألقت ماء بالليل أمام الفرن ولم تبسمل ، فوقع على أطفال من الجن فركبها أبوهم . ولقد كتب لها حجاباً كبيراً حملناه إليها فحملته ، ورسم بالحبر أشكالاً في طبق ثم محاها بالماء وسقيناها إياه فشربته ؛ ولكن ريا لاتزال ذابلة ذاهلة ، لا يطمئن بها فراش ، ولا يسكن لها عصب !

— ولماذا لا تطلبون لها الشيخ عبد الجبار ؟

— لقد فكرنا في ذلك . وسيذهب المهدي بعد صلاة العشاء يدعوه

* * *

والشيخ عبد الجبار هذا ضرير في حدود السبعين نحيل الخيال لاصب الجلد ، ولكنه ممسور الجسم متين العصب . كان شيخ الفقهاء ومعلم الصبيان في القرية ؛ وقد تنفس به العمر حتى ربى جيلين من رجالها ؛ فكان يتمتع لذلك بنفوذ واسع واحترام عظيم . وكان وافر اللب شديد الدهاء رزين الطبع ، ثم أكسبته مزاولة التعليم على الأسلوب القديم سلاطة اللسان وخشونة اليد وقساوة القلب ، فقلما تخرّج من كتّابه متخرج دون أن تصاحبه عاهة في بدنه . لقد كان يضرب الصبي بالجريدة حتى يفقد الوعي ؛ ثم يتركه لأنه تعب لا لأنه أشفق . وكان إذا تهدد أو توعد ظهر غضبه المتسعر في مقلتيه الجاحظتين على رغم انطفائهما ، فلم أر أعمى يؤثر بعينيه غيره . وكانوا يسمونه (جلاد الشيطان) لأن الجن الذين يركبون الجبلات كانوا يرتعدون فرقاً من ظلمته . وليس الجن وحدهم هم الذين كانوا يرهبونه ، فقد كنا وكان الصبيان إذا مر الشيخ عبد الجبار في زعبوطه الأسود ، يده على كتف قائده ، ورأسه الدقيق غائب في عمامته الضخمة ، وخده الشاحب مصعّر للناس ، وأذنه المنصوبة مرهفة للغط الطريق ، وقفنا صامتين راهبين كأن جنازة تمر !

— ٤ —

لقد كنت وا أسفا من شهود هذا الحادث الفاجع ، فأنا أقصه عليك كما حدث . لا يزال على طول العهد حياً في ذاكرتي رهيباً في نفسي كأنه وقع أمس . والحوادث اليسيرة تجد خلودها في أعماق الحافظة الصغيرة ، فكيف بالحادث الجلل ؟

جاء المهدي بالشيخ عبد الجبار بعد صلاة العشاء إلى ريا ؛ وأقبل أهل الحارة ومن سمع من رجال القرية إلى البيت الحزين القلق يساهمون في

الرجاء والدعاء والأسف ، فملأوا الحجرة وشغلوا الدهليز وسالوا خارج العتبة . وكانت ريا ساهمة كأنها صورة الحلم الهنيء ؛ فلما دخل الشيخ عليها حملقت فيه بعينيها ثم صرخت صرخة شديدة ؛ فدمدم النساء آسفات وقال بعضهن لبعض : عرف جلاده ففزع ! ليت ذلك كان من زمان !

جلس عبد الجبار عند قدمي ريا ، وجلس بجانبه عريف الكتاب ومعه حزمة من جريد النخل المشذب المصقول مما يستمله في تأديب الغلاظ الشداد من «أولاد المكتب» ، ودواة من الخزف الأخضر ، وقلم من القصب الأبيض ، وخرقة بالية معقودة على شيء . ثم أخذ يسألها سؤال العارف :

— ماذا بك يا ريا ؟

— لا شيء يا سيدنا

فلما رأى سيدنا الصوت طبيعياً والجواب عاديا قال لنفسه وهو يسمع الناس :

— هيه ! لقد هرب ؛ ولا بد من استحضاره

ثم فك العُقدة عما في الخرقة فاذا هو فتات من اللبان والجاوى . ودعا العريف بموقد النار فوضع فيه البخور فأفعم أرَجه الحجرة . حينئذ أخذ الشيخ يتلو العزائم بصوت يشبه الدمدمة فلا يكاد يتبين منه حرف . ثم كان يتحمس عند بعض المقاطع فيشتد ويحتد ويذكر بعض الأسماء الغريبة ، حتى هيج دخانُ البخور وهمهمة الشيخ وازدحام الحجرة أعصاب المريضة المسكينة فاختلجت أطرافها اختلاجا أحسه الأعمى ، فأمسك عن التلاوة وأمر برفع الموقد وأشار إلى عريفه أن يبدأ العمل

تقدم العريف المجرب وتناول يدها اليمنى وكتب على ظفر إبهامها كلمة أملاها عليه الشيخ همساً ؛ ثم كتب كلمة أخرى على ظفر السبابة ، ثم على أظفار الوسطى والبنصر والخنصر ، وفعل باليد اليسرى ما فعل باليد اليمنى ؛ ثم تناول الرجلين متعاقبتين فكتب على أظفارهما العشرة ما أملاه الفقيه عليه . ثم أعلن بعد ذلك جلاد الشيطان أنه حبس العفريت في جسمها فلا يستطيع أن يخرج .

وانقلبت سَحنة الشيخ فجأة فاربد وجهه ، وجحظت عيناه ، وغلى دمه ، وصاح في غلامه :

— جاد ! هات (الفلقة) !

وجاء جاد بالفلقة فوضعها في قدمي ريا مكان الخلخال الفضي اللامع ؛ ثم شدها وأمسك من طرف وأمسك شاب آخر من طرف . واستلّ الأعمى جريدة من الحزمة وبرك على ركبتيه وبصق في يده ، ثم أنحى على المريضة المنهوكة ضرباً دراكا يهدم جسم الجان بله الانسان !

كانت ريا تصرخ صراخاً عالياً متوالياً من الضرب الموجع ، والقوم صامتون وفي سرهم الشماتة بالشيطان الذي يلتمس الرحمة فلا يجد ، ويحاول الهزيمة فلا يستطيع

تحطمت الجريدة الأولى فوقف عبد الجبار وأقبل بوجهه المتضمر على ريا الضارعة وقال في تهديد وحنق :

— هيه ! قل لي ما اسمك ؟

— ؟

— أمؤمن أنت أم كافر ؟

— ؟

— قل لي من أي القبائل والفصائل أنت ؟

— ؟

— أتعاهدني على تركها وأنا أسامحك وأطلقك ؟

— ؟

كان الأعمى يلقي هذه الأسئلة المتحدية على العفريت الأسير في جسم ريا ، وريا تئن أنيناً متصلاً

فى استرخاء وخفوت وضراعة ، والقوم حولها ينتظرون إجابة الشيطان وأبصارهم شاخصة وأنفاسهم معلقة ، والألسنة خارج الحجرة تتناقل صمته الغريب فى همس وعجب ، والشيخ عبد الجبار يحدّق بعينه البيضاء فى عين المصباح الخافت ويقول : يا سلام ! ما رأيت أعند من هذا الملعون ! يا جاد ! هات الجريدة الثانية !

وشد الفلقة جادٌ من جديد ، وبرك الشيخ الجبار على ركبتيه من جديد ، ثم شرع يدق القدمين النحيلتين دقاً عنيفاً بالجريدة الثقيلة ؛ وهبت قوى الفتاة المذخورة تدافع الألم الممض بالصراخ الدامع والاستغاثة المبتهلة :

— أنا فى عرض النبي ! أنقذيني يا أماه ! أغثني يا مهدى ! أنا أموت ! ليس على شيء ! آه !

لم يجد هذا الهتاف المؤلم سمعاً من أحد ؛ لأنهم يعتقدون بإخلاص أن المارد العنيد يخدعهم عن نفسه ، وأن ريا الحقيقية النائمة فى غلاف من العفريت لا تدرى ولا تحس . وكلّت يد الجبار من الضرب فحل محله شاب قوى . وتحطمت الجريدة الثانية والثالثة ، وجلاد الشيطان يعيد الأسئلة بين فترة وفترة فلا يسمع إلا الجواب الطبيعى أو الأنين المستسلم

وزاد عجب الناس من عناد الجنى الكافر ، واشتد سخط المهدى على هذا الرجيم الذى غلبه على حبيبته ، فتناول الجريدة الرابعة ووقف بجانب الأعمى وقد كان يهمهم ويدمدم ، وأخذ يلهب قدمى حبيبته المعبودتين بالعصا المضرسة المبرومة ! وريا .. أوه ! لا تسلنى حينئذ عن حال ريا . إن فى بعض مظاهر النفس ودلالات الملامح ما يقف أمامه البيان الانسانى أبكم لا ينطق وعيياً لا يبين . وماذا عسى اللفظ المعنى الجامد أن يصور لك حال ريا وقد فتحت عينيها الداميتين فوجدت المهدى — ملجأ فزعها ومرقأ دمعها — يصب على جسمها الناحل هذا العذاب ؟

لم تعد ريا تصرخ ولا تستغيث ، وإنما كانت تنتفض للضربة والضربة انتفاضة الملسوع ؛ ثم ترسل مدامعها الغزار فى صمت ، وتقلص شفتيها الرقيقتين فى مضض . ووقعت عين المهدى على هذا الوجه الشهيد المحتضر فاسترخت يده وارتمى على الأرض مستخرطا فى البكاء . فانتهر عبد الجبار هذا الضارب الخرع وتناول الجريدة وصاح :

— جاد ! أعد نظرك فى الأظافر فلعل بعضها قد امّحت عنه الكتابة فيهرب

ففحص العريف أطراف البنان المرسلة وأصابع القدمين الممزقة ، ثم قال فى اطمئنان الواثق بعمله :

— الكتابة سليمة يا سيدنا

حينئذ أخذ الجبار يفكر فى عذاب آخر ، ولكنه أراد أن ينذر به الجنى قبل تنفيذه ؛ فزحف حتى بلغ رأس المريضة ، ثم ألصق فمه بأذنها وأخذ يسارُّه . ولكن ما باله ارتبك ؟ إنه ولا ريب لاحظ كما لاحظ القوم أن ريا تنسم نسما لا يكاد يظهر على المرآة ، وأن العفريت مهما عُذب لا يخمد هذا الخمود ، فأحس الخطر وتوقع الكارثة . وأراد الخبيث أن (ينقذ الموقف) كما يعبرون فقال :

لقد وعدنى أن يشاور نفسه ؛ فدعوه الآن هادئاً يفكر حتى يصبح الصباح !

* * *

وفى الصباح ذهب عبد الجبار وادعاً يفتح الكتّاب ، وذهب أبو ريا هالعاً يفتح القبر !

ومنذ ذلك اليوم المشئوم مات المهدى الذى عرفته فى أول القصة ، وعاش فى جسمه المهدود مخلوق آخر لا هو شخص ولا هو شيء !

الزيات



لا أدرى إلى هذه الساعة كيف أمكن أن أدع هذا يحدث . . ولو أن أحداً تنبأ لى به : قرأه فى فنجانة القهوة ، أو طالعته سطوره من الخطوط التى يرسمها بأصبعه على الرمل ، أو تبينه من اجتماع ورقات معينة وهو ينشر الورق كله أمامه ، أو من تقارب بعض الودعات وهو يلقيها من كفيه على الأرض — أقول لو أن أحداً تنبأ لى بهذا وأنا صبى لكان الأرجح ألا أصدق ، ولكان المحقق أن أدفع جبينه بأصابع يمناى وأقول له : « نحْ » فقد كنت فى حداثتى « شقياً » جداً . وكانت امرأة عمى تكرهنى وتزعم أن كراهتها راجعة إلى « شقاوتى » ولكنى — حتى فى حداثتى — كنت أدرك أن كرهها لى سببه أنى فقير وأن عمى يعولنى ويكفلنى ، فقد مات أبواى فى طفولتى . وكان عمى ضعيفاً لا يستطيع أن يخالف لزوجته إرادة أو أن ينهد لها فى أمر . فتركها تحرمنى التعليم الحديث وترسلنى الى الأزهر « مجاوراً » ضناً منها علىّ بأكثر من القوت الضرورى والكسوة التى لا غنى عنها . وكانت تفرق بينى وبين بنت عمى التى كنت — ومازلت — أحبها ، فكنت أقضى ساعات الدرس والنوم فى المنظرة لأن امرأة عمى لا تأذن لى فى الصعود إلا فى الأعياد — لتقبيل يدها — وكنت أرى بنت عمى تذهب إلى المدرسة السنية ومعها خادمها يحمل لها الكتب والكراريس وعنمنى أن أكلها فى الطريق إطاعة لأمر « الست » فأكاد أجن من فرط الحب والغيرة والشعور بما أنا فيه من المهانة والتحقير . وأحسب أن كراهة امرأة عمى لى وحبى لبنتها هما اللذان جعلا منى رجلاً مستقلاً وأغرياني بما صنعت ، فقد تحولت من الأزهر إلى دار العلوم ، وقد دفعنى إلى ذلك أمور منها أن مستقبل الطالب فى دار العلوم معروف ، وأن الطالب فيها كان يأخذ فى الشهر جنيهاً على سبيل الاعانة . فتحولت إلى دار العلوم كما قلت من غير أن أراجع عمى أو أستشيره ، وصبرت على ذل العيش كالخدم فى بيت عمى شهوراً ، وادخرت الجنيهات التى قبضتها من المدرسة فى أواخرها ، ثم تركت البيت واستأجرت غرفة شاركنى فيها طالب آخر وفرشناها بألزم ما يلزم وأقمنا فيها . ويكفى بياناً لما فررت منه أن أقول إن بنت عمى هى الوحيدة التى افتقدتنى وشعرت بانقطاعى عن البيت ، وكان الحب بينى وبينها متبادلاً ؛ فلما لقيتها وحدها مرة وأخبرتها الخبر فرحت وأثنت على وشجعتنى

ولا أطيل — تخرجت من دار العلوم وأصبحت مدرساً أتقاضى فى الشهر ثمانية جنيهات لا واحداً فقط ، وعينت فى مدرسة بنها الابتدائية ، ويشاء الله أن يعين عمى وكيلاً للمديرية فلولا كراهة امرأة

عمى لى لوسمعنى أن أقيم مع عمى فى بيت واحد ، فقد صرت أستطيع أن أؤدى نفقات معيشتى وتكاليف إقامتى ، ولكن هذا لم يكن ميسوراً . على أن استقلالى لم يثقل على نفسى ؛ وكان يسرنى على العموم أنى صرت أستطيع أن أزور بيت عمى زيارة من لا يحتاج إليه ، ولا يطمع فى شىء منه ، وأن أرى « زكية » وأمشى معها فى حديقة البيت — خاسة بالطبع — وأن أبثها حبى الذى لم تخمد وقدته الأيام

وكنت شيخاً — بعمامة وجبة وقفطان — فقالت لى زكية يوماً : « لماذا لا تغير هذه الثياب ؟ »

فلم أفهم وقلت : « أغيرها ؟ .. وما عيبها ؟ »

قالت : « البس ثياب الأفندية . . . كأبى »

قلت : « اسمحى لى أن أقول إنى لا أحب أن أكون كأبيك »

قالت : « أعرف ذلك .. إنه ضعيف ولاشك .. ولكنك لا تقلده هو إذا اتخذت ثياب الأفندية . كل الناس يلبسونها .. »

قلت : « لا أدرى هل تسمح لى الوزارة أو لا تسمح ؟ . ولست أحب فى فاتحة حياتى الجديدة أن أتعرض لخلاف فى هذا الموضوع »

فتركت كل هذا وقالت : « إنى أريد ذلك . . يسرنى أن تفعله . . ألا تحب أن أكون مسرورة بك ؟ ... سيد ! ! ... من أجلى أنا ! ... »

فلم يسعنى أن أظل أعترض بعد هذا . وأعددت عدتى لتغيير الثياب ، وكانت كلفة هذا التغيير كبيرة ، وكان هذا هو الذى يصدنى عن التغيير . أما الوزارة ورأيها فقد أبقيت لها ثياب الشيوخ ألبسها فى المدرسة ، وأخلعها حين أغادرها ، وبذلك اتقيت غضبها المحتمل ، فما لها شأن بى بعد أن أفرغ من واجبى وأذهب الى بيتى . ولن ترانى زكية شيخاً لأنها لا تذهب معى الى المدرسة فأنا لا أبدو لها الا أفندياً كما تحب

وكانت هذه بداية الشركله ، فقد قالت لى يوما وهى تسير معى فى الحديقة : « اسمع يا سيد ! لماذا تهمل الألعاب الرياضية فى المدرسة ؟ »

فالتفت اليها مستغرباً وقلت : « أهملها ؟ . . ماذا تعنين ؟ »

قالت : « أعنى أنك لا تشترك فيها ... تترك تدريب التلاميذ لهذا الأمى . . . انه أمى فى الواقع وان كان يكتب ويقرأ ... هو جندى لا أكثر وقد يكون أقل من جندى »

فقلت : « وهل تريدين أن يتولى تدريب التلاميذ على الألعاب الرياضية فيلسوف ؟ »

قالت : « لا ، ولكن الروح الرياضية لا يبثها إلا متعلم »

قلت : « ولكن ماذا أصنع ؟ . إن هذا ترتيب وضعته الوزارة ولا شأن لى به »

قالت : « الوزارة لا تمنعك أن تعنى بتلاميذك وتتطوع لمساعدتهم »

وابتسمت لى ، وانهارت حصون المقاومة . وأحسب أنا معشر الرجال ضعاف . ولم تتركنى فى ذلك اليوم حتى بذلت لها الوعد أن أعنى بالألعاب الرياضية وأن أتطوع لمساعدة التلاميذ

ولم يكن الأمر سهلاً فقد كنت فى المدرسة شيخا ، وعسير على من يلبس ثياب الشيوخ أن يشترك فى ألعاب . وخليق بمنظرة حين يتحول من شيخ فى قفطان سابغ وجبة تفيض عليه الاحترام والوقار ، وعمامة مكورة ، إلى رجل نصف عار فى قميص قصير وسروال أقصر ، أن يضحك التلاميذ

ويغريهم بركوبه بالمزاح والعبث ، ولا بأس بالألعاب الرياضية ولكن البأس كل البأس أن أصبح موضع استهزاء . ولم يكن يسعنى أن أتقدم إلى الناظر معرباً عن رغبتى فى التطوع لمساعدة التلاميذ على شىء لا أحسنه أنا أولا ، ولا تجمانى ثيابى صالحا له ثانياً . لهذا عدت إلى زكية وقلت لها إنى نويت أن أغير ثيابى رسمياً أولاً ، وأن أتدرب على هذه الألعاب ثانياً ، فدهشت وقالت : « تغيرها ؟. أو لست قد غيرتها ؟ . ألست تلبسها ؟ »

قلت : « الجواب نعم ولا ... ألبسها خارج المدرسة وأنضوها فى المدرسة وأعود شيخاً »

قالت : « ولكن لماذا ؟ .. ان هذا ... هذا ... لا مؤاخذة ... جبن ... لا يليق بك ... إنى أحب أن تكون شجاعاً »

فلم يسعنى إلا أن أكون كما تحب — شجاعاً

ومن الغريب أنى لم أجد أثراً لما كنت أخشاه فقد استبشر الناظر ، وكان رجلاً وقوراً جريئاً كريماً على نفسه وعلى رؤسائه ، فقال لى : « إنى أراك فى الخارج أفنديا ، واحسب ان التلاميذ يرونك أيضاً ، فلماذا لا تكون أفنديا دائماً ؟ . . أما الوزارة فلا أرى أن لها شأناً ، ثم إنك هنا فى بنها بعيد ، ومع ذلك من الذى يعرفك ؟ . على كل حال ضع القوم أمام الأمر الواقع »

ففعلت ، وبقى التدريب الرياضى ؛ فخطر لى ان أستعين بالمعلم الأمى — كما تصفه زكية — ولكنى آثرت أن أستشيرها أولاً ، فنهتنى عن الاستعانة بمعلم المدرسة ، وقالت : « يجب أن تظهر لهم جميعاً أستاذاً كبيراً حتى فيما كان الظن أن تجهله »

فسألتها : « ولكن من إذن يعلمنى ؟ »

قالت : « لا تحمل هماً . . . سأبعث أنا إليك بالرجل الذى يعلمك ... دع هذا لى »

فتركتها وأنا أحدث نفسى أن فى زكية مشابه من أمها ... أعنى انها ورثت قوة الشكيمة والارادة

وجاءنى يوماً جندى من جنود البوليس وكان مارداً ضخماً مفتول العضل ، ولم أكن دونه جسامة ، فحيانى كأنى ضابطه ، ثم شرع يجسنى كأنما كان يخشى أن أكون مصنوعاً من الجبن الطرى . ثم ربت على كتفى وقال : « عفارم » كأنما كنت قد صنعت نفسى !

ولا أطيل ... بدأ التدريب بكل أنواعه حتى بأثقال الحديد ، وكنت لا أفهم لماذا كل هذا ، ولكن زكية كانت ورائى تستحثنى وتشجعنى ، وكانت امرأة عمى قد سافرت الى مصر ، فصار فى وسع زكية أن تخرج معى أحيانا للتنزه على النيل وكانت سافرة لا تحتجب ، وكان قد عُرف أن عمى وكيل المديرية ، فالذين يرونها معى يعلمون أنها بنت عمى ، فلا بأس من خروجها معى . وانتقل التدريب من البيت — حيث بدأ — الى مخفر البوليس حيث الأدوات التى صرنا نحتاج اليها ولا سبيل الى نقلها ، مثل المتوازيين « والحصان » والعقلة وما إلى ذلك ، واتقنت كل هذا فقد أحسست من نفسى إقبالا عليه ورغبة فيه ، وسرنى أن ذهب اللحم المترهل وأنه اكتنز وصار عضلا قويا . وكان معلمى يأبى كل جزاء أو مكافأة ، وكنت أعجب لهذا ولا أرتاح اليه ، فان كون وكيل المديرية عمى لا يبيح لى أن استغل الرجل على هذا النحو ، غير أنه كان يؤكد لى أنه يجد سروره ولذته فى تعليمى فكنت أسكت ولا أفهم . وأنى لى أن أعرف أن بنت عمى هى التى تدفعه وتجزيه ... ؟

وقال لى الرجل يوماً : « إنك يمكن أن

يكون منك ملاكم عظيم »

فسألته : « ملاكم ؟ »

قال : « نعم ... ليس أسهل من هذا ... لماذا لا تتدرب على الملاكمة ؟ »

قلت : « ولكن لماذا .. ما الداعى ؟ »

« قال : لم لا ؟ ... »

فلم أر بأسا ... ولم لا — كما قال — وكنت قد شغفت بالرياضة بعد أن أتقنتها وحذقتها وبرعت فيها وصرت موضع إعجاب زكية ، ولكنى قلت للرجل : « إسمع يا صميدة (وكان هذا اسمه) إنى معلم ، ولا يليق لى أن أظهر للتلاميذ بأنف مبطط أو شفة أو عين وارمة سوداء ، فاذا كان لا بد من الملاكمة فلا تضربنى بشدة »

فقال : « إن الخوف علىّ منك لاعليك منى »

فسرنى هـذا وأقبلت على الملاكمة أتعلمها بسرعة ، وكان صميدة يقول لى إن مزيتى رجلاى : أى أنى سريع الحركة خفيفها جدا ، وأن هذه المزية خليقة أن تفسد على أقوى الخصوم مزاياهم الأخرى . فلما سمعت منه ذلك صار همى أن أحسن استغلال هذه المزية الى أقصى حد وأبعد مدى

وصرت ملاكما — كما شاء الرجل — وكنت فى أثنـاء ذلك قد تطوعت للمعاونة على تدريب التلاميذ ، ثم صرت أنا الـكل فى الـكل — كما يقولون — ولم يبق لمعلم الألعاب إلا الخدمة ، فما كان يحسن شيئا فى الحقيقة — أعنى شيئا يستحق الذكر — وفرح الناظر بذلك ومدبصره الى آخر العام الدراسى ، وراح يتصور الحفـلة الرياضية التى سيقيمها ويدهش بها رؤساءه فى الوزارة . وكان لا ينفك يحدثنى عنها ويطلب رأيى فيما ينبغى أن يكون فيها ، ويقول لى إنه يريد أن يدعو فلانا وعلانا ، وترتانا ، من الرؤساء ، ومن رجال الادارة ومن الأعيان وآباء التلاميـذ الى غير ذلك . وأنا مكب على عملى واثق أنه سيرفعنى فى الوزارة درجات

وقالت لى بنت عمى يوماً : « لماذا لا تبتكر شيئا ؟ علم التلاميذ الملاكمة . ألف فرقة منهم لها .. تصور وقع هذه المفاجأة فى الاحتفال السنوى .. »

قلت : « فكرة والله .. ولـكن هل يوافق الناظر ؟ لابد من موافقته كما تعلمين »

قالت : « أوه ... الناظر ! ... كلما قلت لك شيئا تقول لى الناظر ؟ ... هل تتصور أن الناظر يسوؤه أن تبيض وجهه ؟ .. كون الفرقة وفاجئه هو أيضا بها .. »

ففعلت . وكنت فى أول الأمر أستعير قفازات الملاكمة من ملعب البوليس ، ثم رأيت أن أذهب بالفرقة التى انتقيت أفرادها من كبار التلاميذ الى ملعب البوليس ، فلما دنا العام من ختامه كان بعض أفراد الفرقة صالحا للعرض الى حد ما

وكنت أنا فى خلال ذلك مواظباً على التدريب لا أنقطع عنه ولا أقصر فيه ، فاتفق يوما أن لكمنى صميدة على حنكى لـكمة قوية على خلاف عادته ، فآلمتنى وأحسست الدم يصعد إلى رأسى من فرط الغضب والغيظ ، وانهلت عليه غير عابئ أو مترفق وكنت أتوقع أن يثور بى كما ثرت به ، ولـكنه لما أحس وقع اللـكمات ابتسم ونأى عنى وقال : « يكفى .. يكفى .. الآن اطمأن قلبى »

فوقفت وسألته : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « لا شىء .. أردتُ أن أجربك . الآن صرت ملاكما . تستطيع أن تنازل من شئت »

فابتسمت مسروراً وإن كانت منازلة أحد من الناس لم تجر لى فى خاطر فما كنت أتعلم من أجل

ذلك بل من أجل ما أرانى أفيده من اللذة والسرور

ودنا الموعد الذى تقام فيه الألعاب وكنت قد أعددت برنامجاً حافلا ، فسألتنى زكية :

« كيف نسيت الملاكمة ؟ »

قلت : « لم أنسها . سيتلاكم أربعة من التلاميذ — كل اثنين معاً »

قالت : « أتظن أن هذه ملاكمة ؟ هذا لعب »

قلت : « هل تريدين ملاكمة جدية بين هؤلاء الأطفال ؟ »

قالت : « سيفعلون كل ما يقدرون عليه ، واعتقد أنهم لن يقصروا ولكن هذا لا يكفى . . يجب أن تكون هناك ملاكمة جدية بين رجلين »

فلم يسعنى إلا أن أسألها وأنا أضحك : « ومن أين نجىء بهما بالله ؟ »

قالت : « إذا كان هذا كل ما فى الأمر من صعوبة فدعه لى »

فسألتها كيف تنوى أن تدبر الأمر ؟ فقالت : إن عمى يمكن أن يقترح على المدرسة أن تسمح بأن يضم إلى البرنامج فصل فى الملاكمة بين اثنين من الجنود . فاعترضت بأن هذه حفلة مدرسية لا علاقة لها بالبوليس وأن الناظر خليق أن يرفض ، فقالت : « مالك أنت ؟ دع الأمر لى ولن تخسر شيئاً . إذا أبى ناظرك ، فاذا قبل فان نجاح حفلتك يكون باهراً . ألا ترى أنى أريد لك الخير ؟ »

فشكرتها — أعنى قبلتها — ومضينا فى الاستعداد . وكان الناظر لفرط اهتمامه بالحفلة قد أخلانى من الدروس فانقطعت لتدريب التلاميذ وتنظيم الأمر . وكان يضحكنى أحياناً أن شيخاً معمماً مثلى ينقلب فى شهور بطلا من أبطال الرياضة البدنية . وكان الناظر ربما مازحنى وقال : « والله فلحت يا شيخ سيد » فأقول : « والله يا حضرة الناظر ما كان لى هذا على بال »

ولو استطعت لقلت له إن الفضل لبنت عمى زكية

* * *

وجاء يوم الحفلة بعد طول الاستعداد — أى العناء — فقد كانت تلك الأيام أيام جهود متواصلة من الصباح إلى المساء ؛ وكان أشق ما فيها أن زكية وصميدة كانا يصران على استمرار تدربى على الملاكمة كأنما كنت سأحترفها ، أو كأنما أصبحت حياتى رهناً بها وبمبلغ إتقانى لها . وما أكثر الليالى التى عدت فيها إلى البيت وانطرحت على الفراش ونمت إلى الصباح — بثيابى — كالقتيل

وأقيمت الحفلة على ما رسمنا ورتبنا . وكان المدعوون حشداً كبيراً من الموظفين والأعيان والرؤساء فى وزارة المعارف . وكان الناظر بادى السرور ظاهر الاغتباط ؛ ولكنى كنت أتوقع أن يكون استقبال المدعوين والتلاميذ لتلاميذى الملاكمين خيراً مما كان وأكرم ، فقد كان هذا جديداً فى ألعاب المدارس ، وكان تلاميذى جديرين بالتشجيع والعطف ، لا بهذا الصمت العميق أثناء الملاكمة وذلك التصفيق الفاتر بعد انتهائها . ولم أرتح إلى هذا الفتور ، وشق على أن يكون هذا جزاء تلاميذى . ومن غيرى يعرف مبلغ ما تجشموا واحتملوا وبذلوا من الجهد فى سبيل الاستعداد لهذه الحفلة ؟. ولا عجب إذا كان فتور المتفرجين قد أعداهم ، فقد كانو يحركون أذرعتهم ببطء وفى استرخاء ، وكنت أحرضهم وأستحثهم بالاشارة

فلا يزيدون على الابتسام ، ثم يستأنفون تحريك أيديهم كأنما هم يسبحون فى الماء . فلما انتهوا صفقت لهم بشدة ، ولكن الفتور العام أخجلنى ، فكففت فجأة وهوت يداى إلى جانبى

وكانت الملاكمة الجدية بين اثنين من رجال البوليس هى المشهد التالى والأخير فى البرنامج . وأحسب أن انتظارها هو مبعث هذا الفتور الذى كان من نصيب التلاميذ ، فما كانت ملاكمة هؤلاء إلا لعباً . فظللت واقفاً فى مكانى وراء منصة الملاكمة أنتظر أن يجيء صميدة بالمتلاكمين ويقدمهما الى الجمهور ، فقد كان هو الحكم . فجاء صميدة ولكن وحده ، ولمس كتفى بأطراف أصابعه فالتفت اليه ، فدعانى أن أتبعه . وكان هناك ستار وراء المنصة وغرفة لتغيير الملابس ، فقال لى وقد أصبحنا بمعزل عن الجمهور : « ما العمل ؟ » فهززت رأسى مستفهماً ، فقال : « إن الجندى الثانى مريض فهو لا يستطيع أن يحضر »

ودخل فى هذه اللحظة الجندى الآخر وصدره عار ، وعليه غابة من الشعر ، وقال بصوت عال لا يخلو من السخرية والاعتداد بالنفس : « أين هذا الهراب يا صميدة ؟ »

فلم أرتح الى منظره البشع ، ولم يحسن وقع لهجته فى نفسى ، فنظرت إليه كما ينظر الانسان الى شيء قذر ؛ ثم حولت وجهى عنه فقد دخلت فى هذه الساعة زكية ووراءها الناظر

وقال صميدة : « ما العمل ؟ »

وقالت زكية : « ألا يمكن أن تنازله يا سيد ؟ »

فبهت ووقف لسانى فى حلقى ، وجف ريقى ، لا من الخوف بل من الدهشة .

وقال صميدة : « والله فكرة ! ... أحسن حل ... بالطبع يمكن ... »

وربت الناظر على كتفى وقال : « برافو ، برافو ! والآن عجلوا »

وهم بالرجوع فاستوقفته وصحت به : « ولكن يا حضرة الناظر هذا مستحيل ؟ .. كيف يمكن ؟ .. »

ولكن زكية قاطعتنى وقالت : « بالطبع يمكن . إن صميدة يؤكد أن فى وسعك أن تأكله ... لأجل خاطرى ! ... لا تخيب أملى فيك ... قل إنك تقبل »

وابتسمت لى . وكان الجندى الملاكم ينظر إلينا وينتظر ، ويداه فى خاصرته ، وعلى وجهه ابتسامة زراية واستخفاف لا تطاق . وأظن أن هذه الابتسامة الثقيلة هى التى دفعتنى الى القبول والرضى لا الابتسامة الحلوة الساحرة التى جادت على بها زكية ، فهززت رأسى أن نعم وعينى على الجندى

وما أسرع ما خلعت ثيابى وألقى على جسدى صميدة شيئاً كالبرنس ، فما كان لى وعى ، ولا كنت أفكر إلا فى الظهور أمام تلاميذى وأمام رؤسائى فى الوزارة ، ملاكما ؛ ولم يكن ما بى خوفاً وإنما كان خجلا . وكان صميدة يدفعنى ويربت على كتفى . ودخل الجندى مزهواً منتفخاً ودخلت وراءه مطأطأ الرأس من فرط الاستحياء . وقابلنا الجمهور مقابلة حارة . ثم نهضنا وتصافحنا ، ولكن خصمى زاد على ذلك أن لمس ذقنى بقفازه وابتسم ، فملا الضحك ، فأحسست أن دمى يغلى فى عروق من الغضب ، وهل مما يحتمل أن يجعلنى هذا الجلف أضحوكة وعرضة استهزاء ؟ . . واغتنمت فرصة سنحت لى فلكمته بقوة — على أنفه — ولم يكن هذا ذنبى فقد كان أنفه كبيراً يغرى باللكم ؛ وأحسب أن اللكمة كانت عنيفة فقد دار وتطرح ، ثم أقبل

على كالوحش المفترس ، فتذكرت ثناء صميدة على سرعتى وخفة حركتى ، وذهبت أحاوره وأداوره بخفة وسرعة لم أعهدهما فى نفسى من قبل ، وقد نفعنى ذلك فانتهى الشوط الأول من غير أن يصيبنى أذى

وكنت أنتظر أن ألقى من المتفرجين تشجيعاً ، ولا سيما من تلاميذى ، ولكن الشوط الثانى بدأ والكل صامت ، وكان خصمى مغيظاً محنقاً ، لا أدرى لماذا ، فانهال على كالصخرة ، ولكنى كنت أسرع مما قدر ، فلم يبلغ منى شيئاً . ويظهر أن هذا زاده سخطا وغيظا ، فقد صاح بى بأعلى صوت : « ألا يمكن أن تقف فى مكان ؟ . . إن المرء يحتاج الى موتوسيكل ليلحق بك »

فانفجر المتفرجون ضاحكين . فلم يبق لى عقل فقد كان ضحكهم علىّ ولا شك . ووقفت وثبت له فأقبل يريد أن يلكمنى ، فانحرفت قليلا لأتقى الضربة فراحت فى الهواء ، وفى هذه اللحظة التى انحرفت فيها ، سمعت صوتاً يصيح : « عليه ! . عليه ! . اقتله » وكان وجهى بعد أن انحرفت قد صار الى الجمهور فلما رفعت رأسى رأيت — تحت عينى — عمى واقفاً يلوح بيديه فى الهواء ويصيح : « عليه ! . عليه ! . اقتله . »

ولا أدرى إلى هذه الساعة أكان عمى يحضنى أنا على القتل ، أم كان يحض خصمى على الالواء بى ، ولكن الذى أدريه أن البقية الباقية من عقلى طارت ، وذهبت مع الرياح الأربع . ودرت واستقبلت خصمى الذى دار مثلى بعد أن تطرح لما أخطأتنى ضربته ، ولكمته تحت ذقنه فارتمى على الأرض وانحنى صميدة عليه وهو يعد ؛ ثم أقبل على يهنئنى بالفوز العاجل

وانطلقت صيحة عظيمة من الجمهور — من الأعيان ومن التلاميذ جميعاً — ووقف الكل وراحوا يصفقون بلا ترفق بأيديهم

وأحسب أنى أنا الوحيد الذى لم يكن مسروراً فى تلك اللحظة

* * *

وجاءنى ضابط المدرسة يدعونى إلى مقابلة وكيل الوزارة فى غرفة الناظر ، وكنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل ، فماجرى فى وهمى قط أن الوزارة ترضى عن مدرس يلاكم جندياً فى حفلة كبيرة عامة كهذه ؛ ولكنى لم أكد أبلغ الغرفة حتى استغربت أن أرى زكية داخلة أمامى ومعها عمى ، فسكنت نفسى قليلاً لأن هذا يشبه أن يكون اجتماعاً خاصاً لا مقابلة رسمية . وصرت فى الغرفة ووقفت مطرقاً فوقف الوكيل ووقف مثله الباقون — مفتش انجليزى وآخر مصرى والناظر وعمى — وقال الوكيل :

« إنى أهنئك ... لقد كنت بارعاً جداً »

وصافحنى المفتش الانجليزى بمده بقوة وحرارة وأثنى على بلغة عربية محطمة . ولم يكن شىء من هذا مما كنت أتوقع . وخطر لى أن الفضل فى حسن ما استقبلت به لابد أن يكون لناظرنا الجرىء الحر ، فتركتهم جميعاً واندفعت إليه وصافحته شاكراً فتأثر الرجل الكريم وقال :

« إنى مسرور وآسف فى الوقت نفسه . لقد جرّ على نجاحك أنى فقدتك ... أو على الأصح سأفقدك »

وقال الوكيل : « لا شك أن فقد المدرسة له سيكون خسارة ، ولكن يعزيك أنه سيكون بفضل تشجيعك أنفع فى مكان آخر ... نعم لقد رأينا — أنا وجناب المفتش — أن ننتفع بك فى الوزارة

وسنتخذ التدابير اللازمة لنقلك وأرجو أن يكون هذا مما يسرك »

فلم أستطع أن أقول نعم . وكيف أفارق بنها مسروراً ؟ . ولم يسعني إلا أن أنظر الى زكية وكانت تبتسم ، فلم أفهم كيف تبتسم وهي تعلم أني سأنقل وأنأى عنها ؟

وهنا قال عمي : « والآن يا سيد . يحسن أن تأخذ زكية وترافقها الى البيت »

فاستأذنت وتبعتها ومشيت معها مهموما مغموما فقالت لي في بعض الطريق :

« مالك ؟ . ألا يسرك ما حصل ؟ »

فقلت : « كيف يسرني وهو فراق ؟ »

فسألتني مستغربة : « فراق ؟ من قال هذا ؟ »

ثم كأنما تنبهت الى شيء ، فقالت : « ألم يخبرك أحد ؟ »

ونظرت إليّ . وأحسبها قرأت في وجهي الجهل التام والدهشة والحيرة فقد قالت : « ولكن بالطبع لم يخبروك .. أوه يا مسكين .. ألا تعرف أن عمي قبل أن نتزوج ؟ »

فصحت بها في الطريق وقد وقفت : « إيه »

فقالت : « ليس في الشارع .. انتظر حتى نبلغ البيت .. نعم قبل وأخبر وكيل الوزارة أيضا ودعاه الى الحضور .. حضور العقد . فهل أنت مسرور ؟ »

***

وهنا ينبغي أن أقول إن زكية عرفت — لا أدري كيف — أن عمي له ولوع بالملائكة ، فاستغلت هذا ودبرت الأمر كله — أغرتني بالملائكة وتآمرت مع عميدة مؤامرة انتهت — كما قلت — بمنازلتي لهذا الجندي الفظ . ولم يعكر هذا الصفو كله إلا امرأة عمي فقد بقيت ساخطة ولم تكتمني أنها لا يمكن أن ترضى عن زواج بنتها من « رجل شُضَلي » ولكن عمي كان قد أعلن الأمر ودعا الناس فلم تبق لها حيلة

« شضلي » هذا كان وصفها — ولم يكن يخفف من سوء وقعه في نفسي إلا قول زكية :

« ولكني أنا أحب أن تكون شُضلي — أنا جملتك كذلك لأني أحب هذا ... تعال يا حبيبي الشضلي ... قبلني ... لا ... ليس هكذا ... بل كما يفعل الشضلي ... تماماً ... أيوه كده »

ابراهيم عبد القادر المازني



يوميات نائب فى الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

---

١٧ أكتوبر . . .

فكرت ملياً فى أمر ذلك الخطاب . من ترى يكون مرسله المجهول ؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية القرآنية وهذا التوقيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذى يستغل علمه القليل وجهل الناس المطبق فى الريف فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن فى هـذا الخطاب على أى حال وقائع تستدعى التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجـة قمر الدولة قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جناية . لا يهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر ما يهمنا التأكد من صحة الاتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعى . وقد اتجه تفكيرى كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهنى بما ورد من ريم فى هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شىء مترتب على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعى ببرقية ، وقمت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعبث بها عابث . وأرسلت فى طلب « اللحاد » وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءتى ذلك الخطاب



لأخطر المأمور ، فقيل لى إن المأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود فى المديرية برياسة المدير وحضر إلى للفور المعاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعاً على جرائد المساء

— أبداً

— فى البلد أزمة وزارية

فأدركت فى الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال الادارة منـذ الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر فى غير تنسم هوى الوزارة الجديدة ، حتى يمدوا أنفسهم للميل معها كما مالوا مع غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو فى التجهم السريع للعمد والأعيان الموالين للوزارة الآفلة ، والابتسام البديع لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أبد أية ملاحظة للمعاون ، فأنا رجل قضاء لا ينبغى لى الكلام فى السياسة ؛ ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فان القانون هو القانون . والتفت إليه أخيراً وقلت فى هدوء :

أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور

— الظروف الحاضرة تمنعنى من ترك المركز

لكن ملاحظ النقطة موجود هناك فى خدمة سعادتك .

فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت باعداد السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعى وقد أجاب على برقيتنا باشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل علىّ عبد المقصود افندى وأشار بيده إلى « النتيجة » المعلقة بالحائط ، وذكرنى بضرورة تفتيش سجن المركز ؛ فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين فى كل شهر على الأقل . فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرنى فيما بعد ؛ فمشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينيه :

— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية أن تجرى انتخابات جديدة

— وماله ؟

— غرضى يعنى ... قبل سجن المركز ما يزدحم ...

فلم أنبس بكلمة ، وتشاغلت بتقليب أوراق القضية التى نقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائى أنى لن أجيب فانصرف متردداً متباطئاً . وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديته فرجع ، فقلت له فى ابتسامة التخابث :

— كاتب ضبط المركز كلمك فى التليفون ؟

فأجاب للفور :

— طبعاً . ودفاتر السجن مسددة جاهزة ... ومحضر التفتيش مكتوب . وكل شىء تمام ، ولا باق غير إمضاء سعادتك ... والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن

فنظرت إليه شزراً :

— شىء جميل . تفتيش فجائى مضبوط يا عبد المقصود أفندى ... ؟

فارتبك الرجل قليلا ثم قال :

— أنا غرضى ... راحة سعادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز فى الظروف الحاضرة من جهة أخرى ...

— طيب . طيب ...

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت نقراً على باب حجرتى ، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعى بحقيبته الصغيرة يستأذن فى الدخول . فنهضت فى الحال واتجهت اليه وأدخلته مرحباً . وطلبت له فنجاناً من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث فى الأحوال العامة . فأخبرنى باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود أفندى من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فملا مقاليد الأمر ، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه الأخبار بشىء . فكلانا يجهل ميول الآخر . وكلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام فى العمل وفى القضية التى بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب بظروفها فى عبارات سريعة . واستقر الرأى على المبادرة بالانتقال الى المقبرة . فقمنا الى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكانا قصياً فى المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علتها « شواهد » طويلة سمراء كأنها رؤوس العفاريت فنزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مراقدهم لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعالى « مرتبة » قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ، وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدى هذه المقبرة كأنهم قردة تثب من حجر أمها ؛ وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعى ، فرأيت فتى فى ملابسه العسكرية يقبل

متبختراً على حصانه الأشهب . ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل ؛ فأمرنا اللحاد بفتح المقبرة فأعمل فى الحال فأسه ومعوله فى البناء الذى يخفى المدخل . وسألنى الطبيب الشرعى عما إذا كنا استدعينا أحداً من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفنها ؛ فأجبته أنا لا نعرف للمتوفاة غير أخت قد هربت واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ الى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها . فقام الملاحظ للفور لما انتدب له . وأمعن اللحاد فى الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحاً بالغاً وقام عنها وهو يقول :

— الباب من غير مؤاخذة من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضربا وطرقا . فصاح به الطبيب الشرعى :

— هل هى يا رجل مقبرة توت عنخ آمون ؟ تغلط فى المدخل وأنت لحاد الناحية !

— أصله يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفولة

وضرب ضربتين انفتح تحتهما المدخل . وزحف الرجل على يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئاً ملفوفاً فى «قماش» لا لون له من القدم تكاد أطرافه تتفتت فى أصابعه . ووضعه تحت أنظارنا وهو يقول :

— شوفوا هى دى « بلا قافية » الحرمة ؟

فكشف الطبيب الشرعى عن تلك العظام النخرة ونظر فيها ثم قال للحاد :

— ارجع بها يا حمار . دى جثة رجل

— راجل ؟

واختفى اللحاد بالجثة فى قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هى كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يعرض علينا الجثث التى وقعت عليها يده فاذا كلها لرجال . فصاح اللحاد مغيظاً :

— أمال النسوان راحت فين يا رجالة ؟

فقال له الطبيب فى هدوء :

حضرتك بالاختصار غلطت فى المقبرة

ثم نظر إلى المقبرة التى بجوارها وقال له :

— افتح دى

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب بينما أنزل الحراس « متاعهم » من فوق المقبرة الأولى وهم يتهامسون :

— بقى كنا راكبين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحاد يزحف إليها ويختفى فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه امرأة تخفى وجهها بطرف طرحتها السوداء وترفع عقيرتها مولولة :

— يا للى كنت منورة الحارة !

فسد الملاحظ فمها فى الحال منتهراً :

— اخرسى يا ولية !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها

— اسمى يا ستى . الميتة كفنوها قدامك ؟

فتنهدت المرأة وقالت :

— قدامى يا سيدى ، وبقيت بعيد عنك ألطم وأرقع بالصوت

— المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها فى كم « درج »

— فى عين العدو ثلاثة « أدراج » : درج مرمر ودرج كزمير ودرج حرير أخضر ...

وخرج اللحاد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة فحص الطبيب كفنها وقد ذهب لونه يفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف فى أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من الخشب نصبا سريعاً على هيأة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط ، وطاب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة فى يده وفرق الناس صائحاً :

— بعيد . بعيد ...

وكشف الطبيب الكفن فى احتياط . وما كاد ذلك الهيكل العظمى المسجى يظهر للعيان حتى سمعت خلفى همسا وهمهمة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفيا خلف جذع الشجرة شاحب الوجه بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا اليه راجعون !

ولمحه الطبيب فانتهره وأمره بالابتعاد . وصحت أنا كذلك فى السائق صيحة انصرف بعدها الى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلا أمر هذا السائق ... ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ، أم فكرة الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحاد أو الحراس هذا التأثير ؟ يخيل إلى أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تعدو فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقوالب الطين والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التى لها فى حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز » أيبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادى حجر أو عظم لا يساوى شيئا ولا يعنى شيئا . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ... « الرمز » هو فى ذاته كائن لا وجود له . هو لا شىء ، وهو مع ذلك كل شىء فى حياتنا الآدمية . هذا « اللاشىء » الذى نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طبى فى يده ذات القفاز الجلدى الشفاف يفحص به العظام قائلا :

— امرأة من غير شك

ومضى فى عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ، والعظم اللامى ... وهنا نظرت اليه فى انتباه . فالعظم اللامى فى العنق هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة . فان كسره معناه أن الخنق قد وقع . وإن كل ما يهمنا فى الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامى ، والتحقق من سلامته . ولم يمهلنى الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يرينى هذا العظم بين أصابعه :

— مكسور

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر . ان ما جاء فى البلاغ المجهول المصدر حقيق إذن . وماذا أنتظر بعد ذلك . وصحت فى الطبيب :

— انتهينا . وعزمت على العودة مسرعا للبدء فى تدبير ما ينبغى للوصول الى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهى من دون ريب مفتاح الأولى

وفرغ الطبيب الشرعى من أمر الجثة وأعادها اللحاد أمامنا الى مقرها وسد عليها كما كانت . وأنا صامت فى مكانى أفكر فيمن يكون الخانق لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذى حمله على ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها فى الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم فى التحقيق ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعثر عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا فى البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفور مبدأ لخط السير الجديد . فلأقنعه أنا بوسائلى بعيداً عن طرق الادارة المنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى لو أفهمته مثلا أن فى إمكانى أن أزوجها منه ... وأعجبتنى الفكرة وعزمت على تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين . ومررنا فى طريقنا بالقرية ، فاذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من « دوار » العمدة . فقلت وأنا أقف السائق باشارة :

— العمدة مات ؟

وأطللت من نافذة السيارة ، فاذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . رأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً فى أيديهم ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلن فى الأفراح وفى أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جيداً ما يحملونه وتأمل معى الطبيب الشرعى دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب فى عجب :

— التليفون له زفة كأنها زفة عروسة

ومر بقربنا خفير نظامى فأشرت إليه فاقترب وسألته عن الخبر فأجابنى انه قد صدر اليوم امر برفض العمدة الحالى وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة فى القرية . ففهمنا كل شىء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكا :

— يظهر أن تليفون الحكومة عند العمدة فى مقام الصولجان

— هذا صحيح فيما أرى ، انه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وان خامه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » لزوال السلطة ، وأن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذى يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم يطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد الذى يستقبل التليفون الداخل عليه بالزغاريد والدفوف لدليل أيضا على مبلغ السعادة والهناء . هنا « الرمز » كذلك فى شكل « تليفون » من الصاب والخشب وقد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية الوادعة

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت فى بعض الطريق . وأخيراً التفت إلى وقال :

— يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة

فقلت له : إن هذه القرية ككل قرية اليوم فى مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس العمدية وكل منهما ينتمى إلى حزب من الأحزاب التى تتنازع الحكم . ولماذا تريد أن يكون الحال فى القرية غيره فى الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

(يتبع) توفيق الحكيم



— لعلى أستطيع أن أساعدك

— لكى تفعل لا بد أن تحيى الموتى أو تقذف بى إليهم ... (لورد بيرون)

انحدرت من أصل انجليزى عريق فى المجد ، ونشأت كما ينشأ أبناء الأشراف لا يسمعون إلا كلمات المديح وعبارات التملق ؛ فشبّت معى كبريائى ، وراحت تعلن عن نفسها فى حركاتى ، وفى رنات صوتى ، وفى نظراتى ، وفى ... غير أن كل هذا قد استحال فى نفسى إلى نوع من اليأس والقنوط منذ هبطنا هذه البقعة الخالية النائية ، ومنذ بدت الحياة فى عينى جدباء مقفرة



وماتت أمى عنى طفلة فى العاشرة ، وعن أختى دورثيا فى الثالثة ، وهى ما تزال تبسم للحياة فى سذاجة ورقة ... ماتت لنكون بين يدى أبى اللورد هربرت أوف روكسلى ... لقد كان شفيقاً رحيماً غير أنه ما كان ليستقر إلى جانبنا ليرعانا ويتولى أمرنا ؛ فهو سياسى ضليع ، وقف إلى جانب الملك جيمس الثانى ودافع عن مبادئه ؛ وهو يد قوية فعّالة فى البلاط ... وأراد أبى أن ينطلق إلى حياته فى المدينة وإلى عمله فى القصر ، فأمرنى أن أسهر على صغيرته ، وأن أخصها بالعناية ، وأن أرفق بها .. وبدا علىّ الغرور حين تراءى لى أننى أصبحت أما ، وهذه دورثيا ابنتى وأختى فى وقت معاً . إننى أحبها ... أحبها وأعطف عليها ، وأطرب حين أراها فى جمالها ورقتها وطفولتها تثب هنا وههنا

وشاء أبى ألا نبرح مقاطعة روكسلى فى هذه السن الباكرة ؛ غير أنه استطاع بزياراته المتتالية أن يرى عن كثب ما نحن فيه من هناءة وسرور ، ومن تآلف ووفاق . لقد اطمأن إلى ما رأى فزادت ثقته بى وسرّه ما أحبو أختى دورثيا من عطف وحنان ، فأقامنى عليها حارساً أميناً دون مربيتنا العجوز مسز شيرلى التى بذرت فى نفسى غراس الكبرياء والغطرسة حين أدخلت فى روعى أننى الكبيرة ، وأننى التى سأرث هذا الملك الكبير من بعد ... ثم هى تتملقنى فى خضوع ، وتترضانى فى ذلة

وكانت دورثيا — بادىء ذى بدء — جبانة ضعيفة ضاوية ، تتكلم فى هدوء وتضطرب فى سيرها ؛ ثم هى لا تستطيع أن تكفكف عبراتها المتدفقة إذا هى أحست الشدة أو لمست القسوة ؛ غير أن ابتسامتها العذبة ما كانت لتفارق ثغرها الحلو ؛ وحين تداعب النسمات الرفيقة شعرها الذهبى السبط ، يتألق من بين ثناياه وجه وضاح كأنه طلعة البدر فى الليلة الصافية ، ويكشف عن عينين جذابتين تنبعث منهما أشعة آسرة . حقاً ، لقد كانت دورثيا جميلة فاتنة جذابة كأنها حوراء

وأرادنى أبى — وأنا فى الثامنة عشرة — على أن أبدو بين فتيات البلاط على رغم ما كان فيه من اضطراب وتقلقل ؛ فجذبنى من وحدتى فى روكسلى إلى هوايت هول المائجة الساطعة المتألقة . لم تتزلزل قدماى ، ولم يسيطر على الخور والضعف لما رأيت فى القصر ، فلقد كان فى قلبى من الغرور ما خيل إلى أننى فتاة القصر جمالاً وجاذبية ورقة حديث ...

والتفتْ حولى جماعة يتقربون إلى وينثرون على مسمعى عبارات المدح والاطراء ، وكأنهم رأوا فى ما رأيت فى نفسى من قبل ؛ غير أنى كنت أستثقل ظلهم وأحدجهم بنظرات فيها الازدراء والاحتقار وأتمنع عليهم فى جفاء ... وجعلت ترفعنى أنا — أنا الآنسة ميراندا هربرت — إلى أعلى فأصبح حديث المجالس ، ومادة الصحف ، ومنية القلوب ، وبهجة القصر ، وقذى فى عيون النساء ؛ وصرت معبودة يسجد عند قدمى المحب الذى أبغضه وأمقته وألتوى عليه ؛ حتى أن اللورد (لوفيل) قال لى فى غضب وقد دفعته عنى فى جفاء وغلظة : « ميراندا ، إن هذا الاحتقار الذى تنثرينه الآن هنا وهناك سينتقم منك بعد حين ! » فابتسمت ابتسامة السخرية لما سمعت

***

لست أذكر كيف تعرفت إلى السير وطوت ورسلى ولامتى ... لقد جذبنى إليه ما رأيت فيه من وداعة وهدوء ، وما سمعت من حديثه وقد خلا من كلمات التصنع والخداع . لقد علقته واطمأننت إليه ، غير أنه ما لبث أن غادر القصر ليكون مدير أملاك الملكة . وحين انطلق إلى عمله تواعدنا على أن نتلاقى فى حفلات القصر وهى كثيرة . لقد نأى .. نأى وألسنة الثناء والمدح ما تبرح تطن فى أذنى طنيناً لا يكاد يبلغ شغاف قلبى ، ولا يستطيع أن يحوله عن هذا الرجل . وتكاءدتنى أول عقبة فى حياتى حين بدالى أننى قد علقت هذا الرجل ولا أدرى ماذا يحمل لى قلبه ؛ وأنا فتاة لا أستسلم لمن يطمع فى أن يغلبنى ، ولكن أملى ثمين غال . ورحت أنشر شباكى فى خفاء وتستر خشية أن تشمر هذه القلوب التى طعنتها بالكبرياء وآلمتها بالتأبى ، وأنا أراها تتقصصنى فى غير ملل ولا فتور لتجد ثغرة تنفذ منها إلى ما يسوءنى ، وكلمة اللورد لوفيل تستحثنى إلى أمر ...

لقد كانت رنات صوت السير ورسلى موسيقية شجية جذابة تركت فى نفسى أثراً لا يمحى . والحق أن قلبى قد خفق له مرات ومرات ، وأحسست كأن حبى له يتدفق فى قلبى عاصفاً قويا ، ولكنه هو . . ماذا رأى فىّ ؟

وأخذ الشك يضطرم فى قلبى . . . قلبى المتلهف المشتاق ، والأمل الحلو يخفف بعض ما أقاسى . لم يقل لى مرة إنه يحبنى ، ولكنه كان لا يطمئن إلى سواى ، ولا يرافق غيرى ، ولا يرقص إلا معى ؛ وفى ليالى الصيف الصافية يطلب هو إلىّ أن ننطلق معاً إلى شاطىء نهر التامز لنفرّ من جلبة القصر وضوضائه ، فأسير الهوينى إلى جانبه فى هدأة الليل

وسكونه ، أنصت إلى حديثه العذب وكلماته تنطق عن بعض ما يستشعر من لذة وسعادة

وشغلت أبى أمور القصر فما استطاع أن يفتح عينيه على ما يتنازعنى من هوى ، فهو مايفتأ يحدث السير ورسلى عن دسائس يحيكها جماعة البروتستنت لتعصف بالملك جيمس ، أو عن بعض ما تنثره الملكة حواليها من مقت وكراهيـة . أما أنا فقد سيطرت علىّ العاطفة فسلبتنى ممـا يدور حولى ، وعزب عنى أنى سأكون ضحية حين يهب الاعصار فيلف كل أتباع الملك وأحبائه

وتردد أبى حيناً فى أن يتبع سيده إلى منفاه ، ثم انطلق على أثره ، وكنت طروبا مرحة حين خيل إلى أننى سأرافق أبى والسير ورسـلى إلى سانت جرمان ، ولـكن ابى أرادنى على أن ارتد إلى روكسلى لأقوم على ابنته دورثيا

رجعت لأرى دورثيا ما تزال فى ثياب الطفولة ومرحها . ولأستشعر فى نفسى شيئا غير الذى كان فقلبى يخفق ، وخواطرى تضطرب ، وأنا كأن عصا ساحر لمستنى لتترك فىّ أحسن ما فى المرأة وتنزع عنى بعض ما كان من كبريائى وغطرستى ، وتحيل نظراتى وكلماتى وحركاتى إلى أشياء أخرى منها الرقة والظرف . ياعجبا ! لقد أحببت ... أحببت بقلب فيه التواضع والانسانية والشك فى وقت معاً !

ليته نشر على عينى بعض ما فى قلبه إن خـيراً وإن شراً ، فأعيش بالأمل الحلو أو باليأس القاتل ! ليته نزع عنى الاضطراب والقلق بكلمات ! لا إنه لا يحبنى ، وإنما كان يحبونى الصـداقة والعطف فحسب ! سينسانى أو لعله نسينى ، فهذه الأيام تمر ولم أظفر منه بخطاب يحدثنى حديث قلبه . ها هى ذى الأيام تمر وصوته العذب مايزال يرن فى مسمعى وشخصه الجميل ما يبرح يضطرب فى خيالى .

إننى أحبه ... لقـد امتهنتُ نفسى حين أحببت من لا يحبنى ... امتهنت نفسى ، غير أنى ما أزال أحبه

أين من أستطيع أن أفض أمامه أغلاق قلبى ؟ إن مربيتنا عجوز ثرثارة لا تـكتم سراً ؛ ودورثيا ما تزال طفلة لا تفهم نجواى ، وأنا لا أريد أن أجعل لها فى طفولتها مشغلة بذكر الحب ...

* * *

وتصرمت أعوام وأعوام وأبى ما يزال فى منفاه ، وأنا أجهد نفسى فى المحافظة على ماله ، وفى السهر على أختى دورثيا ؛ وشبابى يذوى رويدا رويدا ، وجمالى يخبو قليلاً قليلاً ؛ وأنا فى شغل عن ذلك بما فى قلبى من حب للسير ورسلى ، وبما آخذ به نفسى من عادات وطبائع رضيها هو واطمأن اليها

ولبثنا زمانا فى روكسلى لانبرحها ؛ غير أن أحد أقارب أمى هيأ لنا فرصة ، فاستطعت أن أرافقه أنا وأختى الى لندن ، ثم راح هو يصحبها الى هناك الفينة بعد الفينة ، لأعيش وحـدى زمنا أحدث نفسى حديث الأمل فى الرجل الذى أحببت

وبينا أنا أجاس الى نفسى فى ليلة من ليالى الربيع ، رأيت رجلاً غريبا يدلف الى الحـديقة ، فنظرتُ ... نظرت فاذا ورسلى ... ورسلى نفسه إلى جانبى ، فراح قلبى يدق دقات عنيفة كأنه يريد أن يوقظ ما نام فيه . لقـد جاء ... جاء وفى يده خطاب من أبى الى مسز شيرلى يقول فيه « وأرجو أن ينال السير ورسلى كل ما يصبو اليه من العناية والاحترام بينكم لأنه ليس ضيفى فحسب ، بل هو سيصبح — بعد حين — زوج إحدى ابنتى .. »

ما أسعدنى ، ما أسعدنى ! هذا خطاب أبى ، وهذا

خطيبي وحبيبي الى جانبي ! أي سعادة ! وأي هناءة ! لقد محت هـذه الساعة الجميلة سيئات المـاضي ، ومسحت سنوات كثيرة انصبّ عليّ فيها اليأس والألم انصبابا

ورأى السير ورسلي ما رسمته الأيام على صفحة وجهي ، فراعه ما رأى ، وخُيّـل إليّ أنه يلحظني بشيء من العطف والشفقة والأسف حـين بدا له أنه هو سر هذا التغيير . لقد نزع عني أفـكاري المضطربة ، وخواطري المتضـاربة رويدا رويدا ، وكنت أجلس اليه في كن في حـدائق روكسلي أستمع الى حديثه عن المنفى و . . ويستمع هو الى حديثي عن عملي في روكسلي ، وعن رأيي في تنشئة أختي دورثيا تنشئة طيبة ، ثم عن رغبتي الملحة في رؤية ابي ، وهو يعرف انه سيعود قريباً

وجلستُ إليـه مرة في الردهة ، وقد نشر الليل علينا سجفه ، وأرسل الصيف نسماته الرقيقة تبعث في نفسينا النشاط واللذة ؛ جلست إليـه يحدثني وأحدثه ، وأبسم له ويبسم لي ، وبين يديّ عود رحت أداعبه فتنبعث منه أنّـات قلبي العاشق وسيطرت علينا النشوة فمـا جذبنا منها إلا دورثيا حين اندفعت إلينا — وقد هزها الطرب — وهي ترسل صوتها الشجي بأغنية كنت قد علمتها إياها وقد تجلت مفاتنها واضحة خلابة آسرة ... وبدت على وجه ورسلي سمات الدهشة والسرور ، وطربت — باديء الأمر — لما رأيت ؛ ثم رأيته وقد تعلق بها بصره فما يطرف ولا يتحول ، وفي نظره أثر الهوى والرغبة ، وتراءى لي كأن هوة سحيقة تنفرج تحت قدميّ ؛ وبدا لي مستقبلي مسطوراً بحروف من نار

ووجدت عذراً ، فانطلقت الى حجرتي ... الى مرآتي ، وقلبي يتنزى حقداً وألماً ، ويلي ، ويلي ! هذه أول مرة أرى فيها حقيقة أمري ؛ لقد رأيت ، والاضطراب يكاد يعصف بي ، والهم يوشك أن يفتك بقلبي ؛ رأيت أن الأيام والأسى قد مسحا كثيراً من جمالي وجاذبيتي ؛ وارتد تاريخي يحمل في أضعافه عبرات وعبرات سكبتها في سبيله هو ... أيام كنا مفترقين ، ورأيت شفتيّ وقد نزع عنهما طول انتظارهما للشفتين الأخريين ما كان عليهما من رونق ومن حمرة . وتبلبلتُ ، وسمعت صوتاً كأنه منبعث من أعماق الغيب يقول : « سيطلبك يا ميراندا ... إنه سيطلبك ! » ولـكن كيف ... ؟ وأنا لا أستطيع أن أسترد أيام الشـباب وبهجة الجمال ! ليت ... ليت الأيام التي سلبتني ما سلبت من جمـال تسلبني من حياتي فأستريح ... لقد كادت الأفـكار المضطربة تقتلني ، غير أن ورسـلي ودورثيا انتزعاني مما كنت فيه

وبدا لي أن ورسلي راح يباعد بينه وبيني ليصل بينه وبين التي أحب ، فلمست الفتور في حديثه ، وفي نظراته ، وفي ... ورأيت أملي الذهبي يتلاشى رويداً رويداً ؛ فهو يحدثها في رقة وشغف ؛ وهو ينظر إليها في تفـتّر وانكسار . وترامى إليّ أن دورثيا تبادله حباً بحب وغراماً بغرام ، فأحسست الصفعة القاضية تقضقض عظامي ، ثم لا ترساني إلا واهنة يائسة . وما كان لي أن أحذرها ، أو أن أتهمها بالخيانة . وكيف ... كيف أفعل وهي توقن بأنه حبيبها وأنا لم أكشف لها عما يضطرب في قلبي لا ، لا ... لن أفعل . سألقي بنفسي في قرار الخيبة واليأس ، وأدفن في قلبي أملا كان ثم انطوى ليسعدا

معاً . ولكن كيف ؟ لا أستطيع أن أفعل ... وتنازعتني عوامل جديدة وسوس بها الشيطان ليدفع قلبي — وقد استقر فيه الألم والأسى — يدفعه ليصنع حادثة مروعة ...

. واستطاع ورسلي أن يرى ما يصطرع في نفس فطار من روكسلي ... طار في صغار وضعة ، لأستشعر لذع الخيبة ومرارة اليأس . لقد كنت أستطيع أن آخذ نفسي بالصبر ؛ وأن أرغمها على النسيان لو أنه ظل إلى جانب دورثيا يرعاها ويحفظها ، غير أنه ألقى بها إلى ليعطيني فرصة الانتقام ... طار وما ظننت أنه انطلق لينشر قلبه على عيني أبي بعد إذ حدثها حديث الزواج ، وما كان حديثه عبثاً . لقد قصت على قصتها في سذاجة وصراحة وسلامة قلب ، ثم قالت إنه حبيبها ورجلها وخطيبها ، يا لله ! لقد كانت قصتها كية على قلبي أفزعته لتبذر فيه روح الشر والحسد

وجاءت إليها صكوك الهوى من خطابات وصور وهدايا ... جاءت لتنفث في الحقد فيحور ألماً وحسرة . لقد انطبع في ذهني كل ما قرأت وما رأيت ... انطبع في ذهني ليتسعر في قلبي وأمام عيني شبابي الضائع وجمالي الذاوي ، فشاع الظلام في نفسي ورانت على نفسي عوامل لا أدري ما هي ، غير أني لست الشر في أضعافها ، فرحت أدعو الله أن ينقذني ... وشاء القدر أن أغتمر في هذه الحمأة فثارت في نزوات البشرية الشريرة ، فانطلقت إلى أختي أقسو عليها ، وأغلظ لها في القول ، وأضربها لغير ما سبب ، وأحبسها في حجرة مظلمة وهي ما اقترفت ذنباً ؛ وأمعنت في إيذائها لأشعرها بعض ما أقاسي في سبيله ... في سبيله هو يا لشقاوتي ؟ ويا لتعسي ! لقد أصخت إلى نداء شيطاني فتخطيت إنسانيتي ، وبلغت المدى في القسوة والفظاعة حين أوثقت يديها وقيدت رجليها ووقفت بإزائها أحدجها بنظرات فيها التشفي والانتقام . . . ولكن صوتاً أجش فيه القسوة والغضب ناداني من خلفي . إنه هو ... هو صوت أبي ؛ والتفت مذعورة ، فإذا هو ... هو أبي على قيد خطوة مني

لقد غاظه ما رأى فتهدم على بكايات لذاعة مريرة ، وهو يقول : لماذا ، لماذا ؟ وبدت عليه الشفقة فتناثرت عبراته وهو يستل خنجره ليقطع الحبل ، وأختي المسكينة تضطرب وتجهش . وبدا لي — بعد إذ فقدت حنان أبي وعطفه — أني أصبحت وحيدة لا أجد من يشفق علي ، فيئست مرة أخرى . وراح الشيطان يرفه عني ، وينفث في لساني عبارات فيها الشر والدم . . . وأرسلها على لساني وأنا هادئة كأني لا أفعل أمراً إدًّا فقلت :

« لقد لبست دورثيا ثياب العار والحمق حين انطلقت تبادل ورسلي غراماً دنيئاً وحباً فاحشاً ! »

لقد ثار أبي لما سمع ... ثار كأنه السبع يهاجمه القرم وعلى خطوتين منه فريسته ، وغلى في دمه شرف أجيال عدة لم يثلم ولم يدنس ، وفي يده خنجره يضطرب ... لقد قذف به ... قذف بالخنجر في قلب أختي ... أختي دورثيا البريئة ! وتفجر الدم من قلبها الطاهر ومن كل نقطة منه تتصاعد اللعنات فلا تنصب إلا على رأسي

ويلي ، ويلي ! لقد جنيت ، ولكن ماذا أفدت ؟ ماذا أفدت ؟

كامل محمود حبيب



المدافع تصم الآذان فى جنوب منشوريا ، وجنود اليابان تكتسح الأراضى الصينية بقيادة الجنرال الشاب شنج شو ، وزحف الظلام وهدأ الليل إلا من أصوات بضعة مدافع كانت ترسل قذائفها بين الحين والحين . وأوى الجنرال شو إلى مخدعه يسترق إغفاءة الفجر ، وفى الصباح دخل إليه مستشاره الملازم تسنغ ، قال :

— كثر عدد الأسرى الصينيين يا سيدى الجنرال ، وقلت المؤن فأضحى حالهم يفتت الأكباد

وتحرك الجنرال الشاب فى مقعده قليلاً ونظر إلى نافذة تطل على الميدان وارتسمت على وجهه علامات الاشفاق لما رأى فعل العرى والجوع بأسراه ، وأخذت أصابعه تعبث فى شاربه الصغير بحركة آلية ، وقال بهدوء :

— اقتلوهم جميعاً رمياً بالرصاص

— نسيت أن أقول إن بينهم فتاة وجدت بالخنادق الصينية أمس عند استيلائنا عليها ، وكانت فاقدة الوعى من شظية قنبلة أصابت ساقها

— أجاسوسة هى ؟

— أظن ذلك

ووقف الأسرى يرحبون بالموت ينتشلهم من ربقة الأسر وتعذيب الجنود

أما الأسيرة فقد تضعضع جلدها حين سيقت إلى المحاكمة ، وكانت تعلم أنها محاكمة صورية سيعقبها حتما الحكم بالاعدام . . .

وجىء بها فى أسمالها نصف عارية ، وأخذت تنظر فى شىء من الحيرة والذهول الى المقاعد الوثيرة المنثورة هنا وهناك ؛ ولفحها دفء الموقد ، فاندفع الدم حارا فى جسدها فبدت عذراء الصين فى ثوبها البالى كدمية لأمهر فنان

***

كان الجنرال شو ككل يابانى يقدس وطنه ويعبد امبراطوره ، ولذلك كبح جماح عاطفته لما اهتز كيانه لمرأى الفتاة وحول نظره عنها ، فرجع به النظر كأن جمالها لا ينتهى فما ينتهى الاعجاب بها .

وسألها فى خشونة عن علة وجودها فى ساحة القتال

وتكلمت تسى نانا فكانت كلماتها الموسيقية تستقر فى قلبه ، قالت إنها كانت الى جانب شقيق لها تخفف عنه ويلات الحرب ...

وطفت على رأس الجنرال شنج شو أقسى قواد اليابان وأصلبهم عودا زوبعة نفسية هائلة ، وعجب لنفسه إذ توقظ فيه فتاة الصين عاطفة الحب الذى

لم يشعر به من قبل . . . وعبثا حاول أن يستجمع شتات حواسه ، وراعه بريق عينيها الجميلتين ترقبان ما ستنفرج عنه شفتاه

كان يرى فى إعدامها فناءه ، وفى الابقاء عليها خيانة لوطنه وامبراطوره

وكان يابانيا ... فأنكر عاطفته ونطق بالاعدام

* * *

وسيقت تسى نانا إلى قبو قلعة مجاورة فى انتظار تنفيذ الحكم

ودخل الجنرال الشاب حجرته محطم القلب ممزق الأحشاء وما انتصف الليل حتى شعر بشوق إليها كالجنون ..

ولم يعبأ بدهشة جنوده وحراسها لما قام يدفعه قلبه إلى فاتنته

وذعرت الفتاة لمرآه ولكن روحه قفزت إلى عينيه تنطقان بغرامه العاصف فاطمأنت إليه ...

ونظر إلى فاتنته المزيزة تعبث الكآبة بنضرة شبابها وإلى جفنها الرطب كأنما عاق به أثر من دمع

ووقف أمامها وقد تضاءل الوجود فى نظره فأصبحت هى كل شىء فيه . واستقر بريق عينيها فى أعماق قلبه ناراً فجلس إلى جانبها يحترق ...

قالت :

— ألتنفيذ الحكم جئت ؟

— أجلته أياماً

— إذاً تريد تعذيبى ؟

وعز عليه وهو القائد الظافر أن يعترف لها بهزيمته ، وفتك أنوثتها برجولته ، فقال :

— ذلك ما تستدعيه الظروف

وخشى غدر عاطفته أن تضطره إلى الاعتراف فقام يقتلع ساقيه اقتلاعا

ومرت أيام كان كلما جن الليل جلس إليها ساعة يحدثها فى كل شىء إلا غرامه

* * *

ما كانت نانا تشعر بالحب للجنرال ...

وإذ أحست بالقلق ذات ليلة لغيابه عجبت لنفسها من أمرها ومرت ساعات وهى ترقب وقع أقدامه وسهدت حتى مضى أكثر الليل وتخيلت نظراته الطافحة حباً وعطفه الجميل ، فأحست بقلبها الثائر يلتف بخياله ويعترف بولهه ...

ومضى النهار أقبح من ليل داج مخيف

وأغارت أسراب الطيارات الصينية على القلعة تحاول نسفها

وجزعت نانا إذ تموت قبلما ترى الرجل الذى توهجت للقائه ، وتساقطت القنابل على القلعة كالمطر المنهمر حتى إذا انتهت الغارة دخل عليها ضابطان من سلاح الطيران اليابانى وخرجا بها إلى طائرة فى سفح الجبل وفى دقائق كانت الطائرة تنهب بهم الجو إلى الميدان الشمالى لتدلى نانا بشهادتها فى قضية اتهام الجنرال شنج شو بالخيانة العظمى

ودخلت نانا إلى المكان الذى يحاكم فيه الجنرال وتقطعت أوصالها لما رأت نحوله وشحوبه والتقت عيناها ، فرأت صدره يعلو ويهبط . ها هى عيناه تبسمان لها

من لها بكلمة عطف يلفظها فمه ليرتوى بها قلبها الظامىء ؟

وقطع عليها خيالاتها دخول أعضاء المجلس العسكرى ونظرت الى رئيسه الأشيب وقد بدت فى قسمات وجهه دلائل الغلظة والهدوء

وطلب الرئيس من الجنرال أن يقسم بشرفه العسكرى ليقولن الحق فأقسم

قال الرئيس :

— ترامى إلى القيادة العليا نبأ حكمك بالاعدام على الجاسوسة الصينية تسى نانا ... أفملت ؟

— نعم

— فاذا ما جن الليل ذهبت إليها ؟

— نعم

وأجلت تنفيذ الحكم باعدامها ؟

— نعم

— أذلك لأنها شغفتك حباً ؟

وهنا اختلج قلب الجنرال ونظر إلى نانا فاذا بوجهها أبيض كالثلج وتمتم :

— نعم أحببتها

أحببتها . . ! !

وحملت هـذه الـكلمة سعادة الدنيا ودخلت الى صدر نانا ، ونظرت الى رجلها يعترف بحبها فأشرق وجهها وابتسمت له

وتداول الرئيس مع الأعضاء فى صوت خافت وانتصب فى مجلسته ونطق بالحكم

***

وتلقى الجنرال حكم إعدامه مع نانا بهدوء بال ورباطة جأش ... وتأوهت نانا وسكنت كأنما على رأسها الطير

***

اسـتولى الجنود اليابانيون على منشوريا فأمر الامبراطور بتسريح الأسرى والعفو الشامل عن جميع المحكوم عليهم ، وأسرع أحد الفرسان الى الميدان برسالة الامبراطور لينقذ حياة الجنرال ونانا

والطريق طويل صخرى ، والفارس ينهب الأرض بجواده وقد بقى على موعد إعدامهما نصف ساعة . ومضت عشرون دقيقة كان قد نال الجواد الاعياء ، فيئس الفارس من إمكان الوصول ، ولـكن الأمل عاوده فاستحث الجواد

ها قد لاحت له خيام المعسكر كنقط بيضاء تحت الأفق . ولم يبق سوى خمس دقائق ...

ووقفت نانا تنظر إلى فوهات عشر بنـادق تصوب الى صدر حبيبها . فأظلمت فى عينها الدنيا وشعرت بقلبها ينصدع ...

ودوى الرصاص فسقط الجنرال وسقطت معه شعاب قلبها ...

وصوبت إليها الفوهات بدورها ونادى رئيس القوة :

واحد

اثنان

وإذا بالفـارس يصرخ ويسقط من على ظهر جواده اللاهث أمام الرئيس وبيده الرسالة ، فتناولها منه ونظر إليها وإلى جثة الجنرال ، فازدحمت فى عينه الدموع ودفع الرسالة إلى نانا

وهوت نانا على جثة رجلها تشبعها لثما وتقبيلا فأبعـدها عنها الجنود برفق فنظرت نانا إلى السماء وقالت :

— رب لم حكمت على بالحياة ؟

محمد محمد مصطفى

أمين بلوك الضباط بمدرسة البوليس



— أحبك حباً ملأ جوانب نفسي وملك على مشاعرى

— لقد وهبتك قلبي عربوناً لحب لا انتهاء له

— أحق ما تقولين ، أم هـذا صدى غرامى تردده الأوهام ؟

— يشهد هذا البدر المنير ، وهـذا الروض النضير ، ويشهد مبدعهما أننى لا أحب سواك ، ولا أقف حياتى إلا عليك

وسُمع من بعد وقع أقدام فذعر العاشـقان وتواعدا إلى الغد ؛ وتسلق الشاب جدران الحديقة العالية وتوارى مبتعداً فى الشارع وهو يناجى نفسه قائلاً : من تـكون يا ترى هـذه الفتاة التى تقف حياتهـا علىّ ، وما أنا إلا ممثل على المسارح العمومية ؟ إن كل ما يتجلى لى فيها ينم عن محتدٍ رفيع وثقافة عالية . لقد أرادت أن تخفى اسمها عنى فقالت : مادمت فى مدرسة الدير تلميذة أتلقن العلم فما أنا إلا أسيرة لا أملك نفسى ، فاقنع بما أعلنته لك من حتى الآن إلى أن أبرح هذا المـكان فأطلعك على الحقيقة وأسلمك يدى أمام الله والناس

وكان الفتى فلوريدور يستعيد ذكرى اليوم الذى رأى فيه لأول مرة هذه الغادة الفاتنة تطلّ من نافذة الدير وترسل إليه نظرة أوقدت جذوة الغرام فى قلبـه . وتابع السـير حتى وصل إلى غرفته الحقيرة حيث تطرح على سريره آملاً زيارة طيف الحبيبة فى منامه

وعاد الفتى فى المساء التالى الى مكان الملتقى ، وبات ينتظر موافاة الحبيبة فأخفقت آماله ؛ وعاود الـكرة مرارا فما رأى فى جنة غرامه غير أزهارها ، وما نشق غير عبيرها . ومرت الليالى فتيقن العاشق أن سره قد افتضح ، وتأكد أن الحبيبة قد غادرت الدير وعبثا فتش عنها فما عثر لها على أثر

— ٢ —

ومرت على العاشق أيام ساعاتها أعوام ، وهو يشغل نفسه بالتمثيل على المسارح وفى قلبه غصص من تذكارات الفتاة المجهولة

وفى ذات ليلة كان فلوريدور يقوم بتمثيل دور مؤثر فحانت منه التفاتة الى مقاعد الطبقة العالية ، فرأى حبيبته شاخصة اليه وقد ارتسم الحزن العميق على ملامحها وتساقطت من عينيها الدموع . وقف الممثل مشدوهاً الى أن نبهه صوت الملقن الذى حسب أنه نسى دوره ، فعـاد الى التمثيل بلهجة ملأها الحب روعة وهو يتتبع على ملامح من يهوى تأثير إلقائه وإعيائه . وما انتهى من التمثيل حتى هرع الى غرفته مغيرا أثوابه واندفع الى مدخل المسرح لعله يرى خالبة لبه . فلم يوفق الى لقائها ؛ وتكررت هـذه الحادثة والممثل يحاول عبثا مقابلة

الفتاة عند نهاية عمله ، الى أن دخل عليه يوماً وهو فى لجج من الأحزان شيخ مهيب تدل أثوابه على أنه من علية القوم ، فاستقبله الممثل مستغربا هذه الزيارة ، ولكن الشيخ مد يده مصافحاً وقال : عفواً أيها السيد ؛ إننى أتيتك ولا معرفة بيننا ، ولكنَّ من الأمور ما يجيز تجاوز المألوف ؛ ولدى مسألة هامة يتوقف عليها شرفى وسعادتى . أنا نبيل وأنت من كرام الناس فسوف أتناول الموضوع بلا توطئة

— تكلم يا سيدى ، فأنا مصغ

— هب أنك أمير ولك ابنة جميلة فى ريعان الصبا وهى وارثة اسمك الوحيدة ، وقد وجدت لها عريساً من أعاظم الدولة تحسده الملوك على أمجاده فلم تقبل ابنتك ما أعددته لها من سعادة فماذا تفعل ؟

— أترك لها الحرية ، وأجتهد أن أكتشف سر قلبها ، إذ لعلها وهبت قلبها لمن امتلكها حبه فلا تستطيع مقاومة قضاء الله فيها

— وإذا عرفت أنها عاشقة ؟

— أطاوعها فى إرادتها وأساعدها على الاقتران بمن تهوى ، فليس بغير الحب من سعادة على الأرض

— وإذا كان ما تشير به يفوت الامكان ؟

— ولماذا ؟

— لأن الفتاة التى أتكلم عنها هى وحيدة الدوق بارسلان أحد نبلاء القصر ، وهذا الدوق واقف أمامك الآن ، ولأن الذى تهواه ابنتى رجل شريف ولا ريب ، ولكنه ممثل ...

— فهمت يا مولاى . إن فى تنازل ابنة الدوق بارسلان إلى عشق من هو دونها نسباً لعاراً تأباه الطبقة المميزة بالألقاب ، ولكن ما تعنى بهذا الكلام ؟

— إذا كان الأمر لم يتضح لديك ، فها أنذا أصرح . إن الممثل الذى امتلك فؤاد وحيدتى هو أنت ، أيها السيد فلوريدور

وصعق الممثل وهتف قائلاً — أنا ؟ .

— عفواً ، إن فى هذا التصريح ما يمس عزة نفسك ، ولكننى ألجأ إليك فلا تخيب أملى ، فانك على ما أرى لا تعرف ابنتى وما اجتمعت بها ؛ فاذا ما تقدمت إليك بطلب ظاهره مستغرب يؤدى إلى إلزامك بتضحية فإن يصعب الأمر عليك ، وعليه يتوقف الابقاء على شرف اسمى وحياة وحيدتى وهى تعلن أنها لا تريد أن تقترن بغيرك

— وما هى هذه التضحية ؟

— إنك قادر على اقتلاع جراثيم حبك من قلبها

— وبأية طريقة أقتلع ما تسميه جراثيم حبى ؟

— أصغ الى . . . إن وحيدتى لم ترك إلا عن بعد وأنت على المسرح مرتد أثواب الأبطال تنشد أجمل الأشعار ، فمن السهل عليك أن تبدد أوهامها إذا أنت رضيت بالظهور إليها فى مظهر الرجل العادى ، بل الرجل المتهتك السكير البعيد عن كل تهذيب وثقافة ، فتتأكد عندئذ أنها عشقت ثوباً ، وأعجبت بما ليس منك بل من أقوال الشعراء . إن ما أكلفك به هو الظهور بهذا المظهر فتحتقرك وتشفى من دائها المقام ؛ وهل من قاتل للحب غير الاحتقار ؟

استغرق فلوريدور فى التفكير . لو كان ما يعتقده الدوق صحيحاً من أنه لم يجتمع بالفتاة وما عرفها ، لكان هنالك واجب يسهل القيام به ، ولكن أنى للقلب الذى ضم المحبوب إليه أن يستسهل انسلاخه عنه . ولاحت الفتاة الشريفة الرفيعة المحتد لخيال الممثل واقفة من حبه على شفا جرف تكاد تنزلق عليه هازئة بقلب أبيها واعتقادات من تنتمى اليهم . وطال تفكيره وهو يقابل بين ضحيتها

والتضحية التي يعرضها أبوها عليه ، فاذا بصوت الشيخ الوقور يرتفع قائلاً : لا تتردد ، أيها السيد الكريم ! ان ما يوجه إليك الآن انما هو رجاء والد حصر فى وحيدته كل ما فى الحياة من سعادة ومجد وآمال ؛ فما أنا إلا شيخ هاو ضعيف ، بل أنا أحد أشراف وطنك أضرع إليك أن تحفظ اسم سلالتي من العار ، فلا تدعني أذهب بواجبي إلى القسوة على ابنتي التي لم يترك لى الدهر سواها

وأدمى كلام الشيخ قلب الفتى ، فوعد بالقيام بما يطلب منه لاستئصال حبه من قلب الفتاة الوحيدة التي ملكت لبه وملأت جوانب نفسه

— ٣ —

وفى اليوم التالى عند الظهر أعلن خادم القصر لسيده الدوق قدوم الممثل فلوريدور . فقال الدوق أدخله إلى البهو الكبير ، وها أنذا آت إليه

دخل فلوريدور البهو وجاء الدوق يصافحه ؛ ثم ظهرت الغادة ، فقال الدوق :

أقدم إليك ، يا ابنتى ، الممثل فلوريدور . الذى أعجبت بتمثيله ؛ وهو من كبار أهل الفن ، ولذلك دعوته إلى مائدتنا ولعلك تسرين بذلك

وطأطأ فلوريدور رأسه مفكراً بأية فظاظة يجب عليه أن يبتدئ بتمثيل دوره الذى عاهد الدوق على القيام به ؛ ولكنه ما رفع بصره وشهد خالبة لبه حتى علا وجهه الاصفرار ؛ وإذ مدت يدها لتصافحه وهى ترتجف من الشوق خيل اليه أنه يلصق شفتيه بشفتيها ، ويغرق نور عينيه بأنوار عينيها . والتفت الى ما حوله فارتعش أمام مظاهر الأبهة والبذخ فى هذه القاعة تقف بينها فتاة حديقة الدير التى أقسمت له بالله ألا تحول عن حبه ولا ترضى بغيره رفيقاً لحياتها ، فرأى هاوية سحيقة تنفتح تحت رجليه ولاحت له الحبيبة فى معتصم من جبل لا قبل له ببلوغه ، وتذكر وعده للأب الشيخ المتوسل الضعيف . فتمالك عواطفه وفيها ثورة وسعير

وجلس فلوريدور الى المائدة بين الدوق وحبيبته ؛ فلما قدم الخدم أول لون من الطعام كان قد ملأ كأسه وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة ، ثم ألحقها بكأس وكأس ؛ ثم أخذ يمثل دوره متكلما بلهجة عوام الناس منتخباً ألفاظه السمجة ؛ وما مرت نصف ساعة حتى كان فلوريدور يحملق بعينيه ويقسم ويلعن متدحرجاً تحت المائدة وقد سحب غطاءها معه فتدحرجت الأوانى تتحطم بفرقعة أخفت الزفرات التى كانت تندفع من فم شهيد المروءة بالرغم عنه

ونهضت ابنة الدوق باشارة من أبيها وقد علا وجهها اصفرار الموت ، فتقدم الدوق الى الفتى قائلا : — إن مروءتك تفوق إبداعك فى التمثيل . لقد جبرت فؤادى الكسير ، دعنى أسد إليك الشكر الذى تستحق . ولكن ماذا أرى ... ماهذه الدموع المتدفقة من عينيك أيها السيد ؟...

ووجم الدوق إذ لم يجبه فلوريدور بكلمة ، بل اندفع الى خارج القاعة كأنه فقد رشده مرسلا ما كبته من زفرات وعويل

— ٤ —

ومر فلوريدور بعد أيام قرب دير راهبات الكرمل ، فرأى جمعاً محتشداً فى الأسواق المجاورة وسمع رنين الأجراس مؤذنة باحتفال كبير ، وإذا بمركبة مذهبة موسومة بشارات الشرف ووراءها عدد من المركبات الأخرى ، وكلها فاخرة تجرها الجياد المطهمة . فسأل أحد المتفرجين عن هذا الاحتفال فقال له : هذه مركبة الدوق بارسلان تحمله وامرأته لحضور حفلة ابنتهما ...

في بلاد السحر والجمال

على قمم الألب

ترجمة أحمد فتحي مرسي

وفي الجنوب حيث تقوم جبال الألب سداً منيعاً بين السماء والأرض وقد جللت الثلوج رؤوسها بلونها الشف، وبريقها الفرّار، يقصد محبو الرياضة والمخاطرة، فيتسلقون شماف التلال، ورؤوس الجبال، معرضين حياتهم لداهم الخطر، وفاجىء الهلاك

يصف بعض كتاب الغرب سويسرا بأنها «مستراد الغرب وملعبه» يؤمها الغربيون رغبة في التروح والتطلق، وحباً في التجول والتسلق، وميلاً إلى اجتلاء الحسن وترشف الجمال

ففي الشمال حيث تنبسط السهول المخضارّة، وتمتد الرياض الأريجة، وقد أزّرتها الطبيعة بمطرفها الأخضر، وطرزّتها بكفها الصناع، يلجأ ناشدو السكينة، وعاشقو الجمال، فيقضون فصل الربيع، مسرحين الطرف في جنبات المروج المنضرّة، ممتعين النظر بسحر الطبيعة وروعة السكون

***

وسأقص عليك في هذه السطور، قصة ممتعة، لبعض هؤلاء الذين دفعتهم نشوة المغامرة، وحفزهم حب الاستطلاع إلى كشف قمم الألب، والوصول إلى ذروتها، على الرغم مما تخفى من حتوف، وما وتكن من مهالك:

كان الشتاء ذلك العام، شديد الزمهرير، قارس البرد، وكانت الجبال ملفعة بشفوف من الجليد مؤزرة

ولم يقف فلويدور ليسمع تتمة الحديث بل اندفع راكضاً نحو مسكنه الحقير وهو يقول في نفسه: أواه، لقد نجحت في تمثيلي، وهذه الحبيبة تتزوج اليوم بشريف من طبقة أهلها. ويلاه من ظلم الأقدار!

وما آوى إلى غرفته حتى رأى على الخوان غلافاً باسمه، فافتض ختمه وقرأ ما يأتي:

«بالرغم من محاولتك اقتلاع حبك من قلبي لم يزل شخصك نصب عيني، فلن أنظر إلى غيرك حتى يواريني رمسي. ما فاتني الجهد الذي بذلته لأرضاء والدي، فقد كنت أقرأ في قلبك حقيقة نفسك وأنت تسدل عليها ستار تمثيلك. ولهذا أقسمت ألا أسلم يدي الى سواك، ولكنك لن تتسلم هذه اليد، فكل شيء يفصلني عنك حتى إرادتك. فهأنذي أنخرط في سلك الرهبنة لأبرّ بقسم أقسمته أمام الله في الحديقة بين ذراعيك وأقسمته أيضاً وأنت تخنق زفراتك، وتقضي على كرامة نفسك

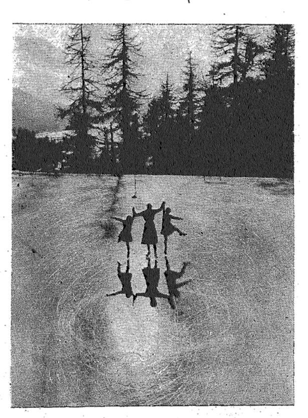
«اليوم أتشح السواد، وأسدل على وجهي النقاب. وهذا الكتاب هو آخر فكر أوجهه إلى هذه الحياة، وحتى تطلع عليه تكون حبيبتك مرغريت دي بارسلان قد ماتت عن هذا العالم لتحيا بالله ...»

الراهبة إيناس

(ف. ف.)

ببرود من الثلج ، عند ما خرجت الجماعة ، وكانت مكونة من خمسة رجال — كاشفين وثلاثة أدلاء — إذ لابد للمتسلق من دليل يهديه بين مسالك الصخور لأن من الهلاك المحقق أن يخبط بين تلك الجبال خبط عشواء دون أن يعرف شعابها ويخبر دروبها

وكان كل منهم مزوداً بفأس صغيرة لتحطيم ما يعترض سبيلهم من الثلوج الغزيرة والصخور



غروب الشمس على ثلوج سان موريتز

الناتئة التي قد تعوقهم عن مواصلة التسلق . وكان الأدلاء يحملون على ظهورهم حقائب من الصوف « rücksack » ملأى بما خف حمله من طعام وشراب ، هذا عدا حبل متين النسج ، يشدون به بعضهم الى بعض في مواقع الأخطار

أخذ السفر يتحرك وئيد الخطى ، ثابت القدم فما أوغل في المسالك حتى اعترضت سبيله ثلاجة هائلة تنحدر من ذروة الجبل إلى قرارة السهل — ولكن ما هي تلك الثلاجة ... ؟ ... الثلاجة هي مجرى من الثلوج الدافقة المتحدرة من قمم الجبال الى الهُوَى والوهاد ، وتنشأ عادة من أن الثلوج لا تنهض بما يثقل متنها من الثلوج الحديدة المتراكمة ، فيدركها الهيار وتهبط الى السهل جياشة يدفع بعضها بعضاً ...

وسطح الثلاجة مفر خداع ، فهي تبدو هادئة وادعة ، حتى إذا وطئها الانسان دون درب أو خبرة سقط في هوة من تلك الهوى السحيقة التي يخفيها سطح الثلاجة الغرار

وقد يتساءل البعض ... « ولكن لماذا يقدم الانسان على اختراق الثلاجة ، ويرمى بنفسه في التهلكة » ... والجواب على ذلك « أن عواصف الثلج تنشر عادة على صفحة الثلاجة طبقة شفة رقيقة من الجليد ، فتبدو لمن يراها مستوية ، منبسطة ممهدة ، حتى إذا وطئتها القدم لم تنهض بها ، وهوى الانسان الى قرارة الهوة

والثلاجات من تلك المناظر البهيجة التي تقع عليها نواظر رائدى الألب ، فهي في بريقها الرفاف ، ولونها الأزرق الصافي من أروع ما تقع عليه العيون ... فاذا أشرقت الشمس ، ونفضت عليها رميضاً من شعاعها اللاطف ، تجمعت لديها أبهج الألوان ، وتلاقت عليها أروع المشاهد

وعلى حفافى الثلاجة يرى الناظر ، إذا سرّح الطرف وتقصى النظر «مناضد الثلج» Glacier tables قد انتثرت في جنبات المكان ... وهي قطع من الصخور الرقيقة المتناثرة التي تجمعت تحتها الثلوج فرفعتها عن الأرض ، وكانت لها بمثابة قوائم ترتكز عليها كما ترتكز المنضدة ...

ونعود الآن الى جماعتنا وقد اعترضت الثلاجة سبيلهم ، فطفقوا يدورون حول ضفافها فى حيطة وحذر ، حتى اجتازوها بسلام ، فاذا هم فى ضيق منبسط ، وإذا بالدليل يشير الى شىء أسود قائم على مدى البصر ، فرفع الجميع نواظرهم ليتبينوا به معرفته ، فاذا به كوخ صغير قائم على سفح الجبل... ولكن أى كوخ هذا ؟ ... أيقيم هنا إنسان ؟ ... كلا ، فهذا الكوخ ليس فى حيازة أحد ، بل أقامته الحكومة ليتحرز به المتسلقون ، من عوادى البرد ، وظلمة الليل ، ووعثاء السفر

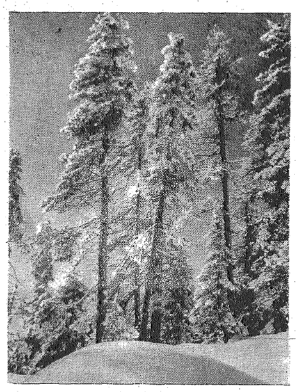
وكانت الشمس الغاربة تطوى مطارفها الزاهية عن الكون ، عندما بلغ أصحابنا الكوخ ، وقد أضناهم التعب ، ونال منهم النصب ، وبلغ بهم الجوع مبلغا جعلهم يلتهمون الطعام التهاما ... ثم أخذ الليل يلف الكون فى مسوحه السود فاضطجع كل منهم فى ركن من أركان الكوخ وراحوا فى سبات عميق

* * *

وتيقظ الجميع بعد الواحدة بقليل على صوت الدليل ، وكانت السماء صافية الأديم مسفرة الوجه ، تسطع فى جنباتها النجوم البراقة ، وتخفق فى حواشيها الأضواء الرجافة ، التى تنعكس على الجليد فيبدو كالزجاج الرائق المذوب ، وكانت نسمات الألب العاطرة الهفافة تملأ الصدور وتنفح الجسوم عندما ابتعدوا عن الكوخ ، وراحوا يتابعون التسلق بين الحيطة والحذر ، فقد بدأت أخطار الطريق تبدو جلية ، فتكشفت الثلوج ، وبدت الهوى السحيقة وعاد الجليد ينهار تحت أقدامهم ؛ فابتدروا الحبل وشدوا به بعضهم الى بعض ، وساروا يتبعون الدليل فى رهبة وتؤدة

وأفصح الفجر ، فجلى لهم الطريق ، وبدت أمامهم قمة ثلجية دقيقة الذروة لابد من عبرها ، تقع فى جانبها الآخر هوة سحيقة ، وكانت القمة عالية ، ضيقة لا يتسع صدرها لأكثر من اثنين ، إذا زلت قدم ، فالله أعلم بالمصير

وهنا يبدو ذكاء الدليل ومرانه ، فهو دائماً ثابت القدم رابط الجأش فى مواقع الأخطار . لأنه



الغابات تغطى سفوح الألب السفلى

من الهلاك للانسان أن يجفل أو يرجف ، أو يسير مشترك الخاطر ، موزع اللب ...

وتقدم الدليل وفأسه فى يمناه ، يشق بها طريقاً إلى أعلى المرتقى ، والآخرون فى أثره يزحفون وقد عقل الخوف ألسنتهم وغشى الرعب قلوبهم ، فأخذوا يتشبثون بالحبل كلما علقت أبصارهم قرارة الهوة ... وأخيراً بلغوا الجانب الآخر بعد لأى

وجهد ، فاذا بهم فى منبسط من الثلوج يضم ثلاجة جياشة هائلة ، تقوم على ضفافها مرتفعات من الجليد تنهار إلى الثلاجة مرتفعاً بعد آخر فهم الآن بين هلاكين . فالثلاجة عن يمينهم مائجة مزبدة ، والثلوج عن يسارهم منهارة متساقطة ، فلا سبيل إلى النجاة إلا بعد الثلاجة ولكن أنى لهم ذلك ؟

تقدموا قليلا فاذا هم أمام هوة لا يدرك البصر مداها ، عليها جسر رقيق ضيق من الجليد ، فأسرع

من مناظر الألب الغريبة

الدليل يتبعه أحد الرجال ، وكانت الفأس فى يده يمهد بها الجسر ، ويرسم بها مواقع الخطى ، وما إن بلغ منتصف الجسر حتى بدرت منه صيحة رعب عالية ، فالتفتوا جميعاً فاذا الجسر ينهار تحت قدميه ويتساقط إلى قرارة الهوة السحيقة

ولم يكن على الجسر فى تلك اللحظة إلا الدليل وزميله ، أما الباقون فقد ارتدوا إلى حافة الهوة ممسكين بطرف الحبل

ومرت لحظة رهيبة اختفى الجسر بعدها عن النواظر ، يحمل الرجلين فى طواياه ولم يبق إلا الحبل يضطرب فى أيدى الآخرين اضطراب الأرشية فى البئر البعيدة الغور . ترى أينقطع الحبل وينقضى الأمر فيضم الألب ضحيتين جديدتين الى سجل ضحاياه؟ ويمضى الآخرون دون هدى أو غاية ، حتى ليقتلهم الجوع ويصرعهم البرد

وفجأة ثقل عليهم الحبل فأدركوا أن زميليهم ما زالا معلقين بطرفه الآخر ، فانجلى اليأس عن قلوبهم ، ودب فيها الأمل ، فأخذوا يجذبون الحبل فى هدأة وصمت .... وبعد لحظات ظهرت رأس أحد الرجلين وهو يحطم بفأسه ما يعوق الحبل من الجليد . وما بلغ حافة الهوة حتى انبرى يعين زملاءه على اخراج الدليل الذى ظهر بعد لحظة وعلى ثغره ابتسامة هادئة ، وهو يتمتم بكلمات الشكر

وجلسوا جميعا التماساً للراحة بعد هذا الجهد البالغ ، ثم قاموا يبحثون عن جسر يعبرون عليه الهوة ؛ وأخيراً عثروا بعد جهد جهيد على جسر أشد تماسكا ، وأثبت بناء من الأول ، فتقدم الدليل يخبره فى حذر ، حتى إذا تثبت منه تبعه الجميع الى الضفة الأخرى من الهوة

* * *

وكان فى الجانب الآخر مرتفع صخرى ينحدر إلى حافة الثلاجة ، فكان لا بد من ارتقائه ، فصعد الدليل وهم فى أثره ، إلى أن توقف فجأة متقصيا النظر الى الأفق البعيد وقد عرى وجهه عبوس وجوههم فتلفت الجميع إلى حيث ينظر ، فاذا بهم يرون على مدى البصر ، ضبابا أبيض كالدخان

يتقدم نحوهم فى سرعة عجيبة ... فقال الدليل :

— إنها عاصفة ثلجية تجتاح الجبال ... فسأل أحد الرجال :

— وهل تلبث طويلاً

— من يعلم ؟

وأرسل الدليل بصره يمينا وشمالاً ليتثبت من موقعهم ووجهة سيرهم قبل أن تغشاهم العاصفة وتضرب عليهم حجابها الكثيف فتحجب عنهم الطريق .... وبعد لحظات كانوا يدرجون فى جوف العاصفة التى أحالتهم جميعا كتلا من الثلج تتحرك ، وخلعت عليهم أبراداً من الجليد ، لفتهم من قمة الرأس إلى اخمص القدمين

وقد دامت العاصفة برهة غير قصيرة ، هدأت بعدها ثورة الريح ، وتقشع ضباب الثلوج ، وأشرقت أشعة الشمس ، فأخذوا ينفضون عن جسومهم حلل الثلوج ، ويمسحون عن جبينهم ماءها البارد

وكانوا قد اجتازوا المرتفع ونزلوا فى واد منبسط يلوح فى نهايته ، حائط أملس من الثلج ، لا تعلق به كف ، ولا تتماسك عليه قدم ، يبلغ ارتفاعه زهاء المائة متر

فوقفوا أمامه مشدوهين ، ومضت برهة قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، كأنه يدور بخلدهم ذلك السؤال « كيف لنا أن نتعلق بذلك الحائط الأملس ؟ »

بعد برهة من الحيرة والتساؤل ، تقدم الدليل فشد أوساطهم إلى الحبل ، وأخرج فأسه ، وسار أمامهم إلى الحائط فأخذ يدرجه بالفأس ، ويحفر فيه مواقع الأقدام ، ثم أخذ يصعد رويدا رويدا ، وهم فى أثره ، وكل بيده الفأس يشق بها الطريق

وكان الجميع يصعدون فى ريث وحذر ، فإن زلة قدم واحدة تؤدى بهم جميعاً إلى الهلاك . وأخيراً بعد لأى وعناء ، بلغوا نهاية الحائط فجلسوا يتناولون طعامهم ... وامتنع احد الرجال عن الطعام ، لأنه كان يحس بدوار شديد ، فقد ثقل عليه رأسه وامتقع لونه ، وآلمته عيناه ، وتتالت زفراته ، وذلك لخلخلة الهواء فى الطبقات العليا من الجو ... ولكنه على الرغم من ذلك لم يفكر قط فى التأخر او العودة

وبعد الطعام بقليل قاموا يصلون السير ، ويتابعون التسلق ، فأنه لم يبق أمامهم إلا القليل للوصول إلى قمم الألب ؛ فساروا يحثون الخطى بعزم وجد ، فعبروا بعض القمم ، واجتازوا بضع مرتفعات متقاربة

وكانت الشمس قد ارتفعت ، والنهار قد متع ، فطرق سمعهم صوت متزن الجرس ، متسق النبرات ، يغنى « أغنية النصر » المعروفة ، فالتفتوا جميعاً ، فاذا بالدليل قد بلغ طلائع القمم !

(عن الانجليزية) أحمد فتحى مرسى



عاشت عيشة مترفة فى قصر ريفى بديع يحف به الجمال من كل جانب ... وكانت امرأة ذات حسن عبقرى ، وجسم خصيب ، وأنوثة متيقظة ، ترنو إليها العيون أينما حلت ، وتشيعها القلوب أينما ذهبت ، حتى أصبحت حديث أهل المدينة كلها وفتنة لشبابها ، فترامى اسمها إلى ما وراء ذلك الاقليم « ويسكس » يجد الناس فى ذكره حلاوة وفى ترديده متعة وسلوة ... أما هى فقد استعذبت تلك الحياة وأخلدت إلى هذه الدعة واطمأنت إلى تلك الألسنة التى تهتف باسمها فى كل يوم ، ولكن قلبها المتكبر الذى كان يشرف على تلك القلوب الساجدة العابدة لم يجد هواه إلا فى شاب رقيق الحال عادى الهيئة قد انحدر من أسرة فقيرة متواضعة . إذ كان أبوه يعمل كاتباً فى « دائرة » والدها ، ولكنه كان وديع الخلق ، كريم النفس ، رقيق المزاج ، قد أغرمت به فتاة قروية ساذجة ، فلم يرد أن يصدمها فى حبها الأول ، بل وهبها جانبا من حبه الشاب الفائض ، وأحلها ركناً من أركان قلبه الفسيح العامر ؛ فأرادت تلك الفتاة النبيلة « كارولين » أن تستأثر بذلك الشاب فاغتنمت فرصة تردده على منزل والدها بحكم عمله وأخذت تتودد إليه ... تحدثه مرة وتغازله أخرى ؛ وكانت ماهرة فى هذا الفن مجيدة لهذا النوع من الصيد ... ولم يكن الشاب بالجامد القلب ، الخامد العاطفة ، بل كان مشبوب الاحساس ، ملتهب الشعور ، فسرعان ما استجاب لبريق عينيها ، وخضع لرخامة صوتها ... ولكنه لم يكن يعتقد أن حظه سيسمو به إلى مراتب النبلاء ، بل أيقن أن اهتمامها به لا يعدو فرجة لعواطفها المكبوتة ، وألهية لنفسها الحائرة ، ولم يدر أن هذه الفتاة تكره أصحاب الطبائع المزيفة والشخصيات المستعارة ...

ولكن قد يجيء الوقت الذى ترى فيه العين الغبية الغاشية فى عين صاحبها نور الحب وبريق الهيام ، وها قد جاء للفتى الموعود ، ولم يكن بالغبى الأحمق فسرت الطمأنينة إلى قلبه ، وتعددت بينهما المقابلات حتى إذا ما خلا كل إلى صاحبه كشف له عن نفسه وباح له بمكنون سره ؛ فيتهامسان ويتناجيان ثم ينصرفان دون أن يذيعا سراً ، أو يفضحا أمراً ... ثم تمكنت بينهما الألفة حتى لم يستطيعا أن يكبحا تلك العواطف الثائرة التى كانت تضطرم فى قلبيهما

ولكن الفتى كان دونها شرفاً ومرتبة ، فلم تكن تستطيع أن تعلن زواجها به ، فاتخذت المسألة حلاً وسطاً ، فعزمت على الاقتران به دون أن يعلم بذلك أحد ... ثم نظما فيما بينهما مواعيد المقابلة ، فكانا يلتقيان فى إحدى غرف المنزل بعيدين عن

أعين الناس ، فيقضيان ساعة تسكر فيها روحاها بلذة الهدوء والغبطة ؛ ولكن هذه العاطفة المشبوبة ما لبثت أن خمدت فأخذت تفيق من السكرة الأولى ، وخلت إلى نفسها تفكر فيما أتته من طيش ورعونة ، وكيف أن فتاة كريمة المحتد عريقة النسب تتزوج من شاب دونها شرفاً وقدراً ... وكان خليقاً بها أن تقترن بنبيل عظيم ، أو قاض نابه ، أو أسقف جليل ... أجل لقد كان زوجها الشاب ذكي الفؤاد واسع الاطلاع ، ولكنه كان قليل التجارب ضيق الخبرة ...

لقد اعتاد أن يزورها تحت أستار الليل فيتسلق إلى نافذة غرفتها فيجدها في انتظاره ، ويأوى إلى جانبها ساعة والناس نيام ، ثم يعود إلى كوخه الصغير قبل طلوع الفجر ... ثم جاءها ليلة وقد شاقه الحب إليها ، ولكنه لم يمض معها ساعة حتى مل الحديث وهمّ بالنزول ، فقد كان لقاء ثقيلاً متكلفاً سمع فيه ما أثاره وأخرجه عن نفسه إذ شعر أن قلبها قد أخذ يتحول ...

والحقيقة أن اهتمامها بمصيرها أخذ ينسيها حبها إياه ... وعلى فجأة أحس بألم يقطع أحشاءه فهب واقفاً ثم مال الى النافذة يستنشق بعض الهواء ، ثم ما لبث أن همس بهذه الكلمات : « آه ياقلبي ! » ثم سقط على الأرض جثة هامدة ... فأسرعت إلى إشعال المصباح وقد خبا ضوؤه وانحنت عليه تسأله ما به ، ولكن قلب المسكين كان قد وقف ، فاستيقظ في ذهنها ما كان الطبيب قد قاله له من أنه مصاب بمرض القلب ، وأن هذا المرض قد يورده حتفه يوماً

ثم أخذت تفحصه مدة طويلة ولكنها أدركت أخيراً أن زوجها المسكين قد قضى نحبه فبقيت حائرة لا تدرى ما ذا تعمل

ولقد أحست أولاً بالحزن والأسى على فراقه ، لكنها ما لبثت أن أخذت تفكر في مكانتها كابنة أحد النبلاء فنظرت الى الجثة وقالت : « لماذا تموت هنا أيها الزوج التعس وفي تلك الساعة ؟ . . لماذا لم تمت في كوخك . . ؟ إذاً لما عرف أحد أمرنا ولبقى سرنا مكتوماً » . . . ولكن دقات الساعة العالية في سكون الليل العميق قد أيقظتها من ذهولها ، فنهضت مسرعة الى الباب ، وقد عزمت على إخبار والديها بحقيقة الأمر ظانة أن هذا هو الطريق الوحيد لخلاصها من هذا المأزق ... غير أنها لم تكد تدنو من الباب حتى رجعت عن عزمها وقد أيقنت أن في إيقاظ والديها إفشاء لسرها كله ، فعولت على حمل الجثة بعيداً من دون مساعدة أحد . . ثم أخذت تتهيأ لهذا العمل الجسيم ، فألبسته ملابسه وربطت ذراعيه ونزلت به سلماً ضيقاً ... ثم حملته إلى مكان أمين تظلله الأشجار . . . وعلى باب كوخه ألقت بحملها الثقيل ؛ وقد أخذ منها التعب كل مأخذ ؛ ثم وضعت في يده مفتاح بيته الخشبي لتعمى الحقيقة على الناس ، وانحنت عليه وقبلته القبلة الأخيرة ، وعادت أدراجها وهي تعفي آثار قدميها في الطريق . . . ثم انسلت إلى مخدعها دون أن يشعر بها أحد ؛ وأوت إلى غرفتها وأغلقت نوافذها ، وأعادت كل شيء إلى ما كان عليه

ولكن لم يكد يطلع الصباح حتى ذاع في المدينة نبأ موت ذلك الشاب الريفي الوديع على باب منزله وهو يحاول فتحه . . لقد كانت جميع الظروف تدل على أن الميتة طبيعية ، فلم يثر حولها نقاش ...

ولكن بعد تشييع الجنازة أخذ الناس يهمسون أن رجلاً كان سائراً فى الطريق فى ساعة متأخرة من الليل ، فرأى شبح امرأة يدب فى الظلام وهى تجر جثة ثقيلة فى طريقها إلى كوخ ذلك الفتى ، فأخذوا ملابسه القديمة وفحصوها من جديد ليروا فيها من آثار الجر على الأرض ، وأخيراً عرفوا أنه هو الرجل بعينه .

أما كارولين الجميلة الذكية فأخذت تفكر فيما يجب أن تعمله ... فرأت أولاً أن تعترف بالحقيقة كلها ... إلا أنها بعد أن بلغت الى تلك المرحلة دون أن ينكشف أمرها أو يرتاب فيها أحد ، عزمت على بذل مجهود آخر لأخفاء باقى المعالم . . . وسرعان ما لمت فى خاطرها تلك الفكرة ... لقد كان ذلك الزوج يحب فتاة قروية قبل أن يقع فى شراك هذه النبيلة ، وكانت هذه الفتاة لا تزال على حبها إياه إذ لم تكن تعرف من أمر زواجه شيئاً . . على أن نفوذ كارولين على أولئك الفلاحين الذين يعملون فى أراضى والدها كان عظيما ... لها الكلمة النافذة والقول المسموع ... فعزمت على مقابلة تلك الفتاة تمسح فيها عارها وتحملها نتيجة وزرها بعد أن أخذت تفيق من نشوتها ، وشعرت بآلام الفضيحة والندم تنوش صدرها كلما ذكرت ذلك الزوج المنحوس ، حتى لقد كرهت اليوم الذى لقيته فيه وودت أن لم تكن قد رأته قط . وسرعان ما اهتدت الى تلك الفتاة فوجدتها ممتقعة اللون مهدودة الجسم ، قد ارتدت ثوباً أسود حداداً على ذلك الشاب الذى أحبته وأخلصت له وإن لم يمتن بها إلا قليلاً ... فقالت كارولين :

آه ! لقد فقدت حبيبك يا « مبلى »

فلم تستطع الفتاة أن تحبس دموعها المنهملة وقالت : « لم يكن حبيبى تماماً ولكنى كنت أنا حبيبته . أما وقد مات فانى لا أهتم بالحياة بعده »

« أتستطيعين أن تبقى على سر من أسراره يامبلى ؟ إن هذا السر يتصل بشرفه ولا يعرفه إنسان غيرى ، ولكن يجب أن تعرفيه أنت »

فأظهرت الفتاة استعدادها لكتمان هذا الأمر . وحقاً لقد كانت وفية لذلك الشاب الذى أحبته والذى تبكيه الآن

« إذاً فقابلينى اليوم بعد الغروب عند قبره أفض إليك به »

وفى غسق تلك الليلة من ليالى الربيع الجميلة ، كان شبحا هاتين الفتاتين يحومان حول قبر ذلك الفتى التعس . وفى ذلك المكان الموحش ، وفى تلك الساعة الرهيبة ، أخذت الفتاة ذات النسب والجمال تقص على ابنة الحطاب كيف أحبته وتزوجته سراً ، وكيف مات فى غرفتها ، وكيف جرته فى جوف الليل الى كوخه حتى لا ينكشف أمرها

فصاحت تلك الفتاة الساذجة مذعورة :

— تزوجته يا سيدتى ؟ !

— نعم ولكن هذا كان طيشاً منى . كان الأجدر به أن يتزوجك أنت يامبلى فقد كنت له ، لكنك فقدته

— نعم وهم من أجل ذلك يسخرون منى فيقولون : لقد جننت به حباً وهو لم يلتفت إليك

— إن النصر على أولئك المتهكمين حلو لذيذ ... لقد فقدته حياً ولكن يمكنك أن تستردیه ميتاً وعلى ذلك تستطيعين أن تنالى من أولئك الساخرين ما تريدين

— وكيف ؟

فأفضت إليها كارولين بما يجب أن تعمله . . .
وهو أن تعلن ميلى بين الناس أن ذلك الشاب كان قد عقد عليها سراً ، وأنه كان يزورها فى كوخها فى الليلة التى توفى فيها . فلما قضى نحبه بين يديها حملته إلى منزله لتدرأ عن نفسها الفضيحة والعار .. وأن تقول إنها كانت عازمة على حفظ ذلك السر فى نفسها لولا أن الاشاعات والأقاويل قد أجبرتها على إفشائه

فأجابتها ابنة الحطاب وهى دهشة لهذه الفكرة :

— وكيف أثبت هذا ؟

— يمكنك أن تقولى إنك تزوجته فى كنيسة القديس ميخائيل فى مدينة (باث) باسمى بحجة أنه أول اسم خطر ببالك لتنقذى اسمك من التهمة . . . وسأعينك على ذلك

— أوه إنى لا أحب أن . .

— إذا عملت ما آمرك به فانى سأكون صديقة لك ولوالدك وإلا فسيكون لى معكما شأن آخر . . وسأعطيك الآن خاتم الزواج لتلبسيه كما لو كان لك

— هل ألبسه يا سيدتى ؟

— فى الليل فقط

وأخيراً قبلت ميلى ما عرضته عليها كارولين دون تردد كبير إذ لم يكن الوقت يحتمل تردداً . . ثم أخرجت الفتاة النبيلة الخاتم من صدرها ووضعته فى أصبع ميلى وهى واقفة على قبر حبيبها . فاقشعر بدن الفتاة ومالت برأسها وقالت :

— أشعر أنى أصبحت عروساً لجثة

ولكن هذه الفتاة ما لبثت أن شعرت أنها قد ارتبطت بتلك الجثة قلباً وروحا وأحست بشىء من الهدوء يسرى إلى نفسها . . فخيل إليها أنها قد استحوزت فى الموت على ذلك الشاب الذى عبدته على غير طائل فى الحياة

ثم أعطتها كارولين كل آثار الذكرى التى كان زوجها قد قدمها إليها حتى خصلة الشعر

وفى اليوم التالى أعلنت الفتاة ذلك الأمر بين الناس حتى ذاع بين أهل المدينة كلها . وفى ذهول ذلك الموقف الجديد أخذت ميلى المسكينة تمثل الدور كما لو كان قد حدث معها فعلا . واستطاعت بما كانت تصيبه من مال كارولين أن تشترى منزلا صغيراً وأن تتردد على الكنيسة من وقت لآخر ، وقد ازدادت جمالاً وفتنة أيقظا فى قلوب خديناتها القرويات الغيرة والحسد .. ثم فكرت فى أن تقيم نصباً تذكاريا فوق قبره ما دامت كارولين تقوم بدفع النفقات ، فما عليها هى إلا أن تقدم الحزن والأسى . . . وما لبثت ميلى أن ارتاحت إلى تمثيل دور الأرملة ، ووجدت فى زيارته كل يوم والبكاء فوق قبره لذة وتفريجاً ، فكانت تنثر الأزهار فوق قبره وأصبحت تعتقد وهى تخطر فى ثوبها الحزين أنها كانت زوجة حقاً

ثم اتفق أن مرت كارولين يوما مع بعض صاحباتها بتلك المقبرة فلمحن ميلى وقد انحنت على قبر حبيبها تنثر فوقه الأزهار فى رقة وحنان ، فتأثرن لهذا المشهد المؤلم وعجبن لذلك الوفاء النادر الذى لا بد أن تكون صاحبته قد وجدت صداه فى ساكن ذلك القبر .. أما كارولين فقد شعرت كأن نوراً غريبا ينبعث من عينيها يحسد تلك الفتاة على مكانها هذا كأنه لا يزال بقلبها بعض الحب لزوجها المتوفى ... ولكن الفروق الاجتماعية أكرهتها على إخفائه فى طيات صدرها . وأخيراً لم تستطع تلك الفتاة أن تقهر تلك العواطف القوية التى كانت تصطرع فى نفسها . . . فذهبت يوما الى المقبرة ، وكمنت وراءها حتى إذا ما جاءت ميلى تنثر الأزهار

على القبر كعادتها كل يوم برزت لها كارولين وهى شاحبة مرتجفة تقول :

— ميلى ! اقتربى منى ! إنى لا أدرى ماذا أقول لك ... فقد كدت أموت

فعجبت ميلى لهذه المفاجأة الغريبة وقالت :

— معذرة يا سيدتى .. !

فدنت منها السيدة واختطفت يدها اليسرى وقالت :

— أعطنى هذا الخاتم

فأسرعت ميلى الى انتزاعه من أصبعها ... ثم أعادت كارولين سؤالها فى صوت حاد غاضب وقالت :

— إنى أطلب اليك أن تعطينى اياه ... أوه ! أوه إنك لا تعرفين السبب ... لقد عرانى حزن وألم لم أكن أتوقعهما !

فأجابتها ميلى وقد تملكها الذعر

— ولكن ماذا تريدين يا سيدتى ؟

— يجب أن تعلمى أن كل ما عملته كان كذبا وادعاء لا أساس له من الصحة ... وأنى أمرتك أن تمليه محافظة على اسمى ... وأنه لم يتزوج غيرى ... وقصارى الكلام يجب أن تذيعى الحقيقة وإلا قضى على جسمى وعقلى وشرفى الى الأبد »

ولما كان لكل شىء حد فان للهدوء والوداعة حدها أيضاً ... فقد أصبحت ميلى تعتقد أنها قد امتزجت بذلك الشاب لحما ودما وأصبح لها الحق فى أن تحمل اسمه كما حملته ... وأن تحلم به كزوج وتتحدث عنه كزوج ... حتى لم تمد تفكر فى سواه . وأخيرا قالت وقد غمرها اليأس والقنوط :

— لا ... لا ... إنى لا أستطيع أن أتركه . . لقد أخذته منى حياً ورددته إلىّ ميتا . سأحافظ عليه الآن . أنا أرملته الوحيدة . فان نصيبى فيه أوفر من نصيبك . لأنى أحبه وأبكيه وأدعى باسمه العزيز

فصاحت كارولين وقد كاد الشرر يتطاير من عينيها :

— إنى أحبه ولن أسمح لمخلوقة مثلك أن تنتزعه منى ... كيف أسمح بذلك وهو أب لذلك الجنين الذى يضطرب فى أحشائى ... يجب أن تعيديه إلىّ ثانية ... ميلى ! ميلى ! ألا ترحميننى وتقدرين موقفى ؟ ياللتسرع ! إنه عدو النساء ، لماذا لم أترو قبل أن أقدم على العمل ؟ هيا أعطينى ما أعطيتك وأكدى لى أنك ستساعديننى على نشر الحقيقة

— محال ! محال ! ؟

وقد ازدادت الفتاة إصرارا وعنادا : « انظرى إلى هذا النصب ... انظرى الى ثوب الحداد ... الى هذا الخاتم ... استمعى الى الاسم الذى ينادوننى به ... إن نفسى ليست أهون علىّ من نفسك ... أفبعد أن أعلن أن حبه حبى ، وأن نفسه نفسى ... وأحمل اسمه بدلا من اسمى ، وأتخذ من موته حزنى وشجنى . . . أجىء اليوم فأهدم ما بنيته بدمى ودمعى ؟.. لا ! لا ! لن أرضى لنفسى هذا العار ... إنى أصدقك القول يا سيدتى ... إن قصتى هى الحقيقة بعينها ، وأنك كنت واهمة فى كل ما ادعيته لنفسك . . . ولكن أرجو يا سيدتى ألا تدفعينى إلى هذا ، إنى أتوسل إليك أن تبقيه لى »

لقد كانت ميلى تزعم أنها أرملة تدافع عن زوجها ... حتى أن كارولين رقت لحالها بالرغم منها ... فقالت لها :

— نعم ... إنى عالمة بموقفك ... ولكن فكرى

فى ... ماذا أعمل ... فبدونك لن أستطيع أن أبقى على اسمى ... فان نشر الأكاذيب والفضائح أحب شىء للجمهور ... » ولم تمض بضع دقائق حتى كانت الفتاتان قد شعرتا بضرورة العمل معاً .. فأخذتا تتشاوران فيما يجب أن يعملا ... وأخيراً عادت ميلى الى بيتها ... وأفضت كارولين الى أمها بكل ما حدث ... ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى تركت كارولين وأمها القرية وذهبتا الى لندن حيث وافتهما هناك ميلى بحجة تغيير الهواء على نفقة تلك الفتاة النبيلة التى كانت تشفق عليها فى محنتها ووحدتها

وفى مستهل العام الجديد عادت ميلى الى القرية تحمل بين ذراعيها رضيعاً فأقامت فى منزلها الصغير تمنى بذلك الطفل الجديد بما كان يصلها من كارولين من مال ...

وبعد ذلك بعامين تزوجت كارولين بأحد النبلاء ... فعاشت معه عيشة سعيدة إلا أنهما لم ينجبا طفلا . . . بينما كان ابن ميلى يكبر شيئاً فشيئاً ، وكانت أمه تتوسم فيه يوماً بعد يوم صورة ذلك الرجل الذى استحوذ على قلبها الشاب ... ثم ذهب به الى القبر ... فسهرت على تربيته قدر ما كانت تسمح به ظروفها ... إذ أخذت كارولين تنصرف عنهما شيئاً فشيئاً ، ولم تعد تفكر فى طفلها إلا لماما . . . ولكن ميلى كانت تقتطع من قوتها لتقوم بنفقات الطفل ، فأرسلته الى المدرسة الابتدائية .. ولما بلغ العشرين دخل فى الجيش متخذاً من الجندية ألهيته وعمله ، وسرعان ما أكسبته رجولته الكاملة وأخلاقه القوية ومواهبه النادرة إعجاب رؤسائه . . فحبوه بعطفهم وحبهم حتى أبلى بلاء حسناً فى تلك الحرب الضروس التى خاضتها بلاده أخيراً ... فلما انتهت عاد الى انجلترا وقد رقى الى قائد فرقة ولما يبلغ الخامسة والعشرين

ترامت أخبار ذلك الابن الى كارولين ... وكيف أنه قد أشرف على الذروة دون أن يكون صنيعة لأحد . . . فأيقظت فيها غرائز الأمومة الكامنة وملأتها كبرياء وفخراً . فأخذت تهتم بابنها الظافر الموفق ورغبت فى رؤيته بعد أن توفى زوجها « المركيز » دون أن تعقب منه ولداً ... فاتفق يوماً بينما كانت تسير بعربتها خارج المدينة أن مرت بها إحدى الفرق العسكرية فوقع بصرها على ضابط شاب قد امتطى جواداً أصيلا مطهماً ... فسرعان ما عرفته لما بينه وبين زوجها الأول من شبه قوى ، فضاعف هذا المنظر عواطف الأمومة التى بقيت كامنة فى زوايا قلبها هذه المدة الطويلة ، فأخذت تسائل نفسها كيف صبرت على إغفاله هذه السنين الطوال ... فلو أنها كانت جريئة فى حبها مخلصة فى عاطفتها ... لاعترفت بزواجها الأول ونهضت بتربية ذلك الطفل كابن لها . . . فماذا كان يضيرها لو أنها فقدت هذه الجواهر النادرة وكسبت ابناً شهماً قادراً . . . أخذت هذه التأملات والعواطف تعمل فى قلب تلك المرأة الكئيبة الوحيدة ، وأخذ الندم ينوش فؤادها الحزين على عدم الاعتراف بزوجها الأول أضعاف ما آلمها للاقتران به

وأخيرا لم تستطع أن تغلب تلك الرغبة القوية الملحة التى كانت تتأجج فى صدرها حتى أيقنت أنها لا يمكنها أن تعيش دون أن تعلن أمومتها لهذا الفتى ، فعزمت على أن تنتزعه من حضن تلك المرأة التى أخذت تضمر لها الكراهية والبغضاء لأنها استبدت بذلك الطفل دونها . . . ثم أيقنت أن ذلك الابن سيرحب باستبدال فلاحة معدمة ، بأم أخرى نبيلة غنية

وفى اليوم التالى ذهبت إلى بيت ميلى القديم فى تلك القرية الصغيرة فوجدتها لا تزال فى ثيابها السوداء الريفية حداداً على فقد حبيب شبابها ... فلم تكد تخطو الى داخل الكوخ حتى صاحت :

— انه ابنى يجب أن تتركيه لى . . . لقد أصبحت فى موقف أتحدى فيه العالم أجمع . أظنه يزورك من وقت إلى آخر

— كل شهر منذ أن عاد من الحرب . . . ياسيدتى ... ويمكث يومين أو ثلاثة فى كل مرة ... وأصحبه أحياناً فى رحلات قصيرة . قالت هذا فى صوت الظافر المطمئن

فأجابتها كارولين فى هدوء :

— حسن . يجب أن تتركيه لى . إنك لن تفقدى شيئاً فلك أن تريه متى شئت . سأذهب الآن إلى اثبات زواجى الأول وسآخذه معى

— لقد نسيت يا سيدتى أن هناك اثنين يجب أن يؤخذ رأيهما فى هذا الموضوع ، لست أنا فقط بل هو كذلك

— سأتمم كل شىء . لا تظنى أنه سيرفض . ولكنها لم ترد أن تسرع الى ميلى بالتعرض إلى الأصل والنسب ، فقالت : إنه لحمى ودمى ولا يتصل بك فى شىء . فانفجرت القروية غيظاً وقالت فى تهكم مرير : « ماذا يعنينى من أمر اللحم والدم ؟ إنى أترك المسألة له فلندعه يفصل فيها بنفسه »

فأجابتها كارولين : « هذا كل ما أبغيه . قات أرسلى فى طلبه ولأقابله هنا » . ثم أرسل فى طلب الضابط ، وجلس الثلاثة فى ذلك الكوخ الصغير يتداولون فيما بينهم

لم يدهش الشاب إذ علم أن أمه إحدى النبيلات المشهورات فقد كان يعرف أن ولادته محاطة بشىء من الغموض — أما سلوكه نحو البارونة فانه لم يخل من الاحترام والتقدير ، إلا أنه كان أقل مما تنتظر ، وأخيراً وضع أمامه أمر التفاضل بينهما وسرعان ما قال قولته الأخيرة :

« لا يا سيدتى . إنى أشكرك كثيراً ، ولكنى أفضل أن أترك الأمور كما هى ، فان اسم والدى هو اسمى على أى الحالات . إنك لم تعنى بى يا سيدتى إلا قليلاً عندما كنت طفلاً لا حول لى ولا قوة ، فلماذا أدعى إليك الآن وقد أصبحت قوياً قادراً ؟ !!

إن هذه المخلوقة العزيزة (مشيراً إلى ميلى) قد حبتنى عطفها طفلاً ، وعالتنى شاباً ، وسهرت على مريضاً ، وحرمت نفسها حتى أتفه اللذات من أجلى . إنى لا أستطيع أن أحب أماً أخرى كما أحبها . إنها أمى وسأكون دائماً ابنها ، ثم طوق عنقها بذراعيه وطبع على جبينها قبلة أودعها أرق عواطف البنوة وأسماها

فلم تقو كارولين المسكينة على مشاهدة هذا المنظر الذى كاد يستل روحها من بين أضالعها . فقالت وقد خنقتها العبرات وتهدج صوتها فى حلقها :

— إنك تقتلنى ! ألا تستطيع أن تحبنى أيضاً ؟

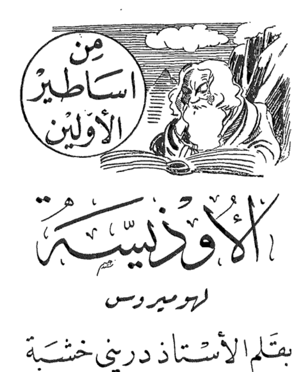
— لا يا سيدتى . لقد كرهت أن تنتسبى إلى أبى الفلاح ، وإنى أكره أن أنتسب إليك !

فتنهدت المرأة تنهدات عميقة عالية وقالت :

« ألا تستطيع أن تعطينى قبلة واحدة ... كما أعطيتها ؟ إنها ليست كثيراً ... هى كل ما أريد ... كل ...

فأجابها : نعم . ثم قبلها قبلة عابرة باردة كانت فيها نهايتها .

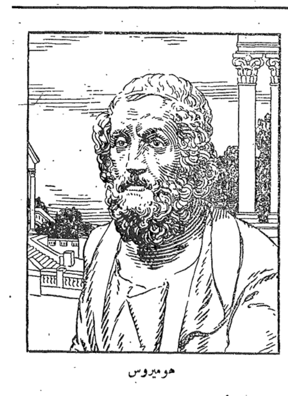
نظمى خليل



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة


هوميروس

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسيو

خلاصة الفصول السابقة(١) :

« لما وضعت حرب طروادة أوزارها عاد كل القادة اليونانيين إلى أوطانهم إلا أوديسيوس الذى ضل طريقه فى البحر لما كان بينه وبين نبتون من عداء — وقد كانت زوجته پنلوپ على قسط وافر من الجمال فطمع فيها كل أمراء بلاده وحاصروا بيتها واستنفدوا خيراته . وكان ابنه تلیماك فتى طرى العود فلم يقو على نضالهم ولكن مينرفا ربة الحكمة كانت تعطف على والده وتمقت أولئك العشاق ؛ فبدت للفتى فى صورة آدمية ونصحته أن يذهب من فوره الى نسطور ملك پیلوس ومنالايوس ملك أسپرطة ليسألهما عما كان من أمر أبيه — وقد أبحرت معه مينرفا لتحرسه وتسهر عليه . وأكرم الملكان وفادته وقص عليه ملك أسپرطة تنبؤات پروتيوس إله الشاطئ المصرى عما كان من أمر أوديسيوس وما كان من عداوة نبتون اله البحر له . وأنه ما يزال منفيا فى جزيرة كاليبسو — وهال العشاق إبحار تلیماك فصمموا على قتله عند عودته وتربصوا له فى البحر بالفعل . »

(١) نجتهد بقدر المستطاع أن نلخص جميع الفصول السابقة حتى تتصل الحوادث فى ذهن القارئ الذى ساير الملحمة من أولها ، ولكى يستطيع من لم يسايرها أن يبدأ من أى فصل شاء

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) فنشرت فى المشرقين غلالةً سنيةً من فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة منعقداً فى ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، ومينرفا ... ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه وتصور للآلهة صنوف العذاب التى يتجرع غصصها وحده فى هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ! يا سيد أرباب أولمب ! چوف ! اصغ إلى ! وأنتم يا آلهة الخلود ! أعيرونى انتباهة واحدة منكم ، فانها حسبى ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ ها كم قد أصبح أمر الناس فوضى . . . والطغاة يعيثون فى الأرض مفسدين ، وكأنما أغمضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذى طالما منحكم محبته ، والذى بذل لشعبه مهجته ... يثوى اليوم فى تلك الجزيرة الموحشة يجتر همومه ،

ويثير فى صفحة السراب آماله ،.. كلا على كاليبسو عروس الماء ... لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثه حزنه ويشتكى إليــه لأواءه ... وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسـية عصبة من الأعداء الألداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غيلته ، إذ هو عائد من أقصى الأرض . من أسپرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن أبيه يشفى فى قلبه غلة ، ويبرئ فى نفسه كلوماً »

ويجيبها رب السحاب الثِّقال :

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتى ؟ ألست تَتَشَوَّقين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئنى إذن ، ولتحرسى ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمناً هو الآخر إلى أرض الوطن ، ولْيَبُؤْ أعداؤه بالفشل »

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يا بنى إلى عروس الماء الشقراء كاليبسو برسالاتى ؟ مرها أن ترسل أوديسيوس على رمث[1] وحده ، لا أنيس له من إنس ولا آلهة ، فليلق الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الآلهة ، فليزودوه بسفينـةٍ وزادٍ وذخيرةٍ من أحمالٍ من ذهب وديبـاج ، وبكل ما تشتهى نفسه مما يفوق نصيبه الذى حصل عليه من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليبحر سالماً إلى إيثاكا ...بذا قضت المقادير أن يؤوب ... وأن يستعيد سلطانه وصولجـانه ، وملـكه وإيوانه ؛

(١) خشب يضم إلى بعضه ويركب فى البحر Raft

ويلقى بعد طول النأى خلانه »

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه الذهبيتين ، فخفتا به كالريح فوق السحاب وفى يمناه عصاه السحرية العجيبة التى إن شاء داعب بها الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة ، وما فتئ يرف بين السماء والمـاء ، ويدوم فى ذاك الفضاء كالفرنوق[1] الذى يتواثب على أعراف الموج يصيـد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يرنق هنا ويرنق هناك حتى اهتدى الى ذلك الـكهف السحيق الذى تأوى إليــه عروس الماء الشقراء ذات الشعر الـكهرمانى وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ، ويداها تتلقفان الوشيعة[2] الذهبية كما يخطف البرق ! والنار تتأجج فى الموقد بقربها وتتوهج ، وجمْر الأرْزِ والصَّنْدل يعبق ويتأرّج ، ويملأ نشرُه أركان الجزيرة وفجاجها ... وقد بسقتْ أشجار الحور والسنديان عند مدخل الـكهف ففشّته بظلال رائمة ، وظلمةٍ رهيبة ؛ وصنعت جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووَكنت[3] الحدأة بيضها ، وقر الغداف جنب صغاره ، وطفقت البومة ترسل فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطئ أفاحيص الطير من كل نوع ؛ وامتدت الـكروم عن يمين الـكهف وعن شماله مثقلة بالمناقيد ذوات السُّكر ؛ وتدفقت جداول أربعة من عيون كوثرية تسق السندس الجميل النضّر بأفواف الورد والبنفسج ... منظر

(١) بوزن طنبور وبوزن فردوس طائر مائى (الغطاس)
(٢) المـكوك
(٣) رقدت عليه

عجب ، وأى منظر عجيب يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء ! !

ووقف هرمز يُمتع ناظريه بسحر هذه الجنة ثم دلف الى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالد طرق بابها ، ولو أنها هى أيضاً فرد من أسرة الخالدين . . . ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار ، وانقطاع المزار ... ، ... وأرسل عينيه فى كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر ... فانثنى ، ويمم نحو الشاطىء واستوى على صخر عظيم ناتىء ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالى ، يطفىء بها فى القلب سعيرا سرمديا يلازمه أبد الدهر ... وكأنما عرفت كالبيسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هى مستوية على عرشها الممرد العظيم :

« هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يا من طالما أحببته وبجلته ، حدثنى فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت الى هنا . هلم فقل . سل حاجتك فسأقضيها إن تكن فى وسعى ... ولكن هلم أولا ولْتؤد لك مراسم القرى وواجبات الضيافة . . . هلم ! »

ومدّت عروس الماء سماطاً حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى ورَوِىَ من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولمب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لآله فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض ، يحيط بها الملح من كل مكان حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقيمون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزح عن بلاده الى إليوم فقضى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تفرقوا فى البحر شذر مذر ، فنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل الى بلاده ... إلا إياه ... فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية . . . جوف يأمرك أن ترديه ، ففى كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا ... بل يعود الى بلاده ويلاقى فيها آله »

وزُلزلت كالبسو زلزالا وقالت تجيبه : « ها ... الظلم والحسد ... دائما ... هذا دأبكم يا آلهة ... كم تأكل قلوبكم الغيْرة كلما ضمت ربة الى ذراعيها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ترتم عندما علقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون كيف دبت الغيرة فى قلب أبوللو فكر هذا المكر السيء ، ودبر قتل الفتى بيدىْ حبيبته ديانا ! ؟[1] هل نسيتم أيضاً كيف أرسل أبوكم جوف إحدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته وأخذته بين ذراعيها حين شغفها حباً ؟ ! كذلك أنتم معى اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائما ، فما أقسا كم إذ تنْفِسون على

(١) تراجم الأوديسة التى بأيدينا مبهمة فى الكلام عن هذه الأسطورة لذلك اضطررنا أن نتصرف قليلا اعتماداً على شرح الأستاذ جرير — وخلاصتها أن أبوللو علم بما بين أخته ديانا وأوريون من عشق فاستدرج ديانا وأخذ يباريها فى الرماية — وكان أوريون يستحم فى البحر فجعلها تصوب سهمها إلى رأسه وهى لا تدرى فقتلته

حبيبي ؟ ! لقد أنقذته بنفسي من هذا اليم الذي التقم سفينته عن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه في عبثة من عبثاته ! حبيبي الذي أهواه من أعماق وأفتديه بروحي ، والذي أمهد له حياة الخلود . . . ولكن ... واأسفاه ! كيف أطرده من عندي ؟ ويحي ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلأحَدِّثن أوديسيوس ليرى لنفسه ، إذ ليس عندي مركب يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإني ناصحةٌ له ، . . »

وكلما هرمز فأنذرها من غضبة سيد الأولمب وحضها أن تعمل على إبحار البطل

***

ورفَّ هرمز الرسول في لازورد السماء وانطلقت عروس الماء تبحث في الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهما واجما ، تفْري قَلْبَه الهواجس ، ويعبث به محال الأماني ، وقد انهمرت فوق خديه عَبرات حِرار ! واللحظات تذبل فتسقط من حياته في ظلام اليأس كأوراق الخريف وقد ملَّ هذا المقام الطويل البائس في جوار عروس الماء ! تلك التي تخلع عليه حبها البارد ، وتقسره على أن يقضي لياليه بجانبها على فراش واحد في ذلك الكهف السحيق ... وكلما فكر في وطنه ، ونظر الى الموج المتواثب في أفق اليم ، وعرف أن لا قدرة له عليه ... بكي وأنَّ ، وتوجّع وتصدَّع ، وأرسل في لا نهاية الماء والسماء آهات وآهات ... »

واقتربت منه عروس الماء في رفق وحَدَب ، وقالت له :

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تعهر حياتك الغالية في تنور من الآلام ، هلم ... هيا إلى عمل مجيد .. أمامك الدوح المظيم والأيك الذاهب اقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رَمَثا يحملك فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزوّدك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد ؛ وسأسخر لك الريح تُهَدْهِدُك الى بلدك البعيد . . . هذا قضاء من آلهة السماء التي تقدّر فتعدل ، وتقضي فلا رد لها قضاء . »

وتفزع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال :

« أوه يا عروس ! بل في الأمر سر تحاولين إخفاءه عني . . . أي رَمَث يحملني في ذلك البحر اللجي وأي ريح تسخرين من أجلي ؟ وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهي لا تدري أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا ... لن أفعل حتى تعطيني موثقك ، وحتى تقسمي القسم العظيم ، أنك لا تبطنين لي شراً ولا أذى ! »

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهي تقول :

« ويحك ! كيف تسيء بي الظن يا أوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن اصغ إلي ... أقسم لك بقسم الآلهة في الأرض والسماء والدار الآخرة ... بالقسم العظيم الذي يقشعر لذكره كل شيء ... أني لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى ... إن الذي تبكي من أجله ، أبكي أنا أضعاف ما تبكي من مثله ، فلقد كنت ضرورة من ضرورات حياتي هنا ، ولقد تعلق بك قلبي ، وهامت بحبك نفسي ، وليس قلبي من صخر فيحتمل البعد عنك بَلْه الأضرار بك »

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذى كان يجلس عليه هرمز منذ هنيهة ، ثم أقبل جوارى الماء يحملن شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلا وروياً ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدثه وتقول :

« أهكذا يا ابن ليرتيس العظيم ، أيها الحكيم الصناع ، لا تفتأ تحن إلى وطنك وتعتزم الرحيل اليه ؛ أنا عذيرك يا أوديسيوس ... فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل فى الأهوال الجسام التى تخرط قتادها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبى ، وتقاسمنى كهفى ، فتصبح من الخالدين ... وتنسى هذا الجمال الفانى الذى لا ينفك يصبيك ويسبيك ، والذى أحسب جمالى وفتنتى لا يقلان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتونا ؟ ! »

فيجيبها أوديسيوس الحكيم : « أيتها الربة المخوفة ! هونى حفيظتك ! أنا أعلم أن بنلوبى العزيزة لا ترن من جمالك وفتونك مثقالا ، لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذى يصبينى هو وطنى ... وطنى الحبيب الذى أحن إليه وأهيم به ، وفى سبيل العودة إليه لن يخيفنى هذا اللج المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير فى البر والبحر ؛ فى خبار المعمعة ؛ وفى الفلك تحت كلكل الزوبعة ... إلىّ إلىّ يا خطوب ، وأقدمى بكل حولك يا رزايا ... »

* * *

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ، ونامت الربة فى سريرها الوثير وبين ذراعيها حبيبها تشمه وتضمه ، وتحسه وتلثمه ... حتى إذا نضرت بالورد أوزورا جبين المشرق ، هب الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة التى كأنما نسجت من نسمات الصباح العطرى ، وراحت تخطر فينانة ريانة ، وقد اتشحت حول وسطها النحيل بقرطق جميل ، وألقت على رأسها بخمار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطور ، ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلا حاداً مرهفاً ... وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مخْرفٍ ، لاحبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشربين[1] ، وتركته ثمة وعادت أدراجها إلى كهفها ...

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة ... ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأى أن يضم بعض الجذوع الى بعض ثم كلَّبها بكلاَّبات كبار ، وأفرغ فى وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون ... ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قِلعاً وجعل فى القلع شراعاً ، ثم سوى السكان مكانه ، وجعل فى الباطن صبارة[2] كبيرة تقى الرمث الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد فى قوته وتضاعف من مُنته . وأتم صنع مركبه فى أربعة أيام ، وأنزله الى البحر فى الخامس ؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه حلة من ديباج ثمين وزودته بزقين من خمر وماء ، وأمدته بشىء كثير من طعام وأثواب

(١) Fir ولم نجد لهذه اللفظة أثراً فى اللسان والقاموس

(٢) أو صبرة قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب فى البحر وتسمى فى مصر (صابورة)

وودع عروس الماء المحزونة ؛ وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث فى البحر ، وابتعد رويداً رويداً

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلىء بالانشراح ... وظل يجرى به الفلك الصغير سبعة عشر يوماً ، وعيناه فى كل ليل ما ترعيان عن الثريا فى علياء السماء ، وما تفتران تنظران الى نجوم الدب الأكبر التى تقف للجبار[1] بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح ، أن يجعل هذا النجم الى شماله أبداً

ثم بدت جبال فيشيا الشم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة ... ولكن ! وا أسفا ! ... لقد كان الجبار نبتيون ثانياً عنانه من سوليما[2] ، فلمح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام الموج ، ويقترب من الشاطىء ، فينجو إلى الأبد من بطشه ... وثارت فى نفس نبتيون — إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس — ثورة من الغضب ، وظل يعلك هذه الكلمات فى نفسه من فوق بطاح إثيوبيا[3] :

« وى ! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم يسكنون السماء ، ولم يبالوا بى لأنى أسكن الأرض فى إثيوبيا ؟ ... إنه يرى شاطىء فيشيا قيد وثبات منه وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم تترصده فى كل موجة من موج هذا اليم ... ولكن ... لا ... لألهبنه بألف سوط عذاب قبل أن يصل الى البر ... »

(١) الجوزاء Orion

(٢) إحدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى بيسيديا

(٣) هكذا فى الأصل

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانعقدت منه ظلمات فى أرجاء السماء ، وطفق بعد يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة برياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق ... ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وناء الليل فجأة ، وطغى العباب وشابت نواصيه بالثبج ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا : « يا لتعاستى ! أى مقدار قاس يترصدنى ؟ ! لقد أنذرتنى ربة الماء مغبة هذه الرحلة الهوجاء فى البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التى تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تتحقق ! أية أعاصير هوج وأى موج ينتفض من الأعماق سلط جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص فى ظلمة هذه القبور التى يشقق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار إليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثا فى سبيل إنقاذ الأتريدس[1] أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ، وأديت لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التى تكاد تلتقمنى ! »

ثم كانت الطامة ... فان موجة كالطود فجأته ... فبعثرت الرمث ... وأفلت مقبض السكان من يدى أوديسيوس ، فانتثر فى اللجة ، ثم غاص فى أعماقها ، وعبثا حاول أن يطفو ... لأن الرياح تكالبت من

(١) هو أجاممنون

كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاها أخرى ... ثم حدثت المعجزة ... فقد وسعه بعد لأى وبعد عناء شديد أن يدفع نفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رئتيه المنهوكتين بتنفسة من الهواء ، كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغص بها ... لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلاعه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه الموج تلعب به واحدة وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قيض له القدر عروس الماء (إينو) إبنة قدموس ، التى كانت تعيش فى البر وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتى تخذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وعلقها أحد الآلهة فوهبها الخلود ... لقد تفجرت فى قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رأته فى هذا الروع الذى ليس كمثله روع ، فسحرت نفسها ووثبت على الرمث فى صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غضبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سربا فى شعاب البحر ، ويصب عليك كل تلك الرزايا ... ؟ على أننى أنصح لك أن تدع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز فى الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطئان فيشيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذ ، هاك زناراً من حرير من حياكة السماء ، لفه تحت صدرك ، فانه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير فى الموت ؛ فاذا وصلت سالماً إلى الشاطئ ، فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً فى البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط فى الماء »

وسلمت إليه زنارها الموعود ، ثم غاصت فى الماء ، وبقى أوديسيوس مكانه فى حيرة شديدة وحزن عميق ؛ ثم أفاق من غشيته ، وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لى ؟ ولكن لا ... لن أبرح مقيما فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكانى مادامت الجذوع مُكلبَة هكذا ، فاذا حطمتها يد الحدثان فلأفعلن كما أشار الآله الذى كان يكلمنى منذ لحظة ... » .

وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح ... وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعته عليه كاليبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء ... وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينيه ، ويشفى حردَه ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل حبالك بحبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك ! »

وحثَّ مطيّه حتى وصل (إيجه) حيث يشرف قصره المنيف

* * *

وكانت مينرڤا تشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس وبين اليم ، فاظلمت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت وونت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصبا الشمالى الكريم فجرى[1] رخاءً ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين

(١) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطىء على مرمى البصر ، من فوق موجة عالية

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان ينظر أوديسيوس إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة النائمة فى أحيادها ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكته العلة . . . ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه . . . ولكن . . .

وا أسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيرغى ويزبد ... !

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن . . . ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح ... حتى غم على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل أكيد !

وجاشت الوساوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهلك فى هذه اللجة الرجراج ...

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفعه الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفتريت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إلهة البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به الى أعمق الأعماق ... كرة أخرى

وبينا هو فى بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف الى الشاطىء ذى النتوء والنؤى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة ... وثمة ظل معلقا حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله الى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء . . . وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقذفه فى مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطىء ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاد يسلمه بدوره للمحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل ... ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفلّ من غرب الماء واستطاع البائس المنهوك أن يصل الى إحدى المدوتين واهياً متهالكا محطما .. فانطرح على الثرى يقبله . . ويلهث ويقول :

« ويح نفسى ماذا تبتغين ياآلام ! لقد أقبل الليل وأنا عيى مصدّع ، ولا قبل لهذه البقية من حشاشتى بطل المشاة وصقيع الفجر . . . فلو أننى استطعت أن أتسلق هذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن ! وَىْ ! أى وحش ضار يغتذى بلحمى ثمة ؟ »

بَيْد أنه توقل فى الجبل حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة ، والأخرى عقيم ؛ كل منهما لفّاء شجراء حتى لاتنفذ الريح بينهما ، ولا تتسرق أشعة الشمس خلالها ، ولا الماء بواصل إلى من استذرى بهما

هناك ... وجد أوديسيوس مأمنه ؛ . . فراح يمهد الأرض ، ويلم ما استطاع من قش ويحتطب حتى صنع لنفسه منامة تكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافيها بفروع الشجر ... ثم أسلم عينيه لنوم هادىء عميق ، سكبته ميترفا فى كلتا مقلتيه

فلله ما كان أروعه غاراً فى هذا السفط من القش ، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ريفى شاب فى قرار مكين[1]

(يتبع) دريني خشبة

(١) كانت النار فى الزمن القديم أغلى ما يعتز به الناس

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل التاسع

وكنت وصلت إلى أشد المهاوى ظلاما عندما دفعنى اليأس وثورة الشباب إلى فعلة قررت اتجاه حياتى

كنت كتبت إلى عشيقتى أننى لا أريد أن أراها بعد ، فقمت بما عاهدت النفس عليه ؛ غير أننى ما امتنعت من تمضية الليالى تحت نافذتها جالساً على مقعد أمام بابها لأراها تلوح لى كالخيال من حين إلى حين بين منفرجات ستائرها

وبينما كنت فى إحدى الليالى جالساً على عادتى وقد تملك الألم كل مشاعرى ، رأيت عاملاً يسير على الطريق فى ساعة متأخرة وهو يترنح سكراً ويتمتم بكلمات لا تفهم تتخللها هتافات نشوة وحبور .

ووقف هذا العامل بغتة وأطلق صوته مترنماً ثم عاود السير ورجلاه تقودانه تارة إلى يمين الطريق وتارة إلى شمالها حتى بلغ مقعداً موجهاً لمقعدى أمام بيت آخر فانطرح عليه ، وبعد أن تقلب برهة على ساعديه استغرق فى السكرى

وكان الشارع مقفراً والهواء الجاف يهب على الأرض فيثير غبارها ، وكان القمر فى كبد السماء الصافية ، يرسل أشعته الفضية على الرجل النائم . ولم يكن هنالك أحد سوانا ، أنا والنائم الثمل الذى لم يكن يشعر بوجودى وهو يتوسد الحجر القاسى كأنه على فراش وثير .

وشعرت بأن حال هـذا الرجل زادت فى آلامى ، فتمكنت من مبارحة مكانى الذى ما كنت لأبرحه ، وما كنت لأستفيد من وجودى به لأطرق الباب حتى ولو أغريت على ذلك بمملكة وتاج .
وذهبت إلى قرب هـذا الرجل النائم أتفرس فيه وأقول فى نفسى :

ما أعمق نومه ، لا ريب أن رقاد هذا الرجل لا يقلقه شىء من الأحلام ، ولعل زوجته تفتح فى هذه الساعة لجار لهـا باب المسكن الوضيع . إن أثواب هذا الانسان عبارة عن أطمار بالية ، وقد نحل خداه وتجعدت يداه ، فمن يكون هذا المخلوق إن لم يكن واحـداً ممن لا يجدون كل يوم كسرة خبز يقتاتون بها ، فهو إن نهض غداً من نومه ستعاوده جميع همومه وتجتاحه جميع مصائبه ، ولـكنه هذا المساء كان يملك بضعة دريهمات مكنته من الدخول إلى حانة فابتاع النسيان لأوجاعه . لقد ربح هذا الرجل فى مدى أسبوع ما أناله ليلة رقاد هنىء . ولعله حرم بذلك أطفاله عشاء ليلتهم ، ولـكنه الآن بمنأى من آلامه ، فلرفيقته أن تخدعه ولصديقه أن يلج مسكنه الحقير كاللص ، بل لى أنا إذا شئت أن أضرب على كتفه لأقول له : إن عدواً يتهدد حياته ، وإن النيران تلتهم مسكنه ، فانه لينقلب على جنبه الآخر ويعود مستغرقا فى نومه

وذهبت أذرع الشارع بخطوات واسعة قائلا :
وأنا . . . وأنا . . . وأنا المحروم لذة النوم ، وفى جيبى

من المال ما يكفى لتنويم هذا الرجل سنة كاملة ، يسودنى الغرور بل الجنون فأترفع عن دخول الحانات ، وأتجاهل أن التعساء يدخلونها ليخرجوا بالسعادة من بين جدرانها

يا لله ! إن عناقيد من الكرمة تعصرها الأقدام كافية لتبديد أحلاك الهموم ، ولتقطيع الأشراك التى تمدها روح الشر على مسالكنا . إننا نعول كالنساء ونتألم كالشهداء ، فيخيل إلينا حين تساورنا المصائب أن العالم قد تهدم على رؤوسنا فننطرح منتحبين كما انطرح آدم أمام الباب الموصد يبكى النعيم المفقود ، فى حين أنه ليس علينا إلا أن نمد يدنا إلى الكأس لأطفاء لهب أحشائنا ، وشفاء أوسع جرح فتحته فيها الحياة . ما أحقر هذه الهموم التى تداوى برشفة من مثل هذا الدواء !

إننا لنعجب من أن العناية الآلهية لا ترسل جميع ملائكتها لتتنصت لابتهالاتنا ، وما العناية بحاجة إلى إرسال طغام أملاكها إلينا ، فهى قد رأت أوجاعنا وما خفيت عنها شهواتنا ، وغرور روحنا الساقطة وما يحيق بنا من غمرات الآلام فاكتفت بأن تنبت ثمرة صغيرة سوداء تتدلى على جوانب طريقنا .

إذا كان هـذا الرجل ينام ملء جفونه فلماذا لا أنام أنا مثله ملء جفونى

لقد يكون مزاحمى متوسداً فراش خليلتى الآن فيخرج منه عند الفجر ، وتشيعه هى حتى الباب فينظران إلى وأنا أغط فى نومى على هـذا المقعد فلا أنتبه لصوت قبلاتهما ؛ وإذا ما ضربانى على كتفى فاننى أنقلب على جنبى الآخر واستمر فى الرقاد

وتحكم المرح فىّ فذهبت مفتشاً عن حانة أستقر فيها ، وكان نصف الليل مرّ وأقفلت أكثر الحانات ، فثار ثائرى وقات فى نفسى لعلنى لن أفوز حتى بهذه التعزية ، فكنت أتراكض من باب دكان إلى باب دكان آخر هاتفاً :

— أريد خمراً . . أريد خمراً . .

واهتديت أخيراً إلى حانة مفتوحة ، فطلبت زجاجه خمر وجلست أكرعها دفعة واحدة دون التفات إلى نوعها ، واتبعت الأولى بثانية وبثالثة ، فكنت أقلب الكأس تلو الكأس مكرهاً ، كمريض يتجرّع دواء فرض عليه فرضاً لأنقاذ حياته .

وما مضت برهة حتى شعرت بأبخرة هذا الشراب — الذى كان ولا شك مغشوشاً — تتصاعد إلى رأسى وتورثنى السكر فجأة ، فيتوالى على ذهنى الصفاء والاضطراب ، حتى فقدت قوة التفكير ، فشخصت بأبصارى إلى مافوق كأننى أودع شعورى بنفسى ، وتراخى ساعدى على الخوان فلم أستطع تحريكهما . وعندئذ لاحظت أننى لم أكن منفرداً فى الحانة إذ رأيت فى طرفها كتلة رجال تجلى القبح فى وجوههم الشاحبة ، وتعالت النبرات الشاذة فى أصواتهم ، وكنت أرى من أثوابهم أنهم ليسوا من العامة ولا من متوسطى الحـال وكل ما فيهم يدل على أنهم من أحقر الطبقات ، من الطبقة التى لا مكانة لها ولا ثروة حتى ولا مهنة سوى مهنة البطالة الدنيئة ، من الطبقة التى لا تنتمى إلى الفقراء ولا إلى الأغنيـاء وقد انتمى إليها بؤس الفقر ورذيلة الغنى

وكان بين أيدى هذه الجماعة ورق قذر للميسر ، وكان الخلاف قائماً بينهم فيخفضون أصواتهم فى مجادلاتهم ؛ وكان بينهم فتاة غضة الصبا ، بهية الطلعة ترتدى أثواباً نظيفة ، وليس فى مظهرها مايشبه من حولها من الناس سوى صوتها الأبح الذى كان

يتعالى كأنه صوت منادٍ امتهن المناداة فى الأسواق ستين سنة . وحدّقت هذه الفتاة فىّ ، وقد أدهشها ولا ريب وجودى فى هذه الحانة ، وأنا مرتدٍ ما أرتديه من أنيق الأثواب ؛ وما لبثت أن تقدمت نحو مجلسى وعند ما رفعت الزجاجات الثلاث عن الخوان ، ورأتها فارغة افترّ ثغرها عن درّ نضيد فقبضت على يدها ورجوتها أن تجلس قربى فجلست مسرورة ، وطلبت أن يحضر الخادم لها العشاء .

وحدّقت فى الفتاة صامتاً وعيناى مغرورقتان بالدموع ؛ فسألتنى عما يحزننى ، وما كنت قادراً على إيراد الجواب ، فهززت رأسى كأننى أريد أن أطلق القطرات الحائرات من مدامعى ، فتساقطت على خدىّ . وأدركت الفتاة أننى أكتم أمراً مؤلماً فما حاولت اكتشافه ، بل أخرجت منديلها وهى تتناول طعامها لتمره على وجهى آناً فآناً

وكان فى هذه الصبية شىء لا يحدد إلا بأنه مزيج من أخشن الأشياء وألطفها ؛ وقد تغلغل العطف فى حشائها ؛ فوجمت حائراً فى تقديرها . ولو أنها كانت التقت بى فى شارع ومدت يدها إلى لتراجعت عنها مشمئزاً ؛ غير أننى وأنا فى حالتى كنت أرى من الغرائب أن تتقدم نحوى فتاة ما رأيتها من قبل فتجلس صامتة إلى خوانى وتتناول طعامها أمامى ثم تجفف مدامعى بمنديلها ؛ لذلك بت أمامها واجماً ثائراً مخلوباً

وسمعت صاحب الحانة يسائلها عما إذا كان لها معرفة بى . فأجابته إيجاباً وطلبت ألا يتدخل أحد فى أمرى . وبعد قليل من الزمن انصرف اللاعبون وأقفل صاحب الحانة أبوابها من الداخل ثم انسحب إلى غرفته الخاصة ، وهكذا بقيت لوحدى مع الفتاة

وكانت هذه الحوادث التى أثرتها عما فعلت وأنا مستسلم لليأس ، قد مرت بسرعة حسبت معها أننى أشاهد حلماً ، فاضطربت أفكارى حتى حسبتنى جننت أو استولت علىّ قوة مجهولة

وصحت بالفتاة فجأة : من أنت ، وما تريدين منى ؟ وأين عرفتنى من قبل ؟ من كلفك بمسح دموعى ؟ أهذه واجبات مهنتك ؟ وهل تظنين أننى أرضى بك ؟ . . إننى لن أمسك بأطراف أناملى . ما ذا تفعلين هنا . ؟ أجيبى ، أمالاً تطلبين ؟ . وبأى ثمن تبيعين إشفاقك . ؟

ونهضت طالباً الخروج ؛ ولكننى شعرت بأن رجلى لا تقدران على حملى ؛ وأن غشاوة أسدلت على عينى ، ونفدت قواى فارتميت على مقعد مستطيل عثرت به

أخذت الفتاة بيدى وقالت : أنت متألم . . . لقد شربت كما يشرب الأطفال أمثالك فما عرفت ماذا فعلت . . انتظر على هذا المقعد إلى أن تمر عربة . . قل لى عنوان أمك لأرسلك إليها

ثم تضاحكت قائلة : إذهب إلى بيتك ما دمت قبيحة فى نظرك . . . .

والتفت إليها وهى تتكلم ، وما أعلم إذا كان السكر أرانى ما رأيت ولم أتبين اذا كان ضلالى سبق هداى أم هداى سبق الضلال ، فرأيت فى وجهها صورة لوجه خليلتى ، وعند ذلك شعرت بصقيع الجليد فى أعضائى

إن الانسان ليشعر أحياناً بارتعاش فى شعر رأسه ، ويقول السذج إن ذلك دليل على مرور ملاك الموت ، وما كان الموت قد مر على رأسى بل هوداء العصر ، وما كانت هذه الفتاة إلا ذلك الداء بعينه تجسم فيها شاحباً هازئاً بنبرات الصوت الأبح وجاء يجالسنى فى زاوية من هذه الحانة

الفصل العاشر

وما كدت ألحظ مشابهة هـذه المرأة لمشيقتي حتى اجتاحت دماغي فكرة فظيعة لم أجد بداً من تنفيذها

وكانت خليلتي في أوائل عهـد غرامنا تأتي خلسة إلى غرفتي للاجتماع بي ، فكنت أملأ هذه الغرفة أزهاراً وأضرم النار في الموقد ، وأعد العشاء ، وما كنت أغفل عن تزيين السرير وإعداده للحبيبة المنتظرة

ولكم شخصت الى هذه الحبيبـة الساعات الطوال وهي جالسة على المقعد أمام المرآة ، وكلانا صامت يناجي الآخر بخفقان فؤاده ، فكنت أراها كملاكة من عالم الجن تحول الى جنـة هذا المسكن الصغير حيث أرقت كثيراً من الدموع . ولـكم تألقت بروعة جمالها بين هذه الجـدران الأربعة الحزينة والرياش القديم ، وقد تبعثرت حولهـا كتبي وأثوابي

وكان تذكار هذه الليالي لا يفارقني لحظة منذ فقدت بهجتها ، فكانت كتبي وجدراني تناجيني بهذه الذكرى وأنا مسهد مفجوع فتزهقني حتى أذهب هارباً منها الى الشارع نافراً من سريري الذي لم أكن ألجأ إليه إلا لأذرف عليه الدموع

اقتدت هذه الصبية الى غرفتي وأجلستها على المقعد ، محولاً ظهرها نحوي وأبقيتها عليه وهي نصف عارية ، ثم شرعت أرتب كل ما حولها على النمط الذي كنت اخترته في أعمق الليالي ارتساماً في خيالي

إن للذكريات السعادة صورة واحدة تتغلب على سائر صورها ، فهي خيال يوم أو ساعة فاقت سواها في جمـال المؤثرات فتبقى كأنها الأنموذج المستقر ، ولـكل إنسان في حياته ساعة وقف فيها صارخاً : إضرب سهماً مذهباً في عجلتك الدائرة ، أيها الزمان

وبعد أن تم ترتيب الغرفة طبقاً لمـا ذكرت أوقدت ناراً ، وجلست القرفصاء أكرع كأس يأسي حتى الثمالة ، وأسبر صميم فؤادي لأشـعر بتململه وانقباضه ، وكنت أستعيد في ذهني أنشودة تيرولية كانت تتغنى خليلتي بها وهي :

كنت في روض دلالي   زهرةً فيهـا ضِرامْ
أحرق العشقُ جمالي   هكذا يقضي الغرامْ

وكانت نبرات هـذه الأنشودة ترن في أذني كأنها صرخة تتعالى في قفار قلبي ، فأناجي نفسي قائلاً : هذه هي سعادة الانسان . هـذه هي جنيتي أصبحت صبية من بنات المواخير ، وهل خليلتي أفضل منها ؟ هـذه ثمالة الـكوثر الذي نحتسيه ، هذه جيفة الغرام ...

وأطلقت الفتاة الشقية صوتهـا بالانشاد إذ سمعتني أتمتم بأنشادي ، فملت وجهي صفرة الموت إذ سمعت عواطفي نفسها تنشد هذا الصوت الأجش المتعالي من فم فتاة تشبه من أحببت ، فكأن هذا الصوت هو الفحشاء تفرغر في صدر نوّرت فيه أزاهر الشباب ... وخيل إلي أن صوت خليلتي قد أصبح منذ سقوطها شبيهاً بهذا الصوت ، وخطر ببـالي ما يحكى عن (فوست) من أنه رأى فارة حمراء تنشب من فم ساحرة عارية كان يخاصرها في ليلة راقصة . فصرخت بالفتاة : اسكتي ، وهرعت إليهـا فترامت ضاحكة على سريري ، فانطرحت بدوري إلى جانبها وإذا بي أرى جسدي كتمثالٍ ممدد على لوح مدفن

أي ، رجال هــذا الزمان ، المتسارعين وراء

ملذاتكم فى المراقص والمسارح ، إنكم ستعودون فى آخر الليل إلى مساكنكم لتقرأوا قبل استسلامكم للوسن أشياء من كفر الشيخ فولتير أو مداعبات كوربه ، أو خطب مجلسنا النيابى عن الاقتصاد السياسى ، فأجيزوا لى أن أوجه إليكم هذا الرجاء ، ولكلٍ منكم ما يروّح به عن نفسه رائحة هذه النبتة السامة التى زرعها العقل فى قلب حضارتنا : إذا ما وقع هذا الكتاب الوضيع صدفة بين أيديكم فلا توجهوا إليه بسمة الاحتقار ولا ترفعوا أكتافكم مستهزئين . لا تقولوا وأنتم تخالون أنفسكم فى حرز أمين إن واضع هذه الفصول مصاب بداء الأوهام ، ولا تظنوا أن العقل أو ما تعتبرونه عقلاً هو خير مافى الانسان من قوى ، وإن حقائق الحياة قائمة على حركة المضاربات المالية وورق الميسر ولذيذ الخمر وصحة الجسم وعدم المبالاة بالسوى ، وعلى فراش وثير تمددون عليه عضلات توترت بالشهوات تحت جلد ناعم يعبق بالعطور

لا تغتروا ، فقد تهب يوماً عاصفة هوجاء على حياتكم الهادئة ، ولقد ترسل العناية الالهية صرصراً على الأدواح الباسقة التى تسقونها من مياه النسيان الراكدة . لستم بمأمن من عثرات الآمال فأن فى أعماق عيونكم دموعاً ، أيها المتحصنون بالجمود ! وأنا أقول لكم إنكم معرضون لخيانة خليلاتكم وما تهتمون لهذه الخيانة اهتمامكم لموت أحد جيادكم ، ولكن اذكروا أن المضاربات المالية معرضة للخسارة وإن أقوى ورقات الميسر قد تصطدم بأقوى منها ، وإذا كنتم من غير فئة المضاربين فلا تنسوا أن سعادتكم وذهبكم وفضتكم مودوعة عند صيرفى قد ينزل به الأفلاس أو ممثلة بقراطيس مالية قد تسقط قيمها ، اذكروا انكم قد تعشقون شيئاً بالرغم من صقيع عواطفكم ، ولقد ينقطع عرق فى أعماق أحشائكم فتصرخون صراخاً يشبه أنين المتألمين .

لقد يجيء يوم تشردون فيه ألى الأزقة الوحلة عندما تطلبون ملذاتكم لتستنزفوا فيها قواكم البائرة فلا تجدون من المال ما يبلغكم أياها ، فتذهبون بنظراتكم الحائرة ووجوهكم الشاحبة المخددة لتنطرحوا على مقعد منفرد تحت ظلام الليل

أيها الأنانيون المنتصبون كتماثيل من مرمر ، المتفردون باخضاع كل شيء لتفكيركم ، أنتم الباهون بترفعكم عن اليأس وبعصمتكم فى حساب الأرقام ، إذا ما سطا اليأس عليكم وأخطأتم فى حسابكم يوم يزعزعكم الافلاس ، تذكروا (أبلار) وقد اختطف القضاء منه (هلويز) التى بلغ هيامه بها ما لا يبلغ معشاره حبكم لجيادكم ودنانيركم وخليلاتكم فأن هذا العاشق قد فقد بافتراقه عمن يعبد ما لا يمكن لكم أن تفقدوه أنتم ، حتى وما لا يمكن أن يفقده أميركم إبليس لو عاد إلى الجنة ليسقط منها مرة أخرى . ذلك لأن أبلار قد أحب هلويز حباً لا تقرأونه فى أية جريدة تتصفحونها ولا يلوح حتى لخيال لنسائكم وبناتكم لا فى كتبنا ولا على مسارحنا — ، ذلك لأن هذا العاشق أمضى نصف حياته يلقى قبلاته على جبين الحبيبة الطاهر وهو يلقنها المزامير والأناشيد ، ذلك لأنه لم يكن له سواها على الأرض

تذكروا هذا المبتلى واعلموا أن الله قد أرسل إلى قلبه العزاء والسلوان . . فاذا ما تذكرتم هذا العاشق والمحنة التى حلت به فأن كفر فولتير ودعابات كوربه تفقد معناها فى نظركم فتعلمون أن العقل يمكنه أن يشفى الانسان من أوهامه ولكنه

سر أبى الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي موريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

الفصل الثالث

أبو الهول الأكبر

الصحراء المترامية ، الليل الشامل ، الفضاء ، الزمان ، ضباب ذهبي يغمر الأشياء ؛ وأبو الهول الشامخ يبدو بين الأشياء كأنه الكائن الجدير بالوجود .

يرتفع الستار : الليل داج ، والغيوم تنزاح قليلا قليلا ، يبدو القمر والنجوم تبعث واحدة فواحدة كأنها تنشر من النور ، وأبو الهول كأنه ينشر من الظلمة ، وعلى قدمى أبى الهول عاشقان مصريان !

المشهد الأول

أبو الهول ، العاشقان

العاشق — يجب العودة سريعاً ؛ انظرى فالليل الأكدر الذى يمشى بين النخيـل يترك القمر يتقطر ؛ ان أيام مصر ترتعش حولنا ، والمساء يدفع اللحظات بين يديه كسبحة سـوداء ، والسكون ذاته صلاة غريبة ، والرمال تتألق كالحرير الأرجوانى .

لى من العمر عشرون ، وها إنى أُحبك !

العاشقة : عيناك اللامعتان لهما من البحر رقته العميقة

العاشق — منذ أى زمن تهويننى ؟

العاشقة — أنى لى أن أعرف ؟

العاشق — ألا تعرفين ؟

العاشقة — يجب أن أهواك من اللحظة التى كنتُ فيها ، وإنى لأذكرك فى كل أيامى الجميلة !

العاشق — قد انتصف الليل

(ينهض)

العاشقة — أين ترى الساعة ؟ آه إنى أريد ألا أعرفها ، فصوت المؤذن الذى يتمالى لا يصل إلينا ، هنا الساعة تمضى على استحياء لئلا نشعر بها

أعجز من أن يشفيه من آلامه !

إنكم لتدركون إذ ذاك أن الله قد أوجد الحكمة مدبرة لشؤونكم لا راهبة محبة تحنو على أسرة الأعلاء منكم . إنكم لتدركون بأن قلب الانسان لم يقل كلمته الفصل عندما أعلن أنه لا يؤمن بشيء لأنه لا يرى شيئاً ...

إنكم فى ذلك الحين لتجيلون أنظاركم على ما حولكم مفتشين عما تتوسمون الأمل فيه ولتذهبوا إلى أبواب المعابد محاولين فتحها فتجدونها مقفلة فى وجوهكم فيخطر لكم أن تلجأوا إلى الرهبنة التى لا يخرج المنذرون منها إلا إلى قبورهم ، ولكن الاقدار تسخر بكم وتقذف اليكم بزجاجة خمر وامرأة عاهرة ، فاذا ما كرعتم الخمر وقدتم العاهرة الى فراشكم ، فتبينوا مصيركم واعلموا الى أية هاوية تنحدرون

(يتبع) فيلكس فارس

العاشق — إن الساعة قد تسجّل فى قبة السماء اللألاء بالنجوم ، لأنها تحدد الزمن بضربة حزينة ؛ إبرتها المائلة هى شعاع القمر الوهاج الذى يهبط من عل ليعمل على تفريقنا ، يجب أن نذهب . . . . هيا !

العاشقة — لماذا هذا التبكير ؟ فالرجوع هو الموت ، وأنا أريد أن أحيا على فمك ! الحياة بدونك هى صحراء مخيفة جدا ، والهواء الذى يعجبك يجعلنى أغار أحياناً منه . أريد أن ألثم عينيك وفمك

العاشق — إن شفتيك رقيقتان

العاشقة — ومن أحب مثلنا ؟ لا أحد . . . هذه المرة الأولى التى ينبغى فيها أن يحبوا كما أحببتك ؛ ونحن ابتكرنا هذا الحب . ألا قبلة مستطيلة أيضاً تطبعها على فى الملتهب ونعود بعد ذلك يا حبيبى !

العاشق — حبيبتى !

(يتعانقان شديدا ، ثم يبتعدان والفتاة تلتفت إلى الوراء)

العاشقة — هل رأيت ؟ لقد كنا فى ظل أثر ... يقال إنه ذو وجه خالد جميل ، كم غبر به من السنين هنا !

العاشق — إنى أجهل ذلك ...

العاشقة — سنرجع يوماً إذا شئت مع الفجر . تعال فضع قدمك موضع قدمى ، فما عسى يكون أبو الهول ؟

العاشق — لا أعلم ...

(يبتعد الحبيبان)

المشهد الثانى

أبو الهول (وحده) القرون

تهب القرون فى منتصف الليل وكن جالسات كالأشباح السوداء على قدمى أبى الهول

القرون — أيها الملاك الحجرى ! بم تأمرنا فنعمل ؟ نحن حرس لك !

أبو الهول — لم أعد أريد حراستكن ؛ فاتركننى وحيداً . كم نجوم تنظر إلىّ ! أريد أن أظل وحدى هذه الليلة

القرون — نحن هنا دوماً نحرسك

أبو الهول — دعننى هذه الليلة السرية البارزة !

القرون — لتكن كلمتك مسموعة !

(ينسحب كل خيال مطأطئا رأسه إزاء أبى الهول مدمدماً بصلاته)

الخيال الأول — يا سيداً من حجر !

الخيال الثانى — يا أوزة الخلود !

الخيال الثالث — يا ملك الزمان !

الخيال الرابع — يا جدار الثوانى !

الخيال الخامس — يا عجيبة مصر !

الخيال السادس — يا حكومة العوالم !

الخيال السابع — يا زهرة حجرية مزدهرة على صفحة السماء !

الخيال الثامن — يا خلية ثابتة تخرج فيها اللحظات عسلا !

الخيال التاسع — يا وثناً خالياً من الرأفة

الخيال العاشر — ياشرفة المشاهد !

الخيال الحادى عشر — يا نور المشرق !

الخيال الأخير — يا إله السحب وداعاً ! . .

(تتوارى القرون ، أبوالهول وحده مع الليل والنجوم)

المشهد الثالث

أبو الهول وحده

أبو الهول — بلى ، لأتركْ وحدى ، ذلك خير ! أيها الليل إنّا وحدنا الآن ، ليرمق أحدنا

الآخر ! لقد سئمت — طيلة النهار من الأنوار الوضاءة ، وحين تعودني بارد الأنفاس ، وتحط رحالك على حجري ترتاح روحي ، أنا في النهار مخلوق كبير من حجر ، مزعج أصم ، حتى إذا جئتني غمرتني بحياة جديدة ، وأصبح القمر مروحتي التي بها أجلب الهواء

أيها الليل البالغ من الكبر عتياً ! ها نحن شاخصان وجهاً لوجه . لننظر ؛ فالشمس المنبعثة تحمل أشعتها ، وأن باستطاعتنا — حين تبعث فيّ الروح — أن نتحد اتحاداً سامياً .

ماذا تقول ؟ وأنت مائل بابتسامتك الفضية ، هل نعلم عن هذه الكائنات والناس والآلهة والموتى شيئاً ؟ هنالك سميراميس ، وهنالك ساردانابال . وهذا الرماد الشاحب ، إنهم يدعون هذا كله صحراء . . . الصحراء كلمة كبيرة ذهبية لا تشبه شيئاً ، وعليها بدأت تنزل عظمتك وكبرياؤك .

هذا هو الرماد . الرماد ، الرماد ، . . . هذا — أيها الليل — هو رماد من لحونا في القديم . إنهم ينقمون على صمتي ، ولكن من ذا أكلم في هوتي السحيقة ؟ فالنهار طفل لا يعلم شيئاً ؛ النهار هو ذلك الطفل الكبير المتفائل الذي يضحك ! حين يكون الانسان مثلي ، يقدر أن يتكلم مع الليل ، مع الليل وحده لا مع سواه ؛ على شفا اللانهاية المسدلة قناعها . إن عندي أسئلة ، والليل عنده نجوم ! (يتنهد)

نجومك ، أعلم أسماءها الخفية ، وناظري البعيد في الليل يتسامى إلى تلك العيون ؛ وأنت عماذا تفكر ؟ أليس الأجدر بنا أن نصمت ؟ موسى لم يكن مهده إلا لحداً فسيحاً ، وقيصر كان ذلك

القاتل الذي لم يمد ، بلى ! نعلم حقاً ما علمناه . قد وضع هنا قبعته المجبولة من طين . « قيصر » اسم زاهٍ جداً لحظ زائل ! وماذا تقول عنه أيها الليل ؟ وعن ذلك المحارب المتحلي بالمزايا الرومانية ؟ قيصر الكبير مات ميتة راع حقير . ليس القيصر بقيصر إذا لم يملك على كليوباطرة ، وهذا اسم عظيم أيضاً ! يُخيل إليّ حين أفوه بهذا الاسم أن المساء زاد نداوة وطراوة ، وأن الفضاء غمرته أصوات نواقيس

كانت تأتي إلى هذا المكان ! أما ترى أثرها في هذا الطريق ؟ ألا تذكر مثلي ؟ ألا تذكر ؟ لقد غبر عشرون قرناً دون أن يطمس أثر قدميها ، ودون أن يبيد وجودي شيء . كانت تضحك وتمشي بخطوة خفيفة ، هي خطوة الملكة الراحلة . كانت تضحك وأسمع ضحكاتها أحياناً ، وما أحد سمع مثلي رنين ضحكتها الطافحة بالغبطة والسعادة ، كأنما سامعها يخيل إليه أنه يرى لؤلؤة تذوب .

(كأنه يسمع صوتاً لليل يدوي بالقرب من أذنه)

أنت تقول إنها كانت شقراء ، وأظن ذلك حقيقة . ألا تراني أضحك سخرية حين يريد هؤلاء العلماء ، هؤلاء العلماء ، هؤلاء الجهال ، أن يبعثوا الماضي وينشروا الغابر ؟ وإنما أنت وحدك ، وأنا ، نهيم في هذه الأجواز المظلمة ، وأنت وأنا قد رأينا كل شيء

بلى ! قد تكون أنت أكثر علماً مني لأنك تهوى على الآفاق البعيدة بجناحك الكبير الأزرق ، تدور أنت حول الأرض ، وأنا أبقى راسياً في مصر ! ولكنك لا تدري — برغم ذلك — سراً أنا أدرى به منك ، سر ليلة تموز ، وليلة ايلول ، لأني كنت أفكر حين كنت ترتجف ! هنالك سر أعلمه دون

الورى وحدى . لقد ظن « أوديب » أنه سيقدر على استخلاصه منى ذات مساء ، وقد ذهب يبشر الملأ بانتحارى . هأنذا أضحك ساخراً ، لأن أبا الهول يحيا بينما هلك (أوديب)

أأقتل نفسى ؟ يالسخرية القدر ! لقد التهمت الأفئدة من كل مكان ، ورأيت الجميع يبيدون وأنا باق سرمد ! أتنشق الظلمات كالفجر ، وأضرب بسياطى القرون التى تتقهقر ! وأحياناً كنت أبتغى أن أزأف ، وأن أمد يدى إلى المجاز الانسانى ، ولكن الموت كان يكر عاجلاً ، والرجل الصلب كان عمره أقل مدى من خطرة من خطراتى !

(يبدو مارسيللوس وباريس)

المشهد الرابع

أبو الهول ، مارسيللوس ، باريس

باريس — إن الطريق الموحش الذى يؤول بنا إليه قد انتهى ، وهاهو ظله يتراءى لنا فى الليل . هذا هو ! لنقترب فى هذه الظلمة الحالكة ، ابدأ قبلى بالكلام ، فان بى خشية

مارسيللوس — لا ! كن أنت البادىء يا أخى !

باريس — أنت !

مارسيللوس — كله بأسلوب لين !

باريس — الظل الذى ثقب — هذا الماء — موضع عينيه يُخيل إلىّ أنه يخرج عنهما نظرة عميقة كالوجود :

أبا الهول العظيم ! نحن هنا . . . لقد سمعنا نداءك المجهول وقد أتيناك

مارسيللوس — بلى ! قد أتينا !

باريس — إن صوتك ، من أعماق الوجود قد نادى روحينا . إيه يا أبا الهول ، الاله الذى ليس بإله ، والمرأة التى ليست بامرأة ! أجبنا ! لقد دعوتنا فجئنا

مارسيللوس — لقد جزنا طرقا مظلمة ، ووصلنا طارحين عنا ذلك العالم

أبو الهول — وما يجدى الكلام معى ؟ كل مخلوق لا نفع له . لا جواب لكما عندى . انطلقا فى طريقكما

مارسيللوس — لقد قلت لنا « تعالوا » بلهجة ليست بشرية

أبو الهول — لا أذكر هذا النداء لأنى كنت ألقى ندائى فى طيات السكون لا أعين أحداً . هذا حق . ولكنى لا أعلم من ينبغى أن يحفظه ، ولا أدرى أبداً من يجب أن يلبى ويأتى ...

مارسيللوس — نحن !

أبو الهول — (بعجرفة) انتما ؛ وما تعنيان بذلك ؟

مارسيللوس — (بزهو) بلى ! نحن ؛ رجلان يرغبان فى كلامك

أبو الهول — (يقهقه)

رجلان ... وما معنى ذلك ؟ رجلان ؟

مارسيللوس — وقد ساورها القلق .

أبو الهول — (هازئا) هل تعلم قيمة الرجلين عندى ؟ إنهما أحقر من حبتين من الرمل فى الظلام البشرى ، لأنى رأيت من البشر ما يفوق عدداً ما رأيت من الرمل

مارسيللوس — ولكن فى كل رجل انسانية بأسرها

أبو الهول — أنظر إلى ما تبقى لى من عشرين قرناً بشريا ! هذا الرماد الذى أضع عليه مخالبي ... لا لا ! دعنى وحدى فى هذه الزاوية ، فلا شيء عندى أقصه عليكم أيها الرجال الذين تحدثوننى ! محدثى الوحيد هو هذه الهوة المكوكبة . فيمَ تريدون أن نتحدث يا كائنات عمرها عمر ساعة ! هنا الذى يحيا دواماً إزاء من يموتون . ليس بيننا صلة تربطنا ! إننى لم أعد ألقى أبداً الكائنات التى أحببتها . فى البدء حين كانت الريح تهب عليلة رقيقة ، أملت ناظرى إلى هذه الكائنات البشرية وما كنت أدرى أن سيدركها العفاء وشيكا ؛ ولكنى رأيت كل هذه الكائنات تهوى إلى المنحدر ! وهكذا أصبحت لا أريد أن أجيل ناظرى الحجرى المروع فى هذه الانسانية الزائلة بمرارة

دعونى أنظر إلى السماء أيها المخادعون ! فالكواكب أطول عمراً من البشر ، وانطفاؤها أبعد من انطفائكم

باريس — ربما كان ذلك ! ولكن هذه النجوم السابحة فى السماء الملتهبة ، هل تراها تتألم ؟

أجفانها الفضية ، ونظراتها النورانية ، ربما كان لها فى الأعالى خفقات أكثر طولا ، ولكن الشيء الذى لا تملكه فى سمائها الزرقاء ، هو قلق الانسان الممدود على هذه الأرض ؛ وإذا قدر للانسان هذ الحظ المتقلب — كما قلت — فذلك لأنه سريع الاشتعال ، سريع الانطفاء

مارسيلليوس — ولهذا ترى أرواحنا ترزح تحت الألم ، وأنت المشرف علينا ، الثاوى على صخرتك الباردة ، نريد منك أن تعلمنا — بصوتك — لماذا نحيا ، ومن هم الناس ؟ أنت الذى تعلم سر الكون ينبغى أن تقول لنا

أبو الهول — (بسخرية) :

هل تظن أننى أعلم ؟ لا أعلم إلا الابتسام ... سر الكون ! وهل للكون سر فى الحقيقة ؟

باريس — أجب ! ماذا نصنع ؟ ما هوألمنا ؟ وأين تتوارى هذه العوالم ؟ هذه النجوم ؟ وهذه الوجوه ؟

أبو الهول — ولهذا جئت تمكر علىّ هذه المشاهد ! دعنى ! أريد أن أنام ...

باريس — قلت لنا : تعالوا !

أبوالهول — قلبكم المضطرب صور لكم ذلك . إنى أنادى : تعالوا نداءً غير مقصود . وليزعم من زعم أنه نودى فى هذا الظلام . انظروا إلى هؤلاء الأطفال الذين ارتدوا الكبرياء ؛ هؤلاء الأقزام ، أقزام لحظة يأتوننى ويزعجوننى ... هذه الصحراء المترامية الأطراف ، الحمراء اللون سرير راحتى . فليتركونى نائماً ...

باريس — ستتحدث إلينا !

أبو الهول — ومن يجرؤ على التكلم كالآمر فى هذه البقعة ؟ أين تراك قائماً وفى أى مكان ؟ أنى أود رؤيتك . أجاهل أنت تلك العصور التى تحيط بى من كل جانب ؟ أجاهل أنت أنى إذا أومأت باشارة صغيرة هرع يلبى — إيماءتى — ثلاثون قرناً — حانية صاغرة لندائى !

باريس — كفى ...

أبو الهول — لا يستول عليك الغضب ! فقد ألفت أن أسمع مثل هذا الصياح ، وأرانى محتملاً كل هذا بسكون نفس . رأيت كل شيء يزول من

آلهة وكهان وأبخرة . رأيت نابليون ولم أرتع لرؤيته ...

باريس — أراك تقابل كل الجهود البشرية بابتسامة التهكم !

أبو الهول — لا لا ! إننى لا أسخر منه ولا أتهكم إننى أحيا بعده ! ماذا تنتظرون منى ؟ أكلمات ؟ أصداقة ؟ أنا لم أعد أعبأ بشىء لكثرة ما رأفت وأشفقت ! الحقيقة ! سل القمر عنها . قد رأيت كثيراً من الحقائق ، حتى أوقن بواحدة منها

مارسيللوس — يا أبا الهول !

أبو الهول — حقيقة ! لقد رأيت أكثر من عشرين حقيقة . كل الحقائق تزحف إلى هذا المكان باطلاً زحفها . وكل حقيقة مالئة الأناء الذى لا ينضب ، فذرونى أنام فى لحدى الرملى !

مارسيللوس — لا لا ... ستقول لنا

باريس — لقد كنت مغنياً ، كنتُ شاعراً ، وكانت الجماعة تعترف لى ، وقاعة التمثيل مقام دعوتى . أردت — يوماً — أن أؤلف قطعة عنك . وبينا أفكر فيها وأجمع الفكر حولها ، إذا بى أراك ، أراك تتخايل — فى قلب أبياتى وتناديني ! وبسمتك — فى الليل — كانت تضىء لى سهراتى ، واسمك حين يذكر يبث فىّ روح اليقظة

أبو الهول — صه ! إننى لم أدر شيئاً

باريس — ها أنا ، ذو الشهرة الكبرى التى لبث (باسكال) قلقاً من أجلها ، شهرتى هى شهرة « موسى » المتضرع للآله حين خط على صحيفته اسمك المظيم الحزين . إن اضطراباً عنيفاً يرسو فى روحى . لقد عريتنى من كل شىء كنتُ أعبده وأقدسه . أنت وحدك عظيم . أنت وحدك الذى تخشاه القلوب . أنت وحدك جميل ! الفن — تحت قدميك — يضيع زخرفه كزنبقة تتقاذفها الأمواج ؛ وأكبر آثارنا الرفيعة تغدو خواتم فى أصابعك !

لا لا . . . . سوف تكلمنى . . . لأنى أريد ذلك !

مارسيللوس — ستكلمنا ؟

أبو الهول — من قال : أُريد !

باريس — أُريد ...

أبو الهول — ما عمرك ؟

باريس — فى الثلاثين ...

مارسيللوس — فى العشرين ...

أبو الهول — (ساخراً)

العشب أطول عمراً منكما ! أطفال ! أطفال ! عشرون ربيعاً ! وتقولان هذا ! ترفعان الرأس شامخاً وجفونكما فى اضطراب . لا حق لكما فى قولكما . عشرون عاماً ! لحظة قصيرة ، نظرة ، بسمة ، وإنها تلك المدة التى أقضيها لتحريك مرفقى الكبير . وتنهدة واحدة منى لها ضعف هذا العمر . ولكن الفضاء هنا مفعم بالكهولة الخالدة . وهذا هو الخلود يصفر على جناحى . هذه الشجرة ؟ هذه النخلة البعيدة ؟ رأيتها حين وجدت ابنة فرعون موسى عاريا فى ماء النيل . عشرون عاماً ! يا لها من جرأة غريبة ! تقول عشرون عاماً أيها الطفل ! الذى يعتقد بها ويُزهى عجباً . أيتها العشبة الحقيرة الناجمة على قلبى القاسى ، ينبغى أن يكون له عشرون عاماً حتى يكلمنى بهذه اللهجة !

مارسيلليوس — البطل إذا كان أكثر فتوة وشباباً ، كان أكبر عظمة !

أبو الهول — إذا لم يكن لك إلا العشرون فلقد ولدت إذاً الآن . عد إلى بعد ألفى عام

وحينذاك نتكلم . لقد سئمت من الليل ، وضجرت منكم ومن أسئلتكم ، أريد أن أنام قرناً دون أن أجيبكما !

عشرون عاماً ! أجل قصير لا يكفي للؤلؤة تتفتق !

كليوباطرة — عمر نظرتها إلى النهار وهو يشرق !

جوليت — عمر سماحها بقبلة !

روميو — ذاك الطفل الوديع الخجل الذى قال لأبى الهول بأن له عشرين ربيعاً

مارسلليوس — كفاك سخرية منى !

أبو الهول — أأنا ساخر منك ؟ إنى أحدثكما لأنكما أردتمانى على ذلك . حسن ! سأنام قرناً . فماذا تريدون أن تعلموا يا عابرى الطريق ؟ أإذا كانت كليوباطرة ذات غدائر لامعة أو سود ؟ كنت أحدث الليل عنها هذا المساء . لقد كانت غدائر ذهبية ، أذكر ذلك ، وهل تعلم أنها لم تكن جميلة

باريس — ولكن . . .

أبو الهول — أن هذا يدهشك حقاً . . . ولكن أصغ إلى ! ضحكة زهرة محطمة ، وعنق شفافة إنى لأبسط على كل شىء وجهها الغريب الوردى الذى لا يؤسر . وجهها الغريب الطافح إلى الأبد بالرقة الساخطة والجمال الغائب

آه من ذلك القارب المتلألئ بالعبيد والطيوب الذاهب دون أن أراه ! الممالك التى تتلاشى فى القبل وفى السحر ؛ فى المشاهد الخلابة أحبوا كثيراً وشغفوا كثيراً بهذا الوجه الصغير ، بهذا الوجه الزائل . لقد مالقوها كثيراً ، وهذا هو كل أسطورتها

أنا نفسى كنت مستهاماً بها ؛ وقبل قليل نطقت باسمها فقطرت من عينى دمعة

والآن ماذا تريد أن تنتزع منى ؟ أأسناداً وأدلة أم أذاعات عن قيصر وبومباى ؟ قد تكون هذه الساقية الزرقاء حسامه ، لأنه طرح يوماً سيفه فى وثبة عظيمة من وثباته ، ولما أشرق النهار رأيت هذه الساقية تلمع

ماذا تريد أن تعلم أيضاً ، يا واضع الأسئلة ؟ كل هذه الأسماء العظيمة التى لبثت نفوس أصحابها شاحبة باهتة . كل هؤلاء القياصرة وهؤلاء الملوك هؤلاء كلهم عندى أموات الأمس ، عرفتهم وعاشرتهم . كل هؤلاء رأيتهم يموتون كالأشياء الحقيرة ، لأنى كنت الشاهد الذى يرى كل شىء يتلاشى أمام عينيه

كنت الحكم الخالى من الرأفة ، والقارب الفارغ من ملاحيه ، والملاك من غير فردوس ، وملاك البحر من دون أمواج ، والعاشقة من غير قبلة ؛ وفى سريرى الحجرى أرى كل شىء يركض إلى زواله ، ويعلم أن الوجود هو الفناء ...

باريس — لا نريد هذا ...

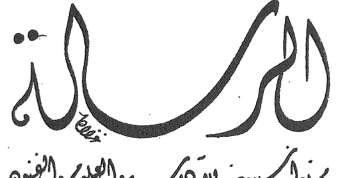
أبو الهول — ماذا تريد أن تعلم ؟ أتسألنى عن أوديب ؟ إنه كان ملكاً كما كنا . لقد كذب كثيراً ها أنت ترى أنى لا أزال هنا

باريس — لا أطلب هذا ...

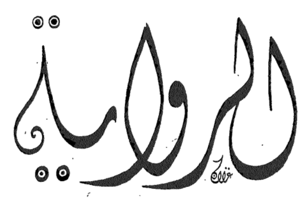
(يتبع) خليل هنداوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر





طبعت بالمطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش رقم ٣٥ — تليفون ٥١٥٢٢



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثامن ٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد



— ١ —

كان للسيد (تاى) ثلاث بنات : أنّا ، وهى البكر ولم يعد لها ذكر فى الأسرة ؛ وروز ، وهى طريدتها فى العمر ولم تتجاوز الثامنة عشرة ؛ ثم كلير ، وهى الصغرى ولا تزال غضة الحداثة فى ربيعها الخامس عشر . وقد أشبل الأب عليهن بعد وفاة أمهن فلم يتزوج

كان السيد تاى مدير الآلات فى مصنع من مصانع الأزرار ؛ وهو رجل شهم الفؤاد ، مرعى الجانب ، رضى الخلق ، عزوف النفس ، مثال للعامل الصالح ، وقد اتخذ مسكنه فى شارع (انجلولم) بمدينة الهافر

ولما هتكت ابنته أنّا رداء الحشمة ، وأطلقت لنفسها عنان هواها ، أخذه المقيم المقعد ، وتوعد المغوى الأثيم بالقتل ؛ والمغوى غلام غرير يرأس قسما من الأقسام فى متجر كبير من متاجر المدينة . ثم وقع فى سمعه من بعض الأفواه أن ابنته استقامت على الطريق الأمثل ، وأحسنت القيام على ما جمعت من المال ، واطمأنت إلى العيش الطليق فى ظلال السيد دبوا ، وهو قاض فانى الشباب عالى السن من قضاة المحكمة التجارية ؛ فقرت فورة الوالد وسكت عنه الغضب . ثم بلغ به الرضا أن اعتراه القلق على ما صنعت بابنته الأحداث ، فأقبل يسأل عن بيتها أخلاءها القدماء الذين لابسوها ، فلما أكدوا له أنها تتبسط على النعيم بين الأثاث والرياش ، وأن لديها كومة من الأوانى الملونة منضودة على رؤوس المدافئ ، ونخبة من المناظر الجميلة مرسومة على وجوه الحوائط ، فضلا عن الساعات المذهبة المعلقة فى كل مجلس ، والطنافس الفاخرة المبسوطة فى كل ممشى ، جرت على شفتيه بسمة خفيفة ، لأنه منذ ثلاثين عاماً يكدح فلم يجمع غير خمسة آلاف فرنك حقيرة ؛ فالبنية على كل حال ليست غبية !

وفى ذات صباح جاء فيليب بن توشار صاحب مصنع البراميل يخطب إليه ابنته الثانية روز ؛ فدق فؤاد الأب دقات الفرح ، لأن آل توشار من ذوى الثراء والمكانة ، فهو قطعاً سعيد الجد فى بناته . ضرب الأب موعداً ليوم العرس ، وعقد النية على أن يجعل الاحتفال به فخما ، واختار أن يقام بسنت أدريس فى مطعم الأم (چوزا) . ذلك يقتضى زيادة الكلفة والنفقة ، ولكن لا بأس ! إن المرة الواحدة لا تصير عادة !

وبينما كان الشيخ وابنتاه يتهيأون ذات يوم

للغـداء ، فتح الباب فجأة ودخلت أنّا عليها أفخر الحلل ، وفى أصابعها أنفس الخواتم ، وعلى رأسها قبعة مُراشة ؛ وكانت فى هذه الزينة عذبة الروح خفيفة الظل ، فوقفت على صدر أبيها وأخذت بعنقه فلم تدع له وقتا ليقول : (أف) ، ثم ألقت بنفسها باكية فى أحضان أختيها ، ثم غيضت دمعها ومسحت ما سال منـه وجلست إلى المـائدة وطلبت طبقاً لتشرب الحساء مع الأسرة . وفى هذه المرة تحنن الأب (تاى) وتعطف ، حتى باكى ابنته رقة ورحمة ؛ ثم قال مرة بعد مرة : « حسن يا ابنتى ! هذا حسن ! » وحينئذ أخذت أنـا تذكر ما جاءت لأجله : ذكرت أنها لا تريد أن يقام عرس روز فى سنت أدريس ، وإنما تريد أن يقام عندها وتتحمـل هى أكلاف الزفاف فلا تـكلف أباها شيئاً . لقد أُمضيتَ النية على هذا الأمر ، وجُمعت الأهبة لـكل شىء ، وقدمت النفقة عن كل عمل . فقال الأب مرة بعد مرة : « حسن يا ابنتى ! هذا حسن ! » ولـكن شيئاً من الشك تخالج فى صدره فقال : ليت شـعرى أيقبل آل توشـار هذا الاقتراح ؟ فأجابت روز وقد بغتها هذا السؤال : ولم لا يقبلون ؟ أترك لى الأمر ، وسأذهب إلى فيليب فأكلمه فيه . وفى اليوم نفسه ذهبت روز إلى خاطبها فيليب وحدثته فى اقتراح أنا فارتاح له ، وعرضه على أبويه فافتر فى وجهيهما السرور طمعاً فى غداء هنىء مرىء لا يتـكلفان له كلفة ؛ ثم قالا : « لا ريب أن الحفل سيكون هناك أفخم ، فان السـيد دبوا يتقلب فى الرخاء ويتمرغ على الذهب » ثم اسـتأذنا فى أن يدعوا صديقتهما الآنسة فلورنس ظاهية الأسرة التى تسكن الطبقة العليا من المنزل ، فأذنت لها أنـا راضية مغتبطة . وجعلوا أجل الزواج يوم الثلاثاء الأخير من هذا الشهر

— ٢ —

أخذ موكب الزفاف سمته بعد المواضعات المدنية فى دار العمدة ، والطقوس الدينية فى الـكنيسة ، إلى دار أنّـا . وكان آل تاى قد دعوا من أصدقائهم العمة لاموندوا ، والعم سـوفتنين وهو شيخ متفلسف متكلف يهتم بالقيود ويحتفل للنظام . وقد انتخبوه مراقصا لأنا ، وإنما قرنوا أحدهما بالآخر لأنهما أبرز من بالحفل شخصية وأرفع مكانة . ولما بلغ الركب منزل (أنا) تركت قرينها وتقدمت الموكب قائلة : « سأهديكم الطريق » ثم صعدت السلم عجلى وتركت موكب المدعوين ينقل خطاه فى ونـاء وبطء . ثم فتحت الفتاة الباب وأفسحت الطريق للمدعوين فدخلوا مشدوهين مأخوذين تجول عيونهم فى الأثاث الفخم ، وتدور رءوسهم فى البيت الأنيق . وكانت قاعة الطعام لا تتسع المدعوين فمدت المـائدة فى البهو ونظمت فوقها أداة الطعام وآنيته ، وصفت عليها دوارق الصهباء فوقع عليها من الشـباك ضوء من الشمس لألأ نضارها وشعشع سناها

دخل النساء غرفة النوم يخلعن ما عليهن من قبعات وشيلان ؛ ووقف الأب توشار على العتبة يختلس النظر الخبيث إلى السرير الواطىء العريض ويشير إلى الرجال بيديه إشارات المجون والدعابة . وسار الأب (تاى) الوقور وقبعته فى يده ينتقـل من غرفة إلى أخرى وهو ينظر إلى أثاث ابنته الفخم نظر المزهو الفخور ، ويلاحظ قطع الرياش لحظ الفاحص المقدر وهو يمشى مشية قيم الـكنيسة فى أبهاء الـكنيسة . وكانت (أنا) لاتفتأ ذاهبة آيبة

ترعى النظام وتستعجل الطعام وتوفر الجمال للمأدبة

وأخيرا وقفت على وصيد غرفة الطعام العاطلة من أثاثها وصاحت فى القوم : « تعالوا هنا بأجمعكم لحظة ! » فسارع إليها الاثنا عشر مدعوا فوجدوا اثنى عشر كوباً من خمر مادير مصفوفة على صورة الاكليل فوق منضدة عالية ؛ وأخذ كل من العروسين بخصر الآخر ووقفا فى أحد الأركان يتبادلان القبل ؛ وظل السيد سوفنتين يتعهد (أنا) بالنظر مسوقا بتلك الرغبة وذلك الرجاء اللذين يحركان الرجال حتى الشيوخ والمسوخ إلى النساء الحسان كأنما يفرض على الأناث واجب الحرفة والتزام الصنعة أن ينزلن عن شيء منهن للذكور

أعدت المائدة وجلس إليها القوم : أهل الزوجين فى طرف ، وبقية الناس فى طرف ؛ وتصدرت فى اليمين الحماة ، وتصدرت فى الشمال العروس ؟ وأخذت (أنا) تحمل بالهــا إلى المدعوين أجمعين فلا تدع كاساً تفرغ ولا طبقاً ينقص . ولـكن رهبة الاحترام ووازع الاحتشام اللذين بثهما فى النفوس فخامة المسكن وأبهة الخدمة ، ألجما الأفواه وشلا الجوارح . إنهم يأكلون أشد الأكل ، ويطعمون أجود الطعام ، ولـكنهم لا يمرحون ولا يمزحون كما يفعــــل الناس عادة فى ولائم الأعراس . كانوا يشعرون بأنهم فى جو تشيع فيه مهابة الجلالة فبرمت الأم توشار بتلك الحال ، فهى بطبعها دعّابة تحب المزاح وتطلب الضحك ؛ وأرادت أن تسرّى ذلك الانقباض عن القوم ، وكانوا قد أتوا على ألوانـ الطعام ووقفوا على الحلوى ، فطلبت إلى ابنها فيليب العريس أن يغنى المدعوين أغنية ، وكان قد ذهب رسمه فى الحى أن صوته أرخم صوت فى مدينة الهافر ؛ فلبى العريس طلب أمه ، ونهض باسماً والتفت إلى (أنا) على سبيل الأدب والتظرف ، وبحث عن أغنية من الأغانى التى تناسب مقتضى الحال وتوائم جلال المأدبة . واتخذت (أنا) هيئة المسرورة وتطرحت الى الوراء على كرسيها لتسمع . وبدا على الوجوه المصغية افترار من السرور المبهم ؛ وأعلن الفتى المغنى أنه سيغنى (الخبز الملعون) ثم دور ذراعه اليمنى على صورة قرص وأخذ ينشد :

إن الخبز المبارك هو ما تصنعه الأرض ؛

ولا بد أن نقتلعه بسواعدنا الفتية !

ذلك هو خبز العمل الذى يقـدمه الرجل الصالح فى المساء إلى بنيه وهو جذلان مغتبط .

ولـكن هناك خبزاً آخر يفتن النفوس ويغوى :

ذلك هو الخبز الملعون الذى زرعته لهلاكنا جهنم.

أيها الأطفال لاتلمسوه ! إنه خبز العار والخطيئة.

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك الخبز الملعون !

***

انفجر المدعوون بالتصـفيق وأطالوه فى حدة وشدة . وقال الأب توشار : « ذلك شيء فى محله » . وأدارت الطاهية المدعوة فى يدها قطعة من الخبز ونظرت إليها فى حنان وإشفاق . وقال السيد سوفنتين مغمغماً : « حسن جداً » . ومسحت العمة لاموندوا عينيها بفوطتها . وأعلن العريس أنه سيغنى المقطوعة الثانية ، وانطلق ينشدها بقوة وحمية :

احترموا ذلك البائس الذى حطمته السن العالية فجاء يستندى الأكف على قارعة الطريق .

ولـكن احتقروا ذلك المتبطل الذى يترك العمل وهو صحيح البدن جم النشاط ثم يمد يده للسؤال .

إن الاســتجداء مع القدرة سرقة من المنتج

الذي أوهن عظمه الـكبر .
وسرقة من العامل الذى قوس ظهره العمل .
خزى لمن يعيش على خبز الخمول والـكسل !
أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك
الخبز الملعون !

* * *

نهض القوم أجمعون واقفين حتى الخادمتان ، وأخذوا يرفعون عقائرهم بالبيت الأخير . وكانت أصوات النساء الناشزة الحادة تقطع أصوات الرجال الرزينة الممتلئة . وكانت العمة والعروس تبكيان أحر بكاء ؛ والأب تاى يخط فى صوت كصوت البوق المزدوج ؛ والأب توشار يردد جازعاً بين يديه قرصاً من الخبز ؛ والطاهية الصديقة ترسل عبراتها الصامتة على قطعة الخبز التى لا تزال تكابد فى يدها العذاب ؛ وقال السيد سوفستنين فى وسط هذا الجزع العام : « ذلك هو الـكلام الحر والمغزى الصحيح ، لا ما كنتم تريدونه من المجون والدعابة » كذلك أدرك التأثر (أنا) فأرسلت قبلاتها إلى أختها ، وأشارت إلى زوجها إشارة الاعجاب والمودة ، تريد بذلك أن تهنئها به . ومادت بالفتى نشوة النجاح فأخذ يغنى المقطوعة الأخيرة فى حماسة وطرب :

أيتها العاملة الحسناء ! كأنى بك تصيخين وأنت
فى مأواك المتواضع إلى صوت الخادع المغوى !
اذهبى لشأنك يامسكينة ! اتركيه ولا تتركى الابرة .
إن أهلك هم أنت ؛ فسعادتهم فيك وبك .
هل تجدين فى الترف المخزى والبذخ الأثيم جمالاً
ولذة حين يرسل إليك أبوك فى نفسه الأخير
لعنته ودعوته ؟
إن خبز الخطيئة والخزى معجون بالدموع !
أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك
الخبز الملعون !

* * *

لم يردد البيت الأخير إلا الخادمتان والأب توشار . أما (أنا) فقد انتُسف لونها وكسر طرفها الغم ، ولف رأسها الخجل . وأما الزوج المغنى فقد ملـكه الدهش وظل ينظر حواليه نظر الذاهل يحاول أن يعلم السبب فى هـذا الفتور المفاجىء . وألقت الطاهية قطعة الخبز من يدها كأنهـا مسمومة . وحاول السيد سوفتنين أن ينقذ الموقف فقال : إن المقطع الأخير شديد مفرط فى الشدة . وطغى الدم فى وجه الأب تاى فاحمر حتى أذنيه ، وتسعر الغضب فى عينيه . وصاحت (أنا) فى خدمها بصوت يهدجه البكاء ويبلله الدمع أن يقدموا الشمبانيا . وسرعان ما تطلقت وجوه القوم وثابت الى نفوسهم البهجة . وكأن الأب توشار لم ير ولم يحس ولم يع ، فظل يردد بين يديه قرص الخبز وهو ينشد :

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا هـذا
الخبز الملعون !

ورأى المحتفلون قنانى الشمبانيا بأقنعتها الفضية على أيدى الخدم فهبت فى نفوسهم ثورة العاصفة وزمجر فى حناجرهم صوت الرعد وصاحوا منشدين :

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك
الخبز الملعون !

الزيات

المباراة القصصية

طلب إلينا كثير من الـكتاب أن نمد فى أجل المباراة فى الأقصوصة لوقوع الأجل الأول فى أزمة الامتحانات . فنزولا على إرادتهم مددنا الأجل إلى آخر يونيه



وقفت « ليلى » أمام المرآة ، تصلح شعرها وتضع فيه المشابك ، وتسويه براحتها وأناملها ، وتثنى شعرات منه هنا ، وترد أخرى إلى مكانها هناك ؛ ثم تناولت المِشْبنة وفتحتها ، ونظرت فيها هنيهة ، ثم قلبتها على المنضدة ، ونفضتها بأطراف أصابعها ، ثم نحّتها وراحت تتأمل ما أفرغته منها . ثم هزت رأسها آسفة ، وشرعت ترد الأشياء إلى الحقيبة : المشط والمنديل وثلاثة طوابع بريد بثلاثة ملاليم .. لا شيء غير ذلك . . حتى ولا أجرة الترام إلى عملها الجديد الذى فازت به . وما غناء ثلاثة من طوابع البريد بثلاثة ملاليم ؟ . . لو كانت ستة لباعتها وركبت الترام من غمرة ؛ فان المسافة طويلة من حدائق القبة إلى شارع سليمان باشا . . ولو كانت عشرة لباعتها أيضاً — لا لتركب — فان المشى يسهل أن يحتمل إذا كان معها قرش تأكل به . . كلا . . لا بد أن تصبر على الجوع وأن تتجلد وتحتمل المشى مع الطوى ، وما بقى سوى يومين ثم تقبض أجرها عن هذا الأسبوع الأول . ولكن هل تستطيع أن تحتمل الجوع وتعب العمل والمشى يومين كاملين ؟ ؟ وأبت أن تفكر فى هذا ، وأن تدعه يثبط همتها ، وقالت لنفسها إن حسبها أنها وُفقت إلى عمل ، وأنه وسعها أن تظل حية إلى اليوم . وهبطت على كرسى وهى تقول : « آخ ! » لا من التعب ، بل مما ستلاق فى يوميها هذين ، ومر أمام عينيها ، كشريط السينما ، ما كان من أمرها إلى الساعة ، فقد تخرجت فى المدرسة السنية ، ولكنها لم تشتغل بالتدريس ، فقد أحبت فتى رشيقاً أغراها بنفسه ، ووعدها بالزواج ، وكرر الوعد ، وأكده ، وأقسم على الحفاظ — وما أسهل بذل هذه الوعود على الشبان — حتى فاز منها بما يبغى . وألحت عليه تطلب منه الوفاء ، وتوسلت إليه ، وبكت ، وقبلت يديه ورجليه ، ولم يكن هو ينوى الوفاء ، ولا كان فى وسعه ، فما كان سوى عامل فى مصنع ، وإن كان مظهره يوهم أنه من الوجهاء . ولم يكن يدرك ما تورط وورّطها فيه — وماذا عسى أن يخشى مثله ؟ ولكنها هى كانت لا يخفى عليها ما هى صائرة إليه من الفضيحة ، لا محالة ، إذا لم تعجّل بالتدبير المنقذ . وليتها أطلعت أمها على ما كان من أمرها مع هذا الفتى ! . . ولكن ما جدوى « ليت » بعد ثلاث سنوات قضت فيها الحسرة على الأم المسكينة ، ولم ترقق قلب أبيها الغليظ ؟ وكانت ليلى تخشى ضعف أمها ، وقوة أبيها ، فلم تجد أمامها إلا فتاها تلقى بنفسها عند قدميه ، باكية ، متوسلة ، وهو يرى تضعضعها هذا ، فيتجبر ، ويتغطرس ، ويتحكم ، ويدعوها أن تفر معه . وتتردد هى وتحجم عن هذه الخطوة الحاسمة التى لا رجعة بعدها إلى أهلها ، فان أباها عنيف عنيد ، يؤثر أن يقتلها على أن يقبلها فى بيته . بل هو لا محالة

قاتلها إذا عرف الحقيقة ، وإذا أطاعت فتاها ، وفرّت . وسيعرف الحقيقة إذا بقيت فالفرار أنجى . وقد لا يكون أشرف ولكنه سبيل الحياة إذا شاءت أن تبق حية . وقد كان . فرت مع هذا الفتى وحملت معها فى حقيبة الثياب حلّيها ، وشيئاً من حلى أمها أيضاً ، وقد نفعها ذلك ؛ فما أقامت مع الفتى إلا أياماً فى فندق زرىّ . وكان ظنها أنها ذاهبة إلى بيته ، وأملها أنها ستكون زوجة له فيكون مما يرجى أن تُغْتَفَرَ زلتها على جسامتها ، فاذا بالفتى لا يريد إلا أن يقضى أياماً فى متعة خالصة ثم يلقى بها عظماً بعد أن أكلها لحماً ، فكادت تجن ؛ واغتنمت فرصة خروجه من الفندق يوماً ، فحملت حقيبتها وأدت حساب الفندق ، وانطلقت على غير هدى . وصارت المسألة « أين تذهب ؟ » بيت أبيها لا سبيل إليه ، وأترابها فى المدرسة . . كلا . . هذا أيضاً ممتنع . . وتذكرت وهى واقفة فى محطة الترام صديقة لها كانت من جيرانها فى زمن الحداثة ، وهى الآن « حكيمة » فى قصر العينى . ولكن الحكيمات فى هذا المستشفى يبتن فيه ولا يخرجن إلا أياماً معلومة ، فما العمل ؟ ولم يطل ترددها فذهبت إلى « العيادة الخارجية » وسألت تلميذة لقيتها فيها عن صاحبتها ، واتفق أنها كانت تعرفها فدلتها عليها ، وأنبأتها أنها تعمل فى قسم الرمد ، وكتبت إليها ورقة بعثت بها مع خادم أو « تمورجى » كما يسمى ، فدعتها الحكيمة إليها . وكانت هذه المقابلة بداية الفرج

أقامت ليلى بعد ذلك مع أهل الحكيمة ، وكانتا تلتقيان يوم الأحد ويومى الخميس والجمعة ، إلى المساء ، — كل أسبوعين مرة — وكانت ليلى ربما اشتاقت إلى صديقتها فى أيام عملها بالمستشفى وتذهب ، فى الظهر أو فى الساعة التاسعة ، لتراها وهى خارجة من المستشفى فى طريقها إلى « الهوستل » حيث الطعام والنوم ، فتحدثها دقائق ثم تكر راجعة إلى البيت . وكانت المسألة التى تشغل البنتين هى كيف ينبغى أن تحيا ليلى ؟ فقد كان مفهوماً أن إقامتها فى بيت صاحبتها ليست سرمداً وإن كانت تنفق على نفسها من ثمن ما تبيعه من الحلى ، فان لهذا آخراً على كل حال . وكان مما فكرا فيه أن تعمل فى عيادة أحد الأطباء ؛ ولكن ليلى أشفقت أن يراها عنده أحد من أهلها أو معارفها . وخطر لها أن تعمل فى مصلحة التليفون ، ولكن السعى أخفق ، ولم تجد وساطات الأطباء الذين استعانت بهم « الحكيمة » فقد تحول التليفون وانقلب « أوتوماتيكياً » فما الحاجة إلى بنات جديدات ؟ وخشيت أن تشتغل بالتعليم فى مدرسة أهلية فيهتدى إليها أبوها ، وكان خوفها من ذلك عظيما . وأخيراً اقترح عليها طبيب أن تتدرب على الآلة الكاتبة ففعلت وأتقنت ذلك حتى صارت تكتب ثمانين كلة فى الدقيقة ، وأعانها الطبيب وألحقها بمكتب يتلق طلبات « النسخ » ، ولكن العمل كان قليلا لأن أكثر ما كان يطلب كان باللغتين الفرنسية والانجليزية ، وكانت تعرف الانجليزيه ، فقد تعلمتها فى المدرسة ، فلم يسعها إلا أن تتدرب على كتابتها على آلتها ، وسهل عليها بعد ذلك أن تستطيع نسخ « الفرنسية » أيضاً فان الحروف واحدة وإن كان جهلها بهذه اللغة قد جعلها أبطأ . غير أن السرعة يمكن أن تجىء مع الوقت

واستغنت على الأيام عن المقام فى بيت صديقتها وإن كانت صلتها بها قد بقيت وثيقة ، فان فضلها عليها كبير ، وجميل صنعها معها ليس مما يجحد ، ولا مما ينسى حتى لو نزعت نفسها إلى الكفران . وأفلس المكتب فانتقلت إلى سواه بعد عناء ،

على الرغم من أنها أصبحت معروفة فى هـذا المحيط — محيط الـكاتبات الناسخات . وكانت حليها قد ذهبت جميعاً فى نفقات الحياة ، وأجور التعليم ، وسد النقص ، وهاهى ذى الآن قد التحقت بمكتب جديد بعد أن ظلت عاطلة شهرين أكلت البطالة فى خلالها القليل الذى كان مدخراً

ونهضت عن الـكرسى وهى تتنهد وتناولت حقيبتها ، لتخرج إلى عملها ، وكانت الساعـة السابعـة فأمامها ساعة كاملة للمشى إلى المـكتب ، وقد عرفت بالتجربة أن الساعة فوق الـكفاية ، ولـكن فسحة الوقت خير من ضيقه ، ومضت إلى بابها لتفتحه وتخرج ، وإذا بنقر خفيف عليه ، فقالت : « تفضل » فدخل رجل بدين وسلم وقال : « أراك خارجة »

قالت : « نعم . . . . » وهمت أن تقول إنها مضطرة إلى التبكير ، ولـكنها كبحت نفسها فما يعنيه هذا فقال : « أجرة الغرفة عن ثلاثة أسابيع . . . ألا يمكن أن تعطينى منها شيئاً على الحساب ؟ »

قالت : « آسفة . وإنى لشاكرة لك هذا الصبر كله . والعطف أيضاً .. بعد يومين .. أقبض أجرة الأسبوع فاعطيك شيئاً »

قال : « إنك تحرجيننى مع زوجتى . هذا الصبر الطويل ليس له عنـدها إلا معنى واحد . وقد أنذرتنى اليوم . وعبثاً أحاول أن أفهمها الحقيقة .. لا تريد أن تفهم . كل ما تعرفه أن الأجرة تأخرت ثلاثة أسابيع . وكل ما تريده هو أن تؤدى إليها هذه الأجرة أو تخرجى اليوم »

قالت : « ألا يمكن أن تمهلونى يومين اثنين ؟ أين أذهب إذا خرجت اليوم ؟ ليس لى مكان آخر » فهز الرجل كتفيه الغليظتين ولم يقل شيئاً .

فدنت منه ليلى وقالت : « أرجو . أرجو أن تمهلنى . كن شفيعى عندها »

فقال : « لو كان الأمر إلى لمـا تقاضيتك شيئاً قط . ولـكنك تعرفين زوجتى . ولست أعرف لى حيلة »

قالت : « ولـكن كيف أستطيع أن أعطيك اليوم شيئاً ؟ لا أعرف أحداً أقترض منـه . ولا يمكن أخذ شىء من المـكتب . إنى جديدة فيه »

فقال : « اسمى ... لو لم تكونى بلهاء لأمكن تذليل كل هـذه المصاعب . . . ولـكنى لم أر فتاة مثلك »

فقالت : « ماذا تعنى ؟ . . كيف يمكن تذليل الصعاب ؟ »

فأراح كفيه الغليظتين على كتفيها وقال : « أنا أستطيع أن أدبر الأمر إذا طاوعتنى »

فهزت رأسها غير فاهمة فقال : « تعالى ... »

وطوقها بذراعه ، وأدنى شـفتيه المطوطتين من فمها ، فحاولت أن تنأى عنه ولـكنه جذبهـا إليه بقوة ، فحولت وجهها عنه ، فذهبت شـفتاه تعبثان فى نحرها ، وكتفها ، وكانت يده اليسرى تتحسس صدرها وتقف وتتكور على ثديها الراسخ ، فكاد عقلها يطير ، وتفلتت من عناقه بعنف ، وارتدت راجعة الى آخر الغرفة وهى تلهث وتنهج ، كأنما كانت تجرى ، وصدرها يعلو ويهبط كالموج ، من جهد المقاومة ومن الغضب أيضاً . وكان هو ينظر إليها نظر النقمة والغيظ ، فصاحت به وهى ترجف : « إذا لم تخرج من هنا فسأصرخ »

فزام ، وهز رأسه ، وقال وهو يدور ليخرج : « طيب . . . سـنرى . . . إما أن تدفعى اليوم وإلا فاخرجى أنت » فلم تقل شيئاً ... وماذا عسى أن تقول ؟

***

« بونجور »

« بونجور ... خذى هذا العنوان واذهبي إليه حالاً ... عمل مستعجل ... الرمنجتون ذهب بها أحد ... العمل يستغرق يومين ... ثلاثة ... المهم الاتقان ... يجب أن يكون راضياً ... فاهمة ؟ »

فذهبت ولم تسأله أهو عربي أم أفرنجي . . . وماذا يهم ؟ . . كله عمل . . . آلى . . . ودخلت الشقة فاذا هى بيت لا مكتب ، وقالت للخادم النوبى : « إنى من محل ... »

فاكتفى بأن يشير إلى غرفة المكتب فجلست على كرسى من الجلد كبير وثير ، وأدارت عينها فى الغرفة فلم تر فيهـا أثاثاً غير كرسى آخر كالذى جلست عليه . وحول الجدران رفوف كثيرة عليها كتب لا تحصى ، وثم فى الركن مكتب أنيق ، وفى وسط الغرفة منضدة صغيرة ، مما يستعمل للشاى ، وضعت عليها « الرمنجتون » فتوقعت أن ترى رجلاً عالى السن وأدهشها أن يدخل عليهـا شاب يناهز الثلاثين وان تعلم أن هـذا هو الذى جاءت لتعمل له ولتنسخ ما يشاء

وقال برقة لا تكلف فيها : « قهوة ؟ »

قالت : « أشكرك... فيما بعد... بماذا تأمر ؟ »

فقال وهو يناولها ملفا ضخما : « فى كم يوم يمكن الفراغ من نسخ هذا كله ؟ »

فقلبت الأوراق ونظرت فى الخط والسطور ثم رفعت رأسها إليه وقالت : « صعب أن أقول كم يستغرق ... ولكن ... بعد ورقة أواثنتين أستطيع أن أحكم حكماً قريباً من الصحة »

فهز رأسه وهو يبتسم وتحول عنها ثم كأنمـا خطر له خاطر فدار على عقبيه بسرعة وسألهـا : « يهودية ؟ »

فابتسمت له ، وقالت وهى تهز كتفيها :

« لأنى شقراء ؟ »

فقال : « إذن أنت ؟ »

فأراحته من عناء التخمين وقالت : « مسلمة »

فقال وهو يهز رأسه بعنف كأنما وجد ما يسره من حيث لم يكن يحتسب : « أنا أيضاً مسلم »

فلم تقل شيئاً واجتزأت بالابتسام ، وشرعت ترفع غطاء « الرمنجتون » . وتركها هو وذهب فجلس على الكرسى الآخر ثم رآها تتلفت فى الغرفة فنهض وهز رأسـه مستفسراً ، فنهضت هى أيضاً وقالت : « لا تتعب نفسك ... أظن أن فى وسعى أن أجد كرسياً من الخيزران فى ... »

فقال وهو يعدو الى الباب : « بالطبع ... أما إنى لمغفل ... »

وعاد بالكرسى وهو يقول ضاحكاً : « لكأنما كنت أظن انك ستجلسين القرفصاء وتكتبين على حجرك . . ! لم تشهدى ذلك العـهد بالطبع ... لا يمكن ، فانك ما زلت صغيرة . . أوه جداً . . ولكى أين تعلمت الكتابة على هذه الآلة ؟ معذرة إذا كنت أتطفل ولكن المصريات يندر . . جداً أن تعنى واحدة منهن بذاك »

قالت : « ولكنى استطعت أن أتعلم .. صنعة فى اليد أمان من الفقر » وابتسمت

فقال : « أهو ذاك ؟ معـذرة . . كان سؤالى فضولا منى لا يغتفر . . سامحينى »

فسرها منه هـذا الأدب ، وقالت : « ليس هذا سرا . . ألست أعمل . . لست هاوية بالطبع »

فقال : « إذا كنت تعملين فى مكتب .. فانك ولا شك تعرفين لغة أجنبية أو اثنتين ف .. ف .. »

قالت : «أعرف الانجليزية ، وأصبحت أعرف من الفرنسية ما يكفى للنسخ . . . وأتكلمها أيضاً فاننا جميعا نتكلمها هناك »

فقال : « أوه لست أريد أن أفتح لك محضر تحقيق ... معذرة مرة أخرى ... ورفع يده الى جبينه العريض ومسحه وقال : « هذه أول مرة أرى فيها مسلمة تشتغل بالنسخ (وضحك) أرانا نتقدم ... أليس كذلك ؟ »

وكانت قد شرعت تدق على الآلة الكاتبة ، فاكتفت بالابتسام

وتركها هو بعد ذلك وخرج بعد أن قال لها إن فى وسعها أن تطلب ما تشاء من الخادم ... أى شىء ... قهوة ... شاى ... أكل ... كل ما فى البيت تحت أمرها

ولكنها لم تطلب من الخادم شيئا ، ولم تقلق راحته ، بل أقبلت على الآلة تدق ، وتدق ، بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة ، وتخرج له من كل ورقة نسختين . واستغرقها العمل ووجدت فيه متعة لا عهد لها به فى مثله ، فقد كانت هذه رواية تنقلها — استعداداً لطبعها ولا شك — وكانت الصور التى يرسمها المؤلف — هذا الشاب الوسيم المؤدب تتجسد لها ، والمواقف تتمثل ، وهى تدق ، وتدق بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة ، وكانت نفسها تجيش بمثل العواطف الموصوفة ، والاحساسات المصورة ، فتضحك تارة ، وتخنقها العبرات تارة أخرى ، وتعبس حينا ، وترى نفسها تنطق الألفاظ التى تدقها بقوة وعنف كأنها تمثل ما تقرأ ، أو كأنما كان الأمر حقيقة لا خيالا . وكانت ورقة بعد ورقة تلقى فى السلة على المكتب وهى ذاهلة عن كل شىء . فما قامت مرة ، ولا تمطت لتريح أعضاءها المكدودة ، وتحرك أصابعها التى كادت تتشنج وتتصلب أو تتخشب ، ولا شعرت بظمأ أو جوع ، ولا كان لها بال إلا الى هذه الرواية التى تقرؤها وهى تنسخها . ولقد كانت مشغوفة أيام المدرسة بالروايات والقصص ، ولكنها منذ ثلاث سنوات لم تقرأ رواية ، وإن كانت قد ذهبت مرارا الى السينما — وهى مطمئنة فان أباها من ألد أعدا السينما ومع ذلك كانت تتحرز وتلقى على وجهها نقابا خفيفا شفافا ، حتى حين تمشى فى الطريق كانت تتنقب زاعمة أن هذا وقاية من الشمس والتراب

ولم تشعر بعبد الحميد — فقد كان هذا اسمه — حين دخل عليها ووقف ينظر اليها أكثر من دقيقتين . فلما رآها لا تلتفت اليه ، ولا ترفع عينها عن الورق ، ولا تتمهل أو تتباطأ فى العمل قال : « معذرة ... إن هذا انتحار »

فرفعت رأسها حينئذ وقالت : « أوه ... لم أرك لما جئت ... كلا ... إنى على العكس مسرورة ... وأعترف لك بأن هذه أول مرة سرنى فيها عملى ... رواية مدهشة »

فقال وهو ينحى كفيها عن الرمنجتون : « قد تكون الرواية أو لا تكون مدهشة ... ولكن أبعث على الدهشة ألا يحتاج الانسان الى الراحة . تفضلى وقومى وأريحى جسمك قليلاً على هذا الكرسى »

وتناول ذراعها لينهضها ، فقالت وهى تقوم : « صدقت ... أستريح دقيقة »

فقال وهو يمضى بها الى الكرسى : « تستريحين تماما ... »

فقالت وهى تجلس على الكرسى : « ولكنى أريد أن أعرف بقية الرواية »

فقال : « اضطجعى أولاً ... أنا أقص عليك البقية .. ألخصها لك فى ألفاظ قليلة »

قالت : « كلا ... هذا يفسدها ... إنى أريد أن أقرأها »

قال : « إذن أقرأها لك »

قالت : « تتعب ... دعني أقرؤها أنا ... وأنا أستريح »

قال : « بعد الغداء ... الوقت طويل »

فقالت : « الغداء ؟ كلا ! اسمح لي أن أخرج ثم أعود في الساعة الثالثة . . كالعادة »

قال : « ولم لا تبقين وتتغدين هنا ؟ قولي إنك باقية »

قالت : « لا أستطيع . . سأعود بالطبع بعد الظهر ... »

وكانت تعلم أنها مفلسة ، وأنها لا تستطيع أن تذهب الى بيتها — حيث ذلك الرجل الخشن الفظيع — وهبه ليس فيه فما تصنع هناك ؟ . وإذا لم تذهب الى البيت فأين يمكن أن تذهب ؟ . هذا شاب يعرض عليها أن يطعمها وأن يريحها من الأنياب التي تمزق أحشاءها ، ويعفيها من الشعور الثقيل بالقرص والمض في جوفها ، فلم لا تطيع وتقعد وتأكل ؟ وأحست وهي تدير هذا في نفسها بالدموع تترقرق في مآقيها وتخنقها ، وخشيت أن تخونها قواها وأن تغلبها العبرة أمامه ، فقرضت أسنانها وشدّت أعصابها ، ونهضت متحاملة على نفسها

فقال : « إلى أين ؟ لا يمكن أن تخرجي ... عيب ... لا يليق »

فقالت بضعف — فما بقيت في بدنها ذرة من القوة بعد أن أنفقت البقية في المكابرة : « أرجو . . »

ولم تزد فقد هوت كالجثة أو كأنها ثوب فارغ !

ولم يكن هذا مما يجري لصاحبنا في حساب ، فلم ينتبه إلى ما حدث إلا بعد أن ارتمت على الأرض — بعضها على الكرسي وبعضها على السجادة — فانحنى عليها وحملها وأراحها على الكرسي ، وخرج يعدو ويصيح : « محمد . محمد . تعال حالاً . . »

ولم ينتظره بل ذهب إلى غرفة النوم وجاء منها بزجاجة من الكولونيا رش منها على وجهها الأصفر ، وأقبل على راحتيها يدلكهما وخلع حذاءيها وجوربيها ، وراح يدلكهما أيضاً بالكولونيا ، ومحمد واقف ينتظر ، وينتظر الأوامر التي لا تصدر ، ولا يصنع شيئاً

وبعد لأيٍ ما بدأ الدم يعود إلى وجهها الممتقع ، فتنفس عبد الحميد الصعداء واطمأن ، وفتحت ليلى عينيها وأجالتهما في ما حولها بفتور ، ثم تنهدت ووسعها أن تتكلم

فقالت : « لم يحدث لي هذا أبداً »

فقال بشيء من العنف : « كان جميلاً جداً أن يحدث لك هذا في الشارع . . هه ؟ »

فابتسمت وقالت : « أشكرك . . إني آسفة . . هذه أول مرة »

فقال : « محمد ! . . خذ هذه الزجاجة وضعها في مكانها . . والآن لا يسعني ، وقد خرج محمد ، إلا أن أوجه إليك سؤالاً ثقيلاً . . بارداً في الحقيقة . . ولكنه واجب . . متى أكلت آخر مرة ؟ . . احذري أن تكذبي »

قالت : « لا داعي للكذب . . أمس الظهر »

قال : « لقد ظننت ذلك . . »

قالت : « كيف عرفت ؟ »

قال : « أوه المسألة في غاية البساطة . . ليست مسألة فراسة ، ولكنها مسألة ضم قرينة إلى قرينة . . . وأعترف أني مررت بمكتب . . واستدرجت صاحبه إلى الكلام عنك ، فقال إنك معروفة في مكاتب النسخ ، وإن كنت من الجديدات عنده . . هذا يومك الخامس في مكتبه . . وأنني عليك وطمأنني كأنما كنت أحتاج إلى ذلك . . فلما أغمي عليك الآن أدركت أن هذا من التعب

والجوع . . ألا ترين أنى أصلح للقيام بدور سنكلر أو شرلوك هولمز ؟ »

فضحكت وقالت : « لماذا سألت عنى ؟ . . »

فقال : « قبل أن أجيبك يجب أن تنتظرى قليلاً حتى أعود إليك »

وخرج وتركها ، فراحت تفكر مسرورة فى هذا الشاب — نعم هو شاب وإن كان الأرجح أنه جاوز الثلاثين — وفى رقته ودعته ، وفى مروءة نفسه وحسن أدبه ، وفى براعته فى فن الرواية براعة جعلتها تمعمل كما لم تمعمل قط فى حياتها . . وفى وسامته ، وفى هذا السحر الذى ينطلق من عينيه ، فينفذ إلى القلب ، ثم تنهدت آسفة سحر أو لا سحر . . سيان ! لا شك أنه يعجب بها . . هذا واضح . . ولكن ما قيمة هذا الاعجاب ؟ وهبه أحبها ، فما أملها معه إلا أمل الخليلة ؟ وهيهات أن ترضى ذلك ؟ ولو كانت ترضى ذلك لما فاتها ما فاتها من الفرص ولا كانت خسرت ما خسرت من الأعمال ، فما كان أكثر أصحاب الأعمال الذين طمعوا فى هذا النوع من العلاقة ، فلما خيبت أملهم ألقوا بها فى الشارع .. وحسبها زلة واحدة فى حياتها أورثتها هذا الشقاء الطويل ...

واختصرت زفرة طويلة ، فقد دخل فى هذه اللحظة محمد وأمامه سيده — الخادم يحمل ساطانية متوسطة فيها مرق ، والسيد يحمل فوطة

وقال السيد : « اشربى هذا . . حالاً . . »

وطرح الفوطة على حجرها ، ففعلت كما أمر ، وقال لها : « هذا يكفى الآن . . بعد طول الطوى يحسن التخفيف حتى لا تتعب المعدة »

فقالت وهى تضحك : « لا تبالغ . . إنه يوم واحد ليس إلا »

قال : « هذه الشجاعة التى تظهرينها تسرنى وتمليك فى عينى . . ولكنها تكلف على كل حال »

فقالت مستغربة : « تكلف ؟ أبداً »

قال : « إن الذى أعنيه هو أن الشجاعة لا تكون إلا تكلفاً . . شىء يحمل الانسان نفسه عليه . . هذا ما أعنى »

فقالت : « ولكنى لست فاهمة »

قال : « نؤجل الدرس إلى وقت آخر ؛ ونتحدث الآن عنك . . قولى ما اسمك ؟ »

قالت : « فريدة »

قال : « ينطقونها فى المكتب (فِريدا) ... ما علينا . . هل هذا اسمك الحقيقى ؟ »

قالت : « لماذا تظن أنه ليس اسمى ؟ »

قال : « ما رأيت من شجاعتك يحملنى على هذا الظن ... أنت بنت ناس »

قالت : « كل الناس أبناء ناس »

وضحكت ، فقال : « أعنى أنك تشعرين بكرامة تحرصين عليها »

قالت : « هل أنا الوحيدة التى تفعل ذلك ؟ »

قال : « أعترف أنى انهزمت ... عندى كلام كثير ... حجج ... ولكنى أوثر الهزيمة ... فما قولك فى أن نكون صريحين ؟ »

فضحكت . ولم يكن ضحكها سروراً بل عن شعور بالضعف وبالاضطراب الذى أدركت أنه سيدفعها إلى الاعتراف بكل ما فى نفسها . فقال : « قولى لى اسمك الحقيقى ... سأحتفظ به »

فأقرت من حيث تريد المكابرة وقالت : « ولكن ما الفرق بين اسم واسم ؟ .. كله اسم »

قال : « ها !! . لقد صح ظنى ... والآن ما اسمك الحقيقى ؟ . . لقد وعدتك بكتمانه ، فهل تستطيعين أن تثقى بى ؟ »

قالت : « نعم ... ليلى »

قال : « ليلى ؟ . . ليلى ما ذا ؟ »

فقالت : « ألا تعفيني ؟ . . لست أشعر أني أستطيع المقاومة إذا ألححت . . . ارحم ضعفي »

فقال : « بالطبع . . . معذرة . . . لست أريد أن أستغل ضعفك . . . كلا . . . اغفرى لى فضولى فانه ليس عن خسة بل عن . . »

وأمسك متردداً ؛ فقالت وقد رأت تردده وأدركت بغريزتها الذكية ، دلالته : « عن . . ؟ »

فقال : « عن حب . . لقد قلتها . . . قولى عنى مغفل . . . ما شئت قوليه . . . ولكنها الحقيقة . . . وقد استرحت الآن . . رفعت عن صدرى حجراً . . تنفست . . عجيب ولا شك . . هى دقائق رأيتك فيها . . ولكنى مع ذلك أحببتك كأنى عرفتك من قبل أن أخلق . . . كأنما كنا معاً فى عالم آخر قبل هذا . ولست أقول هذا لأخدعك ، وإنى لأعلم أن الرجل يستطيع أن يخدع المرأة بتمثيل دور العاشق ، ولكنى لا أحاول خداعك ، ولا مطمع لى فيك . . كل ما أعرفه أنى أحببتك . . قد يكون هذا شعوراً وقتياً يفتر بعد قليل أو كثير . . . وأى حب لا يفتر ؟ . على كل حال لا أعلم . . . أعرف فقط أنى فوجئت بهذا الحب الذى غمر نفسى وشاع فيها علواً وسفلاً . . . انظرى إليه كيف شئت . . . باستخفاف إذا أردت إذا لم يسعك غير ذلك . . . ولكن صدقينى . . فانى أحتمل الاستخفاف ولكنى لا أستطيع أن أحتمل التكذيب . . كلا . . »

فقالت ببساطة : « إنى أصدقك »

فصاح بها : « إيه ؟ »

قالت : « ألم تسمع ؟ هات أذنك وأنا أصيح لك فيها . . صدقتك . . . هل سمعت الآن ؟ لا لا لا لا . . . صدقتك معناها صدقتك فقط ! ! »

وعرف اسمها الكامل ، واسم أبيها أيضاً ، فقال وهو يمسح جبينه : « انتظرى . . . أليس والدك هو الذى كان ضابطا فى الجيش ؟ . »

قالت : « هو بعينه »

قال : « وكان يسكن فى شارع . . »

قالت : « هذا هو البيت الذى ولدت فيه »

قال : « غريب . . لقد كان أبى رحمه الله صديقاً جداً لأبيك . . ولداهما يلتقيان الآن ! . غريب ؟ وماذا حملك على ترك أبيك ؟ أسمع أنه كان عنيفاً »

قالت : « لأنى خفت عنفه . . اسمع . . سأقص عليك حكايتى كلها . . لم يبق بد من هذا . . وأحببنى بعد ذلك إذا استطعت . . ربما كان هذا لازماً لتشفى »

وقصت عليه الحكاية ، ولم تكتم شيئا ، ولم تحاول أن تهون من زلتها . كان يصغى وهو مطرق ، فلما فرغت قالت : « والآن يمكنك أن تبلغنى أنك دفنت حبك المباغت لهذه الفتاة الطائشة »

قال : « لقد كنت ضحية . . . ولست أدفن حبى لك ؛ ولكنى أنوى أن أعلنه ، فهل تسمحين لى بأن أطمع أن تحبينى يوماً من الأيام ؟ »

فأطرقت تفكر ، فقد أساءت فهم ما قصد إليه وتوهمت أنه يريدها كما أرادها غيره ، خليلة ، وشعر هو من إطراقها أن معنى كلامه ليس واضحاً ، وشجعه ترددها الظاهر ، فقال : « إنى لا أرى أنى أستطيع أن أعيش بعد اليوم بدونك ، فهل تقبليننى زوجاً ، على أن تكون الطاعة منى والحب ، ولا يكون منك إلا ما يسمح بالأمل فى أن تحبينى يوماً ما ؟ »

فصاحت : « ولكنى أحبك من الآن ؟ »

ودعهما فما بقى لنا مقام معهما !

ابراهيم عبد القادر المازنى



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم



١٨ اكتوبر . . . . .

كان أول ما فعلت عقب رجوعى إلى مكتبى أن أرسلت فى طلب الشيخ عصفور ، فحضر أمامى مطرقاً صامتاً فابتدرته :

— البنت ريم تعجبك ؟

فرفع رأسه ونظر إلى نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق نفسى ، ثم عاد فأطرق ولم يجب فقلت له :

— أنا مستعد أن أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها

فلم يبد حراكا ، فمضيت أقول :

— لو كانت موجودة هنا كنت حالا . . . .

وجعلت أستحثه على الكلام فلم يخرج عن صمته . وأخيرا ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت
والطبع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل
ولو علقوا فيه قالب

فما تمالكت أن صحت :

— إخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لى أن لا فائدة ترجى من مثله . ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ؛ فاستدعيته وسألته فى أمر المرأة المخنوقة وكيف صُرح بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :

— وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محروقة . حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل بنت كان زماننا توفينا من بدرى

— بقى بالاختصار لا حد كشف ولا نظر ..

— الجارى عليه العمل يا سعادة البك أن حلاقين الصحة فى الجهات تبلغ حضرة الدكتور المفتش بالتلفون . وحضرته قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة ونرد عليه فى التليفون : ماتت يا دكتور موتة ربها

يقوم يقول : ادفن ، ادفن ، ادفن …

— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أر فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدري الناس بحلاق الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الاذن بالدفن دون أن ينظروا فى وجه جثة أو ينتقلوا الى منزل . إن هم إلا سماسرة « دفن » ، وحتى مع فرض وجود النزيه منهم الذى يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف ؟ إنه سيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه فى أمرها ؟ ! إن « نظام » حلاق الصحة نفسه ، هذا النظام الذى لا تعرفه أية دولة على بسيط الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإنى ما زلت أذكر ما قصه علىّ طبيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لى إنه دعى الى حالة ولادة عسرة فى احدى جهات الريف ، فذهب مسرعاً فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حمراء الشعر والشدقين ، قالت له إنها « الداية » وأخبرته أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هـذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها . فسألها لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطرى الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين ستر ربنا ، قلنا ربنا ينتهها بالسلامة » . ووضع الطبيب يده فى الرحم فاذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مثانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين . وألقى نظرة حوله فاذا كومة من « التبن » القذر عند أقدام المرأة . فالتفت إلى « الداية » الصحية مستفهماً ، فقالت : أصله يا سيدى الدكتور لما دخلت يدى أسحب الولد لقيتها راحت « مزفلطة » ، قمت قلت : « أحرش كفى بشوية تبن » . ومدت للطبيب يداً ملوثة « بالتبن » قد بدت منها أظافر طويلة سوداء . وقال لى الطبيب : « إن الداية تولد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هـذه الداية « الصحية » التصريح … ولكنها لم تغير النظام وهى تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة فى كل عام

نظرت إلى حلاق الصحة ملياً وأدركت أن أرواح الناس فى مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا فى هـذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلاً . وطردت هـذا الرجل أيضاً ، وقلت فى نفسى : إن خير السبل فى مثل هـذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول . وفكرت لحظة ، وخطر لى أن أعرض خطه على القاضى الشرعى وهو يتحرى لى بين موظفى محكمته وبين المحامين الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . وما دمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث فى دائرة المحكمة الشرعية . وطلبت فى الحال عبـد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى وهو من أصدقاء القاضى الشرعى وكلفته أن يرافقنى فى الحال ، ولم يمض قليل حتى كنا فى بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضى فدلونا على حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندى فى أذنى أن فضيلته لا شك كان يتوضأ كى يصلى الظهر . وسرد لى فى عبارتين مبلغ ورع هذا القاضى وزهده . وضربنا على الباب ودخلنا ، فرأينا القاضى خالعاً جبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، وبين يديه طبق به بلح من نخلة رأيناها مثمرة فى فناء المحكمة . فلما رآنا

نهض وحيانا وأجلسنا على الكراسى وطلب لنا « زنجبيل » ، ورأى عبد المقصود افندى أن يوفر علىّ مؤونة بدء الحديث ، فالتفت إلى القاضى الشرعى وقال :

— البك وكيل النيابة ، غرضه يطلب من فضيلتك ... ...

فأجاب القاضى سريعاً فى شىء من القلق :

— خير إن شاء الله . طلب خصوصى أو ...

وذكرتنى هيأته وقلقه بقصة عنه قصها على المأمور . قال لى يوماً إن المدير اقترح تحسيناً لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة إنشاء متنزه فى وسط البلد ، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ، وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد لعبادة الله ، وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الخبيث على كلام القاضى وتحمس لرأيه أعظم التحمس ، وقال له :

— لا بد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير ، وأنا متأكد أنه موافق مقدماً ، وزيادة فى ادخال السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك فى رأس قائمة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات . وقد ذكر لى المأمور انه لم يكد يلفظ هذا المبلغ حتى اصفر وجه القاضى ولم يجد ما يقول ولم يستطع أن يسحب اقتراحه وظهر عليه الضيق والحرج ، وقد كان المأمور يتوقع ذلك على الرغم من علمه بيسر القاضى وبسطة حاله . وهذا اليسر لا يبدو على حياته فهو يقطن فى شبه حجرتين ، ويكفيه من الطعام قليل من الجبن مع فجلتين وبلحتين . وقد زاره المأمور مرة فى العيد فوجد حجرة استقباله عبارة عن « دكتين » من الخشب فوق كل منهما فروة خروف قذرة وبينهما حصير قديم . أما المرتب الكبير فهو يكنز برمته إلا جنيهات ثلاثة هى كل نفقات الشهر . وفى آخر العام يشترى بالمال المكنوز عقاراً وطيناً . وهو لا يضع ماله فى المصارف خشية أن يعرف مقداره . ولا يدرى أحد أين يدفنه طول عامه . وأخبرنى المأمور أن القاضى وكأنه لم ينم الليل حضر إليه فى الصباح المبكر يجرى ويقول فى تردد :

— مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور فى ابتسامة خفية :

— طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوى أقابل سعادته ..

فأسرع القاضى فى رفق وتلطف ومال على أذن المأمور كأنما يفضى إليه بسر :

— أرجوك بس . مسألة الخمسة جنيهات ..

— مالها ؟ ..

— لا داعى لذكرها ..

هذه الواقعة تمثلت فى رأسى فجأة عندما قال لنا القاضى فى قلق : « طلب خصوصى ؟ » فقد قرأت ما جال فى نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ؛ وأخرجنا فى الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال :

— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولاً ..

ثم ننظر بعد ذلك فى أمر البلاغ . .

وصفق بيديه وصاح :

— يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش

ثم صمت قليلاً . وعاد فحيانا :

— أهلاً وسهلا . . حصل لنا الشرف . . .

ورأى عبد المقصود أفندى أن يبدى لى صلته بالقاضى ومعرفته له فأشار إليه والتفت إلىّ قائلاً :

— فضيلته من كبار العلماء الراسخين فى العلم

ووجه الكلام للقاضى :

— أنا يا فضيلة القاضى لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على الولد المدرس . .

فقاطعه القاضى مستغفراً مستعيذاً :

— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل . والتفت القاضى إلىّ وقال :

— تصور يا سيدى البك أن هذا الأفنـدى مدرس جغرافيا فى المدرسة الثانوية ألقى فيها محاضرة علنية عن عالم نصرانى اسمه « شنتون » قال إنه قد عرف بالضبط وزن الأرض والسماء . . استغفر الله العظيم . .

وتأملت قليلاً فى الاسم الذى نطقه القاضى . واهتديت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضى «اينشتين» ، ولذ لى أن أعرف ماجرى ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلو لمثلى دائماً أن يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضى فى شىء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ ؟

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد

— وماذا حصل ؟

— حصل ياسـيدى أن هذا المدرس قام وقال فى حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر ، فقمت وصحت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد قال الله فى كتابه العزيز : ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فأسكتنى الحاضرون فسكت تأدباً لوجود سعادة المدير ولولا هذا ما سكت ورب الكعبة ، ثم استمر هذا الأفندى فى كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال إن عالمه النصرانى قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء ! فما تمالكت نفسى ونهضت وأنا أنتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة الأفندى مهلا ، أخبرنا قبل كل شىء ، هل هذا العالم (شنتون) وزن السموات والأرض بالكرسى أو بدون الكرسى ؟ . . . » فارتبك المدرس ونظر إلىّ قائلا : « كرسى إيه ؟ » فرددت عليه بالآية الشريفة : « وسع كرسيه السموات والأرض . . . » أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل والجوهر ، الوزن كان بالكرسى أو بغير الكرسى ؟ . . . .

فكتمت ضحكى وقلت فى هيئة الجد :

— وأخيرا . . . ؟

— وأخيرا يا سيدى . . . لا شى ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضج الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ، وغضب منى سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجلسه ، وترك الناس المحاضرة وهى المسألة الأصلية والتفتوا إلى اعتدائى على مقام المدير وهى مسألة فرعية ، وتكاثروا علىّ يطلبون إلىّ الاعتذار ، فاعتذرت ، ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إلىّ بعين الرضا . . .

وسكت قليلا ثم قال فى لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم . أظن الوزارة الجديدة ستجرى حركة تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الادارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فمى لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ . أعنى انه يلبس العمامة على جلباب

عادي قذر كجلابيب الفلاحين ، وهو عارى القدمين . وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما . فشربت فى احتراس وأنا أنظر الى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضي أوراقاً بخط موظفيه ضاهيناها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على من فى المحكمة لعل أحداً يذكر لنا أنه يعرف صاحب هذا الخط فلم نظفر بطائل . وخرجنا من المحكمة كما دخلنا . ومشينا فى طريقنا الى دار النيابة . فقال عبد المقصود أفندى :

— نمر بالمرة نفتش سجن المركز ونخلص

فلم أبد اعتراضاً . وذهبنا الى المركز فوجدنا المأمور قد جمع بعض العمد فى حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التى كان يبديها فى مبدء تولى الوزارة السالفة . فما إن رآنى وعلم بالغرض من زيارتى حتى خف لاستقبالى وأجلسنى فى صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشيع العمد الى الباب قائلاً :

— فتح عينك يا عمدة أنت وهو . مرشح الحكومة فى الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفضت يدى وأنتم أحرار . مفهوم ؟..

فأجابوا فى صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك

وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلهم مسموعة من العائلة الثانية الكبيرة . . .

فدفع المأمور فى كتفه دفعاً وقال له :

— المشاغبين على أنا !... تفضل

فخرجوا جميعاً . وعاد إلى المأمور يتنفس الصعداء ويقول فى صوت متعب :

— بقى لى يومين بليلتين فى القرف ده

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت :

— لكن انت يا حضرة المأمور معروف عنك انك من حزب الوزارة السابقة

فقال لى على الفور :

— اسكت اعمل معروف . أنا طول عمرى مع الوزارة الجديدة بقلبى ، واللى فى القلب فى القلب ؛ والأعمال بالنيات

فابتسمت وقلت له :

— نترك السياسة ونتكلم فى الشغل

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامى مكسوراً ، وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخنق الجديدة . وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى الكشف عن الفاعل . فقال فى الحال :

— المركز مش فاضى للخنق والحرق

— عجايب . انتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن ؟ !

— يعنى حضرتك مش فاهم ! ...

— لأ مش فاهم ! ...

— نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق ؟..

— طبعاً

— ما عنديش أوامر بالكلام ده

وتركنى وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على حائطه . وغمزنى عبد المقصود أفندى كى أغلق هذا الموضوع . وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن ...

وشعرت أن كرامة عملى فى خطر فصخت قائلاً :

— لابد من أنى أفتش بنفسى السجن والمركز كله

ونهضت فى قوة وعزيمة أزعجت المأمور .

فتردد ثم قال فى رفق :

— تفضل . السجن تحت أمرك . . . انتظر سعادتك دقيقة واحدة

وخرج سريعاً من الحجرة وهو ينادى :

— ياشاويش عبد النبى . . .

واختفى عن نظرى . ودفعنى دافع الى النظر من نافذة للحجرة تطل على فناء المركز . فرأيت المأمور والجاويش يسرعان الى سجن المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصاً تدل هيأتهم على أنهم من أهالى النواحى ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة التبن والعلف ويغلقان عليهم بابها بالمفتاح . فقلت لعبد المقصود أفندى :

— تعال وطل بعينك ده ولا سجن الباستيل .

المأمور أخفى بعض الأهالى فى أودة التبن

فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوسل :

— يا بك ، الوقت بطال ، والسياسة متحكمة فى البلد ، ما فيش داعى للتدقيق . . .

— يعنى نترك الناس فى الحبس من غير جريمة؟!..

— يا سعادة البك ، رئيس المأمور هو وزير الداخلية ورئيس الوزراء فى الوقت نفسه ، أما رئيسنا فهو وزير الحقانيـة فقط ، وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وقفوا للادارة فى ظروف سياسـية مواقف من هذا القبيل قاموا نقلوهم الصعيد !

— يعنى نغضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ . .

— يا سيدنا البك ، إحنا حا نكون أحسن من مين . . . كان غيرنا أشطر . . .

— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام . .

(يتبع) توفيق الحكيم



الغريق

للأستاذ محمود الخفيف

كانت شجرة التوت الكبيرة التي تقوم على رأس حقلنا منذ عشرات السنين مقيلنا من حر الصيف ، نأوى إليها إذا اشتد القيظ فنقضى النهار فى ظلها الوارف السابغ ، ولا نعود إلى القرية إلا فى ضوء القمر أو فى لمح الشفق . كان ذلك دأبنا طيلة عطلة الصيف لا نمل هذه الدوحة ، بل لا نطيق أن ينصرم أسبوع دون أن نقضى يوماً إلى جانبها ؛ هنالك حيث كنا ننعم بذلك الهواء الطرى الرخى الذى تستروح النفوس نسماته فى أشهر الحر ولا تصيبه إلا فى ظل سرحة فينانة كتلك السرحة ، امتد من حولها الفضاء وانبسطت الأرض



على قيد خطوات من تلك الشجرة الوارفة الظل تجرى ترعة من تلك الترع الكبيرة التى تنساب فى الدلتا زاخرة فى الصيف بذلك الفيض الذى يحمله النهر العظيم من تلال الحبشة فيملأ به الترع والغدران فتجيش فى أنحاء الوادى بالقوة وتفيض على أرضه الخصب والرى

وعلى مقربة من تلك الشجرة تقع العين على كوخ متواضع ، يستقبل الشمس إذا طلعت ، أقيم من اللبن منذ ثلاثين عاما أو تزيد ؛ ينعقد على رأسه سجاف قصير من تلك الأقراص التى يتخذها الفلاحون من روث الماشية ، كأنما أريد به أن يزيد هامته بعض الطول ، أو يكسب جبهته شيئاً من الزينة . ولقد عبثت يد الزمن بتلك الأقراص فتآكلت جوانبها ، وبتلك الجبهة الضيقة فتشققت حتى لتبدو شقوقها كأنها الغضون فى رأس جلله الشيب وجعدته السنون . على أن ذلك الكوخ على ضعته كانت تفيض عليه بساطة من الروح والهدوء تجعل الأفئدة تهوى إليه ، وتصبو إلى المعيشة القريرة الساكنة فى جواره

فى ذلك الكوخ الضيق يسكن (طلب) البدوى وامرأته ، وابناها حنظل وراغب ، وبناتهما شرود ، وعز ، وشماء ، على أنهم لا يقضون تحت سقفه إلا ليالى الشتاء ؛ أما فى النهار فلهم مضطرب واسع ومتنفس فسيح فى ذلك الفضاء المحيط بهم ؛ وأما فى الصيف فلم يكن ثمة من سقف يعلوهم سوى تلك القبة الزرقاء تزينها مصابيحها اللامعة المتناثرة

أو ينيرها القمر المتلألىء الوضاح

كان شيخ العرب وهذا هو اسمه الذى اعتادته الألسن يقوم على حراسة « الوابور » القائم إلى جوار كوخه ، فى بناء لم يتخذ من اللبن كما اتخذ الكوخ ، بل من الآجر المتين ؛ وكان شيخ العرب من أولئك الأعراب الذين ينتجعون الرزق فى قرى مصر ، فلما جىء بذلك « الوابور » أقيم على حراسته بأجر معين . وهو إلى ذلك يرعى الأغنام ويتخذ من أصوافها ومن لبنها أثاثاً وطعاماً ، كما يصيب من بيع صغارها بعض المال

* * *

حللنا ذات صباح ذلك المقيل الحبيب تحت هاتيك الشجرة ولم يبد من الشمس إلا نصف وجهها ، فأخذ بعض الرفاق من بنى العم يبحثون فيما ألقينا على الأرض من متاع ليهيئوا لنا الطعام وقد أحسسنا الجوع بعد سير ساعة ، وتحلقنا على حصير حول الطعام ، فأ كلنا فى شهية كادت تصل إلى الشره ، وكانت نفوس الرفاق جميعاً تفيض بالمرح والبهجة ، يزيدهم انتعاشاً نسيم الصباح الجميل الوانى ، كما كان كل شىء حولنا ينبىء بأننا سنقضى يوماً سعيداً

وأقبل شيخ العرب ، وكان قد ذهب مبكراً فى بعض شأنه إلى عزبة على بك وهى تقع غير بعيد على الضفة الأخرى للترعة ؛ ودعوناه إلى الطعام فأصاب منه يسيراً . ولما فرغنا انصرف الرفاق إلى ما اعتادوا من لهو ، فبعضهم ذهب يصيد السمك ، وتأهب البعض للعب النرد ، وكانوا قد جاءوا معهم بصندوقه ، وبسط البعض كومة من التراب ثم خططوها وهيأوها للعب « السيجة » . أما شيخ العرب فقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة وجلس يدخن وهو مطرق كأن به هماً . وجلست إلى جانبه أحادثه وأداعبه كعادتى ، فسألته استبطن دخيلة نفسه :

— ماحال إبراهيم اليوم يا شيخ العرب ؟

— ما زال على حاله من الغضب والعنف ، لا يسكت لسانه ، ولا تهدأ ثورته . يهدد ويتوعد ، ويقسم الايمان على تنفيذ ما اعتزم ، على الرغم من نصحنا له وزجرنا إياه

* * *

كان إبراهيم هذا شريكا لشيخ العرب فى بعض غنمائه ، توشجت بينهما أسباب المودة ، وتوثقت روابط الألفة ، وأحبه شيخ العرب حباً شديداً ولا سيما بعد أن خطب إليه ابنته عز . كان فتى فى نهاية العقد الثالث من سنى عمره ، طويل القامة فى غير إسراف ، ريان البدن فى غير امتلاء ، مفتول العضل ، وسيم المحيا ، يرف فى مقدمة فوديه وشم عصفورين باسطى الجناح ، تزداد زرقة لونهما وضوحا فى تلك الحمرة التى أشرب بها وجهه الوضىء الأبلج . تلمح نبل نفسه فى عينيه الواسعتين الجميلتين اللتين كانتا مضرب المثل فى حدة البصر ، وتتبين قوة عزمه وإباء طبعه فى أنفه الطويل الأشم وشاربه المرهف المبروم ، كما تلمس صرامته وجرأة قلبه فى سداد نظراته ولهجة حديثه وإشارة يديه . ينظر إليه النساء والبنات نظرة الصبابة والاعجاب ، ويرمقه الرجال معجبين بفتوته وخفة حركته وروعة قوامه ؛ وهو إلى ذلك ماهر اليد ذكى الفؤاد فى كل ما يطلب إليه من عمل ؛ يغزل الصوف فى سرعة عجيبة وإتقان مدهش ، وينسجه رقعاً جميلة النقش بهيجة الألوان ، خبير بالنعاج يميز الجيدة منها لأول نظرة ، خبير بما يصيب الغنمات من علل ، بصير بما يلزمها من علاج أو جبيرة ؛ يقظ فى السوق لا يخدع فى شراء ولا

يغبن فى بيع ؛ يشارك الفلاحين فى أعمالهم وهو ذلك الراعى فيحملهم على الاعجاب به والاعتراف له بالتفوق ، فخطوطه فى زراعة القطن كأنها ضربت على خيط ، وآراؤه فى السماد والبزور وأوقات الزرع والحصاد آراء الخبير المجرب ؛ هذا إلى ذهن فطن ، وعقل مبتكر ، يفهم ما يلقى إليه أول مرة فى سرعة ويسر ؛ وتراه إلى جانب ذلك كله المقدم المتفوق فى اللهو واللعب ؛ ينازل الرفاق فى لعبة السيجة فيظهر عليهم ويسخر منهم ويلعب « الحطاب » فلا تخطىء يده ولا تكل عصاه ، ويغنى فى الأرغول أناشيد حماسية تبعث فى قلوب خلانه الطرب والقوة

تمثل له فى عز طيف أحلامه وصورة خياله فأسلم لهـا قلبه وأسلس قياده ! يرى فيها ما لا تراه عيناه فى غيرها من بنات العرب ، فمحياها الجميل الصبوح فتنة ناظريه ، وعيناها الضاحكتان الدعجاوان بهجة فؤاده ، وقوامها المرهف الرشيق متعة روحه ، وحبها الذى تسكبه على قلبه فى حرارة وقوة هناءة نفسه ونعيم حياته . يرى فى اتزان خطواتها وسرعة التفاتاتها صورة من نزوع نفسه وتوثب همته ، ويحس فى حذقها ومهارة كفيها ظلاً من مهارته وكفايته ، ثم يرى فى رفق حديثها وهدوء طبعها ما يعوزه من رفق وهدوء ، وما تتوق إليـه نفسه من سكينة واطمئنان . على أن أهم ما يسمو بها فى عينه طهرها الذى جمعت به بين بأس الرجال ونعومة الأبكار ، والذى جعلها كالوردة فى أعلى الغصن تأخذها العين قبل غيرها ولكن يحول دون الوصول إليها علوها أولاً ، ثم ما يحيط بها هناك من أشواك

يرعى غنماته فى الأرض الفضاء ؛ فيراها عن بعد وسط غنماتها وحدها أو صحبة حنظل أو مع أمها أو إحدى شقيقتيها فيعرفها قلبه ، قبل أن ينفذ إليها ببصره الحـديد ! ولا تنسى هى إذا خرجت ترعى الغنم فى متوع النهار أن تلف خصرها الدقيق بحزامها الأحمر الذى غزله بنانه ونسجته كفه ، ولا تحمل معها غير ذلك العود من شجر اللوز الذى أهداه ابراهيم يوماً إلى أبيها . وهو يتبعها ببصره أينما اتجهت ، حتى إذا اشتد وهج الظهيرة أويا إلى شجرة فجلسا يطعمان مما حملا معهما من زاد

* * *

كان من أبهج الأيام عندنا أن يكون معنـا ابراهيم ، إذ كان يتيح لنا لعبه السيجة مع شيخ العرب فرجة ممتعـة ، كما كنا نطلب إليه بعض المواويل فنصغى إلى حديث قلبه وخلجات نفسه يفيض بها لحنه الفتى ، ويرسلها فى الفضاء صوته القوى ، ولـكننا لم نجده هناك تلك المرة ، كما لم نجده فى المرة السالفة

كان آخر مرة لقيته ثائرا لا يقر ، مغيظاً محنقاً كأنه فى ثورته النمر المزمجر المهتاج ، وقد اختفى فيه ذلك الانسان الباش الرزين . فقفز من مكانه كالسهم إذا انطلق فواجه أخته وكانت لدى باب الكوخ تتحدث إلى عز ، فحملق برهة فى وجهها الذى سرت فيه صفرة كأنها صفرة الموت ، ثم بصق فى هذا الوجه وهو يكاد يتميز من الغيظ ! يحبس لسانه لـكيلا ينطق أمامنا بما لا يليق من فحش القول ، وهو يحرق الأرم ، وينبعث من عينيـه بريق الشر والمقت ، ولولا نظرة ملامة من عز خففت حدته وردت وثبته لحطم بيديه رأس أخته التى كانت تنتفض أمامه انتفاض العصفور باغتـه الصـقر ، أو الصبى صور له خياله أنه بين يدى شيطان ! ثم التقط عصاه واتخذ سبيله مبتعداً عنا دون تحية أو التفاتة ، وهو يتوعد ويؤكد الأيمان

وظلت أخته فى مكانها لدى الباب واجمة أول الأمر ثم مالبثت أن عاودها هدوؤها ، وانبسطت أساريرها كأن لم يكن هنـاك شىء ؟ ولعلها أرادت بذلك السكون أن تتظاهر أمامنـا أن الأمر هين وأن ما يغضب أخاها لا يسـتحق كل هاتيك الثورة ؛ بيـد أنه لم يكن سكوناً متكلفاً يحجب وراءه اضطراباً أو إشفاقاً ، فلقد هالتنا فى عينيها نظرات جريئة غريبـة ، نظرات من يحس أنه فى موقف العار والخزى ولـكنـه لا يستشعر ذلك الخزى ، ولا يرى مكان الخجل من محياه إلا التبجح الباسم الذى يدل على أنه يحس كل شىء ولـكنه لا يبالى بشىء

* * *

كانت « سكينة » وهذا هو اسمها فارهة الجمال رائعة المحاسن ، لطيفة التكوين تحس هذا الجمـال وتدرك بغريزتها مدى أثره فى نفوس الفتيان والرجال فتمعن فى الدلال وتسرف فى إبداء زينتها ، وليس أحب إلى نفسها من أن ترى ما يفعل جمالها بقلوب الشباب ! لها عينان هما السحر أو يقصر عنهما السحر ضاحكتان أبداً ، ساطعتان كأنهما نجمتان جريئتان دعجاوان تصوبهما الى القلوب ولا تستردهما من حياء كما تفعل النسوة ، كأنما تريد أن تجهز على صرعاها ! وما استطاع فتى لمح تينك العينين مرة أن ينسى سحرهما أبدا . هذا الى جبين صقيل وخد أسيل يبدو مشبعاً بالحمرة مع ما يمسه من سـفع الشمس ، وفم يرف كما ترف الزهرة فى ندى الصبح تختلج عليه البسمات ، وتتقسم بينـه وبين عينيها النظرات ، وأنف لطيف دقيق إذا تغير قيد شعرة عما هو عليه فلن يوائم تلك القسمات وهى لا تقتنع بما أسبغته عليها يد الطبيعة من حسن فتراها تمعن فى الزينة ، وتبالغ فى التبرج ؛ فقدماها الصغيرتان ناعلتان أبدا ؛ وترى نعلها الأصفر الدقيق نظيفاً كأنه لم يمس الأرض ، ومن نطاقها الأحمر المحبوك حول خصرها تتدلى على مرطها الأسود اللامع خيوط مختلفـة الطول مشكلة الألوان تنتهى بذلاذل تعلو وتهبط وتمايل يمنة ويسرة كلـما خطت خطوة أو حانت منها التفاتة . وفى ضفيرتيها شريطان ساطعا اللون معقودان ولـكنهما لا يستقران على ردقها فى موضع ؛ أما شنوفها وأقراطها وخواتمها وخلاخلها فلم تقتنع فى اقتنائها بما دون الفضـة . وتراها فى مشيتها كالظبية تبث فى الحقول من حولها السحر والجمال ، فاذا تغنت أو ضحكت أطلقت نفسها على سـجيتها فملأتك حدة نبراتها وحلاوة صوتها نشوة وفتنة ، وحملك فيض مرحها على مشاركتها ولو كنت ضائقا بهمك

ولـكن الفتيان والرجال لا يذكرونها إلا فى تغامز وهمس ، وتراهم إذا جاء حديثها يتبادلون نظرات الخبث ، ويتناولون عبارات اللغو ، وترى كلا منهم وقد تشكلت أساريره بما يجول فى نفسه واختلجت عيناه بما نمى إليه أخيراً من أمرها

* * *

راح شيخ العرب يقص على من حديث أبراهيم وأنا مصغ بسمعى اليه ، مقبل بحواسى عليه قال :

— أرأيت ما كان من ثورته غداة كانت سكينة هنا تسر الى عز بعض حديثها ؟

— رأيت ذلك فحيرنى وأزعجنى

— إذاً لو علمت ما كان بينه وبين زوجها شبل وما دب بينهما من شحناء وبغضاء ...

قال ذلك وأطرق كمن يثقل رأسه هم فاستفهمته ماحدث ، فأخبرنى أن الرجلين يتربص كلاهما بالآخر

يريد أن يقتله ، وأن الأمر وصل بينهما الى مثل ذلك التحرج والعدوان ، فقد حدث أن لطم إبراهيم زوج أخته أمام جماعة الفلاحين من أقرانه فى عزبة على بك ثم راح يكيل له السباب المقذع الذى يستفز الجبأن ، ثم اختفت من غنم شبل عشر نعجات ، ووجدت إحدى بقرتيه ميتة والأخرى بين الموت والحياة ؛ والناس جميعاً موقنون أنه ما فعل هذا غير ابراهيم بعد أن تهامس أهل العزبة بما شاع عن سيرة أخته ، وهو مصمم إذا أراد ، جرىء إذا انتوى ، عات إذا نفذ ، ليس فى العزبة كلها من يخرج على سطوة على بك ويستخف بسلطانه سواه . على أنه اليوم لا يرى شبلاً كفأ لخصومته ، بل إنه لينظر إلى من هو أعظم وأسمى ، ينظر الى على بك نفسه ويرى فيه غريمه وعدوه الألد . أو ليس يعطف اليوم على شبل العطف كله ، ويعده بما له ويعفيه من مشاق الأعمال ؟ وكيف يصبر ابراهيم بعد أن يتبين أن البك إنما يفعل ذلك كله من أجل سكينة وعينى سكينة ؟ كيف يطيق ابراهيم أن يلاقى الناس ويحتفظ بينهم بمكانته وهو اليوم تتبعه الفضيحة أينما سار ، ويأتيه العار من كل مكان ، ويلقاه الخزى أنى حل

***

كان على بك من أرباب الضياع ، يتحدث الناس عما كان لجده من ثراء وجاه ؛ ولقد تقاسم بنوه من بعده هذا الثراء الضخم وذلك الجاه العريض فانتهى إلى على بك بن حسن بك منه جانب كبير ؛ ولكن أخلاق جده انتهت إليه كاملة ، فهو شديد الكبرياء عظيم الأنفة غليظ القلب ، ينظر إلى أهل عزبته جميعاً نظرته إلى عبيده وإمائه لا يهمه إلا أن يشبع بطنه ويملأ جيوبه ، عاش من حوله أو هلكوا ! بخيل شديد الحرص ، يحاسب ناظر زراعته على المليم حسابه إياه على الجنيه ، لا يذكر حسنة ولا ينسى إساءة ، يقيم نفوذه على البطش والجور ، عسوف عنوف لا تأخذه رأفة بأحد ، لأنه يرى الرأفة ضعفاً لا يليق بمثله ؛ لا يعدل نبوغه فى جمع المال من شتى الوجوه إلا مهارته فى إحكام الدسائس وتدبير وسائل الكيد ؛ على أنه فى اشباع شهواته قد فات كل نبوغ وتعدى كل حد ، حتى ليتلاشى تلقاء تلك الناحية فيه كل نبوغ آخر ! وقل فى الناس من تكون له مثل تلك القوة البهيمية التى لا تعرف كلالاً ولا تحس مللا

رأى وهو على حماره إلى عزبته فى ثلاثة من رجاله ذات صباح امرأة فى ظل شجرة ، فكأنما تلاشت كبرياؤه بغتة . سأل رجاله فى غير ترفع وفى غير حياء : من تكون تلك المرأة ؟ فأخبروه أنها سكينة الأعرابية فعجب كيف تكون فى عزبته ولا يعلم بها ! فأفهموه أنها زوجة «النفر» الجديد شبل ، فسرت فى وجهه أولاً أمارات الارتياح ، ثم علم أنها أخت ابراهيم الأعرابى فامتعض وانقبضت أساريره ؛ وبدا له ، فاستعاد كبرياءه وراح يعلن سخطه على وجود امرأة فى طريقه دون حياء كأنما هان على الناس أمره ، واعتذر إليه أعوانه بشتى المعاذير فهى أعرابية جاهلة ، وهى لا تعرف أن هذا طريق البك إلى مزارعه ، وهى لن تعود إلى ذلك بعد اليوم ، إلى غير ذلك من وجوه الاعتذار

على أن البك وإن تظاهر بالعزة فى الناس ، تهون عليه نفسه فيما بينه وبين نفسه . وسرعان ما تهافت على سكينة حتى صارت شغله الشاغل ، وسرعان ما صار لزوجها الحظوة والمال ؛ وقد عرفت الأعرابية الماكرة ناحية الضعف فى هذا المتعاظم

المتجبر فأسلمت إباءه وحطت من كبريائه ، تدل عليه متى شاءت فلن يستطيع قبض كفه عنها ، وتمكر به فلن يقوى على إرغامها ، وهي تتقرب إليه مرة وتنفر منه مرة فلا تجد في الحالتين إلا الخضوع والاستسلام من ذلك البك العاني ! وأي خضوع هذا الذي يجعله على الرغم من مكانته لا يتورع أن يتردد على كوخها بنفسه متخذاً من الليل ستاراً ؛ ذلك الكوخ الذي اختاره لها بالقرب من مسكنه غير عابىء بما يقول الناس أو بما يتقولون

أما زوجها فقد تغافل عن هذا كله وتجاهله ، وحسبه ما يصيب من وراء ذلك من مال أو حظوة عند سيده ! وما كان هذا الضعيف ليملأ عيني زوجته المتبرجة الشرود . فهان عليها أمره منذ أن تزوجها ؛ وما مهد له سبيل هذا الزواج سوى صداقته لابراهيم منذ حداثتهما . ولقد رضيت به كارهة مرغمة ، ثم ما لبثت أن طرحته وراء ظهرها فلم ترع له حقاً أو قل لم تحس له وجوداً . ولقد ظلمه ابراهيم حقاً فيما انتقم به منه فما هو إلا أداة تافهة حقيرة ، لا يملك من أمره ولا من أمر زوجه شيئاً

* * *

أفاض شيخ العرب واسترسل ، وما كان يعنيني إلا ابراهيم ، وقد عرفت الآن سر غضبه وبواعث ثورته . أيستطيع وهو فرد فقير أن يقاوم البك وله من الأعوان والجاه ما يقابل به بلده بأجمعها ؟ ورأى شيخ العرب في حديثي إشفاقاً عليه ، وفي عيني لهفة لسماع بقية خبره فقال : كثيراً ما طلبت إليه أن يأخذ حذره ، وألا يطلق لسانه بما لا يليق ، وعلى الأخص لأن خصمه ماضي البطش ، سريع الانتقام ، فظيع الغدر ، لا ينجو من كيده عدو ، ولا يفر من حبائله مسيء ، ولو كان الشيطان نفسه ! ولكنه كان لا يفتأ يسب ويتوعد معلناً في حدة أن الموت خير عنده من تحمل هذا العار ، وأنه إن تهاون في عرضه فأولى به أن يلبس ملابس النساء ، ويتخلق بأخلاق النساء ؛ وكان يقسم لي أنه سوف يبدأ بذبحها كما تذبح الشاة ما واتته الفرصة لذلك ، ثم ينتقم من عشيقها أبشع انتقام مهما كانت سطوته ! يقول ذلك وصدره يعلو ويهبط كما يعلو موج الترعة ويهبط ، والعرق يتصبب من جبينه ، والشر يلمع في مقلتيه ، وأصابع يده مشدودة كأنما يريد أن ينشبها في فريسة ماثلة ! وكان ينفر منا إذا زجرناه قائلا إنه لا يهاب الموت بل إنه ليتمناه ليريحه مما هو فيه ! وحتى عز ، عز نفسها ما كانت تجد سبيلا إلى قلبه ، وكان ينتهرها ويطلب إليها في صرامة ألا تخوض في هذا الأمر ، وإلا فلن تكون له بها صلة . وسكت شيخ العرب برهة ، ثم استأنف حديثه قائلا : « تغير المسكين وكأنما حل محله شخص آخر ، فهو لا يهنأ له طعام ولا يستقر جنبه في مضجع ، وأصاب غنماته الهزال لولا ما تحاول عز من عناية بها . يحسب كل نظرة موجهة إليه إذا سار ، ويخال كل بسمة سخرية منه ، ويظن كل همس يدور حوله ، ولذلك تراه لا يغشى مجالس الرجال إلا نفرا من خلصائه يستعين بهم فيما يدبر من أمور ! واليوم تكثر حوادث الحريق وتسميم الماشية في العزبة ، فأشفق على هذا البائس ولكني لا أجد حيلة في تسكينه أو صرفه عن وجهته ، وليس يكربني ما أحاذره عليه بقدر ما يكربني ما صارت إليه ابنتي من حال منكرة ؛ فقد غاضت بشاشتها ، وتمشي السقم في جسمها القوي ، حتى بت أخشى أن أفقدها »

ثم خفت صوت الرجل ، ودنا مني ، وقال

فى همس : « أرأيت كيف يكون مبعث البلوى هؤلاء السادة ، ثم يتهموننا نحن الأعراب بأننا أصل الحوادث ، والحكومة تأخذ بما يقولون ولا تفكر أن تبحث أسباب تلك الحوادث ، أو تتبين بواعثها الخفية . . . . »

وتوقف محدثى على نداء ابنه راغب :

— أبتاه !

— ماذا يا ولد ؟

— حنظل وعز وأمى والغنمات ... هاك ... هاك إيش ها تريد يا بوى ؟

— ما أبغى شىء ياولد ... اسكت

ولما وصلت عز وأمها وأخوها من « سرحتهم » إلى باب الحظيرة ، أشار شيخ العرب إلى ابنته فجاءت مسرعة وحيت فى طلاقة وهدوء ، وعلى وجهها مسحة من همها الدفين ، وقال لها أبوها : « إكبرى النار يا بنت ، وهات الشاى » ، وأعطيناها بعض ما لدينا من الشاى فذهبت لعمله ، ثم جاءت أمها فحيت وجلست ، وجلس حنظل غير بعيد منا وفى يده مغزله وصوفه

وجاءت عز بالشاى ، فتنهدت أمها وهى تحدجها حدج الاشفاق ، وقال لها أبوها وهو يخفى همه : « درى الشاى يا عز » ، وتناول كل منا من يدها قدحاً من تلك الأقداح الزجاجية ، ورحنا نحتسى الشاى فى صمت

وكانت الشمس قد لألأت صفحة الماء بأشعتها القوية التى كانت تبدو لأعيننا أعظم ضوء أو أشد وهجاً ونحن فى ظل الشجرة ، حتى لقد كان يصعب على بعضنا أن يديم النظر لحظة إلى الماء ، وكان الماء يومئذ مثقلاً بذلك الغرين الذى يفهق به النهر الحبيب فى زمن فيضانه ، فكانت صفحة الترعة كسحنة الحبشى ، بيد أنها كانت على الرغم من ذلك تعكس أشعة الشمس ، فيشتد بريقها حتى يخطف الأبصار

وانتبهنا على حين غفلة إلى الكلاب تجرى نابحة نحو الترعة ، فاتجهت أبصارنا جميعاً إليها ، ولكننا لم نر غير الماء ينساب مسرعاً دافقاً ، وماهى إلا لحظة حتى رأينا حنظل يجرى نحو الضفة ومن ورائه راغب ، وهما يشيران إلى الماء ، وتبعتهما عز وهى تؤيدهما بقولها : إنها جثة آدمى وليست جيفة حيوان . وأسرعت إليهم أمهم فوقفت معهم ، ولكنها كانت تخالفهم قائلة : إنها جيفة حمار . وأمعنا النظر فى الماء فرأينا شيئاً سابحا ، يتحرك حركة غريبة ، هى حركة تدفق الموج ، ولم نتبينه أول الأمر إذ لم يكن يطفو منه فوق الماء إلا جزء يسير ؛ ولكننا استطعنا أن نرى كتفاً آدمية عارية وجزءاً من الذراع ، ثم ما لبث الرأس أن تبدى برهة ولكنه عاد فاختفى ، ثم برز الوجه وبرز إلا قليلا والتيار يحمل الغريق مسرعا فيبدو للعين من أجزاء جسمه مايبدو حسب حركة الموج . ولقد أحزننا ذلك المنظر وروعنا ، ورأينا بعض الناس على الضفة الأخرى ، وكان الفريق أقرب إليها منا يرفعون أصابعهم بالتشهد ، كما رأينا بعض الغلمان يتجمعون ويجرون على الشط قبالة الجثة ؛ وكأنما جمد شيخ العرب فى مكانه فلم يذهب إلى حيث كانت تقف زوجه وأولاده . وشمل الجو كله من حولنا رهبة شديدة وكآبة قابضة ، والغريق يجرى به الموج فيدخل فى ظل بعض الحشائش ، ثم يخرج منها إلى ضوء الشمس

ثم رأينا خمسة من الرجال يأتون مسرعين على الشط الذى كنا نقف عليه ، فساروا يتبعون الجثة

ريثما تجنح ، وفى وجوههم حسرة واهتمام شديد وكانوا يصيحون بقولهم : « البر البر ياطالب الدفن » ومن معتقداتهم أن الغريق يجنح إلى البر إذا صاح الأحياء أمامه بتلك العبارة

وليت شعرى هل استمع الغريق إليهم حقاً ؟ فلقد أبصرناه يجنح إلى الشاطئ قليلاً قليلاً حتى أوشك أن يلامسه غير بعيد منا ، ولكنى لم ألبث أن تبينت سير جنوحه ، فان انثناء الترعة فى ذلك المكان جعل الموج يرتد من الشاطئ الآخر إلى شاطئنا فوجه إليه الغريق شيئاً فشيئاً

وذهبنا وذهبت امرأة العربى وابناها لرؤية الغريق . أما شيخ العرب فلبث فى مكانه برهة ، ثم قام فتحامل على نفسه وسار يجر رجليه ليلحق بنا ، وهناك رأيناه وقد أخرجه الرجال ممدداً على الشاطئ وقد تمزقت ملابسه وتورم جسده : رأينا ابراهيم جثة هامدة ولاحظنا على فمه ضربة وفى عنقه أثر شجار عنيف ؛ وتجلد الرجال فصنعوا من عصيهم محفة ألقوه عليها وخلعوا عليه بعض ملابسهم ووقفنا نحن مشدوهين أمام هذا المنظر وفينا من لم يستطع أن يحبس دمعه على الأخص لمرأى ذلك الشيخ الذى أذهله الرعب فتركه كالأصم أو المجنون

وسرنا نحو الشجرة فرأينا عز وأخواتها فى انتظار النبأ فما كان لهن أن يرين غريقاً ربما تعرى جسده . وهل كانت تستطيع عز أن ترى هذا الغريق ولو كان على جسده من الثياب أطولها وأعرضها ؟ هل كانت تستطيع أن ترى خطيبها وحبيب روحها ممدداً على الشاطئ جثة هامدة متورمة ؟ هل كانت تستطيع أن ترى ابراهيم وأصحابه من حوله يمسحون دموعهم بأكفهم وهم من أشداء الرجال ؟

لبثت تنتظر وهى لاتدرى من الغريق ، ولكن لم يطل انتظارها ، فقد عاد راغب مسرعاً وكأنه يحمل إليها نبأ سارا ؛ وقال فى سذاجة الأطفال وبراءتهم : « ياعز ياأختى إنه ابراهيم أخو سكينة »

صرخت الفتاة مذعورة للنبأ الفاجع ، ولكنها حتى فى ذلك الموقف تداركت وجودنا فقطعت صرختها وهرولت نحو الكوخ ؛ وهناك أبصرناها تسقط لدى الباب مغشياً عليها ، فجرينا إليها ولكن عبثاً حاولنا أن نفعل شيئا ، وأخذنا فى أمرها من الارتباك ما يأخذ الرجال عادة فى مثل ذلك الموقف . بيد أننا أسرعنا فأرسلنا من أحضر أباها وأمها ، فجلست الأم تدلك يديها ورجليها وقد ألقت رأسها على ركبتيها ، وأبعدنا نحن الرجل قسراً عن الكوخ وأجلسناه بيننا تحت الشجرة وبه ضعف ما بابنته ، ولم يفق حتى أفاقت من غاشيتها ، وكأنما عقد اليأس لسانها أو ذهب الهلع بلبها فلم تقل شيئاً ، وكذلك انعقد لسان أبيها فلم يتحرك وهو يقلب كفيه فى جزع لن يصفه كلام

وجلسنا نحن حوله وكأننا قوم اجتمعوا فى مأتم فلا نتساءل إلا بالألحاظ ولا نتجاوب إلا بالايماء . ومر الرجال بعد لحظة يحملون غريقهم على محفتهم التى أعدوها ، يريدون أن يسرعوا بجثته حتى يخفوا الحادث

قضينا يوماً كئيباً ثقيلاً لم نستطع أن نكمله فعدنا الى القرية فى عصره ؛ وانقضى الأسبوع وحل موعد الذهاب الى الترعة ، ولكننا لم نذهب فقد علمنا قبل ذلك الموعد بليلة أنه قد ألقى القبض على شيخ العرب فقد جاء ذكره فى قضية مقتل على بك فاستدعى لسماع أقواله إذ قد حامت حوله بعض الشبهات

الخفيف



بينما كانت سيمون أربل تهم بالخروج من (الأستوديو) إذ كان لها عمل الممثلة الأولى فى شريط سينمائى جديد، اعترضها شاب أنكرته بما كان يغشى وجهه من الأصباغ والطلاء فلم تُثبتْه، ولكنه دنا منها وأسرَّ إليها اسمه

— شارل جيرو ...

فذعرت الفتاة وتراجعت كأن هذا الاسم قبض على قلبها فهى تريد الافلات منه، ولكن الرجل خطا إليها وقال فى مسكنة وذلة:

— أما إنك لم تعرفينى فغير عجيب؛ فقد تصرَّمت عشر سنوات كاملة، وفى دون هذا تنكر المرأة رجلها ... ولعلك تتساءلين ماذا جئت أفعل الآن بعد هذه الغيبة الطويلة ...؟ فما جئت إلا لأنى على العهد وما زلت أحبك

فأجابته: لعلك جننت ....!

فجعل يرمقها فى ذهول، ولم يصدق عينيه وأذنيه إذ لم يكن يتوقع أن يرى ويسمع، وهو الذى تجشم فى سبيلها ولقى ما لقى من أجلها؛ ثم قال لها:

— أريد أن أنفرد بك فان لى حديثاً

وكانت سيمون لا تزال كعهده بها وضيئة فاتنة جذابة، بارعة الشكل، بديعة التكوين، رقيقة الملامح، عصبية المزاج، لم تنل الأيام من جمالها، وإن كانت قد ناهزت الثلاثين؛ فأومأت إليه أن يتبعها وانطلق على أثرها إلى غرفة منعزلة؛ وقالت له بصوت متهدج مرتعش:

— هلم فاخبرنى الخبر وأوْجزْ ما استطعت فان زوجى ينتظرنى

فوقع كلامها منه إذ لم يكن يعلم أن لها زوجاً .. وتخاذل من هول الصدمة، وكاد ينقطع عن الكلام، لولا أن رأى اضطرابها فعلَّق الأمل عليه وقال لها:

— إن ضاق بك الوقت فان يتسع لى أن أخبرك بكل شىء فى هذه المرة، ولكن حسبك أن تعلمى أنى قد خرجت من السجن، وكان مأواى فى هذه السنوات العشر الطوال .. أوه! أرجو ألا تنظرى إلى نظرة الاحتقار فلقد كنت أحسبك غير جاهلة أمرى وإن لم أكتب إليك ...

فطاشت نظراتها إليه بنظرات من الخوف والرعب؛ ثم قالت له بصوت مرتجف:

— وما شأنى فى كل هذا؟

فأبلَسَ ولم يدر كيف يقول، وتسلط غليه صوتها العذب فسلبه إرادته، وكثيراً ما كان يسلبه ما يسلب ويهيج فيه ما يهيج، ونبهه الصوت إلى وجودها، ونبهه وجودها إلى ذكرى الأيام الماضية فحنَّ وأنَّ واعتراه ما يعترى المحبين، وجعل يلتمس

الألفاظ فلا يجدها ، ولم يدر كيف يذكر لها أنه من أجلها سرق ومن أجلها قتل ...

لقد كاتمها كلّ ما فعل فما تعلم شيئاً إلى الآن ، وبودّه لو كانت تعلم ؟ إذن لأدركت محلها من نفسه فعسى أن يرتفع بذلك فى عينيها وتعرف أىّ محبّ هو ...؟ ولم يكن يرتاب فى أن مجرد التقائهما يصله منها بما مضى ويستعيد إليه حنانها القديم ، وإن يكن للحظ عمل فالحظ هو الذى هداه اليها ويسر عليه البحث عنها ، وجاءه باسمها بين أسماء الممثلات فى السينما فما كان أسهل عليه بعد ذلك أن يعرف مقرها ... أفبعد هذا يخشى ويرتاب وييأس ؟

وتلعثم لسانه وغمغم قائلاً :

— أراك خائفة منى ... أو لا فهو الحذر وما يحق لك أن تحذرى ممن يحيا بهواك ، فان كانت رؤيتى قد ساءتك فمعذرة ...

فبدا التأثر على وجه سيمون وكأنما ندمت على ما فرط منها ، وهاج شجونها منظر الرجل الذى طالما أحبته ، وقد جاء يسألها هذا الحب مرة أخرى ، فغلبها قلبها وانفرطت الدموع من عينيها وتساءلت فى حزن ورقة :

— لست أدرى كيف يقدم شاب مثلك على فعل جزاؤه السجن ؟

فتجهّم جبينه وتساقطت الكلمات من فمه

— لقد اضطرنى البؤس والحب ...

فاحتجت عليه قائلة :

— أهناك بؤس فوق ما تحملناه معاً ؟

فلم يطق صبراً وصاح بها :

— ألم تدركى بعد أنى لم أقترف ما اقترفت إلا فى سبيلك ولأنتشلك من هذا الشقاء ؟ ألم تعلمى أن السعادة قد جاءتك فى الوقت الذى اختفيت فيه ؟

فغضت بصرها وهزت رأسها علامة النفى ، ولكنه مرّ فى حديثه وقال :

— لقد دفع إليك صديقى « أدولف ملبان » فى ذلك الوقت مبلغاً كبيراً من المال وزعم كما أوعزت إليه أنه من أحد أقاربك ... غير أنى كنت آمل أن ستدركين أنه منى

فبدت الدهشة على وجه سيمون وقالت :

— أدولف ملبان ... ! أدولف ملبان ... !

— آه . . لعلك تذكرينه الآن . ؟ لقد كان صديقى الحميم فاستودعته المال ليسهل علىّ الهرب . ألم يدفعه إليك ؟ أجيبى ...

وكانت ترمقه بنظرات غريبة فأخذ يدها بين يديه وجعل يشد عليها ولكنها انتزعتها منه وفرّت لا تلوى ، وثبت فى مكانه لا يلحق بها

ثم عاد الى غرفته وفى نفسه الأمل ، فذلك الانفعال الذى بدا عليها لم يكن من غير شك إلا نتيجة هذه المقابلة . . كلا . . كلا إنه لن يهون عليها ومن أجلها سُجن عشر سنوات . . ولكنه اغتم لزواجها وداخله الشك فى أمانة صديقه أن يكون قد ذهب بالمال ولم يؤدّه إليها ، فتُرى ماذا فعلت المسكينة بعد اختفائه ؟

وتفتحت له الذاكرة وأطرق يفكر فى الأيام الماضية . .

* * *

كان شارل وسيمون من بلدة بورج فتعارفا وتحابّا منذ الصغر . وكانت أسرته غنية واسعة الغنى ، أما هى فكانت يتيمة لا مال لها . فلما أراد الزواج منها كبر ذلك على أهله وأبوا أن يقرّوه فرحل معها الى باريس وكان لها من العمر ثمانية عشر عاما ، فأخذ يرتفق ببعض الأعمال ليكسب

ما يتبلغان به . وكانت هذه حاله بضعة أشهر ، فما نقص من سعادة المال أعته هي بوجودها ، الى أن جاء يوم أعوزه القوت ولم يجد عملاً فأصبحا ولا مأوى لهما يضربان فى شوارع المدينة ويبيتان فى ضرائبها فلم ير بُداً من الكتابة لأبيه يسأله المعونة ، فأرسل إليه ما يكفى لتوفية دينه وابتياع تذكرة العودة ؛ وهدده ان هو لم يرجع فى الحال ان لا عون ولا مساعدة ولا ميراث ... !

ولكن شارل لم يعبأ ولم يكترث لوعيد أبيه وآثر البقاء مع سيمون والحب والفقر ؛ ثم سنحت له فكرة السفر الى جنيف ليستميح خالته الغنية قبل أن تصفر يده مما أرسله أبوه . وودعته سيمون على المحطة بعد أن تواعدا على اللقاء بعد أسبوع ... ولم يخطر لهما فى تلك اللحظة أن اللقاء لن يكون الا بعد عشر ساعات كاملة ... !

ولما وصل شارل الى جنيف لقى خالته وسألها ان تقرضه مالاً يتسبب فيه بالتجارة ولكن أباه كان قد أنهى إليها الخبر وحذرها ، فمنعته وردته رداً قبيحاً . فثارت ثائرته وجن جنونه ، فماذا تفعل سيمون إذا نفد القليل الذى تركه لها ؟ إنها بين موتين ، فاما ان تموت جوعاً أو هو الموت الأدبى للمرأة الحسناء ...

وأخذ يقلب رأيه ويفكر فى حاله ، وكان قد اطلع فى الصحف على أخبار السطو على عمال البنوك ، فلم يهده فكره المضطرب الى خير من هذه الوسيلة ، وما ينفع العالم ولا يضره نقص اللصوص واحداً أو زادوا واحداً ...

وأعد عدته وترك منزل خالته بحجة الرجوع إلى باريس ، ثم أوى الى منزل صديقه أدولف مليان وكان طالباً فى إحدى جامعات جنيف ؛ وأخذ يتأثر عامل البنك ويتربص به الى أن سنحت الفرصة فانقض عليه ذات مساء فى مكان منقطع فدس فى فمه خرقة مبللة (بالكلوروفورم) ثم احتوى ما فى حقيبته من المال وتسلل الى منزل صديقه ولم يره أحد

ونفض خبره لصاحبه فأظهر له هذا من الاخلاص والعطف ما سكن إليه ؛ وقال فى نفسه جريمةٌ دون جريمة ، وسرقة أخفُّ من قتل ...

ولكن جرائد الصباح ظهرت تحمل نبأ وفاة عامل البنك من فعل (الكلوروفورم) فارتاع شارل وأسقط فى يده وأخذه الرعب . وتنصح له صديقه فأشار عليه بأن لا يرجع الى باريس حذراً أن ينم عليه المال وقد عرفوه مملقاً ، ثم زين له السفر الى مدينة برن والبقاء فيها حتى يُنسى الخبر وتُطوى القضية

ورأى شارل أن هذا هو الرأى ، فعدَّ ما سرقه فكان ثروة ... ثم عزل منه القسم الأكبر ودفعه لصديقه على أن يحتفظه عنده أياماً ثم يؤديه لصاحبته سيمون أربل فى باريس ويزعم لها أنه من أحد أقاربها . قال :

— فان شككت فى الأمر فعليك بالصمت وقل لها المال هو المال ، وسوف تعلم منى مالم تعلم منك ، وإذا نجوت فان أوبتى إليها قريبة ، وإذا وقعت فانى متلف جميع أوراقى فلا يعرفون اسمى ولا يهتدون بى إليك

وتعانق الصديقان طويلا ، وسافر شارل الى برن فأقام بها خمسة عشر يوماً وثق بعدها من نجاته فأزمع العودة الى باريس ؛ وما كاد يعتزم حتى كبسه الشرطة وقبضوا عليه ، ولم يدر من أين دهى ... !

وفعلت البغتة فعلها فى نفس هذا المسكين فتلجلج ، وقرّروه وجعلوا يسردون أخبار جريمته عملا عملا وكلمة وكلمة فتضعضع وأقرّ ؛ بيد أنه رآهم يجهلون اسمه ، فانتحل اسما فأخذوه به وحكم عليه بالسجن عشر سنوات بالأشغال الشاقة ، وكانت الجرائد الفرنسية فى شاغل عن مثل خبره باضطراب الحالة الدولية فى ذلك الوقت فلم تشر اليه ، وهكذا أخفى أمره وظل مجهولاً من أهله ومن سيمون ، فكان هذا عزاءه فى سجنه ، وهان عليه ما سوى الفضيحة عند من يحب . وأخذ يعلل النفس بأنه متى انحسرت هذه المحنة ولقى سيمون وأفضى اليها بالخبر ازداد حظوة لديها لجرأته وفاء بوفاء واخلاصا باخلاص ؛ ونسى أنها من النساء ...

وتصرّمت المدة وخرج من السجن فعلم بوفاة والديه وحرمانه ميراثهما ، ووقع له عنوان سيمون فى اعلانات الصحف فكان ما وجد أحبّ اليه مما فقد . وها هو ذا الآن يردد فى نفسه بعد أن قابلها « إنها ما زالت تحبنى وإن أصبحت ذات بعل ، فان كان قلبها لى وحدى فهى لى وحدى ... »

* * *

وجلست سيمون فى الوقت نفسه للعشاء مع زوجها أدولف ملبان بمنزلها فى شارع كورسيل ، وكان زواجهما من عشر سنوات ، فجرى بينهما كلام قالت فيه :

— يجب عليك أن تطلع شارل على الحقيقة قبل أن يعرفها من غيرك فذلك أحرى أن يخفف وقعها عليه

وكان أدولف رجلا بادنا خامل الحركة ، لم يعمل عملا منذ ورث الخيالة على سيمون بأرباحها الطائلة فهو متبطل يقضى أيامه فيما يزنده نحولا بين دور الميسر وحلبات السباق ، وأصبح عالة عليها تطعمه وتكسوه ، وما تحب المرأة من تطعمه وتكسوه . وكان الى ذلك قليل الحزم كثير التسويف فقال لها وقد أشاح بوجهه عنها :

— ليس هذا بالرأى . . فقد لا يعلم بزواجنا أبدا ؛ وما أحسبه إلا يائسا منك إذا أيأسته ، فيدعك وشأنك . وكل ما يجب هو ألا يرانى

فأجابته فى ازدراء :

— إنك تخشى إذا هو علم بزواجنا أن يتهمك بأنك دللت عليه الشرطة وفضحت جريمته . . فما زلت أتساءل كيف قبض عليه وقد كان آمنا ولم يأتمن أحد غيرك ؟

فبُهت الرجل وقال لها وقد اختنق صوته

— أفتظنيننى مهما كنت سافلاً أتسفل الى مثل هذه الدنيئة ؟ أتعتقدين ذلك يا سيمون ؟

فأجابته ببرود : ولم لا ؟

فصُعق لكلامها وظل باهتا مشدوها ؛ وقامت هى الى الباب وألقت اليه وهى تخرج من الغرفة :

— لا يدهشنك أن ترانى فى أحضان شارل ..

فظل قابعا متكدسا فى مكانه وقد طاش عقله ، فهو ما زال يحب سيمون ، ويؤثر الموت على أن يفقدها ؛ ولكنه قال فى نفسه : « إن فى ذكرى الأيام السيئة التى قضتها مع شارل ما يحول بينها وبين شارل » ، ونسى هو الآخر أنها من النساء

وصدق حدس الحبيب الأول ، فتمكن شارل مرة أخرى من مقابلة سيمون فى (الاستديو) والتحدث اليها ، وكانت تصدف عنه فى بادىء الأمر ، غير أن الحب المتأجج فى صدره نفى عنه اليأس بل هوّن عليه أمر زواجها وما يدرى بمن تزوجت ... وقرّ فى نفسه أن صديقه لم يؤدّ اليها

المال فاختلّت حالها ، فذلك سبب زواجها آثرته على السقوط ، وتلك فضيلة تسره ولا تحزنه ...

ولم تقو سيمون على تيار هذا الحب الجارف فتفتح قلبها وباتت تنتظر صاحبها كل يوم على باب (الاستديو) فتصطحبه فى سيارتها للتنزه فى الغابة ...

وسألها شارل فى أحد الأيام :

— أما تخشين أن يباغتنا زوجك ؟

فأجابت وعلى شفتيها ابتسامة ذات معنى :

— إن هذا لا يعنينى ألبتة

وكانت هذه هى المرة الواحدة التى جرّ فيها الحديث الى زوجها ولم يسمح شارل لنفسه أن يسألها عن حياتها طوال هذه السنوات العشر وألهاه ماهو فيه وأصبح لا يفكر إلا فى أمر حبهما ومستقبلهما فقال لها :

— أخبرتينى أن لك منزلاً ريفياً بضاحية سان جرمان وأنكم لا تنزلون به إلا فى الصيف ، وعندي أنه أفضل مكان نختلى فيه دون حذر ...

فاستحسنت رأيه واستمهلته إلى أن تحتاط للأمر ثم يكون له ما يحب

وفى ذات يوم فاجأته بقولها :

— سأقوم هذا المساء بعمل التجربة الأخيرة للشريط السينمائى الجديد ، ولا ريب أن زوجى سينتهز هذه الفرصة فيقضى الليلة فى الميسر كدأبه كلما غبت وبهذا يخلو وجهه .. فهاك مفتاح منزلنا الريفى واحرص على أن تكون هناك عند منتصف الليل فسأوافيك فى هذه الساعة وقد انتهيت من عملى ؟

فلثم المفتاح ودسه فى جيبه ، وما تسعه الدنيا سروراً وغبطة

ومر اليوم طويلا بطيئاً كأنه يعد دقائقه واحدة واحدة ؛ وكانت سيمون تلحظ على زوجها القلق والاضطراب على ما يبدو من سكينته ، فأعجبها ذلك ، وابتسمت ابتسامة خفية وقالت فى نفسها : « إنه هو أيضاً يحبنى . . »

وفرغت من عملها فأخذت تتحدث إلى بعض صديقاتها ؛ ثم عادت الى منزلها فدخلت الى حمامها وأطالت المكث فيه ؛ ثم جعلت تتزين وتطيل فى زينتها والوقت يمر لا ينتظر حتى إذا ما استقلت سيارتها كان قد فات الموعد الذى ضربته لشارل ، وانقضت ساعتان ...

فلما بلغت المنزل أبصرت بالقرب منه سيارة عرفتها وسرّها أن تراها ...

ثم تقدمت الى الباب الخارجى فلاح لها نور ضعيف ينبعث من إحدى الغرف تحت ظلام الليل الدامس ؛ ففتحت الباب وردّته وراءها ثم دخلت الى الغرفة المضيئة فوقع بصرها على جسم ضخم منكفىء على الأرض فدنت منه فى غير ذعر ولا دهشة ، وانحنت عليه تتبيّنه فاذا هو زوجها أودلف وقد تشحّط قتيلا فى دمه ...

وأخذت تتمثل ما حدث فكانت القضية فى خيالها أن الصديقين التقيا على فجأة فجر الكلام الكلام ، وعلم شارل أن أودلف هو صاحب المنزل وهو زوجها الذى خان عهده وخلفه عليها فطاشت الغيرة بعقله فقتله ، ثم هاله ما صنع واستبطأ قدومها فنجا بنفسه ...

وجعلت تتأمل الجثة وقدعلت شفتيها ابتسامة شيطانية ، وقالت تحدث نفسها بصوت مسموع وقد أمنت أن يسمعها أحد :

— كنت أتساءل : من سيقتل منهما ... ؟

فها هو ذا أودلف وقد استرحت منه بقتله كما استرحت من الآخر بالفرار

ثم دارت على عقبها وهمت تريد الخروج ، فانتفض جسمها إذ رأت شارل بالباب يقول لها وقد تكلح وجهه وانقلبت سحنته :

— إذن كان أودلف صادقاً ؟

فامتقع لونها بصفرة الموت ، وظهر فى عينيها الرعب ، ولكنها تماسكت وصاحت بصوت مختنق :

— أتقتل زوجى ثم تتجرأ ...

غير أن شارل قطع عليها وقال فى جفاء وخشونة :

— كيف علم هذا الرجل وكيف جاء إلى هنا ؟ أجيبى من هذا الذى استدرجه ؟

فزاغ بصرها وتلجلج لسانها وتمتمت :

— لست أدرى ... لست أدرى ... ! لعله حكم الاتفاق والمصادفة ... دعنى أخرج من هنا وإلا صرخت وجمعت الناس عليك

فهز كتفيه ورماها بقهقهة منكرة اقشعر لها جسمها ثم قال :

— اصرخى ما شئت فان يجديك ... فالمكان منعزل والقوم نيام ؛ وهبى أحداً معك فأغاثك فانه سوف يقبض عليك بتهمة الاشتراك فى الجريمة ... ألم تهربى معى من بورج قبل اثنتى عشرة سنة ؟ وبعد هذا ألست أنت أعطيتنى مفتاح المنزل ؟

فقالت وقد انخذلت ووهنت قوتها وأحست الأرض تميد بها :

— لست أدرى لم تخاطبنى بهذه اللهجة ؟

— ذلك لأنك دخلت إلى هذه الغرفة وكل حركاتك تنم عن دخيلة نفسك الخبيثة ، فقد ظهر لعينىَّ أنك كنت تتوقعين رؤية هذه الجثة هنا ... ومن غيرك يبعث بهذه الرسالة إلى أودلف ؟

ثم أخرج من جيبه خطاباً غفلاً من الامضاء فجعل يقرأه عليها :

— « إن كنت تريد أن ترى بعينيك خيانة زوجتك فاذهب الى منزلك الريفى عند منتصف الليل »

فتباهلت كأنها لا تفهم شيئاً ، ولكنه نظر إليها فى ازدراء وقال :

— لا تحاولى الانكار فما تجدين دليلاً إلا قام دليل... ولقد فاجأنى أودلف ، فلما رآنى هم بقتلى ، ولكنى ظهرت عليه وانتزعت سلاحه ثم رميته بخيانته فتبرأ منها وأكد لى أنه دفع إليك المال منذ عشر سنوات ، ولم تكن به ريبة فعبثت به وأغريته وسلطت عليه هواك وفتنتك ورضيته عاشقاً ، ثم رضيت به زوجا ؛ وعلمت منه كل ما جرى علىَّ لم يكتمك شيئا ... وكان المسكين يحدثنى والجنون يطير فى عقلى وتمثلتك تسخرين بى فقتلته على غير وعى ... ألا فاخبرينى الآن لماذا تجاهلت وأنت عارفة ، وهل تلك إلا نية السوء وضمير الشر ؟

فسكتت هنيهة ثم تمتمت :

— كيف لى بالحجة وأنت لا تصدقنى ؟

فاستأنف كلامه بصوت محموم :

— لقد كنت واثقة من قتل أحدنا ، فما يتلاقى عاشقان لامرأة واحدة فى مخدعها إلا على جريمة... ولا شك أن أودلف كان يعلم أنى أنا الذى ينتظرك هنا فى منتصف الليل ، وإن لم تذكرى له اسمى فى خطابك ، فجاء على نية القتل ومعه سلاحه لأنه كان يخشانى ... ولقد غررت بى وخدعتنى بحبك لتنتهى بى إلى هذا المصير قاتلاً أو مقتولاً ، وهل جئت بعد الموعد بساعتين إلا لتكون الجريمة قد

وقعت فى هاتين الساعتين ؟ فان كنتُ أنا المقتول هدّدت زوجك فتخلصتِ منه ، وإن كنت القاتل أسلمتنى إلى الموت إذا لم أفرّ ... ؟ ولماذا جئتِ ، وكان فى استطاعتك ألا تجيئى لولا ما استحثك من غرضك الخبيث لتتمى خطتك الجهنمية ... ؟ فلا تنسى أنى قضيت عشر سنوات بين القتلة والمجرمين وعرفت كثيراً من ميولهم وطباعهم

ثم قطع حديثه وسكت لحظة وكأنما عاوده حبه وأخذته الرأفة بها ، فقال بصوت خافت :

— اصغى إلى ياسيمون ... لن أمسك بسوء إذا أنت أخبرتنى ، لماذا أردت التخلص منى ومن أدولف ؟

فأجابت سيمون وقد سكن اضطرابها وامت عيناها ، وأخذت تضحك ضحكة جنونية :

— إن كنت تريد عِلم ذلك فاعلم أنى أحب رجلاً ثالثا ...

فتحرك قلبه وزادته رغبة فيها ، وقال وهو يفيض حناناً ورقة :

— وهل نسيت يا سيمون أيام حبنا وعهد شبابنا وأحلامنا ، وأنى فى سبيلك عانيت ماعانيت ؟ ألستُ بهذا أحقّ بك من هذا الحبيب ؟

فكأنما طعنها فى قلبها ورأته متطفلاً على الحب وما كانت تُصانعه قبل ذلك إلا مكيدة وخداعا ، فهاج هائجها ، وقالت فى ثورة من الغضب :

— ألم تدر بعد أيها الأحمق أنك أبغض الناس إلىّ ؟ وكيف تريد أن أنسى شؤمك علىّ ، وما ابتليت به فى معاشرتك من نكد وهم ، وفقر وتعاسة ؟ لقد استغويتنى ففررت معك إلى باريس وكنت صغيرة طائشة ، وأمّلتُ أن يوافق أهلك على زواجنا ، فخاب الأمل وذهبت الأمانى ، وبقيت أنت وما معك إلا نكد الحياة ، وفى أى شيء أحبك وأنت صعلوك ، وأنت عاثر الجد ، وأنت خامل مجهول ؟ أفتعجب بعد ذلك من وقوعى بسهولة فى أحضان أدولف وقد جاءنى بالمال والجاه ؟ وما نسيت شؤمك حين ظفرت به فخشيت أن تعود إلىّ وتقع فى حياتى وقوع الهم فى السعادة ، فما كدت أعلم من صديقك بما اقترفته من تلك الجناية وهو يحدثنى بها متحزناً عليك راثياً لك ، حتى أسرعت فأبلغت الشرطة ودللتهم على مخبئك ليأخذوك عنى أنت وشؤمك وتعاستك ...

ثم صاحت وهى تقهقه بجنون :

— فالىّ يرجع الفضل فى سجنك هذه العشر السنوات ... أتسمع يا شارل ... أتسمع ياشارل ، وهل فهمت الآن ؟

وبقى شارل كالمأخوذ ، على حين ازداد هياج سيمون واتسعت أجفانها وجحظت عيناها ، وأخذت تقبل وتدبر كأنما ترقص حول جثة أدولف ... ثم قالت فيما تهذى :

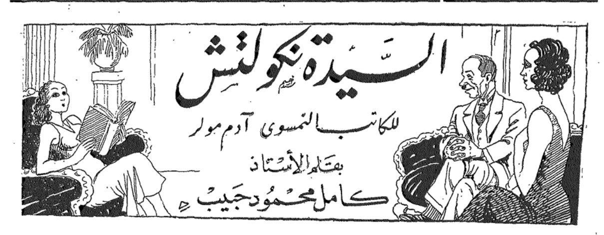
— وكذلك ضربتُ أحدكما بالآخر وتخلصتُ منكما معاً دون أن ألوث يدى بالجريمة ... ! ألا ترى هذا تدبيراً يا عزيزى ؟

وظهرت عليها أعراض الجنون ، فقال شارل فى نفسه وهو يتفجع لها : « ذلك خير ما أتمناه لبراءتى ... فلن يأخذ أحد بقول امرأة مجنونة ، وسيعتقدون أنها هى التى قتلته فى حالة من حالات نفسها ، ومسدسه أقوى دليل على انحصار الأمر فيما بين الزوج وزوجته ... »

وبينما هو فى تفكيره انقضت عليه سيمون تريد الفتك به وهى ترغى وتزبد ، فدفعها عن نفسه وانفلت منها وخرج هاربا والمجنونة تصيح بالجثة :

— اقتل شارل يا أدولف ... ! اقتل شارل يا أدولف ... !

محمد الرافعى



منذ سنوات عشر كانت تسكن داراً أنيقة فى حى كارتنر فى فينا ، وهى حسناء ناعمة ، واضحة الجبين ، بسامة الثغر ، هيفاء رقيقة ، يزيد جمالها شعر فاحم رجل ، صففته يد صناع ليضاعف من جمالها ورونقها ، وفى عينيها الزرقاوين الحالمتين تفتر وحور ... ولقد عجبت زوجة البواب أن ترى هذه الفتانة تلصق إلى بابها قطعة من نحاس مصقول لامع كتب عليها « السيدة نكولتش » و «السيدة» فى فينا هى العاملة أو القابلة أو الخياطة ؛ وما هذه واحدة من أولئك

وكانت زوجة البواب تعلم علماً يشيع فى جوانبه الشك أن هذه السيده أرملة سياسى صربى قضى عمراً من عمره فى سفارتى برلين وسانت بطرسبرج ، ولكنها تعلم علم اليقين أن للسيدة أصدقاء كثيرين فهى ترى الدار تمج كل ليلة بالزائرين وهى دائماً تتطفل ، وهى دائماً تسترق السمع والبصر ؛ لتشبع رغبة فى نفسها ، ولتستطيع أن تطعم بعض فتات المائدة ؛ أو هى تنطلق إلى صاحب الدار ، وهو كونت عجوز فيه الصلاح والوقار والزهد ، فتنشر على عينيه بعض ما ترى وما تسمع ، فتكون الفضيحة ...

ولم تكن السيدة تسكن الدار وحدها ؛ فهذه ابنتها الصغيرة ميلنكا تطوى نهارها بين جدران المدرسة ، وهذه فرولين بيبسى أختها تنطلق كل صباح فى سيارة السيدة الفخمة الأنيقة لتشترى شيئاً ، أو تزور صديقاً ، أما السيدة نفسها فما كانت تبرح الدار إلا بعد أن تتناول طعام الغداء عند الساعة الواحدة بعد الظهر

وكانت الطفلة فى سنى طفولتها الأولى ترافق أمها الى الحدائق ، أو الى الغابات ، أو الى المنتديات. فلما شبت وترعرعت حال بينهما أمر . فالأم تنطلق إلى لهوها ومتعتها وميلنكا فى خدرها تتلقى درساً فى البيان ، أو تجلس إلى مربيتها تحدثها حديث المدرسة ، وهذه تقص عليها بعض ما يثرثر به العجائز ، وهى عجوز شمطاء تسهر على الطفلة وتحبوها بعض ما تهفو إليه نفسها من الحنان والعطف وأمها هناك ... أو تكب على درس تطالعه ، أو ...

ودأب نقولا بيتكوف على تناول طعام الغداء فى دار السيدة ، والسيدة تزعم أنه عمها ، وهو يصحبها هى وأختها فى غدوهما ورواحهما ويغشى بهما المنتديات العامة والمسارح والحفلات ، ثم اندفعوا جميعاً يزجون بأنفسهم فى حياة الصخب واللجب ، كأن بهم ظمأ للعبث والمرح ، وبدت السيدة نكولتش فى أعين الرجال جميلة جذابة فيها اللباقة والبراعة والذكاء ، ثم ... ثم لمسوا فى حديثها نفثات السحر والطرب ؛ فراحو يتوددون إليها

ويتملقونها ، وهي تبسم في رقة وهدوء ؛ أما بيبسي فكان في مرحها الحمق ، وفي حديثها المجون ، وفي نظراتها الاستهتار ، ثم هي لا تتحرج ولا تتأبى ، وكيف تفعل وهي تريد المتعة واللذة ، لقد فقدت الزوج وفقدت الأمل فيه فأرادت أن تجد الصديق والصديق و ...

وكان نقولا بيتكوف عضواً في مجلس إدارة الدولة انتدب في السفارة الروسية ، وهو رجل طروب لمع المشيب في عارضيه ، غير أن قلبه ما يزال شاباً فيه النزوات الطائشة ، قوى متماسك لم تزعزعه الشيخوخة وهي تهاجمه في شدة وعنف ، سياسي عبقري يرى النجاح والرق في التجسس والاغراء فهو ينشر شباكه هنا وههنا فما تخفى عليه خافية من أسرار العظماء والوجهاء من الأجانب والوطنيين ... وشاع عنه هذا فخافه الجميع ، وتجنبه جماعة وحذره جماعة غير أن واحداً لم يلتو عليه

وكانت السيدة واختها هما ساعداه : فالأولى تتقصى في خداع المرأة ورزانة المجرب ؛ وأما الثانية فكانت تندفع في طيش وتهور ، أشفقت منهما السيدة أن يمضغا عما تستمع به من احترام وتقدير ، وبيتكوف يلح ويلح ...

* * *

في هذه الحياة المضطربة ابتدأ الكم يتفتح عن زهرة ناضرة جميلة مات أبوها وأمها تلهو ، تحبسها دواعي العبث والغي في حجرتها ليلا فما تبرحها ، ثم هي لا ترى إلا العم بيتكوف يرميها بالنظر الشزر ويقذع لها في القول ويقسو عليها ، وإلا صربيتها العجوز أنوكا ، فما تجد اللذة في شيء سوى أغنية عذبة ترددها العجوز كل مساء عند فراشها :

أنا صياد

نشأت في وادي درينا ؛

جئت بك إلى دار أمي

لنستريح قليلاً ، يا عزيزتي

* * *

أنا لا أحبوكِ الذهب ولا أفتح أمامك الكنوز الغالية

لأنني فقير لا أملك من ذلك شيئاً

ولكنني أطرح عند قدميك الصغيرتين قلبي

قلبي وقد أفعمه الحب والغرام

* * *

وعرفت الطفلة أن هذه الأغنية هي بعض قلب أبيها لأنه استقبل بها زوجته الحبيبة لأول مرة هبطا معاً دار أمه ، وأرادت الطفلة أن تسمع من العجوز قصة أبيها وما اكتحلت به عيناها ، ولكن العجوز كانت تدفعها في رفق « ستعلمين ذلك ، يا عزيزتي ، حين تبلغين سن الفتاة ... »

حقاً ، لقد كان الأب صربياً أغرم بوطنه وأحب زوجته وابنته في وقت معاً ، وهفت نفسه إلى أن ينشيء ابنته في دار أمه ليسكب هو في قلبها بعض مايتغلغل في عروقه من هوى لبلاده ، غير أن الأم نفرت منه — بعد حين — لتعيش في منأى ... في برلين ؛ وهو يزورها بين الفينة والفينة

ونشأت الطفلة لا تجد السلوة إلا بين جدران المدرسة ، بين صديقاتها وزميلاتها ، فكرهت الدار ، وبدا لها ما يكتنفها من غموض وعزلة ، فسيطر عليها السخط والألم ؛ فشبت وشب معها البغض لأمها والمقت لدارها غير أن مفاتنها راحت تعلن عن نفسها فبدت فتاة جذابة ، رائعة الحسن ، جميلة الطلعة ، فيها الأنوثة والدقة والخجل ...

وكانت السيدة قد اعتادت أن تصحب اختها

-- كل صـيف — إلى حيث يصطاف العظماء والوجهاء لحاجة فى نفسيهما ؛ وترامى إليها أن ملك الانجليز سيقضى بعض أيام هذا الصيف فى مارينباد ، فانطلقتا إلى هناك ، واستطاع بيتكوف أن يهيء لها حجرة فى فنـدق فيرستنهوف حيث يهبط العظماء ... وخشيت السيدة أن تحوم حولها الشبهات وتتناولها الألسن حين خيل إليهـا أن ما يبدو على حقيبتيهما من قِدم ورِثّة ينم عن شيء ، فراحت تسدد سهامها فى طيش وهرج ؛ وضاق صدر الملك بهذا التطفل والتبجح ، فأمر ، فحيل بينهما وبينه ، وارتدت السيدة وأختها على أعقابهما بعد أسبوعين تحملان الخيبة وضياع الأمل لأول مرة فى الحياة

***

وكانت ميلنكا فى إيشـل وأمها فى مارينباد تستشعر ألم الوحدة ومرارة العزلة ؛ ووجدت إلى الخلاء طريقاً ، فانطلقت هى ومربيتها إلى الـكازينو كل صـباح ، وإلى غابات لوفن كل مساء ؛ واستطاعت أن تتحدث إلى ضابط شاب من ضباط الحرس الملـكى فيه الظرف والمرح تعود أن يجلس إلى نضد بجوارها ، ومربيتها ترى ... لقد آلمها حينا أن ترى الفتاة سجينة أو كالسجينة ، فسرها الآن أن تراها تجد اللذة والمتعة فى حديث رقيق مع شاب مهذب فيه الرجولة والحياء

لم تكن الفتاة ماجنة عابثة ، ولم تكن هوجاء مستهترة ؛ فهى تمشى على استحياء ، وتجلس فى أدب واحتشام ، تصـون نفسها عند الابتذال والعبث ... ثم هى قد علقت الفتى الضابط كبرات كراص وعلقها هو ، وهو من أسرة عريقة فى المجد ، طيبة المنبت ، زكية المغرس ، وفى عروقه يجرى دم أجداده الـكرماء ، فما به من عبث وما به من لهو ، فهو يهوى الفتاة ، وهو يريدها لنفسـه منذ خفق لهـا قلبه ؛ والعجوز تضطرب فى رأسها الخواطر المتناقضة : أفيستطيع الفتى أن يتزوج من فتاته ، وهى تصل بينهما ، وتهيء لهما اللقيا بعد اللقيا تحت أستار الظلام ، فى منأى عن الرقيب والواشى

***

ورجعت السيدة وأختها وقد آلمتهما الخيبة ، وحز فى نفسيهما الاعراض والطرد ، وعاد العم بيتكوف ليرى ... ليرى الفتاة بين أشجار الحديقة ترف رفيف الزهرة اليانعة فى نسمات الفجر الندية فخلبه جمالها ، واضطرب قلبه حين وجد فيها صورة الأم منذ سنوات وسنوات ، واستلبه بعض ما رأى من قسوته وغلظته ، فهوى على يد الفتاة يقبلها فى شغف ولهفة ، ففزعت هذه وجفلت وهى تقول : « أى عمى ، عمى العزيز ! »

وانطلق الرجل الى السيدة ليرى ... ولأول مرة بدت فى ناظريه قبيحة تستلبها الشيخوخة من جمالها رويداً رويداً ، فعافها وانجذب عنها وعن أختها فى وقت معاً ؛ ورأت هى فيه الفتور ، وفى حديثه القسوة ، فحزنت حزن المرأة تفقد عشيقها وعائلها ... أما بيبسى فما كان ليعنّيها ما رأت من عمها وهى المرحة الطروب ، فغادرت الحجرة فى خفة وهى تقول : «سأصحب ميلنكا الى الكازينو ...»

وكشفت السيدة للرجل عمـا يضطرم فى قلبها — حين خلا بهما المـكان — وانهمرت عبراتها حرّى فيها الأسى والشجن . نعم ، لقد أحبها حيناً من الدهر وأحبته ، وذاقت هى لذة الهوى وذاق هو معها ... أفتكون هذه هى النهاية ؟

وعلى حين فجأة قال بيتكوف : « مارينا ، إن

ابنتك جميلة ... جميلة فاتنــة خلاّبة ... ويل لى ! كأنى لم أرها من قبل ! » وفزعت السيدة فقالت وهى تضطرب : « أفتعتقد ... أفتعتقد ؟ » فقال فى هدوء : « لقــد كانت فى الرابعة حين كان نكولتش ... فهى الآن فى الثامنة عشرة ... » وصرخت المرأة فى وجهه حين تراءى لهــا ما يريد الرجل : « لا ... لا ... ! » فقال هو فى سخرية وتهكم : «الصغيرة أجمل ... لقــنيها ... » وصاحت المرأة أخرى وهى تنتفض من الذعر وقلبها يتمزق إرباً : « لا ، لن ألقيها بين براثنك ، لن تسيطر عليها ، لن تقذف بها إلى الهاوية ... ! » قال وقد أصر على أمر : « إفعلى ما شئت فلن تستطيعى أن تحولى بينى وبينها ، فأنا الوصى عليها وأنا الذى أريد ... إنه فوق طاقتك أن تجدى لها زوجا غنياً كريم الأصل ، ومن العجز أن تتزوج من رجل فقير ... » قالت : « لا ... أنا لا أفكر فى زواجها الآن ، ولــكنها هى ستكسب ما يكفيها فهى ستنال درجتها الجامعية قريباً ... » وابتسم الرجل ابتسامة الهزء ؛ وغاظه أن تقف الأم فى سبيله تدفعه عن أمر يريده لنفسه فاضطربت الــكلمات على شفتيه « المستقبل ! المستقبل يا مارينا ! أنا لا أجد ما أدفعه لــكم ... سأنطلق الى عملى فى سانت بطرسبرج ثم أعود فى الخريف القادم لأرى رأيك ... »

واستشعرت المرأة الصفعة حين تراءى لها أنه سيذلها ويخضعها وهى لا تملك شيئا . لقد اندفعت معه فى طريق وعر زماناً ، وهو يعلم لــماذا انتحر نكولتش وهو شاب فيــه القوة والفتوة ، ولــماذا أصبح هو وصيا على الطفلة ! وارتد تاريخها كله ينشر نفسه على عينيها وقد أترع بالمخازى والمساوئ ويوقظ فى نفسها نزعات طيبة أسدل عليها الستار زمانا فهاجت : « نعم ، إنك لا تجد ما تدفعه ... أفنسيت أن مذكراتى عن الجاسوس الروسى تزلزل أركان العــالم ؟ » قال وهو يكتم فى نفسه الجزع والرعب : « لا تــكونى حمقاء يا مارينا ، فأنا رجل حطمته الأيام ، لا أبكى على شىء أما أنت فما تزالين شابة » ثم قال بعد أن أطرق قليلا : « ... وأنت أم هذه الحسناء ، دعيها منى فسيتهافت عليها الرجال تهافت الذباب على الحلواء » قالت فى غيظ وغضب « أفلا تسمع ما أقول ؟ لن أخلى بينك وبينها ، لقد حاولت جهدى أن أحول بينها وبين أن ترى حياتنا المضطربة ، وألا تقتحم فى هــــذه الحمأة ، لتكون — بعد حين — سيدة نفسها أو تتزوج من رجل ... إنها ابنتى وإنت لا ترى فيها إلا سلعة غالية تريد أن تبيعها بالثمن البخس ... » قال فى هدوء : « أبيعها ؟ يا للغباء ! ستعود ومعها الملايين ثم تتزوج ممن تشاء ! »

وكان الرجل فظاً فى نظراته ، حيوانياً فى آرائه ، وحشاً فى خواطره ، تتفطر الانسانية من عباراته ، كم فى الحياة من أمثالك أيها السبع الضارى الدنىء ؟ لقــد أصر على أمر ، وترك الأم حزينة مضطربة ما تستقر ولا تهدأ

***

ورجعت بيبسى من الــكازينو باشة مستبشرة وقد رأت الفتاة تغزو قلب الشاب كيرات كرامر رويداً رويداً ، وجلست هى إلى السيدة تقص عليها قصة الغرام الجديد ، وابتسمت الأم حين بدا لها أن هذا الشاب قد أرسلته العناية الآلــهية لينقذ الفتاة من هاوية عميقة توشك أن تتردى فيها

ونادت السيدة ابنتها « ميلنكا » : « إنك تتأنقين كثيرا كأنما تريدين أن تكشفى عن مفاتنك ! »

واضطربت الفتاة لما سمعت غير أن السيدة اندفعت « لعلك علقت هذا الشاب! » قالت فى انكسار « نعم ، نعم يا أماه » وصمتت الأم حينا ثم قالت « لا بأس ، لا بأس ولكن احذري ! » وطربت الفتاة لحديث الأم الرقيق وعطفها السامى

وفى الحق لقد كان الشاب يرافق الفتاة وخالتها كل يوم حتى باب الدار ثم يقفل راجعا خشية أن تراه السيدة ، والسيدة تنظر من خلال النافذة ، ثم .. ثم أرادت أن تعرف من هو الشاب ؟ فأرسلت الى بيتكوف تطلب اليه أن يوافيها عما يعرف عن آل كرامر .. وجاءها البريد يحمل أخبارا تسر ، ثم راحت هى ترى ما وراء ..

وعلى حين بغتة بدت السيدة فى الكازينو فى ثيابها السوداء وقبعتها العريضة ، متأنقة متبرجة تخطف البصر واللب ؛ وإلى جانبها ميلنكا ، فتاة فى مقتبل العمر تخلب القلب وتأسر الأفئدة ؛ ثم بيبسى ... ومررن جميعا بالفتى وهو جالس الى أخويه فحياهن فى أدب وهو فى مكانه لم يبرحه ، وكأن ظهور السيدة قد بعث فى نفسه الرهبة والخوف فما استطاع أن ينطلق اليهن ... وتكرر هذا أياما ..

لشد ما آلم السيدة أن ترى الفتى ينزوى ويحجم وهى كانت تأمل أن تراه الى جانبهن يتحدث ويتحدث ثم يصحبهن الى الدار . . . واضطربت بيبسى لهذا الاخفاق ؛ أما ميلنكا فقد حز فى قلبها أن تنطوى الأيام ثم هى لا تستطيع أن تجلس الى صاحبها تحدثه ويحدثها ، وتدفق اليأس فى قلبها حين قالت لها أمها « أنا أحرم عليك أن تجاسى الى هذا الشاب الوضيع أو أن تتحدثى اليه فهو يريد المتعة الرخيصة واللذة السافلة فحسب . إن فى هذا الاحجام من الضعة والدناءة ما فيه ... »

وأحست الفتاة شدة الصدمة فى قلبها فطارت الى حجرتها تبكى أملها الضائع وسعادتها المفقودة ، والعجوز تربت على كتفها ، وتهدئ من ثورتها ، وتبعث فى نفسها الأمل الحلو من جديد ، فهى ستنطلق فى الصباح الباكر الى آل كرامر علها تلقى الشاب فتحدثه الحديث وترى رأيه

وترامى الى العجوز أن كيرات غادر القصر صباحا الى إيشل فارتدت على عجل تحمل البشرى .. بشرى قدوم الزوج المنتظر

وأفزع السيدة حديث العجوز عن إيشل ، فقصة مارينبار ما تزال على الألسن ، وهى تخشى أن يدوى الخبر فى إيشل والفتى عندها فيحجم ، فطارت الى فينا لتدفن سوءاتها هناك

وكانت خطابات بيتكوف تبعث فى نفسها السأم والملل ، فهو ما يزال يتحدث عن ميلنكا ويطلب رسمها ، فأرسلت اليه تصده فى شدة وعنف ، وتأبى أن تسلس له بعد إذ أحست بالأمومة الصادقة تتدفق فى قلبها قوية تحرس ابنتها وتسهر عليها ؛ وهو ... هو بيتكوف الوغد يتخذ من قصة غرام الفتى والفتاة أول حجر فى بنائه السافل

***

وعلمت الأم أن قانون الحرس الملكى يحتم على الشاب أن يتقصى خبر الأسرة التى سيصبح صهرا لها ، فراحت تحدث أختها الحديث ، وتوحى اليها أن تذهب الى أحد مكاتب الاستعلام لترى ما يقولون عنها وهى تقول « لا أظن أن أحدا هنا يستطيع أن يجد فى ثغرة ينفذ منها » قالت الأخت « وأنا أوقن أن بلدا غير هذا لا نستطيع أن نجد فيه الأمن والطمأنينة »

وانطلقت بيبسى إلى مكتب الاستعلام تسأل المدير خبر السيدة نكولتش وابنتها لأن ضابطا شابا

يريد أن يتزوج من الفتاة ، وحدجها الرئيس بنظرة فاحصة ، وبدا عليه الجد والاهتمام حين سمع قولها « لأن ضابطاً شاباً ... » ثم قال : « أنا لا أعرف شيئاً ، ولكنني أستطيع . . سأتقصى وأرسل إليك ... وخشيت المرأة أن يفتضح الأمر فتركت عنوان إحدى صديقاتها ...

وتصرمت أيام ... وانطلقت السيدة وابنتها — ذات ليلة — كل واحدة الى حجرتها ، تتأهب للذهاب الى الأوبرا ، وقد ابتدأ الأمل يحيا فى نفس السيدة ، وخيل اليها أن الهموم التى رانت عليها حيناً من الدهر قد انقشعت أوكادت ، وأن المستقبل يحمل فى أضعافه مسرات ومسرات ، بعد إذ انطوت صفحات الماضى ومحاها النسيان ، ثم جلستا تنتظران بيبسى ... وعادت الأخت وفى يدها خطاب كبير ... إنه من مكتب الاستعلام ...

وسرت فى مفاصل السيدة رعدة خفيفة ،

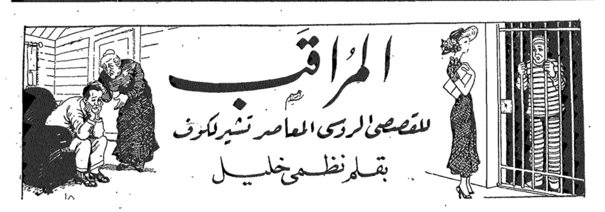
وسيطر عليها الشك فقالت : «أنفضه الآن أم نطرحه جانباً حتى نعود ... » قالت بيبسى : « لا ، لا بد أن نقرأه الآن » ، وترددت السيدة حيناً ثم قالت : « لا بأس ، فلتذهب ميلنكا ومربيتها فقط ...» ثم أرتج الباب ، وفُضّ الغلاف وراحت بيبسى تقرأ : « لا ريب فى أن السيدات يستمتعن بطيب الأحدوثة ، والسيدة تعيش فى رفاهية وبذخ وإن كانت لا تملك شيئاً ، وهى تزعم أنها أرملة سياسى صربى له شهرة ومركز ، وهذا زعم بعيد عن الصواب ، وتساكنها سيدة أخرى تقول هى إنها أختها ، وهذا ادعاء فيه شك ، وهما تندفعان فى طريق ليس فيه الشرف ولا الكرامة ، وهما تعملان فى فرق الجاسوسية الأجنبية ... » واضطربت بيبسى وقالت : « يا للعار ، يا للعار ! » والسيدة جامدة ذاهلة تستحث الأخت فى صوت فيه الألم والحسرة « اقرئى ، اقرئى ! » واستأنفت الأخت « وتنبىء حياة السرف التى تعيشها السيدة وأختها ، وقد انطوت أيام شبابهما ، أنهما ما تزالان تعملان فى الجاسوسية ...لهذا ولغيرهذا مما نكتمه لانستطيع أن ننصح شاباً ذا كرامة وشمم أن يصاهر هذه الأسرة . أما الفتاة نفسها فنحن نجزم بأنها بعيدة عن كل ما يشين السيدتين ويعصف بكرامتهما . وقد ترامى إلينا أن الشاب قد نفض يديه منذ أيام...»

وانقض الحديث على السيدة صاعقة تمزكها عزكاً ، وتهد من كيانها ؛ وأختها الى جانبها تستشعر الخيبة واليأس والعار جميعاً . وانهمرت عبراتهما ... عبرات الندم تحاول عبثاً أن تغسل بعض ما جنت يداها حين غرتهما الحياة بزخرفها ، وحين زين لهما الشيطان سوء عملهما

ورجعت ميلنكا الى الدار وفى عينيها عبرة تترقرق ، وفى قلبها الأسى والحزن ، لأنها رأت صديقها على خطوات منها يراها فيصدف عنها ، ثم هى تبتسم له فيعرض عنها . واندفعت الى حجرتها علّها تطفىء بعض اللواعج المضطرمة فى قلبها بسيل من عبراتها الحرّى ... ولكن أمها نادتها لتنشر على عينيها بعض صفحات الماضى ، غير أن الفتاة قالت فى غيظ وحنق : « لا ، لا أريد أن أسمع شيئاً ، ولكن فلنرحل الى بلد لا يعرفك فيه أحد » ثم جفلت من بين يديها وأمها تناديها ...

وفى الصباح وُجدت السيدة فى بحر لجى من الدم وعلى النضد خطاب منها الى بيتكوف .. وجاء الرجل ليصحب الفتاة — دون خالتها — الى سانت بطرسبرج ... الى الهاوية ...

كامل محمود حبيب



اعتادت ماريا أن تذهب كل مساء إلى المحطة تتوسم وجوه الركاب باحثة عن ابنها «نيكولاس» فيقفز قلبها فرحاً كلما وقعت عينها على شاب فى لباس الجامعة

ولكنها كانت فى كل مرة تتفقد ابنها فلا تجده فتندفع إلى العربات وتحدق النظر فى الجمهور الواقف على الرصيف ، وهى لا تكاد تصدق عينيها ؛ فتسأل وهى حائرة قلقة :

— إلى أين يذهب هذا القطار ؟

فيجيبها رجل : إلى موسكو

— وهل جاء من « كيف » ؟

— نعم

فتصوب المرأة بصرها جهة « كيف » ثم يعلو وجهها ابتسامة حزينة رقيقة لتلك الصورة العزيزة التى ستطلع عليها من وراء ذلك الضباب والدخان — صورة « نيكولاس » العزيز وهو فى لباس الجامعة — ولكن هذه الصورة الحلوة الجميلة سرعان ما تختفى من ناظرها فتهم بالرجوع إلى المنزل وقد فاض بها الحزن حتى كاد يحبس أنفاسها . حتى إذا ما دنت من البيت استيقظ فيها ذلك الأمل من جديد فتتوهم أنها ستجد ابنها هناك فتسرع الخطى وتندفع إلى الباب فى شوق وخوف ، ولكنها لا ترى أمامها إلا زوجها الشيخ « ستيبان » يسير فى الغرفة فى خطى متثاقلة ، وهو يسعل سعالاً حاداً . فلا يكاد يرى زوجه وحدها حتى يشيح عنها ويدمدم بهذه الكلمات : « كفاك ذهاباً وانتظاراً ! » ثم يصمتان — فكلاهما كان غارقاً فى الأفكار مثقلاً بالهموم — يكاد الدمع ينبجس من عينيه ، ولكنهما كانا يقاومان الحزن ويتكلفان الصمت

* * *

كان يتردد على منزل ستيبان صيرف المدينة وهو رجل ثرثار مُدَّعٍ فيقص على الزوجين كيف يعامل المسجونون السياسيون فى السجن ، وكيف يحبسون فى حجرات ضيقة ذات فتحات ضيقة ينصب منها الماء حتى تتقلص أبدانهم ، وتجمد دماؤهم فى عروقهم ، وتقف قلوبهم عن الحركة . فتضطرب ماريا لهول هذا الكلام ؛ فتصيح خائفة وجلة : إلهى ! إلهى ! فيحاول الصيرف أن يهدئ ثورة الأم الحزينة فيقول : ولكنهم قد يطلقون سراح البعض منهم . ثم يمضى فى حديثه الطويل المتصل ، وهو يشوه الحقائق ويلفق الروايات حتى يسرى الخوف والرعب فى قلبى الزوجين المفجوعين فى وحيدهما العزيز فيقضيان ليلهما على فراش دونه شوك القتاد

* * *

لم يمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى كان نيكولاس واقفاً بالباب ، فلم تكد ماريا تراه حتى أسرعت إليه وضمته إلى صدرها والدموع تنهمر على خديها ؛ ثم أخذت تقبله ، وهي لا تكاد تصدق أن « كوليا » قد عاد إليها ، فكانت تنظر إليه وقد اندفعت إلى رأسها آلاف الأسئلة تريد أن تلقيها كلها قبل أن تسمع جواب الأول منها

— هل أنت في صحة جيدة ؟

— أحقاً أطلقوا سراحك ؟

— إلهي ! هل أنت حي حقاً ؟ !

فنظر إليها في ابتسامة حزينة مضطربة وقال : « لقد كنت يائساً من لقائك يا أماه ! »

— ولكني كنت أذهب إلى المحطة كل يوم إذ لم نستطع أن نفكر فيما حدث لك

— الأمر عادي ؛ لقد سجنت بضعة أشهر في حصن . . .

— وأنقذك الآله ؟ لقد صليت من أجلك يا عزيزي . هل عفوا عنك ؟

— فأجاب كوليا في ابتسامة رقيقة : « لا . ليس عفواً تاماً ، ولكنهم أرسلوني إليك مراقَباً »

— وماذا هم صانعون بك ؟

— إني لا أعرف على وجه التحديد ، ولكني سأدخل الجامعة ثانية في بحر سنتين

— أظنك في حاجة إلى الطعام . إنك ضامر هزيل . انتظر قليلاً فلن أغيب عنك

***

كان كل شيء على ما هو عليه : فالغرف نظيفة مرتبة والستائر مدلاة على النوافذ وشجرة « اللبلاب » لا تزال تغمر الباب بأكاليلها ، ومائدة الطعام ذات الغطاء الأبيض لا تزال قائمة وسط الحجرة . فذكرته هذه بحياته الماضية البعيدة ؛ فالمحبرة كما تركها على المكتب ؛ ومحفظة الأوراق لا تزال عالقة بالحائط ، والأوز يتبختر في فناء المنزل وهو يضم فراخه الصغيرة الصفراء إليه . فابتسم نيكولاس لهذه الأشياء كأنه قد رآها بالأمس

كانت السماء صافية سافرة ، والهواء رخواً ليناً ، فوقف الشاب في إحدى النوافذ يرقب الطيور وهي تهرع إلى أوكارها . فأبصر شبحاً يدب من بعيد يثير المثير بقدميه وعيناه إلى الأرض ، والعصافير تفر من أمامه وهي تشقشق وتتناقر

فاطمأن نيكولاس لهذه المناظر الجميلة المتعددة — منظر الشارع الهادئ القفر والحمائم الطاهرة والطيور المغردة ، والأوز الصارخ الفرح ، والغرف النظيفة المرتبة — وشعر بوحدته وهدوئه ؛ وسرعان ما أدرك أن له حياتين متميزتين متباينتين : إحداهما هناك حيث كان يعيش ، والأخرى هنا بين أحضان والديه . وأن حياته البعيدة أصبحت تلوح له كأنها قصة خيالية قد قرأها في أحد الكتب ، وأن حياته في القرية حياة حقيقية غير متغيرة — كقانون الطبيعة

— أتحب السمك يا عزيزي كوليا ؟

فالتفت كوليا حوله فرأى أمه واقفة وهي تترنح من فرط السرور . وقد شمرت أكمامها استعداداً للعمل . وقال :

— السمك ؟ حسن . إني لا أهتم كثيراً بالأكل

— إذن اطهي لك بعضاً منه . وسرعان ما عادت حاملة طبقاً به سمك ووضعته على المائدة وهي تقول :

أيها العصاة — علام العصيان ؟ ما ذا تريدون ؟

ولكنها لم تنتظر الجواب فلم تكن تريد أن تعرف ما ذا يريدون . بل أسرعت إلى المطبخ لترى الزبدة التي كانت على النار . ثم عادت وهي تقول : « سيأتي والدك الآن ، فلا تغلظ له . قد يغضبك ولكنه لا يحتفظ بغضبه عليك طويلاً . إنه شيخ قد عاش طويلاً ، بينما أنت لا تزال تحبو في الحياة ؛ وليس العمر المجرب الطويل كالسير في المراعي والحقول

— ومتى يعود أبي ؟

— كعادته كل يوم في الساعة الثالثة

— وأين يعمل الآن !

— في نفس المكان الذي كان يعمل فيه — في مناقصات الحرس — ومرتبه كما هو لم يزد . لقد ضعفت أعصابه حتى كادت يده تقف عن الكتابة . فقال نيكولاس وقد غمره الحزن والألم : شيء مرعب ؟

— نعم مرعب ياعزيزي كوليا فقد أصابه شلل كاد يقعده عن العمل . كنا نؤمل أن ... ولكن ماذا ... إنا لا نستطيع أن نعيد الزمن من جديد . كل قبل أن يبرد الطعام . فأخذ نيكولاس يأ كل في تراخ وكسل إذ كان يفكر في حال والديه وينظر إلى أمه كيف ابيض شعرها ويبست يداها واخدودب ظهرها . بينما هي كانت تديم النظر إلى الساعة تترقب عودة ستيبان تتنازعها مشاعر الخوف والفرح ، فقد كانت تتعجل مجيئه ليرى ابنه الوحيد ، ولكنها كانت تخاف أن يخرج الغضب بالأب فيسيء إلى ابنه . فعملت على تهيئة الجو لهذه المفاجأة الغريبة فقالت : « إن والدك يأتي متعباً من العمل ضجراً بالذباب الكثير الذي يضايقه في المكتب ، والطريق الطويل الذي يقطعه على قدميه ؛ فأرجو أن تحتمل غضبه وضيقه

أما نيكولاس فقد كان يفكر في هذه المقابلة يخشى الصدام معه . والحقيقة أنه لم يرد أن يفهم أبداً بأنه كان في الامكان أن يسلك غير ما سلك إذ كان يشعر دائماً أنه على حق ، ولكنه كان لا يزال مضطرباً يضيق بالخجل الذي يفسد عليه حياته ؛ ثم نظر من النافذة فرأى والده يخطو متثاقلاً كما لو كان أحد الأعيان الملحوظين في القرية ، وقد أمسك في يده شمسية ضخمة ، وتأبط محفظة كبيرة

— ماذا يحمل أبي ؟

فأجابته أمه في لطف : إنها محفظة الأوراق التي يحملها دائماً حتى ولو لم يكن فيها شيء ، كذلك الشمسية وإن لم يكن هناك مطر . فلما دنا الرجل من الأوز اندفعت إليه مشرئبة بأعناقها تعض ساقه ، فوقف في مكانه وشمخ برأسه وأشار إليها بأصبعه فانكمشت الأوز وهزت ذيولها وعادت إلى أحواضها . ثم خرج نيكولاس الى الباب ولكن ستيبان لم يسرع في مشيته إذ كان قد علم بمجيئه وهو في مكتبه بل قال وهو يبتسم : أه ! أه ! هل أتيت ؟ ولم يرد أن يظهر فرحه الذي غمر قلبه لذلك الشاب الذي كان يظن أنه عاق مسيء حتى أنه قد رآه في الليلة السابقة في حلم مروع ثقيل كأنه مسوق إلى ساحة الاعدام وقد جاء ليودع والديه ، فتقدم إليه كوليا بوجه شاحب وشفتين مرتجفتين وقال : « يوم سعيد يا أبي ! » فأجابه أبوه : سعيد ياولدي ! ثم عانقه عناقاً قصيراً وسعل سعالاً عالياً . ثم أخذ يسأله عن مجيئه . ثم جاءت ماريا فرأت الأب

يشيح عن ابنه ، فعملت على تخفيف حدة ذلك الموقف فقالت : « احمد الله أيها الأب فقد عاد إلينا ابننا فى صحة جيدة ؛ وهذا كل ما تريد . هيا الى الغداء . هل ضايقك الذباب اليوم ؟

فلم يجب الزوج بل قام الثلاثة الى المائدة ، وأخذ الأب يلقى على ابنه بعض الأسئلة القصيرة المقتضبة فقال :

— وعلى هذا أخرجوك ؟

— نعم

— إذن كنت مجرماً ؟

— نعم

— وتعود إلينا مراقبا ؟

— نعم

— وماذا تريد أن تعمل الآن ؟

— سأستأنف دراستى

— أى إنك تبدأ من جديد ؛ فاذا ما طردت ثانية رجعت الى الأول

— فأجابت الأم : لم هذا الكلام الآن ؟ لكل شىء نهاية

— فقال الأب : حسن ، وستأتى نهايتنا قريبا . ولكن لماذا طردت يا ولدى ؟

لقد اشتركت فى الثورة ؟

— حسن جداً . ولماذا حبسوك ؟

— لا أعرف

— اسمع يا بنى ؛ إنى مضطر أن أقول لك إنى لم أكن أنتظر هذا العمل منك . لقد كنا مضطرين إلى دفع نفقات المدرسة ثمانى سنوات وأجر المدرس الخاص والكتب والملابس ، وكنت أمنى نفسى بأن هذا كله سيرد إلى . ولكن ظهر لى الآن أن ما عملته قد تلاشى كالفحم المحترق

وترى الأم أن الحديث قد أخذ يشتد والجو يكفهر فتحاول أن تلقى بعض الماء على النار المتأججة فتقول : « كل إنسان عنده أولاد ، وهو مضطر الى هذا العمل . ليس هناك ما يسوغ هذا الأحصاء الآن » فأجابها الزوج وهو يسعل سعالاً عالياً : « إنى لا أحصى عليه شيئاً ، فقد قربت نهايتنا ، ولا ننتظر منه شيئاً . لقد عملنا على أن يقف على رجليه . . . ولكن علام التحدث فى هذا وكل إنسان هو الخالق لسعادته » فلم يقو كوليا على سماع باقى الكلام بل ترك أمه تعتب على أبيه وهى تقول : « ما كان ينبغى لك أن تهاجم هذا الشاب بهذه السرعة »

* * *

خرج نيكولاس الى الفضاء يعبث بالأوراق المتساقطة قرب الطريق ويفركها فى يده ثم يغيب فى تفكير عميق وهو واقف أمام ذلك البحر اللانهائى من القمح الأخضر ؛ ثم استولى عليه نوع من اليأس العميق إذ كان كل شىء حوله صامتاً لا يسمع إلا قنابر الحقل تغنى بأصوات مرتعشة متقطعة حتى بدا له أن هذا العالم تافه ثقيل ، وأن أهم مشاكله هى الصحة ؛ فان كانت الصحة جيدة حلت مشكلة الحياة كلها . فيكفى أن تترك قلبك يتأمل هذه الحقول النضرة والأجواء الفسيحة والسحب البيضاء . كل شىء سيكون كما كان من قبل ، وسيأتى الشتاء ويعقبه الصيف ، وستخضر الحقول ثم تغمرها الثلوج ، وستفرد القبرات وستقام الأسواق وستعج القرية بوفود الفلاحين

ثم أخذت القرية تصحو على أصوات الماشية وهى راجعة إلى حظائرها ، فثغاء الشياه وخوار

الثيران كان يختلط بأصوات النساء وهن يصحن على فراخهن لتذهب الى أوكارها ، وأسواط الرعاة تدوى فى الفضاء كأنها طلقات نارية ، ثم امتلأ الجو بسحائب التراب وما لبث الظلام أن لف القرية فى سكون مطبق عميق

***

عاد نيكولاس الى المنزل فاستلق على مقعد كبير فى الحديقة وأخذ يستعيد فى مخيلته صور ما حدث له فى « كيف » وسرعان ما لاحت له صورة تلك الفتاة الغريبة حاملة له اللذة والألم ، فتذكر يوم أن كان يقيم فى سجنه الضيق الثقيل وقد اعتقد أن هذا العالم قد نسيه حتى أمه ووالده ، إذ دخل عليه السجان يقول : « زائر قد جاء إليك ! » فهب نيكولاس واقفا وسار خلف السجان فى ممر طويل مظلم قد فتحت فيه « الزنازين » على أبعاد متساوية نخيل اليه أنها حديقة حيوانات مرقومة الأبواب وخاف كل باب واحد من هذه الحيوانات الضارية

من يكون الزائر ياترى ؟

أيمكن أن تكون أمه ؟ لا ، إنها لاتعلم بسجنه .

قد يكون أحد رفاقه . ولكن كل رفاقه فى السجن أو فى المنفى ، وفوق ذلك فانه لا يسمح بزيارة أحد من رفاقه . إذن لم يأتنى أحد . ثم سأل السجان : من جاءنى ؟

فأوسع السجان الخطو ولم يجب ، فقال نيكولاس : « أمحرم علينا أن نتحدث معكم ؟ قد تكون مخطئاً فى استدعائك إياى

فنظر اليه السجان وقال فى هدوء : خطيبتك ؟

— خطيبة ؟ ثم سكت طويلا وقد شعر أن قلبه يثب بين أضالعه . وأراد أن يضحك عالياً من هذه الكلمة الغريبة . ولكنه تمالك نفسه وسار وهو يفكر فيمن تكون هذه الخطيبة

وأخيراً وصل الى حجرة صغيرة كئيبة اللون لم يكن بها إلا نافذة واحدة قد ثبتت فيها قضبان من النحاس ، فنظر نيكولاس الى هذه النافذة فرأى فتاة فى ثوب بنفسجى بديع ، وقبعة من القش قد زينتها بأزهار الربيع . وقد وقف بجانبها ضابط طويل الشارب تلمع حربته فى الفضاء كلما لوح بها أو انتقل من مكانه

فقالت الفتاة فى ابتسامة رقيقة عذبة : نهارك سعيد . فرد عليها الشاب التحية ، ثم أخذ كل منهما يرمق الآخر ، وعبثا حاول نيكولاس أن يتذكر هذه الفتاة إذا كان قد رآها من قبل . كان وجهها مغطى بقناع خفيف قد ألقت عليه أسلاك النافذة ظلا رقيقا ، فلم يستطع أن يتبين قسمات وجهها فقال لها فى استحياء : أتسمحين أن ترفعى القناع ؟

فرفعت الفتاة القناع فسحرته عيناها ، وعلت وجهه حمرة الخجل

وخفض بصره . لا . لا . إنه لم يرها من قبل

وهنا تنبه الضابط لحديث الشاب ، فكان كلما حركت الفتاة يدها لوح هو بسنانه وسعل سعالاً عاليا يريد أن يفهمها أنه لا يزال يقظا لما يدور بينهما

— لقد نسيت بكل تأكيد حبيبتك (جاليا)

فأجاب نيكولاس فى غموض : لا . ثم ابتسم فجلجلت ضحكة قوية من الفتاة ، وتألقت أسنانها من خلال الأسلاك

فلوح الضابط بسنانه وقال : « هل تلزمان الهدوء قليلا ؟ »

فقالت الفتاة فى حدة : « أحرام علينا أن

نضحك ؟ ولا أن نصرخ ؟ . . . » ثم سألت نيكولاس إن كان يضحك فى سجنه

فأجابها : « إن الانسان هنا لا يحتاج الى الضحك ولا الى الصراخ . أظن أن العالم فى الخارج جميل جداً الآن »

فأخذت جاليا تصف له قدوم الربيع وفيضان الأنهار ومنظر الطيور وتفتح الأزهار ثم قالت : سأحضر اليك بعضا منها المرة القادمة . أتحب البنفسج ؟

— نعم وسأضعها فى زنزانتى وستذكرنى دائما ...... بك

قال هذا بصوت راجف وهو يحدق فى وجه تلك الفتاة . أى وجه جميل هذا ؟

— لا تحزن . سأجىء اليك كل سبت

ثم دقت الساعة اثنتين وانتهى زمن المقابلة . فقال السجان وهو يفتح الباب :

— تفضلى . فقالت الفتاة :

— لا تحزن ! وداعا ! تذكر أنّى ذهبت أن لك أصدقاء

أما نيكولاس فقد تبع السجان وهو مطرق الى الأرض وعيناه تطفران بالدموع ، ولم يكد يصل الى زنزانته حتى أوصدها وراءه وأخذ يغنى فى صوت عال : « هبونى حرية السير . هبونى حرية الحب »

فسمع صوتاً ينهاه عن الغناء والرقص لم يعرف مصدره ، فقد ظن أن الباب يتكلم فأمسك عن الغناء ، وقال :

والحب ! أهو مسموح به هنا ؟

فلم يجبه أحد

وهل يسمح بشعورى هنا ؟

لم يكن هناك من يجيبه

***

قضى نيكولاس ذلك اليوم فرحا مغتبطاً ، وقد نسى أنه مسجون وهو يطوف بزنزانته منشداً كوحش كاسر قد ضاق بقفصه

لقد كان هذا اليوم يوم ميلاده ! !

***

ثم جاء المساء ؛ مساء السبت !

وهناك فى الأفق البعيد أخذت أجراس الكنائس تدق فبعثت فى نفسه الهدوء ، وأيقظت فيه ذكريات الطفولة الحلوة ، ففتح النافذة وأخذ ينظر إلى تلك السماء الصافية ، وقد أخذت الشمس الغاربة تعكس أضواءها على جدران السجن ، والحمائم ترفرف بأجنحتها فى الفضاء ، فأيقظت فى قلبه شجون الذكرى والألم ، وذكرته بالحرية ؛ ثم اشتد عليه الحزن وزادت به الوحدة وشعر بحاجته إلى التحدث إلى نفسه : من تكون جاليا ؟ ثم استبد به الشوق فتناول عصا صغيرة ، وأخذ يخدش بها على جدران الزنزانة :

« النجوم تضىء لامعة فى السماء الزرقاء
ومن خلال النافذة يهب عبيق الربيع
وعلى الأرض النائمة يجمعون عرائس الأحلام
السابحة على أجنحة الفضاء ! »

ولكنه عاد فمحا ما كتبه واستلقى على سريره يفكر فيمن تكون تلك الفتاة الجميلة

قضى نيكولاس الأسبوع كله يترقب يوم السبت ، وقد شعر أنه لن يأتى . لقد عاش من أجله ولم يفكر فى شىء غيره ، لم يهدأ فى نومه إذ كان

يهب مذعوراً وهو يردد اسم السبت . وأخيرا جاء يوم السبت ، وكان يوما مطيراً ؛ ولكن نيكولاس لم يشعر بذلك ، إذ كان قد نسى كل العالم فى ذلك اليوم

فلما أحضروا الغداء صاح : « هل من زائر ؟ » ولكنه لم يتلق جوابا ، فبقى الطعام كما هو ، وبقى هو ينتظر ، وأخيراً جاء السجان بالمشاء يحمل معه باقة من البنفسج قد ذبلت أزهارها ، فارتجف نيكولاس ، وقال وهو يتناولها فى نغمة حزينة يائسة : وزائرى ! !

فابتسم الحارس ومضى

فنظر نيكولاس إلى الأزهار ، فرأى أمامه جاليا تقتطفها وتقدمها إليه فى ابتسامتها المشرقة العذبة فدفن وجهه فيها ، ثم أخذ يتنسم أريجها ويستنشق فيها عطر الربيع وعبيق الحرية ويرضع أوراقها كأنه طفل غرير ؛ ويحنو عليها محاولاً أن يبقى على حياتها بدم شبابه وقلبه ، ولكن هذه الأوراق ما لبثت أن اسودت وتغضنت وماتت ، ولم يبق منها إلا واحدة وضعها بين صحائف كتابه

وإذ هو يفتح هذا الكتاب أبصر تلك الزهرة الذابلة ، فأخذ يفكر فيمن تكون جاليا الفاتنة !

استيقظ نيكولاس عند سماع همس غريب ، فأصغى إليه ، فاذ هو صوت والده يصلى لله ، وقد سمعه يردد فى آخر صلاته : « كذلك ابنى الخاطىء خادمك نيكولاس » ، ثم قام الرجل ونفض عنه التراب ، وجاء إلى ابنه يوقظه ، وهو يقول : « استيقظ . يجب أن تذهب اليوم إلى الشرطة ، وإلا قبض على أنا . عليك أن تمضى ذلك التعهد المكتوب هناك ، ثم تنصرف » ثم فتح الشيخ النافذة ، فمرت بالحجرة نسمة الصباح المنعشة ، وسمع طيور الصباح تغرد على فنن الأشجار ، فاطمأن إلى هذا الهدوء ، وهذا الجمال ، وأغمض عينيه من جديد محاولاً أن يتذكر حلمه الذاهب البعيد فشعر كأن نوراً كنور الصباح المبكر يضىء قلبه المظلم الحزين . آه ! لقد ظهرت له جاليا فى حلمه بملابسها البيضاء وقبعتها المزركشة بأزهار الحقول ، ثم انحنت عليه وهمست فى أذنه قائلة : « استيقظ ! يجب أن تذهب إلى الشرطة ! » ولكن هذا لم يكن همس جاليا بل كان صوت أمه ماريا تذكره بما لم يكن قد نسيه ، فقد أصبحت كلمة « البوليس » تستثيره ككلمة أب . فهب غاضباً وارتدى ملابسه وخرج مشيعاً من أمه بأرق الدعاء وأخلصه ، فقد كانت نفس الكلمة تثير فى قلبها هى أيضاً نوعاً من الألم الغامض الخفى !

* * *

خرج نيكولاس قاصداً مركز الشرطة ، فلم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى هب الناس وقوفا وتهامسوا فيما بينهم أن يريحهم هذا القادم من ألم الانتظار والشكوى . ثم دخل بيتاً مظلماً يريد أن ينقض تفوح منه الرطوبة وتنتشر فيه رائحة الفيران الميتة وقد جلس النساء على الأرض الرطبة المبللة ، ووقف بجانبهن حارس عملاق يفتل شاربه ويغازل صغارهن ، فسأل نيكولاس عن سبب انتظار هؤلاء الناس ، فعلت أصوات متعددة مختلطة : « نحن الشهود أيها الرفيق » ثم سار إلى غرفة الانتظار ، فسمع صخباً وضجيجاً ، فمن صرير الأقلام إلى وقع أقدام الخدم وهم يغدون ويروحون إلى خشخشة الأوراق . وأخيراً أدخل على رئيس البوليس الذى كان جالساً إلى مكتبه منكباً على أكداس من الأوراق ، ولكنه ما لبث أن اعتدل فى كرسيه ونظر إليه

نيكولاس وقال : «حسن . ماذا تريد ؟ إيه . المساواة ؟ إن هذا لا يمكن للشاب أن يناله ! . . . انظر إنك ضامر كالمومیا وأنا بدين كالفيل . فى الناس الذكى والغبى — الفقير والغنى — هذه هى سنة الطبيعة ...

— وأنت ... ؟

— إنى لا أريد شيئاً

— يجب أن تنصرف عن مجالس المهيجين وألا تستمع إلى خطبهم الثورية . إنى لا أحدثك كرئيس للبوليس ولكن كشخص عاش ولديه كثير من الخبرة والتجارب . أتظن أنى لم أحلم بالمساواة ؟ إلهى ! لقد حلمنا بها جميعنا ونحن شبان ولكنا كنا مخطئين . والآن إنك مراقب هنا . يجب أن تكون تحت أنظارنا دائماً . ثم خرج نيكولاس بوجه شاحب ممتقع وجسم مرضوض مجهد وفى عينيه بريق الكراهية وشرر التمرد والثورة

***

أمضى نيكولاس بقية اليوم يتجول على شاطىء النهر حتى جاء الليل فتسلل الى كوخه الصغير الذى أقامه فى حديقة المنزل ، وهناك استلقى على مقعد كبير ووضع يديه على وجهه وأخذ يستمع إلى أصوات الأجراس التى كان يحملها إليه السكون العميق ، ثم لا تلبث أن تذوب فى جوف الفضاء . ولكنه مالبث أن سمع صوتاً ضعيفاً يقول له : « ألم تنم يا عزيزى ؟ » فالتفت نيكولاس الى مصدر الصوت فرأى أمه واقفة بالنافذة وهى تئن وتبكى

— ربك لا تبكى من أجلى يا أماه !

— وكيف الصبر يا ولدى العزيز ؟

فتركها الابن وذهب الى كرسيه واستسلم للبكاء . فأخذت أمه تتلمس باب الكوخ حتى اهتدت إليه وهناك أسندت رأسها الى ظهر ابنها وأخذت تبكى وتنتحب . وأخيراً قال الابن فى صوت راجف حزين : « يجب أن أذهب بعيداً . ماذا أعمل ؟ » إنى لا أعرف . لا أستطيع احتمال أكثر من هذا . لن أذهب ثانية الى البوليس . بل يجب أن أذهب إلى مكان آخر

— ولكن ألا ترحم والدك ؟ إنه يصرخ الآن من الألم . ألا ترحم شيخوخته ؟ اكتب التعهد للبوليس . اعمل ما يطلبه منك والدك

فهجمت الذكريات الأليمة على نيكولاس وصاح :

— لا ، لا ، لن أعمل شيئا . سأذهب الى مكان آخر

— الى أين يا عزيزى كوليا ؟ إن والدك سيضطر أن يجيب عنك

— لا ، لا ، لن أذهب

وفى الصباح وجد نيكولاس ملقى فى مقعده ينام نومة الرجل المجهد الذى فزع من هموم العالم وأعباء الحياة

ووجد بجانبه كتاب وعليه زهرة البنفسج الذابلة .

نظمى خليل

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثاني

الفصل الأول

وعند ما صحوت في اليوم التالي ، رأيتني بلغت من الانحطاط والدناءة ما جعلني كارهاً لنفسي ، فاستهوتني فجأة فكرة مروعة دفعتني من فراشي فهببت وأنا أصيح بالمخلوقة التي قضيت معها ليلي قائلاً لها : ارتدي أثوابك واخرجي حالاً من هذا المكان

وجلست أحدق بالجدران حتى بصرت بأسلحتي المعلقة على الزاوية . . .

عند ما تترامى فكرة متألمة الى أحضان الفناء فتقدم الروح على الكبائر تشعرها الحركة الآلية للتنفيذ بشيء من الرهبة يصطدم بالارادة فيزعزعها . ومن يهاجم الانتحار يستول الذعر على أنامله وتتقاص عضلات يده عند ما يحس بصقيع الحديد . وما أقدم إنسان نحو الموت إلا وأحس باحجام الطبيعة عن مجاراته

يصعب علي الآن إيضاح ما كنت أشعر به وأنا أنتظر فراغ الصبية من ارتداء أثوابها . وكل ما يمكن لبياني أن يؤديه ، هو أنني كنت أسمع القاذف الناري يقول لي : عد الى رشدك لأدراك ما أنت فاعل

ولقد فكرت مراراً في ما كان سيقع لي لو أن الفتاة أسرعت بمغادرة الغرفة كما أمرتها . لا ريب في أنني كنت سأجد سكوني بعد ثورة الخجل التي ساورتني ، فان الحزن شيء واليأس شيء آخر ؛ ولكن الله قد جمع بينهما كيلا يتسلط أحدهما منفرداً دون رفيقه على النفس المتألمة . فقد كان يكفي أن تخلو غرفتي من هذه المرأة ليضعف يأسي ويقوى حزني بالندم ، وللندامة ملاكها المانع الغفران عن قاتلي النفوس . ولو جرت الحوادث على هذا الوجه ، لكنت وجدت الشفاء وأوصدت بابي دون كل فاحشة بعد أن أبقت لي زيارتها الأولى مثل هذا الخجل وهذا الاشمئزاز

ولكن الحوادث اتخذت مجرى آخر

كنت لم أزل جالساً أنتظر خروج الفتاة وفي نفسي مراجل من الكره والخوف والغضب ؛ أما هي فبقيت منهمكة في ترتيب شعرها وتنسيق طيات ثوبها تبتسم لخيالها في المرآة . ومرت ربع ساعة وأنا أتبع شاردات أفكاري حتى نسيت وجود شخص آخر في غرفتي . وبدت من الفتاة حركة أشعرتني بوجودها ، فانتبهت من غفلتي وزجرتها ، فذعرت وقامت تطلب الباب وهي ترسل إلى قبلة الوداع من بعيد . وفي هذه اللحظة قرع جرس الباب الخارجي بشدة ، فنهضت مسارعاً إلى إخفاء الفتاة في غرفة داخلية ما كدت أدفع مزلاجها حتى دخل ديجنه ومعه رفيقان من شبان الجيرة

إن بعض حوادث الحياة تشبه التيارات المندفعة في عباب البحر ، فهي قضاء أو صدفة

أو عناية الهية ، سمها ما شئت ، ولكنها كائنية وما ينفيها التعارض فى معنى كلماتها . على أن جميع من يذكرون قيصر ونابوليون لا يفوتهم أن يصفوا كلاً منهما برجل العناية الآلهية ، فكأنهم يرون الأبطال دون سواهم من الناس يستحقون عناية السماء بهم . ولعل الآلهة فى اعتقادهم كالثيران فى حلبة الصراع لا يستهويها سوى الأوشحة الأرجوانية

إن ما ينتج عن أحقر الحوادث فى هذه الحياة وما تبدل فى مسالكنا أتفه الأمور ، لمعضلة تفتح أعمق المهاوى أمام المفكرين

إن أفعالنا لشبيهة بالسهام الصغيرة التى نتلهى بتفويقها نحو الهدف حاسبين أنها ستتجه طوع اختيارنا ومهارتنا ، ولكن لفحة من الهواء تهب على أحدها فجأة فتحوله عن مجراه وترفعه لتدفع به الى مجاهل الآفاق

إننا نشعر بصدمة مروعة عندما يتضح أن كبرياءنا الواثقة من ذاتها ليست إلا شبحاً يتجلى مهارة وعزماً ...

إن القوة نفسها وهى سيدة العالم التى يقبض الانسان عليها وينتضيها سيفاً يناضل به فى معترك البقاء ، انما هى خاضعة ليد خفية تحولها عن الهدف الذى نرمى اليه ، فاذا جهدنا منطلق كالسيف خلا أمامه مضربه فرمى بحامله الى الحضيض

هكذا بينما كنت أتجه بكل ارادتى الى تطهير نفسى من أدران خطيئتى ، ولعلى كنت أتجه أيضاً الى انزال العقاب بنفسى ، رأيتنى ماثلاً أمام تجربة خطرة قدر على أن أسقط فيها

وكان البشر يطفح من وجه ديجنه ، فانطرح على المقعد وهو يتهكم بما ينم عليه وجهى من اضطراب ومن سهد ، وما كنت فى حالة أحتمل معها المزاح فرجوته بلهجة جافة أن يعفينى من مزاحه ، فما اهتم لقولى بل تناول الموضوع الذى جاء من أجله ؛ وما جاء إلا ليعلمنى أن خليلتى لم تكتف باتخاذ عشيقين فى آن واحد إذ بلغ عشاقها الثلاثة ، وذلك معناه أنها لم تعامل من خدعتنى لأجله بأحسن مما عاملتنى

قال ديجنه : إن مزاحمى لم يتورع من نشر الخبر ، وقد عرفت باريس كلها بخيانة الخليلة له أيضاً ؛ وما أدركت لأول وهلة معنى هذا القول حتى استعدته الحكاية ثلاث مرات ، وإذ فهمتها صعقت ولم أجد سوى الضحك ألجأ إليه حين أيقنت أن من أحببت امرأة ساقطة ، ولكننى وجمت حين قالت لى نفسى بأننى أحببتها بل لم أزل أحبها إلى الآن

وأيد رفيقا ديجنه ما قاله هو ، فعرفت منهما أن خليلتى كانت فى منزلها وقد التقى العاشقان فيه فكان عراك شديد اشتهر أمره حتى اضطرت المرأة إلى مغادرة باريس هرباً من الفضيحة والعار

وما كان ليخفى علىّ ما يصيبنى من كل هذه المهازل ، إذ أصبحت مبارزتى من أجل هذه المرأة وتولهى بها وجميع مافعلته من أجلها سخرية وهزؤا ، وما كان ما توصف به من أحط الصفات وما يفترض من عهرها فوق ما اشتهر منه إلا ليشعرانى بأننى لم أكن إلا واحداً من عديد ممن تناولهم خداع هذه المرأة الساقطة

ولاحظ الشابان امتعاضى فوقفا عن التمادى فى السخرية ؛ غير أن ديجنه لم يقف إذ كان مصمماً على معاملتى معاملة الطبيب يعالج مريضه بقسوة لابد من الأخذ بها ، وكان يرى لنفسه هذا الحق وهو الصديق الحميم الذى محضنى الود وبادلنى الخدمات العديدة ، وقد اعتقد بحسن نيته فما زاده اضطرابى

إلا إيغالا فى الشدة ليقذف بى إلى السبيل الذى يريده لى ، ولكنه ما لبث أن شعر بنفاد صبرى فاختار السكوت ، وما كان سكوته هذا إلا ليزيد من ثورتى فبدأت بدورى أنحرش بزائرى مستفهما وأنا أتمشى ذهاباً وإياباً فى الغرفة متوقعاً سماع التفاصيل عن هذه الحوادث التى صُعقت لها . وكنت أتكلف الابتسام ثم أتظاهر بالسكون ، فما نجحت محاولاتى ، لأن ديجنه تمنع بالصمت فجاءة بعد أن ذهب بثرثرته إلى مدى بعيد ، فكان ينظر إلى بهدوء وأنا أذرع غرفتى بخطواتى كالثعلب أُطبق قفصه عليه

وشعرت بعجزى عن بيان ما كان يدور فى خلدى : أصحيح أن تلك المرأة التى تربعت صنماً معبوداً فى صميم فؤادى والتى ذقت من هجرها الأمرين ، تلك المرأة التى حصرت فيها كل هيامى وأردت أن أبكيها مادمت حياً قد استحالت ما بين ليلة وضحاها فاحشة تلوك اسمها ألسنة الشبان ، مهتوكة تعلن بنفسها فضائحها على ملأ الأشهاد ؟

وكنت وأنا استعرض هذه الأمور بذهنى أحس كأن كاوياً يطبع على كتفى علامة العار . وكلما استغرقت فى التفكير كانت تتكاثف الظلمات حولى فأدير رأسى عن جلسائى وأنا شاعر بابتساماتهم ولحاظهم تنصبُّ علىّ لاستجلاء سريرتى

وكان ديجنه يتبع حركاتى وسكناتى وهو لا يجهل إلى أين يتجه عما يفعل لأنه كان يعرفنى ويعرف أننى أُقدم على كل أمر وأتجاوز كل حد بما فى من اندفاع إلا حداً واحداً وهو الشرف ؛ لذلك كان يقصد أن يصم الآمى بالعار مستعيناً على عواطفى بتفكيرى

ولما رأى أننى وصلت إلى الحد الذى يريد ، صوب آخر سهم من جعبته إلىّ فقال : أفما أعجبتك هذه القصة ؟ إليك الآن بآخر فصل منها وهو مسك الختام ؛ فاعلم ، ياعزيزى أوكتاف أن العراك بين عاشقى خليلتك القديمة إنما وقع فى ليلة مقمرة ، وبينما كان كل منهما يهدد الآخر بقطع عنقه ، لاح فى الشارع خيال يتمشى على مهل وقد عرف أن هذا الشبح لم يكن سواك أنت . .

وصحت به : — ومن قال هذا . . من رآنى فى الشارع ، أنا . . ؟

فقال : هى خليلتك بعينها التى رأتك . . ، وهى نفسها أخبرت بذلك وهى تضحك وتؤكد للناس أنك لم تزل هائماً بها وتقضى الليل كالعسس أمام بابها . أفلا يكفيك أن تعلم أنها تعلن هذه الأمور على ملأ الاشهاد ؟

ما تمكنت يوماً أن أكذب فى حياتى ، وفى كل مرة حاولت أن أُموه الحقيقة يفضحنى وجهى . ولكن هذه المرة شعرت بتسلط الخجل على من إعلان ضعفى ، فقلت فى نفسى : (ما كنت لأقف أمام بابها لو أننى عرفت أنها تدهورت إلى هذا الحد) واجتهدت أن أقنع ذاتى بأنه لم يكن بامكان أحد أن يرانى ويعرفنى ، فحاولت إنكار الواقع ، ولكن الاحمرار علا جبينى فاضحاً أمرى . وحدق ديجنه بى وهو يبتسم فصحت به : — حذار ، يا هذا ، فانك تتجاوز الحد

وذهبت فى الغرفة أذرعها طولاً وعرضاً كمن فقد صوابه ، وحاولت أن أضحك فعصانى الضحك ؛ وأخيراً وجدت نفسى تجاه ستر مهتوك فقلت : — وهل كنت أعلم أن هذه الشقية ...

فانقبضت شفتا ديجنه كأنه يصر على قوله : أفما كان يكفيك ما عرفت ؟ .

وجمت وكان الدم — وقد انقبضت عليه عروق ربع ساعة — يتصاعد إلى صدغىّ نابضاً فيهما فبدأت أكرر القول وأنا لا أعى : — أبينما كنت فى

الشارع غارقاً بدموعى ، كان العراك قائماً بين الماشقين ؟ . . أفى تلك الليلة جرى هذا ؟ .. وقد هزأت بى ! . . لقد سخرت بى ! . هى ؟ .

أما رأيت هذا فى حلم يا ديجنه ؟ أيمكن أن يكون مثل هذا صحيحاً ؟ ...

وكنت وأنا أدفع بهذا الهذيان أشعر بالغضب يساورنى حتى استولت علىَّ هزة عنيفة اضطرتنى إلى القعود ويداى ترتعشان .

وقال ديجنه : — ما لك ولهذه المهزلة تقابلها بالجد ، يا أوكتاف ؟ لقد أرهقتك هذه العزلة منذ ثلاثة أشهر ، والأمر ظاهر ، فأنت بحاجة إلى التسلية . تعال لتناول العشاء سوية وغدا نذهب للتنزه فى الضواحى

وكان يقول هذه الكلمات بلهجة فعلت فى نفسى ما لم تفعله أوجاعى إذ شعرت بأنه يعاملنى معاملة طفل عليل

وبقيت ساكناً أحاول التغلب على ذاتى بمناجاتها قائلاً : — لقد خدعتنى هذه المرأة فجاءت بمدها النصائح السيئة تعلل قلبى ، وما وجدت لى ملجأ لا فى العمل ولا فى ارهاق قواى ؛ ولم يبق لى وأنا فى العشرين من ربيع الحياة ما يقينى التدهور فى القنوط أو الفساد إلا ذخيرة آلامى المريعة أستميذ بها وقد جاءنى الآن من يريد تحطيمها بين يدى . إنهم لا يوجهون الأهانة إلى حبيبى الآن بل إلى يأسى ، لقد أصبحت سخرية وهى نفسها تهزأ بى ... وأنا أبكى

وما كنت لأصدق بوقوع مثل هذه الفرية ، فكان الماضى بأسره يجتاح تذكارى فأرى ليالى غرامنا القديم تمر أمامى كأشباح تتوالى مترامية على شفير جرف لا قرار له غير صخور مظلمة كالعدم وكنت أسمع قهقهة تتجاوب أصداؤها فوق هذه الهاوية السحيقة تهتف هازئة : — هذا هو جزاؤك . . .

لو جاء هؤلاء الصحاب فقالوا : إن الناس يهزأون بك لكنت أجيبهم : ما لى وللناس ؟ ولكنهم جاءوا يقولون إن خليلتك لا زمام لها ولا عهد

إذاً ، لقد اشتهرت الفضيحة وثبتت بشهادتين ما كان يمكن لمؤديها أن يعلنا وجودى على ما كنت عليه دون أن يحدثا بما كانا هما عليه أيضاً ، فماذا أكذب الناس ، وما بوسعى أن أقول لهم ؟ وأين أجد لى ملجأ وقد أصبح قلبى وهو مركز حياتى طللاً متهدماً . وهل لى ما أقول إذا كانت هذه المرأة التى ما كنت لأتردد فى اقتحام أية سخرية وأية ملامة من أجلها واحتمال جبال المصائب تنهار على فى سبيلها ، هذه المرأة التى أحببتها فأحببت سواى فما طالبتها بالنور المنطفىء بل قنعت بأن أقف باكياً أمام بابها لا لشىء الا لألمح فيها وأنا بعيد عنها شبابى المضيّع وقد استحال الى أطياف تذكار ، ولأحفر اسمها دون سواه على لوح قبرٍ دفنتُ فيه جميع آمالى ... هل لى ما أقول إذا كانت هذه المرأة هى نفسها تسخر بى وتهزأ بدموعى ؟ إنها هى نفسها أول من أشار إلى ببنانه قاضياً على بالتشهير أمام من لا عمل لهم إلا الاندفاع فى ميلهم الى الاستهزاء بمن يحتقرهم ...

أجل ، هى نفسها من رمى بالاهانة إلى خارجة من شفتين طالما التصقتا بشفتىّ ومن جسد كان روحاً لحياتى بل دماً من دمى ولحماً من لحمى . وهل من إهانة أفظع من هذه الاهانة وما هى الا قهقهة لا رحمة فيها تصفع الجبين الوجيع برشاش نفثاتها ...

وكنت كلما استغرقت فى آلامى يحتدم غضبى وتضطرم ثورتى ، وما أدرى أيصح أن أصف

ما كنت أشعر به من الغضب ، وكل ما أعرف عنه هو شعورى بعاطفة الانتقام . ولكن أنى لى أن أنتقم من امرأة ؟ . . وأين السلاح الذى يمكن لرجل أن ينال به من امرأة لأشتريه بما عز وهان ؟ أية ضربة أوجهها إليها وأنا أعزل حتى من السلاح الذى رشقتنى بناره ؟ وهل لى أن أنازلها بما نازلتنى به من وقيعة واغتياب ؟

ولاح لى فجأة وراء الباب الزجاجى خيال الفتاة التى كانت لم تزل تنتظر الافراج عنها . وكنت نسيتها تماماً ، فنهضت من مقعدى وصحت بأصحابى : اسمعوا ... لقد أحببت ... ، أحببت كمجنون بل كأحمق فاستحققت كل ما ترشقوننى به من عار ؛ غير أننى سأعرض عليكم الآن ما يثبت لكم أننى لم أعد ذلك الأحمق الذى تتوهمون

ودفعت باب الغرفة الصغيرة برجلى فانكشف مخبأ الفتاة وقد لجأت إلى زاوية لتتقى الانظار

وصحت بديجنه : أدخل ، أنت يا من رآنى مجنوناً لهيامى بامرأة ؛ أنت يا من لا تحب إلا بنات المواخير . . . أفما ترى حكمتك تختال هنا فى هذا الغرفة ؟ سل هذه الحكمة ، سل هذه الفتاة عما إذا كنت قضيت ليلتى كلها تحت نافذة تلك المرأة ، فأنها أخبر من سواها . . . ولكن ليس هذا كل ما أريد أن أقوله ؛ إنك تدعونى إلى تناول العشاء معك هذا المساء وإلى نزهة فى الضواحى غداً ، فأنا أقبل دعوتك ، ولكنك لن تبارحنى منذ الآن ، فلنمضِ النهار سوية ، فأقدم لكم ما تشاؤون من خمر وورق ميسر وأزهار . أنتم لى وأنا لكم ، فلنتعاهد على هذا الشعار ، لقد شئت أن أرفع فى قلبى مزاراً أحنّط به غرامى ولكننى الآن سأنزل هذا الغرام إلى قبر أدفنه فيه ولو اضطررت إلى حفر هذا القبر فى صميم فؤادى

قلت هذا وارتميت على مقعد أنظر إليهم يدخلون الغرفة وأنا أشعر بالمسرة الرائعة التى يشعر بها كل إنسان يفرّج كرب الاحتقار عن نفسه ، وإذا ما خطر لانسان أن يعجب لاتخاذى منهجاً جديداً فى حياتى ، فما ذلك الانسان بمطلع على خفايا القلب البشرى ولا هو يعلم أن المرء أن يقف عشرين سنة على تردده ، وليس له أن يتراجع إذا هو دفع بالخطوة الأولى على أى سبيل

الفصل الثانى

ما أشبه من يصاب بالدوار بمن يتتلمذ للخلاعة والفحشاء ! وما أوائل الدروس إلا رعب تمازجه لذة المشرف مرتجفاً من برج مرتفع على الأعماق

إذا كانت الرذيلة المستترة تنال من نبالة الخلق وتحط من معزة النفس ، فان فى الخلاعة الصريحة التى تقتحم الهواء الطلق شيئاً من كبر الجسارة تراه متجلياً فى أشد الخلعاء فساداً . إن من يسير تحت جنح الليل ساتراً أنفه باردانه ليلطخ حياته متنكراً نافضاً زياء نهاره خلسة ، إنما هو كبعض الايطاليين الذين يرسلون خناجرهم رشقاً إلى ظهر من لا يجرؤون على منازلته . إن فى الزوايا المظلمة وفى التلاقى تحت جنح الليل ما يشبه كمين الأشرار ، فى حين أنك ترى فى مقتحم الدعارة الصاخبة شيئاً من صفات المحاربين ، فتحسب أنك تشاهد عراكاً فى موقعة وتهتف بك الكبرياء قائلاً : إن جميع الناس يفعلون هذا مستترين ، فاهتك الستر أنت وافعل علانية ما يرتكبونه فى الخفاء

وإذا ما ادرع الخليع هذه النجوى ، فانشعاع الشمس لينعكس ملتمعا على درعه

قيل أن ديموكليس كان يحيا وفوق رأسه سيف معلق ؛ وما حال الخلعاء إلا مثل حاله ، فان فوق كل منهم سيفاً يقول : تقدم . . . تقدم أبداً ، فانا معلق بخيط على وشك الانقطاع

وما أرى ما أصور به حياة الخلعاء إلا وصف عجلة يقتعدها فى أعياد المرافع رهط المقنعين ، وهى تخترق الطرق مكشوفة يلعب الهواء بما عليها من مشاعل تنير الوجوه الكلاسة ، وعلى هذه العجلة فئة تغنى وفئة تضحك وبين الفئتين تلوح مخلوقات كأنها نساء ، وما هى فى الواقع إلا بقايا نساء عليهن من الأنسانية آثار عافية . ويا لهن من نساء يلقين بين القبل كل أنواع الاهانات والتحقير ولا يعرف المحتضن لهن هوية ولا اسماً

وكل هذا الرهط تسير به عجلة المساخر مفرقعة تنيرها مشاعل الغاز الملتهب ، وقد تحكم السكر فى الرؤوس فجمد فيها كل تفكير . ولقد يخيل إليك من حين إلى حين أن هنالك ما يشبه الاحتضان والتقبيل ، وإذا تدحرج أحد من هذه العجلة فما يهتم أحد بأمره ، وهل يهتم لشىء من يرى نفسه خارجاً من عدم سائراً إلى عدم ... على هذه الوتيرة تسير خيول العربة خبباً وعر رهط المسافرين

إذا كان الدهش هو أول ما يشعر به المنخرط فى سلك الخلعاء ، فما يشعر به بعد ذلك إنما هو الاشمئزاز يقبض على القلب ليجره جراً إلى الاشفاق .

إن ميدان الخلاعة مجلى للقوة أو بالأحرى مجال لنفاد القوى ، وذلك ما يجتذب الكثيرين من عشاق المجازفة ، فيقدمون الى هذا الميدان ليبذلوا نفوسهم مبددين ما فيهم من قوى ، فهم كالفارس العنيد يمتطى فرساً جموحاً وينطلق غير شاعر بما يملاق من لحمه ومن دمه على أشجار الطريق ولا بالشرر يتطاير من محاجر الذئاب تتبعه فى الأرجاء المقفرة

ولا بالغربان تحوم ناعبة فوق رأسه

لقد سردت الحوادث التى رمت بى إلى هذه الحياة ، فعلى الآن أن أقص ما رأيت فيها :

لأول مرة رأيت فيها المجتمعات التى يدعونها مراقص مقنعة ، كنت سمعت من يقول إن فيها دعارة القصور وإن إحدى ملكات فرنسا تنكرت فيها بزى بائعة أزهار ، ولكننى ما شهدت فى هذه المراقص إلا بائعات أزهار متنكرات بزى خادمات الجنود . كنت أحسب أننى سأجد فيها الدعارة فكذب الواقع حدسى ؛ وما يمكن أن ندعو دعارة هباباً متساقطاً من دخان ، ولا اللكم والصفع ، ولا فتيات سكارى منطرحات كالأموات على ركام الكؤوس المحطمة

لأول مرة رأيت فيها فسق المائدة ، كنت سمعت أحاديث الشراهة فى الولائم وبلغنى اسم فيلسوف يونانى أقام دين الفطرة على لذة الحواس ، فكنت أتوقع أن ألاقى فى هذه الولائم شيئاً من الاستغراق المنسى إذا امتنعت الأفراح الحقيقية فيها فما وجدت إلا أقبح ما فى الحياة : ما وجدت إلا ملالا يحاول أن يتمتع بالعيش ، فكان هنالك قوم يسودهم الخلق الانكليزى يتحدثون عن أعمالهم ويجدون التسلية فى هذا الحديث وهم يقدرون ملذاتهم على ما بذلوا من مال ؛ وعلى هذه الوتيرة تدور عليهم رحى الحياة

لأول مرة رأيت فيها بنات الهوى بعد أن كنت سمعت قصة (اسبازى) يحتضنها (السيبياد) وهو يتناقش مع (سقراط) ؛ كنت أتوقع أن أرى انطلاقا وقحاً فيه شىء من المرح وخفة الروح ؛ كنت أتوقع أن أشاهد ما يغلى ويطفو كحباب الراح المتقدة فما وجدت إلا شفاهاً متراخية وعيوناً جاحظة وأنامل متشنجة

لأول مرة رأيت فيها السيدات المتهتكات . كنت قرأت (بوكاس) و (باندللو) بعد أن طالعت (شكسبير) ، فكنت أتخيل هؤلاء السيدات ملائكة جحيم يواجهن الحياة بالرشاقة والمرح ، وكنت أرسم منهن أشكالا تنم عن الجنون فى الخيال ، وقوة الابداع والقحة بعيون ساحرات تثير برشقة لحظ فاتر أحاديث شجون وغرام . كنت أحسبهن فى الحياة تموجا واهتزازا كالآهات البحار ، وأراهن مرنحات ثملات ، أو منطرحات سكرا من خمرة الحب والهيام . هذا ما كنت أتصور وما كنت أتوقع أن أرى ، فما رأيت إلا محررات رسائل وضاربات مواعيد ، دأبهن إرسال الأكاذيب لرجل مجهول بعد رجل مجهول ، وستر الدنايا بالرياء ، وما يرمين إلا الى هدف واحد : الاستسلام والنسيان

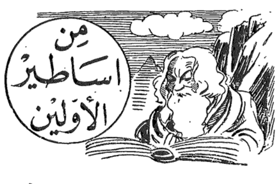
لأول مرة ارتدت فيها أندية الميسر ، وكنت سمعت الأحاديث عن جداول الذهب والثروات بلحظة من الزمان ، وعن سيد من قصر هنرى الرابع ربح بورقة واحدة مائة ألف ريال وهى قيمة ما كان يرتدى من ملابس ، فما رأيت فى هذه الأندية إلا دكان أثواب يستأجر منه العمال المرتدين قميصا ليس لهم سواه ثوبا بعشرين درهماً لتمضية سهرة واحدة ؛ وما رأيت إلا جلاوزة يحرسون باب ناد فيه رهط الجائين يقامرون مجاذفين بطلقة عيار نارى على أدمغتهم مقابل رغيف ...

لأول مرة رأيت فيها مجتمعا للخاصة أوللعامة من ثلاثين ألف بنىّ حاملات اجازة ببيع أعراضهن فى باريس ؛ وكنت سمعت بكل فيالق الفحشاء فى كل زمان من عهد بابل الى أيام روما ، وقد كتبت على أبوابها « اللذة » فما رأيت لا فى هذا الزمان ولا فى الزمان المنصرم إلا كلمة «البغاء» وما حفرت هذه الكلمة على الذهب المتوهج بشعاع الشمس بل على الفضة التى تبدو لعينيك باهتة كأنها مغشاة بكدورة أنوار الليل .

لأول مرة رأيت فيها الشعب ، كان ذلك فى صبيحة المرفع (أربعاء الرماد) عندمنحدر (كورتيل) وكانت السماء قد أمطرت الأرض رذاذاً منذ المساء فأصبحت الأزقة كأنها مزالق أوحال ، وكانت المجلات الحاملة رهط المقنعين تمر متدافعة بلا انتظام بين المتفرجين على جانبى الطريق ، وهم واقفون رجالا ونساء يعرضون أنواعاً من القبح على الرصيفين . وكانت تلمع فى محاجر هؤلاء الناس عيون أعارتها الخمر لونها فبدت فيها نقمة الوحوش الكاسرة . وما كانت صدمات المجلات تنال صدورهم لترجعهم قيد أنملة الى الوراء ، وكنت أنا واقفاً على مقدم إحدى هذه المجلات المكشوفة فكنت أرى من حين الى حين أحد المتفرجين يتقدم نحونا من صفه وهو بأسماله ليوجه إلينا أفظع الشتائم ثم يرمينا بحفنة من الدقيق ويعود أدراجه . وما طال سيرنا حتى بدأ الناس يرشقوننا بكتل من الأوحال فما تراجعنا بل داومنا التقدم نحو جزيرة الغرام وغابة (رومانفيل) موطن العناق والسرور . وسقط أحد أصحابنا عن مقعد المجلة الى بلاط الشارع فهرع الشعب إليه قاصداً تحطيم عظامه ... فترجلنا وأحطنا به لوقايته وكان حامل النفير يتقدم المجلات ممتطيا جواده فرشقه الشعب وقد فرغ ما لديه من الدقيق بحجر خدش كتفه

وما كنت سمعت بمثل هذا من قبل ، فبدأت أتعرف حالة العصر الذى نعيش فيه

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة ما تقدم

« لم يعد أوديسيوس البطل اليونانى فيمن عاد إلى بلاده بعد حرب طروادة ، لأن نبتيون إله البحار كان عدواً لدوداً له فشرده فى البحر — وكانت زوجة البطل من أجمل نساء البلاد فطمع فيها الطامعون كل يريدها زوجة له . فحاصروا منزل أوديسيوس ليرغموها على التزوج من أحدهم . وقد ثارت مينرڤا ربة الحكمة لهذا فبدت للفتى تلياك بن أوديسيوس فى صورة آدمية وجعلت تحرضه على البحث عن أبيه ، فزار لهذا الغرض ملكى پيلوس وأسبارطه ، صديق أبيه ، فأكرما وفادته ، وأخبره الأخير عما علم من أخبار أوديسيوس . وروع العشاق لما علموا ما كان من سفر تلياك فتربصوا له عند إحدى الجزر ليقتلوه فى العودة . أما أوديسيوس فقد انتهى به المطاف فى البحر إلى جزيرة سحيقة تسكنها إحدى عرائس الماء (كاليبسو) التى هويته وشغفها حبه فاحتجزته عندها حتى أرسل كبير الآلهة ولده (هرمز) بالحاح من مينرڤا يأمر عروس الماء أن تعد مركباً لأوديسيوس يعود عليه إلى بلاده . وأبحر المسكين وما زال الموج يلعب به حتى كاد يغرقه نبتيون عند شاطئ جزيرة ملوك البحار — ولكنه نجا ونام منهوكا فى غابة فوق السفح »

نام أوديسيوس منهوك القوى

وذهبت مينرڤا تدبر له أمراً فى شيريا ، بلد السلالة ذوى المجد من أبناء فياشيا — ملوك البحر الذين فروا من وجوه جيرانهم الجبابرة السيكلوپس — فى العصر الخالى ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ، وأقاموا أسواره وتوزعوا أرضه المخصبة ، وأسكنوا الدور والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفاناً وشكراناً

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس . . . ثم استوى على العرش من بعده ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفى السماء

***

كانت الأميرة الحسناء ، نوزيكا ، ابنة ألكينوس الملك ؛ تغط كالملاك فى نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير وثير فى مخدعها الملكى الفاخر

وكان رتاج الباب محكما كأنه رتاج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرڤا ، التى خطرت الى الداخل كنسمة ندية من نسمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضى الجميل ، وكأنما تبدو لها فى المنام فى صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم :

« نوزيكا ! يا ويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تزفى إلى عروسك ، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورواؤك ، ورواء حاشيتك وسائر وصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . انهضى مع الفلق[1] فاذهى بمطارفك إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مرح هذا الشباب الخالى . . . هلمى ! إنى سأعاونك ،

---

(١) الفلق أول ضياء الصبح

أنت يا ساحرة ألباب شباب الفياشيين ! سلى أباك يرسل إليك عربة وبغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدْوةِ النهر حيث لا شاهد ولا رقيب . »

وانفتلت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين ، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا تتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر ... وحيث السماء لازوردية صافية إلى الأبد

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لدنها أميناً من رسل النور يداعب جفني نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لما يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبويها تقص عليهما أنباء ما رأت . وقد ألفت أمها لدى المدفأ مكبة على غزل من صوف أرجوانى موشى بصبغ بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدنها ... ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته ، وكلمته فى العربة ، واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك .. وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف زفافها ... ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ، ومروخ[1]

واستوت مع وصيفاتها فى العربة ، وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ، متدفقاً من نبع قريب . وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على حفافى الماء ، ثم أخذن فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطىء الذى طمه المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتضمخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلغن بلقيمات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنت ابنة الملك أعذب الأغانى ، وتثنت كما تتثنى ديانا فى شعاف الجبال وفى يدها القوس والترس ، وتصيد الخنازير فى أرعانت — ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة ، وابنة لاتونا تتيه[1] عليهن وتدل ... كذا كانت تميس ابنة الملك ، فينكسف لألاؤها جمال الأخريات

وهنا ... شاءت مينرڤا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد الغيداء الهيفاء التى كتب فى الأزل أن تقوده إلى المدينة ؛ ففيما كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هى تعلو وتعلو ، ثم تدوم كما يدوم الطائر ، وتهوى فى العباب المصطخب وسط النهر ...

وصرخ العذارى صرخة داوية ، فانتفض أوديسيوس وهب مذعوراً مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجب !

« ويحى ! أى بنى الموتى قطان هنا ؟ ليت شعرى أشوس عرابيد أم كرام أجاويد ؟ أوه ! إنهن عرائس ماء تفزعن فرجعت الغدير أصداء صراخهن ، وتراقص الحباب فى العباب من جرسهن ، وتثنى الكلأ نشوة فى الوادى ! لأدلف نحوهن فأرى إليهن ... »

وخطر من دغيلته[2] خطر الأسد هاجته العاصفة ، فاتقدت فى عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمأ فاشتدت غلته إلى الدماء ... وذأل[3] نحو العذارى ، فما إن رأينه حتى تفزعن

(١) ما يمسح به الجسم من دهن أو طيب أو غيرها

(١) هى ديانا

(٢) الدغيلة والدغل الشجر الملتف

(٣) ذأل وذألان مشى فى خفة ونشاط

وَوَلّين مذعورات فى الشاطئ ذى النؤى . . . إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها مينرڤا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسوس ولم يدرماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتضرع ، أم يقف عن كثب يستعطف ، ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

« عَمْرك الله أيتها الملكة ! أرَبَّة من الخالدات ، أم حسناء من بنى البشر ؟ أضرع إليك أن تجيبى ! فانك إن كنت ربة ، فما إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولمب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها وقدها المشوق ، وحسنها السّوى ، وجمالها الروى ! أما إن كنت من بنات حواء ، فما أسعد آلك بك ، ولشد ما يزهون بجمالك ! كلما خطرت فى ملعب ، أو بَدَحْتِ[1] فى مرتع ... ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه فى العالم جمال ! ! ألا ما أروع ما تبقين كالنخلة اليانعة فى ديلوس ، عند مذبح أپوللو ، أيتها الأميرة ! ! ألا كم أتمنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابنى من روع ، ويؤودنى من فزع — أنا — ذلك المُعنّى المحزون المشجون ! — أنا — ذلك العيي الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، كشر له عن نابه فى ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوما من جزيرة أوجيجيا ، وسط أنواء ولأواء ، وموج كالجبال حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشطئانكم الحبيبة ! ولست أدرى ما خبأت لى المقادير بعد ! ولكن ، هل ترثى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت فى هذه الأرض بعد طول عنائى ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على — أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناءة وبُلهنية وقران قوى المرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء — دثاراً يسترسوءتى ؟ »

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيماك تدل على نبل ، وسَمْتك ينبىء عن رفعة ! اصطبر على ما ابتلاك به سيد الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء . سأدلك إلى المدينة ، مدينة الفياشيين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومأت الى وصيفاتها وهى تقول : « مكانكن يا عذارى ! فيم فراركن هكذا من إنسىٍّ كريم ؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبّائها ، بلادنا المقدسة ، التى انعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم . إنه غريب ياعذارى ، جواب آفاق ، قذفه البحر الى شاطئنا ، فرحباً به ضيفاً من لدن زيوس ، وأهلاً بوفادته وسهلاً ... هلم إذن يا صُوَيحبات فقدمن له طعاماً وشرابا ، ثم هيّئن له حماماً فى منعرج ظليل عند حفافى النهر »

وأهرع البنات فَقُدن أوديسيوس الى منعرج ذى ظلال وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيأن طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حمامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يعترى أمامهن ، إذ « . . . لشد ما يخجلنى أن أبدو عاريا أمام الخرّد الخفرات ! » . . . وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها عما قال : بينا هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحقويه مما جمد عليهما من ملح اللجة ، وصعد فتضمخ بالطيب الثمين ، ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء الذى منحته إياه نوزيكا ، ومن أعجب العجب أن مينرڤا نفسها كانت تعاونه فى تجميل خَلْقه ، وتربل من شعره الكث

(١) مشية الحسناء

الأشمث تلبداته التي كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى ... ثم هي بعد كل ذلك تضفي عليه أمواها من البهاء تظلل بها صداره ، كأنما هي فلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطىء في رونق وروعة ، حتى إذا لمحته الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها : « تالله ياصويحبات لقد شككت في حال هـذا الرجل أول الأمر ، ولقد حسبته أفاقاً من رعاع الناس ، لولا أنني أثق أن الآلهة لا تسوق الى بلادها الحبيبة هـذا الصنف من البشر ... أما هو الآن ، فاشد ما يشبه أرباب السماء ! أواه ! لوددت أن يكون لي زوج في بهائه وحسن سَمْته ، على أن نبقى آخر الدهر هنا ... هلم ياوصيفات ... قدمن له طعاماً وخمراً »

ومددن أمامه سماطا كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس في أكلته حيياً متأدباً ، يرد عنـه تلك المسغبة الطويلة التي أنهكته وأوهت قوته

ووضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال ، واستوت الأميرة في مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له : « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إني سأرشدك إلى قصر أبي ، حيث تلقاه في جمع من أشراف الفياشيين وسننطلق وسط هذه الحقول ، وإن لي معك من أجل هـذا لكلمة ... لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فُرْضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ؛ ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجواره سوق المدينة المبني من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشراعها ، وحيث تصنع مجاذيفها وأكثر عتادها — لأن الفياشيين لا يعنون بشيء عنايتهم بهذه المنشآت في البحر كالأعلام — والذي أخشاه أن يرانا الناس ثمـة فيستهزئوا بنا ، وقد يسلقونني بألسنة حداد ، قائلين في سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلي الذي يقص أثر الأميرة ابنـة الملك ؟ أي صدفة جمعت شملهما يا ترى ؛ سرعان ما نراها تزف اليه عرساً كاعبا ... قد يكون ضيفا غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلواتها وتسبيحها واحدا من الآلهة أبق من السماء ليقر في حضنها الى الأبد ... الحمد لله الذي من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدي الكثيرة التي تقـدمت اليها من أبناء الفياشيين ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسي لا أعفي من اللائمة فتاة عـذراء تستبيح أن تمشي مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها . . . ولـكن اصغ إلى : إنك واصل حتما الى أبي إذا اتبعت نصيحتي .. بعد قليل سيصل ركبنا الى حرج أشجار الحور المقـدس النامي في تخوم الطريق باسم ربة العـدالة والحكمة مينرفا . . . وإن عنـده لنبعاً يترقرق وسط كلأ وأعشاب . . . . وإن عنـده لحديقة أبي ، الجنة الضحوك المثناف ! قف ثمـة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا في بيت أبي ، فتقدم أنت وادخل المدينة واسأل أيا من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر الـكينوس الملك ، أبي الحبيب ، فانه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر في سمته وأبهته ؛ فاذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قُدُماً حتى تلقى أمي جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمري مكبة على غزلها الصوفي الوشي بأصباغ البحر ، ومن حولها وصيفاتها يعاونها في انجازه — وقريباً منها ترى أبي مستوياً على عرشـه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ... لا تكلمه . . .

سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول
للشاعر الفرنسي موريس رستان
بقلم الأستاذ خليل هنداوي

وأقسى قلباً ! إلى ! فان وجهـك — تحت شعاعي الذي يواريه ظلك — يشبه وجه أوديب ، فكن حذراً

باريس — أنا مثله خاشا ؛ لا أخشاك !

أبو الهول — أدن يا مارسلليوس !

مارسلليوس — أجـد بعض التأثير على قلبي

أبو الهول — سلني إذاً عما تطلب ؛ أنا مصغ إليك !

باريس — نريد أن تعلمنا سرك ؛ وهو أكبر الأسرار في هـذا الطريق ، وهو السر الوحيد في هذا الوجود

أبو الهول — لقد قلت لـكما ...

باريس — يجب أن تنبئنا ...

أبو الهول — كنت إخالك أكثر شجاعة

أبو الهول — ألهذا السر جئتما !

مارسلليوس — وهو الذى جشمنا العناء

أبو الهول — (ويراه الأحدث سناً ، فيلتفت إليه برأفة)

إنك تشبه قيصر الصغير ، إنه ظل ذهب ولم يعد

باريس — لم نأت لهذا ، يجب ألا نحوم حول الهوة التي تريد القاءنا فيها . إن صوتك تارة يتباعد وتارة يصبح بشرى اللجة . إننا لم نأتِ لهـذا ،

بل جاوزه الى أمي الرؤوم ثم سـل حاجتك تقضها لك ، وتُعدك الى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً .. أثر في صميمها عامل الخير والمحبة ، تردك الى آلك وذويك وبلادك .. وسلام عليك »

ثم إنها ألهبت ظهور البغال فانطلقت تعـدو مولية عن النهر الذى صار يبتعد قليلا قليلا .. وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لا تفوت أوديسيوس من ورائها

وكانت الشمس تصبغ بالورس جبين المغرب حينما وصل الركب الى حرش مينرفا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق في السماء نضراً ملتفاً كأنما يناجي ابنة جوف ، المدرّعة بايجيس

وهنا . . . وقف أوديسيوس يصلي لمينرفا :

« يا ابنة جوف القوى المتعالى اسمعي لي ! أصيخي الآن يا ربة ! لقـد تصاممت عنى إذ كانت اللجج تلقفني فراعيني الآن ! اجعلي لي مرفقاً في أمرى ، وهبي لي محبة ورحمة من قلوب أبناء الفياشـيين أنسى بها آلامي . . (آمين آمين !)

ولبت ربة الحـكمة واستجابت لدعائه . بيـد أنها احتراماً لعمها (نبتيون) الذى لا يفتأ يقتفى أثر أوديسيوس ، عدوه الأكبر لم تشأ أن تبدو له

(يتبع) دريني خشبة

وأنت تدري أننا لا نحفل بشأن الملوك الفانين ، والآلهة الغابرين ... نريد سر هذا الكون البعيد . أنت تعرفه ؟ فقل لنا !

أبو الهول — وإذاً ...

باريس — قل لنا على أي حال !

أبو الهول — (بعد لأي) لا ...

باريس — هذه كلمتك الأخيرة ؟

أبو الهول — ما أجمل هـذا التحدى ؟ وإذا كان توقفي عن الكلام ..

باريس — كفاك ..

أبو الهول — وإذا كان من حسنة العالم بالغيب أن يبقى ساكناً ! وإذا كان التراب سيواريكم غداً فلماذا تعيشون ؟ وإذا كان صمتي أسمى ماتعطيه رحمتي

باريس — كفاك كذبا وبهتانا !

أبو الهول — وإذا كان سكوني في الليل أكبر ما يمنحه قلبي الهادىء ؟ وإذا كانت الحياة الخالية من المعرفة خير وسيلة ..

باريس — (بذهول)

كيف تستطيع أن تعرف قلوباً كقلبي . يمكنني أن أحتمل كل شيء !

أبو الهول — إنك تظن ذلك أيها البطل ! « هملت » كان يقلب جمجمة في المقبرة بكفه ولكنه كان لا يدرى الكلمة النهائية حين كان يقلب ! ربما كان في الشك سعادة : فاحفظ ذلك وامض لطيتك !

باريس — لا أريد أن أبرح المكان !

أبو الهول — يا للضحية التاعسة ! ولكني سأصمت ..

باريس — صمتك جريمة

أبو الهول — تقول : جريمة ! دون أن تعرف أي سر أواريه في أثوابي !

باريس — كلما أمعنت في الفرار مني زدت عزماً !

لا سر يعيت الروح المنيرة ! النزوح ! أريد — منك — بياناً أيتها الشعلة التي تهافت على نارها فراشات كثيرة

أبو الهول — أيها الطالب الغرق في سبلي !

هل نظرت — أية درجة بلغ الشحوب في وجهي ؟ تعال وانظر إلى أشعة القمر وانهم ! فالسر الذي أكتمه هل يخلق هذه النشوة التي تودع في هذا الشحوب الذي يزيد تفكيره وتأمله كلما زاد تأمله . تعال انظر على شعاع نارك الذاهله ، أتريد دائماً أن تعرف الأشياء التي أعرفها ؟ هل تريد دائماً أن تغرق في روحي الباعثة على الروع ؟ هل تريد الحقيقة الأكثر يأساً ؟

نعم ! هل تريدها دائماً يا باريس ؟ بعدما رأيتني وعلمت أني أكثر الكائنات يأساً لأني أكثرها خلوداً !

باريس — نعم : أريدها

مارسلليوس — نعم : نريدها ، نريدها

أبو الهول — مع كل ذلك ؟

الاثنان — مع كل ذلك

أبو الهول — لا شيء يستطيع أن يحيا بعد معرفة لغزى ! لا يستطيع ..

الاثنان — تكلم !

باريس — أريد ذلك

مارسلليوس — أريد أيضاً

أبو الهول — لا أستطيع أن أجيبكما معاً !

مارسلليوس — ماذا تقول ؟

أبو الهول — انتخبا أحدكما !

مارسلليوس — باريس ..

أبو الهول — (بعد صمت طويل)

مارسلليوس !..

مارسلليوس — أخى ! لقد اصطفانى الاله الحجرى ...

باريس — ستقول لى ما يحدثك به

مارسلليوس — ولماذا هذا الانتقاء الغريب الذى آثرته ؟

أبو الهول — فى اللحظة التى ستعرف فيها هل تضطرب أحياناً ؟

مارسلليوس — لا أحد منا يخشى ! إن هناك ظمأ شديداً !

باريس — اذهب وليبدأ ! امض يا أخى المحبوب ! يا قطعة من قدرى ! يا خفقة مضطربة من صباحى ! اذهب واقتطف الحقيقة . . . هى لنفسى أيضاً ... الحقيقة

مارسلليوس — (بذهول وغبطة)

يا أخى ، يا قطعة من ذهب ونار ! أليس قلبى قلبك ؟ إننى فى طريق المعرفة ... يا للمساء البهى ! إن هذا يكفر عن المشقة التى تحملناها . سأعرف الكلمة ، كلمة العلم الانسانى

أخى ! يُشبه لى أن كوكباً جديداً سطع فى دمى

سأعلم كل الحقائق العميقة ، فقبلنى قبلة عميقة عنيفة يا أخى الأوحد ! إن رعشة عميقة تتمشى فوق ذوائب النخيل . . . لقد كنت على حق يوم هجرتُ مصنعى وحبيبتى ، وروما وفنونى وليالى الحب

(يرقى ويقف على أبى الهول)

إلهى ! إن قلبى يدق سريعاً ، والصحراء — يخيل إلى — أنها زادت آماداً ... إنى أقدم عليك يا أبا الهول ، وروحى المتيقظة الآن تصعد إليك أيها النور العجيب ! أرقى إليك ... أقبل عليك ... وأسمعك ...

(رقى مارسلليوس إليه ، وكان الليل شاملا . . . ينحنى على فمه ليقول له السر ، وباريس يتأمل جميع حركات هذا اللفيف من الخلود والفناء ، مارسلليوس يصغى ، وتراه يصفر لونه تحت ضوء القمر ، ثم تنطبق عيناه وتنخذل قواه كمن أصيب بصاعقة)

باريس — (ملقياً بنفسه على جثة أخيه)

النجدة ! النجدة ! مارسلليوس ! ليس هذا بحقيقة . أخى لا تغلق هكذا جفنيك ! كلمنى . . . أجبنى ! ها أنا باريس يناديك باكياً ...

(يفكر فجأة أمام الجثة فى الكلمات اللاتينية التى كان يلفظها الفم الحى ويرددها)

إنك ستغدو كمارسلليوس !

(بألم وبكاء)

هل جئت بك من إيطاليا إلى الصحراء ، إلى الموت ، إلى الكآبة ؟

ألا تنفس قليلاً وأجبنى خلاك ذم ! إننى محبك !

أبو الهول — لقد مات إلى الأبد ! أجل ! مات إلى الأبد !

(الليل قاتم الأحشاء ولا نجمة فى السماء . أبو الهول وحده يسمع أنين الباكى)

إنه هجر هذه الأرض ، حيث يهوى كل شىء ، هذه الأرض حيث نطأ تراب قبورنا . انظر إلى السماء التى لا تحد ؛ إن فى منتصف هذه الليلة آلاف الكواكب المروعة كانت ترتجف كأنها عيون متطلعة على مصائبنا . إنها كلمة ؛ بل كلمة بسيطة رُجِّمت فى الليل ، وهذه الظلمة

انتشرت سدولها فى كل مكان . لأن السر الأعظم الذى أواريه تحت نقابى يميت القلوب ، ويطفىء النجوم

باريس — لتسممنى سماء خامدة النور !

أبو الهول — لن يصعد شهيقك إلى السماء !

باريس — اصمت ! اصمت أيها المارد المرعب ؟

أبو الهول — لقد بدلت لهجتك ...

باريس — لهذا الأمر أعجبك هذا الفتى ...

أبو الهول — كل من أفشيت لهم سرى الحقيقى هلكوا دون أن يفوهوا بلفظة . . . وهذا واحد منهم

باريس — اصمت ...

أبو الهول — ليس فى هذا المنظر شىء عندى ! ولقد أضحك أمام ميت !

باريس — وميتان يزيدان إعجابك ، إذا لا مرية فيه ، لأنك ستكلمنى بدورى ! بهذا الجسد المتمزق وهاتين العينين الهامدتين ألا ما تكلمت وحدثتنى ! لأنى مصر على ذلك . فان قلبه الهالك لأكثر معرفة من فؤادى الحى . وعيناه المغمضتان المحدقتان قد ملأتهما اللانهاية

(يرقى باريس إلى التمثال كما صنع مارسلليوس ، وفى هذه اللحظة توافيه إيزابيلا وتصعد برداء أبيض شفاف)

المشهد الرابع

باريس ، مارسيللوس (طريحاً على قدمى أبى الهول) ، أبو الهول ، إيزابيلا

إيزابيلا — (بصيحة شديدة)

باريس ! لا تصغ إليه !

باريس — إيزابيلا !

إيزابيلا — حنانيك ! لقد وجدت آثارك على الرمال المتقلبة !

لقد هلك مارسيلليوس — أتريد رجلاً آخر يهلك بعده ؟

تعالى إلىَّ ! وفر من هذا المكان الذى يهيمن عليه الموت ، واهرب من هذا السر القاتل ! وانج من هذا الموت الذى يخرج من قلبه . . . إنى سأحمل إليك الفرار — يا حبيبى باريس !

أبو الهول — (بصوت ليس أعذب)

إنه لن يصغى إليك وان يسمع نجواك ! هو لى ، ولا شىء يستطيع أن يستنقذه منى

إيزابيلا — ألم أكن جميلة بمقدار ؟ ألم أكن رقيقة وحنوناً ؟

باريس — (مبتعداً عن أبى الهول قليلا قليلا)

إيزابيلا !

أبو الهول — أما تشاء أن تعرف سرى ؟ أغلب عليك الوجل ؟ أراك أصبحت شاحب اللون باهت الوجه ! لقد رن صوت ملتهب هادماً السحر الذى ربط قلبينا . . . اذهب أيها الهيوب الخاشى ميتة مثل ميتة أخيه

باريس — (إيزابيلا تتعلق به)

لا لا ! دعينى . . .

إيزابيلا — باريس

باريس — أود أن أعلم . . .

أبو الهول — إذهب أيها الهالك ، واضرب لمشيقتك موعدا فى مساء

إيزابيلا — لدى من القبلات الحية التى تبعثها المحبة الملتهبة !

أبو الهول — ولى — فى الليل — صوتى الرنان ذو الأسرار

إيزابيلا — اذكر سعادتك ، والأيام التى قضيتها فى حبى !

أبو الهول — إنى أعرف قبلة لا تنتهى أبداً

باريس — لا لا . . . أريد أن أعلم !

(يعود إلى أبى الهول)

إيزابيلا — (متوسلة إلى أبى الهول)

آه يا ملك الرمال ! كن أكثر إشفاقاً على منه .

ألا تبصر — إزاءك — امرأة تبقى البقاء طيلة هذا الخلود الشاع البارد ! لا أملك إلا هـذه اللحظة الانسانية التى تصرمنى ... فالقرون — لديك — تتراكم تائهة حائرة . يمضى فريق ويعود فريق ! أفنى هـذه القرون إذا كان فمك الخالد لا يمنح إلا الموت للحب الذى يناديه !

أما هذا فلا تذقه الردى — إنك إن تفعـل تقض على معه غداً — لا أملك من الزمان إلا عمر حبه ، هو إيمانى الذى أعتقد ، وحياتى ، وكوكبى الصاعد ، الحياة خالية إلا به ... إنك إن تقتله ...

أبو الهول — (لباريس)

اصعد . . .

ايزابيلا — إنك لن تغمض هذه العـين التى أعبدها !

إنك

أبو الهول — لقد كنت أتردد فى أمرك ... قد انتهى كل شىء ... سأ كلمك !

(يرقى باريس كارسيللوس ويودعه سره)

باريس — (وهو يسمع كلماته)

إننى أسمع ... أسمع . . وبعد . وبعد . وبعد . وبعد !

(عاد الى إيزابيلا الشاحبة ، وهو يكاد يسقط على الأرض كارسيللوس)

إلـهى ... إننى مائت لا محالة !

(شاحب اللون ، كأنه يرتقب أجله . لـكنه فجأة يفهم أنه لا يزال حيا ، وبصيحة الظفر) :

إنى أحيا ...

أبو الهول — (بتعجب)

ولمـاذا لم تمت ؟ وبأى حق تظل فى الحياة ؟

باريس — أنا حى ...

أبو الهول — لا يعيش من يعرف سرى !

باريس — أنا حى ...

أبو الهول — أتحيا عارفاً الـكلمة التى تهتز لها قمتى ؟ لا يقدر أحد على ذلك !

باريس — أنا أول من يقدر !

أبو الهول — لن تقـدر ! وما قدر أحد على ذلك . الـكل يجهلون سرى ...

باريس — عرفت سرك ولا أزال أحيا . . . نعم ! لا أزال أتنفس وأحيا ! وأنت أيها الحبيب الضعيف العزم لأنك لم تستطع أن تطبق عينيك على السر ؟ يا رفيق صباى ، نم هادئا قرير النفس ! إنى سأنجز وعدى ، وسأعود الى ابداعى الأول ، فالعمل وحده يذهل عن الألم الـكبير . ومن أجلك أيها الوجه الشاحب ، سأجعـل جوابى على سر الموت قطعة تتدفق فيها الحياة . وهكذا تظل حياً فى آثارى وابتـكارى . .

(يقترب من جثة مارسيللوس وبرقة زائدة وحنان عميق مؤثر حمله وألقت ايزابيلا موشحها على وجهه الشاحب وقبل أن يبتعد أجهش بالبكاء ، وودع أبا الهول) :

— وداعاً

(باريس يتوارى وخلفه إيزابيلا ، وبعـد لحظة يظهر أبو الهول ، يقهقه ضاحكا قائلا بنفسه) :

— لم أقل الحقيقة إلا لمارسيللوس !

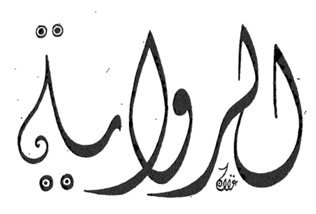
الستار

خليل هنداوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



طبعت بالمطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش رقم ٣٥ — تليفون ٥١٥٢٢



تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد التاسع ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ١ يونيه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد



فى النــاس من يولد ومعه غريزة متسلطة ، فلا يكاد يبلغ حد التفكير والتعبير حتى تتحرك فى شعوره وتصرخ فى دمه . فالسيد سكرمنت لم يجل فى ذهنه منذ طراءة سنه إلا فكرة واحدة : هى أن يكون موسوماً ، أو حامل وسام . فكان وهو فى حداثته يحمل وساماً من الزنك كما يلبس الأطفال قبعات الجنود ، ثم يقدم يده فى عظمة وزهو إلى معونة أمه فى الطريق وقد رفع صدره الصغير المزدان بالشريط الأحمر والنجمة المعدنية . وبعد أن درس دراسة سقيمة عقيمة فشل فى امتحان البكالوريا . ثم التاث عليه أمره ولم يدر ما يصنع ، فتوسل بغناه إلى أن تزوج من فتاة جميلة . ثم عاش هو وهى فى باريس عيش السراة من الحضر يلابسان عالمهما ويعتزلان عالم الناس ، ويلهجان بصداقة ضابطين من ضباط الفرق ، ويفخران بمعرفة عضو من أعضاء مجلس النواب يمكن أن يصير يوماً ما وزيراً . ولكن الفكرة التى سكنت رأس السيد سكرمنت منذ أيامه الأولى لم تزل حديث أمانيه وبلبال صدره ؛ فهو لا ينفك فريسة للألم الملح لأنه لا يملك الحق فى أن يحمل على ردنجوته ذلك الشريط الصغير الملون . وكان منظر الموسومين (Décorés) الذين يلقاهم فى الشارع الأكبر يلوع فؤاده ويوقد صدره ؛ فهو ينظر إليهم عن عُرض نظر الحسد والحنق . وربما قضى أعصار أيام العطلة الطويلة يعد هؤلاء واحداً بعد واحد ، ثم يقول لنفسه : « ما أكثر من لقيت منهم بين شارع المادلين وشارع درو ! »

كان يمشى وئيد الخطى يفحص ملابس الناس بعينين قد مرنتا على تمييز تلك النقط الحمراء من بُعد ، حتى إذا بلغ الغاية من نزهته كان عجبه من عدد الموسومين قد بلغ الغاية من نفسه : « ثمانية أوسمة من رتبة ضابط ، وتسعة عشر وساما من رتبة فارس . ذلك كثير ! وإن من السفه أن تبذر الحكومة هذا التبذير فى الأوسمة على هذه الصورة . تأمل فظاعة الحال إذا لقيت مثل هذا العدد فى الرجعة ! » ثم يعود أدراجه وهو يهوِّد فى مشيه ؛ فاذا شغلته زحمة الناس عن الفحص فأذهلته عن واحد من الموسومين هاج هائجه وانتفخ سَحره

كان يعرف الأحياء التى يكثر فيها أولو الأوسمة ؛ فهم كثار العدد فى شارع (باليه رويال) ؛ وعددهم فى شارع الأوبرا أقل منه فى شارع (دلابيه) ؛ وهم على يمين (البلفار) أكثر منهم على يسراه . ثم هم يفضلون بعض المقاهى والملاهى على بعض . وكلما رأى السيد سكرمنت شرذمة من ذوى الشعور البيض يقفون على طوار الشارع

فيربكون المرور ، قال لنفسه : « هاك ضباطاً من وسام جوقة الشرف ! » ثم تملكه الرغبة فى أن يتقدم إليهم فيسلم عليهم

ثم لاحظ أن لضباط هذا الوسام مشية تختلف عن مشية فرسانه ، وأن أوضاع هاماتهم على عواتقهم تختلف فيهم عنها فى الناس ، لأنهم يشعرون أن لهم باسم الحكومة اعتباراً أعلى وخطراً أجل . ثم تأخذه فى بعض الأحيان سورة من الغضب الاشتراكى الحاقد على الموسومين . ثم يرجع إلى منزله وقد هيجت رغبته رؤية الأوسمة ، كما تهيج رؤية الأطعمة شهوة الجائع ، فيقول فى صوت قوى : « متى نتخلص من هذه الحكومة القذرة ؟ » فتسأله زوجته وقد فجأها هذا التصريح : ماذا بك اليوم ؟ فيجيبها : « إن ما بى هو السخط على الجور الذى يقترف فى كل مكان . لعمرى إن الشيوعيين على حق ! »

عاد بعد الغداء فخرج ، وأخذ يتأمل معارض الأوسمة فى بيوتها ويتوسم علاءها المختلفة الأشكال والألوان ، فود لو أنه ملكها جماء ، وأنه أصبح على رأس موكب فخم فى صدر قاعة حاشدة ، تتلألأ على صدره هذه الأوسمة ، وقد رُكبت أنواطها المفوفة واحداً فوق واحد على حسب درجاتها المتفاوتة ، ثم يمشى مشية النافج الوقور وهو يتوهج توهج الشمس فى لجب من همس الاعجاب وهتاف التجلة

ولكنه وا أسفاه لا يملك لقباً من الألقاب يخوله الحق فى وسام من الأوسمة : إن وسام اللجيون دونور ، أو جوقة الشرف (كما قال لنفسه) بعيد المنال عن رجل لا يؤدى وظيفة عامة . فهلا يحاول أن ينال درجة من درجات الأكاديمية ؟ ولكنه لا يعرف السبيل إلى ذلك فتحدث به إلى امرأته ؛ فقالت له فى عجب ودهشة : « درجة من درجات الأكاديمية ؟! وماذا فعلت حتى تبلغ ذلك ؟ فأجابها فى حدة وغضب : « إفهمى ما أريد . إنى أبحث فيما ينبغى أن أعمل . إنك غبية فى بعض حالاتك » فابتسمت الزوجة الحسناء وقالت : صحيح ! إنك على حق ، ولكنى لا أعرف أنا ماذا ينبغى ! » فسنحت للرجل فكرة فقال : « لعلك إذا كلمت النائب (روسلين) فى هذا الموضوع ظفرت منه بنصيحة ثمينة . أما كما تعلمين لا أجرؤ على أن أبدأه بهذا الحديث . ذلك شىء دقيق محرج ؛ فاذا صدر عنك كان طبيعياً لا حرج فيه

نزلت السيدة سكرمنت على مقترح زوجها ، وذهبت إلى النائب روسلين فوعدها أن يكلم الوزير . ولما احتثه السيد سكرمنت قال له النائب : لا بد أن يقدم طلباً يسرد فيه شهاداته ودرجاته . شهاداته ودرجاته ؟ ؟ إنه لم يحمل من ذلك شيئاً حتى البكالوريا . على أنه مع ذلك عكف على العمل وشرع يؤلف رسالة عنوانها : (حق الشعب فى التعلم) ، ولكن الأفكار لم تواته فعجز عن إتمامها . ثم أخذ يبحث عن موضوع أسهل منالاً وأقرب مصدراً ؛ فجرى على باله هذه الموضوعات متعاقبة : « تعليم الأطفال بالنظر » ويريد بذلك أن يُنشأ فى كل حى من الأحياء الفقيرة مسارح بالمجان للأطفال يحشرهم فيها والدوهم فيتلقون بها مبادىء المعارف البشرية عن طريق الفوانيس السحرية . تلك دروس حقيقية يعلم النظر فيها المخ ، فتبقى الصور منقوشة على لوح الذاكرة ، ويصبح العلم منظوراً بهذه الطريقة . ولا تجد أسهل منها فى تعليم التاريخ العام ، والجغرافيا ، والتاريخ الطبيعى ، وعلوم النبات

والحيوان والتشريح الخ . ثم طبع هذه المذكرة وأرسل منها نسخة إلى كل نائب ، وعشرا إلى كل وزير ، وخمسين إلى رئيس الجمهورية ؛ ثم بعث إلى كل صحيفـــة باريزية بعشر ، وإلى كل صحيفة إقليمية بخمس

ثم عالج موضوع المكتبات المتنقلة فاقترح أن تسيّر الحكومة فى الشوارع عربات صغيرة كعربات البرتقال موقرة بأشتات الكتب ، وتجعل لكل ساكن فى كل حى حقا فى استئجار عشرة كتب فى الشهر بصنتيم . وحجته فى ذلك أن الشعب لا يشغل باله ولا ينفق ماله إلا فى اللهو ؛ وما دام الرجل لا يذهب إلى التعليم فليذهب التعليم إليه

على أن هـذه الأبحاث لم يعبأ بها لسان ولم يعج بها فكر ؛ ولكنه مع ذلك قدم طلبه ، فأجابوه بأنهم علموه ورقموه ، فلم يبق لديه شك فى الفوز . وانتظر ثم انتظر ، فلم يرد على انتظاره شىء . فعقد النية على أن يسعى للأمر بنفسه ، فطلب الاذن على وزير المعارف ، فاستقبله فى مكتب الوزير موظف حديث السن ولكنه رصين المظهر ، تمر أنامله على نضد من الأزرار الكهربائية كما تمر يد العازف على مضرب البيان ، فيدعو الحجاب والغلمان والكتبة ؛ فأكد له هذا الموظف أن مسألته تسير قُدُماً فى طريقها الواصل وأشار عليه أن يستمر فى أبحاثه الخطيرة . فانتصح السيد سكرمنت وحسر عن يده للعمل

أصبح النائب روسلين يهتم أشد الاهتمام بفوز سكرمنت ويتحرى له ما استطاع الوجوه العملية والنصائح الحكيمة . وهو نفسه قد ظفر بوسام لا يدرى أحد الى اليوم الأسباب التى أهلته لهذا التميز . اقترح على السيد سكرمنت دراسات جديدة ، وقدمه الى بعض الجماعات العلميـة التى تعالج على الأخص مسائل العلم الغامضة ، رجاة أن يدرك من ورائها بعض الشرف ، ثم أوصى به رجال الوزارة

وفى ذات يوم كان النائب المحترم يتغـدى عند صديقه السيد سكرمنت (فقد دأب منذ شهور على أن يأكل عنـده) فقال له فى صوت خافت وهو يصافحه : « لقد ظفرت لك اليوم بنعمة كبيرة : حملت لجنة الأعمال التاريخية على أن تكلفك خدمة ، فناطت بك أن تقوم ببعض الأبحاث فى مكتبات فرنسا المختلفة »

لم يكد السيد سكرمنت يسمع هذا الخبر حتى استرخت قواه فلم يستطع أن يأكل ولا أن يشرب . ولم يمر على هـذا الحديث أسبوع حتى كان الرجل يضرب فى مدن فرنسا ، يزور المكاتب ، ويتصفح الفهارس ، ويقلب المخطوطات . وبلغ به المطاف مدينة (روان) فحدثته نفسه أن يركب إلى باريس ليرى زوجته ، فقد مضى على مفارقته إياها أسبوع

ركب قطار الساعة التاسعة فبلغ منزله منتصف الليل . وكان لديه مفتاح البيت ، فدخل وهو ساكت الصوت صامت الخطى ، يرجف من السرور ويتساف لذة المفاجأة .

كانت امرأته محبوسة فى غرفتها فيا للسأم ! !

نادى الزوج زوجه من وراء الباب : « ياجان ! يا جان ! إنه أنا ! »

لاشك أن جان قد فزعت ورِيعت ، لأنه سمعها تثب من فوق السرير ، وتتحدث وحدها كما يتحدث النائم فى الحلم ؛ ثم أسرعت إلى مقصورة زينتها ففتحتها ثم أغلقتها ، وجالت فى الغرفة مراراً حافية القدمين سريعة الخطى ، فصدمت بعض الأثاث

فصوّت ما عليه من أكواب وقوارير وتحف .
وأخيراً قالت تسأل : « أهو أنت يا إسكندر ؟ »
فأجابها إسكندر : نعم إنه أنا : افتحى إذن .
فتح الباب وألقت زوجه قلبها على قلبه وهى تقول مغمغمة : « أوه ! يا للرعب ! يا للمفاجأة ! يا للفرح ! ثم أخذ الزوج ينضو ثيابه على أسلوب علمى مرتب ، شأنه فى كل شىء ؛ ووجد معطفه على كرسى فتناوله ليعلقه على مشجب الدهليز على عادته ، ولكنه وقف بغتة وقفة الذاهل المشدوه ، لأنه رأى فى عروته شريطا أحمر ! وأقبل على امرأته يجمجم ولا يكاد يبين :
« ه ... ها ... هذا المعطف موسوم ! »
حينئذ قفزت امرأته قفزة فكانت فوقه ، وأخذت بيديها المعطف وقالت : « كلا ! إنك واهم ... أعطنى إياه » . ولكنه ظل ممسكا بأحد ردنيه لا يرسله ، وقال فى جنون وحدة : « هيه ! لماذا ؟ أخبرينى ... لمن هذا المعطف ؟ إنه ليس معطفى لأنه يحمل وسام اللجيون دونور . » فجهدت المرأة كل الجهد أن تنزع المعطف من يديه وهى مستطارة اللب تدمدم بهذا الكلام : « اسمع ! اسمع ... أعطنى إياه ... لا أستطيع أن أبوح لك بشىء ... هذا سر ... اسمع ... » فتكدر الرجل وانكفأ لونه وقال : « أريد أن أعرف كيف كان هذا المعطف هنا . إنه ليس معطفى » وصاحت المرأة فى وجهه قائلة : « بلى . اسكت . أقسم لى ... اسمع ... لقد أنعم عليك بوسام ... » فاعترت الرجل هزة من التأثر تفككت لها جسمه فأرسل المعطف من يده وذهب فارتمى على مقعد
— تقولين ... إنى ... إنى ... أنا ... موسوم ؟
— نعم ... وإنه لسر ... سر عظيم !
ومضت بالمعطف الجديد فغيبته فى خزانة الثياب ثم أقبلت على زوجها تقول وهى مضطربة شاحبة :
« هذا معطف جديد استصنعته لك . وقد أقسمت لا أفضى إليك بشىء . إن ذلك الانعام لا ينشر رسمياً قبل شهر أو ستة أسابيع . يجب أن تتم العمل الذى كلفت به ، ولا ينبغى أن تعرف الخبر إلا بعد رجوعك . إن النائب روسلين هو الذى طلب لك هذا الانعام »
فاسترخت مفاصل السيد سكرمنت وقال فى غمغمة : « روسلين الموسوم . . . وسعى بهذا الوسام ... أنا ... هو ... آه ! » واضطر المسكين أن يشرب كوبا من الماء ...
وكانت على الأرض ورقة صغيرة بيضاء قد سقطت من جيب المعطف ، فالتقطها السيد سكرمنت ونظر فاذا هى بطاقة قرأ عليها : روسلين . عضو مجلس النواب »
فقالت له امرأته :
« أرأيت ؟ لعلك تصدق ! »
فشهق الرجل من السرور وأخذ يبكى من الفرح
ولم تمض ثمانية أيام حتى نشرت الجريدة الرسمية أن السيد سكرمنت قد أنعم عليه بوسام اللجيون دونور من درجة فارس مكافأة له على خدمات استثنائية (الزيات)

المباراة القصصية

طلب إلينا كثير من الكتاب أن نمد فى أجل المباراة فى الأقصوصة لوقوع الأجل الأول فى أزمة الامتحانات . فنزولا على إرادتهم مددنا الأجل إلى آخر يونيه

من غير عنوان

للقصصي الروسي تشيكوف
بقلم الأديب محمود البدوي

كانت الشمس في القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هي اليوم . وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار الكرى ، وتشيع في الدنيا البهجة ، وتحلو الأماني ، وتعود الأرض في المساء إلى سكونها ، ثم تغوص في غياهب الليل . وقد ترى أحياناً سحابة راعدة تلوح ، ويقصف الرعد وهو يزمجر ، أو تهوى نجمة من شاهق وهي وسنى ، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمراً قريباً من الدير . كان هذا كل شيء ؛ ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام ، والليالي تحاكي الليالي

كان الرهبان يصلون ويعملون : أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن ، ويقرض الشعر اللاتيني ، ويؤلف النغم الموسيقي . وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة . فهو يعزف على الأرغن ببراعة ، حتى أن معظم الرهبان الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته . وعندما يتكلم ولو عن الشئون العامة كالشجر الوريف والوحوش الضارية والبحر الخضم ، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دمعة تترقرق في عينيه ، أو بسمة ترتسم على شفتيه . فيخيل إليك أن الأنغام التي تتجاوب في الأرغن هي بعينها التي تختلج في نفسه . وحينما يهيجه غيظ متمكن ، أو يأسره فرح شديد ، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذه نشوة قوية ، ويتسايل الدمع من عينه اللامعة ، وتضرب وجهه الحمرة ، ويدوي صوته كالرعد . هنا يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهم تذيبها عظمته وأنها تفنى فيه . لقد كانت قوته في هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد ، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بأنفسهم في البحر لاستبقوا إليه مسرعين

كان موسيقاه وصوته وشعره الذي يبتهل به الى الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب . ففي مدة حياتهم الرتيبة تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملة ، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر ، ويصبح شدو الطير مملول النغم موزون الجرس . ولكن سجايا رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحيي والقوة المجددة

كرت السنون وما زالت الأيام تشابه الأيام ، والليالي تحاكي الليالي ، وما دنا من الدير أحد ، اللهم إلا ضواري الوحش وجوارح الطير . وكانت أقرب المساكن الانسانية بعيداً جداً . ولا تصل إليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل

والذين يجرؤون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يحملون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً ، والذين نبذوها وراءهم ظهريا ونفضوا أيديهم منها جملة . يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون إلى القبر

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم في ليلة من الليالي رجل برهن لهم على أنه من

سكان المدينة ؛ وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للأثم وحبا للحياة . وقبل أن يصلي أو يرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاماً ونبيذا

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة صيد طويلة : خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق ، وعند ما أشاروا إليه أن من الواجب عليه أن يمسى راهباً أجابهم فى ابتسام :

« لست لكم بصاحب ! »

شرب وأكل ملء بطنه ، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائماً وقال :

« إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئاً ، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم . هل هذه هى الطريقة لخلاص أرواحكم ! فكروا الآن ! بينما أنتم تعيشون فى هدوء هنا ، تأكلون وتشربون وتحلمون بالخيرات والبركات إذا باخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم . انظروا ما الذى يحدث فى المدينة ! بينما بعض ناس يموتون جوعاً ، إذابالآخرين لا يعرفون كيف يبذرون الذهب . ينغمسون فى الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب فى العسل ؛ ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس . من الذى يجب عليه انتشالهم مما هم فيه ؟ أأنا الذى أروح صريع الكأس من الصباح إلى المساء ؟ هل أنعم الله عليكم بالاخلاص ومن عليكم بالحب وحباكم القلوب الرحيمة ، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئاً ؟ ! »

وكان كلام الرجل السكير ينطوى على الجرأة والقحة ولكنه أثر تأثيراً غريباً فى رئيس الدير ، فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب : « إخوانى ! إنه لمحق . فصحيح أن الحماقة والضعف البشرى جرفا الأنسانية التعسة فى تيار الجحود والاثم فأهلكاها وقضيا عليها . وها نحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأنه لا عمل لنا ولا واجب علينا . لماذا لا أذهب إليهم فأذكرهم بالمسيح الذى نسوه ؟ »

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، ففى اليوم التالى أمسك بعكازه وودع إخوانه وركب الطريق إلى المدينة ، فأمسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه

ترقبوه شهرا ثم شهرين فما عاد ؛ وأخيراً فى نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف فخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالأسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم فى حبورهم بكى بكاء مراً وما نبس ببنت شفة . رأى الرهبان أنه أصبح نحيلا ، وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء ؛ وسألوه عما يبكيه ، فما أجابهم بكلمة ، وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث فى صومعته خمسة أيام ما شرب فيها شراباً ولا طعم طعاما ولا عزف على الأرغن . ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه فى الخروج ليشاركوه فى أساه كان جوابه الصمت العميق

خرج من معتكفه أخيراً وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور

الثلاثة التى خلت والدمع ينضح وجهه والألم يأكل قلبه ؛ ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة . غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق ، وجاش صدره بالأمانى الحلوة والآمال المعسولة . شعر بأنه جندى يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول إلى النصر المحقق . سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد ؛ وسرعان ما وجد نفسه فى نهاية الرحلة . على أن عينه أومضت باللهب ، ونفسه جاشت بالغضب ، وصوته ارتعش عند ما بدأ يحدثهم عن المدينة والانسانية . ماكان رأى ولا تخيل قبل اليوم كل الذى رآه وأحصاه وهو فى قلب المدينة . رأى وفهم لأول مرة فى حياته سلطان ابليس وسيادة الجور وضعف القلب الانسانى الخاوى . هنا خمسون أو ستون رجلاً جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد ، أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط ، وينوهون فى شجاعة بأشياء جارحة لايجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن يشير إليها . فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت . يقولون ويفعلون ما يشاءون ، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة

أما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان ! وهو أيضا زكى الرائحة لذيذ الطعم ، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب فى الشراب ثانية . وهو يجزى على ابتسام بابتسام ، ويتهلل غبطة كأنه يعرف أى ضلال جهنمى يختبىء تحت حلاوته

غلى مرجل غضبه وبكى أحر البكاء وأشجاه . ثم استطرد يقص عليهم ما رأى : « وقفت امرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين ، ويصعب عليكم أن تتصوروا شيئاً أكثر فتنة وسحراً منها ! صبى ناضر زاهر ، وشعر طويل جثل ، وعينان سوداوان لامعتان ، وشفتان مكتنزتان محمرتان ، ثم سفاهة وجرأة وقحة . هذه البهيمة تبتسم فتفتر عن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول : « انظروا ! إنى جميلة ومستهترة ... » وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية البديعة المشجرة . على أن جمالها لا تخبئه ملابس ، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها .. كأنه الأعشاب الصغيرة وهى تشق لنفسها الطريق فى الأرض زمن الربيع . وتشرب المرأة التى لا تستحى النبيذ ، وتغنى الأغانى ، ثم تستسلم بعد ذلك للعربدين ... » لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل ، وصراع الثيران ، والملاعب ، وحوانيت الفنانين حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا بالصلصال

***

كان الرجل فى حديثه لسنا ملهماً جهورى الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لاتقع عليها العين ، والرهبان ذاهلون عن أنفسهم ، غائبون عن رشدهم ، وقد أسرتهم كلماته وسحرهم بيانه ، فهم يلهثون من فرط السرور . فلما فرغ من وصف اغواء ابليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن ابليس ثم غادر المكان واختفى وراء بابه

فلما خرج من صومعته صباح اليوم التالى لم يجد راهبا واحدا فى الدير . فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة ! !

محمود البدرى

غرام إدوارد الثالث

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

يتحدث الناس اليوم عن غرام دوق وندسور (الملك إدوارد الثامن) بسيدة كانت متزوجة يوم أحبها، وعما انتهى إليه ذلك الحب من طلاق السيدة زوجها، ونزول الملك عن عرشه للاقتران بها.

وهنا قصة ملك آخر من ملوك الانجليز هو إدوارد الثالث الذي أحب كذلك سيدة متزوجة، وقد انتهى أمد غرامه على ما يرى فى هذه التمثيلية الشعرية التى وضعها بعضهم، وقد نسبت إلى شاعر الانجليز الأكبر شاكسبير

وتتلخص القصة فى أن الحرب كانت قائمة بين إدوارد الثالث وبين الأسكتلانديين، وقد حاصر الاسكتلانديون حصن روكسبرج وأسروا حاكمه لورد سالسبرى، وقامت زوجه لادى سالسبرى بالدفاع عن الحصن دفاع الأبطال، حتى إذا اقترب الملك إدوارد من الحصن تخلى عنه المحاصرون وتراجعوا هاربين أمام جيوش الملك.

وفتحت لادى سالسبرى أبواب الحصن أمام الملك الذى أصبح هو وحاشيته ضيوفها؛ وما كاد الملك يرى ربة القصر حتى أحس بحبها يهاجم قلبه وشعر بحرج موقفه، وفاجأته اللادى واقفاً إلى نافذة الردهة شارد الفكر فجرى بينهما هذا الحوار:

الكونتس — يؤلمنى أن أرى مظاهر الحزن بادية على مولاى الملك؛ فماذا فى مقدور عبدتك أن تفعل لتزيل عن نفسك أسباب الأسى العابس والكآبة المطبقة؟

إدوارد — عفواً يا سيدتى، إنى لشارد اللب؛ وما أستطيع أن أنثر أزهار العزاء على أرض من الفضيحة والعار؛ فانى قد أخطأت يا كونتس، منذ دخلت هذا المكان

الكونتس — حاشا، يا مولاى، أن يكون بين أهل هذه الدار من يستطيع أن يرى مليكى مخطئاً!

أطلعنى يا مولاى الكريم على أسباب امتعاضك

إدوارد — وماذا يكون مبلغ قربى من الشفاء إذا أنا أطلعتك على ما تطلبين؟

الكونتس — يكون ذلك على قدر ما تستطيع جميع قواى النسوية أن تبذل فى مشترى الدواء.

إدوارد — إذا كنت تقولين حقاً ففى ذلك كل أسباب الرضا؛ فاستخدمى جميع قواك فى تحقيق أسباب سعادتى، وعندئذ أسعد يا كونتس أو أموت

الكونتس — سأفعل، يامولاى، ما تريد

إدوارد — أقسمى على ذلك يا كونتس

الكونتس — أقسم بالسماء أنى سأفعل

إدوارد — إذن انتحى جانباً غير بعيد

واذكرى أن هنا ملكا مغرماً بك

واذكرى أن فى مقدورك أن تسعديه، وأنك

قد أقسمت على أن تبذلى فى سبيل إسعاده كل
ما تستطيع قوتك تحقيقه من أسباب العزاء
افعلى ذلك كله ثم خبرينى متى تتحقق سعادتى
الـكونتس — لقد فعلت ذلك كله ، يا مولاى
الملك المهيب
ولقد قدمت لك من مظاهر الطاعة والاخلاص
كل مافى مقدورى من قوة الحب التى أستطيع أن
أحيطك بها
فقل لى ، يامولاى ، أى برهان غير ذلك تريد ؟
إدوارد — لقد سمعتنى أقول إننى مغرم بك
الـكونتس — لئن كنت مغرماً بجمالى فخذه
إن استطعت ، فهو على تفاهته لا يساوى فى نظرى عشير
قيمته ؛ ولئن كنت مغرماً بفضيلتى فخذها إن استطعت
فنبع الفضيلة يغنى بمقدار ما ينفق منه
وليكن غرامك يا مولاى بأى مما أستطيع أن
أعطى وما تستطيع أن تأخذ ، فلترثه عنى
إدوارد — إن جمالك هو الذى أريد أن أنعم به
الـكونتس — وددت يا مولاى لو كان جمالى
دهاناً ؛ إذن لمحوته فحرمت منه نفسى وقدمته اليك
ولـكنه ، يا مولاى الملك ، ملتصق بحياتى
ملازم لها
فاذا أنت أخذت أحدها أخذت الثانى معه ،
فجمالى كالخيال المتواضع يتبع ضوء الشمس المشرقة
فى صيف حياتى
ادوارد — ولـكنك تستطيعين أن تعيرينى
إياه فانعم به
الـكونتس — ليس أسهل من أن أعير روحى
بعيداً عن جسمى — والجسم فى قيد الحياة —
إلا أن أعير جسمى — وهو مأوى روحى —
بعيدة عنها ، بينما أنا محتفظة بها
إن جسمى هو مخدع روحى ، وساحتها ،
ومعبدها ؛ وروحى ملاك ، نقى ظاهر ، سماوى ،
غير مدنس
فاذا أعرتك بيت هذا الملاك يا مولاى قتلت
روحى المسكينة ، وقتلتنى روحى المعذبة

* * *

وطلب الملك من الأرل وارويك ، والد
الـكونتس أوف سالسبرى — بحكم يمين الطاعة
التى أقسمها له — أن يذهب إلى ابنتـه فيأمرها
باطاعة رغبات الملك . وتظاهر الأرل بالطاعة ، وكان
موقفه غاية فى الحرج . وفى الحوار الآتى بينه وبين
ابنته يبدو مبلغ ذلك الحرج ، كما تبدو لباقة الأرل
فى أداء واجب الطاعة لليمين التى أقسمها ، وواجب
الشرف والحرص على كرامة ابنته
وارويك — كيف أستطيع أداء هذه المهمة
القاسية ؟ يجب ألا أناديها بابنتى ؛ إذ أين هو
الأب الذى يقبل فى مثل هذا الظرف التعس أن
يحرض ابنته على الزنا ؟
إذن سأناديها بامرأة سالسبرى ... فهل أتكلم ؟
لا ... إن سالسبرى صديق ؛ وأين هو الصديق
الذى يؤذى الصداقة بمثل هذه المثلبة ؟
إذن لا أناديها ابنتى ولا أناديها امرأة صديق .
لا ، فما أنا وارويك كما تتوهمين
إن أنا إلا محام قادم من محكمة الجحيم
لبست روحه جسم وارويك
لأحمل إليك رسالة من الملك .
فملك انجلترا المظيم مغرم بك أيتها السيدة ،
والرجل الذى يستطيع أن يسلبك حياتك

إن أراد ، يستطيع كذلك أن يسلبك شرفك ...
فأطيعيه وأعيريه شرفك لتنقذى حياتك
فكثيراً مايضيع الشرف ثم يسترد ،
ولكن الحياة إذا ضاعت فانها لن تعود ؛
والشمس التى تجفف الحشائش تنعش الأعشاب ؛
والملك الذى يدنسك قادر على أن يرفع مكانتك .
ويقول الشعراء إن رمح أشيل المظيم كان يشفى الجروح التى يحدثها ... ومغزى ذلك أن الرجل القوى يستطيع أن يصلح ما أفسد
والأسد قادر على تنظيف فكيه الداميتين ، وعلى ستر قسوته بمظاهر الوداعة
بينما فريسته الهالعة ترتعد عند قدميه
والملك مستطيع — فى عظمته — أن يستر عارك
وهؤلاء الذين يجرؤون على النظر ناحيته باحثين عنك إنما يفقدون نعمة البصر بالنظر إلى قرص الشمس
وما مبلغ الضرر الذى يمكن أن تحدثه نقطة من السم فى المحيط الهائل ؟
وعظمة المحيط كفيلة بتطهير كل ما يلقى فيه من المفاسد ، وبتجريدها من قوة الأذى ...
واسم الملك العظيم يبرر سوء عملك
ويكسو جرعة الندم المرة غلافا من السكر حلو المذاق .
واذكرى إلى ذلك أن لا ضرر فى أن تفعلى ما لا يمكن أن تصونيه فى مأمن من العار
وهأنذا بأمر مليكى قد أبرزت الرذيلة فى ثوب الفضيلة .
وإنى لمنتظر جوابك فى قضية مولاى .

الكونتس — حصار غير طبيعى ... إذن ما أشد تعسى .. أألجو من خطر الأعداء لأنغمر من أصدقائى فى خطر أشد منه فظاعة وقسوة ؟ أليست لدى الملك من وسيلة أخرى يدنس بها دمى الشريف غير إفساد باعث هذا الدم فى عروق وحمله على أن يكون محاميه الشرير ورسوله المفضوح ... فلا عجب إذا فسدت الفروع ، بعد أن دب الفساد فى الجذوع . ولا عجب أن يموت الطفل المجذوم إذا تلوثت حلمة الضرع وقد جف معينه . إذن اتركوا للاثم حبله على الغارب ، وسلموا الشباب الطائش زمام الحرية المطلقة ، وأزيلوا القوانين الشديدة المانعة ، وامحوا جميع القواعد التى تجزى على العار بالعار وتقابل الجريمة بالعقاب . لا ، بل دعونى أمت إذا كانت إرادة الملك الغاضبة تأبى إلا ما يريد . فلأمت قبل أن أطيع إرادته ، وأمثل الدور الذى يريد أن أمثله فى ملهاة شهوته الفاضحة

واروك — أراك تتكلمين كما أردتك أن تتكلمى . فاصغى إلى فما أنا بعيد ما أسمعتك من قبل ، فان قبراً شريفاً أجل مكانة من مخدع الملك المدنس . وكلما عظمت مكانة الرجل عظمت قيمة عمله كريماً كان ذلك العمل أو شائناً . والذرة الحقيرة التى تتطاير فى شعاع الشمس تبدو للعين فى أضعاف قيمتها الحقيقية . وأشد أيام الصيف صفاء لا يلبث أن يلوث الجثة الهامدة التى يبدو كأنه يقبلها . وعميقة هى الضربات التى تحدثها الفأس القوية ، والجريمة التى ترتكب فى المكان المقدس يتضاعف إثمها عشرات المرات . والعمل الشرير الذى يرتكب بحكم القوة إثم مزدوج مقرون بالتحريض : والقرد الذى يكسى بالملابس الجميلة البراقة الألوان يصبح منظره

أدعى إلى الزراية والاحتقار . إنى أستطيع يا ابنتى أن أطيل الكلام فى وصف عظمة الملك وجسامة العار الذى يلحقك من ورائها ؛ ولا تزيد الكأس الذهبية منظر السم إلا بشاعة . وتبدو الليلة الظلماء أشد ظلاماً إذا تخللتها البروق . والزنبقة الفاسدة أخبث ريحاً من العشب العطن . وكل مجد ينحدر إلى الأثم يتضاعف العار الذى ينشأ عنه . وإنى لأتركك الآن وقد أودعت نفسك دعواتى التى ستنقلب لعنة قاسية أشد القسوة إذا أنت لوثت اسمك الذهبى الشريف بلوثة العار المموه بمظاهر العظمة والمجد (ينصرف)

الكونتس — سأتبعك ، وإذا ما استدار عقلى هذه الناحية فيغمر جسمى روحى فى هم غير محدود النهاية

***

وفى أثناء ثورة عواطف إدوارد يصل ابنه البرنس أوف ويلز إلى قصر روكسبرج فتثور فى رأس الملك معركة شديدة يبدو أثرها فى حوار بينه وبين الأمير يذكر فيه واجباته الزوجية ، فيتردد بين الحرص عليها وبين الاندفاع وراء شهوته المفاجئة الملحة ؛ وبينما هو فى هذا الحوار يتقدم اللورد فيملن قدوم اللادى سالسبرى ، فيأمر الملك ابنه بالانصراف والتسلى مع أصحابه ، وتدخل لادى سالسبرى فيجرى بين الملك و بينها هذا الحوار

***

الملك — الآن جئت يا صديقة روحى

لتزيدينى من كلماتك القدسية

فى معارضة حبى جمالك الفتان !

الكونتس — لقد أمرنى أبى ، وهو يباركنى..

الملك — أن تخضعى لارادتى

الكونتس — إنما ذلك حقك يا مولاى

الملك — على أن هذا يا أحب الناس إلىّ ليس إلا مقابلة حق بحق ومبادلة حب بحب

الكونتس — بل مبادلة الخطيئة بالخطيئة ، والمداوة بالمداوة

ولكنى إذ أرى جلالتك ميالاً لهذا الأمر فلا ممانعتى ، ولا حبى زوجى ، ولا مكانتك السامية ، ولا الاحترام الواجبة رعايته ، ولا شىء من ذلك بقادر على أن ينقذنى . وإذا لم يكن بد من أن تتغلب قوتك وتطغى على كل هذه الاعتبارات فانى أستبدل الرضا بالتمنع .

وسأرغم نفسى على عمل ما لم أكن لأعمله .

إنما أشترط يا مولاى أن تمحو تلك الموانع التى تحول بين حب جلالتك وحبى

الملك — أذكرى هذه الموانع يا جميلتى ، وإنى لأقسم بالسماء على أن أزيلها

الكونتس — إنهما حياتهما هى التى تقف بين حبينا

وإنى لأغص إذ أقول ذلك يا مليكى

الملك — حياة من ياسيدتى ؟

الكونتس — فليعلم مولاى الملك الحبيب أنها حياة ملكتك ، وسالسبرى زوجى الشرعى ، فهو بصفته هذه سيحول دون حبنا مادام حياً ، ولن نستطيع أن ننعم إلا بموتهما

الملك — إن ما تطلبين فوق طاقة قوانينا

الكونتس — وكذلك شأن رغباتك ، فاذا كان القانون يستطيع أن يمنعك من تنفيذ أحد الأمرين ، فليمنعك كذلك من محاولة الأمر الآخر

وما أستطيع أن أصدق أنك تحبنى كما تصف
إلا إذا أنت وفيت باليمين التى أقسمت
ادوارد — كفى . . فليمت زوجك والملكة
فأنك لا روع جمالاً مما كانت هيرو
ولم يكن بيرولس ليندر بأقوى منى
وقد خاض مجرى الماء سعياً إلى حبيبته .
أما أنا فسأخوض جحيما من الدماء لأصل إلى هيكل معبودتى

الكونتس — وإنك لتفعل أكثر من ذلك ،
فستصبغ ماء النهر بدم قلبيهما الذى يشطر حبنا ويفصل بيننا . ونصيبا زوجى وزوجك من هذا الدم متساويان

ادوارد — إن جمالك يحملهما جريمة موتهما
ويقدم الدليل الذى يقضى بأن يموتا
وأنا باسم هذا الدليل وبصفتى قاضيهما أدنهما

الكونتس — يالله من الجمال المزيف ! ومن القاضى الفاسد الضمير !
وعند ماتنعقد محكمة السماء العالية فوق رؤوسنا
اجتماعها العام وتبدأ حساب الناس ، وتحاسبنا
على هذا الشر المجسم هل نستطيع إلا أن نرتجف
كلانا من هول الجريمة ؟

ادوارد — ماذا تقول حبيبتى ؟ هل هى مصممة ؟

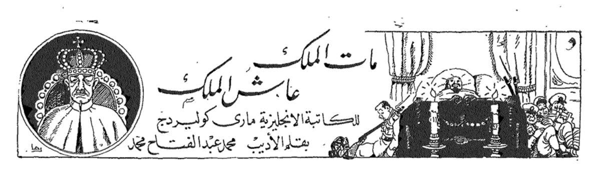
الكونتس — مصممة على أن أتحلل من قيودى ، وإذن إليك هذا :
أنجز وعدك أيها الملك العظيم أصبح لك .
قف حيث أنت وسأبتعد عنك قليلاً
ثم ترى كيف أسلم نفسى بين يديك

(تلتفت إليه فجأة كاشفة عن سكينين)

ها على جنبى تتدلى سكينا زواجى
خذ إحداهما فاقتل بها مليكتك
وتعلم منى أين هى راقدة ،
فسأقتل بالأخرى حبيبى الذى ينام نوماً عميقاً فى سويداء قلبى ؛
فاذا ذهبنا جميعاً فسأوضح لارادتك غرامك .
لا تحاول أيها الملك الداعر أن تمنعنى
فان عزمى أسرع فى حركته من محاولتك انقاذى
فاذا تحركت فسأضرب ، فقف مكانك ،
واستمع لما أخبرك به
فأما أن تقسم على العدول عن رغبتك الشريرة
فلا تعود أبداً إلى محادثتى فيها وإلا أقسمت بالسماء (تركع) أن تلطخ هذه السكين الماضية هذه الأرض بما أردت أن تلوث من دم صدرى المسكين . أقسم يا ادورد أقسم !
وإلا فسأضرب هنا وأموت تحت قدميك

إدوارد — إنى لأقسم بالقوة التى تزودنى الآن
بروح الخجل من نفسى ألا أفتح شفتى بعد الآن بكلمة تشير إلى هذا الأمر الشرير .
انهضى أيتها السيدة الانجليزية صدقا التى ستفخر بها جزيرتنا أبداً بخير مما يستطيع أى رومانى أن يفخر بتلك التى أجهد كنزها المنبوش أقلام الكثيرين عبثاً فى محاولة وصفها .
انهضى ولتكن خطيئتى عماد سمعتك الشريفة
التى ستغنين بها على مر الأجيال
انهضى فلقد أفقت من ذلك الحلم الكريه !

عبد الحميد حمدى



لم يكن السكون شاملا ولا الصمت كاملا فى القاعة الرحبة التى خيم عليها جلال الاحتضار وغشيها الموت . هناك حيث رقد الملك مستسلماً إلى تلك القوة الخفية التى استولت عليه لتنتزع منه سر الحياة . وكان الناس بين غاد ورائح ، يتهامسون فى سكون وحذر كأنما يخشون أن يزعجوا ذلك الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، على الرغم من أن الطبيب الخاص لجلالته قد أذاع أن عليله لم يعد يسمع شيئاً .

وكان أولى بالمحتضر أن يتململ لنحيب زوجه الصغيرة الحسناء وقد جثت على حافة سريره ، لو كان دبيب الفناء فى بدنه قد ترك له شيئاً من حس السماع

وروعى فى الاضاءة ألا تكون قوية باهرة ، وفى الستائر أن تظل مسدلة كيلا يؤذى الضوء عينى الراقد الجليل ، على الرغم من أن الطبيب قد أكد أن جلالته أصبح لا يرى شيئاً

ولم يسمحوا لانسان ما أن يدنو من الفراش ماعدا أولئك الذين له فى قلوبهم أخلص الحب وأشد الوفاء ، على الرغم من أن الطبيب قرر أن صاحب الجلالة أصبح لا يعرف من الناس أحداً

رقد وقد تدلت يده الكريمة من الفراش كأنما تبحث عن شىء ، فتناولتها الملكة بين يديها منتحبة معولة ؛ بيد أن الملك لم يستطع أن يجيب على ضغطها ليده بالمثل ، لأنه كان فى واد آخر غير واديها . ولوحظ أن الفم قد انطبق ، والعينين أسبلتا ، والقلب كأنه كف عن وجيبه الدائب

ودار الهمس :

— يالله ! ما أروعه ! ما أشد جلاله !

كانت غشية الموت قد أصابت الملك ، ولكنه أفاق منها فرأى الصمت الروع الرهيب قد شمل القاعة . صمت سحرى فى روعته ، جليل فى رهبته . ووجد نفسه من كثرة الأزهار الفواحة فى مثل الفردوس الذى وعد الله عباده المتقين . وألفى فى نهاية الفراش عند قدميه شمعتين ترسلان ضوءاً خافتاً مرتعشاً ، يخفق كخفقان قلب العاشق . وكان رأسه هو الذى تحرر من الغطاء المخملى اللين الملقى على بدنه الجليل ؛ ورأى على ذلك الضوء الذابل الضئيل أربعة ، بل خمسة رجال حول السرير يغطون فى نوم عميق

وشاع فى نفسه فرح شديد حينما استطاع أن يتحرك . وما كادت ساعة القصر الكبيرة تنتهى من دقاتها الاحدى عشرة حتى أحس بقوة الحياة تطرد من جسده ضعف الموت . فهب من رقدته جالساً وهو يضحك ضحكة خفيفة

ما هذه القوة الغاشمة التى كادت تودى به على حين يرى بلاده فى أشد الحاجة إليه ، ولكن صوتاً خفيا هتف بالملك من وراء الغيب يقول :

« أيها العبد ! سأمنحك الحياة ساعة بعد هذه الموتة . وإذا عثرت فيها على ثلاثة يشق عليهم فراقك جعلتك من الخالدين »

إذن فهذه ساعته . ساعته التي انتزعها من الموت انتزاعاً . كم يا ترى مر منها ؟

لقد كان ملكا عادلاً كاوء العين لا يغفل عن راحة شعبه ، جرىء الصدر لا يعرف من الخوف سبيلا إلى قلبه ، ولكنه يحب الحياة . لله ما أجملها ! لقد عرف الآن قيمتها لديه . على أنه لا يحب الحياة لذاتها ، ولا يتعلق بها لذاته ؛ إنما يهوى الحياة لأن أعماله لم تتم ، وآماله لم تحقق ، ورسالته لم تؤد على وجهها الأكمل

وارتدت الأشياء فى عينيه ثوباً جديداً وهو يغادر الغرفة ماراً بالحراس النائمين . وفارقه شعور السخط والتبرم بالقوة الظالمة التى سلبته الحياة

وقلب الأمر على جميع وجوهه ، ونبذ العاطفة وحكم العقل ، وقال فى نفسه : « إن البلاد حقاً فى حاجة إليه ، ولكن هناك من يعدله من الرجال أو يفضله . وإن الدنيا المليئة بالعقول الناضجة والقلوب الكريمة . العالم وسيع ، وإنه ليراه الآن أوسع . كل شىء يبدو فى ناظريه أكبر مما كان من قبل . لقد نبذته بلاده الآن وهجرته بعد أن أفنى عمره فى السعى لها والحدب عليها

وتردد لدى الباب : أين يذهب أول الأمر ؟ أيذهب إلى زوجه ؟ كلا ، لا ينبغى أن يراها الآن ، فعيناها قرحهما البكاء ، وجسمها هده الحزن

يجب ألا يراها إلا حين يستطيع أن يضمها إلى صدره ، ويرى دموع الفرح بعودته إلى الحياة تنضح أسيل الخد ، كقطرات الطل على نضير الورد .

إن أمامه ساعة ليس غير ، سيعود بعدها إلى الحياة ويكون هذا الحلم المزعج قد مر بسلام

وتنفس الصعداء عند ما مر ذلك بخاطره ، ثم غمغم قائلا :

— ستعود الأمور إلى مجراها بعد حين

واستذكر لحظاته الأخيرة ، ثم استدار وسرح البصر فى فراشه وقال :

— غير أنى لم أكن يوماً ما جباناً ولا رعديداً .

وابتسم حينما ذكر المهلة التى منحها إياه الصوت الهاتف

ونظر أمامه فألفى ملكه الواسع العريض يمتد تحت ضوء القمر الزاهر ، فقال لنفسه :

— سأجد ولا ريب ثلاثة آلاف عوضاً عن ثلاثة ، أليس الكل أصدقائى وأحبائى ؟

ومر عند ما ترك باب القصر المنيف بطفل يبكى بكاء مراً ، فقال له فى عطف :

— ما خطبك أيها الصغير ؟

فأجابه الطفل من خلال النحيب :

— لقد فارقنى أبواى وذهبا إلى القصر منذ جراء موت الملك ولم يعودا بعد . وإنى كما ترى وحيد تعب جائع ، ولم أتناول عشائى حتى الآن ؛ ثم إن دميتى تحطمت . ألا ليت الملك يعود إلى الحياة ثانية !

وانهمرت مسارب عينى الطفل واشتد نحيبه ، فسر الملك أشد السرور ، وقال فى نفسه :

— هاهوذا أحد أفراد شعبي يتمنى لى عودة الروح

ولم يكن لديه بنت ولا ابن ، فأراد أن يداعب الطفل ويلهيه ، ولكنه آثر أن يمضى إلى شأن أهم إذ كان فى طريقه إلى منزل الرجل الذى أدناه

من نفسه وآثره على غيره

وخامره شعور غريب ، وخشى ألا يجده فى منزله ، وقال :

— يا لأمياس المسكين ! إنى سعيد إذ لم يمت حزناً على ، فلا أستطيع احتمال فقده ولا الحياة من بعده . وألفى حينما دلف إلى منزل صديقه المشاعل تغدو وتروح محمولة والجياد مسرجة ؛ وبلغت أصوات الهرج والمرج مسمعيه ، فتلفت هنا وهناك ، ولكنه لم ير الوجه المألوف . وأبصر باباً مفتوحاً ، فتسلل منه ، ولكنه لم يعثر على صديقه ؛ وبحث عبثاً فى غرفه . كانت كلها خاوية ، فانتابه هلع شديد . لم يقتله الحزن ولا ريب ! . وبلغ الجناح الذى تساقيا فيه الصفو على غرة من الليالى ، ولم يجده هناك أيضاً . رأى الكتب مبعثرة والزجاج متناثر الشظايا على بلاط الغرفة

ولمح إطار صورة ملقى على الأرض ، فالتقطه فكانت صورته وقد تحطم الاطار ، فتركه يسقط من يده ثانية كأنما لسعته نار تندلع منه

وانتحى ناحية الموقد الكبير فى ركن من القاعة ، وكان قلبه يتأجج بالجمر كأنه المحب اليائس فرأى بقية من رسالة لم تمسها النار بعد ؛ كانت رسالة كتبها بخطه إلى صديقه الحميم ؛ فتناولها ومر ببصره عليها ، فألفاها آخر رسائله إليه كان قد ذكر له فيها تفاصيل مشروع اعتزم القيام به

وما كاد يطعمها النار الملتهبة حتى دخل القاعة شخصان يتحادثان : يقول الرجل للمرأة :

— أين أمياس ، ألا تعلمين ؟

— ذهب ليقدم ولاءه للملك الجديد ، إذ نحن كما تعلم فى قلق مستمر ، وهذا الملك ليس على شاكلة سلفه من حيث الآراء الغريبة ، وقد كان سلفه يحمل له المقت والكراهية ؛ وقد عمل أمياس الماكر على أن يفسح لنفسه مكاناً فى البلاط الجديد ، وآمل أن يكون قد أفلح . لقد أقسم إلى أنه كان يستهجن سياسة الملك القديم . لا مرية فى أنه كان يحبوه العطف واللطف والحظوة ، ولكن يجب ألا نحكم العاطفة إذا إردنا الرغد فى العيش . وقد بدأ خطته حين مات الملك ؛ وها أنذا أرسل أمتعته فى أثره

— حسن جداً !

قالها الرجل الذى عرف الملك فيه أحد سفرائه ، وقال بعد برهة :

— سأتبعه فوراً . وإنى أقول لك والكلام بينى وبينك ، أن ذلك لصالح الدولة ؛ فالملك الجديد أرعن طائش لا يدرى ما هية الحكم . لقد أمرنى أن أعقد صلحاً لا يتفق وما شيدنا من قصور الآمال ؛ غير أن الحرب قائمة لا محالة . ولا أكتمك أنى لو كنت أطعت أمره لعزت الترقيات فى الجيش وشحت المناصب

ولم يطق الملك سماع بقية الحديث ، فانصرف وهو يقول فى نفسه :

— لأذهبن إلى أصدقائى ، فهم على الأقل لا يجنون شيئاً من مداهنة خانى ، ولعله يجردهم من كل ما وهبتهم إياه

وسمع الساعة الكبيرة تدق ربع الساعة الأول وهو يسير . لقد كان ملكا حكيما ، إذ اتخذ سبيله إلى أفقر الأحياء فى مملكته ، وقد زار هذه الأمكنة من قبل متخفيا ، فأثرفى نفسه ما هم فيه من المسكنة والفقر

ولم يكن أحد يعلم من أين أتته تلك الحمى الخبيثة التى أودت بحياته ، حتى هو نفسه لم يكن يعلم علم اليقين ، وغمغم ضاحكا :

— سوف لا تمس الحميات جسمى بعد الآن

وكانت منازل الحى الوضيع تدل على فقر مدقع وبؤس شديد ؛ وكانت الأمراض والأدواء تبدو واضحة على وجوه الأهلين البؤساء الذين وقفوا جماعات على قارعة الطريق يتهامسون ويرددون اسمه من حين إلى حين . كان اسمه جاريا على كل لسان ، شاغلاً كل ذهن ؛ وسمعهم فيما سمع يرددون النشرات الطبية التى أذيعت عليهم ويحزرون اليوم الذى يشيعونه فيه إلى مقره الأخير . عجباً ! يظهر أنهم بموته مغتبطون

وفى إحدى المواخير أبصر خمسة رجال حول مائدة يحتسون شرابا ، فوقف يتسمع إلى حديثهم ؛ وسمع أحدهم يقول :

— حمداً لله على خلاصنا منه . فما فائدة ملك يضن بفلس واحد زيادة عما أمر به . ولا يخفى عليكم ما فى ذلك من كساد تجارتنا . أما الملك الجديد فيبدو لى أنه من صنف آخر . وستروج بضاعتنا فى حكمه وايم الحق . فقال آخر :

— أجل . لقد كان ملكا لا يطاق . كان يطاردنا ويحرم علينا اللهو . بأى حق كان يفعل ذلك ؟ أريد أن أعلم

فقال ثالث :

— أما أنا فأقول . ليسقط ذوو التيجان . فان كان لا بد منهم فليتركونا وشأننا . وإنى لأوثر شاباً لا ينصاع لما تمليه عليه سالبات النهى الكواعب

وقال رابع :

— لقد طالما حاول أن يعبث بالقانون . كان أولى به أن يهتم بالأبرياء الذين يغيبون فى السجون . إن فى الأمر شيئاً ولا ريب

يا لله ! كأنما التأم هذا الجمع للنيل منه والقدح فيه

ودقت الساعة الربع الثانى حينما ابتعد الملك عن هؤلاء الرعاع

وأحس دافعاً قوياً دفعه إلى عدو له كان يكيل له السبائب والشتائم فيتقبلها منه هاشاً باسماً ، واتخذ سبيله إلى السجن قدماً . وانتقى غرفة منه تضم بين جدرانها الدكناء رجلاً واحداً يكتب مستنداً على إحدى ركبتيه . فأدام الملك النظر إليه ، وسرعان ما دخل حارس السجن يرافقه رئيس مجلس الشورى ، وهو رجل كان يعجب به الملك ويقدره حق قدره

ورفع السجين رأسه بسرعة ثم قال فى اضطراب وقلق :

— ولكن يومى غداً

ثم عاد وتمالك نفسه وقال :

— غير أنى الآن على استعداد . لى رجاء واحد . هل آمل أن تبلغوا هذه إلى زوجى ؟

فتكلم رئيس مجلس الشورى فى هدوء :

— لقد مات الملك ، وأرجىء تنفيذ الحكم فيك . إن الملك الجديد سياسة أخرى ، ومن المحتمل أن يطلق سراحك غداً

فقال السجين فى حزن عميق :

— مات ؟

فقال الآخر فى حزم :

— أجل . مات !

فهب السجين واقفاً يمسح جبينه كالمحموم ثم قال :

— سيدى لقد كنت أجله وأحترمه . كان ملكا بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية ، وقد عاملنى معاملته لسيد عظيم . ذلك فضلاً عن زوجه الصغيرة الحسناء ، لكم أتمنى أن يبعث مرة أخرى ، وكان الدمع يجول فى عينى الرجل أثناء حديثه

ودقت الساعة الربع الثالث والملك يغادر السجن الرهيب

كان عطف عدوه أشد وقعاً على نفسه من غدر خلصائه ومحبيه . خير له أن يموت من أن يكون مديناً بحياته لمثل ذلك الرجل

غير أنه لم يسعه إلا أن يطرب لشعور الرجل نحوه وتقدير ما فى نفسه من نبل ومروءة ؛ وهان عليه الموت وسهل لأنه رأى أن محبة الناس له لم تكن إلا حلماً من الاحلام . إن هؤلاء الناس الذين تعب لهم وسهر عليهم لم يبلغوا بعد شأو من يحترم نفسه

— أين أصدقائى الآن ؟ . طفل غرير ، وعدو نبيل . إنهما كل ما لى من أصدقاء . وهل للحياة قيمة بعد ذلك ؟

ألا يجدر به أن يستسلم للقضاء . ولا يتمنى بعد الآن شيئاً ؟ لقد تلقى درساً بليغاً . فى وسعه أن يرقد فينام فينال الراحة الكبرى . لقد بررت القوة الالهية مسلكها مع الانسان الطامع الجهول . ماذا ينفع المرء أن يثبت عنده كذب أخيه ؟

وفارقه الأسف ، وذهب عنه الحزن ، وبرح الخفاء ، وتكشفت له الحياة

وتلبدت السماء بالسحب القاتمة فحجبت قرص القمر الزاهى . وهبت ريح باردة نالت من جسده المنهوك . وأحس عزلة موحشة تشمله ، ووحدة قاسية تكاد تصرعه ، وفاض قلبه يأساً وغماً

أحقاً ليس هناك من يهتم له ويحزن عليه ؟ إنه يهب كل ما لديه فى سبيل نظرة عطف حقيقية واحدة . كم يتوق الآن إلى شخص يبذل له من ذات نفسه ما يجمع عليه يده ويشد به عضده . كم يعوزه الآن أليف عتمه بنعمة وداده ويقيل عثاره لديه لحظات أخرى ثم ينتهى الأجل . كيف بالله احتمل عمره الطويل ؟ على أى حال لم تبق له إلا دقائق معدودة

وأحس سلوة فى نفسه وعزاء فى قلبه . نسى كل ما أساء به إليه الناس وصغر لديه شأنه وحقر فى عينى نفسه

ووقف لدى باب غرفة زوجه يقدم رجلا ويؤخر أخرى . ماذا يفعل لو وجد أمله الباقى سراباً ؟ ألا يجمل به أن يعود حتى لا تصرعه الحقيقة المرة ؟ غير أنه غمغم قائلاً :

— لم أكن يوماً ما جباناً ولا رعديداً

وكانت زوجه تجلس إلى جوار الموقد وحيدة تخفى وجهها بشعرها الأسود الوحف المسترسل . أحس عند ما رآها لأول وهلة بعطف نحوها يكاد يذيب منه القلب . وعجب كيف تسرب إليه الشك فى إخلاصها

وكان خاتمها الثمين يطوق بنصرها كعهده به منذ أن أهداها إياه ، ولم يكن بالغرفة ما يسترعى البصر سوى بريق حجره الأخاذ

وشعر بحنين إليها . ودهش لم تركتها وصيفاتها

من صحائف الأيام

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٩ اكتوبر . . . .

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذى كان قد تقدم للبنت ريم . ولـكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟ فلنطلب إذن إلى المركز أن يأتى إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب . وليكن الجار امرأة ؛ فان المرأة بطبعها فضولية ثرثارة . فما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات فى الحارة .



ولـكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز باحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السـياسة وحدها هى كل شىء اليوم فى المركز ؛ ولن أجد خفيرا يلقى بالا إلى أوامرى الساعة . فلنتصل نحن مباشرة

وحيدة . كان يجب ألا يفارقها فى تلك الليـلة العصيبة . وبدت له كأنها غارقة فى أفـكارها وهمومها . ألا ليتها تسمعه صوتها الموسيقى الحنون ، أو حتى تردد اسمه

بيد أنها كانت صامتة صمت القبور

وفزع الملك لحركة مباغتة . وفتح باب سرى فى الجدار : باب سرى كان يظن أن أحداً لا يعلم به سواها ؛ ودلف منـه رجل وانتصب أمامها . فرفعت إصبعها إلى فمها تومىء إليـه بالصمت . ثم ألقت بنفسها أخيراً بين ذراعيه :

— هل عدت أخيراً ؟ كم أنا سعيدة ! عفواً يا حبيبى ! لقد كان على أن أفعـل شيئاً وأنا جاثية بجوار فراشه . لذلك أمسكت بيده بين يدى وهو يجود بنفسه . لقد ملـكنى الخوف وأنا أنتظرك هنا وحيدة مع نفسى . ظننت روحه تأتى فتفزعنى . ولـكن لا ، لقد ذهب إلى حيث لا رجعة . سترفرف علينا السعادة بأجنحة من الحب بعد الآن

ونزعت خاتمها ولثمته ثم قدمته إليه وهى تبكى

وعند ما دقت الساعة تمام انتصاف الليـل نهض الحراس من نومهم فرأو الملك راقداً قد تغشاه جلال الموت . غير أنهم لمحوا تغييراً عظيما اعترى محياه ، فقالوا فيما بينهم :

يجب ألا ندع الملـكة تراه ثانية

ترجمة : محمد عبد الفتاح محمد

بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت فى الحال حاجبى فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة :

— يانقطة ! يانقطة ! ردى على يانقطة ! البك الوكيل جنبى يا نقطة !

ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عناء الرد علينا ؟ واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه . وهو من طراز تليفونات المراكز التى لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفس الاثنين من كثرة الصياح ، وحتى ينقطع حبل الحديث مائة مرة ومرة تشتبك خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة . فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب فى مسألة متعلقة بتفتيش الرى وبالفتحات ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم فى أنفار القرعة ويطلب طلبات فى لهجة الأمر والنهى . على أننا اليوم لا نلقى ردا على الاطلاق . ويد الجرس فى يد الحاجب لا يقف لها دوران ، كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصيح تارة مهددا وتارة متوسلا :

— أنا فى عرضك يانقطة ! كلمة واحدة يانقطة ! إخص عليك يانقطة ! ردى على يا …

فما تمالكت أن قلت :

— شىء لطيف ! ناقص تركع وتقول : « ردى على ياروح قلبى ياست هانم يا نقطة ! »

— يظهر ياسعادة البك أن النقطة خالية من حضرة الملاحظ والبلوكامين والكل كايلة …

— النقطة خالية …

— أيام انتخاب ياسعاده البك

— والعمل ؟

— نتصل بدوار العمد ونطلب النفر والحرمة

— اتصل

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع « مخصوص » وكان ميعاد غدائى قد حان . وكان قد أجهدنى العمل المعتاد بالمكتب . أعنى تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من المركز من « إيراد » اليوم ، وأكثره الآن محاضر « تشرد » ضد الأهالى غير الموالين للحكومة القائمة . وما أسهل هذا السلاح وما أقواه فى يد رجال الادارة ! فان كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يحترف صناعة ، ويمكن بذلك القبض عليه وحبسه أربعة أيام باذن النيابة لحين التحرى عنه وطلب صحيفة سوابقه من مصر . وأين هو وكيل النيابة الذى يعارض المركز اليوم فى إصدار أوامر الحبس ؟ وقت الغداء بعد أن أصدرت من هذه ماشاء الله والمركز . وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة ، فتكلمت كلاماً كثيرا لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب يدعى « حسين » وهو ليس من أهالى البلدة بل من بلدة مجاورة

— اسمه حسين إيه يا وليه ؟ فيه ميت حسين فى البلد . لقبه إيه ؟

— ما اعرفش نقبه ياسيدى . البنت قالت اسمه « حسين » وأنا مالى بقى أسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة غلبانه فى حالى ، بعيد عنك ما أكره على إلا كتر الكلام . أنا طول عمرى يا سيدى فى الحارة ما أحشر نفسى فى كلام ولا فى سؤال . وأنا مالى قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها …

— اسكتى قلبت دماغى فى الفارغ ، داهية تقلب دماغ اللى طلبك . يعنى لو عرضنا عليك الولد تعرفيه ؟

— أعرفه يا سيدى . يا ندامه ! وأنا بقى خلاص انعميت ... أنا كنت اسمَ الله على مقامك ...

— كفاية ... انت واحدة ولله الحمد لا تحبى كتر الكلام ولا ...

كتر كلام ... أبداوحياة شرفك ... أنابعيد عنك من يوم ...

— بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته باخراج المرأة واجلاسها فى الدهليز بجواره تنتظر حتى تطلب . وكلفته بمخابرة البلدة التى فيها الفتى ليحضروا الفتيان الذين يسمون فيها باسم « حسين » ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على ما لدينا من المعلومات . وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر فى قيمة هذا العرض « القانونى » . إنى لا أثق كثيرا بفراسة هؤلاء النسوة . وما زلت أذكر قضية قتل أتينا فيها بزوجة القتيل وعرضنا عليها المتهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفوا من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة فى صباح ذلك اليوم . وكان من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته فى جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات . فاذا هو يجد نفسه قد زج بين الأنفار الذين أخذوا من قاعة الجلسة ليقفوا فى صف طويل فى قاعة النيابة وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، وأمرها أن تبرز القاتل من بينهم . فتفرست المرأة فى الوجوه وهى تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها ، ودنت من القاتل الحقيقى ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت الى ذلك المسكين صاحب المستندات الذى ليس له فى الثور ولا فى الطحين ، فلكمته فى صدره لكمة كادت ترديه وصرخت بالصوت :

— غريمى

فأرتج على الرجل وقد فوجىء ثم تمالك وقال :

— يا ستى أنا أعرفك ؟

فلم تسمع اليه المرأة ومضت تولول :

— غريمى دمى . غريمى

والتفت الى الرجل كالمستجير :

— يا سيدى البك . انهضنى . أنا عمرى لا شفتها ولا قابلتها ...

فقام وكيل النيابة وهو أنا ولا فخر بأسئلته « التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب ، المعتبرة من « روتين » العمل التى إذا لم تسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها ، أسئلة سخيفة لا تعنى شيئا فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن

— أبدا يا سيدى ولا أعرفها

فتمهلت قليلا لكى ألقى ذلك السؤال الذى يلقيه كل وكيل نيابة وكل قاض فى ثقة واطمئنان كأنما يلقى يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟

— أنا عارف ! مصيبة على الصبح وارتمت على

— احجزه يا عسكرى

— يحجزنى ؟ أنا يا سيدنا البك لى قضية مدنية تحت . اعمل معروف خلينى أروح لشغلى

وألقى الرجل فى الحبس الاحتياطى . ونوديت

قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطبت دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الاسفلت ومستنداته في يده يفكر فيما آل اليه حاله بلا مبرر ولا جريرة

تذكرت ذلك وقلت في نفسي : « كلا لا ينبغي أن نبالغ في قيمة « العرض القانوني » إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التي أكلها الصديد منذ الطفولة ، ومداركهم التي تركت هملا على مدى حكم ولاة من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن اليها في حكم أو تمييز . وهل هناك أعجب من « عرض قانوني » آخر قمت به في قضية تزوير ، وكان المتهم « أفنديا » وقد وضعته بين أشخاص مطربشين وجئت بالمجنى عليه الفلاح وأمرته باخراج « غريمه » من بين هؤلاء ، فتفرس في الوجوه لحظة ثم ترك الصف بأكمله ووقف تجاهي أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر في وجهي وقد بدت في عينيه علامات الشك الذي سيتبعه اليقين أنه وقع أخيرا على المجرم الحقيقي ، وكان حاضرا عندي وقتئذ أحد كبار مفتشي النيابات زائراً وقد أراد أن يشهد عملية العرض . فهالني أن يطيل الرجل شكه في أنا فيبدو للمفتش رأي لا أرضاه ، فانتهرت الفلاح وأمرته أن ينظر في الصف الذي أمامه ويخرج منه المتهم . فكان اللعين يمر بالصف مرا سريعا ويعود فيلقي ببصره علي ويفحصني من رأسي حتى إخمص قدمي فحص المشتبه المستريب . ولن أنسى اضطرابي يومئذ . وقلت في نفسي : « الله يكون في عون المعروضين » ولم اجد عند ذلك مندوحة من أن أنهي عملية العرض في الحال قائلا في سرعة : « لم يستعرف المجني عليه على أحد » وأمرت الحاضرين بالانصراف فخرج الرجل وهو ما زال يختلس النظر . كلا إن تلك الاجراءات التي تتبع في أعمالنا القضائية

طبقا للقوانين الحديثة ينبغي أن يرعى في تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية

وحضر المطلوبون وأوقفناهم في صف طويل وأدخلنا المرأة فتقدمت وهي تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

ولم أترك لها مجالا للثرثرة . فقد انتهرتها :

— كلمة ورد غطاها ياولية . من في الحاضرين الخاطب ؟ ...

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينيها « العمشاء » نظرة « المرضحالجي الأضبش » إلى « عريضة » يرفعها في يده حتى تمس أنفه . وقالت له في صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعي :

— أنت « يا ادلعدي » مش اسمك حسين ؟

فأدركت في الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها في شدة :

— كل الجدعان اللي قدامك ياوليه اسمهم حسين

— قطيعة !

لفظتها المرأة في صوت الواقع في حيرة من أمره . ثم اتجهت الى التالي وسألته :

— انت منين يا جدع انت ؟

فأجابها الرجل في صوت هادئ :

— من امبابة يا ستي !

فقالت على الفور في لهجة الجد :

— دي بلد الحمير يا جدعان . دا كان مرة « ادلعدي » جوزي اشترى منها حمار ...

فلم أتمالك أن صحت :

— أخرجي يا « قرشانه » يا « وحشة » يا قليلة الحيا ... ضيعت وقتنا ، نهار بحاله .

إخص على دى شهود ... !

قلتها من غيظى وأنا ليس من عادتى « القباحة » ولكن هذه المرأة التى أفهمتنى انها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة انها لا تعرف الا اسمه . وحتى هـذا الاسم الابتر « حسين » من أدرانا إذا كان هو اسمه الحقيق أو انها كلمة ألقتها على عواهنها هذه المرأة « المجاصة » وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئاً عن الوضوع . فصرفتهم . ولم أكد أخلو الى نفسى وأفكر فيما ينبغى عمله بعد ذلك ، حتى فتح الباب ودخل على مساعدى آتياً من البندر حيث كان يترافع فى قضايا الجنايات التى أحلتها عليه . وقد رأيت وجهه نضراً مشرقا . وابتدرنى قائلا :

— البنادر هى النعيم . يا خسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف

— أخذت أحكام براءة

— أنا نزلت فى أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية

— رد على سؤالى . القضايا عملت فيها إيه ؟

فوجم الشاب قليلا ، ولم يكن ينتظر منى الـكلام فى العمل والجد منذ اللحظة الأولى . وكان يحسن بى فعلاً أن أكون به لطيفاً رقيقاً ولـكن القضية التى فى يدى أتعبت أعصابى ، أو لعل شيئاً من الحسد الخفى قام فى نفسى إذ رأيت هذا الفتى عائداً كالزهرة المشرقة من ذلك النعيم الذى يقول عنه بينما أنا راسف فى أغلال الوظيفة غارق فى عمل ذى مسؤولية لا يقف ولا ينتهى . وتنبهت مع ذلك لخشونتى وأردت أن أبتسم وأن أتكلم فى غير القضايا . ولـكن المناسبة كانت قد فاتت . ومضى المساعد يحدثنى عن القضية التى ترافع فيها قائلاً إن المتهم فيهـا قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلاً فى نظير مبلغ خمسة جنيهات . فالقاتل رجل سودانى بدوى قوى الجسم يحترف إزهاق الأرواح . وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت الـكمبيالة بثمن « الروح » . وانطلق ذلك المحترف حاملاً بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته ، ووقف بهـا تحت نافذة المسجد حتى دخلت « الروح » الغالية وسجدت تصلى فأرسل إليها الصياد من بين قضبان النافذة قبلة واحـدة ذات صفير من « ماسورة » أرغوله الجهنمى كانت فيها الـكفاية . وهى صناعة تحتاج الى ثبات يد ، كصناعة النجارة ؛ فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح فى الصميم . وكان مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ، لولا خلاف دب بين البائع والمشترى . فالقاتل سلم « البضاعة » حاضرة . ولـكن المشترى مطل بالثمن . ولم يطق القاتل المحترف صبراً على هذا « الزبون » المتوقف عن الدفع فصاح به وسط الجلسة غير مراع حرمة قضاء ولا قضاة ...

— عايزنى أقتله لك لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت الى هيئة المحاكمة :

— اشهدوا يا ناس على قلة الشرف . أنا أستحق الشنق ؟ اللى ما قبضت مقدم . هو يخرب البيوت إلا الشكك

وضحكت قليلاً أنا ومساعدى . وقد أبديت له ملاحظتى على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة فى الريف . وهى الاستئجار على القتل . ان الفلاح المصرى يلجأ كثيراً إلى محترف يقتل له . كما كان بعض ملوكنا الأقدمين يلجأوون الى الجنود المرتزقة . أهو نقص

خلق في الفلاح يضاف الى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة . أم انها قلة مقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم في الأرض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين وأقربهم بنا عهدا الاعراب والاتراك . ان الملاحظة على أشهر محترفي القتل في الأرياف أنهم من دم أجنبي . أم ان الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التي تبذر البذر ويخرج منها الخير . لست أدرى . إن الأمر يحتاج الى درس خاص . ويكفينا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة . وقد أفهمت مساعدى أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة . وإنه طول حياته بها لا ينبغي أن يسير مغمض العينين . فهي خير مهنة تكون الرجل تكوينا صحيحا . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير في مملكة صغيرة إذا فهم كل شيء في هذه المملكة ، ولاحظ كل شيء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم ، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التي هي دولته . بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذى هو « الانسانية » . ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء يستطيع أن يلاحظ ان قوة الملاحظة هي أيضاً هبة عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى مساعدى هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء . فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأخبرني أنه لاحظ أمراً استوقف تفكيره في جلسة الجنايات ، ذلك أن المستشارين ينطقون باديء بدىء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك الى كتابة الأسباب . والمنطق الذى يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة .

ولقد أخبرني فعلا أحد المستشارين من أهل الصراحة انه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم في جناية خطيرة ورجع ليلا الى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحيثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات في محضر جلسة اليوم ، وفي المحاضر السابقة ، وفي تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادىء الرزين في ذلك الليل الساجي ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل الى تغييره بأى حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التى يبرر بها النطق بالحكم . وكم من الحيثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعيما لحكم سريع مضى النطق به ، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة ...

(يتبع) توفيق الحكيم



كان الحاضرون يجلسون حيث شاءوا من غرف الشقة الرحيبة ، فقد فتحت كلها — ما عدا غرفة النوم — وكان كل اثنين — كل فتاة وفتى — يختاران المكان الذى يريانه أوفق لهما وأطيب . فتحمل إليهما الخادمة طاولة صغيرة وترص عليها ما يحتاجان إليه من أطباق وأكواب ، ثم تجيئهما بشرابهما وطعامهما اللذين دخلا بهما ، فيأكلان ويشربان ويسمران ويرقصان — فان فى البيت فونغرافاً لا يستريح — ويظلان كذلك — « فى خمور وفى أمور » كما يقول ابن الرومى — الليل كله أو بعضه ؛ ثم ينصرفان راضيين شاكرين . فقد كان هذا اتفاق « صوفى » أو « صفية » — كما تؤثر أن تسمى نفسها — مع ضيوفها ، وكانت خياطة وكان الحال حسناً ، والأيام مقبلة عليها ، فجاءت من هى أبرع منها وأكيس وألبق وأقدر على الاستيلاء على أهواء الزبائن فركدت السوق وقل العمل ونضب المعين ؛ ثم خطر لها ان تسمح لمعارفها من الجنسين ان يسمروا عندها ليلتين فى الأسبوع — السبت والأحد — أى أن تجعل من شقتها نادياً خاصاً ، واشترطت أن تتقاضى من كل واحد وواحدة نصف ريال ، ولضيوفها أن يجيئوا بما يشاءون من طعام وشراب ، وعليها هى أن تمد لهم الأوانى والأدوات وما إليها ، وأن تقوم بما تقتضيه الخدمة . وكان أصدقاؤها كثيرين فسرهم هذا وارتاحوا له وأقبلوا على « ناديها » ليساعدوها ، وآثروه على الأندية المفتوحة بلا قيد ولا شرط ، أو كما قال بعضهم : « لكل من هب ودب » فصلح حالها بذاك حتى لقد احتاجت أن تنتقل الى شقة واسعة كثيرة الغرف والشرفات . وصار المسلمون — على الأيام — خير زبائنها وأسخاهم يدا ، فقد كان أكثر من عداهم يحمل معه ، وهو خارج ، ما بقى من طعامه وشرابه ؛ أما أولئك فقد كانوا يتركون الباقى ، ولا يفوتهم أن يحسنوا تجزية الخادمات ؛ وكثيراً ما كانوا يكلون إلى « صفية » أعداد الطعام والشراب اللذين يريدونهما ، فيكون لها من ذلك ربح آخر . وقلما كانوا يكتفون بنصف الريال المطلوب

ولم تكن « صفية » كبيرة السن أو دميمة ، ولكنها كانت قد فاتت سن الاقبال عليها من الشبان وبلغت سناً تحتاج فيها الى المحاورة والمداورة ، وتأكيد المحاسن ، وإبراز المفاتن ، فكانت لا تزال تدخل غرفة وتخرج من أخرى ، وتحيى هذا وتلاطف ذاك ، وتحمل بيدها البضة الكوب أو الطبق لتجىء بغيره ، وتنحى الخادمة وتلقى الابتسامات هنا وهناك ، وتخطر فى شفوفها المحبوكة التفصيل . ومن

أدرى منها بإبراز خطوط الجسم الجميل ، واستدارات القد الرشيق ، وإكساب الأثداء والأرداف فتنة فوق فتنتها الطبيعية ؟

وكان بعض ضيوفها يأتون فرادى اكتفاء بما يعلمون أنهم يفيدونه عندها على كل حال من الأنس والبهجة ، فما كان يدخل هذا البيت غريب عن رواده ، فكان المستفرد الوحيد يستطيع أن ينتقل من مجلس إلى مجلس ، وأن يمابث أو يضاحك أو يسامر أو يراقص من شاء . وكان من هؤلاء عبد الحميد — أو عبده كما كان يسمى في العادة — ولم يكن يعرف من الموجودين إلا اثنين — « دافيد » الذى جاء به « ورشحه » فى مرة سابقة ، و « صفية » ربة البيت . وكانت « صفية » قد أعجبها شكله ووقع من نفسها هدوؤه وسكون طائره فى الأغلب ، ومايبدو عليه من قوة الجسم والارادة معاً . وكان قليل الشراب نزر الحديث ، ولكنه لم يكن على هذا لا جامداً ولا فاتراً ولا صارم الجد ، فكانت صفية تقبل عليه وتحاول أن تحل عنده محل الصاحبة التى لم يجىء بها ، ولا تتركه إلا لحظات قصيرة للعناية بغيره إذا بدت لها حاجة الى ذاك . وقالت له مرة :

« لماذا تجىء وحدك ؟ »

فلم يدر ما مرادها ، ونظر إليها — آثأرها النظر — قبل أن يجيب ثم آثر الملاطفة فقال :

« وهل أنا وحدى ؟ »

فسرها جوابه ، وظنت أنه قانع بمجلسها وحديثها ، وراحت تمنى نفسها الأمانى ، فقد توسمت فيه — من مظهره — الغنى ، وأنست من سيرته الجود . وإنها لتهم بكلام مناسب ، وإذا بالباب يفتح ، وإذا باثنين يدخلان — رجل وفتاة — وكان لا شك فى أن الرجل سكران طافح ، فما كانت رجلاه تحملانه إلا بجهد ، وإلا بفضل الفتاة التى تسنده وتقوم اعوجاجه . ولم يكد عبده يراهما حتى نهض وتناول ذراع الرجل وقال له بحدة :

« ما هذا الذى صنعت بنفسك ؟ . كيف تجرؤ أن تجىء إلى هنا وأنت على هذا الحال ؟ »

فقال الرجل وهو ينحط على أقرب كرسى :

« إيه ؟ مالى ؟ »

فقال عبده : « ألا تخجل أن تحمل هذه الفتاة عبء جسمك الثقيل ؟ »

فزام الرجل وأدار عينه فى الغرفة ، ثم كأنما أحس أن جفونه ثقيلة ، فأغمض عينيه ، ورد رأسه إلى ظهر الكرسى ، فهزه عبده هزاً عنيفاً ، وصاح به يدعوه أن يتنبه ويفيق ، فأشار إليه الرجل أن يبعد عنه ، فعاد عبده يقول كأنما يحدث نفسه :

« ولكن الفتاة ؟ . كيف تكلفها أن تحتمل منك هذا الحال ؟ »

فقال الرجل : « مالها ؟ إنها رابحة على كل حال »

فدهش عبده ونظر منه إلى الفتاة ، ثم كأنما خطر له خاطر فقال لصفية : « اجعلى بالك إليه .. إنه صديق لى . اعتنى به . أرجوك »

والتفت إلى الفتاة وقال لها : « تعالى معى .. إن بقاءك معه وهو على هذه الحال لا يليق .. تعالى نقف فى الشرفة »

وأشار إليها فمشت أمامه إلى حيث أومأ ، فلما صارا وحدهما قال لها : « هل جئت إلى هنا من قبل ؟ »

قالت : « أبدا »

قال : « هل تعرفين أحمد هذا ؟ »

قالت : « عرفته اليوم من صديقة لى »

قال : « من أنت ؟ »

قالت وهى تبتسم : « إنك شديد الفضول »

قال « لأن تعرفى صاحباً يعى ما يقول ويفعل ، خير فيما أظن من أن تعرفى من لا يكاد يعى »

فضحكت ضحكة رقيقة خافتة وقالت : « أظن أن الأمر على العكس ! »

فقال : « هل تعنين أن تقولى إنه لا يعرف من أنت ؟ »

قالت : « هذا ما أعنى . إنك ذكى »

قال : « وماذا كان يعنى بقوله إنك رابحة على كل حال ؟ »

فأطرقت قليلا وقالت : « إن اهتمامك هـذا بأمرى يسرنى ، ولـكن هل من الضرورى أن تمضى فى التحقيق إلى النهاية ؟ »

قال : « عفواً ولـكن الـكلمة عجيبة ... وأنا أخشى أن تكون .. أن يكون .. »

وأمسك . وماذا عسى أن يقول ؟ إن هـذه أول مرة يلقاها فيها ، وليس من اللائق على كل حال أن ينتحل لنفسه حق القيم عليها ؛ ولـكنها كانت جميلة ، وكانت ثيابها تدل على النعمة والترف ، وقد تجد كثيرات يلبسن من الثياب أغلاها وأنفسها ولا يكن مع ذلك فيها إلا كالمستعيرات لها ؛ أما هذه الفتاة الصغيرة السن فيبدو للناظر إليها — من النظرة الأولى — أنها ألفت النعمة والترف ، وأنها نشأت فى أحضانهما . وكان قوامها ليناً ، وقدها صغيراً ؛ وكان ثدياها راسخين من غير أن يمسكهما أو يرفعهما شىء . وقد وقعت عين عبده عليهما ، أول ما وقعت على شىء فيها ، ففطن إلى دلالة ذلك وأدرك أن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون إلا غريرة على الرغم من ذلاقة لسانها . وهل يعقل أن يظل الثديان راسخين على الرغم من امتداد الأيدى اليهما وكثرة العبث بهما ؟ . أبدا .. أبدا ... كذلك كان يحدث نفسه وهو يكلمها ويحدق فى وجهها الدقيق المعارف ، المشرق الديباجة ، الصابح ، بغير معونة من المساحيق . وسره على الخصوص أنه لم ير على شفتيها أثراً للأحمر وأن حاجبيها طبيعيان

وقال لها : « ما اسمك ؟ »

فضحكت وقالت : « لـكأنك أبى »

فقال : « لا تضحكى . . واسمى ... قد يكون فضولى ثقيلا . . . . ولـكن مجيئك مع هذا السكران ... »

فقاطعته : « هل المجىء الى هنا عيب ؟ »

فقال : « لا . لست أزعم ذلك . . إن المـكان لا عيب فيه ... ناد لا أكثر ولا أقل ... ولـكنه خاص ... ليس لـكل الناس . . . ولـكن أين كنت مع أحمد ؟ ... أين سكر الى هذا الحد ؟ .. »

فقالت : « اسمع ... إنى كذبت حـين قلت إنى عرفته من صديقة لى ... الحقيقة أنى لم أره إلا منذ ربع ساعة ... أى قبل أن ندخل هنا بدقائق »

فقال : « هـذا أدهى ... كيف اتفق ذلك ؟ أعنى هل عادتك أن تتعرفى بمن يشاء أن يعرفك ؟ »

قالت : « لك العذر . وعبث أن أقول شيئا . هل تسمح لى أن أخرج ؟ »

فاعتذر اليها ، ولـكنه ألح عليها أن تقول له ماذا كان أحمد يعنى بقوله إنها رابحة على كل حال .

فقالت ببساطة : « أقول لك الحق إنى لا أدرى . إنه صاحبك فسله بعد أن يفيق »

وهمت بأن تمضى عنه ، فتعلق بها وراح يطالبها بأن تقول له كيف جاءت الى هنا مع أحمد ؟ فقالت هل تصدقنى إذا قلت لك إنى أنا مستغربة ، وإنى لا أعرف كيف اتفق أن يحدث هذا ؟ »

فأحس من نبرة صوتها أنها صادقة ، وقرأ فى عينيها الصراحة فقال لها : « مالك ؟ حدثينى »

فابتسمت ، ولـكن ابتسامتها كان فيها من

الـكآبة أكثر مما كان فيها من السرور ؛ وقالت : « هل أروى لك قصة حياتى مذ ولدتنى أمى ؟ »

فقال : « يسرنى أن أصغى »

قالت وهى تضحك : « ليس الآن ... يجب أن أخرج ... لقد كنت مجنونة ... أشكرك على عنايتك بى .. فضولك رد إلىّ العقل ... نعم كنت مجنونة ... لا بأس ... حصل خير ... فهل أعتمد عليك ؟ هل تسمح أن تخرج بى ؟ تخرجنى ؟ يجب أن أعود »

فقال : « تعالى » ومضى بها الى باب الشقة ، ولم يعن بأن يحيى صفية وهو خارج ؛ وكانت صفية تنظر اليه والى الفتاة بعين النقمة والحنق ، فقد ساءها منه أنه وكل اليها العناية بصاحبه السكران وينصرف هو عنها . وجعلت تسأل نفسها لماذا لم يكل هذه العناية الى الفتاة وهى كانت معه ؟ ... كيف يرمى عليها هذه الجثة ، ويروح هو يخطف الفتاة من صديقه ؟ وأسرّتها فى نفسها وحقدتها ، فقد كانت لها مآرب فيه

وحاول عبده أن يقنع الفتاة بأن تذهب معه الى السينما ، فقد كانت الساعة دون التاسعة ، ففى الوقت متسع ، أو أن يتمشى معها فى شوارع غمرة وهى مضاءة ولكنها كالمظلمة ، وكانا قريبين من هذا الحى ، ولكنها أبت وأصرت على العود الى البيت ، ورجت منه ألا يرافقها ، وأخيراً — وبعد اللتيا والتى — رضيت أن تقيد رقم تليفونه وأن تعد بأن تكلمه « يوما ما »

***

تركها وهو لا يعرف من هى ، وهى لا تعرف من هو . فأما هو فألح عليها بلا جدوى أن تخبره من عسى أن تكون ؛ وأما هى فلا نحتاج أن نقول إنها لم تحاول أن تعرف اسمه . وكان من الغريب أن يذكر لها رقم تليفونه وينسى أن يذكر لها اسمه ، وأن تقيد هى الرقم ولا تسأل عن الاسم الذى ينبغى أن تذكره وتطلب أن تكلمه ! ولم تكد تغيب عن نظره وتذهب إلى حيث لا يدرى ، حتى فطن إلى هذا السهو ، وأيقن أنه قد فقدها الى الأبد ، إلا أن يشاء الله أن يلتقى بها اتفاقا فى الطريق فراح يعدو فى الشوارع كالمجنون لعله يدركها ، ولكنه لم يكن يعرف أن بيت قريب لها فى هذه الناحية ، وأنها دخلته قبل أن يدرك مافاته ويشرع فى العدو ... احتياطاً منها لهذا ...

ومن المبالغة أن نقول إنه أحبها ، فقد كانت حصانة نفسه عظيمة ؛ ونعنى بذلك أنه لا يعشق من النظرة الأولى ، وأن تجاربه علمته الحذر ، وعودته الشك والاسترابة ، ومالت به إلى تلقى الحياة كما يتفق أن تكون وبغير احتفال كبير ، ولكنه لا شك فى أن هذه الفتاة وقعت من نفسه واستولت على جانب منها ، أو احتلت مكاناً فيها . وكان يعرف فتيات كثيرات يأنس بهن ويسر بمجلسهن ، ويقضى الساعة والساعتين معهن فى سمر وضحك ولعب ؛ وكانت له سيارة لا هى بالفخمة جداً ، ولا بالتى يحق لأحد أن يزدريها ؛ وكان يؤثر أن يحمل التى يتفق أن تكون معه إلى حيث يشاء هو ، ولا يخطر له أن يسألها أين تحب أن تذهب ، ولا يترك لها الخيار ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك عن جفوة فى طبعه ، أو عجرفة أو ما يجرى هذا المجرى ، بل لأنه اعتاد أن يكون الزمام فى يده ؛ ولكن هؤلاء الفتيات اللواتى يعرفهن كن لا يعجبنه ولا يرضى بهن ذوقه ، وكان بعض إخوانه الذين يعرفون سلامة ذوقه يقولون له : « ماذا يعجبك فى هذه ؟ » — مثلاً — فيقول وهو يضحك : « ليس لى فى الأمر خيار ... هذا ماوفقنى إليه الله ...

وعصفور فى اليد خير من ألف على الشجرة » ، وكان يدرك أن إخوانه على حق ، وأن اللواتى يعرفهن لسن أهلاً لأن ينفق فى سبيلهن وقته وماله . . ولكن ماذا يصنع ؟ . أنى له أن يصل أسبابه بأسباب فتاة من الطراز الذى هو أحب إليه ؟ إن هذا يتطلب أن يعيش المرء للمرأة ، أى أن يجعل همه ووكده أن يتصل بالنساء . وهذا ممكن ، ولكنه عسير عليه ، فقد كان هناك عمله ، وخليق به اذا أهمله أن يفقد رزقه . وكان فيه فوق ذلك حياء ، كان فى أول الأمر شديدا ، ثم غالبه وقهره ، إلى حد كبير ؛ غير أن حياءه لم يذهب وإنما بقى كامناً ؛ فكانت تعتريه منه نوبات — إذا صح هذا التعبير — تفسد عليه كل ما عالج به نفسه وراضها عليه أو ظن أنه راضها عليه . وكانت هذه الفتاة التى رآها فى بيت « صفية » من الطراز الذى يشتهيه ويصبو إليه — الجسم الصغير والقد المعتدل والخلق المستوى — وشام الخير من لحاتها ، وآنس من كلامها الرشد . ولا ريب أن مجيئها مع أحمد — ذلك السكران — كان خفة وطيشاً ، ولكنه صدق أنها جاءت معه لا تدرى كيف . . ومن يدرى ؟ لعل نوبة اضطراب نفسى عرتها فأقدمت على ما كانت خليقة أن تحجم عنه لوكانت متزنة الأعصاب . . على كل حال قد ذهبت الآن . وأكبر الظن أنها لن تلقاه . . حظ ! ! درة ظل حياته يغوص على مثلها فى لج الحياة ، ثم لم يكد يظفر بها حتى حرمها . . ولكن هل هى درة ؟ . بلا شك ! . ولم يعجبه هذا التسرع ، وقال لنفسه : إن شعوره بالحرمان الذى مُنى به هو الذى يحمله على المغالاة بقيمتها . واقتنع بهذا — اقتنع عقله بأن الحسرة والأمل هما اللذان يميلان به الى المبالغة والتعجل والقول بما لا يعلم — ولكن شعوره مع ذلك بقى كما هو فلم يضعف اعتقاده بأنه فقد درة

ومضت الأيام ، وكان قلما يتلبث فى مكتبه لكثرة ما تحوجه أعماله إلى الخروج . وكان إخوانه يقولون له محتجين عليه : « يا أخى أين تذهب ؟ . كلما جئنا أو سألنا عنك بالتليفون قيل لنا خرج » فيقول لهم : « وما حيلتى ؟ . مطالب العمل تضطرنى إلى النط هنا وهنا ؛ ولا سبيل إلى إنجاز أعمالى إلا إذا تعهدتها بنفسى » ، ولكنه بعد أن قابل الفتاة وجد الوسيلة إلى القعود والاستغناء عن الخروج ، واكتفى بالتليفون ومساعديه فى المكتب . وكان قلما يغادر الغرفة التى فيها التليفون مخافة أن يتفق أن تكلمه فلا يحسن غيرُه جوابها لأنها لا تعرف اسمه . . فتالله ما كان أحمقه ! . كيف تركها تذهب قبل أن تعرف اسمه ؟ ولم يكن طريقه من غمرة ولا غيرها مما هو قريب منها ، فقد كان بيته فى شبرا ، ولكنه صار يذهب إلى شبرا عن طريق غمرة ، ويجوب بسيارته كل شارع وزقاق فى هذا الحى . وكان كثيراً ما يترك السيارة ويمشى على مهل وعينه إلى النوافذ والشرفات . وكان ربما قال لنفسه : إنه أبله ... ومن أدراه أن بيتها فى هذا الحى ؟ ثم يعود فيقول لنفسه : إن هذا هو الأرجح . فقد قالت له إنها التقت بأحمد قبل أن يدخلا بيت صفية بدقائق ؛ والمعقول أن تكون راجعة الى بيتها ، وإلا فماذا كانت فتاة مثلها تصنع فى حى غمرة فى الساعة الثامنة مساء ؟ . ثم يعود فيقول لنفسه : لعلها كانت عند قريب لها أو فى بيت نسيب أو صديقة ؟ . ولم يمنعه هذا الاضطراب أن يظل يجوب الحى كل يوم ، وكل ليلة ، مرات ، ولكنه لم يفز بشىء

وقال لنفسه عصر يوم وهو ماض الى مكتبه فى شارع عبدالعزيز : « القاهرة واسعة ... فيها مليون

وربع مليون نسمة فلا أمل فى لقائها إلا بمعجزة ... وأولى بى أن أكف عن البحث فانه عناء باطل ... ولأسهل من ذلك أن ألتمس إبرة فى كوم من القش ».

وكان قد بلغ العتبة الخضراء فتذكر أنه لم يحلق ذقنه ، فترك السيارة الى جانب الرصيف الأيسر المحاذى لخط الترام ، وذهب الى دكان حلاق وهو يحدث نفسه بأنه سخيف . . يخرج من البيت من غير أن يحلق . . « لنفرض انى التقيت بها فهل أقابلها بهذا الوجه القذر ؟ . » وضحك من نفسه وهو يقعد على كرسى الحلاقة وقال — لنفسه طبعاً — : « يعنى خلاص ؟ . لم يبق إلا حلاقة الذقن ؟ . أهذا كل ما كان يمنع ان ألقاها ؟ . أما إنى لسخيف »

وكان يبتسم والحلاق يجرى الموسى على صفحة خده فيضطر أن يرفع يده حتى يعود جلد الوجه الى الملاسة بعد التقبض . ومن يدرى ماذا كان الحلاق يقول لنفسه وهو يرى هذا الزبون الطارىء يبتسم أو يعبس بلا مناسبة ؟ . . .

وخرج ومشى مطرقاً الى السيارة ، ووقف أمام بابها ليفتحه ، ويركب ، وإذا به يرى الفتاة واقفة على رصيف الترام ! . وكانت وحدها أيضاً ! . أو على الأقل لم يكن الى جانبها أحد لا من هنا ولا من هنا ... فذهب يعدو إليها وقال لها وهو يلهج — لا من الجرى بل من الاضطراب العصبى — وقلبه يدق كالمطرقة

« أنت فين ؟ . هلكتنى »

فالتفتت إليه مستغربة ، أول الأمر ، ثم عرفته فقالت ببساطة : « آه ... أهو أنت ؟ . سلامات »

قال : « سلامات إيه وهباب إيه ؟ . يعجبك كده ؟ . أنا مت .. »

فقالت بدهشة — وقطبت — « مت ؟ . لست فاهمة . . معذرة »

فأدرك أنه تهور ، وانه لا معنى لتحميلها تبعة ما لقى فى تلك الأيام . وكان الدق الذى فى قلبه قد هدأ ، وأنفاسه قد انتظمت فقال : « معذرة . . لا تؤاخذينى . . إنما عنيت انى تعبت فى البحث عنك . . أوه كل يوم ... وكل ليلة ... لم أدع شارعاً من شوارع غمرة إلا مشيت فيه مرات بعدد شعر رأسى »

فقالت : « غمرة ؟ . (وضحكت) إن بيتى فى المنشية ... ولكن لماذا أتعبت نفسك ؟ »

وكانت عيناه قد اتسعتا جداً ، وهو يسمعها تقول ان بيتها فى المنشية ؛ ثم فطن الى ما فى ذلك من سخر القدر ، فابتسم وقال لها : « لأنك أخلفت وعدك ... ألا تذكرين ؟ . ما علينا ! . والآن قد وجدتك فالى أين ؟ »

قالت : « إنى ذاهبة لشراء أشياء »

قال : « أحملك فى سيارتى الى حيث تريدين فانى أكره أن أكلمك فى الطريق . . . لأجلك لا لأجلى »

وأقنعها فركبت معه ، وقال لنفسه إنها دقائق ليس إلا ، فلأبح لها بما أجن من الشوق ، وراح يصف كيف كان يصبو إليها ، ويتلهف على رؤيتها ، وكيف كان ينتظر بجانب التليفون كل يوم ساعات ، وكيف كان يمشى فى غمرة محدقا فى البيوت ، أى فى شرفاتها وشبابيكها ، ويصطدم بالناس والأشياء ولا يبالى أو يعتذر

وكانت تنصت ولا تقاطع ، فلما فرغ قالت له : « هل تريد أن تضحك على ؟ »

قال وهو كالمذهول : « أضحك ؟ »

فقالت وقد أيقنت من هيئته أنه صادق : « انى أصدقك ... ولكن أليس هذا غريباً ؟ . .. انه

مفاجأة لى أنا على الأقل »

فقال باخلاص : « لقد كانت مفاجأتى أنا أقوى ... لم أكن أتصور أن يحدث لى هذا ... أن أحب من النظرة الأولى ... كان هذا يبدو لى مستحيلاً ... ولكن الأيام توالت وأنا لا أزداد الا شغفاً ... لم يفتر شوقى اليك وذكرى لك ... لم تبهت صورتك ... بل صارت أقوى وأسحر ... لا أدرى كيف ... »

فقالت فجأة : « اسمع ... اذهب الى الجزيرة »

فكاد يطير من الفرح ، وبلغها فى أوجز وقت ، ولم يعبأ بالمارة ولا بشرطة المرور ؛ وكانت تبتسم إذ تراه لا يتكلم ولا يعنى بشىء إلا أن يبلغ الجزيرة فى مثل ومض البرق . ووقف هناك فقالت : « لا ... يحسن أن تمشى على مهل ... أو قف ... لا بأس ... »

وسره وهو جالس إلى جانبها فى السيارة أن يسمعها تقول له : « إنى أخشى سوء ظنك ولذلك أرى أن أروى لك قصتى ... لن أذكر أسماء ... القصة فقط ... »

فهز رأسه مغتبطا ... أليست قد صارت يعنيها أن يحسُنَ رأيُه فيها ... حسبه هذا ... »

وروت له قصتها فقالت : إنها كانت مخطوبة لشاب من أسرة كريمة غنية ، وإنهما تحابا بعد الخطوبة ، فما رأته قبلها ، ومضت الأيام وكرت الليالى ، وكانت تلاحظ مستغربة أنه لا يذهب معها الى سينما أو مسرح ، أو يخرج معها للتنزه ، وكان يعتذر دائما بالعمل وضروراته ، فكانت تقبل عذره ولا تلح عليه ، ولا تعير الأمر أدنى تفكير ، حتى كانت الليلة التى رآها فيها فى بيت صفية ، وكانت فى السينما مع أمها ، وإذا بخطيبها يدخل وذراعه حول ذراع فتاة اسرائيلية — هى اسرائيلية على التحقيق ، سحنتها تدل على ذلك — وكانت الأنوار قد أطفئت لأن السينما كانت قد بدأت فجلسا وراءها ، فلم يبق لها عين ترى السينما بها ، ولا عقل يفهم ، ولا أذن تسمع إلى ما يهمس به خطيبها فى أذن صاحبته فسمعت ما فهمت منه — على الرغم من تقطع الكلام وضجة السينما ، أنه سيظل وفياً لها لا يتخلى عنها ، وأن ما سمعته عن زواجه أو وَشْك زواجه كذب وافتراء ، وأن كلام الناس كثير ، وهل هو مجنون حتى يتزوج هذه المصوصة المعروقة ؟

ولم تستطع أن تسمع أكثر من ذلك لأن الدم صعد الى رأسها فدار ، ثم نهضت واعتذرت الى أمها بأنها مريضة وأنها ستذهب الى البيت لترقد . همست بهذا فى أذن أمها ... وتركتها قبل أن نستطيع أن تقول شيئا ، وخرجت كالمجنونة ، وظلت ماشية على غير هدى ، ولم تدرك أنها فى حى غمرة إلا بعد أن خرجت من بيت صفية ... وكل ما تعرفه عن هذا السكران — أحمد — أنه لف ذارعه بذراعها — لا تدرى ولا تذكر كيف — وأنها صعدت معه فما كان فى رأسها عقل ... هذه هى القصة .. وقد انتهى كل ما بينها وبين خطيبها .. لم تقل شيئا لأمها ولا لأبيها .. اكتفت بالاصرار على الرفض .. فتركاها وشأنها لما رأيا عنف الاصرار ، ولأنهما أدركا أن الأمر لا شك خطير .. وقالت له أخيرا إنها شاكرة له وحافظة لجميله ، لأنه رد اليها عقلها فى تلك الليلة

ولما فرغت من قصتها أدهشها بقوله : « تزوجينى ! »

فلم تستطع أن تقول أكثر من « أ .. أنت .. إيه ؟ ... »

فلم يجعل باله الى دهشتها ، ولو جعله لكان خليقا أن يحس مما يفتر من حماسته ، بل أعاد الطلب : « تزوجينى »

فقالت : « إنك مدهش ! »

قال : « كلا .. إنى أحبك ، وقد عانيت فى الأيام التى افتقدتك فيها ما علمنى أننى لا أستطيع أن أحيا بدونك « فتزوجينى »

قالت : « وأنا ؟ ليس لى حساب عندك ؟ »

قال : « بالطبع .. ولهذا أقول تزوجينى »

فقالت : « أرجو ألا تسىء فهم ماأقول ... لو كنت أحبك لما وسعنى أن أتزوجك الآن . . . فقد يقال إنى تركت خطيبى من أجل رجل آخر»

قال : «ماذا تعبئين برجل يقول عنك ماقال ؟ »

قالت : « لست أباليه ، وإنما أبالى الناس ... أهلى ومعارفى »

قال : « ماذا يعنيك منهم إذا كنت سعيدة معى ؟ »

قالت : « اسمع ... قبل أن تخف حـدة الألم الذى أعانيه لا سبيل الى التفكير فى شىء »

قال : « مسكينة !. ولـكن هل معنى ذلك أن لى أملا »

قالت : « من يدرى ؟ ثم إنى لست أبى »

قال : « أبوك ... آه أبوك ! . ولـكن ماله ؟»

قالت : « قد يكون له اعتراض »

قال « : اعتراض على سعادتك ؟ . أم تريدين أن تقولى إنك لا تعرفيننى ؟ . معك الحق »

وعرفها بنفسه وأفضى اليها بكل ما يمكن أن تحتاج الى العلم به ، ولكنها مع ذلك رجت منه أن يعفيها من حديث الزواج فسكت ، وا كتفى بوعد منها بأن تلقاه من حين الى حين

وصارا يلتقيان كل بضعة أيام مرة ، ثم كل يومين ، ثم كل يوم ، وأخيرا خطبها الى أبيها وتزوجا ومر عام وجاء الصيف ، فانتقل عبده و«عايده» — فقد آن أن نعرف اسمها كما عرفه زوجها — الى الأسكندرية ، واستأجرا هناك شقة مفروشة فى « الرمل » قريبا من البحر ، فدخلت عليها يوما صديقة لها من عهد الحداثة اسمها « زكية » وكانت شديدة العناية بثيابها وعطورها ، مسرفة فى حبها للسباحة والرقص ؛ وكان هواها هذا يثير لغطا كثيراً حول اسمها ، ولـكنها كانت لا تبالى ذلك اعتمادا على مالها وجاه أسرتها ؛ وكانت تعتقد أنه يسعها أن تفعـل ما تشاء ، لا ما ينبغى ، فكان أترابها يحسنّ استقبالها فى بيوتهن ، ويتقين أن يخرجن معها ، مخافة أن يمتد اليهن القيل والقال ؛ ولم يكن فيها سوء ، ولـكن استخفافها بالتقاليد وافراطها فى استعمال حريتها ، كانا عظيمين ؛ ولم تكن كل فتاة يسعها مايسع زكية . وكان معروفا عنها أنها تجرى مع أول الخاطر ، وأنها أصرح مما ينبغى ، فكان لسانها يفسد عليها مزايا الصدق والصراحة وطيب القلب ؛ ولم تكن تبالى أن تحشر نفسها فيما لا يعنيها ، ولم يكن هذا عن فضول بل عن إخلاص وغيرة ، ولـكن دخولها فى شؤون غيرها قلما كان يحلو للناس

وقالت لعايدة وهى تجلس على كرسى : « ما أبهاك اليوم يا عايدة !. يظهر أن الزواج زاد حسنك نضارة »

وابتسمت وهى تخرج من حقيبتها الصغيرة علبة مذهبة مرصعة فتحتها وأخذت منها سيجارة مذهبة الفم أشعلتها وراحت تدخن وتنفخ

وقالت عايدة : « وأنت ؟ إنى أراك نرجسة !. هذا الثوب وحده حلم جميل . . . لم أرك منذ أيام ! فماذا كنت تصنعين بنفسك ؟ »

قالت زكية : « دعينى وقولى لى أين عبده ؟»

قالت عايدة : « عبده ؟ .. إنه فى مصر ... له ثلاثة أيام هناك ... تعرفين العمل وضروراته »

فقالت زكية وهى تنفخ الدخان وقد شردت

نظرتها : « العمل ... إن العمل لا يمكن أن يقصى الرجل عن فتاة لها مثل جمالك وسحرك ... شيء واحد هو الذى ينأى به عنها ... امرأة أخرى ! »

فبهتت عايدة وحملقت فى وجه صاحبتها بعينيها الواسعتين ثم قالت : « هـذه سخافة يا زكية ... لا ينبغى لك أن تظنى هذه الظنون بعبده ، ومن باب أولى لا يجوز مثل هذا الكلام عنه »

فقالت زكية بلهجة المُصر : « ألا يجوز لى ذلك ؟ حسن . اسمعى إذن . واذكرى أنه ليس لى غاية أبغيها من وراء ما أقول ، وأنه ليس أحب إلىّ من أن تكونى سعيدة موفقة ... ولكنه يبدو لى أن من واجبى أن أعرفك أن عبده على صلة بامرأة هى الخطيئة مجسدة

فريعت عايدة ، ووثبت الى قدميها وأحست أن رأسها يدور ، ويدور ، فاعتمدت على ظهر الكرسى وامتقع وجهها ونظرت الى زكية مبهوتة

فقالت زكية : « صحيح يا عايدة ! . لقد رأيتهما معا البارحة فى سان جيمز ... وسمعت حديثهما أيضاً ، فقد كنت قريبة منهما أراها ولا يرياني ؛ وكان مما سمعته : « إن زوجتى لا يجوز أن تعرف شيئاً من هذا أبدا ، فليبق بينى وبينك فقط » ثم أخرج من جيبه خاتما لا أدرى ماذا يساوى ولكنه على كل حال لا يمكن أن يكون من قصدير . والآن قد عرفت الحقيقة ، فماذا تنوين أن تصنعى ؟ »

وكانت عايدة تنظر إلى الأرض ، أو الى قدميها ، فلم تجب ، فأعادت زكية السؤال ، فقالت عايدة : « أصنع ؟ تسألينني ماذا أنوى أن أصنع ؟ . ليس هناك سوى شيء واحد أستطيع أن أصنعه ... أغادر الاسكندرية حالاً ! . ولن آخذ مني شيئاً ... إنتهى كل شيء »

فنهضت زكية وقالت : « لا تكونى سخيفة ... إن فى وسعك أن ترديه إليك إذا أحسنت السياسة .. الأمر يحتاج إلى كياسة وحسن تدبير ... ولم أقل لك ما قلت لأفسد عليك حياتك ، بل لأنبهك الى الخطر لتعالجيه بالحكمة »

فصاحت عايدة : « أتظنين انى أقبل ان أظل مع عبده بعد هذا ؟ . بعد ان خانني ؟ . كلا ... ولو ظل يتوسل إلى على قدميه سنوات ! . يعطى خاتماً لمومس ، وما مضت على زواجنا سنة واحدة ؟ هه ؟ ... ويحذرها أن يتصل بى الخبر ؟ . » وتحدرت الدموع على خديها « إنى أحب عبده ... حبه يملأ قلبى ، وكان حبه يعمر صدرى ... أتظنين بى أنى أتدنى وألجأ الى الحيل لأستعيد حبه لى ؟ . أألوث نفسى لأنتزعه من هذه المرأة ؟ . كلا ! الحب الذى يذهب لا يعود ! . والنار التى تخمد كيف يرجى أن تعود مضطرمة ؟ . لقد مزق عبده قلبى ! . إقتلع أحشائى من جذورها . ولا أستطيع ان أغتفر له هذه الخيانة »

وغلبها البكاء ، وتساتلت عبراتها ، واضطربت شفتاها ، وعجزت عن الكلام . ثم أحست يداً على كتفها ، وصافح سمعها صوت عبده :

« أنا خائن ياعايدة ؟ . كيف اكتشفت خيانتى ؟. مهلاً ... لقد سمعت كل كلمة »

فقالت زكية . « أنا أخبرتها ... رأيتك تعطى تلك المرأة أمس خاتماً ، وشعرت أن من واجبى أن أنبه عايدة »

فقال عبده : « هل تسمحين بالخروج من هنا ؟ . ولا تكلفى نفسك عناء الرجوع مرة أخرى ! . »

فغضبت زكية وصار وجهها كالجمرة وقالت وهى تخرج : « هذه إهانة فظيعة »

فقال عبده : « إذهبى وسكنى أعصابك بالرقص مع أول رجل تصادفينه »

ثم دار وواجه عايدة فقالت وهى تنتحب :

« كيف تفعل هذا ؟ . كيف ؟ »

وحالت الدموع دون الكلام ، فقال عبده :

« إسمعى يا عايدة ... ان المرأة التى كنت معها فى سان جيمز هى « صوفى » أو صفية ... هل تذكرين هذا الاسم ؟ . يظهر أنه كان لها مآرب فىّ ... وأنا لا أدرى . ويظهر ان زواجى أحنقها ، وقد راحت تلغط وتتحدث بأنى عرفتك فى بيتها ... لا تبالى ، ان هذا طعن عليها هى قبل أن يكون طعناً عليك أو علىّ ... الحقد يعمى ويصم ... لهذا اضطررت أن أتألفها وأقيدها ... إستكتبتها إقراراً يضطرها الى قطع لسانها بعد اليوم ؛ وكان لا بد أن أداورها وأحاورها فانقدتها مبلغاً من المال ... قليلاً فى الحقيقة .. وأعطيتها خاتماً ليس له قيمة كبيرة ، لأنى خفت عواقب لغطها ... سمعة المرأة كسمعة البنك ... »

وأخرج من جيبه ورقة ودفع بها الى عايدة

* * *

وقال عبده ، وهو يسير مع عايدة على شاطىء البحر :

« إنى سعيد . . سرنى ما حدث »

فاستغربت وقالت : « سرك ؟ لست فاهمة »

فقال بابتسام : « لأنى لما سمعتك وأنا واقف فى مدخل الباب ورأيتك تثورين هذه الثورة أيقنت أن حبك لى لا يمكن أن تنال منه الأيام أو تفتره الحوادث »

فقالت بخبث : « لا تكن واثقا .. »

وذهبت تعدو أمامه ، وقد وسعها أن تضحك وتمزح ، فجرى وراءها ، وخاض الماء اليها ، وتناولها بين ذراعيه ، وضمها اليه ، وأهوى بشفتيه على شفتيها .

ابراهيم عبد القادر المازنى



أرخى الليل سدوله على الكون ، والمطر ما يزال يتهطل رذاذاً يلاطم زجاج النافذة فى رفق ولين ؛ وهم فى حجرة من منزل ريفى حيث يقضون عطلتهم ، وقد تناثروا حول نضد عليه مصباح ينبعث منه ضوء هادىء ضئيل ؛ وهم جماعة من الشبان والشابات بين الربيع الخامس عشر والعشرين من العمر ؛ وكلوتيلدا أكبر الفتيات سنا لم تسلخ الثامنة عشرة ؛ فتاة فى مقتبل العمر وفجر الحياة ، فى ميعة الصبا واكتمال الأنوثة ، تضطرم فى وجنتيها حمرة الشباب والجمال ، هيفاء جذابة ، فيها الملاحة والظرف ، وفى نظراتها السحر والفتنة ؛ وهى جالسة الى جانب طالب جامعى رثّ الملبس ، زرى الهيئة ، منتقع اللون ، تبدو على وجهه سمات الحياء والجبن ، وفى نظراته الاضطراب والضعف ؛ ثم هو هادىء رزين ، يرى مجون من حوله فيبسم فى هدوء ودعة ، ثم لا يخوض فيما هم فيه من لهو وعبث ... وقبالة كلوتيلدا يجلس أتيلو وهو شاب فى السابعة عشرة كثّ الشعر سَبطه ، تنبعث من عينيه أشعة نقادة علامة ذكاء وفراهة ، وفى وجهه يتدفق دم الشباب الحار علامة صحة وسلامة ، ويداه منقبضتان كأنما تحرزان ثمينا علامة قوة وفتوة ، ثم هو قد ورث عن أمه الألمانية الميل الى الصراخ فى وجه من يعانده ، صراخ الغضب والحنق ؛ وفى عينيه تترقرق عبرات الغيظ والشر ... وهو يستشعر فى نفسه السمو على من حوله من رفاقه جميعاً حتى الطالب الجامعى مولر ، ثم هو يحتقره ويزدريه لأمر فى نفسه ، وهو دائما يهيج غيظه ويثير غضبه بكلمات فيها السخرية والتهكم ؛ ولكنه الآن قد جلس فى هدوء وصمت ، ونظراته تقتحم هذا الطالب القذر ... وفى الناحية الأخرى من النضد جلست اليصابات أخت كلوتيلدا الصغرى وهى فى السابعة عشرة ، ثم ابنة عمها كلارا وهى فى السادسة عشرة ، ثم فتاتان فى سنها هما هيلين وماري أختا أتّو وهو فى الخامسة عشرة ، وهم أبناء أحد الجيران وكلهم يلعبون الورق فى هدوء وسكون تبدو عليهم اللذة والغبطة ... إلا الطالب مولر فقد جلس يقرأ شعرا

وراح أتّو يتثاءب فى ملال ، وسرت العدوى الى كلارا فراحت تتثاءب هى الأخرى ، والى جانبها اليصابات تفيض نشاطا وحياة ، ويزعجها ما ترى فى هذين من كسل فتثور بهما الفينة بعد الفينة ... وابتدأ الخمول يتسرب الى النفوس ؛ غير أن المغارم ما تزال تدفع الى كلوتيلدا المرة بعد المرة ؛ والمطر ما يزال ينهمر والرياح تصفر صفيرها المزعج

وأرادوا أن يردوا المغارم الى أهلها ، فأرغموا الذين خسروا على أن يعملوا عملاً : فهيلين تقف

صامتــة لا تتحرك ولا تتململ ، وكلارا تحفظ قطعة من الشعر ، وأتـوا يقلد صوت الحيوان ، وكاوتيلدا تصطنع الحماقة فتتهجم على رفاقها بألفاظ جافية نابية ، وأتيليو يمثل دور صعلوك أرستقراطى تعينه رفيقته اليصابات

وراح أتيليو يتصعلك على كاوتيلدا ، وحين وقف بأزائها نزت منـه نزوات العاطفة الفياضة الجامحة ، وأحس كأن ناراً تستعر فى قلبه ، فرفع يدها الى فمه يريد أن يقبلها ، وعيناه تحـدقان فى عينيها ، ثم ذهل عن نفسه ... وأجهدت اليصابات نفسها فى أن تجره بعيدا فأبى وقلبه يضطرب ...

وسحبت كاوتيلدا يدها فى رفق ، وفى نظراتها الشفقة والعطف ، وعلى فمها ابتسامة رقيقــة ؛ والجميع يرمقونه فى دهشة وعجب ، إلا مولر فقد سيطر عليه الحقد والغيظ

وانتحى أتيليو ناحية ، وثارت به اليصابات : « حقاً لقد كنت وقحاً » وأصم الشاب أذنيه عن لوم الفتاة ، ونبهتهم مارى الى أمر حـين قالت : « والآن ماذا نفعل ، والمطر ما يزال يتــدفق ؟ » وكانت العاصفة تزأر وتصفع جدران الدار فى شدة وعنف ، ثم اضطرب المصباح يوشك أن ينطفىء ؛ وفزعوا جميعا حين سمعوا الباب يصر صريرا شديدا وأوراق الأشجار تعصف بها الرياح فتنبعث منها أصوات مزعجة ، والسماء ترعد وتبرق تنذر بأمر ؛ وران عليهم حزن عميق نزع عنهم ما كانوا فيــه من مرح ولهو ، فوجموا ...

وفتحت باب الحجرة المجـاورة امرأة فيها الجمال والظرف ، وقد تشعث شعرها الأسود الناعم وعلى شفتيها ابتسامة عذبة ثم قالت : « ماذا بكم يا أولادى ؟ لماذا تجلسون فى صمت ؟ » وأجابت كاوتيلدا : « نحن بخير يا أماه ! » وقالت اليصابات : « لقـد أفزعنا المطر والريح . وماذا تفعلين أنت وأبى ؟ أما تزالان تلعبان الورق ؟ » قالت المرأة : « نعم ، ما زلنا ... اتخـذوا لـكم سلوة ... » ثم أغلقت البـاب فى رفق . . . . . وساد الصمت مرة أخرى

وانطلقت كاوتيلدا وكلارا الى النافذة تنظران من خلال الزجاج ، فانطلق مولر على آثارهما وأتيليو جالس الى النضد ينظر ... وأتو يضرب فى أنحاء الحجرة يغنى أغنية انجليزية اهتزت لها اليصابات فراحت ترقص على نغماتها وابنتا الجار ترمقانها فى لذة وطرب

***

وعلى حين بغتة انتفض أتيليو وهو يقول : « ما هذا ؟ ماذا وراء ... ؟ أفيسيطر علينا الجمود والكسل فنظل فى هذه الحجرة الضيقة طول الليل ؟ لابد أن نعمل شيئا ... » قال مولر وهو يبسم فى تهكم : وما تطالب الينا أن نعمل ؟ قال : « فلنعمل شيئا .. شيئا مثل ... فلنذهب الى الغابة » قال الآخر : « عجبا ، أفنذهب تحت هذا الماء المنهمر ؟ » وراح أتيليو يقلده ويسخر منه « الماء المنهمر ؟ » لقد كان يبغض هذا الطالب من قلبه ، أما الآن وقد رأى كاوتيلدا تنظر اليه شزراً حين سخر منه فقد استحال هـذا البغض الى كراهية ومقت يخزان قلبه فى غير رحمة ولا شفقة

لقد رأى هو هذا الطالب منذ فترة يقف الى كاوتيلدا وقد ألصق جسمه بجسمها فأحس هو بالدفء والحياة ، وأحست هى . . ثم .. ثم ارتدت إليه ذكرى أيام عطلة عيد الامبراطورية حين كانت كاوتيلدا لا تراقص إلا هــذا الشاب ولا يراقص

هو غيرها ... ثم هى لا تذكره هو إلا فى النهاية وقد أوشك الحفل أن ينفض فتنطلق إليه تسأله : «لماذا لم تراقصنى ؟» فيجيب فى جفاء : «لا أستطيع الرقص !» وقلبه ينازعه إليها . فتهز هى كتفيها ثم تنطلق الى صاحبها ، ليظل هو وحده يتمنى لو آوى إلى فراشه وقد أجهده التعب وأضناه السهر . غير أن ريح كلوتيلدا كان يرف عليه عطراً ندياً بين الفينة والفينة فيبعث فيه النشاط والصبر

لقد ذكر أتيليو هـذا وغير هذا مما كان ، فكلوتيلدا ومولر كانا يسيران دائماً جنباً الى جنب ، ويأتيان أمراً واحدا ، ويتبادلان الهدايا والنظرات والابتسامات كعاشقين يهفو قلب كل منهما نحو الآخر فما يستطيع عنه صبراً ، وارتدت الحوادث المؤلمة فى خاطره يشـد بعضها بعضاً فطأطأ رأسه وذهب فى غمرات من الأفكار السود ؛ واستطاع أن يرفع رأسه — بعد لأى — وأرسل من أعماقه زفرة كاد ينشق لها قلبه . . ثم نظر الى النافذة فى فتور وتكسر فما رأى أحداً ، فأدار بصره يبحث فاذا كلوتيلدا وصاحبها قد جلسا يقرآن شعراً فى كتاب واحد والحجرة فى سكون القبور ...

***

وقطعت اليصابات هذا الصمت العميق بقولها : « أتيليو ! لقد قلت شيئاً ثم أمسكت ! » وفزع هو حين رأى الفتاة تنتزعه من أخيلته وأراد أن ينحط عليها بكلمات قارسة لذاعة جزاءاً وفاقاً لما أنبته به منذ حين ، غير أنه هدأ من ثورته وقال : « أنا ؟ أنا لا أذكر ! » وصاحت مارى من جانب الحجرة : « لقد انقطع المطر ! » وصاحت هيلين من الجانب الآخر : « حقاً ، حقاً ! » وانطلق الجميع الى النافذة يتدافعون ويتصايحون وكادت تقع بينهم مشادة لولا أن كلوتيلدا زجرتهم : « أمسكوا عن هذه الأصوات المنكرة ، هذا وقت سرور بانقطاع المطر ! » وقال الطالب وهو يبسم فى تهكم : « لقد انتهى هناك وابتدأ هنا . . فى الدار ! » وفى الحق لقد كانت القطرات تتساقط من خلال السقف فى رفق أولاً ثم فى شدة ؛ وفتحت اليصابات النافذة فاندفع الى داخل الحجرة هواء ندى بارد نفث فيهم جميعاً روح النشاط والقوة ، فقالت كلوتيلدا : « الآن نستطيع أن نخرج الى نزهة قصيرة ... » ووافق هذا هوى فى نفوس الجميع فانطلقوا يفتشون عن معاطفهم وقبعاتهم فى صخب ولجب ، ثم راحوا يتشاورون فيما يفعلون ...

وقال مولر : « نزهة فى الغابة مشياً على الأقدام » فأجاب أتيليو فى إحتقار : « مشياً على الأقدام ؟ كيف ؟ كأنك تريد أن ينطلق كل اثنين معاً ! كأنك تمنى . . ! » ووقفت الكلمات على شفتيه فما استطاع النطق ، فأجابت كلوتيلدا حين اضطرب الشاب : « الأدب والحياء يا أتيليو ! » وخمد ما كان فى أتيليو من حماسة وشجاعة حين رأى عينى الفتاة تقدحان شرراً يتطاير ، وهفت نفسه الى أن يعتذر ، غير أن كبرياءه ألجمته فجمد فى مكانه . واندفع الشاب وقد ارتد إليه هدوؤه : « لعل ما فيك من ذكاء وفراهة قد أوحيا إليك بشيء ، فما هو ؟ » وأحس أتيليو بالصفعتين فى وقت معاً فتخاذل ثم قال : « إلى النهر ، ونصحب معنا المصابيح اليابانية ندرأ بهـا الظلمة والضلال . أموافقون ؟ » وصاح أتو واليصابات معاً : « حسن ! » وتبادلت هيلين وكلارا النظرات ... نظرات الفزع والريبة ، وبدا عليهما الجبن والخور ، غير أنهما ما استطاعتا أن تقولا شـيئاً ، وقالت كلوتيلدا للطالب مولر : « ماذا ترى ؟ » قال : « لا بأس ، فمـا فى النهر ما يفزع وقد هدأت العاصفة ! » قالت هى : « أفتعتقد ؟ » وآلم أتيليو

ما رأى فقال : « لا ضير ، فأنا ذاهب ومن أراد فليتبعنى » ثم انطلق وفى نفسه الثقة والعزم ؛ وانطلق الجماعة على أثره

وساروا فى طريق غير معبد وسط حديقة مهملة ، قد تشعثت فيها الأغصان وأوراق الأشجار ونبتت فيها الحشائش هنا وهناك ؛ والرياح تعصف فتهز الأغصان فتتساقط عليهم قطرات كبيرة من الماء تبلل ملابسهم ووجوههم ؛ وأقدامهم تغوص فى أرض رطبة لينة ؛ وحين بلغوا النهر صاحت اليصابات : «المصابيح ، المصابيح ! » وانبرى أتو فى شجاعة .. ثم انطلق الى الدار ليحضر المصابيح والثقاب

***

وكان المـاء يندفع يلاطم بعضه بعضاً فينبعث منه خرير كهدير الرعد ، والأمواج تضطرب وتزمجر ، والتيار يحمل بعض الأغصان وأوراق الشجر وقطعاً من الخشب ، وفى فجوة على الشاطىء قاربان أترع أحدهما بالماء .. واندفع أتيليو ينشل الماء من واحد ، ومولر الى حبل القارب الآخر يفك عقدته ، والفتيات ينظرن فى صمت ، وكلوتيلدا تنظر الى السحب المتكاثفة فى السماء

وأفلح الطالب فى حل رباط القارب ، وحين انطلق إلى الثانى كان أتو قد عاد وصدره يعلو ويهبط من أثر الاجهاد والمصباحان تحت معطفه . وراحت مارى تهزأ بالطفل حين رأته قد أساء اختيار المصابيح فتصايح الصبية ، ودوى الصوت فى أذنى الطالب يزعجه وقد أعجزه أن يفك العقدة فصاح فى غيظ : « الصمت ، الصمت ! » وكان أتليو قد انتهى من عمله ، فاندفع إلى الطالب ينزع منه الحبل ، وفى لمحة البصر كان قد حل العقدة ، ثم أضاء المصباحين فى مهارة وإتقان ، ثم قال فى هدوء وكبرياء : «فلنبدأ ! »

واضطربت كلارا ثم صرخت : «أنا لا أجسر» والتف حولها الباقون يشجعونها فصرخت أخرى وهى تبكى : « أنا لا أجسر » فطوقتها هيلين بيديها وهى تقول فى رفق : «لا تحزنى ، سأظل إلى جانبك» وصاح أتو : « نعم ، أيها الجبناء ! » ثم اندفع ليأخذ مكانه فى القارب واندفعت اليصابات على أثره ثم مارى ؛ وأمسك هو بالمجدافين وجذب القارب إلى اليم فى قوة وهو يغنى ...

وفى القارب الثانى كلوتيلدا ومولر وأتيليو . ودفع أتيليو القارب بين الأمواج فى تيار جارف ، ثم ... ثم هبت الريح شـديدة عاصفة ، واضطرب النهر ، وبعدت الشـقة بين القاربين ... وفزعت مارى واضطربت اليصابات ، فأرسلتا معاً صيحة عالية أفزعت أتو وزعزعت عزيمته ، واضطرب لها قلبه فارتد إلى الشاطىء وقد خشى مغبة الاندفاع

وجرف التيار القارب الآخر ؛ وأتيليو ومولر يجدفان فى صمت وإطراق ، وكلوتيلدا تضطرب وقد سلبها الفزع من رزانتها ... ثم انطفأ المصباح فران عليهم ظلام عميق ، وخيل إليهم أن صوراً مخيفة تنعكس على صفحة الماء ، وأن أصواتاً خشنة تنبعث من كل ناحيـة فتنفث فى القلوب الرعب والهلع . . . وأجهد الشابان نفسيهما عبثاً أن يبلغا الشاطىء ، والأمواج تجذب القارب فى شدة وعنف ، وبدا لهم جميعاً فى كل ما يرون معنى من معانى الحزن واليأس ، وتراءت لهم الأصوات حولهم تشيعهم إلى النهاية ..

واسـتولى الـكلال على الطالب فأطلق المجداف من يديه وهو ينظر إلى كلوتيلدا فابتسمت ابتسامة مرة وقد سـيطر عليها الأسى واليأس ، وانتفض أتيليو يقبض على المجداف الذى أطلقه مولر وهو يصارع الأمواج فى عزم وقوة ، ثم أرسل صيحة دوى لها المـكان : صيحة فيها السرور والبشرى لأنه

استطاع أن يجذب القارب رويداً رويدا إلى الشاطىء

وقفز مولر إلى الشاطىء وأمسك بالقارب يريد أن يجذبه اليه ، غير أن موجة قوية غلبته على أمره فانفلت القارب ، وأفزعه ما رأى فصرخ صرخة شديدة ... وراحت الأمواج تتقاذف القارب وقد ذهل الاثنان عما هما فيه فما استشعرا الصدمة ؛ وما أحسا أن القارب قد انخرق برغم أن حذاء كاوتيلدا كان قد انغمر فى المـاء ، فكانت ترتعد من شدة البرد ومن شدة الخوف معاً

وأحس أتيليو بالاعياء والجهد فألقى المجدافين جانباً وقد استرخت ذراعاه إثر صراع عنيف دام طويلاً ؛ ثم قال فى أسى : « لقد تهدمت ، ستكون النهاية ؟ » فأجابت كاوتيلدا بصوت فيـه نبضات قلبها المضطرب : « استمر ، استمر » وحاول هو أن يستمر ، غير أن قوته كانت قد تحطمت فخر على ركبتيه ومال رأسه فلمس رداء الفتاة واستقر فى حجرها ، فصاحت : « ماذا ، ماذا تصنع ؟ .. » ولـكنه كان قد خرج عن وعيه فطوقها بذراعيه فى رفق وشغف ، ودفعته هى عنها فى صمت ولين ، فاستلقى فى قاع القارب ، ثم قام وقد آلمته الصدمة ، واندفع إليها ثانية .. لقد رنت فى أذنيه صيحة خافتة ثم لم يشعر بسوى شفتيها الجميلتين تلمسان شفتيه ؛ وإلا جسمها الغض الرطيب اللدن ينفح عبيره حواليه ، ثم يلصق بجسمه ؛ وإلا شعرها ، وقد عبثت به الرياح ، يداعب وجهه فينفث فى قلبه الشاب معانى ومعانى ...

ووقف القارب فجأة ، فالتفت هو مذعوراً ، فبدا له أنهما على خطوات من الشاطىء ، وفى قوة الشباب وعزمات الرجولة جذب القارب فاذا هما ... فاذا هما فى أمان ... ثم هبطا إلى الأرض وقد ابتدأ الظلام ينحسر عن جبين الفجر وهما يستشعران برد الليل فى مفاصلهما

لقد ثارت العاطفة فى قلب الصبى فما استطاع أن يرد جماحها ، وترقرقت العبرات فى محجريه فما استطاع أن يكفكفها ، فانطوى إلى نفسه يحدثها حديث قلبه ، ثم .. ثم أضاء المصباح وراح يقلب بصره فيما حوله ، فرأى طريقاً ممهداً بازاء النهر فسارا فى صمت جنباً إلى جنب ، وقطع هو هـذا الصمت بقوله : « يا عجباً ، لقد بلغنا البر بعد إذ فقدنا الأمل وعلينا الآن أن نحمد الله .. ! » وصمتت الفتاة فما أجابت فأطرق هو فى حياء وخجل . . . ثم قال : « أمتعبة أنت يا كاوتيلدا ؟ » وأصمت هى أذنيها عن حديثه ثم انطلقت بعيداً كأنها تهرب منه ، وأحس هو بالألم والخيبة يخزان فى قلبه ، فرفع المصباح ليرى مكانها منه ؛ ثم اندفع على أثرها يقول فى خضوع وذلة : « كاوتيلدا ! أفأغضبتك ؟ ماذا ، ماذا فعلت ؟ » ثم انتقع لونه ، واضطربت أعصابه ، وفترت قوته لأنه ... لأنه تذكر ...

ونازعته نفسه إلى أن يجثم عند قدميها يتوسل ويتوسـل ، غير أن شيئاً فى نفسه رده فما استطاع أن يفعل ، ثم قال فى همس واضطراب : « كاوتيلدا ! ماذا جنيتُ ؟ لم أفعل سوءاً ! أنا لا أذكر . حقاً ، أنا لا أذكر ... » وخفت صوت الفتى قليلاً قليلاً ، ولـكنه ما يزال يستعطفها : « لمـاذا ؟ لماذا تقسين عليّ ؟ لماذا ؟ لقد علقتك وأغرمت بك ! » وكانت هى قد بعـدت عنه فما سمعت كلمـاته الأخيرة ، وانطلق هو على أثرها . فقالت له فى جفاء : « دعنى ، دعنى وحيدة ! » واستطاع هو أن يرسل من بين أنـاته الخافتة : « لا ، لا يا كاوتيلدا ! لم أجن ولم أجترىءُ ! إن قلبى . . . » ثم راح يلين ما قسا من قلبها ، ومن حولها الطبيعة القاسية عابسة مهتاجة تبعث فى قلب الفتى الأسى والحسرة ، وهى . . . هى كاوتيلدا تنفث فيه اليأس وَالألم . . .

وبدا لها شبح يضرب فى الأرض يبحث عن شىء ، وارتفع من ناحيته صوت ينادى : « من هناك ؟ أتيليو ... كلوتيلدا ... » إنه هو ... هو الطالب مولر . ونادت كلوتيلدا : « هيا ! إنه أنا » ثم اندفعت مولية ...

لقد رأى أتيليو الطالب يسرع نحو كلوتيلدا ، ورآها هى تسرع نحوه ، ثم وقفا جنباً إلى جنب ، وخيل إلى أتيليو أنهما يتعانقان فتجهم وتعبّس ؛ وهبت نسمة من نسمات الفجر تحمل إليه حفيف الأوراق كأنه قبلة ! فارتعد وانتفض قلبه ، ثم جمد فى مكانه ، وقد استولى عليه دوار شديد فأغلق عينيه حيناً . . . وحين أدار بصره رأى الصديقين يلفهما الظلام ، وهو ما يزال يسمع صوتاً يناديه : « أتيليو ، أتيليو ! أسرع فنحن فى انتظارك ! »

وانطرح على الحشائش الندية ، والأزهار من حوله تنفح عبيرها الشذى تريد أن تبعث فيه الهدوء والنشاط ؛ غير أنه كان قد انطوى على آلام مبرحة يتفطر لها قلبه ، وتتداعى لها رجولته ؛ وأظلمت الدنيا فى ناظريه ؛ فراح يتقلب فى قلق ومضض ؛ وتدفق اليأس فى قلبه لينزع عنه نور الحياة وجمالها ؛ واستولى عليه شعور غريب ... شعور الفرار من على الأرض ، من هذا العذاب . . . وبدت له الحياة ، بعد التى أحب ، عبثاً لا خير فيها

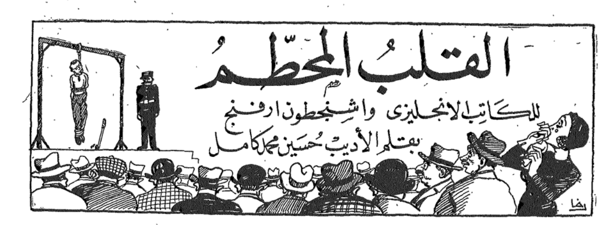
واضطرب شبح الموت فى خياله ، وتراءى له أنه يشق إليه الظلام فى مثل عصفة الريح وهدرة الموج ؛ وكلوتيلدا ماثلة فى خواطره ؛ فهو يراها ومن عينيها السوداوين تنبعث أشعة آسرة تجذبه اليها فى غير هوادة ولا لين ، وهو يرى وجهها الوضاء الجميل ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة عذبة ؛ وهو يرى قدها النحيل الضامر يتهادى فى دلال ورقة . . . وهو يرى . . . وهو يرى . . . وثبتت الفتاة فى خياله ما تبرح ولا تتحول ؛ فأحس بدمه يفور فى عروقه ، فهب يريد النهر ... —

واستقبله النهر وفى خرير أمواجه العويل والبكاء ، وجلس هو على شفا جرف يردد بصره فى هذا الخضم ، كأنما ينظر الى نهايته ؛ وفى أذنيه ترن هذه النغمات الحزينة تثير فى نفسه الشجن والحزن ، ثم راح يحدث نفسه : « لو أننى ألقيت بنفسى لانتهت متاعبى ... » لقد عصفت به أحزانه فسلبته عقله ، فراح ينشق نسمات النهر فى لذة ومتعة ، ويرى فى اضطراب الأمواج وزمجرتها رنات فيها السحر والفتنة ... هنا ... هنا ينتهى شبابه ويطوى كتاب حياته ... ثم اضطرب وسرت فى مفاصله حُميا الخوف ، فقال يهدىء نفسه : « ما هذا ؟ إن المرء لا يموت إلا مرة ! » غير أن الجبن والخور وحب الحياة والحسرة على شبابه كانت جميعاً قد استيقظت فى قلبه فارتد عن النهر فزعاً

لقد ذهل عن نفسه فما استطاع أن يسمع وقع أقدام المارة ولا أصواتهم وهم يقتربون منه ، وقد ابتسم الفجر ... وأصر على أن يرجع إلى الدار لينام ، فيستجم ، فينسى ... ثم انطلق وهو يقول : « ويلى ! أفكل هذا فى سبيل الفتاة ... ؟ »

وعلى حين بغتة أحس بيدين تلمسانه فى رفق ، ووجه بللته العبرات يلصق بوجهه فى عطف وحنان ، وهى تضمه إليه فى شوق وشغف ، وأضاءت الحياة فى عينيه مرة أخرى ، وشاع السرور فى قلبه ، وسيطرت عليه نشوة اللذة والسعادة ، ثم فتح عينيه يستشف ما وراء ، ففزع فارتد ... ثم اندفع ثانية ليلقى بنفسه بين أحضان أمه

كامل محمود حبيب



اعتاد الذين تقدمت بهم السنون وتخطت بهم حدود الشباب فلم يعودوا يتأثرون بما يتأثر به الشبان من عواطف ، والذين درجوا على الخلاعة وشبوا فى جوها الزاهى حيث لا مقام لشعور أوقرار لعاطفة ، أن يهزأوا بأخبار الحب جملة ظانين أنها لا تعدو أن تكون صورا وأقاصيص من نسج خيال القصصيين والشعراء ؛ إلا أن خبرتى بدخيلة النفس الانسانية تحملنى على ألا أرى رأيهم ؛ فقد هدتنى التجارب الى أن المرء قد يبدو فاترا باردا لشواغل الدنيا وهمومها ، وقد يطالع الناس هاشاً باشاً مراعاة لمراسم المجتمع وآدابه ، إلا أن وراء هذا الظاهر الهادىء نيراناً كامنة ترقد فى أعماق أبرد الصدور ، وهى نيران إذا أثارها مثير احتدمت احتداماً لا يعرف مداه ، وقد تسوء عقباه . الحق أنى مؤمن قوى الايمان بذلك السلطان الأعمى ذاهب مع تعاليمه الى أقصى حدودها . إنى مؤمن بالقلوب المحطمة إيماناً بأن خيبة الحب فى رجائه قد تعجل بفنائه ، ولكنى لا أرى الحب مرضا كثير الفتك ببنى جنسى ، فى حين أنى أؤمن الايمان كله بأنه المرض الذى يصيب كثيرا من النساء اللطيفات فينزعجهن ويذهب بهن وما زلن فى مقتبل العمر وشرخ الشباب

إذ أن الرجل له مصالح وأطماع ، وطبيعته تدفعه إلى ولوج ميدان الحياة ، والكفاح فى معمعانها الصاخب ، والحب عنده ألهية فى مقتبل حياته ، أو أنشودة ينشدها فى أوقات فراغه ، وذلك لأنه فى شغل عنه بما يطمح اليه من شهرة ، وما يسعى وراءه من ثروة ، وما يروم تحقيقه من فكرة ، فهو لا يفتأ مشوقا الى بلوغ ما يصبو اليه من سؤدد بين أنداده من الرجال ؛ أما المرأة فكل حياتها نهب للعواطف ، وما سيرتها إلا تاريخ لنوازع القلب ؛ فالقلب دنياها التى تطمع فيها الى فرض سلطانها وإقرار مكانها ، وفيه تنقب عما تتمناه من مخبوء الكنوز ، فتطلق كل جارحة فيها للمغامرة ، وتنطلق بكل روحها مع سفين العواطف ، فان غرقت سفينتها فقد خاب الرجاء فيها ، إذ معنى ذلك افلاس قلبها ودوال دولتها

قد تسبب خيبة الحب للرجل آلاماً ممضة ، وقد تجرح بعض ما رق من أوتار قلبه ، وتعصف ببعض معالم هنائه ، إلا أنه مخلوق عامل يستطيع أن يبدد أفكاره ويصرفها بالاندماج فى دائرة الأعمال المنوعة ، كما أن فى وسعه أن ينغمس فى الملاهى والمسرات ، أو يبدل مقر سكناه إذا رأى أن المسرح الذى مثلت عليه فصول مأساته محاط

بملابسات لا قبل له بتحمل ما تسببه له من غصص وآلام ، فيرحل الى حيث يشاء متخذا أجنحة الصباح طائراً الى أقاصى البلاد حيث يخلد الى الراحة والسكينة

أما حياة المرأة فهى بالنسبة الى حياة الرجل حياة استقرار وعزلة وتأمل ، وهى أكثر اصطحابا لأفكارها وعواطفها ؛ فاذا ما استحالت هذه الى رسل ودواع للألم والحزن فالى أين النجاء ، وأين تلقى العزاء ؟ إن حظها من الحياة أن تحب وأن تنال ، فاذا ما ساء حظها وخاب فألها فى حبها فمثل قلبها فى ذلك مثل القلعة تقع فى أيدى الأعداء فتُنهب وتُسلب وتترك خِواء

كم من عين متألقة خبا ضياؤها ! كم من خد أسيل غدا شاحبا ! كم من وجه جميل ذوى وطواه الرّدى دون أن يدرى امرُؤ السبب الذى أودى بتلك النضارة ! فمن طبيعة المرأة أن تخفى عن العالم آلام عواطفها المجروحة كما تضم الحمامة جناحيها إلى جانبيها تخفى بهما السهم الذى يوغل فى مقاتلها . وحب المرأة الحساسة هادىء خجول ؛ ومهما أصابت فى حبها من توفيق فقلما تهمس به لذات نفسها ؛ أما إذا خاب رجاؤها فى الحب أودعته طيات صدرها وتركته هناك فى هم واصب بين طلول أمسها الذاهب ، فقد أخفقت آمال قلبها وانتهت بهجة الحياة الكبرى عندها ، فهى عندئذ تعاف الألعاب البهجة التى تنعش الفؤاد وتسرع النبضات وتدفع تيارات الحياة والصحة فى العروق ، وهى فى حالها تلك تقلقها الأحلام السود وتفزعها فى نومها ، ويمتص الأسى دماءها حتى لتمسى جسمها من الوهن والهزال ينقض ويتهدم تحت أضعف مؤثر خارجى . فاذا ما سألت عنها بعد قليل وجدت الأصدقاء يبكون على قبرها وقد عاجلتها المنية فى وفرة صباها ، فتعجب ما شاء لك العجب كيف هبطت الى عالم الظلام والديدان تلك التى كانت تشع الى عهد قريب ضياء الصحة والجمال ! فيقال لك أصابها برد أو مرض شائع فتوفاها ، وما يدرى أحد منهم ذلك المرض الفكرى الذى سبق فاستنزف قواها وتركها فريسة لأدنى المؤثرات

مثلها مثل الدوحة الفينانة تزهر الغابة بها وتزدان ، تقف رشيقة القد مياسة الأغصان وريفة الأفنان بينا ينهش الدود لبها فيسرع اليها الذبول حين يرجى إشراق نضرتها وازدياد توريقها ؛ وعلى غرة نراها وقد مالت بأغصانها الى الأرض وأخذت تتساقط أوراقها ورقة ورقة الى أن تضمحل وتموت فتهوى فى سكون الغاب . فاذا ما تأملنا هذه الانقاض الجميلة أخفقنا فى تعليل ميتتها محاولين عبثاً أن نذكر تلك العاصفة التى عساها أن تكون قد أطاحتها ، أو تلك الصاعقة التى لعلها تكون قد صعقتها

لقد لاحظت بعض النساء وهن منحدرات بخطى سريعة نحو الذبول وقد أهملن شأنهن فاختفين من الوجود على مهل كأنهن تبخرن فى الهواء . ولقد ظننت مراراً أنى أصبت الحقيقة حين عزوت وفاتهن إلى آلام السل المهلكة تارة ، والى البرد تارة ، والى الهزال مرة والى الأحزان مرة ، ولكنى وجدت فى النهاية السبب الحق وهو يأس الحب وضيعة الأمل

كلٌّ يذكر ولا ريب قصة ذلك البطل الارلندى الشاب « ا . . » فهى قصة كان وقعها أليما بحيث

لا يمكن أن تنسى سريعاً ؛ فقد حوكم إبان الاضطرابات الأرلندية متهماً بالخيانة و نفذ فيه حكم الاعدام بالشنق ، وكان لخاتمة حياته الفاجعة صدى عميق فى قلوب الجمهور ، إذ كان شاباً فى ميعة الصبى وزهرة الشباب ، متوقد الذهن ، كريم النفس ، شجاع القلب ، كمل فيه كل ما يحب فى الفتى من كريم السجايا وحميد الصفات ، كما كان سلوكه أثناء المحاكمة سامياً تجلت فيه بسالته وإقدامه ؛ وكان لغضبته النبيلة فى دفع تهمة الخيانة عن نفسه ، ولدفاعه الرائع عن اسمه ، ولندائه الحار للأجيال المقبلة وهو فى موقف الاتهام وساعة اليأس صدى داو فى أعماق كل صدر كريم ، حتى ان أعداءه أنفسهم نددوا بتلك السياسة النكراء التى قضت عليه بالقتل

ولكن قلباً واحداً بين هذى القلوب فاقت حسرته ولوعته كل وصف ، ذلك هو قلب تلك الفتاة الجميلة ابنة أحد مشاهير المحامين الارلنديين التى كان قد نال حبها أيام سعده وتوفيقه ، وكانت هى قد أحبته لأول ما أحبت بتلك الحماسة التى تحب بها المرأة حبها الأول فى مقتبل أيامها . لقد كانت تحبه أيام محنته ، أيام تألبت عليه أقاويل الناس وأحكامهم ، أيام عصفت العواصف بماله ، وتهدد العار والدمار اسمه ، وأحاط به السوء من كل جانب . ولقد كان يزيد حبها له معاناته لتلك الآلام ، فكيف بها اليوم وكيف ألمها وهى التى كانت تهيم بطيفه وتشغف بخياله . وقد حرك المصاب نفوس عداته . سل عن ذلك من سدت أبواب القبر بغتة فى وجهه ، وفرقت بينه وبين من لم يعدل به وبحبه أحداً ، وقد جثا على حافة القبر كالمطرود فى دنيا باردة موحشة ذهب عنها كل ما هو محبوب وكل ما هو جميل

يا لهوله من قبر ! كم هو مخيف ! كم هو مهين ! وقد خلت الذاكرة مما عساه أن يخفف غصة الفراق . ولم تستطع تلك الملابسات الوديعة وإن خالطها الغم أن تذيب ذلك الحزن فى تلك الدموع المباركة التى تنزل كالطل من السماء برداً وسلاماً على القلب فى ساعة الفراق الممضة

ترملت ، وزاد فى وحشة حياتها أن تلك الصلة قد أثارت غضب والدها وسخطه فنفاها من بيته . ولو أن صديقاتها روعت نفوسهن ومنعهن الخوف أن يهبنها عطفهن ، لما أعوزها العزاء ؛ فالارلنديون قوم حساسو النفوس كريمو الشعور . ولقد مدت إليها بيوتات كريمة يد المعونة وأحطنها برقيق الرعاية وقدمنها للمجتمعات ، وحاولن الترفيه عنها بشتى الملاهى والمسرات ليزول عنها حزنها ولتبعد عن فكرها ذكرى مأساتها ، إلا أن ذلك كان عبثاً فى عبث ، فان من النكبات ما يتلف النفس ويذويها وينفذ إلى منبت السعادة فيسحقه سحقاً فلا يعود إلى إنبات . أما هى فلم تأب التردد على منتديات السرور ، ولكنها كانت فيها منفردة بنفسها موكولة الى أساها ، فكانت تسير فى وجوم يغيب فيه الشعور بالدنيا التى تموج حولها . وكانت تحمل فى نفسها على الدوام هما دفيناً يسخر بمداعبات الصديقات ، ولا يحفل بسحر الغناء ولا بجمال الرقص

لقد رآها من روى لى قصتها فى « كرنفال » وقد أخبرنى أنه لم ير منظراً للبؤس أكثر إيلاماً للنفس من رؤيتها فى هذ الحفل الحافل تمشى كالخيال الضارع وحيدة كئيبة بينما كل ما حولها زاه بهيج

وقال لى إنه رآها تلبس حلل المرح فى حين تسير ساهمة الوجه ممتقعة اللون يغمرها الأسى كأنما تحاول عبثاً أن تخدع قلبها لحظة تنسيه فيها حزنه المقيم . وبعد أن طافت بالحجرات الفاخرة وجالت بين ذلك الحشد الصاخب شاردة اللب جلست على درج منصة الموسيقى ؛ وبعد أن نظرت فى الفضاء برهة وهى شاخصة الطرف يبدو عليها عدم الشعور بجمال المناظر من حولها ، أخذت تغنى ، شأن القلب العليل فى تقلب أطواره ، فكان شدوها باكياً . لقد كان صوتها رخيما إلا أنه فى هذه المرة كان مؤثراً بسيطا ، فتنفست عن نفس بائسة ، والتف حولها الجميع وساد السكون ، فاذابت النفوس وأدمعت العيون

لقد أثارت قصتها شغف الناس ؛ إذ أن قصة سـيدة على ذلك الاخلاص وهذا التفانى لا بد أن تثير إعجاب الناس فى بلد عرف أهلوه بالحماسة والوفاء ، فأحبها وأغرم بها ضابط باسل خطبها وهو يحدث نفسه بأن من كانت تخلص هذا الاخلاص للميت ، تظهر ولا شك مثل هذا الاخلاص للحى ؛ إلا أنها خيبت أمله فى ذلك إذ لم يكن فى وسعها أن تصرف فكرها عن ذكرى حبيبها الأول . على أنه أصر على طلبه قائلاً : إنه يكفيه منها التقدير بديلاً عن الحب . وساعده عليها اقتناعها بجدارته وعوزها واعتمادها على الغير ، اذ كانت تعيش على فيض ما تجود به الصديقات ، فنجح فى النهاية فى الحصول على يدها مع تأكيد رهيب بأن قلبها ما زال ملكا لغيره ولا سبيل إلى صده عن هواه

سافر بها إلى سيسلى لعل تبديل المناظر يمحو ذكرياتها القديمة . ولقد كانت رقيقة القلب مثال الزوجة الصالحة ، فحاولت أن تسعد بزواجها ، إلا أن هذا الهم الساكن وذلك الحزن الكامن لم ينجع فيهما علاج

فذبلت رويداً رويداً ، وأخذ منها الهزال مأخذه ، فسارت وشيكا إلى انحلال لا أمل فى البرء منه ، وهوت أخيراً إلى قبرها ضحية القلب المحطم

وقد نظم فيها مور الشاعر الأرلندى الشهير أبياته الآتية :

بعيدة عن الأرض التى بها مثوى بطلها المحبوب ،
يلتف حولها المحبون وهم يصعدون الزفرات ،
إلا أنها تشيح عنهم بوجهها وتأخذ فى النحيب
فقد علق قلبها بالثرى الذى ضم الحبيب ،

* * *

تنشد أغانى الفطرة عن مواطنها السذَّج الأعزاء
مؤثرة ما كان يحبه من بين تلك الأنغام .
آه ! ليس يدرى أولئك المعجبون بألحانها
كم يتمزق قلبها وهى تشدو بأنغامها !

* * *

عاش للحبـــه ومات فى سبيل بلاده ،
وكان هذان كل ما يعنيه من دنياه ؛
وسوف لا تجف عاجلاً دموع بلاده عليه
ولا أمل لمن أحبه أن يعيش طويلاً من بعده

* * *

ابنوا قبرها حيث تستقر أشعة الشمس ،
حين تؤذن بفيابها بدنو غدٍ موموق ،
حتى تضىء عليها فى ضجعتها كبسمة من المغرب
من جزيرة الأحزان التى أحبتها وعلقت بها

(حدائق القبة) حسين محمد كامل

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الثالث

وكان ديجنه قد أعد فى بيته فى الضاحية حفلة للشباب مستكملة من خمر وطعام ولعب وصيد ورقص وسباق؛ وكان غنى هذا الصديق مجمَّلاً بحب الضيافة والكرم؛ وله مكتبة مجهزة بأثمن الكتب، وكان إذا حادثك نم حديثه عن علم واسع وأدب جم

وحملت إلى هذه الحفلة كآبتى أغالبها فلا تغلب؛ وقد احترم ديجنه حزنى إذ سكت أنا عن استفساره فلم يعاود الكرة على

وما كان يهتم ديجنه إلا لأمر واحد، وهو أن يرانى ناسياً خليلتى، فكان يرضيه أن أتناول الطعام كسواى، وأرافق الأصحاب فى ألعابهم وصيدهم

إن فى العالم أناساً مثل هذا الصديق يحاولون جهدهم أن يخدموا من يودون فلا يترددون فى أن يرشقوا وجهه بحجر إذا رأوا ذبابة تلسع خده ... فهم لا يفترون يمنعونه عن ارتكاب ما يعدونه خطأ، ولا يطيب لهم عيش دون أن يتوصلوا إلى طبع هذا الصديق على غرارهم، فاذا هم ظفروا بغايتهم فركوا أيديهم ونفضوا أناملهم دون أن يخطر لهم ببال أن يتساءلوا ما إذا كان صديقهم قد خرج بفضلهم من مأزق ليقع فى مأزق أشد حرجا وضيقا

تلك هى واجبات الصداقة فى نظر هذا النوع من الأصدقاء

من مصائب الشبيبة أنها تتوهم الحياة قائمة على مثال الحوادث الأولى التى طرأت عليها . وهنالك نوع من أشقياء المجتمع تراهم على أهبة ليقولوا للفتى المصدوع : إنك على حق فى اعتقادك بالشر، ونحن نعلم حقيقته

ولقد سمعت رجالا وخط الشيب شعورهم يتكلمون عن نوع من علاقات الرجل بالمرأة يصفونه (بالعاطفة الجوّالة) فكانوا يتحدثون عن هذه العاطفة كأنها آلة حديثة اخترعها مهندس، فيصورون كيفية استعمالها ويذكرون ما يجب أن يقول العاشق، وما عليه أن يجيب به مقررين قواعد رسائل الغرام وكيفية الركوع لاستعطاف المرأة المشتهاة . وهكذا كان هؤلاء الأفاضل ينظمون حركات الهجوم والدفاع

وما كانت هذه الأصول الموضوعة إلا لتجعلنى أقهقه ضحكا، لأننى ما تمكنت يوماً أن أقول لامرأة أحتقرها إننى أحبها حتى ولو كان هذا التعارف المعمول به مما تعرف المرأة نفسها زيفه . ما جثوت يوماً أمام امرأة دون أن يجثو قلبى معى . لذلك ما عرفت حياتى هذا النوع من النساء المبتذلات؛ وإذا ما كنت وقعت لاحداهن، فما كان ذلك إلا دون قصد منى وعن جهل بحال المرأة التى أغوتنى

ليس من المستغرب لدى أن يهمل الانسان نفسه، ولكن ما أستغربه هو أن يقدم على تدنيسها .

ولقد يكون في هــذا القول شيء من الـكبرياء ، ولـكنني أربأ بذاتي أن أرفعها فوق موقعها ، أو أن أحط بها الى أدنى من مستواها . وليس أكره إلى من المرأة التي تهزأ بالحب . ولمثل هــذه المرأة أن يبادلني عاطفتي هذه فانني لن أنازعها هذا الحق

إن مثيلات هذه المرأة لأحط من العاهرات ؛ وقد تكذب العـاهرة كما تكذب المرأة المحتقرة للحب ؛ ولـكن الأولى قد تحب ، أما الثانية فلا تفقه للحب معنى

أذكر امرأة تعلقت بي فكانت تقول للرجل الغني الذي تعايشه : لقد مللتك ؛ وهأنذي ذاهبة إلى حبيبي

إن مثل هــذه المرأة لخير من النساء اللواتي لا يتقاضين عن أعراضهن ثمناً

وقضيت فصل الصيف عند ديجنه حيث بلغني أن خليلتي بارحت فرنسا . ومنذ اليوم الذي بلغني فيه هذا الخبر اســتولى عليّ خمول لم أجد لنفضه عني سبيلا

وكنت في وسط هــذا المجتمع الجديد أتطلع كالفرس الجموح الى كل ما حولي

وكان لديجنه خليلة على غاية من الجمال . وكنت أتعشى معه في إحــدى الليالي فقلت له إنني أقدر جمال عشيقته وتعلقها به واخلاصها له ، وأشعرته أنني أغبطه على هذه النعمة . فسكت على عادته وابتسم .

وعند ما دخلت الى غرفتي لأرقد في المساء نفسه سمعت طرقة على بابي فأذنت بالدخول ظنا مني أن أحد الصحاب أخذه الأرق فلجأ إليّ ، وفتح الباب فرأيت امرأة تتقدم مترددة وقد امتقع لونها وتعرى نصف جسمها وبيدها طاقة أزهار قدمتها الي ، وبين الأزهار ورقة أخذتها فاذا عليها :

« إلى أوكتاف من ديجنه ، بشرط المعاملة بالمثل »

وما قرأت هذه الـكلمات حتى أدركت مايرمي اليه ديجنه من اهدائه اليّ خليلته كما تهدى الجواري . . . وما كان ديجنه على ما أعرف به من الصراحة ليفعل ما فعل تضليلا أو هزؤا ، فهو لم يقدم على فعلته إلا ليلقنني درسا

إن هذه المرأة كانت تحبه ، وقد سمعني أثني عليها ، فأراد أن يردعني عن التعلق بها في حالتي قبولي لها ورفضي

فوجمت أتفرس في هذه المرأة ودموعها تتحدر على خديها ولا تجرؤ على مسحها خشية أن انتبه إلى بكائها ؛ وما كنت لأعلم بماذا تهددها ديجنه حتى أطاعت . فقلت لها : لا بأس عليك ، أيتها الآنسة ، ارجعي من حيث أتيت

فقالت : إذا أنا خرجت من غرفتك قبل بزوغ الفجر ، فان ديجنه سيعيدني إلى باريس ، وليس بوسعي أن أخالف أمره ، فوالدتي فقيرة

فأجبتها : إن فقرك يدفعك إلى تنفيذ أمر ديجنه إذا ما وافقت أنا عليه ، ولقد يستهويني جمالك الرائع ، ولـكنك تبكين ، وما تذرفين دموعك من أجلي ، وأنا لا شأن لي في غير هذه الدموع . اذهبي وأنا كافل لك أن لا يرجعك ديجنه إلى باريس

* * *

إذا كان التأمل صفة ثابتة من صفات العقل في أكثر الناس ، فمــا هو عندي إلا كغريزة لا تتحكم إرادتي فيها ، فان التأمل يجتاحني كنوب عاطفية شديدة لا قبل لي بردها ، فعند ما خرجت هذه المرأة من غرفتي جلست وقد اعترتني نوبة

التأمل ، فاذا أنا أناجي نفسي قائلاً : هذا قضاء الله فيك يا هذا ... لعل ديجنـه كان على حق لاعتقاده بأنه إذا لم يرسل خليلته إليك لـكنت تقع أسيراً في هواها

أفما دققت في حسنها وجمالها فأدركت أنها آية في الخلق وبما تجود الطبيعة بمثلها إلا نادرا ؟ ومع ذلك فان الرجـل الذي يريد أن يشفيك من دائك لم يجد وسيلة أجدى عليك من الصاق شفتيك بشفتيها ليمحو آثار الحب من قلبك

ولـكم رأى هذه الفتاة رجل قبلك فما استهدفوا للخطر الذي تراميت أنت عليه

وهذا ديجنه تعبد جمالها ولـكنه لم يؤخذ به ، فهل يحيا هـذا الرجل بلا قلب ؟ إن لهذا الرجل قلباً ولـكنه يختلف عن قلبك شعورا ، لأنه لا يعتقد فى شيء ولا يهتم بأى أمر كان ، ولـكنه إذا أصيب بلسعة في رجله فأنه يرتعش خوفاً . وهو المعتقد بانحصار الحياة في جسده ، فاذا ما فقده فقد الـكون بأسره . أيمكن للانسان أن يحيا على هذه الوتيرة فيجلد روحه بالسياط كما يجلد المتعبدون أجسادهم !

افتكر يا هذا واعتبر أنك لترى رجلا يضم بين ذراعيه أجمل امرأة وهو مشتعل بحرارة الشباب يعلن لهذه المرأة إعجابه بها وتعلن هي حبها له فيجيئه يوماً صـديق يثق به ويقول له : إن هذه المرأة مبتذلة فيزول كل اعجاب وحب من قلبه ، ولو أن هذا الصديق قال له إن هذه المرأة جانية لـما فعل هذا الوصف في قلبه ما فعلته كلمة « مبتذلة »

فما هي قوة هذه الـكلمة ياترى ؟ إنها ولا ريب تحمل العار ، وتنزل العقاب العـادل بالمرأة التي استحقتها ولـكنها ليست إلا كلمة ! وهل للـكلمة أن تقتل جسداً ؟

ولـكنك قد تكون عاشقا لهذا الجسد فلا تجد أمامك إلا من يقول لك : أترع الـكأس واذهب في سبيلك ، فان للجسد الذي تحترق من أجله ثمنا معينا . ولـكن ديجنه يحب خليلته فهو لا يضن عليها بشيء ، فهل لهذا الرجل حب خاص به دون سواه ؟ لا ؛ إن هذا الرجل لا يعرف الحب ، ولا فرق عنده بين امرأة تستحقه وأخرى لا تستحقه لأنه لا يحب أحدا

وما الذي أبلغ ديجنه هـذه الدركة من الشعور ؟ فهل هو خلق بهذه العاهة ، أم أصيب بها بعد ولادته ؟ إن ديجنه ليس رجـلا ما دام الحب ألزم للانسان من الماء والهواء . أهو أحد الجبابرة أم أحد الصعاليك ؟ فهو يرتمي على أحضان امرأة تعشقه دون أن يشعر بأية رعشة ودون أن يتوقع أي خطر ؟ وما الحب لديه إلا سلعة جسد ببدرة مال . أية وليمة هي حياته ؟ وأي شراب يتدفق في أقداحه ؟ إن هذا الرجل لم يتجاوز الثلاثين من عمره وقد أصبح مدمناً على السم مكتسباً مناعة تهزأ بزعاف الافاعي التي يداعبها

إن في الأمر لغزاً عميقاً يا بني ، وعليك أن تجد له حلا . مهما اجتهد أنصار الفحشاء بالتعليل فانهم قد يثبتون ليوم من الأيام ولليلة من الليالي ولساعة من الساعات أنها ناموس طبيعي ، ولـكن إثباتهم هـذا لا يصمد لوجه الزمان لأنه ليس من شعب على الأرض لم يعتبر المرأة رفيقة الرجل وسلواه ، أو المنبت المقدس لحياته ؛ وقد استحقت التمجيد في الصفتين

ومع هذا فانك لترى من الناس من ينتصب

كالمحارب المدجج بالسلاح ليندفع قافزاً فوق الهاوية التى فصل الله بهـا بين الانسان والحيوان . ومن يقدم على هذا العمل فانما هو ينكر النطق على نفسه فيصبح كالوحش الأعجم خانقاً المحبة المفكرة الناطقة بقبلات الجسد وشهواته اذ يضع على فمه ما على أشداق الحيوان من طابع الصمت الأبدى

إن مثل هذا المسخ يقف أمام أشرف كلمة وجب عليه أن يتعلمها فينفخ عليهـا عاصفات من دياجى الغابة السوداء حيث يأتمر شياطين الفناء بالحياة

لقد تجاوز هذا الرجـل الحد الذى أوقف الله الانسان عليه ، فهو قد تقهقر عن هذا الحد أو اندفع إلى ما وراءه . . . وقد أصبحت أحشاؤه كاحشاء المرأة العاقر أوجدتها الطبيعة ناقصة أو تسربت إليها قطرات أعشاب سامة تقضى على جرثومة الحياة

إن العمل والمطالعة قصراً عن شفائك يا بنى ؛ وقد أصبح شعارك أن تنسى وتتعلم ، وقد كنت تقلب صفحات الـكتب الميتة ، وأنت لما تزل قاصراً عن دراسة الخرائب والاطلال . أنظر إلى ما حولك من قطمان البشرية وإلى عينى أبى الهول تشمان بين ما خطته اليد المستترة . طالع كتاب الحياة أيهـا الطالب وارم بنفسك فى تيار الحياة فمـا الحياة إلا كنهر الستيكس فى الأساطير تولى مياهه المناعة لمن يجرؤ على اقتحامه من الأبطال . أقدم فأما أن يقودك هذا التيار الى الموت أو يرفعك الى الله

الفصل الرابع

قال القديس أوغسطينوس وهو الرجل الـكامل عند ذكراه أيام شبابه :

— وما كانت جميع هـذه المسرات والملذات الـكاذبة إلا بذورا لا تنبت غير المرارة والأوجاع وقد استنفدت قواى حتى مللتها

إنها لـكلمات لا يتفوه بهـا إلا القلائل ممن مشوا فى الحياة حيث مشى هذا الرجل ؛ غير أنهم لا يشعرون بغير معناها فى قلوبهم ؛ وأنا أيضاً لا أجد سواها فى صميم فؤادى

وبعـد أن عدت إلى باريس فى أول الخريف بدأت حياة الشتاء منـدفعاً الى الملاهى والمآدب والمراقص، فما كنت أفترق عن ديجنه إلا نادراً ؛ وكان هو يبدى مزيد ارتياحه إلى ؛ وما كنت أنا مرتاحاً إلى نفسى ، لأننى كنت كلما توغلت فى هذه الحياة تتزايد همومى ، فمـا طال بى الأمر حتى بدأ هذا العالم الذى حسبته لأول وهلة واسع الارجاء يضيق بى فى كل خطوة ، فكنت كلما لامست شبحا من اشباحه يضمحل ويتوارى أمامى

وكان ديجنه يستفسرنى عن حالى فأقول له : وأنت مالك أيها الصديق ؟ لعلك تتذكر قريباً بارحك الى القبور ، أم إن فى صـدرك جراحاً نكأتها رطوبة الشتاء ؟

وكنت أراه أحياناً يتظاهر بعدم سماع ما أقوله ، فكنا نهرع الى الموائد ونشرب حتى نفقد الشعور ، أو نستأجر فرسين وننطلق الى الحقول قاطعين عشر مراحل لنتناول طعامنا هنالك ثم نعود لنستحم ، ثم نتناول العشاء ، ثم نتراكض الى موائد القمار ثم ننسحب الى أسرتنا . وما كنت أصل الى سريرى وأوصد الباب على حتى انطرح جاثياً أذرف الدموع ، وتلك كانت صلاتى فى كل مساء

ومن غرائب حالتى أننى كنت أشـعر بشىء من الغرور عند ما كنت أتمكن من الظهور على

غير الحقيقة التي أعهدها في نفسي . فكنت أباهي بالاغراق في وصف شروري وأجدلذة شاذة يشوبها الحزن العميق ؛ وما كنت أشعر إلا بالملال عند ما كنت أسرد حوادثي على حقيقتها ؛ وما أدري كيف أصف هذه اللذة التي كنت أستغرق فيها عندما كنت أقص وقائع جنون وفحشاء لا حقيقة لها

وما كنت أتألم لشيء تألمي لاضطراري الى ارتياد الأماكن التي كنت أرافق خليلتي إليها فيما مضى ، فكنت أظهر كالمعتوه أمام رفاقي وأذهب الى مكان منفرد لأحدق في أصول الأشجار ونبات الأرض ؛ حتى إذا ملت تأملي ضربتها برجلي وحاولت تحطيمها . ثم أعود الى حيث أتيت وأنا أتمم قولي المألوف : « إن الله لا يحبني » وكانت تنتهي هذه النوب بي الى سكوت يطول مدى ساعات

واحتلت دماغي فكرة ملكت جوانبي وهي أن لا حقيقة إلا في العري ، فكنت أقول إن العالم يسمي أصباغه وأدهانه فضيلة ، ويدعو سبحته ديناً ، وأثوابه أدباً ولياقة ، وما الشرف والأخلاق إلا خادمات لقضاء حاجته . فالعالم لا يشرب خمرته إلا من دموع المساكين الذين يؤمنون به . فهو يمشي مطرقاً ما دامت الشمس تتكبد السماء فيذهب الى الكنائس والمراقص والمجتمعات ، وعند ما ينسدل ستر الظلام يتعرى فتراه مومساً لها من التيس رجلاه

ولكنني كنت أحتقر نفسي بهذا القول إذ كنت أشعر أن تحت هذا الجسد الذي تستره الأثواب هيكلا من عظام فكنت أرتعش وأسأل نفسي ما إذا كان هذا كل الوجود

وكنت أعود الى المدينة فأصادف في طريقي فتاة تمسك بيد أمها وتسير معها فأتبعها بأنظاري متنهدا وأشعر أنني رجعت الى الأيام التي كنت فيها طفلا

وبالرغم من أنني كنت أتبع دقة النظام الذي قررته أنا وأصدقائي في حياتنا المشوشة ، فانني ما كنت أهمل الذهاب الى بعض المجتمعات العائلية غير أنني كنت أشعر باضطراب شديد عند ما كنت أنظر الى أية سيدة ، فما كنت ألمس أيدي النساء إلا مرتعشا بعد أن صممت على هجر الحب الى الأبد

ومع هذا فانني رجعت ليلة من أحد المراقص وفي قلبي من الألم ما أشعرني بعودة الحب اليه ، لأنني كنت جلست الى المائدة بقرب سيدة لها من الجمال والأدب الجم ما لا قبل لي بنسيانه . وعند ما أغمضت عيني لأنام انتصب خيالها أمامي فحسبتني مقضياً عليّ بالهلاك ؛ ولذلك صممت على أن أجتنب أية فرصة تمكنني من الاجتماع بها . وبقيت أغالب نفسي خمسة عشر يوما ما بارحت فيها مقعدي ، فكنت أنطرح عليه ساهياً فتمر في مخيلتي جميع حركات هذه المرأة وكلماتها

وما طال الأمر حتى ذاع صيتي في باريس حيث يترصد الناس لسكنات الناس وحركاتهم بأنني سيد الخلعاء . وكان ذكاء العالم في هذا مدعاة لاعجابي به ، لأنني بعد أن كنت في عينه أشد الناس حماقة عند ما وقعت لي حادثة خليلتي أصبحت الآن الرجل المتصلب الذي يتحكم في شعوره . وذهب البعض الى القول بأنني ما كنت عاشقا لهذه المرأة بل كنت ألعب دوري بمهارة ، فكان ذلك خير ثناء يوجهه هؤلاء الناس إليّ

والأنكى من هذا أنني أصبحت أنا نفسي أنتفخ غرورا بهذا الشرف المسكين وأتلذذ بغروري

وكنت موجها كل جهدى الى أن يرانى الناس واصلا الى مقام من تحجرت عواطفهم فى حين أنى كنت أشتغل بالشهوات وتذهب تخيلاتى الجامحة بى كل مذهب

بدأت أعلن أن ليس للمرأة أقل شأن فى نظرى ؛ وكنت أبذل الجهد لخلق أوهام أعلنها للناس وأقول إننى أفضلها على الحقائق فكأننى لم أكن أرى لذة إلا فى تشويه ذاتى ، وكان يكفينى أن تلوح لى فكرة تصدم الرأى العام لأتطوع للدفاع عنها مهما كلفنى الأمر

وهكذا بليت بأعظم النقائص والعيوب : بليت بتقليد كل ما كان يستوقف انتباهى لا لجهله بل لغرابته ؛ وبما أننى لم أكن أرضى أن أظهر فى مظهر المقلد كنت أندفع الى المغالاة لأثبت أننى مبتدع لا تابع ، فلم أكن أرى شيئاً حسناً حتى ولا مقبولا ، وأبدى عجبى ممن يفقدون رزانتهم فى إعجابهم ، ومع ذلك أكن أتورع فى حماستى عند ما كنت أدافع عن نظرية أريد أن آخذ بها ، فكنت اندفع فى بيانى حتى تضيق اللغة عن امدادى بالتعابير اللازمة لابداء إعجابى ؛ وكان يكفى أن يسلم أخصامى بما أرمى اليه لأفقد كل فصاحة وكل حماسة

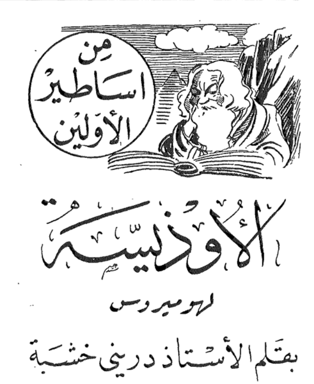
وما كانت هذه الحالة الفكرية إلا نتيجة ملازمة لحياتى التى كرهتها وما قدرت على تبديل خطتى فيها . فكنت أعذب تفكيرى كأنى أنتقم منه واتخذ كل وجهة طلبا للتهرب من نفسى

ولكن بينما كان غرورى يداعب ذاته على هذه الوتيرة كان فؤادى يتقلب على أوجاعه ، فكأنى كنت أنطوى على رجلين أحدهما ضاحك والآخر باك ؛ وكان الصراع مستمراً بين دماغى وقلبى ، فكان مزاحى يدفعنى الى الحزن المفرط كما كان حزنى يثير مزاحى فاستغرق فى ضحكى

وسمعت ذات يوم رجلاً يتبجح بأنه لا يعتقد بأية خرافة وأنه يسخر بكل تفاؤل وكل تشاؤم فجاء أصحابه الى غرفته ومددوا على فراشه هيكل رمة بشرية وكمنوا فى غرفة مجاورة ؛ ودخل الرجل الى غرفته فى ساعة متأخرة فلم يسمع الكامنون أية حركة حتى الصباح ، إذ شاهدوا صديقهم جالسا على فراشه وهو يلعب بالعظام . وكان الرجل قد جُنّ

وقد كان فى داخلى شىء يشبه هذا الرجل يلعب بعظام رمة محبوبة ، وما تلك الرمة إلا انقاض غرامى ، وهى كل ما تبقى لى من سالف أيامى

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

فى قصر ألكينوس

خلاصة الفصول السابقة

« لم يعد أوديسيوس من طروادة فيمن عاد من أبطال الاغريق فطمع فى زوجته الجميلة — بنلوپ — أمراء البلاد وحاصروا بيتها ليرغموها على اختيار أحدهم زوجاً لها . وقدساءت هذه الحال إلهة الحكمة مينرڤاوصديقة البطل فحرضت ولده تلياك أن يبحر إلى أسپرطة وبيلوس ليسال الملوك عن أبيه وقد أبحر تلياك ، وعلم أن أباه ما يزال حياً فى جزيرة كليپسو عروس الماء — وغيظ عشاق بنلوپ لما علموا بابحار تلياك فتربصوا به ليغتالوه فى عودته . أما أوديسيوس فقد صنع له رمثاً وأبحر عليه من عند كليپسو ولم يزل يصارع البحر حتى اقترب من سواحل شيريا مملكة أمراء البحر وهنا ثارت العواصف وكاد يغرق ... ونجا بعد جهد ونام فى دغيلة فى طرف غابة على سفح الجبل . وأقبلت نوزيكا إبنة ملك شيريا فى ربرب من وصيفاتها لتغسل مطارف عرسها فلقيت أوديسيوس الذى رجاها أن تمنحه دثاراً وأن تدله على مدينتها — وقد أعطته ما سأل ورسمت له الخطة التى يلق بها أباها الملك ألكينوس »

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة


هوميروس

الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النُّجُلوب ، فحلوا الدواب وحملوا المطارف والثياب ، وصعدت هى إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء (يوريمديوسا) تونى بنار المدفأة

ولم تكد يور ترى سيدتها حتى حيت وتَبّتْ ، وانطلقت تعد لها وجبة المساء

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت حوله مينرڤا — صفيته الوفية — ظلالاً وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتى لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيم أقبل ومن أى الأقطار جاء ... بيد أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة فى هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه ، فانتهزها فرصة وراح يسائلها هكذا : « يا بُنيّة ! أتسمحين فتدليني على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال منى الوَنى وطول السفر ، وحللت عليكم يا أهل فيشيا الأجاويد ضيفاً

غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرڤا — ذات العينين الزبرجديتين — وهى تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسى ، فهو غير بعيد من بيت أبى ... ولكن لى إليك وصية ... إصمت مادمت سائرا ، ولا تحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذا البلد إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ؛ وقد أحبهم نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج وأسلس لسفنهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تخزف ، أو كالفكرة حين تخطر فى الخلد »

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ؛ ولم تره جموع البحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرڤا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبته عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدهش إلى مينائهم وسفائنهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، وإلى تلك القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ؛ ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرڤا :

« هاك يا أبتاه القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه رؤساءنا وأمراءنا أصحاب السمو يولمون ويقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أعجب الناس بشجاع جرىء ، وأكرمهم للاجىء غريب . وستكون الملكة أريتا — سليلة الشرفاء الامجاد آباء ألكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذرارى نبتيون[1] — أول من تلقى . إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تكبكبوا حول موكبها فى شوارع المدينة هاتفين داعين . . . إنها تجلس وقوراً كاحدى ربات الأولمب فتغمر بالمحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم ... لك الله ياسيدى إن قدر لك فاستطعت لقاءها ... إنها إذن تمنحك برها وتسبغ عليك من بركاتها فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلقى آلك وخلانك عزيزاً مكرماً »

ثم غابت مينرڤا عن الانظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبة إلى مراثون — ومن ثمة رفت رفة فكانت فى أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم إركتيوس

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلاً ، غارقاً فى بحر لجى من الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى بهره لألاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد فى شدته ولمانه تلك الجدران المصفحة بالنحاس يزينها إطار من اللازورد الأزرق ، وتلك الأبواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة المجلوة ، تكللها تيجان من النضار الثمين . وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من ذهب ، صنعة ڤلكان ، صناع السماء الخالد ، وخالد أبد الدهر كل ما صنعت يدا ڤلكان . ثم تلى بعد ذلك ردهة فسيحة مترامية صفت إلى جدرانها كراسى كأنها عروش ، وبثت فوقها نمارق ذات أفواف وشفوف ، صنعة وصيفات القصر ؛ وهنا ... يولم الملك لأمراء شيريا ... فيقف الولدان فى جلاليب من ذهب ، وفى يد كلٍّ شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع الطاعمين

(١) آثرنا ألا نثبت هنا ما ذكر هومر من نسب الملكة مخافة الاملال

في كل ليلة ... يا للقصر كأنه جنة الخلد ؟ . . . إن خمسين من غيد شيريا الرعابيب يخدمون الملك ثمة ... يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على النول . . . مائسات كأفنان الدوح يداعبهن النسيم الحلو . . حاذقات في الغزل والنسج كأحذق ما يكون بحارة شيريا في عنفوان العاصفة . . قد ثقفن صناعتهن عن مينرفا فافْتَنَنّ وأبدعن إبداعاً . ثم تكون البوابة الكبرى ، حيث فردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعة المحيطة بهذه الأربعة أفدنة . . للآلهة هذا الدوح قد بسق في جنباتها ؛ وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مفترةً عن شفاه الأقاح . . وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاح والكمثرى ، وسالت قطراتٍ من الشهد في ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية في أفنان الزيتون . . فاكهة شهية جَنِيِّة لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبدا ، تداعبها أنفاس (زفير رب الصبا فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت مكانها في الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذات الأعناب والرطب والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يجف على سوقه فيكون زبيباً جنياً . . ثم توشى أطراف الحديقة أحواض من الزهر المشذب المنسق ، وتتفجر في وسطها عينان نضاختان ، يترقرق الماء من إحداها كاللجين في مسايل هذا الروض ، وتتدفق مياه الأخرى في نهر صغير ينساب الى المدينة من تحت عتبة القصر فيرتوي الأهلون منه

مُلك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على ألكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه الفكر ، يردد طرفه في هذا المنظر المعجب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمز رسول السماء تقدمة وقربانا ، وصلاة لخاتم أرباب الأوواب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم . ولم يتلبث عندهم ، بل تقدم في خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت مينرفا تحجبه في ظلال كثيفة من أعين الملأ ، حتى وصل إلى حيث يجلس الملك والملكة ، فكُشِف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمى الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

« أريتا يا ابنة ركسنور صفي الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك يا سليلة المجد ضارعاً أن تعطفي عليّ ، وأن تكرمي مثواي ، وأن تعينيني على الرحلة من فوري إلى بلادي التي أحترق إليها شوقاً ، والتي فصلتني عنها أهوال وأهوال ! »

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الوقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان في قلب إخنيوس ، ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب في فصاحة وتبيان ، وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجدك أيها الملك أن تدع هذا الغريب

جاثياً هكذا فى غبار الموقد وفى وهج النار ، وأن تَتَّسِرِكَ أضيافك ينتظرون أمرك . . . وما تكلم منهم أحداً ! ألا تأخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومر الندمان يسقه من كأس جوف كبير الألهة[1] ، وحبيب الغرباء وذوى الحاجات ، والنادلَ يهيء له عشاء مما تبقى من وليمة الليلة »

وما كاد الأمير يفرغ من قالته ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لاوداماس . . . ثم أقبلت إحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من أبريق فضى ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكُلِ وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أديسيوس وارتوى ؛ وأمر الملك كبير السُّقاة بونتونوس ، فمزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمةً لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى رَوَوْا

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلهً عفو الخاطر ، فاسمعوا وعوا . . . لقد طعمتم جميعاً وستتفرقون إلى مضاجعكم ، ثم نجتمع عند مطلع الفجر نحن ، ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر فى شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة . . . إنه يطلب أن يعود فى حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين . . . لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القربى ، وطالما غشيت مجالسنا وشاركت فى ولائمنا ، وهى تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلاً منا يضرب فى الأرض ، وليس ما بيننا وبينها بأقل مما بينها وبين السيكلوبس أو المردة الجبابرة ، وفى ذلك فخارنا وهو آية مجدنا »

ونهض أوديسيوس الحكيم فقال : « غَفْراً غَفْراً أيها الملك ! ما أنا فى الآلهة ؟ ! أين لى خَلْقها السَّوى ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شقى من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله حمولة هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شقى شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه . . . بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأناب ... أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت لكم طرفا يسيراً منها ! ولكن لا داعى الآن .. أرجوكم .. أتوسل إليكم .. دعونى أتبلغ بهذه اللقيمات فى هذه اللمحة الحالمة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذنى الجوعان ، ولشد ما يعذبه الطوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم ، حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهيه عالية الصخب تطلب العون فى جؤار وجنون ، حتى ليضيع فى ضجيجها هتاف جميع الآلام إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إنى أفتأ أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذى ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلى ووطنى . »

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلقى ذويه ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ، إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهماً واجماً ، كما ظل

---

(١) فى الأصل (رب الصواعق)

الملكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والندل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذاك الدثار ؟ ألست قد قلت إنك غريب نازح أفلتتك المنايا فى لجج البحر ؟ »

وقال أوديسيوس يجيب أريتا :

« أيتها الملكة ! قد لا أفرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشق على من ذلك ، فقد كرثتنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أنى ألم بمأساتى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا — إحدى الجزر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إله — تقيم عروس الماء الفتان — كليپسو — البارعة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدر على أن أكون أول لاجىء إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياماً ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليپسو الجميلة الريانة ، وأنقذتنى من موتة أكيدة وأطعمتنى وأكرمت مثواى — ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أننى تأبيت . . . ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقأ طوالها دمعى الذى نضحت به أثوابى وما خلعت على من دثار . . . وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها باطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث زودته بالأطايب والأذخار ، والأشربات والآكال ؛ ثم أرسلت بين يدىّ ريحاً رُخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب طيلة سبعة عشر يوماً ... وفى الثامن عشر لاحت قمم جبالكم الشم فخفق قلبى فرحاً . . . بيد أنه كان أملا خُلَّباً لم يطل أمده ... فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلى ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير — الذى كان كل أملى .. ولم يعد بد من أن أكافح الماء ، وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقذفانى إلى ساحلكم ذى النؤى .. ولم أحتمل صدمة الصخور ، فنضحنى السيل الرابى إلى الأعماق كرة ثانية . . . وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتنى موجة مزبدة فى نهَر وديع متطامن ... فسبحت إلى إحدى عدوتيه ، واستلقيت على الشاطىء خفق الأحشاء منهوك القوى . . . وأقبل الليل فتهالكت على نفسى إلى دغيلة مهدتها بمساليج وشىء من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلا طويلا وضحوة متعبة وظهيرة كلها نصَب وإعياء .. ثم أيقظتنى صيحات قريبة مُرنّة ، فاذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحُسّان فى ربرب من أترابها يتلاعبن كربَّات الأولب على رمال الشاطىء ... وجثوت تحت قدميها ، ومازلت بها أنماق شبابها الغض بدعوات ممسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمى من خبث ، ثم منحتنى هذا الصدار وذاك الدثار . . .

تلك قصتى أسردها عن قلب محزون .. ما فيها أثارة من مين »

قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتى إذ لم تصحبك

إلى هنا فى جملة حشَمها ما دمت قد رجوتها فى ذلك أول الامر »

وقال أوديسيوس يجيبه : « إنها لم تخطىء أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتنى فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظنانون قوالون »

فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب النزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يابنى إنى لأوثرك كولدى ، وبودى لو قبلت فصهرت إلىّ وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا .. وإنى — إن رضيت — لمقطعك الأقطاع الشاسعة ومانحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شىء تأباه نفسك . معاذ الله يا بنى ... إن هذا إلا عرض ... مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاحة عقل ونبل ... فان لم يرقك أن تفعل ، فانى معدّ لك أسباب عودتك غدا ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك ينهب اليم ويطوى العباب ، منسربا فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاذيف حتى تصل الى وطنك سالما غانما بل حتى تصل الى أبعد منه ، ولو الى ما وراء أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس[1] ذا الشعر الذهبى لزيارة تتيوس[2] جبار الأرض.. إنهم يبحرون به الى هذه الجزيرة ويعودون فى يوم فى غير عناء أو اعياء ، وستعرف سبب فخارى بسفائنى وبحارتى الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك »

وشاع البشر فى أسارير أوديسيوس ذى التجاريب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغر ! أنجز يامولاى يسر ذكرك فى البلاد ، وألق أهلى وأنشق نسمة من وطنى »

* * *

وهكذا تشقق الحديث بينهما ...

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشا وثيرا فى الرُّواق ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دمقس ، وبثثن فوقه الأرائك والحشايا ، وعلَّقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس[1] واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج فى جوانب القصر . . حتى إذا فرغن من كل شىء ، دعون أوديسيوس فى أدب وظرف أن ينهض لينام ... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة

ونهض الملك والملكة لينعما بطيب المنام

(يتبع) دريني خشبة

(١) ابن زيوس من زوجته أوروبا وقاضى العدالة فى الدار الآخرة « هيدز » « جرير »

(٢) أحد مردة طارطاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أفدنة (جرير)

(١) البرنس بمعناه المعروف عربى فصيح

سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول
للشاعر الفرنسي موريس رستان
بقلم الأستاذ خليل هنداوي

الفصل الرابع

بعد انقضاء عام على المسرح الروماني حيث يعاد تمثيل « أبي الهول » بعد انتهاء التمثيل . في الزاوية (أبو الهول من الورق) . عن اليمين باريس بالقرب من إيزابيلا وهي بزى أبي الهول . أرجانتي يحدث سانتيا ، والعمال منتثرون في كل مكان

المشهد الأول

باريس ، إيزابيلا ، سانتيا ، أرجانتي ، العمال ، المعجبون والمعجبات

أصوات العمال — ابتعدوا .... الستار !....

من الباب الحديدي

إيزابيلا — (لباريس بشيء من الكآبة المغتبطة)

آه لو كنت تعرف ، بالرغم مما تذوقت من الألم ،
أية سعادة تغمرني في إذاعة اسمك في هذه القاعة !
عندما سميت « اسمك » إختنق صوتي ، وأصبحت
شاحبة الوجه ، باهتة اللون . قلت : « قطعة باريس
إيجلانو ! » ولك — ياحبيبي — قد صفقوا وهتفوا

باريس — شكراً !

إيزابيلا — لقد أعدت إليك تاجك ، والقطعة
التي تمزقت هنا قد حلقت منتصرة وسط هتافهم
كعصفور جريح شفاه
الحب . إنني داخلته إلى
غرفتي

(تقول لنا بعتها)

أرماندا ! هاتي حجابي .

باريس — (بوحشة)

لقد خيل إلي أني أرى
أبا الهول تكتنفه النجوم
وقصائدي الانسانية كانت
تؤيسنا في بعض الأحيان
ولكنها تصبح أحسن رونقاً حين تمر على لسانك
الشادي ! وشكراً لك لأنك كنت في هذه اللحظات
القصيرة تقرنين شعرنا إلى أحلامنا !

إيزابيلا — (تبتعد عنه مرسلة إليه قبلة)

لكي يصح ترديد الشعر بذوق سليم ينبغي تقبيل
الفم الذي أخرجه

(تمضي إيزابيلا ... وأرجانتي يدنو من باريس)

ارجانتي — لا تذهب يا سيدي ، فالمدينة جمعاء
تريد أن تهنئك !

باريس — زهوك يبالغ في ذلك ؛ فليكن
ما تريد ... سأستقبلهم !

ارجانتي — (بزهو)

اسمع كل هذه الأصوات !

باريس — (من غير أن يعي ما قاله ارجانتي ، وقد ملك عليه حلم وكآبة)

هل تكون قطعتي مجموعة صمتي المكتوب ؟
وهل أراني أودعت على الصفحة السرية فؤادي كله ؟

ارجانتي — هل تحصيهم ؟

(يقدم المعجبون كالموج ، وفي المقدمة الأمير وصديق المؤلف)

الأمير — شيء رائع !

الصديق — وباعث على العجب !
(يعانقه ثم يلتفت إلى امرأة خلفه وبصوت منخفض)
ردىء جداً

غيره — علاك الأفئدة
« — يهز القلوب
« — يتركها حائرة
« — يبعث فيها القوة
« — يزيد في حركتها

سانتيا — إنك لم تبلغ في حياتك مثل هذه الرقة البعيدة

غيره — في اليوم الذي تريد ستكون عبقريا

صديق المؤلف — كانوا في الفصل الأول جامدين ؛ وقد كنت أول هاتف لك . نعم ! لقد صحت : أحسنت بصوت رنان من مقصورتي

باريس — إني مدين لك من غير شك بظفري

امرأة — إن مروحتي تحطمت ، لم يبق منها إلا جناح واحد !

غيرها — قد تمزق قفازى لكثرة التصفيق !
« — من حسنتك أنك منعتها عنا زمناً طويلا حتى تعرضها علينا آية كاملة

فتى — أنك لأكبر شاعر عليها ، بيرون ! أقول : بيرون أو دانني . . .

باريس — لا تبالغ ! لا يُعرف « بيرون » إلا بعد مائة عام بعد موته . ليس المجد المتألق على جبين الأحياء إلا ضماناً لخلود الناس . إنك بعد موتي تستطيع أن تحكم عليّ

إرجانتي — (معرفاً «باريس» برجل كهل متأنق يدعو مشبهده إلى الهزؤ :
الدوق دي ليجانو

الدوق — أتذكر — أيها الأستاذ — في بالرما إحدى الآمامي الراقصة ؟

باريس — (يحاول أن يتذكر عبثاً)
ربما . . .

الدوق — إنك توحى إليّ وسيلة الكتابة

باريس — ولكن . . .

الدوق — كيف تنظمون الشعر ؟

باريس — نمده على الأصابع

الدوق — نمد حتى الثانية عشرة ثم نبدأ

باريس — أنظم الشعر بينما ترقص الدوقة ! لقد قيل لي — والعهدة على الاشاعات — إن الدوقة تحسن الرقص . إنها ترقص . وتستطيع أن ترقص بينما تقرض أنت الشعر !

الدوق — لقد طرقتني هذه الفكرة يوماً أثناء طوافي على البحيرة . أود أن أنظم مقطوعة . . .

باريس — ومقطوعة ثانية ! وأين الدوقة الآن ؟

الدوق — إنها رحلت . . . ولعلها في هذه اللحظة تزور هبركولانوم

(يمضى الدوق)

المعجبة — (تلقى بنفسها على باريس)
سيدى ! إنك ستكتب كلمة على مجموعتي هذه تجد فيها كلمة من اللاكم الكبير ، وكلتين من الراقص الروسي . وكان يجب حتما أن أحظى بها ، ولدى فكرة سطرها عضو في المجمع العلمي

باريس — كنت إخال أنهم لا يفكرون في شيء ، ناوليني مجموعتك ! .

المعجبة — إليك قلمي !

باريس — بلى ! سأكتب ، ولكن من أنت يا ذات العينين اللامعتين ؟ إني أود أن أعرف كيف يدعونك ؟ وما اسمك الصغير ؟

المعجبة — أنا المعجبة الحسناء أجلس في المواقع

الأولى مسترسلة لأحلامى ، أنظم وشاحى من القطع التى أسمعها ، إنى جميلة وذكية الفؤاد أيضاً ! لماذا تريد أن أقول لك « اسما » ستنساه عندما يجتذب الفجر قلائده الليلية . وكأنه يريد أن يظل وردى اللون ! ...

أنا المعجبة الحسناء !

(تذهب)

ارجانتى — (يقدم لباريس رجلا ينحنى أمامه)

أرجوك الانصات له !

باريس — من هو ؟

ارجانتى — مدير مسرح انجليزى شهير ود أن يمثل « أبا الهول » فى مواطن شكسبير

المدير — متى تشاء أن أتكلم معك ؟

(تتلاشى تتمة المحاورة إذ يصعدون ، والمتفرجون والآخرون يتناقشون بصراحة

المعجبة — لم ينظم فى حياته أوسع ولا أتم من هذا ؟

امرأة — (مقبلة على فريق)

إننى أوثر قطعته التى كان يمثلها « فوستين »

زميل — إن ظهور « أبى الهول » سخيف !

كاتب — هذه ليست بقطعة ، إذ ليس لها إلا مؤلف واحد !

الأمير — (بسخرية)

ما تصنع أنت ؟

الكاتب — معين !

أصوات — وهل يتكلم هكذا أبو الهول فى فى المساء الأخضر ؟

أصوات أخرى — فيها كثير من الأبيات الجميلة ، كثير من الأبيات الرائعة !

ارجانتى — (لباريس)

يجب أن تكون سعيدا !

شامت حسود — إن المرح الفنائى أصبح —

اليوم — نثراً لا شعراً

الغيور — ما هذا ؟ الجمال ، الجمال ؟ وما تريده هو البساطة

غيره — شعر ليس له روح الشعر .

الغيور — موسيقى ليس لها تأثير فى أنفسنا !

أهذا شعر يصفق له ؟ إن هذا لشىء عجاب ! حدثنى عن « ساندور » مثلا ، فهو شاعر ، قد يمكن أنه لا يفهم ولكن موسيقاه مؤلفة من ألحان متطابقة

الأمير — (كمتجاهل)

ومن هو ساندور ؟

الغيور — هذا هو فى الحقيقة إنسان ! ومن يتلو شعره يا عزيزى لا يذكر بيتا منه . وهنا يظهر سره ! ذاك شىء غريب ، إن بيتا واحدا يبقى شهيرا

الأمير — ولكن هنالك مجموعة شهيرة ، وأنا أحب الثانى

الحسود — نعم أعلم ذلك ، ولكنا إذا فكرنا قليلاً نراها ليست على شىء . قلم ... وسكون ... وساعة عمل ، أعطيك فيها مئة بيت على طرازها . القانون سهل والأسلوب جميل . والبيت من الشعر لا يحسب بيتاً إلا إذا خطر بجناحين

الأمير — ألا ترى ؟ إن بى ضعفاً عن محبة البيت المجنح !

بلى ! برغم « ساندور » وبرغم جميع الذين يرون أن القصيدة ليست خفقة قلب ، ولكنها مسألة يمكن حذقها كحذق الطهى ، إنه يغدو نفسا تحترق !

إننى أحب الأبيات المجنحة على أن تطير !

الحسود — ولكن لا شىء أسهل من ذلك ولا أقل نصباً

الأمير — وإذا كان الأمر سهلا بهذا المقدار فائت به !

(يمضى باريس وخلفه ارجانتى ، والجميع يهنئونه للمرة الأخيرة)

باريس — (شاعراً برياء البعض)

كثيرة هى الأكف التى تمتد للمصافحة

ارجانتى — الفوز !

باريس — على أن كثيرا من هذه الأكف تفتح جراحا

المدعوون — أيها السيد !

باريس — (ضاغطا على يد ارجانتى)

عفوا يا ارجانتى ! افهم نفسى . إن الأيام التى تفتقر فيها الى كل هذه الأكف الممدودة ، والى كل هذه الضجة الهاتفة ، لا نرى منها أحدا عند النائبات

فى هـذا المساء ما عسى أن يصنع لنا هؤلاء الخافقون ؟ إننا فى أيام الشقاء نحتاج الى أصدقاء

(يتحدث مع سانتيا الذاهبة)

أذاهبة ؟

سانتيا — (مع صديقتين لها)

عد ممنا !

باريس — إننى أنتظر ازابيلا

سانتيا — إلى الغد ...

باريس — (متناولا باقة زهر كان قد أخذها من إحدى المعجبات به)

تناولى هذه الأزهار ، ورصعى بأزهارها صورة أخيك . يجب أن تفعلى لأن الصور هى قبورنا الحقيقية

سانتيا — شكراً

باريس — إن الأموات الذين لا ينساهم أحد هم الأحياء المجهولون الذين يخفقون فوقنا

(باريس وحده مع ارجانتى على المسرح الفارغ)

ارجانتى ، ارجانتى ! لماذا أنا لستُ هنالك ؟ وكيف استطعتُ أن أعود إلى أوروبا بعد ما وطئت قدماى الصحراء

ارجانتى — عفواً !

باريس — لماذا أنا لست هنالك ؟ هنالك فى تلك البقعة أمام النيل ؟ وعلى جوانب الصحراء حيث تمايل ظلال النخيل الأزرق منذ آلاف الأعوام ، وحيث يرخى المساء ظله على حفافى الرمل المتورد ، فيغدو الراعى شاعراً وإن لم يفه بشعر

هنالك ! يا ارجانتى يجب أن نحيا والحب يغمرنا

ارجانتى — (وقد تفض عنه الأخيلة)

لقد كانت القاعة طافحة بالناس

باريس — ولكنها الآن فارغة ، إن كائناً واحداً إذا أغمض جفنيه ترك الوجود فارغاً !

(ينظر إلى الظلمة ، والقاعة الفارغة)

بلى ! القاعة فارغة ، لأننى لم أستطع أن أصافح بيدى يد مارسيللوس ، لأنه هلك هنالك !

ارجانتى — ولم نفكر فيه من دون انتهاء ؟

باريس — لقد وعدته بأن أعمل !

قال لى : « إذا هلكت قبلك ؟ وإذا قُدر — على عكس الدستور — للأكثر فتوة بأن يقودك إلى هـذا السرب المظلم فاعمل ... » إنك ترانى يا أخى — اعمل ، وقلبى يجيب على ذلك السر الأعظم الذى أذاقك حتفك ...

ولكن هل لاحظت شيئاً غريباً ؟

ارجانتى — لا !

باريس — فى هذه الظلمة التى تستقر فيها نظرتى ، وفى هذه القاعة القاتمة التى لا أبصر فيها شيئاً ، يخيَّل إلىَّ أن نظرة قديمة تتبعنى ! ألا أى ملازم لى يدخل فى نفسى ويثأر منى ! إنى — منذ عام — أراه يقتفى أثرى ، ويطأ موضع قدمىَّ !

ألم يبق أبو الهول هنالك ؟ فلماذا هذه الصورة تطوف حولى بدون انتهاء ، تؤلمنى وتزيد صدرى حرجاً ؟ كأننى معتدٍ مزقت خوذته النحاسية

ونفيتُ عنه القرون التي تذود عنه ، وسفعتُ بناصية ملك الصحراء ! ...

(تبدو ايزابيلا ، وقد خلعت رداء أبى الهول ، تختال فى ثوب دقيق يتوهج بدنها تحته ... تدنو منه ببطء ... وهى ليست إلا عاشقة عصرية تقترب من عاشقها)

المشهد الثانى

إيزابيلا ، باريس ، ارجانتى

إيزابيلا — يا له من ظفر ! ويا له من مساء ! إنك لم تقدم إلى مقصورتى لترانى ! ولا تزال تخطر هنا !

باريس — إيزابيلا

إيزابيلا — أصغ إلىّ ... أحس قلبى يدق هذا المساء دقاً عنيفاً ، يخيَّل إلىّ أن وجودى كله يهتز ! ها إن أبياتك استحالت طيوراً ضخمة مشتعلة تخفق على صدرى العارى ، لقد رددتَ علىّ رقة جنانى !

باريس — (رانياً إليها)

أيتها الحبيبة : ياحبيبة لحمى ودمى ! يا خالقة عبقريتى ! هو كذلك

إيزابيلا — هل تحس أية غبطة منيرة ، بهذه العودة التى تجل عن الوصف للآلهة ؟ بى كان ذلك ؛ وأنا السبب المؤثر . أنا أسمى ممك للوصول إلى فوزك الباهر ! إن عشيقة شاعر ، وأمَة نظمه وطرقه ، تود فى وقت واحد أن تكون خليلته التى يصطفيها ، ومبدعة عبقريته التى توحى اليه ؛ وإنها لتكون الأقوى نفوذاً تقتطف الانتصار بعد الانتصار كالأزهار

(تضمه إليها)

تعال ! فلندخل مثوانا ! فالمجد آب إليك فى جهاد يوم واحد . هذه الساعة ساعة الحب ، وسريرنا الفسيح العميق ينادينا ... تعال نم بجانبى حتى الفجر

باريس — إيزابيلا ...

إيزابيلا — أحبك حين تغفو ، منهوكا ، متلألئاً ، على ذراعىّ كما يغفو الطفل الوديع ؛ وفى بعض الخطرات أتيقظ ، فأرى وجهك الساكن يطفو عليه الرقاد . إنك لا تدرى أى ظفر يعرونى حين أراك هكذا ؛ لا شىء عندك ! والجماهير التى تعبدك أفردتك وحدك . تستطيع أن تنام هادئ الاغماض ، حراً مجهولاً ، متأثراً من الضعف ، بوجه فتى خفى كوجوه أولئك المحبين حين يغمضون العيون

باريس — إيزابيلا !

إيزابيلا — (بشغف)

إن عينيك المطبقتين هما كالفجر الذى أشرق على ضفة مشهد ! إننى لأخشاك حين تكون عيناك مغمضتين ! فنظرتك الخطرة التى قد تكون غاضبة وجميلة فى الوقت ذاته تتوارى تحت جلباب الليل الذى تآلف من ظلمة الألوان ، وانطباق الأجفان . أرانى أكثر الناس تعلقاً واختلاطاً بك ! أتلقن منك الأسرار المجهولة حينما تطوق ذراعاى العاريتان رأسك ! هى لا تعلم شيئاً من لم تبصر محبها وتتأمل فيه وهو نائم مطبق جفنيه ، ومن لم تعد لتفتح — خلال رقاده المنهوك — عينيه بقبلاتها

باريس — إيزابيلا !

إيزابيلا — غداً ، عندما الفجر الجديد البازغ على سرير الحب يفتح عيوننا ! تتلو بذهول الصحف التى تتحدث عن أكاليل الغار التى حظيت بها هذه الليلة ! كم تبدو لنا انتقادات هؤلاء ضعيفة واهية قبل أن نراها ، وأنت وحدك المنتصر !

باريس — إيزابيلا ...

إيزابيلا — باريس ! إن مصر قد دخلت فى النسيان ! مدينتك التى صفقت لك وهتفت هتاف الاعجاب هى قرينتى ! مجدك وسعادتك يتركان لى

حق ذلك : لقد انهزم الآنه الحجرى من الأفق

باريس — لم تتكلمين بهـــذه اللهجة ؟ لم تذكرينه بى ؟

إزابيلا — (نقيض عليه)

لأنى أعبدك ، ولأن الليل جميل بهى ! لأن خصائل شـعرك تحجبنى مرخاة على عنقك . ولأن قلباً يدق فيملأ الفراغ ؛ ولأنى أصبحت ولا أخشى منافساً !

ضمنى إلى قلبك ، ضمنى شديداً !

انظر ! ها هو المسرح لا يزال يخفق لفوزك الفنى . أنا لا أحب فيـك مجرد عبقريتك العزيزة على ، ولـكنى أحبك أنت يا باريس ! أحب عينيك المفكرتين الهائمتين فى اللانهاية ، يسكن فيهما الدمع تحت قبلاتى . ومن كل حياتك التى لا تخمد ، وعبقريتك الساطعة أحب فمك

باريس — إزابيلا !

إزابيلا — أنا عالمة أنك ستذهب يوماً عنى ! فالرجل يقضى الحياة عاملاً على الفرار من بين أذرعنا !

(يتعانقان)

تأمل !.. فلا تزال عينك تفر من قلبى !

آه ! إن أطول قبلة فى العالم تنتهى سريعاً !

هنالك إنسان . . . . .

(يدنو إنسان مع ارجانتى)

ارجانتى — (ميمماً باريس)

هـذا صحافى يطلب زيارتك للمرة الثانيـة بعد أن صرفناه مرتين

باريس — من أين ؟

ارجانتى — من صحيفة « المأساة »

باريس — لا ! لن أستقبله ، ولا أريد أن أرى أحداً !

إزابيلا — اسـتقبله ، فهذه ساعة المرحمة قد دنت ! حيث الشاعر كالمحارب الجنون ، إذا اقتطف أكاليل الغار أخذ يستنشقها . إننى عائدة .

(تنطلق إزابيلا وارجانتى)

المشهد الثالث

باريس ، الصحافى ، والعمال

الصحافى — أريد أن أسألك يا سـيدى عن شعورك وعما أثر فيك مشهد هذا المساء ؟

باريس — (بوقاحة)

كنت أظن يا سيدى أنك جئت قبل الوقت ، ولـكنك الآن جئت بعده ...

الصحافى — هذه بعد الأولى ، ولـكنه كان مساء غريبا رائعا ، والجماهير تريد أن تعرف عنـد يقظتها ما أوحى اليك هذا الفوز

باريس — حقاً !

الصحافى — (يحاول أن يكتب بقلم صغير)

ستقول لى أليس كذلك ؟ ماذا أحسست إذ انتصرت ؟ وحين ألفيت المسرح يتماوج لنغماتك ؟ أين كنت أيها المعـلم متواريا عنا ؟

باريس — لم أكن فى مكان ؛ كنت أدخن مع العمال

الصحافى — أى شعور عراك ؟

باريس — كنت كئيباً

الصحافى — أكنت كئيباً حين هزتنا نغمتك ؟ مم تكتئب ؟

باريس — أكتئب لأنى وجدت أنها لم تبلغ ما أردت ؛ أكتئب لأنى أرى كل شىء على الأرض حياً ومجداً وانتصاراً ، وأنها ليست بشىء منها

الصحافى — لا يمكننى أن أرى ذلك !

باريس — كل ما تخيله يسحر خالما ؛ والمأساة

ليست كبيرة إلا فى أعماق قلوبنا

الصحافى — لماذا لم تطل على الناس حين قطعوا الأكف تصفيقاً ؟

باريس — وما صنعى عندهم ؟

الصحافى — تحييهم ! وترى شعباً يموج إعجاباً بك . ولماذا لم تجىء حين تصاعد هديرهم

باريس — لأنهم كانوا أكثر !

الصحافى — ولكن جميعهم يحبونك

باريس — أتخال ذلك ؟

الصحافى — أننى أؤمن . . .

باريس — أما الأسود فانهم يصطفون لها حين تفترس ضربيها . وإذا كان المربى هو الذى سيسيطر على ملوك الصحراء فالشعب يصبح خجلا ! أتريد منا أن نزعج أنفسنا للذين يأتون لينظروا إذا كنا أكلنا ؟

الصحافى — ولكن ألا تستثنى أحداً ؟

باريس — أجل ! بعض نفوس صافية يقودها حب الجمال وحده إلى النور . ولكن هذه النفوس تفضل — بغير أمل — أن تهتف للشاعر دون أن تراه

الصحافى — أهذا كل شىء ؟

باريس — هذا كل شىء !

الصحافى — أهذا كل ما يوحى اليك مثل هذا المساء ؟ أما عندك شىء آخر لنقوله ؟

باريس — لا شىء !

الصحافى — مالى إذن إلا أن أنصرف !

باريس — نعم ! هذا هو كل شىء .

(يذهب هذا الصحافى مضطرباً والعمال يهمون بتحطيم أبى الهول)

لا ! لا تمسوه ! دعونى وحدى معه : وحدى . .

المشهد الرابع

— باريس واقفا أمام أبى الهول —

باريس — ما أنت إلا من ورق شاحب اللون بعيداً جداً عن مصر ، وبعيداً عن المشهد الذى يخلق الاضطراب . ولكن عند ما أقف وحدى بجانبك فى المساء ، يخيل إلى أننى واقف أمام أبى الهول الحقيقى . . . أبى الهول المصرى الذى يسترسل لأفكاره تحت إكليله المرصع بالنجوم دون أن يبالى بأرزائنا !

هأنذا قد قهرتك أيها الوحش الصامت !

إننى أحيا . . . أنظر إلىّ . . .

إن الذين ماتوا هم كل الذين وقفوا على أسرارك العظيمة . . . ولكنك كلمتنى ! وها أنا أحيا على الأرض ، وإنى أكاد أرى هنيهة مارسيللوس لا فظا أنفاسه ، ماداً ذراعيه نحوى ، تتألق على وجهه الأسمر شعاعات الموت ممتزجة بأشعة القمر

أميت مارسيللوس ؟ لا ! ولكنه مغشى عليه

إنك لتحيا يا أخى الميت فى أخيك الحى ! صوتى يرجع الى صوتك الخالد ، وأسمع فى قلبى القوى قلبك الحزين يخفق

(يصبح فريسة للاضطرابات)

ولكن لم هذا الفراغ ؟ وهذا التأثير ؟ هأنا وحدى معه وهو وحده معى . نحن وحدنا كما كنا من قبل . إننى أسمع هزيم الريح بين أشجار النخيل فى السهول التى لا يخترقها سبيل

بلى ! هذا هو ذات الأريج ، إن الانسان — يوم بدأ يتألم — وحينما نزل يحمل معه صحراءه ريح مصر البارد تهب عنيفة . . .

لا لا : أنا لا أستطيع أن أبقى بدون (إيزابيلا) لا أستطيع .. إيزابيلا ... إنها لا تسمع ندائى ...

كم بيننا من الأبعاد ؟ . . . ولكن ما أدنى هذا الظلام الذى لا يُرَد !

كفى ... دعنى أحيا هكذا يا إلـه الألم !

صوت أبى الهول — تعالوا . . .

باريس — الصوت ذاته دائما . . .

أبو الهول — تعالوا . . .

باريس — النداء ذاته ، ومع هذا أرانى وحيدا هنا ... لا أريد أن أسمع نداءك أيها الرسول اللعين

أبو الهول — لم أقل الحقيقة إلا له

باريس — كذب وافتراء . كلامك ليس حقا ، ولا يمكن أن يكون حقاً

أبو الهول — باريس ! إن مارسيللوس وحده هو الذى أدرك السر

باريس — النجدة ... أغيثونى !

يتلاشى المشهد والممثلون والمسرح .... لا شىء إلا الصحراء وأبو الهول)

المشهد الخامس

أبو الهول . باريس . ايزابيلا

أبو الهول — ففى مارسيللوس زهرة مضطربة وبما أن الحقيقة كانت تقتل فأنا قد أبديتها !

باريس — أبو الهول

أبو الهول — إنك لن تتغلب على رسالتى التى هى الموت . ما أنت إلا جاهل لأنك لا تزال تحيا ! وربما كنت حين حملت أسرارى الى مارسيللوس قبل صرعه ، ربما كنت مخدوعا

سرى ! وما هو هذا السر الأكبر ؟ أنا وجدته ولست بالـه . إننى فحصتُ كل الزهو الانسانى ، حتى إذا تأملت فيه لم أجد إلا التراب !

باريس — ماذا تقول !

أبو الهول — إلا التراب ... هنالك الأفق ، الأمل المجنون ، وقد يكون الأمل على حق . لا أرى إلا التراب والموت

السماء قد احتفرت جناحىّ العاطلين . أنا لم أصعد الى الأعالى ، أنا لا أدرى شيئا . لست إلا كائناً أرضـيا مثلك . وإزاء « أبى الهول » نفسه « أبو الهول » جديد يبـدأ . فالأرض تقول « الفناء » والسماء تمطى القضاء

باريس — لا لا ! إنك سلبتنى سرا يتعلق بى . إننى لن أموت هنالك ! سأحيا ؛ لست واحدا من أولئك الذين تحب محاباتهم

أبو الهول — إنى تبينت وجهك حين تكلمت ولمحت مستقبلك وفتوتك ومواهبك . . .

(باريس صائحا من الألم)

ولـكن مارسيللوس لأى سبب انتزعته !

أبو الهول — (بعد صمت عميق)

عفواً ! لـكونى حطمت قلبا فى زهو الحياة . إن « مارسليوس » المسلوب » ببيت من « شعر ڤرجيل » لم يدفعه الى الموت إلا سبب قدسى . إنى بقتلى إياه قد آثرته على غيره . وقد أكون أحسنت فى إجابة رغبة كايكا باعطائه الموت وإبقائك فى عالم الحياة

أذكر أيضاً يا باريس ! لقاءنا تحت الأفق ! فليمتزج مع كل حب عنيف فيك أثر غيابى الغريب عنك . إننا لن نتلاقى . يخيل إلى أن كواكب مصر وسماءها تدعونى إليها . ولـكن ، على الأقل ، تبصر عيناك هنا نظرى الزمردى ، ولحدى الحجرى الوداع . . .

(تتوارى الصحراء وأبو الهول ، وتظهر إيزابيلا ، وتقع على باريس ... وباريس يستيقظ كمن أزعجه حلم)

باريس — إيزابيلا ! أعطينى عينيك ، فلك أيضاً ! تعالى ... لنمش فى موكب الحياة ...

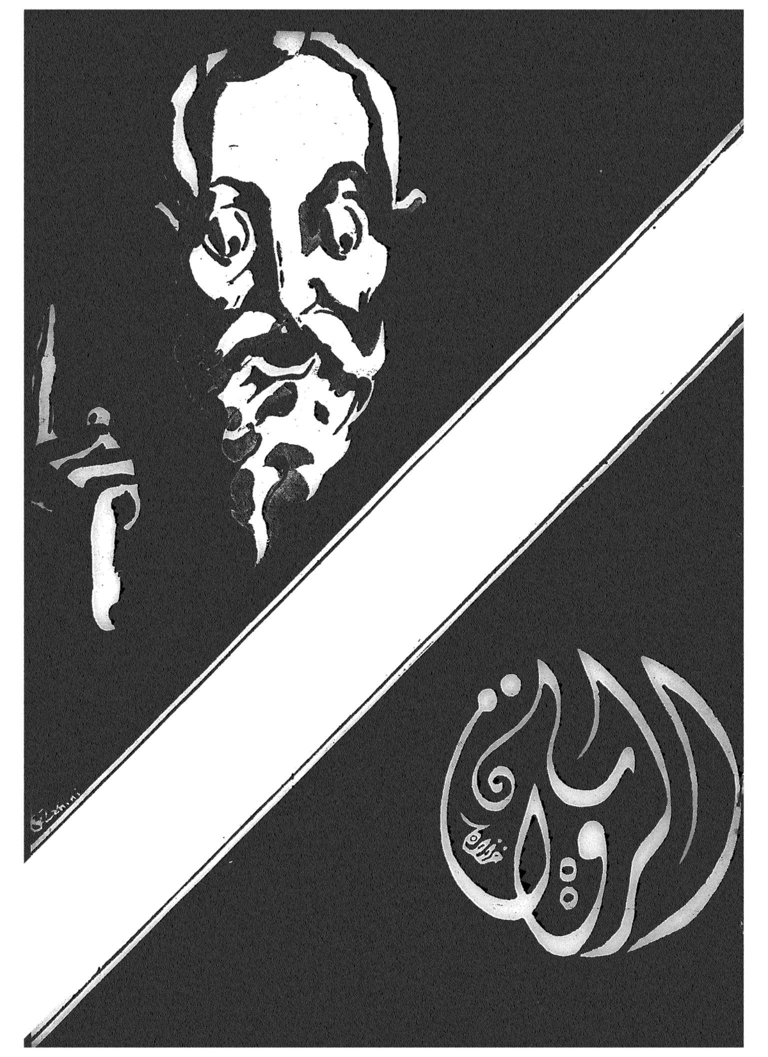
إيزابيلا — الحب وحده هو قاهر الموت ...

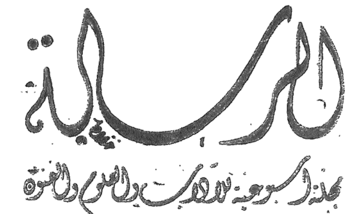
(يذهبان متعانقين)

— الستار —

(تمت الرواية)

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة النشر





مجلة الاداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد فى الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشا، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا، وللبلاد العربية يخصم ٢٠٪

طبعت بالمطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش رقم ٣٥ — تليفون ٥١٥٢٢

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد العاشر ٦ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١٥ يونيه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد



في ذات يوم لا أذكر من تاريخه إلا أنه كان لعامين من موت هرقليس ، كانت مدينة (دلفي) تموج بالناس وتعج بالضوضاء وتزخر بالفتوة . كان ذلك اليوم آخر أيام الألعاب الفيتونية ؛ ومن أعجب الأشياء أن الصراع والسباق كانا يجريان على غير مشهد من أحد ، والرياضيين والسواقين كانوا ينتصرون على غير علم من إنسان ، حتى قيل إن الشاعر سيمندس كان ينشد رائع الشعر في الفرس المجلّي ولا يستمع إليه يومئذ إلا بطله ! ذلك لأن كلمة واحدة طار بها السماع فطارت بالقوم من ميدان اللعب إلى معبد أبولون :

« هاهم أولاء أبناء هرقليس ! هاهم أولاء أبناء هرقليس ! »

ومن في الناس لا يضحي بمقعده في الملعب ليرى أبناء هرقليس سيد أبطال الأغريق ؟ وكانت أثينا منذ شهر قد استيقظت ذات صباح فوجدت هؤلاء الأبناء مخلوعين مضطهدين مشردين يتهافتون في الساحة العامة على مذبح الرحمة فثارت بها الحفيظة لشكواهم ، ونزت فيها القلوب والسيوف لبلواهم ، ثم بعثت بهم في هذا اليوم على رأس السفارة المقدسة إلى دلفي يستنبئون آلهتها عن مصدر هذه الحرب

ودلفي كما تعلمين(1) مدينة مقدسة تفيض جوانبها بالعجائب ، والناس يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وأنا كأولئك الناس في هذا اليوم لا أريد أن أتنقل بك من البرناس إلى الهيبدروم ، ولا من الهيبدروم إلى منصة أبولون ، فانك ولا شك حججت إلى هذه الأماكن منذ طويل في (سياحة أناكرسيس) ، وأنا — ولا أخفي عنك — مشوق كذلك إلى رؤية أشبال هرقليس

كان الشعور الذي استولى على الاغريق لدى رؤيتهم أولئك الأبطال يترجم عنه هذا الهتاف الأجماعي الصاخب : « يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب المضل ! » وكان في الجمع شيخ سبط العظام ، تحسبه وفي يده عصاه المذهبة وعلى جبينه عصابته البيضاء ، ملكا من ملوك الأغريق المشرين ، مال على كاهن من كهنة أبولون ، وهو يجتاز المعبد حاملاً مبخرة من مباخر المطورد ، وقال له في صوت خافض :

— لقد عرفت هرقليس وزوجه ديجانير حق المعرفة ، فما عرفت لهما غير ثلاثة بنين ؛ فمن إذن هذه العذراء المنتقبة التي تجلس مع

(1) يوجه الكاتب الحديث إلى صاحبته التي دعاها أخته ، وكتب إليها طائفة من الأقاصيص عنوانها (أقاصيص إلى أختي) Contes à ma soenr وهذه إحداها

أبنــاء هرقليس على مقعد واحد ؟

— كلامك يا أبي الحق لا مرية فيه ، فليس لهرقليس من ديجانير غير ثلاثة بنين ، ولـكن له من زوجته الأخيرة (يول) . . . .

— فقاطعه الشيخ قائلاً : صحيح ! ثم ضرب على جبينه بأصبعه علامة التذكر وقال : لقد روى لي (فيلوكتيت) هـذا الحديث عشرين مرة ؛ ولـكن قرنين من الزمان يدوران على الرأس لا بد أن يضعضعا فيه الذاكرة ! نعم أذكر الآن أن هذا الزواج أعقب بنتاً . . . فارتفع من وراء الشيخ صوت نديٌّ عذب بهذه الجملة :

— بنتاً وابناً يا أبي

فالتفت الشيخ فرأى يافعاً شاحب اللون هش العظام في زى أهل الأرجوليد يردد في احتشام وخجل :

— بنتاً وابناً وهما إكسوس ومكريا

فتبسم الشيخ ضاحكا من الغلام ، وقال للكاهن : أنظر ! في (بيلوس) يهتف النـاس بعلمي ، وفي (أرجوس) يرسلون إليَّ تلاميذهم ليعلموني ...

ثم قال للغلام : من الذي أنبأك هذا يا بني ؟ وماذا تسمى ؟ ولـكن الفتى لم يتحمل ملاطفة نسطور (وهو الشيخ) فأفلت منه وغاب في زحمة الناس دون أن يجيب

وكان ذلك الهتاف لا يزال يدوى في الفضاء لا يعتريه فتور ولا يناله تغير :

« يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب العضل ! » ولعلك تعجبين لهذا الاطراء ، وتحملينه على محمل الاستهزاء ، ولـكنك تذكرين أننا في بلاد قسمتها طبيعة الأرض ومطامع الناس إلى عشرين دولة صغيرة ، يتضارب أقيالها الصيِّد من شـدة الزحام بالمرافق والمناكب . وكان العرف الدارج في الأمم القديمة أن يقتتل الناس رجلاً لرجل ، وجسما لجسم ، فجملوا قوة البدن جمـاع القوى وملاك الفضيلة ؛ وكانوا يتوسمون مخايل الكفاية والفضل في قبضة اليد وقوة الكتف ، كما نتوسمها نحن اليوم في أسرار الجبهة ولحات العين ؛ وحسبك أن هرقليس رمز القوة ومثالها كان إلـهاً !

تأخر ظهور الكاهنـة الوسيطة التي يتكلم بلسانها الالـه (La Pythie) ولـكن أحداً لم يسمع همين السأم ، ولم يلمح عبوس الانتظار ، لأن الجمهور كان يجد فيما يرى غذاء لفضوله وريا لشوقه : كان يرى هالـوس بكر هرقليس وأكبر الأخوة ، وهو محارب عملاق عارى الذراعين مجدول العضلات مطهم الوجه ، فيجده وعلى منكبيه جلد الأسد ، وفي يده الهراوة المقداء ، أشبه بأبيه من الليلة بالليلة . ثم يرى أنتينور وهو سوغ[1] هيلوس وأدق منه ملامح وأرشق منه قامة . كان يتشح بقداسته الجديدة ، ويبتسم لشباب الأغريق ، ومنخراه منفوخان يتنسمان عبير الاعجاب في نشوة ولذة . وعلى الجملة كان الالـه أنتينور شديد الخيلاء والصلف ؛ أما أخوهما (إيجسط) فـكان لا يشبههما في شيء غير القوة والشهامة . كان وجوده في هـذا العصر وفي هـذا المصر خطأ صارخاً في تقويم الزمن . وأعجب شيء فيه أنه كان أشقر الشعر ساهم الوجه منقبض المزاج ، وانقباض المزاج عاطفة عصرية

(١) يقال : هو سوغ أخيه وسيغه إذا ولد بعده وليس بينهما ولد ، وهو بالفرنسية (Puîné)

مسيحية . ثم كان يرجع من المعارك الدامية الشعواء إلى الدار عذب الروح حيي الطبع ، كأنه أحد أولئك المحاربين الشقر من أهل الشمال : يصرعون المردة والأغوال ، ثم يطأطئون الهام ويحرمون الكلام أمام عصا ساحرة صغيرة . كان وهو يتحسر على عرش (أرجوس) كأنما يأسى على شيء أعز عليه من عرش ! فإلى أين إذن كانت تصّعد زفراته وتتبخر دموعه ؟ إلى بيت صديق ، أم إلى قبر أم ؟ عِلم ذلك عند الله ؛ فإن سره لم يسافر عن ضميره إلى أحد ، حتى أخته الفتاة مكريا ، وهى أمينة سر الأسرة لم يفض إليها بذات صدره . وكانت مكريا جالسة إلى جانبه تصلى ...

عفواً يا أختاه [1] ! لقد شغلت بالأبطال عن العذراء ، ولكنها هى الملومة ! انظرى ! إنها مستترة فى ظل إخوتها ، كأنها تحرص على أن تغفلها العيون . إنها لم تكشف عن وجهها النقاب بعد ، فقسماتها لا تزال مجهولة ، ولكنك أسلفت لها الحب ولاشك ، لأنك سمعت منذ قليل أنها وديعة تقية

* * *

وأخيراً أعلنوا ظهور الكاهنة الوسيطة ، وكان الوهن لا يزال بادياً عليها من أثر ما أصابها من اختلاج الأعصاب فى وساطتها الأخيرة بين الآلهة والناس . فهى تجر نفسها جراً من الأعياء والجهد حتى بلغت المنصة متكئة على كاهنين من كهنة أبولون . حينئذ انفتح فى جوف المحراب باب على مصراعيه فاقتحمته هبة عريضة من الهواء العازف ، فقشعت دخان القرابين وهزت الجمع الحاشد فضج الناس قائلين : « الآله ! هذا هو الآله ! »

وعندئذ اضطربت النبية المعذبة فى المنصة اضطراب الذبيح ، فخشعت الأصوات وأصغى القوم

بدأت الكاهنة أمرها بالشهيق ، ثم اتبعته بمقاطع من الأنين والضراعة ، ثم انتهت إلى كلمات ذاهلة لا تسفر عن معنى ، ثم تكلم الآله بلسانها فقال :

« إن (منيرڤا) ستقاتل . . . ! وعلى خوذتها الآلهية ستصيح البومة : « إنى عطشى » ويذهب جهدها باطلاً

تدعو مينرڤا إلهة النصر

وإلهة النصر أختها فلا تخذلها . . .

إنى أسمعها وهى قادمة تنثر أجنحتها فى الهواء . . .

ولكن البومة تصيح : إنى عطشى ، وأريد أن أرتوى بالدماء . . .

إن أرجوس تنتظر ملوكها لتؤلههم :

إضطربى وميدى يا أرجوس ! إن البومة فى طيرانها السفاح تحوّم فى الجو باحثة عن جبهة تقية تضحيها .

إنها تحوم وتحوم ثم تقع على . . . ولد من أولاد هرقليس »

* * *

وفى هذه الساعة الرهيبة العصيبة على أبناء هرقليس ، لم يكن فى المعبد من ملك نفسه وضبط حسه غير أبناء هرقليس !

على أن الكاهنة لم تكد تمسك عن الكلام حتى صاح بها هيلوس :

— عيِّنى الضحية بالاسم

ولكنها كانت تتساقط من الضعف على درج المنصة ولم يبق منها إلا رمق . فقال كبير الكهنة :

[1] يريد الكاتب أخته هو

إن الآله كان جبار القلب غليظ الكبد ، فاذا استأنفت التجربة قتلها ولا شك . فليقدم أحد أبناء هرقليس نفسه ·

فارتفع من بين الجمع ذلك الصوت الرخيم الذى تكلم منذ هنيهة من وراء نسطور وقال : أنا أقدم نفسى ! فقال له الكاهن فى لهجة قاسية : « من أنت ؟ وماذا تسمى ؟ » فأجابه الغلام : « أنا ابن هرقليس واسمى إكسوس »

فانفجر الناس بأصوات الدهش لهذا الجواب المفاجىء ؛ ثم قال قائل منهم يتهكم : « إذا صدق قوله فقد صدق اسمه » وستعلمين يا أختاه أن إكسوس كلمة يونانية معناها العليق ، فكأن أبويه عند ما ولد وسماهُ بهذا الاسم احتقاراً لشكله واستصغاراً لشأنه . والحق أن هذا المخلوق الهش يشبه فى انتسابه الى هذا العرق القوى ذلك النبت الطفيلى الرخو الذى تعبث به الريح وهو قائم على جذوع السنديان

دلف (تينور) إلى الغلام وقال له بلهجة الحانق المتوعد : لقد منعناك أن تتبعنا إلى دانى . . . »

ولكن ابنة هرقليس التى ظلت إلى تلك الساعة ساكنة ساكتة محتجبة ، ألقت نفسها بين الأخوين فقطعت من بينهما الشر ؛ ثم أخذت الصغير من يده وخرجت به من المعبد وهى فى صمم عن نداء هيلوس يدعوها إليه ، وفى ذهول عن هتاف الاعجاب الذى انبعث عن يمينها وعن شمالها ، لأن نقابها انحسر من ذات نفسه لسرعة المشى وشدة الحركة ، فبدت مكريا للعيون بارعة الجمال رائعة الحسن لطيفة الروح ، وقد زاد فى جمالها تلك الشفقة التى تجلت فى صوتها وفى عينيها ، والشفقة عاطفة تجمّل القبح ، فكيف يكون أثرها فى الحسن ؟

* * *

عادت أسرة هرقليس كلها إلى أثينا فى مركبة واحدة ، وقد عقد الأبطال الثلاثة قلوبهم على أن يقترعوا بينهم غداً فى معبد منيرفا ليعلموا أيهم يجب عليه أن يموت . وكان إكسوس المسكين قد جاء فى اختيال ومرح يضع اسمه مع أسماء إخوته فى الصندوق ، ولكنهم منعوه ودفعوه معتقدين أن من الاهانة للآلهة أن يهيئوا للقدر — وهو فى أغلب أمره ساخر عابث — الفرصة ليقدم إليهم هذا القربان الضئيل الأعجف . أما أختهم مكريا فلم يشاءوا أن يعرضوها معهم على رغبة الموت لسبب آخر غير سبب اكسوس : لقد كانت خطيبة (ليكوس) وهو زعيم من زعماء أثينا ذوى الرأى المسموع والأمر النافذ ، (وأثينا هى التى غضبت لهم تلك الغضبة وشهرت دونهم السيف) فهم يحرصون لسبب سياسى أو أدبى على ألا يقطع الاستعداد للتضحية الاستعدادَ للزفاف . لذلك وجدت مكريا غرفتها بعد عودتها تضوع بعبير الألطاف والتحف التى قدمها (ليكوس) ، ولكن نفسها وهى تتسلف الحداد على أخ من إخوتها لم يهزها كرم الهدايا ولم يسرها جمال التحف . على أنها رأت إكليل الزفاف مصوغا من الزنبق الجميل النضر ، فحملته ووضعته على جبينها من غير إرادة ولا وعى . وفى هذه اللحظة سمعت من خلفها زفيراً يتصعد فى ضعف ، فالتفتت فاذا هى ترى إكسوس ! إكسوس أخاها الذى جمعت له فى قلبها الأم والأخت فى وقت معاً ؛ إكسوس الذى عنيت به وأشبلت عليه لأنه

عليل الجسم مبذوء الهيئة ، إكسوس الذى لا يخطو فى البيت خطوة إلا بابتسامة من مكريا تبدد بؤسه وتجدد أنسه ، فاذا غابت عن الدار غاب عنه الأنس واستولت عليه الوحشة

كان ينظر إلى الزهور الرمزية والدمع يجول فى عينه ، والهم يعتلج فى صدره ، والألم الممض يرتسم على أسرار وجهه ، فاستطير فؤاد أخته من الخوف عليه ، لأنها تعودت أن تراه يشكو ويتألم منذ اثنى عشر عاماً ، فلم تجده يوماً على مثل هذه الحال من الكمد المقلق واللوعة الأليمة ، فأقبلت عليه تعتذر إليه وتسرى عنه وتقول :

— أوه ! اعف عنى واغفرلى يا طفلى المسكين !

— أنا أعفو عنك وأغفر لك يا مكريا ؟ علام إذن ؟ والسعادة التى غمرت بها قلبى وعمرت بها وجودى ؟

— لا تشكر لى عنايتى بك ؛ ذلك دين أقضيه . . . . . ذلك تكفير أؤديه . . . . .

فانبعثت من عين الفتى المشدوه نظرات ضارعة تسأل أخته حل هذا اللغز . فقالت له : سمعك إلىّ ! منذ أربع سنين (كان عمرك يومئذ ثمانى سنوات وعمرى أربع عشرة) جرت فى أسرتنا حوادث عجيبة وأمور خارقة لم يصل علمها بأبى ولا بأخوتى . لعلك تذكر ذلك الكوخ الذى ينوه على شاطئ البحر ليختفوا فيه من أعين المضطهدين الكثيرين الأقوياء . كنت فيه ذات مساء وكان أبى وإخوتى فى الصيد ، وكنت أنت منهوك القوى من كثرة ماجريت فى الغابة طول النهار ، فاستسلمت على هدهدة المطر والريح لنوم ثقيل ؛ وكان الليل قد أقبل منذ حين وأبى وإخوتى لم يقبلوا بعد ، فسمعت قارعاً يقرع الباب فذهبت أفتحه وفى حسبانى أنى أجد الصيادين والصيد ، ولكنى وجدت عابر سبيل يطلب الدفء والمأوى برهة من الزمن فأدخلته ؛ ثم جلست إلى جانب سريرك ، واشتغل هو بتجفيف ثيابه على نار الموقد . وما كان أشد دهشى حين رأيت نوراً لطيفاً يتلألأ على شعره الأشقر ! عزوت ذلك النور بدياً إلى انعكاس النار التى فى الموقد ، ولكن الموقد خبا وغرة المسافر ماتزال مشرقة ! حينئذ أدركت أنه أپولون ، أپولون الذى طرد من الأولمب فهام متنكراً فى العالم على وجهه ، ثم بقيت على رغم تنكره بقايا النور من هالته

فخررت جاثية أمامه ، وقلت : ماذا تبتغى منى أيها الإله العظيم ؟ فقال : « لا شىء غير المأوى . على أن المطر قد كف والجو قد صفا ، فأنا ذاهب وسأقبلك قبلة الوداع » فتقدمت واجفة القلب ، مضطربة الحواس إلى عمى ، وقدته من يده إلى مرقدك ، وقلت له : « الأولى أن تلاطف هذا الصبى المسكين فانه لم يظفر بعد بملاطفة إله . إلمس وجنته الذابلة فتنضر ، وانفخ فى شفته الباردة فتغنى » فتبسم أپولون لرجائى ، ودنا منك فنفث فى فمك من روحه ، ولكن نفثته كانت قوية مضطرمة ، فسرت إلى قلبك فأفعمته وأشعلته ! من أجل ذلك كان قلبك يحترق ولا يفتر عن الوجيب ! ومن أجل ذلك كان جسمك يذوى وروحك لا تستجيب ... وهأنذا وقفتك على جلية الأمر فهل تصفح عنى ؟

فما كان جواب إكسوس إلا أن قبل أخته ، فقالت له : « إن برهان عفوك عنى أن تنقاد لى

وتسمع مني ؛ قل يا قليل الحكمة بأي معجزة نجوت من الموت جوعاً وظمأ في طريقك الطويل من أثينا إلى دلفى ؟

فقال إكسوس : أوه ! كنت من الصباح إلى المساء أسترجع النشاط بالغناء ، وأستفتح الأبواب بالنشيد ، فكلما دلني الدخان على وليمة في أحد البيوت طرقت الباب وأنشدت الأغنية فيفتح لى أهله وينزلوننى خير منزل

فتبسمت مكريا وقالت : أغنية عجيبة ! هل لك أن تعلمنيها يا إكسوس حتى أغنيها أنا أيضاً في ذهابي إلى دلفى أو إلى الأولمب ؟

فتمنع إكسوس وتدلل على عادة المغنين في كل عصر ، ثم نزل على مشيئة أخته بعد رجاء قليل

أغنية اكسوس

إفتحوا ! أنا إكسوس المسكين ، أنا عُلَّيقَةُ السنديانة التي إن تمر عليها هبَّة الريح تَمُت !

منذ اثنى عشر عاما سقط قزم من جلد الأسد الذى يتنكبه هرقليس ، فكنت أنا ذاك القزم ؛ كان أبي لا يحبني لأنني كنت صغير الجثة رقيق البدن ، وحينما كنت أصطدم بركبتيه وأنا طفل كنت أسمع فوق رأسي زمجرة كزمجرة العاصفة ؛ وكان إخوتى يضربوننى كلما دعوتهم إخوتى ! ومع ذلك أريد أن أعيش لأن لى أختاً تحبنى وتحنو على ، هى الجميلة الكريمة مكريا !

• افتحوا ! أنا اكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى ان تمر عليها هبة الريح تمت

— ٢ —

قال لى إخوتى ذات يوم : « اجتهد أن تكون صالحاً لشيء .. تعلم إقامة التماثيل وشيادة الهياكل فلعلنا نصير يوماً آلهة » فحاولت أن ألبى مبتغى اخوتى ، ولكن الأزميل والنحت كانا ثقيلين على يدى ؛ ثم كانت هناك رُؤى غريبة تطوف بينى وبين جنادل (باروس) وكانت إصبعى الناحلة الذاهلة تخط فى التراب اسما لا تخط غيره : اسم أختى الحبيبة مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٣ —

حينئذ قال لى اخوتى : « إن فى مضيفنا شيخاً من شيوخ الكلدان يقرأ فى صفحة السماء أسرار الغيب وأنباء المستقبل ، فاستمع إليه ، وتثقف عليه ، ثم قل لنا أترى فى مطاوى السحب كنوزاً أو نصراً » فسمعت من الشيخ ؛ ثم قضيت ليالى طويلة أرصد النجوم والغيوم فلا أرى كنوزاً ولا نصراً . إنما كنت أرى عيون السماء تنظر الىَّ نظر المحب ، كأنها عيون مكريا ...

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٤ —

حينئذ قال لى إخوتى : « خذ قوساً ونشاباً واخرج إلى الصيد فى الغاب » فجُبْتِ الغاب بقوسى ونشابى ، ثم لم ألبث أن نسيت إخوتى وذهلت عن صيدى . وبينما كنت أسمع غناء الرياح وتغريد البلابل أقبلت ظبية فأكلت طعامى من جيبى ، ثم جاء طائر صغير أعياه طول الطيران فنام فى كنانتى ، فحملته إلى مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٥ —

حينئذ قال لي إخوتي : « إنك لا تصلح لشيء » ثم ضربوني ، ولكنني لم أبك ، لأن فكري كان مشغولاً بأختي ! وغداً سيأخذون مني مكريا ! وغداً ستسأل وهي جالسة في حفلة الزفاف : ما هذا الدخان الذي يسطع هناك وراء الغار ؟ فيجيبها المدعوون « لا شيء »

« إنها محرقة إكسوس المسكين ، عليقة السنديانة التي عصفت بها الريح فجعلتها كالرميم »

فصاحت الفتاة وقد ملكها الحنان وأدركها الجزع : كلا إنك ستعيش ! وسأجملك في قلبي ، حتى إذا ثارت العواصف الهوج لا يمسك منها أذى . إن (ايكوس) سعيد محبوب ، وعذارى أثينا كثيرات يفتحن له دورهن وصدورهن . أما أنت أيها الفريد الشريد الموجع ، فاليك وحدك كل أيامي وأحلامي وحبي !

« خذ يا أخي ، خذ يا شاعري ! هذا ثمن أغنيتك » ثم نزعت من فوق جبينها الأبلج إكليل الزفاف وألقته مبللا بالدمع تحت قدمي إكسوس ! فأراد إكسوس أن يجيب ، ولكن التأثر المفاجيء صعق الصبي المسكين فلم يستطع إلا أن يقول بصوت خافت . أوه ! ثم وضع يده على قلبه وخر مغشياً عليه ! ثم بات طول الليل يتضور من شدة الحمى ، وأخته بجانبه لا يغمض لها جفن ، ولا يرقأ لعينها دمع

وكان الغد موعد أبناء هرقليس إلى المعبد ليقترعوا هناك على الضحية ، فتقدموا إلى الهيكل كما يتقدمون إلى المعركة : قلوبهم فارغة من الهم ، ورءوسهم مرفوعة من العزة ، ثم جرت المراسم المألوفة وهي لا تختلف عما رأيناه في دلفي ؛ وأقبل كاهن من كهنة (مينرفا) فأجال الأسماء في الصندوق ، ثم تقدم طفل معصوب العينين إلى الأناء المقدس يستخرج منه حكم الموت ، فلم تكد يده تلمس حافته حتى دوى على عتبة المعبد صوت امرأة يقول : « قف ! ها كم الضحية . . »

وكان ذلك الصوت صوت مكريا وهي تتقدم إلى المذبح كاسفة اللون ، كاملة الأهبة ، تنوس على جبينها الأزهر الجميل عَصبة الذبيحة . فدلف إليها أيجسط وقال : أهنا أنت يا أختاه ! لقد وعدتني أن تتخافي لتقوى على سرير إكسوس . فقالت وهي تغالب الدمع وتحبس الزفرة : إن إكسوس مات ! وليس الآن ما يمنعني أن أفديكم بنفسي . ثم تابعت سيرها البطيء إلى الهيكل بين تصفيق الجمع وإذعان الاخوة ، ثم جثت مكريا أمام المذبح ، وعوقت بالاشارة مدية الذابح العجلان حتى تلقي على اخوتها ابتسامها الأخير ؛ ثم أغمضت عينيها ، وأزاحت الغطاء عن ثدييها ، وكانت بعد دقيقتين جسداً يضطرب على مذبح الهيكل !

ثم أضرموا النار ، وجعلوا منها لأكسوس ومكريا محرقة واحدة ! وعندئذ رأى الناس شيئاً يصعد من اللهيب الى السماء ، رفاف الأجنحة ناصع الريش رائع الرواء !

وهكذا كانت الفضيلة (مكريا) في العصور الخوالي تكفل الشعر (اكسوس) وتلهمه . والفضيلة والشعر أجمل ما في الحياة وأنبل ما في الانسان

(الزيات)



كانت مدينة (اتريتا) ذات الصخر الأشهب والحصى الأبيض والبحر الأزرق تستريح تحت الشمس الصاحية ، فى يوم من أيام يوليو الضاحية . وكان منظرها العام أشبه بالهلال قد انتهى طرفا استدارته ببابين أحدهما صغير وهو الأيمن ، والثانى كبير وهو الأيسر ، ثم تقدما فى الماء الساكن نخوض كلاهما فيه ، وارتفعت قمته حتى بلغت مستوى الصخور . وكان قد جلس على شاطئها المديد جماعة من المصطافين ينظرون إلى المستحمين ، واحتشد على مشرف الكازينو جماعة أخرى قائمة أو قاعدة تعرض تحت أضواء الشمس المشرقة جنة مزهرة من الزينة تسطع فى خلالها المظلات الحمر والزرق مطرزة بأزهار الحرير الملون . وانعزل فى آخر المشرف على طريق النزهة فريق آخر من المصطافين يريدون السكون وينشدون الراحة ، فوقَّعوا خطاهم الوئيدة على أنغام الموج بعيداً عن زحمة الأجسام وضجة الأصوات . وكان بين هؤلاء شاب معروف نابه هو الرسام جان سوميز . كان يمشى ساهما واجما بجانب عربة صغيرة من عربات المقعدين يدفعها الخادم فى هون ورفق ، وقد جلست فى هذه العربة زوجته وهى فتاة فى ريق العمر تسرح النظر الحزين فى جمال السماء وزينة الأرض وبهجة الناس

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا يتبادلان الكلام ولا النظر ، حتى قالت الزوجة :

— لنقف هنا قليلا . فوقفا ، وتقدم الخادم إلى الرسام بكرسى صغير من القماش فقعد عليه . وكان كل من مر بالزوجين الساكنين الساكتين يلقى عليهما نظرة حنان وحزن ، فقد اضطربت الألسنة بأن حادثاً من حوادث الاخلاص والتضحية وقع بينهما ، إذ تزوج الشاب منها على الرغم من عاهتها المزمنة تأثراً من حبها إياه كما يقال . فقال رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين يجيلان نظريهما فى الفضاء :

— كلا ، ليس هذا صحيحاً . أنا أعرف جان سومبر جد المعرفة

— إذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت حين الزواج على هذه العاهة ! أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك ؛ ولكنه تزوجها . تزوجها كما يتزوج الناس حمقاً وسفاهة

— وبعد ؟

— وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديق . الانسان أحمق لأنه أحمق . وأنت تعلم من خصائص الرسامين الزواج المضحك ، فهم يتزوجون على التقريب كل الأمثلة (modéles) ؛ وقد يتزوجون من

الخديات المجاثر ، ومن السيدات المموهات لأى سبب من الأسباب ؟ لماذا ؟ لا يعلم أحد لماذا ؟ يخيل إلى على العكس بأن طول معاشرتهم لهذا النوع من النساء الفواجر اللاتى يسميهن الناس (أمثلة) جعلهم يعافون جنس الأنثى ، فانهم بعد أن يجالسوهن ليرسموا صورهم على مثالهن يتزوجونهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسى الجميل الذى ألفه الفونس دوديه بعنوان (نساء الفنانين)

أما الزوجان اللذان تراهما ، فان الحادث الذى وقع بينهما وقع على صورة خاصة وحال فظيعة

لقد مثلت هذه الفتاة مهزلة ، أو بالحرى مثلت مأساة أليمة . لقد قامرت بكل ما تملك لتربح كل شىء أو تخسر كل شىء . هل كانت مخلصة ؟ هل كانت تحب جان ؟ لا يدرى ذلك إلا الله . ومن ذا الذى يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً ما فى عمل المرأة من زور وحق ؟ انهن مخلصات دائماً فى ما يبدو عليهن من آثار انفعالاتهن ومظاهر عواطفهن . فهن ساخطات مجرمات مخلصات كريمات لئيمات على حسب ما يجرى فى شعورهن من البواعث والآثار . وهن لا يفترن عن الكذب من غير أن يردن ولا يعلمن ولا يفهمن . وفيهن مع ذلك وعلى رغم ذلك صراحة مطلقة فى الأحاسيس والعواطف اللاتى يظهرنها بأحكام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل منطقنا فى الرأى والحكم ، وعادتنا فى التعديل والتوفيق . فالمفاجأة والعنف فى عزماتهن يجعلانهن ألغازاً لا تحل ، فنحن لا نبرح نسأل هذا السؤال : « هل هن صادقات ؟ » « هل هن كاذبات ؟ »

ولكنهن يا صديق صادقات كاذبات فى وقت معاً ، لأن فى طبيعتهن أن يكن صادقات كاذبات على أشد ما يكون الصدق والكذب ، أو لا يكن على شىء منهما أصلا

أنظر الى الوسائل التى يتوسل بها أكرم النساء ليبلغن منا ما يردن ، تجدها وسائل معقدة وساذجة ؛ فهى معقدة بحيث لم تقع فى حدسنا من قبل ، وساذجة بحيث ترانا بعد أن نصبح من ضحاياها لا يسعنا إلا أن نعجب منها ونقول : « كيف ! لقد خدعتنى بحمق وغباوة » . ثم إنهن ينجحن دائماً يا عزيزى ، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر بزواجهن . وهاك قصة السيد جان سومير :

كانت الفتاة مثالاً كما علمت ؛ فكانت تجلس فى مرسمه على الأوضاع التى يريدها ؛ وهى بارعة الشكل ظريفة الطبع رشيقة القوام ، فعشقها كما يعشق الانسان كل فتاة على مثالها فى الجمال والفتنة ؛ ثم تخيل أن حبها قد أخذ بمجامع قلبه . وهناك ظاهرة غريبة : اذا ما رغب الانسان امرأة ظن مخلصاً أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها بقية عمره ، ولكنه متى ملكها زهدها ، وإن تستطيع الشهوة البهيمية أن تمسكه بجانبها طول الحياة ، فلا بد من شىء آخر هو توافق النفس والطبع والمزاج . ومن واجب الرجل أن ينظر حين تفتنه المرأة : أهذه الفتنة صادرة عن إغراء الجسم ، أم عن جاذبية الروح . وقصارى الكلام أنه أحبها أو ظن ذلك ، فعاهدها على الاخلاص وواعدها على الوفاء ، ثم عاش هو وهى على هذا الأمل . وفى الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد فى ظرفها تلك الغباوة اللطيفة التى تتصف بها الباريسيات الصغيرات ؛ فهى تثرثر وتهذر وتنطق بالحماقات التى تجملها الطريقة الغريبة التى تلقيها بها

أشبه بالبراعات الذهنية ؛ وكان لها فى كل لحظة حركات تمتن بها عين الرسام : فهى حين ترفع ذراعيها ، وحين تبسط يديها ، وحين تنحنى ، وحين تركب العربة ، تريك حركات محكمة مقدرة مناسبة .
وفى غضون ثلاثة أشهر لم يلاحظ جان أنها فى حقيقة أمرها تشابه سائر (الأمثلة) ، فاستأجر بيتاً صغيراً فى (أندريسى) ليقضيا فيه الصيف . وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الهموم الأولى تنبت فى قلب صديقى ؛ وكانت تلك الليلة قمراء ، فأردنا أن نجول جولة على ضفة النهر ، وكان القمر يرسل على الماء المرتعد وابلاً من الضوء ، ويكسر أشعته الصفراء على دارات الماء وتيار اللج وعباب النهر البطىء الهارب

كنا نسير على طول الشاطىء نشاوى من ذلك الطرب المبهم الذى تبعثه فينا هذه الليالى الحالمة ؛ وكانت نفوسنا مهيأة لأعمال فوق أعمال البشر ، وقلوبنا مفتحة لحب كوائن شعرية مجهولة ؛ وكنا نشعر بالجذبات والرغبات والأمانى تختلج فى نفوسنا ، فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء وطراءة الليلة الجميلة ، وعذوبة البحر التى خيل إلينا أنها نفذت إلى الجسم وغمرت الذهن وعطرته وغمسته فى السعادة

وعلى حين بغتة صاحت جوزفين (وهو اسم الفتاة) قائلة :

— هل رأيت السمكة الكبيرة التى وثبت هناك ؟

فأجاب جان من دون أن ينظر أو يعلم :

— نعم يا عزيزتى

فقالت مغضبة :

— كلا إنك لم ترها ، لأن ظهرك كان إليها

فابتسم وقال : نعم هذا صحيح ، فان الجو قد استولى بجماله علىّ فلم أفكر فى غيره

فأمسكت عن الكلام ، ولكن شهوة الحديث ملكتها بعد لحظة فسألت جان :

— أذاهب أنت غداً إلى باريس ؟

فأجابها :

— لا أعلم

فعاودها الغضب ، وقالت :

لعلك ترى مما يبهج نفسك أن تتنزه وأنت صامت . إن الانسان إنسان لأنه يتكلم ! فلم يجب على قولها بشىء . وفطنت هى بفضل غريزة المكر فيها إلى أنها ستحنقه ، فأخذت تغنى ذلك اللحن المثير الذى آذى الآذان والأذهان منذ عامين ، ومطلعه : كنت أنظر فى الفضاء ... فقال لها مغمغماً :

— اسكتى من فضلك ؛ فقالت له محتدة :

— ولماذا تريد أن أسكت ؟ فأجابها :

إنك تفسدين علينا المنظر

هنا حدث المشهد الكريه السفيه بمتانة الفاجىء وحسابه المبتسر ، فاحتقنت الوجوه وانهمرت الأعين ، ثم عادا الى البيت . وكان جان قد تركها تمضى فى ثورتها لا يدفع ولا يهاجم ، لأنه كان مخدر الأعصاب بنشوة هذه الليلة العلوية التى هبطت بها إلى الأرض هذه العاصفة الهوجاء

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر ، كان الفتى يضطرب اضطراب القنيص فى هذه العلاقة القوية الخفية التى تربطنا بها العادة فى مثل هذه الحالة . كانت الفتاة لا تنفك ترهقه إرهاق المضطهد ، وتعذبه عذاب الشهيد ، فصار يومهما وليلهما شجاراً متصلا لا يخلو من سباب وضرب .

وأخيراً صمم على أن تنتهى هذه الحال على أى

وجه وبأى ثمن . فباع رسومه واقترض من أصدقائه بعض المال حتى حصل فى يده عشرون ألف فرنك فوضعها ذات صباح على المدفأة ومعها كتاب الوداع وترك لها المنزل ولجأ الى بيتى

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قرع البـاب ، فذهبت أفتحه فاذا هى فى وجهى لا تكاد تملك نفسها من الحنق والقلق ، فارتبكت أنا ، ودخلت هى ، ورآها هو من بعيـد فوقف حتى أقبلت عليه ورمت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية . وقالت فى هيئة نبيلة ولهجة موجزة : هاك نقودك . لا حاجة لى بها . وكانت حينئذ ممتقعة اللون مضطربة البـال حرية بأن تأتى كل حماقة ؛ وكان هو كذلك كاسف الوجه محنق الصـدر حريا أن يرتكب كل شدة ، فسألها : ماذا تريدين ؟ فقالت : لا أريد أن تعاملنى معاملة البغى ، لقد توسلت إلىّ حتى سكنت إليك ، فأنا لا أطلب إلا أن تبقينى عندك

فضرب الأرض برجله وقال منفعلا :

لا ، هذا كثير . إذا كنت تظنين أنك . . .

فجذبته أنا من يده وقلت له : دعنى يا جان أفعل . ثم تقدمت إليها وأخذت أكسر من غضبها بكل ما يمليه الخاطر فى مثل هذه الحال ، وهى تستمع إلى جامدة شاخصة صامتـة مصرة . فلما فرغت جعبتى والحال لا يزال على أشده ، لجأت إلى آخر الحيل فقلت : إنه لا يزال على حبك يا صغيرتى ، ولـكن أسرته تريد أن تزوجه ، وأنت تعلمين ...!

فأخذتها رجفة قوية وقالت :

— آه ..! آه ! لقد فهمت الآن ! ثم التفتت إليه وقالت : تبغى أن تتزوج ؟ فأجابها فى شدة وحزم :

— نعم . فخطت إليه خطوة وقالت :

إذا تزوجت قتلت نفسى . أتسمع ؟

فهز كتفيه وقال : حسن ! اقتلى نفسك ! فنبست بكلمة أو كلمتين وقد أخذ يكظمها الهم القاتل : أتقول ؟.. أتقول ؟.. أتقول ؟.. أعد ! فقال معيدا : اقتلى نفسك إذا كان هذا يسرك ! فقالت وشحوبها يزداد وحالها تسوء : لست فى حاجة إلى التحدى ، سألقى بنفسى من النافذة . فضحك جان بملء فيه ومضى إلى النافذة ففتحها ، ثم حيا وانحنى ، كمن يريد أن يقدم عليه غيره فى المشى ، وقال : هذا هو الطريق ! تفضلى ! فثبتت فيه نظرها الحائر الطائر لحظة ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجاً فى حقل ، ومرت أمامه وأمامى إلى النافذة ثم اختفت !

* * *

لا أنسى ما حييت ذلك الأثر الذى أحدثته فى نفسى هذه النافذة المفتوحة ، وقد هوى منها ذلك الجسم ! لقد رأيتها فى تلك اللحظة واسعة كالسماء فارغة كالفضاء ، فرجعت القهقرى ، ولم أجرؤ على النظر كأننى خشيت أن أسقط . وتبـلد جان فلم يستطع الحراك ولا النظر ؛ وتسابق الناس فأتوا بالفتاة مكسورة الساقين ، فلم تمش على قدميها بعد اليوم . وتقـدم حبيبها مبلبل الصدر من وخز الضمير ، منفعل النفس من اخلاص الفتـاة ؛ فآواها إليه وتزوج منها

ذلك يا عزيزى حديث هذين الزوجين

وأقبل المساء ، فرغبت الفتاة فى العودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة الـكسيحة نحو القرية ؛ ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان لا اللسان يخاطب اللسان ، ولا النظر يبادل النظر .

(جى دى موباسان)



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

---

٢٠ اكتوبر . . .

قمت فى الصباح بجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هى التى من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهـذا الجرد مرتين على الأقل فى كل شهر بطريق المفاجأة . ويظهر أن كلمة « المفاجأة » وضعت فى اللوائح والتعليمات من قبيل التشويق كما توضع فى الاعلانات ، فهى فى العمل لا وجود لهـا . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لـكثرة مشاغله هـذا الجرد فلا يذكره به إلا الصراف المقصود مفاجأته . فهو الذى يطالب فى إلحاح حضور البك الوكيل للجرد حتى يسدد الخانة طبقاً للقانون . وفى أكثر الأحيـان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجىء هو بالدفتر الخاص بالخزينة يعرض عليه مع المحضر محرراً باسمه « نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم بجرد الخزينة ، فوجدنا بها كذا أوراقا مالية وكذا فضة وكذا أشـياء ثمينة وكذا أمانات » فيوقع وهو لم يتحرك من كرسـيه وهو يقول : « خذوا إمضاء وخلوا عنى بلا وجع دماغ » . غير أنى أنا شخصياً أنتقل بالفعل وأشاهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطيق



صبراً على عد النقود التى توضع أمامى . وانتهيت من هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة فى طريق أفتشه « بالمرة » وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان « ألف صنف » فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والبلط والنبابيت والهراوات و « اللبد » و « البلغ » و « الجلابيب » الملطخة بالدم والطين و « الصدارى » المثقوبة بالرش والبـارود ؛ كل عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التى ضبط على ذمتها . وعندى أن نظرة واحدة تلقى على مخزن نيابة أى بلد تدل فى الحال على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته . ولا شك عندى فى أن مخزن نيابة « شيكاغو » مثلا لا يمكن أن يحوى مطلقاً هراوة أو شرشرة . وصعدت بعد ذلك إلى مكتبى ، فوجدت حضرة القاضى : « المقيم » فى الانتظار وقد أحضر له الفراش القهوة . فما كاد يرانى حتى صاح :

— خلاص ، الفوضى دبت فى البلد !

فأردت أن أفتح فى أسأله الافصاح ؛ فلم يمهلنى ومضى يقول :

— راحت هيبة الأحكام !

— إيه المسألة ؟

— المسألة ياسيدى أنى أصدرت حكما مدنياً ضد عمدة من الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ، تعرف حصل إيه ؟

— لأ

— انضرب بمعرفة العمدة « علقـة » لـكن « نضيفة » وانحبس أربعة وعشرين ساعة فى حجرة التليفون

— والمركز عمل لها قضية ؟

— أبداً . ما هى هنا الخطورة . لا قضيـة ولا مذكرة ، ضحكوا على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها

— ما داموا صرفوها انتهينا

— انتهينا ازاى ؟ أنا لا يمكنى أسكت عن مسألة زى دى . دا اسمه إجرام ! البوليس يجرم . . .

— يظهر أن حضرتك اشتقت لحر وجه قبلى

— ينقلوا قاضى وجه قبلى لأنه أراد منع المركز من العبث . . . ؟

— عملوها كثير . وسبق نقلوا قاضى أقاصى الصعيد لأنه أفرج فى قضية معارضة عن متظاهرين ضد الحـكومة ، مع أن هذا القاضى كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة . ولا يخفى أن بينك وبين المأمور سوء تفاهم عائلى . وساعتها تلقى المأمور حرر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحـكومة ، وأنك من أرباب الفتن والدسائس ، وأنك تضـطهد أنصار الوزارة ، وأنك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف

— شىء جميل . البوليس يحرر التقارير السرية ضد القضاة ؟ !

— حصل

— والعمل إيه ؟

— اترك لى المسألة . أنا أتحرى من المركز بلطف وأجرى اللازم . . .

— لهذا الحد تعبث السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق ، أعوذ بالله ! شىء مخيف . . . !

وجعل يهز رأسه أسفاً وحنقاً . ثم التفت إلى فجأة وقال :

— دا صحيح . تصور أن فضـيلة القاضى الشرعى « الضلالى » عامل اليوم أنه صديق المأمور الحميم مع أنه كان يكرهه كراهة التحريم من بعـد حادثة الأجزاخانة !

فأبديت عجبى . إنى حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت من أخبار القاضى الشرعى هذه الحادثة : إن أهالى البلد وأعيانها لاحظوا افتقار البلد إلى أجزاخانة « أصولية » تغنيهم عن البنادر الـكبيرة فاكتتبوا فيما بينهم بمبالغ أسسوا بهـا أجزاخانة نظيفة كاملة الأدوات ، وعينوا لهـا « أجزجى » قانونى هو رجل سورى اسمه « جبور » ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفاً على مالية هـذه الأجزاخانة وعلى إدارتها ، ووقع الاختيار فى آخر الأمر على فضيلة القاضى الشرعى . ومَن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن فى هـذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين ؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضى الشرعى مشرفاً

وتكرم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحنح ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وآله وصحبه . ثم يصيح :

— يا خواجه جبور . القهوة والشيشة !

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكفور عدد كثير كل يوم ، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاى . وكل هذه الطلبات طبعاً على حساب الأجزاخانة ، وهو لاينسى مطلقاً أن يلق نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :

— عندك صابون ممسك من العال ! زجاجة « الريحة » « الكلونيا » دى لا بأس بها ! ..

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التى أعجبته قد سبقته إلى البيت . ويجلس أحياناً أطفاله إلى جواره بباب الأجزاخانة أو يتركهم يلعبون حوله . فاذا جاعوا أو بكوا صاح القاضى فى الأجزجى القانونى :

— يا خواجه جبور ! هات للأولاد كم قرص نعناع من عندك !

ويحتاج فضيلة المشرف إلى بعض المال فى بعض الأحيان فيقول للأجزجى :

— هات من « الدرج » أربع « براز »

وتمر بائعة دجاج فيشترى منها فضيلته «زوجين» «عتاق» ويصيح فى الأجزجى داخل الأجزاخانة :

— ادفع لها من « الدرج » يا خواجه جبور

وضاق ذرع الأجزجى جبور آخر الأمر . فصاح فى القاضى ذات يوم :

الدرج ! الدرج ! شوها العما بها الدرج ! ونشب الشجار بين المشرف والأجزجى . وأقسم جبور أن يكسر ساق القاضى إذا حضر إلى الأجزاخانة بعد ذلك . واستغاث بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزاخانة . فاذا هى موشكة على الافلاس ، فقد اختفت مستحضراتها ونضبت مواردها ، ولم يبق أمل فى بقائها ؛ فان الأجزجى هو الآخر إقتداء بفضيلة المشرف الوقور لم يقصر فى الاجهاز من جهته على الباقى من « الدرج » والبضاعة والأدوات ، وتغيظ المأمور وصاح فى الأعيان المساهمين :

— الحق علينا اللى صدقنا اللحية والسبحة !

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضى الشرعى قائلاً عنه : « الرجل الضلالى » . والقاضى الشرعى من جهته دائم النيل من المأمور قائلاً عنه : « الرجل الزنديق لاعب الميسر »

ولكن السياسة قد جعلت رجال الادارة اليوم أصحاب سلطة مخيفة . وقد خشى فضيلته على نفسه ، ورأى بحكمته أن الأمان فى مصاحبة المأمور . فهل يحجم عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطرى كل ذلك وأنا جالس وأمامى القاضى الأهلى ، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب لنفسى :

— لا بأس من الصلح ، لكن فى الظروف الحاضرة ... فيه شىء اسمه كرامة ...

فرفع القاضى يده فى حركة ذات معنى وقال :

— كرامة مين « يا مونشير » !

ونهض يريد الانصراف وهو يميل علىّ ويقول بصوت منخفض :

— كلام فى سرك . فى يوم حضر الى بيتى فلاح ومعه خروف وقال « الهدية » . فقلت له : « هدية إيه يا رجل » ؟ فقال : « الهدية اللى تم

عليها الانفاق علشان رد الولية امراتى » . ففهمت وقلت له فى الحال : « انت يا رجل غلطت فى البيت انت قصدك القاضى الشرعى » ! !

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسى . وسكت القاضى محدثى قليلاً . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحيانى بيده تحية مختصرة وذهب . وجلست وحدى قليلا أفكر فى كل ذلك . ورأيت أن أقوم الى المركز فى شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرنى به القاضى . فانطلقت بمفردى وخلفى حاجبى حتى بلغت حجرة المأمور ، فوجدته فى هذه المرة أيضاً مع أحد العمد يحادثه فى شبه عنف ولم تكن سيما هذا العمدة تنم عن يسر ولا عن وقار ، ويخيل إلى أنه من أجلاف العمد . « فالعمدة كالجرادة » يتخذ شكل الأرض التى يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز قريبة من الصحارى . وسلمت على المأمور وقلت له باسماً :

— دائماً مع العمد !

فقال فى نبرة تعب :

— نعمل إيه يا سيدى !

ثم أجلسنى وطلب لى القهوة . إذ على الرغم من اعتكافى عنه وعن ناديه ، فهو يحترمنى ولا يحمل لى ما يحمله لغيرى من الضغن . فانى حريص دائماً مع رجال الادارة على تنفيذ أوامرى فى مظهر بسيط لا يشعرهم بفضاضة الأمر . واستأذننى المأمور فى إتمام حديثه مع العمدة لينتهى من شأنه ويتفرغ لى فأذنت له . فالتفت الى الرجل وقال له فى صياح وتهديد :

— طوّل بالك ، انت يظهر عليك إنك مش عارفنى . والله لا بد من انى ...

فقاطعه العمدة مستعطفاً :

— أنا رجل غلبان ...

فمضى المأمور فى وعيده :

— انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان ، ما ابقاش أنا مأمور المركز !

— ليه أنا عملت إيه بس تدخلنى البرلمان !

قالها الرجل فى توسل وارتياع . فضحكت وعجبت . والتفت إلىّ المأمور قائلا :

— كشوف الانتخابات فى جيبه ومش عارف البرلمان ده يبقى إيه . أهم عمد نشتغل معهم !!!

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلاً :

— تفضل من غير مطرود !

فخرج العمدة ذليلاً كأنه خادم أو مجرم ، وقلت فى نفسى هذه الذلة التى يذوقها فى حضرة رجال الادارة لن تذهب سدى ، فهو سيذيقها بعينها لأهالى القرية التى يحكمها ، فان كأس الاذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس فى هذا البلد حتى تصل فى نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين يجرعها دفعة واحدة

وجلس إلىّ المأمور يعرف سبب « تشريفى » المركز بالزيارة ، فأخبرته أنه « الشوق » ، فابتسم المأمور ابتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطونى ، ولم أصر كثيراً على كلمتى ، وقلت فى هيئة الجدّ :

— بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء تأدية وظيفته ؟

— فأجاب من فوره :

— ما عنديش خبر

— حصل تبليغ للمركز ؟
— لو كان حصل كنا ضبطنا لها واقعة وعملنا قضـية
— بالتأكيد
وأطرقت قليلاً ، وفكر المأمور لحظة ثم قال:
— حدّ بلغ سعادتك بشيء ؟
— لو كان حد بلغنى كنت فى الحال باشرت التحقيق
— مؤكد ؟
— المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة
فانطلق المأمور يقول :
— هى وحياتك إشاعة ، خارجة من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز ، وأنت لا يخفاك أن حضرة القاضى « طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى طريقة . . .
وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت باغلاق هذا الباب حتى لا أزج بنفسى فى هـذا الشجار القائم بينهما . حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف خفى أنى لست بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الاجراء اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى ، وقلت مازحا :
— والانتخابات يا حضرة المأمور ... ؟
— عال
— ماشية بالأصول ؟
فنظر إلىّ ملياً ، وقال لى فى مزاح كمزاحى :
— حانضحك على بعض ؟ ! فيـه فى الدنيا انتخابات بالأصول ! !
فضحكت وقلت :
— قصدى بالأصول : مظاهر الأصول
— إن كان على دى اطمئن
ثم سكت قليلاً ، وقال فى قوة وخيلاء :
— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا مش من المآمير اللى انت عارفهم ، أنا لاعمرى أتدخل فى انتخابات ، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات ، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا هذا .. أبدا ، أبدا ، أبدا . أنا مبدئى ترك الناس أحرارا تنتخب كما تشاء . . .
فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الاعجاب :
— شيء عظيم ياحضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر على منصبك ؟ أنت على كده . . أنت رجل عظيم . . .
فمضى المأمور يقول :
— دى دايماً طريقتى فى الانتخابات : الحرية المطلقة ، أترك الناس تنتخب على كيفها ، لغاية ما تتم عملية الانتخاب ، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميـه فى الترعة ، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللى احنا موضبينه على مهلنا
— شيء جميل !
قلتها فى شيء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل . ولم أشأ أن أعقب على ما سمعت . ومددت يدى مسلماً . وخرجت وخرج خلفى المأمور يشيعنى إلى الباب الخارجى ، وإذا بى أرى وأنا أجتاز فناء المركز شرزمة من الخفراء تتأهب للشحن فى « اللوريات » ، ومن بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر ؛ فالتفت إلى المأمور أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال :

— أنفار قائمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات . . .

— والشيخ عصفور ماله ومال الانتخابات ؟

— مواويله تؤثر على عقول الفلاحين !

— يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتى ، وابتسمت أنا أيضاً وأنا أضيف قائلاً :

— حتى الشيخ عصفور شغلتوه فى السياسة !

فنظر إلىّ المأمور نظرة ذات معنى ، وقال فى تنهد :

— نعمل إيه بس !

وفى هذه العبارة وهذا التنهد كل الكفاية فى جعلى أرثى لحال لهذا المأمور وأقدر دقة موقفه ومسؤوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التى يراها مؤدية إلى الغرض ، فإن أحجم أو تردد فصل بلا رحمة ولا شفقة

ومررت فى سيرى بجوار الشيخ عصفور فابتدرته :

— البنت ريم راحت فين ؟

فنظر إلىّ الرجل شزراً ولم يعن بالرد علىّ .

فأعدت عليه الكرة فى شىء من الرفق والاستعطاف

— ريم يا سيدنا الشيخ ، خلى نفسك ويانا فى مسألة البنت ريم !

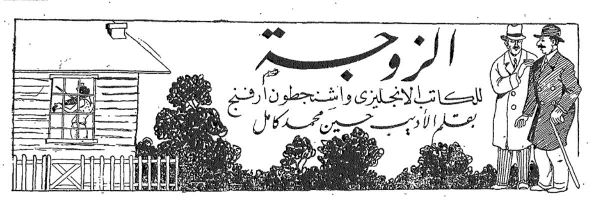
فهز الرجل رأسه ، ولوح بعوده ، وقال مترنما :

إيش راح ينوبك
من الشكيان ويفيدك
ليه ما حكمتش
على طيرك وهو فى إيدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعى إلى المأمور :

— قل لحضرة المأمور ، هواللى استلم الطير !

(يتبع) توفيق الحكيم



> « لأنفس من درر البحار ما يجده الرجل من راحة بال ، وما ينعم به من خفى البهجة فى كنف حب المرأة ، فما قربت المنزل إلا وملأت صدرى روائع النعيم ، فما أروح ما يتردد فى ظلال الزواج من أنفاس لها عبير ما أحلاه ! وما أطيب البنفسج فى حياضه يبالغ مداه » (مدلتون)

طالما أتيح لى أن أشاهد بطولة المرأة وثباتها فى تلقى ضربات القدر معجباً باحتمالها الضراء بعد السراء ، حتى ليخيل المرء أن المحن التى تفل عزيمة الرجل وتصدع أركان نفسه تستنهض المرأة وتستثير قواها ، وتبعث فيها من البسالة والسمو ما يبلغ الذروة فى بعض الأحيان . وليس أوقع فى النفس من رؤية امرأة رقيقة ناعمة كانت أيام اليسر والنعيم عنوان الضعف وقلة الحول ، وإذا بها تسمو بادراكها فجأة فتصير سند الرجل ومفرج كربته أيام بؤسه وخلال محنته ، وليس أروع من رؤيتها تصمد لمواطف البؤس الجائحة رابطة الجأش ثابتة الجنان

تلتف الكرمة بأوراقها النضيرة حول السنديانه مستعينة بها على بلوغ شعاع الشمس فتظل معتمدة عليها وتلك موكلة بها ، حتى إذا ما نزلت بالسنديانة صاعقة فرقتها احنت الكرمة عليها بمساليجها الرفيقة العطوف تضم بها أغصانها الممزقة وأنسجتها المشققة ، كذلك حال المرأة تعول على الرجل وتكل أمرها اليه ، فلا تعدو أن تكون زينة بيته وحلية أنسه ، فاذا ما انقضت عليه البأساء بضربة من ضرباتها الهوج شاء لطف الله فى قضائه أن يجعل منها موئله وعزاءه فترعى نفسه المضطربة بحنانها ، وتحتمل برفق رأسه الثقل ، وترأب بعطفها وحدبها صدره المصدوع

كنت ذات يوم أهنئ صديقاً تجمعت حوله أسرة موفورة الصحة جمة النشاط جمعت بين أفرادها أقوى أواصر المحبة ، فقال لى متحمساً : « ما أستطيع أن أتمنى لك نصيباً فى الحياة خيراً من أن تكون لك زوج وبنون يقاسمونك فى يسرك السراء ، ويكونون فى عسرك عزاءك وعونك على الضراء »

وهذا حق ، فقد رأيت المتزوج الذى يتردى فى مهاوى البؤس أقرب نهوضاً من سقطته وأقدر على استعادة مكانته من الأعزب الوحيد . ويرجع بعض الفضل فى ذلك إلى أن لدى المتزوج دافعاً أقوى على العمل هو حرصه على القيام بمطالب أعزائه ضعيفى الحيلة الذين يعتمدون عليه فى سد حاجاتهم وحفظ حياتهم ، إلا أن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى أن ما يلقى المتزوج فى داره من عطف ومودة يخفف من همه ويزيل من حزنه ، ويجدد نشاطه ويذكى ملكاته ؛ هذا إلى أنه لا يفقد الثقة بنفسه ولا يهون لديه قدره حين يرى أنه برغم ما يحيط به من سواد وبرغم ما يصادف خارج داره من هوان ما برح يتربع فى بيته عرش مملكة صغيرة من المحبة والوداد . بيد أن الأعزب يكون فى بؤسه

عرضة لأن يهمل شأنه ويتلف نفسه ، إذ يخيل اليه أنه وحيد متروك ، سيحل بقلبه من البوار مثل ما يحل بالدار المهجورة حين يعوزها النزيل المأمول

تعيد إلى فكري تلك الخواطر ذكرى قصة من قصص الحياة الزوجية شهدتها بنفسي ، فقد تزوج صديق ليسلى من فتاة جميلة مهذبة شبت وسط الحياة الجديدة وشغفت بأنماطها الطريفة وأزيائها المستحدثة . لم تكن ذات ثراء ، إلا أن زوجها كان في بسطة من العيش ؛ وكان يروقه أن يتيح لها النعمى بمجاراة كل طريف والتحلي بكل ما يضفي على المرأة غلالة السحر والفتنة من جميل الزي ، ونفيس الحلي . وكان يقول : « إن حياتها ستكون قصة من قصص عبقر »

كان خيالياً يميل إلى الجد والرصانة في حين كانت هي مرحة طروبا ، فكان لامتزاجهما ائتلاف شجي النغم عذب الألحان . ولطالما شهدت عن كثب ذلك الهيام الصامت الذي كانت تفيض به نظراته إليها ، وهما يجلسان بين الرفاق . وكنت أرى نظراته تلك تبعث في نفسها البهجة والسرور كما كنت أراها تتجه ببصرها إليه وسط التهليل والاعجاب ، وكأنما لا تبحث عن مبتغاها من الاستحسان والقبول إلا عنده . ولقد كانت حين تتكئ على ذراعه يلوح جمال قوامها الانثوي رائعاً في تباينه مع طول قامته وبادي رجولته ؛ وكان يبدو الاستسلام ويتدفق الحب في نظراتها إليه مما كان يبعث فيه الزهو بها والحدب عليها ، وكأنه ما شغف بهذا الحمل الوديع إلا لضعفه وقلة حوله . وهكذا مضيا في طريق هذا الزواج المبكر والاختيار الموفق إلى حياة زوجية تحفها الورود والرياحين مالكين فيها من أزمة النعيم ومقومات السعادة ، واحتمالات الهناء ما لم يتح لغيرهما من الأزواج

وشاء القدر أن يغامر صديقي بما له في « مضاربات » واسعة النطاق . فلم يمض على زواجه كثير حتى فاجأته المآسي تترى فعصفت بماله . وفي لحظة وجد نفسه قد انحدر الى هوة الفاقة ، فظل وقتاً ما يخفي في نفسه حقيقة ما آل إليه أمره وقد شحب وجهه ، وتحطم قلبه ، وأصبحت حياته كرباً دائماً لا يريم . ومما زاد في كربه وجعله عسير الاحتمال على نفسه اضطراره أن يتكلف الابتسام والهشاشة أمام زوجه ، إذ أنه لم يكن يقوى على ازعاجها بالافضاء إليها بجلية أمره ، وحقيقة خطبه . بيد أنها على رغم ذلك رأت بعين الحب التي لا تغفل أنه لم يكن على ما تحب . فلاحظت نظراته الحائرة وزفراته العميقة ولم تخدعها محاولاته الفاشلة في الظهور بمظهر المسرور ، وحاولت جهد ما ملكت من روح مرح أن ترفه عنه ، فأحاطته بكل ما وسعها من رفيق العناية ، ورقيق الملاطفة ، عساها تفلح في رد السرور الى نفسه وإعادة الغبطة الى قلبه ، فأخفق مسعاها ولم تفلح إلا في دفع السهم مدى جديداً في صميم فؤاده . فكلما رآها أحق بأن يزيدها حبا ، زادت نفسه كرباً ، وأمضه التفكير فيما سيجلبه إليها من الشقاء والحرمان عما قريب . ودار بخلده أنه لن يمضي إلا القليل حتى يفارق الغناء شفتيها ويبارح الوميض عينيها ، ويرزح قلبها الخافق بين جنبيها ، مثل قلبه ، تحت عبء هموم الحياة وأرزائها

وأخيراً جاء في ذات يوم وروى لي حقيقة حاله وكل ما انتهى إليه أمره بلهجة من أعمق اللهجات بأساً ، وأشدها بؤسا . فلما وقفت منه على جملة حاله سألته : « أو تعرف زوجك ذلك كله ؟ » فصاح بي وقد خنقته العبرات : « بالله ألا ترحمني فتشفق علي ، ولا تذكر شيئا عن زوجي ، فان التفكير فيها هو الذي يكاد يفقدني صوابي »

فقلت له : « ولم الكتمان ؟ ولا مناص من

أن تعرف جلية الأمر عاجلاً أو آجلاً فلن تملك كتمانه عنها طويلاً ، وعند ما تظهر لها الحقيقة يوما ما سوف يكون الخبر أشد وقعا على نفسها ، وأكثر إيلاما لها مما لو كاشفتها به ، فان لهجة الحبيب تخفف وقع الخبر الشديد ؛ هذا إلى أنك تحرم نفسك بهذا الكتمان راحة عطفها فضلاً عن أنك بتصرفك هذا تخاطر بالرباط الذى يؤلف بين القلوب ، ألا وهو تبادل الفكر حراً ، وبث الشعور صريحا . ولا بد من أن تكتشف عاجلاً أن أمراً يقلق بالك ويكربك ، وليس طى الأسرار فى النفس مما يرضى الحبيب ، فتشعر عندئذ أنك تبخسها حقها وتنتقص قدرها ، ويسوءها أن ترى أحزانك أنت يامن تحب قد أخفيت عنها »

« أوه ! ولكن ألا تتصور يا صديقى أثر تلك الضربة التى سأطيح بها كل آمالها وأمانيها ؟ ألا ترى أنى سأهوى بقلبها إلى الثرى حين أخبرها أن زوجها قد أصبح فقيراً ، وأن عليها أن تطرح عنها مطارف الحياة وزينتها ، وتترك مباهج المجتمعات وفتنتها . وتنزوى معى فى عالم الفقر المدقع والظلام المطبق ! كيف أخبرها أننى قد هبطت بها من ذلك الجو الذى تحلق فيه ، والذى كان فى وسعها لولا ما حل بى أن تظل محلقة فيه فى اشراق دائم نوراً لكل عين ، وبهجة لكل قلب ، كيف تحتمل الفاقة والمتربة ، وقد شبت فى أعطاف اليسر ؟ كيف تحتمل الانزواء والاهمال وقد كانت معبود المنتديات؟ أواه إن ذلك سيحطم قلبها .. إن ذلك سيحطم قلبها

رأيته بليغا فى جزعه فتركته يتدفق فى حديثه فالحديث يسرى عن نفس المحزون ، ويفرج كربة المكروب . فلما هدأت ثورته ، ورأيته ارتد الى هدوئه واستسلم للكآبة عدت الى حديثى فى رفق ولين وأخذت أحثه على المبادرة بالافضاء الى زوجه بذات نفسه وحقيقة أمره فأومأ بالقبول ؛ بيد أنه كان جد محزون

« كيف تكتم الأمر عنها فى حين أن الواجب أن تعلم به لتستطيع أن تعد العدة لهذا التغير الذى طرأ على معيشتك ، إذ من الواجب عليك أن تغير نظام حياتك ؟ فمات وجهه سحابة من الغم لم تخف على فاسترسلت أقول : « كلا لا تجعل لذلك سبيلاً الى قلبك ، ولا تر فيه مدعاة لايلام نفسك ، فانى واثق أنك لم تجعل سعادتك فى يوم من الأيام رهينة المظهر الخارجى . ولا زال لك أصدقاء حميمون لا ينقصك فى نظرهم أن يقل رونق دارك ، ثم إنى واثق أنك لست بحاجة الى قصر منيف حتى تسعد مع مارى »

فصاح مضطربا متأثراً : « انى لأستطيع أن أسعد معها فى كوخ وأن أنحدر معها الى الفاقة وأهوى الى الحضيض ، أستطيع ، أستطيع باركها الله ، باركها الله » صاح بذلك وقد غمره سيل من الأسى والشجن

فقلت له وقد تقدمت إليه وأمسكت يده بحرارة : « صدقنى يا أخى وثق أنها سوف تكون كما كانت وخيراً مما كانت . ولسوف يكون من دواعى فخارها ودليلاً على انتصارها وسبباً فى استثارة كامن قواها واستجاشة مدخر عواطفها أن تبرهن فرحة طروباً على أنها إذ أحبتك أحبتك لذاتك ، فان فى قلب كل امرأة قبسا من نار علوية يظل كامنا ما أشرق نور أيام السراء فما ينتشر ضياؤه الاساعة يخيم ظلام الخطوب . ومايدرى الرجل حقيقة زوجه وأنها راحة صدره والملك الكريم الذى يحوم حوله حتى يسلك بها غمار الحياة وتصهرها المحن »

لقد كان فى صدق تعبيرى وبلاغة لهجتى ودقة تصويرى ما أقر فكره الثائر وهدأ خاطره المروع ؛ وكنت أعرف من أحاول اقناعه ، فتابعت الضرب على الوتر الذى أشجاه وانتهيت باقناعه بالذهاب الى بيته والافضاء الى زوجه بما أحزنه وناء به قلبه

ولابد لى من أن أعترف بانى على رغم كل ما قلت كنت قلقا غير مطمئن الى النتيجة ، إذ من يستطيع أن يعتمد على جلد من عاشت كل حياتها بين اللهو والسرور ؟ أليس من المحتمل أن تتمرد تلك النفس الطروب عند ما ترى ذلك المنحدر المظلم الذى شقه البؤس فجأة أمامها ؟ أو ليس من المحتمل أن تظل روحها المرحة متعلقة بالآفاق المشرقة الخلابة التى ظلت حتى الساعة تسعد بها ؟ وما أمر الضيق بعد السعة لمن أحبوا مستحدث الأزياء وطريف الملاهى ، فان الفاقة لتجاب لهم من الآلام المبرحة ما لا يحسه غيرهم من الناس . ومجمل القول انى لم أستطع أن ألقى صديقى فى الغد إلا وأنا مشفق مضطرب وكان قد أفضى إليها بدخيلة نفسه وحقيقة خطبه

« وكيف تلقت الخبر ؟ »

« كالملاك ، حتى لكأنما كانت فيه راحة فكرها ، فطوقت عنقى بذراعها وسألتنى : أهذا كل ما أحزنك طيلة هذه الفترة الأخيرة ؟ » ثم أضاف الى ذلك قوله « إلا ان الفتاة المسكينة لا تستطيع أن تتبين ما لابد لنا من ملاقاته من تبدل حال بحال . انها لا تعرف الفقر الا تصورا مما قرأت عنه فى شعر الشعراء ، لا يوجد إلا محاطا بالحب مقرونا بالهوى ، انها لم تشعر بعد بانا فقدنا شيئا ما إذ لم تعان بعدُ الحرمان مما ألفت من المناعم والمطارف ، ولكن التجربة الحقيقية ستكون عندما تصطدم بالوقائع وتعانى وضيع المشاغل وتافه الحاجات ورقة الحال وسوء المآل »

فقلت له : « أما وقد انهيت من مكاشفتها وتلك هى المهمة الشاقة فانك ستجد عما قريب سراً خفياً يبدل أمامك الحياة فتراها تسير بك من حال الى حال أهنأ وأسعد . نعم إن الكشف عن الخبر المشئوم قد يؤلم إلا أنه ألم ساعة يزول ، وأما حرصك على الكتمان فهو الكرب الذى لا ينتهى والذى تصلى ناره كل حين توجسا من كشف المستور . وليست متاعب الفقر شيئاً الى جانب متاعب الادعاء الكاذب وتكاليف الكبرياء والتطلع للجيب الخاوى . إن محاولة المحافظة على المظهر الفارغ هى التى يجب أن تضع لها حداً ؛ فكن شجاعاً فى قبول مظهر الفقر فانك بذلك تجرد الفاقة من سلاحها البتار وعذابها الأليم » فوجدت من ليسلى تمام الاستعداد لقبول هذه الفكرة إذ لم يكن فيه ميل للادعاء الكاذب أوحب للمظهر الفارغ ، أما زوجه فحسبنا ما أظهرت من ميل للسير وفق مقتضيات ما آل إليه حاله

جاءنى ذات مساء بعد ذلك بأيام ، وبعد أن تخلى عن منزله واتخذ لنفسه كوخاً صغيراً فى القرية على مسافة أميال من المدينة ، وكان قد شغل طيلة يومه فى إعداد أثاثه ، وما كانت تلك الدار الجديدة لتتطلب من الأدوات إلا القليل البسيط ، وكان قد باع الأثاث الفاخر أثاث منزله السابق إلا أنه أبقى قيثار زوجه وقال : انه احتفظ به لأنه قريب الصلة بها متصل بأقصوصة هواهما ، وانه يذكره ببضعة لحظات من أحلى لحظات هيامهما ، حين كان يميل الى القيثار ويستمع الى صوتها الشجى الحنون . فما وسعنى إلا الابتسام لما ينطوى عليه هذا الزوج المتيم من فروسية ووفاء . لقد كان ذاهباً إلى الكوخ حيث ترك زوجه تقوم باعداده ، ولما كنت مشوقاً إلى تتبع قصة هذه الأسرة وكان المساء جميلاً فقد اقترحت أن أصحبه . ولقد كان متعباً لما بذل فى يومه من جهد فسار وقد انتابته نوبة من التفكير الحزين . وأخيراً صعّد من بين شفتيه زفرة عميقة وقال : « مسكينة مارى ! » فقلت له : « وما دهاها ؟ هل أصابها شىء ؟ »

فقال لى وقد ألقى إلى بنظرة ملول : « كثير عليها أن تنحدر إلى هذا المكان الوضيع ، وأن تحبس فى هذا الكوخ الشنيع ، وأن تضطر إلى معاناة

مشقة العمل فى هذا المسكن التعس »

« هل تألمت من هذا الانقلاب ؟ »

« تألمت ! كلا ، لم تبارحها عذوبة روحها وصفاء نفسها حتى ليبدو عليها أنها أكثر مرحاً وسروراً مما كانت عليه فى أى وقت آخر . ولقد كانت كلها حباً ، وكلها عذوبة ورقة ؛ فكانت راحة قلبي وبهجة نفسي » فقلت متعجباً : « يا لها من فتاة تستحق الاعجاب ! أو تدعى أنك فقير ياصديقى وأنت لم تكن أكثر غنى منك اليوم ، إذ لم تنكشف لك قبل اليوم جوانب تلك العظمة التى لاحد لها والتى أنعم الله عليك بها فى شخص هذه المرأة »

« أوه ! ولكنى لا أستطيع أن أستريح ياصديقى حتى يمر بسلام أثر اللقاء الأول لهذا الكوخ ؛ فهذه أول مرة تصطدم فيها بالواقع وتجرب فيها الحقيقة المرة ، واليوم فقط تلج مسكننا وضيعاً تكد فيه طيلة يومها فى إعداد حقير لوازمه ؛ واليوم فقط تذوق متاعب الأعمال المنزلية ؛ واليوم فقط ترى نفسها وقد حرمت المطارف ، وفقدت المتع ، وفارقها النعيم ، وذهبت عنها الراحة ، ولعلها تجلس الساعة متعبة كئيبة تفكر فى أمر ذلك الفقر المقبل الذى ستصلى ناره وتلق أذاه » ، ولقد كان فيما قاله شيئاً من الصدق وكثيراً من الاحتمال لم أستطع أن أمارى فيه ، فسرنا صامتين

انثنينا من الطريق العام إلى منعطف ضيق ألقت عليه أشجار الغاب ظلاً كثيفاً أوضح عزلة ذلك المكان ، وقد ظهر المنزل قبالتنا تبدو بساطته خليقة باعجاب أشد الشعراء شغفاً بالريف وإيثاراً للبساطة ، وإلى جانب تلك البساطة تجلى جمال المنظر الريفى ، إذ امتدت على جانب من الكوخ كرمة برية غمرته بكثيف من ناضر الأوراق كما ألقت عليه الأشجار الشجراء فينان الأغصان ورشيق الأفنان ، وقد ظهر حول الباب وفى مدخله المخضوضر عديد من أوانى الزهر نسقت تنسيقاً فيه سلامة الذوق ، وانفرج الباب الخارجى الصغير عن ممر شق بين الأعشاب يؤدى إلى الباب الداخلى فما كدنا نبلغه حتى سمعنا نغما موسيقيا ؛ فأمسك ليسلى بيدى فوقفنا نستمع إذ كان الصوت صوت مارى تغنى فى بساطة رائعة مقطوعة من المقطوعات التى يحبها

شعرت بيد ليسلى تضطرب فى ذراعى ووجدته يتقدم ليستطيع أن يستمع بوضوح ؛ فكان لوقع أقدامه صوت على الممر المرصوف ؛ فأطل من النافذة وجه مشرق جميل ما لبث أن اختفى وسمعنا خطوات رفيقة ، وأقبلت مارى للقيانا مرتدية ثوباً ريفياً جميلاً أبيض اللون ، وقد وضعت فى طيات شعرها الجميل بضع زهرات برية ، وقد علت النضارة والرواء وجهها وتوردت وجنتاها وأشرق بالابتسام محياها ، فما رأيتها قط أكثر منها انتعاشاً مما بدت عليه فى تلك اللحظة ، فهتفت : « عزيزى جورج ، كم أنا مسرورة بقدومك ! فلقد طال انتظارى إياك ، ولقد كررت إلى المنعطف أبحث عنك . لقد أعددت المائدة تحت دوحة جميلة خلف الكوخ ، وجمعت لك بعضاً من أطيب ثمار الفرولا التى تحبها ، ولدينا إلى جانب ذلك قشدة ممتازة . إن كل ما هنا عذب وهادئ »

ثم وضعت يدها فى يده ونظرت إليه منشرحة وقالت : « أوه ! سنكون سعيدين كل السعادة »

فغلب ليسلى على أمره ، وضمها إلى صدره وطوقها بذراعه وقبلها ثم قبلها ولم يستطع الكلام ، وغلبته الدموع فملأت عينيه . ولطالما أكد لى أنه برغم ما أصابه بعد ذلك من نعمى وبرغم ما انتهى إليه من خير وسعادة ، فانه لم يشعر قط بأعذب ولا أسعد من تلك اللحظة التى غمره فيها من الغبطة والسعادة ما لا سبيل إلى وصفه ولا حد لجماله .

حسين محمد كامل



جلس سالم فى (الأمريكين) مطرقاً ينظر إلى كعب حذائه الذى صقله له الرجل منذ دقائق ، وكان يحركه كأنما يريد أن يحفر حفرة فى الأرض الصلبة . وكان كرسيه قريباً من رصيف الشارع ، وكان غاصاً بالغاديات والرائحات من كل فاتنة ممشوقة القوام ، ولكن عينه لم تكن إليهن بل إلى الأرض وكان فى الحقيقة يديرها فى نفسه ، ويتساءل : « لماذا خلت حياتى الى الآن من المرأة ؟ » ولا يهتدى الى جواب لسؤاله ، فقد كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكان ماله كثيراً ، ولا عمل له إلا إنفاق هذا المال — إن صح أن هذا عمل — وكان يحس أنه ليس حيا بالمعنى الصحيح ، وينكر من نفسه انقباضه عن الخلق ، وحياءه وخجله من المرأة . وتذكر ، وهو جالس يراجع نفسه ويتهمها بالضعف وعدم الصلاح للحياة ، أنه حاول مرة أن يتعلم الرقص وكانت معلمته رشيقة خفيفة فاستقبلته أول يوم بالابتسام والترحيب ، وعلمته خطوات ، وكان يحسبها لينة مؤاتية ، ولكنه لم يجعل باله الى ذلك ، وإن لم يفته الشعور به ، بل أقبل على الدرس جاداً كأنما الدنيا ليس فيها غير قدميه ، فما أضيق رقعتها ! فلما كان الدرس الثانى ، دار معها دورات لاحظ أنها انقلبت جامدة ، وأنها صارت كأنها نائمة ، فقد كانت تتثاءب بالفعل ! فعجب أين ذهب لينها ؟ وكيف جف وتصلب جسمها الذى كان بالأمس رخصاً ؟ وجاوز الأمر التثاؤب الى التعبيس فأحس أنه ثقيل على نفسها ، فكف عن الدرس ، وراح يسأل نفسه : « كيف حدث هذا ؟ . لقد كانت أول يوم خفيفة مرحة ، وكان فيها لين ومرونة ، وكان الجمال يضحك بوجهها ، ويضيئه نوره ، فهل ترانى أذويتها وأخمدت هذا الضياء ؟ »

وضاق صدره ، وهو جالس ، ولم يحتمل كل هذا الجمال الذى يخايله ، فصفق وطلب كأساً من الويسكى ولم تكن الخمر مما يحب ، ولكنه خالف عادته ، لعل الخمر ترفع هذا الذى جثم على صدره ، وشرب الكأس بلا مزج ، صرفاً ، بغير تقطيب وطلب أخرى ألحقها بالأولى ، وثالثة شعشعها بالصودا ، فقد أحس أنه صار أخف وأقوى ، وأن الحجر الذى كان على قلبه قد انحط ، فقد صعد الشراب الى رأسه ، فرفع عينه وأجالها فى الفتيات السائرات وراح ينقدهن أيضاً ، فهذه صدرها أعلى مما ينبغى لمن كان لها مثل عودها ، وتلك ممصومة لا ثدى لها ولا خصر ولا ردف . وهذه الثالثة بديعة التكوين ، ولكن ينقصها أن تكون خطوط جسمها ألين ، والرابعة .. أوه ما شاء الله ! .. لقد تحسن النسل جداً فى هذا العصر ! . أين من هؤلاء أمهاتنا اللواتى كن يخرجن ملفوفات فى

الملاءات ، وكأنهن منها فى غرارات أو زكايب ؟
وقرت عينه بهذه المناظر وزايله الشعور بالكمد والحرمان ، وآنس من نفسه قوة وجرأة لا عهد له بهما ، وكانت هذه نشوة ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أو يفطن إليه ، وكان الشراب قد أدار رأسه ، فنهض يتمشى ووضع طربوشه على رأسه بغير احتفال ، وكان الزر الى الأمام ، وكان ربما أطرق وهو سائر على عادته ، ولكنه فى هذا المساء استطاع أن يرفع رأسه ، وكان حين يفعل ذلك فجأة يلمح الزر فيضحك ويضربه بأصبعه فيدور ثم يستقر بعض خيوطه فوق الطربوش والباقى يتدلى على مستداره فيضحك كرة أخرى ويهز رأسه مسروراً ، ثم يروح يغنى ، لا بشعر أو نحوه ، بل ببعض ما يدور فى نفسه من الخواطر ؛ وكان تلحينه مبتكراً لا تشوبه شائبة من التقليد ، وكان فى الواقع اشبه بمن يغنى نفسه فى الحمام ليتسلى ، ولم يكن يحس أن فى الدنيا ناساً يروحون ويجيئون ويستغربون حاله وينظرون إليه ويبتسمون أو يقطبون . وكان هو يصيح — وفى ظنه أنه يهمس — كل بنت تُحِبّ أن تُحَبّ . . يا سلام ! . . تمام ! . . لن تأكلنى امرأة . . أبداً ! »

وأجال عينه وهو يتبسم راضياً عن نفسه وعن الدنيا التى حلت فجأة فى عينه ، فوقعت على فتاة أيقن حين رآها أنها أجمل من خلق الله . ولا شك أنه كان مبالغاً ، ولكن الحقيقة أنها كانت جميلة . وكانت وسطاً لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، وغضة هيفاء لا هزيلة معروقة ، ولا بدينة يلح عليها اللحم ، وسمراء ولكن شعرها ناعم وحف ، وذهبى مرسل لا يبدو أن شيئاً عسكه من مشابك أو نحوها ، وكانت خطرتها رقصاً بلا تكلف ، ومشيتها انسيابا ،

وأدهش سالماً أن الفتاة نظرت إليه كما نظر إليها ، وأنها لم يسؤها تحديقه فى وجهها ، بل ابتسمت هى أيضاً ، وتأملته كأنما تفحصه أو تجمه بعينها ثم انصرفت عنه ومضت فى سبيلها ولم تلتفت بعد ذلك وراءها أبداً . وكان عهده بالفتيات أنهن لا ينظرن إليه ، ولا يقمن له وزنا . وقد تلتقى عينه بعين إحداهن اتفاقا ، لا عن عمد منه ، فما كان يجرؤ على ذلك ، فتحول وجها كأنما رأت ما تكره فكان يعجب ويسأل نفسه : « ماذا يا ترى يبغضنى إليهن ؟ أأنا دميم ؟ فانى أرى أشد الناس دمامة تعشقهم فتيات صبيحات الوجوه مدهشات ! أم أنا ثقيل الظل ؟ ولكنى لا أقول ولا أفعل شيئاً . فماذا يرين من ثقل ظلى إن كان ثقيلا ؟ (ويعز عليه أن يقر على نفسه بثقل الدم فيقول) أظن أنه ينقصنى شىء . . . ولكن ما هو ؟ (ولا يهتدى إلى النقص فيقصر يائساً)

ولم يخطر بباله هذا المساء أن به نقصاً ، أو أن ظله ثقيل ، أو أنه دميم ، فقد صرفه عن ذلك ما شرب على خلاف عادته . وكانت ابتسامة الفتاة حسبه مطيراً لكل هذه الخواطر الثقيلة من رأسه ، فزرر الجاكتة ومضى وراءها يريد أن يدركها ، وكانت أسرع منه ، ولكنه عوض ذلك بقوة الارادة ، وصحة العزم ، وإذا بها تقف أمام مدخل عمارة ضخمة عالية ، على الجدار إلى جانب بابها الواسع لوحات كثيرة فقال وهو يلهج : « سعيدة » فنظرت إليه ملياً ، وحدثت نفسها أنه السكران الذى كان يغنى فى الشارع ، وخطر لها أن تتقى إسخاطه فقالت : « سعيدة » وكانت السكرة قد راحت ... طارت فى الهواء .. ولم يبق فى رأسه إلا الرغبة فى معرفة هذه الفتاة الجميلة بأى ثمن ،

فتظاهر بأن يتأمل اللوحات الكثيرة وقال : «أظن أن عيادة الدكتور جميل هنا ؟» وأشار إلى اللوحة التى تحمل هـذا الاسم . فابتسمت وسرها أنه يتكلف البحث عن اسم طبيب ليخلق موضوعا للكلام ، وخيل إليها أنه ليس بسكران كما توهمته ؛ واعترفت أنه وسيم مليح القسمات فقالت : « ربما .. من يدرى ؟ » فقال : « إذا لم يكن .. أى هؤلاء أحسن ؟ هل لك أن تشيرى على ؟ » ولم يكن يريد أن يقول ذلك ولكنه قاله بلا تفكير ، فلم يسعها إلا أن تضحك ثم قالت : « هل أنت واثق أنك تريد أن تدخل عيادة طبيب ؟ » فقال : « بالطبع . إنى مريض جداً .. لا أدرى كيف عشت الى الآن .. كيف أمكن أن أعيش » وأحس وهو يقول ذلك أنه ليس خير ما يقال لفتاة جميلة يرجو أن يستميلها إليه . وما ذا تصنع فتاة بمستشفى متحرك ؟ ولكن السيف سبق العذل . وسمعها تقول — كأنما كانت تقرأ خواطره — « مسكين ! ألا يحسن أن تذهب الى مستشفى ؟ » فقال بسرعة ، فما كان يعنيه إلا الكلام والسلام : « والله فكرة ... هل تعرفين مستشفى ؟ » ولم ينتظر جوابها بل اندفع يقول : « اسمى . من أنت ؟ . من عسى تكونين بغض النظر عن كونك أجمل فتاة على ظهر الكرة الأرضية ؟ » فحملقت فى وجهه ، وقد أدهشتها جرأته ، ولكن لهجة الجد والاخلاص لم تفتها ، ومنعتها أن تغضب ، وأقنعتها أنه يقول ما يعتقد فابتسمت واكتفت بأن تقول : « اسمح لى ... » ودخلت العمارة وتركته واقفاً ، فتردد وعاوده الحياء القديم الذى أفسد عليه حياته ، فقد كان ذهابها ، هكذا فجأة ، صدمة كادت تضيع تشجيع الابتسامة التى أجرته وراءها ، ولكن بقية من الكؤوس التى احتساها قوّت ضعفه . وثبّت جنانه فزعه من أن يكون هذا آخر العهد بها ، فلحق بها كالمجنون ، وإذا بها تدخل عيادة الدكتور جميل . . . ولم يكن قد عنى بأن يعرف أى طبيب هو ، ولكن ما قيمة هذا ؟ . . وجلس فى غرفة أشار إليها الخادم ؛ وكانت غاصة بالخلق فتشهد لأن هذا خليق أن يتيح له أن يطيل المكث حتى يرى الفتاة مرة أخرى أو تسنح فرصة لـ ... من يدرى ؟ . ثم نهض وراح يتمشى فى الردهة ، فقد كان يحس أن السكون شاق ، وخرج الخادم فى تلك اللحظة من غرفة السيدات ، فأومأ إليه وناوله عشرة قروش وشرع يلقى عليه سؤالاً بعد سؤال ، لا عن الدكتور فما كان يعبأ به شيئاً ، بل عن العمارة وملك من هى وأجرة الشقة فيها ، كأنما كان ينوى أن يشتريها ، ثم وثب فجأة وبلا مناسبة إلى السؤال عن الفتاة التى جاء وراءها ، ولم يتعذر على الخادم أن يعرفها لأن سالماً وصفها وصفاً دقيقاً وإن كان لم يخل من المبالغة ، ثم لأنها كانت آخر من دخل قبله ، فما راعه إلا قول الخادم : « آه الريسة خديجة ؟ » فدهش سالم وسأله : « عمن تتكلم ؟ » قال الخادم : « عن الريسة خديجة ؟ » فسأله سالم : « مالها ؟ » فقال الخادم : « ألم تكن تسأل عنها ؟ » فقال باستغراب : « هل سألتك عنها ؟ » قال : « آه ! هذه هى خارجة » وكان هذا صحيحاً ، فهم بأن يتبعها ، ولكنه أحجم فقد صار حسبه أن الخادم يعرف من هى ، ثم سأله : « هل قلت الريسة ؟ الريسة أين ؟ » قال : « فى مستشفى الدكتور » فسأله : « هل للدكتور مستشفى خصوصى ؟ » قال الخادم : « طبعاً أحسن مستشفى » فسأله : « ماذا يعالجون فيه ؟ » قال : « كل الأمراض » وهم بأن

يسردها ، ولكن سالماً قطع عليه الكلام بأن دس فى يده عشرة قروش أخرى وقال — أو صاح — « هـذا أحسن طبيب وأنا أسعد الناس » فقال الخادم : « الله يشفيك يا بك ! »

***

وجاء دور سالم فدخل على الدكتور جميل ، وكان طويلاً مديد القامة ، وشاباً ولكنه يُؤْثر أن يترك عثنونه ليزيد وقع علمه وفعل طبه بوقار الشيخوخة المستعار

وسأله الدكتور : « مالك ؟ »

فابتسم سالم وفرك كفيه ، وراح يصف الأمراض التى يسمع بها ولا يعرفها ، ويزعم أنه مصاب بها جميعاً وفى وقت معاً . وكان الدكتور يصغى إلى وصف حالته وآلامه فيقطب ، ثم يزداد تقطيباً ، حتى صار جبينه كالحصير ، ولما فرغ سالم من الوصف نهض الدكتور وزام وهو يتمشى وقال « ارقد هنا »

وفحصه بعناية وجمل وهو ينقر على بطنه ويتحسس أمعاءه ويضغط هنا وهناك ويزوم ويهز رأسه آسفاً ، وسالم يرى ذلك فيخفق قلبه طرباً ، ثم قال الدكتور : « البس ثيابك ... واسمع ... »

فأقبل عليه سالم بوجهه وقال : « نعم نعم ؟ »

فقال الدكتور : « إنى آسف ... مرضك صعب ويحتاج إلى عناية شديدة ووقت طويل ... والنتيجة (وهز كتفيه) لا أدرى ... قد تشفى أو لا تشفى ... »

فسر سالم جداً وقال بلهفة : «ألا ترى يا دكتور أنه يحسن أن أدخل المستشفى لينتظم العلاج ويؤمن الخلط ؟ »

فقال الدكتور : « بالطبع المستشفى أحسن وأضمن ، ولكن المسألة متعلقة بك »

فكاد سالم يرقص من الفرح وقال : « هل أستطيع أن أدخل الليلة ؟ »

فسأله الدكتور بدهشة : « الليلة ؟ ولم هذه العجلة ؟ »

فقال سالم : « خير البر عاجله ... شىء لا بد منه لماذا نؤخره ؟ إنى أكره التلكؤ والبلادة والتردد ... نعم الليلة »

قال الدكتور وهو يتأمله : « حسن ، سأرى . إنك أغرب مريض رأيته ... لا يبدو عليك أقل إدراك لخطورة حالتك »

قال : « بالعكس ... أنا واثق أنها خطرة جداً وأنها ستكون أخطر إذا بقيت خارج المستشفى دقيقة واحدة »

قال الدكتور : « كما تحب »

وتناول التليفون

***

كانت مصحة الدكتور جميل بك فى حى هادئ تحيط به البساتين ، وكان النظام فيها دقيقا والعناية شديدة بالمرضى ، وكان فيها درجتان اثنتان ليس الا ، فليس للفقير فيها محل ، ولا نحتاج ان نقول ان سالما آثر أن ينزل فى الدرجة الأولى ، لا حباً فى الوجاهة أو الفخفخة ، وان كان ماله كثيرا ، بل لأنه أراد أن يكون أقرب الى الريسة خديجة وأدنى وسيلة إليها . وكان رأى الدكتور جميل فيه قد سبقه الى المصحة ، فعلم كل من فيها أن مريضا مدنفا قد يصبح هامة يوم من الأيام فى شهر من الشهور المقبلة قادم ليقيم فى المصحة ويراقب ويعالج ما أمكن العلاج ،

فلما رأوه يدب على الأرض وهو داخل كأنما هو ذاهب الى مرقص ، ويصفر وهو يمشى ، ويدير العصا بين أصابعه ، دهشوا وبهتوا وخيل إليهم أن فى الأمر خطأ أو أن هزالا زعم أنه هو المريض وجاء بدلاً منه . وفركوا عيونهم التى لم يصدقوها وأحاطوا به — رجالاً ونساء — وراحوا يصعدون عيونهم الى وجهه ويصوبونها الى قدميه ، ثم ينظر بعضهم الى بعض مستغربا وأفواههم مفتوحه من فرط الدهشة ... أهذا هو المريض الذى يخشى على حياته من الفساد الذى فى معدته وأمعائه ؟ ... الفساد الذى لا يكاد يكون له علاج ؟ ... أهذا هو الذى يدير عينه فيهم كأنما يفتقد شيئاً لا يراه ولا يدرى أين يلتمسه ؟ ... لو كانت المظاهر تصدق لكان هذا خليقا أن يكون ملاكما ! فالحق أن الدكتور جميل بك آية من آيات الله ! ... كيف عرف ياترى داءه الدفين الذى لا يشى به مظهره الخداع ؟ ؟

وسألهم سالم ، وهم حافون به فى غرفته : « قولوا لى ... هل أنتم كل من هنا ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « إذن هناك خطأ ... أين الريسة ؟ »

وكاد يقول : «خديجة» ولكنه آثر أن يكبح نفسه

فتقدمت احدى الفتيات فنظر إليها معبساً وقال : « أنت ؟ هل أنت الريسة ؟ » ثم خطر له خاطر فأضاف : « الريسة الوحيدة ؟ »

قالت : « لا ... هذه ليلتى ... »

قال : « آه ... بالطبع ... أين التليفون ... اطلبوا لى الدكتور حالا »

فظنوا أنه يعانى ألما باطنا يتشدد ويتجلد ليكتمه فخرج ثلاثة أو أربعة منهم ، يعدون ، وبقيت الريسة

فقال لها : « إسمى ... متى تكون الريسة خديجة هنا ؟ »

قالت : « غدا صباحا ... لماذا ؟ . هل تعرفها ؟ »

قال : « لن أعرف أحدا إذا لم أعرفها ... أخبريها أنى أريد أن أكلمها قبل أن تغير ثيابها ... مفهوم ؟ »

فحدثت الريسة نفسها أن مريضا مثله مشفيا على التلف جدير بأن يجاب الى رجاء كهذا لا ضير منه ، وفى هذه اللحظة جاء من يدعوه الى التليفون فذهب وتناول السماعة وقال :

« إسمع يا دكتور من فضلك ... إنى لا أحب أن أرى حولى ناساً وجوههم بيضاء ... السمرة هى اللون الذى أحبه ولا أطيق سواه ، فاذا لم يكن عندك ممرضة أو ... أو ... أو ... ريسة سمراء فانى أخرج الآن ... لا يمكن أن أبقى ... لا فائدة من أى علاج ... »

فقال الدكتور : « أوه لاتخف ... اطمئن ... سنجد لك ممرضة سمراء ... انهن كثيرات »

فصاح فى التليفون : « لا لا لا لا . ليست كل سمراء صالحة . . . سمراء واحدة هى التى يمكن أن أطمئن إليها وأرضى أن أضع نفسى بين يديها »

فسأله الدكتور : «من هى ؟»

قال : « لا أدرى . . لقد رأيتها فى منامى . . وأحلامى كلها صادقة . . لا يكذب واحد منها . . ومتى رأيتها عرفتها . . فاذا لم تكن هى التى بدت لى فى حلمى ، فلن أبقى دقيقة واحدة هنا . . وهذا شرط لا سبيل إلى النزول عنه »

قال الدكتور ملاطفاً : « سنرى غداً . . انتق من شئت ممن عندنا من السمراوات »

قال : « وتكون لى خاصة . . لا تعنى بأحد سواى . . وأؤدى أنا نفقاتها . . مفهوم ؟ »

فقال الدكتور : « لا بأس . لا بأس . مسألة بسيطة . ولكن يجب ألا تقلق نفسك أو تزعجها بأمر كهذا . . . سنفعل كل ما يسعنا لنكفل لك الراحة ؛ والآن اذهب ونم »

فنام مطمئناً . . .

وفى الصباح جاءت التى أدخلته المصحة ، ووقفت أمامه تبتسم له ، وعليها ثوب أبيض قصير الكمين ، فحدث نفسه بنعمة الله عليه ، وقالت له وهى تدير عينه فى الغرفة : « إن ثيابك لا تزال فى الحقيبة » ومضت إليها لتخرجها وترصها فى الخزانة فقال : « أوه . . لا تتعبى نفسك فانى أستطيع أن أرتبها » فقالت : « ولكن هذا واجبى . إنى أفعل ذلك لكل مريض أكون عنده أو أحضر دخوله » فصاح بها : « إذن يجب أن تكفى عن هذا . مريض واحد هو الذى يجب أن تقصرى عنايتك عليه . هذا كان اتفاقى مع الدكتور الذى قال إنه ليس فى مصر كلها إلا فتاة واحدة يأتمنها علىّ »

فسرت الفتاة وقالت : « هل قال هذا حقيقة ؟ إذن سأتولى أمرك بالنهار ؟ » فقال : « بالنهار وبالليل » ؛ فنظرت اليه وانحنت على الحقيبة لتخرج منها الثياب وترصها فى الخزانة ، وقالت وهى تفعل ذلك : « إن ذوقك جميل . . . هذه المنامات (البيجامات) بديعة » فسره هذا وحدث نفسه أن البداية طيبة وقالت : « والآن سأخرج وأجىء باللبن » فوجم وطال وجهه ، لسببين : أحدهما أنها خرجت فركد الجو حوله ، والثانى أنها ستجيئه باللبن وليس أبغض اليه منه ؛ على أن غيابها لم يطل ، فقد رجعت بعد قليل وفى يدها كوب وقالت :

« اشرب هذا » فالتفت اليها وقال : « اسمى . هل هذا اللبن ضرورى ؟ » قالت . « بالطبع . إنه غذاؤك الذى أشار به الدكتور » فقال : « لا بأس ! من يدك أتقبل أى شىء » ورد اليها الكوب فارغاً فهمت بالخروج فقال : « إلى أين ؟ » قالت : « سيجىء الدكتور بعد قليل فاستعد للقائه » ، فسألها : « وما الداعى لحضوره ؟ . . ألست قد دخلت المصحة وانتهى الأمر ؟ » فضحكت وقالت : « سيعيد فحصك »

وجاء الدكتور كما قالت — بعد قليل — وأعاد الفحص وأتعبه به ، وآلمه أيضاً ، ثم اعتدل بعد طول الانحناء عليه وقال : « خديجة . لا شىء إلا اللبن » ففزع سالم وقال : « ولكنى قلت إنى أمقته ؟ » فقال الدكتور وهو لا ينظر إليه : « لا شىء إلا اللبن » وخرج

فدنت منه وكان قد أغمض عينيه ، يائساً ، وراح يسأل نفسه : « كيف يمكن أن يعيش على اللبن وحده ؟ . . إن هذا سينتهى به إلى ما يتوهم الدكتور أنه مصاب به ولا شك » وأحس خديجة تلمس يده ففتح عينيه مسروراً فألفاها تجس نبضه وسمعها تقول : « تعبان ؟ » قال : « ميت » قالت : « مسكين . . هل تحس ألماً ؟ » قال : « كلا . إنما أحس أن دمائى تغنى فى عروقى . . خلى يدك على يدى » قالت : « هذا من أعراض المرض . . تعترى المرء نوبات من النشوة ... »

فقال : « اسمى ... أليس عندكم شىء من الويسكى »

فصاحت به : « إيه ؟ »

قال : « ويسكى ... جون هيج ... بالصودا »

قالت : « إنك أغرب مريض رأيته فى

حياتى ! . . ألا تعلم أن هذا يقتلك ؟ »

قال : « ألم يقل لك الدكتور إنى ميت لامحالة ؟ فماذا يهم ؟ سيان أن أموت بالويسكى أو باللبن ... بالويسكى أحسن ... وألذ أيضاً »

قالت : « يخيل إلى أنك مزيف ! »

قال : « سلى الدكتور ... صدقيه إذا كنت لا تصدقينى »

قالت : « لقد أمرنى أن أدلك لك معدتك »

قال : « بالطبع ... هذه هى ... إنه دكتور حكيم ... »

* * *

ولو أن غذاءه ظل مقصوراً على اللبن لمات كما قال لنفسه ، وهو يشرب الكوب الأول منه ، ولكن خادمه كان يجيئه — سراً — بما يشتهى فيأكله خلسة . فاتفق يوماً أن دخل عليه الخادم بفطير وكان قد غاب يومين فتضور سالم ، فلما رآه مقبلاً صاح به : « أين كنت كل هذا الدهر ؟ . إنى أموت جوعاً هنا » قال : « يا سيدى لا تؤاخذنى ... لقد جئت يومين ولكنهم كانوا يفتشوننى ويأخذون ما معى . . غير أنى استطعت اليوم أن أغافلهم وقد خبأت هذه الفطيرة . . » فتناولها سالم بسرعة ومال عليها بفمه فملأه بقضمة كبيرة منها ، وأراد أن يقول له اغلق الباب ، ولكن فمه كان محشواً فعجز واكتفى بالاشارة إليه ، وعرف الخادم المراد فوقف وراء الباب وأسند ظهره إليه لأنه لم يجد مفتاحاً . وأقبل سالم على الفطيرة يلتهمها بأسرع مما كان يتوهم أن فى قدرته أن يصنع ، ولم يكد يفرغ حتى سمع نقراً خفيفاً جمل يقوى . لقد كان يشير للخادم ألا يفتح ريثما يمسح فمه ويعفى على آثار الفطير . ثم دخلت خديجة وقالت :

« ما معنى هذا ؟ . هل كنت تصنع شيئاً مخالفاً للأوامر ؟ » فقال بابتسام — فقد ارتاح لما أكل وأحس بالامتلاء — « وماذا أستطيع أن أصنع هنا غير ما ينبغى ؟ » فقالت : « إنه يبدو عليك أنك خالفت الأوامر » قال : « أبداً . كل ما حدث أن حسن هذا جاءنى بخبر سار جداً . . . فأنا لهذا منشرح الصدر ... اسمع يا حسن ... هات لى كل يوم خبراً ساراً ... إن خير علاج هو الأخبار السارة ... أليس كذلك ؟ »

فأحست خديجة أنها غلبت فسكتت وأقبلت على السرير ترتبه وقالت وهى تفعل ذلك : إن الدكتور آت . ولم تكد تفرغ حتى دخل وأوسعه جساً وضغطاً وتنقيراً حتى كاد يجن ، وقال وهو يفعل ذلك : إنه يظن أن فى المعدة شيئاً غريباً ، فأدرك سالم أنها الفطيرة وكاد يضحك لولا ما هو فيه من الهم . ثم قال الدكتور : « لقد رأيت إبدال اللبن بعصير البرتقال ليس إلا . . . ولست أرى داعياً لاجراء عملية . . وسأرى ما يكون . . »

وظل ثلاثة أيام يشرب عصير البرتقال ولا يصل إلى شىء سواه ، لأن الخادم عجز عن تهريب أى شىء ، فضعف وقلت حركته وبدا عليه الهزال ، وساء خلقه أيضا ، مع غير خديجة بالطبع ، كما لا نحتاج أن نقول . وكانت أخبار شراسته مع الممرضات وغيرهن تبلغ الدكتور جميل ، فيزداد اقتناعاً بأن هذه الحالة العصبية التى تغرى بالاعتداء باللفظ أو اليد مما يؤيد صحة التشخيص ويستوجب زيادة العناية والتدقيق . وكان العزاء الوحيد الذى يساعد سالماً على الاحتمال والصبر ، هو وجود خديجة إلى جانبه أكثر الوقت وقد استطاع بالعنف مع سواها ، وبالمال الذى يبذله للمصحة ولمن فيها

أن يحتكرها لنفسه ، وأعانه على ذلك أن الدكتور جميل يعطف عليه ويرثى له ، ولكن الخادم قلق وأشفق على سيده ، وكان قد رباه وحمله صغيراً وظل معه بعد وفاة أبويه ، فلم يسعه إلا أن يفضى بوساوسه وهواجسه إلى عمه — عم سالم — وإن كان سيده قد أمره ألا يخبر أحداً أنه دخل مصحة . فجاء العم وزار ابن أخيه ، وألح عليه أن يفضى إليه بالحقيقة وأن يطمئن قلبه ، فقال له سالم إنه بخير ، ولا خوف عليه ، وأن كل ما فى الأمر أنه « مريض جداً » !! فضحك العم ، وكان ظريفاً كيساً ؛ وقال لابن أخيه ، إذن قم والبس ثيابك

واتفق أن خديجة كانت فى ذلك الوقت تهم بالدخول ، فلما رأت هذا الزائر وقفت ونظرت منه الى مريضها ، وحدق فيها العم والتفت الى ابن أخيه وسأله :

« أهى هذه ؟ »

فهز سالم رأسه أن نعم

فقال العم : « إنك معذور ... »

وكانت خديجة تسمع هذا الحوار وتتعجب ، ولا تفهم شيئاً ، فأشار إليها سالم أن تدنو وأن تجلس على السرير ، فترددت ، فألح ، فأطاعت ، فقال لها :

« هذا عمى . إنه كما ترين ، لا يخيف ... وهو يدعونى الى الخروج من هنا ، والعود إلى البيت ، وأنا أصر على البقاء ، لأن حياتى هنا أملأ وأمتع .. إلا إذا قبلت أن تذهبى معى إلى البيت »

فقالت : « ما ذا تقول ؟ لست فاهمة »

فقال العم : « يا ستى هذا مريض مزيف .. متمارض من أجلك »

فنظرت إليهما كالمذهولة ، وتذكرت أن سلوك سالم لم يكن سلوك مريض مدنف مشف على الهلاك وسرها فى قرارة نفسها أنه تمارض من فرط حبه لها وأنه إنما أراد أن يكون قريباً منها ، واشتهت أن تسمع هذا منه هو ، لا من عمه فقط

ولم يخيب سالم أملها فقال : « صحيح وسأقص عليك القصة . . . شاب خجول لا يستطيع أن يكلم فتاة ، فاذا حاول أن يكلمها وقف لسانه فى حلقه ، وماله كثير ولكن ما خير المال وحده ؟ فاتفق يوماً أنه شرب كاسات من الويسكى صرفاً ، ورأى بعد ذلك أجمل فتاة فى الدنيا ، ونظرت إليه الفتاة فابتسمت ، وكانت هى الوحيدة التى رأت وجهه وابتسمت ، فجرى وراءها ، ولم يكن مريضاً ولكنه اضطر أن يخترع لنفسه مرضا يسوغ به اقتحامه عيادة طبيب ، فاخترع واخترع حتى طار عقل الطبيب المسكين ، وقد أحب هذه الفتاة حب عبادة ، وفى سبيلها صبر على اللبن الصرف واحتمل عصير البرتقال ... يا لها من تضحية ! ! وهو يحيا وحده ، بلا أنيس أو إلف ... وبيته موحش ، فهل تظنين أن الفتاة يمكن أن ترضى بهذا المجنون زوجاً لها ؟ »

وكان العم ينظر إليها معجباً ، ويبتسم لها مشجعاً ، فقالت وقد وقع من نفسها أن سالما عرض نفسه للهلاك من أجلها « ولكنى لست سوى ممرضة ... لست كفؤاً لك »

فقال وهو يضع ذراعه على خصرها : « ستظلين ممرضة ... فقد أصابنى فى طفولتى أ ... أ ... »

فضحكت ونهضت عن السرير وقالت : كفى اختراعاً ... »

وخرج الثلاثة ، بعد قليل ، معا ...

ابراهيم عبد القادر المازنى



كانا فى وقت ما يشغلان منصبين من مناصب الحكومة

وكان كلاهما فارغ الرأس . ومن أجل ذلك وعلى غرة منهما وجدا نفسيهما « يشحنان » إلى جزيرة غير مأهولة كأنما ينقلهما إليها بساط سليمان

وكانا قد قضيا عمريهما فى ديوان حكومى نشآ فيه وتربيا وشابا ؛ وكأنما قد ولدا به أيضاً . وهما من أجل ذلك لا يعرفان أى شىء لا يتصل بأعمالهما . وكل الذى يعرفانه ينحصر فى الصيغ الديوانية المألوفة التى تنتهى بهذه الجملة : « وتفضلوا بقبول احترامى »

لكن هذا الديوان ألغى وأقالتهما الحكومة فهاجرا ، بعد إذ أطلق سراحيهما ، إلى شارع بوديشسكايا فى بطرسبورج . وكان لكل منهما فيه منزله وطاهيه ومعاشه

ولما استيقظا من النوم فى الجزيرة التى « شحنا » إليها ، وجدا نفسيهما نائمين تحت لحاف واحد . ولم يفهما بالطبع فى البداية ماذا أصابهما ؛ فأخذا يتكلمان كما لو كان الأمر بينهما يجرى على عادته

قال أحدهما : « ما أغرب الحلم الذى رأيته ليلة الأمس يا صاحب السعادة ! لقد رأيت فى الحلم أنى نقلت إلى جزيرة غير مأهولة »

لكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى وثب من مكانه ووثب الموظف الآخر أيضاً ، وقال فى دهشة شديدة : « ولكن أين نحن الآن ؟ وهل كان ما رأيناه حلماً ؟ »

ولمس كل منهما الآخر ليستوثق هل هو فى حلم أو يقظة . وكان أمامهما المحيط ، ووراءهما متسع قليل من الأرض خلفه المحيط أيضاً ، فبكيا لأول مرة بعد أن ألغى ديوانهما

ونظر كلاهما إلى الآخر فرآه لا يرتدى غير قميص النوم ، وقد علقت فى جيده صفيحة عليها رقم . وقال أحدهما : « الآن موعد تناول القهوة ؛ ولكن من لنا بها الآن ؟ » ثم عاد إلى البكاء وقال : « ما الذى نفعله يا صاحب السعادة ؟ إننا لو كتبنا تقريراً فكيف نبعث به ؟ »

فأجابه الموظف الآخر : « سأخبرك بالذى يجب أن نفعله يا صاحب السعادة : أنا أذهب شرقاً وأنت تذهب غرباً ، ثم نعود إلى الاجتماع هنا ، وإذا اهتدى أحدنا إلى رأى تشاورنا فيه »

وهنا اختلفا فى تعرف الشرق والغرب وتذكرا قول رئيس الديوان :

« إذا أردت أن تعرف الشرق فاجعل الشمال أمامك ، فالذى على يمينك عند ذلك هو الشرق » ، ولكنهما لما أرادا أن يعرفا أين هو الشمال اتجها نحو كل الجهات دون أن يهتديا إليه . ولأنهما قضيا كل حياتهما فى دار المحفوظات ؛ فقد ذهب مجهودهما هذا عبثاً

وقال أحدهما : « أرى يا صاحب السعادة أن يذهب أحدنا إلى اليسار والآخر إلى اليمين »

وكان هذا الموظف قد اشتغل فضلاً عن عمله فى دار المحفوظات بتدريس علم الخط وقتاً ما ، فهو لذلك أذكى قليلاً من صاحبه

وكان كما اقترح . أما الموظف الذى ذهب إلى اليمين فوجد أشجاراً تحمل كل أنواع الفاكهة ؛ وكان بوده لو يستطيع تناول تفاحة ، ولكن الثمر كان شديد العلو فلا يستطيع الحصول عليه إلا إذا تسلق الشجر . وقد حاول أن يتسلق إحداها ، ولكن ذهبت محاولته سدى . وكل الذى نجح فيه أنه مزق قميص نومه

وألقى نظرة على الماء فرآه ممتلئاً بالسمك ، فتمنى لو أن كل ما فيه من السمك معروض للبيع بشارع بود شسكايا . ولما مر هذا الخاطر بذهنه جرى لعابه . ومشى فى الغابة فرأى كل أنواع الطيور والأرانب والغزلان فقال :

« يا رب ما أكثر رزقك وما أقل قدرتنا على الحصول عليه ! »

واشتدت عليه وطأة الجوع . وعاد إلى المكان الذى اتفق مع صاحبه على لقائه فيه فوجده فى انتظاره

قال : « ما ذا وجدت يا صاحب السعادة ؟ »

فأجابه صاحبه : « لم أجد غير عدد قديم من جريدة الوقائع الرسمية » . فأخذ يحدثه عما وجده هو .

وجلس الموظفان ، ثم حاول كل منهما أن ينام ولكن خلو معدتيهما من الطعام سبب لهما أرقاً شديداً . وكان من أسباب الأرق أيضاً تفكيرهما فى المعاش المرتب لكل منهما ، وفيمن يتقاضاه عنهما الآن فيتمتع به دونهما . وكان من أسباب الأرق فضلاً عن ذلك تفكيرهما فيما بالجزيرة من سمك وسمانى وأرانب وفاكهة وأن ليس فى مقدورهما الحصول على شىء منها

قال أحد الموظفين : لا أعرف كيف نعيش هنا ؟ إننا حتى لو استطعنا الحصول على طائر فكيف نذبحه وننظفه ونطبخه ؟ كيف يحدث كل ذلك ؟

فأجابه الآخر : « إننى فى الحق لا أفهم كيف يحدث كل ذلك »

ثم عادا الى الصمت وحاولا أن يناما ، ولكن قبل أن تغتمض عيونهما مر سرب من السمانى فتخيلاه وهو مقلى على الأطباق . وقال أحد الموظفين : « لقد هممت من شدة الجوع أن آكل حذائى » فأجابه الآخر : « إننى سأمتص جوربى »

ونظر كل منهما الى الآخر نظرة شر كأن نفسه تحدثه بأن يأكل صاحبه ؛ ثم صرخ كل منهما صرخة جنونية كأنها عواء الذئب . وقال الموظف الذى اشتغل مرة بالتدريس : « أظننا لن ننتظر حتى يحاول أحدنا أن يأكل الآخر » فأجابه : « وكيف نفعل ؟ إننا بلا ريب سنلاقى الموت ؛ فما رأيك يا صاحب السعادة ؟ »

قال : « يجب أن نقطع الوقت بالمحادثة ، وإلا فان واحداً منا سيأكل الآخر لا محالة » فأجابه الموظف الآخر : « ولكن ماذا نقول ؟ إبتدىء أنت ! »

قال الموظف الذى كان مدرساً : « قل لى لماذا تشرق الشمس أولاً ثم تغرب ؟ ولماذا لا يكون العكس ؟ » فأجابه الآخر : « هذا سؤال مضحك ياصاحب السعادة . إن الشمس تشرق لكى نستيقظ ويذهب كل منا إلى الديوان ، ثم تغرب لكى ننام »

قال : « ولكن لماذا لا نفترض العكس فنذهب عند شروق الشمس إلى الفراش فننام ونحلم ، وعندما تغرب الشمس . . . » فقاطعه الآخر قائلاً : « إن

هذا القول لا يستقيم مع التفكير ، لأن شروق الشمس يحمل الانسان على الاستعداد للذهاب ، كما أن غروبها يحمل الانسان على طلب العشاء »

وقد أفسدت كلمة العشاء الحادثة لأنها هاجت جنون الموظفين الجائعين ، فقال أحدهما : « إن أحد الأطباء قال لى إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة ما بما فى جسمه من سوائل . فقال الآخر : « لا أفهم ماذا تعنيه »

قال : « هذا يعنى أن فى الجسم أنواعاً مختلفة من السوائل ، وأن بعضها يتحول إلى بعض حتى تصير الى الخلاصة الغذائية » فقال الآخر : « وماذا يحدث بعد هذا ؟ »

قال : « يحتاج الانسان فى النهاية الى طعام جديد ليتحول الى الأنواع المختلفة من تلك السوائل » فقال : « إذن فالعبرة كلها بالطعام ! لعنة الله على الطعام ! »

وأدرك الموظفان أن هذا النوع من الحديث لا يؤدى الى الغرض الذى يقصدان إليه ، بل هو يزيد من شهوتيهما فقررا أن يتركا الحديث ؛ فلما طال بهما الصمت تذكر أحدهما الوقائع الرسمية فتناولها ليقرأ فيها لصاحبه . ولكن انتهت الفقرة الأولى — وهى خبر وليمة رسمية — إلى ذكر أنواع الطعام ، فأخذ الآخر منه الجريدة ليقرأ خبراً آخر . وأخذ يقرأ ، ولكن الخبر — وهو استكشاف جديد — قد انتهى باقامة حفلة تكريم ، وتناول أيضاً ذكر الطعام

ودفع بالجريدة إلى صاحبه فقرأ فيها فقرة لا تتعلق بدايتها بالطعام ، ولكنها انتهت إلى ذكره أيضاً . فأطرق كلا الرجلين وتثاءب تثاؤباً مؤلماً

ثم برقت عينا صاحب السعادة إذ خطر بباله خاطر سعيد . ووقف فجأة ليعلن استكشافه وصاح : « ماذا تقول ؟ لقد عرفت السبيل إلى النجاة ، فماذا تقول إذا أتينا بخادم ؟ »

فصاح الآخر : « وكيف نأتى بخادم يا صاحب السعادة ؟ وأى صنف من الخدم نجده هنا ؟ »

فقال : « خادم بسيط كسائر الخدم يستطيع أن يعد لنا الطعام وأن يصيد السمانى والسمك ويطبخهما »

قال : « هذا حسن ولكن كيف نجده ؟ »

فقال : « لماذا ؟ إن الخدم موجودون فى كل مكان . إننا نقوم فنبحث حتى نجد واحداً منهم . ولا بد أن يكون هنا خادم على الأقل »

اطمأن الموظفان إلى هذه الفكرة . وقام كل منهما ليبحث عن خادم . وطالت مدة بحثهما ، ولكنها لم تذهب سدى ، فقد وجدا فى النهاية رجلاً أسود اللحية على جسمه ثوب من جلد الماعز وهو نائم تحت شجرة ؛ فلكزه صاحب السعادة وصاح : « كيف تنام هنا ونحن موظفان نكاد نموت من الجوع . قم ! »

فنهض الخادم ونظر الى الموظفين وكان أول ما هم به أن يفر ، ولكنهما أمسكا بتلابيبه فاستسلم المسكين للقدر المقدر عليه ، وصدع بالأمر وتسلق شجرة تفاح فجمع للسيدين الجديدين خير ما فيها . وقطف تفاحة توشك على الفساد ، فجعلها لنفسه . ثم نزل عن الشجرة ، فجمع مقداراً من البطاطس وأوقد النار بضربة حجرين فى وسط هشيم وطبخ البطاطس ؛ وفى أثناء ذلك صاد أرنباً فأضافه الى الطعام . وصاد كذلك زوجاً من السمانى ؛ فأدرك الموظفان مقدار ما لقياه من السعادة بقرب هذا الخادم . ونسيا أنهما كادا يموتان من الجوع منذ قليل . وقال كل منهما للآخر : « ما أسعد حياة الموظف ! »

وقال لهما الخادم : « هل أنتما مسروران ؟ »

فقالا : « نعم ونحن نقدر خدماتك »

قال : « فهل تسمحان لى الآن بأن أستريح ؟

فقالا : « نعم على شرط أن تأتى لنا بحبل أولاً » فذهب وجمع أليافاً طويلة ولم يزل يفتلها حتى صنع منها حبلاً

طويلاً متيناً فسلمه اليهما واستأذن فى السماح له بالراحة فقيداه بالحبل وأذنا له بأن ينام فى ظل الشجرة المجاورة

وزاد حذق الخادم فى تهيئة الطعام فزاد الموظفان بدانة وصحة . وقال أحدهما للآخر وهما يتناولان طعام الافطار : « ما رأيك يا صاحب السعادة ؟ هل تعتقد أن قصة برج بابل قصة رمزية أم قصة واقعية ؟ »

فقال : « إنها بلاشك قصة واقعية ؛ والدليل على ذلك كثرة ما فى العالم من اللغات . وإلا فكيف تنشأ اللغات لولا تبلبل الألسن ؟ »

قال الآخر : « وهل تعتقد أن قصة الطوفان صحيحة ؟ » فقال صاحب السعادة : « نعم بغير شك . ودليلها وجود أنواع كثيرة من الحيوان » وتناول عدد الوقائع الرسمية فأخذ يقرأه للمرة العاشرة من أوله إلى النهاية

لكن السأم دب الى نفسيهما ، فقد كانا يذكران ثيابهما الرسمية ومعاشهما وطاهييهما فى بطرسبورج فتذرف عيونهما الدمع

وقال أحدهما : لا أعرف كيف شارع بوديشسكايا الآن يا صاحب السعادة » فقال : لا تذكرنى به فقد كاد يقتلنى الحنين إلى الوطن »

قال الآخر : « إن الحياة هنا لذيذة لا عيب فيها ، ولكن الحمل يتوق الى ثدى أمه ، ونحن نتوق الى رؤية بلدنا والى ارتداء ثيابنا الرسمية فى يوم قبض المعاشات على الأقل

قال صاحب السعادة : « إن الملابس الرسمية حتى ولو كانت من الدرجة الرابعة تسر الانسان وتنسيه متاعبه

واستدعى الموظفان الخادم ليشير عليهما برأى لكى يعودا الى شارع بوديشسكايا ، وقد كان من حسن الحظ أن هذا الخادم الذى يعرف كل شىء قد عرف هذا الشارع أيضاً ؛ وكان أيضاً خادماً فى المنزل المجاور للديوان الذى كانا به

ولم يكن من المستطاع طبعاً أن يطلب هذان الموظفان الى الخادم شيئاً فيتردد ضناً منه بلذتهما وسرورهما ، ففكر فى الوسيلة المؤدية الى عودتهما ، وصنع لهما من أشجار الغابة سفينة لم تكن كسائر السفن ، ولكنها مجرد أخشاب مربوطة بعضها الى بعض ، وصنع لنفسه مجدافين ليتولى بمفرده تسيير السفينة

وأبدت الرحلة ؛ فكانا يلعنانه ويلقبانه بأقبح الألقاب كلما ظنا أن حياة اثنين من الموظفين ستتعرض للخطر فى سفينة هذا الخادم

وكان يقول : « لا تخافا ياصاحبى السعادة فانى وسائر الخدم معتادون تسيير هذا النوع من السفن كلما أردنا الفرار من خدمة السادة

وكان البليدان لا يعملان شيئاً فى السفينة ، فنهض الخادم مع انفراده بالتجديف يهىء لهما الطعام مما يصيده من السمك ويشويه حتى بلغت السفينة النهر

وما كان أسعدهما عندما انتقلت السفينة من بحر البلطيق الى نهر النيفا . ودخلت السفينة قناة كتربنا وهما لا يزالان بها ، ولم يخطر ببالهما أن يقطعا بقية المسافة مشياً على الأقدام . وفى النهاية وصلا الى العاصمة ، فاستمر الخادم يجدف حتى وصل الى شارع بوديشسكايا

كانت سعادتهما سعادة بالغة عندما نزلا من السفينة فجلسا على أقرب مقهى من الشاطىء يشربان القهوة . وفى اليوم التالى لبسا الثوب الرسمى وذهبا لقبض المتجمد من المعاش . ولست أستطيع الاخبار عن مقدار هذا المعاش ولكنهما لم ينسيا الخادم ، فقد أهديا إليه زجاجة من الويسكى وخمسة قروش صحيحة

تمتع يا خادم !

عبد اللطيف النشار



في الصين ، وفي حكم أسرة تانج(1) ، في مستهل القرن السابع المسيحي ، عاش حاكم صيني عالم ولكنه فقير . وكان للرجل ثلاثة أبناء : فورسى وتورسن ووانج — لى ، وكان الأولان شابين نشيطى العقل ، يجهدان نفسيهما دائما في البحث عن شيء جديد مفيد . وكان وانج — لى ماهراً ولكن في الألعاب التي تتطلب الذكاء ، وقد تفوق في هذه الألعاب إلى مدى بعيد

وكان فورسى وتورسن دائمي التحدث أحدهما الى الآخر في الاختراعات العجيبة التي سيخترعانها حتى بلغا سن الرشد ، وفي الثروة والصيت البعيد اللذين سينعمان بهما إذ ذاك . ولم يكد حديثهما يصل الى أذني وانج — لى الذي لا يرفع عينيه إلا نادراً عن رقعة الشطرنج التي يحل عليها مسائله

ولكن أباهما كان أكثر تنبهاً الى حديثهما . قال لهما يوماً :

— أخشى ياولدىّ أن تكونا — في دراستكما وتقديراتكما المختلفة — قد نظرتما الى قوانين بلادكما وإلا لأدركتما أن الانسان لا يصيب الثروة التي يصبو إليها بالوسائل التي صورتموها لنفسيكما

فسأل الفتيان أباهما :

— ما معنى ذلك يا أبانا ؟

فأجاب الشيخ :

— لقد قال آباؤنا بحق إن الاحترام الواجب علينا لعظماء الرجال الذين نعبدهم في هيا كلنا بما نحن مدينون لهم به من وسائل الحياة ، هذا الاحترام لا يمكن إلا أن يتأذى اذا حاول نسلهم أن يكسفوا شمس عظمتهم وصيتهم بمخترعاتهم الجديدة ، أو اذا هم تجرأوا على أن يصلحوا ما يحسبونه غير صالح من أعمالهم . وعلى ذلك قد حرم على الناس بأمر من الامبراطور سوين أن يخترعوا شيئاً ، كما حرم عليهم بأمر من الامبراطور ووشى أن يحسنوا شيئاً من الاختراعات التي وجدت حتى الآن . ولقد فصل سالفي ، في المركز المتواضع الذي أشغله ، من عمله ، لقوله انه يرى من الأصلح أن تكون العملة مستديرة

(*) ولد ريتشارد جارنت سنة ١٨٣٥ وتوفى سنة ١٩٠٦ وشغل وظيفة أمين الكتب المخطوطة بالمتحف البريطاني من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٩٩ واشتغل في ساعات فراغه بوضع كتابه « غسق الآلهة » الذي نقلت عنه هذه القصة

(1) أسست أسرة تانج العظيمة سنة ٦١٨ ومؤسسها هو لى يوون الذي اتخذ لنفسه اسم كاو — تاو ، وفي عهد هذه الأسرة انتشر نفوذ الصين وشهدت فترة نجاح استمرت أكثر من ثلثمائة عام

بدل أن تكون مربعة ، كما هى الآن ، وأنا شخصياً قد تعرضت لفقد حياتى لمحاولتى الجمع بين مبرد صغير وزوج من ملاقط الشعر ، فقال الفتيان :

— اذا كان هذا هو الشأن فليس وطننا بالبلد الذى يصلح لأن نعيش فيه

وعانق الولدان أباهما وتركا البيت غير مودعين أخاهما وانج لى إذ كان منهمكا فى حل مسألة من مسائل الشطرنج . وقبل أن يفارق أحدهما الآخر اتفقا على أن يعودا الى الاجتماع فى هذه النقطة نفسها بعد ثلاثين سنة مزودين بالثروة التى لم يكونا ليشكا فى أنهما سيحصلانها باستغلال مواهبهما الاختراعية فى البلاد الأجنبية . وتعاهدا فوق ذلك أنه اذا خان الحظ أحدهما فلم يحصل على جزاء مجهوده فان الآخر يشاطره ثروته

وقصد فورسين الى مهرة الصناع الذين يقطعون أحرف الكتابة من الخشب الصلب ، لاستعمالها فى طباعة الكتب ، حتى إذا وقف على أسرار صناعتهم قصد الى صانع السبائك النحاسية فدرس عنده طريق صناعة أمهات الحروف من النحاس ؛ فلما انتهى من ذلك أيضاً قصد الى عالم ممن أكثروا السياحة فى أرجاء الدنيا المختلفة فتلقى عليه اللغات اليونانية والفارسية والعربية . ثم صب عدداً من الحروف اليونانية فى قوالب من النحاس ، ووضعها فى كيس مزوداً نفسه فى الوقت نفسه بعدد من الحروف الخشبية التى قطعها بنفسه ، وسافر باحثاً عن الثروة . وبعد أن عانى الكثير من المتاعب وتعرض للكثير من الأخطار . وصل الى بلاد فارس ، وسأل أهلها عن الملك العظيم

فكان الجواب على سؤاله :

— إن الملك العظيم قد مات ، وقد فصل رأسه عن جسمه فصلاً تاماً ، ولم يبق فى فارس ملك لا عظيم ولا صغير

فسأل الفتى :

— وأين أستطيع أن أجد ملكا عظيما آخر ؟

فأجابوه :

— فى مدينة الاسكندرية حيث أمير المؤمنين مجد فى نشر دينه

فقصد فورسى الى الاسكندرية حاملا قوالبه وحروفه

ولم يكد يجتاز أبواب المدينة حتى رأى سحابة هائلة من الدخان تكاد تحجب المدينة كلها عن الأنظار . وقبل أن يتمكن من السؤال عن سبب هذا الدخان أقبل عليه الحرس فقادوه الى حضرة الخليفة عمر[1]

(١) لعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر من تشابه إسم عمر باسم عمرو ، فالخليفة عمر بن الخطاب لم يحضر إلى مصر والذى فتحها هو القائد عمرو بن العاص ، وقد نسب المؤلف بعد ذلك إلى عمر الأمر بحرق مكتبة الاسكندرية معتمداً فى ذلك على رواية مكذوبة فندها المؤرخون المدققون ومن بينهم بعض المستشرقين

على أنه مما يؤسف له أن بعض كتب التاريخ التى تدرس الآن فى المدارس الثانوية تسجل على عمرو بن العاص هذه الرواية الكاذبة دون إشارة إلى كذبها ، وهذه الكتب قد اشترك فى تأليفها بعض كبار الأساتذة المصريين ؟ فاذا جاز لنا أن نتلمس العذر لمؤلف هذه القصة التى قد يكون الخيال والفن القصصى للوصول إلى المغزى الذى يقصد إليه هما اللذان حملاه على الأخذ بهذه الرواية المكذوبة ، كما حملاه على اختراع العبارات التى نسبها بعد ذلك إلى عمر ، فأى عذر نتلمسه للأستاذ المصرى الذى يثبت مثل هذه الرواية المكذوبة ضارباً صفحاً عن الروايات الصادقة التى أثبتها المحققون من المؤرخين وفندوا بها هذه الفرية التى دست على تاريخ عمر ابن الخطاب وقائده عمرو بن العاص ؟

فقال فورسى :

— ليعلم الخليفة أن مواطنى الصينيين قد جمعوا بين النقيضين ؛ فهم فى وقت واحد أعقل أهل الأرض وأغباهم . فقد اخترعوا فن نشر العلم والمعرفة ، وهو الفن الذى لم يوفق قط الى معرفته عقلاء الهند واليونان ، ولكنهم لم يتعلموا بل وانهم ليأبون أن يتعلموا كيف يخطون الخطوة الواحدة الصغيرة الضرورية بعد ذلك لجعل هذا الاختراع صالحاً من الوجهة العامة لجميع أبناء العالم

ثم قدم الفتى للخليفة ما يحمل من قوالب وحروف كاشفاً له عن السر كله فى فن الطباعة

فقال عمر :

— يلوح لى أنك لا تعلم أننا بالأمس قد أمرنا بحرق جميع الكتب واخفائها من فوق الأرض ، لأن ما تحويه لم يكن يخرج عن أحد أمرين : فهو إما مخالف لما جاء فى القرآن فيكون فى هذه الحال كفرا ، وإما أن يكون متفقاً مع ماجاء فيه فيكون فى هذه الحال زائدا على الحاجة وليس ثمة ما يدعو لبقائه . . . ويلوح لى فوق ذلك أنك غير عالم بأن الدخان الذى يخيم على المدينة إنما مصدره مكتبة الكفار التى أحرقت بأمرنا .

وعاد الرجل الى الصين فى بطء متحملا مختلف صنوف الآلام مستجدياً قوته على طول الطريق . ووصل الى المكان الذى اتفق هو وأخوه على الاجتماع فيه ، فى اليوم الأخير من السنة الثلاثين من مغادرته اياها . فلم يجد أثراً لبيت أبيه المتواضع ، ولكنه وجد مكانه قصراً شاهقاً ، تحيط به الحدائق والمراتش وتكتنفه أشجار الصفصاف وقنوات الماء تقطعها الجسور وتحوم حولها الطيوز البديعة الألوان

فقال الرجل يحدث نفسه :

— ليس من شك فى أن تورسن قد أصاب غنيمته ولن يأبى أن يشاطرنيها على مقتضى اتفاقنا

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات التى خاطب بها نفسه حتى سمع من ورائه صوت انسان ؛ فلما التفت رأى رجلاً أسوأ منه حالا يسأله الاحسان ، ولم يك هذا الرجل غير تورسن

فتعانق الاخوان وقد انهمرت دموعهما ، وبعد أن سمع تورسن حكاية ما أصاب فورسى أخذ يروى قصته قال :

— لقد قصدت الى هؤلاء الذين يعرفون سر المسحوق الذى اصطلح على تسميته تراب النار ، الذى لم يتمكن سوين من منعنا من اختراعه ، وان كان ووشى قد اهتم بمنع استعماله الا فى الألعاب النارية . . وبعد أن وقفت على سر هذا المسحوق وضعت كمية معينة منه فى أنابيب مجوفة صنعتها من الحديد والنحاس ، ووضعت فوقها كوراً من الرصاص تتفق أحجامها مع تجاويف الأنابيب ، ثم وجدت أننى بايصال اللهب الى تراب النار من أحد طرفى الأنبوبة أستطيع أن أدفع الكرة الرصاص من الطرف الآخر بقوة تمكنها من اختراق ثلاثة من دروع المحاربين فى وقت واحد ؛ فملأت برميلاً من هذا المسحوق وخبأته هو والأنابيب طى سجاجيد حملتها على ظهور الثيران ، ثم رحلت قاصداً مدينة القسطنطينية ، ولست أروى لك الآن حكاية المتاعب التى اعترضتنى فى هذه الرحلة ، ويكفى أن تعلم أننى وصلت آخر الأمر نصف ميت

من التعب والمشاق مجرداً من كل شيء إلا بضاعتي ، واستطعت بتقديم مامعي من السجاجيد رشوة لأحد الضباط أن أحصل على الاذن بالدخول على الأمبراطور[1] والتحدث ، اليه وقد وجدته منهمكا في لعب الشطرنج يكدح رأسه في حل إحدى مسائله

« وقد أخبرته أنني كشفت سراً يمكنه من أن يصبح سيد العالم ويساعده بنوع أخص على طرد المسلمين الذين يهددون إمبراطوريته بالخراب

فقال لي : « يجب أن تلاحظ أنه ليس من المحتمل أن أستطيع الاصغاء اليك قبل أن أنتهي من حل هذه المسألة ، ومع ذلك فلكيلا يقول انسان إن الأمبراطور يهمل واجباته منهمكا في تسلية سخيفة ، فانني سأحيل اختراعك على صناع الأسلحة المبرزين في عاصمتي ، ثم أعطاني كتاباً الى الصناع وعاد الى اللعب ، وعند ما تركت القصر حاملاً رسالة الأمبراطور صادفت في الطريق موكباً عظيما . فالفرسان والمشاة الراكضون ، والعازفون على الموسيقى ، والمنادون ، وحاملو الأعلام — كل هؤلاء يحيطون برجل صيني يجلس في سمت تحت مظلة ذهبية فوق فيل مسرج بسرج نفيس ، وكانت جديلته مضفرة بالورود الصفراء ، وكان الموسيقيون يعزفون ويدقون الطبول ، وحملة الأعلام يلوحون بأعلامهم في الجو ، بينما المنادون يصيحون : هكذا يحتفل بالرجل الذي يغتبط الأمبراطور بتكريمه — وان لم أكن مخطئاً خطأ كبيراً فان وجه ذلك الرجل الصيني لم يكن سوى وجه أخينا وانج لي

« ولو أنني كنت في ظرف غير الذي كنت فيه لأجهدت نفسي في الوقوف على معنى ذلك الذي شهدت ، ولكن لهفتي كانت شديدة وكذلك كانت حاجتي وجوعي . فبحثت عن صناع الأسلحة المبرزين ، واستطعت بمشقة كبيرة أن أجمعهم كلهم في مجلس واحد . وقدمت اليهم الأنابيب وتراب النار وانفذت رصاصتي بسهولة من أحسن درع استطاعوا أن يقدموه »

فصاح صانع دروع الصدر : « من ذا الذي يحتاج الآن الى دروع الصدر ؟ »

وقال صانع خوذ الرأس : « أو الخوذ ؟ »

وقال كبير صناع التروس : « أنا لم أكن لآخذ خمسين بيزنة ثمناً لهذا الجن ، فما فائدته الآن؟

وقال صانع السيوف : « وستقل قيمة سيوفي »

وقال صانع السهام في لهجة حزينة : «وسهامي ستصبح عديمة القيمة »

وصاح أحدهم : « إن هذا الا عمل دنيء »

وصاح آخر : « بل انه لسحر ساحر »

وصاح ثالث في صوت قاصف : « إني أنا التاجر الشريف الملم بمهنتي أقول ان ما ترونه ليس إلا وهما — ولكي يبرهن على صدق رأيه ألقى بحديدة متأججة في برميل ، فطار الجميع جملة مع سقف المنزل في الهواء ، وهلكوا جميعاً ، ولم ينج سواي وقد فقدت شعري وجلدي . وشبت في الحال حريق أكلت ثلث مدينة القسطنطينية

« ووجدتني بعد أيام راقداً على فراش السجن

(١) الأمبراطور كونستانس الثاني الذي حكم من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٧ وقد حارب ضد العرب المسلمين الذين استولوا من أملاكه على الشام وقبرص ورودوس وأفريقيا

وقد شفيت من بعض جروحى ، مصغيا فى حزن الى مشادة بين اثنين من حراسى حول ما يجب أن أعامل به : هل أحرق أو أدفن حيا ؟ وبينما المشادة قائمة وصل الى السجن أمر من الامبراطور باطلاق سراحى ، فقرأه الحرس ممتعضين شاعرين بشىء من الضعة ، وكان نص عبارته : اقذفوه خارج المدينة . وقد عجبوا من لين ذلك الحكم ومع ذلك أنفذوه بحماسة شديدة حتى وجدتنى قد طرت فى الهواء وسقطت وسط البوسفور ، حيث التقطتنى مركب صيد وأنزلت على الشاطىء الأسيوى ؛ ومن هناك قفلت راجعاً إلى بلادى استجدى القوت على طول الطريق

والذى أراه الآن هو أن نستعطف رب هذا البيت المعظم ونستثير شفقته ، فقد يرأف بنا عندما يعلم أننا كنا نعيش فيما مضى فى البيت الصغير الذى أخلى الطريق لانشاء قصره العامر»

واجتاز الرجلان باب الحديقة ومشيا على استحياء متجهين إلى القصر ، متأهبين للوقوع على قدمى سيده ، ولكنهما لم يفعلا ، لأنهما قبل أن يحاولا الركوع عرفا فى ذلك السيد أخاهما وايج لى

ولم يستطع وايج لى أن يعرف أخويه لأول وهلة ولكنه لما عرفهما آخر الأمر أسرع فقدم إليهما كل ما يحتاجان إليه ، حتى إذا سد حاجتهما من الطعام والشراب وارتديا فاخر الملابس قصا على أخيهما قصتيهما ، وسألاه أن يقص عليهما قصته فقال :

« أخوى ... إننى بانهماكى فى لعبة الشطرنج النبيلة التى اخترعت لحسن الحظ قبل عصر الأمبراطور سوين بزمان طويل ، لم أكن أقصد لغير التسلية المجردة من كل غاية ، ولم أفكر قط فى استخدامها لجمع الثروة إلى أن سمعت يوماً عن طريق المصادفة أن الشعوب الغربية تجهل هذه اللعبة جهلاً تاماً ، وحتى إلى هذه اللحظة لم أفكر فى كسب المال عن طريق الشطرنج ، ولكننى شعرت بشفقة شديدة على هؤلاء البرابرة المتأخرين حتى لقد أحسست أننى لن أتذوق شيئاً من الراحة قبل أن أنير عقولهم ، وتحقيقاً لهذه الرغبة الملحة قصدت إلى مدينة القسطنطينية فاستقبلت هناك كرسول من السماء ، وقد بلغ من تأثيرى فى القوم أنه لم يمض غير قليل حتى أصبح الأمبراطور ورجال دولته لا يفكرون فى شىء غير لعب الشطرنج ليل نهار ، وحتى شملت الفوضى شئون الأمبراطورية واستطاع المسلمون أن يهاجموها فى قوة وعنف . وتقديراً لخدماتى للأمبراطور رأى أن يكافئنى بمظاهر التكريم التى رأيت أنت يا أخى نموذجاً منها عند باب القصر

« وهكذا بعد أن وقع الحريق الذى تسببت أنت فيه وإن لم يكن عن عمد ، تحدث الناس بأن الامبراطور كان يعمل على تخريب عاصمته بالتآمر مع ساحر أجنبى ، يقصدونك بذلك . وبعد فترة قصيرة تآمر كبار الضباط ودخلوا مخادع الامبراطور بفكرة خلعه عن العرش ، ولكنه أعلن أنه لن يتنازل بحال من الأحوال قبل أن ينتهى من دست الشطرنج الذى كان يلعبه معى فى تلك اللحظة ، فوقف الضباط ينظرون إلينا ، ولم يلبثوا أن اهتموا بألعابنا ، وبدأ النزاع بينهم على أينا سيفوز ؛ وبينما هم فى خصامهم أقبل الضباط المخلصون وقبضوا

عليهم . وقد ضاعف هـذا الحادث مكانتى احتراماً لدى الامبراطور ، ثم لم تلبث هـذه المكانة أن تضاعفت مرة أخرى بعد ذلك الحادث بقليل عند ما لعبت مع أمير البحر المسلم الذى كان محاصراً المرفأ فربحت منه أربعين سفينة محملة غلالاً بدلت من قحط المدنية رخاء ويسراً

« وسألنى الامبراطور أن أتمنى عليه ما شئت فقلت ان كرمه لم يبق لى ما أطلبه غير حياة مواطن مسكين علمت أنه مسجون بتهمة محاولة حرق المدينة . فأمرنى الامبراطور أن أكتب أمر العفو عنه بيدى . وثق يا تورسن اننى لو عرفت أن ذلك السجين هو أنت لأظهرت من الاهتمام بشخصك ما يرضيك

« وأخيراً غادرت القسطنطينية عائداً الى بلادى مزوداً بالثروة الطائلة فى ركب مريح أقطع الطريق مراحل على ظهور الابل السريعة . فلما وصلت الى هنا ابتعت بيت أبى الصغير وأنشأت فى مكانه هذا القصر العظيم حيث أعيش مفكراً فى حل مسائل الشطرنج وفى أقوال العقلاء مقتنعا بأن الشىء الصغير الذى تعرفه الدنيا وتميل الى الأخذ به خير من الشىء العظيم الذى لم يعرفه الناس بعد ، فهم لا يستطيعون تقدير قيمته . فالعالم ليس إلا طفلا كبيراً يفضل أسباب التسلية على وسائل الثقافة والتعليم

فسأله أخواه فى دهشة وفى صوت واحد :

— اوتسمى الشطرنج مسلاة وملهاة ؟

عبد الحميد حمدى



غص الطريق بطوائف القرويات وهن راجعات إلى منازلهن الريفية الصغيرة يتجاذبن شتى الأحاديث مما يتصل بحياتهن الزوجية ، حتى إذا ما دنون من نهاية الطريق همست إحداهن بصوت خافض كأنه خارج من جوف بقرتها :

— « ألا خبرانى ، أيقترن السيد « لوج » بزوجه الجديدة غداً ؟

— لقد بلغنى هذا

— ألم تريها ؟ إنهم يقولون إنها فتاة ضئيلة الجسم موردة الخدين — قالت هذا ثم التفتت إلى بقرتها وهى تضرب بذيلها فيكاد يصافح وجهها

— فأجابتها إحدى صاحباتها : « إنها تصغره بسنوات . أتعرفين كم يبلغ من العمر الآن ؟

— حوالى الثلاثين

ثم تفرقن إلى منازلهن ، وفى الصباح التالى نادت « رودا » زوج السيد « لوج » القديمة ابنها وقالت له : « لقد بلغنى أن والدك سيتزوج من زوجه الشابة اليوم — إنى أريدك الآن أن تذهب إلى السوق حيث يمكنك أن تراها . فقال لها الابن : أعازم أبى على الزواج إذن ؟

فأجابته أمه : نعم . . . يمكنك أن تراها وأن تحدثنى عن بعض قسمات وجهها

— أجل يا أمى

— إمض بنى وخبرنى إذا كانت سمراء أو بيضاء ، طويلة مثلى أو قصيرة ، وإذا كانت تظهر ربة بيت أو فتاة ناعمة الأظافر لم تعتد بعد حياة المنزل

فانطلق الابن إلى السوق ، ولم يكد يبعد عن منزله حتى رأى والده يسير وبجانبه فتاة تصغره بسنوات . كان وجهها صافياً صبوحاً كأنه نور منبعث بين خمائل الورد . فسدد الولد إليها بصره بالرغم مما كان ينوء به ظهره ؛ وكانت الشمس قد غمرت وجه تلك الفتاة فبرزت ملامحه قوية جذابة

فاغتاظت الزوجة الشابة « جزترود » من ذلك الصبى الذى يحدجها بنظراته القوية الطويلة فقالت لزوجها :

— أنظر إلى ذلك الصبى الفقير كيف يحدجنى بالنظر !

— أجل ، قد يكون أحد سكان تلك القرية

— أظنه يعرفنا

— أجل ، يجب أن تتوقعى مثل هذه النظرات فى مثل هذا الموقف الجديد

والآن — هيا ، لم يبق على منزلنا إلا ميل واحد علنا نبلغه قبل أن يهجم الليل

أما الولد فلم يكد يصل إلى المنزل حتى ابتدرته أمه قائلة :

— ألم ترها ؟

— بلى ، رأيتها

— أهي سيدة تماماً ؟

— نعم ، إنها مكتملة الشباب وفى عينيها بريق المرأة الناضجة

— طبعاً ، وما لون شعرها ووجهها ؟

— إن شعرها كضوء النهار ووجهها كدمية الصبية

— إذن عيناها ليستا سوداوين كعيني

— لا . إنهما تميلان إلى الزرقة وفمها صغير جميل بشفتين رقيقتين تنفرجان عن ابتسامة حلوة وأسنان مفضضة لامعة

— وهل هي طويلة ؟

— لم أر طولها ، لقد كانت جالسة

— إذاً عليك أن تذهب إلى الكنيسة غداً فستجدها هناك . إذهب وراقبها فى مشيتها وأخبرنى إذا كانت أطول منى

— حسن يا أماه ، ولكن لماذا لا تذهبين أنت وترينها بنفسك ؟

— بنفسى ! إنى لن أسمح لنفسى أن أنظر إليها ولو كانت تسير تحت هذه النافذة . لقد كانت مع السيد لوج طبعاً فماذا قال أو فعل ؟

— لم يأت شيئاً جديداً

وفى اليوم التالى ألبست الأم ابنها ثوباً نظيفاً وأرسلته إلى الكنيسة ؛ فكان أول من وصل إليها وجلس فى أحد المقاعد الأمامية ، وأخذ يراقب جموع الوافدين ، وأخيراً جاء لوج ومعه زوجه الشابة وهى تتعثر فى مشيتها حياءً وخجلاً كما تفعل كل فتاة فى سنها تظهر فى المجتمع لأول مرة ، ولكنها لم تتنبه إلى نظرات ذلك الصبى هذه المرة لأن جميع الأعين كانت ترمقها

ولم يكد الصبى يستقر فى منزله حتى بادرته أمه قائلة :

« إيه ! حسن »

فأجابها ابنها إنها ليست طويلة بل قصيرة

فتنهدت أمه فقد شعرت بشىء من الارتياح

ثم استأنف الولد كلامه فقال : ولكنها جميلة جداً ، جداً يا أمى ، بل هى فاتنة . والواقع أن جمال هذه الفتاة قد ملك زمام قلب ذلك الصبى الناشىء .

فأجابته أمه : كفى . كفى . هذا كل ما أريد أن أسمعه . هيا إلى المائدة . مد عليها الخوان . إن الأرنب الذى اصطدته طرىّ شهى ، ولكن احذر أن يصطادك أحد

ولكنك لم تخبرنى ما نوع يديها

— لم أرها فقد كانت لابسة قفازها

— ماذا كانت تلبس هذا الصباح ؟

— لقد رأيتها فى ثوب أبيض هفهاف تعبث به نسمات الريح كلما هبت فتمسكه بيديها مخافة أن يتطاير عن بدنها . أما والدى فقد كانت تملو وجهه ابتسامة الرضى ويتبختر فى سيره كأنه أحد النبلاء

ثم توالت زيارات الصبى لهذين الزوجين كلما شعرت أمه بالحاجة إلى أوصاف جديدة لهذه الزوجة الشابة ، ثم أخذت تكوّن من هذه الأوصاف صورة ذهنية لتلك الفتاة التى لم ترها بعينيها

خلت الأم ذات مساء إلى نفسها ، وقد أوى ابنها إلى فراشه وبقيت هى وحيدة تتقلب فى فراشها تطالب النوم فيتأبى عليها ، ثم أخذت تستجمع فى مخيلتها هذه الأوصاف التى سمعتها من ابنها حتى غابت فى نومها فلاح لها شبح تلك الفتاة يحوّم أمام عينيها وقد ارتدت ثوبها الأبيض الهفهاف

ولكن وجهها كان قد عبثت به التجاعيد فبدت كأنها عجوز ، ثم شعرت أنها قد جثمت فوق صدرها كأنها كابوس ثقيل ، ثم أخذ ذلك الحمل يزداد شيئاً فشيئاً حتى كاد يكظم أنفاسها فهبت من نومها واستجمعت قواها ودفعت ذلك الشبح عن نفسها وهى تصيح : « يا إلـه السماء ... » ثم جلست على حافة سريرها والعرق البارد يتساقط من جبينها : لم يكن هـذا حلماً بل كانت هى بعينها ، لقد لمست ذراع غريمتها وهى تدفعها عن نفسها . لمست الذراع بلحمها وعظمها — كما توهمت ذلك — ثم نظرت إلى الباب فلم تر شيئاً

لم تذق النوم فى تلك الليلة ، فلما جاء الصباح كان وجهها شاحباً كوجوه الموتى ، وكان جسمها يهتز كأنه القصبة المرضوضة ، فلم تقو على حلب اللبن إذ كان ينصب بعيداً عن المحلب ؛ فقد كانت لا تزال تشعر أنها ممسكة بذراع غريمتها . فلما رأى ابنها منها ذلك قال : « ماذا حدث لك يا أماه الليلة الماضية ؟ لقد سقطت عن سريرك لا شك »

— هل سمعت وقع جسم ؟ ومتى ؟

— حوالى الساعة الثانية

ثم صمتت الأم وأخذت تتناول طعامها فى تراخ وكسل ؛ ولم يبرح الابن المنزل ذلك اليوم بل بقى فيه يعاون أمه فى عملها . وفى الساعة الحادية عشرة جاءتها امرأة لم تكد تنظر إليها حتى تذكرت ذلك الشبح الذى ظهر لها فى حلمها الليلة الماضية ، ولكنها لم تر فى وجهها تلك التجاعيد والخشونة التى رأتها فى حلمها ؛ فقد كان صوتها حلواً رقيقاً ، وإشاراتها لطيفة بالغة ، وابتساماتها لذيذة وديعة ، حتى لم تعد تصدق حواسها . لقد جاءت « جرترود » الزوجة الشابة تزور صاحبتها حاملة إلى الصبى حذاءً جيداً وبعض اللعب

ثم أخذت تتردد على المنزل من يوم إلى آخر حتى أنست كل واحدة الى صاحبتها . وفى ذات يوم جاءت « جرترود » وقد امتقع لونها واستولى عليها الهزال والسأم ، فسألتها « رودا » عن علتها ، فأجابتها :

« إنى أشكو مرضاً حيرنى وأعيانى وإن لم يكن ذا خطر ، ثم كشفت عن ذراعها اليسرى فنظرت إليها « رودا » وسرعان ما تذكرت تلك الذراع التى أمسكت بها فى حلمها ، ثم توهمت أنها ترى فيها آثار قبضتها وما تركته أصابعها الأربعة عليها فسألتها : كيف حدث هذا ؟ فأجابتها « جرترود » وهى تهز رأسها : « لا أدرى ؛ ولكن حدث أن كنت نائمة فرأيت فى حلمى أنى انتقلت الى مكان غريب وفجأة شعرت بألم ينتاب ذراعى فاستيقظت وأخبرت زوجى بالأمر فهونه على وقال إنه سيزول عما قليل »

— منذ كم حدث هذا ؟

— منذ أسبوعين فى الساعة الثانية

لقد كانت هى الليلة والساعة التى رأت فيها « رودا » ذلك الشبح ، فشعرت أنها آثمة مجرمة . وسرعان ما هجمت عليها تلك الأفكار القديمة ولاح أمامها شبح ذلك الحلم كما لو كان قد حدث بالأمس ؛ ثم قالت فى نفسها بعد أن ودعت صاحبتها : « أوه ! أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن أتسلط على غيرى وأسبب لهم اضراراً على غير إرادتى ؟ ثم مضت تفكر فى شتى الحلول

تتابعت الأيام وذراع « جرترود » تزداد ذبولاً وجفافاً وشكوك الأم تزداد يقيناً حتى لقيتها أخيراً وقالت لها : « أرجو أن تكون ذراعك قد صحت تماماً » فأجابتها « جرترود » : « لا ، إنها تزداد سوءاً على سوء ، فقد اشتد بى المرض حتى لا أقوى الآن على احتماله »

— يجدر بك أن تذهبي الى طبيب

— لقد صحبنى زوجى الى أحد الأطباء ولكن الطبيب لم يستطع أن يعرف علة مرضى بل نصحنى أن أضع ذراعى فى ماء ساخن ، فعملت كما أمرنى ولكن هذا لم يفدنى شيئاً

— أتسمحين أن أراه ؟ فكشفت عن ذراعها وأشارت الى موضع الألم وكان هذا فويق المعصم . فلما رأت « رودا » ذلك لم تستطع أن تحبس عواطفها . لم يكن هناك أثر لجرح بل كان هناك آثار الأصابع الأربعة ، الأول تجاه المعصم والرابع تجاه المرفق

— يلوح لى أن هذا من قبضة يد ، فانى أرى آثار أصابع هنا ، فاجابتها « جرترود » فى ابتسامة ضيقة ضعيفة : « إن زوجى يقول ان أحد الشياطين هو الذى فعل هذا » فانتفضت « رودا » انتفاضة عنيفة وقالت : « إن هذا وهم ، ولو كنت مكانك لما صدقت » فأجابتها « جرترود » فى شىء من التردد : « انى لا أهتم كثيراً بهذا لو لم يكن بى ماينفر زوجى منى أو يضعف من حبه لى . إن الرجال يقيمون وزناً كبيراً للمظهر الخارجى »

— أجل ولكن زوجك لا يحب سواك

— نعم كان هذا فى أول الأمر إذ كان فخوراً بى ؛ أما الآن . . .

— يمكنك أن تستريه عن نظره

— آه ! ولكنه يعرف مكان التشويه — قالت هذا وهى تحاول حبس الدموع التى ملأت عينيها

— أدعو لك بالشفاء من هذه العلة قريباً

ثم انصرفت « جرترود » وخلت « رودا » الى نفسها وقد انثالت الأفكار على خاطرها حتى أصبح عقلها هدفا لتلك الوساوس التى جرها عليها ذلك الحلم البغيض ، وقوى عندها ذلك الشعور بالاثم حتى أخذت تؤنب نفسها على ما ظنت أنها جلبته على هذه الفتاة المسكينة بسوء نيتها إذ لم تكن تبغى أن تسبب لها ألماً جسمياً ، ثم أخذت تفكر فيما تظنه تلك الزوجة لو علمت بأمر ذلك الحلم ، ثم رأت أنها إذا كتمت عنها ذلك الأمر كان هذا خيانة أخرى منها

أخذت تفكر فى هذا طول الليل حتى إذا ما جاء الصباح خرجت لترى زميلتها وقد شعرت بحاجة قوية الى هذا اللقاء ، فلم تكد تدنو من المنزل حتى خرجت إليها « جرترود » وحيتها تحية الصباح فقالت « رودا » : « أود أن تكون ذراعك ...

— لقد قيل لى إنه ليس هناك إلا طريق واحد أعرف به علة هذا المرض ، وقد أعرف الدواء أيضاً ، وهى أن أذهب الى ساحر يقيم فى الاقليم المجاور لنا ، ولكننا لا نعرف إن كان حياً أو ميتاً ، ولا أذكر الآن اسمه ، ولكنى سمعت أنك تعرفين عنه الكثير . إنى أحاول أن أتذكر اسمه . فقالت صاحبتها وقد امتقع لونها : « أليس اسم الساحر « ترندل »

— آه نعم هو بعينه . أهو حى ؟

— أظن هذا

— ولكن لماذا يدعونه ساحراً ؟

— لأن له السلطان على من حوله من الناس

— ما أسخف عقول هؤلاء الناس الذين يعتقدون فى مثل هذه الخرافات . لقد ظننت أنهم يمنون عالماً طبياً . سوف لا أفكر فى مثل هذا الرجل ثانية

فشعرت « رودا » بشىء من السكينة والطمأنينة فقد كانت تخشى أن يفضح ذلك الرجل أمرها عند صاحبتها فتنظر إليها كأنها شيطانة فى صورة إنسان ، كانت السبب فى تشويه جمالها والقضاء على سعادتها لم يمض على هذا يومان حتى جاءت «جرترود»

الى منزل صاحبتها وقالت لها إن ذراعي تزداد سوءاً وأصبح الأمر جد خطير، حتى فكرت ثانية في ذلك الرجل الذي حدثوني عنه وإن كنت لا أعتقد في أمثال هذا الرجل إلا أني أشعر برغبة في زيارته الآن . أيبعد عنا كثيراً ؟

— نعم ، هو على مسافة خمسة أميال

— حسن سأمضي إليه — ألا تصحبينني لتدليني على الطريق ؟

فتمتمت « رودا » قائلة : « لست أنا » ثم أخذ الخوف يعاودها من جديد خشية أن ينكشف أمر حلمها فتفقد صداقة صاحبتها ، ولكنها لم تجد طريقاً للاعتذار واتفقتا أخيراً على أن يتقابلا عند نهاية الطريق حتى لا يراهما أحد

استيقظت « رودا » في اليوم التالي وأخذت تفكر في شتى الحلول التي تخلصها من هذا المأزق ، ولكنها لم تجد بداً من الذهاب ، فتوجهت إلى المكان المعين حيث قابلت صديقتها ، وقد أخفت ذراعها في مئزرها ثم مضتا في سيرهما لا تتحدثان إلا قليلاً

لقد كان طريقاً طويلاً مقفراً ، وقد امتلأ الجو بالسحب فحجبت الشمس ، وأخذت الرياح تعول وتصفر وهي تهب فوق التلال ثم تهوى إلى بطن الوادي

أما « جرترود » فقد كانت كلما فتحت موضوعاً للحديث ردت عليها صاحبتها في إجابات مقتضبة محاولة إقفاله ؛ وكانت تشعر كلما تقدمت في الطريق أن شيئاً ثقيلاً يجثم على صدرها حتى كرهت أن تسير بجانب الذراع المريضة أو أن تدنو منها . وأخيراً جاءتا الى الرجل مختفيا «رودا» وقصت عليه « جرترود » قصة ذراعها ، فقال لها الرجل : ان الطب عاجز عن شفائك ؛ فان هذا من تدبير عدو . فانزوت « رودا » في نفسها وتراجعت الى الوراء أما «جرترود» فقد صاحت: « أي عدو ! » فهز الرجل رأسه وقال : « انك تعرفينه جيداً ، ولو أردت لأريتك اياه وإن كنت أنا نفسي لا أعرفه . فلما ألحت عليه « جرترود » أن يخبرها من هو أشار الرجل الى رودا بالبقاء في مكانها ، ثم قاد جرترود الى غرفة صغيرة وأجرى أمامها عمليته السحرية فأحضر كوباً وملأه ماء وجاء ببيضة وكسرها على حافة الكوب فنزل الزلال في الكوب وبقي المح ، ثم حمل الكوب الى النافذة وأمر المرأة أن تنظر فيها ولكنها لم تستطع أن تتبين ذلك الوجه الذي خيل إليها أنها تراه في الكوب . فلما خرجت كان وجهها أشد امتقاعا ، ثم عادتا الى القرية وقد شعرت رودا أن صاحبتها قد تغيرت

فعند ما سألتها عما رأت أجابتها في شيء من التحفظ والحرج : «لاشيء يستحق الذكر» ثم علا وجهها شحوب غريب حتى أصبح شبيهاً بذلك الوجه الذي رأته رودا في نومها . وبعد صمت طويل قالت جرترود :

أ كنت أنت أول من فكر في هذا الساحر ؟ عجباً لو كان هذا ...

— لا . ولكني لست آسفة على مجيئنا الى هنا . إن كل شيء مقدر مكتوب

ثم سارتا في الطريق دون أن تتحدثا كثيراً وقبل أن تفترقا قالت جرترود « ان الناس يتهامسون بأن علة مرضي سببها نظراتك الى . فامتقع وجه المرأة وغابت في تفكير عميق

ولم يأت الربيع حتى كانت « رودا » وابنها

قد تركا القرية . . . .

عاشت جرترود مع زوجها ستة أعوام كانت حالتهـا تزداد سوءاً على سوء ، ففاض الابتسام والاشراق من جبينها ونضب الجمال من وجهها وأصبحت الذراع المشوهة مصدر قلقها وتعسها ، وفوق هذا لم تعقب من زوجها ولداً وما كان أحوجه إلى ابن يحيا فى اسمه ويرث أرضه

لم تقعد الزوجة لحظة عن السعى فى علاج ذراعها وذهبت النصائح والأوصاف الطبية فى غير جدوى ولم تجد عليها الرقى والتعاويذ شيئاً

ولـكن الحنين إلى الولد كان يشتد بالرجل يوماً بعد يوم حتى لم يستطع أن يغلبه ، فجاء إلى زوجه يوماً وقال : لقد فـكرت أن أتبنى ولداً ولـكن الوقت قد فات فقد مضى الولد ، ولا أعرف مكانه الآن — فأدركت الزوجة الغرض الذى يرمى إليه فان قصة الزوجة الأولى « رودا » لم تـكن قد غابت عن ذهنها وإن لم يتحدث أحدهما إلى الآخر عنها

كانت فى الخامسة والعشرين ولـكنها كانت تبدو فوق هذه السن بكثير . فقد قضت سـتة أعوام كانت كلها مجدبة ثقيلة لم تذق فيها الحب إلا شهرين . وكثيراً ما كانت تخلو إلى نفسها وتستعيد أيامها الماضية ، فتهجم عليها ذكريات مرضها فتثور وتئن ثم تتأوه قائلة : « آه لو عادت إلى أيام حبى الأول » ثم أرادت أن ترمى بآخر سهامها للشفاء من هـذا الداء العياء ، فانطلقت إلى الساحر القديم ، ولم تـكن قد زارته منذ ست سنوات ، فلم يكد الرجل يراها حتى تذكرها ، فذكرت له المرأة التجارب التى عملتها فهز الرجل رأسه وقال إن معظم هذه الأشياء لا تنفع — ليس هناك إلا طريق واحد ، ولـكن صعب تحقيقه . وهو أن تطوق بذراعك المشوهة عنق أحد المشنوقين . فارتاعت المرأة لتلك الصورة التى رسمتها فى ذهنها هـذه الـكلمات — ثم مضى الساحر فى كلامه : على أن يكون هذا عقب إنزاله من المشنقة مباشرة

فسألته الزوجة : « ولـكن ما فائدة هذا ؟ »

فأجابها الرجل : إن هذا يزيد فى دورة الدم . عليك أن تذهبى إلى أحد السجون وتترقبى إحدى ضحاياه . لقد طالما أرسلت إلى السجن عشرات النساء اللواتى جئن إلى يشكون بعض هذه الأعراض . ثم ودعته المرأة وانصرفت وقد أبى أن يأخذمنها أجراً

عادت المرأة إلى منزلهـا وهى تشك فى كلام الساحر ولـكنها بعد أن يئست من الشفاء اندفعت بأمل إعادة حبها المفقود بشفاء ذراعها إلى تحقيق فـكرة ذلك الساحر وقد تذكرت كلماته لها : « إن ما يأتى بالرقى يذهب بالرقى أيضاً . » فقضت مدة طويلة وهى لا تفـكر إلا فى المشنوقين حتى أن صلاتها لم تكن إلا بعض هـذه الـكلمات : « اللهم اشنق لى أحد الأشقياء أو أحد الأبرياء !! » لم ترد أن تستمين بزوجها فقد كان يضيق بأفاعيل السحر ولا يؤمن بأعمال الشعوذة

ثم جاءها يوما يخبرها بعزمه على تركها يومين لقضاء أمور خاصة به ، ففرحت الزوجة لهذا الغياب إذ وجدت فيه فرصة لتحقيق غايتها . فلم يكد يغيب عنها حتى امتطت جواداً مطهما أخذ يطوى بها الأرض حتى وصلت أخيراً إلى السجن المقصود حيث تجد فيه ضحيتها التى ارتبطت سعادتها بنهايته ، ثم ذهبت إلى الجلاد تسأله عن تلك الضحية ، فظنها الجلاد إحدى قريبات الفتى المسكين أو سـيدته . فقال : إنه صبى لم يتجاوز الثامنة عشرة قد ساقه القدر إلينا عنـد ارتـكاب الجريمة . ولم نجد غيره

تهمه . فأجابته المرأة : لست أسأل عن هذا بل أريد أن أعرف موعد التنفيذ . فقال الجلاد : فى الساعة الثانية عشرة كالعادة ، أى بمجرد وصول البريد من لندن فقد يكون هناك عفو . فارتاعت المرأة وصاحت : عفو ؟ إنى لا أود هذا ، فسألها الرجل : « ماذا تريدين ؟ »

فقالت : أريد أن ألمسه لأنه أحد الطلاسم التى كانت السبب فى تشويه ذراعى وهدم سعادتى . وقد أشار علىّ بهذا أحد السحرة . فقال الجلاد : أوه . نعم ، نعم . لقد أدركت غرضك الآن . كثيراً من النساء يأتين إلىّ لمثل هـذا الغرض . مم تشكين ؟

فكشفت له المرأة عن ذراعها

فأخبرها الرجل أن تذهب إلى محافظ السجن وأن تصطحب معها طبيباً ثم تقدم اسمها وعنوانها .

فقالت له : ولكنى لا أريد أن يعلم أحد بهذا

— أتعنين حبيبك ؟

— لا . بل زوجى

— حسن . سأمهد لك الطريق

— ولكن أين هو الآن ؟

— إنه لا يزال حياً فى داخل هذا السجن . ثم رسم الطريق الذى تسلكه ، فانصرفت شاكرة .

وفى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى كانت المرأة جالسة فى إحدى غرف السجن تنتظر تنفيذ الاعدام فى المتهم الشاب

ثم قرئ الحكم وسيق المتهم إلى المشنقة

وفى تلك اللحظة دخلت المرأة بسرعة وقد حسرت عن ذراعها المريضة ، ثم انحنت على الصندوق الذى كان فيه المشنوق ، ولكنها لم تكد تراه حتى خارت قواها وكادت تهوى إلى الأرض فأمسك بها الرجل وهمس فى أذنها قائلاً : « هيا »

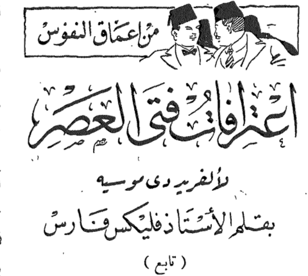
فاستجمعت المرأة قوتها ومدت ذراعها ، فأخذها الجلاد ورفع الغطاء عن الجثة وطوق بها عنق المسكين ، فشعرت المرأة بهزة عنيفة وأخذ الدم يندفع إلى تلك الذراع المريضة ، ولكنها لم تكد تلتفت وراءها حتى رأت « رودا » وقد احمرت عيناها من البكاء وأرخت شعورها على كتفيها ، وقد وقف بجانبها زوجها « لوج » ساهماً حزيناً ولكن عينيه لا تندمان ، فقال لها فى صوت غاضب أجش : « ماذا تعملين هنا ؟ » ، ثم صاحت الأم : « رودا » يا لك من شيطانة أتحولين بيننا وبين ابننا .. إنك لتمثلين حقاً تلك الصورة البشعة التى رأيتها فى حلمى القديم ، ثم جذبتها من ذراعها العارية ودفعتها إلى الحائط ، فوقعت تحت قدمى زوجها ، فلما رفعها زوجها عن الأرض كانت غائبة عن الرشد

لقد كان المشنوق ابن « رودا » قد اتهم ظلماً فى إحدى الجرائم ، ثم جاء إليه والده فى الساعة الأخيرة ليشهد مصيره المحتوم . ولم يرد أن يخبر زوجه جرترود بهذا بل قال لها إنه ذاهب إلى قضاء أمر من أموره الخاصة

حملت الزوجة ولكنها لم تبق إلا ثلاثة أيام حتى فاضت روحها لأن دورة الدم كانت أقوى مما تحتمل

أما الزوج فلم يكد يفرغ من دفن زوجه حتى ترك قريته الى بلدة أخرى حيث مات هناك بعد ذلك بعامين وقد أوصى بمعظم ثروته الى أحد الملاجئ تاركا جزءاً يسيراً منها الى زوجه رودا — إن كانت لا تزال حية — إذ كانت قد اختفت من ذلك الاقليم كله . ولكنها عادت بعد ذلك بسنوات كثيرة وقد ابيض شعرها وتخاذل جسمها ولم يبق فيها إلا جبين مغضن يخفى أعمق الأفكار ، وقلب مكلوم يحمل آلم الذكريات

نظمى خليل



لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

وما كانت هذه الحياة المضطربة تخلو من أويقات لها لذتها وصفاؤها ، فقد كان معاشرو ديجنه من الطبقة الراقية وأكثرهم من أرباب الفنون ، فكنا نمضي ليالي عديدة يسود سمرنا الخليع فيها ما يبعد جد البعد عن الفحشاء ؛ وكان أحد الصحاب عاشقاً مغنية مشهورة تشجينا بصوتها الساحر الحزين . ولكم جلسنا إلى المائدة فنسينا ما عليها من طعام مستغرقين فيما يثير إنشاد هذه المغنية في نفوسنا من حنين ! ولكم درنا بأقداح الشراب ونحن نصغي إلى أحدنا يلقى علينا بصوت عميق رائع بعض مقطوعات من لامارتين ؛ فكنا نؤخذ بمعانيها حتى كأن تفكيرنا حصر في دائرة منها ؛ فكانت تمر الساعات دون أن نشعر بها ، حتى إذا جلسنا بعدها إلى المائدة سادنا سكوت رهيب وعلقت بأهدابنا الدموع

وكان يتجلى هذا التأثير في مثل هذه الأوقات على ديجنه بأكثر من تجليه في الآخرين وهو المعروف بيننا بصلابة خلقه وبرودة طبعه ، فكانت العواطف تتدفق من كلماته ولفتاته كأنه شاعر ساعة نزول الالهام عليه . وما كانت تنتهي نوبة استسلامه لشعوره حتى يبدأ رد الفعل في أعصابه فينقلب إلى المرح الجنوني كارعاً من الخمر ما يفقده رشده فيستولي عليه روح الهدم والتحطيم . ولكم رأيته يختتم نوبه هذه بقذفه كرسياً إلى نافذة مغلقة يحطم زجاجها بقرقعة تصم الآذان

وكنت أراني مندفعاً بالرغم مني إلى تشريح أخلاق هذا الرجل ، فكان يلوح لي كأنه فرد من مجتمع غريب لا أعرف له مقراً على هذه الأرض . فما كنت أعلم أكان هذا الانسان مسيراً في عمله بيأس مريض أم بدلال ولد صغير

وكان ديجنه يبدو بخاصة في أيام الأعياد كأنه مأخوذ بثورة عصبية فيأتي بأعمال صبيانية يحتفظ فيها بكل برودة خلقه فكان من يراه لا يتمالك من الاستغراق في الضحك . وقد أقنعني يوماً بأن أخرج للتنزه معه وحدنا عند الغسق فارتدينا أثواباً غريبة الشكل وقنعنا وجهينا وحمل كل منا آلة موسيقية وذهبنا على هذه الصورة تائهين في الأحياء الصاخبة محتفظين برصانة أرباب الفنون ؛ وصادفنا في تجوالنا عربة كان سائقها قد دب فيه النعاس فنام على مقعده فسارعنا إلى حل أربطة الفرسين ثم تقدمنا إليه وصحنا به فأفاق ، وركبنا العربة طالبين منه إيصالنا ، وما لوح السكين بسوطه في الهواء حتى ذهب الفرسان خبباً وبقي هو في عربته مشدوهاً ، وتوجهنا بعد ذلك إلى الشانزليزيه فرأى ديجنه عربة تتقدم نحونا فاعترضها وأمر السائق بالوقوف وتهدده بالقتل إن لم يترجل عن مقعده ؛ وإذ نزل الرجل عند إرادته مذعوراً أمره بالانبطاح على الأرض معرضاً نفسه لأوخم العواقب ؛ ثم فتح باب العربة كأنه قاطع طريق فرأينا شاباً وسيدة استولى عليهما الرعب الشديد ؛ وأمرني ديجنه بمجاراته فيما سيفعل ، فأخذ يقفز من الباب ليعود

فيقفز من الباب الآخر وأما أتبعه حتى خيل الى من فى العربة والظلام سائد أن المهاجين عصابة من اللصوص

يقول لك بعض الناس إن الحياة تولى من يبتليها اختباراً ؛ ولعلهم يعجبون فى سرائرهم إذ يصدّقهم سامعوهم . وهل العالم إلا عاصفة إعصار لا يشبه أحدها الآخر ؟ فكل ما فى الحياة يذهب بدداً كسرب أطيار ينتشر فى الفضاء الفسيح ، فما تجد مدينة تتشابه أحياؤها ؛ فمن عرف أحدها يبقى جاهلاً لسائرها ؛ غير أن هذه الأعاصير التى تدور منذ وجود العالم لم تزل تخترقها سبعة أشباح لا تتغير على ممر الأجيال : وأولها يسمى الأمل ، والثانى الضمير ، والثالث الرأى ، والرابع الشهوة ، والخامس الحزن ، والسادس الكبرياء ، أما الأخير فيسمى الانسان

وما كنت وأصحابى إلا كسرب أطيار ، فبقينا سوية إلى أن جاء الربيع نلعب حيناً ، ونركض أحياناً

ولعل القارىء يتساءل أين النساء فى هذه الحوادث وأين هى الفحشاء ؟

وماذا عسانى أقول عن هذه المخلوقات الحاملات اسم النساء واللواتى راودن حياتى كأشباح أحلام ؟ أيمكن للانسان أن يحتفظ بالذكريات من وقائع لم يكن فيها شىء من الأمانى والآمال ؟

وأين أجد هذه الوقائع الآفلة لأثير منها تذكاراً ؟ وهل من شبح أشد صمتاً منك أيتها المرأة العابرة كالظل ؟ وهل من انطباع أسرع إلى الزوال منك فى صفحة الذكريات ؟

وإذا كان لا بد من إيراد شىء عن النساء فلأذكرن منهن اثنتين :

وإليك الأولى

أسألك أولا عما يمكن أن تؤول إليه عاملة بالخياطة لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً تتدفق شهوة الصبا من إهابها الغض وعلى خوان عملها رواية كل صفحاتها صبابة وغرام ، وهى لم تتلقن علماً ولا تعرف عن الآداب والأخلاق شيئاً فتقضى حياتها تخيط الأثواب أمام نافذتها حيث تمنع طريق منع رجال الشرطة المرور عليها ليجيئها عند المساء رهط من بنات الهوى الحاملات الأجازات يخطرن عليها ذهاباً وإياباً ، ماتفعل هذه الفتاة بعد أن تكون قطعت أصابعها واستنفدت نور عينيها منذ الصباح حتى المساء عاملة فى رداء أو فى قبعة إذا هى اتكأت عند الغسق إلى نافذتها فرأت ما عملت فيه يداها الشريفتان لكسب قوت من حولها يرتديه قوام فاجرة ورأس عاهرة ؟ . . .

ولكم من عربة تقف أمام بابها كل يوم فتترجل منها فتاة لها رقها كالعربة التى تستقلها ، وتدخل على هذه العاملة المسكينة لتحدجها بلفتات الاحتقار وتقف أمام مرآتها لتجرب مراراً الرداء الذى انكبت عليه فى سواد الليالى لانجازه . وتخرج العاهرة من كيسها ستة دنانير يتوهج ذهبها ، وهى العاملة لا تكسب إلا ديناراً طوال أسبوعها ، فلا تملك نفسها من التفرس فيها والتأمل فيما تلبس من حلى ثم تتبعها بأنظارها حتى تركب عربتها وتتوارى

ويجىء يوم ينقطع فيه العمل عنها ويسود الظلام على البيت الذى تظلله الفاقة ، وقد انطرحت فى إحدى زواياه الأم المريضة ، فتفتح العاملة البائسة بابها وتمد يدها قابضة على مجهول يمر على الطريق ...

هذه هى حكاية الفتاة التى تعرفت إليها . وكانت تحسن العزف قليلاً على البيانو وتعرف شيئاً من فن الرسم ومن التاريخ والصرف ، فكانت كل معارفها على هذا النحو شيئاً يسيراً من كل شىء . ولكم كنت أنعم النظر فى هذه المخلوقة

والأسى يرين على قلبي إذ أرى فيها بداية عمل الطبيعة ونهاية ما يأتيه المجتمع من التشويه ! ولكم شخصت بشخوصي أمامها إلى ليل مدلهم تلوح فيه شرارات ضئيلة من نور عليل

ولكم حاولت أن أشمل بعض الجمرات الخامدة تحت هذا الرماد ، وقد كانت حلة شعرها بلونه ، فكنا ندعوها (ساندريون)

وما كانت ثروتي تسمح لي بأن أعين لها معلمين فتولى ديجنه الانفاق على تعليمها ، ولكنها عجزت عن بلوغ أي نجاح ، فما كان المعلم يتوارى عن نظرها حتى تكتف يديها وتبقى الساعات الطويلة محدقة بما وراء نافذتها . وكانت تمر الأيام على هذه الوتيرة فتهددتها يوماً بأنني سأقطع عنها المال إذا هي لم تجتهد ، فبدأت بالعمل دون إبداء أية مقاومة ، ولكن بلغني بعد ذلك أنها كانت تخرج خلسة من البيت ولا يعلم إلا الله إلى أين كانت تذهب ، فرجوتها قبل أن أسرحها أن تطرز لي كيساً ، وقد احتفظت بهذا الكيس مدة طويلة كذخيرة حزينة وأبقيته معلقاً على جدار غرفتي كأنه رسم لكل طلل عافٍ في هذه الحياة

أما الثانية فهذه قصتها :

وكانت الساعة العاشرة مساء ، وكنا قضينا نهارنا في الرياضة المتعبة فتوجهنا إلى منزل ديجنه وكان هو قد سبقنا إليه لاعداد مايلزم لليلة راقصة . ولما دخلنا البهو رأيناه مزدحماً بالمدعوين وبينهم عدد وفير من الممثلات ، وقد بين لي الصحاب السبب في دعوتهن إلى الحفلات فقالوا إن الرجال يتزاحمون عليهن

وما وصلت إلى القاعة حتى اندفعت مع تيار الراقصين ، وكنت شديد الميل إلى رقصة (الفالس) إذ ليس بين أنواع الرقص ما يماثلها خفة ورشاقة وليس غيرها إلا حركات لا معنى لها يقصد منها انتهاز الفرصة للأخذ بأحاديث لا طائل تحتها . أما (الفالس) فرقصة تتيح لك أن تتمتع بالمرأة التي تضمها نصف ساعة بين ذراعيك وتسير بها بين تصادم الراقصين وهي خفقة الجوارح فتكاد لا تعلم إذا كنت تغتصب إرادتها أو تحمي ضعفها . وكم بين الراقصات من يستسلمن إلى قيادتك بخفر تتدفق الشهوة منه فلا تعلم ما يدور في خلدك أشهوة هو أم حذر ، وتقف مرتاباً في نفسك فلا تدري حين تشد بالراقصة إلى قلبك أتترنح ثملة أم تنقصف كالقصبة الضعيفة بين يديك

لا ريب في أن ألمانيا التي اخترعت هذا النوع من الرقص بلاد ما خفيت حقيقة الحب عن أهلها

وكنت أخاصر راقصة رائعة الجمال تنتمي إلى المسرح الايطالي جاءت إلى باريس لتمضية أعياد المرفع ؛ وكانت بزيّ الراقصات في هيكل إله الخمر ترتدي قفطاناً من جلد النمور ، وما كنت رأيت في حياتي امرأة تشبه هذه المرأة في دلالها ، فقد كانت ممشوقة القد ناحلة القوام تنطلق في خطواتها بسرعة ، ولكنك تخالها تنسحب سحباً وهي تتقصف في دلّها . ولقد يحسب الناظر إليها أنها تتعب مراقصها في حين أنه لا يحس بها إلا كخيال ميال بين ساعديه

وكانت هذه الغانية مزينة صدرها بطاقة كبيرة من الورد تورثني نشوة أين منها نشوة الراح ؛ وكانت تنطوي على ساعديّ لأقل حركة كأنها من الأماليد عاشقات الشجر ، فكنت إخالها بما فيها من ليونة وعذوبة خلابة وشاحاً من ناعم الحرير يلفني كأذيال الغمام . وكان عقدها المتدلي من عنقها يهتز في كل دورة من دوران الرقص ضارباً على نطاقها المعدني فأسمع له صوتاً خافتاً كحفيف الغصون . وكان في حركاتها من الجلال ما يوقفني منها أمام كوكب

رائع يبتسم لى فأخالها جنية تنشر جناحيها لتعود أدراجها . وكأن الموسيقى الشجية الهائمة كانت تصدح من بين شفتيها وهى مائلة برأسها إلى الوراء تكالها الضفائر السوداء ، وقد أرهق عنقها من ثقلها فالتوى

وما انتهى دور الرقص حتى ارتميت على مقعد فى زاوية القاعة ، وكان قلبى ينبض بسرعة قطعت أنفاسى ، فهتفت قائلا : يا لله مما رأيت ! يا للمسخ الرائع ! ويا لك من أفعى كلها حسن وجمال تعرف كيف تلتف وكيف تتململ بجلدها اللين الأرقط ! ... لقد علمتك حية الجنان المغوية كيف تلتفين على شجرة الحياة وبين أسنانك ثمرة الموت . يا لك ساحرة تتحكمين فى قلوب الناس وتعلمين ما يفعل بهم هذا الدلال الذى يتجاهل قوته ! وهلا تعلمين أنك تهلكين وتغرقين وأن كل من لمسك سيحل به العذاب ، وأن ابتسامك وعبق أزهارك والاقتراب إلى ملاذك يؤدى إلى الموت ... ذلك هو سر الحلاوة فى افترار ثغرك وتفتق أزهارك ، فأنت تعرفين هدفك عند ما ترسلين معصمك متراخياً على الكواهل

لقد أعلن الأستاذ هاللى حقيقة مروعة حين قال : (إن المرأة عصب البشرية والرجل عضلها) وقد قال هومبولت العالم الجدى نفسه : إن أعصاب البشر يحوطها إشعاع خفى . وأتباع سبلانزانى يعتقدون أيضاً أنهم اكتشفوا الحاسة السادسة . إن فى هذه الطبيعة التى تقذف بنا إلى الوجود ثم تدفعنا إلى الموت وهى هازئة بنا من القوات الخفية ما يكفيها ، فلا نضيفن إلى ما نتسكع به من ظلمات ظلمات أخرى

ولكن أى رجل يعتقد أنه تمتع بالحياة إذا هو أنكر سلطان المرأة عليه ، إذا هو لم يشعر بارتعاش ساعديه بعد أن يكون خاصر امرأة جميلة وراقصها وإذا هو لم ينفذ إليه ذلك الشيء المجهول أو تلك الكهارب المسكرة التى تنتشر فى المرقص حين تتعالى النغمات ويكسف لهب الجسوم أنوار المصابيح وما تنتشر هذه الكهارب إلا من أجسام الحسان فيتكهربن بها أولاً ، ثم تهب منهن كالعبق المتصاعد من مبخرة تتمايل مع الرياح

واستولى علىّ خبل مريع . وما كنت أجهل أن الحب يورث هذا الثمل ، وما كانت هذه أول مرة عرفته ، ولكننى ما كنت أعلم من قبل أن بوسع امرأة أن تدفع بالقلب إلى مثل هذا الخفوق وأن تثير فى المخيلة مثل هذه الأشباح بجمالها وبأزهارها وبثوب مخطط كجلد الحيوان المفترس ، وبحركات دوران اقتبستها من أحد المهرجين ، وبالتفاف معصم بض على كتف ، وذلك دون أن تنبس بكلمة أو تبدى فكرة واحدة كأنها تترفع عن الاعتراف بعزتها وسلطانها

وما كان ما أشعر به من الحب بل من الظمأ المحرق ، فاننى لأول مرة فى حياتى كنت أشعر باهتزاز أوتار مشدودة منى على غير قلبى ، فان تجلى هذا الحيوان الرائع لعينى كان قد استنطق وتراً غير أوتار القلب فى أحشائى ، وما كنت أحس بنفسى ما يدفعنى إلى أن أقول لهذه الغانية إننى أحببتها أو أعجبت بها أو حتى لأعلن لها تقديرى لجمالها ، فما كنت أشعر أن على شفتىّ ألا تمطشا للالتصاق بشفتيها لأقول لها : منطقينى بهذين المعصمين المتراخيين وألقى على كتفى رأسك المائل وارشقى بهذه البسمة العذبة شفتى

لقد عشق جسدى جسدها فكنت من جمالها فى سكرة كسكرة الراح ...

ومر بى ديجنه فسألنى عما أفعل حيث كنت فأجبته : من هى هذه المرأة ؟ فقال : وأية امرأة

تمنى ؟ فقبضت على ساعده وسرت به فى القاعة ؛ ولحظت الايطالية أننا نتجه نحوها فابتسمت وإذ تراجعت قليلاً قال ديجنه — آه لقد رقصت مع ماركو ...

— ومن هى ماركو ؟

— هى تلك المدللة الضاحكة هنالك ... فهل أنت معجب بها ؟

— لا ، لقد رقصت معها وأحب أن أعرف اسمها . وهذا كل إعجابى بها

وما قلت هذا إلا لأننى شعرت بشىء من الخجل ، فتولى ديجنه عنى وذهبت أنا نحو الايطالية ، فاستوقفنى قائلا : رويدك ، ياأوكتاف ! ليست ماركو كسائر البنات ، فهى فى عهدة سفير ميلانو وتكاد تكون زوجة له ، وقد جاءت إلى هذه السهرة مع أحد أصحاب السفير ، غير أنى سأكلمها فى شأنك فلا أدعك تموت إلا إذا لم يكن بد من موتك . سأحاول إبقاء ماركو عندنا للعشاء

قال هذا وتوجه إليها فسادنى اضطراب يعجز بيانى عن تحديده ، وما بدأ محادثتهـا حتى غشيا سوية وغابا عن عيانى بين ذرافات المدعوين

وكنت أناجى نفسى قائلا : أيمكن أن يصيب حدسى ؟ أتكون هذه المرأة هى من سأحب ؟ ولكن ما لقلبى ولهذا فأن حواسى وحدها تعمل عملها بمعزل عنه

وكنت أحاول بمثل هذا التفكير أن أهدئ روعى . وما طال انتظارى حتى شعرت بيد ديجنه تلقى على كتفى وهو يقول : سنذهب إلى المائدة ، وعليك أن تشبك ساعدك بساعد ماركو فهى تعرف أنك معجب بها وقد تم الاتفاق ...

فقلت : إسمع ، يا ديجنه ، إن ما أشعر به يفوت إدراكى ، فكأننى فى رؤى أشهد (فولكان) فيها يسحب رجله العرجاء ليطبق على (فينوس) ويشبعها تقبيلا ، ولحيته تعبق بدخان مصنعه وهو يحدج بنظراته الزائغة جسم إلـهة الجمال البض مستغرقا فى التحديق بها وهى كل ما يملك فيحاول أن يبتسم ويتظاهر بالارتعاش مسرة وحبورا ، ولكنه فى الوقت نفسه يتذكر أباه كبير الآلهة (جوبيتير) الجالس على عرشه فى السماء

وحدق ديجنه فى وجهى ولكنه لم يجب بل قبض على يدى وجرنى قائلا :

إننى جد متعب وأشعر بحزن ، فأن هذا الصخب يقتلنى . هيا بنا إلى المائدة نستعيد قوانا

وجلسنا إلى مأدبة جمعت كل ما لذ وطاب ، ولكننى كنت أشاهدها ولا أتمتع بها إذ كانت شفتاى ترتجفان فى انقباضهما ، وسألتنى ماركو عما بى فبقيت شاخصا كالصنم أسرح أبصارى من رأسها إلى قدميها صامتاً ذاهلاً

وما تمالكت ماركو نفسها من الضحك فضحك ديجنه معها من بعيد وهو يرقبنا . وكانت أمامها كأس كبيرة من البلور تنعكس عليهـا الأنوار فتتكسر على أضلاعها لتشع بالسبعة الألوان . ومدت يدها المتراخية فملأت الكأس بخمرة قبرصية فيها حلاوة الشرق ونكهته وقدمتها الى قائلة :

— هذه لك يا بنى

أخذت الكأس ثم أعدتهـا إليها قائلا : بل لك ولى

ورطبت شفتيها من الحباب وأعادتهـا إلى فكرعتها دفعة واحدة وأنا أرسل إليهـا نظرات حزينة فاتتها معانيها

فسألتنى : أرديئة هى ؟

— لا

— أمتعب أنت ؟

— لا .

— أتشكو صداعا ؟

— لا

— ما بك إذا إلا هموم غرام

وظهرت على وجهها علائم الجد ، وكنت أعلم أنها وليدة نابولى لذلك نبضت إيطاليا فى قلبها عندما تفوهت باسم الغرام

وفى هـذه الأثناء كانت الدماء تتصاعد إلى الرؤوس والأقداح تتصادم بين الأنامل وبدأت الخدود تصطبغ بلون الخمر فكأنهـا كانت تبرقع أشد الوجوه اصفرارا كيلا تعلوها من الخجل حمرته . وكانت الضجة تتعالى وتنخفض كأنهـا نبرات أمواج ، والأحداق ترسل لمعانها إلى كل صوب ثم تذهب تائهة . . . فكأن فى القاعة نسمات خفية كانت تخفق فيها كل هذه الأرواح الهائمة فى نشوتها ، وكل روح تتلمس طريقها إلى سواها

وهبت إحدى النساء من مكانها بين الحشد كما تتعالى على صفحة البحر الساكن أول موجة تتنسم العاصفة فتعلو منذرة باقترابهـا . وقفت وأشارت بيدها لينصت الحضور إليها وكرعت كأسها ثم حولت أناملها إلى شعرها تنثر غدائرها الذهبية على كتفيها وعلى صدرها المتهدج بأنفاسه ، فما أسمعتنا سوى نبرتين مختنقتين وامتقع لونها فجأة فتراخت على مقعدها

وقامت قيامة الحاضرين ، فسادهم الهرج والمرج حتى نهاية السمر ، فما كان لأحد أن يتميز شيئاً وقد اختلط الضحك بالغناء والصراخ

وسألنى ديجنه عما أقول فى هذا فأجبته بأننى لا أجد ما أقوله ، فما لى إلا أن أسد أذنى وأسرح أبصارى ...

وبقيت ماركو ساكنة وسط هذه المعمعة فلم تتكلم ولم تشرب بل أسندت رأسها بيدها وتاهت فى أحلامها . وما كان يلوح على وجهها ما يدل على تأثر أو استغراب ؛ فقلت لها :

— أما تريدين أن تفعلى ما يفعلون ؟ لقد سقيتنى خمرة الشرق فهل لك بتذوقها ؟

قلت هذا وملأت كأسها دهاقا فرفعتها ببطء إلى فمها وارتشفتها حتى الثمالة ، وبعد أن أعادت الكأس إلى المائدة عادت إلى استغراقها

وكنت كلما أدمت النظر الى هذه الغادة أزداد استغرابا لحالها، فهى لا تسر لشىء ولا يضايقها شىء ؛ بل تفعل ما يطلب منها ولا تقوم بأية حركة من تلقاء نفسها فذكرتنى بتمثال الراحة الأبدية ؛ فقلت فى نفسى لو نفخت روح فى هذا التمثال لما كان يبدو لنا إلا كماركو ثانية

وكنت أقول لها : أأنت طيبة القلب أم أنت شريرة ... أحزينة أنت أم مرحة ... أيروقك أن تحبى ... أتهوين المال والملذات ... وأى نوع منها تفضلين . . . أسباق الخيل أم الخمر أم الرقص . . . أى شىء يعجبك ... وماذا تحلمين ؟

فما كنت أظفر منها إلا بجواب واحد على جميع هذا ، وهو ابتسامة لا حزن فيها ولا سرور ، كأنها تعنى الاستسلام وعدم المبالاة

وقربت إلى مبسمها شفتى فألقت عليهما قبلة متراخية تشبهها ، ثم رفعت منديلها الى فمها فصرخت بها : ويل لمن سيحبك يا ماركو ...

فألقت إلى بنظرة من مقلتها السوداء ثم رفعتها إلى العلا وأشارت باصبعها بحركة إيطالية لا تقلد ولفظت بتمهل الكلمة الكبرى الخاصـة بنساء بلادها : لقد يكون ...

وقدمت أشكال الحلوى والفاكهة ونهض فريق من المدعوين إلى القاعة يدخنون ويلعبون

وما بقى على المائدة إلا العدد القليل . وكانت بعض النساء تستسلمن للرقص والبعض الآخر للنعاس ، وعادت جوقة الموسيقى إلى العزف وتضاءلت أنوار الشموع فاستبدلت بها سواها ، فتذكرت وليمة (بترون) التى ما كانت تنطفىء المصابيح فيها حول من طرحهم السكر على مقاعدهم حتى يتسلل الخدم إلى المائدة ليسرقوا ما عليها من الأوانى الثمينة

ودام الانشاد يتعالى من أفواه الثلاثة المغنين الانكليز ذوى الوجوه الشاحبة

ودعوت ماركو الى الانصراف فنهضت واستندت إلى ذراعى فشيعنا ديجنه قائلا :

— إلى الغد

وخرجت بها من القاعة وكنت كلما اقتربت إلى منزلها يزداد خفوق فؤادى ويستولى الصمت على لحيرتى فى هذه الغانية التى تترفع عن الشهوة كما تترفع عن الكره ، وما كنت أدرك السر فى ارتجاف يدى وهى تلف هذه المخلوقة الساكنة الجامدة

وبلغنا غرفة ماركو فاذا هى على مثالها قائمة تنتشر الشهوة فى جوها ، وكانت منارة بمصباح من الرخام الناصع البياض يرسل فى جوانبها أشعة منكسرة ، وكانت المقاعد كأنها أسرة وثيرة مشدودة بالحرير على زغب الطيور ، وما دخلت إلى هذا المسكن حتى هبت فى وجهى رائحة عطور تركية أصلية مستوردة من القسطنطينية ، وهى أقوى العطور تهييجاً للأعصاب وأشدها خطراً

وقرعت ماركو جرسا فجاءتها وصيفتها الفتية وسارت وإياها إلى الخدر وما لبثت حتى انطرحت فيه على سريرها وقد أسندت وجهها بيدها متراخية على عادتها

ووقفت أمامها أنعم النظر فيها وكنت كلما أوغلت فى إعجابى وكلما ازداد انجلاء محاسنها لى يستولى على شعور غريب يبدد ما تثير هذه المحاسن من شهواتى

ولعلنى كنت مأخوذاً باستهواء من الاشعاع الخفى فتحكم فى ما فى هذه الغانية من سكون وجمود .

وانطرحت متمثلا بها على المقعد المستطيل قبالة سريرها وتغلغل صقيع الموت فى روحى

إن نبضان الدم فى العروق ليشبه حركة ساعة غريبة لا تسمعك خفقانها إلا فى الليل ؛ ففى طيات الظلام تتوارى مشاغل الانسان حوله فيعود منكمشاً على نفسه ليسمع حركة الحياة فيه

وامتنعت جفونى عن الغمض بالرغم مما تحملت من متاعب نهارى وأحزانه ، وكانت عينا ماركو تحدقان بى فكان كل منا شاخصاً فى الآخر وقد خيم علينا السكون

وقالت : ماذا يشغلك هناك ؟ أفما تريد أن تجىء الى جانبى ؟

فقلت : بلى ... إنك رائعة الجمال يا ماركو ...

وسمعت صوتاً كأنه نبرة أنين ، وكان ذلك صوت انقطاع وتر من قيثارة ماركو . وأدرت وجهى نحو مصدر هذه الأنة ، فرأيت أوائل أشعة الفجر تلوح بنورها الباهت ستائر النوافذ

نهضت فأزحت إحدى الستائر فانتشر الضياء فى جوانب الغرفة ووقفت لحظة أنظر إلى السماء فاذا هى مجلوة صافية الأديم

وكررت ماركو دعوتها إلى ، فأشرت إليها بأن تنتظر

وكانت هذه الغادة اختارت لسكناها هذا الحى البعيد عن مركز المدينة احتراساً ؛ وكان لها منزل آخر تستقبل فيه أصدقاء عشيقها . ولعل الغرفة التى كنا فيها ليست سوى موضع خلوة ، فقد كانت تشرف على حديقة اللوكسنبور التى رأيتها منبسطة أمامى

وكنت أشعر في قرارة نفسي بقوة أغالبها فلا أستطيع التحكم فيها فكأنني منها كالقابض على قطعة من الفلين يريد إغراقها في الماء فتتململ بين أصابعه وتأبى طبيعتها إلا الانفلات إلى سطحه، ولكنني عندما مددت بأنظاري إلى مسارح الحديقة انتفض قلبي بين جنبي فهب التذكار بي يبدد كل فكرة تراودني. لكم هربت من المدرسة وأنا صغير لألجأ إلى ظلال هذه الأشجار حيث كنت أنطرح وبيدي كتاب من جامحات الأشعار، وتلك كانت جميع ضلالات صباي وا آسفاه . . .

وتنبهت ذكرياتي البعيدة تشارفني من الأشجار الباسقة العارية من أوراقها وتتطلع إليّ من خلال الأعشاب الذابلة تحت ظلالها. إلى هنا أتيت مرة للتنزه مع أخي ومعلمي وكنت في العاشرة من عمري، فكنا نرمي بقطع الخبز إلى ذرافات الطيور الجائعة. وهنا جلست مرة منزوياً أتفرج على رهط من الفتيات يرقصن فيرقص قلبي لنغماتهن: نغمات نشيد الأطفال؛ وهنا أيضاً مررت ألف مرة على الطريق ذاتها في رجوعي من المدرسة، وأنا أقذف الحصى برجلي، وأطارد بذهني بيتاً من قصائد فرجيل

شخصت ملياً أمام هذه المشاهد فهتفت:

— هذه أنت ياطفولتي، وها أنت هنا يا إلهي

وأدرت طرفي إلى الغرفة فاذا ماركو نائمة وقد انطفأ المصباح؛ وكان ضوء النهار قد بدل منظر الغرفة تبديلا، فظهر لون الورق الملصق على الجدران، وكنت حسبته في الليل مستعيراً زرقة الآفاق، بلون الأوراق الخضراء وقد أحالها الذبول، ورأيت ماركو، التمثال الرائع، منطرحة على سريرها ووجهها ممتقع كوجه الأموات

وملكتني رعشة لم أقو على امتلاكها فكنت أنظر تارة إلى السرير وطوراً إلى الحديقة فأشعر بثقل هائل يخفض رأسي المتعب

وتقدمت بضعة خطوات إلى مكتب كان مفتوحاً قرب نافذة أخرى فجلست مسنداً ساعديّ إليه، والتفت بلا قصد أحدق برسالة تُركت مفتوحة عليه، وهي لا تتضمن إلا كلمات قليلة، فقرأتها مراراً دون أن أفهم معناها حتى انجلت تدريجاً، فذعرت منها فجأة، وأخذت الورقة بيدي أقرأها، فاذا هي مشحونة بأغلاط الاملاء. وقد ورد فيها:

(لقد ماتت أمس عند الساعة الحادية عشرة ليلا. شعرت بانقباض فدعتني وقالت لي: لويزون أنا ذاهبة للقاء رفيق. افتحي الخزانة وخذي منها الغطاء الملق بمسمار فانه كذلك الغطاء ...)

جثوت باكية أمامها فمددت إلى يدها صارخة: لا تبكي ... لا تبكي ... ثم أرسلت زفرة ...)

وكان باقي الصفحة ممزقاً

يصعب على بيان ما فعلت بي هذه الأسطر الفاجعة. قلبت الرسالة بيدي فاذا على ظهرها عنوان ماركو وتاريخ اليوم المنصرم فصرخت: — لقد ماتت ... ومن هي التي ماتت؟

وتقدمت نحو السرير منادياً: من هي التي ماتت . . .

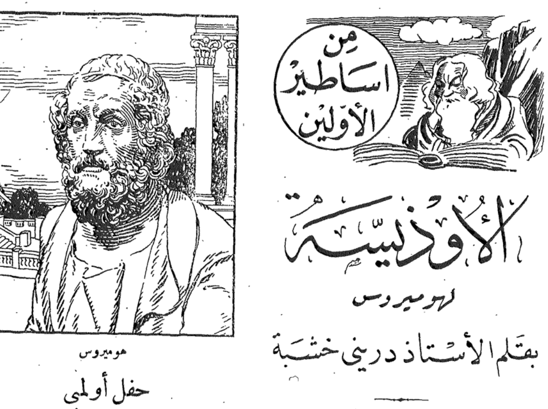
وفتحت ماركو عينيها فرأتني مستنداً إلى سريرها والرسالة في يدي فقالت:

— هي أمي ... أفما تريد أن تأتي إلى جنبي ...

ومدت ذراعيها نحوي. فقلت لها: — اسكني ... نامي ودعيني هنا. فانقلبت على جنبها لتستغرق في نومها ثانية

وشخصت إليها حتى تأكدت أنها لن تسمع حركتي وتراجعت رويداً وانسحبت من المكان

(يتبع) فليكس فارس



هوميروس

خلاصة الفصول السابقة

« لم يعد أوديسيوس البطل اليونانى الكبير من طروادة بعد أن وضعت الحرب أوزارها بل ظل يضرب فى البحار عدة سنوات مما أطمع أمراء النواحى فى زوجته الجميلة ، فحاصروا بيتها وأتلفوا ثروتها وتربصوا لولدها تليماك ليقتلوه ! وهو عائد من أسپرطة وپيلوس بعد أن لقى ملكيهما ، وحدثه أحدهما عن مصير أبيه ... أما أوديسيوس فقد غرقت سفنه ، ونجا هو من الموت ، وسبح إلى جزيرة إحدى عرائس الماء (كليپسو) التى هويته وشغفها حبه فأبقته لديها زمناً طويلا حتى أمرها زيوس كبير الآلهة باطلاق سراحه ومنحه سفينة يعود فوقها إلى بلده ؛ وقد أبحر على رمث صغير ظل البحر يلعب به حتى إذا بلغ أرض شيرا غرق الرمث وسبح أوديسوس إلى الشاطىء ، وفى الصباح لقى ابنة ملك الفياشيين فى جماعة من أترابها يتلاعبن فوق الشاطىء ، فسألها أن تمنحه دثاراً يستر به عورته ؛ ورقت له الفتاة ، فأكرمت مثواه ودلته على بيت أبيها الملك الذى هش له وبش ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته إذ لم يكن ثمة حائل دون ذلك ؛ وأرجأ النظر فى عودته إلى بلاده إلى الصباح ... »

حفل أولمبى

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطىء حيث تُلاقى السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجرى أملس ، جلسا يتحدثان ؛ بينما كانت مينرڤا تدق البشائر فى شوارع المدينة ، وقد بدت فى صورة منادى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس الملك ، للنظر فى أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذى حل عليه ضيفاً ... « كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل فى عرض البحار »

وازدحم سادات المدينة وأشياخها فى قاعة المجلس ، وكانوا يُقلِّبون فى أوديسيوس نظرات الاعجاب والدَّهَش ، وكيف لا ؟ وهذى مينرڤا قد أضْفَت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رُواءً عُلوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبةً فى قلوب الفياشيين

ولما انتظم عقد القوم نهض أليكنوس الملك ، فقال : يا سادة الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى بيتى بعد أن شرّق فى آفاق العالم وغرّب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كنفكم سالماً ، إذْ طالما كان هذا دأبكم ، إكرام الضيف ، والاحسان إلى الغرباء اللاجئين ، وردهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمنين . . . فالبدار إذن . . . هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالاً ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ؛ ولتعدوا لها نخبةً ذوى بأس من أصلب فتيانكم عوداً وأشدهم مراسا ... إثنين وخمسين عدداً من أينع زهرات شباب هذه الأمة . . . ثم تعالوا إلىّ فانى مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبداً . . . وليحضر معكم أحب المنشدين دمودوكوس الالآهى ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت السماوى الساحر ، فليشنف آذاننا بحلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو ... »

وانصرف الملك فى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الالآهى ... واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين ، وأُعدت السفينة فى مكانها الأمين من اليم ، فنُصبت القلاع ونشر الشراع وصُفت المجاديف ... ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تكظ الأبهاء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى ... وجىء بالذبائح . . فهذان ثوران كبيران ذوا خوار . . . وهذى اثنتا عشرة شاةً سمينة ، وتلك أربعة خنازير كِنازٍ[1] ما كادت تذبح وتنتزع أثوابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب . . . ثم أقبل منادى الملك يقود المنشد الألهى الأعمى ، رخيم الصوت ، صفى ربات الفنون ، اللائى عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبته التطريب المعجز ، وسلبته النور من عينيه العزيزتين . . . وأقيم له عرش مُمَرَّد فى وسط الصالة الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعلمه بونتونوس بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزّة[1]

وما كادوا يفرغون من آكالهم حتى رقصت عرائس الفنون فى فم المنشد المطرب ، فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة فى قبة السماء . . . لقد تغنى هذه الأغنية التى تنظم النزاع الذى شجر بين (أخيل) بن بليوس ، وبين أوديسيوس بن ليرلتيس أثناء الوليمة الالهية ، والذى جاءت به نبوءة أبوللو (فى دلفوس) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم سقوط طروادة فى أيدى اليونانيين

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم فى ذيل ثوبه الأرجوانى الفضفاض خشية أن يلحظه أحد . . . وطفق يبكى . . . ويستخرط فى البكاء ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمر صلاة للآلهة ... ثم عاد إلى بكائه حينما وصل المطرب غناءه ، وكان يرسل عبراته فى كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من ألكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته ، فقال : « حسبنا يا سادة ما طعمنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا ليذكر فى العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يثب ،

(١) كناز جمع مفرده مثله كثيرة اللحم والشحم

(١) خمر لذيذ الطعم

وأمهر الناس فى اللكم والمصارعة ! »

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليانع من ذوى القوة والفتوة والبأس الشديد ، أتوا من كل حدب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيال وإلاتريوس ونوت وبرمنيوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنابيسين وإرتميوس وبونت وبرور وأمفيال وتون . . . ثم نهض حليف مارس المهوب يوريالوس ، ثم نفر شباب الفياشيين نوبوليد . . . وقف كل هؤلاء . . . ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء فى سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب فى أثر كليتون — ابن الملك — الذى شآهم[(١)] جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال . . . وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى برّز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برّز أمفيال فى الوثب الطويل ، وألاتريوس فى قذف القرص ... أما فى الملاكمة فقد تفوق لوداماس النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ، ثم نهض لوداماس فقال :

« والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ ! إنه ما يزال غريض الشباب ، بادى الفتوة ، مكتنز العضلات ، عظيم مُنَّةِ الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين ، وإن له لعنقاً أى عنق ... كل ذلك برغم بدّوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من أجبال العباب ؟ ! »

وكأنما راقت هذه الكلمات البطل يوريالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانيةً وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ إنه ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه ... هلم ؟ حاول إذن ! فيم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخرك قط ، فالسفينة معدة والملاحون على أهبة »

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتتخذنى هُزُواً حين تدعونى للعب يالوداماس ؟ ! أى لهو وأى لعب وأنا نضو أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس ! »

وهبّ يوريالوس يصِدُّ[(١)] ويقول : « كلا أيها الصديق ... إنى عزيرك ، فسيماك لا تنبىء عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن . . . أو . . . إن لم يخب حدسى . . . من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عيَّاراً أو قرصاناً ! ! »

وعبس أوديسيوس وبَسرَ ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : « إنك لم تُحْسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تطلق فىّ لسانك بهجر القول كأننى رجل لا اعتبار لى ... على أن الآلهة — جلّت وعلت —

(١) سبقهم (هامش القاموس)

(١) يجهر بالقول

لم يتفق أن منحت أحداً من العالمين كل آلائها فى وقت معا .. بسطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان ... فقد يلوح لك هذا الرجل مُهدّماً محطماً فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً ولساناً مبيناً حتى ليخلب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع فى نفوسهم إلى مصاف الآلهة . . . وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق فى عضلاته قوى السماء ، وهو لا يحسن أن يقول كلمة ... مثلك ... مثلك تماماً ... فلقد أوتيت بسطة فى الجسم ، حتى لتوشك فى ذلك أن تكون مثالاً تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن تخلق مارداً جباراً . ولكنك — وا أسفاه ! — لم تؤت بياناً ولا حكمة ! فلقد أثرت ثائرى بكلماتك الفلاظ . . المجاف ! إنى — أيها السيد — كما ذكرت — لا أحسن من هذه الألعاب قليلاً ولا كثيراً ... ولكنى كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعاً غض الاهاب ريان الشباب ... أما أنا الآن ! فوا أسفاه !! إن حدثان الزمان لم يُبق منى ... ولا على ! لقد ذبل شبابى فى نقع الحروب وسوح الوغى ... وفى هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج ... كالجبال ... بيد أننى ... على الرغم مما ينقض ظهرى من ويلات ، سأثبت فى سجل شجاعاتكم قوتى ! فان لما هرفت به من قول السوء لأنياباً تمضنى وتنهشنى . . . أو أدل على قوتى وجبروتى . . . »

وكان إلى جانبه قرص القذف الذى يستعمله أبطال الفياشيين فى مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان لها هزيم وقصف ، واستهولها نظارة الفياشيين الشجعان فخفضوا رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم ... وهنا بدت مينرفا بين الملأ فى صورة أحدهم ، وهبت عجلانة تقيس مدى القذفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانك الدامغ القوى ! إنه مدى لا يستطيعه أحد غيرك ، فتِه على هؤلاء الفياشيين ! إن منهم من لا يستطيع أن يباريك فى أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس »

وشاعت الكبرياء فى نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشيين يطريه ويثنى عليه وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه :

« هلموا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة ، أقذفْ أبعد منها وبقرص أكبر وزناً !! هلموا !! ليأت أقوى ملاكميكم فانى له ! وليقف أضرى مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر مى أسرع عدّائيكم فلن يلحق غبارى ! لقد هجتم ثائرى فهلموا ! إنى أتحدا كم جميعاً إلا لوداماس فانه مضيفى وصاحب قِراى ، وليس بى أن أنازل من أكرم مثواى فى دار غربتى ؛ وليس بى من النزق ما يحمانى على شىء من ذلك ... أما غيره فأنا له ، وسيعلم منازلى مهما يكن مبلغ قواى ... إنه ليس من ألعاب الناس ما يعجزنى ... فأنا رب القوس ، وطالما صرعت الألوف من الأعداء تحت أسوار طروادة ، وأبدا ما رمى أحدسهما كما رميت إلا فيلكتيتس يوم حاز قصب سَبْقِها دونى . . . على أنه من أنا ؟ ؟ إننى لم أبلغ من الحول بعض ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبولو مهارته فى الرماية فقتله ... هذا ... وإذا ذكر الرمح السمهرى ، فانى أبلغ به المدى الذى لا تبلغه سهامكم !! على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم — فلقد قاسيت من الأرزاء ما قصم ظهرى ، وصارعت

موج هذا الخضم حتى حطمني وأوهاني ، ولقيت من الطوى ما برانى ! ! »

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « عمرك الله أيهذا النازح الكريم لقد جلجلت في آذاننا كلماتك ، فدلت على شجاعة وعنفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذي جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكت عن تحديك .. ولكن تعال فانظر إلى ما نريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفتون الغناء والسبق في العدو ، ومهارتنا حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورغاء الثبج ، كيما تتحدث بهذا كله إلى أقرانك وبين ظهراني قومك ، وتحكيه لأطفالك . عمرك الله أيها الغريب المكرم إنه لا فخر لنا في ميدان اللكم والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثوب موشّى ، وطعام ملوّن ، وقيثار مرنّة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافئ وفراش وثير ...... والآن ... هلموا أيها الفياشيون فالهوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أذنيه بغنائكم ، فلسوف يتحدث بكل ذلك في الآفاق ، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من ركب البحار ! ... هلموا ... ليحضر أحدكم دمودوكوس الالهي ... يعزف على قيثاره ويتلاعب بقلوبنا بغنائه ... ابحثوا عنه في بعض ردهات القصر ... »

وانطلق منادي الملك يبحث عن المطرب الالهي ، وانطلق آخر يعد قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل يمهدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة ، ويزحزحون الجماهير ... وأقبل المنادي والمطرب يسعى بين يديه ، وجلس في وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يميسون ويرقصون بسيقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس وشدة تعجبه ، والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى العالية ... وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنى أسطورة مارس ومعشوقته الآثمة سيتريا[1] إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول الكلام ومطاول الغرام فاستلانت له ... وكان أبوللو — إله الشمس — يرقبهما من مركبته الذهبية في علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشئومة إلى الزوج التاعس ... ڤلكان ... الذي استطير وثار ثائره ، فراح يصنع أنشوطة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذي لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألمّ بالمنمرج النجس حيث أوى مارس إلى ڤينوس — الزوجة الآثمة — وكان مارس يغالب في عينيه أخريات غفوة الضحى ، فلمح ڤلكان يطوي الرحب إلى أرض لمنوس — أحب المدائن إلى قلب الاله الحداد ... وطرب مارس أيما طرب ... وأيقظ معشوقته قائلا : « هلمي ڤينوس ... إنهضي أيتها الحبيبة ... لقد ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة ... هلمي إلى البيت ... إلى السرير الدافئ ... إلى الحب ... إلى نعيم الهوى ! ! » وهبت ڤينوس ... وانطلق الأثيمان إلى سرير ڤلكان ، وفي قلب مارس غلة ، وملء جوانحه غواية وإثم ... وفي دمه شبق إلى هذه الفاكهة يكاد يقتله ... ولكن ... وا أسفاه ! إنهما ما كادا ينطرحان فوق الفراش الوثير حتى انطرحت فوقهما الأنشوطة الهائلة ... وأمسكت بهما إمساكا شديداً ... لم يجدا منه حِوَلا ، ولم يجدا منه مَخلصاً ... وكان أبوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث ڤلكان بما رأى .. فعاد الاله الحداد

---

(١) ڤينوس

على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطئان لمنوسى بعد . . .
وكان قلبه يدق ... لا ... بل كان قلبه يكاد ينخلع
فوقف فى البهو الـكبير ثم أرسل صيحة مدوّية
يستصرخ بها الآلهة : « يا چوف العظيم ! يا آلهة
الخلود جميعاً ! أنظروا ! إشهدوا كيف تفضح
ڤينوس زوجها مع عشيقها الفاجر مارس ! ولِمَه ؟
لأنه وسيم قسيم قوى ولأننى محطم منهوك موهون !
ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلونى وجاؤا بى إلى
الحياة ! أنظروا كيف يتمرغ الشهوانيون الفسّاق
فوق فراشى ! لقد تشاجت مشاعرهم فهم لا يبالون
أن يأكلنى الغيظ أو يقتلنى الحنق ... ولـكن لا ..
حسبهم هـذا الشرك الذى لن يفلهم حتى يرى
چوف فيهم رأيه . . چوف الـكبير المتعالى . . والد
ڤينوس ! الذى أطلب إليه أن يرد إلى قناطير الهدايا
الزوجية التى قدمتها باسم ابنته العاهرة كشروط
لاطلاق سراحها ! »

ولم يكد يفرغ من صرختـه حتى اجتمع فى
بيت چوف ذى الأرض النحاسية جميع الآلهة . . .
وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه
هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أپوللو . . .
ثم غيرهم وغيرهم . . . ولم يحضر من ربات الأولمب
واحدة ! فقـد احتجزهن الخجل عن شهود
هـــذه الفضيحة ! ثم أظل الآلهة يقهقهون
ويضحكون . . . ويتلهون بهذا المنظر العجيب ،
ويقول بعضهم لبعض : « يا للاثم ساق إلى
أوخم العواقب ! ويا للأعرج الأكسح ، يشأى[1]
السبّاق الجلى ! ! لقد استطاع ڤلـكان أن يمسك
بتلابيب مارس ، الذى هو من هو ... ! مارس !
أسرع عدائى السماء ! إن عليه أن يؤدى الغرامة
الفادحة للإله الأعرج ... » ... ثم خاطب أپوللو
— رب الشعاع الوضاء — هرمز فقال : « يا ابن
چوف ، يا رسول السماء ، ألك فى هذه الغفوة الحلوة
فى حضن ڤينوس ، على أن تقع معها فى هذا الشرك ؟ »
وأجابه هرمز عابسا : « يا رب الرماة ! بنفسى
بنفسى ! ! منذا الذى يأبى حضن ڤينوس فى شرك
هو ثلاثة أضعاف هذا الشرك ، على أن يرمقه سكان
الأرض والسماء ؟ ! » ؛ وتضاحك سكان السماء ،
ولـكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب ڤلـكان
فقال : « هلم ڤلـكان ففك هذه السلاسل والأغلال ،
وإنى زعيم لك كفيل أنه مؤد إليك كل ما تفرض
عليه من غرم ! » ... ورفض ڤلـكان أن يطلق
فريسته ... « لأنه من يضمن ألا ينطلق مارس
وهو لا يلوى على شىء ، غير عابىء بكل ما عساه
أن يعد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك
يا ڤلـكان ، فوعزتى وجلالى لئن لم يف مارس
لأنجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته ! ! » . فأجاب
رب الحديد الصناع : « إذن ، فلن يخيب رجاؤك ،
ولن يرد طلبك : » وتقدم ففك الأغلال عن
العاشقين الفاسـقين ، وانطلق مارس إلى مأواه
بأرض تراقية ، وانطلقت ڤينوس إلى مرتعها الجميل
بأرض بافيا — حيث تلقاها ربرب من أترابها
بالبشر والترحاب ، فغسلنها ، وضمخنها بالطيوب
القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبى وأردية الشباب

***

وفرغ دمودوكوس من إنشاده بين تأثر
أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أومأ
الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا
يرقصون فى خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع
پوليب ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من

(١) يسابقه فيسبقه

السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق فى الهواء ، ثم يتقاذفونها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد . وسر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه وقال : « يا زعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! حرى بنا أن نكرم مثوى هـذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشىء الكثير ... هلموا إذن ... إنكم إثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم بدرة من الذهب وصداراً مُفَوَّفا فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر مما فاه به . » ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدَر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفا جُرازاً له مقبض من فضة ، وقراب مطعم بالعاج ؛ ؛ ودعا له أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية . ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى داخل القصر ، ووصلت الهدايا الأخر مع غروب الشمس فنهض أبناء الملك يتسلمونها ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك فتوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً وأكسية ، وأن تمد صندوقا يتسع لهدايا الزعماء ، ملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخالص ، المحلى بأبهج الطرف وأبهى التصاوير ... « ليذكرنى به ، كلما أفرغ منه الخمر تقدمة للآلهة » . وسألها أن تمد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تدع الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها

وأمرت الملكة خدمها فأعددن الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضا فوضعت فيه بدَرَ الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفتت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغلق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمنا عليه إذا غفوت فى السفينة . » ولبى أوديسيوس ، وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيدا . ثم دعته ربة البيت إلى حمامه ؛ ولله كم ألقت عيناه حين رأى الثوب الديباجى المظلم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كليبسو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمب ... وبينا هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذوغنة يهتف به ... وإذا هى الأميرة الفينانة — نوزيكا — واقفة خلف عمود عظيم وهى تقول : « س . س ..... أيها الغريب النازح اذكرنى دائما ، أنا ، أول من لقيك هنا !! » وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا !! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك ألكينوس ؟ ! لك الله ! ألا وحق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالما إلى بلادى لظللت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى ! » .

وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الالـهى ، نفرشيرا ، قريبا من العرش ، وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حمله أحد الندُل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى ؛ ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يا دمودوكوس ، بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى ! هل

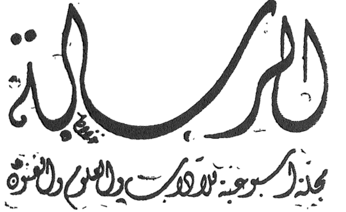
ثقفت موسيقاك على عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبوللو نفسه ! لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد عيان ، أو كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد لعمرك ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه إيبوس بارشاد مينرڤا ، والذى حمله أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم اختبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول خراب اليوم ! ! تغن ! إنى سوف أحمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لا يباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبوللو ! تقدس اسمه »

وتنزل أبوللو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية مذ حرق اليونانيون معسكرهم وبعد إقلاعهم من شطئان إليوم وذاك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين عن الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكارا لهـذه الحرب ونصيباً للآلهـة ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى القوة من أبطال الأغريق ... وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم ... تغنى الشاعر المتفنن بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنالايوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل پاللا — مينرڤا — ربة الحكمة . وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعـه تنحدر غزيرة على خـديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقا ... كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقفت فوق جثمان زوجها الباسـل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبناؤها خُضر يتامى كأفراخ القطا . . . ثم يقبل الأعداء فيخمدون أنفاس هـذه الأم بضربة لازبة ، فتظر مرة إلى زوجها القتيـل ، ومرتين إلى أبنائها التاعسين !! كذلك كان أوديسيوس وكذلك كان يخفى دموعـه فى طرف ردائه فلا يراها أحد إلا الـكينوس الملك الجالس قريبا منه ... وقال الملك متحدثا إلى رعاياه : « أيها الزعمـاء والأشياخ الفياشيون ، أولى ثم أولى أن يفرغ المنشد من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفكم ووهنت روحه مما يسمع من هذا القصص الحزين ! لقد أحببناه كأخ ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى ... والآن ! هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كتم هـذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسما ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون — رب البحار — الأمن فى ذلك اليم وذلل لنا غواشيه ، ولـكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغرابا مثلك لانعرفهم فنبحر بهم إلى بلادهم !! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سـفننا تشفيا وانتقاما حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ، فتهوى إلى الأعماق ثم يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، فيَبتلَ شيريا ! تـكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما سمعت عن جنود الآخيين وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طروادة ؟ إن الآلهة تحيك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ! أقتل أبوك ثمة ؟ أم صرع أخوك تحت أسوارها ؟ أم قضى حموك فى ساحاتها ؟ أم أودى أصدقاء لك أحباء فى حلبتها ، كنت تعـدهم كبعض أهلك ، أو أعز من أهلك ؟ تكلم ! »

(يتبع) دريني خشبة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر





مجلة الاداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد فى الآداب العربية

الرسالة : تحيى فى النشء أساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلى ستون قرشاً، والخارجى ما يساوى جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪

طبعت بالمطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش رقم ٣٥ — تليفون ٥١٥٢٢

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد الحادي عشر ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ — ١ يوليه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد

عذراء حلب

للأستاذ فيلكس فارس

منذ ٢٧ سنة كنت أتصفح تاريخ العرب ، فخطر لى أن أنشىء منه أقاصيص أضمنها الوقائع بأمانة المؤرخ وأنسج بردتها بخيال الشاعر ، وما كان فى ذلك العهد من يهتم للأقصوصة فيما أذكر لا ترجمة ولا تأليفاً . كتبت هذه الأقصوصة ونشرتها فى جريدتى التى كانت تصدر باسم (لسان الاتحاد) سنة ١٩١٠ فى بيروت ، وأردت متابعة التأليف فاجتاحت قلمى عواصف السياسة ترده من الماضى إلى الحاضر . ومرت السنون فاذا أنا أرى هذه الأقصوصة بين مئات الصفحات التى أملتها السياسات الحوالة كحجر كريم يلتمع على أكوام من الرماد .

فليكس فارس

ولما فتح بيت المقدس أبوابه لعمر بن الخطاب ، وقف هذا الخليفة العظيم على أطلال مملكة الرومان وآثار الملك الخالد الذى وضع آساسه رجل ليس من هذا العالم ، وقف الخليفة حزيناً على تلك الأرض المقدسة التى دنّسها الرخاء وتحولت فيها أشرف المبادىء إلى طقوس وأوهام ، فلم يملك النفس أن يحدج البطريرك سفرونيوس بنظرة ما أكثر من يستحقها من كاهن وشيخ فى هذه الأيام

وكان الحجر الذى ألقى يعقوب رأسه عليه ليحلم حلمه المشهور مغطى بالأقذار ، فأمر الخليفة أتباعه بتطهير ذلك المكان حيث بنى الجامع الفخم ، ثم دعا إليه أبا عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وخولهما السيادة على سورية وفلسطين ، فكانت بلاد قيصرية فيلبس نصيب يزيد ، وسورية على رحبها نصيب أبى عبيدة . ففتحت فلسطين أبوابها ليزيد ، وكانت قرية رام الله أول من أبرم عهداً مع الفاتح ، ولكنه وقف عند أبواب قيصرية لمناعتها ، وتحول عنها راجعاً إلى أبى عبيدة فانضم الجيشان العربيان ودفعا قوتيهما إلى سهول سورية ووجهتهما حلب

***

وكان يوم من أيام الربيع والنسيم البليل يهبّ على جنائن حلب المطوقة المدينة تحسبها عقوداً على نحر حسناء . هنالك ، فى تلك المدينة التى تنصب الخيرات إليها من جهاتها الأربع : مصر وطرابزون وبغداد وأرضروم ، كان شعب كبير من بقايا مملكة الدنيا ، مملكة الرومان الخالدين بقوتهم وضعفهم وضلالهم ورخائهم

وكانت حلب ، بعدائنها المديدة منفرطة على سهولها الخصبة الخضراء كالثريا بنجومها المبددة على صفحة الأطلس الأعلى . وفى وسطها المدينة الكبرى حاملة قلعتها كالتاج على مفرق بهائها وسلطانها . . .

نحن الآن أمام هذه المدينة الزاهرة فى أواخر حكم اليونان على مدخل عصر جديد وحياة جديدة ، فى الأسواق حركة التجارة وحياة الأمم ، وفى الدور والجنائن مجالى اللهو والفحشاء : قبور الشعوب . . .

***

وكانت غادة من بنات اليونان السوريين جالسة إلى نافذة تطلّ على المروج فى أطراف المدينة وقد

أرخت شعرها على كتفيها وأسندت وجهها الأبيض الناصع إلى يدها وأناملها تتحرك باهتزاز عصبي ، وعيناها شاخصتان تارة إلى السماء وتارة إلى أسوار القلعة الراسية فوق المرتفع كبرج حصين يهدد الآفاق ويهزأ بما انبسط تحته من سهول ...

ومالت الشمس إلى الغرب ، ورنت أجراس المعابد من جوانب المدينة فانتبهت الفتاة ورسمت على وجهها وصدرها رسم الصليب ، وهي معلقة أبصارها على الطريق المتوارية في السهول البعيدة

ولاح بين الجنائن شبح تقدم مسرعا حتى كان أمام النافذة فوقف هناك راسماً حلقة في الهواء ثم اختفى وراء أشجار الفستق الغضة .

وأرسلت الشمس قبلتها الأخيرة على أحجار القلعة وتوارت وراء الجبال السحيقة

مرت الساعة الأولى من الليل وساد الظلام

وكانت الحديقة المحاذية لبيت غادة حلب قد أقفرت وأغلق بابها الحديدي

وكأن الأشجار قد شعرت بانطفاء عيون الرقباء فمالت مع النسمات تتعانق أغصانها فتتمازج أوراقها بحفيف كأنه ارتخاء الشعور على النحور ...

وظهرت فتاة تحت جنح الليل ملفعة بدثار من أجمل ما نسجت أنوال حلب اليونانيـة ، وقفت الفتاة أمام المدخل الحديدي وشخصت إلى أعلى رتاجه ، وما عتمت أن انقض من أعلى السور إلى الحديقة رجل ملتف بعباءة وعلى رأسه كوفية سوداء وعلى جنبه يماني محدوب ؛ انحدر كما ينحدر الطير من الهواء منقضاً على غصن ، أو كفراش الربيع تسكره الزهرة بعبيرها فتجذبه إليها ...

— هيلانة !

— دامس !

ووقف البطل العربي مرتجفاً كأنه ماثل أمام اللات والعزى ، يعبد في جمال الفتاة أصنام أجداده ، وضع يمينه على قلبه ، وشماله لم تزل قابضة على مقبض سيفه ، وقال متكلما باليونانية ولهجة الضاد بادية في كل مقطع من مقاطع كلماته :

— إذا كان هذا القلب لا يكفيك من الدنيا ، فخير لي أن أعود إلى الصحراء وأموت . لماذا لا تتبعين من جاء ليقدم إليك حياته ويحملك إلى بلاد الحب

وكان دامس قد جثا أمام هيلانة وهي تنظر إليه ملياً ثم تلتفت إلى ما حولها ، والدمع يجول في عينيها ؛ وبعد سكوت عميق وضعت الفتاة يدها على كتف البطل العربي وقالت :

— أحبك يا دامس ، ولكنني أحب بلادي . إن التي تولد في رياض حلب لا تقدر أن تعيش في لوافح الصحراء . ولولا أنني آملة احتلال جيوشكم هذه البلاد لكنت أبارحها معك لأموت بين ذراعيك حيث تشاء ، ولكن لا تنس يا دامس أن أبطال عمر واقفون على مقربة منا ، وأنني أنتظر مع أهلي وأبناء هذه البلاد الجميلة نهاية استبداد خلفاء هرقل لينهض هذا الشعب البائس من شقائه بعد أن طال استعباده لكبرياء أسياده . لقد استحالت الشرائع السامية التي سادت أجدادنا إلى قذارة عند قاعدة عروش الظالمين الذين لا يعرفون غير شريعة القساوة والاغتصاب . ألا تذكره يا دامس ، ذلك الشاب الزاهد المتشح بالسواد الذي رأيته يتمشى أمام هذه الحديقة في أول يوم رأيتك فيه ؟

— إنني أذكر ذلك

وارتمش دامس كأن فى هـذه الذكرى ناراً لاسعة ، فابتسمت الفتاة بمرارة وقالت :

— أجل هى شرارة الغيرة ، يا ابن الصحراء ! هذه لماتها فى أحداقك . لا تنكر . أتظن أننى أحببته ؟ أف لهذا المرض الهائل الذى لا تعرفه بنات اليونان فى رجالهن !

رفع دامس بصره إلى السماء وقد خرج من فمه أنين عميق كأنه زئير ليث جريح وقال :

— إن لم يكن فينا نحن العرب من داء غير هذا الداء لـكفانا دلالة على ما فينا من أنفة وشمم . هى معزة النفس تتألم . هو الدم يحترق بحرارة الصيانة والشرف . هو المجد الأثيل ذلك الداء . أو تسمينه داء يا ابنة المجد المتداعى التى لا ترى حولها غير رجال استحجرت قلوبهم وجمد دمهم فى عروقهم المتراخية ! إن الغيرة ليست واحـدة فى قلوب الرجال يا هيلانة ، فمنهم من يغار لأنه تعود الانغماس فى الشهوات فهو لا يرى إلا الشر حيثما أدار بصره ؛ ومنهم من يغار عن صيانة فى النفس ورقة فى القلب ، وما أنا ممن يفترون بما يشعرون . أريدك سامية كما يصورك خيالى العربى فى دماغى الملتهب . أريدك واثقـة من حبى الى درجة إظهار نفسك أمامى كما هى ؛ ولعلك لا تدركين ما أرجوه منك . لقد لمحت منك نظرة ألقيتها على ذلك الزاهد ولم تزل تلك النظرة مستقرة كالسهم فى قلبى ، وأراك تعمدين إلى التمويه كلما أردت سبر سرك . ونحن معشر العرب لم نتعود الـكذب . قولى لى إنك كنت أحببت ذلك الزاهد فلا أحنق ولا أثور ، ولـكن الشك فى صدقك وإخلاصك يقضى على . لقد أبت نفسنا أن تلتصق بالـكاذبين ونحن نحملها تحت البنود إلى الفتح المبين ...

وكان الحماس قد بلغ أشـده فى دامس وهو يتكلم فارتفعت كوفيته عن جبينه واسترخى عقاله فلاح جبينه الأسمر مكللا بقطرات العرق ، وكانت عيناه ترميان شرراً ؛ وذعرت الفتاة من هذا المشهد فأصبحت مخلوبة أمام حبيبها تنـدفع الى الاقرار فيصدها ما تراه من حماسة ، كان دامس يطالب الحب فى الحق وهى تحاذر أن يقضى ذلك الحق على حبه

شعرت هيلانة بحرب تستعر فى قلبها بين ماضيها وحاضرها ، فأحنت رأسها بتعب كما تنحنى الزهرة أمام عاصفة هوجاء ، فقالت فى نفسها : « إنه وهو فى شكه يكاد يجن ، فما يكون حاله لو عرف الحقيقة يا ترى ؟ » إن الحاضر له ومستقبلى بين يديه ؛ أما المـاضى فهو لى ، لى وحدى أحتفظ بأسراره وليس لغير الله أن يسبر أغواره

على أن صوتاً خفياً كأنه الأنين كان يرتفع من ضمير الفتاة هاتفا :

« إن من خدع فى الحب فقد كفر بقلبه وقضى على عواطفه ، إن المحبة المستقرة على الخفايا والأسرار ليست محبة كما أن الله إذا جهل الوجود لا يكون إلـها »

— ولـكن مدنية ذلك الزمان لم تكن تؤهل أبناءها لسماع مثـل هذا الصوت الخفى ، لذلك انتفضت هيلانة كأنها تستفيق من حلم عميق وقالت :

— لقـد رجوتك مرارا يا دامس ألا تعود إلى مثل هذا الـكلام . حلفت لك وأكرر أمامك القسم بأنى ما أحببت سواك فاكتف

— أمام قسـمك أكذب نفسى وعيـانى يا هيلانة ، وأنا أقسم لك بأنى لن أحول عن نيلك مادام فىّ دم وحياة ، ولو كلفنى فتح حلب هلاكى ، فمـا أنا راجع عن أمانى ولو اضطررت إلى تسلق جدران القلعة وحدى

— اسمع يا دامس ، لقد قطعت على الكلام بلواسع غيرتك الجنونية ، فلم تصبر ريثما أقص عليك ما تعلم . ذكرتك بالزاهد لا لأثير حنقك ، بل لأقول لك إنه مات مقتولاً بسيف أخيه فى ساحة حلب نفسها .

— إذاً هو أخ يواكينا حاكم البلاد ، وآخر حامل لتاج هرقل .. علمنا أن هذا الملك قتل زاهداً ولكننا ما علمنا أن القاتل أخوه

— إن يوحنا الزاهد هو أخ يواكينا الظالم السفاح ، فان يوحنا الذى أسأت به الظن ، قد دعا الشعب للاستسلام للعرب ، لأنه عرف عدلهم وتيقن نبالة قصدهم ، وكان قد ذهب إلى معسكر أبى عبيدة يتبعه عدد من أهل المدينة فأبرم مع الفاتحين عهداً ، ورجع بمن معه عند الغروب على أمل تسليم المدينة عند بزوغ الفجر ، ولكن يواكينا كان فى انتظارهم فى الساحة العمومية مع جنده ؛ ولما التقى بأخيه ألقى القبض عليه وأمر بنحر من اتبعوه واحداً فواحداً حتى خضبت الساحة بدمائهم ، فثارت حمية يوحنا فصرخ بأعلى صوته أمام الجماهير المحتشدة :

— ليأت العرب بعدلهم لتخليص الشعب من ظلمك . . .

حينئذ لمع سيف يواكينا مخترقاً صدر أخيه ، فسقط المسكين قتيلاً وهو يعمل على تحرير قومه من السفاح

وتهدج صوت الفتاة بغصة الدموع ، فشعر دامس بهبوب نسمات الذكرى من وراء القبور فارتعش وكادت غيرته أن ترجع به إلى خطابه المبتور ولكنه ثبت فى موقف التفكر بأحوال الحملة الفاتحة فأمر يده على جبينه وقال :

— وبعد ذلك ؟

— التفت المتهوسون حول يواكينا لأنهم اعتقدوا فيه الاستبسال فى الدفاع عن البلاد ، وقد تبعوه الى معركة أمس وأنت أدرى بما سيكون

— أليس فى المدينة بقية من حزب القتلى يميل الى التسليم ؟

— بلى ، كلهم يريدون الأمان ، ولكن وقاحة يواكينا تثقل عليهم ولم تزل أشباح إخوانهم تتراءى فى الليل على الدماء التى خضبت الساحة ولم يسمح الظالم بمحو آثارها

وكان دامس ينكث الأرض برأس سيفه مستغرقاً فى التفكير ، ثم رفع رأسه وقال :

— إلى الملتقى إذاً يا هيلانة ! جددى إيمانك واثبتى على العهد . إن شعبك سيحرر من عبوديته ، وحين يسود العدل ربوعك سأقيم لك من أضلاعى بيتاً تسكنينه على أرض أجدادك ، ولكن اعلمى أننى لم أزل أذكر تلك اللفتة الهائلة .. ويلاه . . . إن الأيام هاتكة الأستار ، فإذا رأيت المستقبل أشد غيرة منك على شرفى فاننى أحول هذا السيف الى صميم القلب لأموت . . . لك هذه الدقائق القليلة ، يا هيلانة اهتكى أمامى أستار كبريائك فلا تخادعى نفسك . أجيبى بحق إلهك الذى أعبد وتعبدين ، هل أحببت أحداً قبلى ؟

— لا . . . . .

وتعانق الحبيبان

وكانت قطرات الأمل تسقط كالندى على قلب دامس ، ودموع هيلانة تنحدر متراجعة إلى قلبها كانسكاب الغسلين على حجارة جهنم السوداء . . . .

* * *

وساد الظلام على مدينة حلب وأرجائها وكانت مضارب الحملة العربية منتشرة حول أبواب المدينة

تشب النيران بينها والجنود واقفون ينتظرون العشاء

على أن من يتميز هؤلاء العربان عن قرب يجد بينهم عدداً وفيراً من سكان المدينة ويرى من حين إلى آخر نسوة يونانيات حاملات للجنود أطباق الحلوى

وكان هواء الليل يحمل إلى بعيد صوت نشيد عربى فخيم بدوى كأنه هتاف الحجاز على أطلال بيزانطة المتداعية ، ثم لا يلبث أن يجاوبه نشيد متقطع باللغة اليونانية كأنه أنين الأجيال المزمعة الرحيل عن ملعب الدنيا

على مقربة من أحد المضارب الواسعة كان البطل دامس جالساً القرفصاء وقد تشنجت أصابعه على مقبض سيفه وهو غارق بالتفكير ، مضت ساعة وهذا الرجل جامد لا يتحرك ولكن خشيش الأعشاب اليابسة أمام مضربه نبهه لقدوم رجل طويل القامة ملتف برداء يونانى وقف أمامه وقال له :

— أراك قانطاً يا دامس وليس لمثل هذا اليوم يحفظ الأبطال القنوط

بقى دامس جامداً ولكن ارتجافا عصبيا كان يجمد جبينه العالى ، فرفع رأسه وقال :

— سوف نعود من حيث أتينا ، وهذا العقاب الكاسر متحصن وراء هذه الجدران . والله لو أن هذا الحصن المنيع حراب مسمومة لاخترقته بصدرى ، ولكنه حجر أصم جامد فلا هو يقتلنى ولا أنا أقوى على تحطيمه

وانتفض دامس محدقا بالقلعة وهى مخترقة السحاب كأنها تهزأ بالزمان

— أواه ! لو يستبدل الله ساعدى بجناحين لأطير وأنقض من حالق على يواكينا الغائص الآن فى بحار ملذاته !

وسقطت من جفون دامس دمعتان نزلتا ببطء على شاربيه فمسحهما بأردانه وشخص إلى السماء ، وتقدم الشيخ الطويل إليه حتى لامسه ووضع يده على كتفه وقال :

— اسمع أيها العربى . أنا يونانى أحفظ فى ذاكرتى كثيراً من أمجاد مملكة هرقل فى سوريا . أنا مسيحى أؤمن بالمسيح وإنجيله الطاهر ، فأنا اليونانى المسيحى سأسلم أمنع نقطة فى ملكنا إلى يد العربى المسلم ، ويشهد الله أن ما أقوم به إنما هو واجب عليه الضمير على ، فلست بالخائن ولو وصمنى الناس بالمروق . إن حلب بأسرها تسلم زمامها الخليفة نبيكم ولكن يواكينا العاصى يتحصن فى هذه القلعة ويطيل الحصار مدعياً أنه يصد هجمات الاسلام حفظاً لدين أجداده وهو الذى يدعى المحافظة على الدين قد صبغ الساحة بدماء رجالنا وكان ابنى الوحيد بين أولئك الوطنيين المتمردين على الفساد والظلم

بكيت وحيدى بكل دموعى ، وأقسمت ألا أجيب داعى المنون ، وأن أتمرد عليه إلى أن يقيض لى الله أن أرى انهيار هذا الملك وانحطام عرش يواكينا الغاشم ، إننى لن أترك الحياة الا وأنا أحرق قطعة من عرش يواكينا على قبر ابنى الشهيد

واختنق صوت الشيخ فترة ليرتفع بكل نبرات الاقتناع فقال :

— لست بحاجة لاطالة الكلام لأبرر نفسى أنت تعرف أن النصارى كلهم أنفوا الذل وتركوا الحياة مستعبدين لرجل لا إله له غير كبريائه وشهواته

إن من يلطخ يده حتى بدم ابن أبيه وأمه ليس إلا كافراً بالله وبروح الله ، وأنا أعتقد كما يعتقد جميع العقلاء فى بلادنا أن دين النبي العربي ليس إلا شملة من روح الحق يرسلها الله الى الأرض لتجديد قوى الخير والقضاء على الفساد والضلال ، فالنصرانية الحقة المتألمة من الطغاة الكافرين بها تمد يدها من قلوبنا لتصافح الاسلام ، وما هو إلا صنوها الذى حطم الأصنام ودعا النـاس إلى عبادة الله الواحد الأحد

إن يوا كينا يتلاعب بنـا باسم الدين ليدعم عرشه الهـاوى بجماجم أبنائنا ، وهو الـكافر بربه فـكيف يعتقد بالمسيح ؟ إنما الدين هو العدل ، وما أورث الله الأرض إلا رجال الحق ، وأنتم أولئك الرجال

— إننى أومن بالفتح المبين لاسـقاط سلطنة المـارقين ، ولـكنى لا أتميز السبيل إليـه فى قضاء الله ، وهذه القلعة واقفة بين المـاضى والمستقبل حلقة جبارة تملأ الفضاء ، وأية قوة ستصل إليها لتـكسرها ؟

— إذهب الى أبى عبيدة وتعهد له بفتح القلعة وعد الى لنتم عملنا هـذا المساء ، ولتـكن جنودكم على أهبة الهجوم

— إننى أتبعك أيان تريد ، اقذف بى الى أشداق الموت . إن الجهاد حق على المؤمنين

ونهض دامس وقد ملأت عقيـدته جوانب نفسه ، فخرج القلعة المتلألئة بالأنوار بلفتات النسر المتحفز للانطلاق ، وما تقدم بضع خطوات حتى استوقفه خفقان قلبـه العاشق وقد هتف صوت هيلانة فيـه : تقـدم إلى اللقاء ، الى كوثر الحب المتدفق من شفتى ، فانتفض المجاهد المطلق فى وجدانه يخنق هذا الصوت الدخيل خشية تطرقه الى نبرات الصوت الخالد المهيب فى أعماق ضميره الى الجهاد من أجل الحق ، ولـكن البطل العربى فى نشوة إيمانه كان قد لامس بحسه الباطن الوقائع الـكائنية التى تتجلى مبادئها وراء الزمان والمـكان ، فسمع هاتفاً عميقاً بعيداً عن حواسه يناديه :

إن فى القلعة قبر حبك ، ولـكن وراء بابها المحطم بقبضة يدك الخطوة الأولى للعهد الجديد ، بداية حكم العرب المجيد ...

وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليـل ، وأخذت الأنوار تنطفىء متتابعـة داخل أسوار القلعة ، وبلغ السكر حده فى أدمغة الجنود والحراس فثقلت أجفانهم وناموا وهم يمضغون بقية الالحان اليونانية التى كانوا يتشدقون بها ...

وكان يوا كينا لم يزل ساهراً يكرع الراح فى إحدى البنايات الفخمة القائمة إلى جنوب القلعة وبين يديه غادة روميـة استندت إلى عود تنطق أوتاره لغة القلوب

وكانت تنشد قائلة :

« وإذا جن الليل وأرسلت السماء من نجومها لمات الأسرار ، عندما يستغرق كل شىء فى السكون ينتبه الـكون بأسره فى عين تلمع ، وقلب ينبض ، حينئذ إذا كنت جنديا فاجعل من درعك كأسك ، وإن كنت كاهناً فاكرع الخمرة من كأس الهيكل ، الحب هو الاآـه المعبود ، فان زهدت فى الحب كفرت بربك »

وكان يوا كينا يصوب أنظاره حيناً فحيناً إلى الجهة الشمالية من البرج فتخفق أهداب جفنيه على نظرات منكسرة فى أحداقه

وكانت تقف أبصاره على غرفة موصدة هنالك فى طرف القلعة حيث كان يقيم أخوه الزاهد يوحنا .

هنالك فى تلك الغرفة المدخل السرى الوحيد للقلعة ولكن ذلك المدخل موصد الآن على بقايا أثواب الراهب القتيل وقد علقت بها سلسلة ذهبية مربوطة على ذخيرة انفتحت عن صورة فتاة وخصلة كبيرة من الشعر

للشر فترات همود كما للخير غفلات فى ضمير الانسان

وكان صوت المغنية الرومية يرن فى أذن السفاح فيذهب قسم منه إلى ضلاله ويتساقط قسمه الثانى على روحه كالندى على الأزهار اليابسة . كانت كلمات الأغنية البذيئة تستقر فى شهوته وتدور مع دمه الفاسد ، ولكن اللحن أو النغمات أو الايقاع ، تلك الأصوات السرية التى لم يقو الانسان على إفسادها كانت ترفرف فوق كلمات الأغانى كأنها حمامة بيضاء تائهة فوق جيفة منتنة ، فتذكر يوا كينا أن فى الكون شيئاً لا يقدر الانسان أن يتناوله بيد الأرجاس

ولكن هذا المحارب اليونانى العاتى الذى تمشى إلى معقله المنيع على أنهار من الدماء لم تستوقفه طويلا همسات نجواه ، فتقدم مترنحاً فى سكرة إلى الفتاة الرومية يحتضنها ويداعب شعرها الذهبى الطويل مولياً ظهره لباب غرفة أخيه الموصدة ..

* * *

وفى تلك الدقيقة ، ابتدأت أخشاب ذلك الباب بالسقوط تحت ضربات خفية وظهر شبح اليونانى الطويل دليل دامس فتقدم باحتراس متطلعا إلى كل جهة ، وكان هنالك حارس ممدد على الأرض فانتبه من نومه مذعوراً قابضاً على سيفه ووقف لينادى ، ولكن دامساً انقض عليه من الغرفة كالأسد الثائر فكتم أنفاسه وألقاه صريعاً ، وكان الشيخ اليونانى قد تقدم كالبرق الخاطف نحو الباب الكبير ففتحه من الداخل ، ولم تمض فترة من الزمان حتى كان أبطال العرب مستولين على الحصن تخفق على مرتفعاته أعلامهم الخضراء ...

* * *

وتكحلَّ الشفق بأوائل ذرات النور

فى إحدى خنادق القلعة كانت جثة باردة ممتدة وقد تقلصت أصابع كفها على ذخيرة مفتوحة تدلت منها خصلة شعر تخضبت بالدم ...

الذخيرة ذخيرة يوحنا الزاهد القتيل يشهد رسم هيلانة وشعرها فيها بما أودى بحياة دامس البطل العربى الذى دون التاريخ فتحه أبواب الحصن المنيع

وفى القاعة الكبرى ، داخل الحصن ، كان رجل يكلل العرق جبينه طارحاً سيفه عند قدميه يدور به أبطال العرب وهو رافع يده هاتفاً :

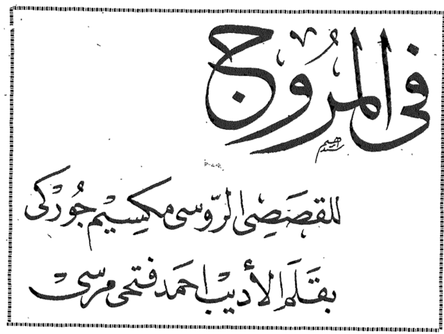
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

هو يوا كينا ذلك المتشهد ، هو مرهق شعبه وعبد شهواته وناحر أخيه بيده هو الجانى على دين الله فى المذهبين الموصلين الى الله

وبين المقابر كان شيخ هرم يحرق قطعة من الخشب الموشى بالذهب فوق حفرة لم تجف ردومها بعد ....

وعلى قصر من قصور حلب الشاهقة ، كانت فتاة ترفع أبصارها إلى السماء وتضع يدها على قلبها معلقة أبصارها على الطريق منتظرة عودة من خلده الحب وأرداه الخداع ...

فليكس فارس



. . . . ومضينا فى طريقنا نحثّ الخطى ، بعد أن خلّفنا وراءنا « ميركوب » نهما كالذئب ، ناقما على العالم أجمع ... فمنذ اثنتى عشرة ساعة أو يزيد ، ونحن ندير اللحظ فى نواحى المرج ، ونتقصى النظر على جنبات الطريق ، علّنا نقع على شىء نقيم به أودنا ... ولكن أعيننا حسرت عن درْك نهاية ذلك الفضاء المتصل . . . وأخيراً قرّ منا العزم على أن نصل السير ... ولكن إلى أين ؟ . . ثمّة إلى الأمام قليلا . . . فسرنا فى صمت وضيق ، وقد تراخت أعصابنا من الجوع ، وارتهكت مفاصلنا من النصب ، وقصرت خطانا من الأين

وكنا ثلاثة عرف كل منا الآخر فى سامر ليلى على ضفاف « الدينير » وكان أولنا جندياً سابقاً فى الجيش ، رجلا أحمر الشعر ، بائن الطول ، ضامر العود ، طلق اللسان ، يروى الكثير عن حياة السجون ، وعيشة الأسار

أما الثانى فكان شاباً ريق الشباب ، لدْنَ المعاطف ، ضاوى الجسم ، وقد أخبرنا عند لقيانا أنه طالب فى جامعة موسكو ، فلم نعن لذلك كثيراً ، فقد كان كل ما يعنينا أنه جائع طاوى البطن مثلنا

وكنت أنا ثالثهم بوجهى الخفر الصامت ، وحيائى الذى لازمنى منذ بواكر أيامى ، ولن أنطلق معك فى الحديث عن نفسى فليس هذا مقام ذلك ، ولكنى أقصر القول على أننى كنت كثير الوثوق من نفسى ولم أزل كذلك ...

وكنت أماشى الجندى فى المقدمة ، أما الطالب فكان يتخطر وراءنا فى وناء ومهل ، وقد علق بمعطفيه شىء بال كان يشبه المعطف فى حين من الأحيان ، وعلت رأسه بقايا قبعة زرقاء قديمة ، وبدا فى قدميه حذاء عتيق يخيل إلى أنه التقطه من جنبات الطريق ، أما الجندى فكان يكتسى قميصاً وردى اللون ، وقبعة حربية الطراز ، أما قدماه فكانتا عاريتين شثنتين ... وهكذا كنت أنا أيضاً

وطفقنا نقلب الطرف فى أرجاء تلك المروج الناضرة الجنبات ، فما عادت نواظرنا منها بطائل ألهم إلا السماء الرائقة الساجية ، التى كانت أشبه شىء بطبق أزرق هائل قلب على الأرض ، وكان

* تحتفل الأوساط الأدبية فى موسكو فى هذه الأيام بذكرى مرور عام على وفاة شيخ أدبها الحديث ، وكاتبها النابغ مكسيم غوركى ... وقد توفى غوركى فى مثل هذه الأيام من العام الماضى . بعد أن قضى حياة بائسة طويلة ذاق فيها الكثير من ضروب العوز والفاقة والتشرد ، وقد طبعته هذه الحياة على نوع من الأدب مازه من غيره . وهو افتتانه فى وصف البؤس وذكر البائسين ، وقد تخيرنا له هذه القصة لأنها تمثل — على ما نرى — جانباً من عيشته ، وطرفاً من حياته

الطريق ضيقاً حصباً تلوح على حفافيه أكوام مشتتة من القمح الهشيم ، بينما انتثرت فى نواحى المرج بضعة أعواد جافة أغفلها منجل الحاصد فلاحت كتلك الشعرات البيضاء المتناثرة فى عذارَىْ رفيقنا الجندى

ومضينا فى سيرنا ، ووجهتنا ذلك الأفق البعيد ، وقد ضرب عليه السحاب لِثاما رائقاً غرّاراً ، فرفع الطالب إليه لحظه وأومأ نحوه ببنانه قائلا فى مَخيلةٍ وزهو :

— تلك ولا شك جبال « الكريميان » التى درسناها

فنظر إليه الجندى عجباً وقال :

— جبال ... أى جبال يا رفيق ؟ ... تلك سحابة صافية شفّة كاللبن المروّق ، ووددت من من نفسى لو كانت حقا من اللبن المروّق فنروى منها عطشنا ، ونبل بها صدانا ... ومضت برهة قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة . وأخيرا قال الطالب فى لهجة العاتب :

— لقد قلت لكم إنكم تضربون إلى الأصقاع الغير الآهلة بالسكان ... فقاطعه الجندى قائلا :

— لقد قلت لنا ..؟ حقا هذا دورك لتقول لنا ، فأنت بيننا الضارب بسهم أوفر فى العلم ، ولكن خبرنى يارفيق أين هى إذن الجهات الآهلة بالسكان ..؟

فلم يحرْ الطالب جواباً ، وسرنا يُرنّقُ فوقنا الصمت ، وكانت الشمس قد جمعت خيوطها الذهبية عن الكون ولم يبق منها على الأفق إلا الشفق الأحمر الزهىّ ، وقد تمثّل فيه الأمل الباسم ، ولفته غلالةٌ ورديةٌ شفّة من السحب ، فبدت المروج موحشة صامتة ، وقد هفا عليها السكون ، ورانت فوقها الهدأة ، وأخيراً قال الجندى وهو يَتنَصّتُ ويتلفتُ :

— لا شىء هنالك ... لم يبق إلا أن نقضى الليل فى ذلك الصقع النائى ... فهيا نجمع بعض الحطب لنضرم النار أيها الرفاق

فانطلقنا نلتقط من المرج ما اعترض سبيلنا من أضغاث الأعشاب الجافة ، وكنا كلما تثنّى الجسم لالتقاط عود جاف يَسّاقطُ على نفسه ، ويأبى أن يستقيم ويستوى ثانية كأن به رغبة ملحة إلى التمدّد والتطرّح ، لما أضواه من الاعياء والنصب والجوع .

وهتف الجندى أخيراً :

— لو قيّضَ لنا الله من هذا المرج ثمة جذر من جذور النبات ، فان من الجذور ما يؤكل ؟

ولكن الحزون كانت تبدو حولنا منبسطة ممهدة خالية من الأشجار ... وكان الليل غاشياً على الكون ، وقد رجفت فى ثناياه النجوم الفرّارةُ ، وضّاءة الطلعة ، وهاجَةُ الجبين ... وعلى حين غرة أقبل الطالب علينا هامساً :

— أيها الرفاق ... إنّ عن شمالكم رجلا راقداً فى المرج ، فقال الجندى :

— رجل ؟ .. ولم يرقد هنا ؟ لابد أنه مزود بالطعام ... فما يدلج إنسان فى تلك الشعاب النائية دون طعام أوشراب ... هيا نذهب إليه أيها الرفاق

وتقدمنا الطالب بعينيه البرّاقة الخضراء ، فسيح الخطو ، حثيث السير ، وكان الرجل جامدا فى مرقده لا تختلجُ أطرافه ، ولا تطرف عيناه فتطرّقَ إلينا الشك ... وقال الجندى :

— ربما لم يكن هذا رجلا ...

ولكن سرعان ما تبددت الرِيَبُ فقد طرق سمعنا صوت متزنُ الجرس ، متسق النبرات شق غواشىَ الظلام يقول :

— مكانكم .. وإلا ألهبت رءوسكم ؟ !

فانتبهنا فاذا الرجل قد انتهض من رقدته وفى يده « مسدس » صغير ، ألجم به أفواهنا وعقل أقدامنا وأخيرا هتف به الجندى :

— لا تُرَعْ أيها الرفيق ... فلن نمسك بسوء اننا نكاد نصرع جوعا ... فأعطنا شيئاً من الخبز

ولكن الرجل تلبَّثَ فى مكانه جامدا لا يختلج ، شاخصا لا يطرف ... فاسترسل الجندى :

— ألا تسمع أيها الرفيق ... فأجاب الرجل وهو راجف واجف

— حسن ... ! فصاح به الجندى

— لا تطرقْ فؤادكَ الريبةُ أيها الرفيق ... فاننا لا نبغى بك شرا

وتبدَّتْ على شفتى الجندى ابتسامة ظافرة ، لم يتبينها الرجل الغريب لطول الشقة وبهمة الليل ... وأخيرا قال الغريب :

— انتظروا ... ثم لوح بيده فى الهواء فسقط عند أقدامنا شىء أسود هوى عليه الطالب بيده ، فاذا به بضع لقيمات جافة مُغبرّة ، سوداء مُشعّثة ، فلم نلق بالا لهذه الصفات الأخيرة المتتابعة ، بل جلسنا حول الجندى ، وكان قد ارتفق الأرض وطفق يقسم بيننا الخبز

— هذا نصيبك أيها الرفيق .... وتلك حصتك أيها الطالب ... وهذا ما تبقى لى .... كلا ، ماهذه بقسمة عدل ، أعطنى قطعة من نصيبك أيها الطالب

فانصاع الطالب صاغراً وأعطاه ما طلب ، وجلسنا نأكل فى صمت ... وقد انفردت عن رفيقىَّ وأخذت أحطم ذلك الخبز الجاف بأسنانى التى كانت على أهبة لمضغ الصخر ، وأحسست وأنا ألوكُ فى شِدق تلك اللقيمات ، أنها سرعان ما انقلبت دماء دافقة فى الجسم فأنستنى ما مضى من الجوع وما مر من الفاقة ... ولكن عند ما ألقيت فى فمى بما بقى من فتات الطعام أحسست جوعا ممضاً من جديد .... وهمس إلينا الجندى أخيراً :

— إننى على يقين من أن ذلك الرجل معه لحمٌ أيضاً ... وأضاف الطالب :

— وللتثبّت من ذلك أقول إن الخبز يفوح برائحة اللحم ....

وكنا جلوسا بعضنا إلى بعض وقد جمع حولنا الليل مسوحه السود ، وبسط علينا الصمت جناحه الشامل حتى عدنا نسمع ضربات قلوبنا ، ونامّةَ أنفاسنا .....

... وكنا جائعين !

ومضينا نتداول ونتقاول فى ذلك ، إلى أن أشرت أخيراً على رفيقىَّ أن نسطوَ على الرجل فنأكل ما بقى من طعامه دون أن نمسه بشر ؛ وصادف هذا الرأى هوى من نفس الجندى فصاح :

— هيا بنا أيها الرفاق

فقمنا متخاذلين ويممنا شطرَ الرجل ونحن نتأمّل فى خطانا ، فما جزنا خطوتين أو ثلاث خطوات .. حتى أصمَّ آذاننا دوىٌّ طلق شديد شق سكون المروج الشامل ... فصاح الجندى بالرجل :

— أخطأت المرمى أيها الرفيق ! ...

وأسرعنا إلى الرجل فألقى الطالب بنفسه على كيس طعامه . . . واتجه الجندى نحو الرجـل المسكين وكان قد تطرّح على ظهره وهو واجف راعش ، فركله الجندى بقدمه قائلا :

— كان الأوْلى أن تطلق النار على نفسـك أيها الغبىّ — وهتف الطالب مازحا :

— لقد عـثرت على اللحم أيها الرفاق فتعالوا نأكل . . .

وجلسنا نأكل من جديد ، وكان الليل حولنا ملثما بظلامه ، سواد على سواد . . . . وعلى حـين غرة سمعنا الرجل المسكين يغمغم من صوت خافت كأنه الأنين :

— عفواً . . . أيهـا الرفاق . . . كيف لى أن أعلم . . . لقد أطلقت النار لأن الرعب ملأ جوانحى . إنى فى طريقى إلى مقاطعـة « سمو لنسلك » وقد تولتنى الحمّى عنـد مغرب الشمس ، فوهى منها جسمى ، ووهنت أعصابى ، وأخذت علىّ مذاهب السير . . . إننى أمارس النجارة . . . ولى زوجـة وطفلتان لم تريانى منذ أربعة أعوام خلونَ . . . لـكم الطعام فكلوا كل شىء . . أيهـا الرفاق . . »

فأجاب الطالب :

— « وهل نحن فى انتظار إذنك ؟ » ثم همس إلينا الطالب :

— لا شك أن ذلك الرجل معـه نقود أيضاً

فأجاب الجندى :

— إنك دائمـا صائب التخمين أيها الرفيق

ثم نهض الجندى قائلا :

— هيا نضرم النار لننام أيهـا الرفاق . . .

فالتمعت عينا الطالب ثم قال :

— وماذا عن الرجل ؟

— فليذهب إلى الشيطان . . . أما كفى أن أكلنا طعامه

وتفرقنا من المرج نجمع ما ألقينا من الأعشاب عندما بغتنا الرجل . . . . ثم أشعلنا النـار فى كومة الهشيم ، فاضطرمت وتوهجت وأنضت ما حولنـا من الظلمة ، فسرى الدفء فى الجسوم ، ودب الـكرى إلى الجفون . وطرق سمعنا صوت النجار الخافت يقول :

— أيسمح الرفاق أن أدنو من النار قليلا ؟ . . إن عظامى يكاد يفتتها البرد . . .

وأخذنا عليه العطف فسمحنا له بالدنو ، فأتى يدب على رجليه وقدميه . . وقد أغرق عينيه فيض من الألم ، وغمر وجهه صبغ من الصفرة . . . ، وبدا فى لمع النار زائغ البصر ، متكفّأ اللون ، ثم جلس على كثب منا يمرس أطرافه المرضوضة ، ويبسط أصابعه المتنّاة . . وبعد برهة سأله الجندى :

— ولم لم تركب البحر مادمت على هذه الحال من الاعياء والوهن ؟

فأجاب فى خفوت :

— لقد نصحوا لى أن آخـذ طريق البر لأنه آمن على صحتى . ولـكنى لا أستطيع الوصول . . وسيطوينى الموت فى تلك المروج النائية ولن أرى طفلتى الحبيبتين . . يا إلـهى . .

وأخذ الرجل يصيح فنهره الجندى قائلا :

— « كفى . . . صدعت رؤوسنا أيها الغبى »

وصحت أنا به :

— « لا تعكر علينا صفو النوم أيها الرجل »

ثم أضاف الجندى :

— أسامع أنت ؟ .. أتظن أنك ستنال عطفنا بعد أن أطلقت علينا النار ؟.

وصمت الرجل وصمتنا ،.. واستلقى الجندى على ظهره .. وتطرح النجار على كومة من العشب ورقدت أنا عن يمينه ، واضطجع الطالب إلى يساره وهو يتثاءب ويتناوم وبعد برهة هتف الجندى وهو يتأمل فى السماء :

— ما أروع الليل الساكن .. وما أبهج السماء الصافية .. تأمل أيها الصديق . إنه ليخيل إلى أن الله خلق السماء دثاراً لتلك الأرض التاعسة الغافية . ما أجمل تلك الحياة الطلقة الحرة أيها الرفيق .. إنه قد يكتنفها الجوع . وقد يكدرها البرد ولكننا فيها أحرار طلقاء ... نضرب فى ذلك الفضاء الرحيب لا إمرة لأحد علينا ولا نهى ، بل نحن سادة أنفسنا . لقد كاد يقتلنا الجوع فيها أياماً . . . وها نحن أولاء قد أكلنا وروينا .. ورقدنا تط لمنا بلحظها النجوم الفواتن كأنها تقول لنا : « خفضوا عليكم جأشكم أيها الرفاق .. واضربوا فى فضاء الله الواسع وتعلموا وتدبروا ولا تحفلوا بأحد . »

وصمت الجندى قليلاً ثم قال :

— كيف أنت أيها الرفيق النجار .. لا تكن غاضباً علينا لأننا أكلنا طعامك . . . ماذا كنت تريدنا أن نفعل ومعك طعام وليس معنا شيء . . . ثم إنك ستمر غداً على سوق « بيركوب » فتبتاع منه ما شئت من الطعام .. منذ كم أخذتك الحمى ؟

ومضى موهن من الليل كانت تحمل الريح خلاله إلى همس الجندي وجواب النجار ، ثم غشى الصمت على الكون ، وسكن هزيم الرياح فى الأفق وعقد الكرى أهداب الجفون ...

***

— تنبه . . . ! تيقظ أيها الرفيق . . . دعنا نذهب سريعاً

فانهضت مرتاعاً من النوم فرأيت الجندى واقفاً بجانبى يستحثنى الى السير وقد تكفأ لونه وتوجف قلبه ، وكانت شمس الصباح الضاحية قد لألأت نواصى الأعشاب فى المرج ...

وتلفت يميناً فاذا النجار ماقى على ظهره ممزق الثياب وكان أزرق الوجه فاغر الفم جاحظ العينين وقد أغرقهما الرعب ، وتصلبت فيهما المحاجر . . .

وهتف الجندى أخيراً :

— أما كفاك تأملاً ... هيا امض بنا ...

فقلت فى تردد :

— أهو ... أهو قتيل ؟ ... هل الطالب ...

فقاطعنى قائلا :

— « ومن غيره ... ربما أنت أو أنا »

واسترسل قائلا :

— أهذا أثر العلم فى نفسه ... أغاية العلم أن يترك رفيقية على هذه الحال ... أما والله لو علمت طوية نفسه قبل ذلك لسفكت دمه ... هيا بنا أيها الرفيق ، يجب أن نذهب عن هذا المكان قبل أن تلمحنا عين انسان .. أفاهم أنت .. إنهم سيكشفون أمره اليوم ويترسمون خطانا ... » ثم وضع يده فى جيبه قائلا :

— ولكن هذا مسدسه معى ... فصحت به :

— ألقه فى الطريق ...

— كلا لن ألقيه . إنه شيء ذو قيمة

ومضينا نحث السير فذكرت فى الطريق طفلتى النجار المسكين فقلت :

— هذا كثير على زوجة الرجل وطفلتيه

فأجاب :

— دع هذا الآن ... واسرع فى سيرك ... عج بنا الى اليمين فأغلب الظن أن البحر فى تلك الجهة

وحدنا عن الطريق فتركت زميلى فى عرض المرج ، وصعدت على وهدة عالية كانت على كثب منا ، وأشرفت بناظرى على ما مضى من الطريق ، فسمعت رفيق يقول :

— علام تنظر أيها الرفيق .. أدخل فى روعك أن الحياة ستدب فى جسمه ثانيا .. وصمت الرجل قليلا ثم عاد يقول :

— ما أمهر والله ذلك الطالب الذى غافلنا وخادعنا ... ان الناس أيها الرفيق يوغلون فى الشر كلما أوغلوا فى العلم ... يوماً بعد يوم ، وعاماً إثر عام . . .

وصمت الرجل فساد الصمت يبسط جناحيه على الكون ، وبدت الشمس تتلألأ فى صدر السماء ، وضرب الأفق دائرته الزرقاء على المروج فتابعنا السير دراكا ...

وأخيراً قال رفيق الجندى وهو يخرج من جيبه لفافة من التبغ الرخيص :

— إننى جائع أيها الرفيق

— وما عسانا نأكل هنا ؟

— تلك مشكلة أخرى ...

***

وختم الراوى قصته — وكان رجلا أشيب الرأس يرقد الى جوارى فى المستشفى — بهذا القول :

— ومنذ ذلك الحين توثقت وشائج المودة بينى وبين ذلك الجندى لما هو عليه من خلوص النية ، وسماحة الخلق ، فكنت أكن له فى شغاف القلب الحب والعطف ، وأحمل له فى طوايا النفس التجلة والاحترام ، وقد سرنا سويا الى اقليم « كارا » ثم افترقنا الى حيث لا لقاء . فسألته :

— أو لم تعطفك الذكرى بعد ذلك الى ذلك النجار المسكين ؟

فضحك ثم قال :

— ما الذى تريدني أن أذكره فيه ، أوأستشعره لأجله ... انى لن ألام على ما حدث له ، ولن تلام أنت ولن يلام أحد غيرنا . . . فان يجدى اللوم ... لأننا كنا أشباه وحوش ضارية .

اسكندرية — أحمد فتحى مرسى

من صحائف الأيام

يوميات نائب فى الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

القاتل !

رأى الأستاذ توفيق الحكيم أن يفسح الأجل أسبوعين آخرين للمتسابقين فى معرفة القاتل لقمر الدولة علوان فى القضية التى ينشرها فى يوميات نائب فى الأرياف ، ففضل ألا ينشر شيئاً منها فى هذا العدد لأن ما سينشره سينم عن القاتل . وإنا لنرجو ممن يدخل فى هذه المسابقة ألا يغفل ذكر الأسباب التى بنى عليها حكمه . وآخر موعد لتقديم الردود هو اليوم العاشر من شهر يوليه م





صنع « عاقل » من راحتيه كأساً لذقنه وحدج النافذة بنظره ، وراح يفكر .. هـذه ثالثة مرة فى أسبوع واحد يدس ريالاً لزوجته تحت الوسادة ، ويخرج من البيت متسللاً كاللص على أطراف أصابعه لئلا تستيقظ فتسرد له الحاجات المختلفة التى تقتضى زيادة فى النفقة فما يكفى ريال للمطالب العديدة التى يعرفها ولا يجهلها . وماذا عساها تصنع فيما ركبها من الدين ؟.. اللبان له عشرة قروش . والخباز له أكثر من ثمانية عشر قرشاً ... وغيرهما أيضاً ... وكانت العادة أن يؤدى ثمن ما يأخذ ، فارتاب هؤلاء الناس لما رأوا أنه يأخذ ولا يؤدى الثمن ، ولو كان عودهم غير ذلك لاعتادوه ، فان غيره يأخذ ويعطى أول الشهر ... ولم يكن يعجزه أن يترك لامرأته ما يكفى ، ولـكن . . ولـكن ماذا ؟ ماله لا يصارح نفسه ؟ أليست الحقيقة أنه مل هذه الحياة الجافة التى لم يعد يجد فيها متعة أو لذة فهو يضن على بيته وأولاده بما معه لعل وعسى ؟ ؟ عسى أن يتفق أن يلقى مايسره ويجدد نفسه فلا يقول كما قال السمير : « فتراني طول عمرى تائباً من غير عفة ؟ » عسى ؟ أيـكذب حتى على نفسه ؟ ويأبى إلا أن يغالط ، وإن كان لا أحد معه ؟ سـبحان الله ! أليس على موعد مع « سميرة » تلك الفتاة التى عرفها من صديق له ، وتشبث بها ، كأنها كنز ، لا لأنها كنز بل لأنها تعينه على تغيـير هذه الحياة المطردة التى لا تختلف ولا تتنوع ؟ ولو ترك لزوجته الـكفاية أما كان يسعه أن يلقى سميرة ، وأن يقضى معها ساعات ينسى فيها أن حياته مملة ، وأن وتيرتها واحدة ، وأن روحه زهقت ؟. آه لماذا لا تستطيع الزوجة أن تكون أبداً جديدة ؟ لماذا تدع زوجها يمل حياته معها ، وإن كان يحبها ويعرف لها قدرها ويشكر إخلاصها ووفاءها ؟ المصيبة أن الزوجة لا يخطر لها أن الرجل يمل هذه الوتيرة الواحدة ... لا يخطر لها أنها هى لا تستطيع أن تأكل كل يوم « ملوخية » لماذا لا تكلف نفسها عناء التفكير فى ما هو خليق أن يجعل الحياة معها كل يوم جديدة ؟ لماذا تفرض أنه لن يمل أو يضجر أو يسأم هـذا العيش الذى لا يتغير ..؟

ولم يكن عيب «عاقل» قلة الانصاف ، فلم يسعه إلا أن يقول لنفسه ، وهو مسند ذقنه إلى راحتيه ، إن زوجته أيضاً مثله : أى خليقة أن تمل وأن تضجر ولـكنها لا تضجر ولا تمل ، ولا تلتمس مثله التسلية والترفيه عن النفس بما يتفق أن تفوز به خارج

البيت .. بل هى لا تخرج أبداً . إلا إذا كانت معه ولزيارة قريب مريض ، أو لداع من هذا القبيل ، ليس لها سـواه .. هو محور عالمها كله . لا تـكاد تعرف لنفسها حقاً يقابل واجباتها ... حسبها أنها تأكل وتشرب وتلبس وأن تكون حقيبتها فيها جنيهان أو ثلاثة .. ما يكفيها والسلام . فما لها مطالب تعرفه وراء ذلك . لا سينما ولا خلافه ... لم تطالب منـه قط أن يحملها معه فى سيارته وأن يجول بها جولة فى الهواء الطلق ... كلا ... أبدا ... مسكينة ... وإنها لأحق بالسيارة منـه فقد أبت له أن يركب تلك السيارة القديمة وألحت عليه أن يشترى أخرى جديدة تليق به فاعتذر بانه ليس معه مال ، فخرجت له عن كل ما ادخرت .. ثلاثين جنيهاً وضعتها فى يده ليتيسر له أن يشترى سـيارة جديدة بالتقسيط ... ولشد ما يفرحها أن تراه مقبلاً فى السيارة الجديدة وتركب أحيانا معه فتقول له وهى تضحك : « إنها سيارتى . أليست كذلك ؟ » فيقول : « بالطبع » فتقول : « إذن من حقى أن أستعمل الـكلاكسون فيقول : « كما تشائين » فيسرها أنها تضغط الزر من حين إلى حين فيصيح «الـكلاكسون» بالناس أن تنحوا عن الطريق . وتضحك مسرورة ثم تخجل فتكف .

ولـكن من الانصاف لنفســه أن يقول إن قناعتها به راجعة إلى أن أفقها محدود ، وضـيق الأفق نقص ولـكنه أثمر فضـيلة لا شك فيها ؛ أما هو فرحيبُ أفقِ النفس ، فاذا كان لا يقنع بالحياة الضيقة المملة الغثة ، فالسبب هو هذه السعة فى روحه وفى آفاقه ، وبالتالى فى مطالبه وحاجات نفسه . . ومع ذلك ما داعى هذه الفلسفة كلها ؟ . .

الواقع أنه لا يحس بامكان القناعة بهذه الحياة الجافة التى لا تنويع فيها ولا اختـلاف فى وجوهها ، والمسألة هى لماذا لم يستطع أن يحكم تدبير الجانب المالى بحيث يتيسر له أن يؤدى مطالب البيت على الوجه الـكافى المريح ، وأن يستبقى بعد ذلك مايحتاج إليه فى سد المطالب الأخرى ؟ .. هذه هى المسألة الجديرة بالتفكير والعناية ، وما عدا ذلك كلام لن يغير من الواقع شيئاً ، ولن يسوغ قبيحاً أو يقبح حسناً

بل هنـاك مسألة أخرى أحوج إلى البت السريع وتلك أنه على موعد مع « سميرة » ولـكن صديقاً له دعاه إلى الغداء مع « رفقة » وهى فتاة مسلمة تتسمى هذا الاسم الاسرائيلى ؟ ورفقة شىء جديد ، فاها حلاوتها ولمجالسها أنسه وفتنته المستفادة على الأقل من الجدة ، وصحيح أنها صديقة صديقه لا صديقته هو ، فليس له مطمع فى أكثر من الحديث والنظر ، ولـكن من يدرى ؟ .. ولا بأس من إخلاف موعد سميرة ، فانه يستطيع أن يعتذر إليها بعد ذلك وهى تعرف أين تجده على كل حال . .

وهز رأسه متعجباً وقال لنفســه : « كيف يا ترى يعرف فـكرى (يعنى صديقه) هؤلاء الفتيات البارعات ؟ » ذلك أنه هو نفسه يجد عسرا وعناء شديدين فى الاتصال بمن يخايلنه من البنات ذوات الدل والحسن ؛ وما أكثر ما تتصدى له الفتيات بجمالهن وزينتهن فى الشرفات وفى الطرق ، فيخجل أن يفعل ما يفعل الشبان الأيفاع ، ويندر أن يزيد على الابتسام ثم ينصرف آسفاً متوجعاً ؛ ولقد وقف مرة فى شارع ينتظر أن يفتح له شرطىُّ المرور الطريق ، وإذا بفتاة تضع كفها البضة على يد الباب وتنظر إليه متبسمة باشة وتقول بصـوت حلو :

« افتح ! » ، فحدق فى وجهها مبهوتاً من جرأتها ، مرتاباً فى أمرها ، ثم لم يسعه إلا أن يقول لها : « بالطبع ... تفضلى » ، فرفعت حاجبيها مقدار ملليمترين — كأنما كانت هى الحقيقة بأن تتعجب — وقالت : « صحيح ؟ » بلهجة حيّرته ، فلم يدر أهى تستوثق أم تستنكر ؟ ولكنه ترك ذلك وقال : « بالطبع ... ولم لا ؟ ... » ، فضحكت — نعم ضحكت . . . قهقهت فى الطريق — وقالت : « مرسى ... » ولكنها لم تركب بل وقفت تتلفت كأنما تشاور نفسها ، أو كأنما تنفض المكان لتطمئن وتستوثق من أنه لا يراها أحد ممن تعرف ثم ردت إليه وجهها وقالت : « فى وقت آخر ... مرسى » كأنما كان يعرفها ويعرف أين يلقاها حين يصبو اليها ، فخفق قلبه خفقات قوية لها فى رأسه دوى ، وأحس أن ركبتيه تخاذلتا ، وصارت يده ترعش كما يرعش المقرور ، وسمع نفسه يقول : « أرجوك .. أرجوك .. لا تخيبى أملى » ، ولكنها رمت إليه ابتسامة ومضت خفيفة رشيقة إلى الرصيف ... وفتح الطريق فى هذه اللحظة ، فلم يسعه إلا أن ينطلق ؛ غير أنه وقف بالسيارة على محاذاة الرصيف ودار فى مقعده ، وأرسل طرفه إلى حيث رآها تذهب ، فلم يعثر لها على أثر ؛ وكان الذى استخفه أنها على التحقيق ليست من بنات الشارع — يدل على ذلك أنها غضة السن صغيرتها ، ولا يكاد يُعقل أن تكون الحرفة قد أدركتها ... مستحيل ! ... ولكن جرأتها ؟... أووووه ! ... هذا شىء يطير العقل ...

وكانت له معلمة نمسوية روسية سكن إليها زمناً ؛ ولم يكن يريد أن يتعلم شيئاً وإنما كان يبغى أن يعرف فتاة شريفة يستطيع أن يأنس بمجلسها وحديثها ، وأن يقضى معها ساعة كل يوم ينسى فيها حياته المملة ويجدد فيها نفسه ؛ واطمأنت الفتاة إليه ، ووثقت به ، فصارا صديقين ، وكانت قصة حياتها محزنة ، فكانت تقول له بشجوها وهو ينظر إليها وقلبه يفيض بالعطف عليها ، ثم يرفه عنها ويمسح لها على قلبها — حقيقة ومجازا — ولا يتركها إلا بعد أن يعيد إلى وجهها البشر والاشراق ، وإلى نفسها الرضى والسكون ، فوجدت عنده السكينة مالم تجده عند أبيها ، وأصدقائها ، فصار عندها فوق الصديق وأقرب ما يكون إلى الحبيب ؛ وأدرك هو ذلك ، ففزع وخشى أن يتورط معها فى علاقة يكون من ورائها حرج له ولها أيضاً ، واتفق يوماً أن فتح أبوها له الباب ، وقال له بلهفة :

« ادخل يا سيدى بسرعة ... ايللى ... ايللى ... »

فسأله : « مالها ؟ »

فقال : « مضطربة ... جداً ... ولا أحد يستطيع أن يعيد إليها نفسها سواك ... عجل يا سيدى ! »

فرمى طربوشه ومعطفه — فقد كان الوقت شتاء — وحث خطاه إليها فألفاها راقدة على سريرها وصدرها يعلو ويهبط كموج البحر ، فتناول كفها فى صمت ومسحها وربّت لها على خدها وإذا بدموعها تتسايل ، وتجرى على خديها الى عنقها ، فقال لها برقة وعطف : « ابكى...ابكى إذا شئت ... فانه أشفى ... لا تخجلى »

فتنهدت ورفعت كفها الى عينيها ، وكفكفت

من دمعها ، وتركها هو تفعل ذلك وأقبل على ذراعها يدلكها ، وعلى صدرها أيضاً ، وعلى ساقيها ورجليها وهي ساكتة مطمئنة ، وكان وجهه الى قدميها ، وهو يدلكهما ، ثم رمى إليها نظرة خاطفة فألفاها قريرة العين تبتسم كأنما ترى حلماً جميلا ، فرد وجهه الى القدمين وقال لنفسه : « آه .. كان ما خفت أن يكون ... ما العمل الآن ؟ » وحيره السؤال وجوابه ، فترك الأمر للمقادير ولالهام اللحظة ، والتفت اليها وسألها بعينه : « أحسن ؟ » فأجابت بابتسامة ، ونحّت خصلة من شعرها الذهبي عن جبينها الوضاء ، فحنا عليها ، وأراح كفيه الغليظتين على جانبي محياها الدقيق المعارف وقال لنفسه : « هذه فرصتي لتأكيد ما بيننا من التفاوت في السن واستمصاء الحب الطويل العمر ، المأمول الخير بيننا » وكيف يتركها تحبه وهو خليق أن يملها بعد شهور ؟ ومال عليها ولثم جبينها فضحكت ضحكة عصبية وقالت : « كأنك أبي يقبلني » وكان هذا ما يريد أن يقرره في نفسها . . . أنه كأبيها . . . فادعى أنه لم يسمع ما قالت واعتدل وأخرج سيجارة وهم بأن يشعلها ، وإذا بها تنتفض قائمة وتخطف السيجارة ، وترمى بها وتطوقه بين ذراعيها وتهوى على وجهه بالقبل الحرار ، وهو مستسلم لهذه الثورة العصبية وإن كان قد لف ذراعه على خصرها وكأنما أضجرها فتوره ، فدفعته بكفها وانحنت وأنشأت تبكي وتنشج ، كأنما كان قلبها يتفطر ، ثم قالت له وقد سكت قليلا : « معذرة ... إنني آسفة ... قل إنك غفرت لي » فأشار اليها بيده إشارة من يريد أن يقول إنه لا شيء هناك يستوجب الاعتذار ثم قال لها بجد : « اسمعي يا ايللي ... لقد كنت أقدر هذا وأخشاه ... لست لي ولا أنا لك فيحسن أن ينتهي الأمر الآن »

فحدقت في وجهه كالمبهوتة فقال : « نعم ... هذا خطأ ... خلط فظيع ... وأنا المسئول فقد كان ينبغي أن أقدر هذا كله وأن أستشف النهاية من البداية ... ولكني أعترف أني استعذبت صداقتنا وسكنت نفسي اليها واطمأنت ، فخالل الرضا عزمي وأضعف رأيي ، حتى رأيت منك ما رأيت الليلة فعادت الىّ القوة فهل أنت فاهمة ؟ »

فصاحت به : « ولكن هذه قسوة . . . ظلم ... »

قال : « القسوة والظلم أن أدعك تلجين في حالة ليس لها من عاقبة إلا الحسرة والندم والألم »

قالت : « ولكن لا أبغي منك شيئاً ولا مطمع لي في شيء ... إني أعرف أنك متزوج ... دعني أحبك . ماذا عليك لو فعلت ؟ »

قال : « هذا كلام تقولينه الآن ... صدقيني فاني أدرى منك بالحياة ، وأعرف بالنفس الانسانية وأطول خبراً ، وأعمق في الأمور نظراً ... تسألين ماذا علي لو تركتك ؟ الجواب يا فتاتي المسكينة أن علي تبعة أمام ضميري ... أنا أيضاً أحبك ... »

فصاحت مقاطعة : « انتهينا .. تعال تعال .. »

فقال : « مهلا . . لا تعجلي . . نعم أحبك .. حبي لك حب الصديق بل أكبر وأقوى ... هو كحب الأب أو الشقيق إذا شئت ... ولكنه مع ذلك من نوع آخر ... هل تسمحين لي أن أحدثك بصراحة ؟ حسن ! ... اسمعي إذن ... نعم أحبك حباً لا هو عشق ولا هو صداقة ولا هو حنو أب أو أخ ... لا أدري ماذا هو ، ولكني أدري أنه

يسرني أن أريح يدي على صدرك ، وأن ألمس بأطراف أصابعي ثدييك ، وأن أطوقك بذراعي ... وأشتهي أن أضمك أيضاً إلى صدري ... أضمك كما يضم الوكر الحمامة ... وأن ألمس شعرك ... أن أعبث به وأرسل خصله المتوجة على خديك الأسيلين ... وأن أرفع ساقك فأضعها على ساقي ونحن نقرأ ... وأحس أحياناً بلسعة نار ... كأن لساناً من اللهب الحامي يرتفع فجأة فيلسع قلبي ثم يزول هذا عني بأسرع مما كان ... فأفيء إلى سكوني وبرودي المألوفين ... وما أكثر ما جلست إلى جانبك والكتاب أمامنا ، وذراعي حول ظهرك ؛ وأصابعي على ثديك الناهد ... وما أكثر مانظرت في عينيك كأنما أريد أن أغوص على سر نفسك ... وأحسب أنك لم يفتك ذلك ... ولعلي أسأت به من حيث لا أريد ... ولا أدري ... ولكن ما أكثر ما كبحت نفسي ورددتها عما تشتهي ... إشفاقاً عليك ... اسألي نفسك أين يمكن أن ينتهي هذا إذا بدأ ؟ ... النهاية مخيفة ... لك أولاً ... ثم إني لا أريد أن أعاني الحب ... لا صبر لي عليه ... ولا لذة لي في جنونه ... كلا ... لا أريد أن أحب ... لهذا خنقت العاطفة وهي وليدة ... قلت لنفسي : هي أفعى ، ودستها بقدميّ هاتين ... وما زلت أحبك يا إيللي فما يسعني غير ذلك ، ولكنه عطف وحنو ومودة ... ذلك أني كالأعصار ... مخيف ... وأنا أخاف عليك من نفسي لأني أعرف نفسي ... قولي إنك تفهمين وتدركين وتعذرين »

فلم تقل شيئاً من هذا ولكنها ضحكت وقالت : « أشكرك »

ثم قالت وهي تنهض عن السرير وتتمشى في الغرفة : « أشكرك مرة أخرى ... والآن هل انتهى الدرس الذي تلقيه عليّ ؟ »

فقال : « لا تتهكمي ... اني أتكلم جاداً ... لماذا لا تفهمين ؟ »

فقالت وهزت كتفيها : « أحسب أن إدراكي قاصر ... هذه الفلسفة عويصة »

فنهض وقال : « إذن لم يبق لي كلام ... فهل تسمحين لي أن أخرج ... أعني أن أودعك ؟ »

قالت ببرود : « أوه ... أمسافر أنت ؟ »

قال : « أظن ... الغالب ... يحسن أن أسافر »

قالت : « أرجو أن أراك بخير »

وشعر وهو خارج أنه أذلها ، فقد باحت له بحبها فصدها وردها بقسوة وغلاظة . ولكن القسوة تكون في أحيان كثيرة خيراً من اللين الوبيل ... قسوة ! ولين ؟ كلام فارغ ! فلسفة سخيفة ! لماذا لم ينعم بهذا الحب الذي وفق إليه ؟ ... هذه فتاة جميلة مهذبة تحسن الحديث وتستطيع أن تخوض معه في كل موضوع ، وقد ألقاها القدر بين يديه ، وصارحته بأنها تحبه ، وأنها لا تبغي منه شيئاً ، وأنها تدرك مقتضيات موقفه ، ولا يخفى عليها أنه متزوج ، وأنه رب أسرة ، وأن لا سبيل بينهما إلى أكثر من الصداقة الوثيقة ، وأنها موطنة نفسها على ذلك كله ... وهو يحبها أيضاً ... ليس حباً في الحقيقة ولكنه يأنس بها ، وتطيب نفسه بالوجود معها ، وينشرح صدره ويذهل عما يسخطه ويضجره في الحياة ، فلماذا قطع الحبل وأبي إلا أن يكون سخيفاً أحمق ؟ ... وأين يجد خيراً منها ، وأصفى نفساً ، وأكرم خيماً ، وأحسن وداً وأظرف وأحلى ؟... أوه !... ولماذا يطلب غيرها ؟

لماذا لا يقنع ببيته ؟ ... يقنع ؟ ... نعم ينبغى أن يقنع بحياته الهادئة المنتظمة ، ماذا جرى لعقله ؟ يجب أن يروض نفسه على الرضى والسكون والقناعة بالموجود ، كما راض نفسه على قطيعة إيللى ... أيقوى على هذا ولا يقوى على ذاك وهو أولى ؟

ولم تتركه إيللى إلا بعد أن يئست — كتبت إليه بضع رسائل تستعطفه وتلح عليه أن يرجع فكان يرد إليها الرسائل من غير أن يفضها ، فقد كان يعرف خطها فلم يسعها إلا أن تقصر

ومضت شهور ، استطاع فيها أن يحمل نفسه على مكروهها ، وأن يلزم بيته ، ويتخلى لعمله ، ويصرف عينه عن النظر والتطلع ، وقلبه عن الاشتهاء ، حتى لقى سميرة ... فتذكر أنه رأى مرة طفلا يفحص الأرض بقدمه فتقلقلت حصاة صغيرة فنحاها الغلام بأصبع رجله ، وإذا بالماء ينبع ويروح يفور منها ويسيل على وجه الأرض . . كذلك هو . . كان شىء فى نفسه محبوسا . . . كانت عواطفه الزاخرة لا يحجبها إلا شىء رقيق . . فلم يكد يلتقى بفتاة تضع أصبعها على قلبه ، كما كان ذلك الغلام يصنع بقدمه ، حتى انهدم السد الذى يحجز الطوفان ، كما تقلقلت الحصاة فانبثق الماء من تحتها . ولم تكن سميرة ترضيه ولكنها كانت تعلة . . وكان فيه وفاء فأبى له أن يرمى بها على حين تقبل هى عليه . . غير أنه مع ذلك مل . . مل . . مل . . يريد خيراً من سميرة . . أذكى وأبرع . . وأرشق وأظرف . . . أحلى ابتساما . . وأرسخ ثديا . . وأعدل قواما . . لقد سمنت سميرة . . غلظت ساقها واكتنز لحمها . . أوه لماذا تركت نفسها تزداد لحما وتنقص جمالا ورشاقة ؟

وهو اليوم على موعد معها ، ومع فكرى وصاحبته « رفقة » . . وقد اعتزم أن يخلف موعد سميرة وأن يجدد نفسه بلقاء رفقة وان كانت لغيره . ودخل عليه فكرى وقال بلا تحية : « هه ، قم » فأحس عاقل أن رأسه يدور ، ويدور وقال : « إلى أين ؟ ألا يمكن أن تعفينى ؟ »

قال فكرى : « كيف يمكن ؟ إن رفقة تلح على أن أجىء بك »

فقال لنفسه : « تلح عليه ؟ لماذا تلح ؟ كلام فارغ ... وهبه غير فارغ فماذا يعنينى من رفقة أو غيرها ؟ ... لماذا أعذب نفسى وأشقيها ؟ . . ليس همى رفقة . . . بل همى أن أجد فتاة أحبها وحسبى منها ألا أكون ثقيلا عليها وبغيضاً إليها ... يا لتهكم الأقدار ... كانت لنا فتاة تحبنا وتقنع منا بأن ندعها تحبنا ... ولم نكن نكرهها . . ولكنا اغتررنا وتبطرنا فرفسنا النعمة التى ساقها إلينا حسن الحظ والآن نندم ونشتهى أن نحب ونقنع بألا نكون ثقلاء ... يا لسخرية الأقدار ! »

وقال لفكرى : « أرجو أن تعفينى . . . لا أستطيع ... رأسى لا أدرى ماله ... ولكنى لست فى حالة تصلح لمثل هذه الجلسة »

فقال فكرى ملحا : « قم يا شيخ ... رفه عن نفسك ... هذا تأثير العمل المتواصل ... يجب أن تريح نفسك قليلا ... إن هذا انتحار ... قم . قم . . »

فأبى عاقل إلا العناد ، وأصر على الاستعفاء ، فلم يجد فكرى حيلة فانصرف آسفا

ولم يكد يذهب حتى ندم عاقل ونازعته نفسه أن يلحق به ، ولولا الحياء لفعل . وخرج من مكتبه وهو يقول لنفسه : « مالى أنا ؟ إنهما حبيبان فما

محلى بينهما ؟ حسنا فعلت بالاعتذار » وقال لسائقه — فقد كان له سائق يعفيه أكثر الأحيان من العمل — : « اذهب أنت بالسيارة . . سأتمشى »

فسأله السائق : « ألا أقول لهم شيئاً في البيت ؟ »

قال : « لا أعرف متى أعود ... وخـذ ... أعط الست هذا »

وناوله خمسة جنيهات ، وأحس بالراحة لما فعل ذلك كأنما كفّـر به عن سيئة الصباح والريال الذى دس به يده تحت المخدة ولم يترك سواه لزوجته ؛ ومشى يحدث نفسه أنه كان سخيفاً مجرماً ... معه كثير ... غير الخمسة الجنيهات التى دفع بها إلى السائق أيضاً ... ومع ذلك يستبقيها ويترك ريالاً ... ولماذا ؟ ... لأنه قد يتفق له أن يلتقى ... أوه يالسخافة ... ونقص العقل ... وسوء الرأى ... ماذا ترى يكون رأى زوجته فيه لو عرفت هذا ؟ .. زوجته التى تثق به ولا يمكن أن يختلج فى نفسها شك أو تخطر على بالها ريبة ؟.. ولو كانت زوجته من هؤلاء المصريات اللواتى لا يفتأن يخرجن إلى حيث لا يدرى أحد ؟ ... أعوذ بالله ! ... لا بل الحمد لله ، والشكر له ، على هذه النعمة الجزيلة ... نعمة الاطمئنان على عرضه وشرفه ... وهل جزاؤها أن يخونهـا وهى آمنة مطمئنة ، وواثقة فى عفته وطهره ؟ ... لا . يجب أن يكف عن هذا كله ... إن أعصابه متعبة مرهقة ، وهو يزيدها إرهاقاً بهذا السـلوك المعيب ، فليكف ليريح أعصابه ، إذا لم يكف وفاء لزوجته واحتراما لها ... بل يكف وفاء لها ، وإلا كان الـكف غير خليق بأن يريح ضميره ... يكف والسلام ... هـذا هو المهم ... البواعث لا تهم هنـا ... ولـكن أهى لا تهم ؟ ولا قيمة لها ... أهذا صحيح ؟ ... أوه ... هـذا وجع رأس ... أكف والسـلام ... وبعد ذلك أبحث عن البواعث ... أستطيع أن أقنع نفسى بشرف البواعث ... ولـكن لمـاذا أغالط نفسى فى الحقائق ؟ ... أمغفل أنا ؟ ... من الذى قال إنى أغالط نفسى ؟ ... إذن كن صريحاً ياشيخ ... هب الآن أن فتاة جميلة من اللواتى يصبو إليهن قلبك قابلتك الآن ؟ ... مجرد فرض بالطبع ... لا أمل فى ذلك ولا مطمع ... ومن أين تجىء مُنى النفسِ هذه ؟ ... ليتها تجىء ! ...

وإنه لماش يحدث نفسه بهذا وما إليه ، وإذا به يلتقى بصديق يصيح به بصـوت عال كأنما ظنه أصم : « أهلاً » وعطها كأنما يصيح بقوم بعيدين ، فقال له عاقل : « ماذا عندكم اليوم من المأكل ؟ » وكانت صداقته به وثيقة ، وبين الأسرتين مودة ، فقال صاحبه « زكى » :

« أوه . . وما الذى أدرانى ؟ تعال معى وكل الموجود »

قال عاقل : « حسن . امض بى الى المائدة فانى أتضور جوعا »

فسأله زكى : « وأين السيارة ؟ مع الست ؟ »

قال : « لا الست ولا السيد . . . تركتها لأتمشى »

وبلغا البيت وأقبلت عليـــه أخت زكى — كريمة — تحييه وترحب به ، فقال زكى : « ألا تهنئها ؟ »

قال عاقل : « خير ان شاء الله ؟ . مبروك على كل حال »

فاضطرم وجه كريمة ، وكانت صبيحة الوجه

نضيرته ، ونجلاء حوراء ، وهيفاء ممشوقة ، وقال زكى : « أنظر الى يدها وخمن »

فنظر عاقل فرأى الخاتم فابتسم وقال : « هل أهنىء بلسانى أو بفمى ؟ »

فقال زكى : « وما الفرق ؟ »

قال : « الفرق هو هذا . تعالى هنا يا ستى . . أين ينبغى أن أقبلك ؟ . . أقول لك . . فى كل مكان إلا شفتيك . . أدع هذين لخطيبك . . فان هذا حقه ولا يجوز أن أعتدى عليه »

ودار بنفسه إحساس غريب وهو يلمس خدها الناعم الطرى ، بشفتيه ، فنظر فى عينيها وهو مقطب وإن كانت عينه تضحك وقال : « هو أولى بالتهنئة .. ليتنى أكون على يقين من أنه يستحقك . . . من هو على كل حال ؟ »

فقال زكى : « ابن عمى ، سيد »

فقال عاقل : « سيد ... ! »

وأمسك فما يليق أن ينال منه أمام خطيبته ، ويبسط لسانه فيه على مسمع منها ، مهما بلغ من سعة صدرها

وقال زكى : « يظهر أنك لا ترضى عنه ؟ »

فقال عاقل : « طبيعى ألا أرض عن أى رجل يخطفها منا »

فقالت كريمة : « ولكنه لن يخطفنى »

فقال عاقل : « بالطبع سيخطفك ... أنت نرجستنا الآن جميعاً ولكن غداً ؟ تكونين نرجسته هو وحده ... ثم إنه سيذهب بك الى الأقصر ، فلا نعود نراك إلا كل حين وحين »

وقاموا الى طعامهم ، فقال عاقل وهو يفرك الخبز الطرى ، أو لبابه على الأصح ، ويفتله :

« ما قولك يا زكى ! إنى أريد أن أحب »

فقال زكى وقد تولته الدهشة : « تريد ... أن تحب ... ؟ »

قال : « غريب ... أليس كذلك ؟ ولكنها الحقيقة ... نعم أريد أن أحب ... أخشى على نفسى هذا الجفاف فى حياتى ، أحس أنى سأذوى إذا لم يسقنى الحب ماء الحياة ... »

فقال زكى : « ولكن هل الحب بالارادة ؟ »

وقالت كريمة : « ولكنك تحب زوجتك ؟ »

فقال يجيبهما : « نعم بالارادة ... أشغل قلبك بامرأة معينة ، يُشْغَل ... وأنت يا مولاتى أقول لك إنى أحب زوجتى ... وسأظل أحبها ... ما فى هذا شك ... بحكم العادة على الأقل ... ولكنه حب هادىء فاتر ... قولى إذا شئت إنه حب رزين . . وماذا ينفع الحب الرزين ؟ ... ان الانسان يحتاج أحيانا الى وقدة الأتون ليصهر نفسه فى النار ، فيصفو معدنه من الأخلاط التى تتكدس كالصدأ على السلك فتقطع تيار الحياة . . التيار الروحى الذى هو سر الحياة ... وهذا ما لا تستطيع زوجتى الآن ... ولا أنا أستطيعه لها ... كلانا أصبح غير صالح لأن يثير فى نفس صاحبه تلك الزوبعة التى تحرك أعماق النفس وتُطْفى على السطح بعض ما رسب فيها ، وما لعله أصلح من الطافى الآن ... النفس تحتاج الى الزوابع أحيانا لابراز الكامن وإثارة الدفين ... من يدرى ماذا فى أعمق أعماق نفسى ؟ ... وماذا يمكن أن يدفع بهذا المضمر الا ثورة شديدة ؟ ... وكم دفنت حبا بارادتى ، فلماذا لا أحب بارادتى ؟ ... »

فقالت كريمة — وأحس عاقل من نبرات

صوتها العطف — : « يظهر انك تعذبت كثيرا ... صوتك وحده يدل على ذلك »

فقال عاقل بابتسام : « أوه ! ... إن أشد ما يعذبني . . أقسى ما أ كابد ، هو هذا الفراغ . . نفسي أصبحت صحراء جرداء فهل ألام إذا رحت ألتمس الري والخصب ؟ »

فقالت كريمة : « ولكن زوجتك . . . لا تستحق هذا منك »

فقال : « يافتاتي تعلمي هذا الدرس .. لا ننتظرى أن تظل نار الحب مستعرة .. لا يمكن . . ما من شيء في الدنيا يدوم ويخلد على الأيام ، فلماذا يخلد الحب وحده ؟ . . هل تحبين خطيبك هذا ؟ »

فاستحيت أن تقول شيئا ، ولكنه خيل إليه أنه يستطيع أن يقرأ في وجهها أن كل فرحتها هي بالزواج في ذاته ، وأنه ليس ثم فيما عدا ذلك شيء خاص .

وكأنما أرادت أن تحول الحديث عن مجراه ، فقالت وهي تضحك : « قل لي من تنوى أن تحب ؟ »

قال : « من تظنينها جديرة بحبي ؟ اختارى لي »

قالت : « هل تريد أن تتزوج ؟ »

قال : « يا للمرأة ؟ لا تفهم إلا هذا الاحتكار الممل ... كلا ... أريد أن أحب ... فاختارى لي كما يختار الصاحب لصاحبه الجياد التي يظنها رابحة في السباق »

قالت وهي تضحك : « مرسى ... جعلتنا جياداً ... »

قال : « لا تهربي ... إنك تعلمين أني لا أعني هذا ... فاختارى ... أريني ذوقك »

فاتقد وجهها وقالت : « وهل أنا أعرف ! »

ونهض ليرقد دقائق ، فقد كان والداها في طنطا يزوران السيد البدوى ، فني البيت متسع له ، وخطر له وهو يمضي الى غرفة من غرف النوم ، وهي تمشي أمامه ، أن في وسعه أن يحبها ... فان لها لفتنتها ، وإن كانت دون اللينور — ايللي كما اعتاد أن يسميها — آه لماذا ترك ايللي وتخلى عنها ؟ حماقة ! لا خير في الندم الآن ... ونام وهو يفكر في كريمة وفي إمكان ... ولكن كيف يمكن ! كيف يمكنني ؟

وأيقظته ، كما رجا منها أن تفعل حوالي الساعة الخامسة مساء ، فمد يده اليها فأنهضته ثم أراح كفه على كتفها وهو يقف وأحس أن يده انحدرت عفواً الى صدرها ، ولمست ثديها الناهد ... فشعر بالدماء تغلي في عروقه ، ودار رأسه فجذبها اليه ، وضمها وقبلها ... قبل فمها هذه المرة

وقالت وقد تخلصت من عناقه : « احذر أن تغلط مرة أخرى ... لست لك ... »

فسألها : « ولماذا لا تكونين لي » وخطر له أنها تقول له ما قاله هو لايللي ؟ يا للسخرية !

قالت : « أنت تعرف ... »

قال : « أتكرهين أن أحبك ؟ »

قالت : « هل تحبني ؟ »

قال : « من يدرى ! ربما كنت أحبك ... لعلي كنت أحبك طول الزمن الذي أتوهم فيه أني لا أحب ... لعل هذا كان السبب فيما أحس أني أعانيه من الشقاء ... شقاء الذوى والجفاف ... سأرى الليلة ... غدا أقول لك هل أحبك أو لا أحبك »

قالت : « لماذا تتهكم على ؟ »

قال : « والله إنى لصادق ... لست أعرف نفسى ... تعالى ... »

قالت : « احذر ... ألم أقل إنى لست لك ؟ ثم ان زكى قادم »

قال : « أهذا كل ما تخافين ! »

قالت : « كلا ... لست لك ... فلا تحرجنى »

قال : « قبلة واحدة »

فهزت رأسها وقالت : « إنى آسفة ... متألمة لك .. أشعر أنك غير سعيد ... ولكن ماذا أصنع اعذرنى »

قال : « أشكرك على هذه . صدقت . لست لى معذرة »

قالت : « الآن خذ القبلة . أصبحت تستحقها . »

فقبلها . لا قبلة خفيفة بل بنهم وشره ، فقالت وهى تنأى عنه وتتحسس شفتيها : « أعوذ بالله ... ورمت شفتاى ، ما هذا ؟ »

قال : « اعذرينى ... صرت كالجمل الذى يدخر للأيام المقبلة .. أيام القحط والمحل والجوع .. »

ومضى بهما فى ذلك المساء إلى السينما ، وكانت جالسة بينه وبين أخيها ، فكان يهمس فى أذنها من حين إلى حين ، كأنما كان يفترض علمها بما هو دائر فى نفسه من الخواطر : « صدقت . لست لى » فكانت تبتسم ولا تقول شيئاً . وماذا عسى أن تقول ؟. ثم همس : « هل أنت ساخطة على ؟ »

قالت : « كلا . بل أنا متوجعة لك . ومتعجبة أيضا : أظن أنك محتاج إلى راحة »

قال : « صدقت . إنك حكيمة جداً . وقعت على السر . اهتديت إلى أصل الداء . الراحة ؟ كيف السبيل اليها وأنا كالبغل المشدود إلى الساقية وكلما ونى أو وقف صاح به صاحبه : « عا ... عا » أو ألهب ظهره بالسوط ... ليس لى سيد ... ولا أسمع أحداً يصيح بى ليستحثنى ... ولكن السوط فى يد الزمن ... ووقعه على روحى ، لا على الجلد ، ولو كان على الجلد لهان . نعم يجب أن أرتاح ... أقول لك ... سأذهب الى لبنان وآخذ زوجتى وأبنائى معى ... ليتك تجيئين معنا ... إذن لتم هنائى ... هل تستطيعين ؟ »

فهزت رأسها فقال : إذا كان كل ما يمنعك ... فهذا لا قيمة له » ولم يصرح

فقالت : « كلا ... يجب أن أكون بعيدة عنك ما رأيت منك اليوم يوجب الحذر من قربك ... أنت كالنار ... ولست أريد أن أحترق »

قال : « صدقت ... وأنا يجب أن أخمد نارى ولماذا ؟ ولكن لماذا أخنق نفسى ؟ »

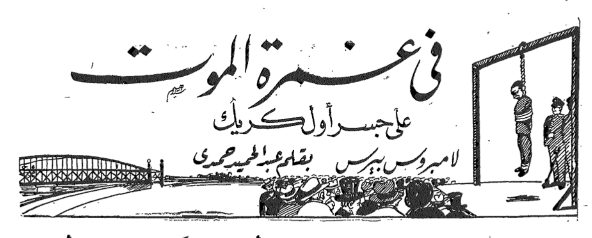
قالت : « يجب ... إنى كبنتك ، ولكنى أعرف أن هذا هو الواجب وألح عليك أن تلتزمه

فأحس أن خنجرا نفذ الى قلبه ... كبنته ... وارتفعت يده إلى شعره كأنما ظن أنه فى وسعه أن يرى الشعر الأبيض فى الظلام بيده ! ! كبنته ؟ ؟ لولا هذه الشعرات البيضاء ؟ ؟ أوه ! . . ما الفائدة ؟ ما الفائدة ؟

وظلت كلمتا « ما الفائدة » تدوران فى نفسه ، ويرددها بلا صوت ، وهو راقد فى ليلته تلك ، على سريره إلى الفجر حتى غلبه النوم !

ابراهيم عبد القادر المازنى

(٤)



— ١ —

على جسر للطريق الحديدية فى آلاباما الشمالية، وقف رجل ملوى الساعدين إلى ما وراء ظهره، مشدود الوثاق عند المعصمين، وقد أحيط عنقه بحبل مهوى معقود إلى صليب من الخشب المتين فوق رأسه، وقد تدلت نهاية الحبل إلى مستوى ركبتيه. وكانت عيناه شاخصتين إلى الماء السريع الجريان تحت عشرين قدماً من موقفه

وفوق الكتل الخشبية المرتكزة عليها القضبان الحديدية، وضعت ألواح من الخشب غير مثبتة أعدت ليقف عليها الرجل وجلادوه، وهم جنديان من جنود المراسلة فى جيش الاتحاد يقودها ضابط صف يغلب أنه يعمل فى الحياة المدنية نائب عمدة، وعلى مسافة قريبة فوق هذه البسطة الموقتة نفسها وقف ضابط مسلح، فى ملابس الجندية التى تدل على أنه قائد مائة، وعلى كل من مدخلى الجسر وقف جندى يحمل بندقيته فى وضع عمودى أمام مقدمة الكتف اليسرى، وقد ارتكزت قاعدتها على الزند الممدود أفقياً على الصدر — وهو وضع رسمى غير طبيعى يرغم الجسم على التصلب فى وقفة متعبة

ولم يكن يبدو من هيئة هذين الحارسين أن من مهمتهما معرفة ما يجرى وسط الجسر، فقد كان كل عملهما أن يسدا الممر الخشبى المعد لعبور الماشين على الأقدام، ولم تكن العين لتقع وراء أحد هذين الحارسين على شبح إنسان، فقد كان الخط الحديدى يتجه مستقيما إلى الغابة مسافة مائة ياردة ثم يلتوى ويختفى عن الأنظار، وما من شك فى أن كان هناك وراء ذلك مخفر أمامى، وفى الضفة الأخرى من النهر فناء مفتوح، يحيط به سور من جذوع الشجر العمودية، التى تستعمل المسافات الضيقة بين أحدها والآخر فتحات لاطلاق البنادق من خلالها، وفى البناء كوة واحدة تبدو منها ماسورة مدفع من النحاس يتحكم فى الجسر، وفى وسط الطريق بين الحصن والجسر. وقف النظارة الذين سمح لهم بمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام — ولم يكن هؤلاء النظارة غير صف واحد من جنود المشاة، وقفوا موقف الاستعراض، ارتكزت بنادقياتهم على الأرض، ومالت مواسيرها قليلاً إلى الوراء مستندة إلى أكتافهم اليمنى بينما أيديهم مشبكة حول سوق هذه البنادق، ووقف إلى يمين الصف ضابط برتبة ملازم ارتكز سن سيفه على الأرض، وقد استندت يده اليسرى إلى اليد اليمنى. وفيما عدا الأربعة الرجال، القائمين فوق الجسر بمهمة التنفيذ، لم يكن أحد ليتحرك، بل وقف الجميع ينظرون إلى الجسر ثابتين كالصخور الجامدة، أما الحارسان اللذان يواجهان ضفتى النهر؛ فقد

كانا أشبه بتمثالين يزينان مدخل الجسر

ووقف الضابط قائد المائة مشبك الساعدين على صدره يرقب فى صمت عمل مساعديه ، والحق أن الموت لذو مقام عظيم ، إذا أقبل ، معلناً عن قدومه ، استقبل بمظاهر الاحترام الرسمية حتى لدى هؤلاء الذين ألفوه ، والسكوت والجمود من مظاهر الاحترام فى القانون العسكرى

وكان الرجل الذى اتخذت هذه الاستعدادات لاعدامه ، لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ، فيما يبدو من مظهره ، تدل ملابسه وهى ملابس المزارعين ، على أنه من الرجال المدنيين ، جميل تقاسيم الوجه مستقيم الأنف ، ثابت الفم ، واسع الجبين ، قد سرح شعر رأسه الأسود الطويل إلى الوراء متدلياً خلف أذنيه ، إلى ياقة سترته الحسنة القطع ، ذا شاربين ولحية مدببة ، واسع العينين أسودهما ، فى نظرته رقة يصعب أن يراها الانسان فى عينى الرجل الذى وضع عنقه فى خية الجلاد ، وكان واضحاً أن ذلك الرجل لم يكن من القتلة السفاكين ، على أن قانون العسكرية المطلق كفيل باعدام أى صنف من أصناف الناس دون استثناء للسادة من ذوى الخلق الكريم

وإذ تمت معدات التنفيذ وثب الجنديان المحيطان بالمحكوم عليه عن موقفيهما وسحب كل منهما لوح الخشب الذى كان واقفاً عليه ، والتفت ضابط الصف إلى قائد المائة ، فحياه ووقف وراءه مباشرة . وفى هذه اللحظة ترك الضابط مكانه ووقف على مسافة خطوة من مصطبة الاعدام . وكان من أثر هذه الحركات المتتابعة أن ترك المحكوم عليه وضابط الصف واقفين على طرفى لوح واحد من الخشب ، مرتكز على ثلاثة من أربطة الجسر الحديدية ، وكان موقف المحكوم عليه قريباً من رباط رابع ولكنه غير متصل به . وكان ثقل قائد المائة الذى حل محله ثقل ضابط الصف هو الحافظ لتوازن اللوح الخشبى والحائل دون سقوطه ، فمتى أشار القائد لضابط الصف إشارة التنفيذ ، وتنحى هذا عن موقفه مال اللوح بالمحكوم عليه فيسقط الرجل بين رباطين من أربطة الجسر . وهكذا كانت الاستعدادات التى اتخذت لاعدام الرجل بسيطة فعالة ، ولم يكن وجهه قد غطى ولا عيناه عصبتا . ونظر الرجل لحظة إلى موقفه المزعزع ، ثم شخص ببصره تائهاً إلى الماء المضطرب فى عنف جنونى تحت قدميه ، فاسترعت انتباهه قطعة من الخشب ترقص فوق الماء ، فتبعها نظره وهى تسير مع التيار . فما كان أبطأ حركتها فى تقديره ! وياله من نهر بليد مكسال !

أغمض الرجل عينيه وحصر تفكيره الأخير فى امرأته وأطفاله ، ولكن الماء الذى ألقت عليه شمس الصباح وشاحها الذهبى ، وأثر الضباب المتبدد فوق الماء على مسافة غير قريبة من موقفه ، والحصن والجنود ، وقطعة الخشب العائمة فوق الماء ؛ كل هذه المرئيات التى وقع عليها نظر الرجل التعيس قد شتت تفكيره ، فلم يستطع حصره كما أراد — على أن عاملاً جديداً للاضطراب قد أضيف الآن إلى هذه العوامل ، فقد شوش تفكيره فى أعزائه صوت لم يستطع تجاهله ولا فهمه ، صوت معدنى ، حاد . واضح ، أشبه بصوت ضربات مطرقة الحداد على السنديان ، فرنة الصوتين واحدة ، ولقد حار فى تعرف مصدر ذلك الصوت ، ولم يستطع أن يتبين إن كان هذا الصوت قريباً منه أو بعيداً عنه — فقد خيل إليه أنه قريب وبعيد فى وقت

واحد . وكان تتابع الدقات منتظما ، ولـكنه كان بطيئاً كدقات ناقوس الموت . وكان ينتظر — وهو لا يدرى لماذا — هـذه الدقات بصبر فارغ وتنبه شديد . وكانت الفترات بين الدقات بعضها وبعض قد بدأت بالتدريج ، وأصبح تباطؤها مما يسبب الجنون ، فقد اصطحب هذا التباطؤ الشديد بازدياد الضربات قوة وحدة ، فـكانت تؤذى أذنيه كما لو كانت وخزات سكين ، ولقد خشى الرجل أن يصبح متوجماً . ولم تـكن هذه الدقات غير دقات ساعته !

وعاد الرجل ففتح عينيه فرأى الماء تحته مرة ثانية . وقال فى نفسه : « لو استطعت أن أخلص يدى من قيدها لـكان من الميسور أن أطرح الحبة عن عنق وأن أثب إلى الماء . وعندئذ أستطيع أن أتقى طلقات الرصاص بأن أغطس تحت الماء ، وإذا سبحت بقوة وصلت إلى الشاطئ واندفعت إلى الغابة ثم وصلت سالماً إلى دارى . وأحمد الله ألا نزال بيتى بعيداً عن خطوطهم ، وما زالت امرأتى وصغارى الأعزاء وراء أبعد نقطة وصل إليها العدو الغازى فى تقدمه »

وبينما كانت هذه الأفـكار ، التى نصورها هنا كلمات تندفع إلى رأس المحـكوم عليـه بدل أن تخرج منه ، أشار قائد المـائة إلى ضابط الصف ، فوثب الضابط متنحياً عن موقفه

— ٢ —

كان بيتون فاركوهار مزارعاً ميسر الحال من أسرة قديمة لها فى نفوس الناس مكانة ساميـة من الاحترام . وإذا كان الرجل مالك رقيق ، وكان كغيره من ملاك الرقيق سياسياً ، فقد كان بالطبيعة من طلاب الانفصال الأصليين ومن أشـد الناس تحمساً لقضية الجنوب . ولقد حالت ظروف ، لا ضرورة لشرحها هنا ، هى ظروف طبيعة متكبرة مستبدة ، دون اشتراكه مع الجيش الباسـل الذى حارب المواقع الخطيرة التى انتهت بسقوط كورنث وقد ثارت نفسه لهذا التراجع المعيب ، وتطلع إلى الفرصة التى يستخدم فيها نشاطه فيحقق أعظم ما يطمح إليه الجندى من الصيت الحسن والتميز ، ولقد كان يشعر فى نفسه أن هذه الفرصة ستأتى كما تأتى لـكل إنسان فى زمن الحرب ، وفى الوقت نفسه فعل كل ما فى مقدوره أن يفعل . فلم يكن ليأنف من أداء أى عمل بالغة ما بلغت تفاهته لمساعدة الجنوب ، ولم يكن ليتردد أمام أى خطر عكن أن تنطوى عليه أية مغامرة إذا كانت مما يتفق وخلق الرجل المدنى الذى هو جنـدى فى قرارة نفسه ، والذى أغرته عقيدته السليمة وقلة مؤهلاته بأن يأخذ ولو بجزء واحد — على الأقل — من التعليم الصارخ الشر القائل بأن كل شىء مباح فى الحب وفى الحرب

وفى ليلة ، بينما كان فاركوهار وزوجه جالسين فوق مقعد ريفى على مقربة من مدخل دارهما ، دنا من الباب جندى من الفرسان فى ملابس رمادية ، وطلب ماء ليشرب . فكان من أشد بواعث السرور إلى نفس السيدة فاركوهار أن تقدم له الماء بيديها البيضاوين . وإذ دخلت إلى الدار لتحضر المـاء اقترب زوجها من الفارس الأغبر وسأله فى لهفة عن أخبار ميدان القتال

فأجاب الجندى : الأعداء مشتغلون بإصلاح الطرق الحديدية والاستـعداد لتقدم جديد . وقد وصلوا إلى جسر أول كريك ، وأصلحوه ، وبنوا حصناً على الضفة الثانيـة . وأذاع القائد منشوراً

علق فى كل مكان ، أعلن فيه أن كل مدنى يضبط ، وهو يحاول العبث بالطرق الحديدية أو جسورها أو أنفاقها أو القطارات ، يشنق فى الحال . ولقد رأيت هذا المنشور بنفسى

— وكم هى المسافة من هنا إلى جسر أول كريك ؟

— حوالى ثلاثين ميلا

— ألا توجد قوة على هذه الناحية من النهر ؟

— لا يوجد غير مخفر للبوليس الحربى على مسافة نصف ميل من الجسر إلى جانب الطريق الحديدى ، وحارس واحد عند مدخل الجسر

فقال فاركوهار مبتسما :

— وإذا فرضنا أن رجلا — وليكن مدنياً وطالب شنق — استطاع أن يمرق ، غير ملاحظ ، من مخفر البوليس الحربى وأن يتغلب على الحارس ، فماذا يكون فى مقدوره أن يفعل بعد ذلك ؟

ففكر الجندى قليلا ثم أجاب :

— لقد كنت هناك منذ شهر ، ولاحظت أن فيضان الشتاء الماضى قد حمل كميات كبيرة من الأخشاب فكدسها بجانب الدعامة الخشبية عند نهاية الجسر ، وهذه الأخشاب الآن جافة ويمكن أن تلتهب كالحطب

وهنا وصلت السيدة تحمل الماء ، فشرب الجندى وشكر لها صنيعها فى احترام شديد وانحنى لزوجها ثم انطلق بجواده . وبعد ساعة ، بعد أن هبط الظلام ، عاد مرة أخرى فمر بالمزرعة متجهاً إلى الشمال فى نفس الطريق التى جاء منها فى المرة الأولى

لقد كان الرجل كشافا فى جيش الاتحاد

— ٣ —

عندما سقط بيتون فاركوهار تحت الكبرى من الفرجة بين الرباطين ، فقد صوابه ، وأصبح كالرجل الذى فارق الحياة ، ولم يوقظه من هذه الحال — بعد أجيال ، على ما خيل إليه — إلا ألم ضغط شديد حول عنقه ، تبعه شعور بالاختناق ، وأحس بآلام حادة شديدة تسرى من عنقه هابطة فى كل عصب من أعصاب جسمه وأطرافه ، وخيل إليه أن هذه الآلام تومض فى خطوط معينة تعييناً دقيقاً متفرعة فى كل ناحية من نواحى هيكله ، وهى تدق دقاً متوالياً فى سرعة لا يدركها العقل ، وكأنها أنهر من النار الخانقة تصعد بحرارته إلى درجة تفوق حد التصور ، أما رأسه فلم يشعر فيه بشىء غير الاحتقان التام ، ولم تكن جميع هذه الاحساسات مصحوبة بشىء من التفكير ، فلقد طمس جانب التفكير من طبيعته طمساً كاملاً ، ولم يبق له غير قوة الشعور ، وكان الشعور مؤلماً مسبباً للعذاب ، كان يشعر بالحركة ، وأحس بأنه مغمور فى سحابة ملتهبة هو قلبها المتقد ، وأخذ يتأرجح وسط دوائر غير مستقرة ، وهو مجرد من القوة المادية التى يستطيع بها أن يملك قياد نفسه ، فهو يتأرجح دون تفكير وبغير إرادته ، أشبه ما يكون برقاص الساعة ، ثم إذا بالضوء المحيط به يندفع إلى أعلى اندفاعا مفاجئاً مرعباً مصحوباً بصوت تخبط الماء تخبطاً مخيفاً مزعج الدوى فى أذنيه ، ثم إذا كل ما يحيط به بارد مظلم ، وعادت إليه قوة التفكير ، فأدرك أن الحبل الذى يحمله فى الهواء قد قطع ، وأنه قد هوى إلى قاع النهر ، وليس فى ذلك ما يسبب له اختناقاً جديداً ، فلقد كانت الحية حول عنقه

تخنقه فعلا وتحول دون وصول المــاء إلى رئتيه ، أيموت فى قاع النهر مخنوقا بحبل ؟ ! لقد بدت له هذه الفكرة فكاهة تبعث على الضحك ! ففتح عينيه فى ذلك الظلام الدامس ، ورأى فوقه وميضاً من النور ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف المدى بينه وبين هذا الضوء ، ولامبلغ الصعوبات التى تعترض الطريق إليه ! وكان لا يزال يهبط ، فأخذ الضوء يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى أصبح مجرد بصيص ، ثم عاد الضوء ينمو ويزداد وضوحا ، إذن هو يرتفع مرة أخرى إلى سطح الماء — أدرك ذلك كارهاً ، لأنه كان فى مستقره هــذا يشعر بشىء من الراحة والاطمئنان ، وقال فى نفسه : « ليس من المكروه أن يشنق الانسان ثم يغرق ، ولكننى لا أريد أن أضرب بالرصاص ! لا لن أضرب بالرصاص ، فهذا أمر غير محبوب »

لم يكن المشــنوق الغريق مدركا أنه يبذل أى جهد فى سبيل الخلاص ، ولكن ألماً حاداً فى معصميه نبهه إلى أنه كان يحاول تحرير يديه من قيدها ، فالتفت إلى هذا الجهد كما يلتفت البليد إلى حركة المشعوذ غير مكترث للنتيجة ، ويا له من مجهود عظيم ! — يا لها من قوة هائلة فوق طاقة البشر ! آه .. لقد كان ذلك جهداً بديعاً ! مرحى ! لقد أفلت الحبل معصميه ، وانطلقت ساعداه حرتين تطفوان فوق المــاء ، وقد رأى يديه على جانبيه فى فى شىء من الغموض ، كأنما يراها من وراء السحب ، وكان الضــوء يزداد انتشاراً لحظة بعد أخرى ، ولم يلبث أن اهتم بحركتهما عند ما اندفعت الأولى ، ثم تبعتهــا الأخرى وانثنتين على الحبل الملفوف حول عنقه ، لقد اختطفتا ذلك الحبل وقذفتا به بعيداً فى كثير من العنف ، وقد أشبه تلويه تلوى ثعبان الماء ، فخيل للرجل أنه قد صاح مخاطباً يديه : « أعيداه مكانه ! أعيداه مكانه ! » فقد أعقب نزع الحية عن عنقه ألم مبرح قاس لم يكن قد أحسه بعد ، كان عنقه يتوجع توجعاً مروعا ، وكأنما النار تلتهب فى رأسه ؛ وقلبه ، الذى كان يدق دقاً ضعيفاً ، وثب الآن وثبة كادت تخرجه من فمه ، وفى الجملة دب الألم والوجع الذى لا يطاق فى كل قطعة من جسمه ، ولكن يديه العاصيتين لم تحفلا بأمره ، فقد أخذتا تضربان المــاء فى عنف ضربات سريعة الى أسفل ، مرغمتين الجسم بذلك على الصعود وشعر برأسه يبرز من المــاء ، ثم غشيت عينــاه بضوء الشمس المشرقة ، وتمدد صدره فى حركة تشنجية ، وابتعلت رئتاه فى ألم قتال كمية كبيرة من الهواء لم يلبث أن زفره متوجعاً !

أصبح الرجل الآن مالــكا جميع مشــاعره الطبيعية . وفى الحق قد سارت جميع حواسه حادة متيقظة لدرجة غير عادية . فالاضطراب المروع الذى أصاب جهازه العضوى قد ضخم هذه المشــاعر وأرهفها : حتى أصبحت تدرك أشياء لم تكن من قبل تدركها

فهو يحس وقع قطرات الماء على وجهه ويسمع أصواتها المتفرقة كلما أصابته . ونظر إلى الغابة على ضفة النهر ، فرأى الأشجار شجرة شجرة ، ورأى أوراقها واهتزاز كل ورقة وحــدها — ورأى الحشرات تمشى فوق هذه الأوراق ، رأى الجراد ، والفراش البــديع الألوان ، والعنكبوت الرمادى يصــل غزله من غصن الى غصن ، ورأى الألوان المتماوجة فى قطرات الندى وهى تتساقط على الملايين

من أوراق الحشيش . وسمع طنين البعوض الذى يرقص فوق زوبعة النهر ، كما سمع ضربات أجنحة فرس البحر وهى تصيب سيقان عنكبوت المـاء ، مشبهة المقاذيف التى تلطم المـاء على جانبى الزورق لتدفعه الى الأمام — وقد تألفت من جميع هذه الأصوات نغمات موسيقية شديدة الوضوح ، ومرقت تحت نظره سمكة فسمع صوت تصادم جسمها مع الماء وهى تشقه على الجانبين

وطفا الرجل على سطح الماء ناظراً إلى النهر أسفل منه ، وفى لحظة أحس بالدنيا التى يقع عليها بصره وهى تدور حوله فى بطء شديد ، وهو نفسه قد أصبح مركز الدائرة ، ورأى الجسر ، والحصن وقائد المائة ، وضابط الصف ، وجندى المراسلة ، تلك المجموعة من الرجال التى أنفذت فيـه حكم الاعدام . لقد كانوا كلهم فى نظره أشباحاً سوداء تعترض المدى بينـه وبين السماء الزرقاء فصاحوا وحركوا أطرافهم مشيرين إليه ، ولوح القائد بمسدسه ولـكنه لم يطلق النار . وكان الآخرون غير مسلحين وكانت حركاتهم سخرية فظيعة ، وكانت أجسامهم كبيرة هائلة

وسمع فجأة صوت طلق نارى ، وعلى مسافة بضع بوصات من رأسه صدم جسم جامد الماء صدمة شديدة أثارت رشاشه على وجهه ، وسمع صوت طلق آخر ، ورأى أحد الحارسين يحمل بندقيته على كتفه وقد انبعث من فوهتها دخان أزرق خفيف ورأى الرجل الطافى فوق الماء عينى الرجل الواقف على الجسر تحدقان فى عينيه من خلال منظار البندقية ولاحظ أن هاتين العينين رماديتان ، فذكر أنه قرأ يوماً أن العيون الرمادية هى أحد العيون نظراً ، وأن الرماة الذائعى الصيت كلهم من ذوى العيون الرمادية ومع ذلك فقد أخطأ هذا الرجل الرماية

وأصابت دوامة معارضة فاركوهار فأدارته ، فاذا هو يواجه ثانية الغابة على ضفة النهر المقابلة للحصن . فسمع من ورائه صوتاً قوياً منغماً مملا يخترق الهواء ، ثم أصاب الماء فى عنف وضجة غطت على ما عداه من الأصوات ، حتى صوت قطرات الماء المدوية فى أذنيه ، والرجل وإن لم يكن جنديا فانه قد ألف المعسكرات ، فهو يستطيع أن يفهم دلالة هذه الأغنية القوية البطيئة المضخمة . لقد كان الضابط على الشاطئ يشترك فى أعمال الصياح فهو فى جمود وقسوة ، وفى تلحين هادئ يحاول أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الرجال ، فكان ينطق بهذه الـكلمات فى وضوح وقسوة وفى فترات متزنة :

« تنبهوا . . تجمعوا . . احملوا السلاح . . استعدوا . . صوبوا . . أطلقوا . . »

فغطس فاركوهار فى الماء ، غطس إلى أبعد ما يستطيع أن يغطس . . فكان دوى المـاء فى أذنيه كدوى شلال نياجرا . وعلى الرغم من ذلك سمع صوت الطلقات النارية ، فلما صعد ثانية إلى سطح الماء رأى قطعاً من المعدن اللامع تهبط حوله فى بطء وقد انبطحت فى شكل عجيب ، وقد لمس بعضها وجهه ويديه ، ثم استمرت فى هبوطها إلى القاع ، وسكنت إحداها بين ياقته وعنقه ، وكانت حارة كالجمرة فانتزعها وألقى بها بعيداً

فلما طفا فوق سطح المـاء متلهفاً إلى استنشاق الهواء ، أدرك أنه قضى فترة طويلة غاطساً ، فقد سار مع التيار شوطاً بعيـداً ، فأصبح أقرب إلى السلامة ، وكان الجنود قد انتهوا من إعادة حشو

ببنادقهم ، ورأى بريق الكباسات فى ضوء الشمس وقد أخرجت من فوهات البنادق وارتفعت فى الجو ثم وضعت فى فتحاتها ؛ وأطلق الحارسان النار مرة أخرى دون انتظار أمر ضابطهما ، ولكن بلا طائل

رأى الرجل المطارد كل ذلك من وراء كتفه ، وكان فى هذه اللحظة يسبح فى عنف مع التيار ، ولم يكن رأسه أقل نشاطاً من ساعديه ورجليه ، فقد كان يفكر فى سرعة البرق ، وقال لنفسه معقباً على ما رأى :

« لن يكرر الضابط هذه الغلطة مرة أخرى ، فمن السهل أن يتقى الانسان الطلقات الكثيرة إذا أطلقت معاً ، كما يتقى الطلقة الواحدة ، ولعله قد أصدر أمره للجنود أن يطلقوا أحراراً غير مقيدين بأمره ، فليكن الله فى عونى فما أستطيع الافلات منهم جميعاً »

وعلى بعد ياردتين من مكانه سمع صوتاً مرعباً ردد الحصن صداه ، ثم أعقبه انفجار هائل أثار ماء النهر من قاعه ، وارتفعت فى الجو صفحة من الماء ثم سقطت فوقه فأعمته وخنقته ! لقد اشترك المدفع فى المطاردة ، وإذ خلص رأسه من الماء الذى غمره ، سمع صوت القنبلة الثانية تصفر فى الهواء ، وبعد لحظة اصطدمت بأشجار الغابة بعيداً عنه ، وانفجرت بينها ، فقال فى نفسه :

« إنهم لن يفعلوا ذلك مرة أخرى ، وسيطلقون فى المرة المقبلة قنبلة متفجرة ، فلأرقب المدفع بنظرى ، وسيدلنى الدخان ، فالصوت يأتى متأخراً لأنه يتلكأ وراء القذيفة ، وهذا المدفع من النوع الجيد »

وفجأة رأى الرجل نفسه يهوى دائراً حول نفسه كالدوامة ، فالماء ، والشاطئان ، والغابة ، والجسر البعيد ، والحصن ، والرجال ؛ كل هؤلاء اختلط بعضهم ببعض ، وقامت بينه وبينهم سحابة كثيفة . ولم يكن يرى الأشياء إلا بألوانها فقط . فهناك خطوط من الألوان المختلفة مستديرة وأفقية هى كل ما يبدو لناظريه . لقد انغمر فى إعصار مائى لفه وأدار كل شىء فى نظره ، فكاد يفقد الصواب وبعد لحظات وجد نفسه وقد طرحه التيار على الرمل فوق قاعدة الضفة اليسرى للنهر — الضفة الجنوبية فى منحنى يخفيه عن أنظار أعدائه . وكان وقوف حركته المفاجئ وجرح يده عند اصطدامها بالرمال ، هما العاملان اللذان أفاقاه وردا إليه الصواب فبكى سروراً ، ودس يده وأصابعه فى الرمل يقبض منه ويهيل على نفسه شاكراً له بصوت عال فضله عليه ، فكانت تلك الرمال فى نظره ذهباً وألماساً وياقوتاً وزمرداً ، وفى الجملة لم يكن يذكر شيئاً نفيساً الا شبه به ذلك الرمل العزيز

وكانت الأشجار فوق الشاطئ أشبه بنباتات عالية فى بستان بديع ، وقد لاحظ أنها منسقة تنسيقاً جميلا يأسر المشاعر ، واستنشق لها عبيراً منعشاً . ورأى من الفتحات بين سوقها ضوءاً ورديا خلاباً ، وكان الهواء يوقع على أغصانها نغمات أشبه بما روت الأساطير من أنغام قيثارة عواس ملاك الريح ، ولم يشعر الرجل بالرغبة فى إتمام هربه فقد أخذ بجمال هذا الموضع الساحر وود أن يستقر فيه الى أن يقبضوا عليه من جديد

ولكن أفاقه من هذا الحلم الجميل صفير الرصاص بين الأغصان فوق رأسه . فقد أطلق المدفعى الفاشل عليه قنبلة الوداع . فهم واقفا واندفع صاعداً الى الشاطئ المائل وغاب بين أشجار الغابة الكثيفة

ومشى اليوم كله مهتديا بحركة الشمس . وخيل إليه أن الغابة تمتد الى غير نهاية ، ولم يقع نظره فى أية ناحية من نواحيها على طريق مسلوكة ، حتى ولا درب من دروب قطاع الأخشاب ، ولم يكن يعلم أنه يسكن فى منطقة موحشة كهذه . ولقد كان لهذا الكشف فى نفسه أثر عجيب !

ولم يأت المساء حتى كان التعب قد أخذ منه ، وكانت قدماه قد أنهكهما المسير ، وقد أوشك أن يهلك من الجوع

ولكن التفكير فى امرأته وأطفاله كان حافزاً له على مواصلة التقدم ، ووجد آخر الأمر طريقا ، هى فيما يعلم الطريق التى توجه الاتجاه الصحيح . وكانت طريقا واسعة مستقيمة أشبه بطرقات المدن ولكنها لم تكن مع ذلك مطروقة ، فلا المزارع تكتنفها ولا على مقربة منها يلوح أى أثر للمساكن وحتى لم يسمع بها نباح كلب ينبئ عن وجود إنسان ، وكانت الأشجار الباسقة السوداء تؤلف جدارين مستقيمين على جانبيها ، يلتقيان على مدى النظر فى نقطة فى نهاية الأفق ، ونظر الرجل إلى السماء من خلال هذه الفرجة التى تشق الغابة ، فرأى مجموعة كبيرة من النجوم الذهبية المضيئة ، ولكن منظرها لم يكن مألوفا له ، وكان تجمعها عجيباً ، ولم يكن يشك فى أن هذه النجوم قد رتبت فى نظام معين يحمل فى طياته سراً سيئ الدلالة ، وكانت الغابة من الجانبين تدوى بأصوات غريبة ، سمع بينها أكثر من مرة كلاما بلغة لا يعرفها

وأحس فاركوهار الألم يشتد فى عنقه فرفع يده يتحسس موضع الألم ، فوجد العنق قد غار غوراً مفزعا ، وكان على بينة من أنه محوط بدائرة سوداء من أثر الحبل الذى ضغطه ، وشعر كأن عينيه قد جحظتا فلم يعد فى مقدوره أن يغمضهما ، وجف لسانه من العطش فحاول أن يخفف من حرارته بإبرازه من بين أسنانه فيلقى به الهواء البارد . وما أسرع ما غطت الخضرة الطريق غير المسلوكة ببساط لين سميك ! فلم يعد يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه !

لقد نام الرجل — على الرغم من تعبه — وهو سار على قدميه ، ما فى ذلك من شك . وإنه ليرى الآن منظراً جديداً — ولعله قد صحا من نوبة أصابته من هول ما لقى . إنه لواقف أمام باب بيته ، وكل شىء تقع عليه عيناه باق كما تركه ، وكل ما يرى وضاء جميل تحت شمس الصباح المشرقة ، فلا جدل فى أنه قد سرى الليل كله . ولقد دفع الباب فانفتح ومشى فى الممر الأبيض الواسع ، فابصر اهتزاز ملابس نسوية على بضع خطوات منه ، وهذه هى امرأته — فى نضارتها وثباتها وجمالها — تهبط درج الشرفة لتستقبله . ولقد وقفت عند قاعدة السلم تنتظر اقباله عليها ، وقد غمرت وجهها ابتسامة تنبىء عن فرحة يعجز القلم عن وصفها ، وهى فى موقفها هذا مثل للعظمة والسمو غير مقارن . آه ما أجملها ! لقد وثب إلى الامام مفتوح الساعدين ، وهو على وشك احتضانها إذا هو يشعر على مؤخر عنقه بضربة صاعقة ؛ وإذا ضوء أبيض يعشى الأبصار يكتنفه من كل ناحية مصحوبا بصورة كصوت المدفع المصمى — ثم إذا كل شىء مظلم ساكن !

لقد مات بيتون فاركوهار ، وهذه جثته مكسورة العنق ، تتأرجح فى الهواء ، فى تؤدة ، من ناحية إلى ناحية ، تحت دعائم جسر أول كريك

عبد الحميد حمدى



أخذ الناس على أنفسهم أن يتجنبوا سبيل الأخطاء ، ووضعوا نصب أعينهم أن يحيدوا عن طريق الأغلاط ؛ ومع ذلك فكثير منهم من يهوى فى هاويتها ، ويتردى فى حمأتها ؛ بل أصبحت وكأنها من مستلزمات الحياة ، أو من ضروريات البشر ، فقد ترى البعض يتدارك الخطأ قبل الوقوع فى نتائجه ، والآخر يقع فيه ويتخبط فى أشراكه وجرائره

بيد أن الأخطاء كثيراً ما يمحو بعضها بعضاً . وهنا نرى أن القدر يشاء للبعض أن يجنى من وراء ذلك ويربح ... ويشاء للبعض الآخر أن يخسر من جرائه بل ويهلك

***

أخذت يد « جرافيل فورلاند » ترتجف ارتجافاً تحت المصباح الكهربائى الموضوع على المكتب ، وهو يترع كأسه من شراب البراندى . وما كاد يفرغ من ذلك حتى تقلصت يده على الكأس وتمتم : لقد انتهى كل شىء ، وعما قريب سأمسى فى حالة أخرى ، آمن بها كل عدوان الدنيا وغدرات الناس ، وهجران الزمن

ثم غيب يده فى درج المكتب وأخرج مظروفاً وضعه نصب عينيه

لقد طالما عاب عليه رئيسه الكولونيل باكستر إهماله وتوانيه . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل راح يقدح فيه وينال منه أمام زملائه فى الجيش وإخوانه وقد قال له فيما قال . . . . « فورلاند ! . . سوف لا تسلم من ارتكاب الحماقات والأخطاء ما دمت حياً .. إن حياتك لمليئة بالأغلاط . مفعمة بالأخطاء منذ أن أدركت معنى الحياة . وإنى أقول لك على رؤوس الملأ : إن دخولك فى رحمة الله أو إلقاءك فى قرارة الجحيم لن يكون ألبتة سوى نتيجة حتمية لاحدى هذه الغلطات . . . أيها الرجل ! إنك تعيش على الأخطاء وستموت من جرائها »

وأطلق فورلاند العنان لأفكاره تحلق فى أجواء السنتين الماضيتين ، وهو يكتب عنوان الكولونيل على المظروف

ونحى المظروف جانباً ، ثم أمسك باحدى يديه الرسالة التى كتبها منذ لحظة . بينما كانت يده الأخرى تعبث فى حركات عصبية مضطربة بمسدس متوسط الحجم

وراحت عيناه تجريان على كلمات الرسالة

« الكولونيل أ . هـ . باكستر

سيدى الكولونيل

أرجو المعذرة يا سيدى إذا وجدتم أن هذا الكتاب لا يمت إلى أعمال الجيش بصلة . وسوف أكون — حينما يصلكم هذا — إما فى جنة الخلد

أو فى عذاب السعير . هناك حيث ينال المرء جزاءه من جنس عمله . وقد فضلت هذه النهاية وآثرتها لأنى عجزت عجزاً بيناً عن إعادة ما امتدت إليه يداى الآثمتان من أموال الفرقة التى وكلت بحفظها . ووُسِدَ إلىّ أمر حراستها والعناية بها . ولا عجب إذا وصلك كتابى هذا قبل اكتشاف الحادث ، فذلك ما عملت على أن يكون

وكان الأمل يشيع فى نفسى حتى الآن ، لظنى أنى لا بد واجد طريق الخلاص الذى ينئينى عن ذلك المأزق الضيق الخانق . وكان مما يغمر نفسى بالأمل ويفيض عليها بالرجاء ، أن يوم اكتشاف الحادث ليس منا بقريب ، بل دونه أيام عديدة ، وليال كثيرة تمكننى من إخفاء الأمر وتسديد العجز وإكمال النقص

غير أن الأيام قد مرت ، والليالى قد تصرمت ، وأصبح اليوم المروع الرهيب قاب قوسين أو أدنى فلا يمر الليل حتى يفيض نوره ، ولا تمضى ساعات إلا ويبزغ فجره وتترجل شمسه . كل ذلك وأنا كما كنت . . . عاجز عن إخفاء الحادث ، أو إكمال النقص الذى أحدثته يداى الملوثتان .. فليس أمامى فى هذه الحال غير السجن والعار .. سوى الخراب والدمار . . وليس ذلك مما أسيغه أو أرضاه

أما عن المبلغ المختلس فقد بلغت قيمته حتى الآن ستمائة جنيه أو تزيد . فهل يدور بخلدك يا سيدى أنه فى وسعى إعادته الى مكانه من الخزانة دون أن يدرى أحد ؟ قد يكون ذلك ممكناً من وجهة نظرك ولكن المعجزات لا تحدث فى عصرنا هذا ياسيدى الكولونيل ، إنما الأخطاء فحسب هى التى يشيع حدوثها ، أو إحداثها إن شئت

وقد تقول : إنه كان فى وسعك أن تقترض المبلغ غير أنى سوف لا أكون معك إبان اكتشاف الحادث ، بل إن روحى هى الأخرى ستأبى أن تحضرك ، لأنى لا أرضى أن تزعجك . ولا أود أن تهيجك

وإنى على يقين أن رحيلى الى العالم الآخر هو خير سبيل تطرق ، وأفضل طريق تسلك ؛ ودعنى أقول لك : وداعا يا سيدى الكولونيل !

المخلص

جرافيل فورلاند
ملازم أول

وغيب الرسالة بعد ذلك فى المظروف وختمه... ثم ألصق عليه أحد طوابع البريد . وكان هو يفعل ذلك حالماً ساهماً ، مفكراً واجماً ، تتناوب وجهه الحمرة والصفرة . يرى يديه ترتجف وأصابعه ترتعش.. ولم يكن ذلك لما يشعر من تأنيب فى الضمير لسرقته ، أو وخز فى النفس لفعلته . بل كان ذلك لأنه لا يستطيع درء الفضيحة عنه ، ولا يمكنه دفع العار بعيداً منه ، ولأنه سيفقد عمله لما أتاه من المنكر ، ولما اقترفه من الجرم

إن السبيل الوحيدة والطريق السهلة المعبدة . للخلاص من الفضيحة ، والاغتسال من العار اللذين سيجرهما عليه اكتشاف الحادث . هى رصاصة تخترق رأسه

وأبصر يده ترتجف وهو يشمل إحدى لفافات التبغ ، فأيقن أن تظاهره بالثبات وادعاءه الرزانة والهدوء إنهما إلا قناعا شفافا يخفى وراءه مايصطخب فى نفسه ويعج من عوامل الرعب والفزع الهائلة . . وقال بلهجة الواثق يحدث نفسه :

— سينتهى كل ذلك سريعا .. ما هى إلا ضغطة

واحدة لهذا الزناد وينتهي الأمر كله ! بل ويشق على أي أحد أن يلحق بي أو ينالني

وأخفى المسدس في أحد أدراج المكتب ، ثم تناول الرسالة ، وغادر البيت ليودعها صندوق البريد ، أي حظ تعس ذلك الذي يلازمه ؟ من له بمن يمد له يد العون فيرد المال المسلوب قبل أن يجردوا الخزانة ؟ أي دهر جائر ظلوم ، هذا الذي يأبى مساعدته وتخليصه من وهدة العار التي تردى فيها ، وهاوية الدرن الذي تمرغ فيه ؟

وتمتم فورلاند يحدث نفسه :

— هاهو ذا آخر يوم من أيام حياتي ، لينقضي تحت سمعي وبصري

وألقى الرسالة في صندوق البريد ، ثم كر راجعا الى مثواه

وهناك أخرج المسدس وأدناه من رأسه المحموم ، وزم شفتيه ، وأغمض عينيه ، وراحت أصبعه تضغط على الزناد شيئاً فشيئاً . وكاد كل شيء ينتهي ، لولا أنه سمع وقع أقدام تقترب منه أعقبه سعلة مكبوته ودق خفيف على الباب

ودخل الخادم فألفى سيده منتحيا ناحية من المكتب جالسا في تراخ وخمول ، أما المسدس فقد كان مختفيا وراء علبة السجاير

— لقد جاءت الآن فقط يا سيدي

فاه الخادم بهذه الجملة في صوت خافت ولهجة احترام وهو يمد يده الى سيده برسالة مسجلة . . .

فتناولها فورلاند بيد مرتجفة ثم أومأ إليه بالانصراف

وفض المظروف في عجلة واضطراب فسقطت منه الرسالة وهو يخرج حزمة من الأوراق المالية كانت فيه

والتقط الرسالة وأخذ يقرأ ما جاء فيها بعينين جاحظتين

« سيدي : لقد أمرني عمك جيمس . ب . موبيث أن أرسل إليك هذا الكتاب وبه ألف من الجنيهات ، وهي نتيجة الارتفاع الفجائي لأسهم شركة آبار البترول ، التي كان لك حظ الاشتراك فيها عند فجر حياتك »

وكانت الرسالة ممهورة بامضاء مسجل شهير

وأحس فورلاند رغبة ملحة في أن يرفع عقيرته بالصياح فرحاً وابتهاجاً ، هاهي ذي ألف من الجنيهات في يده . . ملكه وحده ، لا ينازعه فيها منازع . ولا يشاركه فيها شريك ، سيعيد ما اختلسه في صبيحة اليوم التالي قبل اكتشاف الأمر دون أن يعلم أحد . . أية معجزة أية خارقة . . أي حظ سعيد ؟ لقد هزأ بالمعجزات وهاهي ذي قد حدثت ، وسخر من الخوارق وهاهي ذي قد حلت

بيد أنه عبس قليلا وهو ينظر الى المال ، لماذا لم يرسله عمه صكا على المصرف ؟ ولكنه عاد وتذكر أن عمه يمقت معاملة البنوك ، بل هو لا يثق بها ولا يأمن لها ، إن عادته دواما أن يدفع بالنقد

وتذكر قول عمه له ذات يوم : « اصغ الى يا فورلاند ، إن شركتنا هذه وإن كانت لا تدر علينا أي ربح الآن . فانها ستغدو في مدى زمن — طال أم قصر — من أعظم الشركات الدولية في العالم » إذن فهذه هي أولى الأرباح . . . إذن ستترى عليه المبالغ بعد الآن ...

وفورلاند يعلم عن عمه أنه ما كان يرسل إليه فلسا واحدا ، إذا درى بموقفه الدقيق الحرج ، إنه — أي عمه — يكره أن يرى أحد أفراد الأسرة يتلوث بهذا العار ، ويتمرغ في هذا الرجس . وتقطب جبينه وهو يفكر . . حسنا ! . . سيعيد المال المسروق فتتبقى له بعدئذ أربعمائة جنيه أو تقل ، ولن

يكون هناك ما يشينه ويعيبه أمام عمه أو يحط من قدره . بيد أنه أنَّ كوحش حبيس ، وزأر كأسد جريح ، حينما تذكر الخطاب الذى أرسله الى الكولونيل بعنوان بيته فى « إيست كوست » ... لا مرية أنه سيتسلمه فى الصباح الباكر

وهب واقفاً فى ذعر .. ما الذى يحق الشيطان جعله يتسرع ويرسل الكتاب ؟ أما كان أولى به أن يتريث الى الصباح ؟ إنه لا يسعه الآن أن يتلافى الأمر أو يتفادى الكارثة . . ولا يمكنه أن يعيد المال ، ويزعم أنها مزحة من مزحه ، أو مهزلة أراد بها التسلية واستطلاع ما قد يحدث . فقد يرتاب الكولونيل فى الأمر . ويجرد الخزانة بمين أخرى .. منتبهة متيقظة . ويميط اللثام عن التلاعب الذى أحدثه بالمال منذ سنتين

وألقى فورلاند المسدس فى درج المكتب . ووضع المال فى حرز حريز . ثم تناول قبعته وغادر مثواه الى صندوق البريد

يا للحظ التعس . ويا للأمل الخائب ! ! لقد أفرغت الرسائل التى فى الصندوق منذ عشر دقائق فحسب

وتراءت له أشباح السجن والفضيحة والعار . فجن جنونه . إن مصيره الآن فى يد رجل ، ولو أنه طيب القلب إلا أنه لا يلين ولا يرحم فى مثل تلك الأمور . ثم إن عمه جيمس لا يتردد فى ازدرائه ولفظه والتبرء منه إذا بلغه خبر جريمته الشنعاء وإثمه الكبير الزرى

وأبصر مكتب البريد يجثم فى نهاية الطريق فهرول إليه . وألفاهم هناك فى عجلة من أمرهم وهم يفرزون الرسائل

وارتدى فورلاند ثوب الهدوء وثبات الجنان وهو يدلى إليهم بأنه أرسل بمحض الخطأ والتسرع خطاباً يود استرداده . ثم وصف لهم المظروف

فأجابه أحد العمال فى رقة مشوبة بحزم أن إعادة أية رسالة إلى صاحبها ضرب من المستحيل وأفهمه أن مصلحة البريد تعد نفسها مسئولة عن الرسائل حتى تصل الى المرسلة إليهم

فأخذ فورلاند يتهدد ويتوعد تارة . ويلاين ويتذلل تارة . وكان كل ذلك عبثاً . فلمح إليهم بالرشوة ، ولوح لهم بالمال . وقد رفع المبلغ حتى أضحى يغرى المرء على مخالفة ضميره والاخلال بواجبه ، فنظر إليه العامل نظرة شذراء مليئة بالتهكم والازدراء . ثم أدار عنه وجهه واستغرق فى عمله

فخرج فورلاند يلتمس الهواء البارد الرطب عساه يلطف من هاته النار التى تضطرم بين أضلعه اضطراماً ولعله يخمد ذلك السعير الذى يحتدم فى أحشائه احتداماً

وتراقصت على صفحات ذهنه كلمات الكولونيل التى طالما صوبها إليه معرضاً به قادحاً فيه « إنك أيها الرجل تعيش على الأخطاء وسوف تموت من جرائها »

وفى مأواه غرق فى مقعده وراح يشحذ ذهنه ويكد قريحته لعله يصل الى حل لتلك المعضلة الجديدة أو عساه يجد طريقاً للخلاص مما وقع فيه من الخطأ مرة أخرى

وهبط الليل وانتشرت معالمه السحماء الطاخية على الكون . بل مضى كل الليلة إلا قليلا واقترب الفجر وكاد يبزغ . وفورلاند لما يجد بعد حلا لذلك الاشكال الجديد ، وظل جالساً بأعين جاحظة وجفون مقرحة ، وشعر مشعث وخدين أصفرين غائرين

ستتصل الرسالة الى الكولونيل بعد بضع ساعات فيقرأها ويدرك كل شيء

ليس هناك سبيل لمنع ذلك ، على الرغم من أن الخطاب لا يزال فى مكتب البريد . يا لله ! كيف يمنع وصوله ؟ لقد أصبح ذلك مستحيلا ، لأن الكولونيل يتسلم رسائله يداً بيد من موزع البريد . وزأر فورلاند يقول :

— لماذا لم أتريث قليلا ؟

واختفى فورلاند المرح الطروب ، واحتل مكانه فورلاند آخر وحشى النظرات . كساه اليأس ثوب الجنون ، وأورثه الهم والقلق حالة التوحش

ها هو ذا الخراب يتراءى له كوحش هائل يريد ابتلاعه ، والدمار يهاجمه كجارح جبار يبغى اختطافه ، ومع ذلك كان فى وسعه أن يتفادى ذلك لو أنه لم يخطئ ويرسل ذلك الخطاب

وملأ كأسه من الكونياك ورفعها الى فمه بيد ترتعد فى شدة وعنف ، حتى لقد تساقطت قطرات من الشراب على أرض الغرفة

وانتبه أخيراً من ذهوله فرأى أن الصبح قد تنفس وبزغ النهار وأضاء . فأخذ يضحك بينما كانت أصابعه تعبث بالأوراق المالية عبثها بشيء تافه لا خير فيه

إن الكولونيل ليرفض رفضاً باتاً أن يأخذ منه المال ويودعه الخزانة دون أن يفطن الى الأمر أحد

يا للخراب ! يا للدمار ! لقد خرب ودمر ... كل ذلك من جراء غلطة واحدة . ألا ليته تريث الى الصباح ، أو الى أن أتاه المال من عمه

ونظر الى الساعة فألفاها تشير الى التاسعة

سيستلم الكولونيل باكستر الرسالة حالاً . . . إنه يقرأها الآن ، وربما يكون قد أخطر البوليس وغرق فى مقعده ثم تمتم :

— السجن ! ! ! . . .

واعتدل فى جلسته بغتة ثم أردف :

— سيأتى البوليس بين لحظة وأخرى . . . أجل ، سيأتى فوراً . ألم ينبئ الكولونيل بالسبب الذى حدا به الى الانسلاخ من هذا العالم والتخلص من الحياة ؟

وعادت وتراءت له أشباح السجن والعار والدمار

وضحك مرة أخرى ثم جلس على حافة المكتب وأفرغ فى جوفه كأسين مترعتين من الشراب

ثم امتدت يده تبحث عن المسدس

— كل ذلك من أجل غلطة ... غلطة واحدة ألا ليتنى تريثت قليلا قبل أن أبعث بهذه الرسالة اللعينة

ثم رفع السلاح الى رأسه المندى بالعرق البارد فى عزم وإصرار

* * *

وعلى عتبة الباب الخارجى راح الخادم يتفرس ويديم النظر فى رسالة سلمها إياه موزع البريد ، وكانت تحمل — فضلاً عن عنوان الكولونيل باكستر — ثلاثة أحرف تومئ إلى أن اسم الراسل مكتوباً على الوجه الآخر من المظروف

وزمجر موزع البريد يقول :

— إنه لا يحمل اسم البلد المرسل إليه ، وقد أعدناه لنقص العنوان . كثير من الناس يقع فى مثل هذه الغلطة ... يا إلهى ! ما هذا ؟ !

« وهذا » هذه كانت طلقة نارية دوت فى سكون المنزل العميق أعقبها سقوط جسم على الأرض

محمد عبد الفتاح محمد
بالمساحة والمناجم بينها



— ١ —

كان رتشاران يبلغ من العمر اثني عشر عاماً عندما لحق بخدمة سيده ؛ وإذا كان ينتمي وإياه إلى جنس واحد فقد صار إليه أمر العناية بابنه الصغير

ودار الزمن دورته فانفتل الطفل من بين ذراعي رتشاران ليذهب إلى المدرسة ، ثم إلى الجامعة ، ثم ليتبوأ منصباً في القضاء

ولقد انفرد رتشاران بخدمته طيلة ذلك العهد حتى إذا ما تزوج شعر الرجل الأمين بأنه قد أصبح مولى لسيدين بعد أن كان تابعاً لسيد واحد ، فقد طار من بين يديه ما كان له من سلطان ، ثم استقر على بساط السيد الجديد

غير أن رتشاران لم يلبث أن صرفه عن كل ذلك قادم ثان ، فقد أنجب أنوكول طفلاً ، وملك رتشاران قياد الطفل بلطف عنايته ، وحسن رعايته فكان يلاعبه ويداعبه ، ويلاغيه ويناغيه ، ويلصق خده بخده ، ثم يبعده عنه وقد أضاءت صفحته ابتسامة لطيفة

وسرعان ما استطاع الطفل أن يحبو وأن يجوز باب المنزل ؛ وعند ما كان رتشاران يذهب ليأتي به ، كان يجاجل بضحكات عابثة ، فيأخذ العجب من رتشاران مأخذه ، ويدهش لما يبديه الطفل عند مطاردته من تدبير بارع ، وحكم صائب . حتى لقد كان يقول لسيدته ونظراته تنطق بالروعة والاعجاب :

« لسوف يكون ابنك قاضياً يوماً من الأيام . »

وكانت الأيام لاتترى إلا وفي أحشائها أعاجيب جدد ؛ فعندما بدأ الطفل يتعلم كيف ينقل خطاه بعضها في إثر بعض ، رأى رتشاران في ذلك عصراً جديداً من تاريخ البشر . حتى إذ ما جال لسانه في شدقه بلفظ : « بابا » لأبيه ، ولقب « ما — ما » لأمه ، وكنية : « شارنا » لمربيه ، استخف المرح رتشاران ، فراح يأتي بالخبر إلى كل من بصرت به عيناه

وأتى على ذلك حين من الدهر فأصبح على رتشاران أن يظهر عبقريته بأساليب أخرى ؛ فقد كان عليه أن يلعب دور حصان مثلاً ، يثب على أقدامه ويمسك اللجام بين أسنانه . ثم يصارع حمله الخفيف ، ويحتال ليرتمي على ظهره مهزوماً مغلوبا . فان هو فشل فثم صخب وضجيج

وفي ذلك العهد حول أنوكول إلى مقاطعة على ضفاف البادما . فابتاع لابنه — وهو في الطريق إلى كلكتا — عربة صغيرة ، كما اشترى له صداراً من ساتان أصفر ، وقبعة ذات شرائط مذهبة ، وأساور وخلاخيل من ذهب . فكان من دأب رتشاران — كلما خرج في نزهة مع صاحبه — أن يخلعها عليه جميعاً في زهو وكبرياء

ثم أقبل فصل الأمطار فأنشأت السماء تمطر الأرض بشآبيب مزن هطال . فكأن النهر الجائع أفعوان هائل يزدرد كل ما يصادفه من المنازل والقرى والحقول ، ويغمر بفيض مياهه الحشائش الطويلة المشرفة على الساحل الرملي . وبين الفينة والفينة كان يدوى فى الفضاء صوت ارتطام المياه بالشاطىء ، وكنت تستطيع أن تسمع هدير التيار من بعد قصى ، فاذا اقتربت من النهر هالتك تلك القادير العظيمة من الزبد يدفعها التيار دفعاً عنيفاً

وغيض ماء السماء بعد ظهر يوم من الأيام فلاح الطقس رائقاً دفيئاً وإن جللت الغيوم السماء . ولم يرض السيد الصغير أن يقبع فى عقر داره فى مثل ذلك اليوم الجميل ، فاستقل عربته الصغيرة ، وراح رتشاران يجره فى توان وتخاذل ، حتى إذا ما شارف مزارع الأرز الممتدة على شاطىء النهر لم يجد أحداً ، فلا فى الحقول أصحابها ولا فى النهر قواربه . وإنما انشقت السحب وراء العباب عن شمس دامية مودعة ، كأنها سفين يحترق فى خضم زخار

ووسط ذلك السكون العميق أشار الطفل بأصبعه إلى الأمام على حين غرة ، ثم صاح : « شارنا ! » فعلى مقربة منهما وسط ردغة مستوحلة كانت تقوم شجرة باسقة من أشجار «الكادامبا»

وكان السيد الطفل يرمقها بنظرات ملؤها الطمع والتشهى ، ففهم رتشاران مراده ، إذ كان قد اتخذ له من أزهارها شبه عربة صغيرة منذ عهد قريب . وما كان أشد سرور الطفل وهو يجرها هنا وهناك ! لقد شغلته اليوم بطوله حتى عن أن يلجم صاحبه ، فارتفع من حصان إلى سائس !

وما كان رتشاران بتواق إلى أن يخوض فى الطين حتى ركبتيه ليحصل لسيده على الزهر ، فأشار بيده إلى الاتجاه المضاد وهو يقول حافزاً مستثيراً : « انظر ! انظر ! أيها الطفل ! انظر هذا الطائر .. » ثم دفع بالعربة بعيداً عن الشجرة وهو يدمدم بأصوات لا معنى لها

ولكن ليس من اليسير أن يخدع طفل قسم له أن يتربع على أريكة الحكم ، ويتبوأ منصة القضاء ! ثم إنه لم ير شيئاً خليقاً بأن يلقى إليه باله ، أو يوجه أنظاره ؛ وإيهامه بوجود طائر خيالى أمر لم يعد فى الامكان

وتشبث السيد الصغير برأيه ، فرضخ له رتشاران ، وقال أخيراً : « حسناً أيها الطفل ، إجلس أنت فى عربتك قرير العين ، وسوف أذهب فآتيك بما شئت من زهر جميل . . ولكن حذار أن تقرب الماء . . ! »

وما كاد رتشاران يذهب حتى هرع الطفل صوب الماء الذى حرم عليه ، كان النهر يعدو ويتدافع صاخباً مزبداً ، فكأن المويجات العصية أطفال آبقة من رتشاران ، مدوية بضحكات ألف طفل سويا .. فتجوب فؤاد الصغير بألاعيبها ، فانسل من عربته يعدو شطر المجرى ؛ وبينا هو فى ذلك إذ بصر بعصا صغيرة ، فانحنى بها على النهر وكأنه يصطاد ، ولكن أرواح البحر كانت تدعوه إليها ، وتناديه أن تعال نلعب ونمزح فى مرتعنا الوسيع

وكان رتشاران قد قطف ملء قبضته زهراً ، وعاد وهو يحمله فى طرف ثوبه ، والسرور يملأ عطفيه ويشيع فى أسارير وجهه ؛ ولكنه عندما بلغ مكان العربة لم يجد أحداً ، فجال بطرفه فيما حوله ، فلم يجد أحداً ، فجمع إلى العربة بصره ، فلم يجد أحداً ، فتجمد الدم فى عروقه ، ودارت الدنيا من حوله ، وكأنه يسبح فى ضباب كثيف ، وانبعثت

من أحشاء صدره الكسير صرخة بتراء : « مولاى . . . مولاى . . . مولاى الصغير . . ! »

ولكن أحداً لم يناده : شارنا ، ولا ضحك من من خلفه طفل عابث ، ولا جاوبته صيحة مرح من قلب صغير ، ما طرق أذنيه إلا هدير البحر يعلو صاخباً مزمجراً كما كان ، كأنه لا يعلم مما حدث شيئاً ، أو كأنه ليس خليقاً أن يلقى السمع إلى ذلك الحادث الانسانى العارض ، إلى موت طفل . .

ومضى الليل لا يزيد قلب السيدة إلا خوفاً واضطرابا ، فبعثت بالرجال يجوبون الحى باحثين ، فانطلقوا والمشاعل فى أيديهم حتى شارفوا ضفاف اليادما ، حيث ألفوا رتشاران يجتاح المزارع كأنه صرصر عاتية ، ويصيح صيحة اليأس : مولاى . . مولاى . . مولاى الصغير . . !

وعند ما عادوا به إلى المنزل خر تحت قدمى سيدته صعقا ؛ فراحوا يهزونه ويسائلونه عن مكان الطفل ، فلا يظفرون منه بشىء

وأيقن الجميع أن اليادما قد ابتلع الطفل ، وإن خامرهم شك ضعيف فيما حدث ، فقد شاهد الناس ظهر ذلك اليوم عصبة من النوَر تضرب فى أطراف القرية ؛ وهيأت للأم مرارة الثكل ووقدة الحزن أن تشاران ربما كان السارق بعينه ، فانتبذت به مكاناً بعيداً ، وراحت تبتهل إليه فى ضراعة وتوسل : « رتشاران ! أردد إلىّ طفلى . . أواه ! أردد إلىّ طفلى . . خذ ما شئت من مال وعتاد ، واردد إلىّ طفلى . . . ! »

فكان رتشاران لا يجيب إلا بالضرب على جبينه ، حتى أمرته سيدته أن يغادر المنزل غير مأجور

وأراد أنوكول أن يحاجّ زوجته ليخلصها من من شكوكها ؛ سألها : « ولماذا بالله يقترف مثل هذا الجرم ؟ » فما أجابته إلا بقولها : « من يدرى ! لقد كان الطفل يزين بحلى من ذهب ... »

— ٢ —

وارتد رتشاران إلى قريته محزوناً كاسف البال ، فلم يك قد نسل حتى ذلك الوقت ، ولم يبق له أمل فى نسل . . إلا أن زوجه أنجبت طفلاً قبل أن ينسلخ على قدومه عام ، ثم قضت نحبها ، وخلفته فريسة حنق عظيم ، يغيظه مرأى طفله ، وتتعاون الظنون أنه ما جاء إلا ليغصب السيد الصغير مكانته ، ثم أليس من البغى أن يقر بطفله عيناً ، وسادته يتقلبون على القتاد وجداً على ابنهم وألماً ؟ ولولا عمة أرملة وقفت نفسها على العناية بالطفل لما عاش إلا قليلاً

ولكن تحولاً طرأ على عقل رتشاران ثم سكن فيه شيئاً فشيئاً . لقد راعه أن بدأ الطفل يحبو بدوره هنا وهناك ، ويجوز باب المنزل وقد ارتسمت على وجهه علائم الخبث والعبث ؛ وكان هو الآخر بارع الحيلة زكى الفؤاد إن شاء هروبا ، بل لقد كان بنبرات صوته ، ورنين ضحكه ، وعويل بكائه ، ولطيف إيمائه ، يشبه السيد الصغير حذوك القذة بالقذة ؛ حتى لقد كان يخيل لرتشاران وهو يصيح أن سيده الصغير يناديه من وادى الموت السحيق ، ويصرخ باكياً لفقد « شارنا »

وسرعان ما بدأ الطفل يلوك الكلام ، فعرف كيف ينادى « با — با » و « ما — ما » فى لثغاء طفل رضيع ، وانبلج السر أمام عينى رتشاران إذ راح السيد الصغير يناديه « شارنا » بعد أن بعث فى بيته تارة أخرى

ولم يعد يخامر رتشاران أدنى شك فى صحة هذا الزعم ، فقد رأى الطفل نور الحياة بعد وفاة السيد بقليل ، وأبوه على يأس من أن يجىء المخاض زوجه العاقر ، ثم إن القادم الجديد كان يعرف كيف ينادى « با — با » و « ما — ما » ، وكانت

تلوح عليه مخايل قاض فاضل وحكم عادل

وانثالت على رتشاران ذكرى ما ألصقته به سيدته من تهم ، فطفق يناجى نفسه فى ذهول : « واهاً لقلب الأم ما كان كذوباً ! إنما أوحى إليها أنى كنت سارق طفلها . . » وما كاد التفكير يؤدى به إلى هذه النتيجة حتى غشيه الندم على ما كان من إهماله ، فاتجه بروحه وجسمه إلى الطفل الصغير ، ومحضه خالص حبه وولائه ، وطفق يتولاه كأنه ابن سرى . فابتاع له عربة صغيرة ، وصداراً من ساتان أصفر ، وقبعة منمنمة بالذهب ؛ ثم صهر حلى امرأته ، وصاغه أساور وخلاخيل . وأبى على الطفل أن يلعب مع أطفال جيرته ، فانفرد برفقته ليلاً ونهاراً . حتى إذا ما كبر ونما وعد فى الغلمان كان الصبى المدلل الأنيق ، يسخر منه أهل القرية وينادونه « بياصاحب السعادة » ؛ بينما كان آباؤهم يعجبون لشغف رتشاران بالطفل شغفاً بلغ حد الوله والجنون

ثم شارف الطفل سن الدرس فباع رتشاران ما كان له من عقار قليل ، ثم احتمل الى كلكتا حيث اشتغل بالخدمة بعد لأى وعناء ، ثم بعث بابنه إلى المدرسة لا يألو جهداً فى سبيل تثقيفه وإسعاده ، وإن قنع هو بحفنة من الأرز يقيم بها صلبه ، هامساً بينه وبين نفسه : « آه يامولاى الصغير ! يا سيدى العزيز ، لقد أحببتنى فعدت الى فى بيتى ؛ تالله لن ينالك منى سهو ولا تقصير »

ومضت على ذلك أعوام اثنا عشر ، فاذا الفتى قد أجاد القراءة والكتابة ، واستوى على عوده وضاحاً قوياً ؛ معنيا بظاهر وسامته ، ممتزاً بشعره يفرقه ويساويه ، ميالاً إلى التأنق والتباهى ، مبسوط الكف لا يقيم للمال وزناً . . . حتى لقد أنف أن يقر بأبوة رتشاران له ، لأنه وإن أحبه كأب ، فقد خدمه كتابع . . وزاد الطين بلة أن رتشاران أضمر أبوته لفايلنا ، ولم يكاشف بذلك أحداً

ولقد كانت أساليب رتشاران الريفية موضع سخرية الطلاب من قاطنى الفندق ، بل لقد كان فايلنا يشاركهم عبثهم ما غاب أبوه . وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا كلهم يحبون الرجل الطيب العجوز ، وكان ابنه يحبه أيضاً ، ولكن فى ترفع وكبرياء

وتقدم برتشاران العمر وأوقرته السنون ، فراح مخدومه يعدد أخطاءه ، ويحصى عليه سقطاته ، ويدرك عجزه عن القيام بعمل لم يكن له أهلاً . . . فلقد كان يطوى نفسه على جوع ومخمصة ، ليوفر لابنه أسباب السرور والنعيم . حتى لقد هزل جسمه ، وشحب لونه ، وآده عمله ، وضعفت ذاكرته ، وتبلد ذهنه . ولكن سيده لم يعذره ، إذ كان يريد العمل تاماً كاملاً . . ثم إن ما أتى به رتشاران من ثمن عقار كان قد نفد ، وبقى الفتى متذمراً يطالب الملابس ، ويريد النقود

— ٣ —

وأخيراً صمم رتشاران على أمر . فأعطى فايلنا قدراً من المال ، وقال له : « إنى ذاهب إلى البلد فى عمل ، وسوف أعود وشيكا » . وسرعان ما قصد إلى « باراست » حيث كان أنوكول قاضياً ، وكانت زوجه ما برحت موجعة القلب مكروبة الفؤاد ، وقد ران على قلبها الحزن أن لم تلد من بعد فقيدها ولداً

وذات يوم كان أنوكول يقيل من عناء عمل شاق ، بينما كانت زوجته تدفع الثمن الفادح إلى دجال جوال ، لقاء عقار يشفى من العقم ؛ فسمع فى رحبة الدار داع يدعو بالتحية فبرز أنوكول يرى من القادم ، فما أن عرف فيه رتشاران حتى صفا إليه فؤاده . وطفق يسائله عن حاله ، ثم وعد بأن

يعيده إلى خدمته مرة أخرى . فابتسم رتشاران ابتسامة شاحبة ثم قال : « أريد أن أقدم فروض الطاعة لمولاى . . » فذهب به إلى داخل المنزل ، ولكن سيدته لم تستقبله بمثل حفاوة سيده فطوى رتشاران عن ذلك كشحا ، وضم يديه وهو يقول : « تالله ما استلب البادما طفلك ، بل هى جريمتى . . . » فصاح أنوكول : « الله أكبر ! ماذا ؟ وأين هو ؟ ! . . » فأجاب رتشاران : « إنه معى ، وسوف آتيك به بعد غد »

وكان اليوم الأحد اذ القضاء معطل ، فأنشأ الزوجان يرقبان الطريق متربصين ، ينتظران على الجمر قدوم رتشاران ؛ حتى هلت طلعته فى الساعة العاشرة ، ممسكا بيمينه فايلنا

وأخذت الزوجة الغلام فى حجرها دون أن تنبس بكلمة ، ثم استخفها المرح فهى ضاحكة باكية تدلله وتلاعبه ، وتقبله فى شعره وجبينه ، وتحدق فى محياه بأعين جائعة ولهى . كان الفتى قسيما وسيما ، فى كساء فطريف ، وثياب غرنيق . فطفح فؤاد أنوكول بالبشر والحب ، ولكنه راح يسأل سؤال كل قاض : « أما لديك من بينة أو برهان ؟ » فأجاب رتشاران : « وكيف أستطيع على ما قات سوق دليل ؟ إنما هو الله يسمع ويرى ، ويعلم أنى سارق طفلك ، أنا وحدى لا سواى ! »

ولما رأى أنوكول تعلق زوجته بالطفل وضح له عبث السؤال ، فرأى الحكمة فى أن يصدق ويؤمن ؛ فمن أين لرجل عجوز مثل رتشاران بهذا الفتى ؟ ولم يكذبه خادمه الأمين ويختله على غير طائل ؟ ولكنه قال فى حزم وصرامة : « رتشاران ! لم يعد لك فى هذا البيت مقام »

وأجاب رتشاران فى صوت مرتجف ، وهو يضم يديه : وأنّى أذهب يامولاى ؟ لقد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم يبق فى إلا ذماء يخبو رويداً »

وقالت السيدة : « ذره يبقى ففى ذلك سرور لطفلى . . لقد غفرت له ما تقدم من ذنبه . . . »

ولكن ضمير القاضى أبى على رتشاران أن يبقيه ، فقال : « كلا . . . فما إلى المغفرة من سبيل . . . »

وانبطح رتشاران على الأرض يضم قدمى أنوكول صائحا : « ذرنى باقيا يا مولاى فما أتيت شيئاً فريا ؛ إنما هى إرادة الله »

وما زاد ذلك أنوكول إلا ثورة خاطر ، فقد ثقل عليه أن يتهم القدر رتشاران ، فقال : « كلا . فما عدت أستطيع أن أعفو أو أطمئن إليك مرة أخرى ، بعد إذ خنت وخفرت ذمامى »

وهب رتشاران فاستوى واقفا ثم قال : « إنى ما اقترفت إثما ولا جنيت ذنبا . . »

فسأله أنوكول : « وإذن فمن فعل ؟ »

وأجاب رتشاران : « إنه القدر »

ولكن هذا لم يكن عذراً كافيا فى عين رجل مثقف ، فظل أنوكول عنيداً صلد الفؤاد

ولما فهم فايلنا أنه ليس ابن رتشاران بل سليل قاض ثرى ، غضب وثار أول الأمر ، ظنا منه أنه خدع فى أصله ومنبته ؛ ثم نهنه من غربه أن رأى رتشاران حزينا . فقال لأبيه : « سامحه يا أبتاه ! ودعه يعيش معنا أو فاجر عليه كل شهر نفقة »

ولم يحر رتشاران بعد ذاك جوابا بل طفق يديم إلى وجه ابنه نظرة وداع ؛ ثم صدع لمشيئة سادته ، فخرج وقد اعتركت فى باطنه أشباح شتى

واكتهل الشهر فصدق أنوكول وعده ، وبعث بقدر من المال إلى رتشاران فى قريته ، فرد إليه لأنه لم يكن بين أهل القرية من يدعى رتشاران

شكرى محمد عياد



حينما بصر « لوسيان دى هيم » بآخر نقد من ذى المائة فرنك يجرفه عصا الفريم تخاذل وانفض عن نضـد النرد . وما كان له أن يجلس الى غريمه بعد أن فقد — منـذ قليل — ماله الذى سهر على جمعه ليتأهب به لحرب ضروس . وما كان له أن يفعل وقد دارت به الأرض دواراً قعـد به عن الوقوف ، فتخاذل ، فارتمى ، فاحتضنه مقعد مريح . ثم انطوى على نفسه وصوب للمجتمع بصراً غشـته سحب الأحزان فهو زائغ العين مهموم ، لقد رأى جما اجتمع لاثم فى هوة أذى ، وموطن فساد ، حيث أفنى شـبابا نضر قليلا وذوى . . لقد رأى وجوهاً مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، يزيد انبساطها حظ مؤات وربح كثير . وتلك أخرى تكاد تميز من الغيظ فهى مصفارة ، منقبضة الأسارير ، علا الجبين منها ماء منهمر ، تسايل على الخدود فاستوى على العوارض والأذقان ، فاختلط بدمع الحنق يترى من عيون جحظت خوفاً وطمعاً .. لقد رأى مصابيح شدت للسماء تضفى ثوباً وضيئاً فوق كهف خبيث . قاتم وجهه بينها فما يبصر إلا بنور ضئيل ينفذ الى ناظريه خلال حجب الغيم الفاشية وسحب الحرقة القيم [illegible] تراجع قليلاً فانطوى على نفسه وغاب فى أحضان مقعده الصديق

ولـكن نفسه نازعته للتطلع فألقى السمع ، فبلغ صماخيه رنين الذهب ووسوسة النقود ، يغيبان بين ضحكة نصر مقتضبة ، وحشرجة يأس مغير ، وزفرة مغلوب ختله الحظ فهو حسير كظيم ، وصُعَداءِ غالب راض حظه بعـد أن احتبس تحلت بواديه شآبيب واعدة وردت ساحته مزنة هاطلة

وذهل عن ذاك بأمره : لقد أقوى جيبه بعد أن كان عامراً بمال يبهر العين ويخطف البصر . وخوى وفاضه مما فيه لسد الرمق وإقامة الأود شىء . آماله ولت سراعا فهى غزلان وجلى ، تخاف فتنأى فى دل حبيب الى النفس ، شديد عليها مرير . .

كان الناظر إليـه يخاله نائماً وما هو بنائم . ولـكنه كان فى سكرة بسبب أمره ، وغشية لا يملها إلا خلو الوفاض . لقد قلب أمره بين يديه فوجد المجتمع ينبذه — وهو الحسيب ذو الجاه والنشب — فهو طريد ، والعالم يجهله — وهو النسيب ذو الأصل والنسب — فهو شريد ، والأمل يهجره — وهو الطموح ذو الجد — فهو يائس ، والصديق ينكره — وهو الـكريم ذو الفضل — فهو وحيد . . . لقد قلب أمره بين يديه فوجد صديقه فى مقعد احتضنه وعطف عليـه فى محنته وضرائه — كما احتضنه المداهنون من قبل فى نعمته وسرائه —

فهو عطوف أمين . . . فى موت منجٍ من بؤس ومسكنة لا يرضى بهما نبله ومجده ، وذل ومسغبة يأباهما كرم نفسه وشرف محتده ... فى بندقة أبيه — القائد دى هيم — تحمل إليه ذاك الموت الحبيب كما حملت للملأ فى « زآتشا » الفاصلة موتاً أحمر على يد والده المجيد ...

ألهب التفكير رأسه ، وسعر الهم قلبه ، وكوى الحزن فؤاده ، ثم تداركه الكرى رحمة منه ، فأغفى طرفه فهو نائم سعيد . ولما أن أفاق من غفوته بعد نصف ساعة أو يزيد قليلاً وجد فمه لزجاً من لعاب سال أثناء نومه . فأزاله وتمطى . وكان بحاجة لهواء منعش جديد ينتشل جسمه من وهدة الكسل وذهنه من بلادة وخمود . فقام فى تراخ وكسل . وألفى الساعة لدى الباب تشير — فى هدوء — إلى الثانية عشرة إلا ربعاً . وسار ماداً يديه يريد الباب . وحينذاك أدرك أن ليلته ليلة الميلاد ، فوجم وجوماً . ذلك لأنه تذكر الماضى بعزه وجلاله ، وشعر به يشرف عليه خلال بياض الأيام وسواد الليالى ، يؤنب ويعاتب ، ثم يهوى هادراً متوعداً . تذكر حين الطفولة وما أصاب من عز كثير . وتمثلت له ليالى الميلاد شامتة ساخرة . وادكر كيف كان يضع حذاءه الجديد على أثفية الموقد بدار أبيه ليلاً ليلبسه فى الصباح الجميل ... تذكر كيف سحب ذيل النعمى ، وخطر فى شفوف الحرير ، وأين هو من تلك النعمى وذاك الحرير . . إنه لصدى تلك الأيام الخوالى وإنه لطريد عز تليد !

وتقدم لوسيان يريد الباب حين اعترض سبيله شيخ عجوز ؛ لقد كان « درونسكى » أحد أقطاب ذاك اللهو الأثيم ، وأشد جبابرته بأساً وشراً ، وأملأهم وفاضاً وجيباً ، وأجشعهم عيناً ونفساً ؛ وهو برغم ذاك شحيح بخيل : لا أثر للنعمة يبدو عليه ، فهو يلبس سترة من قماش « الضامة » لا يكاد يصفيها ويغفل عنها ، وهو بها قرير العين جذلان

تقدم درونسكى وتمتم ، وشاعت كلماته المبهمة فى أرجاء لحية شهباء : هلا أقرضتنى خمساً من الفرنكات يا سيدى ؟ أنظر ! . . إنى لم أبرح الندى لخمسة أيام خلون ؛ وما كان لى حتى أربح أو أجد لى مع عددى — السابع عشر — أمراً ، فهو لهاتيك الخمسة لا يزيد ولا ينقص . لك أن تضحك منى كما يتراءى لك ويحلو ، بل لك أكثر من ذلك : لك أن تقطع يدى إذا لم يرقَ السابعُ عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتى عشرة

وما كان للوسيان إلا أن يهز كتفيه ، وقد فعل . إذ أنَّى له بمال يقيم الأود بله ما يرجو العجوز ! ؟ . . وأزاح الرجلَ من طريقه بيد واجفة دون أن ينطق بكلمة ؛ ودنا من الباب بقدم واهية يقيمها التجلد ، ويثبتها التحامل ، وأدلف إلى البهو الكبير حيث ارتدى سترته وأحكم قبعته فوق رأسه المحموم ، وهبط الدرج بدمعٍ واكفٍ ، وقلب حزين . .

لقد مكث لوسيان بالندىّ أربع ساعات طوال ؛ كان الثلج أثناءها يساقط على باريس فيتوج هام البيوت ، ويهب الشوارع بسطا من شفوف جميل . . وبدأ لوسيان يسير الهوينى ، والسكون منعقد فوق رأسه متواصل ، والنجوم ينبثق منها نور خافق متضائل ، والبساط أبيض شف عتد أمامه دون حائل ؛ ففرح وابتهج لتلك الطبيعة تزين لأنه تاب

وأصلح من إملاق وفاقة ! وفرح وابتهج لأنه شعر بعبء ثقيل — كان جاثماً فى جيوبه — رحل فأراحه ! وفرح أخيراً وابتهج لتلك الراحة تفتح ذراعين مرحبين لتلقفه ثم تغيبه فى غيابة الموت ، وبرد الراحة ! . . راحة هى به أولى وأحق ؛ وأولى بجلبها بندقة أبيه المجيد ! . . جعل لوسيان يهيم لغير قصد يرومه أو مكان ينزع إليه . فأنشأ يضرب فى شعاب باريس الواسعة . غير أنه لم يسر طويلاً حتى استوقفه أمر أليم نبهه من غشية وأفاقه من غفلة

لقد بصر بفتاة أضناها كد اليوم ونصب السؤال ، مكدودة حيرى فطاف بها الكرى ، وران على قلبها الأمان وحاته السكينة ، فتطلق من همه الأليم وعذابه الواصب . واستكانت إلى الطريق اللاحب واستراحت إليه ، فافترشت طواره ، واتخذت من الجليد دثاراً . . كانت جميلة ساحرة رغم ما ترتديه من أطمار وأسمال ؛ نظيفة ناعمة رغم نومها فى الطريق ، بريئة طاهرة فهى بعد طفلة لما تبلغ السابعة

كانت تتوسد ذراعها الأبيض وقد انحسرت عنه أسمالها فهو عار جميل وكان وجهها المشرق الوضىء يطالعك فيبهرك منه جمال هاجع ووديع . أما رأسها فقد مال نحو الأرض فى سكينة ودعة . وكان جبينها المريض تكسوه طرة غدافية اللون تدلت من مفرقها واستراحت على أرنبة أنفها الوسيم . وكانت ذراعها الأخرى منبسطة على الجليد كأنما علقت السؤال وأغرمت به ، فهى تنزع إليه أبداً وترجوه دائماً ، وكان قدماها مغمورين فى الجليد ، وأخذ حذاؤها الصغير فى إهمال عجيب

وأراد لوسيان أن يهبها شيئاً فمد يده لجيبه ، ولكنه ردها حزيناً محسوراً . فقد ادكر أن لا مال معه . ولكن غريزة دفعته فأتى ما أتى من الأمر دون وعى وتدبير . وتقدم من الفتاة يريد حملها وإنزالها بيته حيث الدفء والفرش الوثير . ولكن ما كاد يفعل حتى بهر بصره شىء لامع يقبع فى حذائها المخلوع

ودنا بوجه — تشيع فيه الرغبة والرجاء — ليستبين ذلك الشىء ، وما كان إلا نقداً ذهبياً من ذى العشرين فرنكا

لقد وهبه الفتاة كريم . وما من شك أن المحسن سيدة مرت فمنحتها القدر العظيم لتقربه عيناً إذا ما صحت من غفوتها ، وتطيب به نفساً إذا أضحت فتكف عن السؤال ، ويزيد إيمانها بالخير يهمى ليلة الميلاد ! عشرون فرنكا ! ياله من قدر ! أو ليس هو الزعيم بسعادة بضعة أيام ؟! أو ليس هو بشير الراحة لتلك الطفلة اللاغبة !! أو ليس الغنى بذاته لعاثر الحظ ، والنعيم بعينه للساغب المكدود ؟!.. وإنه لعاثر الحظ ، وإنه لساغب مكدود !

لقد كاد يوقظ الفتاة لولا أن ذكر قول ورونسكى العجوز :

— . . . لم أبرح الندى لخمسة خلون . . . بل لك أن تقطع يدى إذا لم يرق السابع عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتى عشرة . .

يا لله ! إن هنالك فرصة لأمل ! !

وقفز ذلك الشاب — سليل الأصل الكريم والبيت النبيل ، ذو اللقب الحربى والمجد الأثيل — فقد اعتزم فى نفسه أمراً ... إنه لم يبلغ الثلاثة والعشرين ربيعاً فهو شجاع جرىء . وهو إذا اعتزم

أمراً لا يقعد به جبن ولا يعوزه مضاء . إلا أنه حين فكر فى الأمر اضطرب جسمه واحمر وجهه ، فقد خالطت الصبوة الحياء فهو فى حيرة من أمره . غير أنه لم يكن يملك لنفسه من الأمر شيئاً . .

لقد ترصد الناس فلم يبصر بشىء يثير الريبة فيوجب الحذر . إن الطريق خال إلا منه وتلك الفتاة فما عليه من بأس أن « يستعير » المال ديناً عليه .

وامتدت يده الواجفة « تسلب » الفتاة نقدها العزيز

وحين اطمأن على النقد عدا نحو الندى عجولاً ، ورق الدرج فى سرعة البرق وبأس العاصفة ، ثم دفع الباب بقبضة قوية آملة حين بدأت الساعة تدق أولى دقاتها الاثنتى عشرة . فرمى نقده على النضد صائحاً

— على السابع عشر !

وفاز السابع عشر . فدفع لوسيان فرنكاته الأربعة والثلاثين « للأحمر »

وفاز الأحمر ! وترك ماله المتضاعف على اللون نفسه ففاز مرة أخرى !

وأقدم على الرهان بالقدر كله مرة وأخرى وثالثة إذ ما عاد يخشى احتباسا لحظه ، أو عثارا لجده . لقد كان يكدس النضار أمامه ، والورق فى سترته . ثم بدأ يشرك « الروليت » مع النرد فكان لها من ماله نصيب رابح دائماً فى تضخم أبداً . وكذلك كان الحظ موافيا مع « الدستة » و « العدد » ومع « العمود »

لقد كان حظا ذهبيا لم يسمع به إنسان !

وقال الناس بسحر ينبعث من عينى الفتى فيأسر الكرة العاجية الصغيرة حين الدوران فى الآلة !

واستطاع لوسيان أن يسترد ماله الذى افتقده أول الليل بعد اثنتى عشرة مرة . ثم فكر أن يسترد أملاك أبيه التى أضاعها فى بضعة أعوام ، فكان يملى القدر حتى بلغ — مرة — الثلثمائة من النقود الذهبية ذات العشرين فرنكا . لقد أترعت جيوبه بالمال ولما ينقطع فيض النضار فهو يضمه فى جيوب صداره وسراويله ، ويضمه فى منديله وصندوق سيجاره ، وهو يضمه أخيرا فيما يصلح لحمل النضار !

كان يلعب دائماً فيربح أبداً . فهو يبعثر ويبذر غير عابىء ولا مكترث ، وهو يتعسف ويجور فيبهظ المغلوبين ويرهقهم ، وهو يرمى كل ما تستطيع أن تحتفنه يداه المجدودتان على الخوان فى ثقة واطمئنان ! . .

لقد كان مجدودا سعيدا دون شك ، ومن أدرى منه بجد وسعد ! ؟ نعم ! ولكن خيال تلك الفتاة البائسة كان يقلق باله ، ويخز قلبه ، ويعكر سعده ، فهو ما يفتأ يذكرها ، وهى ما تنفك تتشبح أمامه

— إنها تنام هناك فهى لم تزل وسنى غارقة فى سباتها الجميل ، ساحرة ناعمة كما تركتها منذ حين ، وإنى لأقسم أن لن تحين الواحدة إلا وتكون الفتاة بصحبتى فى طريقى الى منزلى . فلأنزلنها من نفسى منزلة طيبة . ولأنزلن لها عن سريرى لتنام عليه ولأتعهدنها كابنة ، وأرعاها كأخت ، سوف أمهرها مهراً كبيراً . سوف أحبها ، ثم سوف أحبها !

ولكن اقتربت الساعة واصطرع الأمل ، فالحظ يأتيه بغيث منهمر ، وهو لم يشبع بعد أو يرتوى فما ضر لو صبر واصطبرت معه الفتاة ، إن ربعاً من ساعة ليس بكثير . ومضى ربع ثم ثان وثالث ، وهو لا يزال يبعثر ماله فيأتى له ربح وفير ، ولا يزال يتعسف ويجور فيبهظ ويرهق ، ولا يزال ينثر المال

فى ثقة واطمئنان ! وأعلنت الساعة الثانية إلا ربعا . إلا أربع عشر . . . إلا ثلاث عشر . وقام صاحب الندى عن « بنكه » الخاسر يقول :

— لقد أفلس « البنك » يا سادة ! كفى لعباً الليلة !

فساء ليل المنذرين ! إذ هم بين خاسر وموتور وحسير . وتدافع الجمع عليه بالمناكب ، ودوا لو ينهشونه ويستردون مالهم السليب ، ولكن لوسيان دفعهم بيديه مفسحاً لقدمه مجالاً بين أقدامهم الزاحفة ومرق من بينهم كسهم مفوق يريد الباب فالدرج وعدا مسرعا شطر الفتاة الوسنى . لقد رآها على نور مصباح الطريق

— حمداً لله فهى ما فتئت هنا ! وأسرع نحوها ثم أمسك بيديها

— كم هى مثلجة تلك الساحرة ! واحتضنها بين ذراعيه فمالت رأس الطفلة للوراء دون أن تصحو فقال :

— ما أجمل نومكم أيها الأطفال الأعزة !

وشدها الى صدره كى يشيع الدفء فيها . وأراد أن يوقظها بقبلة يطبعها على عينها الناعسة ، ذات الأهداب الوطفاء . ولكن .. ما لها مسبلتان أبدا ؛ لقد كانت عيناها نصف مغلقتين فشفتا عن عيون صافية . ولكن ... لا حراك بهما !

إنها ميتة وإنها لضحيته ! . بينما هو يكسب الآلاف من الفرنكات ويبعثر الآلاف من الفرنكات كانت « مموّلته » تموت من برد وزمهرير

إنه لم يحتمل الصدمة فأراد الصياح ، ولكن صوته احتبس فى حلقه فآذاه ، فأيقظه ذلك من سنة أخذته رحمة ، ونوم طاف به رأفة . لقد نام فى مقعده الذى احتضنه أول الليل ، وحل بساحته كابوس ثقيل .

***

وبدأ فجر أحد الأيام يفصح فى الشرق خجولا حييا : ضرب خمار السحاب الشف من دونه ، وقام متعثراً فى طيات الليل المدبر ... وبدأ النور يسترق خطاه مترفقاً ، فبدأت الحجرات تضىء من وراء النوافذ

فى ذلك اليوم اغتسل « لوسيان دى هيم » وتناول فطوره وقصد « جماعة أنصار الحرب » ، وأدرج اسمه متطوعاً فى الفوج الافريقى الأول

لقد أصبح الآن لوسيان « ملازماً » بالجزائر صالحا لا يقامر ولا يشرب ، يكسب ما يقوته ويقيم أوده . وفى يوم كان زميل له يسير خلفه فى طريق « كاسبة » المنحدر فرآه يحسن إلى فتاة أسبانية حسناء ، نعم ! لقد كانت حسناء فاتنة ! وكانت تنام فى الطريق !

ودهش الزميل من كرم لوسيان ...

لقد كان بيد الفتاة نقد من ذى العشرين فرنكا . . .

سيد محمد العزاوى
كلية الآداب

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الخامس

وكنت وديجنه جالسين ذات مساء قرب الموقد والنافذة مفتوحة ، إذ كنا فى أوائل مارس ، وقد انقطع مطر النهار ، فهبت علينا من الحديقة طلائع عبقات الربيع

وقلت لديجنه : ماذا تريد أن تفعل فى الربيع فاننى أشعر بحاجة إلى السفر ؟

قال : سأفعل ما فعلته السنة الماضية ، فأذهب إلى الضاحية عند ما يحين الزمان

فقلت : أفتريد أن تسير فى كل سنة على وتيرة واحدة

فقال : وماذا تريد أن أفعل ؟

فنهضت فجأة وصحت به : أجل ، قلت حقاً يا ديجنه ... فأنا قد تعبت من كل هذا ، أفما مللت أنت هذه الحياة ؟

فأجاب : كلا !

وكنت واقفاً أمام رسم المجدلية فى الصحراء فضربت يداً بيد بحركة اغتصابية فسألنى ديجنه : ما هذا ؟

فقلت : لو كنت رساماً ولاح لى أن أصور السآمة والضجر لما كنت أرسم رمزها فتاة مستغرقة فى التفكير وفى يدها كتاب

فقال : هل تكيد لأحد هذا المساء ؟

ولم تستوقفنى ابتسامته فقلت : إن هذه المجدلية الغارقة بدموعها لم يزل صدرها ناهداً بالأمل ، ويدها الناحلة التى تسند إليها رأساً لم تزل تعبق بالعطر الذى سكبته على قدمى المسيح ، وهذه الصحراء وما حولها آهلة بأشباح أفكار تتجه بالصلاة إلى الله فقل لى أهذا هو رمز السآمة والضجر ؟

فقال بصوت لا أثر للشعور فيه : ليس هنا إلا امرأة تطالع كتاباً

فقلت : ولكن هذه المرأة سعيدة والكتاب الذى تطالعه جليل

وأدرك ديجنه ما أرمى إليه ، وأنا مستسلم للأسى ، فسألنى عما ألم بى ، ولكننى ترددت فى الجواب فكأن يداً ربطت على قلبى

وبعد صمت قصير قال ديجنه : إذا كان هنالك ما يؤلمك فلا تكتمه عنى وأنت تعلم أننى لك خير صديق

فقلت : أعلم أن لى صديقاً ولكن آلامى لا صديق لها

وألح على فقلت : إذا أعربت لك عما يخالجنى فما يفيدك ذلك وأنت عاجز عن تفريج كربى وأنا أعجز منك . أفتريد سبر أعماق سريرتى ، أم أنت تطلب كلمة أنتحل لك فيها الأعذار ؟

فقال : كُنْ حرّ الضمير

فقلت : اسمع إذاً ... لقد بذلت نصحك لى فيما مضى ، فاصغ الى الآن كما أصغيت حينئذ إليك

قف أمام أى رجل كان وقل له إن فى الحياة أناساً يمضون أيامهم فى احتساء الخمر وركوب الخيل والضحك واللعب واغتنام فرص اللذات بأنواعها ، فلاشىء يحول دون مضيهم على السبيل الذى اختاروه لأن شريعتهم تقوم على استحسانهم ، ولهم من يشاؤون من النساء لأنهم أغنياء ، ولا هم لهم ، فكل أيامهم أعياد

فاذا لم يكن هذا الرجل الذى تخاطبه من أهل الورع والتقى فانه ليقول لك إن هذه الحياة نهاية ما يتصوره الانسان من سعادة على الأرض

خذ بهذا الرجل واقذف به الى هذه الحياة التى وصفت ، أجلسه الى مائدة قرب امرأة وضع كأساً فى يده وانفحه كل صباح ببدرة من الذهب وقل له : هذه هى حياتك : بينما تكون نائماً الى جنب عشيقتك تكون خيولك تحفش على مرابطها ، وبينما تكون ممتطيا جوادك يقرع المتنزهات بحوافره ، يكون شرابك يغلى مختمراً فى دنانه . وبينما تحيى ليلك شارباً ثملاً ، يكون أرباب المصارف يعملون على إنماء ثروتك . فما عليك إلا إبداء رغباتك لتنقلب أمانيك حقائق . أنت أسعد الناس ولكن حذار أن تفرط فى الشرب فى ليلة من لياليك ، فتجد جسدك بعيدا عن تذوق ملذاتك لأن كل مصيبة تجد عزاءها ما عدا هذه المصيبة الدهماء . لقد يكبو جوادك فى الغاب وأنت تلهو بالطراد مع رفاقك فتتدهور الى مستنقع ، وإذ تستغيث لا يصل صوتك الى آذان هؤلاء الصحاب وقد أصمهم السكر وجلبة الحبور . حذار أن يمروا بك دون أن يعثروا عليك فيتوارون عنك وأنت تزحف بأعضائك المحطمة تحت جنح الليل

لا بد أن تخسر بالمقامرة فى ليلة من لياليك فلاحظ ساعاته السوداء ، فاذا ما عدت إلى منزلك لتجلس أمام موقدك ، حاذر أن تضرب جبينك بيدك وأن تدع الأسى يبلل أجفانك ، وأن تدير لحاظك مفتشاً عن صديق . إحذر بخاصة ألا يجمح بك خيالك الى كوخ ينام فيه زوجان على فراش الطمأنينة وقد اشتبكت أنامل أحدهما بأنامل الآخر حتى فى الرقاد . لأنك لن ترى أمامك على فراشك الفخم الوثير من تسر إليه بجواك سوى المخلوقة الشاحبة التى تتعشق دنانيرك ، وإذا ما لجأت إليها لتشرح صدرك فلن يخفى عليها أمرك وسبب حزنك إنها لتشعر بفداحة خسارتك فتذهب دموعك مثيرة فى قلبها الشجون ، لأنها ستشعر من دموعك هذه بخطر يتهدد ثوبها بألا يتجدد والخواتم التى تلمع فى أناملها بأن تسقط منها

حذار ، يا هذا ، أن تفوه أمامها باسم من ربح مالك هذا المساء فلقد تلتقيه هى غداً فترسل إليه لحظات الأغواء من خلال ما يحوطك من خرائب وأطلال

ذلك هو الضعف البشرى ، أيها الرجل ، فهل لك من قوة تحتمل مثل هذا الضعف ؟

إذا كنت رجلا فاحذر السآمة ، إنها لداء عياء ، والميت خير من حى سئم الحياة

إحذر الحب إذا كان لك قلب لأن الحب عار الفاسقين ، وخير لهم أن يصابوا بأى داء من أن يصبحوا مهزلة فى أعين أمثالهم المقدرين لكل خليلة

ثمناً . وليس للمرأة التى تبيع نفسها أن تحتقر أحداً إلا الرجل الذى يحبها …

إذا ما شعرت بالحب يجتاح قلبك فاحذر أن ينم وجهك عليه … فما يتخلى عن درعه إلا الجندى الجبان . وعلى الفاسق ألا يظهر تملقه بشىء لأن ظفره قائم على أن لا يمس شيئاً إلا بيد من رخام دهنت بالزيت كيلا يعلق عليها أثر مما تقبض عليه

إذا كنت نزقا وأردت أن تحيا ، فتدرب على القتل لأن فى الخمر ما يقودك الى المشاغبة ، وإذا كان لك ضمير فاحترس من الساعة التى تلقى فيها رأسك على الوساد ، لأن الفاسق إذا ندم بعد فوات الأوان يشبه مركبا اخترقته مياه البحر فليس له عن موقفه متقدم ولا متأخر ، فلا يسير الى العباب ولا يعود الى البر وعبثا تدفعه الرياح إذا جذبته اللجج ، إنه ليدور على نفسه ويغور . .

إذا كان لك جسد فاحذر الأوجاع ، وإذا كان لك روح فاحذر القنوط ، بل احذر الناس بأسرهم ، أيها الشقى ، فانك ما دمت سائرا فى طريقك التى تخيرت لتشهد سهلا فسيحا تدور عليه حلقات الراقصين متماسكات متتابعات كدوائر الأزهار ، ولكن ما تشهده ليس إلا سراباً خادعاً فى قاحل الصحراء

إن الناظرين الى مواطىء أقدامهم يعلمون أنهم ينسحبون على صراط ممتد فوق نهر عميق ولكم تهاوى إليه السائرون فضمهم الى سكونه فانطبقت عليهم صفحته الهادئة دون أن تتجهم

حذار أن تزل بك القدم فان الطبيعة لتتراجع عنك بما فى أحشائها من حياة فتنكرك ، حتى الأشجار الباسقة وأماليد الغاب

لقد خرقت شريعة أمك فأنكرك كل رضيع من إخوتك فى الحياة

إحذر غضب الله ، أيها المنفرد ، لأنك تنتصب أمام وجهه الكريم متحجراً كالصنم على قاعدة إرادتك المتمردة فما تغدق السماء عليك رشاشها إلا لتفت من أعضائك وتذيب هيكلك ، وما يهب الهواء عليك لينفحك بقبلة الحياة وهى قبلة التوحيد بين جميع الاحياء ، بل يعصف عليك عصفاً ليهزك ويقوضك تقويضا . إن كل امرأة تضمها إليك ستجتذب شرارة من قوتك دون أن تبادلك شرارة من قوتها . فما أنت إلا حقيقة تترامى متهالكة على أشباح وحيث تسقط نقطة من عرق جبينك تنبت شجرة من مظللات القبور

مت ، فما أنت إلا عدو لكل من يحب ولكل ما يحب … إنقبض على ذاتك فى عزلتك وانفرادك ولا تتوقع أن تبلغ نهاية عمرك ، إذهب ولا تبق منك على الأرض نسلا تستبقى فيه للحياة دماً من دمك المفسود

تبدد كالدخان ولا تحرم بظلك حبة القمح النابتة من نور الشمس . »

وما انتهيت من هذا الخطاب حتى استلقيت على المقعد وقطرات الدموع تتساقط من عينى ، وأنا أعول قائلا : أليس هذا ما قلته لى أنت يا ديجنه ؟ أفما كنت تعرف هذا من قبل ؟ وإذا كنت عرفت فلماذا لم تتكلم

وكان ديجنه مشبكا أنامله ، وقد علته صفرة

الموت وانهمر الدمع من عينيه

وساد بيننا السكوت . وقرعت الساعة فذكرتني فجأة انني في مثل هذا اليوم وهذه الساعة منذ سنة تكشفت لي خليلتي مخادعة خائنة

فصحت بديجنه : أتسمع دقات هذه الساعة ؟ أتسمعها ...؟ إنني لا أعلم بماذا تنذرني ؟ ولكنني أشعر انها ساعة رهيبة سيكون لها شأنها في حياتي

وكنت أتفوه بهذه الكلمات وأنا مسلوب الارادة مضعضع الحواس ، وفتح الباب فجأة في تلك اللحظة نفسها ، ودخل القاعة أحد الخدم ، فأخذ بيدي وانتحى بي إلى زاوية وأسر إلى قوله : أتيت لأخبرك يا سيدي بأن أباك على فراش الموت فقد أصيب بالشلل ، ولا أمل للأطباء في حياته

الجزء الثالث

الفصل الأول

وكان والدي يقطن ضاحية قريبة من باريس . وعند ما وصلت إلى المسكن رأيت طبيباً واقفاً أمام الباب فقال لي : لقد وصلت متأخراً ، وكان أبوك يتمنى لو يراك المرة الأخيرة

دخلت فاذا والدي مسجى وقد فارقته الحياة

فقلت للطبيب : أرجوك أن تبعد كل من في الغرفة دعني وحدي فقد كان لوالدي ما يقوله لي ، ولسوف يقول كلته الآن

وخرج الخدم فتقدمت إلى السرير ورفعت الغطاء عن وجه الميت ، ولكنني ما ألقيت نظرى عليه حتى تراميت لتقبيله فأغمي علىّ

ولما أفقت على فراشي في غرفة أخرى سمعت من حولي يقولون : لا تدعوه يذهب وإن أصرّ . انتظرت حتى رقد جميع من في البيت وأخذت مصباحاً وتوجهت إلى غرفة الميت فوجدت فيها كاهناً فتياً جالساً قرب السرير ، فقلت له : لا حق لك بأن تنازع ولداً ليلة أخيرة يقضيها قرب أبيه . لا أعلم ماذا قيل لك بشأني غير أنني أرجوك أن تدخل إلى الغرفة المجاورة وأنا آخذ على عاتقي كل تبعة قد تقع عليك

ذهب الكاهن فقعدت مكانه ومددت يدي أكشف المرة الثانية عن هذه الملامح التي قضى علي بألا أراها بعد

وخاطبت الميت قائلاً : ماذا كنت تريد أن تقوله لي يا أبي ؟ لقد أدرت لحاظك مفتشاً عني قبل انطفاء عينيك ، فما كانت فكرتك الأخيرة ياترى ؟

وكان والدي يكتب مذكرات يدون فيها وقائع أيامه ، وكان كتاب هذه المذكرات مفتوحاً على الخوان فتقدمت إليه وجثوت فاذا على الصفحة الأخيرة هذه الكلمات :

(الوداع يا ولدي . . . أحبك . . . وأموت)

جمدت دموعي واختنقت زفراتي ، فكأن يداً شدت على عنقي وختمت على فمي . فوقفت شاخصاً بالميت المسجى أمامي . وما كان في حياته يجهل ما كانت عليه حياتي ، فقد كان يشكوني إلى نفسي ويوجه إلى التقريع ، وما اجتمعت به مرة إلا وحدثني عن مستقبلي ، وتناول باللوم ما آتي شبابي . ولكم أنقذتني نصائحه من تهلكة ، فقد كان لارشاده

قوته المستمدة من فضيلته لأنه كان مثال الدعة ومكارم الأخلاق . وقد كان يتمنى لو يرانى قبل موته ليردنى عن السبيل الضلول الذى توغلت فيه ، ولكن المنية عاجلته فلم تدع له إلا كلة واحدة يقولها ، فقال : إنه يحبنى …

الفصل الثانى

وكان قبر والدى يحوطه سور من خشب ، لأنه أراد أن يدفن فى مقبرة القرية ، فكنت أذهب كل يوم لأقضى ساعات على مقعد صغير كان موضوعا داخل السور ثم أعود إلى المسكن الذى كان يقطنه ولا رفيق لى إلا خادم واحد

مهما فعلت أحزان الشهوات فى النفوس فما هى إلا آلام خياة ، وهل تقاس آلام الحياة بأحزان الموت ؟ إن أول ما تبادر إلى ذهنى حين وقفت إلى جنب سرير والدى الميت هو أننى ولد جاهل لا يعلم شيئاً ولا يعرف شيئاً ، وعند ماربط الأسى على قلبى شعرت به كألم فى جسدى حتى كنت أتلوى كمن أفاق من غفلة فشعر بجهله وأحس بآلامه

ومضت الشهور الأولى على فى الضاحية وأنا ذاهل لا أذكر الماضى ولا أبالى بالمستقبل . فما كنت أشعر أن من عاش فيما مضى كان إياى ، وما كان ما يستولى على فى ذلك الحين ليشبه آلام اليأس الثائر التى كانت تقبض على من قبل ، بل كان نوعاً من الجمود والتعب فكأننى كرعت السآمة فوجدت لها مرارة تتشنج لها أحشائى

وكنت أجلس طيلة نهارى إلى كتاب أتصفحه ولا أقرأ ، بل أنظر إليه لأعيش فى أجواء تشبه العدم لأننى كنت فقدت التفكير فاستغرقت فى سكينة مطبقة . فإن ما صدمت به كان من العنف والاستمرار على قوة نالت منى حتى غدوت كالمسلوب تنقر أعصابه فلا تجيب

وكان خادمى لاريف شديد التعلق بوالدى ولعله كان خير الناس بعده فى تقديرى ، وكان من سنه ومن قده ويلبس ما يهبه إياه من أثوابه ، وقد وخط الشيب شعره بعد أن قضى عشرين سنة فى خدمته ، فاقتبس شيئاً من حركاته

وكنت بعد العشاء أتمشى فى الغرفة فأسمع وقع أقدام خادمى يتمشى أيضاً فى الدار وما كان يدخل إلى الغرفة بالرغم من تركى الباب مفتوحاً ؛ ولكننا كنا نلتقى من حين إلى حين فيرى أحدنا الآخر من خلال دموعه ، وهكذا كانت تمر ليالينا ، فما كنت أطلب من الخادم إشعال المصباح إلا بعد أن يكون مضى وقت طويل على غروب الشمس

وكان البيت لم يزل على ترتيبه القديم ، فما زحزح الخادم ولا أنا ورقة من موضعها ، فكان مقعد والدى لم يزل قرب الموقد ، وبقى الخوان والكتب والرياش فى مواضعها ، وكنت أحترم الغبار الذى علا هذه الأشياء ، وعند ما كنت أرتدى مباذل أبى وأسترخى على مقعده كان يخيل إلى أن فى الجدران عيوناً ترمقنى بلحظات الاشفاق ، وأننى أسمع همساً يقول : أين مضى الوالد . . فما يتربع على كرسيه الا اليتيم . .

ووردت إلىّ بعض الرسائل من باريس ، فأجبت الجميع أننى أنوى تمضية الصيف فى الضاحية وحدى جريا على عادة أبى ، وبدأت أدرك أن فى

كل شر بعض الخير ، وأن الآلام العظمى مهما قيل فيها راحة عظمى ، فاذا ما تكشف المقدور لنا من علم غيب الله فانه ليصدعنا لينبهنا من غفلات الحياة ، وإذا ما تكلمت هى أسكت صوتها كل صوت ، وإذا كانت الآلام الموقوتة تجدّف شاكية ظلم السماء ، فان الآلام المستمرة الكبرى لا تجدفّ ولا تشكو بل تخضع وتتنبه لتسمع وتعى

وكنت كل صباح أقف الساعات الطوال متأملاً فى مشاهد الطبيعة ، وكانت نوافذ غرفتى تطل على واد عميق يرتفع من وسطه جرس المعبد على قبابه ، فكان كل ما يمتد نظرى عليه ينم عن البساطة والفقر ، وما كانت مشاهد الربيع بأزهاره المتفتقة وأوراقه الغضة لتثير فى نفسى ما يتخيله الشعراء من التفجع ، إذ يرون فى انجلاء الحياة ابتسامة ساخرة بالموت ، ولا أرى من يقول بهذا القول إلاّ مغالطاً أو شاعراً بقلب لم يتكامل الشعور فيه

إن من يخرج عند بزوغ الفجر من قاعة القامرة وقد فرغت يده يمكنه أن يشعر أن بينه وبين الطبيعة عداء ونضالا ، فهو أمام أنوار الشفق كمصباح ليلة فاجرة ... ولكن ما يمكن أن تسر به الأوراق المطلة من غصون الربيع للولد المنتحب على أبيه ؟ وما دموع عينيه إلا أخوات الأنداء ، وهل أوراق الصفصاف نفسها إلا قطرات دموع ؟

لقد نظرت طويلاً إلى السماء والغاب والمروج ، فأدركت أن تعزية الناس للناس إنما هى تعلة من بنات الخيال ؛ وما كان لاريف ليخطر له أن يعزى نفسه أو يوجه إلىّ عبارات التعزية ، فقد كان هذا الرجل يخشى أن أبيع البيت وأذهب به إلى باريس ولعله كان مطلعاً على حقيقة حياتى الماضية إذ كانت تبدو عليه دلائل القلق فى أول الأمر ، ولكنه عند ما رآنى أعد المنزل لأقيم فيه شعرت بنفوذ نظراته إلى أعماق قلبى ، وكان ذلك يوم استحضرت من باريس صورة كبيرة لأبى علقتها على جدار غرفة الطعام ، ولما دخل لاريف ورأى هذه الصورة أخذه الذهول وبدأ ينقل نظراته من رسم والدى إلى وجهى وفى هذه النظرات من تساوى الحزن والفرح مايصعب التعبير عنه ، فكأنه كان يقول لى : يا للسعادة ، لسوف نستغرق بسكون فى حزننا

ومددت له يدى فأوسعها تقبيلا ، وكان هذا الخادم يعتنى بأحزان سيده كأنها سيدة أحزانه ، وكنت كلما ذهبت فى الصباح إلى القبر أرى أنه سبقنى إليه وسقى أزاهره لينسحب عند وصولى ويخلى لى المكان

وكان يتبعنى عند ما أمتطى جوادى وأذهب متنزهاً فى الغاب ، فأراه قد أطل علىّ فى الوادى ماشياً يسير ورائى وهو يمسح عرق جبينه لاهثا ، فاشتريت له فرساً من أحد الفلاحين ، وهكذا أصبحنا كلانا نذهب متجولين فى الغاب

وكان فى القرية من معارف أبى من كانوا يزورونه أحياناً ، ولكننى اضطررت إلى قفل بابى دون كل زائر وإن صعب ذلك علىّ ، فما كان لى جلد على مقابلة أحد

وفكرت يوماً أن أطلع على أوراق والدى ، فقدمها لى لاريف بيد خاشعة مرتجفة . ففك رباطها ونثرها أمامى ، وما تلوت الصفحات الأولى منها

حتى شعرت بانتعاش كأن نسمات عليلة هبت علىّ من جوانب بحيرة صافية ساكنة ؛ وكنت كلما قلبت صفحة ونفضت عنها غبار الزمان ، عبقت منها كالمطر حياة أبي تتوالى يوما بعد يوم ، فأعد فيها خفقان فؤاده وأستعرض وقائعها كحقول مساع كلها جد ، وقد نبتت فى كل جوانبها أزاهر العطف والنبل ، وتمازجت ذكريات حياته بتذكار موته ، فكنت أتتبع هذه الحياة تنحدر كالجدول الصافى نحو بحر الموت

وهتفت فى صمتى : أيها الرجل الصالح الذى لم يعرف الخوف ولم يتدنس بلؤم لكم كنت طاهراً فى جهادك ، ومخلصاً فى ولائك ، ووفياً فى حبك لزوجك أمى ، لكم كنت معجباً بالطبيعة ، ومتعبداً لربك ، فحصرت فى هذه العواطف كل حياتك ، ولم تدع لسواها منفذاً إلى قلبك ، فما كانت الثلوج على أعالى الجبال بأنقى من ناصع شيبك فى شيخوختك الصالحة ، ألق هذا الشيب على رأسى يا أبى فان فيه من الشبيبة ما ليس على شعرى الذهبى . هبنى أن أعيش كما عشت أنت وأن أموت كما مت ، فاننى أريد أن أغرس فى التراب الذى يواريك غصناً ناضراً لحياتى الجديدة فأسقيه من دموعى والله راعى كل يتيم ، ينمو هذا الغرس المقدس ليظلل أوجاع ولد وتذكار شيخ ...

وبعد أن اطلعت على الأوراق جميعها ، قررت أن أدون أنا تذكارات أيامى فأعددت لها كتابا على مثال كتاب والدى ، وبدأت بالسير على آثاره وطبع حياتى على غرار حياته . فكانت الساعة كلما دقت تذكرنى بحركة من حركات أبى وسكنة من سكناته فكنت أتبع فى الطعام والقراءة والتنزه الخطة التى اتبعها هو فتعودت الحياة الهادئة المنظمة تدخل الطمأنينة إلى قلبى طول نهارى ، حتى إذا جاء المساء رقدت مستكناً وأنا أشعر بالغبطة حتى فى أحزانى

وكان والدى شديد الميل إلى العمل فى الحديقة فيوزع أوقاته بعد حرثها توزيعاً متساويا بين المطالعة والتنزه فيعطى لعقله ولجسده ما يحق لكل منهما . واقتديت بأبى أيضاً فى أعمال البر متمماً ما بدأ به فكنت أذهب مفتشاً عن من أتمكن من مد يد المساعدة لهم ، وعددهم وفير فى الوادى حتى اشتهرت بينهم . وهكذا لأول مرة فى حياتى شعرت بالسعادة فليس كالرحمة ما يطهر الأحزان ويقدسها . فقد بارك الله دموعى فتعلمت الفضيلة من الآلام ...

(يتبع) فليكس فارس

مكافأة

لمن يدل على القاتل

تعطى مجلة « الرواية » مكافأة وقدرها ٥ جنيهات لمن يدل على القاتل فى القضية المشار إليها فى « يوميات نائب فى الأرياف » للكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم التى تنشرها المجلة تباعاً على أن تصل الردود إلى المجلة قبل أول يوليه مع بيان الأدلة بوضوح وإيجاز



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة


هوميروس

في أرض المردة (السيكلوبس)

خلاصة الفصول السابقة

« انتهت حرب طروادة ولكن أوديسيوس العظيم لم يعد فيمن عاد من أبطال اليونانيين إلى بلادهم ، وكانت زوجته بنلوب آية في الجمال ، فطمع فيها كل أمراء النواحي وحاصروا بيتها ليرغموها على التزوج من أحدهم . وكان لأوديسيوس ولد اسمه تليماك حرضته مينرفا ربة الحكمة على الإبحار ليسأل عن أبيه ملكي پيلوس وأسپرطه . وغيظ العشاق لما علموا بإبحاره فتربصوا له ليقتلوه . أما أبوه فانه لما أبحر من طروادة نسي أن يضحى للآلهة ففرقت أساطيله ونجا هو إلى جزيرة تسكنها عروس الماء كلپسو التي عشقته أول ما رأته وأبقته عندها سبع سنين ، حتى أمرها كبير الآلهة زيوس أن تطلق سراحه فأبحر على رمث صغير ، ولكن نپتيون عدوه الأكبر لمحه وهو يقترب من أرض ملوك البحر فأغرقه مرة أخرى ، وبعد نضال شديد سبح إلى الشاطئ حيث لقي نوزيكا ابنة الملك فأرشدته إلى بيت أبيها الذي أكرم مثواه ووعد أن يرده سالما إلى بلاده . وأقام الملك حفلاً رياضيا اشترك فيه أبطال المدينة وغمز أحدهم أوديسيوس بكلمات ينمى عليه فيها أنه لا يعرف من الرياضة شيئا وإلا لشارك في تلك الألعاب ، فغضب أوديسيوس ونهض فقذف بالقرص الكبير قذفة بلغت من المدى أضعاف ما قذف أقوى أبطالهم ، ثم تحدى الجميع لمصارعته وملاكمته فتقاعسوا ... وسأله الملك من هو ولم كان يبكي حينما سمع المنشد يذكر حروب طروادة وبطلها العظيم أوديسيوس ... وهو هنا يجيب عن أسئلة الملك بهذا الفصل الفريد الذي يرتفع فيه هومير إلى الذروة »

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جده ، لشد ما يطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادي ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أنني مجيبك على ما بدهك من دموعي وهمومي ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لي من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذي لا يجهل اسمه أحد ... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذري بحماك ، المتشبث بك ليصل في ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل ... هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف في السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن لبرتيس رب إيثاكا ، وملك نريتوس ذي الشماف السامقة ، والجزر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التي تصافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء وخميلة لفاء ، وجنات ذوات

شجر وثمر، صِبْغاً لأبنائها الأوفياء ... هناك... حيث احتجزتني عروس الماء كاليبسو في كهفها، وراودتني لأكون بعلها ... وهناك ... حيث أغرتني سيرس هي الأخرى، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التي حاولت أن تتخذ مني خليلا فأبيت، ولم أقبل أن أضحي وطني وأهلي، ولو أصبحت زوجاً لاحدى الربات الخالدات ... ولكن لا، هلم قبل كل شيء أقص عليك من أنباء رحلتي منذ بارحت إليوم، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور:

« أقلعت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس[١])، (فبدا لي أن أزيد في ثروة رجالي وما فازوا به من أسلاب طروادة، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار[٢]) وسرعان ما تم لنا ذلك، فقتلنا المسكر وملكنا القرية، ووزعت السبي والأسلاب على جنودي، ثم أشرت عليهم بالرحيل فعصوا أمري، وعثوا في المدينة مفسدين، وعاقروا من الخمر وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم، وأتاح لأعدائهم لم الشمث، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن جيرانهم، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا، ولم يُغننا أنا قاتلناهم حتى مطالع فجر اليوم التالي، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون، حتى قذفوا بنا في البحر، فوقفنا في سفائننا نناوشهم برماحنا ... وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب ... فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى، بعد إذ انتزع السيكون نخار النصر. وعدت إلى الجند ... فوا أسفاه! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة ... سقطوا في المعركة الخاسرة!

وأجننا الليل، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى؛ وما كدنا نفعل حتى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال — ريحاصرصرا عاتية أثارت البر والبحر، وعصفت بمرا كبنا فأطاحت قلاعها ومزقت شراعها، ففزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد، مستقتلين مستميتين، حتى نجونا بعد لأى إلى البر، حيث تلبثنا ليلتين طويلتين في أين وإعياء، وشكاة وشقاء، نصلح القلاع ونرتق الشراع .. وفي صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها. وما كدنا نلمح شطئان ماليا، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا، وحملتنا إلى جزيرة سيثيرا ... وطفقنا بعدها نذرع العباب تسعة أيام أخرى، حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجي)، هذا الشعب الغريب الذي يقتات بالفاكهة فحسب، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمة، وأهرع اللاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالي، وجعلت عليهما ثالثا رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم، فاختلطوا بهم، وقابلهم اللوتوفاجي بالبشر والترحاب؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب، الذي ينسى آكله ما أسلف من حياته، وتَنْبَتُّ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه، وإذا فكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه، بل يصبح كل مناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجي السحراء! ... وتنظرت عودة رجالي،

(١) على الشاطىء الشمالي لبحر إيجه

(٢) ما بين القوسين من شرح الأستاذ جربر وليس من متن الأوذيسة

بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسي إلى حيث هم ، فحملتهم قسراً إلى الشاطئ بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم في قمرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضل ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا في هذه الأرض جاثمين

« وما عتمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة السيكلوپس — الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ؛ الذين تؤتي أرضهم أكُلَها رغدا من غير كد ولا عناء ... حَبًّا وأبًّا ، وحدائق غُلْباً وقَضْباً وعنبا ، تُسقى مما يفيض عليها جوق من مائه المعين ... يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ؛ يأوون إلى كهوفٍ موحشة ، وغيرانٍ سحيقة ، في قلل الجبال وأحيادها ... يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة شجراء ، فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك يهماء[1] مُضِلة ، لم تطأها فيها غير قدم إنسان ، ولم يُرَش إلى حيوانها سهم صائد ، لأن السيكلوپس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية ... وثمة ، في جَوْن هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، في ظلام الليل الدامس ، وفي حراسة الآلهة ، بعد إذ ارتطمنا

بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع الفجر ؛ وأشرقت أورورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ؛ فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشيء الكثير ، ونال كل من رجال سفائننا الاثنتي عشرة تسع أعْنُز ، بعد أن تخيرت عشْرا لنفسي ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ ، ونكرع كل كأس روية ، في غير تخمةٍ ولا شجى[1] ... وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التي افترعناها من زِقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يصّاعد في الأرض القريبة ، ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر في جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوپس المردة ينتشرون في الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام ... أعداد لا حصر لها ... عليها إذا عُدّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مروعين ، حتى إذا بزغت أورورا نهضنا واحتشدنا في صعيد واحد ، ثم قمت في رجالي خطيباً ، فقلت : « أيها الأخوان ! لتبق غالبيتكم في هذه الجزيرة ، فإني ذاهب في نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل قوم ظلم وضيم ونضالٍ هم أم ربيون يهشون للمكرمات ، ويخبتون للآلهة ؟ »

« وأقلعت في نخبة من رجالي فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئا في البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا

(١) مضلة لا يهتدى فيها

(١) الشجي هو الغصص بالشراب

إلى كهف عظيم ضارب في الصخر ، وقد نما الغار الجيل عالىَ بابه الضخم ... ودخلنا ... وأثاردهشتنا هذه الحظيرة الكبيرة في وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَترسٌ بجذوع الحور والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوبس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم وعلاؤه بغياً وعدواناً . . . ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أي خلق آخر ؛ فوجهه مربد عبوس أبداً ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور فوق ناصية الجبل . . . ؟ . . وتوقلنا[1] ... وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قَسٌّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته . . . ياله من كاهن سمح طيب القلب ؟ ! لقد نفحنى بأكرم اللُّهى[2] وأجزل الهبات ؛ وهل أنسى ما حييت تلك البدَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الاثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . . . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذاك سكْر ولذة وروْح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكْزاً[1] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكننا مع ذاك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع في قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنّى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون . . . ، ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها في المروج القريبة .. ووددنا الطرف في المغارة فرأينا مصافىَ كثيرة معلقة ينز الحصير[2] منها ههنا وههنا ، فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان بيواطٍ كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض . وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز ، وقد قسّمت فرقاً حسب سنها ... وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد ، وأن نستاق الحملان والجدعان إلى سفائننا ، غير أنى — وا أسفاه ! — تأبيت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفحنى من كنوزه ، ويسبغ علىّ من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يطوى المروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس ، حتى إذا كان لدى الباب ألقاها في بطش فاهتزت الأرض ودوّى المكان ، وانحبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب في أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صعقين ، واختبأنا كالخفافيش في زوايا

---

(١) توقل : صعد فوق جبل

(٢) العطايا

(١) الركز (الخرج) بضم الراء ما يحمل فيه الزاد

(٢) الماء يسقط من الجبن

المغارة وشقوقها ... أما هو ، فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الأناث فى الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثور ضخم أن تزحزحه من مكانه ... وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جذعانها [1] ترضع ما تبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف . فصاح بنا : «من هنا ؟ وى ! من أنتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيثون فى بلاد الناس ؟ » وزلزلنا زلزالاً عظيما ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتمتلج اعتلاجاً ... ثم إنى جمعت ما تبقى من وعيى ، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا إليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجا ممنون الملك ، ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . . وها نحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب ، فنضرع إليك أن تفىء علينا مما أفاء جوف عليك ، وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم مثوانا ، فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً ، وأينما نولّ فانه معنا »

وتجهم السيكلوب الجنى وقال مغضباً مستهزئاً : « حَسْبُكَ أيها الأخ المغفل ما خوّفت من جوف ، فنحن السكلوبس لا نبالى جوف ، حامل إيجيس [1] ، ولا سكان السماء قاطبة ... أنا أقوى منهم بكثير ، وأنا نفسى ، لن آبه لأيما نذير من جوف كبير الأولمب ... ولكن حدثنى قبل كل شىء متى ألقت سفينتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » ... وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نبتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفاً ، وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً . . . بعيداً من ههنا . . . ونجوت مع هذا النفر من رفاقى فقط إلى شاطئكم » ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة ... بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرسلهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا ... وهنا ... وألقاهما بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا ... واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق ينهشهما ... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما ، غير مبق على عظمة واحدة أما نحن فيا لآلهة السماء . . . لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ولم يكن لنا مع ذلك من أمل فى نجاة ! !

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من هذا اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى

[1] جمع جذع بفتحتين كل حيوان صغير غير مفترس .

[1] درع

الكهف شخيراً مزعجاً . . . ولقد حدثتني نفسي أن أنقض عليه فأخوض في لَبَّتِهِ بجزاري ، ولكن فكرة سوداء طافت برأسي ، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذي لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التي سنموتها إن فعلت ... فقنطت قنوطاً شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابي ، وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ، فهب السكلوب إلى قطعانه ، وأخذ في حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسل إليها صغارها ترضع وتنتخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالي وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه في سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية ، ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بُهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا ... وفكرت ألف فكرة في وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بمينرڤا أن أستطيع . . . وانفرجت أساريري فجأة ، وأشرق وجهي بنور الأمل ... ذلك أنني أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنّي ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت في نفسي : « ولم لا يكون في هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إني أمرت رجالي ببَرْيِ أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلاً جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً ... فأقبلوا عليه ينحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده ... ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى في الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد في عين السيكلوب . . . وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجني في موعده فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه ، وجلس يحلب الأناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتمشى بهما ، وقبل أن يستلقي على الأرض ليستريح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشري عرفت أي خمر فقدنا في سفينتنا المغرقة . لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسي الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » . وأخذ الكأس فعبها عبًّا ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما اسمك ؟ إعطني كأساً أخرى وإني مثيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ما تعصر المناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه ، ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له في ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمي ، ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ،

---

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لأنها قد تعني (ذو الأذنين الكبيرتين) ولكننا نؤثر ترجمتها

وبه أسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ، فماذا عساك ما نحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : « اطمئن ياصاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك .. هذا هو جزاؤك ! » وتثاءب وتثاءب ، ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق ... وكان يصَعّد أنفاسه بقوة فتنقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى ... ؛ ... وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر التأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم ، ثم استمنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل فى عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان عَلُ ، كما يفعل السَّفان الصناع بمثقابه فى خشب السنديان ... وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعلز ... وقصاراى : لقد كنا كالحداد الماهر الذى يطفىء سلاحا محمى فى ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكلوب[1] صرخة ردد أصداءها الكهف .. ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكلوپس كلاً باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق ... وقال

قائلهم : « ماذا دهاك يا پوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل ، وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خفت أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ ؟ » وقال پوليفيم وهو يتصدع : « آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس[2] ! » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس — الذى هو لا أحد — فدألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تجلد يا صاح ، وادع أبانا نپتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى . وما برح پوليفيم يبكى ويعول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بلهاء مثله !! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا .. حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شىء مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب كباشاً كنازاً تستطيع أن تحملنا إذا ربط كل منا تحت بطن واحد منها . ولقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكلوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلاً واحدا ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا

(١) يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى طبيعة السيكلوب وأنه لا يملك إلا عيناً واحدة

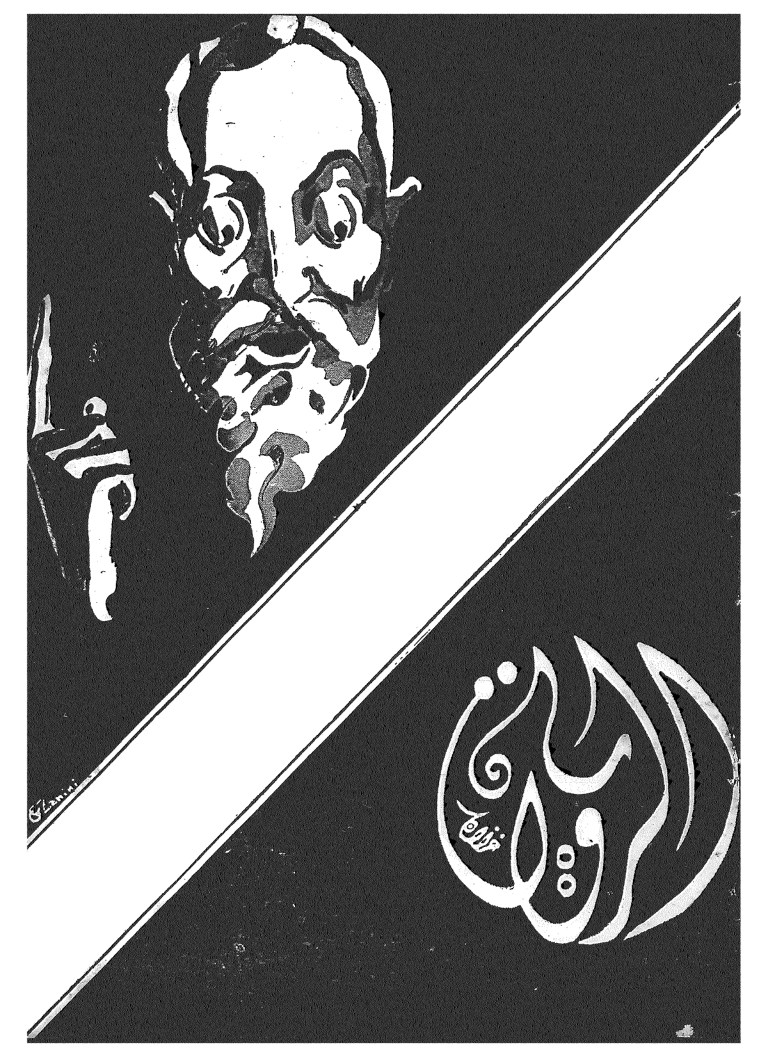
(٢) ليذكر القارىء أن معنى أوتيس (لا أحد)

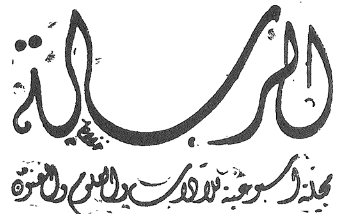
بينهما ... أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكنا صامتا ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر القدس الرهيب ، بعيون واكفة وقلوب واجفة... حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران كعادتها المرعى ، وبقيت الأناث لكي تحلب ، وتهادت الكباش بالأثقال المعلقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب ما يزال يعول ويشكو بثه إلى غير سميع ، وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى ، زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسسه : « يا كبشى الحبيب مالك استأنيت هكذا وكنت دائماً سباقاً إلى المرعى على رأس القطيع تقضم الكلأ الحلو ... سباقا إلى الغدير ذى الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا ... فى كل مساء ؟ ويحى وويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى ، وحزنت من أجلى ، وشمرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيسس ، وأتباعه اللؤماء المفلوكين ... أوتيس الذى سحرنى بخمره ... ويل له ؟ إنه لن يُفْلِت من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين اختبأ أوتيس التَّعِس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد ... الذى اسمه لا أحد ! ! فهو لا يساوى شيئا ؟ »

ثم أفلته المغفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادىء ... فى ظلال الحور والسنديان ... وأبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم ! ! واعتزمنا الأبحار فاستمد كل فى سفينة ، وأقلعنا لا نلوى على شىء . حتى إذا كنا على مسافة مبلغ الصوت من الشاطىء ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقاً ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش باجم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلك ... فاهنأ الآن أيها الهولة بما حل بك ! » . وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ؛ وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطىء حتى كادت تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيه ، لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر ... وابتعدنا قليلا ... وجاهد رجالى بمجاذيفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفينتنا على الشاطىء ؟ أما نحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمنا جميعاً قبل أن نغادر غاره ؟ » على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد عن عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الأيثاكى ! »

وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلي منك ! لقد صدقت النبوءة ، وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبي الذى شب بيننا وطالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى بوساطة رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقاً طويلاً عظيم الجسم بادى القوة ... فاذا هو أنت أيها القزم — اللاشىء ! — الذى قهرتنى أولاً بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه ... ولكن ... عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك ... وأصل من أجلك لأبى ... نپتيون ... الفخور بى ، أن يمهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى قرار جهنم فلا يقدر أحد على رد بصرك إليك — حتى ولا أبوك هذا ! » . وغيظ السيكلوب وحنق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نپتيون المحيط بالأرض اسمع دعائى ، يا صاحب الشعر اللازوردى ، إذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هـذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الأيثاكى من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلاً فى البحر ، وأغرق سفائنه واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نپتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يرنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر إلى فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر المـاء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هـذه المرة أرست على الشاطئ الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من نعاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى نجانى ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... واأسفاه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعـد ... وأكلنا هنيئاً ، وشربنا الخمر المعتقة ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا . . . . ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهاع ، لائذين بالفرار

(يتبع) دريني خشبة


G.Zanini



طبعت بالمطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش رقم ٣٥ — تليفون ٥١٥٢٢

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ قرش فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثانى عشر ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد

صفحة



ولد ايبانيز فى مدينة بلنسية سنة ١٨٦٧ ودرس الحقوق كمعظم الشبان المتعلمين فى أسبانيا ، ولكنه اشتغل بالسياسة فى جدة الشباب ، ودعا إلى الجمهورية ثائراً ضد نظام الحكم الملكى فى بلاده ؟ وتعرضت حياته للخطر عدة مرات بسبب الثورات الناشئة عن أسباب من بينها دعوته . وبدأ عهده الأدبى باصدار مجلدين من الأقاصيص التى يصف فيها حياة أهل بلاده ؟ وفى سنة ١٨٩٧ أصدر روايته « الكوخ » وهى تعد خير مؤلفاته ، وأصدر بعدها « فاكهة النبيذ » و « الكتدرائية » و « الرمل والدم » . وقد حمل فى هذه الكتب على عادات بلاده . وفى سنة ١٩١٢ رحل إلى أمريكا الجنوبية ، ولكنه عاد قبل أن يتم برنامج رحلته ، وذلك فى سنة ١٩١٤ بسبب نشوب الحرب العالمية وبسبب حاجته إلى المال . وعرض على الحكومة الفرنسية خدماته كناشر للدعاية فقبلتها بأجر عظيم فوضع روايته « الفرسان الأربعة » وقد اشتهرت فى دول الحلفاء شهرة عظيمة ، ثم وضع كتاباً عن الملك ألفونس جعل عنوانه « ألفونس غير المقنع » فطرد من أسبانيا وأحدث الكتاب ضجة عظيمة فى أوربا . ومات ايبانيز منذ سنوات

— ١ —

مدينة « بنى مصلان »

مدينة أسبانية نائمة يحيط بها مثل البحر من أشجار الزيتون والكروم

جدران بيضاء ، ونوافذ مظلمة ، وفى الوسط قبة كنيسة خضراء وحصن عال كاد يبليه الزمن

مدينة بنى مصلان قرية ككل قرى أسبانيا متأخرة مظلمة غير قابلة للتطور ، تحكمها التقاليد العتيقة ، ويسودها سوء الظن والأهواء الجامحة والعداوات والأحقاد .

وأهلها بسطاء لا يبالون بالعالم ولا بما يجرى فيه ، مسرفون فى محباتهم وفى عداواتهم وأطماعهم

قرية بنى مصلان وطن «ماريبيتا» ، و «توتى» و « سنجارات» و «العم سانتو» ووطن بضع مئات على هذه الشاكلة

— ٢ —

« تيوسانتو » أو العم سانتو قد أعلن عزمه على الزواج للمرة الثانية

ولكى تفهم تأثير هذا الخبر فى قريته يحسن أن تعلم أن العم سانتو أكبر دافع للضرائب فى الاقليم كله ، وأن له الزعامة فى قريته ، وأن التى يريد الزواج منها بنت راع فقير . وهل تسأل عن المهر الذى سيقدمه إليها ؟ نظرات ساحرة من عينين سوداوين طويلتى الأهداب وشعر لامع رجراج

ولم تكن دهشة القرية أقل من غيظها ، ولا اختلاف الرأى فيها بين واحد وواحد ، فالكل يردد جملة بعينها وهى كيف يتزوج رجل فى هذا العمر من فتاة كهذه ؟ رجل يملك نصف الزمام ، وفى منزله مائة قربة من النبيذ القديم ، وفى مربط خيله خمسة بغال ، ثم يترك هذا كله لابنة فقيرة مثل ماريبيتا ، تلك التى كانت فى طفولتها تحصل على خبزها ، كما تحصل الفأرة على قوتها ! مسكينة زوجته الأولى ! لقد تركت

قصرها وضيعتها لهذا الزوج القليل الوفاء ، وتركت للزوجة الثانيــة فراش منزلها الذى كانت مزهوة به فى الحياة ... هل تعود تلك المسكينة من القــبر لترى ذلك الفراش فى حوزة من كانــ الناس يتصدقون عليها بالطعام ؟

ابن ست وخمسين يتزوج من أجل الحب ! انظروا إليه كيف يرقص ، وأنصتوا إليه كيف يتكلم ، وراقبوا النظرة البلهاء التى تبــدو على وجهه . إنه كالشاب الصغير عندما يعالج الحب للمرة الأولى

واتفق أهل القرية على أن العم سانتو فقد عقله ؛ وكان يحدث فى الكنيسة فى يوم الأحد من كل أسبوع ما يشــبه المظاهرة ، فان أهل الزوجة الأولى يحضرون الصلاة ، وعند انتهائها يلتقون بصهرهم القــديم وتثور ثائرتهم ، ويصفونه بأنه لص ... نعم إن قريبتهم أوصت له قبل الوفاة بكل ما تملك ، ولــكنهــا كانت تعتقد أنه لن يخون ذكراها ، وهاهوذا يدفع بهذه الثروة إلى فتاة صغيرة — ومن نمط منحط — إن العالم ليعد خالياً من العــدالة ، إذا سمح لابن السادسة والخمسين بأن يفعل هــذا

وكان أهل القرية يجتمعون حول أهل الزوجة الأولى ، ويحثونهم على مقاضاة الرجل وفســخ عقد الوصية

وفى غير أيام الأحد كان مثل هذا الحديث يدور فى المقاهى وفى الميادين العامة والشوارع ؛ وكان يشترك فيه حتى الفتيات من بنات الأسر الــكبيرة اللواتى كن ينفضن أيديهن من حديث علنى يتعلق بالزواج لولا تحدث كل أهل القرية به

وكان أهل القرية يعلمون فضلاً عن ذلك أن لماريتا عشيقاً يدعى تونى ويطلقون عليــه لقب « الهلاهيل » لرثاثة ملبسه ، وهو مثل حبيبته فقير معدم ، وقد كاد يتم زواجها منه لولا أنها أرجأت ذلك إلى أن يجد عملا يكتسب منه وإلى أن يتخلص من أصدقائه وكلهم من عشراء السوء

وكان من أعز هؤلاء الأصدقاء رجل يدعى ديومينى يقيم فى قرية مجاورة ويأتى لزيارته مرة على الأقل فى كل أسبوع

وعلى حين فجأة أصبح أهل الزوجة المتوفاة يكرمون « تونى » ويعزونه لأنهم على ما يظهر قد وجدوا فيه الرجل الذى يصلح للأخذ بثأرهم ؛ وكثر فى القرية المغيظة من يكرم تونى ويدعوه إلى مجالسه وطعامه وشرابه

وكانوا يقولون له ليستثيروه : « تونى ! أما علمت أن ماريتا ستتزوج ؟ » فينظر إليهم وذهنه شارد ، وينقل لفافة التبغ من أحد جانبى فمه الى الجانب الآخر ، ثم يحدق فى قارورة النبيذ ، وأخيراً يهز كتفيه ويقول :

« هم يقولون ذلك . لقد كان الأولى بهذا الشيخ الخرف ألا يتكلم عن الزواج إلا بعد تمامه »

وكان فى هذا الجواب ما يقنع كل إنسان بأن أمرا سيحدث ؛ وكيف لا يحدث أمر وتونى يتوعد هذا الوعيــد وخصمه ليس بالرجل الضعيف ؟ إن العم سانتو قد انتخب عمدة عدة مرات . وقد رفع يده بالعصى على رجال أكبر وأقوى منــه لأنهم وقفوا فى سبيله

لذلك كان أهل القرية يترقبون ما ســيحدث باهتمام شديد

— ٣ —

اشتهر العم سانتو بأنه من الذين إذا قاموا بأى عمل أدوه على وجهه الأكمل . وقد ظهر صدق هذه الشهرة فى اليوم المحدد لتوقيع عقد الزواج فقد وهب زوجته ثلاثمائة مثقال من الذهب نقداً غير ثياب العرس وخواتم الخطبة والأمشاط وفراش المنزل وهو من مخلفات زوجته الأولى ، وغير تكاليف الوليمة التى دعا اليها المئات ، وغير الهدايا التى أرسلت الى منزل أبيها على ظهور ثلاثة بغال . ولا تسل عن المناديل وزجاجات العطر والأوانى الفضية مذهبة وغير مذهبة

وحضر الوليمة كل المشتغلين بالسياسة فى الاقاليم وعلى رأسهم نائب البرلمان

وأهديت الهدايا الى العروس من كبار المدعوين ، فعدّ ما شئت من العقود وأمشاط الشعر والمصوغات المختلفة التى كانت تتلقاها وهى شديدة الخجل . أما أمها فكانت تبكى بكاء الفرح . وأما أبوها فقد لزم الصمت لأنه لم يجد الكلمات التى تفى بشكر صهره على إحسانه المتكرر

وكان موعد العقد فى بيت والد العروس . وقد عهد بتحريره الى « دون جوليان » وكيل العقود فى القرية ، فجاء مع سكرتيره فى عربة فخمة وأعدت له فى منزل الراعى منضدة مذهبة عليها أربعة حوامل للشمع من الذهب الخالص . ودخل متكبراً مزهواً ، ومن أحق من وكلاء العقود بالكبرياء وبالزهو ؟ أليسوا هم المطلعين على أسرار القانون ؟ !

وأخذ على على سكرتيره صيغة العقد وهو يتلفت يمنة ويسرة ، ويرفع المنظار ثم يضعه

وفى الوقت الذى كانت صيغة العقد المدنى تملى هذه الكيفية كان القسيس مقبلاً ومعه بقية المدعوين من أصدقاء الأسرتين ورفعت هدايا العرس عن المناضد ووضعت بدلها أطباق الفاكهة والفطائر والأشربة الحلوة

وتنحنح وكيل العقود ومسح ثيابه بمنديله ووضع حفنة من الرمل فوق الكتابة ليجففها . وأخذ يتلو ما كان عليه ، فلما وصل إلى اسم الزوج التفت إليه وأحنى رأسه فقهقه المدعوون . ولما وصل إلى اسم العروس التفت إليها وأعاد هذه الحركة فأعاد المدعوون الضحك . ولكن لما وصل وكيل العقود إلى ذكر شروط الزواج فعدد المزارع والمنازل الموهوبة والجياد والبغال علت أوجه الضاحكين منذ لحظة علائم الحسد . وكان المبتسم الوحيد هو الزوج فقد أتيحت له فرصة يظهر فيها غناه ويظهر حسن معاملته لزوجته . أما والدا العروس فلم يستطيعا منع دموع الفرح ، وكأنما يتخيلان أن على كل إنسان أن يقول لهما أنتما الأبوان الوحيدان الجديران بالتهنئة فقد ائتمنتما على ابنتكما من هو جدير بأن يؤتمن

وبعد توقيع العقد أديرت المرطبات وأخذ دون جوليان يتندر فى حديثه بالطريف من القصص والفكاهات ويعرض فى سخرية غير مكشوفة بالقسيس

وفى الساعة الحادية عشرة كان كل شيء قد تم . وذهب القسيس والعمدة سوياً . وتقدم العم سانتو إلى وكيل العقود وسكرتيره يدعوهما إلى قضاء بقية الليل بمنزله

وكان الطريق بين المنزل الحقير الذى عقد فيه العقد وبين منزل العم سانتو طريقاً مظلماً ضيقاً .

وكانت الـكلاب تنبح كلما دنا من بعضها فريق من العائدين . ولـكن بقيـة القرية كانت في سبات عميق

وكان دون جوليان ومن معه يمشون في تؤدة ورفق حذر العثور بحجر يوقعهم في الطريق . وكان الأول يشعر بقلق شديد من مسيره في هـذه الليلة الحالـكة الظلام . وتوهم أنه رأى ما يريب في ركن من الطريق كأن به أحداً مختفياً يتربص بالسائرين سوءاً

قال بصوت خافت : « انظروا ! انظروا ! » وقبل أن يجاب على كلمته انطلقت رصاصة من ذلك الركن ففزع واستند إلى باب منزل مغلق . وكان الرصاص لا يزال ينطلق ويصيب الحائط فشعر جوليان بأن العرق يتصبب من رأسه

أما العم سانتو فـكان واقفاً في وسط الطريق وهو يصيح : « أقسم بالله أني أعرف من الذي فعل ذلك . إنني عرفتك أيها الـكلب القذر »

ثم هز عصاه الغليظة مناديا باسم توني وبأسماء أصهاره القدماء أقارب الزوجة المتوفاة

— ٤ —

كانت أجراس القرية تدق منذ آذنت الشمس بالشروق وكان الخبر بأن العم سانتو قد تزوج — قد وصل إلى أقاصي الاقليم . وكان الفلاحون مقبلين على ظهور الخيل والحمير ليقوموا بواجب التهنئة

كان منزل العم سانتو طول الأسبوع الـماضي في حركة مستمرة لا تعرف الهدوء ، وهو الآن مبعث ضجة شديدة ، فالضيوف مقبلون من كل حدب ، والخدم غادون رائحون بالأطعمة والأشربة ، وجزار القرية لا ينتهي من ذبح الدجاج والطيور . والعم باشكوال الخادم يبدي مثل مهارة الطبيب في تشريح هـذه الذبائح . وناهيك بشعور هؤلاء الضيوف حين يرون هـذه الضحايا وحين يعرفون أنها طعام لهم وهم الذين يقضون العام كله لا يطعمون شيئاً سوى الخبز القفار أو مأدوماً بالجبن أو اللبن

إن مثل هذه الوليمة يعد حادثاً لا يتكرر وقوعه في تاريخ القرية ، فقد يكون بين فلاحيها من يرى الطعام وهو يطبخ ولـكن ليس فيها من يرى في وقت واحد عشرات القدور تحوي مختلف الطعوم لتقدم للضيوف بغير حساب . وليس فيهم من يرى عشرات القرب مملوءة بالنبيـذ وليس على الراغب في الشرب إلا أن يشير فيؤتى له بالخمر المعتقة التي تقهر نشوتها أكثرهم اعتياداً على السكر وإدماناً .

وأما الحلوى فعد ما شئت من صنوفها المشتهاة

لقـد كان كل شيء فاخراً فخماً وكان ديوميني نفسه مغتبطا بالشراب فهو مدعوٌّ وفي الحفل شراب يكفي فكيف لا يأبى

وكانت الأجراس لا تزال تدق ، وآن موعد الموكب فسار ، وكان النساء في الثيـاب البيضاء ، والرجال في المعاطف السوداء ، وبين السائرين ديوميني ورأسه الى الوراء وأنفه متجه نحو السماء . وعلى رأس العريس قبعة جديدة من القطيفة ، وسترته ضيقة عند خصره النحيل ، وبجانبه ماريتا وما أجمل تلك العروس وما أرشق ! إن أية عروس من أرق البيوت لا تستطيع أن تظهر في حفلة عرسها بمظهر أجمل وأروع مما ظهرت فيه بنت ذلك الراعي الفقير

كان على لبتها عقد من اللؤلؤ كعقود الأميرات ، وعلى كتفيها طيلسان من أغلى الحرير وفي أذنيها

قرطان كانت الزوجة الأولى تقصر تحليها بهما على الحفلات النادرة

واتجه الموكب فى اتجاه الكنيسة وكان كل أهل القرية ينتظرون عند بابها ، وكان بينهم بعض أقارب الزوجة الأولى ، وقد استخفهم الفضول فنقضوا العهد الذى كانوا قد قطعوه على أنفسهم بأن يقاطعوا هذه الحفلة

ولكن لما مر العم سانتو أمامهم صاحوا منادين إياه بكلمة اللص ، فلم يجبهم بأكثر من ابتسامة دلت على نهاية الرضى والاقتناع

ودخل ديوميني الكنيسة والناس ينظرون اليه ويتغامزون ، وبعضهم يتهامس باسم صديقه تونى .

ولاحظت العروس تونى جالساً فى الحانة التى أمام الكنيسة فأحنت رأسها واصفر لونها ولاحظه أيضاً العم سانتو فابتسم ابتسامة المنتصر فأجاب تونى على هذه الابتسامة بحركة دالة على الاحتقار ، وآلم العروس أيما ألم أن توجه اليها هذه الحركة فى يوم عرسها

وعاد الموكب من الكنيسة فدخل مئات من المدعوين إلى القاعة التى صفت بها مقاعد تحمل أطباق الشكولاته والحلوى ، ولكن الضيوف لم يتناولوا منها إلا القليل خشية من الشبع ، ولم يبق على موعد العشاء غير ساعة واحدة

وظهر ديوميني وفى يده قيثارة يعزف عليها ويصدح بالغناء ، وأقبل القسيس فجلس أمام المنضدة وهو يقول : « إن الشيطان نفسه لا يولم ولمية أبدع من هذه »

وجلس ديوميني أيضاً إلى المائدة ، ولكنه لم يمد يده الى الطعام اكتفاء بالنبيذ الذى يشرب منه أمام سائر المدعوين ، فكانت أعينهم لا تتحول عن الدجاج . ولأول مرة تناولوا الطعام كما يتناوله السادة ، فأمام كل منهم طبقه الخاص وزجاجته ، وعلى صدره فوطته أيضاً

وكانت ماريتا جالسة بجانب زوجها وهى تأكل مفقودة الشهية ، ووجهها شاحب وقد بدت عليه علائم الألم واضطراب الأعصاب ، وهى تنظر نحو الباب كأنها تتوقع أن يدخل تونى بين لحظة ولحظة ، وقد كان هذا الوغد جديرا بأن يقدم على أى أمر

وكانت تتذكر فى ألم شديد وداعها إياه فى المرة الأخيرة ، وتتذكر قوله لها إن أنانيتها ستتغلب عليها فى يوم ما فتهجره وتتزوج من أجل المال

لكنها الآن على رغم خوفها منه كانت مسرورة من توقعها أنه سيغار وأنه سيعمل ماتوحى به الغيرة ، وكان موضع سرورها من هذا التوقع أنه يدل على حبه إياها . وكان يسرها أن تكون محبوبة منه ؛ وإن فقدته فقدان الأبد

وقلّ ما بقى فى الأطباق من طعام ، وضعفت الشهيات ، وبدأ التندر بالفكاهات والأحاديث ، وتناول بعض من اشتد بهم السكر العروسين بالفكاهة والمزاح ؛ فتضاعفت من أجل ذلك الضحكات ، وفى النهاية وقفت ماريتا وتناولت طبقاً ودارت به على المدعوين تطلب منهم (النقوط) وسرعان ما امتلأ طبقها بالنقود الذهبية التى كانت تنهال على الطبق ، خصوصاً من أقارب العريس الذين يطمعون أن يتذكرهم عندما يكتب الوصية

ولم يدفع القسيس غير قرش واحد ، معتذراً بأن الكنيسة لم تعد تملك شيئاً فى هذه الأيام التى سادت فيها الحرية

ولما انتهت العروس من طوافها على الضيوف ، ألقت بالمال الذى جمعته فى جيبها ، وقد أطربها رنينه

وأصبحت الوليمة الآن وليمة كما ينبغى أن تكون الولائم ، فالجميع يتكلمون فى وقت واحد ، ثم نهض أحد المدعوين ورمى زجاجته على الأرض فتحطمت ، وكان ذلك دعوة منه للجميع باحتذاء حذوه ، فألقيت كل الزجاجات والأطباق على الأرض

وأراد أشدهم سكراً أن يبالغ فى المزاح ، دلالة على شدة السرور ، فأخذوا يقذفون العريس بقطع من الخزف المكسور ، وسرت العدوى بين الجميع فصاح العم سانتو : « كفوا عن هذا ! كفوا ! » ، ولكنهم كانوا من القسوة فى مثل حالة المجانين ، فاستمروا واستمر يحذرهم حتى استحال صياحه إلى زمجرة ، وحتى هرع النساء اللواتى كن انسحبن بعد جمع النقوط ليرين ما الخبر

وأخيراً عاد الهدوء ، عدا أن الصبيان الذين كانوا فى الطريق تمكنوا من الدخول عن طريق النوافذ وأخذوا يجمعون ما تساقط على الأرض من الطعام الذى فى بقايا الأوانى المحطمة . وأخذوا يقرصون أرجل السيدات ، فصحن ، وتذمر العم سانتو فأمر بطرد الصبيان وأبدى لأول مرة تذمره من هذه الليلة

— ٥ —

فى نحو الساعة العاشرة عاد المدعوون الذين جاءوا من قرى أخرى وهم يغنون ويدعون للزوجين بالسعادة . وعلى أثر ذلك عاد المدعوون من المدينة فى الأزقة المظلمة وكان وكيل العقود نائماً منذ ساعة فى ركن من الغرفة فأيقظه سكرتيره ولم يبق فى المنزل غير أقارب العروسين

وأخيراً صاحت أم العروس بابنتها : « وداعاً » ولقد يخال من يسمع صوتها إذ ذاك أنها تودع راحلاً إلى القبر . وأما أبو العروس فكان لا يزال فى مرحه وسروره وقال لزوجته : « إنك لم تكونى على مثل هذا الحزن عند ما خرجنا من المنزل ، فلماذا هذه الكآبة ؟ » ثم فرق بينها وبين ابنتها وقادها نحو الباب

وذهب كل الخدم الى حجراتهم وجلس العم سانتو وماريتا فى الغرفة المختلة النظام التى كانت فيها الوليمة والتى لا تزال بها الشموع الموقدة . وظلا صامتين مدة طويلة ، ثم أخذ العم سانتو يباهى بانتصاره ثم يثنى على ثياب العروس

أما العروس فكانت تصغى وكأنها تمثال ، ولكنها لا تفكر فيما تسمع بل فى تونى رفيق صباها

ودقت الساعة فقال العم سانتو : « الساعة الحادية عشرة » ثم نهض وقال : « هذا وقت النوم »

ومشيا نحو غرفة النوم ولكن العم سانتو ما كاد يصل إلى بابها حتى وقف فجأة لأنه سمع أصواتاً غريبة عن بعد تشبه الدق بعثات من العصى على الصفيح

واقترب الصوت ، وسمع وقع أقدام وعلت ضحكات وسمع غناء ويوميى فى وسط هذه الأصوات وصاح العم سانتو بصوته المنكر : « عرفتكم يا خنازير » ثم أخذ يضرب الهواء بقبضة يده وليس فى المكان من يرى هذا التهديد غير زوجته

ولكن بعد لحظة ظهر فى المكان نحو عشرين شخصاً على رأسهم تونى وأقارب الزوجة السالفة ومن بينهم ديوميني الذى كان طول يوميه يتمتع بضيافة العم سانتو ويطرب المدعوين بالعزف على قيثارته . وشعر العم سانتو بالواجب الذى توحى به العزة والكرامة . أليس هو أهم رجل فى المدينة ؟ أليس هو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ؟ فكيف إذن يكون منزله ميداناً لهذه السخرية ؟ أمن أجل أنه تزوج من فتاة صغيرة ؟

وأخذ الجميع ينشدون لحناً محزناً كأنهم فى جنازة وصوب تونى إلى رأس العم سانتو عصاه وضربه بها ، فتقهقر الرجل فى ذلة ، واستطاع والدم يسيل من جراحه أن يدخل الحجرة فيتناول بندقيته ويطلق منها رصاصة فى الهواء . فامتلأت الغرفة بالدخان وبرائحة البارود ، ووقعت مارييتا على الأرض وهى فى حالة إغماء وخرج المتظاهرون كما جاءوا

وبعد قليل سمع طارق على الباب ومناد يصيح :

« افتحوا باسم القانون ! »

وتثاقل العم سانتو فى مشيته وفتح الباب ، فرأى الجندى ورأى أمام الباب جثة مخضبة بالدم ، هى جثة تونى ، وكان المتظاهرون قد أبلغوا البوليس أن العم سانتو هو الذى قتله ، وذلك بعد أن رأوه قد انتحر . فقاد رجل البوليس العم سانتو الى المحاكمة وهو يصيح : « يا لها من ليلة عرس ! »

عبد اللطيف النشار

خيانة في رسائل

بقلم الأديب نجيب محفوظ

« هذه أول أزمة تصيب حبنا ! نعم طالما آلمني الفراق الهين ، وأجهدني الشوق إلى اللقاء ، وعذبني الدلال ؛ أما الوداع ، أما الرحيل إلى قنا ، فهذا أمر جديد ، يدفع إلى نفسي شعورا بالحزن لا عهد لها به ، فهلا عدلت عن هذا السفر . . . ؟ »

« لو كان الأمر اليّ ما رغبت نفسي أدنى رغبة في السفر ، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعالي الصعيد بعض احتفالي بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء السعيد ؛ ولكن ما حيلتي وهذا ما يريده أبي ويفعله منذ أحيل الى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضي شهراً أو شهرين من الشتاء في قنا عند عمي الدكتور .. »

« يستطيع عقلي أن يتصور المعجزات ، ولكن لا أستطيع أن أتصور ما عسى أن تكون عليه حياتي هذين الشهرين ، فهذا الحب غدا حياة لشعوري ، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي ، أجد فيها راحة بعد تعب ، وعزاء عن شوق دائم ، فما عسى أن أصنع . . . بل ما يكون زادي وسلوتي . . . ؟ »

فوضعت يدا خمرية ناعمة على كتفه ، وداعبت بأطراف أناملها خده ، وهمست في أذنه :

« هذا شعوري وهذا حزني ، ولولا كراهيتي للعزاء لنصحت لك بالتعزي والتلهي ، فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتى ينطوي دهر الفراق ويتصل حبل اللقاء . . . ومع هـذا فما أسعدك وما أبأسني . . . ! »

« كيف . . . ؟ »

« لن أسعد بقراءة كلمة لك طوال مدة غيابي ، لأنك لا تستطيع أن تكتب إليّ ، أما أنت فتستطيع أن تطلع على همسات روحي كلما مكنتني الفرص من اختلاس الكتابة اليك . . . . فأينا أسعد حظا . . . ؟ »

« من تؤاتيه فرص التعبير فيخفف عن مراجل عاطفته »

وهنا ظللت وجهه سحابة كدر ، وسألها بعد تردد :

« هل لك أبناء عم ؟ . . . »

فابتسمت ابتسامة دلت على أنها سرت للقلق الذي بعث هذا السؤال وأجابته :

« نعم لي . . . . ولكنهم لم يجاوزوا عهد الطفولة ، ولو كان الأمر كما تتوهم ما أوجب أدنى خوف أيها الرعديد الغيور . . . والآن هات فمك أودعك . . . وهيا نقول معاً هذه الكلمة المروعة التي تفزع لها القلوب :

« أستودعك الله . . . »

من الغد يصبح له في قنا حبيبان عزيزان : حبيبة القلب عائدة ، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرس بمدرسة قنا ، ولكنه بينما يتصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتصال الروحي بحبيبته ، لأن حبهما ما يزال سرا خفياً لما يدر بأمره الأهل . . .

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة ، ثم وصله

منها كتاب جاء فيه :

« حبيبي حسني !

أعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدرى وأنت معى . . . نعم أنت معى لم تفارقنى لحظة سواء فى ضجيج النهار أو فى سكون الليل ؛ معى وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة ؛ معى وأنا بين أهل عمى أتلقى الأحاديث وأرد عليها ، وأضاحك هذا وأسمع لذاك ؛ معى فى كل مكان وكل حين ، فلا عجب لنفسى بعد ذلك أن هزها الحنين اليك أو استشعرت وحشة وضيقا فى البعد عنك ، أو ألهبها الشوق عذاباً وجوى

وأرجو ألا تتهمنى بالتكاسل عن الكتابة إليك فبيت عمى عامر بالأطفال وهم لا يتركوننى لحظة أخلو الى نفسى ؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعورى وامتلأ بها عقلى وتمثلت فى حواسى وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتينى الفرص فأسطرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتى والعيون قد أغمضها عنى المنام ... فاعذرنى إن تأخرت عنك رسائلى وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادى أنه يملى عليك عن لسانى ما أحب أن أقوله لك دائماً

أما عن قنا فجوها دافئ جميل ، وخلا ذلك فنحن فى منفى ، ولولا ما يرجوه أبى فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن اليها لحظة من الزمان »

فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسلوة والسعادة

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدة ، فهى التحيات المحفوظة وبث الأشواق والتلهف على إدبار العام الدراسى وإقبال العطلة الصيفية ، إلا أنه أضاف الى هذه المحفوظات فى آخر كتابه له مانصه :

« طالما قلت لك إنى أعيش فى قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء ، لا يقع بصرى على وجه امرأة قط ، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون : انظر الى هذه المرأة ... ولكن وقع بالأمس ما يعد حدثاً تاريخياً فى حياة قنا ، إذ حضر الدكتور سامى حسنى مفتش الصحة الى البستان العمومى وفى صحبته غادة جميلة سافرة الوجه ، فهز البلد وزلزل كيانها . إنه رجل جسور لا يعبأ بآراء المتزمتين ، وتجده دائماً على استعداد للرد على تطفل المتطفلين بما يجعله مثلاً وعبرة ، ولم يلبث أن شاع الخبر وملأ الأسماع فهرع الشبان الموظفون من مدرسين ومهندسين وكتبة الى البستان وهم يسوون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم ، فلو رأيت البستان حين ذاك لحسبته حديقة غناء فى مصر الجديدة أو قصر النيل

إنها شابة جميلة تحمل فى طياتها عطر القاهرة العبق ، فليهنأ قفر قنا بهذا القطر العذب ... »

نخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك فى معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التى أثارت لوعة الشباب فى قنا

يا له من كلام يحمل فرحاً وألماً والألم فيه أكثر ! أيجوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيبته ويبقى هو فى القاهرة تسيل نفسه حسرات عليها ..

وهم أن يكتب لصديقه كتاباً يعلنه فيه بأن الفتاة التى هز مقدمها قنا هى حبيبته اليوم ، ثم خطيبته وزوجه غدا ، ولكنه جفل من هذا

الاعلان ووجد رغبة خفية أن يكتمه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحق الرواية والحديث

لقد تردد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال : ألا يعد هذا تجسساً منه على حبيبته ؟

وهل يجوز هذا في شرع المحبين ؟ . . أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبته موضع الاتهام والظنة ؟ . .

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب الى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر

وبعد حين وصله كتاب ثان من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلي :

« تغيّر كل شيء في قنا وكل شيء في حياتي . لم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشراً عن أنيابه ؛ ولم تعد حياتي سأماً ثقيلا متصلا . كيف لا يكون هذا وأنا مطمئن إلى أني سأحظى أصيل كل يوم برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذي يحيي موات النفوس ، ويبعث مصفر الأمل . . . ما أجملها ، وما أعذبها . . .

علمت الآن أنها ابنة أخي مفتش الصحة ، أو هذا ما علمته قنا عامة وعلمه شبابها خاصة . إن جميع العيون تلتهمها التهام الجوع ، فلعل هذه الضجة تثير الغيرة في نفوس الآباء الموظفين ، فتشجعهم على الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه ، وإبراز بناتهم للعيان ، ومهما يكن من الأمر فنحن الرابحون

لا تخش على أخيك من قهر ، فهو بطل صنديد وشخصية لا يشق لها غبار ، وإن عينيّ لتنفذان من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيها إليّ ، فصبراً ولتعلمن بعد حين في أي مخبأ من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت ! . . »

ما هذا الذي يقول مرزوق من أن عينيه تجذبان إليه عينيها ؟ . إن لعيني مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان . أما عينا صاحبته فما بالهما تنجذبان وتستجيبان ؟ . . . هلا يكون ذلك مجرد نظر بريء فسره صديقه على ما يهوى غروره ويحب ؟ . . . إنه لا يشك أبداً في إخلاص عائدة ، ولكن ينبغي ألا ينسى أن لصاحبه عينين جميلتين يحس الناظر إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه ، وهو — إلى ذلك — مدرس محترم من حملة الدبلومات العالية ، ومن ذوي المستقبل السعيد . أما هو فلم يزد على أن يكون موظفاً صغيراً ، كل مؤهلاته شهادة البكالوريا ، ومستقبله مظلم محدود ، أفلا يكون لجميع هذه الفوارق أثر في الحب ؟ . .

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجماها من الكآبة كنفس هرم متشائم ، ويحس بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه . . . أواه . . . إن أحلامه وآماله تترجح على كف رجيم . . .

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة ، فانكب عليه بلهفة ، وتلاه مرة بعد أخرى ، ولم يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى ، فتزعزعت شكوكه ، وعاودته الثقة ، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء ، وحمّل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعذاب ، ولكنه تسلم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع ، جاء فيها :

« كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد ، فعينا الفتاة — واسمها عائدة — تقتحمان الحاضرين من الشبان وتستقران عليّ أنا . إني أطالع في وجهها عند حضوري سيما

الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل ، وأقرأ فى عينيها استجابات خفيفة لرسائلى الصامتة الملتهبة ، وأستشف أحياناً على فمها ابتسامات خفيفة ، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهى تعنينى . لا تدهش لأقوالى هذه فانى أطاردها فى إصرار ، وأتتبعها فى عناء ، وأخاطبها بصوت مكتوم تنبئ عنه شفتاى المتحركتان ، وأبعث إليها باشارات الشكوى والرجاء ، وقد اقتربت منى مرة وهى تلاعب طفلا من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لى إن شئت : « دائماً فى أعقابى ، فماذا تصنع لو رجعت الى مصر ؟ ... » . فقلت لها بهمس مسموع : « لعلك لا تعودين ... » ، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلى . وقد كان لها الأثر الجميل . والآن أفتنى فانك خبير طبيب عالم بأحوالى ، هل أقدم أم حسبى ما ذقت من لذة بريئة وأولى ظهرى وداً لن ينتهى بالتئام .. ؟ إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها فما رأيك ؟ ... »

يا للظلام ... يا للألم الساخر ... عبثاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب ، فعائدة بلا ريب هى التى لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل ، وهى التى تحادث الغير وتعنى المجدود من الرجال ، وهى التى تجيب عيناها الاجابات الخفية ... وهى تسكرها سيرة الزواج

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة ... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً فى مأساة قلبه ... ولعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط المنكبوت الذى يمسك بكفة أحلامه وسعادته .. فيا للسخرية ! من المستطاع أن يحاول انقاذ سعادته فيمان صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدى شهامته وما يعهد فيه من الاخلاص والمروءة ، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون فى حبه من المسترحمين السائلين ، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما غدا يستطيب النار الموقدة ؟ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقسى امتحان . فاما إلى نعيم الطمأنينة ، وإما إلى أهوال العذاب ، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه :

« إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد ، فان حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حب ناضجة يزهد فيها الانسان ، أقدم ولا تبال بالنتائج البعيدة ، وتمتع بالحب فى منفى قنا ولا تحملن نفسك هموم التفكير فى الغد ، ولا تغفل عن تزويدى بكل جديد فانى أصبحت من تتبع حبك على حب شديد »

وانتظر رد صاحبه بصبر نافد وجزع لجوج ، حتى وافاه منه كتاب جاء فيه عن عائدة ما يلى :

« بوركت من حكيم سديد الرأى ! لقد اتبعت نصحك أيها الأخ ، وضربت لها موعداً همساً ، ووافيت إليه فى صباح اليوم الثانى وأنا حائر بين الشك واليقين ، بين اليأس والأمل ؛ ولكن لشد ما كان فرحى عند ما رأيتها قادمة ! والحقيقة أنها كانت مترددة مذعورة على رغم خلو المكان الذى يوحى بالطمأنينة فى خفية عن أعين الرقباء ، وبلغ بها الذعر أنها مرت بى غير ملتفتة إلى يدى الممتدة كأنها جاءت لغير موعدى ، فتبعتها وحييتها وطمأنتها حتى قالت لى مضطربة :

« لا أدرى كيف جئت .. كيف أطعتك .. إننى مضطربة ... » فهدأت خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتى أفرخ روعها واطمأنت

لقد تحدثنا طويلاً ، بل طويلاً جداً ، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتني الأسطر ؛ فحسبك أن تعلم أنها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر ، مهذبة الطباع ، وإن كانت تغلب عليها حدة الاحساس وتوقد العاطفة والذهاب مع الخيال . وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجاريتها بخفة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عقد الميثاق ، وعند الافتراق تناولت منها قبلة شهية خلت لحلاوة جدتها أنهـا أول قبلة تنالها شفتاى ... »

انتهى الأمر ، وتبددت الأحلام ، وخابت الآمال وقضت على قلبه الذى انتهى طويلاً بأفراح الحب أن يتجرع آلام اليأس والخيبة

وانقطعت عنه رسائلها ولـكنه كان على علم متصل بأحوالها من رسائل صديقه التى جاءته تترى

وقد كتب اليه فى إحداها :

« أنا — باختصار — سعيد جداً ، فحياتى مليئة بالبهجة والمسرة ، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة فى هذا المنفى السحيق ، وإنى كلما أذكر أنى سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعرى من الهول ، وأضمها إلى صدرى بشغف ، وألتهم منها قبلات ملتهبة كأنى أختزن منها ما أعود إليـه عند الفراق . أما هى فتعتقد أنها لن تعود إلى القاهرة أو أنها تعود لـكى ترجع إلىّ إلى الأبد ، فمن يدريها أن لى خطيبة تنتظرنى فى القاهرة من سنوات طويلة ...

وبهذه المناسـبة أقول لك إن عائدة من اللاتى وهبهن الله دلالاً وفتنة ، ولـكنها على قدر غير هين من الاستهتار والنزق ؛ أما خطيبتى فشابة حيية هادئة الطبع وعلى خلق عظيم ، وإنى أدخرها للزواج وأنا سعيد »

وكتب إليه فى رسالة أخرى :

« معذرة أيها الصديق عن تأخير غير مقصود ؛ والحق ماذا أقول لك ؟.. فالحياة الجميلة هى هى .. لقاء فأحاديث ، فمداعبات فتقبيل وعناق ، فوداع ولقاء . إنها غدت مجنونة بى ، وكلما مرت ساعة اشتد بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها : أن اذهب إلى والدى وخاطبه فى حبنا لأكون لك طول العمر

إنها أمنية طبيعية ولـكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .. »

ثم كتب إليه بعد حين :

« قومت الألفة تلعثم الحياء وصيرت التلميح تصريحاً وأمست عائدة تلح على أن أكلم أباها لتتخذ علاقتنا الصبغة الشرعية المقدسة ، وكانت حياتى تـكون السعادة نفسها لولا هذه المنغصات

والحق أنى أجد بين يديها سعادة صافية جعلتنى شديد العطف عليها ، وبعثت فى الضمير ألما مبرحاً . وإنه ليسوءنى ما أبيت لهـا من نية الغدر والهجر لأنى فى الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها فى هذا المنفى القصى . وما أشبه غرامى هـذا بغرام الرحالة الجواب تتعدد وعوده تعدد ما يجوبه من البلدان . وما يثير النفس يا صديقى أنى — أول أمس على أثر عودتى من لقائها — جلست إلى مكتبى شارداً أقلب بعض الـكتب فما راعنى إلا ديوان شوق تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيـه وكدت أنساها ، هى صورة خطيبتى بوجهها الصبيح الجميل وقد سـطر على ظهرها بخط جميل « تذكار الوفاء » فـكأنه سوط عذاب ألهبنى ناراً ، ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبى وما تأخر أيتها الحبيبة ! والحق لقد اضطرب فؤادى وألقيت على الصورة نظرة ذعر سريعة ثم أخفيتها عن عينى أو أخفيت عينى عنها لأنه وقع فى نفسى أنها تعلم بخبيئتى

وأنها تصوب نحوى نظرة لا تعيش أمامها الخيانة »
وكتب إليه فى رسالة أخرى يقول :
« لست فتى عصريا كما كنت أعتقد ، ولو أنى كنت كذلك لما هالنى الغدر ولا كبرت على نفسى الخيانة ولسهل على اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء ، ولهذا تجدنى معذبا موزع القلب فلا أنا بالراضى على نفسى لأنى نكثت ميثاق خطيبتى ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة التى رمانى تفانيها فى هاوية من الندم

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسى وأنى بت منه فى سقام ؛ وقد كان ذلك مقدوراً ولكن ما الذى عجل به ؟.. لعله ذكرى خطيبتى ، أو لعله أنى أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصصت حلاوتها فى رشفة ، أو ربما كان ذلك لأن جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال »

ثم كتب :
« أمسى اللقاء غير ذى متعة ، لأنى من ناحية بت أعانى من السأم وارهاق الضمير ، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبتى فى شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بى فى الحرج والحيرة ، وينتهى موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين »

وأخيراً كتب إليه يقول :
« لأول مرة أخلف الميعاد ، وإنى لأعذر نفسى وأغبطها ، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا منى اعلان بالقطيعة ، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا فى علاقتنا موضعاً ينبغى أن يتقرر فيه المصير ، فاما إلى يمين وإما إلى شمال ، وما كان ينبغى لى أن أختار من جديد ، وما أحببت ذلك قط فان خطيبتى تنتظر أوبتى بفارغ الصبر وهى أكرم على نفسى من هذه الفتاة التافهة الثرثارة التى لم يعزها الله إلا بمظاهر الجمال المبتذل لا يلبث أن يتبخر أثره فى الهواء . ومهما يكن من الأمر فان ينقضى أسبوع حتى تكون الآنسة عائدة فى طريقها إلى حيث ألقت »

* * *

قرأ جميع هذه الرسائل — رسائل صديقه وقاتله — بامعان شديد

وكانت تتسلط على نفسه فى ذلك الوقت عاطفتان : عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيبة والغيرة وانهيار الأمل جملته لا يذوق لذة فى اليقظة ولا راحة فى السهاد ، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهى بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهيار صرح سعادة . . .

ولم يفرط فى واحدة من هذه الرسائل التى سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجمعها فى رزمة وحفظها فى حق عاجى جميل ووضعها فى مكان أمين وانتظر ...

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدومها وترجوا أن يذهب للقائها فى موعدها المعهود عند العصر ...

وفكر فى أمره طويلاً ، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير ، فذهب إلى الموعد فى الساعة المعهودة ، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها فى انتظاره ، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة ، فضمها بين ذراعيه ولثم شفتيها وهو يبتسم ابتسامة كلفته غاليا من الجهد وضبط النفس

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى السعيدة ، وسمعها تقول بفرح فائض :
« وأخيراً »

فردد قولها : « وأخيراً » ثم نظر إليها بعينين مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه : يا عجبا ! ما أقدركن أيتها النساء على إخفاء مشاعركن وتكلف ما ليس بكن !

وانطلقت هي تقول :

« أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عني طوال هذه المدة الثقيلة لا أرجعها الله »

«الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن شغلك عن الكتابة إليّ»

« أتسخر مني ... آه لو تعلم كم كانت تكلفني الرسالة أكتبها إليك !. كنت أتسلل إلى مكان قصي بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمي ... فيجدون في أثري ويبددون عزلتي ويفزعن أخيلتي المنسجمة وعواطفي الحارة ، فاذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد »

« ألم يكن الخروج هيناً عليك ... »

« أحياناً مع عمي »

« لم لم تخرجي في الصباح وعمك في عمله والجو خال ؟.. »

« لو فعلت لكان أمراً مثيراً ... والشبان هناك جائمون أراذل عديمو الشرف ... »

« يا سلام ... ! »

« نعم يا عزيزي ... »

فهز كتفيه وقال وهو ينعم فيها النظر :

« أرى عذرهم بينا ... فمن يطالع هذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحب قلبه ؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسي ؟ »

فصمتت لحظة ثم قالت :

« إنها صغائر مألوفة لا يني عنها الشبان ... ولكنها ليست بذي بال ... فلندع هذا الآن .. فاعتقادي أنه لدينا ما يلذ لنا حديثه أكثر من هذا ... »

« طبعاً .. طبعاً .. ولكن وا أسفاه قد قدر على أن أحرم هذه اللذة الليلة .. لأن أمي مريضة وينبغي أن أكون الى جانبها سريعاً فلنؤجل هذا الحديث الممتع الى المرة القادمة

فنظرت إليه قلقة وسألت :

« مالك ؟ لست كعهدي بك ! تقول إن أمك مريضة ؟ لا بأس عليها .. أمضطر أنت الى الذهاب اليها حالاً ؟ »

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه الى الانفجار لينفس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقده المدفون ، ويود لو يجبه هذا الرياء بما يمزق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته ، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة ، فمن حقه أن يصب جام غضبه ويثأر لآلام قلبه ويمحق الخيانة والمكر السيء

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه ، وكان بطبعه هادئا رزينا كتوماً يبذ فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة ، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب :

« إني تعب مهموم مكدود الذهن ، ولولا شدة توقي لرؤيتك ، ما هان عليّ أن أغادر أمي ، وهي طريحة الفراش ... فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض ... والآن اسمحي لي أن أقدم إليك هدية جميلة : هذا الحق العاجي ... ورجائي ألا تمسيه إلا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظى بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء ... وإلى اللقاء القريب أيتها الحبيبة ...

نجيب محفوظ

ليسانسيه آداب — القاهرة



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

٢١ اكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم في دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهي تتهمه بسمها للتخلص من النفقة الشرعية . كلام معقول . ومسألة تستدعي التحقيق من غير شك . ولكني من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم . وما فيها من «قرف» خصوصاً على الصبح . وأعلم أني سأنتقل فأجد امرأة عائمة في بركة من القيء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً لا من الكلمات بل من الـ ... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت منديلي وبصقت فيه . وجعلت أفكر في إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبته بالفعل فحضر فسلمته الاشارة ، فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ! وأنا عمري حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصاً التسمم . حتى أنا القديم المتمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعي « الاستمارة » المنصوص عنها في تعليمات النائب العمومي . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لابد من سؤالها وتلقي الجواب عنها . وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وحيز بالقطرميز الحاوي « لعينات » القيء والبراز لارسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم ، وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوي . إذ كثيراً ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق وأمرته بتهيئة اللازم للقيام وطلبت إليه الاستمارة المذكورة التي عليها نظرة وأتذكر مافيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلي :

« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبي الشرعي ... على النيابة أن ترسل في آن واحد للنائب العمومي ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة

(٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته

(٣) هل كان المصاب في صحة جيدة قبل الاصابة ؟

(٤) الأعراض التي لوحظت : كالقيء ، الاسهال الألم ، العطش ، ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرق ، التيبس حالة الحدقتين ، النبض ، التنفس !

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص في فمه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالفضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه ؟

(١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساء أو صباحا بالضبط ... »

شىء جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن يقال مثلاً فى يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق فى متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس الخ الخ . باعتراف الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التى لا تحمل فى جيبها ساعة وربما لم تر فى حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت فى الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!!

النهاية . قمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معى المساعد يشاهد حتى تزول حجته فى المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقلت :

— نهار باين من أوله !

وقرأت فاذا هى إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وطلبت قلماً وأشرت فى الحال على ذيل الاشارة العبارة المألوفة فى مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » .

وقلت للمساعد أن يذهب هو لحضور التشريح وإفادتى بنتيجته بمجرد الفراغ منه . فمضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التى أكلت الفطيرة ؛ وكان الأمر فعلاً كما توقعت : وجدت المرأة فى صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلى آنيـة ولا « حلة » ولا « كروانة » فى الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم منها أن يفتتح المحضر ، وتقدمت بين الأوانى المملوءة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

— اسمك وعمرك وجنسيتك ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص العضلات أنها فهمت عنى . فأعدت عليها الكرة فى شبه صياح ، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع فى قىء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتهامسن :

— أيوه يسيبها فى غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقهن وكأنى أخاطب نفسى :

— والله كان بودى أن أتركها فى غلبها ، لكن أعمل إيه ؟ ؟ قلم النائب العمومى فى انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنة بين النسوة وقالت لى :

— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف اسمها ؟ اسمها نبوية

— نبوية إيه ؟

— لأ ما نعرفش غير نبوية . أهى فى الحارة كنا نقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة اسمها كاملاً . فتوسلت إلى النسوة أن يساعدننى على حملها على النطق دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن

رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمسن فى أذنها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ساعة بالتمام حركت المصابة شفتيها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابتات على كتفيها :

— أيوه ... أيوه ردى علينا يا حبيبتى !

فأسرعت أصيخ قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

— اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأنّت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

— اسمى ... نبوية

فكدت أشق ثيابى :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إيه ؟ اسم « أبوك » إيه ؟ أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية إيه ؟ ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ، فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام العذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملاً . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ، فكيف بالباقى ؟ خصوصاً السؤال الأخير : بيان الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة ! ! أى أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت ؟ شىء جميل ، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلى هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتلقى من هذه الطريحة جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال بعيداً عن مناظر القىء والاسهال : وأومأت إلى الكاتب أن « اقفل المحضر » وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها واكتفينا بأخذ « عينات » القىء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتميت على مقعدى تعباً

أغمضت عينى قليلاً ؛ ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى فى الحال وابتدرته :

— مالك ؟

— التشريح

— آه حضرت العملية ، والنتيجة ؟ ؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدقت بنظرى ملياً فى وجهه . ففهمت كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين الكتب ؛ تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الانسان شىء عظيم ، إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الانسان لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فاذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرت فى نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى لن أنسى أبداً يوم وقفت المرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب فى دماغه بعيار نارى أطلق عن قرب فكسر

الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح فقمت معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط الذى وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ، وجيء بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه فى لحاف جديد « ببوشه » ، ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن وكان معى مأمور نشيط أمر رجاله باخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوها تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق «الدكة» وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر ، إذ وقعت الجريمة فى اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة ، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة فى رأس القتيل ، ورغبة منه فى أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطبيب المشرط حالا فى رأس القتيل وهو يملى على الكاتب :

— ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً)

وعندئذ علا صياح النسوة ، وكن قد تسلقن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « المعرشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلبى يصيح :

— ياشجرة و « مضللانا » يا بويا !

وتلاه صوت آخر فى مثل وقعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

— ياللى كنت خارج بسحورك فى بطنك يابه

وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه فى فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :

— جرح نارى طوله أربعة سيمتر . . .

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح فى نشرها لصلابتها فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين » وسمعت إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و « الهبد » فى رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

— اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزتنى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا فمنذ لحظة قد بدأت أشك فى ذلك

وتم نزع الغطاء أو «القراعة» ، وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذى فوق المخ مباشرة ، فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو يملى :

— نزيف دموى شديد بأنسجة المخ ...

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئا . واستمر فى البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن القذوف خرج منها . ولما يأس الطبيب . وقال لى باسما : إن القذوف النارى يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة فى جسم المصاب وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا فى الفخذ : قد يكون هذا معقولاً . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم ! هذا شغل «حواة» ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه المقدرة . واستاء الطبيب أخيراً وصاح :

— وعلى إيه ؛ آدى مخ الراجل بحاله ...

وأخرج بكلتا يديه كل ما فى الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة وقسم هذا المخ أقساما أربعة أعطى كلا من معاونيه قسما وكلفهم أن يبحثوا عن المقذوف بحثا جيداً فجعلوا « يلغوصون » بأصابعهم فى هذه المادة التى يعزى اليها كل نبوغ الانسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالمهلبية ؟

هذا هو مخ الانسان !

قلت ذلك همسا لنفسى : وقد بدأ الروع الذى أخذنى أول الأمر يزول عنى شيئا فشيئا . وتصلبت أعصابى وهمد إحساسى وتيقظ فى نفسى حب الاستطلاع ؛ ورغبة فى أن يفتح أمامى كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلنر القلب ولنر الكبد ولنر الأحشاء . لم يعد هذا الرجل فى نظرى رجلا ، إنما هو ساعة حيط كبيرة ممددة أريد أن أفتحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها

ولم يجد الرجال شيئا كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ؛ ولكنا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتيل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط فى ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! اشرط ! ...

وأخذتنى حمى غريبة وفقدت كل شعور إنسانى فجعلت أقول للطبيب : أرنى رئتيه ، أرنى أمعاءه ، أرنى الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب ، وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— وجدنا القلب سليما ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شىء . ففكرنا مليا . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث فى نفسى من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل آمر به ولا أرتعد ! ثم أى خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الانسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغى أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتى . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت فى نفس مساعدى أحداثاً .. وأردت أن أسأله فى ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبى ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيرا !

وتناولت الاشارة . وما كدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟ ! . .

فأسرع مساعدى متلهفاً .

— مالها ؟

— وجدوا جثتها فى الرياح قبلى البلد ؟

— وماتت ؟

قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الاشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهى : « ويحتمل أن يكون سبب الوفاة اسفكسيا الغرق » وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشىء الجميل بهذه السرعة

وأطرقت قليلا أفكر فى سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقا حلوا منحنا أويقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيما عليلا هب على

صحراء حياتنا العاطفية المجدبة فى هذا الريف القفر

واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى ومددت يدى إلى مساعدى أسترد الاشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، وفجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثاً ، فليكن ، وإنى لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هـذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال لحرام أن نمزقه لنرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الاشارة بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشريح

— ومين غير حضرتك ؟ !

— مستحيل ، أنا أولا كفاية علىّ تشريح الصبح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوتى ! ثانيا البنت دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرته . وأطرقت لحظة ثم قلت :

لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر .. أنا لو دفعوا لى عشرين جنيها ... ! هات الاشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص ... !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثـة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثاراً مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فاجراء التشريح فى هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقة والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقيا مقبولا . وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحا فى الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فاذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى فى الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبية والغلمان ، وجمع من الأهالى خلفه وهو يصيح كالمجنون :

ورمش عينهـا يا ناس
يفرش على الميّـــه
واحده بياض شفتشى
والثانيـــة بلطيـه
والتالته من بدعها
غرّقها فى الميّـه ...

وثار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة فى حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشى أحياناً ويرقص أحياناً ويجرى فى كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت الى الاشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، ولـكن الشك والقلق خالجانى ..

— سمعته لما قال : « غرقها فى الميه » ! من اللى غرقها ؟ !

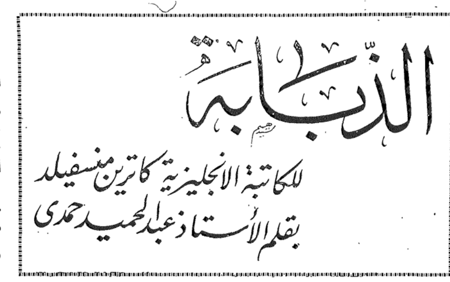
فقال المساعد :

— دى « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرفة » رجل مخبول فى الشارع ؟ ! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !

فمحا قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم والاقتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى نفسى انسـدت عن القضية وأصحابها ! !

(يتبع) توفيق الحكيم



جلس الشيخ ووديفيلد على كرسيه المريح يدخن السيجار الذى قدمه إليه صديقه ، وينظر نظرة ، يكاد يبدو فيها أثر الشره ، الى ذلك الصديق الذى يدور فوق كرسى مكتبه معتدل القامة أحمر الوجه ، فهو وإن يكن أكبر من ضيفه سناً بخمس سنوات إلا أنه لا يزال قوياً ولا يزال قابضاً على الدفة ، وإن الانسان لينتعش بالنظر إليه . ثم قال الشيخ بصوته الصفيرى فى شىء من اللباقة والاعجاب :

« نعم ، يشهد الحق أن هذا المكان هانئ مريح ! . . . . »

فقال المدير ، وهو يفتح صفحات جريدة فيننشيال تيمس بقطع الورق :

« نعم ، إنه مريح بالقدر الكافى »

والواقع أن الرجل كان فخوراً بغرفة مكتبه ، وكان يحب أن يعجب بها الناس وبخاصة صديقه العجوز الشيخ وودیفیلد . ولقد كان من أشد بواعث شعور الرضى العميق الثابت فى نفس المدير أن يجلس معتدلا وسط هذه الغرفة متعرضاً تعرضاً تاماً لنظر صديقه الشيخ الضعيف القابع فى ذلك الكرسى الكبير الذى يكاد يخفيه عن العيون

وقال المدير موضحاً كما وضح فى الأسابيع الماضية التى لا يذكر عددها :

« لقد أعددت هذه الغرفة أخيراً اعداداً جديدا ، فهذه سجادة جديدة » ، وأشار إلى السجادة الحمراء الزاهية ذات الرسوم والدوائر البيضاء الكبيرة ثم قال :

قال مستر وودیفیلد فى صوت يشبه الصفير :

« إنك هنا مستكمل جميع أسباب الراحة والرفاهة . . . »

وكان مستر وودیفیلد جالساً على كرسى كبير من النوع المريح من الجلد الأخضر ، إلى جوار مكتب صديقه المدير ، وأطل مستر وودیفیلد ، وهو يوجه هذه الكلمات إلى صديقه ، من كرسيه كما يطل الطفل من عربته ، وبهذه الجملة ختم حديثه معه ، وقد آن موعد انصرافه ، ولكنه لم يكن راغباً فى الانصراف ، فهو منذ أن استقال من عمله ، أو بعبارة أخرى منذ أن أضرب عن العمل ، اعتادت زوجه وبناته أن يحبسنه فى البيت طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء ، ففى يوم الثلاثاء يسمح له بارتداء ملابسه واصلاح هندامه والخروج إلى طرقات المدينة ، حيث يقضى النهار كله أنى شاء ، ولكن لم يكن فى مقدور زوجه وبناته أن يتخيلن ما يعمله فى أثناء غيبته عن البيت ، على أنهن كن يفترضن أنه يزور بعض أصدقائه فيضايقهم بأحاديثه .. وقد يكون هذا الافتراض مطابقاً للواقع

والحق أننا لنتشبث بمسراتنا الأخيرة كما تتشبث الشجرة بأوراقها الأخيرة أيضاً ، وهكذا

« وأثاث جديد »

وأشار برأسه إلى المكتبة الكبيرة والمائدة ذات الأرجل الملتوية ذات اللون العسلي ، ثم قال :

« ومدافىء كهربائية »

ولوح بيده مبتهجاً نحو الخمس الأنابيب الشفافة المضيئة باللون الأحمر اللطيف داخل جهاز من النحاس ذى رفرف كالمظلة فوق هذه الأنابيب

ولكن الرجل لم يوجه نظر ووديفيلد إلى الصورة الفوتوغرافية المعلقة فوق المكتب والتى تمثل فتى عابس الوجه ، واقفاً فى لباسه العسكرى ، وسط واحدة من تلك الحدائق الخيالية التى يعدها المصورون فى دورهم ، ووراءه سحب متكاثفة هى كذلك من صنع الخيال . ولم تكن هـذه الصورة جديدة فى مكانها هذا ، فهى معلقة فيه منذ أكثر من ست سنوات

وقال ووديفيلد العجوز :

« كان عندى ما أردت أن أقوله لك »

وهنا ظللت عينيه غشاوة الذكرى ثم قال :

« والآن لا أكاد أذكر ما كنت أريد أن أقول فما هو يا ترى ؟ لقد كان فى رأسى عند ما غادرت بيتى صباح اليوم »

وبدأت يداه ترتجفان وبدت بقع حمراء على لحيته فرثا له صاحبه وأشفق عليه وقال فى نفسه : إن هذا الصديق المسكين قد بذل أقصى جهده فى الحديث ، ثم غمز له بعينه وقال مازحاً :

« سأخبرك أنا بهذا الأمر . فان عندى هنا قطرة من شىء ينفعك قبل أن تخرج إلى صقيع الطريق مرة أخرى . وهو مادة لطيفة لن تضر طفلاً صغيراً »

وأخذ مفتاحاً من حلقة مفاتيحه وفتح دولاباً تحت مكتبه وأخرج منه زجاجة مضلمة داكنة اللون وقال :

« هذا هو الدواء ، ولقد قال لى الرجل الذى أخذته منه ، فى لهجة التوكيد ، إنه جاء به من مخازن قصر وندسور »

فلم يقع نظر الشيخ ووديفيلد على الزجاجة حتى فغرفاه ؛ ولم يكن ليدهش أشد مما دهش لو أن صاحبه أخرج بدل الزجاجة أرنباً

وقال فى لهجته الصفيرية :

« أليس ذلك هو الوسكى ؟ »

فأدار صاحبه الزجاجة وأراه رمز مصنعها فقد كانت بالفعل زجاجة وسكى

وقال ووديفيلد وهو يحدق النظر فى صاحبه :

« أتعرف أنهم فى البيت لا يسمحون لى بتذوق الوسكى ؟ »

وبدا عليه كأنه يكاد يصيح من شدة الفرح .

وقال صاحبه رافعاً صوته :

« آه ... هـذا هو الموضوع الذى نعرف فيه أكثر قليلاً من السيدات »

ومال نحو قدحين كانا على المائدة مع زجاجة الماء فصب فى كل منهما كمية وافية من الوسكى وقال :

« اشرب هـذا فسيفيدك جداً ، ولا تمزجه بشىء من الماء ، فمن الخسارة إفساد مثل هذه اللذة المقدسة . آه ! »

ثم جرع كأسه وتناول منديله فمسح شاربيه مسرعاً ، ونظر من طرف عينيه إلى ووديفيلد الذى كان يداعب قدحه بشفتيه

وشرب ووديفيلد القدح دفعة واحدة ، وبقى لحظة صامتاً ، ثم قال فى صوت خافت :

« إنه شديد الرائحة »

ولكن الخمر دفأته وأعادت قوة التذكر إلى رأسه البارد العجوز — فتذكر وقال وهو يرفع نفسه ليقف على قدميه :

« هاك ما أردت أن أقول ، فقد ظننت أنك تود أن تعرف أن البنات قد ذهبن إلى البلجيك فى الأسبوع الماضى ليلقين نظرة على قبر ريجى المسكين ولقد تصادف أن رأيت كذلك قبر ابنك ويبدو لى أن القبرين متجاوران »

ووقف الشيخ ووديفيلد عن الكلام ولكن صاحبه لم يجبه ، غير أن رمشة جفنيه أنبأت بأنه قد سمع

وقال الشيخ فى صوته الرفيع :

« وقد ابتهجت البنات بما رأين من العناية بالمكان ، ولو كانت هذه القبور فى انجلترا لما كانت بأحسن حالا مما هى عليه هناك . وما أحسبك قد ذهبت إلى ذلك المكان ؟ »

فأجاب الرجل : « لا . لا . »

وهو لأسباب عديدة مختلفة لم يسافر إلى البلجيك

فقال ووديفيلد فى صوت مرتجف :

« إن مساحة المكان تبلغ عدة أميال وكلها نظيفة منسقة كالحديقة ، والأزهار تنمو على جميع القبور . وهناك طريق واسعة جميلة »

وقد ظهر من نبرات صوت الشيخ مبلغ حبه للطريق الجميلة الواسعة ، وسكت الشيخ ووديفيلد مرة أخرى ثم ابتهج ابتهاجا غريباً وقال فى صفيره المعتاد :

« أتدرى كم تقاضى الفندق البنات ثمناً لعلبة المربى ؟ لقد تقاضاهن عشرة فرنكات ! وإنى لأسمى ذلك سرقة . ولقد كانت العلبة صغيرة كما تقول جرترود ، لا يزيد حجمها على حجم نصف الريال الانجليزى ، ولم تكن قد أخذت منها أكثر من ملعقة صغيرة عندما تقاضوها العشرة الفرنكات . لذلك أخذت جرترود العلبة وجاءت بها معها لتلقى عليهم درساً . وهذا حق أيضاً ، فان هؤلاء القوم يتاجرون على حساب عواطفنا . فهم يظنون أننا مادمنا مضطرين لأن نذهب إلى هناك لنلقى نظرة على قبور أعزائنا فقد وجب أن ندفع كل ما يطلب منا دفعه ، هذا هو تفكيرهم »

واتجه الشيخ صوب الباب

وقال المدير فى صوت مرتفع وإن لم تكن فى رأسه أية فكرة عما هو هذا الحق :

« نعم هذا حق ! نعم هذا حق ! »

وخرج الرجل من وراء مكتبه وتبع صاحبه فى خطواته البطيئة حتى أوصله إلى الباب . وخرج ووديفيلد فغاب عن الأنظار

ووقف صاحب المحل لحظة طويلة ينظر إلى غير شىء . بينما « ساعى » المكتب الأشيب الشعر يرقبه من مكانه فى احتراس شديد ، يخرج رأسه بحذر ثم يعيده كالكلب الذى يتوقع أن يأخذه صاحبه معه فى مرحلة طويلة . ولم يلبث سيده أن قال له :

« لا أريد أن أقابل أحداً لمدة نصف ساعة .. هل فهمت ؟ لا أريد أن أقابل أحداً مطلقاً »

« ليكن ما تريد يا سيدى »

وأقفل الباب ، واجتازت الخطوات الثابتة الثقيلة السجادة الزاهية مرة أخرى ، وارتمى الجسم السمين فى الكرسى اللولبى ، ومال الرجل إلى الأمام مخبئاً وجهه بين كفيه . لقد أراد ولقد اعتزم بل لقد أعد عدته للبكاء . . .

لقد كانت الصدمة قاسية فظيعة عندما فاجأه الشيخ ووديفيلد بملاحظته على قبر ابنه . فلقد كان الأمر تماماً كما لو أن الأرض قد فتحت ورأى ابنه فى قبره وبنات ووديفيلد ينظرن إليه . لأن المسألة كلها كانت غريبة فانه وإن كان قد مضى ست سنوات على موت ابنه ، إلا أنه لم يتصوره إلا راقداً فى لباسه العسكرى لم يصبه تغير ولا تشوه ، وإن هى إلا نومة الأبد الهادئة

وقال المدير منتحباً : « ابنى ! »

ولكن عينيه لم تذرفا الدمع بعد ، وقد كان في الماضي ، في الأشهر الأولى وحتى في السنوات الأولى بعد موت الفتى ، يكفي أن يذكر ابنه ليستولي عليه من الحزن ما لا يمكن أن يخفف من قسوته إلا نوبة حارة من البكاء المر ، وكان يقول إذ ذاك ، لكل إنسان : إن الوقت لا يستطيع أن يبدل من حاله تلك ، وإن غيره من الرجال قد يشفون من أحزانهم ، وقد ينسون الخسارة التي أصابتهم ويتعزون عنها . أما هو فلن يكون ذلك شأنه أبداً ، ولن يبدل الزمن من حاله بأهنأ منها ، وهل كان من الميسور أن تبدل حاله ؟ لقد كان ابنه ولداً وحيداً ، ومنذ ولادته شرع أبوه يؤسس له هذا العمل الذي يقوم عليه ، ولم يكن لعمله هذا من معنى إن لم يكن مقصوداً منه أن يبقى للصبي الصغير يقوم عليه بعد أبيه ؛ بل إن حياة الرجل نفسها لم يعد لها من معنى آخر غير ذلك ، فهو إنما يحيا من أجل ولده الصغير ، وأي شيء على وجه الأرض كان يحمله على أن يستعبد نفسه ، وينكر ذاته ، ويواصل العمل طوال هذه السنوات ، لولا الأمل الماثل أمامه دائماً في أن يرى ابنه يدرج في نعليه ، ويرتدي لباسه ، ويواصل العمل من حيث يتركه هو ؟

وكان هـذا الأمل على وشك أن يتحقق ؛ فلقد قضى الفتى سنة قبل الحرب ، في مكتب أبيه ، يتدرب على الأعمال الأولية . فكان الأب وابنه يذهبان معاً كل صباح إلى المكتب ، وبعد انتهاء العمل يعودان كذلك معاً في قطار واحد ، وما أكثر ما تلقى الأب من التهنئات بصفته والداً لهذا الولد الناجح ، ولا عجب في ذلك ؛ فلقد كان الغلام مبدعاً حقاً في إتقان عمله ، ولم تعلق به في أية ناحية من نواحيه شائبة الغرور الذي يتلف خلق من كان في مثل مركزه ؛ بل لقد كان على العكس من ذلك ، غلاماً سمحاً مشرقاً ، طبيعي الخلق ، يخاطب كل إنسان برأيه الصريح فيه ، في عينيه نظرة الطفولة البريئة ، وقد تعود أن يجيب على ما يطلب منه بكلمات الطاعة المؤدبة

ولكن كل ذلك قد انتهى وتلاشى كأنه لم يكن من قبل ؛ فقد جاء اليوم الذي حمل فيه الخادم « مامي » إلى سيده الرسالة البرقية التي هدمت المحل كله على رأسه ، وقد استهلت تلك الرسالة بهذه الكلمات : « يؤلمنا أشد الألم أن نبلغك ... » وترك الرجل مكتبه ، مكسور القلب ، محطم الحياة

كان ذلك منذ ست سنوات مضت . . . نعم منذ ست سنوات .. فما أسرع أن مر الزمن ! وكان ما حدث قد حدث في الأمس القريب ... وأزاح الرجل كفيه عن وجهه وقد علته الحيرة فقد خيل إليه أن في نفسه شيئاً غير سليم ، وقد أعوزه الشعور الذي أراد أن يشعر به . فاعتزم أن يقف وينظر الى صورة ابنه الفوتوغرافية . ولكنها لم تكن إحدى الصور التي يحبها ، فنظرة الغلام فيها لم تكن طبيعية بل لقد كانت نظرة جامدة ، بل كانت نظرة عابسة متجهمة ، وهي نظرة لم يرها أحد قط من قبل على وجه الصبي

في هذه اللحظة رأى الرجل أن ذبابة قد سقطت في الدواة الكبيرة وأنها تجاهد في ضعف ولكن جهاد المستيئس لتخليص نفسها من الشرك الذي وقعت فيه وكأنما كانت أرجلها المتخبطة تنادي : العون ! العون ! ولكن جوانب الدواة كانت مبللة زلقة فسقطت الذبابة مرة أخرى في الحبر وشرعت تسبح فوق سطحه . فتناول المدير قلمه والتقط الذبابة فوضعها فوق ورق النشاف . فبقيت نصف ثانيـة جامدة لا تتحرك فوق البقعة السوداء التي ارتسمت حولها . ثم تحركت رجلاها الأماميتان وارتكزت على الأرض ، فجرت جسمها المبلل جراً

حتى رفعته قليلا ، وعندئذ بدأت المهمة الكبرى مهمة إزالة الحبر عن جناحيها ، فكانت رجلاها ترتفعان وتهبطان محتكتين بالجناحين احتكاك حجر المسن بالمنجل ، ثم وقفت هذه العملية لحظة ، وبدت الذبابة واقفة على طرفى رجليها الأماميتين ، وقد اجتهدت فى نشر أحد جناحيها ثم نشرت الجناح الآخر ، وقد نجحت فى محاولتها ، وجلست أشبه ماتكون بالقطيطة محاولة تنظيف وجهها . وليتصور الانسان منظر الرجلين الأماميتين تحتكان إحداهما بالأخرى فى خفة وابتهاج . فقد انتهى الخطر الفظيع ، وقد نجت الذبابة من الموت واستعدت مرة أخرى لمواجهة الحياة .

ولكن فى هذه اللحظة بدت لصاحب المحل فكرة طارئة ، فغمس قلمه مرة أخرى فى الحبر ووضع قبضته الغليظة على ورق النشاف ، ولم تكد الذبابة تحرك جناحيها محاولة الطيران حتى غمرتها نقطة حبر كبيرة ثقيلة . فماذا عساها أن تفعل فى هذا الخطر الجديد ؟ نعم ماذا عساها أن تفعل ! لقد بدا على المخلوقة التعيسة أنها قد ذهلت وأصابتها الحيرة واستولى عليها الخوف من الحركة جزعاً مما قد يدهمها بعد ذلك . ولكنها لم تلبث أن جرت نفسها الى الأمام وكأنما كانت تفعل ذلك فى شىء من البطء

وقال الرجل فى نفسه إن هذه الذبابة شيطان صغير جرىء ، وشعر باعجاب حقيقى بشجاعتها . فهذه هى الطريق التى يجب أن تعالج بها المشكلات هذا هو الروح القوى السليم . لا تقل أبداً « أموت » فما هى إلا مسألة . . . ولم يكن لدى المدير من الوقت ما يتسع لأكثر من إعادة غمس قلمه فى الحبر وسكبه مرة أخرى على الذبابة التى كانت قد نظفت جسمها مرة ثانية وقال فى نفسه : « وماذا أنت فاعلة فى هذه المرة ؟ » وتبع ذلك فترة انتظار موجعة ولكن صه . . فها هما الساقان الأماميتان تعودان الى الحركة ، وشعر الرجل بارتياح مفاجئ ، فانحنى على الذبابة وقال يخاطبها فى رقة ولطف : « أيتها المخلوقة الصغيرة المجتهدة . . . » وحاول فملا أن يساعدها بأنفاسه فى تجفيف نفسها ولكن على الرغم من ذلك كانت حركتها فى هذه المرة ضعيفة بطيئة ، وقرر المدير وهو يغمس قلمه فى الحبر مرة أخرى أن تكون هذه آخر مرة

ولقد كانت بالفعل آخر مرة ، فقد سقطت نقطة الحبر الأخيرة على ورق النشاف ، فرقدت الذبابة القذرة تحتها جامدة لا تتحرك ، وقد التصقت أرجلها الخلفية بجسمها ، أما الساقان الأماميتان فقد اختفتا عن النظر

فقال الرجل : « هلم ... استيقظى ! »

وحاول أن يثير بقلمه حركة الذبابة ، ولكن عبثاً — فلم تتحرك ولم يعد من الميسور أن تتحرك لقد ماتت الذبابة

فرفع الرجل الجثة على طرف مقطع الورق ، وألقى بها فى سلة المهملات . ولكنه فى هذه اللحظة أحس بشعور ساحق من التعاسة يستولى عليه عنيفاً حتى لقد تملكه خوف حقيقى ، فهم من مكانه وضغط زر الجرس طالباً خادمه « ماسى »

فلما جاء الخادم قال له فى لهجة حادة :

« جئنى بورق نشاف جديد وافحصه جيداً »

وبينما الخادم يسير عائداً فى خطواته الثقيلة أخذ المدير يسائل نفسه فى حيرة : فى أى شىء كان يفكر من قبل ؟ ماذا كان الموضوع الذى شغل رأسه ؟ لقد كان يفكر ... وتناول منديله من جيبه فدسه بين عنقه وياقته . . . فلقد نسى نسياناً تاماً فى أى شىء كان يفكر ...

عبد الحميد حمدى



« أوه . . . » — ووضعت يدها على صدرها الناضج ، بينما كانت يدها الأخرى على الباب !

« هل خوفتك ؟ . . . إني آسف . . . المرة الآتية أضع على وجهي ستارا . . . هكذا . . . »

وغطى وجهه بكفه ، وجعل ينظر اليها من بين أصابعه وهي تضحك

ووسعها أن تتكلم فقالت : « ألست حضرتك الأستاذ السمير ؟ »

فقال وهو يتكلف الجد : « كنت قبل اليوم فخورا بأن أدعى الأستاذ وأن يكون اسمي السمير . . هو اسم لا بأس به . . ويجب أن أعترف بأن أبي أحسن الاختيار وأولاني فوق ما أستحق حين سماني السمير . . . ولكني سأظل بعد اليوم أذكر فزعك حين رأيتني . . . أم ترى هو وجهي الذي خفت منه ؟ »

فابتسمت « ناهد » وقالت : « لا يا أستاذ . . معذرة . . كل ما في الأمر أنك كنت أستاذي في المدرسة الـ . . .

ففرك الأستاذ كفيه وقال : « آه هذا أحسن . . الآن فهمت لماذا أفزعتك رؤيتي . . معقول . . المعلمون شيء مخيف . . دأبهم أن يأمروا وينهوا . . يأمرون بالشيء كانوا ينهون عنه أو ينهون عما أمروا به . . . شيء يطير العقل . . . على كل حال الذنب للمهنة لا لي . . والآن وقد اطمأن قلبي فهل هذه الشقة مسكنكم ؟ »

فسرها أنه يكلمها كلام رجل لفتاة ، لا كلام معلم لتلميذة ، وصار كل ما يقول يغريها بالضحك

وقالت وهي تغالب الضحك الذي لا داعي له :

« نعم . . لنا فيها سنوات . . وحضرتك ؟ »

فقال واعتدل في وقفته وزوى ما بين عينيه :

« حضرتي الساكن الجديد في هذه الشقة المجاورة لحسن الحظ — لشقتكم . . شاءت المقادير أن نكون جيرانا ، فاذا كان هذا لا يغريكم بالهرب أفلا ترين أنه يحسن أن نسقط « حضرتك وحضرتي » من حديثنا ، وأن نتكلم كما ينبغي أن يتكلم الجيران بلا تكلف ولا مجاملات »

فقالت وهي فرحة مسرورة : « بالطبع . . ولكن يا أستاذ كيف يمكن ؟ »

فقال : « آه رجعنا . . كلما رتقنا الفتق من ناحية انهار من ناحية أخرى . . أستاذ . . وحضرتك . . . يظهر أني اتخذت مسكني في مدرسة داخلية . . »

فضحكت وارتج ثدياها الناهدان وقالت : « ولكن كيف أقول حين أخاطبك . . . لست أحب التكلف ، غير أني مع ذلك لا أرى كيف أقول . . . »

قال : « قولي ما تريدين بغير أستاذ وحضرتك . على كل حال . . ألا ترين من واجبك أن تعرفيني

بهذه الفتاة الجميلة التي كانت تلميذتي ؟ »

فقالت بإيجاز وقد اتقد وجهها حتى صار كالجمرة « ناهد »

ففرك ذقنه بيده وقال كأنما يحدث نفسه وعينه إلى الأرض : « ناهد . . ناهد . . اسم حلو . . ليته كان اسمي » (ضحك منها) ، ولكنه لا يحرك في هذا الغربال الذي جعله الله لي بديلا من الذاكرة أي اختلاج . . آسف جدا . . لا حق لي أبدا . . ولكني أعدك ألا أنساه بعد اليوم . . وكيف يمكن أن ينسى اسمك الحلو من يراك ؟ »

فأخجلها هذا الثناء المزدوج عليها وعلى اسمها ، وحمدت له في سرها أن قصر المدح الصريح على اسمها

***

ولم يصدق الأستاذ السمير حين قال لها : إنه لا يذكرها ولا يذكر اسمها فقد كان معلمها ثلاث سنوات كاملة ولم تغب عنه إلا عاماً واحداً . وكانت أحب تلميذاته إليه وأجرأهن عليه ، وكان يسره منها أنها لم تكن تحجم عن مناقشته إذا بدا لها رأى فيما يقول ، وكان هو يؤثر أن يشجع تلميذاته على السؤال والبحث والغوص وعدم الاكتفاء بما يسمعن منه كأنما كان أستاذاً في جامعة لا في مدرسة ثانوية ، وأعداهن بالجرأة وألفهن معه الحرية في في البحث فكن يحففن به في حيثما يجدنه — في فناء المدرسة أو على السلم أو في الفصل — ويمطرنه أسئلة في كل موضوع ولو كان لا صلة له بالتاريخ الذي يدرسه لهن . وكان هذا لا يسوءه أو يثقل عليه ، فقد أتم تعليمه في انجلترا فلما عاد ثقلت عليه وطأة الفصل بين الجنسين ، فلما نقل إلى هذه المدرسة كان يأنس بحديث الفتيات ويرى في ذلك بعض العوض عما يفوته خارج المدرسة . وكن هن يفرحن به لفرط ما يعانين من العزلة في هذه المدرسة « الداخلية » والاستيحاش والحرمان ، فما كن يرين من الرجال سوى بعض الخدم واثنين أو ثلاثة من الشيوخ المتحجرين ، وهذا الشاب الظريف الساخر الذي يصدمهن ويروعهن بآرائه الجديدة في الحياة وفي كل شيء ، والذي لا يفرض مع ذلك عليهن رأياً ، بل يدعوهن إلى التفكير الحر المستقل في كل أمر وكل حالة من حالات النفس والاجتماع ، ويهش لهن ويمزح معهن ويضحكهن من أنفسهن ، ويسخر من كل مانشأن عليه من العادات والتقاليد ، ويشعرهن أنهن إخوة له لا تلميذات ينهرن ويزجرن ويعاقبن كما لا يفتأ الأساتذة الآخرون يفعلون ، بل كما يفعل المعلمات أيضاً ، بل الناظرة الانجليزية التي تكاد تعدهن من طبقة دون طبقة الانسان . وكانت « ناهد » فتاة كاسمها ناهداً ، ورثت عن أمها رقة الحس ودقة الشعور وعن أبيها — وكان لواء في الجيش — الصراحة والجرأة وحسن التقدير للواجب والادراك لمزية النظام . وكانت لها زميلة في المدرسة تحبها حباً يقرب من العبادة وكانت هذه الزميلة — سعاد — ضامرة ضاوية ولكنها غنية مرفهة تجيء معها من البيت كلما عادت منه بألوان شتى من « المهربات » — حتى السجاير كانت تدسها في خزانتها ، فاذا أمنت عين الرقيبة أشعلت واحدة واضطجعت على الوسادة وراحت تدخن والبنات ينظرن إليها مبتسمات حاسدات ، ولكنهن كن يحببنها فكن لا يقلن شيئاً ، ويحرصن على ستر هذه المخالفة عليها . وكانت كريمة سخية بكل ما معها إلا السجاير فكانت لا تجود

على بنت بأكثر من « نفس » ولـكنها كانت تلح على ناهد أن تدخن وتعرض عليها السجاير كلها فتهز ناهد رأسها وتشيح عنها بوجهها نافرة — من التدخين ومن المخالفة — وكانت سعاد رعا جمح بها حبها لناهد فتطوقها بذراعيها وتضمها وتقبلها وتدعوها أن تفعل مثل ذلك فيضيق صدر ناهد بهذا الحب ، وتتفلت من عناقها متأففة متبرمة وتصيح بها : بس . فتكف سعاد وتروح تستعطفها وتسترضيها وتحاول أن تتألفها من نفرتها وترقد إلى جانبها على سريرها كالقطة أو الـكلب وترجو منها أن تدعها ترقد على سريرها لتنعم بقربها فتنهرها ناهد — وإن لم تكن بها قسوة — ولا تزال بها حتى تقصيها عن سريرها فتقوم المسكينة آسفة محزونة مطأطأة الرأس ، فيرق لها قلب ناهد وتردها إليها وتقبلها وتقول لها : « الآن اذهبى الى سريرك راضية » فيشرق وجه سعاد ويلتمع فيه نور البشر وتجرى إلى سريرها قريرة العين

وكانت ناهد تحس حين تلقى الأستاذ السمير وتتاح لها فرصة الحديث معه أن هـذا خير عوض عما تعانى من حب سعاد لها — هذا على الأقل رجل ولم تـكن تدرك شيئاً من المعانى الجنسية بوضوح ولـكنها لم تـكن تحتاج إلى أكثر من فطنة الغريزة

ولم تـكن خبرتها بالحياة والناس قد زادت بعد تركها المدرسة اكتفاء بما حصلت من التعليم الثانوى فقد بقيت حياتها فى البيت — كما كانت فى المدرسة — أشبه بحياة الراهبات فى الدير سوى أن وطأة الرهبنة فى البيت أخف ، فلما التقت بمعلمها السابق فرحت بذلك وسرها على الخصوص أنه تناسى وهو يكلمها أنها كانت تلميذته ، وكانت هى قد نسيت ذلك أيضاً ثم عادت تذكره حين رأته يتجاهل هذا ويغضى عنه ويكلمها كما يمكن أن يكلم أية فتاة ، خفق قلبها ورضيت عن نفسها وعنه

واتصلت الأسباب بين الأسرتين ، وتبودلت الزيارات وكثر لقاء الأستاذ السمير بناهد . وكانا كثيراً ما يقفان فى شرفتيهما المتجاورتين يتحدثان واستطاع بلباقة أن يزيل الـكلفة . وقد بقيت تدعوه الأستاذ ولـكن اللفظ فقد ما كان له من الدلالة القديمة . وكان هو يتعمد أن يجعل من نفسه عادة لها وأن يشعرها أنه رجل وأنها هى فتاة ، وكان إذا لقيها يحس أنها تهم بأن تمد يدها إليه لتحيته كما هى العادة فيتعمد أن يهمل ذلك ليذيقها الحرمان وإن كان طفيفاً وفى أمر لا قيمة له . وأحياناً يريح كفه الـكبيرة على كتفها ويحدق فى عينيها كأنما يغوص على سرها ، فتطرف وتغضى حياء ويضطرم محياها النضير الصبيح فيربت لها على ظهرها ويلمس ذقنها بأطراف أصابعه ، ويرفع وجهها حتى تلتقى العيون مرة أخرى ، فتبتسم وتنازعه نفسه فى أمثال هذه اللحظات أن يلثم فمها ، فيرد نفسه بجهد ويمضى عنها إلى النافذة وهو مطرق فتتبعه بعينيها ولا يسعها إلا أن تفكر فى هيئته وحالته ودلالة ما ترى منه

وقال لها مرة — وكان فى شقتها — بعد أن شرب القهوة : « اسمى » وسبقها إلى النافذة : « ما قولك ؟. بعد غد عيد الجلوس . »

قالت : « آه »

قال : « هذه فرصة يمكن أن تغتنميها للخروج مرة إلى الرياض »

قالت : « لست فاهمة »

قال : « لقد كنت منذ بضعة أيام فى القناطر الخيرية .. »

فسألته : « وحدك ؟ »

فخطر له أن يدعها تظن ما شاءت لأن هـذا أخلق بأن يزيدها تعلقاً به وقال : « والحق إنها جنة .. فتعالى نذهب إليها يوم عيد الجلوس وتتغدى هناك .. أسبق أنا إلى المحطة وانتظرك عند تمثال نهضة مصر وتلحقين بي هناك .. سأعد أنا كل ما نحتاج إليه »

فقالت : « ولـكن كيف أستطيع ؟. ماذا أقول لهم ؟ »

قال : « إذن سأنتظرك هناك .. الساعة التاسعة تماماً .. »

فاظهرت التردد وبدت عليها الحيرة فأراد أن يستثير احترامها لنفسها فقال : « لا داعي من الخوف على نفسك من وجودك معي في هذه الحديقة العامة »

فاغضبها أنه يتوهم أنها تخاف وثارت نفسها على هذا الظن ، وفعلت ما كان ينتظر فقالت : « طيب » وانصرف مسروراً راضياً عن نفسه ، وارتدت هي عن الباب بعد أن شيعته إليه ساخطة عليه تقول لنفسها (يظن أني أخاف منه .. بففف ..) وخطر لها على الرغم من سخطها وغضبها أن عينه براقة وأن الشعر الـكثيف الذي على ظهر كفيه جميل

وقالت لأبيها صباح اليوم الموعود : « أنت ذاهب إلى التشريفات .. خذني معك »

فقطب وقال بلهجة المستغرب : « آخذك معي ؟ إلى التشريفات ؟ .. »

فأضحكها هذا جداً ، وقالت وهي تـكاد تقع عليه : « أنت ظريف يا بابا .. موت .. »

فقال : « ولـكن ماذا تعنين ؟ .. آخذك معي ؟ .. »

قالت : « إلى بيت زميلة لي من أيام المدرسة أتفرج من عندها على .. على .. على التشريفات .. بيتها أمام السراي .. »

فقال : « هل تريدين أن يضحك مني الخلق ؟. تركبين معي إلى عابدين ؟.. لا لا لا »

قالت : « لن أدخل السراي .. تضعني أمام البيت وتذهب أنت إلى التشريفات .. لم لا ؟ »

فقال : « لا يا ستي .. اذهبي أنت وحدك .. أو انتظري حتى أعود ثم اذهبي بالسيارة »

قالت : « يا بابا أنت مدهش .. أنتظر حتى تنتهي التشريفات ثم أذهب ؟. وماذا أرى إذن ؟. طيب اذهب انت وحدك .. أقول لك .. خذني معك إلى العتبة الخضراء .. »

فرضي وحملها معه في السيارة إلى العتبة الخضراء ولو ألحت لحملها إلى ميدان عابدين ؛ بل لدخل بها القصر ؛ فقد كان حبه لها — وهي وحيدته — عظيما ودلالها عليه كبيراً ، وقلما استطاع أن يرضى عن نفسه إذا هو رفض لها رغبة أو أبى عليها شيئاً ولم يفسدها هذا التدليل الشديد ؛ بل زادها حباً له وإكباراً

ولقيت السمير عند قاعدة التمثال ، وكانت معه حقيبة فحملها ومضى إلى جانبها صوب المحطة ، وجلسا في القطار وكرّا إلى ذكريات المدرسة فعرض ذكر إحدى البنات البارزات ، وكانت باهرة الجمال . فقالت ناهد : « إنها فظيعة ... يقال إنها تشرب الخمر ... » ، وخجلت من نفسها لأنها قالت هـذا واغتابت زميلتها ، ولـكن الاغتياب لذيذ

فقال الأستاذ السمير : « تشرب خمراً ... وما ضرر القليل من الخمر يا فتاتي التقية الورعة ...؟ ليت معي شيئاً منها أشربه على الطعام »

فقالت بسذاجة : « ولـكنها تتلف أنسجة

الدماغ ... هذا ثابت علمياً ... كل كتاب فى الفسيولوجيا يقول ذلك »

فقال : « أهنئك بما قرأت من كتب الفسيولوجيا ... طبعاً قرأتها كلها ... بالعربية والانجليزية والتركية واليابانية أيضاً »

فقالت : « أوه ، إنك تعرف ماذا أعنى ، فلا تتهكم »

فقال : « بالطبع ... ولكن هل تعرفين أنت ماذا تعنين ؟ ... الحقيقة أن قليلاً من الخمر قد يفيد فتاة مثلك ... يخرجك من هذا الجد الصارم فى أمور لا قيمة لها ولا وزن ... يجملك أقرب إلى النوع الانسانى ... ألا تشتهين أن تحيى ؟... مرة واحدة ؟... لحظة واحدة ولو قصيرة ؟ ... حياة حافلة ؟ ... »

فشعرت أن إلحاحه هذا عليها بهذا الكلام يزعجها ... وأحست كما كانت خليقة أن تحس لو أنه وضع أصبعه على ضلع من ضلوع صدرها وغمزه ... وقلقت ...

وبلغا الرياض الفسيحة عند القناطر ، فاختار مكاناً ظليلا تحت شجرة لفاء وقعدا على دكة هناك متقابلين وأخرج ما فى الحقيبة استعداداً للأكل وقال لها : « رتبى هذا ... هذا عملك ... ويجب أن تصنعى شيئاً لتستحق الطعام ... اكسبى رزقك مرة بعرق الجبين ... »

ووضع زجاجة على الدكة ، فنظرت إليها وتناولتها وقرأت ما عليها وقالت : « هذا نبيذ ... »

قال : « نعم نبيذ ... ومن خير الأنبذة ... نبيذ الرين ... يجب أن يوضع فى الثلج ... سأدعو خادم البوفيه ليجيئنا بوعاء وثلج »

وذهب ثم عاد فألفاها لا تزال تتأمل الزجاجة وسمعها تقول وهى تبتسم : « لا أتذكر أنى رأيت مثلها من قبل ... رأيت زجاجات الويسكى فان أبى كلف به ... أكثر الضباط يشربون الويسكى ولكن النبيذ ... لا ... لم أره من قبل ... شكل الزجاجة جميل ... »

فسألها : « هل تريدين أن تقولى إنك لم تذوقيه من قبل ؟ »

قالت : « أبدا ... شربت مرة قطرة ... قطرة ليس إلا ... من البيرة ... وكم كرهت طعمها ... أما النبيذ ... لا أبداً »

فسألها وهو ينظر إليها — يحدق فى عينيها — ويبتسم : «وما قولك فى أن تذوقى هذا وتكرهى طعمه بعد ذلك ؟ »

قالت : « سآخذ قليلا إذا سمحت ... بالطبع هذا عيب ... ولكن وجودى معك هنا أيضاً ... كشرب النبيذ ... »

فسره حسن التعبير وابتسم لها ولم يقل شيئاً وكانت صادقة ، فما ذاقت من الخمر إلا قطرة كما قالت من البيرة ، وإلا قليلاً من الكونياك تحتاج اليه الفتيات أحياناً ليهون مايعانين من أوقات مملوءة

وأكلت من السندويتش ثم بدأت تذوق النبيذ ومطت شفتيها فقد وجدت طعمه كطعم الخل ، وخاب أملها فيه كما خاب فى البيرة من قبل وعجبت للرجال ماذا يجدن فى هذا الشراب وأمثاله من اللذة

وقال لها : « هل لك فى كأس أخرى ؟ »

فهزت رأسها وقالت : « لا مرسى ... يظهر أن العادة هى التى تجعل مذاقه سائغاً »

فلم يلح عليها بل قال : « لا بأس .. هذا يترك بقية الزجاجة كلها لى وحدى ... مرسى »

فحمدت له أنه لم يلح وشعرت بالاطمئنان ، فقد كان الخوف يساورها على الرغم من تشجعها

وسرعان ما أحست أن معدتها حميت بفعل النبيذ ، فمدت يدها وأترعت لنفسها كأساً أخرى ولحها الأستاذ فتمدد الاعضاء وشعرت بالدفء والخفة والسرور وحلت المناظر فى عينيها وأحست أنها تريد أن تجرى هنا وههنا — وهل هى إلا طفلة ؟ — وأدرك السميرذلك فنظر اليها وقال : « لم لا ؟ قومى اجرى . . . سابقينى . . . أو أقول لك ... هذه كرة جئت بها معى ... تعالى نلعب بها . . . »

وكانت قد نهضت فانحنت عليه وهو يخرج الكرة من الحقيبة وقالت مستغربة : « كرة ؟ . . كيف خطر لك أن تجىء بها ؟ »

فقال : « من أجلك ... يا صغيرتى ... »

وأخرج شيئاً آخر ملفوفاً فى ورق وقال وهو يلوح لها به : « وجئت أيضاً بشيكولاتة ... لفتاتنا الصغيرة فان الصغيرات يحببن الحلوى »

فقالت : « أتسخر منى ؟ »

قال : « أولست صغيرة ؟ »

قالت : « صغيرة بالطبع ... ولكن ليس الى هذا الحد ... لست طفلة »

فقال : « حسن ... نرد الشوكولاتة الى مكانها وندخرها لبنت صغيرة ... »

فصاحت به : « لا لا لا » وضحكت وخطفت الشيكولاتة

ولعبا بالكرة قليلا وسرها أن رجلاً طويلاً عريضا مثله يلاعبها وكادت تقع مرة وهى تحاول أن تلقف الكرة ، فأدركها — أحاطها بذراعه فتعلقت به اتقاء للسقوط على الحشائش البليلة وصارت على صدره ، وخيل إليها أنها تستطيع أن تبقى كذلك الى الأبد . وكرّ بها الى الدكة وأخرج السجاير وقدم اليها واحدة فحاولت أن تدخن المرة التاسعة أو العاشرة فى حياتها . والمرة التاسعة أوالعاشرة أخفقت ولم ترض عن الطعم الذى وجدته ولكنها مع ذلك كانت مسرورة — النبيذ الماسخ وهذه الدكة الخشبية الناشفة والأرض الخضراء المتوجة والأشجار الباسقة الهرمة والشمس التى تملأ الدنيا بشراً ودفئاً وأخيراً هذا الرجل

ولم تفزع بل أحست بالرضى والاغتباط حين دفع ذراعه ، فأحاط بها خصرها وأمال خدها الصابح على كتفه ، وسرها أن تلمس بخدها ثوبه الخشن الدافئ ، ولكنها استاءت لما رفع محياها إليه ليقبلها ، وحدثت نفسها أن الرجال جميعاً هكذا ، وإن كانت هذه أولى تجاربها ، ورأى هو انقباضها . فقال لها وهو يضحك : « هل تعرفين حكاية الرجل الذى سأل الطبيب هل يمكن أن يعيش — كأبيه — مائة سنة ؟ فسأله الطبيب : هل هو يدخن ، أو يشرب الخمر ، أو يحب النساء أو يحيى الليل بالسهر ، أو يهوى شيئاً من الأشياء التى يكلف الناس بها . فقال الرجل : إنه لا يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا هوى له فى شىء ، فعجب الطبيب وسأله : إذن لماذا تبغى أن تعيش مائة سنة . ماذا تصنع بها ؟ »

وأدهشها أنه طوقها فجأة وأهوى على فمها بالقبل فى غير رفق حتى لأحست أنها توشك أن تختنق ، واستغربت من نفسها أن امتعاضها حين هم بتقبيلها أول مرة زال ، وأنها لا تسخط على الرجال ؛ بل أذهلها أنها شعرت أن شفتيها دبت فيهما الحياة وقالت بضعف : « أرجو ... »

فصاح بها : « ألا تريدين أن تكونى امرأة حقيقية ، لا مجرد فونوغراف يعيد ما حفظ فى المدرسة ؟ ... ألا تشتهين أن تحسى وتشعرى بجسمك يحترق وتضطرم فيه النار ... تندلع من أخمص القدم إلى الرأس ؟ ... هه ؟ »

فقالت : « لا أدرى ... أظن ... ولكن ... »

فصاح بها مرة أخرى : « تظنين ماذا ؟ ... خائفة ؟ ... هه ؟ »

وجذبها إليه مرة أخرى وقبلها بعنف ، فزاغ بصرها ، وخفق قلبها ، وسرت فى بدنها رعدة خفيفة — من السرور لا من الفزع أو الجزع — وخيل إليها أنها كرمال الشاطئ الجافة التى ارتفع المد إليها بالماء فرواها ، ولكنه أسرف فى التقبيل وعنف فى الضم ، فأحست بالبرد والفراغ فى بدنها ووسعها أن تصيح به كما كان يصيح : « بس ... قلت لك بس ... » ، ولم تكن قد قالت له « بس » ولكن هكذا زعمت ... فخلاها ، ولكنه ظل ينظر إليها نظرة الصبى الذى يعمر صدره اليقين بأنه ذاهب إلى الملعب ليرى الدبة الراقصة وقال : « إنك فاترة ... ليس فيك حرارة »

فساءها ذلك وقالت : « فاترة ؟ ... لقد صرنا نتكلم بصراحة ... لا لست فاترة .. وأقول لك إنى استطبت القبلة الأولى ، ولكنك أردت بعد ذلك أن ... باختصار ... زدتها ... فهل يرضيك هذا الاعتراف ؟ ... فاترة ؟ ... »

فقال وهو يتأملها : « نعم فاترة ... ليس الذى فى عروقك دم حار ، وإنما هو حبر أحمر ... كلا ، لا حرارة على الاطلاق فى هؤلاء الفتيات المتعلمات ... لقد أصبحت أؤمن بالمرأة الأمية ... إنها على الأقل لا تتكلف ولا تتفلسف ، ولا تعرف إلا ما تحس ... طبيعية ... »

فأغضبتها هذه الجملة منه عليها بلامسوغ تعرفه ، وأسخطها أنه يستفزها ، واستصغرت منه ما يحاول من تحقيرها ، ونفرت من لهجة الشموخ والتعالى فقالت له بجرأة أدهشتها هى قبل أن تدهشه : « ألا يمكن أن يخطر لك أن فى نفسى حرارة كافية ولكنك أنت لست ذلك البطل المغرى الساحر الفاتن الذى تتوهم ؟. يمكننى أن أقول لك إنى وأنا صغيرة أحببت ابن البقال الذى كان تحت بيتنا ... كان صبياً مثلى ولكنه كان فيه رجولة ... لم يكن عابثاً يرسل يده كالأفعى ليلمس الثدى .. لم يكن يحاول إغراء البنات الساذجات بقلب دروس التاريخ قصصاً غرامية وتصوير الدنيا كلها كأنما ليس فيها إلا رجال يتنزون ونساء تتركهن الشهوة الجامحة كالورقة المبلولة . لقد عميت لحظة عن حقيقتك ولكنى الآن أراك .. كما أنت .. فاترة ؟ مالك أنت ؟. من فضلك اسمح لى أن أعود .. »

ونهضت ووقفت معتدلة القامة كأنها أبوها الجندى وخيل إلى الأستاذ السمير لحظة وهو ينظر إليها مبهوتاً أنه لن يستغرب إذا طر لها شارب .. وعجب لأنوثتها أين ذهبت ، ولذلك اللين الساحر فى عودها ماذا صنع الله به .. منذ دقائق كانت إلى جانبه ، وكان يحسبها كالزبدة الطرية والآن .. تقف كالرمح ... بنت أبيها ... عجيب ...

وقال وهو يمد إليها يده : « إنى آسف ... ومعتذر ... وأصدقك فأقول إنى كنت أتوقع ولا أستغرب أن أسمع منك شتماً أو زجراً أو نحو ذلك ولكن هذا الكلام ... أعترف أنه آخر ما كان يمكن أن يخطر لى أن أسمعه حتى من رجل فكيف بفتاة غريرة مثلك »

فقالت ببساطة : « إنى فتاة غريرة ... هـذا صحيح ... لا تجربة لى ... لم أعرف الرجال ... ولـكنى لست ... لست حمـارة ... وثق أن كل الفتيات مثلى ... تنقصهن التجربة ولـكنهن لا ينقصهن الادراك الصحيح ... يستحيين أن يقلن ما يعرفن ... هذا كل ما هنـالك ... ولـكنى أنا تعودت ألا أستحى ... لماذا أخجل ...؟ » وهزت كتفيها ومشت أمامه

وعاد فى صمت وكانت هى تحدث نفسها وهى جالسة فى القطار تحتقر ما بدا من صفاوه لها ، غير أن صوراً معينة أبت ألا أن تخايلها — منظر كفه الـكبيرة التى يكسو ظهرها الشعر .. ورأسها المـائل على كتفه الخشنة .. وشفتاه على شفتيها .. وحلاوة القبلات الأولى المباغتة ... حلاوة لا عهد بها ولا كان فى ظنها أن مثلها استفاد من الشفاه .. وودت لو تعرف من أين تجىء هذه الحلاوة . . . ولماذا تسرى الرعدة فى البدن . . أترى الشفة باب شىء ؟ باب الى ماذا ؟ هذا المجهول ماذا هو يا ترى ؟

وكان هو يحدث نفسه أنها نسخة طبق الأصل من أبيها ، وأنها جديرة أن تلبس بذلة صفراء . . . كاكى . . . وتبدو فى شكة عسكرية . . . والكلام الذى قالته من علمها إياه . . لم يكن يعرف أن فتاة غريرة مثلها — هى غريرة على التحقيق — يمكن أن يكون هذا إدراكها وتلك لهجتها ... لو كانت فى الستين من عمرها لـكان كلامها غير مستغرب .. أما منها .. عجيب . . أتراها تقرأ كتباً . . ولـكن أى كتب . . . لتقرأ كل ما فى الدنيا من كتب فانما العبرة بغير ذلك ... العبرة بماذا ... لا أدرى كيف أقول ، ولـكنى أظن أن الـكتب وحدها لا تكفى .. الادراك الصحيح يجىء لامن الـكتب وحدها بل منها ومن التجربة ... وأى تجربة لهذه التى لعلى أول من قبلها كما قبلتها . . ولـكن من يدرى . . . كيف أكون واثقاً بعـد الذى سمعته منها ؟ المرأة لغز محير . . أهو ذكاء فطرى .... !

وافترقا فى المحطة بلا مصافحة ، وعاد كل منهما إلى البيت من طرقق ، وحلت النبوة ووقعت الجفوة ، وفتر الحال بين الأسرتين ، وانقطعت الزيارات ، وامتنع التلاقى ، وصارت هى لا تخرج إلى الشرفة حتى تستوثق أن شرفته خالية ، وصار هو يرتد أو يحول وجهه إلى ناحية أخرى إذا برزت فى الشرفة أو أطلت من نافذة . وكان كلاهما مع ذلك مشغولا بصاحبـه . . هو يندم على ما كان ويحدث نفسه أنه فقد كنزاً ، وإن كان كنزا رهيباً . . كنزاً فيه أو هو فى بركان . . . وهى تحلم وعينها مفتوحة بالقبلة الحلوة ، والضمة القوية ، والشعر الـكثيف على ظاهر اليد ، وتتساءل عما وراء ذلك من أسرار المتعة الخفية . . .

وجاء يوم أحست فيه أن أمها تتبعها بعينها وتجعلها أبدا عليها ، وخيل اليها أن أباها يرميها أحياناً بنظرة فاحصة ، وزاد قلقها أنهما لم يقولا لها شيئاً ولم يستغربا هذا الفتور الحاصل بين أسرتهما وأسرة السمير بعـد الاختلاط الوثيق ، وأنهما لم يسألاها مرة عن شىء . وثقل هذا الشعور على نفسها وحيرها الأمر ، ولم تدر ماذا تصنع ، ونازعتها نفسها أن تصارح أباها بالأمر كله ، فقد كانت على خلاف المألوف المعهود تسكن إلى أبيها وتبثه ما فى نفسها واثقة من عطفه وفهمه ، ولا تفعل ذلك مع أمها ، ولـكنها ترددت وطال التردد ، وخطر لها مرة أخرى أن تكلم الأستاذ السمير نفسـه فى الموضوع . ولـكن ماذا تقول له ؟ . أتستجديه . .

أتطلب منه النجدة ؟ . .

وضاق صدرها بما أجن ، وقلبها بما وجد ، وكان صدرها يجن للأستاذ السمير خليطا عجيباً من الهوى والنفور والشوق والامتعاض ؛ وخيل اليها أيضاً أن قلبها يجن له الاحتقار ، ولكنها لم تستطع أن تقنع نفسها بهذا . واتفق يوما — أو ليلة على الأصح — أن دخلت على أبيها ، وكان وحده ، فقالت : « هل أضايقك إذا بقيت ؟ » فأفسح لها إلى جانبه ولم يقل شيئاً ، وقعدت وطال الصمت ، وتوهمت أن أباها ينظر اليها خلسة ، وكبر في ظنها أن على لسانه كلاماً يرد نفسه عنه بجهد ، فلم تعد تطيق وصاحت به فجأة ووضعت يدها على صدره العريض : « أبي . . . » وانطلقت تحدثه وتروى له ما كان ، وهو مطرق يسمع ولا يقاطع ولا يقول شيئاً حتى انتهت ، فرفع اليها وجهه الشاحب وابتسم ، فانفجرت باكية ، فربت لها على ظهرها وقال بإيجاز . « لم يخب ظني بك » فجفت دموعها بسرعة وحدقت في وجهه وسألته :

« هل ... هل ... كنت تعرف شيئاً » فقال : « كلا ... لم أكن أعرف شيئاً ... كنت أشعر أن هناك شيئاً ... وأتوقع أن تقصيه على ... وخطر لى أن أذهب إلى الأستاذ السمير وأسأله ... لا لا لا لا ... لا تنزعجي ... لم أفعل شيئاً من هذا ... ارتد إلىّ عقلى ... لم تكن بى حاجة إلى الكلام معه ولا إلى سؤاله لأنه هو جاءنى أمس وسألنى هل أرضى أن أزوجه منك ... واعترف أن هذا السؤال زاد قلقى ... خفت أن يكون قد حدث أمر خطير ... فقد كان يكلمنى وكأنه يشيع ميتاً ... اعتقدت أن هذا الطلب تكفير عن إساءة خفت أن يكون هذا هكذا ... لم أقل له شيئاً ... بل قلت له : إن هذا سؤال جوابه عند ناهد ...

فقال : إذن لا أمل لى ... فاستغربت واطمأن قلبى .. سامحينى يا ناهد إذا كنت قد قلقت عليك ... لم أسئ بك الظن ... ولكنك صغيرة والرجال شياطين ... وقلت له هل يتصور أن من الممكن أن يتزوج فتاة متعلمة في هذا العصر على رغم أنفها ... أو هل يريد منى أن أكون جلاداً ... نهايته هذا ما كان ... فما قولك ؟ »

فأطرقت ثم رفعت رأسها وقالت : « لا أدرى . »

وهزت رأسها : « يخيل إلى أحياناً أنى أحبه ... وأحياناً أخرى أنى أحتقره ... لا لست أحتقره ولكنى لا أطيق سخريته وتعاليه ... بارد ... »

فابتسم ابتسامة العارف الفاهم المدرك وقال : « هذا التردد معناه أنك راضية ... لا تقاطعى ... انتظرى ... أنت مشغولة به ... وهل الحب إلا هذا الشغلان ؟ ... أنا أعرف ... أبوك يعرف ... يا ناهد صدقينى ...

فتركت الموضوع وأغراها الفضول بسؤاله : « هل أحببت في حياتك يا بابا ؟ »

فقال : « طبعاً أحببت » ثم أسرع فقال : « أمك »

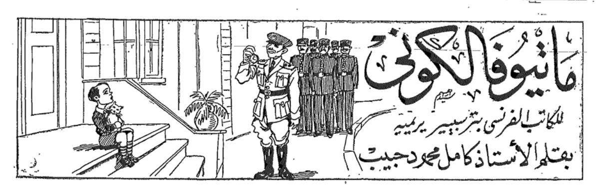
فربتت له على خده الخشن وإن كان حليقاً وقالت بلهجة من يدلل طفلا ، وأحست وهى تفعل ذلك أنها تستطيع أن تكون أماً لهذا الرجل الكبير الضخم الأبيض الشعر ، وشعرت بفيض من الحنو : « وهل أحببت غيرها .. غير أمى ؟ »

فارتبك وارتفعت يده إلى شاربيه وقال : « إيه ؟ ما هذا الكلام ؟ قومى .. قومى .. قومى .. أ .. أ .. أنا جائع »

فانفجرت ضاحكة وقالت : « هذا أصرح اعتراف سمعته أو سمعت به »

وخرجت تنساب لتعد له الطعام

ابراهيم عبد القادر المازنى



ماتيو فالكونى رجل عنـد الخمسين ، متكتل العضل ، مفتول الذراعين ، عريض ما بين المنكبين ، خفيف الحركة كالسنور ؛ له عينان كبيرتان تنبعث منهما أشعة قوية نفاذة ، وشفتان رقيقتان ، وشعر أسود جعد . ذهب صيته فى أرجاء وطنه — جزيرة قورسيقا — بما له من قدرة عجيبة على إصابة الهدف فهو أنى رمى أصاب ، سواء بالليل أم بالنهار . وهو لطيف المعشر ، رضى الخلق ؛ فاذا جُرح أو امتهن فهو عدو لدود فيه العتو والجبروت ، ينزل عن إنسانيته حتى يبلغ من خصمه مأرباً ...

رحل ماتيو فالكونى عن مسقط رأسه الذى نشئ فيه وترعرع إلى ثغر بورتوفيكيو فى جنوب الجزيرة ليعيش هناك عيشة الهدوء والطمأنينة فى منزل ريفى وضيع تحيط به غابة متشابكة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فى منأى عن صخب الحياة ولجبها وقضى دهراً من عمره يتعهد بنفسه قطعة من الأرض وبعض قطعان الغنم ، فينال من كل ذلك مالاً يرفعه إلى صف أعيان الريف وأغنيائه ؛ ثم هو سخى سمح طلق اليدين والوجه ، سريع إلى الخير ، بطىء عن الشر

تزوج ماتيو من جيوزبيا صغيراً فرزق منها ثلاث بنات تزوجن جميعاً ؛ واستطاع هو أن يجد المعونة فى أزواج بناته ، غير أن قلبه ما يزال حزيناً يأسف على أن لم يحبه الله بذكر يحمل عنه بعض ما يثقله من أعباء الحياة ومتاعبها ... ثم ... ثم جاءه البشير ... لقد ابتسمت له الأيام عن طفل هو أمل الأسرة الحلو ، وواحدها ، ووارث اسمها ومالها .. هو فورتناتو ؛ ودرج الطفل قرة عين أبيه وأمه معاً يسهران عليه ، ويحبوانه بعطف منهما ورعاية ، ثم راحا ينشئانه ليكون صنو أبيه فشب وفى عينيه دلائل الشجاعة والفراهة ، وفى جسمه سمات القوة والفتوة ...

***

وفى ضحوة يوم من أيام الخريف — والطفل فى العاشرة — انطلق الأب وزوجته يستطلعان خبر غنمهما ، وأراد الابن أن يصحبهما فأبى الأب إلا أن يظل عند الدار يحرسها

وتصرمت ساعات والطفل وحده ينطرح حيناً فى دعة أمام الباب ، تحت أشعة الشمس الهادئة ؛ وحيناً يستمتع بالنظر إلى أشجار الغابة الباسقة ، وإلى الجبال الشاهقة على مرمى البصر ؛ ويتلذذ حيناً بالأخيلة الجميلة تضطرب فى رأسه حين يخيل إليـه أنه سيزور المدينـة يوم الأحد فيرى عمه القائد ، ويجول فى أرجائها فيشهد أشياء حرم منهـا حيناً من الدهر ؛ وسيطرت عليه الفـكرة فابتسم ، غير أن صوتاً سـلبه من لذة الخيال وأفزعه عن مكانه فهب يرى ... وأحس كأن قلبه ينخلع من الذعر والخوف ، لأن ما سمع هو صوت طلقات نارية سريعة

ومتوالية تقترب منه رويداً رويداً . وأجال بصره فيما حواليه فما بدا له غير شبح يدلف إليه من الغابة يتكفأ فى طريقه ، ويتحامل فى مشيته ، من أثر الأين والتعب ، والدم يتقاطر أرسالا من فخذه

لاجرم ، فهذا مجرم انسل ، والليل ساج ، إلى المدينة ؛ فانحط عليه الجند ، فأسلس وانقاد بعد لأى ثم وجد مهرباً فأفلت يريد الحرية ويحطم قيود السجن وهى تنتظره على خطوات ؛ وهم على أثره لا يصيبهم الجهد ، ولا ينال منهم النصب ، يمطرونه بوابل من بنادقهم ، وهو يدفعهم عن نفسه بالرصاص والهرب فى وقت معاً

لقد كان ضخم الجثة ، حيوانى المظهر ، زرى الهيئة ، رث الملابس ، كث اللحية مرسلها ، أشعث أغبر يبعث فى النفس الفزع والرعب ، غير أن الاعياء تركه محطماً ضعيفاً

ثم انتهى إلى الصبى ، ووقف بازائه يطلب إليه أن يجد له منفذاً « إننى جيانيتو سانبييروا ؛ إن الشرطة على أثرى ، وأنا لا أستطيع الهرب ، أفلا أجد فى دارك ملجأ ؟ » وأشاح الطفل عنه — بادئ ذى بدء — وأبى عليه بعض ما طلب ؛ فراح الرجل يهدد ويتوعد ، غير أن الطفل كان يرى ما يقاسى من ألم وما أصابه من كلال فقفز بعيداً وهو يقول : « لا بندقتك تستطيع أن تصل إلى لأنك تفتقر إلى الذخيرة ، ولا حربتك تنال منى مأرباً لأننى فى حصن منها حصين ! » وأحس الرجل بعاقبة أمره فاندفع يستعطف الصبى فى ذلة ، ويترضاه فى لين ، ويلوح له بقطعة فضية من النقود يداعبها بأصابعه ؛ فاستيقظت الشفقة والرحمة فى قلب الصبى ، ورأى فى قطعة النقود أجر ما يقدم من خير فتعلق بها بصره ... ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة

وهو يدس القطعة فى جيبه ، ويهيل التبن على المجرم الجريح ؛ ثم انطلق يعفى آثار الدم فى دقة ومهارة ؛ ثم استلقى أمام الباب كأن شيئاً لم يكن ..

* * *

وجاء الشرطة — بعد حين — وعلى رأسهم ضابط ... إنه هو تيودورو جامبا ابن عم فورتناتو ، وهو فتى يفور قوة ونشاطاً ، يتقصص المجرمين والجناة لا تأخذه بهم رأفة ولا شفقة ، ويتقفى آثارهم فى غير هوادة ولا لين ...

وابتسم الضابط وهو يسير إلى ابن عمه فورتناتو يسأله خبر المجرم الفار : « أوما رأيت رجلاً يمر بك الساعة ؟ » قال الصبى : « آه نعم ، رجل يمر بى الساعة ! » قال الضابط : « نعم رجل ذو لحية طويلة ينزف الدم من فخذه » قال فورتناتو وهو يعبث بابن عمه : « نعم ، تذكرت ، إنه القس ، لقد كان يمتطى صهوة جواده الجميل بيرو . . . » وثار غضب الضابط أن رأى الصبى يهزأ به ، فقال : « لقد رأيته ، فأين هو ؟ قل أيها الخبيث وإلا . . . » وراح الصبى يسخر من الضابط : « أفتراني أستطيع أن أراه وأنا نائم فى هدوء ؟ » ، فقال الضابط المغيظ فى شدة : « قل أيها اللعين ، إنه مر بك الساعة ! » ، وأجاب الصبى وهو يبسم فى تهكم : « أنا فورتناتو ، وهذه دار أبى ماتيو فالكونى ، أفتريد أن تستجم ؟ »

ونفد صبر الضابط ، فاندفع فى حنق يأمر الشرطة : « إلى الدار أيها الرفاق ، فلا بد أن يكون هذا الشيطان قد خبأ المجرم ! » . وانطلق الشرطة يصدعون بما أمروا ، وأمسك الضابط بأذن الصبى عنفه وهو يتململ ويصيح : « إن أبى ماتيو فالكونى لا يرضيه أن يدخل جماعة من الأغراب داره وهو

غائب ! » ، وراح الضابط يهدد الصبي : « أولى لك فأولى ! أفلا تعلم أنني قادر على أن أحملك إلى كورت أو إلى باستيا فألقي بك في غيابة السجن ترسف في أغلال من حديد ، ثم أضع رقبتك بين حدي المقصلة جزاء ما فعلت ؟ » ، وأغرق الصبي في الضحك لما سمع . . .

وارتد الشرطة بعد أن وجدوا الخيبة والفشل وجاء واحد منهم إلى الضابط يقول : « لم نجد أحدا فلنلتمس طريقاً غير هذا ! »

وبدت الدهشة على وجه الضابط جامبا حين خيل إليه أنه مني بالاخفاق ، واضطرب حين لم يجد الطريق إلى فريسته . إن الدار أمامه ، وهو يستطيع أن يرى كل ما فيها في نظرة خاطفة ؛ فما هي غير حجرة واحدة عارية عن الأثاث ، لقد سيطر عليه الارتباك ، والصبي إلى جانبه يداعب قطته ويبسم لما هم فيه من حيرة

ياضيعة المجهود ، ويا خيبة الأمل ! لقد هموا يريدون الرجوع بعد مابذلوا من جهد ، وما لاقوا من عناء ، غير أن عيني الضابط لمعتا حين بدت له بارقة من أمل . لقد تهدد الصبي فما أجدى التهديد ، وتوعده فما أغنى الوعيد ؛ فليطرق باباً غير هذا عله . . . فالتفت إلى الصبي : « فورتناتو ، لقد ظننت بك سوءا ، ولكنني وجدتك شجاعا ذكيا ، ليتك تصحبني ! » قال فورتناتو وهو ما يزال يعبث بابن عمه : « جامبا ، أسرع إلى عملك وإلا اختفى جيانيتو فلا تعثر عليه أبدا ؟ » وأخرج الضابط ساعته الفضية وهو يقول : « أفلا تريد أن يكون لك مثل هذه الساعة ، فتمشي الخيلاء بين رفاقك في شوارع المدينة ، وقد علقت في صدرك كأنها وسام ، والناس من حولك ينظرون ويعجبون ، ثم يتدافعون نحوك يسألونك : « كم الساعة ؟ » وأنت تبسم . . . وبدا للضابط أن عيني الطفل قد انبعث منهما شعاع من أمل ، وشعاع من طمع ، وهو يحدج الساعة بنظراته ، ويقول : « لا ، لا أريد ، إنه حين تكبر سني سيعطيني عمي القائد ساعة أجمل من هذه » قال الضابط : « حقاً ، غير أن لابنه ساعة كهذه ، وهو أصغر منك سناً » ، وخيل إلى الصبي أن الضابط يسخر منه ليستدرجه فقال : « أتهزأ بي ؟ » قال الضابط وهو يقدم الساعة إليه ، وقد عاد إليه الأمل مرة أخرى : « ها هي ذه فخذها ، ثم أخبرني أين هو المجرم جيانيتو ؟ » ، وتقدم الصبي في هدوء نحو الساعة رويداً رويداً وهو يراها وهاجة براقة ؛ تحت أشعة الشمس ، تخطف البصر ، ثم أمسك بها يقلبها بين يديه ، وقد استبشر وانبسطت أساريره ، ونفسه تحدثه : « ألق بقطعة النقود إلى صاحبها ، وخذ هذه فهي أغلى وأثمن ! » ، واصطرعت في نفس الصبي عوامل الوفاء والجشع ؛ أفيخون عهده وينقض مواثيقه ؟ ولكن الساعة .. الساعة ! أفيفقدها بعد إذ احتوتها يداه ؟

وغلبه الحرص والطمع وحب المال جميعاً ، وهو قبالة ابن عمه الضابط ، ومن خلفه كومة التبن ؛ فرفع يده في هدوء يشير إلى الوراء ... إلى كومة التبن ...

***

وتدافع الشرطة يبعثرون كومة التبن هنا وهناك ، فانفرجت عن جريح لا يستطيع أن يحمل نفسه ، وفي لمحة البصر نزع الشرطة عن جيانيتو بندقته وحربته ، وشدوا وثاقه ؛ غير أنه استطاع أن يدير بصره نحو الصبي ، ومن حجاجيه شرر

يتطاير ، ثم بصق وهو يقول : « أيها السـ ... ! »
وألقى الصبيّ بقطعة نقوده ، وچيانيتو فى شغل عنها
يقول للضابط : « عزيزى جامبا : إننى لا أستطيع
السير ، فسترغمون على حملى ! » ، وشمخ الضابط
بأنفه فى كبرياء ، وصعّر خدّه فى صلف ثم قال :
« إن نشوة الانتصار ، ولذة الفوز يبعثان فىّ قوة
أستطيع بها أن أحملك وحدى على كتفى حتى
نبلغ المدينة »

وتفرق الشرطة ، فبعض يأسو جراح چيانيتو
وبعض يهيئ له سريراً من قش ، والضابط بإزائهم
ينظر ... وعلى خطوات الصبى فورتناتو يداعب
ساعته فرحاً متهللا ... وبينا كل فى عمله لا ينى
ولا يتباطأ هبط ماتيو فالكونى وزوجته ...

***

ووقف ماتيو فالكونى حائراً لا يدرى مما
حواليه شيئاً ، ولكن جامبا اندفع يقص القصة
ويثنى على فورتناتو ، ويشكر ما أسداه إليه من
خير ، واستطرد فى حديثه : « إن هذا المجرم الأثيم
قد دفعنا عنه فى قوة وشدة ، ثم اندس فى التبن ،
فما استطاع واحد أن يستشعر وجوده ، ولولا
فورتناتو ... » ، وصاح الأب والأم معاً :
« فورتناتو ! » ، قال الضابط فى هدوء : « نعم ،
لولا فورتناتو ما استطعنا أن نعثر عليه ، ولذهب
فى الهباء ما عانيناه من شدة وما بذلنا من جهد .
سأخبر عمه القائد ليرسل إليه جائزة سنية ،
وسأسجل اسمك واسمه فى التقرير الذى أرفعه إلى
النائب العمومى » ، واستشعر الأب شدة الصدمة
فصدع قلبه حين بدا له أن ابنه باع شرفه بالثمن
البخس ، فصاح من الأعماق صيحة خافتة كأنها
صدى خفقات قلبه المكلوم : « يا للخيبة ،
يا للخيبة ! » ، ثم التفت فوجد چيانيتو ملقى على
سرير من قش ، شُدّ إليه فى غير رفق ولا لين ،
وثبت بصره على الرجل فما استطاع أن يحوله وفى
رأسه الأسى والأسف ، وفى وجهه العبوس
والحزن ، وفى عينيه اللوعة والحسرة ؛ فرأى الرجل
يدير بصره نحو الدار فيبصق ويقول : « هنا ، هنا
دار الخائنين السفلة ! »

أى امرئ تحدثه نفسه أن يهين هذا الرجل
القورسيقى وهو يضن بكرامته أن تثلم ، ويصون
شرفه أن يمتهن ؟ ويل له ... ويل لمن تنفرج
شفتاه عن كلمة يستشعر منها ماتيو بالاهانة والسخرية
إن طلقة واحدة من بندقيته ، أو رمية واحدة من
حربته هى العقاب الوحيد لمن يفعل ! ثم هو
لا يطمئن خاطره أو يهدأ باله إلا أن يغسل الاهانة
بدم المتبجح الجرىء ! ولكن ... ولكن ما ذا
يفعل وابنه هو الذى ثلم عرضه ولوّث شرفه ؟ لقد
أحس بوخزات الألم تحز فى قلبه ، ورأى الفضيحة
والعار فيما فعل ابنه ، فوضع يده على جبينه المتسعر
والهموم تتنازعه ...

وأراد الابن أن يترضى الرجل المسكين حين
رأى ما ارتسم على وجه أبيه فولى وجهه شطر
الدار ومشى يتثاقل ثم عاد وبين يديه وعاء ملئ لبناً
وقدمه فى ذلة وخضوع الى چيانيتو ، غير أن الرجل
صرخ فى وجهه : « تنح ، تنح أيها الـ ... » ثم
التفت الى شرطى الى جانبه يطلب اليه ماء ...
لقد شرب من يد الشرطى وهو كان — منذ فترة —
يصب عليه وابلا من رصاص ؛ أما ابن ماتيو ...
ماتيو فالكونى ...

***

وانطلق الضابط والشرطة يحملون المجرم الى

المدينة ، وماتيو وچيوزيبا فى مكانهما مطرقين وقد اربد وجههما . والصبى بينهما يردد بصره فى وجه أمه حيناً وفى وجه أبيه حيناً آخر وقد ذهل عن نفسه . ثم نظر الأب الى ابنـه فى قسوة وقال فى صوت أجش كأنه قصف الرعد : « حسن مافعلت ! »
وصرخ الصبى فزعاً : « أبى ، أبى ! » ثم انطلق يجثو عند قدمى أبيه والعبرات تتناثر من محجريه تسأله العطف والرحمة ؛ فصاح الأب : « تنح ، تنح أيها النذل ! » فجمد فى مكانه

ورأت الأم طرف السلسلة يتدلى من جيب صديرية الصبى فقالت : « أنىّ لك هذه ؟ » قال : « أعطانيها ابن عمى جامبا » فنزعها الأب فى شدة وألقى بها فى عنف على صخرة فتحطمت قطعاً قطعاً وهو يقول : « هذا هو أول خائن فى أسرتنا ! »

وانهمرت عبرات الطفل مرة أخرى ، وماتيو يحدجه بنظرات قاسية ملتهبة ، ثم صار فى صمت نحو الغابة وبندقيته على كتفه ، ثم . . . ثم نادى الصبى فتبعـه وهو يبكى ؛ وانطلقت چيوزيبا على أثرهما وقلبها يضطرب ، والأرض تكاد تميد بها من فرط الشجن ؛ وأمسكت بذراع زوجها تستعطفه « ماتيو ، ماتيو ، إنه ابنك » فقال الرجل فى غيظ « ارجعى ، ارجعى ، إنه ابنى وأنا أبوه ! » فراحت المرأة تضم ابنها اليها فى قوة كأنها تريد أن تنتزعه من بين يدى أبيه ، وهى تذرف الدمع السخين . وعادت الى الدار تجثو عند رسم العذراء ، و تصلى فى خشوع وضراعة

وفى قلب الغابة ، عند صخرة كبيرة ، وقف الرجل ثم نادى ابنه : « تعال ، تعال هنا يا ولد ، اركع واقرأ صلواتك ! » غير أن الصبى اندفع نحو أبيه : « أبى ، أبى لا تقتلنى ! » فزأر الرجل زئيراً دوى له المكان وتزلزلت منه قوة الصبى « اقرأ صلواتك ! » فامتثل الصبى مرغماً . ثم رفع رأسه بعد حين ، وفى عينيه العبرات ، فقال الرجل : « هل أتممتها ؟ » فهفا الصبى نحو أبيه « آه ، أبى ! أبى لا تقتلنى ! الرحمة يا أبى والصفح ! لن أعود لمثلها . سأطلب الى عمى القائد أن يعامل سجينه بالحسنى . أبى لا تقتلنى ! ! إننى ابنك ؛ لقد أخطأت فأرجو الغفران والشفقة ! » ثم اندفع فى حديثه بإين ما قسا من قلب أبيه ، ولـكن الأب كان قد صوب إليه بندقيته وهو يقول : « فليسامحك الله »

وأراد الصبى أن ينكب على قدمى أبيه يقبلهما ، غير أن المنية لم تمهله .. لقد دوت الرصاصة فاستقرت فى قلب الطفل فخر يتلوى ويتخبط فى دمه المتفجر وهو يئن : « آه ، آه ، آه يا أبى ! »

وقفل ماتيو راجعاً دون أن يلقى نظرة واحدة على جثة الصبى الهامدة

***

وسمعت الأم — وهى راكعة تصلى عند تمثال العذراء — دوى الطلق النارى فانشقت كبدها أسى ولوعة ، وتمزق فؤادها جزعاً على ابنها وأملها ، حين بدا لها أنها فقدته إلى الأبد ؛ ثم انطلقت فى جنون الثكلى تمزكها المصيبة عركا . وعلى خطوات من الدار رأت الأب يعود مطرقا ذاهلاً ، تتوزعـه الهموم وتتناهبه الأحزان بعد أن نفذ القضاء ، فاندفعت إليه وهى تصيح : « ابنى ! ماذا ، ماذا فعلت ؟ » فأجاب الرجل فى صوت خافت ضعيف فيه أنـات المفئود : « العدل ، العدل يا عزيزتى چيوزيبا ! » قالت : « وأين هو ؟ » قال : « هناك هناك فى المنحدر ، سأدفنه . لقد مات سأستغفر له ربى ! »

كامل محمود حبيب



كان السائر بمحاذاة التل الشرقي لا يكاد يسمع رفيقه الذي يسير والتل الغربي ، فقد كانت الأصوات تغيب وتختفي في مداخن البلدة التي تفصلهما . أما في الليل فقد كان سكان تلك البلدة يسمعون أولئك الفلاحين الذين يملأون الجو غناء وصفيراً . وقد اتخذ الناس هذين التلين طريقاً للوصول إلى البلدة . ففي ذات مساء قبل أن يربدّ لون الشفق ركب رجل نعليه وأخذ يتدحرج من ذلك التل الشرقي إلى البلدة وقد حمل في يده حقيبة صغيرة ومظلة ، ولكنه لم يكد يمضي في طريقه حتى سمع صوتاً يقول : « مرحى « دون » ! أهو أنت ؟ » ثم وقف الشاب الأنيق المترف بعربته وقال : « هيا اصعد حتى تصل إلى دارك »

فالتفت الرجل إلى مصدر الصوت فحيا صاحبه مبتسما وقال : « أشكرك يا سيد بارنت » ، ثم ركب معه

كان بارنت أكثر غنى وأنعم عيشاً من صاحبه « دون » المحامي الناشئ ، إذ كان أبوه من كبار تجار الصوف فاستطاع أن يجمع ثروة طائلة أصاب الابن بعضها بجانب ثقافة عالية وخلق سمح كريم . ثم أخذ الصديقان يتحادثان فقال « دون » :

— كيف حال مسز بارنت ؟

— بخير

— لقد فاتني أن أهنئك على نجاحك في انتخاب المجالس البلدية الأخير حتى أن زوجي كانت عازمة على تهنئة مسز بارنت

— يسرنا أن نراكما أنا وزوجي في أي وقت تشاءان

— ولكن خبرني يا سيد بارنت لم تفكر في بناء بيت جديد وبيتك الذي أنت فيه الآن فسيح جميل ، فصمت بارنت قليلاً ثم قال : حسن ؛ إنا نريد أن نعيش خارج البلدة ، ثم إن بيتي الآن قد قدم

ثم أخذت العربة تنهب بهما الأرض حتى وصلا أخيراً إلى البلدة فوجدا الشوارع لا تزال تفيض بالناس والمصابيح تلقي بأنوارها على واجهات الحوانيت ، فلما أتيا المنزل أسرعت الزوجة والأطفال إلى الباب يستقبلون رب البيت بعد غياب النهار كله

فلما رأى بارنت هذا صاح مبتهجاً : « إنك لا شك سعيد يا « دون » بهذه الزوجة وهؤلاء الأطفال ، كم أود أن يكون لي بيت كهذا » .

فأجابه دون مبتسما : « حسن . نعم إنا نعيش هنا عيشة هادئة مطمئنة » . فقال بارنت وهو يحاول إخفاء الشعور بالمرارة والألم : « إن بيتي

الذى أقيم فيه صالح لى كما تقول ، فقد بناه جدى منذ عهد بعيد ونشأ فيه والدى وقد ولدت فيه أنا وقضيت فيه سنى شبابى ولكنى أشعر الآن بالحاجة إلى منزل جديد »

— لماذا ؟

— سعياً وراء الهدوء ، إنى أطلب السعادة فلا أجدها .

ثم هم «دون» بالدخول فتعثر فى المظلة والمحفظة فزلت قدمه وهوى على ركبتيه ، فأسرعت اليه زوجه ، وقد تجاهلت وجود بارنت وأعانته على الوقوف ثم قبلته قائلة : أرجو ألا يكون قد أصابك شىء يا عزيزى » . أما الأطفال فقد أحاطوا بوالدهم وهم يصيحون : « بابا ! بابا ! » فقال بارنت وهو يدير عينيه بين الزوجة والزوج : لا بأس ، ثم حياها وانصرف ، وقلبه يتلفت إلى تلك المرأة !

عاد بارنت الى منزله فلم يجد زوجه إذ علم من الخادم أنها ذهبت الى « الخياطة » . فصاح الرجل متعجباً : « أى خياطة فى مثل هذا الوقت ؟! »

— لقد تناولت غداءها وخرجت وهى تعتذر لك عن صحبتها هذا المساء

— ولكنها كانت تعلم بمجيئى الليلة

— نعم ياسيدى

— اذهبى اليها وأخبريها بأمرى

ثم جلس بارنت إلى المائدة يتناول عشاءه فى تراخ وكسل ، وسرعان ما تذكر صديقه « دون » وحياته السعيدة ثم أخذ يقارن بين الحياتين ، ثم نهض أخيراً وقد امتلأت نفسه حنقاً ودلف الى الخارج ، وكانت الشوارع لا تزال تفيض بالأنوار تحييه كلما أبصر اسم أسرته على إحدى واجهات الحوانيت ، فذكرته هذه المناظر بما كان عليه والده من مجد وشهرة . ثم مضى فى طريقه حتى وصل الى منزل صاحبته « لوسى » . فلما رأته اندفع الدم الى وجهها وألقت عليه نظرة كلها دهشة واستخفاف ؛ فلما رأى بارنت منها هذا قال : « إنى أعرف أنه ليس لى عمل هنا ، ولكنى شعرت برغبة قوية الى رؤيتك والاطمئنان عليك . هل لك أن تمنحينى يدك لترى كم من مرة أمسكتها »

— إنى أفضل أن أنسى الماضى لا أن أذكره فانى لا أجد فيه ما يستحق الذكر أو يسمح لك بالمجىء الى هنا

— ولكن ليس فيه ما يؤلم . انى لا أضايقك كثيراً يا « لوسى »

— إنى لم أتشرف حقاً بزيارتك من مدة ، ولكنى لم أكن أنتظرها الآن . أرجو أن تكون مسز بارنت بخير

— نعم . نعم . أو على الأقل أظن هذا

— كيف هذا وهى زوجك ؟

وفى هذه اللحظة أيقظت كلمات ذلك الزائر الفضولى « كناريا » كان ينام فى قفصه ، فهب الطائر مذعوراً وأخذ يضرب القفص بجناحيه ، فذهبت إليه لوسى ودنت منه وتمتمت ببعض الكلمات . فسكن الطائر إليها وعاد إلى هدوئه الأول . والحقيقة أنها عملت هذا لتريح نفسها من عناء الحديث مع ذلك الضيف

ثم استطرد الرجل قائلاً :

« إنى لم آت لأتحدث عن مسز بارنت بل أتيت لأتحدث عنك أنت وحدك ولأقف على حالك منذ ذلك المصاب العظيم » . قال هذا وهو يلتفت

إلى صورة أبيها التى كانت معلقة على الحائط

— لا بأس ، أشكرك

— ماذا كنت تعملين عندما جئت إلى هنا؟ أتطرزين الأزهار ؟ — وعلى ضوء الشمعة ؟

— كنت أعمل الحواشي فقط . أعمل هذا ليلاً توفيراً للوقت . فانى ملزمة بانجاز ثلاثين غطاء فى نهاية هذا الشهر

فنظر إليها بارنت وقال بصوت المشفق عليها : « حرام أن تجهدى عينيك هـذا الاجهاد — لا . إنى أفضل العمى على أن أرى هذا بعينى »

فصاحت لوسى فى وجهه : « وهل هذا هو الوقت والمكان اللذين تذكر فيهما هذه الأشياء — لقد اعتدت أن تحترمنى وتحترم نفسك .. أرجو ألا تنطق بمثل هذا الكلام وألا تأتى إلىّ ثانية . فانى لا أظن أن زيارتى ذات بال عندك »

— ذات بال ؟ لقد أتيت لأرى صديقاً قديماً عزيزاً — لا لأن أذكر هذه الأشياء . ولقد أتيت لزيارة المرأة التى أحب ؛ فلا تغضبى ، فانى لا أستطيع أن أمنع هـذا . إن كثيراً من الأشياء قد دفع بى إلى هنا — فقد حدث فى هذا المساء أن قابلت صديقاً ، فلما رأيت ما ينعم فيه ذلك الصديق من حياة منزلية هانئة ، مع أن إرادته لا يصل إلى عشر إرادى استولى علىّ شعور غريب دفعنى إلى هنا . آه إنه مصيرى الذى ساقنى إلى هذا . إنى لا أعرف كيف أفلت منى . فقد كنت المرأة التى كان يجب أن تكون زوجتى ، ولكنى تركتك تفلتين . يالى من أحمق !

فأجابته لوسى ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع : « لا تثر هذا الموضوع من جديد . إنى مخطئة أن أشاركك هذا الحديث . يجب ألا تأتى إلى هنا . إنى أخشى الفضيحة

— حقاً . ليس لى حق فى هذا ، سوف لا أعود ثانية

— إنه لمن حمق الطبيعة البشرية أن يظن الانسان أن الطريق الذى لم يسلكه هو الأصوب . فتندم الآن قبل أن تعرف إذا كنت أرضى بك زوجاً

وفى هذه اللحظة التقت عيناها بعينيه فلم تقوَ على النظر إليه وخانها صوتها ، ثم صمتا برهة ، وأخيراً استأنفت لوسى كلامها فقالت : « إنى دونك جاهاً ومالاً . لذلك لم يكن أمر زواجنا ميسوراً ، والآن أرجو أن تتركنى »

— أجل ولكنى لن أقابل فتاة أعزّ منك . ثم مضى

وفى اليوم الثانى جاء « دون » لزيارة صديقه بارنت فلم يكد يدخل البيت حتى رأى مسز بارنت خارجة من المنزل ، فالتفت إلى صديقه وقال : « أود أن يصلح أمركما قريباً »

— إذن لقد سمعت بنبأ الانفصال الأخير ؟

فحاول « دون » أن يخفى سروره فى قلبه بأن قال وهو يتظاهر بالأسف : « لا . لم أسمع عن شىء مهم . لكن لدى بعض أخبار غامضة عن ذلك »

— قد تظن أن الأمر تافه ، ولكنى أرى فيه غير ذلك ، والآن كيف حال زوجك وأطفالك ؟

— بخير أشكرك ، فقد خرجوا اليوم كلهم للنزهة . إنك عصبى المزاج يا سيد بارنت ، وإنى لأذكر أيام التلمذة ، وكيف كنت تثور إذا مامس أحد شعورك بكلمة

— أجل إنك مصيب يا صاحبي ، وهذا راجع إلى أني أطلب دائماً الهدوء في المنزل فلا أجده ، فلو أني ظفرت به لهان عليّ كل شيء آخر

— لقد فكرت أكثر من مرة في إصلاح ما بينك وبين زوجك ، ولكني لا أدري إذا كانت هذه الفكرة تروقك ، على كل حال سأعرضها عليك ولك أن تأخذ بها أو تتركها ، والحق أن زوجي هي صاحبة الفكرة ، فقد رأت أن تذهب إلى مسز بارنت وتتفاهم معها . إني واثق من أنهما ستصلان إلى نتيجة مرضية . فان زوجي لها قدرة عجيبة على كسب بنات جنسها

— وبني جنسها أيضاً ، إنها امرأة ذكية الفؤاد عظيمة التأثير ، وإنك لحسن الحظ بها

— قد يكون هذا ، إن زوجي مستعدة للقيام بهذه الوساطة إذا وثقت أنها جديرة بمركز مسز بارنت الاجتماعي

— إني أشكرك كثيراً ، ولكني أخشى ألا تصلا إلى نتيجة ، ثم حياه وانصرف

وفي ذات يوم كانت السيدتان راكبتين قارباً صغيراً يقطع بهما عرض النهر جيئة وذهوباً . بينما كان السيد بارنت في طريقه الى منزل « لوسي »

كانت « لوسي » في حديقة المنزل تقطف بعض الأزهار عندما دنا منها بارنت ، فلم تكد تراه حتى قالت له في ابتسامة عذبة رقيقة وهي تمد يدها الى إحدى الزنابق الحمراء : « لقد ذكرتك كثيراً يا سيد بارنت منذ أن تركتك زوجك ، وها أنت هنا . . .

— نعم « لوسي »

— الى أين أنت ذاهب الآن ؟

— الى الميناء

— طبعاً . لقد بدأت طلائع الصيف وأخذ الناس يهرعون الى الشواطئ

— لوسي . أراك اليوم ضامرة العود ، شاحبة الوجه — خبريني هل يمكنني أن أساعدك . إن الجو اليوم صفو والهواء رخاء عليل

ثم مضى ، ولكنه لم يكد يذهب بعيداً حتى هبت عاصفة شديدة غيرت وجه الطبيعة ، فبدت مخيفة غاضبة ، وعندما وصل إلى الميناء تقدم إليه أحد البحارة وهو يقول : «خطب عظيم يا سيدي»

— ما هذا يا رجل ؟

— لقد ركبت اليوم سيدتان هما مسز بارنت ومسز دون أحد القوارب طلباً للنزهة ، ولكنهما لم يبتعدا عن الشاطئ كثيراً حتى هبت عاصفة شديدة أطاحت بالقارب بعيداً فانكفأ على من فيه

— أين ؟

— أسرع إلى تلك الصخرة واطلب من ذلك الصبي الواقف هناك أن يدلك على مكان الحادثة

— وهل أنقذت السيدتان ؟

— لقد أنقذوا واحدة

— مَنْ ؟

— مسز بارنت ، أما مسز دون فيخشى أن تكون قد غابت في جوف النهر ، فأسرع بارنت إلى مكان الحادث فرأى جمعاً من الناس قد تجمهروا هناك ، فنفذ وسط ذلك الجمع ، وهناك رأى امرأة ملقاة على الرمال يعلو بدنها ثوب بنفسجي وفي يديها قفاز أصفر فعرف أنها زوجه

عاد الرجل بزوجه إلى المنزل ودعا إليها بعض

الأطباء ، والغريب فى أمر هذا الرجل أنه شعر أن حبه لزوجه هو الصلة الوحيدة التى تربطه بالحياة ، ثم أسرع إلى صديقه دون فى مكتبه ، وما كاد يفضى إليه بذلك النبأ الفاجع حتى هب الرجل مذعوراً وبقى واقفاً لا يدرى ما ذا يعمل ، وفجأة أجهش بالبكاء فجذبه بارنت من يده وذهبا معاً إلى الميناء ، حيث بقيا زمناً ينتظران إخراج الجثة ، ولكن النهر كان لا يزال هائجاً فلم يعثر الغواصون عليها ، فعاد بارنت إلى منزله تاركا دون مع بقية الأصدقاء يرقبون الفريقة ، فلم يكد يخطو عتبة الدار حتى وجد الطبيب خارجا ، فقال له : « خير »

فأجابه الطبيب : « قد عملنا جهدنا ، ولكنا لم نصل إلى نتيجة ، إنى أشاطرك هذا المصاب »

فلم يقدر الرجل شعور ذلك الطبيب كثيراً ، إذ ظنه يتهكم به ، ولا سيما وأنه كان واقفاً على النزاع الأخير ، ثم أردف الطبيب قائلا : « أرجو يا سيد بارنت أن تنتهى من ذلك الأمر قريباً »

فأجابه بارنت قائلا : « دعك من هذا الآن ، وامض إلى الميناء فقد يكون الليد دون فى حاجة اليك » ، ثم دخل المنزل فرأى الخدم خارجين من غرفة زوجه ، وقد بدا عليهم الحزن واليأس ، فأسرع إلى الغرفة ووقف صامتاً برهة وهو ينظر إلى السرير ، ثم مضى إلى غرفته الخاصة وظل يقطعها فى خطى متئدة ثقيلة ، وقد شعر أن كل شىء قد مات فى هذا البيت ، فلم يعد يسمع همساً أو نفساً . فذهب إلى النافذة وأخذ يسرح نظره فى البلدة الصاخبة ، فرأى الدخان يتصاعد من إحدى المداخن البعيدة ، فأدرك أن لوسى تتهيأ لعمل الشاى كعادتها . ثم عاد إلى غرفة النوم

فأخذ ينظر إلى زوجه المسجاة فى صمت وذهول ؛ لقد كانت تكبره بسنوات ، ولكنها لم تخط بعد سن الشباب ، فأخذ يتفرس فيها ، فرأى قسمات وجهها أكثر فتنة وسحراً ، ورأى فمها الدقيق وشفتيها الرقيقتين قد التصقتا ، وجبينها المشرق الوضاء يموج فوقه شعر أسود جميل ، فصاح متعجباً : « إن هذا الجمال لن يموت ! ! »

ثم عاد ثانية إلى النافذة فرأى الدخان لا يزال يتصاعد من المدخنة فى بيت صديقته ، ورأى « الكنارى » لا يزال فى القفص ، فهجمت عليه الذكريات القديمة ، وأخذ يفكر فى زوجه ولوسى ونفسه

قضت الزوجة أسبوعا طريحة الفراش ، ثم فاضت روحها بين يدى زوجها ، فأسرع الزوج إلى إعداد الجثة ومواراتها التراب ، ولكنه لم يكد يهم بالخروج حتى دخل عليه خادمه بخطاب من صديقه « دون » يقول فيه :

عزيزى بارنت :

رأيت من الأفضل أن أعلمك بأنى سأتزوج من « لوسى » على رغم أنى لم أعلن هذا بين أصدقائى نظراً للحداد ، وعلى ذلك ستكون هناك حفلة خاصة ، ولكنى أود أن تشهدها وأن تصحبنا إلى الكنيسة فى الساعة العاشرة . ؟

أخذ بارنت يتلو هذا الخطاب مرة ومرة ، ثم وقف قليلا يفكر فى الأمر

لم يكن هذا الرجل بالواهن العزم ، الضعيف الارادة ؛ بل كان ذا قدرة عظيمة على احتمال الخطوب والصبر على المكاره ، فلم يهن له عزم أمام هذين الخطبين اللذين ألما به فى تلك اللحظة

ولم يكن أحد قد سمع بموت زوجـه ، ولم يرد أن يخبر صديقه « دون » فى ساعة زواجه ، فقام باعداد كل شيء بنفسه ، ولما انتهى من ذلك أسرع إلى الكنيسة فرأى « دون » و « لوسى » ساجدين أمام الهيكل وحولها بعض الناس ، فتقدم إلى « دون » وهنأه ، ثم التفت إلى « لوسى » وهو يتوقع أن يرى فى عينيها بريق الاثم والندم ، ولكنه وجدها مأخوذة بالموقف الجديد ، فهنأها وانصرف ، فقال له « دون » :

— انتظر حتى تصحبنا إلى المنزل

فأجابه بارنت : « لا . لا . لست مستعداً لهذا . سأقف فى الخارج مع الواقفين حتى تركبا العربة الى المنزل — ثم أراقب ذلك الشعور الذى يغمرنى عندئذ . فضحك الزوجان ثم ابتسم بارنت وخرج

فلما انتهت الحفلة وركب الزوجان وانصرف المدعوون مضى بارنت فى خطى متعثرة وفكر شارد الى مدافن البلدة وهناك انحنى على قبر زوجه يرفه عن نفسـه بالبكاء ثم عاد الى منزله وقد عزم على أمر عظيم

فلما استقر به المكان أرسل جملة رسائل إلى شركائه ثم دعا أحد المحامين وهو صديق قديم لوالده وطلب إليه أن يبيع له جميع أملاكه وأن يرسل اليه ثمنها

وفى اليوم التالى كان بارنت فى طريقه الى حيث تقوده قدمه

لكنه قبل أن يغادر البلدة أرسل إلى صديقه « دون » ينبئه بموت زوجه فى الساعة التى وافاه فيها خطابه الذى يعلمه فيه بزواجه من « لوسى »

***

إن عشرين عاماً لا تمضى دون أن تترك أثراً فى الصخر الجلمود أو المعدن الصلب ، ولكن هذه المدة وإن بدت طويلة فى عمر الانسان لا تذكر بجانب عمر الانسانية ، ولا تترك فيها شيئاً

وأخيراً بعد عشرين عاماً عاد بارنت إلى موطنه الأول الذى لا يحول عنه ولا يتحول . فرأى وجوهاً غريبـة ومعالم جديدة ، ومضى يسأل عن شريكه القديم السيد « واتكنز » . فصادف ابنه فسأله عن والده فقال له الابن : « لقد مات أبى من مدة »

— آه يؤسفنى أن أسمع هـذا — لقد تركت هذه البلدة من زمن بعيد

— ولكن هل الشركة قائمة للآن ؟

— أجل إنها لا تزال قائمة ، ولكن أسـقط منها اسم بارنت . ذلك الاسم الخيالى الذى لا أعتقد أن صاحبه قد عاش بيننا وساهم فى هذه الشركة

— ألا يزال « أندروجون » يعمل مهنـدساً للشركة ؟

— أوه ! لقد مات يا سيدى

— وكيف حال قسيس كنيسة القديسة مارى مستر « مدروز » ؟

— لقد توفاه الله منذ سنوات عديدة

فصمت بارنت برهة وقال : « كيف حال مستر « دون » المحامى ألا يزال يعمل فى المحاماة »

— لا يا سيدى ، لقد مات منذ سبع سنوات

فصمت بارنت ثانية ، وشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه ثم قال : « وهل مسز دون لا تزال على قيد الحياة ؟ » قال هذا وهو يكاد يقضم شـفتيه بأسنانه

— نعم إنها لا تزال حية وتقيم فى المنزل القديم

— مع أطفالها طبعاً

— لا — ليس لها أطفال — إلا بنات زوجها « دون » من زوجه الأولى ، وقد تزوجن كلهن فهى تعيش الآن وحيدة

— وحيدة ؟

— نعم يا سيدى وحيدة

فشكره الرجل وانصرف ، ومضى إلى الفندق فتناول غداءه ثم ارتدى ملابسه وحلق ذقنه وخرج إلى بيت لوسى كما كان يفعل قبل ذلك بعشرين عاماً

فلما وصل إلى الدار وجد نوراً ضئيلاً ينبعث من إحدى الغرف ، والسكون يخيم على المنزل فدنا من الباب وقرعه فأسرع الخادم وفتحه وقال : « ما اسمك يا سيدى ؟ »

— صديق قديم

فمضى الخادم وأخبر سيدته بذلك . فقالت له : « ماذا يشبه ؟ »

فأجابها الخادم . « إنه رجل قد وخط الشيب فوديه »

فنهضت المرأة التى كانت يوماً ما الفتاة «لوسى» وقد ذبلت الوردتان اللتان كانتا على خديها وعرف الشيب طريقه إلى شعرها . ولكن عينيها لم تفقدا سحرها وقوتهما ولم تستطع العشرون عاماً أن تذهب بكل ذلك الجمال وذلك السحر

— ألا تعرفيننى يا لوسى ؟

— لقد عرفتك منذ رأيتك — إنى لا أعرف لماذا كنت أفكر دائماً فى عودتك — لقد قالوا إنك مت ، ولكن لم أصدق قولهم

— آه لقد مضى زمن طويل على لقائنا الأخير

— نعم . ماذا رأيت فى طوافك بجانب ما رأيت فى هذا المكان المنعزل . إنك تعرف أن زوجى قد مات منذ أمد بعيد وأنى أعيش وحيدة الآن اللهم إلا بعض زيارات من بنات زوجى مستر « دون »

— وقد أصبحت أنا شيخاً وحيداً

— أين قضيت هذه المدة الطويلة ؟ ولماذا اختفيت عنا فجأة ؟

— حسن يا لوسى ، لقد أقمت مدة فى أمريكا وزمناً فى استراليا . وسنوات فى الهند ، وفترة فى جنوب إفريقيا ، وهكذا فلم أمكث فى مكان واحد كما ترين

أما لماذا اختفيت فجأة فأنت تعرفين السبب . ألم تفكرى مرة ؟

— لا — لم أفكر — ولا أى واحد آخر قد فكر فى هذا

— حسن . فكرى الآن . ثم انظرى إلىّ وأخبرينى إن كنت لا تعرفين

فنظرت إليه لوسى فى ابتسامة رقيقة وقالت : « أظن أنه ليس من أجلى »

فهز الرجل رأسه وابتسم ابتسامة حزينة فقالت :

— ألأنى تزوجت « دون » ؟

— نعم ، وفى اليوم الذى أصبحت فيه حراً لأن أطلب يدك . إذ ماتت زوجى قبل ذهابك مع « دون » الى الكنيسة بعشر ساعات ، ولقد ذهبت إليكما عقب فراغى من الدفن

فألقت عليه لوسى نظرة كلها حب وعطف وقالت : « لم أفكر فى هذا ، ولكنى أعرف أنك أظهرت لى بعض الشعور الطيب مرة ؛ ثم إنى لم أتزوج إلاّ وأنا أعتقد أن زوجك لا تزال حية . أظنك فى حاجة الى الشاى . لقد اعتدت أن أشرب الشاى

بدلاً من العشاء منذ وفاة زوجى فهل تسمح وتتناوله معى ؟ »

فأظهر الرجل رغبته فى الشاى وسرعان ما أعد لهما . فجلسا يشربان ويتحدثان ثم أخذ بارنت يسرح بصره فى الغرفة وأخيراً قال :

— أرى تغيرا فى نظام الغرفة . ففى مكان « البيان » الآن كان يقوم بعض أوراق الحائط وبها بعض البطاقات والرسائل ، وفى ذلك الركن قرأت ذلك الخطاب الذى أرسله إلى دون منذ عشرين عاماً يعلمنى فيه بزواجه منك . فتركت المنزل ولم أعد اليه إلا الآن

— آه لقد فهمت كل شىء

ثم أوقد المدفأة واستأنفا الحديث ، وأخيراً قال بارنت : « لوسى ! إن بعض الشىء أفضل من لا شىء ، فان كان الوقت قد فات فان ما بقى فيه خير من عدمه . هل تتزوجين منى الآن ؟ »

فتراجعت المرأة مندهشة . ولكنها لم تكن تجهل الموقف تماماً ثم قالت :

— ماذا ؟ إنى لا أتزوجك ولو وهبتنى هذه الدنيا كلها

— حتى بعد هذا ؟

— لو أنى كنت أفكر فى الزواج لفضلتك على سواك ولكنى لا أفكر فيه الآن ولا بعد الآن

— ولكن ألا تغيرين من رأيك هذا ؟

— إنك لا تدرى ماذا تقول . إنى لا أستطيع أن أقول إنه كلام مضحك لأنى أراك تتكلم جاداً ولا أستطيع أن أصف الجد بالمزاح

— أجل إنى جاد . فقد فكرت فى هذا منذ شهرين وأنا فى مدينة « الرأس » لكنى أجد منك إغفاء وصداً . إنى أتكلم جادا

— وإنى أعارض فى أية فكرة فى الزواج

— حسن فلأنصرف ، ما دام الأمر كذلك .

ثم نهض يتأهب للخروج ، فأعانته على لبس معطفه وودعته حتى الباب

فقال لها : أسعدت مساء . أرجو ألا أكون قد أسأت إليك

— لا ، لا ، بل إنى أرجو منك هذا

فابتسم قليلاً وقال : « سأقلب أوجه الرأى وأرى فيما بعد . أسعدت مساء »

ثم راقبته حتى اختفى فى الطريق فعادت الى غرفتها وأوصدت الباب دونها ثم استلقت على فراشها وأخذت تستعيد صور ما حدث منذ لحظة . وكيف تلقى صاحبها ذلك الرفض فى ثبات وهدوء كأنه كان يعتقد أنه لا يستحق إلا هذا . لقد كان رجلاً فى هذا الموقف . بل كان أكثر من رجل . ثم نهضت الى المرآة وأخذت تتطلع فيها فرأت أنها لا تزال تحتفظ بكثير من جمالها القديم . ثم بدا لها رأى جديد

أخذت ترقب عودته يوماً بعد يوم ولكن كبرياءه أبت عليه أن يعود إليها . وقد أخبرها أنه يقيم بالفندق . فلما طال الانتظار ذهبت اليه تسأل عنه فقيل لها إنه غادر المدينة فى الصباح ولم يحتفظ بغرفته

— ألم يترك عنوانه ؟

— لا

فعادت الى منزلها ساهمة مهمومة موطنة العزم على الانتظار

فانتظرته الأيام والسنين ولكنه لم يعد

نظمى خليل

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل الثالث

وكنت أتمشى ذات مساء عند مدخل القرية تحت ظلال الزيزفون فرأيت سيدة فتية تخرج من أحد المساكن المنفردة وكانت مقنعة ومرتدية أثوابا على غاية من البساطة ؛ غير أن قامتها الهيفاء ، وخطراتها الرشيقة استوقفتنى فاتبعتها بنظرى . وعندما وصلت إلى المرج كان هنالك جدى أبيض يرتعى منفرداً فلما رآها قفز لملاقاتها ، فأمرّت يدها على رأسه ، وتلفتت يميناً وشمالاً كأنها تفتش عن أوراق خضراء تقتطفها له ، وكان قربى شجرة من التوت البرى فقطعت منها غصناً ، وتقدمت به نحو الجدى فتقدم هو أيضاً نحوى ولكن بخطوات متمهلة ، حتى إذا دنا من الغصن وقف وجلا ينظر إلى صاحبته كأنه يتوقع صدور أمرها ، فأشارت إليه لتشجعه على الاقدام ، غير أنه لبث خائفاً حتى جاءت ووضعت أناملها على الغصن فاختطفه الجدى من يدى . والتفتت المرأة المجهولة إلىّ مسلمة وسارت فى طريقها

ورجعت إلى البيت ، فدعوت لاريف ووصفت له المسكن المحاط بالحديقة الصغيرة عند مدخل القرية واستفسرت منه عن سكانه ، فقال : إن من يقطنه سيدتان إحداهما عجوز مشهورة بالتقوى والأخرى تدعى مدام بيارسون وهى السيدة التى رأيتها . ولما استعلمت عنها وعما إذا كانت زارت والدى من قبل قال : إنها تعيش منعزلة وإنه قليلا ما رآها عند والدى

ولم استزده إيضاحا ، بل عدت إلى ممشى الزيزفون وجلست على مقعده ، فاقترب الجدى منى يلاطفنى فشعرت بحزن عميق يستولى علىّ ، ونهضت أرسل بصرى على الطريق التى كانت مدام بيارسون قد اتجهت اليها ، ثم اندفعت أتخطاها وأنا ذاهل حتى توغلت فى الجبل

وكانت الساعة الحادية عشرة مساء ، عندما خطر لى أن أعود أدراجى ولكننى رأيت مزرعة قريبة منى فتوجهت إليها لأتناول فيها قدح لبن وقطعة خبز ، وكنت من جهة أخرى شعرت بنقط كبيرة تتساقط من الغمام منذرة بعاصفة شديدة ، فقصدت بيت المزرعة وطرقت بابه ، فما أجابنى أحد بالرغم من وجود نور فيه ، فتقدمت إلى النافذة ، وتطلعت فاذا فى الباحة نار مشبوبة والزارع الذى كنت أعرفه جالس قرب فراشه . وضربت على زجاج النافذة لأناديه فاذا بالباب يفتح فجأة ومدام بيارسون تطل منه سائلة : من الطارق ؟

وما كنت لأتوقع أن أرى هذه السيدة فما خفى عليها اندهاشى

دخلت الغرفة ملتمساً الالتجاء من المطر وإذ كنت أتساءل عن سبب وجود هذه السيدة فى هذا المكان فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، سمعت أنيناً ، فأدرت وجهى نحو مصدره فاذا امرأة الزارع

منطرحة على سريرها ، وقد رسم الموت طابعه على وجهها

وقعدت مدام بيارسون تجاه زوج العليلة وقد انهدم فى جزعه وحزنه ، وأشارت إلىّ بعدم الاتيان بأقل حركة لأن المريضة كانت نائمة ، فأخذت مقعداً وجلست منتظراً مرور العاصفة

وكانت مدام بيارسون تنهض من آن لآخر لقرب فراش المريضة ثم تعود لتقول للزارع بعض كلمات بصوت خافت . وكان أحد أطفال البيت قد اقترب منى فأجلسته على ركبتى ، فقال لى : إن هذه السيدة تجىء كل مساء لعيادة أمه وأنها تمضى الليل عنـدهم بعض الأحيان لأنها كانت تعتنى بالمريضة لعدم وجود راهبات فى هـذه الأنحاء ، وأضاف الولد إلى هذه المعلومات قوله بصوت خفيض : — ليس من ممرضة سواها ولا طبيب عندنا إلا الطبيب الجاهل ... أما هى فتدعى بريجيت الوردية ، أفلا تعرفها ؟

فقلت : لا ولـكن لماذا يلقبونها بالوردية ؟

فقال : لا أدرى ولعلها احتفظت بهذا اللقب منذ كانت بائعة ورود

وكانت مدام بيارسون نزعت قناعها ، ولما نزل الولد عن ركبتى نظرت إليها ، فاذا هى واقفة أمام سرير المريضة تقدم لها كأساً لتشربها وقد انتبهت هذه المريضة من نومها ، وكانت الممرضة شاحبة الوجه ممتقعة اللون ذات شعر أشقر يضرب إلى الرمادى ؛ وما أدرى ما أقول عن جمالها غير أننى حين رأيتها تحدق بعينيها السوداوين بعينى المريضة ، والمريضة تعلق أبصارها بها ، رأيت بين لحظات هذا الاحسان وهذا الامتنان نوعاً من الجمال يقصر عن وصفه كل بيان

واشتد انهمار المطر وغرقت الحقول المقفرة بالظلام تمزقه من حين إلى حين بروق خاطفة تتبعها قعقعة الرعود ، فـكان زئير العاصفة وأزيز الريح وثورة العناصر خارج الـكوخ يزيد رهبة ما فى داخله من صمت خاشع ، فيبدو المشهد أمامى أشد روعة فى قدسيته

وكنت أجيل الطرف فيما حولى على الجدران الحقيرة ، وزجاج النوافذ تقرعه الأمطار ، والضباب الـكثيف تقذفه العاصـفة كالدخان ، فأرى يأس الزارع فى جزعه الجامد ، وزعر الأطفال ، وهذه المدنفة تحاصرها كل هذه العناصر الثائرة الصاخبة ، وأرى قربها على هذا المسرح الفجيع هـذه المرأة المنتصبة بشحوبها ولطفها تذهب وتجىء كأنها تجس الأرض جسا وهى مستغرقة بما تهتم به ، فلا تبالى بالعاصفة ولا بأحد ممن ينظرون إليها حتى كأنها لا تبالى بجرأتها وإقدامها . فـكنت أشعر أن بهذا العمل المبرور من الصفاء فى رصانته ما هو أبهى من صفاء السماء ، وقد انقشعت عنا الغيوم فأنظر إلى هذه المرأة كأنها مخلوق أسمى من البشر لأنها وقد أحاطت بها كل هذه المفجعات لم يداخلها الشك لحظة فى وجود ربها ورحمته

من هى يا ترى هذه المرأة ؟ ومن أين أتت ؟ وهل هى منذ زمن بعيد إذ يذكر الناس أنها كانت بائعة ورود ؟ لماذا لم أسمع بها من قبل ؟ لقد جاءت وحدها إلى هذا الـكوخ فى مثل هذه الساعة فهى إذاً لا تسارع إلا إلى حيث تدعوها المصائب والأخطار ، فتتجول تحت العواصف بين الغابات فى الجبال مقنعة تحمل الحياة لمن يحتاجون إلى الحياة .

وبينما تحمل كأس الدواء للأعلاء لا تنسى أن تلاطف جديها الأبيض فى طريقها

إن هـذه المرأة تسير بخطواتها المتزنة الهادئة لمكافحة الموت ماشية بالخطوات نفسها إلى موتها

هذا ما كانت تفعله هذه المرأة فى هذا الوادى بينما كنت أنا أرتاد قاعات الميسر وأمشى على سبيل الضلال . ولعلها ولدت فى هـذا الوادى وستدفن فى مقبرته بالقرب من لحد أبى المحبوب . فتذهب من الدنيا دون أن يعرفها الناس وهى التى يسألك الأطفال وهم يذكرونها : — أفما تعرف ريجيت الوردية ؟

ليصعب على بيان ما كنت أشعر به ، وقد وقفت فى زاوية لا أبدى حراكا ولا أتنفس إلا مرتجفاً ، ولاح لى أننى إذا تقدمت لمساعدة هذه المرأة فأوفر عليها خطوة من خطواتها ، أرتكب خرقا وألمس بيدى الدنسة آنية مقدسة

ودامت العاصفة ساعتين حتى سكتت ، فأفاقت العليلة وجلست على فراشها وهى تقول إنها تشعر بالراحة ، فقد أفرج عنها بعد أن تناولت الدواء ؛ فتراكد الأطفال إلى أمهم ينظرون إليها ، وقد تمازج فى عيونهم الفرح والاضطراب وأمسكوا برداء مدام بيارسون

وقال الرجل وهو لا يتزحزح من مكانه : كنت أتوقع هذا لأننا عهدنا الى الكاهن بأن يصلى ، وقد كلفنا ذلك كثيراً من المال

وعند ما سمعت هذه الكلمات الدالة على الخشونة والحمق ، التفت الى مدام بيارسون فرأيت من تعب جفوتها ومن التواء قامتها وامتقاع لونها أن التعب والسهر ذهبا بكل قواها . وسمعت العليلة تجاوب زوجها قائلة : جزاك الله خيراً يا زوجى المسكين

ونهضت من مكانى وقد ثار ثائرى لحماقة هؤلاء الناس الذين يعبرون عن امتنانهم للملاك بتوجيه الثناء الى بخل الكاهن . وكنت على وشك تقريعهم على عقهم ومعاملتهم بما يستحقون ، ولكننى رأيت مدام بيارسون ترفع بذراعيها أحد الأطفال لتقدمه الى أمه قائلة له : قبّل أمك فقد زال عنها الخطر

وجمت إذ سمعت هذه الكلمات وتفرست فى وجه هذه المرأة فرأيت عليه أوضح اغتباط تنم عنه روح محسنة كريمة ، وكانت آثار التعب قد زالت عن ملامحها فطفح وجهها بالبشر ورفعت شكرها لله هى أيضاً . إن كل ما كانت تطمح إليه هذه المرضة هو أن تتكلم المدنفة ، أما وهى تتكلم فلتقل ما تشاء …

وبعد برهة طلبت مدام بيارسون من الأولاد أن ينهضوا خادم المزرعة من رقاده ليوصلها إلى بيتها فتقدمت أطلب إليها أن أسير معها حارساً ما دمت ذاهباً فى الطريق نفسها ، وأعلنت لها أننى أعد قبولها شرفاً لى ، فسألتنى : أفأنت أوكتاف ت ؟ فأجبتها : أنا هو ، وسألتها ما إذا كانت تذكر والدى ، واستغربت ابتسامها عند ما أوردت هذا السؤال . ولكنها أخذت بساعدى وخرجنا بسرور إلى الطريق

الفصل الرابع

وكنا نقطع الطريق صامتين ، وسكنت العاصفة فارتعشت الأشجار تنفض عن أغصانها قطرات الأمطار ، وكان لم يزل على الأفق البعيد ومضان

لبقايا البروق وهبت من الأعشاب الرطيبة عبقات نشرها الهواء وقد دبت الحرارة فيه . وانقشعت السحب عن وجه المساء فغمر القمر بأنواره قمم الجبال

وذهب فكرى يتلمس من الصدف أسرارها وقد عجبت لها تجمع فى ساعات بينى وبين امرأة ما كنت لأظن أنها موجودة عند ما أشرقت الشمس ، وهأنذا أصحبها فى طريقها القفر فى العراء تحت جنح الليل

لقد قبلت هذه المرأة أن ترافقنى لوثوقها من شرف محتدى فهى الآن تستند إلى ذراعى وتسير معى مستسلمة مطمئنة

وكنت أرى فى هذه الثقة كثيراً من الجراءة أو كثيراً من السذاجة ، وشعرت أن رفيقتى تجمع بين هذه وتلك لأنها بهذه القوة المزدوجة دفعت بقلبى إلى عاطفة الطهر والافتخار

وبدأ حديثنا يدور على المريضة التى تركنا فى الكوخ ، ثم تحول إلى مشاهد الطريق وما خطر لأحدنا أن يوجه إلى الآخر ما يوجهه المتمارفان حديثاً . وتكلمت مدام بيارسون عن أبى باللهجة نفسها التى ذكرته بها للمرة الأولى أى بلهجة فيها شىء من السرور الرصين ، فبدأت أفهم كلما توغلت فى الحديث معها سبب تكلمها بهذه اللهجة لا عن الموت فحسب بل أيضاً عن الحياة وما فيها من حوادث وآلام ، فأدركت أن ليس فى الأرض من ألم تراه مبعثاً للشكوى من الله ، لذلك كان ابتسامها عبادة وتسليما لارادته

وحدثتها عن حياة العزلة التى اخترتها فقالت إن عمتها كانت تجتمع بوالدى أكثر مما كان يتسنى لها أن تجتمع به هى ، لأن عمتها كانت تلعب وإياه بالورق فى السهرات ، وأخيراً دعتنى إلى زيارتها

وعند ما وصلنا إلى منتصف الطريق أحست بالاعياء فجلست على مقعد كانت وقته الأغصان الغضة بلل الأمطار ، فوقفت أمامها أنظر إلى أشعة القمر الباهتة تنير جبينها ، وبعد دقائق نهضت وإذ رأتنى ذاهلاً قالت : فيماذا تفكر ؟ أفما آن لنا أن نستأنف السير ؟

— كنت أفكر فى الغاية التى خلقك الله لها فأدركت أنه أوجدك رحمة للعالمين

— إنها لكلمة لا أحملها منك إلا على محمل الاطراء

— ولماذا ؟

— لأنه يلوح لى أنك لم تزل فى ريعان العمر

— أفليس فى العالم من بلغوا من العمر أكثر ما تدل سيماؤهم عليه ؟

— لقد يكون ذلك كما أنه يمكن للانسان أن يأتى بأقوال أنضج منه

— أفما تعتقدين بالاختبار ؟

— إن ما أعرفه عنه هو أن أكثر الناس يطلقون اسمه على أحزانهم أو على أعمالهم الجنونية فما هو مبلغ المعرفة التى يتوصل إليها من كان فى سنك ؟

— ربّ رجل فى العشرين رأى من الدهر ما لم تره امرأة فى الثلاثين ، فان ما يتمتع به الرجال من الحرية يصل بهم إلى صميم الحياة بأسرع مما تصل النساء . فالرجال يتهافتون على ما يجتذبهم دون حائل فيختبرون كل الأمور . فاذا ما لاح لهم أمل مشوا إليه ، حتى إذا بلغوه ارتدوا عنه تاركين الأمل

مضيماً على الطريق ، وقد خدعتهم السعادة بما منتهم من مواعيد

وكنت أسير فى كلامى على هـذا النمط حتى بلغنا أكمة ينحدر الطريق منها إلى الوادى ، وكأن الانحدار استهوى رفيقتى فبـدأت تقفز برشاقة جاريتها وسرنا ركضا وساعدانا مشتبكان والعشب المبتل تحت أرجلنا يزيد فى انزلاقنا ، وهكذا انحدرنا كطيرين أصابهما الدوار حتى بلغنا قاعدة الأكمة

وقالت : لقـد كنت متعبة فزال تعبى الآن ، فهلا عالجت اختباراتك بما أعالج به تعبى . . . . لقد سرنا بسرعة فسنتناول الطعام بشهية

الفصل الخامس

وذهبت لزيارتها فى اليوم التالى فوجدتها جالسة إلى البيانو ، ورأيت العمة الشيخة قرب النافذة منهمكة فى الحياكة ، وكانت الغرفة الصغيرة مليئة بالأزهار وشعاع الشمس يغمر العرائش المحيطة بها حيث نصب قفص كبير تتطاير فيه العصافير

وكنت أتوقع أن أرى زاهدة عابدة أو على الأقل امرأة قروية لا علم لها بشىء مما يجرى وراء منطقة ضاحيتها ولا تحيد عن عادات محيطها . وقد كنت أنظر إلى من يعيشون منعزلين كأنهم يختفون عن الناس هنا وهنالك فى المدن بشىء من الحذر كأننى أرى فيهم بئرا آسنة فسد فيها الهواء ؛ فان فى كل ما يتلفع بالنسيان على الأرض شيئاً من الموت . غير أننى رأيت على مكتب مدام بيارسون جرائد ومجلات حديثة كانت ترصد لها ما يتبقى لديها من الوقت ، وقد كان كل ماحولها من الرياش وما تلبسه من ثياب يدل على التجديد فى الزى والحياة ؛ أما هى فكانت تتمتع بكل ذلك وكأنها منسلخة عما حولها .

وقد استرعى انتباهى ما فى ذوقها من التناسق الذى يند عن كل مستغرب ، فلا تأنس إلا للجدة والحسن ؛ وكان حديثهـا يدل على علم مستكمل ، فما كانت تتناول موضوعا دون الاجادة فيه ، فكنت أحس بأن وراء هذه السذاجة غورا مليئاً بالكنوز وأن ذكاء طليقا وافرا يرف فوق قلبهـا الهادئ فى عزلتها ، فكأن هـذا الذكاء طير من أطيار السواحل يتعالى إلى السحاب مرفرفا فوق طحلب الصخور حيث ابتنى عشه .

ودار حديثنا حول الأدب والموسيقى وكدنا نتناول السياسة ، وكانت قد ذهبت فى الشتاء إلى باريس وما كانت تتصل بالمجتمع إلا فى فترات متقطعة ، غير أن القليل الذى كانت تشاهده كان يكفيها لفتح مجال وسيع أمام تفكيرها .

وكان خير ما يجملها سرور هادئ لا يصـل إلى المرح الذى يثب وثبا ، فكأنها خلقت زهرة عبيرها السرور .

ويعجز بيانى عن وصف ما كانت تفعل عيناها السوداوان وهما تلتمعان على صفحة وجهها الشاحب . ومما كان يزيد فى بهائها سكنات وحركات تأتى بها عفوا فتدل على أنها عركت الدهر وبلت الحياة

وما أدرى أية قوة كانت تملن أن السرور الكامل لجبين هذه المرأة لم يأتها من هـذا العالم ، بل أنزل عليها من السماء وأنها ستعود بهذا السرور كاملاً إلى الله بالرغم عن الناس . فكانت هذه المرأة تتجلى لى فى بعض اللحظات كحاملة قبس تتنسم هبوب الريح لتقى النور المشع فى يدها

وما أمضيت ساعة فى الغرفة الصغيرة حتى اندفعت أحدث صاحبتها عن كل سرائرى ذاكرا حياتى الماضية وما تركت لى من أصحاب وما تحملت منها من الأحزان ؛ وكنت أتمشى فى الغرفة ، فتارة أنحنى على الأزهار أنشق عبيرها وتارة أرفع رأسى إلى السماء محدقا بالشمس ، ثم تقدمت إلى مدام بيارسون أخيراً ورجوتها أن تسمعنى إنشادها ، فما ترددت وبدأت تنشد ، فذهبت إلى النافذة لأتطلع إلى الطيور بينما أتنصت إلى الانشاد . وخطرت على بالى كلمة لوبتان وهى : (لا أحب الحزن ولا أحترمه بالرغم من إجماع الناس على تمجيده ، فما الحزن إلا كلمة حمقاء جملها الناس حلية للحكمة والفضيلة)

وسمعت صوتى يتعالى بالرغم منى قائلاً : يا للسعادة ويا للراحة والمسرة والسلوان !

فرفعت العمة رأسها ونظرت إلىّ نظرة استغراب وتوقفت مدام بيارسون فجأة عن الانشاد ، فملا احمرار الخجل جبينى إذ شعرت بما أتيت من جنون ، فارتميت على المقعد صامتاً

ثم نزلت وإياها إلى الحديقة ، فرأيت هنالك الجدى الأبيض راقداً على العشب ؛ ولما رآنا هب نحوها ومشى ليتبعنا ، وما قطعنا أول ممشى فى الحديقة حتى لاح لنا قرب المدخل شاب طويل القامة شاحب الوجه ملتف برداء أسود ، فاجتاز الحاجز دون أن يقرع الجرس وتقدم إلى مدام بيارسون مسلماً ، ولحظت أن غمامة سوداء مرت على ملامح هذا الرجل عند ما رآنى ، وقد تشاءمت أنا لمرآه ؛ وكان القادم كاهناً يدعى مركانسون ، كنت شاهدته فى القرية وهو من خريجى سان سولبيس ومن أنسباء الكاهن خادم الرعية

وكان هذا الرجل سميناشاحب اللون وما كنت حياتى إلا مستقبحاً هذا النوع من الصحة العليلة ؛ وكان هذا الرجل فضلاً عن هذا التناقض فى شخصه يتكلم بلهجة تدل على الادعاء ، فكان يورد ألفاظه متوثبة متمهلة ، وكان فى مشيته شىء من التصنع المتثاقل زاد فى نفورى منه ؛ أما نظراته فلا يسعنى أن أقول عنها إنها نظرات لأنها ما كانت لتعنى شيئاً

ذلك كان حكمى على هذا الرجل من ملامحه ، وما كذبت الأيام فراستى فيه ، وا أسفاه ...

جلس هذا الرجل على مقعد وبدأ بالتحدث عن باريس ، وكان يدعوها بابل العصر ، فقال إنه جاء منها وهو يعرف جميع من فيها ، وأنه كان يتردد على مدام ب وهى ملاك كريم ، فيقوم بالوعظ والارشاد فى قاعتها الكبرى حيث كان الناس يأتون زرافات ليصغوا إلى أقواله وهم ساجدون . (وما كان الذى يقوله هذا الرجل كذبا ويا للأسف)

وذهب فى حديثه فقال إن من عرفه إلى هذا البيت الكريم إنما كان أحد زملائه ؛ غير أن هذا الزميل كان قد أغوى فتاة ، فطرد من المدرسة لهذا الجرم الشنيع

ثم انقلب هذا المحدث يكيل الثناء لمدام بيارسون لما تتصف به من حب الخير وما تأتيه من أعمال البر بالاعتناء بالمرضى والسهر عليهم بنفسها قائلاً : إنها لأعمال جليلة لن أغفل عن ذكرها فى سان سولبيس

فكأنه كان يقول إنه لن يغفل ذكر هذه الأعمال عند أقدام عرش الله

وكنت تعبت من سماع هذا الخطاب فاستلقيت على العشب وبدأت أداعب الجدى الأبيض ، فأنزل مركانسون نظره المنطقى على قائلاً : لقد كان فارينو الشهير يحب أن ينطرح على العشب ويداعب الحيوانات

فقلت : هذا نوع من الهوس الطاهر ياحضرة القس ؛ ولو أن هوس الناس كله من هذا النوع لكانت الأمور تجرى مجراها ولا تحتاج لتدخل أحد فيها

وما أعجبه جوابي فقطب جبينه وغير الحديث قائلاً إنه موفد من قبل كاهن القرية ليحدث مدام بيارسون عن رجل فقير لا يملك ما يقتات به ، وبعد أن دل على مسكن الرجل قال إنه يؤمل أن تهتم السيدة الفاضلة بأمره

وكنت أتوقع أن تتكلم هى ليزيل صوتها أثر صوت الكاهن الأبح من أذنى ، فما أبدت جوابا بل انحنت مسلمة ، فنهض الكاهن وذهب فى سبيله

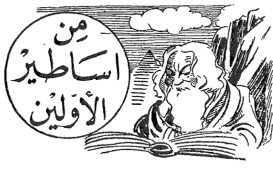
وما توارى حتى عاودنا الحبور ، فدعتنى للذهاب معها إلى حجرة النبات فى طرف الحديقة ، وكانت هذه السيدة تعتنى بأزهارها عنايتها بالأطيار والفلاحين ، لأنها كانت تود أن ترى كل شىء حولها متمتعاً بالصحة فلا يحرم أحد أو شىء قطرة الماء وشعاع الشمس ، فما كانت تشعر بالسعادة إلا إذا بلغت ما يريده الملاك الكامن فيها

وكانت حجرة أزهارها على غاية من الجمال ، وبعد أن مررنا بها قالت : هذه هى مملكتى الصغيرة وقد رأيت كل ما فيها لأن هنا آخر حدودها

فقلت لها : لقد تذرعت باسم والدى لدخول هذه المملكة فاسمحى لى باسمه أيضاً أن أعود لأومن بالسعادة وأتأكد أنها لم تدفع بى إلى زاوية النسيان

مدت يدها إلى فلمستها دون أن أجسر على رفعها إلى شفتى ، وأمسى المساء فعدت إلى مسكنى ؛ وعند ما أوصدت بابى واستلقيت على فراشى لاح البيت الأبيض الصغير أمام عينى ، فكنت أرانى أخترق القرية متجهاً إلى الحاجز لأقرع بابه . وهتفت قائلاً : تبارك الله ، يا قلبى ، فانك لم تزل فتيا ويمكنك أن تحيا ويمكنك أن تحب بعد

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصل السابق

« شرع أودسيوس يروى قصته للملك ألكينوس ، فذكر كيف أقلعت سفائنه بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها ، وكيف أرسلت في مياه إزماروس ، وذكر ما كان من غزوته لهذه المدينة ونهبه لها ، وكيف كر أهلها عليهم فأوقعوا بهم ... وما كان من إبحاره ، ورسوه عند جزيرة اللوتوفاجى ، أكلة اللوتس ، وما كان من مشاركة بعض رجاله أهل الجزيرة فى أكل هذا اللوتس العجيب ونسيانهم بذلك أوطانهم ، وتفضيلهم الاقامة بين اللوتوفاجى ، حتى اضطر أن يذهب إليهم بنفسه ، ويرغمهم على العود إلى الأسطول مكبلين فى الأصفاد ... ثم روى ما حدث له بعد هذا فى أرض المردة — وكيف حبسهم السيكلوب فى كهفه ، وكيف كان يغتذى ويتعشى باثنين اثنين من رجاله ، وما دبروا له من قلع عينه بجذع الزيتونة المحمى فى النار ، وما كان من هربهم معلقين ببطون الكباش مفلتين من أذى السيكلوب ، وما كان من إغاظة أوديسيوس له وهو واقف يتشفى منه فى سفينته فى عرض البحر ... وهو هنا يتم قصته ... »

أودسيوس يروى قصته

ا — إيولوس وجعبة الرياح الأربع
ب — فى جزيرة الجبابرة
ج — غرام سـيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هپوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وأواذيها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فئ وارف من حب الملكة ، فى بُلَهْنية ورَغد ، وعيش واسع مُخَفْرج ، ونُعمى طائلة ، ولذائذ شتى . . . يقضون وقتهم فى لهو برىء ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضوعة ، وزرابى مبثوثة . . . وأرائك من حرير

ولقد لقينا الملك بالبشر والايناس ، وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألنى فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت فى أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذاك العباب ، عاشين ، ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ما ييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسَدٍ ، خُيل إلى أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع چوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلكٍ فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا باذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس — رب النسيم الحلو — فملأ شراعنا ،

وهب رخاء بين أيدينا ... واأسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرّخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة رجالى ، سدى !! ... فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثا كا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مواطنىّ الأعزاء يوقدون النار فى شعاف الجبال ... بَيد أنى كنت منهوكا موهوناً من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سِنةٌ من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الونى ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىّ إيولوس الملك ... قال قائلهم : « يا للآلهة !! أبداً ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مُكبرين ! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طُرَفها وسلبها الجم الكثير ... أما نحن فوا أسفاه علينا ! لقد شاركناه تلك الرحلة المشئومة ، وهانحن نرضى من الغنيمة بالأياب ، ونعود منها أصفار الأيدى ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح ، إيولوس العظيم ؛ هلموا يا رفاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولهى ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... واحسرتاه ! لقد انطلقت الرياح الحبيسة ، وزمجرت العواصف الهوج من كل صوب ، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثا كا !! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى تَخَيِّل لى أن طوفاناً قد غمرنا ! ... وظللت برهة فى ذهول ودهش ، وطفت الأحزان على قلبى ، ورانت الهموم على نفسى ، وفت اليأس فى عضدى ... ولكننى لم أجد من الصبر بدآ ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شف ، وانبطحت فى قمرتى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة ، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى ... وهنالك بكى صحبى ... ولات حين بكاء !! وهبطنا الشاطئ ، وكان همنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء الصون ، وأبناؤه الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى فحدجنا وقال : « ويك أودسيوس فيم عدت أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلاقى آلك ؟ أو أى آلٍ آخرين ؟! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك ! لقد خاننى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فاذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو ما يزال صاحب الحوْل والطوْل ! » ... وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا الملك مرة أخرى ... وقد تلبّث أبناؤه صامتين لا ينبسون ... واكفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق ... إغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من

السماء ! » . وهكذا طردنى الملك شر طردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا ندرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم . . . والتى (تغزو الحشرات مروجها نهاراً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فاذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون قد غلبه النعاس)[1] .. وصلنا الى هذه المدينة فألفيناها محصنة بصور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا الى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، لا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فألقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت الى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظرى فى الجزيرة . . . ولم أقف لأنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة الى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك أنتيپاس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من الفزع وكانت هذه هى الملكة ، التى صاحت عند ما لمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه . . . كأنما أقبل ليخوض معمعة . . . ؛ وانطلق الآخران لا يلويان على شىء ؛ حتى بلغا سفائننا . . . ثم زمجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردة جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم . . . ثم تهاووا الى الشاطئ حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كعصف مأكول ء وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى الى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بها الى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم .. وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية .. وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى الى جانبى ، فأسرعت الى حبال المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى الى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم . . . وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التى كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت . . وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تعتلج قلوبنا هماً وأسى على إخواننا ... ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ،

[1] كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك اتكلنا فى إبانته على شرح مترجميه

حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرماني ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها پرس ابنة أوشيانوس[1] . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا في جون هادئ ساكن في غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا الى الساحل فتلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين وجهد ، وكانا فرائس لما في أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إني تسلحت برمحي وسيفي وحثثت خطاى في أسناد الجبل حتى كنت في ذراه الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت في البعد دخاناً يتصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس . وبدا لي أن أتوجه إليه من فوري عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجي الى السفينة لأرسل نفرا من رجالي يكشفون لي الطريق الى القصر ؛ وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة بظبي غرير شرد من المرج المعشب الحلو ليستقي مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه رمحي فقصم ظهره ، وسقط يتخبط في دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله واحتملته على ظهري ، ومضيت قدماً الى رفاق متوكئاً في كل خطوة على رمحي إذ لم تمد شيخوختي تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالي في مرح وظرف : « هلموا يا رفاق فلن نقضي قبل أن يحين آجالنا ! ! هلموا الى ظبي فنيق وخمر عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق .. » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يستهولون من جذل هذا القنص الغريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطئ نغط في سبات هادئ . . . وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالي ، فهبوا ، ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : « أيها الرفاق ! يا إخوان الشدائد ! ها نحن قد لصقنا بهذه الأرض ولسنا ندري أيان نذهب ؟ هل نشرق ، أم نغرب أم نظل هنا أبد الدهر ؟ ! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا مخاصاً مما نحن فيه . . . فاني حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف في أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى الى مدى البصر ؛ ثم إني آنست دخاناً يعلو في الجو من وسطها ، ينبثق من سروات طوال فيها ، فَرَوْا لأنفسكم أثابكم الله ! » — وكأنما سقط في أيديهم ، وكأنما حاقت بهم ذكريات آنتيپاتاس وقومه اللستريجون ؛ وما لقوا من هول السيكلاب أكلة اللحم البشرى ، فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يجدي البكاء .. ثم إني قسمتهم فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قِرْن الآلهة ، وجعلت نفسي على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع : من يذهب لارتياد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع في خوذتي ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، وتحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعا مما وجهوا اليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعا بدمع وبكاءً ببكاء . . . ووجدوا قصر سيرس في بطيحة[1] منخفضة ، فماذا رأوا ؟! قصر منيف مُمَرَّد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية ... ولم تؤذهم تلك الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخلفية في دل وتلطف ، ثم تبصبص بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء

(١) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتناها كما هي

(١) الأرض المتسعة

حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات ... وصعقوا أول الأمر ؛ ثم انطلقوا حتى كانوا تلقاء باب الربة صاحبة المكان ... وتسمعوا ، فاذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى تعمل على نولهـا ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جأشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هـذا الغناء الحلو تردده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها ، ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنـات حواء .. وعلى كل هلموا نهتف بها . » وتنادَوْا ، وأقبلت سـيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا .. فدخلوا ، وآسفاه ، إلا يوريلوخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ولقد قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جىء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ما سلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا وروَوْا ، واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبـابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز[1] الكلابى . وما إلى هـذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة

وأقبـل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فمـا يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلاً فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسـط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أو ربة — لا أدرى — وهى لا تفتأ تعمل على منسج بخفة وصنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت تلقيتهم بالبشر وفتحت لهم بابها على مصراعيه فدخلوا جميعاً — حاشاى — فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركانوشـك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالنى ألا أراهم فجأة !! » وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سـيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ولـكنه ركع أمامى وتعلق بساق وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا تذهب .. « فانك لن تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق بمن بقى منا ، ويا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولـكنى أجبته أن له أن يبقى هو يأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى

وانطلقت لا ألوى على شىء ، ولـكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إلـه العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا وبداوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ، لقينى فصافحنى متلطفاً وقال : «أيها التعس أيان تضطرب وحدك فى هذه الأرض وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولـكن اصغ إلى ؛ إنى

(١) الكريز : وجمعه الكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الكريز

سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خُـذ هذا العقار[1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فانه ينقذك من كل خطر ... وهلم أعلمك ما عندها من السحر ، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بمـا عندها من رجس ، وستضع لك منه في طعام تقدمه لك فـكلْ وارْوَ ولا تبالِ ، فهذه البقلة العجيبة التي أعطيتك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسْخِـك كمن مسَخت من رفاقك ... فاذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فانها حينذاك تنقاد لك ، وتقودك إلى فراشها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فاياك أن تنصاع لهـا حتى تعطيك موثقها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى ، واحذر ياصاح أن تدنس فضل خيرك بمـا ركب في طبعها من شر . » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها في يدي وأخذ يكشف لي أسرارها ويقفني على قواها الخارقة . وذكر لي أن اسمها (مولى) ، وبه يدعونها في السماء وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقَى السحر ... وكانت جذورها سوداً حالـكة السواد أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . وودعني هرمز ، ثم رفّ ورفّ ، وعرج في السماء . وانطلقت أنا أخبط في ظلمات من هواجسي حتى كنت لدى باب ربة السحر التي وجدتها تعمل كما ذكر لي صاحبي على نولهـا . . . وصحت صيحة عاليـة ، فأقبلت تتهادى نحوي وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتني ، فدلفت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضي ، ذي درج ، فاستويت عليه ، وذهبت هي فمزجت لي كأساً من الخمر بشيء من عقارها ، وقدمته لي فاحتسيته ، بيد أنني لم أتغير ولم أتحول عن صورتي ، فضربتني بعصاها السحرية وهي تقول : «هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع رفاقك» ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدي وامتشقت سيفي ، وهجمت عليها ، وفي عيني جحيمان من نار الغضب ؛ فروّعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالاً عظيما ، وجرت نحوي ، وركعت عنـد قدمي ، وتعلقت بساقي ، وأخذت تضرع إلي وتقول في بيان رائع وكلمات باكية : «عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعتي الهائلة التي لم يذقها أحد وظل في صورته لحظة واحـدة ! ولـكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر . . . ولـكن هلم . . . تعال . . . إليّ إليّ أعرفك أحسن المعرفة . . . إنما أنت أوديسيوس الصناع ذو الذِّكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرني بمجيئك ! ولـكن اغمد سيفك ، وهلم ننعم بالعناق فوق فراشي الوثير كزوجين ، وليفرخ روعك وليهدأ بالك .. اطمئن يا أوديسيوس هلم ! » وصمتت لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعي ويهدأ بالي وقد حبست في رحابك رفاقي وشركاء رحلتي بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؛ ثم تخشين إفلاتي فتخادعينني وتبهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياي إلى فراشك لتشوبي صفاء فضيلتي برجس رذيلتك ... لا ...لا ، إني لن أقاسمك هذا الفراش حتى تقاسميني أغلظ الأقسام ألا تلحقي بي أذى ، وألا تحاولي الاضرار بي » وراحت تحلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ في القسم ، ثم إني انطرحت

(١) واحد العقاقير

فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، خطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت الكراسى ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد — أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب ، حتى انتعش جسمى الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة ... ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أنذر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير ، ومطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعا قدمى على درج من لباد ناعم .... وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضة ، وجاءت عائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامى ، لكننى ما مددت إلى شىء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ، وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس ، وأخذت تلاطفنى وتقول : « ما لك تجلس ساكناً هكذا يا أوديسيوس كالذى غشى عليه ما تكاد تمتد يدك إلى شىء ، كأن ألف وسواس يخامرك ؟ أما تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟! ألاما أكبر غفلتك يا صاح ، إطمئن ، فلقد أعطيتك موثق وحلفت لك بأغلظ الايمان ! » وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدى إلى طعام أو شراب ورفاق ما يزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى تردبهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاق ، وكانوا ما يزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبىء كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الجبال ، وعد إلى فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاق الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البهم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدلت دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فىّ وطنهم النائى المحبوب إيثاكا ، حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولاً نجر مركبنا على هذا السيف الهادىء المطمئن ولنخبىء أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أمنة وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » . وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس ، فقد سمر مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين الى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً الى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل الى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس

أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا المسيكلوب من أجل أطماع رئيسنا الطياش[1] ! » وأوشكت أضرب رأسه بجرازى ، فيخر الى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكنا ، أما نحن فراحلون معك الى قصر سيرس ، ولو كان مِلْئه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطئ ، وانخرط يوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتى المتأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك ، فانها أدخلت رفاقى الى حمّامها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون ، ثم جلسوا يستمعون الى قصة ما حل باخوانهم ، وهم يصعدون زفرات الحزن ، ترددها قباب القصر . ونهضت سيرس فوجهت الى الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفه رجالك عن أنفسهم ، ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن ، ولترقأ دموعهم جميعاً ... إنى لا أجهل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادح فى كل أرض ، بما كتب لهم فى لوح القضاء ... ولكن ، تعالوا جميعاً ... أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثاكا العزيزة . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فانها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » ، ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ، فدعانى رجالى إلى جلسةٍ خارج القصر فقالوا لى : « تذكر يا مولانا وطننا الأول ، فاننا نحن إليه ، ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً ، فتلبثنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بلهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها ، ثم قلت لها فى رجاء وظرف : « سيرس يا ربة ! حبذا لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمةً بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قلبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفكر ، إنى لن أقرك على البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك ، ولكنك قبل أن تفكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحلة شاقة بعيدة المدى ... إلى هيدز[1] ... دار بلوتو[2] وبرسفونيه ... حيث تلقى النبى الصدّيق الصالح تيرزياس ، الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة ، والذى يثوى فى رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرّف[3] لك عما يهمك ويقفك على ما ينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى احلولكت الدنيا فى عينى وتدفقت الهموم فى نفسى ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها : « أنى لى يا ربة أن أذهب الى هيدز ؟ ومنذا الذى

(١) الطائش

(١) النار الآخرة
(٢) إله الموتى وزوجه
(٣) يتكهن — من العرافة بالكسر

يحدونى اليها ، ولم يسبقنى اليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت تجيبنى : يا سليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك الى هيدز من دليل . بل هلم الى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصَّبا سَجْسَجاً فَتُدَهْدِيكم رويدا ، فاذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ النز(١) الذى تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونيه ، فادفعوا إليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا الى مثوى پلوتو السحيق الذى يبتدئ عند الصخرة الهائلة التى تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون وستيكس وكوكيتوس فاركوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عندها حفرة ذراعا فى ذراع ، ثم صبوا فى جهتها الأولى قربانا من لبن وعسل ، وفى الثانية خمرا معتقة من أحسن ما تعصرون ، وفى الثالثة ماء قراحا ، فاذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبحوا — يوم تعودون الى إيثاكا سالمين — عجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشا سموريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا فاذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم ، فاذبحوا فى الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ فاذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا الى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كيما تهدأ نفسا پلوتو وزوجته پرسفونيه ، ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحياتكم ، وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما فليقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم فى هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج » وسكتت ، وانبلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف ، وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، وا كتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت الى رفاقى فأيقظتهم وحثثتهم على الابحار من توّنا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد ، بل كان كل همه فى كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يعى شيئا . وكان اسمه البنور ، وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر وقد أفزعه ماسمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخمورا متخاذلاً وساقته قدماه الى حافة السطح فزلت قدماه ، وسقط إلى الأرض ، ودق عنقه ، فسبقت روحه الى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم : أتظنون أنا مبحرون الى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة الى هيدز ، حيث ينبغى أن نلقى تيرزياس النبى الصالح ليُعَرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » ، وخفقت قلوب إخوانى ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أنلا شىء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا مايزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم ... وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيماً ونعجةً سمّورية ... وإن كنا لم نرها قط ، ومنذا الذى تستطيع عيناه أن ترياربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هى أن تكشف نفسها ؟ »

(يتبع) دريني خشبه

(١) الذى ينز الماء مصدر استعمل صفة oozy

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

FIN

DU

DOCUMENT

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة: تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة: تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

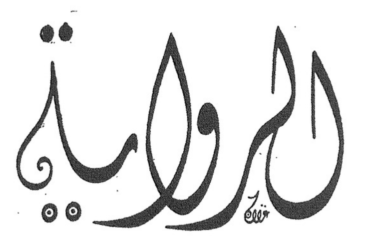
الرسالة: تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة: تسجل ظواهر التجديد فى الآداب العربية

الرسالة: تحيي فى النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسى رقم ٩ بالقاهرة



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1937

Volume 1